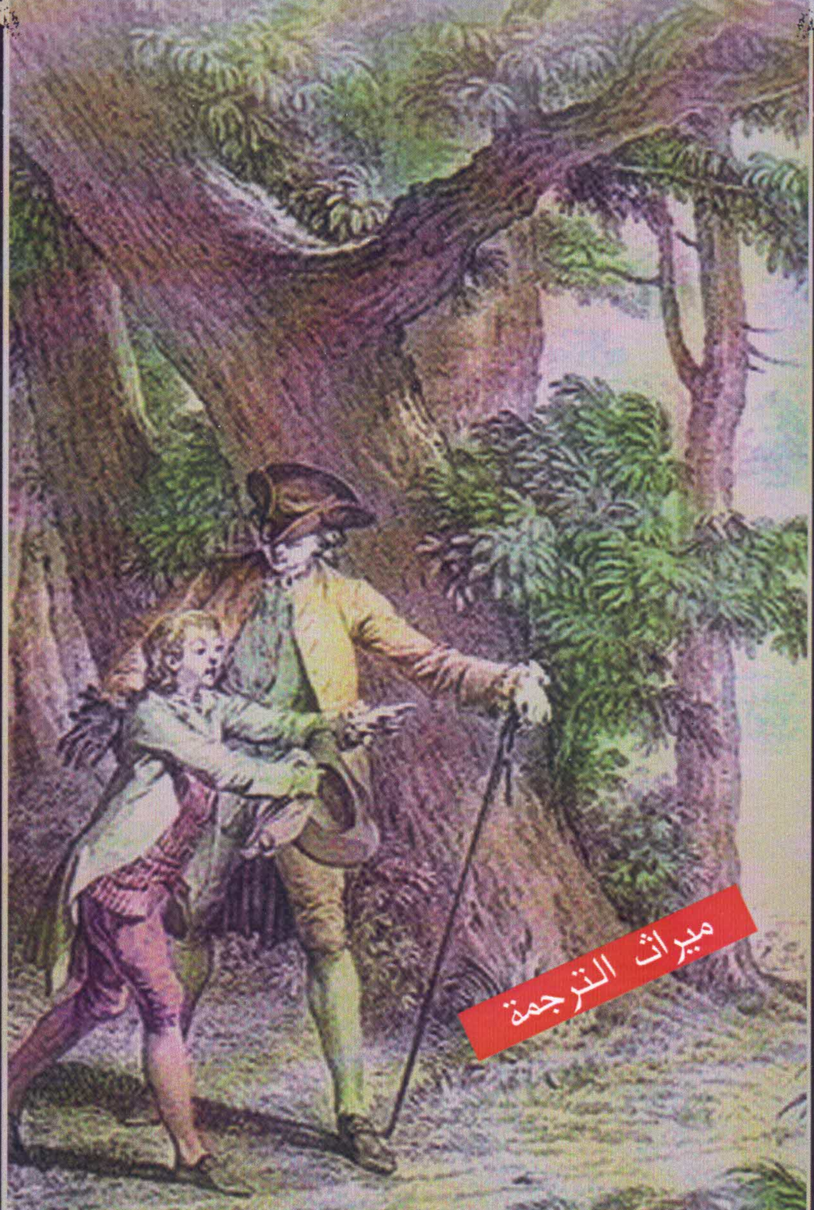
جان جاك روسو

إميل أو التربية

ترجمة: عادل زعيتر

تقديم: محمود كامل الناقة



ميراث الترجمة

1953

المركز القومى للترجمة

سفر جليل لعلم بارز من أعلام الفكر العالمى يكشف عن مهابة التربية وجلالها، وهو معين لكل القائمين على عملية التنمية البشرية من مخططين ومنفذين ومقومين ومشاركين، ولكل الدارسين والباحثين الأكاديميين فى ميدان التربية. وينطلق مؤلفه من تطور راسخ لديه، وهو الطبيعة الفطرية للإنسان، وكيف أن التأثر بضغوط المجتمع مفسد لهذه الطبيعة.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

إميل أو التربية

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1953
- إميل أو التربية
- جان جاك روسو
- عادل زعيتر
- محمود كامل الناقة
- اللغة: الفرنسية
- 2015

هذه ترجمة كتاب:
Émile ou de l'Éducation
Par: Jean Jacques Rousseau

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

إميل أو التربية

تأليف: جان جاك روسو

ترجمة: عادل زعيتر

تقديم: محمود كامل الناقة

2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

روسو، جان جاك ١٧١٢ - ١٧٧٨
إميل أو التربية / تأليف: جان جاك روسو، ترجمة: عادل زعيتر، تقديم: محمود كامل الناقة؛
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
؟؟؟؟؟ ص، ٢٤ سم
١ - التربية
(أ) زعيتر، عادل (مُترجم)
(ب) الناقة، محمود كامل (تقديم)
(ج) العنوان ٣٧٠

رقم الإيداع: ٢٠٥٢٨/ ٢٠١١
الترقيم الدولي: I.S.B.N – 978 - 977 - 704 - 864 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم

يتطلع كل أب وكل أم إلى تربية أبنائهم تطلع الآمل، ويسعون إلى هذا الأمر كالسعى نحو تحقيق حلم وإنجاز رسالة، كما يجتهد كل مرب بأى صفة أن يحقق الأهداف التربوية التى يخطو باجتهاد نحوها وإنجازها، بل ويحرص كل من يعمل فى ميدان التنمية البشرية على إحداث هذه التنمية بشكل جيد ومتقن، وهم جميعا فى حاجة إلى رؤى مختلفة، وآراء متعددة، ومبادئ نافذة، ومراجع شاملة تعينهم على تحقيق آمالهم وأحلامهم وإنجاز رسالتهم وأهدافهم ومن ثم إحداث تنمية بشرية لمجتمعاتهم، وليس أفضل من أن نقدم لهم كتابا عمدة فى هذا الميدان، مر على نشره ما يربو على ثلاثة قرون من الزمان، ولكنه يظل حديث الركبان حتى الآن، فمؤلفه علم يرفرف في سماء الفكر العالمي والفلسفة الاجتماعية العميقة والرأى الثائر، وهو نجم من نجوم إحدى الثورات العالمية التى أثرت فى حركة الأمم والشعوب وما زالت تؤثر، ذلكم هو كتاب الفيلسوف والمفكر الفرنسى جان جاك روسو (إميل أو التربية).

إنه لحرى بكل مرب أن يقرأ هذا الكتاب بصرف النظر عن أن الكثير مما جاء فى هذا الكتاب قد يثير النقاش والحوار والجدل والاتفاق والاختلاف ، بل وقد يثير اتهامات عديدة لمؤلفه. إنه سفر يكشف عن مهابة التربية وجلالها ، هو معين يرده ويستمد منه العون كل القائمين على عملية التنمية البشرية من مخططين ومنفذين ومقومين ومشاركين ومساهمين ومستفيدين، بل كل الدارسين والباحثين والأكاديميين المعنيين بهذا الأمر.

هو مرجع موسوعى متعدد الأبعاد لكل مشتغل بالتربية والتنمية البشرية ولكل باحث فيها ومتخصص فى أبعادها المختلفة. هو مرجع أكاديمى لكل محترف فى ميدان التربية والتنمية البشرية.

ولقد ظل هذا الكتاب مع هذا العمر المديد مصدرًا لكتابات عديدة ودراسات وبحوث تربوية ونفسية وثقافية كثيرة، منها المؤيد ومنها المعارض، ومنها الناقد ومنها العارض، ومنها المستخلص المجدد، ومنها المعدل المطور، وتم هذا بلغات عديدة ونظرات متباينة، ولم تنقطع هذه الكتابات حتى الوقت الحاضر المعاصر، كما تلاقت رؤى هذا الكتاب ونظرياته وفلسفته ومبادئه مع رؤى ومبادئ أخرى لتشكل فى النهاية مناظير تربوية ونفسية عامة سادت التفكير التربوى شرقا وغربا لفترات طويلة، ورغم من يرى أن النظرة إلى الكتاب الآن تجعله يأخذ مكانه فى متحف الفكر التربوى النفسى الفلسفى إلا أنه يظل مثيرا للفكر مولدا للرؤى داعيا للإعجاب، لأنه ومنذ أن نشر يظل مصدرًا من مصادر التنوير التربوى والنفسى، ومرجعا للعديد من النظريات التربوية التى يحتاج لمن يستخرجها وينسجها ويحدد معالمها ويضع أسسها ويرسم تصورات وسيناريوهات تطبيقها، مصداق ذلك ما فعله روسو مع إميل فى هذا الكتاب.

وينطلق روسو فى كتابه من منظور راسخ لديه يؤسس عليه تربية إميل وهو الطبيعة الفطرية للإنسان، فهو يولد على الفطرة نقيا كالصفحة البيضاء دون شوائب، وهو بهذا لديه استعداد لأن يكون كذلك لأن طبيعته هكذا، وهى طبيعة بعيدة عما يحدثه المجتمع فيها من فساد، فمغادرة الإنسان لهذه الطبيعة ومعايشته للمجتمع وتأثره بضغوطه تفسد هذه الطبيعة وتلوثها، فهو فى التربية الطبيعية يتناول ثمارًا ناضجة طازجة لم يتدخل المجتمع فى إثمارها، كما أنه ثمرة ينبغى أن تنضج فى بيئتها الطبيعية هواء وشمسًا وتربة وماء، مكتشفًا منطلقا متحررًا من قيد التعليم النظامى فينمو ويتنفس بشكل طبيعى، وكأن روسو يقول لنا: أطلقوا صغارنا من معتقلاتهم.

وعندما ينطلق روسو من الطبيعة الفطرية للإنسان فإنه يوجهنا إلى أنها طبيعة يتطلب الأمر دراستها وفهمها وتأملها وتحديد ملامحها وخصائصها وكل ما يتصل بماهيتها وجوهرها حتى تنطلق التربية من هذا الفهم الحقيقى لهذه الطبيعة.

هذه النظرة التى أقام عليها روسو تربية إميل تنادى بإبعاد الطفل فى طفولته المبكرة عن المضامين الثقيلة والمجردة المتصلة بالمجتمع والدين والأخلاق، والتى لا تأخذ فى اهتمامها تلك المنطلقات الأساسية للتعلم الجيد المتمثلة فى الاندهاش والتساؤل والعطش إلى المعرفة، كما تنادى باعتماد التربية على النشاط واللعب المنظم والسماح للأطفال بأن يكونوا أطفالاً، ويمارسوا النشاط الحر المحبب لهم بما ينمى لديهم الإبداع والفضول الطبيعى.

كما أنها تقرر التعلم المستمر الذى لا ينقطع بعمل أو مهنة أو زواج، فهذه الأمور ينبغى اعتبارها بدايات جديدة للتعلم وليست نهايات لتعلم سابق.

ولعل مما يمكن استنتاجه من هذه النظرة كمبادئ تربوية ما يلى:

- اتخاذ الأناة والتدرج والتفاهم والبعد عن العقاب أسلوبا لتعليم الأطفال إيمانا ببراءة الطفل وأنه يولد بفطرة سليمة وطبيعة خيرة.
- ترك الطفل يتحمل مسئولية تعلمه بنفسه فتنمو لديه مهارات التفكير واكتشاف المفاهيم والحقائق ذاتيا .
- تجاوب المعلم مع اهتمامات الطفل ليتعلم ما يرغب فى تعلمه وليس ما يرغب الكبار، ومن ثم ينبغى أن تكون ميوله وحاجاته ومتطلباته وآماله وطموحاته أساس تعلمه.
- اتصاف المواقف التعليمية بالتشويق والإثارة، وهذا يتطلب أن تتيح هذه المواقف للطفل الحرية فى الحركة والنشاط والتفاعل والممارسة، حيث يتعلم من الطبيعة ما يحتاج إليه لينشأ وفق قوانين الطبيعة.

كما يمكن أن نرى فى ضوء هذه النظرة وأبعادها المتعددة وانعكاساتها أن التربية عند روسو مراحل تتسق مع مراحل النمو الطبيعى، ومن ثم فالنمو عنده تطور وتطوير لإمكانات البشر، وهو بهذا يتسق وطبيعة التطور التى تتطلب التدرج انتقالا واتساعا وعمقا، فهو يتناول طفولة مبكرة، وطفولة متأخرة، ويفاعة وشبابا، وفتيانا وفتيات، وهو فى كل ذلك يجعل لكل طور فلسفته ومنظوره وطبيعته، فيتربى الطفل فى ظل أمر ما أولاً، ثم ينمو فى ظل أمر آخر ثانيا ، وهكذا تتسق هذه الأمور مع طبيعة كل طور وكل مرحلة.

خلاصة القول : إن روسو فى كتابه تناول موضوع التربية من منظور أن تكون هذه التربية عملية طبيعية تحفظ على الطفل نقاءه مع انتقاله من مرحلة إلى أخرى.

ولقد أثار هذا الكتاب جدلاً حول : هل هو كتاب يدخل بمحتواه دائرة الفكر التربوى المنظم أم لا؟ ورغم إنكار البعض لكونه كتابًا تربويا بالمعنى المنهجى للتربية فإن هذا الإنكار لا يستند إلى مبررات تصمد أمام المناقشة الموضوعية، ذلك أن روسو لم يكتب كتابه هذا فى ضوء تراث تربوى سابق حافل بالنظريات، وإنما جاب عالم تربية (إميل) بطريقة من يسبح فى محيط يلتمس شواطئه ويحاول النزول إلى أعماقه، مسجلاً هذه الرحلة لمن يريد أن يقرأها ويتأملها وينسج منها نظريات تربوية، ذلك أن روسو كان يؤمن بأن تربية المواطن الصالح قضية تستحق أن يؤلف فيها وحولها هذا الكتاب الضخم، ولقد جاء هذا المعنى على لسانه فى مقدمة الكتاب حيث يقول: لم أكتب حول أفكار الآخرين، بل عن أفكارى، ولا ينبغى أن أرى كما يرى الآخرون، وهذا ما ألام عليه منذ زمن طويل، ولكن هل أستطيع أن أمنح نفسى عينين أخريين، أو أنتحل أفكارًا أخرى؟ كلا، وإنما أستطيع ألا ألتزم آرائى، وألا أعتقد أننى أكثر حكمة من جميع الناس، كما أننى أستطيع أن

أرتاب من شعورى لا أن أغيره، وهذا كل ما أستطيع فعله، وهذا مـــا أفعلـــه، وإذا حدث أحيانا أن اتخذت لهجة جازمة فليس هذا لتفرض على القارئ، وإنما لأخاطبه كما أفكر، ولم أعرض فى قالب من الشك ما لا أشك فيه" وكأنما يقـول روســـو : اقرءوا كتابيه علكم تجدون فيه ما يمكن أن يسهم فى التربية باعتبارها علم حياة طيبة.

ويعد هذا الكتاب فى رأى كثير من التربويين من أمتع ما ألف فـــى التربيـــة على الإطلاق، حيث يقول مترجمه "وسيبقى هذا الكتاب معتمدا لدى جهابذة التربية والتعليم، يعولون عليه، ويهتدون به فى ظروفهم التعليميـــة ومـــذاهبهم التهذيبيـــة– وليس من المبالغة أن يقال: إن علماء التربية فى العصر الحاضر مدينون لـــه فـــى أساليبهم، وإن التربية الحديثة من آثاره".

ولعل مما يشدنا لقراءة هذا الكتاب، وييسر هذه القراءة ويجعلهـــا شـــائقة أن روسو قد نسجه نسجًا أدبيًا روائيًا أخذ شكل فصول لرواية سيكلوجية جعل بطلهـــا الطفل "إميل" الذى يدير حوله وبه رؤيته التربوية.

والسؤال الرئيسى الذى يبرز فى هذا السياق ولايمكن إغفاله فى تقديم كتـــاب (إميل) للمفكر والفيلسوف الاجتماعى التربوى جان جاك روسو هو:

ما التربية؟

الحديث عن تربية الأبناء هو حديث –إذا صح التعبير– عن صناعة ثقيلـــة، بل حديث عن الصناعة الثقيلة فى حياة البشر، فهى أصلاً صناعة البشر، ومن ثـــم صناعة التنمية بكل معانيها وأبعادها وأنواعها ومكوناتها، ولن نكون مغالين عنـــدما نقول إنها صناعة الحياة، ونقصد بالحياة فى هذا السياق المعنى الذى يتسق وطبيعة ومفهوم "التربية" ألا وهو صناعة الحياة الطيبة أى حياة الجودة.

ولعل هذا المعنى الأخير يدعونا إلى برهنته والتدليل عليه والاستشهاد، حيث نقول: إن كل شيء على وجه البسيطة التى نعيش عليها هو -وبقدرة الله وإرادته- نتاج عقل بشرى أى نتاج كلٍّ بشرى، فإذا جادت عملية تربية هذا العقل أى الإنسان فى كله جاد كل شيء على وجه الأرض، ومن ثم جادت الحياة، فكأن جودة التربية هى جودة الحياة.

والإقرار بأن جودة التربية هى جودة الحياة، يؤكد أن التربية إذن صناعة ثقيلة، القائمون عليها بشر، ومحتواها بشرى، ومخرجها بشرى، ومن هنا فصناعها عديدون يوجدون فى حياة الطفل، منذ كان طفلاً وحتى يصير شابا يافعا، فهم الأب والأم والأسرة، وهؤلاء يمثلون المؤسسة الرئيسة فى هذه الصناعة، ثم الطبيعة والأقران والنوادى وتجمعات النشاط ودور العبادة والثقافة والفنون، إلى غير ذلك، وكلها مؤسسات تشترك فى هذه الصناعة وترفدها. هذه المؤسسات فى اشتراكها ومشاركتها فى صناعة التربية، ومن ثم صناعة البشر إنما تؤكد أهمية القوى البشرية تلك التى تجعل للوجود حياة، والمجتمع أى مجتمع إنما يستند فى بنيته الأساسية هيكلاً ومحتوى على مصدرين أساسيين هما الموارد الطبيعية والموارد البشرية، فهذان المصدران يمثلان جناحا التنمية، إلا أن أهمية الموارد البشرية أى الطاقات البشرية تفوق أهمية الموارد الطبيعية، ذلك أن الموارد الطبيعية التى وهبها الله لنا لا تمثل إلا طاقة خامدة لن تحركها وتستغلها وتفعلها وتنميها وتستثمرها إلا الطاقة البشرية، التى هى المادة الخام، وفى الوقت نفسه المنتج العظيم لصناعة التربية، ولذا فالطاقات البشرية هى الأساس فى التنمية؛ لأنها تمثل مصدرًا وموردًا، وفى الوقت نفسه تمثل أساليب ووسائل استغلال الموارد الطبيعية وتنميتها.

إذن فالتربية هى القلب النابض فى جسم التنمية البشرية، ومن ثم فى جسم أى أمة، فهى التى تجدد الدم فى عروق الأمة وشرايينها، وأى اضطراب فى هذا

القلب هو اضطراب وضعف لجسم التنمية، ومن ثم لجسم الأمة وعقلها وروحها، وما الأمة وما التنمية إلا شخصية تربت وتعلمت وتثقفت وأنتجت، ومن ثم فالاستثمار فى التربية والتعليم هو أكثر الاستثمارات عائدًا، حيث تبوأت صناعة البشر قمة الهرم بصفتها أهم الصناعات فى عصر المعلومات، بل تظل أهم الصناعات فى كل العصور سابقة ولاحقة.

إن التسليم بأن التربية – والتعليم جزء منها– هى أداتنا للتنمية البشرية ومن ثم أداتنا لكل التنميات، يحتم علينا أن نسلم أيضًا بأن التنمية القائمة على الجودة الشاملة – وهى حتمية عصرية لا مفر منها– لا بد أن تبدأ بالإنسان، ذلك لأن أى جودة شاملة لا بد أن تكون – كما سبق أن أشرنا– منتج عقل وجهد إنسانيين، ومن ثم ما لم تتوافر الجودة الشاملة فى هذا الإنسان انعدمت فى غيره، سواء أكان هذا الغير منتجا ماديا (شيئا) أم منتجا بشريًا إنسانيا. ولعل هذا المنظور يقرر ضرورة أن تستوفى التربية فى الإنسان الشروط والمواصفات القياسية للجودة الشاملة عقلا وأداءً ووجدانا باعتبار أن هذا الإنسان – وهو منتج تربوى– نقطة البداية والوسط والنهاية فى إحداث التنمية ومن ثم الحياة بمعناها الإنسانى، فهو الكنز المكنون الذى يجعله المفكرون مصدر القوة على هذه المسكونة من حيث إن أساس التنمية لم يعد فى باطن الأرض ولا فى رأس المال، وإنما فى عيون عقل هذا الإنسان، وسمو روحه، وومضات إبداعه ونبضات فكره.

وتبدأ التربية – بكل هذه المعانى– بالطفل غرسًا لها، هذا الطفل أى الإنسان الذى وضع أحد المفكرين صورة تشريحية لإمكانية عقله فقال: "يملك كل تلميذ فيما بين أذنيه ما يساوى "كمبيوتر" بثلاثة بلايين دولار. هذه الأرطال الثلاثة القلوية الكهروكيميائية عبارة عن جهاز يعتمد على الجليكوز عند ٢٥ واتًا، ويحتوى على ما بين ١٠ –١٠٠ بليون عنصر منطقى تسمى الخلايا العصبية، وتعمل بمعدل ١٠

سيكلات (أى دورات) فى اللحظة، وتحتوى خلاياه العصبية على ٥٠ بليون جهاز استقبال مكبر، يستقبل مائة ألف من الأفكار المترابطة من الخلايا الأخرى"(*).

إن قدرة هذا الجهاز - أى العقل البشرى - على تخزين المعلومات تمكنه فى أثناء الحياة من تخزين عدد من البلايين لا نهاية له من المعارف والمعلومات متفوقا بذلك على أعظم كمبيوتر اخترعه الإنسان" ، سبحان الله جلت قدرته.

مع مثل هذا العقل بكل هذه القدرات، ومع مثل هذا الإعجاز الذى منحه الله للبشر نتساءل: كيف يمكن أن ندخل بالتربية الصحيحة لصاحب هذا العقل المعجز؟!!

وتصبح الإجابة عن مثل هذا التساؤل قضية شديدة الأهمية، عظيمة الأثر، الحاجة إليها ضرورية، والاحتياج إليها كبير فى ظل ظروف وشروط راهنة تجعلنا نترقب تلك الإجابة عطشى، وننتظرها متلهفين، فها هى العملية التربوية الآن قد أصبحت يتيما بلا راع، وفرضا بلا مؤد، وشريانا جفت فيه الدماء، بل تحولت إلى جسم افتقد طبيبه فأصابه الهزال، أى أن صناعتنا الثقيلة ضعفت فلا منتج يستحق التقدير، ولا بشر يحوز مقومات الجودة، ولا حياة إنسانية تستقيم.

لقد فارقت الأسرة مسئولياتها التربوية، وعادت مشغولة بأمور توفير المقومات الدنيا لحياتها، فالأم تعمل، والأب يكافح، والأبناء يعانون الافتقار إلى الدفء الأسرى وحنان الأمومة وتوجيه الأب، تخلت الأسرة عن التربية، ورفعت أيديها عن رسالتها فى بناء البشر وهم فى نطاقها أطفالها، حتى الأسرة التى لم تتخل عن هذه الرسالة أصبحت تؤديها دون معرفة بطرقها ووسائلها وأساليبها وفنياتها، ودون إدراك لطبيعتها، وهى فى هذه الحال أحوج ما تكون لأن تعرف، ولأن تعلم من أين تعرف.

(*) Bear, Stafford. Designing Freedom. CBC. Massy lectures (1973), Torinto, Candian Broadcasting corporation publications (1974).

كما فارقت المؤسسة التربوية الثانية وهى المدرسة أهم واجباتهـا، وأقـدس أهدافها وهى التربية، وانكفأت على عملية تعليم وتعلم تلقينية ضيقة قد تنمى العقـل قليلاً، ولكنها تعجز عن تربية الكل الإنسانى بالمفهوم القيمى التنموى.

وبانفراط عقد التربية فى هاتين المؤسستين الرئيستين انفرطت حبات العقـد كلها مما أشرنا إليه من مؤسسات التربية، وأصبح الحال فى حاجة إلى عودة إلـى المراجع الفلسفية التربوية لا لنعثر فيها على طريقة تربويـة محـددة، أو أسـاليب وفنيات معتمدة لهذه العملية، ولكن لنستمد منها تنويرًا وتنورًا نهتدى ونـستعيد بـه كيان هذه العملية التى أبرزنا قيمتها فى سطور سابقة.

ولعل من أبرز هذه المراجع هذا الكتاب الذى تحدثنا عنه وهـو (إميـل أو التربية) كتاب الفيلسوف الاجتماعى التربوى جان جاك روسو، والذى يفرض هـذا السياق أن نعطى لمحة سريعة وموجزة عن أجزائه ومراحله.

يشتمل الكتاب على خمسة أجزاء على النحو التالى:

الجزء الأول: ويتناول فيه روسو تربية الطفل (إميل) فيما بين السنة الأولـى والخامسة من عمره تربية جسمية تستهدف تقوية هذا الجسم، والابتعـاد بـه عـن الخبرات المعرفية والأخلاقية أى التربية العقلية ، والاسـتجابة لميولـه وحاجاتـه ومتطلباته التى تشبع عادة، وفى مثل هذه المرحلة، من خـلال النـشاط والحركـة واللعب والخروج إلى الطبيعة ومعايشتها.

الجزء الثانى: ويعرض فيه المرحلة الثانية من تربية (إميل) والتى تبدأ مـن سن الخامسة إلى سن الثانية عشرة، وهى استمرار للتربية الجسمية التى تـستهدف تقوية الجسم والاعتناء بأعضائه وحواسه ليقوى على الاتصال بالعـالم الخـارجى، ويتحمل خبرات جديدة، على أن يتم ذلك من خلال المعايـشة المباشـرة للطبيعـة،

وقضاء وقت طويل فى أحضانها، وإتاحة الفرصة أمامه ليستجيب لهذه الطبيعة وفقا لطبيعته هو ليس وفقا لما نريد، مكتسبا من خلال ذلك القدرة على الوصول إلى استنتاجات جديدة فى ضوء ما لديه من خبرات فنتركه يقيس ويزن ويخطط ويجرب، ومن ثم يكون اكتساب الطفل لخبراته من خلال الاحتكاك بالطبيعة أفضل من القراءة، ومن خلال المباشرة بنفسه وليس من خلال المربى الذى لا يبدأ عمله مع الطفل إلا من سن الثانية عشرة .

الجزء الثالث: وينتقل فيه روسو إلى المرحلة الثالثة من تربية (إميل) وهى من سن الثانية عشرة وحتى الخامسة عشرة، وتبدأ فيها التربية العقلية التلقينية التى تخففت منها المرحلتان السابقتان، ففى هذه المرحلة يكون الطفل قد نضج جسديا وعقليا بما يمكنه من تعلم العلوم المختلفة، وذلك عن طريق قيام المربى بتلقينه الحقائق بالإلهام من خلال مظاهر الطبيعة المختلفة، والسماح له بقراءة بعض الكتب المناسبة لقدراته، وهنا يرى روسو أن الميادين المعرفية المناسبة لأن تقدم لإميل فى هذه المرحلة هى العلوم الطبيعية والفلك والجغرافيا والرياضيات لمساعدته على تعلم مهنة يتكسب منها.

الجزء الرابع: ويخصصه روسو للمرحلة الرابعة من تربية (إميل) والتى تمتد من سن الخامسة عشرة إلى سن العشرين، حيث تتجه تربية إميل إلى التربية الخلقية والدينية التى يكون إدراكه قد نضج للتعامل معها، باعتباره شابا يافعا يتلمس بها الخير. وفى هذه المرحلة تتسع دائرة الشاب للتعامل مع المجتمع ومع البشرية أى التواصل مع الآخرين.

الجزء الخامس: وينتقل فيه روسو إلى مرحلة جديدة من تربية (إميل) حيث يلتقى إميل بالفتاة (صوفى) التى يعالج هذا الجزء تربيتها على أساس من مستقبلها مع زوجها لا على أساس تعلمها العلوم، لأنه يرى أن تعلم المرأة مفسدة للحياة

الزوجية، ولقد أدت تربيتها وتربية إميل إلى جعلهما أهلاً للزواج، ولكنهما لا يتزوجان إلا بعد أن يقوما برحلة تستغرق عامين، يجوبان فيهما دولاً مختلفة، ويتعرفان على أنظمتها الاجتماعية وعلى شعوبها وعاداتهم وتقاليدهم.

هذه مقدمة تمثل سياحة فكرية سريعة وموجزة جابت كتابا في التربية له منزلته في الفكر التربوى والفلسفى، ولصاحبه مكانة عالمية مفكرًا وفيلسوفًا، علّنا بذلك نكون قد فتحنا نافذة جديدة لقراءة ممتعة ومفيدة.

محمود كامل الناقة



جان جاك روسّو

(١)

مقدمة المترجم

أُقَدِّمُ ترجَمةَ « إميل أو التربية » لجان جاك رُوسُّو . . .

ذهب ابنُ جنيفَ البائسُ ، روسُّو ، إلى باريسَ سنة ١٧٤١ ، وكان فى التاسعة والعشرين من سِنِيه ، وذلك بعد أعوامٍ من الشقاء قضاها متنقلاً بين مُدُنٍ وأريافٍ من سويسرة وإيطالية وفرنسة جادًّا فى كَسْب عيشه ، وفى باريس يَنزِل بفُنْدق سان كِنْتَان الحقير حيث يَقَع نظرُهُ على خادمةِ الفُنْدق الريفية الساذجة ، تريِز لوفاسُّور ، التى كان الناسُ يَسْخَرون بها لبَلاَهتها ، ويَرِقُّ لها رُوسُّو فيَتَّخِذُها رفيقةً له عن حُبٍّ وعاطفة ، ويغادران الفُنْدق وتدوم حياتُهما معاً سِتًّا وعشرين سنة .

والحقُّ أن تريِزَ كانت كثيرة الغباوة ، وكانت لا تُحسِنُ شيئاً من القراءة والكتابة ، ومع ذلك كان رُوسُّو كثيرَ الإعجاب بها ناظراً إليها بعين الحُبِّ راضياً بجمالها وحُسْنِ صوتها متجاوِزاً عن عيوبها وفَقْرِها مُغْضِياً عما يَفصِلُه عنها من عبقريةٍ ونُبُوغ ، وقد دامت حالُه هذه نحوَها اثنتى عشرة سنة .

وتَغَيَّر حُبُّ تِرِيزَ له مع الزمن ، وصارت لا تبالى به ولا تُفَكِّر فيه وطلبت منه الفِراقَ قبل موته بتسع سنين ، فقد وَلَدَتْ له خمسةَ أولاد ، وسَلَّمهم إلى ملجأ اللُّقَطاء ، وذلك من غير أن يَتْرُك ما يدلُّ على أصلهم فى المستقبل ، ويَعْتَذِر روسُّو عن ذلك بفقْره واضطراره إلى كَسْب عيشه بكَدِّه وإن كان يَهْدِف فى الحقيقة إلى الحياة الحرة الطليقة التى لا تَشْغَلُ بالَه بوَلَد ،

وفى ذلك من الابتعاد عن الإنسانية والمُرُوءة والشعور بالواجب ما لا يخفى ، وقد أراد رُوسُّو أن يكَفِّر عن هذه الخطيئة التى لا تُغْتَفَر بوَضْع كتاب « إميلَ أو التربية » العظيمِ الشأن ، وقد ذكر رُوسُّو فى « اعترافاته » أنه صَرَّح رسميًّا بزواجه بتِرِيزَ بعد معاشرته إياها رُبْعَ قرنٍ ، وقد صَرَفها بذلك عن طلبها الفِراق ، فظلت رفيقةً له إلى أن مات ، وإن لازمها الغَمُّ والألم حُزْنًا على أطفالها أولئك .

ذهب رُوسُّو إلى باريس كما قلنا ، وفى هذه المدينة قَضَى حياةً عسيرة ، فقد كان يَتَعَيَّش من استنساخ القِطَع الموسيقية فيها مع قبوله فى رِداه المجتمع الراقى ، ثم يذهب إلى البُنْدقية سكرتيراً لسفير فرنسة ، ثم يَعُود إلى باريس ويرتبط بأواصر الصداقة فى دِيدِرُو الذى كان من رجال الشعب أيضاً فيقضى حياةً شاقةً مِثْلَه فى باريس .

وبينا كان ذلك حال رُوسُّو فى سنة ١٧٤٩ ، وقد كان ابناً للسابع والثلاثين من عُمُره ، نَشَرَتْ أكاديمية دِيجُون إعلانَ مسابقةٍ فى موضوع : « هل أدّى تقدم العلوم والفنون إلى إفساد الأخلاق أو إلى إصلاحها ؟ » ، وكان صديقُه دِيدِرُو فى سجن فِنْسِن وقتئذٍ بسبب « رسالته عن العُمْى » ، فاطّلع على ذلك الإعلان حين ذهابه إلى زيارته ، فعَنَّ له وهو فى الطريق أن يشترك فى المسابقة ، ويكلِّم دِيدِرُو فى الأمر فيُشِير عليه بالتزام جانب إفساد العلوم والفنون للأخلاق لِما فى هذا من طرافةٍ وتوجيهِ نظرٍ ، ولِمَا يَنْطوى التزامُ جانبِ إصلاحِهما للأخلاق من ابتذال .

ويُعمِلُ رُوسُّو ذهنَهُ ، ويَجْمَعُ قُوَاه ، ويكتب فى الموضوع ، ويُقيمُ

الدليلَ على أن العلوم والفنون أفسدت الأخلاق وأوجبت شقاء الإنسان ، ويَدَّعى أن الترف والحضارة من نتائج العلوم والفنون وأنهما علةُ فساد الأخلاق ، فقال بالرجوع إلى الحال الطبيعية .

وكَتَبَ رُوسُّو رسالَته تلك بقلمٍ حارٍّ وعاطفةٍ جارفة ، فجاءت مبتكرةً فى مجتمعٍ بَلَغ الغاية من المدنية مخالِفةً لِمَا عليه الجمهور ، فنال رُوسُّو بها الجائزة ، ويُعَدُّ رُوسُّو فى رسالته تلك كالمحامى الذى يلتزم طرفاً واحداً فى المرافعات فيَصْعُب تصديق جِدِّيته فى تمثيل دوره ، ولذلك تتجلَّى رسالتُه تلك فى كَوْنها مِفْتاحاً لنشوء رُوسُّو الذهنىّ وفى كَوْنها مرحلةً مؤديةً إلى « العَقْد الاجتماعىّ » و « إميلَ أو التربيةِ » .

ويَذِيع صِيتُ رُوسُّو بتلك الرسالة بعد خُمُول ذِكْرٍ ، ويُعْجَبُ بها كُتَّابٌ ويَحْمِل عليها آخرون ، ويجيب رُوسُّو عن النقد المُوَجَّهِ إليه بأنه لم يُرد الرجوع بالناس إلى الوراء ، وإنما أراد العَوْدَ إلى الفضائل والابتعاد عن الترف والرذائل وسيادةَ المساواة بين الأنام .

وفى سنة ١٧٥٣ أعلنت أكاديميةُ ديجُون مسابقةً أخرى عُنوانُها : « ما أصلُ التفاوت بين الناس ، وهل أجازه القانونُ الطبيعىُّ ؟ » ، ويشترك رُوسُّو فى المسابقة ، ولكنه لم يَنَل الجائزة لشدة حَمْله على الاستبداد ، وفى هذه الرسالة يَسْتَحْسن رُوسُّو حالاً من الهمجية متوسطةً بين الحال الطبيعية والحال الاجتماعية يحافظ الناسُ بها على البساطة ومنافع الطبيعة وتَسُودُ فيها المساواة .

وفى سنة ١٧٥٥ نَشَر رُوسُّو رسالةَ « الاقتصاد السياسىّ » ، فرأى أن الدولةَ هيئةٌ تَهدِف إلى سعادة جميع أعضائها ، وجعَل جميعَ وِجْهات نظره فى

الجباية تابعاً لهذا الهدف ، وذهب إلى أن الكماليات وحدَها هى ما يجب أن يكون تابعاً للضرائب ، وإلى وجوب فرضِ ضرائبَ فادحةٍ على أمور الترف ، وإلى عدم وَضع ضريبة على الحاجيات كالقمح والملح .

ومن مطالعة كتاب « الاقتصاد السياسيّ » يُرَى أن رُوسُّو كاد يَبلُغ به مرحلةَ النُّضج فى آرائه السياسية ، فكان هذا مُبَشِّرًا بكتاب « العَقْد الاجتماعىّ » وكتابِ « إميلَ أو التربيةِ » اللذين ظهرا سنة ١٧٦٢ .

حَمَلَ رُوسُّو « فى العَقْد الاجتماعىّ » على الرِّقّ والتفاوت وناضَلَ عن حقوق الإنسان ، وقال إن هَدَف كلّ نظامٍ اجتماعىٍّ وسياسىٍّ هو حِفْظُ حقوق كلّ فردٍ ، وإن الشعبَ وحدَه هو صاحبُ السيادة ، وكان يَهْدِف إلى النظام الجُمهورىّ ، فتَحَقَّق هذا النظامُ بالثورة الفرنسية بعد ثلاثين سنة حين اتُّخِذَ « العَقْدُ الاجتماعىُّ » إنجيلَ هذه الثورة .

ولم يَقُلْ رُوسُّو بحكومات زمنه لمنافاتها للطبيعة ، ويقوم مذهبُه على كَوْن الإنسان صالحاً بطبيعته مُحبًّا للعدل والنظام ، فأفسده المجتمع وجعله بائساً ، والمجتمعُ سيئٌ لأنه لا يساوى بين الناس والمنافع ، والتملكُ جائرٌ لأنه مُقْتَطَعٌ من المُلْك الشائع الذى يجب أن يكون خاصًّا بالإنسانية وحدَها فيجب أن يُقْضَى على المجتمع إذَنْ ، وأن يُرْجَع إلى الطبيعة ، وهنالك يَتَّفِقُ الناس بعقدٍ اجتماعىٍّ على إقامة مجتمعٍ يَرضَى به الجميع ، فيقيمون بذلك حكومةً تمنح الجميعَ ذاتَ الحقوق فتقوم سيادةُ الشعب مقامَ سيادة الملِك ، وتُنَظِّمُ الثروةُ والتربية والدِّيانة .

وفى كتاب « إميلَ » ظهر رُوسُّو الفيلسوفُ المرَبِّى بجانب رُوسُّو الفيلسوف

الاجتماعيّ ، ويُعَدُّ رُوسُّو بهذا الكتاب مؤسسَ التربية الحديثة ، ففيه ألقى دروساً مُمتِعةً في تربية الأطفال ومذاهب التربية والفضيلة والحياة الزوجية ، وقد نال كتابُ « إميلَ » من بُعْدِ الصيت ما أصبح معه مُعَوَّلَ علماء التربية ، وما عُدَّ معه إنجيلَ التعليم والتربية ، حتى إن الفيلسوف الألمانيَّ الكبير ، كَنْتَ ، تأثَّر به كثيراً ، وكَنْتُ حينما أخذ يطالعه أبىَ مغادرة منزله إلى نُزْهته اليومية قبْل الفراغ من قراءته ، وكَنْتُ من تَعلَمَ تَمَسُّكه بنزهته تلك وعدمَ عدوله عنها إلاَّ لأمرٍ جَلَل.

لقد عانى رُوسُّو من ألوان الشقاء ما يُعانِي أتعسُ الناس ، وقد أتاح له بؤسُه حياةً زاخرةً بالتجربة والاختبار ، ولكن عبقريًّا مِثْلَ رُوسُّو إذا ما جرَّب واختبر نَفَذَ في الحقائق نفوذًا لا يَتَيَسَّر لغيره من البشر إلا نادرًا ، ويكون العبقريُّ أبلغَ تميزاً إذا ما اقترن تقليبُه الأمورَ بما يَتَّفِقُ له من اطِّلاع واسع على كُتب غيرِه ، فبذلك يَمْزُجُ ما جرَّب بما قرأ مَزْجاً عجيباً فيُبْرِزُ ما تَمَّ له على شكلٍ كامل الجِدَّة والإبداع ، وهذا ما حَدَث لرُوسُّو .

أبْصَرَ رُوسُّو أن الإنسان يُولَدُ صالحاً خالصاً من المساوئ ، فلا يُحَوِّله عن صلاحه إلاَّ الإنسانُ الذى يعيش معه والبيئةُ التى تكتنفه ، فقام هَدَفُه على إنقاذ الإنسان من بُؤْرَتِه ، وهذا لا يكون إلا بالعمل الذى يَحُلُّ به معضِلاتِ الحياة فيَشْعُرُ بالحياة التى يَقْضِيها كاملةً ، وهذا لا يتمُّ إلا بالتربية .

ففى « إميلَ أو التربية » أوْضَحَ رُوسُّو كيف يُنَشَّأُ الولدُ تنشئةً طبيعيَّةً منذ نُعُومة أظفاره حتى العشرين من سِنِيه فيَصِيرُ صالحاً للزواج ، وهو قد وَقَفَ أجزاء الكتاب الأربعةَ الأولى على هذا الغرض كما وقف الجزء الخامس منه على

تنشئة الزوجة التى تصلُح أن تكون شريكةً له فى الحياة فيَسْعَدُ بها وتَسْعَد به .

وإن ماانطوى عليه كتابُ « إميل » من آراء عملية ونظرية انتهى إليها رُوسُّو باختباره أثَّرَ به فى عالم التربية مِثْلَ تأثيره فى الثورة الفرنسية وعالَمِ السياسة بكتابه « العقد الاجتماعىّ » ، وفى كتاب « إميل » ثار رُوسُّو على مناهج التعـليم القديمة وأساليب التربية العتيقة وبَشَّرَ بمذهبٍ جديدٍ فى التهذيب تبشيراً عُدَّ به رائدَ التربية الحديثة وقائدَها ، فغدا « إميلُ » مَنَاراً لمن يُرِيدُ أن يكون مُرَبِّياً ومصدراً لا يَنْضُبُ له مَعِينٌ لمن يَرْغَبُ أن يَضْرِب بسهم وافرٍ فى ميدان التهذيب والتعليم على اختلاف مراحلهما ، ابتدائيةً كانت هذه المراحل أو ثانويةً أو عالية ، لا فَرْقَ فى ذلك بين شَرْقِ الأرض وغربها .

ولا تَقُلْ إن الكتاب وُضِعَ منذ نحو قرنين ، وهو خاصٌّ بالزمن الذى أُلِّفَ فيه ، فرُوسُّو من العباقرة الذين يَنْفُذون ببصائرهم حُجُبَ المستقبل ، وكتابُ « إميل » أُلِّفَ للأجيال التى تأتى بعد مؤلِّفه ، وسيَبْقَى مُعْتَمَداً لدى جهابذة التعليم والتربية يُعَوِّلون عليه ويهتدون به فى طُرُقهم التعليمية ومذاهبهم التهذيبية ، وليس من المبالغة أن يقال إنه خَيْرُ كتابٍ ظَهَرَ حتى الآن فى موضوعه ، وإن علماء التربية فى العصر الحاضر مَدِينون له فى أساليبهم ، وإن التربية الحديثة من آثاره .

حقًّا لم يَقُمْ كتابٌ فى التربية مقامَ « إميلَ » لإمام التربية والاجتماع رُوسُّو ، وقد تُرْجِم هذا السِّفْرُ الخالدُ الجليلُ غيرَ مرة إلى معظم اللغات الأوربية منذ وضعه ، وأصلُ الكتابِ صعبُ العبارة كثيرُ الإبهام والغموض

فى مجموعه ، فأرجو أن أكونَ قد وُفِّقْتُ لإزالة كثيرٍ من تعقيده فى ترجمتى هذه مع التزامى حرْفيةَ النقل ، كما أرجو أن يقتطف العربُ من فوائده التعليمية والتهذيبية التى لا حَصْرَ لها مثلَما اقتطفت أممُ العالَم كلُّها .

« نابلس » عادل زعيتر

(٢)

الترجمة

مُقَدّمَةُ المؤلفْ

بُدِئ بهذه المجموعة من التأملات والملاحظات الخاليه من الترتيب ، ومن النَّسَق تقريباً ، إرضاءً لأمٍّ صالحة تَعْرِف أن تُفَكِّر ، ولم أُرِدْ فى البُداءَة غيرَ وضعِ رسالةٍ مؤلفة من بضع صَفَحات ، ويجتذبنى موضوعى على الرغم منى فتَغْدُو هذه الرسالةُ ، من غير أن يُحَسَّ ، مؤلَّفاً بالغَ الضخامة بما يشتمل عليه لا رَيْبَ ، ولكنْ بالغَ الصِّغَر بالنسبة إلى المادة التى يتناولها ، وقد تَرَدَّدتُ زمناً طويلًا فى نشره ، وقد جعلنى أَشْعُر حين العمل فيه ، غالباً ، بأنه لا يَكْفِى أن تُكْتَبَ كَرَاريسُ قليلةٌ لإمكان تأليفِ كتابٍ ، وأرى ، بعد جهودٍ غيرِ مُجْدِيةٍ بذلتُها فى سبيل تقويمه ، أن الواجب يقضى بتقديمه كما هو ، مُقَدِّراً أن من المهمِّ تحويلَ الانتباهِ العامِّ إلى هذه الناحية ، وأن أفكارى إذا ما كانت فاسدةً لم أُضِعْ وقتى تماماً عند إبرازى ما يوجب أفكاراً صالحةً ، ولا ينبغى للرجل الذى يُلْقِى ، من عُزْلته ، إلى الجمهور أوراقَه بلا مادحٍ أو مكافحٍ أن يخشى قبولَ أغاليطه من غير تمحيصٍ عند زَلَله ، حتى عند عدم علمه بما يُفَكَّرُ فيها أو يقال عنها .

وسأتكلم قليلًا عن أهمية التربية الصالحة ، ولن أَقِفَ عند إثباتى كونَ التربيةِ المعتادة فاسدةً ، فقد قام بهذا ألفُ رجلٍ قَبْلِى ، ولا أَرْغَب ، مطلقاً ، فى شَحْن كتابى بأمورٍ يَعرِفها جميعُ الناس ، وكلُّ ما أُلاحِظُ هو أنه لم يَخْرُجْ منذ أَمَدٍ بعيد غيرُ صُرَاخٍ ضِدَّ المِنْهاج القائم ، وذلك من

غير أن يَعِنَّ لأحدٍ اقتراحُ ما هو أصلح ، ويَنْزَعُ أدبُ عصرنا وعرفانه إلى الهدم أكثرَ من البناء بمراحل ، ويُلتزَمُ جانبُ اللَّوْم بلهجةِ أستاذٍ ، ولا بُدَّ في الاقتراح من اتخاذِ سبيلٍ آخرَ أقلَّ مطابقةً لزَهْوِ الفيلسوف ، ولا يزال مَنْسِيًّا فَنُّ تكوين الرجال الذى هو أولُ جميعِ المنافعِ مع كثرة الكتب التى ليس لها غَرَضٌ غيرَ النَّفْع العامِّ كما يُقال ، وبَقِيَ موضوعى تامَّ الجِدَّة بعد كتاب لُوك ، وأخشى كثيراً أن يَبْـقَى هكذا بعد كتابى أيضاً .

ولا تُعْرَف الطفولةُ مطلقًا ، وإذا ما اتُّبِـع فاسدُ الأفكار عنها وُقِعَ فى الضلال كلما أُوغِلَ فى السَّيْر ، ويَسْتَمْسِكُ أحكمُ الكتّاب بما يجب أن يَعْلَمَه الرجالُ غيرَ ناظرين إلى ما يُمْكِن الأولادَ أن يَتعلّموه ، وهم يَبْحَثُون عن الرجل فى الولد دائماً غيرَ مفكرين فى أمر الولد قبل أن يكون رجلًا ، وهذه الدراسةُ أكثرُ ما أعْـكِفُ عليه ، حتى إذا ما كان جميعُ مِنْهاجى وهميًّا زائفًا أمكنت الاستفادةُ من ملاحظاتى دائمًا ، أجَلْ ، قد أكون سيِّئَ البصرِ كثيراً فيما يجب أن يُصْنَع ، ولكننى أعتقد أننى أبصرتُ جيداً ما يجب أن يُتَناوَل من موضوع ، وابْدَأُوا ، إذَنْ ، بدِراسة تلاميذكم أحسنَ من قَبْل ، وذلك لأنكم لا تَعْرِفونهم مطلقاً لا رَيْب ، وإذا ما قرأتم هذا الكتابَ بهذه النظرة حقًّا لم تكن مطالعتكم إياه خاليةً من فائدةٍ لكم كما أعتقد .

وإذا نُظِرَ إلى ما يُدْعَى بالقِسْم المِنْهاجىّ ، الذى ليس سوى سَيْرِ الطبيعة ، وُجِدَ أنه أكثرُ ما يَتِيه به القارئ ، ولا مِرَاء فى أننى سأهاجَم من هذه الناحية ، وقد يكون هذا على حَقٍّ ، وسَيُظَنُّ أن رُؤَى حالمٍ تطالَع

أكثرَ من مطالعة رسالةٍ في التربية ، وما يُصْنَع ؟ لم أكْتب حَوْلَ أفكار الآخرين ، بَلْ عن أفكاري ، ولا أرى كبقية الرجال مطلقاً ، وهذا ما أُلام عليه منذ زمنٍ طويل ، ولكنْ هل أستطيع أن أمْنَح نفسي عينين أُخريين أو أن أنتحل أفكاراً أخرى ؟ كلا ، وإنما أستطيع ألّا ألتزمَ آرائي وألاَّ أعتقدَ أنني أكثرُ حكمةً من جميع الناس ، وإنما أستطيع أن أرتاب من شعوري ، لا أن أُغَيِّرَه ، وهذا كلُّ ما أستطيع فعلَه ، وهذا ما أفعله ، وإذا حَدَث أحياناً أن اتخذتُ لهجةً جازمة فليس هذا لتُفْرَضَ على القارئْ ، وإنما لأخاطبه كما أُفكِّر ، ولِمَ أعْرِضُ في قالَبٍ من الشكِّ ما لا أشكُّ فيه من ناحيتي مطلقاً ؟ أقُولُ ما يَمُرُّ في ذهني تماماً .

وإني إذْ أعْرِضُ إحساسي طليقاً ، وقلَّما أقْصِد به إلزاماً ، أُضيف إليه ما لديّ من أسبابٍ دائماً ، وذلك حتى تُوزَن هذه الأسباب فيُحْكَمَ في أمري ، ولكنني ، وإن كنت لا أُريدُ الإصرارَ على الدفاع عن أفكاري ، لا أجدني أقلّ التزاماً لعرضها ، وذلك لأن المبادىء التي أكون بها على رأيٍ مخالف لرأي الآخرين ليست خَلِيَّةً ، وهي من المبادئ التي يجب أن يُعْرَف ما تنطوي عليه من صحةٍ وفساد والتي تُوجِبُ سعادةَ الجنس البشريّ أو شقاءه .

وما فتىء الناس يقولون لي : « اقترحْ ما يُمْكِن فعلُه » ، وهذا كما لو كان يقال لي : « اقترحْ فِعْلَ ما يُفْعَل ، أو اقترحْ ، على الأقلّ ، خيراً يَزْدوجُ والشرَّ القائم » ، فمشروعٌ مثلُ هذا يكون ، في بعض الموضوعات ، أعرقَ في الوهم من مشروعاتي بدَرَجات ، وذلك لأن الخيرَ

يَفْسُد فى هذا الازدواج ولا يُشْفَى الشرُّ ، وكنتُ أُفَضِّلُ اتباعَ المِنْهاج القائم فى كلِّ شىء على انتحال مِنْهاجٍ نصفِ صالحٍ ، لِمَا يكون به قليلُ تناقضٍ فى الرجل ، ولِماَ لا يستطيع الرجل أن يَهْدِفَ به إلى غرضين متباينين فى وقت واحد ، ويا أيها الآباء والأمهات ، إن ما يُمْكِن فعلُه هو ما تريدون فعلَه ، أفَعَلَيَّ أن أعتمد على إرادتكم ؟

وفى كلِّ نوعٍ من المشاريع يُنْظَرُ إلى أمرين بعين الاعتبار : يُنْظَرُ إلى صلاحِ المشروعِ المطلق أولًا ، وسهولةِ التنفيذ ثانيًا .

وفى الأمر الأول يكفى لإمكان قبول المشروع ، وسهولةِ فعله فى حَدِّ ذاته ، أن يكون ما فيه من صلاحٍ ضِمْنَ طبيعة الشىء ، فهنا ، مثلًا ، يجب أن تكون التربية المقترحَةُ مناسبةً للإنسان ملائمةً للقلب البشرىِّ .

ويتوقف الأمرُ الثانى على ما فى بعض الأحوال من صلاتٍ واقعة ، من صلاتٍ عارضةٍ للشىء ، من صلاتٍ غيرِ ضروريةٍ مطلقاً من حيث النتيجةُ ، فيُمْكِن أن تتغير إلى ما لا نهايةَ له ، وهكذا فإن تربيةً ما يُمْكِن أن يُعْمَل بها فى سويسرة وألا تُتَّخذ فى فرنسة ، وإن تربيةً أخرى يمكن أن تكون صالحةً للبُرْجوازية ، وإن تربيةً غيرَها تَصْلُح للأشراف ، وتتوقف سهولةُ التنفيذ ، تقريباً ، على ألفِ حالٍ يتعذَّر تعيينُها بغيرِ تطبيقٍ خاصٍّ للمِنْهاج على هذا البلد أو ذاك ، وعلى هذه الطبقة أو تلك ، والواقعُ أن جميعَ هذه التطبيقات غيرُ جوهريةٍ فى موضوعى فلا تَدْخُل ضِمْن مشروعى ، ويستطيع آخرون أن يُعْنَوْا بها إذا ما أرادوا ، وذلك من حيث البلادُ أو الدولةُ التى يَضَعُها كلُّ واحدٍ منهم نصْبَ عينه ، ويكفينى ،

فى كلِّ مكانٍ يُولَدُ فيه رجالٌ ، أن يُصْنَع منهم ما أقترح ، فإذا صُنِعَ منهم ما أقترحُ صُنِع أفضلُ ما يكون لهم ولغيرهم ، وإذا لم أفِ بهذا العهد كان هذا خطأً مني لا رَيْبَ ، ولكننى إذا ما وَفَيْتُ به كان من الخطأِ أيضاً أن أُطالَب بأكثرَ من هذا ، وذلك لأننى لا أَعِدُ بغير هذا .

الجزء الأول

كلُّ شيء يَصْنَعه خالقُ البَرَايا حسنٌ ، وكلُّ شيء يَفْسُد بين يدى الإنسان ، فالإنسانُ يُلزِم أرضاً بإنماء غَلَّاتِ أرضٍ أخرى ، والإنسانُ يُلزِم شجرةً بحَمل ثِمار شجرةٍ أخرى ، وهو يَخْلِط بين الأقاليم والعناصر والفصول ، وهو يَبْتُر كلبَه وفَرَسه وعبدَه ، وهو يُخَرِّب كلَّ شيء ويُشَوِّهه، وهو يُحِبُّ القُبْحَ والمُسُوخ ، وهو لا يريد شيئاً كما صنعته الطبيعة ، حتى الإنسانَ ، فيجب ترويضُه لنفسه كالفَرَس الرَّكُوب ، ويجب أن يُكَيَّف على نَهْجِه كشجرةٍ فى حديقته .

ولولا ذلك لسار كلُّ شيء إلى ما هو أسوأ أيضاً ، فلا يريد نوعُنا أن يُصَوَّرَ نصفَ تصوير ، والإنسانُ ، فى الحال التى تكون عليها الأمورُ بعدئذٍ ، يَبْدُو أكثر من الجميع شَوَهاً إذا ما تُرِك وشأنَه بين الآخرين ، فالمبتسراتُ* والسلطةُ والضرورة والقُدْوةُ وجميعُ النُّظُم الاجتماعية التى نَغْرَق فيها تَخْنُقُ الطبيعةَ فيه من غير أن تَضَع شيئاً فى مكانها ، وهى تَغْدُو فيه كالشُّجَيْرة التى تُنْبِتُها المصادفةُ فى وسطِ طريقٍ فلا يلبث المارُّون أن يُهْلِكوها بصَدْمِها من كلِّ جهةٍ وحَنْوِها نَحْوَ كلِّ ناحية .

فإليكِ أُوَجِّهُ حديثى أيتها الأمُّ الحَنُونُ البصيرة[1] التى تَعرِف أن تبتعد

---

(١) التربية الأولى هى أكثر ما يهم، ولاجدال فى كون هذه التربية الأولى خاصة بالنساء، ولو أراد خالق الطبيعة أن تكون خاصة بالرجال لأنعم عليهم باللبن لتغذية الأولاد ، وفى كل وقت، إذن، خاطبوا النساء فى رسائلكم عن التربية تفضيلا، وذلك أنهن ، فضلا عن كونهن ملزمات بالسهر عليهم عن كثب=

* Préjugés

عن الشارع وأن تَصُون الشُّجَيْرَةَ الناشئة من صَدْم الآراء البشرية ! وتَعَهَّدِى الغَرْسَ الحديث ورَوِّيه قبل أن يموت ، فستكون ثِمارُه مدارَ سعادتِك ذاتَ يوم ، وأقيمى مُبَكِّرَةً نِطاقاً حَوْل روح ابْنِكِ ، أَجَلْ ، يُمْكِنُ آخَرَ أن يَرْسُم الدائرة ، ولكنه يجب عليكِ وحدَكِ أن تَضَعِى الحاجِزَ[1] .

وتُكيَّف النباتات بالزراعة ، ويُكيَّف الناس بالتربية ، وإذا كان الإنسان يولد طويلاً قويًّا فإنه لا فائدة له من قامته وقوته حتى يتعلم الانتفاع بهما ، وهما يكونان وَبالاً عليه عند مَنْعِ الآخرين من الإسراع إلى

=أكثر من الرجال ، وفضلا عن كونهن أكثر عملا فيهم، يكترثن للنجاح أكثر من اكتراث الرجال بمراحل ماوجد معظم الأرامل تحت رحمة أولادهن تقريباً، وما جعلهن هؤلاء الأولاد يشعرن شعوراً قوياً فى الخير والشر بنتيجة الأسلوب الذى نشأنهم عليه،وإذ أن القوانين كثيرة العناية بالأموال قليلة العناية بالأشخاص دائماً، وذلك عن هدف إلى الأمن لا إلى الفضيلة ، فإنها لا تمنح الأمهات سلطاناً كافياً ، ومع ذلك فإنهن أثبت حالا من الآباء، وأصعب واجباً ، وإن رعايتهن أشد خطراً فى حسن انتظام الأسرة ، وإنهن أشد تعلقاً بالأولاد على العموم، أجل ، توجد أحوال يعذر فيها الولد ، نوعاً ما ، إذا ما قصر فى احترام أبيه، ولكن الولد فى أى حال إذا كان من فساد الطبع ما يقصر معه فى احترام أمه التى حملته فى بطنها وغذته بلبنها وغفلت عن نفسها فى سنوات للعناية به وجب الإسراع فى خنق هذا الشقى كغول لا يستحق الحياة ، وتدلل الأمهات أولادهن كما يقال ، وهن يخطئن فى هذا لا ريب ، ولكنهن أقل خطأً منكم أنتم الذين يفسدونهم ، وتريد الأم أن يكون ولدها سعيداً منذ الآن ، وهى على حق ، وهى إذا ما أخطأت فى الوسائل وجب تنويرها، وماعند الآباء من طمع وبخل واستبداد وبصيرة زائفة وإهمال وغلظة أشد شؤماً على الأولاد مئة مرة من حنان الأمهات الأعمى ، ومع ذلك يجب إيضاح المعنى الذى أطلقه على اسم الأم، وهذا ما أصنعه فيما بعد .

(١) لقد وكد لى أن مسيو فورمه اعتقد أننى أردت الكلام عن والدتى هنا، فذكر هذا فى كتاب، فهذا استهزاء شديد بى أو بمسيو فورمه .

مساعدته[1] ، وهو إذا ما وُكِل إلى نفسه مات بؤساً قبل أن يَعْرِف احتياجاتِه ، ويُرْثَى لحال الطفولة ، ولا يُبْصَرُ أن النوع البشرىَّ يَهْلِك إذا لم يبدأ الإنسان بأن يكون طفلاً .

نحن نُولَد ضعفاء ، ونحن محتاجون إلى القوة ، ونحن إذْ نُولَدُ خالين من كلّ هذا فإننا نحتاج إلى العَوْن ، ونحن إذ نُولَدُ بُلْهاً فإننا نحتاج إلى الإدراك ، وكلُّ ما ليس لدينا عند وِلادتنا ، وكلُّ ما نحتاج إليه ، إذْ كان عظيماً فإننا نناله بالتربية .

وتأتينا هذه التربية من الطبيعة أو من الناس أو من الأشياء ، ونشوء خصائصنا وأعضائنا نشوءاً باطنيًّا هو تربيةُ الطبيعة ، وما نتعلمه من إعمال هذا النشوء هو تربيةُ الناس ، وما نكتسبه بتجرِبتنا الخاصة مما يحيط بنا هو تربيةُ الأشياء .

إذَنْ ، صُوِّر كلُّ واحدٍ منا بثلاثة أنواعٍ من المعلِّمين ، والتلميذُ الذى يتباين فيه مختلِفُ دروسهم يُعَدُّ سيِّء التهذيب ، ولا يكون مطابقاً لنفسه مطلقاً ، والتلميذُ الذى تَقَعُ فيه كلُّها على عين النِّقاط وتَهْدِف إلى نَفْس الأغراض يسير وحدَه نحو غايته ويعيش وَفْقَ هذا ، ويُعَدُّ حَسَنَ التهذيب .

والواقعُ أن تربية الطبيعة ، من بين هذه التربيات المختلفة الثلاث ، لا تتوقف علينا مطلقاً ، وأن تربية الأشياء لا تتوقف علينا إلَّا من بعض النواحى ، وأن تربية الناس وحدَها هى التى نهيمن عليها حقًّا ، ومع ذلك

---

(١) بما أنه مشابه لهم ظاهراً ، ولكن من غير كلام ومن غير أفكار يعبر عنها بالكلام ، فإنه لا يستطيع إطلاعهم على احتياجه إلى مساعدتهم ، ولا شىء فيه يوحى إليهم باحتياجه هذا .

فإن سيطرتنا عليها ليست سوى افتراض ، وإلَّا فمن ذا الذى يستطيع أن يأمُلَ توجيهَ أقوالِ جميع من يحيطون بالولد وأفعالهم توجيهاً تامًّا ؟

وعند ما تُعَدُّ التربية فنًّا يكون نجاحها ، إذَنْ ، متعذراً تقريباً ما دام التضافر الضرورىُّ لنجاحها لا يتوقف على أحد ، وكلُّ ما يُمْكِن بذلُه من جُهْدٍ هو أن يُقْتَرَب من الهدف بعضَ الاقتراب ، ولكن لا بُدَّ من الحظِّ لبلوغه .

وما هذا الهدف ؟ هذا هو هدف الطبيعة ، وهذا ما يُثْبَتُ ، وإلى التربية التى لا سلطان لنا عليها يجب أن تُوَجَّه التربيتان الأخريان ما دام تضافرُ التربيات الثلاث أمراً ضروريًّا لكمالها ، ولكن قد يكون لكلمة الطبيعة هذه معنًى بالغُ الإبهام ، فلْنَعْمَلْ على تعيينه هنا .

والطبيعةُ ليست سوى العادة[1] كما يقال لنا ، وما معنى هذا ؟ ألاَ يُوجَدُ من العادات ما يُؤْلَفُ كَرْهاً فلا يُطْفِئُ الطبيعةَ مطلقاً ؟ ومن هذا عادةُ النباتات التى تُحْمَل على اتجاهٍ أُفُقِىٍّ ، والنباتُ إذا أُطْلِقَ حافظ على المَيْلِ الذى أُكْرِه على اتخاذه ، غير أن النُّسْغَ لم يُغَيِّرْ ، قَطُّ ، اتجاهَه الأولَ لهذا السبب ، والنباتُ إذا داوم على النموِّ عاد تَمَدُّدُه عَموديًّا ، وقُلْ مِثْلَ هذا عن مُيُول الناس ، فالإنسان إذا ما بَقِىَ على الحال عينِه أمكن

---

(١) يؤكد لنا مسيو فورمه أن هذا لا يقال تماماً ، ومع ذلك يلوح لى أن هذا قيل فى الشطر الآتى الذى أعزم على الجواب عنه ، وهو :

« ليست الطبيعة غير العادة إذا ما صدقتنى »

ويعرض مسيو فورمه ، الذى لا يريد ازدهاء أمثاله ، متواضعاً ، قياس دماغه على أنه قياس الإدراك البشرى .

احتفاظُه بمُيُوله الناشئة عن العادة والتي هي أقلُّ الأمور طبيعةً عندنا ، ولكن الوَضْعَ إذا ما تَبَدَّل انقطعت العادة وعاد الطبيعيُّ ، والتربيةُ ليست غيرَ عادةٍ في الحقيقة ، أولاَ يُوجَدُ من الناس مَنْ يَنْسَوْن تربيتَهم ويَخْسرُونها وآخرون مَنْ يحتفظون بها كما هو الواقع ؟ ومامصدر هذا الاختلاف ؟ إذا ما وَجَبَ قَصْرُ اسم الطبيعة على العادات الملائمة للطبيعة أمكن اتقاء هذه البلبلة.

ونحن نُولَد ذوى إحساس ، ولا ننفكُّ بعد ولادتنا نتأثر على وجوهٍ مختلفة بالأشياء التي تحيط بنا ، فإذا ما صِرْنا شاعرين بإحساساتنا وُطِّنَتْ نفوسنا على طلب الأشياء التي تؤدى إليها أو تجَنُّبِها، وذلك وَفْقَ كونها مُسْتَحَبَّةً أو مستكرَهةً أوَّلاً ، ثم وَفْقَ ما نَجِدُ من مطابقة أو تباين بيننا وبين هذه الأشياء ، وأخيراً وَفْقَ الُحكْم الذى نَحْمِلُه عن ذلك حَوْل فكرة السعادة أو الكمال التي يُوحِي العقلُ بها إلينا ، وتَتَّسِعُ هذه الأحوال وتَثْبُت كلما غَدَونا أكثرَ إحساساً ومعرفةً ، ولكنها إذ تُقْتَسَرُ بعاداتنا فإنها تَفْسُد بمبتسراتنا زُهاء ، وهى ، قبل هذا الفساد ، تكون ما أُسَمِّيه الطبيعةَ فينا .

ويجب رَدُّ كلِّ شيء إلى هذه الأحوال الابتدائية إذَنْ ، وهذا ممكنٌ لو كانت تربياتُنا الثلاثُ مختلفةً فقط ، ولكن ما العملُ إذا كانت متناقضةً ، إذا كان الرجل يُرَبَّى من أجْل الآخرين بدلاً من أجْل نفسه ؟ فهنالك يكون الاتفاق مستحيلاً ، وإذْ لا بُدّ من مكافحة الطبيعة أو النُّظُم الاجتماعية فلا بُدّ من الِخيارِ بين صُنْع رجلٍ أو مواطن ، وذلك لأنه لا يُمكن صنعُ هذا وذاك معاً .

وكلُّ مجتمعٍ جزئيٍّ يميل إلى الانفصال عن المجتمع الكبير إذا كان

ضيقاً حسنَ الاتحاد ، وكلُّ مواطنٍ قاسٍ على الأجانبُ ، فالأجانبُ ليسوا سوى أناسٍ ، ولا يُعَدُّون شيئاً فى نظره[١] ، ولا مَفرَّ من هـذا العيب ، ولكنه واهٍ ، والمُهِمُّ أن يكون المرء صالحاً نحو من يعيش معهم ، وكان الإسپارطىُّ طامعاً بخيلاً ظالماً فى الخارج ، ولكن النزاهة والإنصاف والاتفاق كانت سائدةً داخلَ أسواره ، واحْذَرُوا أولئك المواطنين العالَميين الذين يُغْرِبون فى كتبهم بحثاً عن الواجبات التى يزدرون القيام بها فيما حَوْلَهم ، فمثلُ هؤلاء الفلاسفة يُحِبُّون التتر ليُعْفَوْا من حُبِّ جيرانهم .

ويعيش الإنسانُ الطبيعىُّ من أجل نفسه ، وهو وَحدةٌ عددية ، وهو كلٌّ مطلقٌ ، فلا علاقة له بغير نفسه أو شبيهه ، وليس الإنسان المدنىُّ غيرَ وَحدة كَسْرِية تتوقف على المَخْرَج وتكون قيمتها فى علاقتها بالكُلِّ ، أى بالهيئةِ الاجتماعية ، والنُّظُمُ الاجتماعية الصالحة هى التى تَعرِف أحسنَ من سواها إفسادَ الإنسان وتجريدَه من كيانه المطلق لتمنحه كياناً نسبياً وذاتيةً ضِمْنَ الوَحدة المشترَكة ، فيعود كلُّ فردٍ لا يعتقد معه أنه واحدٌ ، بل جزءٌ من الوَحدة ، ويعود معه غيرَ مُحِسٍّ فى غيرِ المجموع ، ولم يكن المواطنُ فى رومة كايُوسَ أو لُوسْيُوسَ ، بل كان رومانياً ، حتى إنه كان يُحِبُّ الوطن أكثر من نفسه ، وكان رِيغُولُوس يَدَّعِى أنه قرطاجىٌّ ما صار مآلَ سادته ، وهو كأجنبيٍّ كان يَرْفِضُ تَبَوُّأَ مقعدِه فى سِنات رومة ، فوجب أن يأمره قَرْطاجىٌّ بذلك ، وقد اشتاط غيظاً عند ما أُريد إنقاذُ حياته ، وقد فاز فعاد ظافراً ليموت

(١) وهكذا فإن حروب الجمهوريات أقسى من حروب الملكيات ، ولكن حرب الملوك إذا كانت معتدلة فإن سلمهم هائلة ، فالأفضل أن يكون المرء عدواً لهم من أن يكون من رعاياهم .

شَرَّ موتة ، ويلُوح لى أنه لا يوجـد شَبَهٌ كبير بين رِيغُولُوسَ ومن نَعْرِف من الرجال .

ويُقَدِّم الإسپارطىُّ پيدَارِيتُ نفسَه ليُقْبَل فى مجلس الثلاثمئة فيُرْفَض ، وينصرف مسروراً كثيراً لوجود ثلاثمئة رجلٍ فى إسپارطة أفضلَ منه ، وأفرِضُه مخلصاً فيما أظْهر ، ويوجد ما يَحْمِل على اعتقاد الأمر كهذا ، فذاك هو المواطن .

وكان لامرأةٍ إسپارطيةٍ خمسةُ أبناء فى الجيش ، وكانت تنتظر أنبـاء عن المعركة ، ويَفِدُ إيلُوتِىٌّ*، وتسأله عنها وهى ترتجف :

— أبناؤكِ الخمسةُ قُتِلوا .

— هل سألتُك عن هذا أيها العبد الوَغْد ؟

— لقد انتصرنا .

وتُهْرَعُ الأمُّ إلى المعبد لتَحْمَدَ الآلهة ، فهذه هى المواطنة .

ومن يَوَدّ أن يحتفظ فى النظام المدنىّ بصدارة مشاعر الطبيعة فإنه لا يعْرِف ما يريد ، فهو إذْ يناقض نفسه دائماً مترجحاً بين مُيُوله وواجباته فإنه لن يكون رجلاً ولا مواطناً ، ولن يكون صالحاً لنفسه ولا للآخرين ، وإنما يكون واحداً من رجال أيامنا ، وإنما يكون فرنسيًّا ، إنكليزيًّا ، بُرْجوازيًّا ، ولن يكون هذا شيئاً .

وعلى من يَوَدُّ أن يكون شيئاً ، على من يَوَدُّ أن يكون هو إياه ، واحداً دائماً ، أن يفعل كما يقول ، أن يُقَرِّر السبيل الذى يَسْلُكه ، أن يتخذه حازماً وأن يَتَّبِعَه دائماً ، وأنتظرُ دلالتى على نادرةِ الزمان هذا لأعْرِف هل

* الإيلوتى : اسم كان يطلق على العبد فى إسبارطة .

هو رجلٌ أو مواطن ، أو لأعرف ما يَصْنَع ليكون هذا وذاك معاً .

وينشأ عن هذه الأغراض المتباينة شكلان للنظام مختلفان ، أحدهما عامٌّ مشترك والآخر خاصٌّ أهليٌّ .

وإذا أردتم أن تَعرِفوا ما التربية العامة فاقرءوا جمهورية أفلاطون ، فهى ليست كتاباً فى السياسة مطلقاً ، خلافاً لمن يَحْكُمون فى الكتب بعُنوانها ، وهى أجملُ رسالةٍ وُضِعَتْ عن التربية .

وإذا أُريد بَعْثُ أوهامٍ إلى البلد ذُكِرَ نظام أفلاطون ، ولو لم يَصْنَع لِيكُورْغُ غيرَ تدوين نظامه كتابةً لوجدته أشدَّ وهماً ، فأفلاطونُ لم يفعل غيرَ تصفية قلب الإنسان ، وقد أفسده لِيكُورْغ .

وعاد النظامُ العامُّ غيرَ موجودٍ ، وعاد لا يُمْكِن أن يكون موجوداً ، وذلك لأنه عاد لا يُمْكِن وجودُ مواطنين حيث عاد لا يُمْكِن وجودُ وطن ، ويجب مَحْوُ كلمتى الوطن والمواطن من اللغات الحديثة ، وأعرِف سببَ هذا ، ولكنى لا أريد قولَه ، فليس هذا من موضوعى مطلقاً .

ولا أعُدُّ نظاماً عامًّا تلك المؤسَّساتِ المضحكةَ التى تُسَمَّى كليات[1]، وكذلك لا أعُدُّ التربيةَ الدارجة منه ، وذلك لأن هذه التربيةَ إذْ تَنْزَع إلى غايتين متباينتين ، لا تُدْرِكُهما ، وهى لا تَصْلُح لغير صُنْع رجالٍ مُرائين مُظْهِرين ، دائماً ، أنهم يعيشون فى سبيل الآخرين مع أنهم لا يُفَكِّرُون فى غير أنفسهم ، والواقعُ أن هذه البيانات ، إذْ كانت شائعة بين جميع الناس ، لا تَخْدَع أحداً ،

(١) يوجد فى كثير من المدارس ، ولا سيما جامعة باريس ، أساتذة أحبهم وأقدرهم كثيراً ، فأعتقد قدرتهم البالغة على تربية الناشئة لولم يحملوا على اتباع العادة القائمة ، وأستنهض أحدهم لنشر مشروع الإصلاح الذى فكر فيه ، وقد يحاول أخيراً أن يشفى من الداء بأن يرى أن له دواء .

وهى لا تَعْدُو كونها جهوداً ضائعة .

وينشأ عن هذه المتناقضات ما نَشْعُر به فى أنفسنا بلا انقطاع ، ونحن إذْ نُقَادُ بالطبيعة وبالرجال على طرُق متباينة ، ونحن إذْ كنا ملزَمين بأن نُوَزِّع بين هذه العوامل المختلفة فإننا نَتَّبِع فيها مُرَكَّباً لا يَسُوقنا إلى إحدى الغايتين أو إلى الأخرى ، ونحن إذْ كنا مكافَحين مذبذَبين فى جميع مجرى حياتنا فإننا نَخْتِمُها من غير أن نستطيع مطابقةَ أنفسِنا ومن غير أن نكون نافعين لأنفسنا وللآخرين .

وأخيراً تبقى التربية الأهلية أو تربية الطبيعة ، ولكنْ ما يكون أمرُ رجلٍ نُشِّئَ لنفسه فقط نحو الآخرين ؟ لو أمْكَنَ جَمْعُ الغرضين المقترَحين فى واحد بأن تزَال متناقضاتُ الرجل لأُزِيلَ عائقٌ كبيرٌ من سعادته ، ويجب للحكم فى الرجل أن يُرَى كاملَ التكوين ، فتُلاحَظ ميولُه ويُبْصَر تقدمُه ويُتَّبَع سَيْرُه ، والخلاصةُ أن من الواجب معرفةَ الإنسان الطبيعىّ ، وأعتقد أنه يُسَارُ بضعُ خُطُواتٍ فى هذه الأبحاث بعد قراءة هذا الكتاب .

وما علينا أن نفعل لتكوين هذا الرجل النادر ؟ كثيراً ، لارَيْب ، أى أن يحال دون صُنْع شىء ، وإذا ما وجَبَت معاكسة الريح وجب الرَّوْغُ يُمْنَى ويُسْرَى ، ولكن البحر إذاكان هائجاً وأريد البقاء فى المكان وجب إلقاء المِرْساة ، واحْذَرْ ، أيها الرُّبَّان الشابُّ ، أن يَمْلَصَ قَلْسُك * أو أن تجُرَّ مِرْساتُك وأن يَرُوغ مركبك قبل أن تَعْرِف ذلك .

وفى النظام الاجتماعىّ ، حيث جميعُ المواضعِ مُعَيَّنةٌ ، يجب أن يُرَبَّى

* القلس : حبل للسفينة ضخم .

الرجلُ لموضعه ، فإذا خرَج من موضعه فردٌ نُشِّئ لهذا الموضع عاد لا يكون صالحاً لشيء ، ولا تكون التربيةُ نافعةً إلا عند مطابقة الطالع لإلهام الأبوين ، وتكون التربية ضارّةً للطالب فى جميع الأحوال الأخرى ولو بسبب ما تَمْنَحه من مُبْتَسَرات ، وفى مصرَ ، حيث كان الابنُ مُلْزَماً بانتحال حال أبيه ، كان للتربية غرضٌ ثابت على الأقل ، وأما عندنا ، حيث المراتبُ وحدَها قائمةً ، وحيث الناسُ يُغَيِّرونها بلا انقطاع ، فإنه لا أحدَ يَعرِف أنه يَعْمَل ضِدّ ابنه بتَنْشِئته على مرتبته .

والناسُ فى النظام الطبيعىّ إذْ كانوا كلُّهم متساوين فإن حال الإنسان هو إلهامُهم المشترَك ، فمن تُحْسَن تربيتُه لا يستطع أن يصنع سوءاً فيما يُرَدّ إليه ، ولا يهمنى كثيراً أن يميل تلميذى إلى الجيش أو الكنيسة أو الفقه ، والطبيعةُ تَدْعُوه إلى الحياة البشرية قبل إلهام الأبوين ، والحياةُ هى المِهْنةُ التى أُريد أن أُعَلِّمه إياها ، وهو إذا ما تَخَرَّج علىَّ لن يكون ، كما أَضْمَنُ ، قاضياً ولا جنديّاً ولا قِسِّيساً ، بل يكون رجلاً أوّلاً ، وكلُّ ما يجب أن يَكُونَهُ الرجلُ يَتَعَلَّمُه عند الاقتضاء بسرعةٍ كما يكون عليه ، ومن العبث أن يَحْمِله النصيب على تغيير موضعه ، فهو يكون فى مكانه دائماً ، « فقد علمتُ بأمرك أيها النصيبُ وحملتُ على اعتقالك ، وقد سَدَدْتُ عليك جميعَ المسالك التى تستطيع أن تَزْلَقَ منها إلىّ » .

وحالُ الإنسان هو ما يقوم عليه بحثنا ، وعندى أن الذى يكون بيننا أحسنَ علماً باحتمالِ خير هذه الحياة وشرِّها يكون أحسنَ تنشئةً ، ومن ثَمّ تَقُوم التربيةُ الحقيقية على التمارين أكثرَ مما على التعاليم ، ونبدأ بتعليم أنفسنا بأن

نبدأ بالحياة ، وتبدأ تربيتنا معنا ، ومُرْضِعُنا هى معلمتنا الأولى ، وكان لكلمة التربية عند القدماء معنى غيرُ الذى عِنْدنا لا نُطْلِقُه عليها ، فهى تَعْنِى الغِذاء ، ويقول فارُّون : « إن القابلة تتلقى والمُرْضِعَ تُنَشِّئ والمهذِّب يَفتُق الذهن والأستاذَ يعلِّم » ، وهكذا تكون التربية والتهذيب والتعليم ثلاثةَ أمورٍ مختلفةً فى موضوعها اختلافَ الحاضنة والمُهَذِّب والأستاذ ، غير أن هذا التفريق غير مُبْتَغًى ، فلا يَنْبَغِى للولد أن يَتَّبع غيرَ دليلٍ واحد .

ويجب ، إِذَنْ ، تعميمُ مقاصدنا ، وأن يُرَى الرجلُ المجردُ فى تلميذنا ، الرجلُ المعرَّضُ لجميع عوارض الحياة البشرية ، وإذا كان الناس يولدون مرتبطين فى أرض بلدٍ ، وإذا كان عينُ الفصل يَدُوم فى جميع السنة ، وإذا كان كلٌّ واحدٍ يَبْلُغ من تَعَلُّمه بنصيبه ما لا يَقْدِر معه على تغييره مطلقاً ، فإن العادة القائمة تكون صالحة من بعض النواحى ، وإذْ أن الولد الذى يُنَشَّأ على حرفته لا يَخْرُج منها مطلقاً فإنه لا يُمْكِن أن يكون عُرْضةً لمحاذير حرفة أخرى ، ولكنه إذا ما نُظِر إلى تَقلُّب الأمور البشرية ، وإلى روح هذا العصر المضطربة القَلِقَة التى تَقْلِب كلَّ شىء فى كلِّ جيل ، فهل من الممكن أن يُتَصوَّرَ مِنْهاجٌ أَخْرَقُ من تنشئة ولد لا يَخْرُج به من غرفته مطلقاً ، ويجب معه أن يُحاطَ بخَدَمه دائماً ؟ فإذا ما وَطِئَ هذا الشقىُّ الأرضَ خُطوةً ، أو نَزَل درجةً ، هَلَكَ ، فليس هذا تعليمَه احتمالَ الألم ، بل تدريبُه على الشعور به .

ولا يُفَكِّر الإنسان فى غير حِفْظ ولده ، وليس هذا كافياً ، فيجب تعليمُه حفظَ نفسه رجلاً ، واحتمالَ ضَرَباتِ القَدَر ، ومجاوزةَ العُسْر واليُسْر ، والعيشَ فى جليد أيسْلاندة وعلى صخرة مالطة المحرقة ، ومن العبثْ أن تتخذوا من الاحتياطات ما لا يموت معه ، فلا بُدَّ من موته مع

ذلك ، وإذا لم يكن موتُه نتيجةَ عنايتكم فلأن هذه العناية أخطأت غرَضَها ، والمسئلةُ هي أن يُعلَّم ما يُحالُ به دون موته أقلَّ من جعله يحيا ، وليست الحياةُ تَنفُّسًا ، بل سَيْرٌ ، بل استعمالٌ لأعضائنا وحواسِّنا وخصائصنا وجميع أجزاء كياننا استعمالاً نَشْعُر معه بوجودنا ، وليس الرجل الذي عاش أكثرَ من غيره هو الأكثرَ عَدًّا للسنين ، بل الذي شَعَرَ بالحياة أكثرَ من سواه ، وقد يُدفَن الرجل ابناً للمئة مع عَدِّه ميتاً منذ ولادته ، وكان أصلحَ له أن يكون قد مات شابًّا لو عاش حتى هذا الدورِ على الأقل .

وتقوم جميعُ حكمتنا على مُبْتَسَراتٍ دَنِيَّة ، وليست جميعُ عاداتنا غيرَ تسخيرٍ وعُسْرٍ وقَسْرٍ ، ويُولَد الرجل المدنيُّ ويحيا ويموت في العبودية ، وذلك أنه يُخَاطُ في قِماطٍ عند ما يُولَد ، وأنه يُسَمَّرُ في تابوت إذا مات ، وأنه يُقيَّد بنُظمِنا ما حافظ على وجهٍ بشريّ .

ويقال إن كثيراً من القوابل يَزْعُمْنَ أنهن بَدَلْكِهِن رؤوس الأطفال المولودين حديثًا يمنحنها شكلاً أكثر ملاءمة فيُسْمَحُ بذلك ! ولذا تكون رؤوسنا سيئةَ التصوير على الوجه الذي يُكوِّنُها به صانعُ وجودنا ، فيجب تكييفُها من قِبَل القوابل خارجاً ومن قِبَل الفلاسفة داخلاً ، ولذا يكون الكرايبُ أسعدَ حالاً منا .

« لم يَكَدْ الولد يَخْرُج من بطن أمه ، ولم يَكَدْ يتمتع بحرية الحركة وَيَمُدُّ أعضاءه ، حتى يُعْطَى قيوداً جديدة ، فهو يُقْمَطُ ويُضْجَع مُثَبَّتَ الرأس مُمَدَّد الساقين مُدْلَى الذراعين بجانب الجسم ، وهو يحاط بالبَياضات والعصائب من كلِّ نوعٍ إحاطةً لا تَسْمَح له بتغيير وَضْعه ، وهو يكون سعيداً إذا لم يُشَدّ شَدًّا

يمنعه من التنفس وإذا حَدَثَ من الحَذَر ما يُضْجَع معه على الجانب حتى يُمْكِنَ السائلَ الذى يجرى من فمه أن يسقط من تلقاء نفسه ! وذلك لأنه لا يكون لديه من حرية إدارة الرأس ما يَسْهُل به جريانُه » .

ويحتاج المولودُ حديثاً إلى مَدِّ أعضائه وتحريكها إنقاذاً لها من الخَدَر الذى يستمرُّ زمناً طويلاً عن جَمْعِها ضمن لِفَافة ، أَجَلْ ، إنها تُمَدُّ ، ولكنها تُمْنَعُ من الحركة ، حتى إن الرأس يُقَيَّدُ بكُمَّة* ، فيلوح أنه يُخْشَى ظهورُه ذا حياة .

وهكذا فإن اندفاع أجزاء البدن الداخلية التى تميل إلى النُّمُوِّ يجدُ عائقاً منيعاً للحركات الضرورية ، ولا ينفكُّ الولد يأتى جهوداً غيرَ مُجْدِية تستنفد قواه أو تؤخِّر تقدمها ، وقد كان فى السَّلَى** أقلَّ ضيقاً وعُسْراً وضغطاً مما ضِمْن بَيَاضاته ، ولا أرى ماذا رَبِح من ولادته .

ولا يُؤَدِّى الجمود والقَسْر اللذان تُمْسَك أعضاء الولد بهما إلى غير عَوْق دَوْرة الدم والأخلاط ومنع الولد من التَّقَوِّى والنموِّ وإلى غير الإضرار بِبِنْيَته ، ويكون الناس ، فى جميع الأمكنة التى لا تُتَّخَذ فيها هذه الاحتياطات الطائشة مطلقاً ، طِوَالاً أقوياء حَسَنِى التناسب ، وتكون البلاد التى يُقْمط فيها الأولاد بلاداً يَكْثُر فيها الحُدْبُ والعُرْج والفُلْج*** والقُفْد**** وجميعُ أنواع الشُّوه من الناس ، ويُبَادَر إلى تشويه الأجسام بِضَغْطِها خشيةَ أن تُشَوَّه بالحركات الطليقة ، وهى تُجْعَل شُلاًّ ليُحَالَ دون خَبَلها***** !

---

* الكمة : القلنسوة المدورة . ** السلى : جلدة يكون ضمنها الولد فى بطن أمه .

*** الفلج : جمع الأفلج وهو الذى تباعد ما بين قدميه أو يديه .

**** القفد : جمع الأقفد وهو المسترخى العنق .

***** الخبل : فساد الأعضاء .

ألا يُؤثِّر القَسْرُ البالغُ هذه الدرجةَ من القسوة فى مزاجهم كما يؤثِّر فى بُنْيَتهم ؟ يقوم إحساسُهم الأول على شعورٍ بالألم والغَمِّ ، ولا يَجِدُون غيرَ عوائقَ فى جميع ما يحتاجون إليه من حركات ، وهم إذْ يكونون أشقى من الجانى المُوثَقِ بالقيود فإنهم يَبْذُلون جهوداً على غير جَدْوَى ، فيَغْضَبُون ويَصْرُخون ، ألا تَرَوْن أن أصواتَهم الأولى دموع ؟ أعتقد هذا جيداً ، وذلك أنكم تَصُدُّونهم منذ وِلادتهم ، والقيودُ هى أُولَى العطايا التى يَتَلَقَّوْنها منكم ، والأوجاعُ هى أولُ ما يَبْتَلُون من معاملات ، والصوتُ هو كلُّ ما عندهم من أمرٍ حُرٍّ ، فكيف لا يستعملونه إعراباً عن تَوَجُّعهم ؟ أَجَلْ ، إنهم يَصْرُخون من الألم الذى تُوجِبُونه فيهم ، ولو قُيِّدْتم مثلهم لكان صُراخكم أشدَّ من صُراخهم .

وما مصدرُ هذه العادة المخالفة للصواب والمُضَادَّةِ للطبيعة ؟ لم تُرِد الأمهاتُ إرضاعَ أولادهن منذ ازدرائهن واجبَهن الأول ، فوجب تفويضُ أمرهم إلى نساء مرتزقات يَجِدْن أنفسهن أمهاتٍ لأولادٍ غرباءَ غيرَ مرتبطاتٍ فيهم بروابط الطبيعة فلا يحاولن غيرَ دَفْع التعب عنهن ، وتقضى الضرورة بتعهد ولدٍ طليق ، ولكن هذا الولد إذا ما كان مُوثَقاً جيداً أُلْقِيَ فى زاويةٍ من غير أن يُبَالَى بعويله ، وما أهميةُ هلاكِ الرضيع أو بقائه عليلاً فى بقية أيامه ما فُقِدَ الدليل على إهمال المُرْضع وما دام الرضيعُ لا يَكْسِر ساقَه أو ذراعَه ؟ تُحْفَظُ أعضاؤه على حساب بَدَنه ، وتُبَرَّأُ المُرْضِعُ مهما وَقَع .

وهل تَعْرِف هؤلاء الأمهاتُ الناعمات ، اللائى تَخَلَّصْنَ من أولادهن فَرِحاتٍ مُسْلِماتٍ أنفسَهن إلى ملاهى المدينة ، ما يعامَل به الولد فى قِماطه

فى القرية ؟ إذا ما طرأ على المُرْضِع أقلُّ عملٍ عُلِّقَ الولدُ فى مِسْمارٍ كصُرَّة ثياب ، وبَيْنا تقوم المرضِع بأعمالها من غير استعجال يَبْقَى الطفلُ التَّعِسُ مصلوباً هكذا ، وكانت وجوه جميع من وُجِدُوا فى هذا الوضع بنفسجيةَ اللون ، وإذْ كان الصدرُ المضغوطُ على هذا الوجه لا يَدَعُ الدم يَسْرِى فإن الدم يَصْعَد فى الرأس ، ويُعَدُّ الولد المتوجِّعُ هادئاً جداً ما خَلَا من القدرة على الصُّرَاخ ، وأَجْهل مقدارَ الساعات التى يستطيع الولد أن يبقى بها فى هذه الحال من غير أن يَفْقِد حياته ، ولكننى أشكُّ فى دوام هذا زمناً طويلاً ، وأرى أن هذا من أعظم منافع القِماط .

ويُزْعَمُ أن الأولاد إذا ما كانوا طُلَقاء أَمْكَن أن يتخذوا أوضاعاً سيئة وأن ينتحلوا من الحركات ما يُمْكِن أن يُؤذِىَ حسنَ تكوين أعضائهم ، فهذا هو برهان فارغٌ من براهين حكمتنا الفاسدة التى لا تؤيِّدُها أية تجربة كانت ، ولا يُرَى بين جَمْع الأولاد الذين هم فى أممٍ أرصنَ منا ، فيُرْضَعُون مع حريةٍ جامعةٍ لأعضائهم ، واحداً يَضُرُّ نفسَه أو يَخْبُلُها ، وهم لا يُمْكِن أن يَمْنَحوا حركاتِهم من القوة ما يجعلها خَطِرَةً ، وهم إذا ما اتخذوا وضعاً عنيفاً أنذرهم الألمُ بضرورة تغييره حالّاً .

ولَمَّا يَعِنَّ لنا أن نَضَع فى القِماط صغارَ كلابنا وسنانيرنا ، فهل يُرَى أنه أصابها سوءٌ من هذا الإهمال ؟ أوافق على أن الأولاد أكثرُ ثِقَلاً ، ولكنهم أشدُّ ضَعْفاً بهذه النسبة ، وكيف يَخْبُلُون إذا ما كادوا يتحركون ؟ إذا ما أُلْقُوا على ظهورهم ماتوا على هذا الوضع ، كالسُّلَحفاة ، عاجزين عن التقلب مطلقاً .

وإذْ لم يَرْضَ النساء بانقطاعهن عن إرضاع أولادهن فإنهن ينقطعن عن الرغبة فى عمل هذا ، والنتيجةُ أمرٌ طبيعىٌ ، وذلك أن الأمومة إذ كانت عبئاً ثقيلاً فإنه يُوجَدُ فى الحال من الوسائل ما يُتَخَلَّصُ به منها تماماً ، ويُرَادُ إتيانُ عملٍ غير مُجْدٍ استئنافاً له دائماً ، فيُحَوَّل التَّوَقانُ إلى تكثير النوع بما يَضُرُّه ، فإذا أُضيفت هذه العادة إلى أسباب نقص السكان الأخرى أُنْبِئْنا بمصير أوربة القريب . ولن يُعَتِّمَ ما توجبه من العلوم والفنون والفلسفة والطبائع أن يَجْعَل منها بَلْقَعاً ، فتُعْمَرُ بالضوارى ، ولا تكون بهذا قد اسْتَبْدَلَتْ سكاناً بسكانٍ كثيراً .

وقد لاحظتُ ، فى بعض الأحيان ، حيلةَ صُغْرَيات النساء اللاتى يتظاهرن بالرغبة فى إرضاع أولادهن ، وذلك أنهن يَفْعَلْن ما يُحمَلْن به على العدول عن هذا المراد بتدخُّل الأزواج والأطباء[1] ولا سيا الأمهاتُ ، وذلك أن الزوج الذى يكون من الجرأة ما يوافق معه على إرضاع الأم لولدها يَهْلِك ، وأن من يودُّ أن يتخلَّى عنها يُعَدُّ قاتلاً ، فعلى الأزواج الفُطْن أن يُضَحُّوا بالحبِّ الأبوىّ من أجْل السلام ، ومن حسن الحظِّ أن يوجد فى الأرياف نساء أكثرُ عَفافاً من نسائكم ! وأحسنُ حظًّا من ذلك أن يكون الوقتُ الذى يَظْفَرُ به هؤلاء غيرَ مُعَدٍّ لآخرين سواكم .

ولا مراء فى واجب النساء ، ولكنه يجادَل ، عند ازدرائهن لهذا الواجب ، فى هل يتساوى لدى الأولاد أن يُرْضَعوا من لبنهن أو من لبنٍ

(١) ما انفك تحالف النساء والأطباء يبدو لى أدعى غرائب باريس إلى الضحك ، فبالنساء ينال الأطباء شهرتهم ، وبالأطباء يركب النساء هواهن ، وبهذا يسهل إدراك ما يجب أن يتصف به الطبيب بباريس من براعة ليصير مشهوراً .

آخر ، فهذه مسئلةٌ يقضى فيها الأطباء وَفْقَ رغبة النساء ، وأما أنا فأرى أنه يَجْدُر بالولد أن يمتصّ لبنَ مُرْضعٍ ذاتِ صحةٍ ، لا لبنَ أمٍّ فاسدة ، إذا كان عليه أن يخشى شرًّا جديداً من عَيْنِ الدّم الذى صُوِّرَ منه .

ولكنْ هل يجب أن يُنْظَر إلى المسئلة من الناحية البدنية فقط ؟ وهل الولدُ أقلُّ احتياجًا إلى عناية أمٍّ مما إلى ثديها ؟ يُمْكِن نساءً أُخَرَ ، وحيواناتٍ أيضاً ، أن تعطيه اللبنَ الذى تَبْخَل به عليه ، ولكن لا شيء يقوم مقام عطف الأمّ ، وتُعَدُّ الأمُّ التى أرضعت الولدَ من ثَدْيِ أخرى بدلاً من ثديها أُمًّا فاسدة ، فكيف تكون مرضعاً صالحة ؟ يمكنها أن تكون هكذا ، ولكن على مَهْلٍ ، ويجب أن تُغَيِّرَ العادةُ الطبيعةَ ، ويكون لدى الولد السيىءِ الرعاية من الوقت ما يَهْلِكُ فيه مئةَ مرةٍ قبل أن يكون لدى مُرْضِعه حنانُ الأمّ .

وينشأ عن هذا الخير نفسِه محذورٌ يكفى وحدَه لأن يَنْزِع من كلّ امرأةٍ جرأةَ إرضاع ولدها من قِبَل امرأةٍ أخرى ، وذلك هو اقتسامُ حقوقِ الأمّ وإن شئت فقُل نَقْلَ هذه الحقوق ، وذلك أن ترى المرأةُ ولدَها يُحِبُّ امرأةً أُخرى كما يحبُّها وأكثرَ مما يحبُّها ، وذلك أن تَشْعُر بأن العطف الذى يَحْفَظُه لأمه الخاصة هو لطفٌ وبأن العطف الذى يَحْمِلُه لأمه المُنْتَحَلَة هو واجبٌ ، وذلك ألَا ألْزَمُ بحُبّ ابنٍ حيث وجدتُ عنايةَ أمٍّ ؟

ويقوم الوجه الذى يعالَجَ به هذا المحذورُ على تلقينِ الأولادِ ازدراء مَرَاضعهم بأن يعامَلْن كخادماتٍ حقيقيات ، فإذا ما أكْمَلْنَ خدمتهن استُخْلِص الولدُ ، أو سُرِّحَت المُرْضعُ ، وتُرَدُّ المُرْضعُ من رؤية الرضيع بسوء استقبالها ،

فإذا مضت بضعُ سنين عاد لا يراها وعاد لا يعرفها ، وتَغُرُّ نفسَها الأمُّ التى تعتقد أنها تقوم مقامها وتتلافى إهمالها بغلطتها ، فهى تُعَوِّد الرضيعَ الفاسدَ إنكارَ الجميل بدلاً من أن تجعل منه ابناً عطوفاً ، وهى تُعَلِّمُه أن يزدرىَ، ذاتَ يومٍ ، تلك التى وَلَدَتْه كازدرائه التى أرضعته من لبنها .

وما أكثر ما أُوَكِّد هذه النقطة لو كانت أقلَّ تثبيطاً فى تكرار موضوعاتٍ مفيدة على غير جدوى ! يتوقف هذا على أمورٍ أكثر مما يُظَنُّ ، أَوَ تريدون رَدَّ كلٍّ واحدٍ إلى واجباته الأولى ؟ ابْدَءوا بالأمهات ، فستحَارُون من التحولات التى تُحْدِثونها ، وكلٌّ يأتى من هذا الفساد الأول بالتعاقب ، ويَفسُد جميعُ النظام الخلقىِّ ، ويَنطفئ الطبيعىُّ فى جميع الأفئدة ، ويَتَّخذ داخلُ البيوت شكلاً أقلَّ حياةً ، ويعود منظرُ الأُسرةِ الناشئةِ المؤثِّرُ غيرَ جامع بين الزوجين ، غيرَ فارضٍ رعايةً للغرباء ، ويَقِلُّ احترامُ الأمِّ التى لا يُرَى أولادُها ، ولا يكون فى الأُسَرِ مَقَرٌّ مطاقاً ، وتَعُود العادةُ غيرَ مُقَوِّية لروابط الدم ، ويَعُود الآباء والأمهات والأولاد والإخوة والأخوات غيرَ موجودين ، ولا يكاد الجميع يتعاشرون ، فكيف يتحابُّون ؟ ويعودُ كلُّ واحدٍ لا يُفَكِّر فى غير نفسه ، ومتى عاد البيت لا يكون غيرَ مكانٍ كئيب للعُزْلة وجب البحثُ عن المَسَرَّة فى مكان آخر .

ولكنْ لِتَتَفَضَّلِ الأمهاتُ بإرضاع أولادهن ، وهنالك تَصْلُح الأخلاقُ من تلقاء نفسها ، وتَنْتَبِهُ مشاعرُ الطبيعة فى القلوب ، وتُعْمَر الدولةُ ثانيةً ، وتَجْمَعُ هذه النقطةُ الأولى ، هذه النقطةُ الوحيدة ، كلَّ شىء ، فجاذبيةُ الحياة المنزلية هى أحسن تِرْياقٍ للعيب ، ويَغْدُو ضجيجُ الأولاد الذى يُظَنُّ

أنه مزعجٌ أمراً مستحبًّا ، وهو يجعل الأب والأمّ أكثرَ لزوماً ، ويجعل أحدَهما أكثرَ قيمةً لدى الآخر ، ويَشُدُّ الرابطةَ الزوجية بينهما ، ومتى كانت الأسرةُ حيةً ذاتَ نشاط صارت رعايةُ المنزل أعزَّ عملٍ تقوم به المرأة وأحلى لهوٍ يتمتع به الزوج ، وهكذا ينشأ عن تقويم سوء واحدٍ كهذا إصلاحٌ عامٌّ حالاً ، فلا تَلْبَثُ الطبيعة أن تستردَّ جميعَ حقوقها ، ومتى عاد النساء يَكُنَّ أمهاتٍ مرةً لم يُعتِّم الرجال أن يكونوا آباءً وأزواجاً .

كلامٌ فارغٌ ! لا يُرَدُّ حتى سَأَمُ مَلَاذِّ العالَمَ إلى تلك مطلقاً ، فقد انقطع النساء عن كونهنَّ أمهاتٍ ، وعُدْن لا يَكُنَّ هكذا ، وصِرْن لا يُرِدْن هذا ، ومتى أرَدْنه لم يَكَدن يَقْدِرْن عليه ، واليوم إذا قامت العادةُ المعاكسة ناهض كلٌّ منهن معارضةَ جميع اللائى يقتربن منها متحالفاتٍ ضِدَّ مثالٍ لم يُعْطِه بعضُهن ولم يرغب الأخريات فى اتباعه .

ومع ذلك يوجد ، أحياناً ، فَتَيَاتٌ ذواتُ صلاحٍ طبيعىّ يَجْرُؤْن ، من هذه الناحية ، على اقتحام ما لِهَوَى جنسهنَّ وضوضائه من سلطانٍ ، فيَقُمْن ، عن إقدامٍ نَقِيّ ، بهذا الواجب البالغ الحلاوة الذى تَفْرِضُه الطبيعةُ عليهن ، وهل يُمْكِن أن يزيد عددُهن عن جاذبيةِ المحاسن المقدَّرة لِمَنْ يُقْبِلْنَ عليها ؟ أستندُ إلى نتائجَ ناشئةٍ عن أبسط استدلالٍ ، وإلى ملاحظاتٍ لم أرَ تكذيباً لها قَطُّ ، فأُبَشِّرُ هؤلاء الأمهاتِ الفاضلات بوَلَعٍ مكينٍ ثابت من قِبَل أزواجهن ، وبعطفٍ بَنَوِيّ حقيقىّ من قِبَل أولادهن ، وبتقديرٍ واحترامٍ من قِبَل الجُمهور ، وبنِفاسٍ سعيدٍ بلا مكروهٍ ولا سوءِ عاقبةٍ ، وبصحةٍ قوية متينة ، ثم بنعمةِ رؤيتهنَّ بناتِهنَّ يَقْتَدِين بهن ذات يوم ،

فيُورِثْنهنّ قُدْوَةً لبناتٍ أُخْرَيات .

لا وَلَدَ ، لا أمّ ، فالواجباتُ بينهما متبادَلةٌ ، وإذا ما تمّ القيام بها من طرفٍ قياماً سيئاً أهملها الطرفُ الآخر ، ويجب أن يحْترم الولدُ أمّه قَبْلَ أن يَعْرِف وجوبَ هذا ، وإذا لم يُقَوَّ حنان الدم بالعادة وبالعناية خَمَدَ فى السنين الأولى ومات القلبُ قبل أن يُولَد ، وهكذا نَخْرُج عن الطبيعة منذ الخُطُواتِ الأولى .

وكذلك يُخْرَج منها عن طريقٍ معاكس ، وذلك عند ما تُفرِط الأمُّ فى العناية بدلاً من إهمالها ، وذلك عند ما تَجْعَل من ولدها معبوداً لهـا ، وذلك عند ما تَبْلُغ من زيادة ضعفه وإنمائه ما تَحُولُ معه دون شعوره به ، وذلك أنها إذ تَرْجُو إنقاذَه من سُنَن الطبيعة تُبْعِدُ عنه ما شَقّ من التجارِب غيرَ مُفَكِّرَةٍ فى مقدار ما تَجْمَع من حوادثَ وأخطارٍ تَقَع على رأسه فى المستقبل فى مقابل مَعَاسِرَ قليلةٍ تَقِيه منها لوقتٍ قصير ، وغيرَ مُفَكِّرةٍ فى مقدار ما تنطوى عليه من حَذَرٍ جافٍ إطالةُ ضعفِ الطفولة تحت متاعب إنسانٍ نامٍ ، وتقول القصةُ إن تِيتِسَ أرادت جعلَ ابنِها غير قابلٍ للجَرْح فَغَطَسَتْه فى ماء ستِيكس ، وهذا الرمزُ رائعٌ واضح ، وعكسُ هذا ما يَصْنَع الأمهات الجافيات اللائى أتكلم عنهن ، فهن إذ يَغْمُرْن أولادَهن فى الترف يُعْدِدْنهم للألم ، وهن يفتحن مَسَامَّهم لكلّ ضرر لا يَفُوتهم أن يذهبوا فريستَه عند ما يَكْبرُون .

ولاحظوا الطبيعة ، واتّبِعُوا الطريقَ التى تَرْسُمُها لكم ، فهى تُمَرِّن الأولادَ دائماً ، وهى تُقَوِّى مزاجَهم بِمِحَنٍ من كلّ نوع ، وهى تُعَلِّمُهم

ما الألم وما التعب باكراً ، وتؤدى الأسنان التى تَطْلُع إلى الحُمَّى فيهم ، ويؤدى المَغْصُ الحادُّ إلى تَشَنُّجات فيهم ، ويختنقون بالسُّعال الطويل ، وتؤذيهم الدِّيدان ، وتُفْسِد الأخلاطُ دمَهم ، وتَتُخُ فيه خَمَائرُ شتى فتوجب بُثُوراً خَطِرة ، ويُعَدُّ دَوْرُ الطفولة دَوْرَ المرض والخطر تقريباً ، ويَهْلِكُ نصفُ الأولاد قبل بلوغهم الثامنةَ من سِنِيهم ، ومتى تمت التجارِب اكتسب الولدُ قُوًى ، ومتى استطاع الولد أن ينتفع بالحياة كان مبدؤها أكثرَ ضماناً .

هذه هى قاعدةُ الطبيعة ، فَلِمَ تعاكسونها ؟ ألا تَرَوْن أنكم بتفكيركم فى إصلاحها تَقْضُون على عملها وتَحُولُون دون فعل عنايتها ؟ وعندكم أن ما يُصْنَعُ فى الخارج مماثلاً لِمَا تَصْنَع فى الداخل ينطوى على مضاعفة الخطَر ، وأن اجتنابها ينطوى على العكس ، أى على إزاحة الخطر ، وتدلُّ التجربة على أن نسبةَ موت الأولاد الذين يُنَشَّأون تَنْشِئَةَ رَفاهٍ أعظمُ من نسبة موت غيرِهم ، ويكون الخطرُ فى استعمال قُوَاهم أقلَّ من مداراتها على ألَّا يجاوِزَ معدَّلُ طاقتها ، فمَرِّنُوهم ، إذَنْ ، على الإصابات التى سيعانونها يومًا ما ، وعَوِّدُوا أجسامهم احتمالَ تقلباتِ الفصول والجِوَاء والعناصر والصبرَ على الجوع والعطش والتعب ، واغْطِسُوهم فى ماء ستِيكْس ، ويُلَقَّى الجسمُ ما يُرَادُ من عادةٍ بلا خَطَر قبل أن يكتسب عادتَه ، ولكن الجسم إذا ما نال صلابتَه صار كلُّ تغييرٍ فيه أمراً خَطِراً ، فالولدُ يُطِيقُ من التحولات أكثرَ مما يُطِيقُ الرجل ، وذلك أن ألياف الولد إذْ كانت لينةً مَرِنة فإنها تكتسب ما تُعْطَاه من ثَنْيٍ بلا جُهد ، وأن ألياف الرجل إذْ كانت أشدَّ تصلباً فإنها لا تُغَيِّر الثَّنْيَ الذى اكتسبته إلاَّ بعنف ، ولِذَا يُمْكِن جعلُ الولد

عُصَابيًّا من غير أن تعرَّض للخطر حياتُه وصحته ، حتى إنه لو وُجِدَ مِثْلُ هذا الخطر وجب ألاَّ يُؤْبَهَ له ، وبما أن هذه الأخطار ملازمةٌ للحياة البشرية أفلا يُوجَدُ ما هو أفضلُ من مواجهتها فى وقتٍ توجب فيه أقلَّ ما يُمكِن من ضرر ؟

ويصبح الولد أكثرَ قيمةً كلما تقدَّم فى السِّنِّ ، وذلك أنه يضاف إلى قيمة شخصه قيمةُ العناية التى مُنِحَها ، ويضاف إلى ضَياع حياته ما فيه من شعورٍ بالموت ، فنى المستقبل على الخصوص ، إذَن ، يجب أن يُفَكَّرَ عند السَّهَر على سلامته ، وضِدَّ أمراض الشباب ما يجب تسليحه قبل وصوله إليه ، فإذا كان ثمن الحياة يزيد حتى السِّنِّ التى تصبح فيها نافعةً فما أشدَّ الحماقة فى وقايته من بعض أمراض الطفولة زيادة لهذه الأمراض فى سنٍّ الرشد ! وهل هذه هى دروس المعلم ؟

قُدِّر على الإنسان أن يألَمَ فى جميع الأزمنة ، حتى إن العناية بسلامته مرتبطةٌ فى الألم ، ومن سعادته أنه لا يَعْرِف فى طفولته غيرَ الأمراض البدنية ، هذه الأمراضَ التى هى أقلُّ من الأخرى قسوةً وألماً ، والتى يَنْدُر أن تدفعنا إلى ترك الحياة ! فالإنسانُ لا يَقْتُل نفسه نتيجةً لآلام النِّقْرِس مطلقاً ، ولا يُوجَدُ غيرُ آلام النفس ما يؤدى إلى اليأس ، ونحن نتوجَّع لنصيب الطفولة ، ونصيبُنا هو ما يجب أن نتوجَّع له ، فأعظمُ أمراضنا تَصْدُر عنا .

والولدُ إذا ما وُلِدَ صاح ، وتَمُرُّ طفولتُه الأولى فى البكاء ، والولدُ يُهَزْهز أو يلاطَف تارةً ليُسَكَّن ، ويُهَدَّد أو يُضْرَب تارةً أخرى ليُسَكَّت ،

ونحن إما أن نَفْعَل ما يَرُوقه ، وإما أن نطالبه بما يَرُوقنا ، وإما أن نَخْضَع لأهوائه ، وإما أن نُخْضِعَه لأهوائنا ، ولا وَسَطَ ، أى إما أن يُلْقِيَ أوامرَ وإما أن يَتَلَقَّى أوامرَ ، وهكذا فإن أفكاره الأولى أفكارُ سيطرةٍ أو أفكارُ عبوديةٍ ، والولدُ يأمر قبل أن يَعْرِفَ الكلام ، والولدُ يُطِيع قبل أن يستطيع العمل ، والولدُ يجازَى أحياناً قبل أن يُمْكِنَه معرفةُ ذنوبه ، وإن شئت فَقُلْ قبل أن يَقْدِر على اقترافها ، وهكذا فإنه يُصَبُّ فى قلبه الفَتِيِّ من الإحساسات ، باكراً ، ما يُعْزَى إلى الطبيعة فيما بعد ، وإنه يُتَوَجَّع من كونه شرِيراً بعد أن بُذِل جهدٌ فى جعله على هذه الحال .

وهكذا يَقْضِى الولدُ ستَّ سنين ، أو سبعَ سنين ، بين أيدى النساء اللائى هنَّ ضحيةُ هواهنّ وهواه ، والولدُ بعد أن يُعَلَّم هذا وذاك ، أى بعد أن تُشْحَن ذاكرته بكلماتٍ لا يستطيع فهمها أو بأمورٍ ليست صالحةً له قَطْعاً ، والولدُ بعد أن يُطْفَأَ الطبيعىُّ فيه بشهواتٍ مُحْدَثة ، يُوضَعُ هذا الموجودُ المصنوع بين يدى معلِّم يتمُّ إنماء البذور المصنوعة التى يَجِدُها مُكَوَّنةً فيه سابقاً فيعلِّمُه كلَّ شيء خلا معرفةَ نفسه ، خلا الانتفاعَ بنفسه ، خلا علمَ السلوك ونيلَ السعادة ، وأخيراً عندما يُلْقَى فى العالم هذا الولدُ العبدُ والطاغيةُ ، والمملوء علماً والمُجَرَّدُ من الإدراك ، والضعيفُ جسماً وروحاً ، دالاًّ على عجزه وزهوه وجميع عيوبه ، يُوجِب رِثاءً لبؤس الناس وفسادهم ، ونحن على خطأٍ فى هذا ، فذاك رجلُ أهوائنا ، ويكون رجلُ الطبيعة على خلاف ذاك .

أَوَ تريدون ، إذَنْ ، أن يحافِظ على شكله الأصلىِّ ؟ حافظوا على هذا

الشكل منذ وِلادته ، فإذا جاء إلى الدنيا فاقبِضُوا عليه ، ولا تتركوه حتى يصبحَ رجلاً ، ولن تَنْجَحُوا بغير هذا مطلقاً ! وكما أن المُرْضع الحقيقية هى الأمُّ فإن المعلم الحقيقىَّ هو الأب ، وليتفقا فى نظام واجباتهما كما فى منهاجهما ، وليَتَضَافَرا على هذا ، فهو يكون أفضلَ تنشئةً على يَدِ أبٍ عاقلٍ محدودٍ مما على يد أمهر معلمى العالَم ، وذلك لأن قيام الغيرة مقام النبوغ أحسنُ من قيام النبوغ مقام الغيرة .

ولكن الأشغال والوظائف والواجبات . . . آه ! الواجبات ! واجبُ الأبِ آخرُ الواجبات لا ريب[1] ! لا نَعْجَب من استخفافه بتنشئة الولد بعد أن نرى استخفاف زوجته بإرضاع هذا الذى هو ثمرةُ قِرانهما ، لا تُوجَدُ صورةٌ أدعى إلى الفُتُون من صورة الأُسرة ، ولكنَّ خَطًّا ناقصاً يُشَوِّه جميع الخطوط الأخرى ، وإذا كانت الأمُّ من قلة الصحة ما لا تكون معه مرضعاً فإن الأب من كثرة الأعمال ما لا يكون معه معلماً ، ويَجِدُ الأولادُ البُعَداء المُوَزَّعون فى المدارس الداخلية والأديار والكليات حُبَّ المنزل الأبوىّ فى مكان آخر ، أو الأحرى أن يقال إنهم يَرْجِعُون إلى هذا المنزل حاملين عادةَ عدم الارتباط فى شىء ، ولا يكاد الإخوةُ والأَخَواتُ يتعاشرون ،

(١) متى قرئ فى بلوتارك أن الرقيب كاتون ، الذى حكم فى رومة بجاه كبير ، قام بتنشئة ابنه من المهد بعناية يترك معها كل شىء ليكون حاضراً عند ما تهزه المرضع ، أى الأم ، أو ترفعه ، ومتى قرئ فى سويتون أن أغسطس ، هذا السيد للعالم الذى فتحه وأداره بنفسه ، كان يعلم حفدته الكتابة والسباحة ومبادئ العلوم بنفسه ويجعلهم حوله دائماً ، لم يتمالك عن الضحك من هؤلاء البسطاء الصغار من الناس الذين كانوا يتلهون بمثل هذه الترهات فى ذلك الزمن والذين هم من الذكاء المحدود ، لا ريب ، ما لايقدرون معه على القيام بشؤون عظماء زماننا الكبيرة .

ومتى اجتمع هؤلاء كلُّهم فى احتفال أمكنَ أن يكونوا مهذَّبين نحو بعضهم بعضًا متعاملين تعاملَ الغرباء ، ومتى عاد لا يكون بين الأقرباء أُلفةٌ ، ومتى عاد مجتمع الأُسرة لا يُنْعِم بلطف الحياة ، نُشِدَ سيئُ الأخلاق ليقوم مقام ذلك ، وأين الرجل الذى يكون من البلاهة ما لا يَرَى معه سلسلةَ جميع هذا ؟

والأبُ إذا ما أنْسَلَ أولاداً وغَذَّاهم لم يأت بهذا غيرَ ثلثِ عمله ، وهو مَدينٌ برجالٍ لنوعه وبرجالٍ سَهْلِي الأُلفة للمجتمع وبمواطنين للدولة ، ويُعَدُّ مُذْنبًا كلُّ رجلٍ يستطيع تأدية هذا الدينِ الثُلَاثىِّ ولا يَصْنَع ، وقد يكون أشدَّ ذنبًا إذا أدَّاه نصفَ تأدية ، ومَنْ لم يَقْدِر على القيام بواجبات الأب لم يَحِقَّ له أن يكون أبًا على الإطلاق ، ولا يُوجَدُ فقرٌ ولا عملٌ ولا حياء يُعْفِى الأب من إعاشة أولاده وتنشئتهم بنفسه ، فيا أيها القراء ! يمكنكم أن تُصَدِّقُونى ، وذلك أننى أُنبِئُ كلَّ من يَحْمِل حُبًّا أبويًّا فيُهْمِل هذه الواجباتِ البالغةَ القَدَاسةِ بأنه سيبكى بكاءً مُرًّا زمنًا طويلًا لِمَا اقترف من إثمٍ ، ولن يَجِدَ فى هذا ما يُسْلِيه أبداً .

ولكن ما يَصْنع هذا الرجلُ الغنى ، هذا الرَّبُّ للأُسرة الشَّغَّال المضطرُّ ، على زعمه ، إلى إهمال أولاده ؟

هو يؤدى أجراً إلى رجلٍ آخرَ ليقوم مقامه فى هذه العناية المُلْقَاة على عاتقه ، فيا أيها الروح المِطْمَاع ! أوَ تعتقد أنك تُنعِم على ابنك بأبٍ آخر بالمال ؟ لا تُخَادِع نفسَك مطلقاً ، فليس معلمًا ذاك الذى تعطيه إياه ، بل أجيرٌ لا يَلْبَث أن يَجْعَل منه خادمًا مثله .

ويُبَرْهن كثيراً حَوْل صفات المُرَبِّى الصالح ، وأولَى الصفات التى أطالبه بها هى التى يُقَدِّرها فيه كثيرون غيرى ، وهى ألاَّ يكون رجلاً يُباَع مطلقًا ، ويوجد كثيرٌ من المِهَن الشريفة التى لا تُمارَس بالمال إلاَّ لَنَبْدُوَ غيرَ أهلٍ فى القيام بها ، كمهنة رجل الحرب ومهنة المُرَبِّى .

« ومن يُنَشِّئُ ولدِى إذَنْ ؟ » .

« أنت كما قلتُ لك » .

« لا أستطيع هذا » .

« لا تستطيع هذا ؟ . . . فاجْعَلْ لنفسك صديقاً إذَنْ ، ولا أرى وسيلةً أخرى » .

مُرَبٍّ ! يا له من روحٍ عالٍ ! . . . حقًّا أن تكوين الرجل يستلزم وجودَ أبٍ أو من هو أكثرُ من رجلٍ ، فهذا هو الواجب الذى تُفَوِّضونه إلى مرتزقةٍ بسكونٍ .

وكلَّما فكَّرَ فى ذلك شُعِرَ بمصاعبَ جديدةٍ ، ومما يجب وقوعه أن يكون المربى قد نُشِّئَ من أجْل تلميذه ، وأن يكون خَدَمه قد نُشِّئوا من أجل سيدهم ، وأن يكون جميع من يَدْنُون منه قد تَلَقَّوْا من الانطباعات ما يوصلونه إليه ، وأن يُنْقَل من تربيةٍ إلى تربيةٍ حتى يُرْتَقَى إلى حيث لا أدرى ، وكيف تُحْسَنُ تنشئةُ ولدٍ من قِبَل مَنْ لم يكن قد نُشِّئَ تنشئةً حسنة ؟

وهل يَعِزُّ وجودُ هذا الرجل النادر ؟ أجْهَل هذا ، ومن يَعْرِفُ فى أزمنة الانحطاط هذه درجةَ الفضيلة التى يُمْكِنُ أن يَبْلغَها روحُ الإنسان ؟

ولـكن لنَفْرِضْ أن هذا النادر قد وُجد ، فسنرى ما يجب أن يَكُونَهُ عند النظر إلى ما يجب أن يَعْمَل ، وكلُّ ما أعتقد أنني أرى مُقَدَّمًا هو أن الأب الذى يُحِسُّ ما يُكلِّفه المربِّى الصالح يَميلُ إلى الاستغناء عنه ، وذلك أنه يلاقى من المشقة فى الحصول عليه ما هو أعظمُ من أن يَكُونَهُ بنفسه ، أَوَ يريد أن يُصْبِح صديقاً ؟ فَلْيُنَشِّئْ ابنَه ليكونَه ، وها هو ذا قد أُعفِيَ من البحث عنه فى مكان آخر ما دامت الطبيعة قد قامت بنصف العمل .

ووُجد رجلٌ لا أَعْرِفُ غيرَ مرتبته كان قد عَرَض علىّ أن أربِّيَ ابنَه ، وقد حبانى بشرفٍ كبير لا ريب ، ولـكنْ يَجِبُ أن يَرْضى عن حَذَرى بدلًا من أن يتوجَّع من رفضى ، وذلك أننى لو كنتُ قد رَضِيتُ بما عَرَض فضَلَلْتُ في منهاجى لـكانت التربيةُ ناقصةً ، وأننى لو وُفِّقْتُ لـكان هذا شرًّا من ذاك لِمَا يَقَعُ من إنكار ابنه للقبه وعُزُوفِه عن أن يكون أميراً .

وأجِدُنى كثيرَ الإدراك لأهمية واجبات المربى ، وأجِدُنى كثيرَ الشعور بقُصُورى ، فلا أَقْبَلُ مثل هذا العمل مهما كان مقام الذى يَعْرِضه علىّ ، حتى إنه لا يكون لعامل الصداقة عندى غيرُ سبب جديد للرفض ، وأعتقد أن أناساً قليلين سيقومون بمثل هذا العرْضِ علىّ بعد قراءة هذا الـكتاب ، فأرجو ممن يُمكِن أن يكون من هؤلاء ألَّا يُحَمِّلَ نفسَه هذا العناء على غير جدوى ، ومما حدث أن قُمْتُ بتجربةٍ كافية فى هذه المهنة سابقاً ، وذلك لِأَسْتَيْقِن أننى غيرُ أهلٍ لها وأن أحوالى تُعْفِينى منها حتى عند استعدادى لها ، وقد رأيتُ لِزَامًا علىّ أن أقوم بهذا التصريح العامّ تجاه من

يَبْدُون أنهم يَبْخَلُون علىّ بمقدار من التقدير ما يعتقدون معه إخلاصى وعزمى فى مقاصدى .

وإذا كنت غيرَ قادرٍ على القيام بأنفع الأعمال فإننى أجْرُؤُ ، على الأقل ، على محاولة القيام بالأسهل ، وذلك أننى أسير على غِرَار أناسٍ كثيرين غيرى فلا أَقْبِضُ على العمل ، بل على القلم ، وأننى أجِدُّ فى قول ما يجب بدلاً من فعله .

وأعْلَمُ أن المؤلِّف ، فى مشروعاتٍ مماثلةٍ لذلك ، يكون على رِسْلِهِ دائماً فى مناهجَ يُغْنِى من وَضْعِها مَوْضِع العمل فيُبْرِز من غير جُهْدٍ كثيراً من المبادئ الرائعة التى يتعذر اتباعها ، حتى إن ما يقول بإمكان العمل به يبقى مهملاً عند عدم بيان وجهِ تطبيقه ، وذلك عن نقصٍ فى التفصيل والأمثلة .

وأكونُ ، إذَنْ ، قد التزمتُ جانبَ اتخاذِ تلميذٍ خيالىٍّ مفترضاً السِّنَّ والصحةَ والمعارفَ وجميعَ الأهليات المناسبة لتربيته وقيادته منذ ولادته إلى الحين الذى يصبح فيه رجلاً لا يحتاج إلى دليلٍ غيرِ نفسه ، ويَبْدُو لى هذا المنهاجُ نافعاً فى منع المؤلف الذى يَحْذَرُه من الضلال فى رُؤًى ، وذلك أنه إذا ما ابتعد عن التعامل المعتاد لم يكن عليه غيرُ اختبار منهاجه فى تلميذه ، فلم يَلْبَثْ أن يَعْلَمَ ، أو يَعْلَمَ القارئ نيابةً عنه ، هل يَتَتَبَّعُ تقدمَ الصبىِّ وسَيْرَ القلب البشرىِّ سيراً طبيعياً .

وهذا ما حاولتُ صنعَه فى جميع المشاكل التى تَعرِض ، وقد اقتصرتُ على وضع المبادئ التى تُشْعِرُ بالحقيقة ، وذلك صَوْناً للكتاب من التضخيم على غير جدوى ، وأما القواعدُ التى يُمكِن أن تحتاج إلى دليلٍ فقد طَبَّقْتُها على إميلَ أو على أمثلةٍ أخرى مُثْبِتاً بالتفصيل الواسع كيف يُمكِن العملُ بما أقرِّر ،

وهذا هو المشروع الذى أُريد اتباعَه على الأقلّ تاركاً الحكم فى توفيقى إلى القارئ .

ومن ثَمَّ تَرَى أننى تكلمتُ قليلاً عن إميل فى البُداءة ، وذلك لأن مبادئى الأولى فى التربية ، وإن كانت تختلف عما هو مُقرَّر ، هى من الوضوح ما يصعب على كلِّ رجلٍ حصيفٍ أن يَرْفِض معه موافقته عليها ، ولكننى كلما تقدَّمتُ عاد تلميذى ، الذى وُجِّه إلى غير ما وُجِّه إليه تلاميذكم ، لا يكون ولدًا عاديًّا ، فوجب اتخاذُ نظامٍ خاصٍّ به ، وهنالك يَكْثُر ظهورُه على المسرح ، حتى إذا كُنَّا حَوْلَ آخر الأوقات لم أغْفُلْ عنه طرفةَ عين ، وذلك إلى أن يَغْدُوَ غيرَ محتاجٍ إلىَّ فى أقلِّ شىء مهما قال فى ذلك .

ولا أتكلم هنا عن صفات المُرَبِّى الصالح ، فأنا أفترضها ، وأفترض اتِّصافَ نفسى بجميع هذه الصفات ، ومن مطالعة هذا الكتاب يُرَى مقدارُ ما أَحْبُو به نفسى من سخاء .

وأخالفُ الرأىَ الشائعَ فأقول إنه يجب أن يكون مُرَبِّى الولدِ شابًّا ، وأن يكون من الشباب ما يكونُه الرجلُ الحكيم أيضاً ، وأَوَدُّ لو يكون المربى ولداً إذا أمكن هذا ، فيصبحَ رَفيقَ تلميذه ومحلَّ ثقته مقاسماً لَهْوَه ، ولا تَجِدُ بين الصِّبا والكُهولة من الأمور المشتركة الكافية ما يَجْعَلُ بينهما محبَّةً متينة حقًّا ، أَجَلْ ، إن الاولاد يصانعون الشِّيبَ أحياناً ، ولكنهم لا يُحِبُّونهم مطلقاً .

ويُطْلَبُ أن يكون المربى قد قام بتربيةٍ ، وهذا كثير ، فالرجلُ عَيْنُه لا يستطيع أن يقوم بغير تربية واحدة ، فإذا وجب قيامه بتربيتين لينجح فبأى حَقٍّ تؤتَى الأولى ؟

وكلما كَثُرَت التربيةُ عُرِفَ أحسنُ ما يُصْنَع ، ولكنه يُعْجَزُ عن فعله ،

ومَنْ أحسنَ القيامَ بهذا العمل ذاتَ مرةٍ فشمَّر بجميع مشاقِّه لم يحاول قطُّ إلزامَ نفسه به ثانيةً ، وإذا كان قيامُه به سيئاً فى المرة الأولى ظهَرَ هذا مُبْتَسَرًا سيئاً للمرة الثانية .

وأسلِّمُ بأن رقابة الولد أربعَ سنين تختلف كثيراً عن تسييره خمساً وعشرين سنة ، وأنتم تأتون بمُرَبٍّ لابنكم بعد أن يتمّ تكوينه ، وأما أنا فأريد أن يكونُ له مُرَبٍّ قبل أن يُولَد ، ويُمْكِن صاحبَكم أن يُغيِّر تلميذاً فى كلّ خمس سنين ، وأما صاحبى فلن يكون له غيرُ واحد ، وأنتم تميزُون المؤدِّب من المُرَبِّى ، فهذه حماقةٌ أخرى ! أوَ تميزُون التلميذ من الطالب ؟ لا يُوجدُ غيرُ علمٍ يُعَلِّمُهُ الأولاد ، وهو علم واجبات الإنسان ، وهذا العلم واحدٌ لا ينْقَسِم على الرغم مما قاله إكْزِينُوفون عن تربية الفُرْس ، ومع ذلك فإنى أدعو معلِّمَ هذا العلم مربياً أكثرَ من أن أدعوه مؤدِّباً ما دام المهمّ عنده فى التسيير أكثرَ مما فى التهذيب ، وليس عليه أن يُنْعِم بتعاليمَ ، وإنما يجب أن يَحْمِل على لُقْيانها .

وإذا ما وَجَبَ اختيارُ المربِّى بعنايةٍ فائقة أُبيح له اختيارُ تلميذه أيضًا ، ولاسيما عند توقُّف الأمر على تقديم نموذَج ، ولا يُمكِن هذا الاختيارَ أن يقع على عبقرية الولد أو سجيته ما دام هذا لا يُعْرَف فى غير نهاية العمل ، وما دمتُ أَقْبَلُه قبل ولادته ، ومتى أمكننى الاختيارُ لم أتخِذ غيرَ روحٍ عادىّ كما أفترض تلميذى ، فلا احتياجَ إلى غير تنشئة رجالٍ عاميين ، وتربيةُ هؤلاء وحدَها هى التى يجب أن تَصْلُح مثالاً لأمثالهم ، وأما الآخرون فيُنَشَّأون على ما فيها من ذلك .

وليس البلدُ خَلِيًّا تجاه ثقافة الناس ، وهم لا يكونون ما يُمكِن أن يكونوا

فى غير الأقاليم المعتدلة ، ويكون الضرر ظاهراً فى الأقاليم المتناهية ، وليس الإنسان مغروساً كالشجرة فى بلدٍ حتى يقيم به دائماً ، ويُلْزَم الذى يذهب من أحد الأقاصى ليَصِلَ إلى الآخر بمضاعفة الطريق التى يَسْلُكها من يذهب من الحَدِّ المتوسط ليَصِلَ إلى ذات الحَدِّ .

وإذا ما جاب الأَقْصَيَيْن ساكنُ البلد المعتدل بالتعاقب كانت فائدتُه واضحةً أيضاً ، وذلك لأنه ، وإن كان يتغير كلما ذهب من الأقصى إلى الأقصى ، يكون أقلَّ ابتعاداً عن كيانه الطبيعىِّ بما لا يزيد على النصف مع ذلك ، أجَلْ ، إن الفرنسىَّ يعيش فى غِينْيَة وفى لاپونية ، غير أن الزنجىَّ لا يعيش مثلَه فى تُورْنِيا ولا يعيش السَّامُوئيدىُّ مثلَه فى بينين ، ويظهر أن نظام الدماغ أقلُّ كمالاً فى الأقصَيَيْن ، فليس عند الزنوج ، ولا عند اللاپون ، إدراكُ الأوربيين ، ولو أردتُ ، إذَنْ ، كَوْنَ تلميذى ساكناً للأرض لأخذتُه إلى مِنطقةٍ معتدلة ، كفرنسة ، مفضلاً إياها على سواها .

والناس فى الشمال يستهلكون كثيراً على أرضٍ جديبة ، والناسُ فى الجنوب يستهلكون قليلاً على أرضٍ خصيبة ، فنشأ عن هذا فرقٌ جديدٌ يَجْعَل أولئك أهلَ جِدٍّ ويَجْعَل هؤلاء أهلَ تأمل ، ويَعْرِضُ المجتمع علينا فى عين المكان صورةَ هذه الفروق بين الفقراء والأغنياء ، فالفقراء يسكنون الأرض الجديبة ، والأغنياء يسكنون الأرض الخصيبة .

ولا يحتاج الفقير إلى تربية ، فتربيةُ حاله أمرٌ قَسْرىٌّ ، ولا يَقدِر على نَيْلِ غيرها ، وعلى العكس تكون التربية التى يتلقاها الغنىُّ من حاله هى أقلُّ ما يناسبه شخصاً ومجتمعاً ، وهذا إلى أن التربية الطبيعية يجب أن تجعل الرجلَ

صالحاً لجميع الأحوال البشرية ، والواقعُ أن تنشئة الفقير ليكون غنيًّا أقلُّ صواباً من تنشئة الغنيِّ ليكون فقيراً ، وذلك لأنه إذا نُظِرَ إلى نسبة عدد الحالين وُجِدَ أن من افتقروا أكثرُ ممن اغتَنَوْا ، ولْنَخْتَرْ غنيًّا إذَنْ ، فبذلك نطمئن إلى تكويننا رجلاً زيادةً بدلاً من إمكان تحوُّل فقيرٍ إلى رجلٍ بفعل نفسه .

ولذاتِ السبب لا يَغِيظُنى كَوْنُ إميلَ أصيلاً ، فسيكون هذا ، دائماً ، ضحيةً مُنْتَزَعًا من المُبْتَسَر .

إميلُ يتيمٌ ، وليس من المهمِّ وجودُ أبٍ له أو أمٍّ ، فبما أنه فُوِّض إلىَّ أن أقوم بواجباتهما فإننى أخْلُفُهما فى جميع حقوقهما ، أَجَلْ ، إن عليه أن يُكْرِم والديْه ، ولكن ليس عليه أن يُطِيع غيرى ، وهذا هو شَرْطى الأول ، بل شَرْطى الوحيد .

ويجب أن أُضيف إليه ما ليس غيرَ تكملةٍ له ، وهو ألَّا يفترق أحدُنا عن الآخر إلّا باتفاقنا نحن الاثنين ، وهذه الفقرة الشرطية أمرٌ جوهريٌّ ، حتى إننى أودُّ أن يَبْلُغ التلميذُ والمربِّى من اتحادهما ما يكون معه نصيبُ أيامهما أمراً مشتركاً بينهما دائماً ، وهما إذا ما أبصرا انفصالَهما فى الابتعاد ، وهما إذا ما أدركا الساعة التى يجب أن تجعل أحدَهما غريباً عن الآخر ، دلَّ هذا على أن حالَهما كان هكذا ، وكلٌّ منهما يقوم بمنهاجه الصغير على حِدَةٍ ، وهما حين يُوَجِّهان ذهنهما إلى الوقت الذى يكونان فيه غيرَ متحدين لا يَبْقَيان معاً إلّا كَرْهًا ، ولا يَعُدُّ التلميذُ معلِّمَه إلّا رَمْزَ الصِّبا وآفته ، ولا يَعُدُّ المعلم تلميذه إلّا عبئاً ثقيلاً يَتحَرَّق شوقاً إلى إلقائه عن عاتقه ، ويَطْمَحُ بصرُ كلٍّ منهما ، متفقاً ، إلى الوقت الذى يتخلَّص فيه من الآخر ، وبما

أنه لا يوجد بينهما حُبٌّ حقيقيٌّ فإنه يكون عند أحدهما قليلُ انتباه ويكون عند الآخر قليلُ انقياد .

لكنهما إذا ما أبصرا أنهما مُلْزَمان بقضاء أيامهما معاً عُنِيَا بتحابِّهما وصار كلٌّ منهما عزيزاً على الآخر ، ولا يَسْتَحِي التلميذ ، مطلقاً ، من اتباعه فى صِباه مَنْ يكون صديقَه إذا ما كَبِر ، ويُعْنَى المربِّى برعاية من لا بُدَّ من اقتطاف ثمرته ، ويُعَدُّ كلُّ فضلٍ يَحْبُو به تلميذَه أساساً يضعه نفعاً لأيام مَشِيبه .

ويَفتَرِض هذا العقد الذى وُضِعَ مقدَّمًا ولادةً مُوَفَّقة وولداً حسنَ التكوين قويًّا سليماً ، وليس للأب خِيارٌ مطلقاً ، ولا ينبغى أن يأتى تفضيلاً فى الأُسْرَة التى أنعم الله بها عليه ، فجميعُ أولادهِ أولادٌ له على السَّوَاء ، وعليه أن يُبْدِىَ نحوهم ذاتَ العناية وذاتَ الحنان ، وهم سواءٌ أكانوا مُقْعَدين أم لا ، وهم سواءٌ أكانوا ضعفاء أم أقوياء ، يُعَدُّ كلُّ واحدٍ منهم وديعةً يسأله المُعْطِى عنها ، فالزواجُ عقدٌ مع الطبيعة كما بين الزوجين .

ولكنه يجب على كلِّ من يَفرِض على نفسه واجباً ، لم تَفرِضْه الطبيعةُ عليه قَطُّ ، أن يكون قابضاً على وسائل القيام به مقدَّمًا ، وإلّا كان مسؤولاً حتى عن الذى لم يستطع فعلَه ، ومن يَتَوَلَّ أمر تلميذٍ عليلٍ مِسْقام يُحَوِّلُ عملَه كمُرَبٍّ إلى عملِ مُمَرِّض ، وهو يُنْفِق فى العناية بحياةٍ غيرِ نافعةٍ وقتاً كان يُعِدُّه لرَفْع قيمتها ، وهو يُعَرِّض نفسه لمواجهة أمٍّ شديدةِ الحزن تَلُومه ذات يومٍ على موت ابنٍ مُلْزَمٍ بحفظه لها زمناً طويلاً .

ولن أتَوَلَّى أمرَ ولدٍ مِسْقامٍ مِمْرَاضٍ ولو عاش ثمانين حَوْلاً ، ولا أرغبُ مطلقاً فى تلميذٍ غيرِ نافعٍ لنفسه وللآخرين دائماً ، فى هذا التلميذ الذى يُعْنَى

بنفسه حصرًا ، فيسيء جسمُه إلى تربية الروح ، وما أصْنَع بإنفاق عليه عنايتى سُدًى إن لم يكن مضاعفةَ خُسْرِ المجتمع ونَزْعَ رَجُلين منه فى سبيلٍ واحد ؟ إذا ما تَوَلَّى أمرَ هذا العليلِ آخرُ مكانى وافقتُ على هذا ورَضِيتُ عن حَسَنَته ، ولكننى لم أُيَسَّرْ لهذا ، فلا أعْرِفُ ، مطلقاً ، أن أُعَلِّمَ الحياةَ لِمَنْ لا يُفَكِّر فى غيرِ مَنْعِ مَوْتِ نفسه .

ويجب أن يَكُون الجسمُ من القوة ما يُطيعُ معه الروحَ ، فعلى الخادم الصالح أن يكون عُضْلُبيًّا ، وأعْرِف أن النَّهْمَ يُحَرِّك الشَّهَوَاتِ ، فهو يَنْهَكُ البدنَ مع الزمن ، وأعْرِف أن التقشف والصوم يؤدِّيان ، فى الغالب ، إلى ذات النتيجة للسبب المعاكس ، وكلما كان البدن ضعيفاً هَيْمَنَ ، وكلما كان قويًّا أطاع ، وتقيم جميعُ الشَّهوَاتِ الحسية فى الأجسام المُخَنَّثَة ، وهى تزيد هياجًا عند أقلِّ قضاء لها .

والجسمُ الواهن يُضْعِف الروح ، ومن ثَمَّ كان سلطان الطبِّ الذى هو فنٌّ أشدّ ضرراً على الناس من جميع الأمراض التى يَزْعُم أنه يَشْفِيها ، وأما أنا فلا أعْرِف أىُّ الأمراضِ يَشْفِينا منها الأطباء ، ولكننى أعْرِف أنهم يُعْطُوننا ما هو شديدُ الشؤم منها ، يُعْطوننا النذالةَ والُجبْنَ وسرعةَ التصديق والفَزَعَ من الموت ، وهم إذا ما شَفَوُا البدن قتلوا الشجاعة ، وما يهمُّنا أن يُسَيِّروا جُثثاً ؟ فإلى الرجال نحتاجُ ، ولا نَرَى صدورَ رجالٍ عنهم .

والطبُّ مُوضةٌ* بيننا ، وهو ما يجب أن يَكُونَه ، فهو لَهْوُ ذوى البِطالة والفراغ الذين لا يَعْرِفون ما يَصْنَعون بوقتهم فيَقْضُونه فى حِفْظ حياتهم ، ولو كان هؤلاء من الشقاء ما يُولَدون معه خالدين لكانوا أشدَّ الناس بؤساً لِمَا

---

* Mode

لا يكون للحياة التى لا يَخْشَوْن ضَياعها أىُّ ثمن عندهم ، ويحتاج هؤلاء الناس إلى أطباء يُهَدِّدونهم عن مَلَق فيُنْعِمُون عليهم كلَّ يوم باللذة الوحيدة التى يتمتعون بها ، وهى ألّا يموتوا .

ولا أُريد أن أتبَسَّطَ هنا حَوْل بُطلان الطبِّ فلا يقوم موضوعى على غير النظر إليه من الناحية الأدبية ، ومع ذلك لا أستطيع أن أمنع نفسى من كون الناس يأتون حَوْل عادته من السَّفسطات ما يأتون حَوْل البحث عن الحقيقة ، وذلك أنهم يفترضون ، دائماً ، أن المريض إذا ما عُولِج شُفِىَ وأن الحقيقة إذا ما نُشِدَتْ وُجِدَت ، وهم لا يرَوْن وجوبَ المقابلة بين نَفع شفاء يُوَفَّقُ له الطبُّ وموتِ مئة مريضٍ يَقْتُلهم ، كما لا يرَوْن وجوبَ المقابلة بين نَفْع حقيقةٍ يُهْتَدَى إليها وضررِ الضلالات التى تقَع فى الوقت نفسه ، أجَلْ ، إن العِلْمَ الذى يُثقِّف والطبَّ الذى يَشْفى صالحان كثيراً لا رَيْبَ ، غير أن العلم الذى يخادِع والطبَّ الذى يقتل شرّان ، فعَلِّمُونا أن نميزَ بينهما إذَنْ ، وهذه هى عُقْدَةُ المسئلة ، ولو كنا نعْرِف جَهْلَ الحقيقة ما خُدِعنا بالأكاذيب مطلقاً ، ولو كنا نعرِف الرغبة عن الشفاء على الرغم من الطبيعة ما قُتِلْنَا على يد الطبيب مطلقاً ، ويُعَدُّ هذان الامتناعان أمرينْ حكيمين ، ففيهما غُنْمٌ لا مِراء ، ولا أُمارى ، إذَنْ ، فى كون الطبِّ نافعاً لبعض الناس ، ولكننى أقول إنه شؤمٌ على الجنس البشرى .

وسيقال لى ، كما يُفعَل دائماً ، إن الذَّنب ذَنبُ الطبيب ، ولكن الطبَّ معصومٌ من الزَّلل فى حَدِّ ذاته ، حَسَناً ، ولكن ليأتِ الطبُّ بلا طبيب إذَنْ ، وذلك أنهما إذا أتيَا معاً كان ما يُخْشَى معه خطأُ المتفنن مئةَ مرةٍ

أكثرَ من الأمل فى عَوْن الفنّ .

وليس هذا الفنُّ الكاذب ، الذى وُضِعَ لأمراض الروح أكثرَ مما لأمراض البدن ، أعظمَ فائدةً لإحداها مما للأخرى ، وهو أقلُّ شفاء لأمراضنا من إلقائه خَوْفَها فينا ، وهو أقلُّ تأخيراً للموت من إشعارنا به مُقَدَّماً ، وهو يُوهِن الحياةَ بدلاً من إطالتها ، وهو إذا ما أطالها كان هذا ضَرًّا بالنوع ما دام يَنْتَزِعنا من المجتمع بما يَفرِضه علينا من عناية وما دام ينتزعنا من واجباتنا بما يُلْقيه فينا من فَزَع ، ومعرفةُ الأخطار هى التى تجعلنا نخافُها ، ومن يعتقدْ أنه لا يُجْرَح لم يَخْشَ شيئاً ، وقد نزَع الشاعرُ مزيةَ الشجاعة من أشيلَ بتسليحه ضِدَّ الخطر ، فكلُّ واحد يصبح أشيلاً إذا ما اتَّفَقَ له هذا التسليح .

وإذا أردتم وجودَ رجال ذوى شجاعة حقيقية فابحثوا عنهم فى الأماكن التى لا يوجد فيها أطباء مطلقاً ، في الأماكن التى تُجْهَلُ فيها نتائج الأمراض فلا يُحلَم فيها بالموت مطلقاً ، ومن الطبيعىّ أن يألم الإنسان دائماً وأن يموت هادئاً ، والأطباء بوَصَفاتهم والفلاسفةُ بتعاليمهم والكهنةُ بإنذاراتهم هم الذين يُذِلُّون القلب ويخيفونه من الموت .

ولأُعطَ تلميذاً غيرَ محتاج إلى جميع هؤلاء الناس ، وإلاّ رفضتُه ، ولا أريد أن يُفسِدَ آخرون عملى مطلقاً ، وأريد أن أُنَشِّئَه وحدى ، وإلاّ لا أتدخَّل فى أمره ، ويقضى الحكيمُ لُوكُ قسماً من حياته فى دراسة الطبّ فيُوصِى بشدَّةٍ ألاّ يعالَجَ الأولاد بأدويةٍ مطلقًا ، لا عن حَذَرٍ ولا عن ضعفٍ خفيف ، وأذهب إلى ما هو أبعدُ من هذا فأصرِّح ، أنا الذى لم

يَدْعُ أطباء لنفسه قَطُّ ، بأننى لن أَدْعُوَ طبيبا لإميل ، مالم تكن حياته فى خطر واضح ، وذلك لأنه لا يستطيع أن يَصْنَع له ، حينئذٍ ، ما هو شرٌّ من قتله .

وأعرِف جيداً أن الطبيب لن يَغْفُلَ عن الاستفادة من هذه المُهْلة ، فإذا مات الولد فإنه يكون قد دُعِيَ بعد الأوان ، وإذاما نجا فإنه يُعَدُّ منقذاً له ، وليُكْتَب الفوزُ للطبيب هكذا ، ولكنْ لتَكنْ دعوتُه عند الرَّمَق الأخير على الخصوص .

وكما أن الولد لا يَعرِف أن يَشْفِيَ نفسه يَعرِف أن يكون مريضاً ، ويقوم هذا الفنُّ مقامَ الآخر ، ويُكْتَبُ له النجاحُ ، غالباً ، أكثرَ من ذاك بدرجات ، وهذا هو فنُّ الطبيعة ، ومتى كان الحيوان مريضاً أَلِمَ هادئاً والتزمَ جانبَ الصمت ، والواقعُ أننا لا نرى كالإنسان حيواناً يَضْنَى ، وما أكثرَ ما قَتَلَ الجزَعُ والفزَعُ والهَلَع ، والأدويةُ خاصةً ، أناساً كان يُبْقِي عليهم مرضُهم فيَشْفِيهم الزمنُ وحدَه ! وسيقال لى إن الحيوانات ، إذْ كانت تعيش على وجهٍ أشدَّ ملاءمةً للطبيعة ، وجب أن تكون أقلَّ عُرْضةً للأمراض منا ، والآن هذا هو طرازُ الحياة الذى أُريدُ أن أَخْبُرَ به تلميذى حَصْراً ، فليَنْتَفِعْ به إذَنْ .

وحفظُ الصحة وحدَه هو فصلُ الطبِّ المفيدُ ، ثم إن حفظ الصحة فضيلةٌ أكثر منه علماً ، والاعتدالُ والعمل هما طبيبا الإنسان الحقيقيان ، فالعملُ يَشْحَذُ شهوتَه والاعتدالُ يَحُول دون إساءة استعمالها .

وليس على من يودُّ معرفةَ أيّ النُّظُمِ أنفعَ للحياة والصحة غيرُ معرفةِ

أيَّ النُّظُمِ تَعْمَل به الشعوب التى تتمتع بأحسن صحةٍ فتكون أشدَّ قوةً وأطولَ حياةً ، وإذا كانت المشاهدات العامة تدلُّ على أن عادة الطبِّ لا تَمنَحُ الناسَ صحةً أكثرَ ثباتًا وحياةً أعظمَ طولاً كان هذا الفنُّ ضارًّا لعدم فائدته ما دام يُنفِقُ الزمانَ والناسَ والأشياء فيما هو خُسْرٌ محضٌ ، ويجب ألاَّ يُقتَصَر على طرح الوقت الذى أُنْفِق فى حفظ الحياة ، لا فى التمتع بها ، فهذا الوقت إذا ما أُنفِقَ فى تعذيب أنفسنا كان شرًّا من تبديده ، أى كان سلبيًّا ، فيقضى الإنصاف فى الحساب بأن يُطرَح مما بَقِىَ لنا ، ويُعَدُّ الإنسان الذى عاش عَشْرَ سنين بلا طبيب أنه عاش لنفسه ولغيره أكثر من الذى عاش ثلاثين سنةً ضحيةَ الأطباء ، وبما أننى جَرَّبتُ كلا الأمرين فإننى أكون أحقَّ من سواى فى استخراج النتيجة .

هذه هى الأسباب التى تجعلنى لا أرغبُ فى غيرِ تلميذٍ عُضْلِيٍّ سليم ، وهذه هى مبادئى التى تَهْدِف إلى بقائه هكذا ، ولا أقف عند إثباتى مطوَّلاً فائدةَ الأعمال اليدوية والتمرينات البدنية تقويةً للبُنْية والصحة ، فهذا أمرٌ لا يجادِل فيه أحدٌ ، وذلك أن أمثلة أطولِ الحيَوات تُستخرج كلُّها تقريبًا من الرجال الذين قاموا بتمارينَ أكثرَ من غيرهم واحتملوا نَصَبًا وعملاً[1]

---

(١) إليك مثالا اقتبسته من صحف إنكليزية فلم يسعنى غير إيراده لتضمنه تأملات تتصل بموضوعى « ولد المسمى بتريك أونيل سنة ١٦٤٧ ، فتزوج للمرة السابعة سنة ١٧٦٠ ، وقد استخدم فى كتيبة الفرسان فى السنة السابعة عشرة من عهد شارل الثانى ، كما استخدم فى كتائب شتى حتى سنة ١٧٤٠ حين سرح ، وقد اشترك فى جميع معارك الملك وليام والدوك ملبورو ، ولم يحدث أن شرب هذا الرجل غير الجعة العادية ، و تغذى بالخضر دائماً ، ولم يأكل لحما فى غير بعض الولائم التى كان يقيمها لأسرته ، ومن عادته أن كان ينام ويفيق مع الشمس ما لم تمنعه واجباته من ذلك ، وهو الآن فى الثالثة عشرة بعد المئة من سنيه ، وهو حسن السمع حسن الصحة ويمشى بلا عصا ، وهو لا يبقى عاطلا من العمل ساعة على الرغم من سنه ، وهو يذهب فى جميع أيام الأحد إلى الكنيسة ومعه أولاده وحفدته وحفدة أولاده » .

أكثرَ من سواهم ، ولن أفصِّلَ مُطوَّلا ما أتَّخِذُ من عناية فى هذا الموضوع وحدَه ، فسيُرَى أنه داخلٌ ضِمْنَ عملى ، فيكفى البصرُ بروحه حتى يُسْتَغْنَى عن القيام بإيضاحٍ آخر .

ومع الحياة تبدأ الاحتياجات ، ولا بُدَّ للمولود حديثًا من مُرْضع ، وإذا ما وافقت الأمُّ على القيام بواجبها كان هذا خيراً ، وتُعْطَى تعليماتُها خطًّا ، وذلك لأن لهذه الفائدة ثِقَلها ، فهى تُمْسِك المُرَبِّى بعيداً بعض البعد من تلميذه ، بَيْدَ أن هنالك ما يَحْمِل على الاعتقاد بأن مصلحة الولد واحترامَ من تريد أن تُسَلِّمَ الأمُّ إليه وديعةً غالية جدًّا يجعلها منتبهة إلى آراء المعلم ، ومن المُحَقَّق أن جميع ما تريد فِعْلَه تفعله بأحسنَ مما يَفْعَلُه سواها ، وإذا كان لا بُدَّ لنا من مُرْضعٍ غريبة فلْنَبْدَأ بحُسْن اختيارها .

ومن تَعَس الأغنياء أن يخادَعُوا فى كلِّ شىء ، وهل يُعْجَبُ من سوء حكمهم فى الناس ؟ إن الثَّرَواتِ هى التى تُفسِدُهم ، وهم أول من يشعر عن رجوعٍ عادل ، بعَيْب الآلة التى يَعرِفونها ، وكلُّ شىء سيِّئُ الصُّنْع عندهم ، خلا ما يصنعون بأنفسهم ، وهم لا يصنعون شيئًا من ذلك تقريبًا ، فإذا وجب البحث عن مُرْضعٍ تركوا هذا للمُوَلِّد ، وما يُسْفِرُ عن هذا ؟ إن أصلح مُرْضع هى أحسنُ من يؤدَّى إليها دائمًا ، ولذا لا أذهب لاستشارة مُوَلِّدٍ بحثًا عن مُرْضعٍ لإميل ، وإنما أُعْنَى باختيارها بنفسى ، أجَلْ ، قد لا أبَرْهِن حَوْلَها برهنةَ الجرَّاح ، ولكنى أسِيرُ عن إخلاصٍ فأكون أقلَّ زَللاً بغيرتى مما بطمعه .

وليس هذا الاختيارُ سِرًّا كبيراً مطلقاً ، فقواعدُه معروفة ، ولكننى

لا أعْرِف هل من الواجب بَذْلُ شيء من الانتباه حَوْلَ عُمر اللبن وصفته ، فاللبنُ الجديد مائيٌّ ، ويجب أن يكون مُلَيِّناً تقريباً للتخلُّص من بقية العِقْي* الكثيف فى أمعاء المولود حديثاً ، ويَتَخَثَّرُ اللبنُ شيئاً فشيئا فيتألف منه غذاء أكثرُ جُموداً لدى الولد الذى يصبح أقوى على هضمه ، وليس من العبث ، لا رَيْبَ ، أن تُغَيِّر الطبيعةُ فى الإناث من كلِّ نوعٍ كثافةَ اللبن وَفْق عُمر الرَّضيع .

إذَنْ ، لا بُدَّ للمولود حديثاً من مُرْضعٍ وَضعت حديثاً ، وأعرفُ أن هذا صعبٌ ، ولكنه إذا ما خَرج من النظام الطبيعىِّ اعترضت المصاعبُ فى سبيل كلِّ ما هو حسنُ الصُّنْع ، وصُنْعُ السوء هو السبيلُ الوحيدُ السهلُ ، وهو ما يُختارُ أيضاً .

ويجب أن تكون المرضعُ سالمةً قلباً و بدناً ، ويُمْكِن عدمَ اعتدالِ المُيُول أن يُفْسِد اللبنَ كما يُمْكِن عدمَ اعتدال الأمزجة ، وهذا إلى أن الاقتصار على الناحية البدنية فى ذلك يَعنِى رؤيةَ نصف الموضوع فقط ، وقد يكون اللبنُ صالحاً والمُرْضعُ فاسدةً ، فالخُلُق الصالح أمرٌ جوهرىٌّ كالمزاج الصالح ، وإذا ما اتُّخِذَت امرأةٌ فاسدةٌ فإننى لا أقول إن رضيعها يكتسب عيوبَها ، وإنما أقول إنه يعانيها ، أوَ ليست ملزَمةً نحوه ، مع لبنها ، بالعناية التى تستلزم غيرةً وصبراً ورفقاً ونظافةً ؟ إذا ما كانت نَهِمةً مِبْطاناً لم تَلْبَث أن تُفْسِد لَبَنَها ، وإذا ما

---

* العِقى : شىء لزج أسود يخرج من بطن المولود قبل أن يأكل .

كانت مهملةً أو غضوباً فما يكون تحت رحمتها حالُ تَعِسٍ مسكين لا يمكنه الدفاعُ عن نفسه أو شكايةُ أمره ؟ لا يَصْلُح الخبثاء لصالح .

ويكون اختيارُ المرْضع عن عدم وجودِ مربيةٍ للرضيع غيرِها من الأهمية كوجوب عدمِ وجودِ معلمٍ له غيرِ مربيه ، وكانت هذه عادةَ القدماء الذين هم أقلُّ برهنةً وأكثرُ حكمة منا ، فما كانت المَرَاضِعُ ، بعد رَضاعة الأولاد من جنسهن ، ليتركنهن ، وهذا هو السببُ فى كون معظم النَّجِيَّات فى رواياتهن التمثيلية من المراضع ، ومن المتعذر أن يكون الولد الذى تتعاقبه أيدٍ مختلفةٌ حسنَ التنشئة ، فهو يقوم عند كلِّ تغييرٍ بقياساتٍ خفية تؤدى فى كلِّ حين إلى تقليل احترامه لمن يُرَبُّونه ، وإلى نقْصِ سلطانهم عليه من حيث النتيجةُ ، وإذا ما فُكِّر مرةً فى وجودِ أناسٍ كبارٍ لا يفوقون الأولادَ عقلاً زال كلُّ ما للسنِّ من سلطان وحَبِطت التربية ، ولا يجوز أن يَعْرِف الولدُ من يَسْمُو أباه وأمَّه ، أو مُرْضِعَه ومربيَه عند عدم وجودهما ، حتى إن هذين الاثنين أمرٌ كثير ، ولكنه لامفرَّ من هذا التقسيم ، وكلُّ ما يُمْكِن صنعُه لتلافيه هو أن يكون الجنسان اللذان يربيانه من الاتفاق ما يكونان معه واحداً بالنسبة إليه .

ويجب أن تعيش المرضعُ بما هو أيسرُ بعضَ اليُسر ، فتتناول من الأغذية ما هو أكثرُ إقاتةً إلى درجةٍ ما ، ولكن على ألاّ يُغَيَّر طرازَ العيش تغييراً تامًّا ، وذلك لأن التغيير السريع الجامع أشدُّ خطراً على الصحة دائماً ولو كان من الأدنى إلى الأحسن ، وما فائدة حملها على تغيير نظامها المعتاد ما دام قد تَرَكها ، أو جعلها ، سليمةً صحيحة البُنْية ؟

وتأكل القرويات قليلَ لحمٍ وكثيرَ خُضَرٍ خلافاً لنساء المدن ، ويظهر أن هذا النظامَ النباتيَّ أعظمُ نفعاً من ضرّه لهن ولأولادهن ، وهنَّ إذا ما كان لهن رُضَّعٌ من البرجوازية أعطين سلائقَ مع اللحم اعتقاداً بأن المرق والحساء يجعلان أصلحَ كَيلوسٍ وأغزرَ لبنٍ فيهن ، ولا أرى هذا الرأيَ مطلقاً ، فقد علمتنا التجارب أن الأولاد الذين يُرْضَعون على هذا الوجه يكونون عُرْضَةً للمَغْص والدُّود أكثرَ من الآخرين .

وليس فى ذلك ما يُثيرُ العجبَ مطلقاً ، ما دامت المادة الحيوانية تزدحم دوداً عند التعفن ، وهذا ما لا يطرأ على المادة النباتية هكذا ، ويُعَدُّ اللبنُ مادةً نباتية وإن كان يُهيَّأُ فى جسم الحيوان(١) ، ويَدُلُّ تحليله على هذا ، وذلك أنه يتحول بسهولةٍ إلى حامض ، وهو يُسْفِر ، كالنباتات ، عن ملحٍ متعادل بعيداً من إبرازه أيَّ أثرٍ من القَلَويات الطيارة التى تنشأ عن المواد الحيوانية .

ولبنُ الأنثى من أكَّالة الأعشاب أحلى من لبن آكلة اللحوم وأكثرُ ملاءمةً للصحة ، وهو إذ يتألف من مادة مماثلة لخاصتها فإنه يكون أحسنَ محافظةً لطبيعته وأقلَّ عُرضةً للعفَن ، وإذا نُظِرَ إلى الكمية وُجِدَ ، كما يَعلَمُ كلُّ واحدٍ ، أن الموادَّ النشوية تُنْتِجُ دماً أكثرَ مما يُنْتِج اللحم ، ولذا وجب أن تُنْتِج لبناً أكثر مما يُنتج ، ولا أرى أن الولد الذى لا يُفْطَم عاجلاً ، والذى لا يُفْطَم إلا مع أغذيةٍ نباتية ، والذى لا تعيش مُرْضِعه إلا من النبات ، يكون عُرْضَةً للدود مطلقاً .

(١) تأكل النساء خبزاً وخضراً وألباناً ، وتأكل إناث الكلاب والهررة من ذلك أيضاً ، وكذلك الذئبات ترعى ، وهذه هى العصارة النباتية فى لبنها ، وبقى علينا أن نبحث فى لبن الأنواع التى لا يمكن أن تتغذى بغير اللحم على الإطلاق إذا وجد منها ، وهذا ما أشك فيه .

ومن الممكن أن تُسْفِر الأغذية النباتية عن لبنٍ أكثرَ حُمُوضةً ، ولكننى بعيدٌ كثيراً من عَدِّ اللبن الحَمْضِىِّ غذاءً غيرَ صحىٍّ ، وذلك أنك تجدُ أمماً بأسرها على أحسن حالٍ مع أنها لا تغتذى بغيره وأن الوعاء الماصَّ محضُ خداعٍ كما يلوح ، وتوجد أمزجةٌ لا يلائمها اللبن مطلقاً ، ولا تجد ماصّاً يجعله أمرًا محتملاً ، وتوجد أخرى تحتمله بلا ماصّات ، ويُخْشى اللبنُ الرائبُ أو الخاثر ، وهذه حماقةٌ ، وذلك أن اللبن يَرُوب فى المعدة دائماً ، وهكذا فإنه يَغْدُو غذاءً قويًّا للأولاد وصغار الحيوان ، وهو إذا لم يَرُبْ مَضَى من غير أن يُغَذِّيَهم(١) ، ومن العبث مَذْقُ* اللبن على ألف وجه واستعمالُ ألفِ ماصٍّ ، فمن يَشرَب اللبن يَهْضِم الجُبْنَ ، وهذه قاعدةٌ لا استثناء لها ، وتُعَدُّ المعدةُ من حُسْن التكوين لتَخْثِير اللبن ما تؤخذ الرَّوْبةُ معه من كَرِشِ العِجْل .

ولذلك أرى أنه يكفى إعطاء المراضع غذاءهن المعتادَ على أن يكون وافراً وأحسنَ اختياراً بدلاً من تغييره ، ولا تكون الخُضَرُ عَسِرَةَ الهضم عن طبيعةٍ غذائية ، بل تعليلُها بالتوابل هو الذى يجعلها وخيمةً ، فأصلحوا قواعدَ طهايتكم واجتنبوا القَلْيَ ، وأبعدوا الزبدةَ والملح والألبان من النار ، ودَعُوا خُضَرَكم تُطبَخُ بالماء ، ولا تُعَلِّلُوها بالتوابل إلا عند إحضارها إلى المائدة ساخنةً ، وهنالك لا تُزْعَجُ المُرْضِعُ بالخُضَر ، وهنالك تُزَوِّدها الخُضَر بلبنٍ وافر ومن نوعٍ جيد(٢) ، وإذا ما عُرِف أن الطعام النباتىَّ أصلحُ طعامٍ للولد فكيف

(١) يجب استخراج العصارات التى تغذينا من الأغذية الجامدة وإن كانت مائعة ، فالرجل العامل الذى لا يعيش إلا من الحساء يضنى بسرعة ، وهو يكرن باللبن أحسن صحة لأن اللبن يختر .

(٢) على من يود أن يناقش فى فوائد النظام الفيثاغورى ومضاره أن يراجع رسائل الدكتور كوشى وخصمه الدكتور بيانكى حول هذا الموضوع المهم .

* مذق اللبن : مزجه بالماء .

يكون الطعام الحيوانيُّ أصلحَ طعامٍ للمُرْضع ؟ ينطوى هذا على تناقض.

ويؤثِّرُ الهواء فى بِنْية الأولاد فى السنين الأولى من حياتهم على الخصوص ، فالهواء فى جِلْدٍ رقيق ناعم يَنفُذُ من جميع المسامّ فيؤثر فى هذه الأجسام الناشئة تأثيراً قويًّا ويترك فيها من الآثار ما لا يزول أبداً ، ولذلك فإننى لست من القائلين بأن تؤخَذَ قَروِيةٌ من قريتها حبساً لها فى غرفةٍ بالمدينة وحملاً لها على إرضاع الولد فى منزله ، وإنما أفضّل أن يُرْسَل الولد إلى الأرياف ليَسْتَنشِقَ فيها هواء صالحاً على تَنشُّقِه هواء المدينة الوخيمَ ، وهو يقتبس حالَ أمه الجديدة ويسكن منزلها الريفىّ ويَتْبَعُه مُرَبِّيه هنالك ، وسَيَذْكُر القارئْ جيداً أن هذا المربى ليس رجلاً مأجوراً ، بل صديقٌ للأب ، وسيقال لى ما يُصْنَع إذا كان هذا الصديقُ غيرَ موجود ، أو كان هذا الانتقالُ غيرَ سهلٍ ، أو إن ما تُشِيرُ به غيرُ يسير ؟ ... لقد قلتُ لكم أن تفعلوا ما تفعلون ، فلا ضرورةَ إلى نصيحةٍ فى هذا .

ولم يُخْلَق الناس ليُكَدَّسوا كقَرْيَة النمل فى المدن ، بل لينتشروا فى الأرض التى يجب عليهم أن يزرعوها ، وهم كلما احتشدوا فَسَدُوا ، وتُعَدُّ عاهاتُ الجسم وآفاتُ الروح نتيجةً لازمةً لهذا الازدحام البالغ ، والإنسانُ أقلُّ الحيوانات قدرةً على العيش قِطاَعاً ، والناسُ إذا ما تجمَّعُوا كالضأن هَلَكوا سريعاً ، ونَفَسُ الإنسان مُبيدٌ لأمثاله ، وهذا صحيحٌ حقيقةً ومجازاً .

والمُدُنُ هُوَّةُ النوع البشرىّ ، فإذا ما انقضت بضعة أجيال هَلَكت العروق أو انحطت ، فيجب تجديدها ، والأريافُ هى التى تؤدى إلى هذا التجديد ، ولذا أرسلوا أولادَكم ليتجددوا بأنفسهم ويستردُّوا بين الحقول ما يُفقَد

من قوة فى الأماكن الوبيلة الزاخرة بالسكان ، ويُسْرِع النساء الحوامل اللاتى هن فى الأرياف إلى منازلهن فى المدن حتى يَضَعْنَ ، مع أن العكس هو ما يجب أن يَفعَلْنَه ، ولا سيما اللاتى يُرِدْن إرضاعَ أولادهن ، وعليهن أن يأسَفن أقلّ مما يتصورن ، فالملاذُّ فى المُقَام الأقرب إلى طبيعة النوع ، والملاذ المرتبطةُ فى واجبات الطبيعة ، لم تَلْبَثْ أن تَنزِع منهن كلَّ ما لا يلائمها من ذوق .

وأولُ ما يُصْنَع فى الولد بعد أن يُوضَع هو أن يُغْسَل بماء فاتر ممزوج بالخمر عادةً ، ويَلُوح لى أن هذه الخمرَ الإضافيةَ غيرُ ضرورية ، فبما أن الطبيعة لا تنتج شيئاً مختمراً فإنه لا يوجد ما يَحْمِل على الاعتقاد بأن استعمال سائلٍ مصنوع يهمُّ حياةَ مخلوقاتها .

ولِعَيْن العلة يكون هذا الاحتياطُ لتفتير الماء غيرَ ضروريّ أيضاً ، والواقعُ أن أمماً كثيرة تَغْسِل المواليدَ حديثاً فى الأنهار أو فى البحر بلا تَكلُّف ، بَيْدَ أن أولادنا المُنْعَمِين قبل أن يُولَدوا ، عن تَرَفِ الآباء والأمهات ، يأتون حين ولادتهم بِبُنْيةٍ فاسدة مُقَدَّماً ، فلا ينبغى أن تُعَرَّض فى البُداءة لجميع التجارِب التى تَعُود بها إلى الصحة ، ولا يُمْكِن أن يُرَدَّ الأولاد إلى القوة الابتدائية إلا بالتدريج ، وابْدَءوا ، إذَنْ ، باتباع العادة فى بدء الأمر ، ولا تبتعدوا عنها إلا مقداراً فمقداراً ، واغْسِلوا الأولادَ غالباً ، فَقَذَارتُهم تدلُّ على ضرورة الغُسْل ، وإذا ما اقْتُصِرَ على مَسْحِهم خُدِشُوا ، ولكنهم كلما اشتدُّوا نَقَصْتم فتورَ الماء حتى تتمكنوا فى نهاية الأمر من غَسلهم بالماء البارد ، وبالماء الجامد أيضاً ، سواء أفى الصيف أم فى الشتاء ، ويَقضِى اجتنابُ

الخطر بأن يَقعَ هذا النقصُ على مَهْلٍ وبالتعاقب وعلى وجهٍ غيرِ محسوس ، ويُمكِن استخدامُ ميزان الحرارة لقياسه تماماً

وعادةُ الاستحمام هـذه إذا ما استقرت وجب ألّا تُقْطع ، ويَقْتضى أن يُحْتَفظ بها مَدَى الحياة ، ولا أَعُدُّها بجانب النظافة والصحة الحاضرة فقط ، بل أَعُدُّها ، أيضاً ، احترازاً نافعاً لجعل العَضَل أكثرَ مرونةً ولجعل هذه العَضَلَ تواجه مختلِفَ درجات الحرارة والبرودة بلا جهدٍ ولا خطر ، وأودُّ ، للوصول إلى هذا ، أن يُتَعوَّدَ ، مع النشوء ، وبالتدريج ، الاغتسالُ فى المياه الحـارة ضِمْنَ جميع الدرجات المحتملة أحياناً ، وفى المياه الباردة ضِمْنَ جميع الدرجات الممكنة غالباً ، وهكذا فإننـا بعد أن نتعود احتمالَ مختلِفِ درجاتِ حرارة الماء الذى هو سائلٌ أشدُّ كثافةً ، فيَمَسُّنا فى أكثرِ ما يُمْكِن من النِّقاط ويَعظُم إيلافُنا له ، نَغْدُو غيرَ متأثرين بدرجات الهواء .

وإذا ما خَرَج الولدُ من أغشيته وتَنَفَّس فلا تَسْمَحُوا بحَصْره فى أُخرى بما هو أوْثَق ، فلا كُمَّةَ ولا لفائفَ ولا قُمُطَ ، بل حَزَائمُ متدلية واسعة تَدَعُ جميعَ أعضائه طليقةً ، فلا تكون من الثِّقَل ما تَعُوق معه حركاتِه ، ولا من الدِّفء ما تَحُول معه دون شعوره بتأثير الهواء(1) ، وضَعُوه فى مهدٍ كبيرٍ(2) محشوٍّ مُشَاقةً*

---

(١) يغص الأولاد فى المدن نتيجة إمساكهم محصورين مسربلين ، وعلى من يقومون بأمر تربيتهم أن يعرفوا أن الهواء البارد يقويهم بدلا من أن يضرهم وأن الهواء الحار يضعفهم ويوقعهم فى الحمى ويقتلهم .

(٢) قلت « مهداً » مستعملا هذه الكلمة الدارجة لعدم وجود غيرها ، وذلك مع اعتقادى أنه ليس من الضرورى ، مطلقاً ، أن يهدهد الأولاد لما تنطوى هذه العادة عليه من إضرارهم غالباً .

* المشاقة : ما سقط من الكتان ونحوه بعد مشقه بالمشقة ، والمشقة شىء كالمشط لمشق الكتان ونحوه حتى يخلص خالصه وتبقى مشاقته .

حيث يستطيع أن يهتزّ بسهولةٍ وبلا خطر ، وهو إذا ما أخذ يَتَقَوَّى فدَعُوه يزْحَفُ فى الغرفة ويَنْشُر أعضاءه الصغيرة ويَبْسُطها ، وهنالك تَرَوْنه يشتدُّ يومًا بعد يوم ، ولو قابلتم بينه وبين ولدٍ من لِدَاته مُقَمَّطٍ جيداً لعَجِبْتُم من اختلاف نشوئهما[1] .

ولا بُدّ من توقُّع اعتراضاتٍ كبيرة من قِبَل المراضع اللائى يجدْن الولدَ المُقَيَّد أقلّ إتعاباً من الولد الذى يجب أن يُرْقَب بلا انقطاع ، وذلك إلى أن قذارته تكون أكثرَ ظهوراً فى ثوبٍ مكشوف ، فيجب أن يُنَظَّف دائماً ، والواقعُ أن العادة دليلٌ لا يُرَدُّ فى بعض البلدان على حسب أفراد جميع الطبقات .

ولا تُبَرْهنوا مع المراضع مطلقاً ، وأْمُرُوا ، ورَوُا التنفيذ ، ولا تَدَّخروا

---

(١) « كان القدماء من أهل بيرو يتركون ذرعان الأولاد طليقة فى قماط فضفاض ، فإذا ما أخرجوهم منه وضعوهم طلقاء فى حفرة مجهزة بنسائج حيث ينزلونهم حتى نصف الجسم ، وهكذا فإن ذرعان الأولاد تكون طليقة ويستطيعون تحريك رؤوسهم وحنو أجسادهم كما يريدون من غير أن يسقطوا ويؤذوا أنفسهم ، وإذا ما استطاعوا أن يتقدموا خطوة عرض الثدى عليهم من بعيد كطعم حملا لهم على المشى ، ويكون صغار الزنوج ، أحياناً ، فى وضع أكثر مشقة للرضاعة ، وذلك أنهم يشتملون على إحدى وركى الأم بركبهم وأيديهم ، وهم يبلغون من شدها ما يلتصقون بها معه من غير استعانة بذراعيها ، وهم يمسكون الثدى بأيديهم فيمتصونه باستمرار ومن غير زعج وسقوط ، وعلى الرغم من مختلف الحركات التى تأتيها الأم وهى تشتغل فى تلك الأثناء على حسب عادتها ، ويبدأ هؤلاء الأولاد بالمشى منذ الشهر الثانى ، وإن شئت فقل بالزحف على الركب والأيدى ، وهم يكتسبون بهذا التمرين فيما بعد سهولة فى الركض السريع ، وهم على هذا الوضع ، كما لو كانوا يعدون على أرجلهم » ، (التاريخ الطبيعى ، جزء ٤ ملزمة ١٢ ، صفحة ١٩٢) .

وكان يمكن مسيو دو بوفون أن يضيف إلى هذه الأمثلة مثال إنكلترة حيث عادة القماط الوحشية المخالفة للصواب تزول يوماً بعد يوم ، وانظر أيضاً إلى « رحلة إلى سيام » للوبير ، وإلى « رحلة إلى كندا » لمسيو لابو ، إلخ . ، وكان يمكننى أن أملأ عشرين صفحة مستشهداً لو كنت محتاجاً إلى إثبات ذلك بالوقائع .

وسعاً فى تبسيط العناية التى تَفْرِضونها عملاً ، وَلِمَ لا تشاطرونها ؟ لا ترَى فى الأغذية المعتادة ، حيث لا يُنْظَرُ إلى غير البدن ، أهميةً للبقية مطلقاً إذا ما عاش الولد ولم يَهْـلِك قَطُّ ، وأما هنا ، حيث التربيةُ تبدأ مع الحياة ، فإن الولد ، حينما يُولَد ، يكون تلميذاً للطبيعة ، لا للمربى ، ولا يَصْنَع المربى ، إذ يَخْضَع لهذا المعلم الأول ، غيرَ الدرسِ ومنعِ مخالفة مناحيه ، وهو يَرْقُب الرضيع ويلاحظه ويَتَتبعه ، وهو يَرْصُد منتبهاً أولَ وميضٍ من إدراكه الضعيف ، كما يَرْصُد المسلمون دقيقةَ ظهور الهلال .

ونُولَدُ قادرين على التعلم ، ولـكن غيرَ عارفين شيئاً ، غيرَ عالمين شيئاً ، وإذْ تكون الروح مقيدةً بأعضاء ناقصةٍ نصفِ مُكَوَّنةٍ فإنها لا تكون شاعرةً حتى بوجودها الخاصِّ ، وتكون حركاتُ المولود حديثاً وصَرَخاته معلولاتٍ آليةً مَحْضًا خاليةً من المعرفة والإرادة .

ولْنفرِض أن ولداً كانت له حين ولادته قامةُ رجلٍ وقوتُه وأنه خَرَج من بطن أمه تامَّ العُدَّة كما خَرَج بَلاَّس من دماغ جُوبيتر ، فهذا الرجلُ الولد يكون كاملَ البلاهة ، يكون نُصْباً متحركاً وتمثالاً جامداً فاقدَ الحسِّ تقريباً ، فلا يَرَى شيئاً ، ولا يَسْمَعُ شيئاً ، ولا يَعْرِف أحداً ، ولا يستطيع أن يُديرعينيه نحو من يحتاج إلى رؤيته ، ولا يُدْرِك شيئاً خارجَ نفسه فضلاً عن أنه لا يأتى بشىء إلى عضو الإحساس الذى يُشْعِرُه به ، ولا تَكُون الألوان فى عينيه مطلقاً ، ولا تكون الأصوات فى أذنيه مطلقاً ، ولا تكون الأجسام التى يَمَسُّها على جسمه ، حتى إنه لا يَعْلَم أن له جسماً منها ، وتكون ملامسةُ يديه فى دماغه ، وتجتمع جميع إحساساته فى نقطة واحدة ، ولا يكون موجوداً فى غير مركز الحواسِّ ،

ولا يكون له غيرُ فكرةٍ واحدة ، غيرُ فكرة الذات التى يَرُدُّ إليها جميعَ إحساساته ، وتكون هذه الفكرةُ ، أو الشعورُ ، كلَّ ما لديه أكثرَ من ولدٍ عاديّ .

ولا يَعْرِف هذا الرجل ، المُكَوَّنُ دفعةً واحدةً ، أن يقف على رجليه أيضاً ، ولا بُدَّ له من مرور زمنٍ طويل حتى يتعلم الوقوفَ معتدلاً ، ومن المحتمل ألا يحاوِل هذا فتَرَوْا هذا الجسم الكبير القويَّ العُضْليَّ يبقى حيث هو كالحجر ، أو يَزْحَفُ ويَحْبُو كالجَرْو .

وهو يَشْعُر بما فى الحاجات من زَعْج من غير أن يَعْرِفها ومن غير أن يتمثل أية وسيلة لقضائها ، ولا يُوجدُ أيُّ اتصالٍ مباشر بين عَضَل المعدة وعَضَل الذراعين والساقين يَدْفَعَهُ ، حتى عند إحاطته بالأغذية ، إلى التقدم خُطوةً ليَدْنوَ من هذه الأغذية أو ليَمُدَّ يده إليها ليتناولها ، وبما أن بدنه كان على أَتَمِّ نُمُوِّه ، وبما أن أعضاءه كانت على أكمل نشوئها ، فلا يكون فيها ، من حيث النتيجةُ ، ما في الأولاد من تَبَرُّمٍ وحركة دائمة ، فإنه قد يموت جوعًا قبل أن يتحرك طلباً لقُوته ، ومهما يكن من تأمُّلٍ قليلٍ حول نظام معارفنا وتقدمها فإنه لا يُمكن أن يُنكَر أن هذه ، تقريباً ، هى حالُ الجهل والبَلَه الطبيعيةُ فى الإنسان قبل أن يتعلم شيئاً من التجربة أو من أمثاله .

ونُعرَفُ ، إذَن ، أو يُمكِن أن تُعرَفَ ، النقطةُ الأولى التى يَنطلق منها كلٌّ واحدٍ منا ليَبْلُغ درجةَ الإدراك العامةَ ، ولكنْ مَنْ ذا الذى يَعْرِف الحدَّ الآخر ؟ يتقدم كل واحدٍ ، تقريباً ، وَفْقَ ذكائه وذوقه واحتياجاته ومواهبه وغيرته وما يُتَاح له من فُرَصٍ لممارستها ، ولا أعْرِف فيلسوفًا بَلَغ

من الجرأة ما يقول معه : هذا هو الحدُّ الذى يمكن الإنسانَ أن يَصِل إليه فلا يستطيع مجاوزتَه ، ونَجْهَل ما تَسْمَحُ طبيعتنا أن نَكُونَهُ ، ولم يَقِسْ أحدٌ منا ما يُمْكِنِ أن يكون بين إنسانٍ وآخرَ من فَرْق ، وأيةُ نفسٍ ضعيفة لم يُنْعِشْها الفكر الآتى ولم يخامِرْ زهوهَا أحيانًا ، وهو : ما مقدارُ ما صنعتُ وما مقدارُ ما يمكننى أن أصنع ، ولِمَ يسير نظيرى إلى ما هو أبعدُ مما أسير ؟

وأقول مكرِّراً إن تربية الإنسان تبدأ عند وِلادته ، وإنه يتعلم قبل أن يتكلم أو يَفْهم ، وتَسْبِق التجرِبةُ الدروسَ ، ويَكْتسِب الإنسانُ كثيراً قبل أن يَعْرِف مرضعه ، ومما يُلْقِى الحيرةَ فينا معارفُ أجلافِ الناس إذا ما تعقبنا تقدمه من ساعة وِلادته حتى الساعةِ التى انتهى إليها ، وإذا ما قَسَمنا جميعَ علم الإنسان إلى قسمين فقلنا إن أحدهما مشتركٌ بين جميع الناس وإن الآخر خاصٌّ بالعلماء وَجَدْنا أنَ هذا صغيرٌ جدًّا بالنسبة إلى الآخر ، ولكننا لا نُفَكِّر فى المُكْتَسبات العامة مطلقًا ، وذلك لأنها تتمُّ من غير أن تَخْطُرَ ببال وتَقَع قبل سن التمييز ، وذلك إلى أن المعرفة لا تلاحَظ إلّا بفروقها وأن المقادير العامة لا يُفطَن إليها كما فى المعادلات الجبرية .

حتى إن الحيواناتِ تكتسب كثيراً ، وللحيواناتِ حواسُّ ، فيجب أن تَعْرِف كيف تستعملها ، ولها احتياجات ، فيجب أن تَعْرِف كيف تَقْضِيها ، ويجب أن تَعْلَمَ كيف تأكل وتمشى وتطير ، ولا تستطيع ذواتُ الأربع التى تَقِفُ على قوائمها منذ وِلادتها أن تمشىَ لهذا السبب ، ويُرَى عند خُطواتها الأولى أن هذه تجارِبُ يُعْوِزها الثباتُ ، ولا تَعْرِف النُّغْران* التى تَمْلَص

* النغران : جمع النغر ، وهى فراخ العصافير .

من أقفاصها أن تطير مطلقاً ، لأنها لم تَطِرْ قَطُّ ، ويتعلَّم كلُّ ذى حياةٍ وحسٍّ ، ولو كانت للنباتات حركةٌ تقدمية لوجب أن تكون ذاتَ حواسَّ وأن تنال معارفَ وإلاَّ لَهَلَكت الأنواع من فَوْرها .

وإحساساتُ الأولاد الأولى عاطفيةٌ صِرْفاً ، فهم لا يُدرِكون غيرَ اللذة والألم ، وهم ، إذ كانوا لا يستطيعون أن يمشوا أو يُمسكوا ، يحتاجون إلى كبيرِ وقتٍ حتى يتمَّ لهم من الإحساس التصويريِّ بالتدريج ما يُبْدِى لهم الأشياءَ خارجَ أنفسهم ، ولكنْ ريثما تنبسط هذه الأشياء وتبتعد عن عيونهم وتتَّخذ أبعاداً وصوراً بالنسبة إليهم ، يأخذ رَجْعُ الإحساسات العاطفية في إخضاعهم لسلطان العادة ، وتُرَى عيونُهم تتوجَّه إلى النور بلا انقطاع ، فإذا جاءهم منحرفاً اتجهت نحوَه اتجاهًا غيرَ محسوس ، ولذا يجب أن يُنتَبَهَ إلى مقابلة وجوههم للضياء حتى لا يصبحوا حُولاً أو لا يَتعَوَّدوا النظر عن عُرْضٍ ، ويجب ، أيضاً ، أن يتعودوا الظلامَ باكراً ، وإلَّا بَكَوْا وصاحُوا فَوْرَ وجودِهم في الظَّلْماء ، ويُصْبح الغذاء والنوم ، عند قياسهما بالضبط ، أمرين ضروريين في فواصلَ منتظمةٍ ، ولا تَلْبَث الرغبة أن تأتي من العادة ، لا من الحاجة ، وإن شئت فقل إن العادة تُضِيفُ احتياجًا جديداً إلى الحاجة الطبيعية ، فهذا ما يجب تداركه .

والعادةُ الوحيدة التى يجب أن يُسْمَح بها للولد هى ألَّا يألَفَ أيةَ عادة كانت ، وألَّا يُحْمَل على ذراعٍ أكثرَ من الأخرى ، وألَّا يُعوَّدَ مَدَّ يدٍ أكثرَ من الثانية فينتفعَ بها غالباً ، وألاَّ يريدَ الأكل والنومَ والعملَ في الساعات عينِها ، وألَّا يُطِيقَ عدمَ البقاء وحدَه ليلاً أو نهاراً ، وأعِدُّوا من

بعيدٍ عَهْدَ حريته واستعمالَ قواه تاركين العادةَ الطبيعية لبدنه جاعلين إياه فى حالٍ يكون بها سيدَ نفسه ويَعْمَل فى كلِّ أمرٍ وَفْقَ إرادته عند ما يُصْبِح صاحبَ عزم .

ومتى أخذ الولدُ يَمِيزُ بعضَ الأشياء من بعض كان من المهمِّ أن يُحْسِن الاختيار ، ومن الطبيعىِّ أن تَقِفَ نظرَه جميعُ الأمور الجديدة ، وهو يَبْلُغ من الشعور بضَعْف نفسه ما يَخْشَى معه جميعَ ما لا يَعْرِف ، وما يَكُون من عادة رؤية الأمور الجديدة من غيرِ سوءِ تأثيرٍ يُبَدِّد هـذا الخوف ، ومَنْ يُنَشَّأْ من الأولاد فى المنازل النظيفة ، حيث لا يكابِدون العنكبوتَ مطلقًا ، يخافون العنكبوتَ فيلازمهم هذا الخوف فى كِبَرِهم غالبًا ، ولم أرَ ، قَطُّ ، فلاَّحًا ، رجلاً كان أو امرأةً أو ولداً ، يخاف العنكبوت .

ولِمَ لا تَبْدَأ تربيةُ الولد قبل أن يتكلم ويَفْهَم ، إذَنْ ، ما دام اختيارُه الوحيدُ للأشياء التى تُعْرَض عليه يَجْعَلُه هَيَّابًا أو شجاعًا ؟ أودُّ تعويدَه رؤيةَ الأشياء الجديدة والحيواناتِ البشيعة الكريهة الغريبة ، ولكن بالتدريج ومن بعيدٍ ، حتى يألَفَها ، فيتصرفَ فيها تَصَرُّفَ الآخرين ، وإذا ما أبصر فى صباه ، من غير ذُعْرٍ ، ضفادعَ وأفاعىَ وسَرَاطِينَ فإنه يُبْصِرُ فى كِبَرِه أىَّ حيوانٍ كان من غير نفور ، ولا يَبْقَى ما يَشْمئزُّ منه فيما يَرَى كلَّ يوم .

ويخاف جميعُ الأولاد الوجوهَ المستعارة ، وأبدأ بإراءة إميلَ وجهًا مستعاراً مليحاً ، ثم يَضَعُ بعضُهم هذا القِنَاعَ على وجهه أمامه ، فأَضْحَك ويَضْحَك جميعُ الناس ، ويَضْحَك الولدُ كالآخرين ، وأُعَوِّده الوجوهَ المستعارة الأقلَّ ملاحةً مقداراً فمقداراً ، ثم أُعَوِّدُه الوجوهَ الكريهةَ فى آخر الأمر ، وإذا ما

راعيتُ تدرُّجي وأحسنتُ ما راعيتُ فإنه يضحك من القِناع الأخير ضحكه من الأول بعيداً من الذُّعر ، وإذا ما حَدَث هذا عُدْتُ لا أَخْشى خَوْفَه من الوجوه المستعارة .

ولمّا وَدَّعَ هِكْتُورُ أندرُوماكَ ذُعِرَ أَسْتيَانَكْسُ من الريش الذى كان يَتَموَّج فوق خُوذة أبيه فأنكر أباه وارتمى على صدر مُرْضِعه وهو يبكى وانتزع من أمه ابتسامةً ممزوجةً بالدموع ، وما كان يجب أن يُصْنَع لإنقاذه من هذا الفَزَع ؟ أن يُصْنَعَ ما فَعَل هِكْتُور فتُوضَعَ الخُوذَةُ على الأرض ويلاطَفَ الولد ، ولا يُوقَفُ عند هذا الحدّ فى وقتٍ أكثرَ هدوءاً ، بَلْ يُقْتَرَب من الخُوذة ويلاعَب الريش ، ويُحْمَل الولدُ على ملامسته ، ثم تتناول المرضعُ الخُوذةَ وتَضَعُها على رأسها وهى تَضْحَك ، لو كانت يدُ المرأة تجْرُؤ على مَسّ أسلحة هكتور .

وإذا ما وَجَب تمرينُ إميلَ على صوتِ سلاحٍ نارىّ أشعلتُ باروداً فى طَبَنْجَة ، فيَسُرُّه هـذا اللَّهَبُ المفاجىْ العابر ، هذا النوعُ من البَرْق ، وأُكرِّر الأمرَ عينه ببارودٍ أكثرَ من ذاك ، وإلى الطبنجة أُضيف بالتدريج حَشْوَةً صغيرة بلا وَبَر ، ثم أُضيف حَشْوَةً أكبرَ من تلك ، وأخيراً أُعوِّده طَلَقات البندقية والأسهمَ النارية والمدافعَ وأفظعَ الانفجارات .

وقد لاحظتُ أن من النادر خوفَ الأولاد من الرعد ما لم يكن قَصْفُه هائلًا مؤذياً لحاسة السمع حقًّا ، وهم لا يأتيهم هذا الفَزَع إلّا حين يَعلَمون أن الرعد يَجْرح أو يقتل أحياناً ، ومتى بدأ العقل يُلْقِي الرُّعبَ فيهم

فاجعلوا العادة تُسَكِّن رَوْعَهم ، ويُجْعَلُ الرجلُ والولدُ شجاعيْن تجاه كلِّ شيء بتدرُّجٍ بطيء مع الحذَر .

وفي بدءِ الحياة ، حين تكون الذاكرةُ والمُخَيِّلَةُ مُعَطَّلتين ، لا يَنْتَبِه الولدُ إلى غير ما يؤثِّرُ في حواسِّه فعلاً ، وبما أن هذه الإحساساتِ أُولَى موادِّ معارفه فإنّ عَرْضَها عليه بنظامٍ ملائم يَغْنى إعدادَ ذاكرته لتقديمها ضِمْنَ ذاتِ النظامِ إلى إدراكه ذاتَ يومٍ ، ولكنْ بما أنه لا يبالى بغير إحساساته فإنه يَكْفِى أن يُرَى بجلاء ما بين هذه الإحساسات والعوامل التي تُحْدِثها من ارتباط ، وهو يريد لَمْسَ كلِّ شيء ، وهو يريد استعمالَ كلِّ شيء ، فلا تقاوموا هذا الاكتراثَ مطلقاً ، لِمَا يُوحِي إليه من تَخَرُّج ضروريّ جدًّا ، وهكذا يتعلَّم الشعورَ بحرارة الأجسام وبرودتها وخشونتها ونعومتها ، وثِقَلها وخفتها والحكمَ في حجمها وصورتها وجميعِ خواصها المحسوسة ، وذلك بالنظر واللمس[1] والسمع ، ولا سيما قياسُه النظر على اللمس وتقديرُه بالعين ما يُحِسُّه بأصابعه .

وليس بغير الحركة ما نَعْرِف وجودَ أُمورٍ لم تكن إيانا ، وليس بغير حركتنا الخاصة ما نكتسب فكرةَ الاتساع ، وبما أن هذه الفكرة لم تكن لدى الولد فإن الولد يَبْسُط يدَه بلا تمييزٍ ليُمْسِك الشيء الذي يَمَسُّه أو الشيء البعيدَ منه مئةَ خُطوة ، ويَبْدُو لكم هذا الجهدُ الذي يَبْذُله دليلًا على

(١) حاسة الشم هي آخر ما ينمو من الحواس في الأولاد ، فالأولاد لا يحسون الروائح الطيبة ولا الروائح الكريهة حتى الثانية ، أو الثالثة ، من سنيهم كما يلوح ، ويشابه الأولاد من هذه الناحية ما يلاحظ في حيوانات كثيرة من عدم الاكتراث أو عدم الإحساس .

السلطان ، أمراً يُصْدِره إلى الشيء حتى يدنوَ ، أو يُصْدِره إليكم حتى تأتوا به إليه ، وليس الأمرُ هكذا ، والأمرُ هو أن الأشياء التي يُبْصِرها في دماغه في البُـداءة ، ثُمَّ على عينيه ، يراها الآن في طَرَف ذراعيه ، ولا يتصور اتساعاً غيرَ الذي يستطيع أن يَصِل إليه ، واعْنَوْا ، إذَنْ ، بأن تَجُولوا به غالباً ، وأن تَنْقُلوه من مَوْضِعٍ إلى آخر ، وأن تُشْعِروه بتغير المكان لكي يتعلَّم الحكم في المسافات ، ومتى أخـذ يَعْرِفُها وجبَ تغييرُ المِنْهاج وعدمُ حَمْله على غير ما يَرُوقكم ، لا كما يَرُوقه ، وذلك أنه إذا عاد لا يُخْدَعُ بالحسِّ غَيَّرَ جُهْدُه العلةَ ، وهـذا التغييرُ جديرٌ بالاعتبار ، ويتطلبُ إيضـاحاً .

إن الإشاراتِ تُعَبِّرُ عن اضطراب الحاجات عندما يكون عَوْنُ الآخرين ضروريًّا لقضائها ، ومن هنا يجيء صُراخُ الأولاد ، ويبكي الأولاد كثيراً ، وهذا ما يجب أن يكون ، وبما أن جميعَ إحساساتهم عاطفيةٌ فإنها إذا ما كانت مقبولةً تمتعوا بها صامتين ، وإذا ما كانت شاقةً أبْدَوْها بلغتهم وطلبوا تسليةً ، والواقعُ أنهم عندما يستيقظون لا يستطيعون البقاء في حالٍ من عدم المبالاة تقريباً ، فهم إما أن يناموا أو أن يَشْعُروا .

وجميعُ لغاتنا أعمـالُ فنٍّ ، وقد بُحِثَ طويلًا عن وجود لغةٍ طبيعية مشتركة بين جميع الناس ، ولا رَيْبَ في وجود لغةٍ من هذا الطراز ، وهذه هي اللغة التي يتكلم بها الأولاد قبل أن يَعْرِفوا الكلام ، أَجَلْ ، إن هذه اللغةَ ليست ذاتَ مفاصلَ ، غير أنها ذاتُ نَبَرات ، غير أنها طَنَّانة بَيِّنَة ، وما هو واقعٌ من استعمال لغاتنا يَحْمِلُنا على إهمالها إهمالًا ننساها به تمـاماً ،

ولنَدْرُس الأولادَ ، ولا نَلبَثُ ان نتعلمها بجانبهم ثانيةً ، ويُعَدُّ المَرَاضِعُ معلمات لنا فى هذه اللغة ، فهنّ يَسْمَعْنَ جميعَ ما يقول رُضَّعُهُنّ ، وهنّ يُجِبْنَهُمْ ، وتَقَعُ بينهن و بينهم محاوراتٌ متساوقة كثيراً ، ومهما تكن الكلمات التى يَنْطِقْنَ بها فإنه لا طائل تحت هـذه الكلمات قطعًا ، فليس معنى الكلمة هو الذى يَسْمَعُون ، بل النَّبْرَة التى تلازمها .

وإلى لغـة الصوت تضافُ لغةُ الإشارة التى لا تُعَدُّ أقلَّ مَضاءً ، وليست هـذه الإشارة فى أيدى الأولاد الضعيفة ، بل على وجوههم ، ومن موجبات العَجَب مقدارُ ما يَبْدُو على هذه الوجوه غير النامية من تعبيرٍ فى ذلك الدور ، فملامحُهم تتغير بين ثانيةٍ وأُخرى بسرعةٍ لا يُمكِن تصوُّرُها ، ففيها تُبْصِرُون الابتسامة والرغبة والرَّهبة تَظْهَرُ وتَمُرُّ كالبرق ، وفى كلِّ مرةٍ تظنُّون أنكم تَرَوْن وجهاً آخر ، ولعَمْرِى أن عضَلَ وجوههم أكثرُ تَحَوُّلًا من عضَل وجوهنا ، وبالمقابلة لا تَنْطِقُ عيونهم الكابية بشىء تقريبًا ، وهذا ما يجب أن يكون عليه نوعُ حركاتهم فى سنٍّ لا يوجَد فيها غيرُ احتياجات بدنية ما دام التعبير عن الإحساسات يكون فى القُطُوب وما دام التعبير عن المشاعر يكون فى النظرات .

وبمـا أن حال الإنسان الأولى تقوم على العَنَاء والضعف فإن أصواتَه الأولى تكون أصواتَ عويلٍ وبكاء ، ويَشْعُر الولد باحتياجاته ، ولا يستطيع قضاءها ، فيلتمس عَوْن سواه بالصُّراخ ، وهو إذا ما جاع أو عَطِشَ بَكَى وهو إذا ما بَرَدَ أو صار مَحْروراً بَكَى ، وهو إذا ما احتاج إلى الحركة وأُمْسِكَ ساكنًا بَكَى ، وهو إذا ما أراد النومَ وحُرِّكَ بَكَى ، وهو كلما

قلَّ وجهُ راحته طلب تبديله ، وليس لديه غيرُ لغةٍ واحدة ، وذلك أنه ليس عنده غيرُ نوعٍ واحد من انحراف المزاج ، وذلك أنه لا يُفرِّقُ بين مختلف انفعالات الأعضاء عن عدم كمالها ، فجميعُ الأمراض لا تُحْدِثُ فيه غيرَ إحساسٍ واحد بالألم .

وتنشأ أُولَى صِلات الإنسان بجميع ما يحيط به عن تلك الدموع التي يُظَنّ أنها لا تستحقُّ انتباهَكم إلّا قليلًا ، فهنا تُطَرَّق الْحَلْقَةُ الأولى من تلك السلسلة الطويلة التي يتألف منها النظامُ الاجتماعيُّ .

وَيَنِمُّ بكاء الولد على اضطرابه ، يَنِمُّ على احتياجٍ فيه لا يستطيعُ قضاءه ، ويُرْقَبُ هذا الاحتياجُ ويُبْحَثُ عنه ويوجد ويُتَلَافَى ، وهو إذا لم يُوجَدْ ، أو إذا لم يُمكِنْ تلافيه ، دامت الدموعُ وزُعِجَ منها ، فيُدَارَى الولدُ إسكاتًا له ويُهَدْهَد ، ويُرَنَّم له لينام ، وهو إذا ما عانَدَ وفرَغ الصبرُ هُدِّدَ وضَرَبته المَرَاضعُ الشَّرِساتُ أحيانًا ، فيا لهذه الدروس الغريبة عند دخوله الحياة !

ولن أنسى ما رأيتُ من ضَرْب المُرْضع لأحد هؤلاء البَكَّائين المزعجين ، وكان يَسْكُتُ من فَوْره ، فأظنُّ أنه أُخيف ، فأقول في نفسي : « إن هذه نفسٌ ذليلة لا يُنال منها شيء بغير العنف » ، وكنت مخطئًا في هذا ، فكان هذا التَّعِسُ يختنق غيظًا ولا يستطيع أن يتنفس ، فأراه بنفسجيَّ اللون ، وتمضي دقيقةٌ ، فتَخْرُجُ منه صيحاتٌ حادّة ، فتتجلَّى في نَبَرَاته جميعُ علائم غيظ ذلك العُمُر وغضبه ويأسه ، وقد خَشِيتُ أن تَفِيض روحه في أثناء هذا الهيجان ، ومتى شَكَكْتُ في كون حِسِّ العدل والظلم غريزيًّا في قلب الإنسان كان في ذاك المثال وحدَه ما يُقْنِعني ، ولا رَيْبَ عندي في أن

جَذْوَةً من النـار إذا ما سَقَطَتْ مصادفةً على يد ذلك الولد كانت ذاتَ وَقْعٍ أقلَّ من تلك الضربة الخفيفة التى أُنْزِلت عليه ، ولكنْ مع نيـةٍ بَيِّنَةٍ للإساءة إليه .

وَيَتَطَلَّبُ هـذا الميلُ فى الأولاد إلى الحِدَّة والغضب والهياج مداراةً متناهية ، ويَرَى بُويِرْ هَاف أن مُعْظم أمراضهم من فصيلة التَّشَنُّجَات ، وذلك لأن الرأس إذْ كان فى الأولاد أضخمَ مما فى البالغين نسبةً ، ولأن الجهاز العصبىّ إذْ كان فى أولئك أكثرَ امتداداً مما فى هؤلاء ، فإن النوع العصبىّ فى الأولاد يكون أشـدَّ استعداداً للغضب ، فاعْنَوْا كثيراً فى أن تُقْصُوا عنهم الخدَمَ الذين يزعجونهم ويُهَيِّجُونهم ويُفرِغون صبرَهم ، فهؤلاء أشدُّ خطراً وشؤماً عليهم مئةَ مرةٍ من مضارِّ الهواء والفصول ، ولا يُصْبح الأولاد عُنُداً ولا غِضاباً ، ويكونون أحسنَ صحةً ، ما داموا لا يجدون مُقاومةً فى غير الأشياء ، لا فى العزائم مطلقاً ، وهذا من جملة الأسباب فى أن أولاد الشعب ، إذ كانوا أكثرَ حريةً واستقلالاً ، يَبْدُون ، على العموم ، أقلَّ سَقَماً ، وأقلَّ ضَعْفاً ، وأشدَّ قوةً ، من أولئك الذين يُزْعَمُ أنهم أحسنُ تربيةً بمعاكستهم دائماً ، ولـكنْ لِيُذْكَرْ دائماً وجودُ فَرْقٍ بين إطاعتهم ومعاكستهم .

ودموعُ الأولاد الأولى تَضَرُّعاتٌ ، ولا تلبث أن تصيرَ أوامرَ إذا لم يُحْتَرَزْ منها ، ويبدأ الأولاد بأن يُعاوَنوا ، ويَنْتَهُون بأن يُخْدَموا ، وهكذا ينشأ عن ضعفهم فى بدء الأمر شعورُ انقيادهم ، ثم تنشأ فكرةُ السيطرة والسلطان ، ولـكنْ بما أن هذه الفكرةَ أقلُّ هياجاً باحتياجاتهم مما بخِدَمنا فإنه يُبْدَأُ هنا بالشعور بالنتائج الأدبية التى ليس سببُها المباشر فى الطبيعة ،

وهكذا يُرَى السببُ ، منذ هـذا الدَّوْر الأول ، فى وجوب تمييز المقْصِد الخفىِّ الذى يُمْلِي الحركةَ أو العويل .

ومتى مَدَّ الولدُ يدَه بجهدٍ من غير أن يقول شيئًا اعتقدَ أنه يَبْلُغ الشىء لعدم تقديره المَسَافة ، وهو مخطئٌ فى ذلك ، ولكن الولد إذا ما توَجَّع وصَرَخ مادًّا يده عاد لا يُعَدُّ مخطئًا فى أمر المسافة ، وإنما يأمُرُ الشىءَ بالاقتراب ، أو يأمُرُكم بأن تجْلُبوه إليه ، واحمِلوه فى الحال الأولى إلى الشىء رُوَيْدًا رويداً وبخطًا صغيرة ، ولا تَبْدُوا فى الحال الثانية أنكم تَسْمَعُون صَيْحاتِه ، فكلما صَرَخ وَجَبَ أن يقلَّ استماعُكم له ، ويَجْدُرُ أن يُعَوَّدَ باكراً عدمَ أمرِ الناس لأنه ليس سيداً لهم ، وعدمَ أمرِ الأشياء لأنها لا تَسْمَعُه مطلقًا ، وهكذا يَجْدُر أن يؤتى بالولد إلى الشىء ، إذا ما رَغِبَ فى شىء يَرَاه ويُرَاد إعطاؤه إياه ، أكثرَ من أن يؤتى بالشىء إلى الولد ، فهو يستنبط من هذه العادة نتيجةً ملائمة لسِنِّه ، ولا توجَدُ وسيلةٌ أخرى لتلقينه إياها .

وكان رئيسُ الدير سان پيير يَدْعُو الرجالَ أولاداً كِباراً ، وبالمقابلة كان يُمكِن أن يُسَمَّى الأولادُ رجالًا صِغاراً ، ولهذه القضايا حقيقتُها كالأحكام ، وهى تحتاج إلى إيضاحٍ كالمبادئ ، ولكن هُوبْزَ ، عندما دعا الشِّرِيرَ ولداً قويًّا ، قال شيئًا متناقضًا على الإطلاق ، فكلُّ شرٍّ يأتى من الضعف ، وليس الولد شرِيراً إلا لأنه ضعيف ، واجعلوا الولدَ قويًّا يُصْبح صالحًا ، وذلك أن الذى يَقْدِر على كلِّ شىء لا يَصْنَعُ الشَّرَّ مطلقًا ، وإذا نُظِرَ إلى جميع صفات الله القادر وُجِدَ الصلاحُ من صفاته التى يَصْعُب تَصَوُّره بغيرها ،

وإذا نُظِرَ إلى جميع الأمم التى عَرَفت المبدأين وُجِدَ أنها تَعُدُّ الشَّرَّ دون الخير ، وإلَّا لأتَتْ بقضيةٍ مُحالة ، وانظروا إلى عقيدة الرسوليِّ السَّافِوىِّ فيما بعد .

والعقلُ وحدَه هو الذى يُعَلِّمنا معرفة الخير والشرِّ ، ومع أن الشعور الذى يَجعَلُنا نُحِبُّ إنسانًا ونَكرَه الآخر مستقلٌّ عن العقل فإنه لا يُمكِن أن يَنمُوَ بغيره إذَنْ ، ونحن نَصْنَع الخير والشَّرَّ ، قبل سنِّ الرُّشد ، من غير أن نَعرِف ذلك ، ولا يُوجَدُ فَضْلٌ فى أفعالنا مطلقًا وإن وُجِدَ ، أحيانًا ، فى شعورنا بأفعال الآخرين الذين لهم صلةٌ بنا ، ويَوَدُّ الولدُ أن يُخِلَّ بكلِّ ما يَرَى ، فهو يَكسِرُ ويُحَطِّمُ كلَّ ما يستطيع أن يَصِلَ إليه ، وهو يُمسِكُ الطائرَ كما يُمسِك الحجر ، وهو يَخنُقُه من غير أن يَعرِف ما يَعمَل .

ولِمَ هذا ؟ أوَّلًا ، إن الفلسفة تُسَوِّغ ذلك بالعيوب الطبيعية ، تُسَوِّغه بالزهو وروح السيطرة وحبِّ الذات وسوء الخُلُق ، وقد تُضيفُ الفلسفةُ إلى هذا كَوْنَ شعور الولد بضعفه يَجعَلُه حريصاً على إتيانه أعمالَ قوةٍ فيُثبِتُ لنفسه قدرتَه الخاصة ، ولكن انظُروا إلى هذا الشيخ العاجز المُحَطَّم الذى رُدَّ إلى ضَعفِ الطفولة ضِمْن دائرة الحياة البشرية تَجِدُوا أنه لم يَبْقَ ساكنًا هادئًا فقط ، بل يَوَدُّ أن يبقى كلُّ شىء حَوْلَه ساكنًا هادئًا أيضًا ، فأقلُّ تغييرٍ يُزعِجه ويُقلِقه ، وهو يريد أن تَسُودَ دَعَةٌ عامة ، وكيف يُسفِر عَيْنُ العَجْز المضافِ إلى الأهواء عينِها عن نتائجَ كثيرةِ الاختلاف فى الدَّوْرَيْنِ إذا لم يتغير السببُ الأصلىُّ ؟ وأين يُمكِن أن يُبحَثَ عن اختلاف الأسباب

هذا إذا لم يَكُنْ فى الحال البدنية للاثنين ؟ يَنْمُو المبدأُ الفَعَّالُ المشتركُ بين الاثنين فى أحدهما وينطفىء فى الآخر ، ويَتَصَوَّرُ أحدُهما ويتلاشى الآخرُ ، ويَتَّجِه أحدُهما إلى الحياة ويتجه الآخرُ إلى الموت ، وتَتَجمعُ الفاعليةُ الخائرة فى قلب الشيخ ، وتَكُون الفاعليةُ الغزيرةُ فى قلب الولد وتمتدُّ إلى الخارج ، وهو يَشْعُر بمقدارٍ من الحياة يَكْفِى لإنعاش جميع من يحيطون به ، ولا طائلَ فى أن يَفعل أو يُبْطِل ، ويكفى أن يُغَيِّرَ حالَ الأمور ، فكلُّ تغييرٍ عملٌ ، وإذا ما لاح أكثرَ ميلًا إلى الهدم لم يكن هذا عن شرٍّ قَطُّ ، بل عن كَوْن العمل المُصَوِّر بطيئًا دائمًا ، وعن كَوْنِ العملِ الهادم أحسنَ ملاءمةً لنشاطه لأنه أكثرُ سرعةً .

وبينا يُنعم صانعُ الطبيعة على الأولاد بهذا المبدإ الفعال يُعْنَى بأن يكون أقلَّ ضرراً ، وذلك بتركه لهم قوةً قليلة لاستعماله ، ولكنهم عند ما يَقْدِرون على عَدِّ الناس الذين يحيطون بهم آلاتٍ يُسَيِّرُونها فإنهم يستخدمونهم فى تنفيذ رغبتهم والعِوَضِ من ضعفهم ، وهكذا يَغْدُون مزعجين باغين متجبرين أشرارًا جامحين ، وينشأ التقدم ، الذى لا يأتى من روح السيطرة الطبيعىِّ ، عن الذى يَمْنَحُهُم إياه ، وذلك أنه لا يتطلبُ طويلَ تجربةٍ أن يُشْعَرَ بمقدار اللذة فى العمل بأيدى الآخرين وفى عدم الحاجة إلى غير تحريك اللسان لتسيير العالَم .

وإذا ما كَبِرَ الولد اكتسب قوةً وأصبح أقلَّ قَلَقًا واضطرابًا وأكثرَ استقلالاً ، وهكذا يتوازن الروح والبدن ، ولا تطالبنا الطبيعة بأكثرَ من الحركة الضرورية لبقائنا ، بَيْدَ أن الرغبة فى القيادة لا تزول مع الحاجة التى

نشأت عنها ، فالسلطانُ يُوقِظُ حبَّ الذات ويصانعه ، والعادةُ تُقَوِّيه ، وهكذا يَعْقُب الهوى الحاجةَ ، وهكذا تكون لمُبْتَسراتِ الرأى جذورُها الأولى .

وإذا ماعُرِف المبدأ مرةً اتضحت لنا النقطةُ التى تُتْرَكُ منها طريقُ الطبيعة ، فلْنُبْصِر ما يجب أن يُصْنَع للبقاء عندها .

ويَبْعُد الأولادُ من أن يكونوا ذوى قوةٍ بالغة ، حتى إنه ليس عندهم من القوة ما يَكْفِى لما تطالبهم به الطبيعة ، ولِذَا يجب أن يُتْرَكَ لهم استعمالُ جميع القُوَى التى تُنْعِم الطبيعةُ بها عليهم ، فلا يُمْكِنُهم أن يُسيئوا استعمالَها ، وهذا هو المبدأ الأول .

ويجب أن يساعَدوا ، وأن يُتَدَارَكَ ما يُعْوِزُهم من المعرفة أو القوة فى كلِّ احتياجٍ بدنىّ ، وهذا هو المبدأ الثانى .

ويجب أن يُقْتَصَرَ ، فى العَوْن الذى يُمَدُّون به ، على النافع الحقيقىّ ، من غير أن يُلَبَّى داعى الهوى أو الرغبةِ بلا سبب ، وذلك لأن الهوى لا يُزْعِجهم مطلقاً إذا لم يُحْدَث ، فالهَوَى ليس من الطبيعة ، وهذا هو المبدأ الثالث .

ويجب أن تُدْرَس لغتُهم وإشاراتُهم بعناية ، وذلك لكى يُفَرَّق ، فى رَغَباتهم ، فى سِنٍّ لا يَعْرِفون أن يخادِعوا فيها ، بين ما يَصْدُرُ عن الطبيعة مباشرةً وما يَصْدُر عن الرأى ، وهذا هو المبدأ الرابع .

وتَقُوم روحُ هذه المبادئ على مَنْحِ الأولاد حريةً حقيقيةً كثيرةً وقليلَ سلطانٍ ، وأن يُتْرَكَ لهم كبيرُ مجالٍ للعمل بأنفسهم وقليـلُ تَطَلُّبٍ من

الآخرين ، وهكذا يتعودون ، باكراً ، أن يَقْصِروا رَغَباتِهم على قُوَاهم ، فيقلُّ شعورُهم بحرمانهم ما لا يكون ضِمْنَ طاقتهم .

وهذا ، إذَنْ ، سببٌ جديدٌ بالغُ الأهمية لترك أجسام الأولاد وأعضائهم طليقةً تماماً ، وذلك على أن يُبْعَدُوا من الخطر والسقوط وأن يُرَدَّ عن أيديهم كلُّ ما يُمْكِن أن يؤذيَهم .

ولا مراء فى أن الولد الطليق البدن والذراعين يكون أقل بكاء من الولد المشدودِ ضِمْنَ قِمَاط ، ولا يَبْكِى الولد الذى لا يَعْرِف غيرَ احتياجات البدن ما لم يَتَوَجَّع ، وينطوى هذا على فائدة عظيمة ، وذلك لأنه يُعْلَم بذلك متى يحتاج إلى العَوْن تماماً ، فلا يُتَأَخَّر ثانيةً عن منحه إياه جُهْدَ الاستطاعة ، ولكنكم إذا لم تستطيعوا تسكينَه فابقَوْا هادئين غيرَ مدارين إياه تسكيناً له ، فلا تَشْفِيه ملاطفتُكم من مَغْصه ، ومع ذلك فإنه سيَذْكُر ما يَجِبُ أن يُصْنَع ليُصَانَع ، وهو إذا عَرَفَ أن يَحْمِلكم على المبالاة به مرةً وَفْقَ ما يُرِيد أصبح سيدكم ، وضاع كلُّ شىء .

ويكون الأولادُ أقلَّ بكاء إذا قَلَّت معاكستهم فى حركاتهم ، وهم إذا ما قلَّ القلقُ من دموعهم قلَّ الألم من حملهم على السكوت ، وهم إذا ما قلَّ تهديدهم أو مداراتُهم غالبًا غَدَوْا أقلَّ جُبْنًا أو عناداً وظَلّوا أحسنَ وضعًا فى حالهم الطبيعية ، وتَحْدُث الفُتُوق فى الأولاد ببكائهم أقلَّ مما بالمبادرة إلى تسكينهم ، ودليلى على ذلك كونُ الأولاد المُهْمَلين أقلَّ عُرْضَةً للفَتْق من غيرهم ، ومع ذلك تَجِدُنى بعيداً جدًّا من كلِّ رغبةٍ فى إهمالهم ، وعلى العكس أرى أن يُجابُوا إلى رغبتهم قبل أن يُعَبِّرُوا عنها ، وألاَّ تُعْلَم

احتياجاتهم بصراخهم ، ولكننى لا أريد أن يُبْتَعَد عن الفطنة فى العناية بهم ، ولِمَ يكونُ من الخطأ بكاؤهم ماداموا يَرَوْن دموعَهم صالحةً لنيل كثيرٍ من الأمور ؟ إذا ما عَلِمُوا أىَّ ثمنٍ يكون لسكوتهم احترزوا من تبديده ، وهم يَبْلُغون من الغُلُوِّ فى استغلاله ما لا يؤدِّى ثمنه معه فى نهاية الأمر ، وهنالك يَجِدُّون ويَضْنَوْن ويسكتون عن بكاء بلا جَدْوَى .

وليست دموعُ الولدِ غيرِ المقيد ولا المريضِ والذى لا يُعْوِزُه شىء ، ليست دموعُ هذا الولدِ ، غيرَ دموعِ عادةٍ وعناد ، وليست هذه الدموع من عمل الطبيعة ، بل من عمل المُرْضع التى لا تطيق ما توجبه من إزعاج فتَزِيدُه ، وذلك أنه لا يَخْطُر ببالها كَوْنُ الولد إذا ما أُسْكِت اليومَ حُرِّضَ على البكاء غداً بما هو أكثر من ذلك .

والوسيلةُ الوحيدة للشفاء من هذه العادة أو منعها هو أن يُتَغافَل عنها ، ولا يَوَدُّ أحدٌ ، حتى الأولادُ ، بذلَ جُهْدٍ على غير جَدْوَى ، أَجَلْ ، إنهم يُصِرُّون على محاولاتهم ، ولكنكم إذا كنتم أكثرَ عناداً منهم فتَرَتْ همتُهم ولم يَعُودوا إلى ذلك مطلقًا ، وهكذا تُوَفَّرُ عليهم دموعُهم ويُعَوَّدون عدمَ سكبِ شىءٍ منها مالم يَحْمِلْهم الألمُ على ذلك .

ثم إنهم إذا ما بَكَوْا عن هَوًى أو عن عنادٍ كانت الوسيلة الوثيقة لمنعهم من الاستمرار على هذا أن يُلْهَوْا بشىءٍ مستحَبٍّ مؤثِّرٍ يَنْسَوْن به أنهم يريدون البكاء ، ويُجيدُ معظمُ المَرَاضِع هذا الفنَّ الذى إذا ما أُحْسِنَ استعماله كان مفيداً جِدًّا ، ولكن من المهمِّ إلى الغاية ألاَّ يَشْعُرُ الولدُ بِنِيَّة إلهائه وأن يَتَلَهَّى من غير أن يَعْتَقِدَ أنه يُفَكَّر فيه ، وهذا ما يَبْدُو

فيـه جميعُ المراضعِ غيرَ ماهرات .

ويُفْطَمُ جميعُ الأولاد باكراً ، ويُشَارُ إلى الوقت الذى يجب أن يُفطَمُوا فيه بِنَبْتِ الأسنان ، ويكون هذا النَّبتُ شاقًّا أليمًا على العموم ، وهنالك يَحْمِلُ الولدُ إلى فمه ، متواتراً وبغريزةٍ آلية ، جميعَ ما يُمْسِك ليَمْضُغَه ، ويُرَى أن العملَ يَسْهُل بإعطائه جسماً صُلْباً كالُلهيَّة ، وذلك كالعاج أو سن الذئب ، وأعتقدُ أن هذا خطأٌ ، فالأجسامُ الصُلبة إذا ما وضعتْ على اللِّثَّات كان من البعيد أن تُلِينَها ، وإنما تَجْعَلُها جاسئةً وتُصَلِّبها وتُعِدُّ تَمَزُّقًا أشدَّ مشقةً وأعظمَ ألمًا ، ولْنَتَّخِذ الغريزةَ مثالاً دائمًا ، فلا تُرَى الجِرَاء ممارِسةً أسنانَها النابتة على الحصَي أو على الحديد أو على العِظام ، وإنما تمارِسها على الخشب أو الجلد أو الرِّثاث وغيرها من الموادّ اللينة التى تنحنى والتى تنطبع عليها السِّنُّ .

ولا نستطيع أن نكون بُسَطاء فى شىء ، حتى حَوْل الأولاد ، وياللأجهزة غيرِ النافعة والضارةِ كالجَلَاجِل الفضية والذهبية والمَرْجانية ، وكالبِلَّوْر ذى الوجوه واللُّعَب من أىِّ ثمنٍ أو أىِّ نوعٍ كان ! لا شىء من جميع هذا ، فلا جَلَاجِلَ ولا لُعَب ، فله فى أغصان الشجر الصغيرة مع أثمارها وأوراقها ، وله فى رأس الخشْخَاش الذى يَسْمَعُ فيه طنين الحبِّ ، وله فى عِرْق السُّوس الذى يستطيع أن يَمُصَّه ويَمْضُغَه ، أُلْهِيَّةٌ كما فى تلك الأشياء الفاخرة ، وذلك مع عدم اشتمالها على تعويده النفائسَ منذ ولادته .

ومن المعترَف به كونُ الحَساء غِذَاء غيرَ صحىٍّ كثيراً ، وينشأ عن اللبن المغلىِّ والدقيقِ غيرِ المطبوخ دَرَنٌ ، ولا يلائمان معدتَنا ، ويكون

الدقيقُ فى الحَساء أقلُّ نَضْجاً مما فى الخبز ، فضلًا عن عدم اختماره ، ويَلُوح لى أن الخبزَ المنقوع فى ماء وزُبْدَةٍ وقِشْدَةَ الأُرُزِّ أفضلُ من ذاك ، وإذا كان لا بُدَّ من صُنْع حَساء كان من الملائم تحميصُ قليلٍ من الدقيق مقدَّماً ، وفى بلدى يُصْنَع من الدقيق المُحَمَّص هكذا حَساء لذيذٌ جدًّا ، صحىٌّ جدًّا ، وكذلك مَرَقُ اللحم والثَّرِيدُ غِذاء متوسط ، فلا ينبغى اتخاذُها إلَّا قليلًا ما أمْكَن ، ومن المهمّ أن يتعود الأولادُ المضغ فى البُداءة ، وهذه هى الوسيلة الحقيقية لتسهيل نَبْتِ الأسنان ، فمتى أخذ الأولادُ يَبْلَعُون سَهَّلَت الهضمَ عُصارَةُ اللُّعاب المزوجةُ بالأغذية .

وسأجعلهم يَمْضُغُون الفواكهَ الجافة وكِسَرَ الخبز إذَنْ ، وسأُعطيهم ، كأُلعوبةٍ ، أصابعَ صغيرةً من الخبز الناشف أو بَسْكُوتاً مشابهاً لخبزِ بِيمُونتَ فيُسَمَّى غرِيسًّا فى هذا البلد ، ويبتلعون قليلًا من هذا الخبز فى آخر الأمر عن كثرةِ ما يُلَانُ منه فى أفواههم ، وتَنْبُتُ أسنانُهم ، ويُفطَم الولدُ من غير أن يُشْعَرَ بذلك ، وتُوجَدُ للفلاحين مِعَدٌ صالحة عادةً فيُفطَمُون بلا ضوضاء .

ويَسْمَع الأولادُ الكلامَ منذ ولادتهم ، ولا يخاطَبُ الأولاد قبل أن يُدْرِكوا ما يقال لهم فقط ، بل قبل أن يستطيعوا ردَّ الأصوات التى يَسْمَعُونها ، ولا تَقُوم الأعضاء ، التى لا تزال خَدِرةً ، بتقليد الأصوات التى تُملَى عليها إلا بالتدريج ، حتى إنه ليس من الثابت أن تَقْرَعَ هذه الأصواتُ آذانَهم كما تَقْرَعُ آذانَنا بجلاء ، ولا أَلُوم المُرْضِعَ على إلهاء الولد بأغانٍ ونَبَراتٍ مَرِحةٍ مُنوَّعة ، ولكننى أَكْرَه أن تُزْعِجه بطائفةٍ من الكلام الفارغ لا يفقه منها غيرَ ما تَضَعُه فيها من نَغَم ، وكلُّ ما أودّ هو أن تكون المفاصلُ

الأولى التى يُسَمِّعُها نفيسةً سهلةً واضحةً مُكَرَّرةً غالباً وأن تكون الكلماتُ التى تُعَبِّرُ عنها دالةً على أشياء محسوسةٍ يُمْكِن أن تكون أولَ ما تَعْرِض على الولد ، وتبدأ السهولةُ المشؤومَةُ فى استعمال الكلمات ، التى لا ندركها ، باكراً أكثرَ مما نظنّ ، ويَسْمَع الطالب وهو فى الصفّ هَذَر معلمه كما كان يَسْمَعُ ثرثرةَ مُرْضِعِهِ وهو فى القِماط ، ويَلُوح لى أن من حُسْن التربية تركَه جاهلًا فى كلا الحالين .

ومتى أُرِيدَ الاكتراثُ لتكوين لغة الأولاد وكلامهم الأول أتت التأملاتُ جملةً ، ومهما يكن من أمرٍ فإن الأولاد يتعلمون الكلامَ على نَمَطٍ واحدٍ دائماً ، وهنا تكون جميع النظريات الفلسفية غيرَ نافعةٍ إلى أبعد حَدٍّ .

وذلك ، أولاً ، أن لهم نحواً ملائماً لعُمُرِهم ذا إعرابٍ وقواعدَ أعمّ مما فى نحونا ، وإذا ما أُنْعِمَ النظرُ فى ذلك دُهِشَ من دقتهم فى بعض المشابهات الكثيرة الانتظام مع ما فيها من نقص كبير ، والتى لا تكون نابيةً إلّا لجفائها أو لأن العادة لا تُقِرُّها ، ومنذ قليلٍ سمعتُ ولداً يَنْهَرُه أبوه لقوله : « Mon pére-irai-je-t-y? » ، والواقعُ أن هذا الولد اتَّبَع القياس بأوثقَ مما يَتَّبِعُ نحويُّونا ، وذلك أنه يُقال له : « Va - s - y » ، فلِمَ لا يقول : « Irai - je - t-y? » ، وفضلًا عن ذلك فانظُرُوا مبلغَ المهارةِ التى يَتَجَنَّب بها التقاء حرفى العلة فى « irai - je - y? » أو « y- irai -je? » ، وهل من خطإِ الولد أن كنا على غير صوابٍ فى نَزْعنا من الجملة ظرفَ « y » القاطعَ لأننا لم نَعْرِف ما نَصْنَع به ؟ إن من الحَذْلَقة التى لا تطاق ، ومن العناية الفارغة ، أن يُصْلَح فى الأولاد جميعُ الأغاليط الصغيرة المخالفة

للعادة والتى تُصَحَّح مع الزمن من تلقاء نفسها، فليَكُنْ كلامُكم صحيحاً أمامهم دائمًا ، واجعلوهم لا يُسَرُّون بأحدٍ سرورَهم بكم ، ثم ثِقُوا بأن لسانهم يُقَوَّم وَفْقَ لسانكم على وجهٍ غير محسوس ومن غير أن تَقُوموا بإصلاحٍ فى ذلك نحوَهم .

ولكنه يُوجَدُ شَرٌّ أبلغُ من ذاك لا يَسْهُل اجتنابه ، وذلك أنه يُعَجِّلُ كثيراً فى حَمْل الأولاد على الكلام ، كأنه يُخْشَى ألا يتعلموه بأنفسهم ، وذلك الاستعجالُ الطائشُ يؤدى مباشرةً إلى نتيجةٍ مخالفة للمطلوب ، وذلك أنهم يتكلمون بذلك مؤخراً على وجهٍ أشدَّ اختلاطاً ، وذلك أن العناية المتناهية التى تُبْذَل حَوْل كلِّ ما يقولون تُعْفِيهم من الكلام بوضوح ، وذلك بما أنهم لا يكادون يفتحون أفواهَهم فإن كثيراً منهم يحتفظ ، مدى حياته ، بعيبٍ فى اللفظ وبنُطْقٍ مختلطٍ يجعلهم أغبياء تقريبًا .

وقد عِشْتُ كثيراً بين القَرَويين فلم أسمع ، قَطُّ ، واحداً من رجالهم أو نسائهم أو بناتهم أو بنيهم يَلْثَغُ ، ومن أين يأتى هذا ؟ أفَكُوِّنَت أعضاء القَرويين على غير تكوين أعضائنا ؟ كلا ، وإنما دُرِّبت على وجهٍ آخر ، وتوجد أمام نافذتى أرضٌ يجتمع فيها أولاد المحلّ ليلْعَبُوا ، وأُميزُ ما يقولون تمامًا على ما بينى وبينهم من مَسافة ، فأستخرج منها ، فى الغالب ، مذكِّراتٍ صالحةً لهذا الكتاب ، وفى كلِّ يومٍ تَخْدَعُنى أُذنى حَوْل سِنِّهم ، وذلك أننى أسمع أصواتَ أولادٍ فى العاشر من عمرهم ، وأَنظُر ، وأرى ، قَوامَ أولادٍ ، وملامحَ أولادٍ ، تَتَرَجَّح سِنُّهم بين الثالثة والرابعة ، ولا أَقْصِرُ تَجْرِبتى على نفسى ، وأستَطْلِع رأىَ الزائرين لى من أهل المدن فى ذلك ، فأجدهم على ذات الخطأ .

وينشأ هذا عن كَوْنِ أولاد المدن ، المترجِّحةِ أعمارُهم بين الخامس والسادس ، والذين يُنَشَّأون فى الغرفة وتحت جَنَاح مربيةٍ ، لا يحتاجون إلى غير الهَمْهَمة ليُسْمَعُوا ، فإذا ما حَرَّكوا شفاهَهم وُجِدَتْ مشقةٌ فى الاستماع إليهم ، ويُلَقَّنُون كلماتٍ يُرَدِّدونها ترديداً سيئًا ، فيتنبَّأُ عينُ الأشخاص ، الذين يكونون حَوْلهم فى كلِّ وقت ، بما يريدون أن يقولوا ، لا بما يقولون .

والأمرُ غيرُ ذلك فى الأرياف ، فالقَرَويةُ لا تكون حوْلَ ولدها بلا انقطاع ، فيُضْطَرُّ هذا الولد أن يتعلم قول ما يُرِيدُ واضحاً عالياً جدًّا ، ويكون الأولادُ فى الأرياف متفرقين بعيدين من الأب والأمِّ والأولاد الآخرين فيُدَرِّبون أنفسهم على أن يُسْمِعُوا من مسافةٍ بعيدة وعلى قياس الصوت بالفاصلة التى تفصِلُهم عمن يريدون إسماعَهم ، وهذا هو الوجه الذى يُعَلِّمُون به النُّطْقَ حقًّا ، لا أن يُتَمْتِمُوا ببعض الحروف الصوتية فى أذنِ مربيةٍ يَقْظَى ، ومما يَحْدُث أن ابن القروىِّ إذا ما سُئِلَ أمْكَن منعُ الحياء إياه من الجواب ، غير أن ما يقول يقوله واضحاً ، وذلك بدلاً من أن تقوم الخادمة مقامَ المترجم لابن المدينة ، ولولا هذا ما أُدْرِكَ شىءٌ مما يُتَمْتِمُ بين أسنانه [1] .

وإذا ما كَبِرَ البَنُون وجب أن يُقَوِّموا هذا النقص فى المدارس ، وإذا ما كبِر البنات وجب أن يُقَوِّمْنَه فى الأديار ، والحقُّ أن كلا الفريقين يتكلم ، على العموم ، بأوضحَ من كلامِ مَنْ يُنَشَّأون فى بيتٍ

---

(١) ليس هذا بلا استثناء ، فى الغالب أن أقل الأولاد إسماعاً فى البداءة يصبحون أكثر الأولاد إزعاجاً فيما بعد ، أى عندما يأخذون فى رفع الصوت ، ولكن الأمر إذا ما قضى بالدخول فى الجزئيات لم أنته من الكلام ، فعلى كل قارئٍ حصيف أن يرى أن الزائد والناقص المشتقين من سوء استعمال واحد يصححان بمنهاجى على السواء ، وأجد أنه لا يمكن فصل أحد المبدأين الآتيين عن الآخر ، وهما : « حب التناهى غلط ، وخير الأمور الوسط » ، ومن المبدأ الثانى ينشأ الأول بحكم الضرورة .

الأب ، ولكن الذى يمنعهم من اكتساب نطق خالص كنطق القرويين هو ضرورة تعلم أمور كثيرة على ظهر القلب ، وتلاوة ما تعلموا عن ظهر القلب ، وذلك لأنهم إذا ما درسوا تعودوا اللثلثة وتهاونوا بالنطق وأساءوا اللفظ ، ولأنهم إذا ما تلوا عن ظهر القلب أتوا ما هو أسوأ من ذاك ، وهم فى ذلك يتلمسون الكلمات بجهد ، وهم فى ذلك يمطون المقاطع ويمطلونها ، وليس من الممكن ألا يلجلج فى الكلام أيضاً إذا ما ترجرجت الذاكرة ، وهكذا تكتسب عيوب النطق وتدوم ، وسيرى فيما بعد أن إميل لا يكتسب هذه العيوب ، أو أنه لا يكتسبها عن ذات العلل على الأقل .

وأسلم بأن الشعب والقرويين ينزلون إلى طرف متناه آخر ، وأنهم يتكلمون بما هو أعلى مما يجب دائماً تقريباً ، وأنهم إذا ما كانوا دقيقى النطق كانت مفاصلهم شديدة جافية ، وأنهم كثيرو النبرات ، وأنهم سيئو الاختيار لألفاظهم ، إلخ .

بيد أن هذا التناهى يبدو لى ، أولاً ، أقل عيباً بمراحل من ذاك ما دام قانون الكلام الأول هو الإسماع ، وما دام أعظم خطإ يصنع هو أن يقع الكلام من غير أن يسمع ، ومن يفاخر بعدم وجود نبرات له يعنى أنه يفاخر بتجريد الجمل من طلاوتها وطاقتها ، فالنبرات روح الكلام ، وهى تنعم على الكلام بالإحساس والصحة ، والنبرات أقل كذباً من الكلام ، وقد يكون هذا سبب خشية الناس إياها كثيراً ، وتنشأ عادة التهكم بالناس من غير أن يشعروا عن عادة قولهم كل شىء على وتيرة واحدة ، و إذا ما حرمت النبرات عقبتها طرز للنطق مضحكة مموهة عابرة كالتى تلاحظ لدى شبان البلاط ،

وهذا التَّصَنُّع فى الكلام والوضعِ يجْعل وصولَ الفرنسىِّ كريهاً مُنَفِّراً لدى الأمم الأخرى ، وفى هيئته ، لا فى كلامه ، ما يَضَعُ النَّبرَات ، وهذا ما لا يكون وسيلةَ جَذْبٍ إليه .

ولا تُعَدُّ شيئاً جميعُ هذه الهَنَاتِ فى الكلام التى يُخْشَى اكتسابُ الأولاد لها ، فمن السهل جدًّا منعُ وقوعها أو إصلاحُها ، ولكن الخطأ الذى يكتسبونه لا يُصْلَحُ أبداً بجعل كلامهم مُبْهماً غامضًا جافلاً ، و بنقدِ لهجتهم نقداً مستمرًّا ، و بتنقية جميع ألفاظهم ، ولا يُسْمَعُ الرجل وهو على رأس فرقةٍ إذا ما تَعلَّمَ الكلام فى رِداه الاستقبال فقط ، وقُلْ مِثْل هـذا عن وضْعِه تِجاه شعبٍ ثائر ، فعلِّمُوا الأولادَ أن يخاطبوا الرجالَ قبلَ كلِّ شىء ، وهم سيَعْرِفون مخاطبةَ النساء عند الاقتضاء .

قُومُوا بتربية أولادكم فى الأرياف بكلِّ ما فى الريفية من خشونة ، فهنالك يكتسبون صوتاً أكثرَ رنيناً ، وهنالك لا ينالون ، مطلقاً ، لَجْلَجَةَ أولاد المدنِ المبهمةَ ، وكذلك لا ينالون تعبيراتِ القرية ولا لهجتَها ، أو إنهم يَفْقِدونها بسهولةٍ عند ما يمْنَعها المعلمُ ، الذى يعيش معهم منذ ولادتهم والذى يعيش هنالك حَصْراً يومًا بعد يوم ، أو يَمْحُو بتقويم لسانه ، أثرَ لسان القَرَويين ، وسيتكلم إميل فرنسيةً أصفى من كلِّ ما أعلم ، ولكنه سيتكلمها بأجْلَى مما لدىَّ ، وسَيَنْطِق بها نُطقًا أحسنَ مما عندى .

ولا ينبغى للولد الذى يحاول الكلامَ أن يَسْمَع غيرَ الكلمات التى يستطيع أن يُدْرِكها ، ولا أن يقول غيرَ الكلمات التى يستطيع أن يَلْفِظ بها ، وما يَبْذُلُ من جهودٍ فى هذا السبيل يَحْمِلُه على تكرير عين المَقْطع كما لو كان

يُمَرِّن نفسَه على النطق به نُطقاً أكثرَ جلاء ، وهو إذا أخذ يَتَلَجْلج فلا تُزْعِجوا أنفسكم كثيراً فى اكتشاف ما يقول ، ويُعَدُّ الزعم بأن يُسْمَع دائماً ضرباً من السيطرة التى لا يجوز للولد أن يمارس شيئاً منها ، واقتصروا على تدارك ما هو ضرورىٌّ بدقةٍ بالغة ، ودَعُوه يحاوِلُ جعلَكم تُذْركون الباقى ، وأقلُّ من ذلك ضرورةُ الإسراع فى مطالبته بأن يتكلم ، فهو سَيَعْرِف الكلامَ من تلقاء نفسه كلما شَعَر بفائدته .

ومما يُلاَحَظُ ، حقًّا ، كَوْنُ الذين يبدءون بالكلامَ متأخرين لا يتكلمون بوضوحٍ كالآخرين ، ولكن تكلُّمهم متأخرين لا يَعْنِى بقاء صوتهم مرتبكاً ، وعلى العكس تَجِدُ أن وِلادتَهم بصوتٍ مرتبكٍ سببَ تأخرهم فى الكلام ، وإلّا فَلِمَ يتكلمون متأخرين عن الآخرين ؟ أوَ كانت فرصةُ الكلام لديهم أقلَّ مما عند غيرهم ، أم إنهم يُحَرَّضون عليه أقلَّ مما يُحَرَّض عليه سواهم ؟ فالواقعُ خلافُ ذلك ، أى إن ما يوجبه هذا التأخير من همٍّ فَوْرَ الشعور به يؤدى إلى مضاعفة الجِدِّ فى حَمْلِهم على اللَّجْلَجة أكثرَ من حَمْل مَنْ لَفظُوا باكراً ، ويُمْكِنِ هذا التهافتَ الخاطئْ أن يساعد على جعل كلامهم مختلطاً مع أن غيرةً أقلَّ من تلك تجعل لديهم وقتاً يكون فيه كلامهم أكملَ من ذاك .

وليس لدى الأولاد الذين يُحَرَّضون كثيراً على الكلام من الوقت ما يتعلمون فيه حُسْنَ النُّطْق ولا حُسْنَ تَصَوُّر ما يُحْمَلُون على قوله ، وذلك بدلاً من أن يُتْرَكُوا وشأنَهم فيُدَرِّبوا أنفسهم فى البُداءة على أسهل المقاطع فى النُّطْقَ ، وهم إذ يُضِيفُون بالتدريج مَعْنًى يُدْرَك من حركاتهم فإنهم

يُعطُون كلماتِهم قبل أن يَتَلقَّوْا كلماتِكم ، وهم بهذه الوسيلة لا يَتَلقَّوْن كلماتِكم قبل أن يَفْهَمُوها ، وهم إذْ لم يُحَثُّوا على استعمالها قَطُّ فإنهم يُحْسِنُون ملاحظةَ المعنى الذى تُطْلِقُونه عليها ، وهم إذا ما اسْتَيْقَنُوها انتحلوها .

ولا يَقُومُ أعظمُ سوء فى استعجال الأولاد أن يتكلموا قبل الأوان على خُلُوِّ مقالهم الأول وكلماتِهم الأولى التى يَتَلَفَّظون بها من المعنى لديهم ، بل على وجود معنًى آخرَ لها عندهم غيرِ الذى يكون لها عندنا من غير أن نُدْرِك ذلك ، فهم إذْ يَبْدُون أنهم يجيبوننا جواباً بالغَ الصحة يخاطبوننا من غير أن يُدْرِكونا ومن غير أن نُدْرِكهم ، وهذه المُلْتَبِساتُ ، عادةً ، هى مصدرُ الحيرة التى يُلْقِينا كلامُهم فيها أحياناً ، وذلك لِماَ نَعْزُو إليه من أفكارٍ لم يَقْصِدوها به قَطُّ ، ويَظْهَرُ لى أن عدمَ انتباهِنا هذا إلى أن معنى الكلمات لدى الأولاد علةُ أغاليطهم الأولى ، وتؤثِّر هذه الأغاليطُ ، حتى بعد أن يُشْفَوْا منها ، فى طراز تفكيرهم فى بقية حياتهم ، وسيكون لدىَّ أكثرُ من فرصةٍ لإيضاح هذا بالأمثلة .

وضَيِّقُوا ، إذَنْ ، نِطاقَ مجموعةِ كلماتِ الولد ما أمكن ، وذلك للضرر الكبير فى حيازته كلماتٍ أكثرَ من الأفكار ولمعرفته قولَ أشياء أكثرَ مما يُفكِّر فيه منها ، وعندى أن من الأسباب فى كون القَرَويين أثقبَ فكراً من أهل المدن هو أن مُعْجَمَهم أقلُّ اتساعًا ، أَجَلْ ، إنهم أقلُّ أفكاراً ، غير أنهم يُجِيدُون المقابلةَ بينها كثيراً .

ويَتِمُّ تقدمُ الولد فى شتى الطرق دفعةً واحدةً تقريباً ، ويتعلَّم الولدُ الكلامَ والأكلَ والمشىَ فى وقت واحد تقريباً ، وهذا هو دَوْرُ حياته

الأول حقًّا ، ولا يَكُون قبل ذلك أَكثرَ مما كان عليه في بطن أُمه لِمَا ليس لديه من شعورٍ وفكرٍ ، وهو لا يكاد يكون ذا إحساس ، حتى إنه لا يَشْعُر بوجوده الخاصّ :

« فهو يعيش ، ولا يَشْعُر بحياته » — أُوفيد .

الجزء الثاني

هنا دَوْرُ الحياة الثانى ، هنا الدور الذى تنتهى عنده الطفولة « enfance » ، وذلك لأن الكلمتين « infans » و « puer » ليستا مترادفتين ، فالأولى مُدَمَّجةٌ فى الثانية ، وهى تعنى « الذى لا يستطيع الكلام » ، ومن ثَمَّ يأتى وجود « puerum infantem » فى ڤالير مَكْسِيم ، ولكننى أداوم على استعمال هذه الكلمة وَفْقَ اصطلاح لغتنا ، وذلك حتى العُمُر الذى يوجَدُ له أسماء أخرى .

ومتى أخذ الأطفال يتكلمون قَلَّ بكاؤهم ، وهذا التقدمُ طبيعىٌّ ، وتقوم لغةٌ مقامَ لغـةٍ ، وإذا ما استطاعوا أن يقولوا بالكلام إنهم يألمون فَلِمَ يقولون الكلامَ مع صُرَاخٍ إذا لم يكن الألم من الشِّدة ما لا يَقْدِر الكلامُ معه أن يُعَبِّر عنه ؟ وإذا ما استمروا على البكاء هنالك كان هـذا ذنبَ مَنْ يحيطون بهم ، وإذا قال إميلُ مرةً « أتَوَجَّع » وجب وجودُ آلامٍ شديدة تَحْمِـلُه على البكاء .

وإذا كان الولدُ سريعَ الانفعال سريعَ التأثر ، وإذا ما أخذ يَصْرُخ عن طبيعةٍ وبلا سبب ، جَعَلْتُ هذه الصَّرَخاتِ غيرَ مجديةٍ غيرَ ذاتِ فعلٍ مُنْتَزِفاً اليَنبُوعَ من فَوْرى ، ولا أذهب إليه ما دام يَبْكى ، وأُهْرَع إليه حالا عند ما يَسْكُت ، ولا تَلْبَث طريقةُ دعوته إياى أن تَقُوم على الصمت أو إلقـاء صَرْخَةٍ واحدة على الأكثر ، ويُدْرِك الأولادُ معنى الإشارات بنتائجها الحسية ، ولا يُوجَدُ لدى الأولاد معنًى آخر ، ومن النادر أن يَبْكىَ

الولد إذا كان وحدَه مهما بَلَغَ من إيلام نفسه ، وذلك ما لم يأمُلْ سَمَاعه .

وهو إذا ما سَقَط ، وهو إذا ما وَرَّم رأسه ، وهو إذا ما أدْمَى أنفَه ، وهو إذا ما قَطَّع أصابعه ، بقيتُ ساكناً ، ولو لدقيقةٍ واحدةٍ على الأقل ، بدلًا من أن أسرع إليه مذعوراً ، فأما وقد وقع الأذى فإن الضرورة تَقْضى بأن يُعَانِيَه ، ولن يَنْفَع هَرَعى لغير زيادة ذُعْره وانفعاله ، وفى الأساس أن الفَزَع يؤلِم أكثرَ من الضَّرْب عند الجَرْح ، وأُوَفِّرُ له هـذا العذابَ المُبَرِّحَ على الأقل ، ومما لا ريبَ فيه أنه يَحْكُم فى ضرره كما يَرَى من حُكْمى فيه ، وذلك أنه إذا رآنى أُهْرَعُ إليه جَزُوعًا فأُسَايه وأتَوَجَّع له أيقَن ضَيَاعَ نفسه ، وأنه إذا رآنى محافظًا على اعتدال دمى استردَّ اعتدالَ دمه من فَوْره واعتقد شفاءه من الضرر عندما يُصْبِح غيرَ شاعرٍ به ، وفى هـذا الدَّوْر يتلَقَّى دروسَ الشجاعة الأولى ، فهو إذا ما احتمل الآلام الخفيفةَ بلا وَجَلٍ تَعَلَّم احتمالَ عظيمها بالتدريج .

ولا أُزْعِج نفسى بأن أمنع إميلَ من إيذاء نفسه ، ومما يَغيظُنى كثيراً ألَّا يؤذيَ نفسه مطلقاً ، وأن يَكْبُرَ من غير أن يَعْرِف الألم ، والألمُ أول شىء يجب أن يتعلمه ، وهو أعظمُ ما يحتاج إلى معرفته ، ويَظْهَرُ أن الأولاد ليسوا صِغاراً ضِعَافًا إلَّا لتلقيهم هذه الدروسَ المهمة بلا خطر ، ولا يَكْسِرُ الولدُ ساقَه بسقوطه ، ولا يَكْسِر ذراعَه بأن يَضْرِبها بالعصا ، وإذا ما قَبَضَ الولدُ على سِكِّينٍ لم يَكْبِسْ عليها ولم يُمْعِن فى جَرْح نفسه ، ولا أعْرِف أنه رُئِيَ ولدٌ تُرِك وشأنَهُ فقتل نفسه أو عَطَّلها أو أصابها بأذًى كبير ما لم يكن قد عُرِّض للخطر ، عن عدم فِطْنَةٍ ، فى أماكنَ مرتفعةٍ ، أو حَوْل

النار وحدَه ، أو جُعِلت أسلحةٌ خَطِرَةٌ فى مُتَناَوَل يده ، وما يقالُ عن تلك الأجهزة التى تُجْمَع حَوْل الولد لتسليحه بجميع الأدوات ضِدَّ الألم ، حتى إذا ما كَبِرَ ظَلَّ تحت رحمته بلا شجاعةٍ ولا تجرِبة ، وظَنَّ أنه هالك عند أول وَخْزَة وأُغْمِىَ عليه عند أول قَطْرَةٍ يشاهدها من دمه ؟

ويؤدى هَوَسُنا القائمُ على التلقين والحذلقة إلى تعليم الأولاد دائمًا ما يُمكن أن يتعلموه بأنفسهم أحسنَ من ذاك ، وإلى إغفال ما نستطيع أن نُعَلِّمَهم إياه وحدَنا ، وهل يوجد ما هو أسخفُ من جُهْدٍ يُبْذَل فى تعليمهم المشى كأنه رُئِىَ ولدٌ لم يقدر على المشى عند كِبَره عن إهمال مُرْضعه ؟ وعلى العكس ما أكثر الذين رُئى أنهم سَيِّئُو المشى مَدَى حياتهم لسوء ما عُلِّمُوا من مَشْىٍ !

ولن يكون لإميلَ قُلَنْسِيةٌ واقيةٌ ولا درَّاجةٌ ولا عَرَبةٌ ولا بَرِيمُ إسنادٍ ، أو إنه إذا أخذ يَعْرِف وضعَ قَدَمٍ أمام الأخرى ، على الأقل ، لم يُمْسَك فى غير الأماكن المرصوفة وحُمِلَ على مجاوزتها بسرعة[1] ، وليُؤْتَ به فى كلِّ يوم إلى مَرْجٍ بدَلًا من أن يُحْفَظَ آسِنًا فى غرفةٍ خانقةٍ ، والخيرُ فى عَدْوِه ولَعِبه وسقوطه كلَّ يومٍ مئةَ مرةٍ هنالك ، فهو لا يَلْبَثُ أن يتعلّم النهوضَ من ذلك ، وتُصْلِح نُعْمَى الحرية كثيراً من القُرُوح ، وسيُصاب تلميذى برُضُوض فى الغالب ، وسيبقى مسروراً مقابَلةً ، وإذا كان تلاميذكم أقلَّ رَضًّا بدَوْا خائبين مُقَيَّدِين حُزَناء دائمًا ، وأشُكُّ فى كَوْن الغُنْم بجانبهم .

---

(١) لا شىء أدعى إلى السخرية وسوء الضمان من مشية أولئك الذين أكثر من سوقهم ببريم إسناد فى صغرهم ، وهذه من الملاحظات التى عدت مبتذلة لصوابها ، والتى هى صائبة من عدة وجوه .

وتَقَدُّمٌ آخرُ يَجْعَل العويلَ للأولاد أقلّ ضرورة ، وذاك هو تقدمُ قوّتهم ، فالأولادُ كلما زادوا قوةً نَقَصَ التجاؤهم إلى الآخرين ، ومع القوة ينمو إدراكُ الولد الذى يَضَعُهم فى حالٍ يوجّهونها به ، وبهذا الدور الثانى تبدأ حياة الفرد ضَبْطاً ، وهنالك يَشْعُر بنفسه ، وتُذَبِّهُ الذاكرةُ شعورَ الذات فى جميع أوقات حياته ، وهو يُصْبِح واحداً حقًّا ، وهو يُصْبِح عينَه ، أى أهلًا للسعادة أو الشقاء نتيجةً ، ولذا يَحْسُنُ أن يُبْدَأ بعدِّه موجوداً أدبياً .

ومع أنه يُعَيَّن ، تقريبًا ، أطولُ حَدٍّ للحياة البشرية وما يكون من الاحتمالات للدنوّ من هذا الحدّ فى كلّ جيلٍ فإنه لا شىء يُشَكُّ فيه أكثرُ من مَدَى حياة كلّ إنسان على انفراد ، والذين يَبْلُغون ذلك الحدّ الأطولَ قليلٌ ، وأعظم أخطار الحياة فى بَدْئها ، وكلما قَلّ ما وَقَعَ من حياةٍ وَجَبَ أن يكون الأملُ قليلاً فيما بَقِيَ منها ، ولا يكاد يَصِلُ نصفُ الأولاد الذين يُولَدون إلى سِنِّ المراهقة ، ومن المحتمل ألّا يَبْلُغ تلميذُكم سِنَّ الرجل .

وما يَجِبُ أن يُفَكَّر فيه ، إذَنْ ، حَوْل تلك التربية القاسية التى تُضَحِّى بالحاضر فى سبيل مستقبلٍ غيرِ مُعَيَّنٍ والتى تُثْقِلُ الولدَ بقيودٍ من كلّ نوعٍ وتَبْدَأ بجعله شقيا حتى يُعَدَّ فى المستقبل البعيد لسعادةٍ مزعومة يُوجَد ما يَحْمِل على الاعتقاد بأنه لن يتمتع بها أبداً ؟ وإنى ، حتى عند افتراضى كونَ هذه التربية صائبةً ، كيف لا أنظر بعين الغيظ إلى هؤلاء التعساء المساكين الخاضعين لنيرٍ لا يُطَاق والمَدِينين بالأشغال الدائمة كالمحكوم عليهم بالايمان ، مع أنه ليس من الثابت كونُ هذه العناية الكبيرة نافعةً

على الإطلاق ؟ وتمضي سنُّ المَسَرَّة بين الدموع والعقوبات والتهديدات والعبودية ، ويُعَذَّب التَّعِسُ نفعاً له ، ولا يُبْصَرُ الموتُ الذى يُدْعَى ، ومن ذا الذى يُمْسِكُه بين هذا الجهاز الكئيب ، ومن يَعْرِف عددَ الأولاد الذين يَهْلِكون ضحيةً لحكمة الأب أو المعلم الطائشة ؟ والأولادُ ، إذْ يكونون من السُّعَداء بإفلاتهم من جَوْرِها ، يكون نَفْعُهم الوحيد من الشرور التى تُصيبهم بها هو أن يَمُوتوا من غير أن يأسفوا على حياةٍ لم يَعْرِفوا منها سوى الآلام .

ويا أيها الرجال كونوا إنسانيين ، وهذا هو واجبكم الأول ، كونوا إنسانيين فى جميع الأحوال وفى جميع الأعمار وفى كلِّ ما ليس غريبًا عن الإنسان ، وأيةُ حكمةٍ تكون لديكم خارجَ الإنسانية ؟ أحِبُّوا الطفولة ، واسْمَحُوا بألعابها ، وابتهجوا بمَسَرَّاتها ، وافْرَحُوا بغريزتها المحبوبة ، ومن منكم لم يأسَفْ ، أحيانًا ، على ذلك العُمُر حيث يكون الضحك على الشِّفاه وتكون النفس مطمئنة ؟ ولِمَ تريدون أن تَنْزِعوا من هؤلاء الأبرياء الصغار بهجةَ زمنٍ بالغِ القِصَر يُفلِتُ منهم وخيراً بالغَ القيمة لا يُمْكِنهم إساءةُ استعماله ؟ ولِمَ تريدون أن تَمْلأوا بالكَرْب والآلام تلك السنين الأولى البالغةَ السرعة والتى لا يُمْكِن أن تَعُود إليهم كما أنها لن تَرْجِع إليكم ؟ أَوَ تَعْرِفون الساعة التى ينتظر الموتُ فيها أولادَكم أيها الآباء ؟ لا تُعِدُّوا لأنفسكم حَسَراتٍ بنَزْعِكم منهم ما أنعمت الطبيعةُ عليهم به من أُوَيقات ، واصنعوا ما يتمتعون معه بلذة الحياة عند ما يُمْكِنهم أن يَشْعُروا بها ، وافعلوا ما لا يَمُوتون معه بلا تَذَوُّق للحياة عند ما يَدْعُوهم الرَّبُّ إليه .

وما أكثر ما سيرتفع ضِدِّى من أصوات ! أَسْمَع من بعيدٍ صَيْحَاتِ

تلك الحكمة الكاذبة التي تُلقينا خارجَ أنفسنا دائماً ، والتي لا تَعُدُّ الحاضرَ شيئاً مذكوراً دائماً ، والتي تَتْبَع ، بلا توانٍ ، مستقبلاً كُلما سِيرَ إلى الأمام ، وذلك نَقلاً لنا من مكاننا إلى حيث لا نكون أبداً .

وسيكون جوابُكم أن هذا دورُ إصلاح غرائز الإنسان السيئة ، وأن الآلام في الطفولة تكون أقلَّ ما يُمكِن حِسًّا فيجب أن تُزَاد اقتصاداً بها في سِنِّ الرشد ، ولكنْ مَنْ قال لكم إن جميع هذا النظام تحت تصرفكم وإن ضَرَّ جميع هذه التعليمات التي تُثْقِلُون بها روحَ الولد الضعيفة لا يكون أكثرَ من نَفْعِها ذاتَ يوم ؟ ومَنْ يُوَكِّدُ لكم أنكم تقتصدون شيئاً بأحزانٍ تَغمُرونه بها ؟ ولِمَ تَمُنُّون عليه بشُرُورٍ أكثرَ مما تحْتَمِلُ حالُه من غير أن تَعلَمُوا أن هذه الشرور الحاضرة لا تَقِيهِ شرورَ المستقبل ؟ وكيف تُثْبِتُون لي أن هذه الميول السيئة التي تَزْعمون شفاءه منها لا تأتيه من عنايتكم السخيفة أكثرَ من صدورها عن الطبيعة ؟ ويالَه من احترازٍ مشؤوم ذاك الذي يَجْعَل الإنسانَ تَعِساً في الحاضر رجاءَ جَعْلِه سعيداً ذاتَ يومٍ سواءٌ أقام هذا الرجاء على أساسٍ صالح أم على أساس طالح ! إذا كان هؤلاء المفكرون المخطئون يَخْلِطُون بين التحلل والحرية ، وبين الولد الذي يُجْعَل سعيداً والولدِ الذي يُدَلَّل ، فلْنُعَلِّمْهم أن يُفَرِّقوا بين الأمرين .

ولا نَنْسَ ما يلائم حالَنا لكيلا نسيرَ وراء الأوهام ، وللإنسانية مكانُها في نظام الأمور ، وللطفولة مكانُها في نظام الحياة الإنسانية ، فيجب أن يُنْظَرَ إلى الإنسان في الإنسان ، وأن يُنْظَرَ إلى الطفل في الطفل ، فوَضْعُ كلِّ واحدٍ في محلِّه ، وتثبيتُه فيه ، وتنظيمُ الأهواء البشرية وَفْقَ كيان الإنسان ،

هو كلُّ ما نستطيع فعلَه لسعادته ، وأما البقيةُ فتتوقف على أسباب خارجة عن نطاق قدرتنا .

ولا نَعرِف ما السعادةُ المطلقة ولا الشقاء المطلق ، وكلُّ شيء مختلطٌ فى هذه الحياة ، ولا يُذاقُ فيها حِسٌّ خالصٌ ، ولا يُبْقَى فيها على حالٍ واحدةٍ فى وقتين ، وتَرَى عواطفَ نفوسنا وتحولاتِ أبداننا دائمةَ التقلب ، ويكون الخيرُ والشرُّ مشتركَيْن بيننا ، ولكنْ على مقاديرَ مختلفةٍ ، وأسعدُ الناس من يكون أقلَّ تَوَجُّعًا بالآلام ، وأشقى الناس من يكون أقلَّ شعوراً بالملاذِّ ، ويقوم النصيبُ المشتركُ بين الجميع على وجود آلامٍ أكثرَ من المَلَاذِّ دائمًا ، ولا تكون سعادةُ الإنسان فى هذه الدنيا ، إذَنْ ، غيرَ حالٍ سلبية ، فيجب أن تُقَاسَ بالمقدار الأقلِّ للشرور التى يقاسيها .

وكلُّ شعورٍ بالألم لا يُمْكن فَصْلُه عن الرغبة فى الخلاص منه ، وكلُّ رغبةٍ تفترض حِرْمانًا ، وكلُّ حِرْمانٍ يُشْعَر به أليمٌ ، ولذا يقوم بؤسنا على تفاوت رَغَباتنا وطاقاتنا ، ويُعَدُّ كلُّ ذى إحساسٍ تتساوى رَغباتُه وطاقاتُه سعيداً على الإطلاق .

وعلى أىِّ شىء تقوم ، إذَنْ ، حكمةُ الإنسان وسبيلُ السعادة الحقيقية ؟ لا تقوم على تقليل رغباتنا ضَبْطًا ، وذلك لأنها إذا كانت دون قدرتنا ظلَّ قسمٌ من طاقاتنا مُعَطَّلاً ولم نتمتعْ بجميع وجودنا ، وكذلك لا تقوم على توسيع مَدَى طاقاتنا ، وذلك لأن رَغَباتنا إذا ما اتسع مداها على أعظم نسبة أصبحنا على أعظم بؤس ، وإنما تقوم على تقليـــل الفرق بين الرَّغَبات والطاقات ، وعلى جعل القوة والإرادة متساويتين ، وهنالك فقط ، حين

تكون جميعُ قُواه عاملةً ، تبقى النفس مطمئنةً ويَجِدُ الإنسان نفسَه على حالها الحسن .

وهكذا فإن الطبيعة ، التى جعلت كلَّ شىء على أحسنِ ما يكون ، قد أنشأته أولاً ، وهى لم تُنعِم عليه حالاً بغير الرغائب الضرورية لبقائه ، وبغير الطاقات الكافية لقضائها ، وأما جميعُ الأخرى فقد وضعتها فى أساس نَفْسه احتياطاً حتى يَنْمُوَ بها عند الحاجة ، وليس فى غير هذه الحال الابتدائية ما يلتقى توازنُ القدرة والرغبة ، وما لا يكون الإنسانُ شقيًّا ، وحينما تخرج طاقاتُه من حَيِّز القدرة إلى حَيِّز الفعل فإن الخيال الذى هو أكثرُها عملاً ينتبه ويَتَقَدَّمُها ، والخيالُ هو الذى يُوَسِّعُ فينا نِطاقَ الممكنات فى الخير أو فى الشرِّ ، وهو الذى يُحَرِّكُ الرغائبَ ويُغَذِّيها من حيث النتيجةُ رجاءَ قضائها ، غير أن الغَرَض الذى يَلُوحُ فى البُداءة تحت اليد يَفِرُّ بأسرعَ مما يُمكِن تعقُّبُه ، وهو إذا ما ظُنَّ بلوغُه تَحَوَّل وظهر بعيداً أمامنا ، ونحن نَعُودُ غير مُدْرِكين للبلد الذى طُفْنَا فيه فلا نَعتَدُّ به ، ويَعظُم ما يبقى أمامنا لنَجُوبَه ويَتَّسع بلا انقطاع ، وهكذا يَضْنَى الإنسان من غير أن يَصِل إلى الحَدِّ ، وكلما دَنَوْنا من اللذة ابتعدت السعادة عنا .

والإنسانُ ، على العكس ، كلما بَقِيَ قريباً من حاله الطبيعية كان الفرق بين طاقاته ورَغَباته قليلاً ، وقلَّ ابتعادُه عن السعادة نتيجةً ، وهو لا يكون أقلَّ شقاء ، مطلقاً ، إلاَّ إذا ظهر خاليًا من كلِّ شىء ، وذلك لأن الشقاء لا يقوم على الحِرمان من الأشياء ، بل فى الاحتياجات التى تُشْعِرُ بها .

وللعالَمِ الحقيقىِّ حدودُه ، ولا حدودَ للعالَمِ الخيالىّ ، وإذْ كنا لا نستطيع

توسيع إحداهما فإن علينا أن نُضَيِّقَ الأخرى ، وذلك لأنه ينشأ عن الفرق بينهما وحدَه جميعُ الآلام التي تجعلنا تُعَساءَ حقًّا ، وإذا عَدَوْتَ القوة والصحةَ وحُسْنَ الحِسِّ وجدتَ جميعَ محاسن الحياة مسئلةَ رأيٍ ، وإذا عَدَوْتَ آلامَ الجسم ووَخْزَ الضمير وجدتَ جميعَ أوجاعنا خياليةً ، وسيقال لي إن هذا المبدأ عامٌّ ، وأوافق على هذا ، غير أن تطبيقه العمليَّ غيرُ عامٍّ ، والعملُ وحدَه هو ما نبالى به هنا .

وإذا ما قيل إن الإنسان ضعيفٌ فما يُقْصَدُ بهذا ؟ تدلُّ كلمةُ الضعيف هذه على نسبةٍ ، تدلُّ على نسبة الموجود الذي تُطَبَّقُ عليه ، ويُعَدُّ موجوداً قوياً مَنْ تزيد قوته على احتياجاته ولو كان حشرةً أو دودةً ، ويُعَدُّ موجوداً ضعيفاً من تزيد احتياجاته على قوته ولو كان فيلاً أو أسداً أو فاتحاً أو بطلاً أو إلهاً ، وكان المَلَكُ العاصي الذي أنكر طبيعته أضعفَ من الفاني السعيد الذي يعيش مطمئناً وَفْقَ طبيعته ، ويكون الإنسان قوياً جدًّا إذا ما رَضِيَ بما هو عليه ، ويكون ضعيفاً جدًّا إذا ما أراد أن يَعْلُوَ الإنسانيةَ ، ولذا لا تَظُنُّوا أنكم تزيدون قُوَّاتِكم بزيادة طاقاتكم ، وعلى العكس تُقَلِّلُونها إذا ما زاد زهوُكم ، ولْنَقِسْ قُطْرَ دائرتنا ، ولْنَبْقَ في المركز كالحَشَرة في وسط نسيجها ، وسنكون من الكفاية ما نقضي معه حاجاتِنا ، ولا يكون لدينا من الأسباب ما نتوجَّع معه من ضعفنا ، وذلك لأننا لن نَشْعُرَ به مطلقاً .

ويُوجَدُ لدى جميع الحيوانات من الطاقات ما هو ضروريٌّ لبقائها ضبطًا ، والإنسانُ وحدَه هو الذي لديه زوائدُ منها ، أليس من الغريب أن يكون هذا الزائدُ سببَ شقائه ؟ ذراعُ الإنسان في كلِّ بلدٍ أثمنُ من ذاته ، ولو

كان الإنسان من الحكمة ما لا يأبه معه لهذا الزائد لحاز الضرورىّ دائماً لِمَا لا يكون عنده ما هو أكثر ، وكان فاڤُورِنُ يقول إن الاحتياجاتِ العظيمةَ تنشأ عن الأموال العظيمة ، وإن أقومَ وسيلةٍ لنَيْلِ الإنسان ما يريد فى الغالب هو أن يَتَخَلَّى عما يكون لديه ، ونُحَوِّل سعادتَنا إلى شقاء بعملنا فى سبيل زيادة هذه السعادة ، وكلُّ إنسانٍ لا يريد غيرَ الحياة يحيا سعيداً ، ويكون صالحاً نتيجةً ، وذلك : أين يكون نَفْعُهُ فى كونه طالحاً ؟

ولو كنا خالدين لبَدَوْنا بائسين جدًّا ، أجَلْ ، إن من الشاقّ على الإنسان أن يموت لا رَيْب ، ولكن من العَذْب ألاَّ يَرْجُوَ الحياةَ دائماً ، وأن تَخْتِمَ حياةٌ أصلحُ من التى عليها آلامَ هذه الحياة ، ولو عُرِضَ علينا الخلودُ فى هذه الدنيا فمن منا يَرْضَى[1] بهذا الحاضر الكئيب ؟ وأىُّ سبيلٍ وأملٍ وسُلْوَانٍ يبقى لنا ضِدَّ شدائد النصيب ومظالم الناس ؟ إن الجاهل الذى لا يُبْصِرُ شيئاً يَشْعُر قليلاً بثمن الحياة ولا يخاف أن يَفْقِدها ، وينظر المُنَوَّرُ إلى الأمور بتقدير كبير ، مُفَضِّلاً لها على ذلك ، ولا يوجَد غيرُ نصف المعرفة والحكمةِ الزائفة ما يُورِثُنا أسوأ الشُّرور عن مَدِّ أبصارنا حتى الموتِ ، لا إلى ما وراءه ، وليست ضرورة الموت لدى الحكيم غيرَ سببٍ لاحتمال آلام الحياة ، ولو لم يَعْلَمَ أنه سَيَفْقِدُها ذاتَ حين لكان حفظها ثقيلاً كثيراً عليه .

وتنشأ أمراضنا الأدبية عن المُبْتَسَرات عدا الإجرام الذى يتوقف علينا ، وأما أمراضُنا البدنية فتَتَهادم أو تقضى علينا ، ويُعَدُّ الوقتُ أو الموت دواء

---

(١) ليذكر أنى أتكلم هنا عن الذين يدركون ، لا عن جميع الناس .

لنا ، ولكنَّ ألمنا يَكْثُر بنسبة ما نَعْرِف من قلة احتماله ، ونحن نكابد من العذاب فى سبيل الشفاء من أمراضنا ما هو أكثرُ من احتمالنا لها ، وعِشْ كما تقتضيه الطبيعة ، وكن صابراً ، واطْرُد الأطباء ، أَجَلْ ، إنك لا تجتنب الموت ، بَيْدَ أنك لن تُحِسَّه غيرَ مرةٍ واحدة ، وذلك على حين يَحْمِلُونه كلَّ يومٍ إلى خيالِك المرتبك ، وذلك على حين تَرَى مِهْنَتَهم الكاذبة تَنْزِعُ منك تَمَتُّعَكِ بأيامك بدلاً من إطالتها ، وسأسأل دائماً عن الخير الحقيقىِّ الذى ناله الناس من هذه الصنعة ، أَجَلْ ، إن بعض من تَشْفِيهم كانوا يموتون ، ولكن الملايين ممن تقتلهم كانوا يَبْقَوْن أحياء ، فيا أيها الإنسان كُنْ عاقلاً ولا تشترك فى هذا الاقتراع حيث يوجد كثيرٌ من الحظُوظ ضِدَّك ، وَأْلَمْ مَيِّتاً أو سليماً ، ولكن عِشْ حتى ساعتِكَ الأخيرة على الخصوص .

وليس كلُّ شىء غيرَ حماقةٍ ومناقضةٍ فى النُّظُم البشرية ، ويَكْثُر اكتراثنا للحياة كلما خَسِرت شيئاً من قيمتها ، ويأسف الشِّيبُ عليها أكثرَ من الشبان ، فهم لا يريدون أن يَفْقِدُوا التوابل التى أَعَدُّوها للتمتع بها ، ومن القسوة بمكانٍ أن يَمُوت الإنسان فى الستين من سِنِيه قبل أن يبدأ الحياةَ ، ويُعْتَقَدُ أن الإنسان وَلوعٌ ببقائه ، وهذا صحيح ، ولكنه لا يُرَى أن هذا الوَلَعَ ، كما نَشْعُر به ، جزء عظيمٌ من عَمَلِ الناس ، ولا يبالى الإنسان ببقائه عن طبيعةٍ إلّا إذا كانت وسائلُه ضِمْنَ قدرته ، فمتى أفلتت منه هذه الوسائلُ خَلاَ بالُه ومات من غير أن يضيق صدرُه على غير جَدْوَى ، ومن الطبيعة يأتينا أولُ دُستورٍ للتسليم ، والوحوشُ ، كالبهائم ، يكافحون

الموتَ قليلاً ، وهم يَصْبِرون عليه من غير تَذَمُّرٍ تقريباً ، ويُقْضَى على هذا الدُّستور ، وينشأ عن العقل دُستورٌ آخر ، وقَلَّ من يَعْرِفون هذا ، وليس هذا التسليم المصنوع من الكمال كالأول مطلقاً .

الحَذَرُ ! الحذرُ الذى يَحْمِلُنا بلا انقطاع إلى ما وراء أنفسنا والذى يَضَعُنا ، فى الغالب ، حيثُ لا نَصِلُ مطلقاً ، وهذا هو منبعُ جميع أبؤُسنا الحقيقىُّ ، يا له من هَوَسٍ يساور موجوداً زائلاً كالإنسان يَنْظرُ دائماً بعيداً إلى مستقبلٍ يَنْدُر مجيئه كثيرًا مُهْمِلاً حاضراً لا يَشُكُّ فيه ! يا لَذَلك الهَوَس الذى يَزِيدُ شؤماً مع العُمُر بلا انقطاع ، فيُفَضِّل الشِّيبُ الحاذرون المتبصِّرون البخلاء دائماً أن يُحْرَموا الضرورىَّ اليوم على أن يُعوِزهم الزائد فى المئة من سِنِيهم ! وهكذا فإننا نَتَعلقُ بكلِّ شىء ، نَنْشَبُ فى كلِّ شىء ، فيَشْغَل كلٌّ واحدٍ منا بالَه بالأزمنة والأمكنة وبالناس والأشياء وبكلِّ ما هو كائنٌ ويَكُون ، ويَعُود شخصُنا لا يكون غيرَ أقلِّ جزء من ذاتنا ، أى إن كلَّ واحدٍ منا يَنْبَسط على الأرض بأسْرِها ويُصْبِح متأثراً بجميع ما هو واقع على هذا السطح الواسع ، وهل من العجيب أن تزيد مصائبنا فى جميع النِّقاط حيث يُمْكِن جَرْحنا ؟ وما أكثرَ الأمراء الذين يَحْزَنون كثيراً على ضَياع بلدٍ لم يَرَوْه قطُّ ، وما أكثرَ التجارَ الذين يكفى أن يصابوا فى الهند ليُحْمَلوا على الصُّراخ بباريس !

وهل الطبيعةُ هى التى تَحْمِل الناس إلى ما هو أبعدُ من أنفسهم على ذلك الوجه ؟ وهل الطبيعةُ هى التى تريد أن يَعْلَم كلٌّ واحدٍ مصيرَه من الآخرين ، وأن يكون آخرَ من يَعْلَمه ، وأن يَمُوت سعيداً أو شقيًّا من غير

أن يَعلَم شيئًا عن ذلك مطلقًا ؟ أرى رجلًا ناضرًا مسرورًا قويًّا حسنَ الصحة ، ويُوحِي حضوره بالفَرَح ، وتَدُلُّ عيناه على القناعة والهناءة ، ويَحمِل معه صورةَ السعادة ، ويأتيه كتابٌ مع البريد ، ويَنظُر الرجل السعيد إليه ، ويَجِدُه مُوَجَّهاً إليه ، ويفتحه ، ويقرؤُه ، وتتغير ملامحه حالاً ، ويُمتَقَعُ ، ويَسقُطُ خائرًا ، ويُفيقُ ، ويبكى ، ويَنُوح ، ويَئِنُّ ، ويَنتِف شعرَه ، ويَملأُ الجوَّ صُرَاخاً ، فيَلُوح أنه أُصيب بتشنُّجات هائلة ، إذَنْ ، ما دَهَاك بهذه الورقة أيها الأحمق ؟ أيُّ عضوٍ بُتِرَ منك ؟ أيةُ جنايةٍ حُمِلْتَ عليها ؟ ثم ماذا تَغَيَّرَ فيك حتى غَدَوْتَ فى الحال التى أراك عليها ؟

لو ضاع الكتاب ، أو ألقته فى النار يَدٌ مُحْسِنةٌ ، لكان نصيبُ هذا الفانى ، السعيدِ والشقىِّ معاً ، معضِلةً عجيبةً كما يَلُوح لى ، ستقولون إن شقاءه حقيقىٌّ ، حَسَناً ، ولكنه كان لا يَشعُر به ، وأين كان إذَنْ ؟ كانت سعادته خيالية ، وأَسلَمُ بذلك ، وعادت صحته وبهجته وهناءته وقناعته النفسية لا تكون غيرَ أحلام ، وعدنا لا نَكُون فى مكاننا ، وعُدْنا نَكُون فى غير مكاننا ، وما فائدةُ الخوف من الموت ما دام كلُّ شىء يجعل الحياة ثمينةً مستقرًّا بنا ؟

أيها الإنسان ! شُدَّ حياتَك فى باطنك تَعُدْ غيرَ تَعِسٍ ، وابقَ فى المكان الذى عَيَّنَتْه الطبيعةُ لك فى سلسلة الموجودات لا يقدر شىء على إخراجك منه ، ولا تقاوم سُنَّة الضرورة ، ولا تستنفد ، راغباً فى هذه المقاومة ، من القُوَى التى لم تُعطِك الطبيعةُ إياها مطلقاً تمديداً لحياتك أو إطالةً لها ، ولكن فى سبيل بقائها كما يَرُوق الطبيعة وبقدْر ما يروقها ، ولا تَمتَدُّ حريتُك

وقدرتُك إلّا ضِمْنَ طاقاتك الطبيعية ، لا إلى ما وراء ذلك ، وليس جميعُ ما يَبقى غيرَ عبوديةٍ ووهمٍ وخِداع ، حتى إن السيطرة رِقٌّ إذا ما استندت إلى الرأى العامّ ، وذلك لتوقفك على مُبْتَسرات من تسيطر عليهم بالمُبْتَسرات ، ويجب لقيادتهم كما يَرُوقُك أن تَقُودَ نفسك كما يَرُوقهم ، وليس عليهم إلّا أن يُغَيِّروا طِراز تفكيرهم حتى تُحمَل على تغيير طراز سَيْرك قسراً ، وليس على من يَدْنُون منك إلّا أن يَعرِفوا السيطرة على آراء الشعب الذى تعتقد أنك تسيطر عليه ، أو آراء نُدَمائك الذين يسيطرون عليك ، أو آراء أُسْرتك أو أُسَرِهم ، حتى يَبْلُغوا ذلك ، ويُسَيِّرك هؤلاء الوزراء والندماء والكهان والجنود والخُدّام والمُجّان ، حتى الغِلْمان ، ولو كان عندك مِثْلُ عبقرية تِمِسْتُوكْل (١) ، وذلك كولدٍ بين أجواقك ، ومهما تأتِ من عَمَلٍ فإن سلطانك الحقيقىّ لا يمتدّ إلى ما هو أبعد من طاقاتك الحقيقية ، ومتى وَجَب أن ترى بعيون غيرك وَجَبَ أن تريد بعزائمهم ، وتقولُ مُبَاهياً : إن شعوبى رعاياى ، ولْيَكُنْ ذلك ، ولكن مَنْ أنت ؟ إنك تابعٌ لوزرائك ، ومَنْ هم وزراؤك من ناحيتهم ؟ إنهم تابعون لكَتَبَتِهم وخليلاتهم وخَدَمةٌ لخُدّامهم ، وخُذُوا كلّ شىء ، واغتصبوا كلّ شىء ، ثم ابذُلوا المالَ ذات اليمين وذات الشمال ، وأقيموا المِدْفعيات ، وانصِبُوا المشانقَ والدواليب ، وضَعُوا القوانين

---

(١) كان تمستوكل يقول لأصدقائه : « إن هذا الغلام الصغير الذى ترون هو حكم بلاد اليونان ، وذلك لأنه يسيطر على أمه ، ولأن أمه تسيطر على ، ولأننى أسيطر على أهل أثينة ، ولأن الأثنيين يسيطرون على الأغارقة » ، وى ! ما أكثر صغار القادة الذين يوجدون فى الإمبراطوريات العظيمة غالباً ! وذلك إذا ما نزل من الأمير حتى اليد الأولى التى تدير الأمور خفية .

والمراسيم ، وضاعفوا العُيُون والجنود والجلّادين والسجون والقيود ، فما تَنفعُكم بجميع هذا ؟ لن تكونوا بهذا أحسنَ خِدْمةً وأقلَّ استراقاً وانخداعاً وأكثرَ استبداداً ، وستقولون دائماً : سنريد ، وستفعلون دائماً ما يريد الآخرون .

والوحيدُ الذى يُعمِلُ إرادتَه هو الذى لا يحتاج ، لإعمالها ، إلى وَضْع ذراعَىْ غيره فى طرف ذراعيه ، ومن ثَمَّ يُرَى أن الحريةَ ، لا السلطانَ ، هى الخيرُ الأول ، ولا يريد الرجلُ الحرُّ حقًّا غيرَ ما يستطيع ، وهو يَصْنَع ما يَرُوقه ، وهذا هو مَبْدَئى الأساسىُّ ، وليُطَبَّقْ على الطُّفُولة ليُرَى أن جميع قواعد التربية تَصْدُر عنه .

والمجتمعُ جَعَلَ الإنسانَ أكثرَ ضعفاً ، لا لنَزْعِه منه ما له من حَقٍّ على قُوَاه الخاصة ، بل لجعلها غيرَ كافيةٍ له على الخصوص ، وهذا هو السببُ فى كون رغائبه تَزيدُ مع ضعفه ، وهذا هو الذى يُوجِد ضعفَ الطفولة قياساً بِسنِّ الرجل ، وإذا كان الرجلُ موجوداً قويًّا ، وإذا كان الولدُ موجوداً ضعيفاً ، فليس ذلك لأن الأول ذو قوة أكثرَ إطلاقاً من الثانى ، بل لأن الأول يستطيع أن يَكْفِيَ نفسَه طبيعةً ، ولأن الآخر لا يستطيع هذا ، ولِذَا وَجَب أن يكون الرجل أكثَرَ عزائمَ وأن يكون الولدُ أكثَرَ أهواءً ، وبهذه الكلمة أقْصِد جميعَ الرغائب التى ليست احتياجاتٍ حقيقيةً ، والتى لا يُمْكِن قضاؤُها إلا بمساعدة الآخرين .

وقد ذكرتُ سببَ حال الضعف هذا ، وتتلافاه الطبيعة بتَعَلُّق الآباء والأمهات ، ولكنْ قد يكون لهذا التعلق شَطَطُه وعيبُه ومساوئه ، ويَنقُل الآباء الذين يعيشون فى الحال المدنية ولدَهم إليها قبل الأوان ، وهم حين يُنْعِمُون عليه باحتياجاتٍ أكثرَ مما لديه لا يُخَفِّفُون ضعفَه ، بل يزيدونه ، وهم يَزِيدُونَه ،

أيضاً ، بمطالبته بما لا تطالبه الطبيعة به ، وذلك بإخضاعهم لمزاعمهم ما عنده من قوًى قليلةٍ خادمةٍ لمزاعمه ، وذلك بتحويلهم إلى عبوديةٍ ما بين الطرفين من تابعية متقابلة حيث يُمسِكه ضعفُه وحيثُ يُمسِكهما تعلُّقُهما .

ويَعرِفُ الرجلُ العاقل أن يَبقى في مكانه ، ولكن الولد الذي لا يَعرِف مكانَه لا يستطيع أن يحافظ عليه ، ولديه ألفُ مَنفَذٍ للخروج منه ، ويجب على من لهم سيطرةٌ عليه أن يُمسِكوه فيه ، وليس هذا عملاً سَهلاً ، ويجب ألاّ يكون حيواناً أو إنساناً ، بل ولداً ، ويجب أن يَشعُر بضعفه ، لا أن يُعانيَه ، ويجب أن يكون تابعاً ، لا طائعاً ، ويجب أن يَطلُب ، لا أن يأمر ، وهو لا يَخضَع للآخرين إلاّ بسبب احتياجاته ، ولأنهم أحسنُ منه اطِّلاعاً على ما هو نافعٌ له وعلى ما يُمكِن أن يساعِد على بقائه أو يَضُرُّ ، ولا يَحِقُّ لأحدٍ ، حتى للأب ، أن يأمر الولدَ بصُنع مالا يَنفَعُه مطلقاً .

وكانت سعادةُ الأولاد والرجال تقوم على تمتُّعهم بحريتهم ، وذلك قبلَ أن تُفسِد مُبتَسَراتُ الإنسان ونُظُمُه غرائزَنا الطبيعية ، غير أن الحرية في الأولاد حُدِّدتْ بضعفهم ، ويُعَدُّ سعيداً كلُّ مَنْ يَصنَع ما يشاء إذا كَفَى نفسَه بنفسه ، وهذا هو وَضعُ الرجل الذي يعيش في الحال الطبيعية ، ولا يُعَدُّ سعيداً كلُّ مَنْ يَصنَع ما يشاء إذا ما زادت احتياجاتُه على طاقته ، وهذا هو وَضعُ الولد الذي يعيش في ذات الحال ، حتى إن الأولاد لا يتمتعون في الحال الطبيعية إلا بحريةٍ ناقصةٍ مشابهة للحرية التي يتمتع بها الرجال في الحال المدنية ، وبما أن كلَّ واحدٍ منا يَعُود غيرَ قادرٍ على الاستغناء عن الآخرين فإنه يصبح ضعيفاً بائساً من هذه الناحية ، وقد خُلِقنا لنكون رجالاً

فَتَمسَّتْنَا القوانينُ والمجتمعات فى الطفولة ثانيةً ، ويَعُدُّ الأغنياء والعظماء والملوكُ كلهم أولاداً أبصروا أننا نبادر إلى تخفيف بؤسهم فاستخرجوا من هذا غروراً صبيانيًّا ، وقد كانوا يَبْدُون فُخْراً من عناية لا تُبْذَل لهم لو كانوا رجالاً ناضجين.

وهذه اعتبارات مهمة ، وهى تَصْلُح لحلٍّ جميع المتناقضات فى النظام الاجتماعىّ ، ويوجَد للعلاقات نوعان ، علاقةُ الأشياء التى هى من الطبيعة وعلاقةُ الناس التى هى من المجتمع ، وبما أنه لا يوجَد لعلاقة الأشياء أيةُ خُلُقيةٍ فإنها لا تَضُرُّ الحريةَ مطلقاً ، وهى لا توجِد عيوبًا مطلقاً ، وبما أن علاقة الناس مختلطة [(1)] فإنها تُوجِدُها جميعًا ، وهى تُفْسِد السيدَ والعبد مقابَلةً ، وإذا كان يوجَدُ من الوسائل ما يُداوى به هذا الشرُّ فى المجتمع قام ذلك على استبدال القانون بالإنسان وعلى تجهيز العزائم العامَّة بقوة حقيقية تَعلُو عَمَلَ كلِّ إرادة خاصة ، ولو أمكَن قوانينَ الأمم أن يكون لها ما لقوانين الطبيعة من صلابة لا تستطيع أيةُ قوةٍ بشرية أن تَقْهرَها لصارت علاقةُ الناس علاقةَ الأشياء ، وجُمِعَ فى الجمهورية جميعُ منافع الحال الطبيعية والحال المدنية ، وأُضِيفَت إلى الحرية التى تَحْفَظُ الإنسان خاليًا من العيوب خُلُقيةٌ تَرْفعه إلى الفضيلة .

واحتفِظوا بالولد تابعًا للأشياء تكونوا قد اتَّبعْتم نظامَ الطبيعة فى تَقَدُّم تربيته ، ولا تَعْتَرِضوا عزائمَه غيرَ الصائبة بغير الموانع المادية أو العقوبات الناشئة عن الأعمال نفسِها ، والتى يَذْكُرُها فى الوقت المناسب ، وذلك مع الاكتفاء بمنعه من صُنْع الخطأ ، ومع عدم تحريم الخطإِ عليه ، والتجربةُ ، أو

---

(١) أثبت فى كتابى « مبادئ الحقوق السياسية » أنه لا يوجد أى إرادة خاصة يمكن تنظيمها بالنظام الاجتماعى .

عدمُ القدرة ، وحدَها هى ما يجب أن يقوم مقام القانون عنده ، ولا تُعطُوه ما يَرْغَب فيه لأنه طَلَبَه ، بل لاحتياجه إليه ، ولا ينبغى أن يَعرِفَ ما الطاعةُ عند ما يسير ، ولا الاستبدادُ عند ما يُعْمَل من أجْله ، ولَيَشْعُرْ بحريته فى أفعاله وفى أفعالكم على السواء ، وعَوِّضوه من القوة التى تُعوِزه ، وذلك بالمقدار الذى يحتاج إليه ليكون حُرًّا ، لا ليكون جَبَّاراً ، حتى إذا تناول خِدَمكم على استحياء تاق إلى الزمن الذى يستغنى فيه عنها ويكون له شرف خدمة نفسه بنفسه .

وللطبيعة فى تقوية البدن وإنمائه من الوسائل ما لا تجوز مقاومتُه ، ولا يَجُوز أن يُكْرَه الولدُ على البقاء إذا ما أراد الذهاب ، ولا على الذهاب إذا ما أراد البقاء ، وإذا كانت إرادة الأولاد لم تَفْسُدْ بخطإٍ منا لم يريدوا شيئاً بلا طائل ، ويجب أن يَقْفِزُوا وأن يرْكُضوا وأن يَصْرُخوا متى شاءوا ، وجميعُ حركاتهم من احتياجات بُنْيَتِهم التى تحاول أن تشتدّ ، ولكنْ يجب أن يُحْذَر مما يرْغَبُون فيه من غير أن يَقْدِروا على صنعه بأنفسهم ، ومما يُلزَم الآخرون بصنعه لهم ، وهنالك يجب أن يُفَرّق بعنايةٍ بين الاحتياج الحقيقىّ الذى هو احتياجٌ طبيعىّ ، واحتياجِ الهَوَى الذى يأخذ فى الظهور ، أو الاحتياجِ الذى لا ينشأ إلا عن فَيْضِ العيش ، وهو ما تكلمتُ عنهُ .

وكنتُ قد قلتُ ما يجب أن يُصْنَع عند ما يَبْكِي الولد لينال هذا أو ذاك ، وإنما أضيف إلى ذلك أنه إذا ما استطاع أن يَطْلُب بالقول ما يَرْغَبُ فيه فدَعَم طلبَه بالبكاء نيلاً له بسرعةٍ أو تَغَلُّباً على رَفْضٍ وَجَبَ أن يُضَنّ عليه به حتماً ، وإذا كان الاحتياجُ هو الذى حَمَلَه على الكلام وجب أن

تعرفوا ذلك وأن تلبُّوا طلبه حالاً ، ولكن الإذعان لدموعه فى أمر ما يتضمن تحريضاً له على سكبها ، ينطوى على تعليمه أن يَشُكَّ فى حُسْن مقصدكم ، ويحمله على الاعتقاد بأن للإزعاج من التأثير فيكم ما ليس للاستعطاف ، وهو لا يلبث أن يكون خبيثاً إذا لم يعتقد صلاحكم ، وهو لا يلبث أن يكون عنيداً إذا اعتقد ضعفكم ، فالرأىُ أن يُمنح عند أول إشارة ما لا يراد رفضُه ، ولا تُسرفوا فى الرفض مطلقاً ، ولكن لا تنقُضوا رفضكم عند وقوعه .

واحترزوا ، على الخصوص ، من مَنْح الولد صيغاً فارغةً فى الكياسة يتخذها عند الحاجة ككلامٍ سحريٍّ لإخضاع من يحيطون به لإرادته فينال ما يَرُوقُه من فوْره ، ولا يُقصَّر فى تربية الأغنياء القائمة على التصنع أن يُجعلوا متعاظمين مع تأدُّبٍ ، وذلك بفرْض تعبيراتٍ يستعملونها فلا يجرُؤ أحدٌ على مقاومتهم معها ، وليس لأولادهم لهجةُ الضارعين ولا أوضاعُهم ، وهم متعاظمون عندما يرجون كما يكونون عندما يأمرون ، بل يكونون أكثرَ تعاظماً عند الرجاء مما عند الأمر ، كما لو كانوا أكثرَ يقيناً بأن يُطَاعُوا ، وأولُ ما يُرَى أن كلمة : « إذا ما طاب لك » تَعْنِي « يَطيبُ لى » ، وأن كلمة : « أرجوك » تعنى « آمرك » ، ويالها من كياسةٍ لا تؤدى عندهم إلى غير تغيير معنى الكلمات وإلى عدم القول بغير هَيْمَنةٍ ! وأما أنا ، الذى يَخْشَى أن يكون إميلُ متكبراً أكثرَ من أن يكون غليظاً ، فأفضِّلُ أن يقول عند الرجاء : « اصْنَعْ هذا » على الأمر بقوله : « أرجوك » ، فلستُ أبالى بالتعبير الذى يستعمله ، بل بالمعنى الذى ينطوى عليه .

ويوجد إفراطٌ فى الشِّدَّة وإفراطٌ فى التساهل ، فيجب اجتنابُ الأمرين

على السواء ، فإذا ماتركتم الأولاد يتألمون عرّضتم صحتهم وحياتهم للخطر ، وجعلتموهم تعساء ، وإذا ما بذلتم جهداً كبيراً فى وقايتهم من كلّ سوء أعددتموهم لأعظم المصائب ، وجعلتموهم قصفاً دقيقى الإحساس ، وأخرجتموهم من حال الرجل التى سيكونون عليها ذاتَ يوم على الرغم منكم ، وأنتم ، إذ لم تعرّضوهم لبعض مضارّ الطبيعة ، تكونون سبب المضارّ التى لم تصبهم بها ، وستقولون لى إننى أقعُ فى مثل حال الآباء الأرذياء الذين لمتهم على تضحيتهم بسعادة الأولاد ناظرين إلى زمنٍ بعيدٍ يُمكن ألاّ يكون .

كَلاّ ، وذلك أن الحرية التى أحْبوُ بها تلميذى تعوّضه من المشاقّ الخفيفة التى أدَعُه معرّضاً لها ، وأرى أولاداً صغاراً يلعبون على الثلج مُزْرَقّى الوجه مُقرّسين ، ولا يكادون يُحرّكون أصابعهم بَرْداً ، وليس عليهم إلاّ أن يذهبوا ليُدفّئوا أنفسهم ، فلا يفعلون هذا مطلقاً ، وإذا ما أُكرِهوا على هذا شعَرُوا بأن ضغْطهم أشدُّ وطئاً مئةَ مرةٍ من شدة البرد الذى يُحسّون ، ومن أىِّ شىء تتوجّعون إذَنْ ؟ أَوَ أجْعَلُ ولدَكم تَعِساً بعدم تعريضى إياه للمضارّ التى يريد معاناتها ؟ أصْنَع الخيرَ له فى الوقت الحاضر بتركه حُرًّا ، وأصْنع الخيرَ له فى المستقبل بتسليحه ضِدّ الشرور التى يجب أن يقاسيَها ، وهل يتردّد ثانيةً فى الاختيار لو خُيّرَ بين أن يكون تلميذى وتلميذَكم ؟

أَوَتظنون وجودَ إنسانٍ يجدُ سعادةً حقيقيةً خارجَ جِبِلّته ؟ أَوَلا ينطوى كلُّ سعيٍ فى وقاية الإنسان من جميع شرور نوعه على إخراجٍ له من جِبِلّته أيضاً ؟ أجَلْ ، إن طبيعته تقوم على مكابدته الشرورَ الصغيرة

ليَشْعُرَ بالخيور الكبيرة ، ولو صحّ الجسمُ كثيراً لفسَدت الأخلاق ، ومن لم يَعْرِف الألم لم يعرِف حنانَ الإنسان ولا حلاوةَ الرحمة ، فلا يُحرِّك فؤادَه شيء ، ولا يكون أنيساً ، وإنما يكون بين أمثاله غُولاً .

أوَ تَعْرِفون أضمنَ وسيلةٍ لجعل ولدكم تَعِساً ؟ أن تُعوِّدوه نيلَ كلِّ شيء ، وذلك أن رَغَباته تزيد بلا انقطاعٍ مع سهولة قضائها ، ويُلزِمُكم عدمُ القدرة بأن تَرْفِضوا على الرغم منكم عاجلاً كان هذا أو آجلاً ، ويُورِثُه هذا الرفضُ غيرُ المعتاد ألماً أشدَّ من حرمانه مايريد ، والعصا التي تُمْسِكون هي أولُ مايريدُ ، ولا يَلْبَث أن يريدَ ساعتَكم ، ثم يريد الطير الذي يَطير ، ثم يريد النجمَ الساطع ، ثم يريد كلَّ مايرى ، وكيف تُرْضُونه إذا لم تكونوا إلهاً ؟

ومن خصائص الإنسان الطبيعية أن يَعُدَّ مالاً له كلَّ ما هو داخلٌ ضِمْنَ قدرته ، ومن هذه الناحية يكون مبدأُ هُوبز صحيحًا إلى حدٍّ ما ، وذلك أن تُكَثِّروا مع الرغائب وسائلَ قضائها حتى يصبح كلُّ واحدٍ سيدَ الجميع ، ولذلك يظنُّ الولدُ أنه مالكُ الدنيا لِما ليس عليه غيرُ الإرادة ، وهو يَنْظُر إلى جميع الناس كعبيدٍ له ، وهو ، عند ما يُضَنُّ عليه بشيءٍ عن اضطرارٍ ، يَعُدُّ هذا الرفض ضرباً من التمرد لِما يَعْتَقِدُ إمكانَ كلِّ شيء إذا أمَرَ ، وهو ، إذا ما أُدلِيَ له بأسبابٍ عن ذلك في دَوْرٍ من العُمُر يَعْجِزُ فيه عن التمييز ، لم تكن هذه الأسبابُ عنده غيرَ ذرائعَ ، فيرَى سوءَ القصدِ في كلِّ مكان ، وهو ، إذ كان من طبيعته أن تتأثر بحسٍّ من الجَوْر المزعوم ، فإنه يَحْقِد على جميع العالَم ، ويشتاط غيظًا من كلِّ معارضةٍ عن عدم شعور بالجميل .

وكيف أتصور ولدًا يكون سعيداً بعد أن يكون موئلاً للغيظ وفريسةً لأشدِّ الأهواء فعلًا ؟ هو سعيدٌ ! هو مستبدٌّ ، هو أشدُّ العبيد نذالةً وأكثرُ المخلوقات شقاء ، ولقد شاهدت أولاداً يُرَبَّوْن على هـذا الوجه ، ويريدون تدميرَ المنزل بصدمة كَتِفٍ ، وأن يُعْطَوا الدِّيك الذى يرَوْن على بُرْج الأجراس ، وأن تُوقَفَ كتيبةٌ وهى تسير ليَسْمَعُوا الطُّبُول أطولَ وَقتٍ ممكن ، وأنهم يَشُقون الهواء بصُراخهم غيرَ مُنْصِتين لأحدٍ إذا ما أُبْطِئَ فى الإذعان لهم ، وكلٌّ يَسْعَى لاسترضائهم ، ولـكن على غير جَدْوَى ، فرغائبُهم تشتدُّ بسهولةِ نَيْلِ الشىء ، وهم يُصِرُّون على المستحيلات ، ولا يَجِدُون غيرَ المعارَضات والموانع والهموم وَالآلام فى كلِّ مكان ، وهم يَقْضُون الأيامَ فى الصُّراخ والتوجع مُزَمْجِرين دائمًا عُنَدَاء دائمًا غِضاباً دائمًا ، وهل هم سعداء هنالك ؟ لا ينشأ عن الضعف والهيمنة غيرُ الحماقةِ والبؤس إذا ما اجتمعا ، وأحدُ الولدين المُدَلَّلَيْن يَضرِب المائدة بالسَّوْط ، ويَضرِب الآخرُ البحرَ به ، ولا بُدَّ لهما من الضرب بالسَّوْط والعصا قبل أن يعيشا راضيين .

وإذا كانت مبادئُ السيطرة والطغيان هذه تجعَلُهم تُعَسَاء منذ طفولتهم فما يكون الحال إذا ما كَبُروا وأخذت صلاتُهم بالآخرين تطُول وتَـكْثُر؟ وهم إذْ تَعَوَّدوا رؤيةَ كلِّ شىء يَنْثَنى أمامهم فما أشدَّ ما يُدْهَشُون ، عند دخولهم العالمَ ، من مقاومة كلِّ شىء لهم ومن حِسِّهم أنهم مسحوقون بأثقال هذا العالمَ الذى كانوا يَظُنُّون أنهم يُحَرِّكونه كما يشاءون !

ولا تأتيهم أوضاعُهم العاتية وعُجْبُهم الصبيانىُّ بغير الخزى والازدراء والتهكم ، وهم يَشْرَبون الإهاناتِ كالماء ، ولا تَلْبَثُ التجارِبُ القاسية أن

تعلِّمهم أنهم لا يعرِفون حالهم ولا قُوَاهم ، وهم إذ لا يَقْدِرون على كلٍّ شيء يَظُنُّون أنهم لا يَقْدِرون على شيء ، وتَصُدُّهم عوائقُ كثيرةٌ غيرُ معتادة ، ويُذِلُّهم احتقارٌ كثير ، ويُصْبِحُون أخِسَّاء جبناء صاغرين ، ويسقطون إلى ما هو أقلُّ من مستواهم بنسبة ما كانوا قد عَلَوْه .

ولنَعُدْ إلى القاعدة الابتدائية ، فالطبيعةُ قد خلقت الأولاد ليُحَبُّوا ، ويساعَدوا ، ولكن هل صنعتهم ليُطاعُوا ويُخَافوا ؟ وهل منحتهم وقاراً وجفاء وصوتاً شديداً متوعِّداً حتى يكونوا مرهوبين ؟ أعْرِف أن زئيرَ الأسد يُرْعِبُ الحيواناتِ وأنها ترتعد عندما تُبْصِرُ لُبْدَته ، ولكنْ هل شوهِدَ منظرٌ شائنٌ كريهٌ مُثِيرٌ للسُّخرية كنظر جَمْعٍ من الحكام ، وعلى رأسهم قاضي القضاة ، لابسين حُلَلَهم الرسمية ، راكعين أمام ولدٍ في القِماط ، خاطبين فيه بفَخْم الكلام ، فلا يُجِيبُهم بغير العويل واللعاب ؟

وإذا نُظِر إلى الطفولة نفسها فهل يوجد في العالم مَنْ هو أضعفُ من الولد وأكثرُ منه بؤساً وأدعى منه إلى رحمة مَنْ يحيطون به وأحوجُ منه إلى الشفقة والعناية والحماية ؟ ألَا يَلُوح أنه لا يُبْدِي وجهاً بالغ الوَدَاعة ، ومَظْهراً بالغَ التأثير ، إلَّا ليبالِيَ بضعفه جميعُ من يَدْنُون منه ويبادروا إلى مساعدته ؟ وأيُّ شيء ، إذَنْ ، أكثرُ إيلاماً وأعظمُ مخالفةً لنظام الأمور من أن يُرَى ولدٌ مُتَجَبِّرٌ عنيدٌ يأمر جميعَ من هم حوله منتحلًا بوقاحةٍ لهجة السيد نحو الذين ليس عليهم غيرُ تركه ليَهْلِك ؟

ومن ذا الذي لا يَرَى ، من ناحيةٍ أخرى ، أن ضعف الدَّوْر الأول يُقَيِّدُ الأولادَ على وجوهٍ كثيرة ، وأن من القسوة البالغة أن يضاف إلى

هذا القَهْرِ قَسْرُ أهوائنا ، وذلك بأن تُنْزَعَ منهم حريةٌ محدودةٌ جدًّا ، فلا يستطيعون أن يسيئوا استعمالها إلّا قليلًا جدًّا ، حريةٌ ضيقةٌ لا يفيدهم ، ولا يفيدنا ، نَزْعُها منهم إلّا قليلًا جدًّا ؟ وإذا كان لا يوجد شيء يستحقُّ الهزوء أكثرَ من ولدٍ متكبر فإنه لا يوجد شيء يستحقُّ الرحمةَ أكثرَ من ولدٍ جَزُوع ، وتبدأ العبوديةُ المدنية بسنِّ الرشد ، فلِمَ تُسْبَق بالعبودية الخاصة ؟ ولْنَدَعْ حيناً من الحياة خالياً من هذا النِّير الذى لم تَفْرِضْه الطبيعةُ علينا ، ولْنترُكْ للطفولة ممارسة الحرية الطبيعية التى تُبْعِدُها ، بعضَ الزمن ، من العيوب الملازمة للعبودية ، وليأتِ ، إذَنْ ، هؤلاء المعلِّمون الأشداء وهؤلاء الآباء المُعَبِّدُون لأولادهم مع اعتراضاتهم الطائشة وليتعلَّموا مِنْهاجَ الطبيعة مرةً قبل أن يفاخروا بمناهجهم .

وأعود إلى العمل ، وكنتُ قد قلتُ إنه لا ينبغى لولدكم أن ينال شيئًا لأنه يطلبه ، بل لاحتياجه إليه[1] ، ولا ينبغى له أن يَفْعَل شيئًا عن طَاعةٍ ، بل عن ضرورةٍ فقط ، وهكذا فإن كلمتى الطاعة والأمر يجب أن تزولا من مُعْجَمه ، وأكثرُ من ذلك محوُ كلمتى الواجب والالتزام منه ، ولكنْ يجب أن يكون فيه مكانٌ واسع لكلمات القوة والضرورة والعجز والقَسْر ، ولا يُمكن أن تكون قبل سنِّ الرشد فكرةٌ عن الموجودات المعنوية والصِّلات

(١) يجب أن يشعر بأن اللذة حاجة أحياناً كما أن الألم ضرورة غالباً ، ولا يوجد ، إذن ، غير رغبة واحدة للأولاد لايجوز أن يجابوا إليها مطلقاً ، وهى أن يطاعوا ، ولذا يجب أن ينتبه ، على الخصوص ، إلى السبب الذى يحملهم على الطلب ، وذلك فى جميع ما يطلبون ، وامنحوهم ما أمكن ، جميع ما يروقهم حقيقة ، وارفضوا ، دائماً ، كل ما يطلبون عن هوى أو عن حب السيطرة .

الاجتماعية ، ويجبُ ، إذَنْ ، أن يُجْتَنَبَ ، ما أمْكَن ، استعمالُ الكلمات التى تُعبِّر عنها ، وذلك خَشْيَةَ أن يُعَلِّق الولد على هذه الكلمات ، فى بدء الأمر ، أفكاراً فاسدة لا يُعْرَف ، أو يُسْتَطَاعُ ، القضاء عليها مطلقًا ، وأولُ فكرٍ فاسدٍ يَدْخُل رأسَه هو بَذْرةُ الخطأ والعَيْب ، وهذه هى أولُ خُطوةٍ يجب أن يُنْتَبَه إليها على الخصوص ، واصْنَعُوا ما تَقِفُ معه جميعُ أفكاره عند حَدِّ الإحساسات ما دام غير متأثرٍ بسوى الأفكار الحسية ، واصنعوا ما لا يَشْعُرُ معه بغير العالم الحِسِّىِّ فيما حَوْله ، وإن لم تَفْعَلُوا ذلك فاعْلَمُوا أنه لن يستمعَ إليكم مطلقًا ، أو أنه سيَجْعَل من العالمَ الأدبىِّ ، الذى تكلِّمُونه عنه ، مبادئَ وهميةً لن تَمْحُوها من حياته .

وكانت البرهنةُ مع الأولاد أعظمَ مبدأٍ لِلُوك ، وهـذا المبدأُ أكثرُ المبادئ حُظْوةً فى الزمن الحاضر ، ومع ذلك فإن نجاحه لا يَصْلُح سببًا لجعله مَوْضِعَ اعتبار كما يلوح لى ، وذلك لأننى أرى أنه لا يوجَدُ مَنْ هو أحمقُ من أولئك الأولاد الذين يُبَرْهَن معهم كثيراً ، والعقلُ ، الذى ليس غيرَ مُرَكَّبٍ من بقية خصائص الإنسان ، هو أصعبُ ما يَنْمُو من الخصائص وأكثرُها بطوءا فى النشوء ، ثم يُرَادُ الانتفاعُ به فى إنمائها ! وأروعُ أعمال التربية الصالحة هو تنشئةُ إنسانٍ عاقل ، ثم يُزْعَم تنشئةُ الولدِ بالعقل ! هذا بَدْء من الآخِر ، هـذا عملٌ لآلةِ العمل ، ولو كان الأولاد يُدْرِكون ما العقلُ ما احتاجوا لتربيةٍ ، ولكنهم إذا ما خُوطِبوا منذ طفولتهم بلغةٍ لا يفهمونها على الإطلاق عُوِّدوا الاكتفاء بكلمات ، وتحقيقَ كلِّ ما يقال لهم ، وظنَّهم أنهم حكماء كمعلِّميهم ، وأن يكونوا عُنَداء مجادلين ، فلا يُنَالُ

بغير عوامل الطمع ما يُظَنّ أنه ينُال منهم بعواملَ عقلية ، بغير عوامل الطمع أو الخوْف أو الزَّهو التى يُضْطَرّ إلى إضافتها إلى تلك العوامل .

وإليك الصيغةَ التى يُمْكن أن تُرَدّ إليها تقريبًا جميعُ دروس الأخلاق التى تُلْـقَى على الأولاد والتى يُمكن أن تُلْـقَى عليهم :

المعلم : لا يجوز فعلُ هذا .

الولد : ولِمَ لا يجوز فعلُ هذا ؟

المعلم : لأنه خطأٌ .

الولد : خطأٌ ! ما الخطأ ؟

المعلم : ما تُمْنَعُ منه .

الولد : ما الخطأ فيما أصْنَعُ فأُمْنَعَ منه ؟

المعلم : ستعاقَبُ على عصيانك .

الولد : سأفعله بما لا يُعْرَف عنه شىءٌ .

المعلم : سأرْقُبُك .

الولد : سأتوارى .

المعلم : سنسألك عما كنت تفعل .

الولد : سأكذب .

المعلم : لا يَنْبَغى أن تكذب .

الولد : لِمَ لا ينبغى أن أكذب .

المعلم : لأن هذا خطأٌ ، إلخ .

تلك هى الدائرة التى لا مَفَرّ منها ، فإذا ما خرجتم منها عاد الولدُ

لا يَعِي ما تقولون ، أَوَ ليست هذه دروساً مفيدةً جدًّا ؟ إن من فُضُولي الكبير أن أعرفَ ما يُمكِن أن يُوضَع فى مكان هذه المحاورة ، حتى إن لُوكَ نفسَه كان يرتبك فى هذا لا رَيْب ، وليس من عمل الولد أن يَعْرِف الخطأَ والصواب وأن يُدْرِك سبَب واجبات الإنسان .

وتريد الطبيعةُ أن يكون الأولادُ أولادًا قبل أن يكونوا رجالاً ، وإذا أردنا أن نُخِلَّ بهذا النظام اقتطفنا ثمرَاتٍ بَدرِيَّةً خاليةً من النُّضج والطَّعْم فلا تُعَتِّمُ أن تفسُد ، وبذلك يكون لدينا أساتذةٌ أحداث وأولادٌ شيوخ ، وللطفولة وجوهُ بصرٍ وتفكيرٍ وشعورٍ خاصةٌ بها ، ولا شيء أقلُّ صواباً من أن نريد أن نستبدل بها ما عندنا ، وأُفَضِّلُ المطالبةَ بأن يَبْلُغ الولد من الطُّولِ خمسَ أقدامٍ على أن يكون حصيفًا فى العاشرة من سِنِيه ، وما نَفْعُ العقل له فى هذه السنِّ حقًّا ؟ إن العقلَ رادعُ القوة ، ولا يحتاج الولد إلى هذا الرادع .

وأنتم ، حين تحاولون إقناعَ تلاميذكم بواجب الطاعة ، تُضِيفُون القوةَ والتهديد إلى هذا الإقناع المزعوم ، أو تأتون بما هو شرٌّ من هذا ، أى بالمداراة والوعود ، وهكذا يُجْذَب الأولاد بالمصلحة أو يُجْبَرُون بالقوة فيتظاهرون بالقناعة بفعل العقل ، وهم يَرَوْن جيداً أن الطاعة نافعةٌ لهم وأن العصيان ضارٌّ بهم فَوْرَ ما تَشْعُرُون بهذا أو ذاك ، ولـكِنْ بما أنكم لا تطلبون منهم شيئًا غيرَ مستكرَهٍ لديهم ، وبما أن من الأمور الشاقَّةِ دائمًا أن تُنَفِّذَ إرادةُ الآخرين ، فإنهم يَتَسَتَّرُون تنفيذاً لإرادتهم الخاصة قانعين بأنهم يَصْنَعون خيراً إذا ما جُهِلَ عدمُ إطاعتهم ، ولـكن مع اعترافهم بأنهم يصنعون سوءًا

إذا ما كُشِفَ أمرُهم ، وهذا خوفاً من أعظم شرٍّ ، وبما أن عاملَ الواجب فوق عُمُرهم فإنه لا يوجد فى العالَمِ رجلٌ قادرٌ على جعلهم يَشْعُرون به حقًّا ، غير أن خوفَ العقاب وأملَ العفو واللَّجَاجَ وصعوبةَ الجواب أمورٌ تؤدى إلى انتزاع جميع الاعترافات التى تُطْلَبُ منهم ، ويُعْتَقَدُ أنَّهم يُقْنَعُون عند ما يُسْأَمون أو يُرْهَبُون .

وما ينشأ عن ذلك ؟ أولاً ، إنكم ، بفرضكم عليهم واجباً لا يُدْرِكونه ، تُنَفِّرُونهم من سيطرتكم ، وتَصُدُّونهم عن محبتكم ، وتُعَلِّمُونهم أن يكونوا مُداجين مُخَادِعين كاذبين نيلاً للجوائز أو اجتناباً للعقوبات ، وأخيراً ، بتعويدكم إياهم أن يَسْتُرُوا ، دائمًا ، عاملاً خفياً تحت عامل ظاهر ، تمنحونهم بأنفسكم وسيلةَ مخاتلتكم بلا انقطاع ، وحرمانِكم معرفةَ أخلاقِهم الحقيقية ، ودفعِ كلامٍ فارغٍ إليكم وإلى غيركم فى الوقت المناسب ، وتقولون إن القوانينَ ، وإن كانت تُقَيِّدُ الشعورَ ، تقوم بعين القَسْرِ نحو من بَلَغُوا أَشُدَّهم ، وأوافق على هذا ، ولكن مَنْ هم هؤلاء الرجال إن لم يكونوا أولادًا أفسدتهم التربية ؟ هذا ما يجب اجتنابه ضبطاً ، فاستعملوا القوةَ مع الأولاد والعقلَ مع الرجال ، هذا هو النظامُ الطبيعىُّ ، ولا يحتاج الحكيمُ إلى قوانين .

وعاملوا تلميذَكم على حسب سِنِّه ، وَضَعُوه فى مكانه منذ البُداءة ، وأمْسِكوه فيه جيداً ، فلا يحاولَ الخروجَ منه ، وهنالك يمارس أهمَّ الدروس قبل أن يَعْرِف ما الحكمة ، ولا تُلقُوا إليه أىَّ أمرٍ فى أىِّ شىء على الإطلاق ، حتى إنه لا ينبغى أن تدَعُوه يَتَمَثَّلُ وجودَ زَعْمٍ لكم بأىِّ سلطانٍ عليه ، ولْيَعْلَمْ ، فقط ، أنه ضعيفٌ وأنكم أقوياء ، وأن وضْعَه ووضعَكم

يوجبان وجودَه تحت رحمتكم بحكم الضرورة ، وليُدْرِكْ هذا وليَعْرِفْه وليَشْعُرْ به ، وليَشْعُرْ باكراً بأن النِّير الشديد الذى فرضته الطبيعةُ على الإنسان قائمٌ على رأسه المتكبِّر ، ليَشْعُرْ بنير الضرورة الثقيل الذى يجب على كلِّ موجود متناهٍ أى ينحنىَ تحته ، وليُبْصِرْ هذه الضرورةَ فى الأشياء ، لا فى هَوَى الناس[1] ، ولتكن القوةُ ، لا السلطةُ ، هى الزاجرَ الذى يُمْسِكه ، ولا تَحْظُرُوا عليه ما يجب أن يَمْتَنِع عنه ، بل امْنَعُوه من فعله بلا إيضاحٍ ولا برهان ، وما تَمْنحونه إياه امْنَحوه عند أول كلمةٍ منه ، امْنَحُوه بلا توسُّلٍ منه ولا رجاء وبلا شروط ، امْنَحُوه إياه طَيِّبي الخاطر ، ولا تَرْفِضُوا بلا امْتعاضٍ ، ولكن ليَكُنْ كلُّ رَفْضٍ منكم لا يُنقَضُ ، وألَّا يَهُزَّكم أىُّ إزعاجٍ كان ، وليَكُنْ قولُ « لا » منكم جداراً من قُلُزٍ* حتى إذا ما حاول الولدُ أن يُقَوِّضه خمسَ مراتٍ ، أو ستَّ مرات ، ارتدَّ ولم يَعُدْ إلى مثل هذا قَطُّ .

وهكذا تجعلونه صبوراً معتدلاً مُسَلِّمًا هادئًا ، حتى عند عدم نَيْله ما أراد ، وذلك لأن من طبيعة الإنسان أن يحتمل صابراً ضرورةَ الأمور ، لا سوءَ قصد الآخرين ، وتُعَدُّ الكلمة : « عاد لا يُوجَدُ منه » جوابًا لم يعانده ولدٌ قَطُّ ما لم يعتقد أنه ينطوى على كَذِب ، ولا وَسَطَ هنا مطلقًا ، فإما ألَّا تَطْلُبُوا منه شيئًا ، وإما أن تَحْمِلُوه على أتمِّ طاعة فى أول الأمر ، وتقوم أسوأ تربية على تركه مترجِّحًا بين عزائمكم وعزائمه ، وعلى جدالٍ

---

(١) ليعلم أن الولد يعد من الأهواء كل إرادة مخالفة لإرادته ، ولا يعرف سبباً لها ، والواقع أن الولد لا يدرك سبباً لأى شىء لا يلائم أهواءه .

* القلز : النحاس الذى لا يعمل فيه الحديد .

دائم يقع بينكم وبينه حَوْلَ مَن يكون منكما سيداً ، وأفضلُ مئةَ مرة أن يخْرُج من هذا سيداً دائماً .

ومن الغرابة بمكانٍ أنه لم يُتَمَثَّلْ ، منذ أخذ الناس يُفَكِّرون فى تربية الأولاد ، طريقٌ لقيادتهم غيرُ المنافسة والغَيْرة والحسد والزهو والطمع والجُبْن الدَّنِيّ وأخطرِ الأهواء وأسرعِها اختماراً وأصلحِها لإفساد النفس حتى قبل أن يتمّ نشوء البدن ، وتُغرَسُ نقيصةٌ فى صميم فؤادهم عند كلّ درسٍ باكرٍ يُرَاد إدخاله إلى رؤوسهم ؛ وقد بَلَغَ بعض المعلمين من السخافة ما يَرَوْن معه أنهم يأتون بالعجائب بجعلهم الأولادَ أشراراً ليُعَلِّموهم ما الصلاح ، ثم يقولون لنا برَصانة : « هو ذا الرجلُ » ، أَجَلْ ، هو ذا الرجلُ الذى صنعتموه .

وقد اختُبِرَتْ جميعُ الوسائل عدا واحدة ، عدا الوسيلة التى يُمكِن أن يُكْتَبَ لها النجاح ، وهى الحريةُ الحسنةُ التنظيم ، ولا يجوز أن تقوموا بتربيةِ ولدٍ إذا لم تَعرِفوا أن تَسُوقوه إلى حيث تريدون بدساتير الممكن والمحال وحدَها ، فبما أن دائرة الممكن والمحال مجهولةٌ لديه على السواء فإنها تُوَسَّع حَوْله وتُضَيَّق كما يراد ، ويُقَيَّدُ ويُساقُ ويُمْسَك بقيد الضرورة وحدَها من غير أن يتذمّر ، ويُجْعَلُ مَرِناً سَلِسَ القِياد بقوة الأشياء من غير أن يُتاح لأىّ عيبٍ من الفُرَص ما يَنبُت معه فيه ، وذلك لأن الشَّهَوَاتِ لا تنتعش ما دامت غيرَ ذاتِ فعلٍ .

ولا تُلقُوا أىّ درس شَفَوِيٍّ على تلميذكم ، ولا يجوز أن يَتَلَقَّى من الدروس غيرَ التجربة ، ولا تَفرِضوا عليه أىَّ نوع من العقوبات ، وذلك

لأنه لا يَعْرِفُ ما فِعْلُ الخطأ ، ولا تحملوه على طلب العفو مطلقاً ، وذلك لأنه لا يَعْرِف أن يسيء إليكم ، وبما أنه خالٍ من كلِّ خُلُقيةٍ فى أفعاله فإنه لا يستطيع أن يَصْنَعَ ما هو سَيِّئٌ خُلُقيًّا ، فيستحقّ عِقاباً أو عِتاباً .

وأرى القارئ المذعور يحكُم فى هذا الولد بأولاد زماننا ، وهو مخطئٌ فى هذا ، وذلك أن ما تُمسِكون به تلاميذَكم من مضايقةٍ دائمة يُحَرِّك فَعَّاليتهم ، وأنه كلما ضُيِّقَ عليهم تحت أعينكم بَدَوْا أكثرَ طيشاً حينما يُفلِتُون ، فيجب أن يُعوِّضوا من الضغط الشديد الذى تجعلونهم فيه ، ويأتى اثنان من طلاب المدينة من التَّلَف فى بلدٍ أكثرَ مما يأتيه شبابُ قريةٍ بأسرها ، واحبِسُوا حَضَريًّا صغيراً وقَرَويًّا صغيراً فى غرفةٍ تجِدُوا الأولَ مُنْكَساً منهوكاً قبل أن يتحرك الثانى من مكانه ، ولِمَ هذا إذا لم يكن أحد الاثنين يُسرع إلى العَبَث بوقتٍ من التَّحَلل، على حين لا يُهْرَعُ الآخرُ ، المطمئنُّ إلى حريته دائماً ، إلى ابتذالها مطلقاً ؟ ومع ذلك فإن أولاد القَرَويين يُدَارَوْن ويُناوَءون غالباً فلا يزالون بعيدين من الحال التى أريد أن يُمْسكوا فيها .

ولْنَضَعْ قاعدةً ثابتةً قائلةً إن حركات الطبيعة الأولى مستقيمةٌ دائماً ، فلا يوجد فى القلب البشرىِّ فسادٌ أصلىٌّ ، ولا يوجد فيه عيبٌ لا يُمْكن أن يقال كيف دخَله ومن أين أتاه ، ويقوم الهَوَى الطبيعىُّ الوحيدُ فى الإنسان على حبِّ الذات أو الأَثَرَة بأوسعِ معنًى ، وحبُّ الذات هذا صالحٌ نافع بنفسه وبالنسبة إلينا ، وبما أنه ليس للولد علاقةٌ ضرورية بالآخرين مطلقاً فإنه يُعَدُّ خَلِيًّا طبيعةً من هذه الناحية ، وهو لا يُصْبح صالحاً أو طالحاً

إلا بتطبيق حبِّ الذات وما يعطاه من صلات ، ومن المهمِّ ، إذن ، ألَّا يَصْنَع الولد شيئاً لأنه سَمِع ورأى ، ألَّا يَصْنَع شيئاً بالنسبة إلى الآخرين ، ولكنْ أن يَصْنَع ما تَطْلُب منه الطبيعة ، وهنالك لا يَصْنَع غيرَ الخير ، وذلك إلى أن يُولَد العقلُ الذى هو دليلُ حُبِّ الذات .

ولا أَقْصِد بذلك أنه لا يَصْنَع سوءا ، وأنه لا يَجْرَح نفسَه أبداً ، وأنه لا يَكْسِر أثاثاً واقعاً تحت يده ، ويمكنه أن يَصْنَع كثيراً من السوء من غير أن يأتيَ سوءاً ، وذلك لأن فعل الضرر يتوقف على نية الأذى ، وليس لديه مثلُ هذه النية مطلقاً ، وهو إذا ما بَدَا سيئَ النية ضاع وغَدَا شَرِيراً بلا وسيلة تقريباً .

ومن الأمور ما يَعُدُّه الطمعُ سيئاً ، ولا يَعُدُّه العقل هكذا ، ومن المناسب أن يُقْصَى عن الأولاد ، إذا ما تُرِكوا أحراراً تماماً فى ممارسة طَيْشهم ، كلُّ ما يَجْعَل حريتَهم تُكلِّف غالياً ، فلا يُجْعَل تحت أيديهم شىءٌ ثمين سريعُ العَطَب ، ولْيَكُن مسكنُهم مُجهَّزاً بأثاثٍ غليظٍ متين ، فلا يكون فيه مَرَايا ولا أوانٍ صينيةٌ ولا أدواتٌ من النفائس ، وأما إميلُ الذى أُرَبِّيه فى الأرياف فلن تشتمل غرفتُه على شىء يُمَيِّزها من غرفة قَرَوِىٍّ ، وما فائدةُ تزيينها بعنايةٍ ما دام لا يَنْبَغى أن يَبْقَى فيها إلا قليلاً ؟ ولكننى مخطئٌ ، فسيُزَيِّنُها بنفسه ، وسنرى كيف يكون هذا عما قليل .

ومع ما تَبْذُلون من حَذَرٍ ، إذا حَدَثَ أن أَحْدَث الولدُ بعضَ الخَلَلَ ، كأن يَكْسِرَ وِعاءً نافعاً ، فلا تعاقبوه عن إهمالٍ منكم ولا تَنْهَرُوه مطلقاً ، ولا تُسْمِعُوه كلمةَ تأنيبٍ ، ولا تَدَعُوه يُبْصِرُ أنه أَورَثكم غمًّا ، واتَّخِذُوا من

الوَضْعِ ما يُشْعِرُ بأن الوعاء قد كُسِرَ من تلقاء نفســه ، ثم اعتقدوا أنكم تصنعون كثيراً إذا ما استطعتم ألاَّ تقولوا شيئاً .

أوَأجْسُرُ هنا أن أعْرِض أعظمَ قواعد التربية وأهمَّها وأكثرَها نفعاً ؟ ليس هذا كسباً لوقتٍ ، بل ضَياعٌ له ، ويا أيها القارئون من النـاس ، اغفِرُوا لى بِدَعِى ، لا بُدَّ من البِدَع عند إنعام النظر ، ومهما تَقُولُوا فإننى أُفَضِّل أن أكون رجلَ بِدَعٍ على أن أكون رجلَ مبتسرات ، وأشدُّ أدوار الحياة خطراً هو ما يَقَعُ بين الوِلادة والثانيةَ عشرةَ من السِّنّ ، ففى هذا الدور تَنْبُت الأضاليلُ والعيوب من غير أن يكون من الأدواتِ فى اليد ما يُقْضَى معه عليها ، ومتى أتت الأداة كانت الجذور من التأصُّل ما لا يُمْكن معه استئصالُها ، أجَلْ ، لو قَفَزَ الأولاد من الثَّدْى إلى سِنِّ الرشد بغتةً لأمكن أن تكون التربيةُ التى يُعْطَوْنها ملائمةً لهم ، غير أن النشوء الطبيعىَّ يَقْضِى بمنحهم تربيةً تختلف عن هذه تماماً ، ومن الواجب ألَّا يُزْعَج الذهنُ قبل نُمُوِّ قابلياته ، وذلك أنه إذا ما كان أعمى لم يستطع أن يَرَى الشُّعلةَ التى تقدمونهـا إليه ، ولا أن يَتَّبِع فى حقل الأفكار الواسع طريقاً بلغ العقلُ من ضَعْفِ رَسْمِها ما لا تكاد أحسنُ العيون معه أن تُبْصِرها .

ويجب أن تكون التربية الأولى سلبيةً فقط ، فلا تقوم على تعليم الفضيلة والحقيقه مطلقاً ، بل على وقاية القلب من العيب وروح الخطأ ، وإذا كنتم قادرين على عـدم صنع شىء وعدمِ تركه يَصْنَع شيئاً ، وإذا كنتم قادرين على قيادة تلميذكم إلى سِنِّ الثانيةَ عشرةَ سليماً عُضْلُبيّاً من غير أن يستطيع التفريقَ بين يده اليمنى ويده اليسرى ، فإنَّ قوةَ الإدراك فيه تنفتح للعقل ،

وهو، إذ يكون خالياً من المُبْتَسرات والعادات، فإنه لا يكون فيه ما يقاوِم أثرَ رعايتكم، وهو لا يَلْبَث أن يصير بين أيديكم أحكمَ الناس، وأنتم، إذْ تبدءون بعدم صنع شيء تكونون قد أتيتم بتربيةٍ ذات إعجاز.

وقاوِموا العادة تُحْسِنُوا صُنْعاً دائماً تقريباً، وبما أنه لا يُرَادُ أن يُجْعَل من الولد ولدٌ، بل أستاذٌ، فإن الآباء والمعلمين لم يَرَوْا من العجلة قطُّ أن يُعَزِّر ويُصْلِح ويُعَنِّف ويدارِى ويُهَدِّد ويُوعِد ويعلِّم ويُنَاظِر، وافعلوا خيراً مما يفعلون، وكونوا على صواب، ولا تُبَرْهِنوا مع تلميذكم، على الإطلاق، حَمْلاً له على استحسان ما لا يَرُوقه على الخصوص، وذلك لأن سَوْقَ العقل فى كلِّ وقتٍ، هكذا، إلى الأمور المستكرَهة لا يؤدى إلى غير عَدِّ العقل مُمِلاً وسقوطِ حُظْوَته باكراً فى نفسٍ لم تَبْلُغ من الحال ما تُدْرِك معه أمرَه، ودَرِّبوا بَدَنَه وأعضاءه وحواسَّه وقُوَاه، ولكن دَعُوا ذهنَه خَلِيًّا لأطول مدةٍ ممكنة، واخْشَوْا جميعَ المشاعر السابقة للحُكْم فى تقديرها، واحْجُزُوا الانطباعاتِ الغريبةَ وقِفُوها وحُولُوا دون وقوع الضرر، ولا تستعجلوا الخيرَ مطلقاً، وذلك لأنه ليس هكذا إلاّ عند إلقاء العقل نوراً عليه، وعُدُّوا كلَّ تأجيلٍ فائدةً، فمن الغُنْم الكبير أن يُتَقَدَّم إلى الحدِّ من غير أن يُخْسَرَ شىء، ودَعُوا الوَلُودِيةَ تَنْضَجُ فى الأولاد، وأخيراً، هل يكون بعضُ الدروس نافعاً لهم؟ احترزوا من إعطائه اليوم إذا كان تأخيرُه إلى الغد لا يُسْفِر عن خطر.

ويُوجَدُ اعتبارٌ آخرُ يؤيِّد فائدةَ هذا المنهاج، وهو مَيْلُ الولد الخاصُّ الذى يجب أن يُعْرَف جيدًا ليُعْلَمَ أىُّ نظامٍ خُلُقِىّ يلائمه، فلكلِّ نفسٍ جِبِلَّتُها الخاصة التى يجب أن يُحْكَم فى أمر النفس وَفْقَها، والمهمُّ فى نجاح

كلَّ عناية أن تقوم على هذه الجِبِلّة دُونَ غيرِها ، ويا أيها الرجال من ذوى البصائر ارْقُبُوا الطبيعة طويلاً وأنْعِمُوا النظر فى تلميذكم قبل أن تقولوا كلمةً له ، ودَعُوا بَذْرَةَ سجيته تَبْدُو طليقةً ، ولا تُلْجِئُوه إلى أىِّ أمرٍ حتى تَرَوْه على حقيقته ، أوَ تَظُنُّون أنه يُضَيِّع دَوْرَ الحرية هذا ؟ كَلاَّ ، سَيُنْتَفَعُ به على أحسن حال ، وذلك لأنكم ستتعلمون عدمَ إنفاقِ ثانيةٍ إذا كان الوقتُ ثميناً ، وذلك بدلاً من كونكم إذا ما بدأتم بالعمل قبل أن تَعرِفوا ما يَجِبُ أن يُفْعَل قام عملكم على المصادفة ، وأمكن أن تُخْدَعوا ، ووجب أن تُعِيدُوا رَسْمَ الخُطا ، وستكونون أكثرَ ابتعاداً عن الهدف كلما زادت سرعتكم فى الوصول إليه ، ولا تفعلوا ، إذَنْ ، كالبخيل الذى يَخْسَرُ كثيراً لكيلا يخسرَ شيئاً ، وضَحُّوا فى الدور الأول بزمنٍ ستستردونه مع الرِّبا فى دورٍ آتٍ من العُمُر ، وذلك كالطبيب الحكيم الذى لا يُعْطِى الوَصَفاتِ بطَيْشٍ عند أول نظرةٍ ، والذى يَدْرُس مزاجَ المريض قبل أن يَفْرِض عِلاجاً ، أجَلْ ، إنه يبدأ بمداواته متأخراً ، ولكنه يَشْفيه ، على حين يَقْتُلُه الطبيبُ المستعجِلُ كثيراً .

ولكن أين نَضَعُ هذا الولدَ لتنشئته مثلَ موجودٍ فاقدِ الحِسِّ كتمثالٍ آلىٍّ ؟ أنُمْسِكُه فى كُرَةِ القمر أم فى جزيرةٍ قَفْرٍ ؟ أوَ نُقْصِيه عن جميع البشر ؟ أفلا يكون له فى العالَم ، باستمرارٍ ، مظهرُ أهواء الآخرين ومثالِهم ؟ أفلا يَرَى أولاداً من لِدَاته مطلقاً ؟ أفلا يرى أبويه وجيرانَه ومرضعَه ومربيتَه وخادمَه ، حتى مؤدِّبَه الذى لن يكون مَلَكاً مع ذلك كلِّه ؟

هذا الاعتراضُ قوىٌّ متين ، ولكن هل قلتُ لكم إن التربية الطبيعية

عملٌ سهلٌ ؟ ويا أيها الناس ! هل أُعَدُّ مذنباً إذا كنتم قد جعلتم صعباً كُلَّ ما هو صالح ؟ أَشْعُرُ بهذه المصاعب ، وأعترف بها ، وهى مما لا يُذَلَّلُ على ما يحتمل ، ولكن مما لا مِراء فيه دائماً أننا بسعينا فى اجتنابها نتَجَنَّبُها إلى حَدٍّ ما ، وأُبْدِى ما يجب أن يحاوَل للوصول إلى الهدف ، ولا أقول إن من الممكن بلوغَه ، وإنما أقول إن الذى يَدْنُو منه أكثرَ من سواه يكون أحسنَ توفيقاً .

واذْكُرُوا أنه يجب على من يحاوِلُ تكوينَ رجلٍ أن يكونَ قبل ذلك رجلاً ، فَيظْهرَ مثالاً يُحْتَذَى ، وبَيْنا يكون الولدُ خالياً من المعرفة بَعْدُ يُوجدُ من الوقت ما يُعَدُّ فيه كلُّ ما يُدْنيه من حالٍ لا تقع عيناه فيها على غير الأشياء التى يلائمه أن ينظر إليها ، وكونوا محترَمين لدى جميع الناس ، وابدءوا بأن تكونوا مُحَبَّبين إليهم حتى يحاوِلَ كلُّ واحدٍ أن يُرْضِيَكم ، ولن تكونوا سادةَ الولد إذا لم تكونوا رقباء على جميع من يحيطون به ، ولن يَكْفِيَ هذا السلطانُ إذا لم يَقُمْ على تقدير الفضيلة ، ولا يقوم الأمرُ على إنفاق ما فى الكيس وتوزيعِ المال ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال ، فلم أرَ قَطُّ أن المال حَبَّبَ إنساناً ، ولا ينبغى الظهورُ بمظهر البخيل الجافى ، ولا التوجُّعُ من بؤسٍ يُمْكِن تخفيفُه ، ومن العَبَث أن تفتحوا خزائنكم إذا لم تفتحوا قلوبَكم ، فستظلُّ قلوبُ غيركم مُقْفَلةً ، ويجب أن تُعْطُوا وقتَكم وعنايتَكم ومودتَكم وأنفسَكم ، وذلك لأنه مهما يكن ما تستطيعون فعلَه لا يُشْعَرُ بأن مالكم هو شخصُكم مطلقاً ، ويُوجَدُ من دلائل النفع وحُسْنِ الالتفات ما يكون له أثرٌ أعظمُ من ذاك ، وما يكون أفيدُ من جميع العطايا فى الحقيقة ، وما أكثرَ

التُّعَساء والمَرْضَى الذين يحتاجون إلى الترويح أكثرَ ممـا إلى الصدقات ! وما أكثر المضطهَدين الذين تَنفَعُهم الحماية أكثرَ من المال ! وأصلحوا بين المختصِمين ، وحُولوا دُون رفع القضايا ، واْحمِلُوا الأولادَ على الواجب والآباء على الإغضاء ، ويَسِّرُوا أمرَ الأنكحة السعيدة ، وامنعوا المظالم ، واستغلوا وابذُلوا ثقةَ أبوَىْ تلميذكم نفعًا للضعيف الذى تُمْسكُ عنه العدالةُ والذى يُرْهقه القوىُّ ، وصَرِّحوا عاليًا بأنكم حُماةُ البائسين ، وكونوا منصفين راحمين محسنين ، ولا تقتصروا على الصدقة ، بل اصنعوا المعروف ، فأعمالُ الرأفة تُفَرِّج من الهموم أكثرَ مما يُفَرِّج المال ، وأَحِبُّوا الآخرين يُحِبُّوكم ، واخْدِمُوهم يَخْدِموكم ، وكونوا إخوةً لهم يكونوا أولاداً لكم .

وهذا أيضاً من الأسباب التى تجعلنى أُريد تربيةَ إميلَ فى الأرياف بعيداً من سِفْلة الخدم الذين هم أحطُّ الناس بعد معلميهم ، بعيداً من عادات المدن السُّودِ التى يجعلها ما تُستَر بها من طلاء فاتنةً مُغْرِيةً للأولاد ، وذلك بدلًا من نقائص القَرَويين الخالية من المُغْريات ، والموصوفةِ بالغِلْظة فيَسْهل رفضُها أكثرَ من أن يُغْوَى بها إذا لم تَقْضِ المصلحةُ بتقليدها .

وفى القرية يكون المُرَبِّى كثيرَ السيطرة على الأشياء التى يريد عَرْضَها على الولد ، وفى القرية يكون لسُمْعته وأقواله ومثاله من السلطان ما لا يُمْكن أن يكون فى المُدُن ، وبما أن المُرَبِّى فى القرية يكون نافعاً لجميع الناس فإن كلَّ واحدٍ يبادر إلى إرضائه ونَيْل تقديره ، وإلى الظهور للتلميذ كما يَوَدُّ المعلمُ أن يكون عليه فى الحقيقة ، وإذا لم يُصْلَحُ العَيْبُ فى القرية اجْتُنِبَ العارُ على الأقلِّ ، وهذا هو كلُّ ما نحتاج إليه فى موضوعنا .

وانتَهُوا عن لَوْم الآخرين على ذنوب اقترفتموها ، فالأولادُ يَفسُدون بسوء يَرَوْن أكثر من سوء تَعلّمون ، وأنتم ، إذ تكونون مُعَنِّفِين دائماً ، خُلُقيين دائماً ، متحذلقين دائماً ، من أجْلِ فكرةٍ تُعطُونهم إياها معتقدين صلاحَها ، تُعطُونهم عشرين فكرةً أخرى لا قيمة لها ، وأنتم ، إذ تكونون مُفْعَمين بما يَدُور فى رؤوسكم ، لا تُبصِرون ما تؤدون إليه من نتيجةٍ فى فى رؤوسهم ، أوَ تظنون أنه لا يوجد بين سيل الكلام الذى تَغْمُرونهم به بلا انقطاعٍ كلامٌ يسيئون فَهْمَه ؟ أفَترون أنهم لا يُفَسِّرون إيضاحاتِكم المطوَّلة على شاكلتهم فلا يَجِدُون فيها من الموادِّ ما يجعلون منه جهازاً يدركونه ثم يعارضونكم به فى الوقت المناسب ؟

وأنْصِتوا لصبيٍّ صغيرٍ فُرِغَ من درسه منذ قليل ، وَدَعُوه يَهْذِرُ ويَسْأل ويَهْذِى على هِيئَتِه ، تُدْهَشوا من الشكل الغريب الذى اتخذته براهينُكم فى ذهنه ، فهو يَخْلِط بين كلِّ شىء ، وهو يَقْلِب كلَّ شىء ، وهو يُجْزِعكم، وهو يُحْزِنكم أحياناً باعتراضاتٍ غيرِ منتظرة ، وهو يَحْمِلكم على السكوت أو على إسكاته ، وما يُمْكن أن يكون تفكيره فى أمر هذا السكوت من قِبَل رجلٍ يحبُّ الكلام كثيراً ؟ قُل السلامَ على التربيةِ إذا ما نال هذه الفائدة وسُرَّ بها ، فكلُّ شىء يَضيع منذ تلك الدقيقة ، فهو يَعُودَ غيرَ طالبٍ أن يَتَعلَّم ، وإنما يحاول أن يَصُدَّكم .

ويا أيها المعلمون الغُيُرُ ، كونوا بُسَطاء رُصناء فُطُناً ، فلا تُغِذُّوا فى السَّيْر ما لم يكن هذا لمَنْعِ سَيْرِ الآخرين ، وسأقول مُكرَّراً ، دائماً ، أقْصُوا درساً صالحاً ، إذا أمكن ، خشيةَ إلقاء دَرْسٍ سيِّئ ، واحذروا فى

هذه الدنيا ، التى جَعَلَت الطبيعةُ منها أولَ فِرْدَوْسٍ للإنسان ، أن تمارسوا وظيفةَ الغاوى قاصدين مَنْحَ الولد البرىء معرفةَ الخير والشرِّ ، وبما أنكم لا تستطيعون أن تَحُولوا دون تَلَقِّى الولد أمثلةً من الخارج فاقصِرُوا جميعَ حَذَرِكم على طبع هذه الأمثلة فى ذهنه على الصورة التى تلائمه .

وتؤدى الأهواء الصائلةُ إلى أثرٍ كبير فى الولد الذى يشاهدها ، وذلك لأنها دلائلُ محسوسةٌ تَقِفُ نظره وتَحْمِله على الانتباه إليها ، ويَبْلُغُ الغضبُ فى مُحَيَّاه من الضجيج ما يَتَعَذَّر معه ألَّا يُدْرِك إذا كان تحت البصر ، ولا محلَّ للسؤال عن كون هذا فرصَةً لدى المعلِّم يُلْقِى بها درساً جميلًا ، وَىْ ! لا درسَ جميل ، لا شىء ، لا كلمة واحدة ، دَعُوا الولدَ يأتى ، ولا يُعْوِزُ الولدَ أن يسألكم عن دَهَشٍ من المنظر ، والجوابُ بسيطٌ ، وهو يُسْتَخْرَج من ذات الأمور التى تَقِفُ حواسَّه ، هو يَرَى وَجهاً ملتهباً وعينين مشتعلتين وحركةً متوعِّدة ويَسْمَعُ صُراخًا ، وكلُّ شىء يدلُّ على اضطراب البدن ، وقولوا له بوقارٍ ومن غير غموض : « إن هذا الرجل المسكين مريضٌ ، إنه يعانى نَوْبةَ حُمَّى » ، ويُمكِنكم أن تَغتنموا هذه الفرصة فتُعْطُوه بكلمات قليلة فكرةً عن الأمراض ونتائجها ، وذلك لأن هـذا من الطبيعة أيضًا ، وذلك لأن هذا من قيود الضرورة التى يجب أن يَشْعُرَ بخضوعه لها .

وهل من الممكن عند هذه الفكرة ، التى ليست خاطئةً ، ألَّا يساوره باكرًا نفورٌ من الاستسلام للأهواء الشديدة التى سيَعُدُّها أمراضًا ؟ ألا ترون أنه يكون لفكرٍ كهذا يُعْطَى فى الوقت المناسب من الأثر البالغ ما يكون لأدعى مواعظ الأخلاق إلى السَّأم ؟ ولكن أبْصِرُوا فى المستقبل نتائجَ الفكرة

الآتية وهى : ها أنتم أولاء مأذونون ، وذلك عندما تُلزَمون ، فى معالجة ولدٍ عاصٍ كولدٍ مريض ، وفى حَصْره ضِمْنَ غرفته ، وعلى سريره عند الاقتضاء ، وفى إلزامه بحِمْيةٍ ، وفى تخويفه من نقائصه الناشئة ، وفى جَعْلها كريهةً مُرْعبة ، وذلك من غير أن يَعُدَّ عقوبةً ما قد تضطرون إلى اتخاذه من شِدَّةٍ لشفائه من ذلك ، وإذا حَدَث لكم أن خَرَجتم فى ساعة حِدَّةٍ من برودة دمكم واعتدالكم الذى يجب عليكم أن تقيموا عليه دراستكم فلا تحاولوا أن تُخْفُوا عنه خطأَكم ، ولكن قولوا له بصراحةٍ ولوم مع خَفْضِ جَنَاحٍ : «لقد آذَيتنى يا صديقى» .

ثم إن من المهمِّ ألَّا تُثَارَ أمام الولد جميعُ السَّذاجات التى قد تنشأ فيه عن بساطة الأفكار التى غُذِّى بها ، ولا أن تُذْكَرَ على وَجهٍ يُمكن معه أن يُدْرِكها ، ومن الممكن أن تُفْسِد قهقهةٌ واحدة عملَ ستة أشهر ، وأن تُحْدِث من الضرر ما لا يُمكن تلافيه مدى الحياة ، ولا أستطيع أن أقول مكرِّرًا إن من يَوَدُّ أن يسودَ الولد أن يكون سيدَ نفسه ، وأتمَثَّلُ إميلَ الصغيرَ عند اشتداد شِجارٍ بين جارين متقدِّمًا نحو أكثرهما هياجًا قائلًا له بتَحَنُّنٍ : «أنت مريضٌ يا جار ، وأنا حزينٌ من أجلك كثيراً» ، ولا ريبَ فى أن هذا الاحتداد لا يبقى بلا أثرٍ فى الحضور ، وفى المتنازعين ، وإنى ، من غير ضحكٍ ولا تعزير ولا مدحٍ ، آتى به طوعًا أو كَرْهًا قبل أن يستطيع إدراكَ ذاك الأثر ، أو قبل أن يُفكِّر فيه عَلَى الأقل ، وأبادر إلى إلهائه بأمورٍ أخرى تُنْسِيه ذلك سريعاً .

وليس من مقاصدى أن أدخل باب التفصيل مطلقًا ، وإنما أرى أن

أغرِض المبادئ العامة وأن أُورِدَ أمثلةً في الأحوال الصعبة، وأجِدُ أن من المتعذر في سواء المجتمع أن يُؤتَى بولدٍ في الثانيةَ عشرةَ من سِنِيه من غير أن يُعطَى فكرةً عن صِلات الإنسان بالإنسان وعن خُلُقيَّةِ الأعمال البشرية، وَيَكفِي أن يُسْعَى في تلقينه هذه المعارفَ في آخرِ وقتٍ ما أمكن، فمتى أصبحت لا مَفَرَّ منها قُصِرَت عَلَى النفع الحاضر لكيلا يَعْتَقِدَ أنه سيدُ الجميع أوْ لئلا يُؤْذِيَ الآخرين بلا تردُّدٍ وعن غير معرفة، أَجَلْ، تُوجَد طبائعُ لَيِّنَةٌ هادئة يُمْكن أن يؤتَى بها إلى بعيد، وبلا خطرٍ، في براءتها الأولى، ولكنه يُوجَدُ أيضًا من السجايا الصائلة ما يَنْمُو جَفَاؤها باكرًا، فيجب أن يُجْعَل منها رجالٌ على عجلٍ، حتى لا تَقْضِيَ الضرورةُ بتقييدها.

وتكون واجباتنا الأولى نحو أنفسنا، وتَتَجَمَّعُ مشاعرُنا الابتدائية في أنفسنا، وتَهدِف جميعُ حركاتنا إلى بقائنا ورفاهيتنا في البُداءة، وهكذا فإن شعورَنا الأول بالعدل لا يأتينا مما يجب علينا نحو الآخرين، بل من الواجب نحو أنفسنا، وهذا يناقض أنواعَ التربية الشائعة التي تُحَدِّثُ الأولاد عن واجباتهم في بدء الأمر، لا عن حقوقهم مطلقًا، فتُكَلِّمُهم بعكس ما يجب، أي بما لا يُدْركون وبما لا يُمْكِن أن يلتفتوا إليه.

إذَنْ، لو قُدِّرَ لي أن أُسَيِّرَ ولداً كما أفترِضُ لقلتُ في نفسي: «إن الولد لا يَهْجُم على أحد[1]، بل يَهْجُم على الأشياء، ولا يَلْبَثُ الولد

(١) لا يجوز أن يسمح للولد بأن يعارض الكبار، ولا من هم مساوون له، كما يعارض من هم دونه، وإذا ما أقدم على ضرب شخص ضرباً جدياً، ولو كان خادمه، ولو كان الجلاد، فدعوا المعتدى عليه يرد الضربات إليه مع الربا، حتى لا يعود إلى مثل ذلك أبداً، وقد رأيت من المربيات الغافلات من يثرن عناد الولد ويحرضنه على الضرب ويدعنه يضربهن فيضحكن من ضرباته الضعيفة غير مفكرات في كون =

أن يتعلَّمَ بالتجربة احترامَ من هو أكبرُ منه سِنًّا وأشدُّ قوةً ، بَيْدَ أن الأشياء لا تدافع عن نفسها بنفسها ، ولذا يجب أن تَقُوم الفكرة الأولى التى يُعْطَاها على المَلَكية أكثرَ مما على الحرية ، وهو لا بُدَّ من أن يكون مالكاً لشيء حتى تكون عنده هذه الفكرة » ، ولا فائدة من ذكر ثيابه وأمتعته ولُعَبِه له ، فهو ، وإن كان يتصرف فى هذه الأشياء ، لا يَعْرِف سببَ تَمَلُّكه لها ولا كيف تَمَلَّكها ، ولا طائلَ فى أن يُقال له إنه مَلَكها لأنه أُعْطِيَها ، وذلك لأنه لا بُدَّ من العطاء لوقوع التملك ، وهذا ، إذَنْ ، تملكٌ سابقٌ لتملكه ، وهذا هو مبدأُ التملك الذى يراد إيضاحُه له ، وهذا من غير حسابٍ لكون العطاء عقدًا ، ولكون الولد لا يستطيع أن يَعْرِف ما العقدُ أيضاً[1] ، فيا أيها القراء ، أرجو منكم أن تلاحظوا فى هذا المثال ، وفى مئة مثالٍ آخرَ ، كيف أنه يُعْتَقَدُ ، مع ذلك ، حسنُ تعليمِ الأولاد بشَحْنِ رؤوسهم بكلماتٍ لا معنى لها عند ما تكون فى متناوَلهم .

ولذلك يجب الرجوع إلى أصل التملك ، وذلك لوجوب صدور الفكرة الأولى عنه ، وإذا ما عاش الولد فى الأرياف فاز ببعض المعارف عن الأعمال الحقلية ، ولا يستلزم هذا غيرَ عيونٍ وفراغ ، وهما يَتَّفِقَان للولد ، ونحن فى كلِّ دَوْرٍ ، ولا سيما دورُ الطفولة ، نُرِيد الإبداعَ والتقليدَ والإنتاج وإبداء علاماتِ القوة والنشاط ، وهو لا يكاد يَرَى حَرْثَ الحديقةِ وبَذْرَ الخُضَر ونَبْتَها

= هذه الضربات هى ضربات قاتلة فى نية المانح الصغير ، وفى كون الصغير إذا أراد الضرب فى صغره أراد القتل فى كبره .

(١) هذا هو السبب فى كون معظم الأولاد يريدون استرداد ما يعطون ، وأنهم يبكون عند ما لا يراد رد ذلك إليهم ، وما كان هذا ليحدث لهم لو تمثلوا ما العطاء ، وهنالك يكونون أشد حذراً حينما يعطون .

ونُمُوَّها مرتين حتى يريد العَمَل فى الحدائق من ناحيته .

ولا أُعارِضُ رغبةَ الولد ، مطلقاً ، بالمبادئ المُقَرَّرة آنفاً ، وإنما أؤيدها ، وأقاسِمُه مَيْلَه ، وأَعْمَل معه ، لا من أجْلِ بَهْجَته ، بل من أَجْل بهجتى ، وهو يَظُنُّ هذا على الأقلّ ، وأُصبحُ عامِلَه البستانيَّ ، وأَحْرُثُ الأرضَ له رَيْثَما يصيرُ ذا ذراعين ، وهو يَحُوز الأرضَ بزَرْعِه فولًا ، ولا رَيْبَ فى أن هذه الحيازةَ أقدسُ ، وأدعى إلى الاحترام ، من حيازة نُونِس بَلْبُوَا لأمريكة باسم ملك إسپانية ، وذلك حين نَصَب علَمه على سواحل بحر الجنوب .

ويُؤْتَى لسَقْيِ الفُولِ كلَّ يومٍ ويُرَى نَبْتُه بفَرَحٍ كثير ، وأزيدُ هذا الفَرَحَ بقولى له : « هذا مالُك » ، وهنالك أشْرَح له معنى « مالُك » ، فأُشْعِرُه بأنه وَضَع هنالك وقتَه وعملَه وتَعَبَه ثم شخصَه ، وبأنه يُوجَدُ فى هذه الأرض شىءٌ من نَفْسه يُمْكِنُه أن يَدَّعِيَ به تجاه جميع العالَم ، وذلك كاستطاعته أن يَسْحَب ذراعه من يدِ رجلٍ آخرَ يريد إمساكَها على الرغم منه .

ويَصِلُ ذاتَ يومٍ مُسْرِعًا حاملًا مِرَشَّتَه ، فياله من منظر ! وياله من ألم ! فقد قُلِعَ جميعُ الفول ، وقد قُلِبَتْ جميع الأرض ، ولا يكاد الموضِعُ يُعْرَف ، وى ! ما دَهَى عملى وأثرى وثمرةَ عنايتى وعَرَقى ؟ مَنْ ذا الذى سَلَبنى مالى ؟ من ذا الذى أخذ فولى ؟ ويَثُورُ هذا الفؤادُ الفتىُّ ، ويأتى أولُ شعورٍ بالظلم لسكب مرارتِه الشَّجِيَّة ، وتسيل الدموع كالجدول ، ويَمْلَأ الولدُ الحزينُ بعويله وصُرَاخه الهواء ، ويُشَاطِرُ الولدُ ألمَه وغيظَه ، ويُتَلَمَّسُ ،

ويُسْتَعْلَمَ ، ويُدَقِّق فى الأمر ، وأخيراً يُعْلَمَ أن البستانىَّ هو الذى أنزل هذه الضربة ، فيُحْضَر .

ولكنْ ، ها نحن أولاء بعيدون من الصواب ، فقد عَلِمَ البستانىُّ بما يُشْتَكَى منه وأخذ يتوجّع بأشدَّ مما نتوجّع .

ماذا ! أنتم الذين أفسدوا عملى يا سادتى ! فقد زرعتُ شمّامًا مالطيًّا كنتُ قد أُعطِيتُ حَبَّه مثلَ كَنْزٍ فرَجَوْتُ أن أُطعمكم منه عند ما يَنْضَجُ ، ولكنكم أهلكتم شمّامى النابت الذى لا أُعَوَّض منه زارعين فولَكم الهزيل ، وقد اقترفتم خطأً لا يُتلافَى نحوى ، وقد حَرَمتم أنفسَكم لذةَ الأكل من الشمام الفاخر .

جان جاك : عَفْوًا ، يا رُوبِرْتُ البائسُ ، لقد وَضَعْتَ هنالك عملك وتعبَك ، وأرى جيداً أننا أخطأنا إذ أفسَدْنا صنعك ، ولكننا سنأتى ببَذْرٍ من مالطة ، ولن نَحْرُث أرضاً قبل أن نَعرِف هل وَضَعَ أحدٌ يدَه عليها قبلنا .

رُوبِرْتُ : وَيْ ! حسناً يا سادتى ، يُمْكنكم أن تستريحوا إذَنْ ، وذلك لأنه عاد لا يوجد من الأرَضين ما هو بُورٌ ، وأما أنا فإننى أحْرُثُ الأرضَ التى أصلحها أبى ، وكلٌّ يعمل عينَ الشىء من ناحيته ، وجميعُ الأَرَضين التى تَرَوْن مملوكةٌ منذ زمن طويل .

إميل : إذَنْ ، يوجد فى الغالب ، يا مسيو رُوبِرْت ، بَذْرُ شمّامٍ مفقودٌ ؟

روبرت : عفواً يا أُخَىّ ، وذلك أنه لا يأتينا من صغار السادة مَنْ

بلغوا مثلَ طَيْشِك في الغالب ، فلا أحدَ يَمَسُّ حديقةَ جاره ، وكلٌّ يحترم عمَلَ الآخرين حتى يطمئنَّ إلى عمله .

إميل : ولكنْ لا حديقةَ لي مطلقاً .

رُوبرت : وما أهميةُ ذلك ؟ إذا ما أفسدتَ حديقتي لم أدَعْكَ تتنزَّهُ فيها مطلقًا ، وذلك لأني لا أريد أن أخسر تعبي كما ترَى .

جان جاك : ألَا يُمْكِن عَرْضُ تسويةٍ على رُوبِرْتَ الصالح ؟ فليُعْطِني ، أنا وصديقي الصغير ، قطعةً من حديقته لِزَرْعها على أن يكون له نصفُ الغلّة .

رُوبِرْت : أُعطيكما إياها بلا شرط ، ولكن اذْكُرُوا أنني أذهب لقَلْبِ فولكما إذا ما لَمَسْتُما شَمَّامي .

ويُرى ، من هذه المحاولة في إدخال المعارف الابتدائية إلى ذهن الأولاد ، كيف أن مبدأ التملك يَرْجع بحكم الطبيعة إلى حَقِّ المالك الأول بالعمل ، وهذا واضحٌ صريحٌ بسيط ، وهو في متناوَل الولد دائماً ، ولا يُوجَدُ مِنْ هناك حتى حَقِّ التملك والمعاوضات غيرُ خُطْوَةٍ واحدة ، فإذا تمَّت وَجبَ الوقوف بلا زيادة .

ومما يُرَى ، أيضاً ، أن إيضاحاً أُدْرجه في صفحتين من الكتابة هنا سيَكون عملَ عامٍ في التطبيق ، وذلك لأنه لا يُمْكِن أن يُتقَدَّم في ميدان الأفكار الخُلُقية على مَهْلٍ بالغ ولا أن يُسَارَ بخُطًا راسخةٍ كثيراً . ويا شباب المعلمين فكِّرُوا في هذا المثال كما أرجوكم ، واذْكروا أن دروسكم في كلِّ أمرٍ يجب أن تكون أعمالاً أكثرَ منها أقوالاً ، وذلك لأن الأولاد يَنْسَوْن بسهولةٍ ما يقولون وما يقال لهم ، لا الذي يَصْنَعون ولا ما يُصْنَعُ لهم .

ودروسٌ كهذه مما يجب إعطاؤه عاجلاً أو آجلاً كما قلتُ ، وذلك وَفْقَ ما تقتضيه طبيعة التلميذ الهادئةُ أو المُزْبِدَة من تعجيلٍ أو تأجيلٍ للحاجة إليها ، وطريقُ استعمالها هو من الوضوح ما هو بادٍ لكلِّ ذي عينين ، ولكنْ لنأتِ بمثلٍ آخرَ لكيلا نُهْمِلَ شيئاً مهماً في الأمور الصَّعْبة .

ويُتلِفُ ولدُكم الشَّكِسُ كلَّ شيء يمَسُّه ، فلا تَغْضَبوا من هذا مطلقاً ، وإنما اجعلوا كلَّ ما يستطيع إتلافَه في مكانٍ لا تَصِلُ يدُه إليه ، وهو يَكْسِر الأمتعة التي يستعملها ، فلا تسرعوا في إعطائه بدلاً منها مطلقاً ، ودَعُوه يَشْعُر بأذى الحرمان ، وهو يَكْسِر زجاجَ نوافذ غرفته ، فدعوا الريح تَلطِمُه ليلَ نهار غيرَ مبالين بزكامه ، فلأن يصابَ بالزُّكام خيرٌ من أن يكون مجنوناً ، ولا تَشْكوا من إزعاجه لكم ، ولكن دَعُوه يكون أولَ من يَشْعُر به ، وأخيراً تَحْمِلون على إصلاح زجاج النوافذ من غير أن تقولوا شيئاً ، وإذا ما عاد إلى الكسر فغيروا الأسلوب ، وقولوا له بجفاء ، ولكن من غير غضبٍ : « إن النوافذ لي ، وهي قد وُضِعَتْ هنالك بجُهْدٍ مني ، فأُريد أن أصونها » ، ثم احْبِسُوه في مكان مظلم خالٍ من النوافذ ، ويَبْدأ بالصُّراخ والهياج عند هذه الطريقة الجديدة ، ولا يُصْغِي إليه أحد ، ولا يَلْبَث أن يَتْعب ويُغيِّر لهجته ، ويتوجع ، ويَئِنّ ، ويَحْضُر خادمٌ ، ويَرْجو العاصي منه أن ينقذه ، ويقول الخادم له من غير اعتذارٍ عن عدم تلبية طلبه : « لنوافذي زجاجٌ يجب أن أحافظ عليه » ، وينصرف ، وأخيراً ، بعد أن يَمْكُث الولدُ عِدَّةَ ساعاتٍ هنالك ، أي زمناً يكفي لسَأمه وانطباع ذلك في ذهنه ، يقترح عليه أحد الناس بأن يَعرِض عليكم عهداً تُعِيدون

به حريته ولا يعود إلى كسر زجاج النوافذ ، ولا يَطْلُب ما هو أحسنُ من هذا ، ويُرْسِل مَنْ يرجو منكم أن تأتوا لرؤيته ، وتجيئون ، ويُقَدِّم إليكم عهدَه ، وتوافقون عليه من فَوْرِكم قائلين له : « هذه فكرةٌ حسنة جدًّا ، ولكلانا كَسْبٌ فيها ، ولِمَ لَمْ تُبدِها باكراً ؟ » ، وتُقَبِّلونه فَرِحين غيرَ مطالبين إياه بتأييدٍ لوعده أو توكيدٍ ، وتأتون به إلى غرفته حالاً عادِّين هذا العهدَ مقدساً مَصُوناً كما لو وُكِّد بيمينٍ ، وتَرَوْن أىَّ فكرٍ ينال بهذه الطريقة عن الوفاء بالعهود وفائدتها ؟ أكون مخطئاً إذا وُجِدَ فى العالم ولدٌ واحدٌ ، غيرُ فاسدٍ سابقاً ، يستطيع المقاومة فيُقْدِم على كَسرِ زجاجِ نافذةٍ قَصْدًا ، وتَتَبَّعُوا سلسلةَ جميع هذا ، ولم يُبْصِر الخبيثُ الصغير أنه ، بإحداثه حُفْرَةً لزرع فوله ، كان يَحْفِر حُجَيْرَةً مظلمةً لا يُعَتِّم علمه أن يَحْبِسه فيها[1] .

ونحن الآن فى العالَم الخُلُقىِّ ، وها هو ذا البابُ مفتوحٌ للعيب ، ويُولَدُ الخداعُ والكذب مع العهود والواجبات ، ويُرَادُ كتمان ما وَجَبَ ألاَّ يُصْنَع منذ إمكان صنع ما يجب ألا يُصْنَع ، ومتى قضت المصلحة بالوعد أمكن

---

(١) وفضلا عن ذلك فإن هذا الواجب فى محافظة الولد على عهوده لا يرسخ فى روح الولد بفمل فائدته ، ولا يلبث الحس الباطنى أن ينمو فيفرضه عليه كقانون للضمير، كبدإ غريزى لا ينتظر نموه غير المعارف التى ينطبق عليها ، ولم يرسم هذا الخط الأول بيد الناس ، بل نقش فى قلوبنا من قبل صانع كل عدل ، وأزيلوا قانون العهود الابتدائى والالتزام الذى يفرضه تجدوا كل شىء فى المجتمع البشرى وهمياً باطلا ، ومن لم يحافظ على وعده إلا عن منفعة له فإنه لا يكون مرتبطاً فيه بأكثر مما لو كان لم يعط وعداً قط ، أو إنه يكون فى القدرة على نقضه كالمقامرين الذين لا يتريثون فى الاستفادة من تفوقهم إلا ليرقبوا الدقيقة التى يزيدون فيها كسبهم ، وهذا المبدأ من الأهمية بمكان عظيم ، وهو يستحق كل تعمق ، وذلك لأن الإنسان يأخذ فى مناقضة نفسه هنا .

مصلحةٌ أعظمَ منها أن تَحْمِل على نقض الوعد ، ولا تكاد المسئلة تقوم على نقضه بلا عقاب ، فالوسيلةُ طبيعية ، وذلك أنه يُكْتَتَم أو يُلْجَأ إلى الكَذِب ، ونحن إذْ لم نستطع منعَ العيب فإننا نكون فى وَضْع من يعاقِب العيبَ كما ترى ، وهذه هى أبْؤسُ الحياة البشرية التى تبدأ مع زَلاَّتها .

وقد قلتُ ما فيه الكفاية لإثباتى عدمَ وجوبِ فرضِ العِقاب على الأولاد للعِقاب ، وإنما لينالوه كنتيجةٍ طبيعية لسوء ما يَفْعَلون ، وهكذا فإنكم لا ترفعون عقيرتكم فى وَجْه الكَذِب مطلقاً ، ولا تجازونهم على كذبهم ضبطاً ، ولكنكم تَصُبُّون على رؤوسهم جميع نتائج الكذب عند ما يكذبون ، كما لو كنا لا نُصَدَّق عند قولنا الحقّ ، وكنا نُتَّهَمُ بشرٍّ لم نفعله قطُّ ، على الرغم من دفاعنا ، ولكن لنوضح معنى الكذب عند الأولاد .

ويوجد للكذب نوعان : فالنوعُ الأول يقوم على الوقائع فى الماضى ، ويقوم النوعُ الثانى على الحق فى المستقبل ، ويَحْدُث النوعُ الأول عند إنكار فِعْلِ ما فُعِل أو توكيد فعلٍ لم يُفْعَل ، أى أن يحْدُث ، على العموم ، وعن علمٍ ، خلافَ حقيقة الأمور ، ويَحْدُث النوع الثانى عند ما يُوعَدُ بما يُقْصَد عدَمُ القيام به ، أى أن تُبْدَى ، على العموم ، نيَّةٌ مخالفة لِمَا فى النفس ، ويُمْكِن نوْعَى الكذب هذيْن أن يجتمعا فى واحدٍ (١) أحياناً ، ولكنى أنظر إليهما هنا بما ينطويان عليه من اختلاف .

ومن يَشْعُر باحتياجٍ إلى مساعدة الآخرين ، ولم ينفكّ يَشْعُرُ بعطفهم ،

---

(١) وذلك كحال المذنب المتّهم بإحدى القبائح فيدافع عن نفسه بقوله إنه رجل صالح ، فهو بهذا يكذب فى الوقائع وفى الحق .

لا تكون لديه مصلحةٌ فى مخادعتهم ، وهو ، على العكس ، ذو مصلحةٍ ملموسةٍ فى رؤيتهم الأمورَ كما هى ، وذلك خشيةَ أن يُخْدَعوا فيصيبَه ضررٌ ، ولذا فإن من الواضح أن الكذب فى الوقائع غيرُ طبيعىٍّ فى الأولاد ، وإنما دستورُ الطاعة هو الذى يؤدى إلى ضرورة الكذب ، وذلك لأن الطاعة ، إذْ كانت شاقّةً يُتخلَّصُ منها خِفْيةً ما أمكن ، ولأن المصلحة الحاضرة فى اجتناب العقاب والعتاب تَفوق المصلحةَ البعيدة فى قَوْل الحقِّ ، ولِمَ يَكْذِبُكم ولدُكم فى التربية الطبيعية الحرة إذَنْ ؟ وما لديه ما يكتم عنكم؟ أنتم لا تلومونه مطلقاً ، أنتم لا تعاقبونه على شىء ، ولا تطالبونه بشىء ، فَلِمَ لا يقول لكم جميعَ ما صَنَع بسذاجةٍ كما يقول لرفيقه الصغير؟ لا يُمْكِن أن يَرَى فى هذا الاعتراف خطراً أكبرَ مما فى عدمه .

والكذبُ عن حقٍّ أقلُّ قُرْباً إلى الطبيعة ما دام الوعدُ بالعمل أو الامتناعُ عن العمل من الأفعال العَهْدية الخارجة عن حال الطبيعة والمخالفةِ للحرية ، وذلك فضلاً عن كون عهود الأولاد باطلةً بنفسها نظراً إلى أن بصرهم المحدود لا يُمْكِن أن يمتدّ إلى ما وراء الحاضر ، فلا يَعْرِفون ما يفعلون إذا ما أَلْزَمُوا أنفسهم بأمر ، ولا يكاد الولد يَكْذِب إذا ما ألزم نفسه ، وذلك أنه لا يُفكِّر فى غير التخلص من ورطةٍ فى الساعة الحاضرة فتتساوى عنده جميعُ الوسائل التى لا يكون لها أثرٌ حاضر ، وهو إذا ما وَعَدَ لزمنٍ قادمٍ لم يَعِدْ شيئاً ، وما كان خيالُه الذى لا يزال راقداً ليَعْرِف أن يَمُدَّ وجودَه إلى زمنين مختلفين مطلقاً ، فإذا ما استطاع اجتنابَ السَّوْط أو نَيْلَ قُرْصٍ من السُّكَّر بأن يَعِدَ بإلقاء نفسه من النافذة غداً وَعَدَ بذلك من فَوْره ، وهذا هو السبب

فى كون القوانين لم تلتفت إلى عهود الأولاد ، وإذا حَدَث أن طالبهم الآباء والمعلمون بأن يَفُوا بعهودهم وشَدَّدوا كان هذا مقصوراً على ما يجب أن يفعله الولد ولو لم يَعِدْ به .

وبما أن الولد لا يَعْرِف ما يَفْعَلُ حينما يُلزِم نفسه فإنه لا يستطيع أن يَكْذِب حينما يُلزِم نفسه إذَنْ ، وليس الأمرُ هكذا عند عدم وفائه بعهده ، وهذا ضربٌ من الكذب سارٍ على ما قَبْلَه ، وذلك أنه يَذْكُر جيداً أنه قام بهذا العهد ، ولكن الذى لا يُبْصِر هو أهمية الوفاء به ، وهو إذ كان لا يستطيعُ أن يُبصِرَ المستقبلَ فإنه لا يستطيع أن يُبْصِرَ نتائجَ الأمور ، وهو إذا ما أخلَّ بالتزاماته لم يَصْنَعْ شيئاً مخالفاً لداعى سِنِّه .

ومن ثَمَّ يُرَى أن كذب الأولاد من عمل المعلمين ، وأن الرغبةَ فى تعليمهم قولَ الصدق ليست شيئاً آخرَ غيرَ تعليمهم الكذب ، ولا تَجِدُون فى غيْرتكم أن تُنَظِّمُوا أمورَهم وتَرْقبُوهم وتَعلِّمُوهم من الوسائل ما يَكْفى للنجاح ، وتريدون أن تكونوا ذوى نفوذٍ طريفٍ فى نفوسهم بمبادئَ لا أساسَ لها وبقواعدَ خاليةٍ من الصواب ، وتُفَضِّلون أن يَعْرِفوا دروسَهم وأن يَكذبوا على أن يَبْقَوْا جاهلين وصادقين .

وأما نحن ، الذين لا يُلْقُون على تلاميذهم غَيرَ دروسٍ عملية ، والذين يُفَضِّلُون كونَهم صالحين على أن يكونوا عالِمين ، فإننا لا نطالبهم بالصدق مطلقاً خشيةَ أن يكتموه ، ولا نَحْمِلُهم على الوعد بشىء يحاولون عدمَ الإيفاء به ، وإذا وَقَع ضررٌ فى غِيَابى لا أعْرِف فاعلَه احترزتُ من اتهام إميلَ أو من قولى له :

« أأنت فعلتَ هذا ؟ »[1] ، وذلك لأنني ما أصنعُ بهذا غيرَ تعليمه إنكار ذلك ؟ وإذا كان طبعُه الصعبُ يحمِلُني على وضع عهدٍ معه فإنني أتخذُ من التدابير ما يؤدي إلى صدور اقتراح ذلك عنه ، لا عني مطلقاً ، وهو إذا ما ألزم نفسه كانت لديه مصلحةٌ حاضرة ملموسةٌ في القيام بعهده ، وهو إذا ما أخلَّ به جلب هذا الكذبُ له من الأضرار ما يُبْصِرُ ظهورَه من نظام الأمور نفسِه ، لا من انتقام مُرَبِّيه ، ولكنني ، إذ أبتعد عن ضرورة الالتجاء إلى مثل هذه الوسائل الجافية ، أكاد أطمئن إلى أن إميل سَيَعْلَمَ مؤخَّراً ما الكذب ، وهو إذ يَعْلَمُه يعتريه دَهَشٌ من عدم استطاعته أن يتصور وجودَ فائدةٍ في الكذب ، ومن الواضح جدًّا أنني كلما جعلت هناءته مستقلةً عن إرادة الآخرين وأحكامهم قطعتُ عنه كلَّ منفعةٍ في الكذب .

وإذا لم نتعجَّل التعليمَ لم نتعجَّل في السؤال مطلقاً ، ولم نطالب بشيء في غير الوقت المناسب ، وهنالك يتكوَّن الولد بما لا يَفْسُد معه أبداً ، ولكن المعلمَ إذا كان من الطيش ما لا يَعرِف معه كيف يقوم بعمله فيحمل تلميذَه على الوعد بهذا أو ذاك بلا تمييز ولا خيارٍ ولا قياس فإن الولد ، الذي يكون قد أمَلَّتْه هذه الوعودُ وأثقلته ، يُهْمِلها وينساها ويزدريها في آخر الأمر ، وهو إذْ يَعُدُّها صِيَغاً فارغة فإنه يَتَلهَّى بصُنْعها ونَقْضِها ، فإذا أردتم أن يكون مخلصاً في الإيفاء بوعوده فكونوا فُطُناً في مطالبته بها .

---

(١) لا شيء أبعد من الصواب كهذه الأسئلة ، ولا سيما عندما يكون الولد مذنباً ، وذلك أنه إذا اعتقد أنكم تعرفون ما صنع أبصر أنكم تنصبون له شركاً ، ولا تخلو هذه الفكرة التي تساوره من أن تقلقه ضدكم ، وهو إذا لم يعتقد ذلك قال في نفسه : « لم أبوح بذنبي ؟ » ، وهكذا تكون هذه المحاولة الأولى في الكذب نتيجة سؤالكم الطائش .

وما أتيتُ من تفصيلٍ حوْل الكذب يُمكِن أن يطبَّق ، من نواحٍ كثيرة ، على جميع الواجبات الأخرى التي لا تُفْرَض على الأولاد إلّا لتكون بغيضةً غيرَ عمليةٍ لديهم ، وهم يُحْمَلُون على حبٍّ جميع العيوب ليُظهَرَ بمَظْهر الواعظ لهم بالفضيلة ، وهم يُعطَوْنها بمنعهم من حيازتها ، وإذا أُريد جعلُهم أتقياء أُتِيَ بهم إلى الكنيسة ليُحْمَلُوا على الدَّنْدَنة بالصلوات ، فيُلْجأُوا إلى ابتغاء السعادة في عدم دعوة الرَّبِّ ، وهم ، لكي يُوحَى إليهم بحبِّ الخير ، يُلْزَمون بإعطاء الصدقة كما لو كنتم تزدرون إعطاءها بأنفسكم ، حَسَناً ! فالمعلمُ لا الولدُ ، هو الذي يجب أن يُعطِيَ ، ومهما بَلَغَ المعلمُ من حُبِّه لتلميذه وَجَبَ أن ينازعه هذا الشرف ، أي يجب أن يَحْمِلَه على الحكم بأن من هو في سِنِّه ليس أهلًا لذلك ، وذلك لأن الصدقة عملُ رجلٍ يَعرِف قيمةَ ما يُعطِي وحاجةَ الناس إليها ، ولا يُمكِنُ الولدَ ، الذي لا يَعرِف شيئاً من هذا ، أن يكون ذا مزيةٍ في العطاء ، وذلك أنه يُعطِي عن غير خيرٍ ولا حسنة ، وهو يكون على استحياء في العطاء تقريباً عند ما يعتقد ، مستنداً إلى مثاله ومثالكم ، أنه لا يوجد غيرُ الأولاد من يُعطِي ، وأنه لا صدقةَ بعد أن يَكْبُرُوا .

واعلَمُوا أن الولد لا يُحْمَلُ على إعطاء شيء غيرِ ما يَجْهَلُ قيمتَه ، أي غيرِ قِطعٍ معدنية يَحْمِلُها في جيبه فلا تَنفَعُه في غيرِ هذا ، ويُفَضِّل الولد إعطاء مئة دينارٍ على قطعةٍ من الحَلْوَى ، ولكن حَرِّضوا هذا الموزِّعَ المُبَذِّر على إعطاء الأشياء العزيزةِ عليه كلُعَبه ومُلْبَسه وغَدائه لنَعلَمَ من فَوْرِنا هل جعلتموه كريماً .

وتُوجَدُ تجربةٌ أُخرى لذلك أيضاً ، وهي أن يُبادَرَ إلى إعادة ما أُعْطَى

الولد ، وذلك أن يُعَوَّد إعطاء كلِّ ما يَعْلَم جيداً أنه يَعُود إليه ، ولم أرَ في الأولاد ، قَطُّ ، غيرَ هذين النوعين من الكرم ، وهما : أن يُعطُوا ما هو غيرُ صالحٍ لشيء عندهم ، أو أن يُعطُوا ما يعتقدون أنه يُعاد إليهم ، ويقول لُوكُ : « اصْنَعُوا ما يَقْنَعُون معه ، عن تجربةٍ ، بأن الأكثرَ سخاءً هو الأكبرُ حِصةً دائمًا » ، وهذا ينطوى على جعل الولد سخيًّا ظاهراً وبخيلًا حقيقةً ، وإلى ذلك يُضيفُ لُوكُ قولَه : « وهكذا يألَف الأولاد عادةَ الكَرَم » ، أجَلْ ، كرمٌ مُرْبٍ يقوم على إعطاء بَيْضَةٍ نيلاً لبقرة ، ولكن قُلْ السلامَ على العادة إذا ماقام الأمر على عطاء حقيقىّ ، وإذا ما كُفَّ عن الإعادة كُفَّ عن العطاء حالاً ، ويجب أن يُنْتَبَه إلى عادة الروح أكثر مما إلى عادة الأيدى ، وتشابه هذه جميع الفضائلِ الأخرى التى يتعودها الأولاد ، وفى سبيل وَعْظِهم بهذه الفضائل المتينة يُفْنَى شبابهم فى الغمِّ ! فيالها من تربية حكيمة .

ويا أيها الأساتذة ، دَعُوا الرِّئاء ، وكُونوا فُضَلاء صالحين ، فتَنْقَشَ أَمثلتُكم فى ذاكرة تلاميذكم رَيْثَمَا يُمْكنها أن تَدْخُلَ فى قلوبهم ، وأُفَضِّلُ أن أقوم بأعمال البِرِّ أمام تلميذى على المبادرة بمطالبته بها ، وأن أَنْزِعَ منه حتى وسيلة اقتدائه بى فيها كشرفٍ خاصّ بسِنِّه ، وذلك أن من المهمِّ ألّا يتعوَّد عَدَّ واجباتِ الرجال كواجباتِ الأولاد فقط ، وإذا ما رآنى أساعد الفقراء وسألنى عن ذلك أجبتُه بعد حينٍ بما يأتى[1] : « عند ما أراد الفقراء ، يا صديقى ،

(١) ليعلم أننى لا أحل مسائله متى يريد ، بل متى أريد ، وإلا جعلت نفسى خاضعاً لرغباته ، ووضعت نفسى فى أخطر موضع من التبعية يمكن أن يقع فيه مؤدب نحو تلميذه .

وجودَ أغنياء وَعَدَ الأغنياء بإطعام جميع من ليس لديهم ما يعيشون به سواء أبأعمالهم أم بعملهم » ، ويَرُدُّ التلميذُ بقوله : « إذَنْ ، أنت وعدتَ بهذا » ، ويقول المعلم : « أجَلْ ، لستُ صاحبَ المال الذى يَمُرُّ من يدى إلّا بشرطٍ متعلقٍ بتملكه » .

وبعد أن يَعِيَ ولدٌ غيرُ إميلَ هذا الكلامَ ، وقد رأينا كيف يُمكِن جعلُ الولدِ فى حالٍ يَعِيه فيه ، سيحاوِل الاقتداء بى ، وسيسير مِثْلَ رجلٍ غنىّ ، وفى هذه الحال سأمنع وقوعَ هذا مع تَبَاهٍ ، فأُفَضِّلُ أن يختلس منى امتيازى وأن يستتر فى العطاء ، وهذا خِتَالٌ من قبله ، وأُغْضِى عن هذا وحده .

وأَعْرِف أن جميع هذه الفضائل عن اقتداء هى فضائلُ قردٍ ، وأن العملَ الصالح لا يكون صالحاً خُلُقيًّا إلّا إذا صُنِعَ هكذا ، لا لأن الآخرين يصنعونه ، وأما فى السِّنِّ التى لا يَشْعُرُ القلب فيها بشىء بَعْدُ فيجب حملُ الأولاد على تقليد الأعمال التى يُرَاد تعويدُهم إياها ريثما يستطيعون صنعَها عن تمييز الخير وحُبِّه ، والإنسانُ مقلدٌ ، والحيوانُ مقلدٌ أيضاً ، وحبُّ التقليد من عمل الطبيعة الحسنةِ التنظيم ، ولكنه يَنْحَطُّ فى المجتمع إلى عيب ، ويُقَلِّدُ القردُ الرجلَ الذى يَخْشَى ، ولا يقلد الحيواناتِ التى يَزْدَرِى ، وهو يرى حسناً ما يَصْنَعه موجودٌ خيرٌ منه ، وعلى العكس يُقَلِّدُ مُهَرِّجونا ، على أنواعهم ، كلَّ ما هو جميلٌ حَطًّا له ، تحويلاً له إلى مهزأة ، وهم يحاولون بشعورهم السافل مساواةَ من هم أفضلُ منهم ، أو يَسْعَوْن أن يُقَلِّدوا من يُعْجَبُون بهم ، ويتجلّى ذوقُهم الفاسد فى اختيار النماذج ، وهم يُفَضِّلُون أن يُمَوِّهوا على الآخرين ، أو أن يَحْمِلوا على الهُتَاف لنبوغهم ، على أن يكونوا أحسنَ حالاً أو أكثرَ حكمةً ، وتَجِدُ

أساسَ التقليد بيننا فى رغبتنا أن ننتقل إلى خارج أنفسنا ، وإذا ما كُتِبَ لى التوفيق لم تساورْ إميلَ هذه الرغبةُ لا رَيْبَ ، ويجب ، إذَنْ ، أن نمتنع عن الخير الظاهر الذى يُمْـكِن أن تؤدىَ إليه .

وتَقَصَّوْا قواعدَ تربيتكم تَجِدُوها كلَّها مخالفةً للصواب ، ولا سيما ما هو خاصٌ منها بالفضائل والأخلاق ، ويقوم درسُ الأخلاق الوحيدُ الذى يلائم الولدَ ، والذى هو أهمُّ ما فى أدوار الحياة ، على عدم إساءة أحد ، حتى إن مبدأ صُنْع المعروف خَطِرٌ فاسدٌ متناقض إذا لم يكن تابعاً لذلك ، ومن ذا الذى لا يَصْنَع المعروفَ ؟ جميعُ النـاس يصنعونه ، يَصْنَعُه الشِّرِيرُ كغيره ، وإنما يَجْعَـل إنساناً سعيداً على حساب مئة بائس ، ومن هنا تأتى مصائبنا كلُّها ، وجميعُ أرفع الفضائل سلبيةٌ ، وهى أصعبُها أيضاً ، وذلك لخُلُوِّها من كلِّ افتخار ، ولأنها فَوْق تلك الرغبة ، الـكثيرةِ الحلاوة على قلب الإنسان ، فى جعل إنسانٍ آخرَ راضياً عنا ، وَىْ ! يا لَلْمَعْرُوف الذى يصنعه الواحد نحو أمثاله ، عند وجود هذا الواحد ، بعدم إيذائهم ! وأىُّ رباطةِ جأشٍ ، وأىُّ متانة خُلُقٍ ، يحتاج إليهما فى هذا السبيل ! وليس فى الحديث حَوْل هذا المبدأ ، بل فى محاولة تطبيقه ، ما يُشْعِرُ بمقدار ما يقتضيه النجاحُ به من همةٍ ومشقة[١] .

---

(١) يتضمن مبدأ عدم الإضرار بأحد مطلقاً أعظم استقلال ممكن عن المجتمع البشرى ، وذلك لأن نفع الواحد فى الحال الاجتماعية يعنى ضرر الآخر بحكم الضرورة ، وهذه النسبة هى من جوهر الأمور ، ولا شىء يستطيع تبديلها ، وليبحث على نور هذا المبدأ فى أى الرجلين أصلح من الآخر : آلرجل الاجتماعى أم الرجل المعتزل ؟ ويقول مؤلف مشهور إنه لا يوجد غير الشرير من يكون وحده ، وأما أنا فأقول إنه لا يوجد غير الصالح من يكون وحده ، وإذا كانت هذه القضية أقل صلاحاً للحكم فإنها أكثر حقيقة من الأولى وأعظم صواباً منها ، وإذا كان الشرير معتزلا فأى شر يأتيه ؟ فى المجتمع ينصب حبائله ضرراً بالآخرين ، وإذا أريد قلب هذا البرهان على رجل الخير فإننى أجيب عن هذا بالنص الخاص بهذا التعليق .

وتلك بعضُ آراء طفيفة عن الاحتياطات التى أردتُ أن يُمنَحَ الأولادُ بها من المعارف ما لا يُمكِن أن يُحبَس عنهم أحياناً من غير أن يُعَرِّضوا هم أو غيرُهم للضرر ، وأن يَألَفُوا من العادات ، على الخصوص ، ما يَصْعُبُ إصلاحُه فيما بعد ، ولكنْ لِنَثِقْ بأن من النادر أن تَبْدُوَ هذه الضرورة للأولاد التى نُشِّئوا كما يجب ، وذلك لأن من المتعذر أن يصبحوا أعِقَّةً أشراراً كاذبين جَشِعين إذا لم يُبْذَرْ فى قلوبهم من النقائص ما يَجْعَلُهم هكذا ، وهكذا فإن ما قلته حَوْلَ هذه النقطة يَصْلُح للشواذِّ أكثرَ مما للقواعد ، غير أن هذه الشواذَّ تكون كثيرةَ الوقوع بنسبة ما تَكْثُر الفُرَص لدى الأولاد للخروج من حالهم وتعوُّدهم نقائصَ الرجال ، وتَقْضِى الضرورة بأن يكون عند من يُنَشَّأون بين الناس من المعارف المُعَجَّلَة أكثر ممن يُنَشَّأون فى العزلة ، ولِذَا تُفَضَّلُ هذه التربية الاعتزالية ولو لم تُؤَدِّ إلى غير منح الأولاد وقتاً يَنْضَجُون فيه .

وللشواذِّ نوعٌ آخرُ تخالِف به ذلك النوعَ خاصٌّ بمن هم من يُمْنِ الطبيعة من يَعْلُون مستوى عُمرهم ، فكما أنه يُوجَدُ رجالٌ لا يَخْرُجون من الوُلُودية يُوجَدُ مِن الرجال من لا يَمُرُّون منها مطلقاً ، لأنهم يولدون رجالاً تقريباً ، والحَرَجُ فى كون هذا الشاذِّ الأخير نادراً جدًّا ، وفى صعوبة معرفته ، وذلك أن كلَّ أمٍّ تَتَصورُ إمكانَ كونِ الولد نادرةَ الزمان فلا يُخامِرها شكٌّ فى كون ولدها هكذا ، وذلك أن الأمهاتِ يَفْعَلن أكثرَ من ذاك ، فهن يَحْسَبْنَ من العلائم الخارقة للعادة ما يدلُّ على النظام المعتاد ، كالنشاط والحِدَّة والطيش والسذاجة المُلْهِية ، أى ما يُعَدُّ أحسنَ دليلٍ على أن الولدَ ليس سوى ولد ،

وهل من العجيب أن ينشأ لقالا مُوَفَّقٌ ، مصادفةً ، عمن يُحْمَل عَلَى الكلام كثيراً ويُسْمَحُ له بقول كلِّ شيء من غير أن يضايَق باعتبارٍ ولا لِياقه ؟ هو يكون فى عدم إصابته الهَدَف كالمُنَجِّم الذى يأتى ألفَ أُكْذوبةٍ من غير أن يخبر بأمرٍ حقيقىّ مرةً واحدة ، وكان هنرى الرابع يقول إنهم يأتون من الأكاذيب الكثيرة ما يقولون الصدق معه فى نهاية الأمر ، وليس على من يريد أن يَجِدَ بعضَ الكلمات الصالحة إلاَّ أن يقول كثيراً من التُّرَّهات ، واللهُ يَحْفَظُ من السوء جميعَ من يكونون على الموضَة * فلا يكون لديهم من المؤهلاتِ ما يُعيِّدون به غيرُ هذا .

ويُمْكِن أسطعَ الأفكار أن تَهبِطَ فى دماغ الأولاد ، وإن شئت فقل إن أروع الكلمات يُمْكِن أن تَخْرُج من أفواههم ، وذلك كوجود أثمن الألماس فى أيديهم ، وذلك من غير أن يدلّ هذا على كون الأفكار والألماس مُلْكاً لهم ، فلا مُلْكَ حقيقىّ لِمَنْ هم فى هذه السِّنّ أيًّا كانوا ، وليست الأمور التى يُحَدِّثنا عنها الولد فى نظر هذا الولد مثلَ ما عندنا ، ولا يَقْرِن الولد بها من الأفكار ما نَقْرِن ، ولا يكون لهذه الأفكار فى رأسه ، إذا ما وُجِدَ منها ، أىُّ ترتيبٍ ولا ارتباطٍ ولا ثباتٍ ولا رسوخٍ فى جميع ما يُفكِّر ، وإذا ما أنعمتم النظر فى نادرتكم المزعوم وجدتم له فى بعض الأحيان نابضاً بالغ النشاط وروحاً لَمَّاعاً يَخْرُق السحاب ، ويَبْدُو هذا الرُّوحُ لكم ، فى الغالب ، متوانيًا نادياً كأنه محاطٌ بضَباب كثيف ، فتارةً يَسْبِقكم وتارةً يبقى ساكناً ، وتقولون ثانيةً إنه عبقرىٌّ ، وتقولون بعد ثانيةٍ إنه غبىٌّ ، وتخطئون دائماً ،

---

* A la mode

وذلك أنه ولدٌ، وذلك أنه فَرْخ نَسْرٍ يَشُقُّ الهواء ليَسْقُط فى وَكْرِه بعد ثانية .

إذَنْ ، عامِلوه وَفْقَ سِنِّه على الرغم من الظواهر ، واخْشَوْا أن تستنفدوا قُوَاه قاصدين تَمرينَها كثيراً ، وإذا ما حَمِيَ هذا الدماغُ الفَتِيُّ ، وإذا ما أبصرتم أنه أخذ يَفورُ فدَعُوه يَثُور طليقاً ، ولكن لا تُهَيِّجُوه مطلقاً خشيةَ أن يتصاعد كلُّه ، ومتى أخذت الغازات الأولى تتبخر فأمسكوا الأخرى واضغطوها ، وذلك حتى يتحوَّل الجميع ، مع السنين ، إلى حرارةٍ مُنْعِشَة وقوة حقيقية ، وإلاَّ أضعتم وقتكم وقضيتم على عملكم الخاصِّ ، وإنكم بعد أن تَسْكَرُوا بجميع هذه الغازات الملتهبة بلا فِطنة لم يَبْقَ لكم غيرُ ثُفْلٍ بلا حَوْل .

ويَنْشَأُ ذوو الطَّيْش من الأولاد رجالاً عاديين ، ولا أعْرِف ملاحظةً أعمَّ من هذه ولا أعظمَ ثبوتاً ، ولا شيء أصعبُ فى الوُلودية من أن يُفرِّق بين الغباوة الحقيقية والغباوة الظاهرة الخادعة التى هى إعلانُ النفوس القوية ، ومما يَبْدُو غريبًا أولَ وهلة أن يكون لِلحَدَّيْن المتناهيين علائمُ بالغةُ المشابهة ، وهذا ما يجب أن يكون مع ذلك ، وذلك أن كلَّ فرقٍ بين من يكون ذا نبوغٍ وبين من لا يكون يقوم ، فى دَوْر العُمُر الذى لا يكون للإنسان فيه أيُّ فكر حقيقيّ ، على كَوْنِ الأخير لا يَتقَبَّل غيرَ أفكارٍ فاسدة وعلى كون الأول لا يَتقبَّل أيَّ واحد من هذه الأفكار لِمَا لم يَجِدْ سواها ، ولذا فهو يشابه الغبيَّ من حيث كَوْنُ الغبيِّ غيرَ قادر على شيء ، وكَوْنُه ، أى الأول ، لا يلائمه أيُّ شيء ، ويتوقف الفارقُ الوحيد ، الذى يُمْكِن أن يَميزَ أحدَهما من الآخر ، على المصادفة التى تستطيع أن تعرِض على الأخير أفكاراً تكون

فى متناوله على حين يكون الأول هو إياه فى كلِّ مكان ، وكان الفتى كاتون يشابه ، وهو ولدٌ ، بليداً فى المنزل ، وقد كان صموتاً عنيداً ، وهذا هو كلُّ الرأى الذى كان يُحْمَلُ عنه ، وليس فى غير غرفة استقبال سيلاَّ ما استطاع عمُّه أن يَعْرِف حقيقةَ أمره ، ولو لم يَدْخُلْ هذه الغرفةَ ، قطُّ ، لَعُدَّ شَرِساً حتى سنِّ الرُّشد ، ولو لم يَظهرْ قيصرُ ، قَطُّ ، لعُدَّ صاحبَ أوهامٍ دائماً كاتونُ هذا ، كاتونُ نفسُه ، الذى نَفَذَ إلى عبقريته المشؤومة وأبصر جميعَ خِططه من بعيد ، ويا لكثرةِ ما يُعرَّض له من خطإ أولئك الذى يَحْكُمون فى أمر الأولاد على عجَل ! فهم أولادٌ أكثرُ منهم غالباً ، وممن أبصرتُ فى سِنٍّ متقدمةٍ بعضَ التقدم رجلٌ شرفنى بصداقته ، عُدَّ فى أُسْرته وبين أصدقائه محدودَ الذكاء ، فهذا الرأسُ الممتاز كان يَنْضَجُ نَضْجاً صامتاً ، وَيَبْدُو فيلسوفاً بغتة ، ولا رَيْب عندى فى أن الأعقاب ستعطيه مكاناً كريماً ممتازاً بين أحسن مفكرى عصره وأعمقهم فى ما بعد الطبيعة .

واحترموا الوُلودية ، ولا تستعجلوا الحكمَ فيها مطلقاً ، خيراً كان هذا الحكمُ أو شرًّا ، ودَعُوا الشواذَّ تدلُّ على نفسها ، وتُثْبِتُ نَفْسَها ، وتُوَكِّد نفسَها ، زمناً طويلاً قبلَ أن تُتَّخَذَ لها مناهجُ خاصةٌ ، ودَعُوا الطبيعةَ تَعْمَلُ طويلاً قبلَ أن تُعْنَوْا بالعمل بدلاً منها ، وذلك لكيلا تعاكسوا أعمالَها ، وأنتم تقولون إنكم تَعْرِفون ثمن الوقت ولا تريدون ضَياعَ شيء منه مطلقاً ، وأنتم لا تَرَوْن أن ضَياعه مع سوء استعمالٍ أكثرُ من ضَياعه مع عدم صُنْع شيء ، وأن الولد السِّيِّئَ التعليم أقلُّ حكمةً من الولد الذى لا يُعَلَّمُ شيئاً ، ومما يُذْعِرُكم أن تَرَوْه يَسْتَنْفِدُ سِنِيه الأولى فى عدم عمل شيء ،

ماذا ! أليس من السعادة أن يَثِبَ ويَلْعَب ويَعْدُوَ اليومَ كلَّه ؟ لن يكون في حياته كثيرَ الأشغال بمثل هذا المقدار ، وأفلاطونُ ، في جُمهوريته التى يُعْتَقَدُ أنها بالغةُ الصَّرامة ، لا يُرَبِّى الأولاد إلاَّ فى الأعياد والألعاب والأغانى والملاهى ، ويَظْهَرُ أنه صَنَعَ كلَّ شىء حينما أجاد فى تعليمهم البهجةَ ، وقد قال سِنيكا عند ما تكلم عن الشبيبة الرومانية : « إنها قائمةٌ دائماً ، ولم تُعَلَّم من الأمور ما تتلقاه وهى قاعدة » ، وهل أصبحت أقلَّ قيمةً عند ما بلغت سنَّ الرُّجُولة ؟ أَوَتَخْشَوْن ، إذَنْ ، هذه البِطالةَ المزعومة ؟ وما تقولون عن رجلٍ لا يريد أن ينام ليتمتع بجميع الحياة ؟ تقولون : « إن هذا الرجلَ أحمقُ ، فهو لا يستفيد من الوقت ، وهو يَحْرِم نفسَه قسماً منه ، وهو يَرْكُض نحو الموت بفِراره من النوم » ، واعْلَمُوا ، إذَنْ ، أن الأمر هنا هو هو ، فالوَلَودِيةُ هى نوم العقل .

وسهولةُ التعلم الظاهرةُ سببُ خسران الأولاد ، ولا تُرَى هذه السهولة نفسُها دليلاً على أنهم لا يتعلمون شيئاً ، ويشابه دماغُهم الأملسُ الصقيلُ المرآةَ فى انعكاس ما يُعْرَض عليه من الأشياء ، ولكنْ لا شىء يَبْقَى ، ولا شىء يَنْفُذُ ، والولدُ يحفظ الألفاظَ ، والألفاظُ تَنْعَكس ، ويُدْرِكها سامعوه ، وهو وحدَه لا يدرِكها .

ومع أن العقل والذاكرة خاصِّيَّتان مختلفتان جوهراً فإن إحدى هاتين الخاصيتين لا تَنْمُو إلا مع الأخرى فى الحقيقة ، ولا يتلقى الولد أفكاراً قبل سِنِّ الرشد ، وإنما يتلقى صُوراً ، ويتجلَّى الفرقُ بين الأمرين فى كَوْن الصُّوَر ليست غيرَ ألواحٍ مطلقةٍ للأشياء الحسية وفى كَوْن الأفكارِ مفاهيمَ

للأشياء تُعَيِّنُ بما بينها من علاقات ، وقد تكون الصورة وحدَها فى الذهن الذى يتمثلها ، وأما كلُّ فكر فيفترض أفكاراً أخرى ، ومتى تَصَوَّرنا أبصرنا فقط ، ومتى فَكَّرْنا قابلنا ، وإحساساتُنا منفعلةٌ مَحْضاً ، على حين تَصْدُر جميع إدراكاتنا أو أفكارِنا عن مبدأٍ فاعلٍ يَمِيز ، وسنثبت هذا فيما بعد .

وأقول إذَنْ : بما أن الأولاد غيرُ قادرين على التمييز فإنهم لا يتصفون بذاكرةٍ حقيقية على الإطلاق ، وهم يَحْفَظُون أصواتاً وصُوَراً وإحساساتٍ ، ومن النادر أن يحفظوا أفكاراً ، وأندرُ من هذا حفظهم ما بين الأفكار من ارتباط ، وإذا ما اعْتُرِضَ علىَّ بأنهم يتعلمون بعض مبادئ الهندسة ظُنَّ إقامةُ الدليل ضدى ، مع أن الدليل يقام تأييداً لى ، وذلك أنه يَظْهَر من البعيد جدًّا معرفةُ الأولاد أن يستدلوا بأنفسهم ، حتى إنهم لا يَعْرِفون استدلالاتِ الآخرين ، وذلك أنكم إذا ما تَتَبَّعْتُم هؤلاء المهندسين الصِّغَارَ فى مناهجهم أبصرتم من فَوْركم أنهم لم يحفظوا غيرَ الانطباع التامِّ للشكل ولحدود الدليل ، ولا يستطيعون الوقوفَ أمام أقلِّ اعتراضٍ جديد ، وإذا ما قَلَبْتُمُ الشكلَ لم يستطيعوا فعلَ شىء ، وليست ذاكرتُهم نفسُها أكملَ من خصائصهم الأخرى ، وذلك لِمَا يجب دائماً من تَعَلُّمِهم فى كِبَرِهم ما تَعَلَّموا كلماتِه من الأشياء فى صِغَرِهم .

ومع ذلك تَجِدنى بعيداً من التفكير فى كَوْن الأولاد خالين من أىِّ نوعٍ من الاستدلال[1] ، وعلى العكس أراهم يُجيدون الاستدلالَ فى كلِّ ما يَعْرِفون

---

(١) لقد لاحظت مئة مرة عند الكتابة أن من المتعذر فى سفر مطول أن يطلق عين المعانى على عين الكلمات دائماً ، ولا تجد لغة بالغة من الغنى ما تجهز معه بألفاظ وتعبيرات وجمل ما يمكن أن يعتور =

وفى كلِّ ما يطابق مصلحتَهم الحاضرة والمحسوسة ، ولكن الوهم يَدُور حَوْل معارفهم بأن يُعْزَى إليهم ما لا يمكنهم إدراكُه ، وكذلك يُوهَمُ عند ما يُراد جعلهم منتبهين إلى اعتباراتٍ لا يدركونها بأيِّ وجهٍ كان ، كمصلحةٍ آتيةٍ لهم وكسعادتهم حينما يَغدون رجالاً ، وكاحترامٍ ينالونه عند ما يصيرون كِباراً ، أى أمورٍ لا معنى لها على الإطلاق لدى هؤلاء الخالين من كلِّ بصيرة ، والواقعُ أن جميع دراساتِ هؤلاء المخلوقاتِ التعساء البائسين القسرية تَهْدِف إلى أغراضٍ غريبةٍ عن نفوسهم تماماً ، ويُمكِنُكم أن تَحكُموا فيما يستطيعون أن يُعِيرُوها من انتباه .

ويَميلُ المعلمون ، الذين يَعْرِضُون علينا ، فى جهازٍ كبير ، ما يُلقُون على تلاميذهم من معارفَ ، إلى استعمال لغةٍ أُخرى ، ومع ذلك فإنه يُرَى من سلوكهم الخاصِّ أنهم يُفكِّرون مثلما أُفكِّر ، وذلك : ما يعلمونهم فى نهاية الأمر ؟ يعلمونهم كلماتٍ ، وكلماتٍ أيضاً ، وكلماتٍ دائماً ، وتراهم يحترزون ، بين مختلف العلوم التى يُباهُون بتعليمهم إياها ، من اختيار ما يكون نافعاً لهم حقّاً ، وذلك لأنه يكون علومَ الأشياء ، وهذا ما لا يُوَفَّقُون فيه ، وإنما يُكتَبُ لهم التوفيق فى العلوم التى يَلُوح أنها تُعْرَف إذا ما عُرِفت ألفاظُها كالأشْعِرَة والجِغْرافية

= أفكارنا من تغيير ، أجل ، إن طريقة تعريف جميع الألفاظ ، وقيام التعريف مقام المعرف دائماً ، أمر جميل ، غير أنه ليس عملياً ، وذلك لأنه كيف تجتنب الدائرة ؟ وقد تكون التعاريف صالحة إذا لم تستعمل ألفاظ لوضعها ، وتراني قانعاً ، مع ذلك ، بأن الوضوح ممكن حتى عند فقر لغتنا ، لا بإطلاق عين المعانى على عين الألفاظ ، بل بأن يقع فى كل مرة تستعمل فيها كل كلمة تعيين المعنى الذى يطلق عليها تعييناً كافياً بالقرينة التى تطابقها ، وأن يتخذ كل دور تستعمل فيه هذه الكلمة تعريفاً لها ، وقد قلت تارة إن الأولاد عاجزون عن الاستدلال كما عزوت إليهم الاستدلال بشىء من الدقة تارة أخرى ، ولا أرانى مناقضاً لنفسى فى أفكارى ، ولكنى لا أستطيع أن أنكر مناقضتى لنفسى فى كلماتى غالباً .

والتقويم واللغات ، إلخ . ، أي الدراساتِ الكثيرة البُعْد من الإنسان ، ولا سيا الولدُ ، فيكون من العجيب أن يُوجَدَ شيءٌ منها يُمْكِن أن يكون نافعاً له في حياته ولو مرةً واحدة .

وستُدْهشون من عَدِّى درسَ اللغات بين أباطيل التربية ، ولكن ليُذْكَرْ أنني لا أتكلم هنا عن غير دروس الدَّوْر الأول من العمر ، ومهما يُمْكِنْ أن يقال فإنني لا أعتقد وجودَ ولدٍ استطاع أن يتعلم لغتين ، حقًّا ، قبل بلوغه الثانيةَ عشرةَ أو الخامسةَ عشرةَ من سِنِيه ، ما لم يكن من النوابغ .

وأوافقُ على أن درس اللغات إذا لم يكن غيرَ درسِ الكلمات ، أي دَرْسِ الرموز والأصوات التي تُعَبِّر عنها ، فإن هذا الدرس يُمْكِن أن يلائم الأولاد ، غير أن اللغات إذا ما غيَّرَت الرموزَ عدَّلت الأفكارَ التي تُعَبِّر عنها أيضاً ، وتتألف الأذهانُ من اللغات ، وتتخذ الأفكارُ صبغةَ اللَّهَجات ، والعقلُ وحدَه مشتركٌ بين الجميع ، وللروح في كلِّ لغةٍ شكلُه الخاصُّ ، ويُمْكِن هذا الفرقَ أن يكون علةَ الأخلاق القومية أو معلولَها من بعض الوجوه ، والذي يَلُوح مؤيِّداً لهذا الظنِّ هو أن اللغة لدى جميع أُمم العالم تَتَّبع تقلُّباتِ الطبائع وأنها تَبْقَى أو تتغيرُ مثلَها .

والاستعمالُ يَمْنَحُ الولدَ أحدَ هذه الأشكال المختلفة ، وهذا الشكلُ وحدَه هو الذي يحافظ عليه حتى سِنِّ الرشد ، ويجب ، لكي يكون لديه شكلان ، أن يَعْرِف مقابلةَ ما بين الأفكار ، وكيف يقابل بينها وهو لا يكاد يكون في حالٍ يُدْرِكها فيه ؟ ويُمْكِن أن يكون لكلِّ شيء ألفُ إشارةٍ مختلفة عنده ، غير أنه لا يكون لكلِّ فكرٍ سوى شكل واحد ، وهو لا يستطيع أن يتعلم ،

إذَنْ ، غيرَ لغة واحدة ، وهو ، مع ذلك ، يتعلم عِدّةَ لغات كما يقال لى ، فأُنكرُ ذلك ، وقد رأيتُ من هؤلاء الصغار النادرين مَنْ يعتقدون أنهم يتكلمون خمسَ لغاتٍ أو ستَّ لغات ، وقد سمعتُهم يتكلمون الألمانية ، متعاقباً ، بألفاظٍ لاتينية وألفاظٍ فرنسية وألفاظ إيطالية ، وكانوا يستعملون من المعاجم ، فى الحقيقة ، ما يترجّحُ بين خمسة وستة ، ولكنهم كانوا لا يتكلمون بغير الألمانية دائماً ، والخلاصةُ أنكم إذا ما أعطيتم الأولادَ مترادفاتٍ كثيرةً كما تودُّون غيّرْتم الألفاظَ ، لا اللغةَ ، وهم لن يَعرِفوا غيرَ واحدة .

ويُفضَّل تمرينُهم على اللغات الميتة التى لا يوجد فيها من الحكَم ما لا يُمكن ردُّه ، وبما أن استعمالَ هذه اللغات المعتادَ قد زال منذ زمنٍ طويل فإنه يُكتَفَى باتباع ما هو مسطورٌ فى الكتب ، فيُسمَّى الكلام ، وإذا كانت هذه يونانيةُ المعلمين ولاتينيتُهم فما يقال عن يونانية الأولاد ولاتينيتهم ؟ لم يكادوا يحفظون على ظهر القلب مبادئهما التى لا يفقهون منها شيئاً على الإطلاق حتى يؤخذَ فى تعليمهم ترجمةَ مقالةٍ فرنسية بكلمات لاتينية ، ثم إنهم إذا ما تقدّموا أكثرَ من قبل حُمِلُوا على وَصْلِ ما بين جُمَلٍ من شيشرونَ نثراً وأبياتٍ من فِرجيلَ نظماً ، وهنالك يظنون أنهم يتكلمون اللاتينية ، ومن يأتى لمناقضتهم ؟

ولا تُعَدُّ الرموزُ المُمَثِّلة شيئاً بغير فكرة الأشياء الممثَّلة ، مهما كانت دراسةُ ذلك ، ومع ذلك فإن الولد يُقصَرُ على هذه الرموز دائماً ، وذلك من غير أن يُستَطاع حَمْلُه على إدراك أيٍّ من الأشياء التى تُمثِّلها ، وإذا ما رُئى تعليمُه وَصْفَ الأرض لم يُعَلَّمْ غيرَ معرفة الخرائط ، فيُعَلَّمُ أسماء المدن والبلاد والأنهار التى لا يَتصوّر وجودَها على غير الورق حيث يُدَلُّ عليها ، وأذكُر أننى رأيت فى مكانٍ ما

جغْرافيَّةً تبدأ هكذا : « ما العالمَ ؟ العالمَ كُرَةٌ من المُقوَّى » ، فهذه هى جغْرافيةُ الأولاد تماماً ، وأفرِضُ عدمَ وجودِ ولدٍ واحدٍ فى العاشرة من سِنِيه قادرٍ ، بعد دراسة سنتين للكُرَة والفلك ، على السير من باريس إلى سان دِنى مستنداً إلى القواعد التى أُعْطِيَها ، وَأَفْرِضُ عدم وجود ولدٍ يستند إلى خريطةِ حديقةِ أبيه فيستطيع أن يَتَتَبَّع العَطَفاتِ فيها من غير أن يَضِلَّ ، فهؤلاء هم الأساتذة الذين يَعرِفون أن يُسَمُّوا مواضعَ بكين وأصبهان والمكسيك وجميعَ بلاد الأرض .

وقد يقال لى إن من المناسب شَغْلَ الأولاد بدروسٍ لا تحتاج إلى غير عيون، وهذا يُمْكِن أن يكون لو وُجِدَ من الدروس ما لا يحتاج إلى غير عيون ، ولكننى لا أعْرِف مثلَ هذه الدروس مطلقاً .

ويُحْمَلُون على دَرْس التاريخ عن خطأٍ أدعى إلى السخرية أيضاً ، ويُظَنُّ أن التاريخ يَقَعُ ضِمْنَ متناوَلهم لأنه ليس سوى مجموعةٍ من الوقائع ، ولكن ما يُقْصَدُ بكلمة الوقائع ؟ وهل يُعْتَقَدُ أن الصِّلاتِ التى تُعَيِّن الوقائعَ التاريخية سهلةُ الإدراك كثيراً وأن الأفكارَ عنها تتكون فى روح الأولاد بلا عناء ؟ وهل يُعْتَقَدُ أن معرفة الحوادث الحقيقية منفصلةٌ عن عللها ومعلولاتها ، وأن التاريخىَّ يَبْلُغ من قلة تَعَلُّقه بالخُلقىِّ ما يُمْكِن أن يُعْرَف أحدهما معه بغير الآخر ؟ وإذا كنتم لا تَرَوْن فى أعمال الناس غير الحركات الخارجية والمادية الصِّرفة فما تتعلمون فى التاريخ ؟ لا شىء مطلقاً ، ولا تنالون من هذا الدرسِ العاطل من كلِّ إمتاعٍ لذةً أو معرفة ، وإذا أردتم تقديرَ هذه الأفعال بصلاتها الأدبية فحاولوا جعلَ هذه الصلات مفهومةً لدى تلاميذكم ، وهنالك تَرَوْن هل التاريخُ ملائمٌ لسنهم .

ويا أيها القراء ، اذكُرُوا دائماً أن الذى يخاطبكم ليس عالماً ولا فيلسوفاً ، بل

رجلٌ بسيط صديقٌ للحقيقة ، غيرُ منتسبٍ إلى فريقٍ أو إلى مذهب ، معتزلٌ يعاشر الناس قليلاً ، نادرُ الفرَص فى ابْتِلاَله بمُبْتَسَرَاتهم ، كبيرُ التأمل فيما يَقِفُ نظرَه عند مصاحبتهم ، وتَقُومُ براهينى على المبادئ أقلَّ مما على الوقائع ، وأعتقد أننى لا أجد طريقاً فى تقديم الوقائع إليكم أفضلَ من أن أُورِد بعض الأمثلة ، غالباً ، عن الملاحظات التى تُوحِى إلىَّ ببراهينى .

كنت قد ذهبت إلى الأرياف لأقضىَ فيها بضعةَ أيامٍ عند رَبَّة أسرةٍ صالحةٍ كثيرةِ العناية بأولادها وتربيتهم ، وبَيْنَا كنت ، ذاتَ صباحٍ ، حاضراً دروسَ أكبرهم سِنًّا تناول معلمُه ، الذى جَدَّ فى تعليمه التاريخَ القديم ، سِيرةَ الإسكندر ووَقَع على حكاية الطبيب فِلِيپ المعروفة التى رُسِمَتْ فى صورةٍ والتى تستحقُّ العَنَاء لا رَيْب ، ويأتى المعلم ، الذى هو رجلٌ فاضلٌ ، بعِدَّةِ تأملاتٍ عن شجاعة الإسكندر لم ترُقْني قَطُّ فاجتنبتُ مناهضتَها لكيلا أسىء إلى اعتباره فى نفس تلميذه ، فلما كنا حَوْل المائدة لم يُقَصِّرْ فى جعل الصبىِّ الصغير يثرثر كثيراً على الطريقة الفرنسية ، وما كان من حُمَيَّا سِنّه الطبيعية ومن انتظار هُتافٍ مقرَّرٍ كان يَحْفِزُه إلى إبداء ألف سخافة مع صدور بعض كلماتٍ موفَّقة من خلال ذلك فى الحين بعد الحين يُنْسِى ما سواه ، وأخيراً تأتى قصةُ الطبيب فليپ فيَذْكُرُها بوضوحٍ بالغٍ وطلاوةٍ كثيرة ، ويُتَحَدَّث فيما قال الولدُ بعد دفع ضريبة الثناء المعتادة التى كانت تطالب بها الأمُّ وينتظرها الابن ، وقد صَبَّت الأكثريةُ لومَها على تَهَوُّر الإسكندر ، وقد جَارَى بعضُهم المعلمَ فى الإعجاب بحَزْمه وبسالته ، فحملنى هذا على إدراكى عدمَ رؤية أحدٍ من الحضور موضعَ الجمال الحقيقىِّ فى هذه

القصة ، وأما أنا فقد قلتُ لهم إننى أرى أنه إذا وُجِدَ فى عمل الإسكندر أقلُّ شجاعةٍ وأقلُّ حَزْمٍ لم يكن هذا غيرَ هَوَس ، وهنالك وافق الجميع على أن هذا كان هوساً ، وقد هَمَمْتُ بالجواب وحَمِيتُ ، وكان يوجد بجانبى امرأةٌ لم تَنْبِس بكلمةٍ فمالت إلى أذنى وقالت لى هَمْساً : « اسْكُتْ يا جان جاك ، فهم لن يَفْهَمُوا أمرك » ، وقد نظرتُ إليها وعَمِلْتُ بنصيحتها وأمسكتُ عن الكلام .

وساورنى شكٌّ حَوْلَ كثيرٍ من الدلائل التى لم يُدْرِكْها الأستاذُ الغلام من تاريخٍ أجاد سَرْدَه ، فأمسكته بعد الغَداء من يده ، وطُفْتُ معه فى الحديقة ، فوجدتُ ، بعد السؤال من غير إزعاجٍ ، أنه كان يُعْجَبُ أكثرَ من كلِّ شخصٍ بشجاعة الإسكندر التى أُثْنِيَ عليها إلى الغاية ، ولكنْ أَتَعْلَمُون أينَ كان يَرَى هذه الشجاعة ؟ كان يَجِدُها ، حَصْراً ، فى الإقدام على اجتراعه شراباً سيئَ الطعم دَفْعةً واحدة ، بلا تردُّدٍ ومن غير أن يُبْدِيَ أقلَّ اشمئزاز ، وكان الولدُ المسكين قد أُعْطِيَ منذ خمسةَ عشرَ يوماً دواءً فلم يتناوله إلا بمشقةٍ لا حَدَّ لها ، ولا يزال أثرُ طعمه الكريه فى الفم ، وما كان الموت والسُّمُّ لِيَمُرَّا فى ذهنه إلَّا كإحساساتٍ كريهة ، وما كان لِيَتَمَثَّلَ غيرَ السَّنَا سُمًّا آخر ، ومع ذلك يجب أن يُعْرَف أنَّ حَزْم البطل كان ذا أثرٍ عظيمٍ فى فؤاده الفتِيّ وأنه عَزَم أن يكون إسكندراً عند وجوبِ اجترِاعِه أولَ دواءٍ ، وإنى من غير دخولٍ فى إيضاحاتٍ تجاوز متناوله لا رَيْبَ أيدتُه فى مناحيه الحميدة ، وعُدْتُ ضاحكاً فى نفسى من حكمة الأبوين والمعلمين الذين يُفَكِّرون فى تعليم الأولاد التاريخَ .

أَجَلْ ، إن من السهل أن تُوضَعَ فى أفواههم ألفاظٌ كالملوك والأباطرة والحروب والفتوح والثَّوْرات والقوانين ، ولكن المسئلة إذا ما دارت حَوْلَ رَبْطِ أفكارٍ واضحةٍ بهذه الكلمات بَدَت هذه الإيضاحاتُ مختلفةً كلَّ الاختلاف عن حديثنا مع البستانىِّ رُوبِرْت .

وسَيَسْأل بعضُ القراء المُسْتَنْبِين من « اسْكُتْ يا جان جاك » ، كما أُبْصِرُ ، عما أَجِدُ ، أخيراً ، من رَوْعةٍ فى عمل الإسكندر ، فيا أيها التُّعَساء ! إذا ما وَجَبَ قوْلُ ذلك لكم فكيف تُدْرِكونه ؟ ذلك أن الإسكندر كان يؤمن بالفضيلة ، ذلك أنه كان يؤمن بعقله ، ذلك أنه كان يؤمن بحياته ، ذلك أن نفسه الكبيرة صُنِعَتْ للإيمان بذلك ، وَىْ ! يا لَكَوْن هذا الدواء المُخْتَرَعِ مِهنةَ إيمانٍ رائعة ! كلاَّ ، لم يَصْنَعْ إنسانٌ ما هو أرفع من ذلك ، إذا ما وُجِدَ إسكندرٌ عصرىٌّ فَلْأُدَلَّ على أنه قَوَّامٌ بمثل تلك المآثر .

إذا لم يُوجَدْ عِلْمٌ للكلمات قَطُّ لم يُوجَدْ درسٌ للأولاد خاصٌ قَطُّ ، وإذا لم تكن لهم أفكارٌ حقيقيةٌ لم تكن لهم ذاكرةٌ حقيقيةٌ قَطُّ ، وذلك لأننى لا أَدْعو هكذا ذاكرةً لا تَحْفَظ غيرَ الإحساسات ، وما نَفْعُ تسجيلِ جَدْولٍ من الرموز التى لا تَدُلُّ على شىء لديهم ؟ ألا تُعَلِّمُ الرموز بتعلُّم الأشياء ؟ ولِمَ يُحَمَّلُون مَشَقَّةَ تعليمهم إياها مرتين على غير جَدْوَى ؟ ومع ذلك فيا لَلمُبْتَسَرات الخطِرة التى يُبْدَأ بتلقينهم إياها حين يُحْمَلُون على عَدِّهم من العِلْم كلماتٍ لا معنى لها عندهم ! ويَقِلُّ تمييزُ الولد بالكلمة الأولى التى يَقْنَعُ بها وبالشىء الأول الذى يتعلمه من الآخرين غيرَ مُطَّلِعٍ على فائدته بنفسه ، ولا بُدَّ له

من بَهْرِ أبصار الأغبياء قبل أن يُعوَّض من هذا النقصان(١) .

كلاَّ ، إذا كانت الطبيعةُ تُنْعِمُ على دماغ الولد بتلك المرونة التى تجعله صالحاً لتَقَبُّلِ جميع أنواع الانطباعات فليس ذلك لتُنْقَش عليه أسماء للملوك وتواريخُ وألفاظٌ للأشْعِرَة وكُرَةٌ وجغرافيةٌ وجميعُ تلك الكلمات التى لا معنى لها عند من هو فى سِنِّه ، والتى لا فائدةَ فيها لجميع الناس من أىِّ عُمُرٍ كانوا ، فتُرْهَقُ بها وُلوديتُه الكئيبةُ العقيم ، بَلْ لتَرْسَم عليه باكراً ، وبحروف لا تُمْحَى ، جميعُ الأفكار التى يُمْكنه أن يتمثلها والتى هى نافعةٌ له ، وجميعُ الأفكار التى تلائم سعادته فيجب أن تُنِيرَ له السبيل فى جميع واجباته ذاتَ يوم ، فيتخذُها نبراساً يهتدى به فى أثناء حياته هدايةً مناسبةً لكيانه وخصائصه .

ومن غير دَرْسٍ فى الكتب ، لا يَظَلُّ نوعُ الذاكرة الذى يَحُوزه الولد مُعَطَّلاً لهذا السبب ، فيَقِفُ نظرَه كلُّ ما يرى وكلُّ ما يَسْمَع ويَذْكُرُه ، وهو يُمْسِكُ سجِلاً فى نفسه لأعمال الناس وأقوالهم ، ويُعَدّ جميعُ ما يحيط به كتاباً يُغْنِى فيه ذاكرتَه بلا انقطاعٍ من غير أن يُفَكِّر فى هذا ، وذلك ريثما يُمكِنُ قوةَ التميز فيه أن تنتفع به ، وعلى اختيار هذه الأشياء ، وعلى

---

(١) أمر معظم العلماء فى ذلك كالأولاد ، وينشأ العلم الواسع عن كثرة فى الأفكار أقل مما عن كثرة فى الصور ، وتحفظ التواريخ والأعلام والأماكن وجميع الأشياء المنفردة فى ذاكرة الرموز ، ومن النادر أن يذكر بعض هذه الأشياء من غير أن يرى فى الوقت نفسه ظاهر الصفحة التى تقرأ فيها أو باطنها ، أو تبصر الصورة التى رئيت عليها أول مرة ، وهذا ما كان عليه العلم الدارج فى القرون الأخيرة تقريباً ، وأما العلم فى عصرنا فشىء آخر ، فعاد لا يدرس ولا يلاحظ ، بل يحلم به ، ونعطى ، برصانة ، أحلام بعض الليالى السيئة على أنها من الفلسفة ، وسيقال لى إننى أحلم أيضاً ، وأوافق على هذا ، غير أن ما لا يحترز الآخرون من صنعه أقدمه على أنه أحلام ، تاركاً للقارئ أن يبحث عن وجود شىء لديهم مفيد لذوى الانتباه أو لا .

الاعتناء بأن يُعرَض عليه دائماً ما يستطيع أن يَعرِفه ، وعلى إخفاء ما يجب أن يجهله ، يتوقَّفُ الفنُّ الحقيقيُّ فى تَعَهُّدِ هذه الخاصِّية الأولى ، وبهذا يجب أن يُسْعَى فى تكوين مستودعٍ للمعارف فيه نافعٍ لتربيته فى أثناء شبابه ونافعٍ لسلوكه فى جميع الأوقات ، والحقيقةُ أن هذا المِنْهاج لا يَصْنَعُ صِغاراً نادرين ، ولا يوجب النماءَ المربيات والمعلمين ، وإنما يُكوِّن رجالاً بصيرين أقوياء سالمين بدناً وإدراكاً من غير أن يكونوا موضعَ إعجابٍ صِغاراً ومع ظهورهم مدارَ افتخارٍ كِباراً .

ولن يتعلَّم إميلُ شيئاً على ظهر القلب ، حتى الأمثالَ ، حتى أمثالَ لافُونْتِن ، مهما بلغت من البساطة والجمال ، وذلك لأن ألفاظ الأمثال ليست أكثرَ أمثالاً من كون ألفاظ التاريخ تاريخاً ، وكيف يُبْلَغُ من العَمَى ما تُسَمَّى الأمثالُ معه كتابَ أخلاقٍ للأولاد من غير أن يُفكِّر فى كَوْن المَثَل الخلقىِّ يُضِلُّهم حين يُسَلِّيهم ، وفى كونهم يَدْعُون الحقيقةَ تَفِرُّ حين يُفْتَنُون بالكَذِب ، وفى كَوْن ما يُصْنَع لجعل المعارف مُسْتَحَبَّةً لديهم يَحُول دون استفادتهم منها ؟ أَجَلْ ، تستطيع الأمثالُ أن تُثَقِّفَ الرجال ، ولكن يجب أن تقال الحقيقة للأولاد عاريةً ، حتى إذا ما سُتِرَت بغطاءٍ لم يَصْعُب عليهم أن يَكْشِفوه .

ويُعَلَّمُ الأولادُ أمثالَ لافونْتن ، ولا تجِدُ واحداً منهم يدركها ، ولو أدركوها لكان الأمرُ أسوأ مما هو عليه ، وذلك لأن مبادىء الأخلاق من كثرة الاختلاط فيها ومن عدم تناسبها مع عُمرهم ما تَحْمِلُهم به على الرذيلة أكثرَ مما على الفضيلة ، وستقولون إن ما تأتى هو من البِدَع ، ولْيَكُنْ

بِدَعاً ، ولكنْ لننظُرْ هل ينطوى على حقائق .

أقول إن الولد لا يَفْهَمُ الأمثالَ التى يُعَلَّمُها مطلقاً ، وذلك لأنه مهما يُبْذَلْ من جُهْدٍ لتبسيطها فإن المعارف التى يراد استخراجُها منها توجب إدخال أفكارٍ إليه لا يستطيع وَعْيَها ، على حين ترَى الشكلَ الشِّعْرِىَّ الذى يجعلها أيسرَ تذكُّراً يجعلها أعسرَ تَصَوُّراً ، وهكذا تُشْرَى المَلاَحة على حساب الوضوح ، وإنا من غير أن نورد هذا الحَشْدَ من الأمثال التى لا تنطوى على وُضوحٍ ولا على فائدة للأولاد ، والتى يُعَلَّمُونها مع الأخرى على غير هدى لاختلاطها بها ، نرى أن نقتصر عَلَى الأمثال التى يَلُوح أن المؤلف قد وضعها من أجْل الأولاد .

لا أعْرِف فى جميع مجموعة لافُونْتِن غيرَ خمسةِ أمثالٍ أو ستة أمثالٍ سَطَعَتْ البساطةُ الصِّبْيَانِيَّة منها سُطُوعاً عظيماً ، وأوردُ من هذه الأمثال الخمسة أو الستة أوَّلَها[1] ، وذلك لأن أدبَ هذا المثل أكثرُ ملاءمةً لكلِّ عُمُرٍ ، ولأنه أحسنُ ما يُدْرِك الأولاد ، ولأنه ألذُّ ما يتعلَّمون ، ثم لأنه المثلُ الذى وَضَعَه المؤلِّفُ عَلَى رأس كتابه عن تفضيلٍ ، ونحن إذ نفترض له هَدَفَ كونِه مفهوماً لدى الأولاد رائقاً عندهم مثقِّفاً لهم نَعُدُّه أثرَ المؤلفِ الرائعَ حقّاً ، فَلْيُسْمَحْ لى أن أتتبَّعَه وأفحصه فى كلماتٍ قليلة إذَنْ .

---

(١) هذا هو المثل الثانى ، لا الأول ، كما لاحظه مسيو فورمه .

الغرابُ والثعلب

مَثَلٌ

« الأستاذُ الغرابُ على شجرةٍ واقعٌ »

« الأستاذُ ! » ما معنى هذه الكلمة بنفسها ؟ وما معناها أمام اسمِ علمٍ ؟ وما معناها هنا ؟

وما الغراب ؟

وما « على شجرةٍ واقع » ؟ لا يقال « على شجرة واقع » ، بل يقال « واقعٌ على شجرة » ومن ثَمَّ يجب أن يُحَدَّث عن التقديم والتأخير فى الشعر ، ويجب أن يُفَرَّق بين النثر والنظم .

« يُمسِكُ فى مِنقاره جُبنةً »

أىُّ نوعٍ من الجُبنة ؟ أهى جُبنةٌ سويسريةٌ ، أم جبنةٌ بِرِيَّة ، أم جبنةٌ هولندية ؟ وإذا كان الولد لم يرَ الغِربانَ قَطُّ فما فائدة الكلام عنها ؟ وإذا كان قد رآها فكيف يتَصَوَّرُ إمساكَها جُبْناً فى منقارها ؟ لنَصْنَعْ صُوَراً عن الطبيعة دائماً .

« الأستاذُ الثعلبُ بالرائحةِ أُغْرِىَ »

أستاذٌ آخر ! ولكنَّ هذا لقبٌ ملائمٌ له ، هو أستاذٌ دَرِبٌ فى حِيَلِ مهنته ، ويجب أن يُحَدَّث عن الثعلب ، وأن يُفَرَّق بين الثعلب الحقيقىِّ وثَعْلَبِ الأمثال الاتفاقىّ .

« أُغْرِىَ » ، هذه كلمةٌ غيرُ مستعملة ، فيجب إيضاحها ، ويجب أن

يقال إنه عاد لا يُنْتَفَع بها فى غير النَّظْم ، وسيسأل الولد عن السبب فى أنه يتكلَّم فى النظم على خلاف ما فى النثر ، وما يكون جوابُكم ؟

« أغرِىَ برائحة جُبْنةٍ ! » ، لا بُدَّ من أن تكون هذه الجُبْنة التى يُمسكها غرابٌ واقعٌ على شجرة ذاتَ رائحةٍ قوية حتى يَشَمَّها ثعلبٌ فى غابةٍ أو فى وِجَارِه ! أهكذا تُدَرِّبون تلميذَكم على روح النقد الصحيح الذى يأبى كلَّ شىء غيرَ الأدلة الصائبة ، والذى يُمازُ به بين الصدق والكَذِب فى قِصص الآخرين ؟

« هو يخاطبه بهذه اللغة تقريباً : »

« هذه اللغة ! » ، أتتكلم الثعالبُ إذَنْ ؟ أتتكلم بعين اللغة التى تتكلَّم بها الغِرْبان ؟ أعْمِلْ ذهنَك أيها المعلم الأريب ، وزِنْ جوابَك قبل إلقائه ، فهو أهمُّ مما تَظُنُّ .

« عِمْ صباحاً يا سيدى الغُراب ! »

« سيدى ! » ، هذا لقبٌ يرى الولدُ تحويلَه إلى هزوء حتى قبل أن يعرِف أنه لقبُ تكريم ، وإذا ما قيل « صاحبُ السيادة الغُراب » كان للتائلين شؤونٌ أخرى قبل إيضاح كلمة « صاحب » هذه .

« يا لحُسْنك ، يا لجَمالكَ كما أرى ! »

حَشْوٌ ، تطويلٌ غيرُ مفيد ، يرَى الولدُ تكرارَ عينِ الشىء بألفاظٍ أخرى فيتعلم الكلامَ بتوانٍ ، وإذا قلتم إن هذا التطويل هو فنُّ المؤلف ، وإنه من مُخَيِّلَة الثعلب الذى يرَى فيضَ الثناء بالكلام فإن هذا الاعتذارَ يكون صالحاً تجاهى ، لا نحوَ تلميذى .

« ومن غير كذبٍ لو كان تغريدُك »

« من غير كذبٍ ! » ، إذَنْ ، يَكْذِب الناسُ أحياناً ، وما يكون حالُ الولد إذا ما عَلِم منكم أن الثعلب لا يقول « من غير كذبٍ » إلا لأنه يَكْذِب .

« يلائم ريشَك »

« يلائم ! » ، ما معنى هذه الكلمة ؟ عَلِّمُوا الولدَ أن يقابل بين صفاتٍ مختلفة كالصوت والريش لتَرَوْا مقدار ما يُدْرِك أمرَكم .

« لكنتَ أبا هَوْلِ هذه الغاب »

« أبو الهَوْل ! » ، ما أبو الهَوْل ؟ هكذا نُقْذَفُ فى القرون الخالية الكاذبة ، نُقْذَف فى أساطير الأقدمين .

« أهلُ هذه الغاب ! » ، يا له من كلام مَجَازِيٍّ ! إن المُصَانِع يَسْمُو بلسانه ويُكْثِرُ من رَفْع شأنه حتى يجْعَلَه أعظمَ فتنةً ، وهل يُدْرِك الولدُ هذه الدقة ؟ وهل يَعْلَم ، أو يستطيع أن يَعْلَم ، ما الأسلوب الرفيع وما الأسلوبُ الوضيع ؟

« فطار قلبُ الغُراب من الفرح عند هذه الكلمات »

لا بُدَّ من تجربةٍ أشدِّ الإحساسات للشعور بهذه التعابير التى تُضْرَب بها الأمثال .

« ولكى يُظْهِرَ صوتَه الجميل »

ولا يَغِبْ عن بالكم وجوبُ معرفةِ الولد لِمَا يُقْصَدُ بصوتِ الغراب الجميل حتى يُدْرِك هذا السَّطْر وبقيةَ المَثَل .

« ويفتح مِنقارَه الكبيرَ ويَدَع غنيمتَه تقَع »

وهذا السَّطْرُ يقضي بالعجب ، ويُوحِي انسجامُه بصورةٍ ، وأبْصِر مِنقاراً كبيراً كريهاً فاغِرًا ، وأسمع وقوعَ الجُبنة من بين الغصون ، غير أن إدراك هذا النوع من الجمال بعيدٌ من الأولاد .

« ويقبض عليها الثعلبُ ويقول : سيدى الصالح »

وهكذا يتحول الصلاح إلى بلاهة إذَنْ ، ولا رَيْبَ في أنه لا يُضَيِّعُ وقتٌ في تعليم الأولاد .

« واعْلَموا أن كلَّ مصانع »

مثلٌ عامٌّ ، لا دَخْلَ للولد فيه .

« يعيش على حساب من يستمع إليه »

لا يُوجَدُ ولدٌ في العاشرة من سِنِيه يُدْرِك هذا السطر .

« ويَعْدِل هذا الدرسُ جُبْنةً لا ريب »

ويُمْكن فَهْمُ هذا ، ومعناه حسنٌ جِدًّا ، ومع ذلك فإن من النادر وجودَ أولادٍ يَقْدِرون على مقابلة ما بين الدرس والجبنة فلا يُفَضِّلون الجبنةَ على الدرس ، ولذا يجب أن يُحْمَلُوا على إدراكِ كَوْنِ هذا الحديثِ لا يَعْدُو حَدَّ الهُزُوء ، ويا لَلدِّقة فيه !

« ويعترى الغرابَ خجلٌ ويضطرب »

حَشْوٌ آخرُ في الكلام ، غير أن هذا لا معذرةَ عليه .

« ويَحْلِفُ ، ولكن بعد الأوان ، بأنه لن يؤخذ بمثل ذلك »

« يَحْلِف ! » ، فأيُّ معلمٍ يَبْلُغُ من الحماقة ما يَشْرَح معه للولد معنى اليمين ؟

وتلك تفاصيلُ كثيرةٌ ، ومع ذلك فهى أقلُّ مما يجب فى تحليل جميع الأفكار التى يشتمل عليها هذا المَثَلُ وفى رَدِّها إلى الأفكار البسيطة الابتدائية التى تدخل فى تركيب كلِّ واحدٍ منها ، ولكنْ من ذا الذى يعتَقِدُ احتياجَه إلى هذا التحليل حتى يجْعَل نفسَه مفهوماً لدى الأولاد ؟ لا تجدُ واحداً منا فيلسوفاً بدرجة الكفاية حتى يَضَعَ نفسَه فى مكان الولد ، ولننتقل الآن إلى علم الأخلاق .

وأسأل : هل يجب أن يُعلَّم الأولادُ البالغون من العُمر عشرَ سنين وجودَ رجالٍ يصانِعون ويكْذِبون نفعاً لهم ؟ كان يُمْكِنُ أن يُعَلَّمُوا ، على الأكثر ، وجودَ ساخرين يَهْزَءون بصغار الأولاد ويتَهَكَّمُون بزَهْوِهم الباطل سرًّا ، ولكن الجُبْنَة تُفْسِدُ الجميع ، وهم يُعَلَّمُون عدمَ تركها تَسْقطُ من مِنقارهم أقلَّ من جعلها تَسْقُط من مِنقارِ آخرَ ، وهذا مَبْدَنى الثانى ، وهو ليس أقلَّ أهميةً من الأول .

وتَتَبَّعُوا الأولادَ وهم يتعلَّمون أمثالَهم ترَوْا أنهم يأتون عكسَ مقاصد المؤلف تقريباً عند ما يصبحون قادرين على تطبيقها ، وأنهم يَميلُون إلى حُبِّ عَيْبٍ يستفيدون به من نقائص الآخرين بدلاً من ملاحظة نقيصةٍ يُرَاد شفاؤهم أو وقايتهم منها ، ويَضْحك الأولاد من الغراب فى المثل السابق ، ولكنهم يَعطِفُون على الثعلب جميعاً ، وترَوْن ضَرْبَ الزِّيز * لهم مثلاً فى القصة التالية ، كلا ، وإنما النَّمْلَة هى ما يختارون ، فلا يُحَبُّ الاستخزاء مطلقا ، وهم يتخذون الدَّوْر الرئيسَ دائماً ، وهذا هو اختيار الأثَرة ، وهذا اختيارٌ طبيعىٌّ

* الزيز : دويبة تطير وتقف طويلا على الشجر ولها صوت كأنها تقول « زيز » ، فسميت به .

جدًّا ، ويا لهذا الدرس الفظيع للولد كما هو الواقع ! إن أشنعَ جميعِ الجُفاة ولدٌ طَمَّاعٌ قاسٍ يَعرِف ما يُطلَبُ منه وما يَرْفِض، وتَصْنَع النملةُ أكثرَ من هذا، فهى تُعَلِّمه أن يَهْزَأَ عندما يَرْفِض .

وفى جميعِ الأمثال ، حيث يكون الأسد من أسطع الممثلين كما هى العادة ، لم يَفُتِ الولدَ أن ينتحل وضعَ الأسد على الإطلاق ، فإذا ما كان على رأس قِسْمَةٍ صَرَفَ همَّه فى الاستيلاء على الجميع مقتدياً بمثاله ، ولكن الولد يَغدُو بعوضةً عند ما تَغلِبُ الأسدَ لاختلاف الوَضْع ، فيتعلم أن يقتل بالمِنْخَس ذاتَ يومٍ مَنْ لم يجْرُؤ على مهاجمتهم بقدمٍ ثابتة .

ومن مَثَل الذئب النحيل والكلب السمين يتعلَّم درسَ تحَلُّلٍ بدلًا من درسٍ فى الاعتدال يزْعم أنه يُلقَى عليه ، ولن أنسى أننى شاهدت ابنةً صغيرة تبكى كثيراً لِما كان من إحزانها بهذا المثل الذى أُلقِيَ عليها كدرسٍ فى الطاعة دائماً ، ولم يَكَدْ يُعْرَفُ سبب بكائها ، وقد عُرِفَ مؤخراً ، وذلك أن هذه البنتَ المسكينة كانت تَضْجَر من سلسلتها، وكانت تَشْعُرُ بأن السلسلة تحُكُّ جِيدَها ، فتبكى لأنها ليست ذئبة .

وهكذا فإن أدب المثل الأول المذكور هو للولد درسُ خِداعٍ دَنِىءٍ جدًّا ، وإن أدب المثل الثانى درسُ قسوة ، وإن أدب المثل الثالث درسُ ظُلم ، وإن أدب المثل الرابع درسُ قَدْح ، وإن أدب المثل الخامس درسُ تمَرُّد ، ولا يلائم هذا الدرسُ الأخير تلاميذَكم كما أنه غيرُ نافع لتلميذى ، وإذا ما ألقيتم عليهم تعاليمَ متناقضة فأيةَ ثمرةٍ تنتظرون من رعايتكم ؟ ولكن من المحتمل أن يكون جميعُ هذا الأدب الذى ينفعنى فى الاعتراض على هذه الأمثال يُجهِّزُ

بأسبابٍ تَعْدِل تلك للمحافظة عليها ، ويجب أن يوجد فى المجتمع أدبٌ قَوْلىٌّ وأدبٌ فعلىٌّ ، ولا يتشابه الأدبان مطلقاً ، ويكون الأولُ فى كتاب الوعظ الدينىّ حيث يُترَك ، ويكون الثانى فى أمثال لافونتنَ للأولاد وفى قِصَصه للأمهات ، ويكفى هذا المؤلَّف للجميع .

ولْنتَّفِقْ يا مسيو لافونتن ، فأما أنا فأَعِدُ بأن أقرأكَ مختاراً ، وأن أُحِبَّك ، وأن أَرِدَ مواردَ أمثالك ، وذلك لأننى أرجو ألاَّ أُخْدَع حَوْلَ موضوعها ، وأما تلميذى فدَعْنى ألاَّ أتركَه يدرسُ أىَّ واحدٍ منها قبل إثباتك لى أن من الصالح له أن يتعلَّم أموراً لن يَفْقَه منها غيرَ الربع ، وأنه لن يُخْدَع فيما يُمْكِن أن يُدْرِكَ منها ، وأنه لن يَقْلِبَ الوَضْع فيُقَلِّد الخبيث بدلاً من إصلاح غِرَّته .

وإنى ، إذْ أنْزِع دروسَ الأولاد على هذا الوجه ، أنْزِعُ وسائلَ أكبر بؤسٍ فيهم ، أى الكتبَ ، فالمطالعةُ هى آفةُ الوُلودية ، وتكاد تكون الشغلَ الوحيد الذى يُمْكِن أن يُوجَد لها ، ولا يكاد إميلُ يَعرِف ما الكتابُ عند بلوغه الثانيةَ عشرةَ من سِنِيه ، وسيقال لى إن من الواجب أن يكون عارفاً القراءةَ على الأقلّ ، وأوافق على هذا ، وإنما يجب أن يَعْرِف القراءةَ عند ما تكون نافعةً له ، وهى لا تكون صالحةً لغير ضَجَره حتى ذلك الحين .

وإذا كان لا ينبغى أن يطالَب الأولاد بشىء عن طاعةٍ فإنه يَنْجُم عن هذا أنهم لا يَقْدِرون أن يتعلَّموا شيئاً لا يَشْعُرُون بفائدته الراهنة الحاضرة ، سواء للَّهْو أو للخير ، وإلاَّ فما الذى يَحْمِلهم على تعلُّمه ؟ إن فَنَّ مخاطبة الغائبين وسماعِهم ، وإن فَنَّ نَقْلِ مشاعرنا وعزائمنا ورغائبنا إليهم بلا وسيطٍ ،

وهم بعيدون ، هو فنٌّ يُمكِن أن تُجْمَل فائدتُه محسوسةً فى كلِّ عُمُرٍ ، وبأية معجزةٍ أصبح هذا الفن ، العظيمُ الفائدة والكثيرُ الامتاع ، وَبالاً على الوُلودية ؟ ذلك لأنها تُكرَه على التزامه على الرغم منها ، ولأنه يُجْعَلُ قَيْدَ استعمالٍ لا تَفْقه منه شيئاً ، وليس الولدُ من الفُضُول القويّ ما يُصْلِح معه الآلةَ التى يُعَذَّب بها ، ولكن اجْعَلُوا هذه الآلةَ خادمةً للهوْه تَرَوْه يلازمُها من فَوْره وعلى الرغم منكم .

ويقوم ضجيجٌ حَوْل البحث عن أصلح المناهج فى تعليم القراءة ، وتُخْتَرَع مقاطعُ وبطاقاتٌ ، وتُصْنَع من غرفة الولد قاعةُ طِباعة ، ويريد لُوك أن يُعَلِّموا القراءةَ بالنَّرْد ، يالهذا الاختراع الرائع ! يالموضع الرثاء فيه ! توجد طريقةٌ أفضلُ من جميع ذلك ، تُوجَدُ طريقةٌ أُغْفِلَت على العموم ، وهى الرغبةُ فى التعلم ، فامنحوا الولدَ هذه الرغبة ، ثم دَعُوا مقاطعَكم ونَرْدَكم هنالك ، يَصْلُحْ له كلُّ منهاج .

والمصلحةُ الحاضرة هى الدافع الكبير ، وهى التى تأتى بنا إلى بعيدٍ سالمين ، ويتناول إميلُ من أبيه أو أُمه أو أقربائه أو أصدقائه ، أحياناً ، بطاقاتِ دعوةٍ إلى غَداء أو نزهةٍ أو سَفرةٍ على الماء ليَشْهدَ احتفالاً عامًّا ، وتكون هذه البطاقاتُ قصيرةً جليةً سهلةً حسنةَ الخطِّ ، ولا بُدَّ من وجود واحدٍ ليقرأها له ، ولا يكون هذا موجوداً فى الوقت الذى يُطْلَب فيه ، أو إنه لا يَرُدُّ إلى الولد معروفاً كان قد حَبَاه به أمس ، وهكذا يَمْضِي الوقت وتَضِيعُ الفرصة ، وأخيراً تُقْرَأ له البطاقة ، ولكنْ بعد الأوان ، وَيْ ! يا ليته كان يَعْرِف القراءة ! ويتناول بطاقاتٍ أُخرى ، يا لها من بطاقات قصيرة ! يا لاهتمامه بالموضوع ! ويحاول قراءتها ، وَيَجِدُ مساعدةً

تارةً وإعراضاً تارةً أخرى ، وَيبذُل وُسْعَه ، وأخيراً يَفُكُّ نصفَ البطاقة ، ويَرَى أنه مَدْعُوٌّ لتناول قِشْدَةٍ غداً . . . ولا يَعرِف أين ، ولا مع مَنْ . . . ويا للمجهود الذى يَبْذُل لقراءة البقية ! ولا أعتقدُ احتياجَ إميلَ إلى مقاطعَ ، وهل أتكلم الآن عن الكتابة ؟ كلا ، أَخْجَل من التلهِّى بهذه التُّرَّهات فى رسالةٍ عن التربية .

وأضيف الكلمةَ الآتية التى تشتمل على مبدأٍ مهمّ ، وذلك أنه يُنَال بسرعةٍ فائقة ، وعن يقينٍ ، مالا يُسْتَعْجَل نَيْلُه ، وأجِدُنى واثقاً ، تقريباً ، بأن إميل سَيَعْرِف القراءةَ والكتابة تمامًا قبل بلوغه العاشرة من سِنِيه ، وذلك لأن مما لا يُهِمُّنى كثيراً أن يَعرِف ذلك قبل الخامسَ عشرَ من عُمُره ، ولكننى أفضل ألَّا يَعرِف القراءة على ابتياع هذا العرفان على حساب كلِّ مايُمْكن أن يجعله مفيداً ، وما فائدة القراءة له إذا ما كَرِهها دائماً ؟ « يجب أن يُنْتَبَه ، على الخصوص ، إلى كون الدروس ، التى لا يزال راغباً عنها ، غيرَ مكروهةٍ لديه ، وألَّا يُبْعِدَه منها هذا النفورُ ، عند ظهوره ، بعد انقضاء الوقت الذى كان فيه أُمِّيًّا » — كَنْتِلْيان .

وكلما أَصْرَرْتُ على منهاجى غيرِ الفعَّال شَعَرْتُ باشتداد الاعتراضات ، وإذا لم يتعلم تلميذكم منكم شيئاً تَعَلَّمَ من الآخرين ، وإذا لم تَدْحَضُوا الخطأَ بالحقيقة تعلم الأكاذيب ، وسَيَتَلقى المبتسراتِ ، التى تَخْشَوْن إعطاءه إياها ، من جميعِ مَنْ يحيطون به ، وستَدْخُل بجميع حواسِّه ، فتُفْسِدُ عقلَه حتى قبل أن يَنْموَ ، أو إن ذهنه ، الذى أُخْمِدَ بعدم النشاط ، يَغْرَق فى المادة ، فعدمُ تَعَوُّد التفكير فى الوُلودية يَنْزِعُ منها هذه الخاصيةَ فى بقية العمر .

ويُخَيَّل إلىَّ أننى قادرٌ على الجواب عن هذا بسهولةٍ ، ولكنْ لِمَ الأجوبةُ دائماً ؟ فإذا كان منهاجى يجيبُ عن الاعتراضات بنفسه عُدَّ صالحًا ، وإن لم

يُجِبْ لم يُساوِ شيئًا ، وأُواصلُ .

وإذا ما اتخذتم الخِطةَ التى أخذتُ فى رسمها فاتبعتم قواعدَ مخالفةً رأسًا للقواعد القائمة ، وإذا لم تَسِيروا بعيداً بذهن تلميذكم ، وإذا لم تُضِلُّوه بلا انقطاعٍ فى أقاليمَ أُخرى وقرونٍ أُخرى ، عند أقاصى الأرض ، حتى السماوات ، وعَمِلتم على حِفْظِه لنفسه دائمًا منتبهاً إلى كلٍّ ما يَمَسُّه مباشرةً ، وجدتموه قادراً على الإدراك والتذكُّر ، وعلى التعقل أيضًا ، فهذا هو نظام الطبيعة ، وكلما أُصبح الشخص فَعَّالاً اكتسب تمييزاً مناسباً لقُواه ، وليس بغير القوة التابعة للقوة المحتاج إليها لبقائه ما تَنْمُو فيه خاصيةُ التفكير الصالحةُ لاستعمال ما يفيض من هذه القوة فى شؤون أخرى ، ومتى أردتم تَعَهُّدَ ذكاء تلميذكم فتَعَهَّدوا القُوَى التى يجب أن يهيمن عليها هذا الذكاء ، ودَرِّبوا جسمَه بلا انقطاع ، واجعلوه عُضْلُبيًّا صحيحًا حتى تجعلوه حكيماً عاقلاً ، وليَعْمَل ، وليَسْعَ ، وليعْدُ ، وليَصْرُخْ ، وليكن دائمَ الحركة ، وليُصْبِحْ رجلاً عن قوةٍ حتى يَكُونَه عن عقلٍ من فَوْره .

حقًّا أنكم تَخْبُلونه بهذا الأسلوب إذا ما وَجَّهْتُمُوه فقلتم له دائماً : اذْهَبْ ، تعالَ ، ابْقَ ، افْعَلْ هذا ، ولا تَفْعَل ذلك ، وإذا كنتم تُدِيرُون برأسكم يديه عاد رأسه لا يكون نافعاً لديه ، ولكن اذكُرُوا ما اشترطناه ، وهو : أنكم إذا لم تكونوا غيرَ متحذلقين فلا تُجْهِدُوا أنفسكم بقراءة كتابى .

ومن الخطأ الذى يُرْثَى له أن يُتَصَوَّر أن تمرين البدن يَضُرُّ أعمالَ

الروح ، كأنه لا ينبغى لهذين الأمرين أن يسيرا متفقين ، وأنه لا يجوز لأحدهما أن يوجِّه الآخر!

ومن الناس صنفان تُمَرَّن أبدانُهما دائماً ، ولا يُفَكِّران إلَّا قليلاً ، لا رَيْب ، فى تَعَهُّدِ أذهانهما ، وهما : الفلاحون والمتوحشون ، فأما الأولون فهم غِلاظٌ أفظاظٌ أغبياء ، وأما الآخرون فيُعْرَفُون بحِدَّة الحواسِّ ودقة الأذهان ، ولا تَجِدُ ، على العموم ، من هو أثقل من الفَلَّاح ، ولا من هو أدقُّ من الوحشىّ ، ومن أين يأتى هذا الفرق ؟ فالأولُ ، إذْ يَفْعَل ما يؤمر به دائماً ، أو يرى ما مَرَن عليه أبوه ، أو ما فعله بنفسه منذ صِباه ، لا يسير إلَّا عن نَمَطِيَّةٍ ، وهو ، إذْ لا يأتى بغير أعمالٍ واحدة فى جميع حياته الآلية تقريباً ، تقوم العادةُ والطاعة عنده مقامَ العقل .

وغيرُ هذا حالُ الوحشىّ ، فبما أنه غيرُ مرتبطٍ فى مكان ، ولا يُفْرَض عليه شغلٌ ، ولا يُطِيع أحداً ، وليس له قانونٌ غيرُ إرادته ، فإنه مضطَرٌّ إلى التعقل فى أعمال حياته ، وهو لا يأتى بحركةٍ ، ولا يقوم بخُطوةٍ ، من غير أن يُبْصِر نتائجهما مقدماً ، وهكذا فإنه كلما تَمَرَّن بدناً تَنَوَّر روحاً ، ويَنْمُو بأسه وعقله معاً ، ويساعد كلٌّ منهما على نشوء الآخر .

وَلْنَرَ ، أيها المعلمُ الفاضل ، أىُّ تلاميذِنا يشابه الوحشىّ وأيُّهما يشابه الفلاح ، فأما تلميذُكم الخاضعُ فى كلِّ شىء لسلطانٍ مُرْشدٍ دائماً فإنه لا يصنع شيئاً بلا أمرٍ ، وهو لا يَجْرُؤ على الأكل إذا جاع ، وعلى الضحك إذا فَرِحَ ، وعلى البكاء إذا تَرِح ، وعلى تقديم يدٍ قبل الأخرى ؛ وعلى تحريك رجلٍ ، إلا كما يؤمر ، وهو لن يَجْرُؤ على التنفس إلَّا وَفْقَ قواعدكم ،

ولِمَ تريدون أن يُفكِّر ما دمتم تفكِّرون فى كلِّ أمرٍ بدلاً منه ؟ وما حاجته إلى بصيرةٍ ما دام معتمداً على بصيرتكم ؟ وهو ، إذْ يراكم تقومون بحفظِه وراحته ، يَشْعُر بأنه فى غِنًى عن القيام بهذه الرعاية ، ويستند تمييزُه إلى تمييزكم ، ويَصْنَع بلا تأمُّلٍ كُلَّ ما لا تَنْهَوْنه عنه عالمًا بأنه يفعله بلا خطر ، وما حاجتُه إلى تَعَلُّم علائم المطر ما عَرَف أنكم تَنْظُرون إلى السماء بدلًا منه ؟ وما حاجته إلى تنظيم نزهته ما دام لا يخشى أن تُضِيعُوا عليه وقتَ الغَداء ؟ ويأكل إذا لم تمنعوه من الأكل ، فإذا منعتموه منه لم يأكل ، وهو لا يَسْمَع نصائحَ مَعِدته ، ويَسْمَع نصائحكم ، ومن العبث أن تُلِينُوا بدنَه بعدم الحركة ، فلن تجعلُوه مَرِنًا فى إدراكه ، وعلى العكس تُزِيلون حُظْوَةَ العقل فى نفسه بجعله يَسْتَعْمِلُ ما لديه من عقلٍ قليل فى أمورٍ تبدو له أكثرَ ما يكون عدمَ فائدةٍ ، وهو ، إذْ لا يَرَى وجهَ صلاح العقل مطلقًا ، يَحْكُمُ بعدم صَلاح العقل لشىء ، ويَصْدُر أسوأ ما يصاب به من سوء التعقل عن العَوْد إلى ذات السوء ، ويقع هذا غالباً من غير أن يَخْطُر بباله ، ويعود مثلُ هذا الخطر الشامل لا يخيفه .

ومع ذلك فإنكم تَجِدُون له ذِهْناً ، هو له ذهنٌ للهَذْر مع النساء وَفْقَ اللهجة التى تكلمتُ عنها ، ولكنه إذا ما حاقَ به خطرٌ ، ووجبَ عليه اتخاذُ قرارٍ فى أحوالٍ صعبةٍ ، وجدتموه أشدَّ غباوَةً وبلاهةً ، مئةَ مرةٍ ، من ابن أغلظ قَرَوِىّ .

وأما تلميذى ، أو تلميذُ الطبيعة على الأصحِّ ، فهو ، إذ يَتَدَرَّب ، باكراً ، على كفاية نفسه بنفسه ما أمكن ، لا يَتَعَوَّد الالتجاءَ إلى الآخرين

بلا انقطاع ، وأقلُّ من هذا عَرْضُهُ كبيرَ معرفته عليهم ، وهو يَميزُ ويُبْصِرُ ويَتَعَقَّلُ ، بدلًا من ذلك ، فى كلِّ ما هو خاصٌّ به مباشرةً ، وهو لا يُثَرْثِر ، وهو يَعْمَلُ ، وهو لا يَعْرِف كلمةً عن كلِّ ما يقع فى العالم ، وإنما يَعْرِف جيداً أن يُحْسِن صنعَ ما يلائمه ، وبما أنه دائمُ الحركة فإنه مُلْزَمٌ بملاحظة أمورٍ كثيرة ومعرفةِ كثيرٍ من النتائج ، وهو ينال تجربةً عظيمةً مُبَكِّراً ، وهو يَتَلَقَّى دروسَه من الطبيعة ، لا من الناس ، ويزيدُ ما يتعلَّم صلاحاً بنسبة ما لا يَرَى فى أىِّ مكانٍ كان من عزمٍ على تعليمه ، وهكذا فإن جسمه وروحه يتمرَّنان معاً ، وبما أنه يَسيرُ وَفْقَ فكره دائماً ، لا وَفْقَ فكرِ غيرِه ، فإنه يوحِّدُ بين عملين توحيداً مستمرًّا ، وهو كلما صار قويًّا عُضْلُبيًّا صار رصيناً بصيراً ، وهذه هى الوسيلةُ فى أن يُحَاز ، ذاتَ يومٍ ، ما يُعْتَقَدُ أنه مناقِض ، أى ما يَجْمَعُه جميعُ العظماء ، تقريباً ، من قوة البدن وقوة الروح وعقل الحكيم وبأس المصارع .

ويا أيها المعلم الشابُّ ، أُوصيك بفنٍّ صعبٍ ، وهو أن تَحْكُمُ بلا تعاليمَ وأن تَصْنَع كلَّ شىء بعدم صُنْعِ شىء ، وأعترفُ بأن هذا الفنَّ ليس من مقتضيات سِنِّك ، فليس صالحاً لتألُّق مواهبك فى البُداءة ، ولا لإظهار مقدرتك لدى الآباء ، ولكنه وحدَه مؤدٍّ إلى النجاح ، ولن تَصِلَ إلى صُنْع حكماء مطلقاً ما لم تَصْنَعْ فى بدء الأمر مُجَّاراً ، وكانت هذه تربيةَ الإسپارطيين القائمةَ عَلَى البدء بتعليمهم سرقةَ غَدائهم بدلًا من إلصاقهم بالكتب ، وهل كان الإسپارطيون غِلاظًا عندما يَكْبُرُون ؟ ومن ذا الذى لا يَعْرِف قُوَّتهم فى الجواب عَلَى البَديهة ؟ وهم ، إذ خُلِقوا ليَغْلِبوا ، كانوا

يَسْحَقون أعداءهم فى الحروب عَلَى أنواعها ، فيَخشَى الأثينيُّون المهاذيرَ كلامَهم كما يَخشَوْن ضَرَباتِهم .

والمعلمُ فى التربياتِ الأعظمِ رعايةً يقودُ ويَعتقد أنه يسيطر ، والواقعُ أن الولد هو الذى يهيمن ، فهو ينتفع بما تطالبون منه لينال منكم ما يَرُوقه ، وهو يَعرِف ، دائمًا ، أن يَحمِلكمُ على إنفاقِ ساعةِ دوامٍ مع ثمانيةِ أيام ملاطَفةٍ ، ولا بُدَّ من معاهدته فى كلِّ دقيقة ، وتنقلب هذه المعاهداتُ ، التى تقترحونها عَلَى شاكلتكم فيُنَفِّذها عَلَى شاكلته ، إلى ما يلائم أهواءه ، ولا سيما حينَ تكونون من ضَعف الرأى ما تَضَعُون معه من الشروط نفعًا له ما يَثِقُ بأنه يناله سواءٌ أقام بالشرط الذى فُرِض عليه مقابَلَةً أم لم يَقُمْ ، ويقرأُ الولدُ فى ذهن المعلم ، عادةً ، أكثرَ مما يقرأ المعلم فى قلب الولد بمراحل ، ويجب أن يكون الأمرُ هكذا ، وذلك أن كلَّ حِذْقٍ يستعمله الولدُ المُلْقَى حبلُه على غاربه فى سبيل حفظ نفسه يستعمله لإنقاذ حريته الطبيعية من قيود طاغيته ، على حين يَجِدُ هذا الطاغيةُ ، الذى لا مصلحةَ مُلِحّةً لديه فى اكتناه الآخر ، أن من الموافق لحسابه ، أحيانًا ، أن يَترُك له كسلَه وزَهْوَه .

واسْلُكوا طريقًا معاكسةً مع تلميذكم ، وليَعتَقِد أنه السيدُ دائمًا مع أن السيادة لكم فى الحقيقة ، فلا يوجد انقيادٌ أتمُّ من انقياد الذى يحافظ على الحرية ظاهراً ، فعلى هذا الوجه تُقْهَر الإرادةُ نفسُها ، ألا يكون الولدُ المسكين ، الذى لا يَعرِف شيئًا ولا يستطيع شيئًا ولا يَعلَم شيئًا ، تحت رحمتكم ؟ ألا تتصرفون بالنسبة إليه فى كلِّ ما يحيط به ؟ ألستم السيدَ الذى يُكَيِّفه

كما يَرُوقه ؟ ألا تكون أعماله وألعابُه وملاذُّه وأتعابه أموراً فى يدكم من غير أن يَعرِف ؟ أجَلْ ، لا يجُوزُ له أن يفعل غيرَ ما يريد ، ولكن لا يجوز له أن يريد غيرَ ما تريدون أن يفعل ، ولا يجوز له أن يتقدم خُطوةً لم تكونوا قد أبصرتموها ، ولا يجوز له أن يَفتَح فاه لقولٍ لا تَعْرِفونه .

وهنالك يُمكِنه أن يقوم بتمرينات بدنية تتطلبها سِنّه ، من غير أن يَخْبَل ذهنه ، وهنالك تَرَوْنه يَقْصِرُ هَمَّه على انتفاعه من كلِّ ما يحيط به بما هو أفيدُ لراحته الحاضرة ، بدلاً من أن يَشْحَذَ حيلتَه لاجتنابِ سلطانٍ ثقيل ، وهنالك يعتريكم الدَّهَش من دقة وسائله فى امتلاك كلِّ ما يستطيع الوصولَ إليه ، وفى التمتع بالأشياء من غير استعانةٍ برأيٍ حقًّا .

وإذا ما تركتموه سيدَ رغائبه على ذلك الوجه لم تُثِيروا أهواءه مطلقاً ، وإذا لم يُصْنَعْ غيرُ ما يلائمه لم يَصْنَعْ من فَوْره غيرَ ما يجوز أن يَصْنَعَ ، ومع أن جسمه دائمُ الحركة ، ما تَعَلَّق الأمرُ بمصالحه الحاضرة المحسوسة ، فإنكم سَتَرَوْن أن ما يستطيع من عقلٍ يَنْمُو بأحسنَ كثيراً ، وعلى وجهٍ أكثرَ ملاءمةً له ، من دروس نظرية صِرْفة .

وهكذا ، إذْ لا يراكم تبالغون فى مقاومته ، وإذْ لا يرتاب منكم مطلقاً ، وإذْ لا يكون لديه شيء يَكْتُمه عنكم ، لا يخادعكم ولا يَكذِب عليكم مطلقاً ، وإنما يَبْدو كما هو بلا وَجَل ، ويُمكِنُكم أن تَدْرسوه على مَهْلٍ ، وأن تحيطوه بجميع الدروس التى تريدون إلقاءها عليه ، من غير أن يَخْطُرَ ببَالِه تلَقِّى أىّ واحد منها مطلقاً .

وكذلك لن يَرْقُبَ مسالككُم بعَيْنِ فُضُولٍ غَيُور ، ولن يَتَلَذَّذ سرًّا

بقَيْدِ خطإٍ لكم ، وهذا الأذى الذى نتلافاه عظيمٌ جدًّا ، وذلك أن من أول ما يُعْنَى به الأولادُ هو اكتشاف نواحى الضعف فيمن يهيمنون عليهم كما قلت ذلك ، ويَحْمِل هذا الميلُ إلى الخُبْث ، ولكنه لا ينشأ عنه ، وإنما ينشأ عن الحاجة إلى اجتناب سلطانٍ يزعجهم ، وبما أن الأولاد مُثْقَلُون بالنِّير الذى يُفْرَض عليهم فإنهم يحاولون خَلْعَه عنهم ، وما يَجِدون من عيوبٍ فى المعلمين يُزَوِّدهم بوسائلَ صالحةٍ لذلك ، ومع ذلك فإن من العادة أن يلاحَظ الناسُ من خلال نقائصهم وأن يُسَرَّ باكتشافها عندهم ، ومن الواضح ، أيضاً ، أن يُسَدَّ هذا المنبعُ للعيوب فى قلب إميل ، وإذْ لم يكن لإميلَ أىُّ نَفْعٍ فى اكتشاف عيوبٍ لى فإنه لا يبحث عنها فىَّ ، كما أنه لا يحاول كشفَ عيوب الآخرين إلا نادراً .

وتَلُوح هذه الأفعالُ كلُّها صعبةً ، وذلك لأنها لا تَخْطُر على البال ، ولكنها مما لا يَجُوز أن يكون هكذا فى الأساس ، ولى الحقُّ بأن أفترض لكم من المعارف الضرورية ما تزاولون معه المهنةَ التى اخترتم ، ويجب أن يُفْتَرَض لكم علمٌ بالسَّيْر الطبيعىِّ للقلب البشرىِّ ، وأنكم تَعْرِفون درسَ الإنسان والفرد ، وأنكم تَعرِفون مُقَدَّماً ما تَخْضَع له إرادَةُ تلميذكم من جميع الموضوعات التى تلائم سِنَّه وتَضَعونها أمام عينيه ، وهل من غير الواقع أن تَتِمَّ حيازةُ الإنسان للأدوات ومعرفتُه استعمالَها جيدًا على أنه سيدُ العمل ؟

وستعترضون بأهواء الولد ، ولستم على صوابٍ فى هذا ، فليس هَوَى الأولاد من عمل الطبيعة مطلقاً ، وإنما هو نتيجةُ نظام سيىء ، وذلك أن يكونوا قد أطاعوا أو أَمروا ، وقد قلت مئةَ مرة إنه كان لا ينبغى أن يقع هذا ولا

ذاك ، ولذا لا يكون لدى تلميذكم من الأهواء غيرُ ما تكونون قد عَلَّمْتُموه ، ومن العدل أن تنالوا جزاء ما اقترفتم ، ولكنكم ستقولون : كيف يُعالَج ذلك ؟ هذا ممكنٌ ، أيضاً ، بأصلحِ سلوكٍ وبصبرٍ كثير .

كان قد عُهِدَ إليَّ ، لبضعة أسابيعَ ، فى أمرِ ولدٍ لم يُعَوَّد تنفيذَ رغائبه فقط ، بل عُوِّد حَمْلَ جميع الناس على تنفيذها أيضاً ، ومَن ثَمَّ كان هذا الولدُ جمُوحاً ، ويريد ، منذ اليوم الأول ، أن يمتحن مجاراتى له ، فينْهَض فى منتصف الليل ، وبَيْنَا كنتُ غارقاً فى نومى يَثِبُ من سريره ويتناول مِبْذَلَه ويناديني ، وأنْهَضُ ، وأشْعَلُ الشمعةَ ، ولا يريد أكثر من هذا ، ويمضى رُبْع ساعةٍ ويَنْعُس ويَضْجَع ثانيةً قانعاً باختباره ، ويعود إلى ذلك بعد يومين وينال عينَ النجاح ، وذلك من غير أن يَبْدُوَ عليَّ أقلُّ علامةٍ على عدم الصبر ، ويُقَبِّلنى عند اضطجاعه ثانيةً ، وأقول له بهدوء : « أحْسَنتَ جداً يا صديقى الصغير ، ولكن لا تَعُدْ إلى هذا » ، وتثير هذه الكلمة فُضُولَه ، ويَوَدُّ فى الغد أن يرَى قليلاً كيف أجْرُؤُ على مخالفته ، فلا يَفوته أن يَنْهَض فى ذات الساعة وأن يناديَنى ، وأسأله عما يريد ، ويقول لى إنه لم يستطع أن ينام ، وأجيب بكلمة « يا خسارة » ، وأسكتُ ، ويرجو أن أشْعَل الشمعة وأسأل : « لأيِّ شيء ؟ » ، وأسكت ، ويُزعجه هذا الإيجاز ، ويَتلمَّس القَدَّاحَ فى الظلام ، ويحاول إخراجَ النار منه ، ولا أستطيع منعَ نفسى من الضحك عند سماعى ضَرْبَه لأصابعه ، ويَعْتقد ، أخيراً ، أنه لا يَقْدِر على الزَّنْدِ ، فيأتى بالقدَّاحة إلى سريرى ، فأقول له إننى لم أطلبها ، وأقلِبُ ظهرى ، وهنالك يَذْرعُ الغرفةَ طائشاً صارخاً مغنياً صاخباً خابطاً نفسه على المِنْضدة والكراسى

بضَرَبات عُنِيَ كثيراً بأن تكون معتدلة ، مع صياحٍ شديد آملاً أن يقلقنى ، وكان ذلك كلُّه على غير جدْوَى ، وقد رأيت أنه ، وإن كان مستعدًّا للهياج والغضب ، غيرُ مستعدٍّ لاعتدال الدم .

ومع ذلك فقد عَزَم على قَهْرِ صَبْرى بعناده ، وقد بلغ من نجاحه فى الاستمرار على ضوضائه ما كِدْتُ أتَمَيَّزُ معه من الغيظ ، وقد أبْصَرْتُ أننى أُفْسِدُ كلَّ أمرٍ بانفجارٍ غيرِ مناسب ، وأرى سلوكَ سبيلٍ أخرى ، وأنهض من غير أن أنطِقَ بكلمة ، وأذهب إلى القَدَّاحة فلا أجِدُها ، وأسأله عنها ، ويعطينى إياها فَرِحًا لانتصاره علىَّ فى آخر الأمر ، وأَقْدَح بالزَّنْد ، وأشْعَلُ الشمعةَ ، وأمسك الولدَ من يده ، وأسيرُ به هادئًا إلى غرفةٍ ملاصقة ذاتِ مصاريعَ مُحْكمَةِ الإغلاق حيث لا يوجد شىء يُكْسَر ، وأترُكه فيها بلا نورٍ ، ثم أُغْلِقُ الباب عليه بالمِفتاح ، وأعود لأنام غيرَ مخاطبٍ إياه بكلمةٍ ، ولا تسأل عن شِدَّة ما كان هناك من ضَجَّة فى بدء الأمر ، وهذا الذى كنتُ أنتظر ، ولم أهتزّ ، ويسكن الضجيج مؤخراً ، وأستمع ، وأدرك أنه استقام ، ويهدأ بالى ، وأدْخُل الغرفةَ صباحًا ، وأجِدُ العاصى الصغير ضاجعًا على متكأٍ نائمًا نوماً عميقًا كان فى أشدّ الاحتياج إليه بعد ذلك العناء .

ولا يَقِفُ الأمرُ عند ذلك الحَدّ ، وذلك أن الأمَّ تَعْلَمُ قضاء الولد ثلثى الليلة خارجَ فراشه ، ويُقْضَى على العمل حالاً ، ويَبْدُو الولدُ مثلَ هالك ، والولدُ ، إذ يَرَى الفرصةَ صالحةً للانتقام ، يزْعُم أنه مريضٌ غيرَ مُبْصِرٍ أنه لا يَكْسِب من وراء هذا شيئًا ، ويُدْعَى الطبيب ، ومن سوء

حَظِّ الأمِّ أن كان هذا الطبيبُ ماجناً أراد أن يتلهَّى بذُعرها فعَمِل على زيادته ، ومع ذلك فقد قال لى هَمْسًا : « دَعْنِي أعْمَل ، فأعِدُكَ بأن يُشْفَى الولد بعد قليلٍ من مُرَادِ مَرَضه » ، والواقعُ أن الولد أُوصِيَ بالحِمية والتزام الغرفة ، وفُوِّض أمرُه إلى الصيدليّ ، ومن حَسْرَتى أن رأيتُ هذه الأمَّ المسكينة فريسةَ خِداع جميع من يحيطون بها خلا نفسى ، وأن كنتُ موضعَ حقدها لأننى لم أُخادعها قَطُّ .

وتقول لى ، بعد لَوْمٍ شديد ، إن ابنها غلامٌ أُمْلُود* ، وإنه الوارثُ الوحيد لأُسْرته ، وإن من الواجب أن يحافَظ عليه بأيِّ ثمنٍ كان ، وإنها لا تريد أن يعاكَس ، وأوافقها على ذلك ، ولكنها تَعنِي بمعاكسته أن يُطاع فى كلِّ أمرٍ ، وأرى أن أعامِل الأمَّ بمثل ما عاملتُ الولد ، فأقول لها بفتورٍ : « سيدتى ، لا أعْرِف كيف يُرَبَّى الوارث مطلقًا ، وأكثرُ من هـذا أننى لا أريد أن أعرِف هذا ، فيُمْكِنُك أن تُرَتِّبى أمورَك وَفْقَ هذا » ، وقد كانوا محتاجين إلىَّ لأيامٍ أُخَرَ أيضاً ، فهَدَّأ الأبُ كلَّ شىء ، وكتبت الأمُّ إلى المُعَلِّم ليُعَجِّلَ رجوعَه ، وأبْصرَ الولدُ أنه لا يَكْسِب شيئاً من منع نومى ومن انتحاله المرض فَوَطَّن نفسه على النوم وعلى الظهور حسنَ الصحة أيضاً .

ولا يُمْـكن أن يُتَصَوَّر مقدارُ ما كان المعلِّم التَّعِسُ خاضِعاً له من أهواء الطاغية الصغير ، وذلك لأن التربية كانت تتمُّ على عينى الأمِّ التى لا تُطِيق أن يُعْصَى الوارثُ فى شىء ، وكان عليه أن يكون مستعدًّا ليأخذه معه كلما

* الأملود : اللين الناعم .

أراد الخروج ، أو أن يتبعه على الأرجح ، وفى هذا كان الولد يختار الساعة التى يكون معلِّمُه مشغولاً فيها ، وقد أراد أن يَتَّخذ نحوى ذاتَ السلطان وأن ينتقم نهاراً من الراحة المُلْزَم بأن يتركها لى ليلاً ، وقد رضيتُ بجميع هذا فَرِحاً وأخذت أُبدى مخلصاً ما يساورُنِى من حُبُور بجعله مسروراً ، ولما دار الأمرُ حَوْلَ شفائه من هواه بعد هذا انتحلتُ وجهاً آخر .

وأولُ ما وجب فعله أن يُوضَع فى موضع المخطىء ، ولم يَكُنْ هذا صعبًا ، وبما أننى كنت أعْرِفُ أن الأولاد لا يَحْلُمون بغير الحاضر فقد سَهُلَ علىَّ أن أُؤَثِّرَ فيه بِتَبَصرى ، فأُعْنَى بأن أُهيئ له فى المنزل لَهْواً كنت أعْرِف ملاءمته لذوقه إلى الغاية ، فإذا رأيته غارقاً به اقترحتُ التيامَ بنزهةٍ قصيرة ، ولم يَقْبَل ، وأُصِرُّ ، ولا يَسْتَمِعُ لى ، وعلىَّ أن أُذْعِن ، ويُقَيِّد علامةَ الإذعان فى نفسه باعتناء .

ويأتى دَوْرى فى الغد ، ويسأم من شغله كما كنت أنتظر ، وعلى العكس أُظْهِرُ كثيرَ الشُّغل ، وكان هذا كافياً ليُقرِّر ، ولم يَتَوانَ فى انتزاعى من عملى لآتىَ به إلى نُزْهَةٍ بأسرعَ ما يمكن ، فَرَفَضْتُ ، وأُصرّ ، وأقول له : « كلاَّ ، فقد تَعلَّمتُ من تنفيذ رغبتك أن أُنفِّذَ رغبتى ، ولا أريد الخروج » ، ويجيب بِشِدَّةٍ : « حسنًا ، سأَخْرُج وحدى » ، وأقول : « كما تريد » ، وأعود إلى عملى .

ويَلْبَس ثيابَه ، ويضطرب بالُه قليلًا من إغضائى عنه وعدمِ اتِّباعى إياه ، فلما استعدَّ للخروج أتى لتحيتى تَحِيَّتَه ، ويحاول أن يُخَوِّفنى بقصة أسفاره التى سيقوم بها ، فيَظُنُّ من يَسْمَعُه أنه ذاهبٌ إلى أقاصى الدنيا ،

وأتمنّى له رحلةً طيبة من غير أن أُحَرِّك ساكنًا ، ويتضاعف ارتباكُه ، ومع ذلك فقد أظهر الحزْم ، وقال لخادمه أن يَتْبَعه عندما هَمَّ بالخروج ، وكان الخادم قد حُذِّر فاعتذر بعدم مساعدة الوقت وبأنه قائمٌ بأمورى فيجب أن يُطيعَنى قبل أن يُطِيعَه ، ويعترى الولدَ دهشٌ فى هذه المرة ، وكيف يَتَصورُ تركَه يَخرُج وحدَه وهو يعتقد أنه أهمُّ الناس ويَرَى حِرْصَ السماء والأرض على سلامته ؟ ومع ذلك فقد أخذ يَشْعُر بضعفه ، وأدرك أنه يكون وحيداً بين أناسٍ لا يَعرِفونه ، ويُبْصِرُ مقدَّمًا ما ينتظره من أخطار ، ولا يزال أزرُه يشتدُّ بعناده وحدَه ، ويَنزِل من الدَّرج على مَهلٍ وبلا مَيْل ، ويَدْخُل الشارعَ أخيراً ساليًا بعضَ السُّلْوان عن الضُرِّ الذى قد يَمَسُّه بأمله فى جعلى مسؤولًا .

وذلك ما كنت أنتظر ، وكلُّ شيء كان مُعَدًّا مقدَّماً ، وكنتُ مُجَهِّزاً بموافقة الأب ، كأن الأمر ضَرْبٌ من المناظر العامة ، ولم يَكَدْ يتقدم بضع خُطُواتٍ حتى صار يَسْمَع عن اليمين وعن الشِّمال أقوالاً مختلفة حَوْله ، ومن ذلك : « أين يذهب وحدَه هذا الجار السيدُ الظريف ؟ سَيضِيعُ ، سأطلب منه أن يجىء عندنا ، احْذَرى يا جارة ، ألَا تَرين أنه فاجرٌ صغير طُرِد من من بيت أبيه لأنه لا يَصْلُح لشىء ؟ لا يجوز إيواء الفَجَرة ، ولْيَذْهب إلى حيث يشاء ، حسناً ، ولْيَحْفَظْه الله ! فما يَغِيظُنى أن يصاب بسوء » ، ويتقدم قليلاً فيلاقى أولاداً طائشين من لِدَاته تقريباً فيزعجونه ويَهزءون به ، وكلما تَقَدَّمَ وَجَد ما يضايقه ، وهو ، إذْ كان وحيداً بلا حماية ، رأى نفسه

ألْعُوبةَ جميع الناس وأَحَسَّ بكثيرٍ من الحَيْرَة أن عقْدَة كتفه وزُخرفَه الذهبيّ لا يَجْلُبون إليه احتراماً .

ومع ذلك فقد عهدتُ إلى أحد أصدقائى ، الذين كان لا يَعْرِفهم مطلقاً ، أن يَرْقُبه ، فكان يَتَتبَّعُه خُطوةً خُطوةً من غير أن ينتبه إلى ذلك ، وكان يدنو منه عند الاقتضاء ، وكان هذا الدَّوْرُ ، المُشابهُ لدَوْر سِبْرِيغَانى فى بُرْسُنْياك يتطلب رجلاً وافرَ العقل ، فقام به الصديق خيْرَ قيام ، وذلك أنه لم يجعل الولدَ أوجَلَ جزوعاً بتلقينه ذُعراً كبيراً ، وإنما أشْعَرَه بعدم تَبَصُّرِه فى عمله الشاقّ ، فلما مَضَى نصفُ ساعةٍ أتانى به لَيِّناً خَزِيّاً غيرَ مجترئٍ على رَفْع عينيه .

وتُكْمَلُ بَلِيَّتُه فى رِحلته حين عودته إلى البيت تماماً ، فقد نزَل أبوه للخروج فلَقِيَه على الدَّرج ، وكان عليه أن يُخْبِرَ عن المكان الذى أتى منه ، وعن سبب عدم وجودى معه[1] ، ووَدَّ الولد المسكينُ لو يكون تحت الأرض مئةَ قدم ، ولم يَتَلَهَّ الأبُ بأن يُوَجِّه إليه لَوْماً شديداً ، وإنما قال له بجفاء لم أكن لأنتظره : « إذا أردتَ الخروج وحدَك أمكنكَ فعلُ ذلك ، ولكن بما أننى لا أريد أن أرى عاصياً فى منزلى ، كما تَصْنَع ، فحَذَارِ أن تَعُود » .

وأما أنا فقد استقبلته غيرَ لائمٍ ولا ساخر ، ولكن مع شئ من الرَّصانة ، ولم أشأْ أن آتىَ به للنزْهة فى اليوم نفسه خشيةَ أن يَدُورَ فى

---

(١) لا خطر فى مثل هذه الحال من أن يطالب الولد بقول الصدق ، وذلك لأنه يعرف عجزه عن كتمانه ، ولأنه ، إذا ما جرؤ على الكذب ، لم يلبث أن يدان .

خَلَده أن كلّ ما وقع لم يكن غيرَ لَعِب ، ومما طاب لى كثيراً أن رأيته فى غَدِ ذلك اليوم يَمُرُّ معى ، كأنه فى مَوْكب نَصْرٍ ، أمام مَنْ سَخِرُوا منه أمْسِ حينما كان وحدَه ، وهكذا يُمْكنكم أن تُدْرِكوا أنه عاد لا يتوعدنى بالخروج من غير أن يكون معى .

فبهذه الوسائل وما ماثلها وُفِّقْتُ فى المدة القصيرة التى قضيتُها معه أن أجعله يَفْعَلُ كلّ ما أريد ، وذلك من غير أن آمره بشىء ، ومن غير أن أصُدّه عن شىء ، ومن غير أن أعِظَه بشىء ، ومن غير أن أحُثّه على شىء ، ومن غير أن أُضْجِرَه بدروسٍ لا طائلَ تحتها ، وكذلك كان يَبْدُو راضياً إذا تكلمتُ ، ولكنه كان يُذْعَرُ إذا ما التزمتُ جانبَ الصمت ، وذلك لأنه كان يَعْلَمَ أن بعض الأمور ليس صواباً ، وأن الدرس يأتى من ذات الشىء دائماً ، ولكن دَعْنا نَرْجع إلى الموضوع .

وهذه التمريناتُ المتصلة ، المتروكةُ لتوجيه الطبيعة وحدَه ، إذْ تُقَوِّى الجسمَ ، لا تؤدى إلى عدم خَبَل الروح فقط ، بَلْ ، على العكس ، تُكوِّن فينا ، أيضاً ، نَوْعَ العقل الوحيد الذى يَتَقَبَّلُه الدورُ الأول من العُمُر والذى هو ألزم ما يكون فى أىّ دورٍ من أدوار العُمر ، وهى تُعَلِّمنا كيف نُحْسِنُ استعمالَ قُوانا كما تُعَلِّمنا ما بين أجسامنا والأجسام المحيطة بنا من صلة ، وهى تعلِّمنا استعمالَ الوسائل الطبيعية الواقعة فى مُتناوَلنا والملائمةِ لأعضائنا ، وهل توجد رُعُونةٌ كرُعُونة الولد الذى يُنَشَّأُ فى الغرفة على عَيْنَىْ أمِّه دائماً فيَجْهلُ ما الثِّقَلُ وما المقاومةُ ويريدُ قَلْعَ شجرةٍ عظيمة أو رَفْعَ صخرة ؟ وقد أردتُ فى أول مرةٍ خرجتُ فيها من جِنِيفَ أن أَلْحَقَ حِصاناً راكضاً ، وقد رَمَيْتُ

حجارةً على جبل ساليفَ البعيدِ مِنى فرسخين ، فكنتُ موضعَ سُخْرية أولاد القرية عادِّين إيَّاىَ من البُلْه ، وفى العامِ الثامنَ عشرَ من العُمُر يُعَلَّمُ ما العَتَلةُ فى الفلسفة ، ولا يوجدُ قَرَوىٌّ صغيرٌ بالغٌ من العمُر اثنتى عشرةَ سنة لا يَعرِف استعمالَ العَتَلة أحسنَ مما يَعرِفُ الميكانىُّ الأولُ فى الأكاديمية ، وما يتلقاه التلاميذُ بينهم فى ساحة المدرسة أفيدُ مئةَ مرةٍ مما يقال لهم فى حجرة الدرس .

وانْظُرُوا إلى سِنَّوْرٍ داخلٍ غرفةً للمرة الأولى ، فهو يزور ، ويُبْصِر ، ويَشَمُّ ، ولا يَبْقَى دقيقةً واحدة مستقرًّا ، وهو لا يَرْكَنُ إلى شىء قبل أن يَفْحَص كلَّ شىء ويَعْرِف كلَّ شىء ، وهذا ما يَفعَل الولدُ الذى يبدأ بالمشى فيَدْخُل ساحةَ العالم على هذا الوجه ، ويقوم الفرقُ الوحيد على أنه يضاف فى الملاحظة إلى حاسَّة البصر ، المشتركة بين الولد والسِّنَّوْر ، ما حَبَتَ الطبيعة به ، الأول من يدين ، وما حَبَتْ به الثانىَ من حاسَّةِ شمٍّ نفَّاذة ، وهذا الاستعدادُ ، الذى يُحْسَنُ تَعَهُّدُه أو يُساء ، هو الذى يَجْعَل الأولادَ ماهرين أو غِلاظًا ، متثاقلين أو نِشَاطًا ، طائشين أو فُطُنًا .

وبما أن حركاتِ الإنسان الطبيعيةَ الأولى تقوم على قياسه بجميع ما يحيط به وعلى الشعور ، فى كلِّ شىء يُدْرِكُ ، بجميع الخواصِّ الحساسة التى يُمْكن أن تناسبه ، فإن درسه الأول يكون ضَرْبًا من الفِزْياء التجريبية الملائمة لبقائه فيُحَوَّل عنه بدروسٍ نظرية قبل أن يَعْرِف مكانَه فى هذا العالم ، وبينا يُمْكن أعضاءه الدقيقةَ المَرِنةَ أن تطابقَ الأجسامَ التى يجب أن تؤثر فيها ، وبَيْنا تكون حواسُّه سالمةً من الأوهام ، يكون هذا زمنَ تمرين الأعضاء والحوَاسِّ على الوظائف الخاصة بهما ، يكون هذا دَوْرَ تَعَلُّمنا معرفةَ العلاقاتِ

المحسوسة بيننا وبين الأشياء ، وبما أن كلَّ شيء داخلٍ ضِمْنَ الإدراك البشرىِّ يأتيه من الحواسِّ فإن عقلَ الإنسانِ الأولَ هو عقلٌ حسىٌّ ، وهذا هو العقلُ الذى يَصْلُح أساساً للعقل الذهنىِّ ، أى إن أساتذتنا الأولين فى الفلسفة هى أرجلنا وأيدينا وعيونُنا ، ولا ينطوى استبدالُ الكتب بجميع هذا على تعليمنا التعقل ، بل يعلِّمنا انتحالَ عقلِ الآخرين ، بل يُعَلِّمنا كثرةَ الاعتقاد وقلةَ المعرفة .

ويجب لممارسة صَنْعةٍ أن يُبْدَأ بإحراز وسائلها ، ويجب للقدرة على استعمال هذه الوسائل استعمالاً نافعاً أن تكون من المتانة ما تُقاوِم معه الاستعمالَ ، ويجب لتَعَلّمِ التفكير أن تُدَرَّب ، إذَنْ ، أعضاؤنا وحواسُّنا وأطرافُنا التى هى وسائلُ عقلنا ، ويجب للانتفاع بأقصى ما يُمكن من هذه الوسائل أن يكون الجسم الذى يُزَوِّدُ بها عُصْلُبيًّا سالماً ، وهكذا فإن من البعيد أن يتكون عقل الإنسان مستقلاً عن الجسم ، وحسنُ تكوين الجسم هو الذى يجعل أعمالَ الذهن سهلةً صحيحة .

وإنى ، حين أَدُلُّ على الوجه الذى يجب أن يُنفَقَ فيه فَراغُ الوَلُودية الطويلُ ، أَلِجُ بابَ التفصيل الذى يَلوح أنه موضعُ هزوء ، وسيقال لى إن الدروس التى تقع تحت سلطان نَقْدِك الخاصِّ ، فتقتصر على تعليم ما لا يحتاج إليه أحدٌ ، دروسٌ مضحكة ! ولِمَ يُقْضَى الوقت فى تعليمٍ يأتى من نفسه ولا يُكلِّف تَعَباً ولا رعاية ؟ وأىُّ ولدٍ بالغ من العمُرُ اثنى عشرَ عاماً لا يَعرِف جميعَ ما تريد تعليمَ تلميذِك إياه فضلًا عما يكون مُعَلِّموه قد عَلَّموه إياه ؟

أنتم مخطئون يا سادتى ، فأنا أُعَلِّم تلميذى صنعةً طويلةً جدًّا ، شاقةً جدًّا ، صنعةً لا يَحُوزها تلاميذُكم لا رَيْب ، صنعةَ كونه جاهلاً ، وذلك لأن عِلْمَ من يعتقد أنه يَعرِفُ ما يَعرِف فقط يُرَدُّ إلى شىء قليل ، وأنتم تُلقُون علماً ، حسناً ، وأما أنا فأُعْنَى بالوسيلة الصالحة لاكتسابه ، ويُرْوَى أن أهل البندقية أطْلَعُوا سفيرَ إسپانية على كنوز القديس مُرْقص ، وكان هـذا فى احتفالٍ عظيم ، فقَصَر مجاملته على قوله وهو ينظر إلى ما تحت المَنَاضِد : « هنا لا يوجد جذرٌ » ، فلا أرى مُعَلِّماً يَعرِض معرفةَ تلميذه من غير أن أحاوِلَ قَوْلَ مثلِ هذا له .

ويَعزُو جميعُ من يُنعِمون النظر فى طراز حياة القدماء إلى التمرينات الرياضية تلك القوةَ فى الجسم والذهنِ التى تميزُهم من المعاصرين بأوضحِ ما يمكن ، ويدلُّ الوجهُ الذى يَدْعم مُونتِينُ به هذا الرأىَ على أنه كان متأثراً به كثيراً فيَعُودُ إليه بلا انقطاع وعلى ألف طَرْزٍ ، وهو ، إذْ يتكلم عن تربية الولد ، يقول : « يجبُ لتقوية روحه أن تُقَوَّى عضلاتُه ، وهو يُعوَّدُ الألم حين يُعوَّدُ العملَ ، ولا بُدَّ من تدريبه على خُشُونة الرياضة البدنية حتى يألفَ عُنْفَ الانخلاع وشدةَ المَغْص وقسوةَ جميع الأمراض » ، وعلى ما بين الحكيمِ لوكَ والصالحِ رُولانَ والعالِمِ فلُورِى والمتحذلقِ كرُوزا من اختلافٍ كبير فى شَتَّى المسائل تجِدُهم جميعاً متفقين فى مسئلة تمرين أبدان الأولاد وحدَها ، وهـذا هو أصوبُ ما فى تعاليمهم ، وهـذا هو أكثرُ الأمور إهمالًا ، وسيكون هكذا دائماً ، وكنتُ قد تكلمت عن أهميته بدرجة الكفاية ، وبما أنه لا يُمكن أن يُبَيَّنَ حَوْل ذلك من الأسباب والقواعد ما هو

أفضلُ مما وَرَدَ في كتاب لُوك فإننى أقنع بإحالة القارئ إليه بعد أن أبيح لنفسى إضافةَ بعض الملاحظات إلى ملاحظاته .

ويجب أن تكون الأعضاء فى الجسم النامى طليقةً سهلةَ الحركة فى الثياب ، فلا يَنْبَغى أن يضايِقَ شىء حركتَها ولا نُمُوَّها ، فلا ضَيِّقَ ، ولا لاصقَ بالبدن ، ولا رُبُطَ ، ويُعَدُّ اللباسُ الفرنسىُّ المُتعِبُ للرجال وغيرُ الصحىِّ لهم ضارًّا بالأولاد على الخصوص ، وتَصْرَى* الأخلاطُ الراكدة التى يُوقَف دَوَرانُها بسُكونٍ يزيد بالحيـاة المتوانية الحضَرية ، فتَعْفَن الأخلاطُ وتُسَبِّب داء الخفَر الذى يَزيدُ انتشاره كلَّ يوم بيننا مع أنه مجهولٌ ، تقريباً ، لدى القدماء الذين كانوا يَتَّقُونه بطراز لُبْسهم وأسلوب معيشتهم ، ولا يَتَلافى لباسُ الفرسان هذا المحذورَ ، بل يزيده ، وإذا ما أُريد به إنقاذُ الأولاد من بعض الرُّبُط ضَغَطهم بَدَنًا ضَغْطًا كليًّا ، وأفضلُ ما يُصْنَع فى هـذا السبيل هو أن يُترَكوا لابسين سُتْرَةً لأطولِ وقتٍ ممكن ، ثم أن يُعطَوْا ثوبًا فَضْفاضًا من غير أن يُعْنَى بتجسيم قَوَامهم ، لِمَا يؤدى إليه هذا من تشويههم على وَجهٍ آخر ، وتنشأ جميعُ عيوبهم بدناً ورُوحًا عن ذاتِ العلة تقريبًا ، ويُراد جعلُهم رجالًا قبل الأوان .

ويُوجَدُ من الألوان ما هو مُشْرِقٌ وما هو قاتمٌ ، ويُفَضِّلُ الأولادُ الألوانَ الأولى ، وهى تلائمهم أيضاً ، ولا أدرى ما السببُ فى عدم أخذ الملاءمة الطبيعية فى هذا بعين الاعتبار ، ولـكن بما أنهم يُرَجِّحون النسيج الفاخر فإن هذا يعنى استهواءَ النفائس لأفئدتهم وميلَهم إلى جميع مناحى الزِّىِّ ،

* صرى الماء : طال مكثه وتغير .

ولم يأتهم هذا الذوقُ من أنفسهم لا ريب ، ومن التعذر بيانُ مقدارِ ما لاختيار الثياب وعواملِ هذا الاختيار من تأثيرٍ فى التربية ، وليس الأمهاتُ العُمْىُ وحدَهنّ مَنْ يَعِدْن أولادَهنّ بالزخارف مكافأةً لهم ، بل يُرَى ، أيضاً ، معلمون من الحَمْقَى يُهَدِّدون تلاميذَهم بثوبٍ أكثرَ خُشونةً وأعظمَ بساطةً عِقاباً لهم ، وذلك كأن يقولوا لهم : « إذا لم تكونوا أحسنَ درساً ، وإذا لم تكونوا أكثر اعتناء بثيابكم ، فإنكم ستُحْمَلُون على لُبْسِ ثيابٍ كثياب هذا الفَلّاح الصغير » ، ويَعْدِل هذا قولَهم للتلاميذ : « اعلَمُوا أن الإنسان ليس شيئاً بغير ثيابه ، وأن قيمتكم بما تَلْبَسُون » ، وهل يُعْجَبُ من تأثرِ أولادنا بهذه الدروس الصائبة ، ومن كونهم لا يُقدِّرون غيرَ الزُّخْرُف ، ومن كونهم لا يَرَوْن المَزِيَّة فى غير المظهر ؟

وإذا ما وَجَبَ أن أرُدَّ إلى الصواب ولداً بالغاً هذا المقدارَ من الدلال صَرَفْتُ هَمِّى فى جعل أفخر ثيابه أكثرَ ما يكون إزعاجًا ، فتُضايقه دائمًا ، وتَضْغَطه دائمًا ، وتَرْبُكه على ألفِ وجهٍ دائمًا ، وصرفتُ هَمِّى فى هَزْمى الحريةَ والبهجةَ أمام بهائه ، فإذا أراد أن يشترك فى ألعاب أولادٍ آخرين أكثرَ بساطةً فى اللُّبْس كَفُّوا كلُّهم عن اللَّعِب ، وتواروْا كلُّهم من فَوْرهم ، وأخيراً أَبْلُغ من إملاله أُبَّهَتَه وإشباعِه من زَهْوِه ، وأخيراً أَبْلُغ من جعله عبداً لثوبه الذهبىّ ، ما أجعل من هذا وذاك معه بليةَ حياتِه ، فيرى أن أسودَ سجنٍ مُظلِم أقلُّ هَوْلًا من عُدَّة زينته ، فأولُ ما يتمناه الولد أن يَطِيبَ عيشاً ويكون حُرًّا ما دام لم يُجْعَلْ عبداً لمُبْتَسَراتنا ، وتُعَدُّ الثيابُ الأكثرُ بساطةً والأعظمُ إراحةً والأقلُّ تعبيداً له أثمنَ ما يكون عنده دائمًا .

وتُوجَدُ للجسم عادةٌ ملائمةٌ للتمرينات ، وتوجد له عادةٌ أكثرُ ملاءمةً لعدم الحركة ، وبما أن هذه تَدَعُ للأخلاط سبيلاً سهلاً نَمَطِيًّا فإن من الواجب أن تَضْمَن البدنَ من تقلبات الجو ، وبما أن الأخرى تجعله ينتقل بلا انقطاع من الحركة إلى الراحة ، ومن الحرارة إلى البرودة ، فإن من الواجب أن نُعَوِّده عينَ التقلبات ،ومن ثَمَّ يَجِبُ أن يَلْبَس سكانُ المنازل وأهلُ المُدُن ثيابًا دفيئة فى كلِّ وقت حفظًا للبدن ضِمْن درجةٍ من الحرِّ متساويةٍ واحدةٍ ، تقريبًا ، فى جميع الفصول والساعات ، وأما الذين يأتون ويذهبون فى الرِّيح وتحت الشمس والمطر ، وأما الذين يسيرون كثيراً ويقضون معظم أوقاتهم فى العَرَاء ، فيجب أن يَلْبَسُوا ثيابًا خفيفةً دائمًا ، وذلك ليتعوَّدوا جميعَ تقلبات الجوِّ وجميعَ درجات الحرِّ ، دائمًا ، من غير أن يُمْتَنُوا ، فأَنْصَحُ هؤلاء وأولئك بألَّا يُغَيِّروا ثيابهم وَفْقَ الفصول ، وسيكون هذا عادةَ إميلَ الدائمةَ ، ولا أَقْصِدُ بهذا أن يَلْبَس ثيابَ الشتاء فى الصيف كالحَضَريين ، بل أَقْصِدُ أن يَلْبَس ثياب الصيف فى الشتاء كالعُمَّال ، وكانت هذه عادةَ السِّير نِيُوتُن مدى حياته ، وقد عاش ثمانين سنة .

وقليلُ كسوةٍ للرأس ، أو لا كسوةَ للرأس ، فى جميع الفصول ، وكان قدماء المصريين حاسرى الرأس دائمًا ، وكان الفُرْسُ يَسْتُرُون رؤوسَهم بتيجانٍ ضَخْمة ، واليوم يَسْتُر الفُرْسُ رؤوسَهم بعمائمَ كبيرةٍ يَجْعَل جوُّ البلاد استعمالَها ضروريًّا كما يَرَى شارْدان ، وقد ذكرتُ فى كتابٍ آخرَ ما أتاه هِيرُودُتُس من تفريقٍ فى ميدان القتال بين جماجم الفرس وجماجم المصريين ، ولِذَا ، فبما أن من المهمّ أن تكون عظامُ الرأس أشدَّ صلابةً وأعظمَ

كثافةً وأقلّ عَطَباً وأندرَ منافذَ لتسليح الدماغ ضِـدّ الجروح فضلاً عن الزُّكام والنَّزَلات وجميع مؤثِّرات الهواء ، فعوِّدوا أولادَكم أن يَبْقَوْا حاسرى الرأس فى الصيف والشتاء والنهار والليـل دائماً ، وإذا كنتم تودُّون نظافةَ شعرهم وانتظامَه فتريدون غِطاء له فى الليل فليكن هذا قَلَنْسُوَةً رقيقةً ذاتَ شُقُوق مشابهةً للشَّبَكة التى يَلُفُّ البَشْـكُنْسُ بها شعورَهم ، وأعْرِف جيداً أن مُعْظَمَ الأمهات اللائى وَقَفْتُ ملاحظةُ شارْدان أنظارَهم أكثرَ مما وَقَفْتَها براهينى سيَعْتقدن أنهن يَجِدْنَ جوَّ فارسَ فى كلِّ مكان ، ولكنى لم أخْتَرْ تلميذى الأوربىَّ لأجعَل منه آسيويّاً .

وعلى العموم يُلْبَسُ الأولادُ ثياباً كثيرة ، ولا سيا فى الدور الأول من عُمرهم ، مع أنه يجب أن يُعوّدوا البردَ أكثر من أن يُعوّدوا الحرّ ، فالبردُ لايؤذيهم مطلقاً إذا ما عُرِّضوا له باكراً ، ولكنْ بما أن نسيج جلدهم لَيِّنٌ جدًّا رَخْوٌ جدًّا ، فيساعد العرَق على السَّيل بكثرة ، فإنه يُسْلِمُهُم، بالحرِّ المتناهى ، إلى ضَنًى لا مَفَرَّ منه ، ولْنَعْلَمْ ، أيضاً ، أنه يَهْلِكُ به فى شهر أغسطس أكثر مما فى أىِّ شهر آخر، ثم إنه يَظْهر من الثابت ، عند المقابلة بين شعوب الشمال وشعوب الجنوب ، أن الإنسانَ يصير عُضْلُبيًّا بشِدَّة البرد أكثرَ مما بشِدَّة الحرِّ ، ولكن كلما كَبُرَ الولدُ واشتدت ألْيافُه عوِّدوه احتمالَ شُعَاع الشمس مقداراً فمقداراً ، وهو إذا ما تَدَرّج فى هذا السبيل جعلتموه يُطِيقُ قَيْظَ المِنطقة الحارة بلا خطر .

وبينما يُتحِفُنا لُوكُ بمبادئ صائبةٍ ذاتِ فُحُولةٍ تراه يقَعُ فى متناقِضاتٍ لا تُنْتَظَرُ من مفكرٍ مُدَقِّقٍ مثله ، فهذا الرجل الذى يَوَدُّ اغتسال الأولاد

فى الماء القارس صيفاً لا يريد أن يَشْرَبُوا ماء بارداً ، ولا أن يناموا على الأرض فى أمكنة رطيبة[1] ، إذا ما كانوا دَفِئين ، ولكن بما أنه يَوَدُّ أن يَنفُذَ الماء أحذيةَ الأولاد فى جميع الأوقات فهل يكون نفوذُ الماء إليها أقلَّ مقداراً عند ما يكون دفيئاً ؟ أفلا يُمكِن أن يُجْعَل له ، من حيث نسبةُ البدن إلى الرجلين ، عينُ الاستقراء الذى أتى به من حيث نسبةُ الرجلين إلى اليدين ، ومن حيث نسبةُ البدن إلى الوجه ؟ وأقولُ له إذا كنت تريد أن يكون كلُّ الإنسان وجهاً فلِمَ تلومنى إذا ما أردت أن يكون كلُّه رِجلين ؟

وهو ، لكى يحول دون شُرْب الأولاد عند ما يكونون دَفِئين ، أوصى بأن يأكلوا مقدماً كِسْرَةَ خبزٍ قبل أن يَشْرَبوا ، فمن الغرابةِ بمكانٍ إعطاء الولد ما يأكل عند ما يكون ظَمِئاً وأفضلُ أن يُعطَى ما يَشْرَب عند ما يكون جائعاً ، ولا أقنع ، مطلقاً ، بأن تكون شهواتنا الأولى مُخْتَلَّةً كثيراً فلا يُمكِن قضاؤها من غير أن نُعرِّض أنفسنا للخطر ، ولو كان الأمر هكذا لهلك الجنسُ البشريُّ مئةَ مرة قبل أن يُعْرَف ما يجب أن يُعمَل لبقائه .

وأُرِيدُ أن يُعطَى إميلُ ما يَشْرَب فى كلِّ مرةٍ يَعطَشُ فيها ، أريد أن يُعطَى ماء قَرَاحاً من غير إعداد ، حتى من غير أن يُفتَّر ، ولو كان غارقاً فى عَرَقه ، ولو فى صميم الشتاء ، وكلُّ ما أُوصِى بمراعاته هو أن يُمَازَ نوعُ الماء ، فإذا كان ماء نهرٍ فقَدِّموه إليه كما هو حالاً ، أى كما أُخرِج من النهر ، وإذا كان ماء يَنبوعٍ فدَعُوه فى الهواء بعضَ الوقت قبل أن

---

(١) كأن صغار الفلاحين كانوا يختارون الأرض الجافة ليجلسوا عليها أو ليناموا عليها ، وكأنه سمع أن رطوبة الأرض قد أضرتهم ، ولو ألقينا السمع إلى الأطباء لاعتقدنا أن جميع الهمج من الكسحان بفعل الرئية .

يَشْرَبه ، وذلك أن الأنهار فى الفصول الحارَّة تكون حارَّةً ، وأن هـذا ليس حالَ الينابيع التى لم تَمَسَّ الهواء ، فيجب الانتظارُ حتى تنال حرارةَ الجوِّ ، وعلى العكس يكون ماء اليَنْبُوع أقلَّ خطراً فى الشتاء من ماء النهر من هذه الناحية ، ولـكنه ليس من الطبيعىِّ ، ولا المألوفِ ، أن يُعْرَقَ فى الشتاء ، ولا سيما فى العَرَاء ، وذلك لأن الهواء البارد ، إذ يَلْطِمُ الجلدَ بلا انقطاع ، يَرُدُّ العَرَق إلى الداخل ويَحُولُ دون انفتاح المسامِّ بما فيه الكفاية حتى يمنحَه ممرًّا حُرًّا ، والواقعُ أننى لا أقْصِدُ أن يتدرب إميلُ شتاءً بجانب النار ، بل فى سواء الأرياف بين الجليد ، ولنَتْرُكْ إميلَ يَشْرَب متى عَطِشَ ما دام لا يَدْفأ بغير كُرَاتٍ ثلجية والرَّمْيِ بها ، ولْيُداوِمْ على التدرب بعد أن يَشْرَب ، ولا نَخْشَ صدورَ أىِّ عارضٍ عن هذا ، وإذا ما أخذ يَعْرق عن تمرينٍ ما فعَطِش فلْيَشْرَب ماءً بارداً حتى فى ذلك الوقت ، وإنما اجعلوه يسير إلى بعيدٍ بخُطاً قصيرةٍ باحثاً عن الماء ، ففى قَرٍّ كهذا الذى أفْتَرِض يكون قد بَرَد عرقه حين وصوله إلى مكان الشرب بلا خطر ، وعليكم أن تتخذوا هذه الاحتياطاتِ من غير أن يَشْعُر بها على الخصوص ، فعندى أن يَمْرَض أحياناً أفضلُ من أن ينتبه إلى صحته دائماً .

ويحتاج الأولاد إلى نوم طويل لِمَا يقومون به من تمرينٍ متناهٍ ، ويُعَدُّ أحد الأمرين مُلَطِّفاً للآخر ، ويدلُّ هذا على احتياجهم إليهما ، والليلُ هو وقت الراحة ، وقد عَيَّنَته الطبيعة ، ومن الملاحظات الثابتة أن يكون النومُ أعظمَ هدوءاً وأكثرَ دَعَةً حين تكون الشمسُ تحت الأُفُق ، وأنَّ الهواءَ الدَّفِئَ بأشعتها لا يَضْبط حواسَّنا فى مثل هذا السكون العظيم ، وهكذا

فإن أنفعَ العادات للصحة أن يقع النهوضُ والنوم مع الشمس لا رَيْب ، ومن ثَمَّ كان احتياجُ الإنسان والحيوان فى أقاليمنا إلى النوم فى الشتاء مدةً أطولَ مما فى الصيف على العموم ، غير أن الحياة المدنية ليست بسيطةً طبيعية سالمةً من التقلبات والعوارض بما فيه الكفاية حتى يُعَوِّدَ الإنسانُ تلك النَّمطِيَّةَ فتُجْعَلَ ضروريةً له ، ومما لا شكَّ فيه وجوبُ الخضوعِ لقواعدَ ، ولكن أولَى هـذه القواعد هى أن يُستطاع نَقْضُها بلا خَطَرٍ عند ما تَقْضِى الضرورة بذلك ، ولِذَا لا تُترِفوا تلميذَكم على غير بصيرة بدوامِ نومٍ هادئٍ لا يُقْطَع مطلقاً ، نَعَمْ ، أسلِمُوه فى البُداءة إلى قانون الطبيعة دُونَ مراعاةٍ لغيره ، ولكنْ لا تَنْسَوْا وجوبَ كَوْنِه فوق هذا القانون بيننا ، فيستطيع أن ينام متأخراً ، وأن ينهض صباحاً ، وأن يُوقَظَ بغتةً ، وأن يَقْضِىَ الليالى واقفاً ، من غير أن يُزْعَج ، وليُبْدَأْ بذلك باكراً ، وليُسْلَكْ السبيلُ رُوَيْدًا وعلى درجاتٍ ، لملاءمة تلك الأحوال التى تُقوِّضه إذا ما حُمِلَ على الخضوع لها بعد تمام تكوينه .

ومن المهمِّ أن يُعَوَّد النومَ على فراشٍ غيرِ مُرِيحٍ فى بدء الأمر ، فتكون هذه وسيلةَ عدمِ عَدِّه أىَّ سريرٍ سيِّئاً ، وإذا تحولت الحياةُ القاسية إلى عادةٍ زادت الإحساساتِ المستحبةَ على العموم ، وتُعِدُّ الحياةُ الناعمةُ ما لا حَدَّ له من الإحساسات المستكرَهة على العموم ، ولا يَجِدُ من يُنَشَّأون فى الترَف الكثير نَوْمَهم على غير الرِّيش الناعم ، ويَجِدُ من تَعَوَّدوا النومَ على الألواح رُقادَهم فى كلِّ مكان ، فلا يُوجَدُ فراشٌ خَشِنٌ لمن ينام عندما يَضْجَع .

ومن شأن الفِرَاش الوثيرِ ، حيث يُغاصُ فى الرِّيش والزَّغَب ، أن

يُذيبَ البدنَ ويَحُلُّه ، وتَدْفأُ الكُلْيَتان اللتان يُشْتَمَلُ عليهما اشتمالاً حارًّا ، ومن ثَمَّ تَنْشَأُ الحصَاةُ وغيرُها من الأمراض فى الغالب ، كما ينشأُ مزاجٌ لطيف يُغَذِّيها جميعاً لا رَيْب .

وأحسنُ فراشٍ هو ما يوجب أحسنَ نوم ، وهذا ما أُعِدُّه مع إميلَ نهاراً ، ولسنا محتاجيْن أن يُجلَب إلينا بعيدٍ من فارسَ لصُنْع فراشٍ لنا ، ونحن نَنْقُل فراشنا حين نَحْرُث الأرض .

وأعْرِف ، عن تجربةٍ ، أن الولد إذا كان ذا صحةٍ جُعِلَ ينام ويستيقظ كما يُرَادُ تقريباً ، وإذا كان الولدُ ضاجعاً ويُزْعِجُ خادمتَه بثرثرته فقالت له : « نَمْ » كان هذا كما لو قالت له : « شُفِيتَ » عند ما يكون مريضاً ، وأصحُّ طريقةٍ لحمْله على النوم هو أن يُسْأم ، فهو لا يَلْبَث أن ينام إذا ما كلمتموه بما يُكْرَه به على السكوت ، وتكون المواعظُ نافعةً فى بعض الأمور دائماً ، ومن النافع أن تَعِظُوه ما هَدْهَدْتُموه ، ولكنكم إذا ما استعملتم هذا المُنَوِّمَ ليلاً فاحذروا استعمالَه نهاراً .

وأُوقِظُ إميلَ أحياناً ، وذلك عن خشيةِ تعوُّده النومَ زمناً طويلاً أقلَّ مما عن تعويده كلَّ شيء ، حتى استيقاظَه فجأةً ، وذلك إلى أننى أكون قليلَ استعدادٍ لوظيفتى إذا لم أستطع حملَه على الاستيقاظ من تلقاء نفسه وعلى النهوض كما أريد من غير أن أقول له كلمةً واحدة .

وإذا لم يَنَمْ نوماً كافيًا جعَلْتُه يُبْصِر صباحًا مُمِلاًّ من الغد ، فيَعُدُّ كَسْبًا كلَّ ما يتركه للنوم من ذلك ، فإذا ما نام كثيراً أظهرتُ له عند ما يَصْحُو لَهواً يَرُوقه ، وإذا أردت أن يُفيقَ فى الوقت المُعَيَّن قلتُ له : « سأذهب

فى الساعة السادسة من الغد لأصطاد سمكاً ، وسأتنزه فى المكان الفلانىّ ، أفتريد أن تكون معى ؟ » ، ويوافق ، ويَرْجُو منى أن أوقظه ، وأُعِدُّ أو لا أُعِدُّ وَفْقَ الحاجة ، فإذا ما أفاق متأخراً وَجَدَنى ذاهبًا ، ومن البلية ألاَّ يَقْدِرَ من فَوْره أن يُفِيقَ من تلقاء نفسه .

ثم إذا حَدَث أن ولداً بليداً مال إلى الضَّرَى فى الكسل ، وهـذا نادرٌ ، فلا يجوز أن يُسْلَمَ إلى هذا الميل حيث يَخْمُد نشاطُه تمامًا ، وإنما يجب اتخاذ بعض المُحَرِّضات لإيقاظه ، ومما يُدْرَك جيداً أنه لا ينبغى أن يُحْمَل على السَّيْر بالقوة ، بل أن يُحَرَّك ببعض المُغْرِيات التى تَحْمِله عليه ، وإلى الغايتين يسوقنا هذا المُغْرِى المختارُ من نظام الطبيعة .

ولا أتصور شيئًا لا يستطيع ، مع شىء من اللباقة ، أن يُلَقِّنَ الأولادَ الذوقَ ، حتى الحَنَقَ ، وذلك من غير زهوٍ ولا منافسةٍ ولا حسد ، فيكفى لذلك نشاطُهم وروحُ المحاكاة فيهم ، ولا سيما مَرَحُهم الطبيعىُّ ، هذه الوسيلةُ التى لا يُشَكُّ فى القبض عليها ، والتى لم تَخْطُر ببال معلمٍ قطّ ، وذلك أنهم فى جميع الألعاب التى أُقْنِعوا بأنها ليست غيرَ ألعابٍ يَحْتَمِلون ، بلا تَوَجُّعٍ ، حتى مع الضحك ، ما كانوا لا يحتملونه من غير أن يَسْكُبوا سُيُولًا من الدموع ، ويُعَدُّ الصومُ الطويل واللَّكْمُ والحرق والتَّعَبُ على أنواعه لَهْوَ صغار الهَمَج ، وهـذا دليلٌ على أن للألم نفسِه من الفُتُون ما يُمْكن أن يَنْزِع كَرْبَه ، ولكن لا يستطيع جميعُ المعلمين طَبْخَ هذا الطعام ، كما أن جميع التلاميذ لا يَذُوقُونه من غير انقباض ، وهـذا بِدْعٌ ، فإذا لم أحترز تُهْتُ فى الشواذِّ .

ولا يَغْنى احتمالُه كونَ الإنسان عبداً للألم ولأمراض نوعِه وللعوارض ولأخطار الحياةِ ، وللموت أخيراً ، وكلما عُوِّد الإنسانُ جميعَ هذه الأفكار شُفِيَ من الإحساس المُزْعج الذى يضيف إلى السّوء عدمَ الصبرَ على احتماله ، وكلما جُعِل الإنسانُ يألف ما يُمكن أن يُصِيبَه من الأوصاب نُزِعَتْ منه زُبانَى العَرابة كما قال مُونتِين ، فيَغْدُو روحه متيناً سالماً من الجُرُوح ، ويصير جسمُه دِرْعًا تقيه جميعَ السِّهام التى يُمكن أن تكون قاتلة ، حتى إن دُنُوَّ الموتِ إذْ لم يكن الموتَ نفسَه فإنه لا يكاد يُشْعَرُ به على أنه هكذا ، فهو لن يموت ، وإنما يكون حَيًّا أو ميتاً لا غَيْرَ ، وعنه قال مُونتِينُ نفسُه كما قال عن مَلِك مَرّاكُش : « لم يَمُدَّ إنسانٌ حياتَه بعيداً فى الموت » ، ويُعَدُّ الثباتُ والحزْم ، كبقية الفضائل ، مدارَ تَخَرُّج الولد ، ولكن الأولاد لا يتعلّمون هذه الفضائل بتعلُّم أسمائها ، وإنما يتعلمونها بحَمْلهم على ذَوَاقِها من غير أن يَشْعُروا .

ولكننى إذْ أتكلم عن الموت أسأل : ما السبيل التى أَسْلُكُ مع تلميذى تجاه خَطَر الجُدَرِيّ ؟ أيُلَقَّحُ به صغيراً أم ننتظر إصابتَه به إصابةً طبيعية ؟ إن الأمرَ الأول أكثرُ ملاءمةً لعادتنا ، وذلك أنه يَحْفَظُ حياته في وقتٍ تكون فيه عظيمةَ القيمة ، وذلك على حساب خطرٍ يَحِيقُ بحياته عند ما تكون أقلَّ قيمةً ، وذلك إذا ما جاز لنا استعمالُ كلمة الخطر نحو تَلْقِيحٍ أُحْسِن صُنْعه .

وأما الأمرُ الثانى فأكثر ملاءمةً لمبادئنا العامة ، وذلك أن يُتْرَك للطبيعة اتخاذُ ما تودُّ اتخاذَه وحدَها ، فإذا ما تَدَخَّل الإنسان فى ذلك تركت

الطبيعةُ ذلك من فَوْرها ، وترَى رجلَ الطبيعة مستمدًا دائماً ، ولْنَدَعْه يُلَقَّحْ من قِبَل هذا السيد الذى يختار الوقتَ المناسب أحسنَ مما نختار .

ولا تستنبطوا من ذلك أننى ناقمٌ على التلقيح ، وذلك أن الأسباب التى أُعْفِىَ بها تلميذى منه سيئةُ الملاءمة لتلاميذكم ، وتُمِدُّهم تربيتكم لعدم الإفلات من الجُدَرِىِّ حينما يكونون عُرْضَةً لهجومه ، فإذا تركتموه يأتى مصادفةً هَلَكوا به على ما يحتمل ، ومما أرى فى مختلف البلدان أن مقاومة التلقيح تزيد بنسبة ما يصبح فيها ضرورياً ، ويَسْهُل إدراك هذا ، وأكاد أتَرَفَّع عن معالجة هذه المسئلة من أجْل إميل ، وهو إما أن يُلَقَّح ، وإما ألاَّ يُلَقَّح ، على حسب الأزمنة والأمكنة والأحوال ، وهذا ما لا يُكْتَرَث له بالنسبة إليه تقريباً ، وبيانُ الأمر أنه إذا ما أُتحف بالجُدَرِىِّ كان هنالك ما يُبْصَرُ به مرضُه ويُعْرَفُ مقدَّماً ، وهذا شىء ، ولكنه إذا ما أُصيب به إصابةً طبيعية يكون قد حُفِظَ من الطبيب ، وهذا هو الأصلح .

وتُفَضِّل التربيةُ الحاجبة ، التى لا تَميل إلى غير تمييزها من الشعب منْ يَتَلَقَّوْنها ، دائماً ، أغلَى تعليمٍ على التعليم المعتاد ، ولو كان هذا الأخير أكثرَ فائدةً ، ومن ذلك أن الفِتْيان الذين عُنِىَ بتربيتهم يتعلمون ركوبَ الخيل لغَلاَء هذا كثيراً ، ولكنك لا تَجِدُ واحداً منهم يتعلَّم السِّباحة ، تقريباً ، لعدم تكليفها شيئاً ، ولأن الصانع يستطيع أن يَسْبَح كأىِّ إنسانٍ كان ، ومع ذلك فإن المسافر يَرْكب الفرس من غير سابق تعليمٍ ويستقرُّ على ظهرها وينتفع بها لحاجته بما فيه الكفاية ، وأما فى الماء فإن الإنسان

يغرق إذا لم يسبح ، ولا تكون السباحة بلا تعليم ، ثم إن الإنسان لا يُكرَه على ركوب الخيل إذا كان يخشى الهلاك ، على حين لا يثق الإنسانُ باجتناب خطرٍ يعرّض له غالباً كالغرق ، وسيكون إميل في الماء كما على الأرض ، ولِمَ لا يكون قادراً على العيش فى جميع العناصر ؟ أأجعلُ منه نسراً إذا ما استطعتُ تعليمه الطيرانَ فى الهواء ، وأجعل منه سَمَنْدَراً* إذا استطاع احتمالَ النار .

ويُخشى أن يغرق الولدُ حين تعليمه السباحة ، ويقعُ الوِزْر عليكم دائماً سواء أغرِق حين تعليمه السباحةَ أم لعدم تعليمه إياها ، والغرورُ وحدَه هو الذى يجعلنا مغامرين ، ولا نكون هكذا إذا لم يرَنا أحد ، ولن يكون إميلُ هكذا ولو رآه جميع الناس ، وبما أن التمرين لا يتوقف على الخطر فإنه سيتعلم فى قناة حديقة أبيه عبورَ الدَّرْدَنيل ، ولكنْ يجب أن يتعوّد الخطرُ أيضاً لكى يتعلّمَ عدمُ الانزعاج به ، وهذا قسمٌ جوهريٌّ من التخرج الذى تكلمت عنه منذ قليل ، وبما أننى أكون منتبهاً ، فضلاً عن ذلك ، إلى المقابلة بين الخطر وقُوَاه ، مع مشاطرته هذا الخطر ، فإنه لا يكون ما أخشى معه غفلتى ما دمتُ أُنَظِّم أمرَ حفظِه وَفْقَ تنظيمى حفظَ نفسى .

والولد أصغر من الرجل ، وليس عند الولد ما عند الرجل من قوةٍ وعقل ، ولكنه يرَى ويسْمَع مثلَه أو يكاد ، وله مثلُ ذوقِه حِسًّا وإن كان هذا الذوقُ أقلَّ دقةً ، وهو يُفرِّق بين الروائح مثلَه وإن لم تكن له ذاتُ اللذة ، والحواسُّ هى أُولى

* السمندر أو السميدر : دابة تعيش فى الماء وعلى اليابسة ، وقيل إنها تفرز مادة تطفئ النار ، ولذلك قالوا إنها لا تحترق .

الخصائص التي تتكون فينا وتكمل ، ولذا فهي أولُ ما يجب تعهُّده ، وهي الوحيدةُ التي تُنْسَى ، أو التي تكون أكثر ما يُهْمَل .

ولا يعني تدريبُ الحواسِّ استعمالَها فقط ، بل يَعْني ، أيضاً ، تَعَلُّمَ حسنِ الحكم بها ، ، بل يعني تعلُّم الشعور بها ، فنحن لا نَعْلَم اللمسَ ولا الرؤيةَ ولا السماعَ إلَّا كما تعلَّمنا .

ويوجد من التمرينات ما هو طبيعيٌّ آليٌّ صِرْفٌ ، فيَصْلُح لجعل الجسم عُضْلُبيًّا من غير تحسينٍ للفكر ، أجَلْ ، إن السِّباحة والعَدْوَ والوثوب وسَوْطَ الخذروف وقَذْف الحجارة أمورٌ حسنةٌ جدًّا ، ولكن ألا يوجَدُ لدينا غيرُ الذُّرعان والسيقان ؟ أليس عندنا عيونٌ وآذان ؟ وهل هذه الأعضاء غيرُ ذاتِ نفعٍ في استعمال الأولى؟ إذَنْ، لا تقتصروا على تدريب القُوَى، بل دَرِّبوا جميعَ الحواسِّ التي تُوَجِّهها أيضاً ، وانتفعوا بكلِّ ما يُمْكِن من الحواسِّ، ثم حَقِّقُوا تأثيرَ كلٍّ منها بالأخرى، وقِيسوا واحْسُبُوا وزِنوا وقابلوا ، ولا تستعملوا القوة إلا بعد أن تُقَدِّروا المقاومة ، وليَقُمْ تقديرُكم للمعلول على سَبْقِهِ للوسائل دائماً ، وأغْرُوا الولدَ بألَّا يقوم بجهودٍ ناقصة أو زائدة ، وإذا ما عَوَّدتموه أن يُبْصِرَ نتيجةَ جميع حركاته على هذا الوجه فيُقَوِّم بالتجربة زَلَّاتِه أفلا يكون من الواضح ظهورُه حصيفاً كلما سار ؟

وإذا ما وَجَبت إزاحةُ كتلةٍ فتناول عَتَلَةً طويلةً أنفق حركةً كثيرة ، وإذا ما تناولها قصيرةً لم تكنْ لديه قوةٌ كافية ، فيُمْكِن التجربةَ أن تعلِّمه اختيارَ القضيبِ الضروريِّ تماماً ، وليست هذه الحكمةُ فوق مستوى عُمُره إذَنْ ، وإذا ما وَجَب حَمْلُ ثِقْلٍ وأراد أن يكون وَزِيناً بمقدار ما يستطيع أن يَرْفعَ ولم يحاولْ أن يَشُولَ أكثر مما يقدِر أفلا يُضْطَرُّ إلى تقدير الثِّقَل بالنظر ؟ وإذا أراد أن

يقابل بين كُتَلٍ من ذاتِ المادة مختلفةِ الحُجُوم أو أن يختار بين كُتَلٍ من ذاتِ الحجْم مختلفةِ الموادِّ أفلا يجبُ أن يمارس المقابلة بين أوزانها المعينة ؟ لقد رأيت فتًى حسنَ التربيةِ لم يُرِد أن يَعرِف إلّا بعد التجرِبة كَوْنَ الدَّلْو المملوءةِ نُشَارَةً من خشب البَلُّوط أقلَّ ثِقلاً من عين الدَّلْوِ المملوءة ماءً .

ولا نسيطر على استعمال جميع حواسِّنا بالتساوى ، ومن هذه الحواسِّ حاسةُ اللمس التى لا يُعطَّل عملُها فى أثناء اليَقَظَة مطلقاً ، وهى شاملةٌ لسطح بدننا بأجمعه ، وذلك كحارسٍ دائم يُخبِرُنا بكلِّ ما يُمْكن أن يؤذيَه ، وهذه الحاسةُ أيضًا، هى التى ننال بها ، طوعًا أو كَرْهًا ، و بأسرعِ ما يُمكِن ، ما يؤدِّى إليه ذلك التمرينُ المتصل من تجرِبةٍ ، وهذه الحاسةُ هى ، من حيث النتيجةُ أقلُّ ما يحتاج إلى تدريبٍ خاصّ ، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن للعُمْيان حاسَّةَ لمسٍ أصدقَ مما لدينا وأدقّ ، وذلك لأنهم ، إذ كانوا عاطلين من باصرةٍ مرشدةٍ لهم ، يُضْطَرُّون إلى تعلُّمِهم بحاسَّة اللمس حصراً آرَاءَ نَكْسِبُها بالأخرى أيضًا ، ولِمَ لا نتَمَرَّن ، إذَنْ ، على المشى فى الظلام مثلَهم ، فنَعرِفَ الأجسامَ التى يمكِن أن نَبلُغَها ، ونَحْكمَ فى الأشياء التى تحيط بنا ، ونصنعَ ليلاً ، و بلا ضياء ، جميعَ ما يصنعون نهارًا و بلا عيون ؟ إننا نكون فى وَضْعٍ أفضلَ مما يكونون ما سَطَعَت الشمسُ ، فإذا ما جَنَّ الليلُ ساروا أدِلاء لنا من ناحيتهم، فنحن عُمْىٌ نِصْفَ حياتنا ، وذلك مع الفارق القائل إن العُمْىَ الحقيقيين يَعرِفون ما يَصْنَعُون دائما ، وإننا لا نَجرُؤُ على التقدم خُطوةً فى سواء الليل ، وستقولون لى : لدينا نورٌ ، ماذا ! آلاتٌ دائما ! ومَنْ يجيبُ بأنها ستَتْبَعُكم

فى كلِّ مكان عند الضرورة ؟ وأما أنا فأُفَضِّل أن تكون لإميلَ عينان فى بنانه * على أن تكونا له فى دُكّان الشَّمّاع .

وإذا كنتم ضِمْنَ بناءٍ فى وسَط الليل فصَفِّقوا بيديكم لتُدْرِكوا من رنين المكان كَوْنَه كبيراً أو صغيراً وهل أنتم فى سوائه أو فى زاويةٍ منه ، وبما أن الهواء يكون أقلَّ استدارةً وأكثرَ ترديداً على مسافة نصف قَدَم من الجدار فإنه يَبْدُو ذا أثرٍ من نوعٍ آخرَ فى الوجه ، وقِفُوا فى مكانٍ ، ودُورُوا بالتعاقب إلى جميع الجهات ، لتدلَّكم ريحٌ خفيفةٌ على وجود بابٍ ، وإذا كنتم فى سفينةٍ عَرَفْتم من النَّمَط الذى تَلْطِم الريحُ به وجوهَكم هل يُسَيِّرُكم مجرى النهر بسرعةٍ أو ببطء ، وذلك فضلاً عن الجهة التى تَسِيرون إليها ، ولا تتمُّ هذه الملاحظات ، وما إليها من مثات الملاحظات المماثلة الأخرى ، إلاَّ ليلاً ، فمهما بُذِل من انتباهٍ حَوْلها نهاراً ساعدتنا الباصرة عليها أو صرَفَتْنا عنها فتَفْلِتُ مِنا ، ومع هذا لا توجد هنا يدٌ ولا عصا أيضًا ، وما أكثرَ المعارفَ البَصَريةَ التى يُمْكن أن تُكْتَسَب باللمس من غير أن يُلْمسَ شىء !

كثيرُ ألعابٍ فى الليل ، وهذا الرأىُ أهمُّ مما يلوح بمراحل ، ومن الطبيعىّ أن يُخِيفَ الليلُ الرجالَ وبعضَ الحيوانات[1] ، وقليلٌ من الناس مَنْ يُعفَوْن من هذه الضريبة بالعقل والمعارف والذهن والشجاعة ، وقد رأيتُ مفكرين وملحدين وفلاسفةً وجنوداً يكونون فى النهار من الشجعان ، فإذا ما أرخى الليلُ سُدُولَه ارتجفوا كالنساء عند حَفِيفِ ورقةِ شجر ، ويُعْزَى هذا الذعرُ إلى أحاديث المَرَاضع ، وهذا خطأٌ ، فلذلك سببٌ طبيعىٌّ ،

---

(١) يكون هذا الخوف واضحاً عند كسوف الشمس كسوفاً كلياً .

* البنان أطراف الأصابع .

وما هذا السبب ؟ هو الذى يَجْعَلُ الصُّمَّ حَذِرِين والقومَ خُرَافيين ، هو جهلُ الأشياء التى تحيط بنا وجهلُ ما يقع حَوْلنا[1] ، وبما أننى تعوَّدتُ

(١) إليك أيضاً سبباً آخر أوضحه فيلسوف استشهدت بكتابه كثيراً ووردت مناهل بصائره الواسعة غالباً :

« إذا ما قضت بعض الأحوال الخاصة بعدم تكويننا فكرة صادقة عن المسافة فلم نستطع أن نحكم فى الأشياء إلا باتساع ما تصوره فى أعيننا من زاوية أو رسم تعلرق الخطأ إلينا حول حجم هذه الأشياء لا محالة ، فكل واحد يعرف بالتجربة أننا ، حين السفر ليلا ، نحسب العليقة القريبة شجرة عظيمة بعيدة ، وأننا نحسب الشجرة العظيمة البعيدة عليقة قريبة ، وكذلك إذا لم تعرف الأشياء بشكلها ولم نستطع أن نكون فكرة عن المسافة بهذه الوسيلة تطرق الخطأ إلينا حتما ، فإذا ما مرت ذبابة مسرعة على بعد بضع خطوات من أعيننا بدت لنا فى هذه الحالة طيراً على مسافة بعيدة ، وإذا وجد حصان بلا حركة فى وسط حقل وكان متخذاً من الوضع ما يشابه وضع الضائن مثلا لم يبد لنا غير كبش ما دمنا لا نعرف أنه حصان ، ولكننا إذا ما عرفناه ظهر لنا فى الحال ضخما كالحصان وصححنا حكمنا الأول من فورنا .

« وفى كل مرة تجدنا ليلا فى أماكن مجهولة حيث لا نستطيع أن نحكم فى المسافة ، وحيث لا نستطيع أن نعرف شكل الأشياء بسبب الظلام ، حاق بنا خطر الوقوع فى الخطأ فى كل ثانية حول الأحكام التى نصدرها عن الأشياء التى تبدو لنا ، ومن هنا يأتى الهول أو ذلك الخوف الباطنى الذى يلقيه ظلام الليل فى جميع الناس تقريباً ، وعلى هذا تقوم ظاهرة الأشباح والأشكال الضخمة الهائلة التى يروى كثير من الناس أنهم رأوها ، وهم يجابرن عن هذا ، عادة ، بأن هذه الأشكال كانت فى خيالهم ، ومع ذلك فإن من الممكن أن كانت هذه الأشكال فى أعينهم وأن كانوا قد رأوا فى الحقيقة ما يقولون إنهم أبصروا ، وذلك لأن ما يحدث ، قطعاً ، أنه فى كل مرة لا يمكن أن يحكم فى الشىء إلا بالزاوية التى يكونها الشىء فى العين يضخم هذا الشىء المجهول ويعظم كلما اقترب منه ، فإذا ما بدا فى البداءة للناظر الذى لا يستطيع أن يعرف ما يرى ولا أن يحكم فى المسافة التى يراه عليها ، وإذا ما ظهر فى البداءة ، كما أقول ، عالياً بضع أقدام مع بعده عشرين أو ثلاثين خطوة ، لاح عالياً أقداماً كثيرة عند ما يصير بعيداً خطوات قليلة ، وهذا ما يجب أن يدهشه ويخيفه إلى أن يمس الشىء أو يعرفه ، وذلك أنه فى الثانية التى يعرف فيها الحقيقة يتضاءل من فوره ذلك الشىء الذى كان يبدو له ضخما ، ويعود لا يظهر له منه غير حجمه الحقيقى ، ولكنه إذا ما فر أو لم يجرؤ أن يدنو كان من الثابت أنه لا يكون لديه من الأفكار عن ذلك الشىء غير الصورة التى كونها فى العين وأبصر بها فى الحقيقة شكلا ضخما هائلا حجماً وهيئة ، ولذا تقوم مبتسرات الأشباح على الطبيعة ، ولا تتوقف هذه الظاهرات على الخيال وحده خلافاً لما يعتقد الفلاسفة » ، (بوفون ، التاريخ الطبيعى جزء ٦ ، صفحة ٢٢) .

وقد حاولت فى المتن أن أثبت أنها وليدة الخيال قسما فى كل وقت ، وأما من حيث السبب الموضح فى =

أن أبصر الأشياء من بعيد وأن أرى تأثيرَها مقدَّمًا ، وذلك من غير أن أشاهد شيئًا مما يحيط بى ، فكيف لا أفترض ألفَ موجودٍ وألفَ حركة تَقدِرُ أن تُؤذِيَنِي فيتعذر علىّ أن أضمن نفسى تجاهها ؟ ومن العبث أن أعْلَمَ أنى فى أمانٍ حيث أكون ، ولست أعْرِف هذا المأمنَ مالم أرَه فعلاً ، ولدىّ ، إذَنْ ، سببُ خَوْفٍ دائم مما ليس عندى فى وَضَح النهار ، والواقعُ أننى أعْرِفُ أن الجسم الغريب لا يستطيع أن يؤثر فى جسمى من غير أن يُخْبِرَ عن نفسه بصوتٍ ما ، وما أكثرَ ما تكون أذُنى مُرْهَفَةً بلا انقطاع ! وإذا ما حدث صوتٌ خفيف لا أستطيع إدراكَ سببه ، حَفَزَتْنى مصلحةُ بقائى إلى افتراضى فى بدء الأمر أكثرَ ما يُمْكِن أن يَحْمِلَنى إلى الحَذَر ، ومن ثَمَّ كلّ ما يمكن أن يُخيفَنى .

ولا أجِدُنى مطمئنًّا إذا لم أسمع شيئًا على الإطلاق ، وذلك لأن من الممكن أن أفاجأ فى آخر الأمر عند عدم وجود صوتٍ ، ويَجِبُ أن أفترض الأمورَ كما كانت سابقًا ، وكما يجب أن تكون أيضاً ، وأن أرى ما لا أرى ، وهكذا فإننى إذْ أُعمِل خيالى عن اضطرارٍ أعُود غيرَ سيدٍ له من فَوْرِى ، ولا يَنْفَعُ ما أكون قد صنعتُ تسكينًا لروْعى لغير زيادة ذُعْرِى ، وإذا ما سمعتُ صوتًا سمعتُ لصوصًا ، وإذا لم أسمع شيئًا رأيتُ أشباحًا ، وما

=النص المقتبس فإن من الواضح أن عادة السير ليلا تعلمنا أن نفرق بين تلك الظاهرات التى تقتبسها الأشياء المنظورة فى الظلام من تشابه الأشكال واختلاف المسافات ، وذلك لأن الهواء إذا كان من النور ما نبصر معه رسوم الأشياء ، وذلك مع وجود هواء كثير معترض فى البعد الكبير ، كانت رؤيتنا لهذه الرسوم أقل وضوحاً عند كون الشىء أكثر بعداً منا ، وهذا ما يكفى لوقايتنا بقوة العادة من الخطأ الذى يوضحه بوفون هنا ، ومهما تفضلوا من إيضاح فإن منهاجى مؤثر دائماً ، وهو الذى تؤيده التجربة تماماً .

يُوحِي به حُبُّ البقاء من حَذَرٍ لا يُلْقِي فيَّ غيرَ عواملِ الخوف ، وليس كلُّ ما يُطَمْئِنُنى فى غيرِ عقلى ، وغيرُ هذا ما تخاطبنى به الغريزةُ التى هى أقوى من العقل ، وما فائدةُ التفكير فى عدم وجود شىء يُخْشَى ما دام لا يُوجَدُ ما يُعْمَل إذْ ذاك ؟

ويدلُّ سببُ الداء الموجود على الدواء ، وتَقْتُلُ العادةُ الخيالَ فى كلِّ شىء ، والأشياءُ الجديدةُ وحدَها هى التى تُوقِظُه ، والذاكرةُ ، لا الخيالُ ، هى التى تَعْمَلُ فى ما يُرَى كلَّ يوم ، وهذا هو سببُ المثلِ القائل : « لا ينشأُ الهوى عن العادة » ، وذلك لأن الأهواء لا تشتعل بغير الخيال ، ولِذا لا ينبغى اتخاذُ العقل دليلًا مع مَنْ تريدون شفاءه من هَوْل الظلام ، وجيئُوا به إلى الظلام غالبًا ، وثِقُوا بأن جميع براهين الفلسفة لا تَعدِل هذه العادة ، ولا يَدُور رأسُ المُسَقِّفُون على السُّطُوح مطلقاً ، ولا يخاف فى الظلام مَنْ يتعود أن يكون فيه .

وإليك ، إذَنْ ، فائدةً أخرى من ألعاب الليل مضافةً إلى الأولى ، ولكن إذا أُرِيدَ نجاحُ هذه الألعاب لم يُوصَ ببهجتها كثيراً ، ولا شىء كئيبٌ كالظلام ، ولا تَحْبِسُوا ولدَكم فى سجن مظلم ، وليَضْحَك حين دخوله فى الظلام ، وليضحك قبل خروجه منه ، وذلك لتحُول فكرةُ اللهو الذى يَترُكُ والذى يجدُ دُونَ الخيالات الوهمية التى يُمْكِن أن تساوره .

ويوجد للحياة حَدٌّ يَرْجِعُ الإنسانَ إلى الوراء إذا ما تخطَّاه ، وأشْعُر بأننى جاوزتُ هذا الحدَّ ، ولذا أستأنفُ عملاً آخر ، وما تنطوى عليه الكهُولةُ التى تُشْعِرنى بنفسها من فراغٍ يَرْسُمُ لى راجعًا زمَن السِّنِّ الأولى

العَذْبَ ، وإنى ، حين أَشِيبُ ، أَعُود ولداً ، وأَذْكُر ، مختاراً ، ما صنعتُ ابنًا للعاشرة أكثرَ من ذكرى ما صنعتُ ابنًا للثلاثين ، ويا أيها القراء اغفِرُوا لى ، إذَنْ ، استنباطى الأمثلةَ من نفسى أحيانًا ، وذلك لأن حُسْنَ وَضْع هذا الكتاب يقتضى صُنْعى له طَيِّبَ الخاطر .

وقد كنت فى الأرياف نزيلَ قَسٍّ اسمُه مسيو لَنبرْسيه ، وكان يرافقنى ابنُ خالٍ لى أغنى منى ، فكان يعامَل مثلَ وارثٍ على حين لم أكنْ غيرَ يتيمٍ فقيرٍ لبُعْدِى من أبى ، وكان ابنُ خالى الأكبر برْنارد يُثِيرُ العَجَبَ بجُبْنِه ، ولا سيما فى الليل ، وقد بلغت من الهزوء بجُبْنه ما أراد معه مسيو لَنبرْسيه ، الذى ضاق ذَرْعًا بتبَجُّحِى ، أن يختبر شجاعتى ، فناولنى مِفتاحَ الكنيسة فى ليلةٍ من ليالى الخريف السُّود ، وطلب منى أن أذهب للبحث عن الكتاب المقدس فى المَذْبح حيث تَرَكَه ، وقد أضاف إلى ذلك من الكلام المثير للهمة ما جَعَل أمرَ تأخرى متعذراً .

وأذهبُ بلا قِنديل ، ولو أخذتُه معى لكان الوضعُ أسوأَ مما عليه كما يحتمل ، وكان علىَّ أن أمُرَّ من المقبرة ، فجاوزتها بحَزْمٍ ، وذلك لأنه لم يكن ليساورَنى هَوْلٌ ليلىٌّ ما دمتُ فى العَراء .

وأفتحُ البابَ ، وأسمعُ فى القُبَّة صَدًى مشابهًا لأصواتٍ ، فيأخذ فى زلزلةِ حَزْمى الرومانىِّ ، وأريد الدخولَ بعد فتح الباب ، ولكننى لم أكد أتقدم بضعَ خُطُواتٍ حتى وَقَفْتُ ، وذلك أننى إذْ أبصرتُ الظلامَ الدامس ، الذى كان يَسُود هذا المكانَ الواسع ، استحوذ علىَّ هَوْلٌ وَقَفَ شعرى ، وأتقهقر ، وأَخْرُج ، وأَلُوذ بالفِرار مرتجفًا تمامًا ، وأَجِدُ فى صَحْن الكنيسة

كُلَيْبًا اسمه سلطان ، وتُلْقِي ملامساتُه الخفيفةُ سَكِينَةً في قلبي ، وأَخْجَلُ من خوفي ، وأَرْجِعُ محاولاً جَلْبَ سلطان معي ، ولم يُرِدْ سلطان اتِّباعي ، وأجاوز البابَ فجأةً ، وأدخل الكنيسة ، ولم أَكَدْ أَدخُلُها حتى اعتراني الخوفُ ثانيةً ، ، وقد بَلَغَ هذا الخوفُ من الشِّدَّة ما فقدتُ معه صوابي ، ومع أن المذبح كان عن يميني ، ومع أنني عَرَفْتُ ذلك جيدا ، فقد انفتلت من غير وَعْيٍ وبحثتُ عنه في الشِّمال وقتًا طويلاً ، وقد ارتبكتُ بين المقاعد ، وعدتُ لا أَعْرِف أين أنا ، وبما أنني لم أستطع أن أَجِد المِنْبَر ولا البابَ فقد اضطربت اضطرابًا لا يوصَف ، وأُبصرُ البابَ أخيراً ، وأُهُمُّ بالخروج من الكنيسة ، وأبتعد عنها كما في المرة الأولى ، عازمًا على عدم دخولها وحدي في غير النهار .

وأعود حتى المنزل ، وبينما كنت مستعدًّا للدخول إذ تَبَيَّنْتُ صوتَ مسيو لَنبرْسيه وهو يُقَهْقِه ، وأَعُدُّ قهقهتَه مُوَجَّهَةً إلىَّ مُقَدَّمًا ، ويَرْبُكُني أن أرى نفسي عُرْضةً لها ، فأتردَّد في فتح الباب ، وأَسْمَع الآنسة لَنبرسيه في تلك الأثناء وهي تقول للخادمة أن تأخذ المصباح عن قَلَقٍ نحوي ، ويستعدُّ مسيو لَنبرْسيه للبحث عني على أن يرافقه ابنُ خالي الجسورُ الذي لن يُقَصِّرَ في منحه جميعَ فَخْرِ السَّرِية بعد ذلك ، وتَزُولُ جميعُ مخاوفي بغتةً ، ولم يَبْقَ عندي غيرُ الخَوْف من أن أباغَت هاربًا ، وأَرْكُض ، وأطير إلى الكنيسة ، وأَصِلُ إلى المِنْبَر من غير أن أضلَّ ومن غير أن أتردد ، وأَرْتَقِيه ، وأتناوَل الكتابَ المقدس ، وأَثِبُ منه ، وأكون بعد ثلاث قفزَاتٍ خارجَ الكنيسة التي نَسِيتُ حتى إغلاقَ بابها ، وأدخل الغرفة

ضَيِّقَ النَّفَس وأطْرَح الكتابَ المقدس على المِنْضَدة دَهِشاً ، ولكنْ خافقاً فَرَحاً بإنجازى ذلك من غير تلك المساعدة المقترَحة نحوى .

وسأُسأل هل أُقدِّمُ هذا الحادثَ مثالًا يُحْتَذَى ومَثَلًا على ما أطالب به من بهجةٍ فى هذه الأنواع من التمرينات ، كلاّ ، وإنما أُقدِّمه دليلاً على أنه لا شىء يستطيع أن يُسَكِّنَ رَوْع خائفٍ من أشباح الليل غيرُ سماعه فى غرفةٍ مجاورة أصحاباً يَضْحكون ويتسامرون هادئين ، وأريد ، بدلًا من أن يتلهى المعلِّمُ مع تلميذه وحدَه ، أن يُجْمَع فى الليالى كثيرٌ من الأولاد الطيِّبى المزاج ، وألا يُرْسَلُوا متفرقين فى البُداءة ، بل يُرْسل كثيرٌ منهم مجتمعين ، وألاّ يجازَفَ بإرسال أىٍّ واحدٍ منهم منفرداً ، حتى يُطْمَأَنَّ مقدَّمًا بأنه لا يكون خائفاً كثيراً .

ولا أتصور شيئاً أبهجَ ، ولا أنفعَ ، من مثل هذه الألعاب ناظراً إلى قلة ما يحتاج إليه تنظيمُها من مهارة ، وأُقيم فى بَهْوٍ كبيرٍ مثلَ رَتيهٍ مؤلَّفٍ من لَوْحاتٍ ومُتَّكَآت وكراسٍ وحواجز ، وأَضَعُ فى مُنْعَرَجات هذا التِّيه العُقْدِ ، وبين ثمانى عُلَب ، أو عَشْر عُلَبٍ ، مُقَلَّدَةٍ ، عُلبةً حقيقية مشابهةً لها تقريبًا ، مملوءةً مُلَبَّسًا ، وأُعَيِّن بكلامٍ واضح ، ولكن مع الإيجاز ، مكانَ العُلبة الصحيحة ، وأُعطِى أناسًا أكثرَ من الأولاد انتباهاً[1] وأقلَّ منهم طيشًا من الدلائل ما يكفى لتمييزها ، ثم أَجْعَل صغارَ المتبارين يَضْرِبون القرعةَ فأُرْسِل الواحدَ منهم تِلْوَ الآخر حتى تُوجَد العُلْبةُ الحقيقية ، وذلك مع زيادة صعوبة العمل بنسبة مهارتهم .

(١) يقضى تدريب انتباههم بألا تقولوا لهم غير أمور يكون من مصلحتهم الواضحة الحاضرة أن يدركوها جيداً ، وذلك من غير تطويل ولفظ زائد وإبهام وغموض فى قولكم .

وتَصَوَّروا هِرْكُولاً صغيراً يَصِلُ حاملاً علبةً بيده فَخُوراً بسَرِيَّته ، وتُوضَع العُلبة على المِنْضدة ، وتُفْتَح باحتفالٍ كبير ، وهنا أَسْمَع قَهْقَهاتٍ وسُخْرِياتٍ صادرةً عن العُصبة الفَرِحة إذْ رأت ، بدلاً من المُلَبَّس ، جِعْلاناً وحَلَزُوناً وفحماً وبَلُّوطاً ولِفْتاً وموادَّ مماثلةً أخرى مُرَتَّبةً على أُشْنَةٍ أو قطنٍ ، وفى مرةٍ أخرى تُعَلَّقُ على جِدارِ غرفةٍ مُكَلَّسةٍ حديثاً لُعبةٌ ومنقولاتٌ صغيرةٌ أخرى فيُطْلَب من الأولاد أن يُحْضِرُوها من غير أن يَمَسُّوا الجدار ، ولا يكاد الجالبُ لها يَدْخل حتى يُرَى إخلالُه بالشرط لِمَا يَنِمُّ على سوء تصرفه طرفُ قُبَّعته المُبَيَّضُ وطرفُ حذائه وذيلُ ثوبه وكُمُّه ، ويُعَدُّ هذا كافياً ، وأكثرَ من كافٍ على ما يحتمل ، لإدراك روح هذه الألعاب ، وإذا كنتم تنتظرون أن أقول لكم كلَّ شيء فلا تقرءوا كتابى مطلقاً .

وأىُّ تفوقٍ فى الليل لا يَتَّفِقُ لِمَنْ نُشِّئَ هكذا على الرجال الآخرين ؟ فبما أن رجليه تعودتا أن تَرْسَخ فى الظلام ، وبما أن يديه تَمَرَّنتا على لَمْسِ جميع الأجسام المجاورة بسهولة ، فإنهما تَقُوده فى أَحْلَكِ ظلامٍ بلا مشقة ، وبما أن خياله مملوء بألعابِ فَتائه الليلية فإن من الصعب أن يَنْصَرِف إلى أمور مخيفة ، وإذا ما اعتقد أنه يَسْمَع قَهْقَهاتٍ كانت هذه قهقهاتِ أصحابه القدماء بدلاً من قهقهاتِ الجِنّ ، وإذا ما تَمَثَّلَ مجلساً كان هذا غرفةَ معلمه ، لا مجتمعَ سَحَرَةٍ فى الليل مطلقاً ، ولن يكون الليل شيئاً كريهاً عنده ما ذَكَّره بأفكارٍ سارَّةٍ ، فيُحِبُّه بدلاً من أن يخشاه ، وهو يستعدُّ فى كلِّ ساعة عند كلِّ حَمْلةٍ عسكرية ، سواءٌ أكان وحدَه أم مع كتيبته ،

وهو يَدْخُل مُعَسْكَر شاوُل ويجول فيه من غير أن يَضِلّ ، وهو يَصِل إلى خيمة الملك من غير أن يوقِظ أحداً ، وهو يَعُود منه من غير أن يَشْعُر به أحدٌ ، واقصدوه بلا وجَلٍ عنـد ما يجب سَلْبُ حُصُن رِيزُوس ، فمن الصعب أن تَجِدُوا رجلاً مثلَ أوليسَ بين من نُشِّئُوا على وجهٍ آخر .

وقد شاهدتُ أناساً يريدون بالمفاجآت أن يُعَوِّدوا أولادَهم ألّا يخافوا شيئاً فى الليل ، وهذا المنهاجُ سيّئٌ جدًّا ، وهو يؤدى ، فى الحقيقة ، إلى عكس ما يُبْحَثُ عنه ، وهو لا يَنْفَع لغير جعلهم أكثرَ جُبْناً دائماً ، وما كان العقلُ ولا العادةُ ، ليستطيعا تسكينَ الرَّوْع حَوْل خطرٍ حاضر لا يُعْرَف مداه ولا نوعُه ، كما أنهما لا يستطيعان تسكينَ الرَّوْع حَوْلَ وجَلٍ من المفاجآت التى تُبْتَلَى فى الغالب ، ومع ذلك فكيف يُطْمَأَنُّ إلى وقاية تلميذكم من مثل هذه العوارض ؟ وهـذا أصلحُ رأيٍ يمكن أن يعطاه حَوْل ذلك مُقَدَّماً كما يَلُوح لى ، فأقول لإميلَ : « هنالك تكون فى وضع المُدَافع عن نفسه ، وذلك أن المعتدى لا يَدَعُك تحْكمُ فى هل يريد أن يؤذِيَك أو يُخيفَك ، وبما أن له هذا الوضعَ الملائم فإنك لا تَجِدُ مَلاَذاً حتى فى الفِرار ، فاقْبِضْ بجُرْأةٍ ، إذَنْ ، على من يباغتك ليلًا ، إنساناً كان أو حيواناً ، وَاضْغَطْهُ وقِفْهُ بما لديك من قوة ، وإذا ما انتفض للمقاومة فاضْرِب بلا هَوَادة ، ولا تَتْرُكْه يذهب قبل أن تَعْرِف من هو مهما قال أو فَعَل ، ومن المحتمل أن تَعْرِف بالاستيضاح عدمَ وجود شيء تخشاه ، غير أن هذه الطريقة فى معاملة المُجَّان مما يَحُول دون رجوعهم إلى ذلك بحكم الطبيعة » .

ومع أن حاسةَ اللمس أكثرُ حواسِّنا دوامَ تمرينٍ ، فإن أحكامها تَظَلُّ ،

مع ذلك ، أكثرَ نقصاً وأشدَّ غِلْظَةً من أية حاسَّة أخرى كما قلتُ ، وذلك لأننا نُدخل فى استعمالها عادةَ البصر دائماً ، ولأن العين ، إذ تَبلغُ الشىء بأسرعَ مما تَبلُغُه اليد ، فإن النفس تستغنى عنها فى الحكم ، وبالمقابلة تَجِدُ أحكامَ اللمس أعظمَ صحةً ، لأنها أكثرُ ما يكون اقتصاراً ، فبما أنها لا تمتدُّ إلى أبعدَ مما تمتدُّ إليه أيدينا فإنها تُقَوِّم طيش الحواسِّ الأخرى التى تتناول من بعيدٍ أشياء لا تكاد تُحِسُّها ، وذلك بدلًا من حاسة اللمس التى تَشْعُر جيداً بكلِّ ما تُحِسُّه ، ونحن إذْ نُضيفُ قوّةَ العضَل إلى فِعْل الأعصاب كما يَرُوقنا فإننا نُوَحِّد ، بإحساسٍ يَقَعُ فى وقت واحد ، بين حكم حرارة الجوِّ والأجرام والأشكال وحكمِ الثِّقَل والصلابة ، وهكذا فإن حاسة اللمس إذْ كانت بين جميع الحواسِّ أحسنَ ما يُخْبِرُنا بما يُمْكن الأجسامَ الغريبةَ أن تؤثِّر فى جسمنا فإن عادتَها أكثرُ العادات شيوعاً ، وهى أسرعُ ما يَمْنَحُنا من المعارف الضرورية لبقائنا .

وإذا كانت حاسةُ اللمس تقوم مقام حاسة البصر فلِمَ لا يُمْكِنُها ، كذلك ، أن تقوم مقام حاسة السمع إلى حدٍّ ما ، ما دامت الأصواتُ تُثيرُ فى الأجسام الطَّنَّانة اهتزازاتٍ تُحَسُّ عند اللمس ؟ إذا ما وُضِعَتْ يَدٌ على كَمَانٍ جهيرٍ أمكن أن يُمَازَ ، من غير استعانةٍ بالعيون وبالآذان ووَفْقَ الوجه الذى يَهتزُّ به الخشبُ ويَرْتَجُّ ، كونُ الصوت الذى يُصدر ثقيلاً أو حاداً ، وكونُهُ ناشئاً عن الزير * أو عن القرار ، وإذا ما مُرِّنت الحواسُّ على هذه الفروق لم أشُكَّ فى كوننا نُصْبِح مع الزمن من الشعور بحيث نَسْمَع بالأصابع لحناً كاملًا ،

* الزير : الدقيق من الأوتار .

والواقعُ أن من الواضح ، عند افتراض هذا ، إمكانَ مخاطبة الصُّمّ بالموسيقا بسهولة، وذلك لأن الألحان والأزمان إذْ لم تكن أقلّ تأثراً بالتراكيب المنتظمة من المفاصل والأصوات فإن من الممكن أن تتَّخَذ كعناصرَ للكلام .

ويُوجَدُ من التمرينات ما تَكِلُّ به حاسةُ اللمس ، ويَجْعَلُها أكثرَ عَيَاء ، وعلى العكس يوجد من التمرينات ما تُشْحَذُ به ويَجْعَلُها أكثرَ دقةً ولطافة ، وتُضِيفُ الأولى كثيراً من الحركة والقوة إلى انطباع الأجسام الصُّلْبة الدائم فتَجْعَل الجلدَ قاسياً جاسياً ، وتَنزِع منه الإحساسَ الطبيعيَّ ، وتُغَيِّر الثانيةُ هـذا الإحساسَ بلَمْسٍ خفيفٍ كثير فيكتسب الذهن ، المُنْتَبِه دائماً إلى الانطباعات المُكَرَّرة بلا انقطاع ، سهولةَ الحكم فى جميع تَحَوُّلاتها ، ويُشْعَرُ بهذا الفرق فى جميع الآلات الموسيقية ، وذلك أن لَمْسَ الكمانِ الجهير والكمانِ الأجهر ، حتى الكمانِ ، لَمْسًا شديداً أليمًا إذْ يَجْعَل الأصابعَ أكثرَ مرونةً فإنه يُصَلِّب أطرافَها ، ويَجْعَلُها البِيَانُ مَرِنةً حساسةً فى الوقت نفسه ، وبهذا يُفَضَّلُ البِيَان .

ومن المهمّ أن يَجْسَأ الجلدُ أمام مؤثِّرات الهواء فيستطيعَ مقاومةَ تقلباتِه ، وذلك لأن الجلد يَحْفَظ بقيةَ الجسم ، وإذا عَدَوْتَ هذا وجدتنى لا أريد أن تَجْسَأ اليد بأن يُفْرَطَ فى تمرينها على ذات الأعمال بلُؤمٍ ، ولا أن يصير جلدُها عَظْمِيًّا تقريباً فتَفْقِدُ الحسّ اللطيف الذى يُعْرَف به ما تُمَرّ عليه من الأجسام والذى يجعلنا نرتجف فى الظلام بمختلف الوجوه أحياناً وعلى حسب نوع اللمس .

ولِمَ يُلْزَم تلميذى بأن يَجْعَل تحت قدميه جلدَ بَقَرٍ دائماً ؟ وأىُّ أذًى

يمكن أن يَلْحَقه إذا ما استعمل جلدَه الخاصَّ نعلاً له ؟ ومن الواضح أن رِقة الجلد في هذا القسم لا يُمكِن أن تكون نافعة لشيء مطلقاً ويُمكِن أن تكون ضارة كثيراً غالباً ، ومما حدث في وسط الشتاء أن استيقظ أهلُ جنيف في مدينتهم هذه عند منتصف الليل بفعل العدوّ ، فوجدوا بنادقهم قبل أن يجدوا أحذيتهم ، ومَنْ يقول إن جنيف كانت لا تصبح قبضةَ العدوّ لو كان أهلوها لا يَعْرِفون أن يَسِيرُوا حُفَاةً ؟

ولنُجَهِّز الإنسانَ ، دائماً ، ضِدَّ الحوادث المفاجئة ، وليَرْكُضْ إميلُ حافياً في كلِّ صباح وفي جميع الفصول ، وذلك في الغرفة وعلى الدَّرَج وفي الحديقة ، وسأُقَلِّدُه بدلاً من توبيخه ، وإنما سأُعنى بإبعاد الزجاج ، ثم ليَتَعَلَّمْ اتخاذَ جميع الخطوات التي تُسَهِّلُ نُشُوء البدن ، واتخاذَ وَضْعٍ سهلٍ متين في جميع الأحوال ، ولْيَتَعلَّم الوُثُوبَ بعيداً عالياً ، وليَتَعلَّم الصعودَ في الشجر وتَسَوُّرَ الجُدُر ، ولْيَجِدْ توازنَه دائماً ، ولْتَكُن جميعُ حركاتِه وسَكِناته منتظمةً وَفْقَ قوانينِ توازن القُوَى المتعادلة ، وذلك قبل أن يُوضِح علمُ توازن الأجسام تلك القوانينَ له ، ويجب أن يَشْعُر بأنه في وضعٍ حسنٍ أو سيّئ من حيث الوجهُ الذي يَضَعُ رجلَه به على الأرض والحالُ التي يكون بها جسمُه على ساقه ، ولِلوَضْعِ الوطيد روعتُه دائماً ، وتُعَدُّ أمتنُ الهيئاتِ أظرفَها ، ولو كنتُ معلِّمَ رقصٍ ما أتيتُ جميعَ قِرْدياتِ مارْسِيل[1] الملائمةِ للبلد الذي جَعَلها فيه ، ولكنني آتي بتلميذي إلى أسفل

---

(١) معلم رقص مشهور بباريس كان يعرف جماعته جيداً فيأتي ما هو أرعن بالحيلة ، فيعلق على فنه من الأهمية ما يحمل معه أكبر تقدير له في الأساس ، وإن كان يرى مضحكا ، واليوم لا يزال يرى في فن آخر مثل هزلي جامع بين المهم والأرعن فيلاقي من النجاح ما ليس أقل من ذلك ، ويكون هذا الأسلوب في مأمن بفرنسة دائماً ، ولا حظ فيها للنبوغ الحقيقي الأكثر بساطة والأقل خداعاً مطلقاً ، ويعد الحياء فيها فضيلة الأغبياء .

صخرةٍ بدلاً من شَغْلِهِ بقفزاتٍ إلى الأبد ، فهنالك أُظْهِر له الوَضْعَ الذى يَتَّخذ ، وكيف يكون حالُ بدنهِ ورأسهِ ، وأىُّ الحركات يأتى ، والنمطَ الذى يَضَعُ به رِجلَه تارةً ويدَه تارةً أُخرى للسَّيْر سَيْراً خفيفاً فى الدُّروب الوَعِرةِ الصَّعْبة المُتْعبة ، وللوثوبِ من نقطةٍ إلى أُخرى صاعداً ونازلاً ، فأجعله يُبارِى أَيِّلًا لا راقصاً فى الأُوبِرَا .

وعلى نسبة ما تَجْمَعُ حاسةُ اللمس أعمالَها حَوْل الإنسان تُوَسِّع حاسةُ البصر أعمالَها بعيدةً منه ، وهذا ما يَجْعَل هذه الحاسةَ خادعةً ، وذلك أن الإنسان يشتمل على نصف أُفُقه فى لَمْحَة بصر ، وكيف لا يتطرق الخطأ حَوْلَ واحد من جَمْعِ هذه الإحساسات الحادثة فى وقتٍ واحد وحَوْلَ ما تُثِيرُ من آراء ؟ وهكذا فإن حاسة البصر أكثرُ حواسِّنا خطأً ، وذلك لأنها أوسعُ الحواسِّ مَدًى ، وذلك لأنها ، إذْ تَسْبِقُ الحواسَّ الأخرى بمسافاتٍ ، تكون أعمالُها عاجلةً جِدًّا مُتَّسعةً جِدًّا ، فلا يُمْكن أن تُقَوَّم بتلك الحواسِّ ، وذلك إلى أن الوَهْمَ حول المنظورات أمرٌ ضروريٌّ للوصول إلى معرفة المساحة وقياسِ ما بين أجزائها ، ولولا الظواهر الخادعة ما رأينا شيئاً فى البُعْدِ ، ولولا تسلسلُ الحَجْم والضياء ما استطعنا تقديرَ أية مسافةٍ كانت ، وإن شئت فقل إن المسافةَ لا يكون لها وجودٌ عندنا ، ولو بَدَت لنا إحدى الشجرتين المتساويتين ، البعيدةُ منا مئةَ خُطوةٍ ، كبيرةً جليةً كالشجرة الأخرى البعيدةِ عشرَ خُطوات لَوَضعناها بجانب هذه ، ولو كنا نُبْصِر جميعَ أبعاد الأشياء وَفْقَ قياسها الحقيقىِّ ما رأينا أيةَ مَسافة كانت ، ولَبَدَا الجميعُ على عيوننا .

ولا يوجد ، للحُكْم فى حجم الأشياء ومسافتها ، غيرُ قياس واحد ، أى

فُتْحَةُ الزاوية التى تُحْدِثها فى عيوننا ، وبما أن هذه الفُتْحة معلولٌ بسيطٌ لعلةٍ مركبة فإن ما تُثيره من حُكمٍ فينا يَدَعُ كلَّ علةٍ خاصة غيرَ معينةٍ ، أو يَغْدُو خاطئاً بحكم الضرورة ، وذلك لأنه كيف يُمَازُ بالعين المجرَّدة كَوْنُ الزاوية التى يَبْدُو الشىء بها أصغرَ من الآخر هى إياها لأن هذا الشىء الأول معلولٌ أصغرُ لها ، أو لأنه أكثرُ بُعْداً ؟

ويجب أن يُتَّبَعَ هنا منهاجٌ مباينٌ للسابق إذَنْ ، وذلك أن يُجْعَل عُضْوُ البصر خاضعاً لعضو اللمس بَدلًا من تبسيط الإحساس وتضعيفه وتحقيقه بإحساسٍ آخرَ دائماً ومن ثَمَّ أن تَزْجَرَ صَوْلَةُ الحاسَّة الأولى باتِّئاد الحاسَّة الثانية وانتظامِها ، وبما أننا لم نُخْضِع أنفسنا لهذه العادة فإن قياساتِنا بالتقدير تكون مختلةً جدًّا ، وليس لنا بلمحةِ البصر أىُّ دِقَّةٍ للحكم فى الارتفاع والطول والعمق والمَسَافات ، ويَبْدُو الدليلُ على أن الخطأ بالعادة أشدُّ مما بالحاسَّة فى كَوْن المهندسين والمَسَّاحين والمِعْماريين والبَنَّائين والمصوِّرين ، على العموم ، ذَوِى لَمْحَةٍ أحكمَ كثيراً مما لدينا ، وفى كونهم يُقَدِّرون قياساتِ الاتساع بإتقانٍ أعظمَ مما نقوم به ، وذلك لأن مهنتهم إذ تَمْنَحُهم فى ذلك من التجربة ما نُهْمِل اكتسابَه فإنهم يُزيلون الالتباسَ من الزاوية بالظواهر التى تلازمها والتى تُعَيِّنُ فى أعينهم ما بين سَبَبَىْ هذه الزاوية من نسبةٍ تعييناً دقيقاً .

ويَسْهُلُ على الأولاد أن ينالوا ، دائماً ، كلَّ ما يَمْنَحُ الجسمَ حركةً من غير أن يُضَايَق ، ويُوجَدُ ألفُ وسيلةٍ تَحْفِزُهم إلى قياس المسافات ومعرفتها وتقديرها ، وها هى ذى شجرةُ كَرَزٍ عاليةٌ جدًّا ، فما نَصْنَع لاقتطاف

الـكَرَز ؟ وهل يَصلُح سُلَّمُ النَّبْر* لهذا ؟ وها هو ذا جدولٌ عريضٌ جدًّا ، فـكيف يُعْبَر ؟ وهل يُوضَعُ لوحٌ من الحَوْش على ضِفَّتَيْهْ ؟ وإذا أردنا أن نصطاد من نوافذنا سمكاً فى خنادق القلعة فكم يجِبُ أن يكون عددُ باعات قَصَبتنا ؟ وإذا أردتُ وَضْع أرجوحةٍ بين هاتين الشجرتين فهل يكفينا حبلٌ طوله اثنتا عشرةَ قدَماً ؟ ويقال لى إن غرفتنا فى المنزل الآخر ستكون خمساً وعشرين قدماً مربعةً ، فهل تَظُنُّون أنها تلائمنا ، وهل تكون أكبرَ من هذه ؟ ونحن نلتهب جوعًا ، ففى أىِّ القريتين هاتين ننال غَداء بأسرعِ ما يُمكِن؟ إلخ .

وكان يرادُ أن يُدَرَّبَ على الركض ولدٌ مِكسالٌ بطىءٌ غيرُ راغبٍ هذا التمرين أو ذاك ، وإن كان يُعَدُّ للجندية ، ومما حَدَث أن أُقنِعَ ، ولا أدرى كيف ، بأنه لا يُطْلَبُ ممن هو من طبقته أن يَفعل شيئاً ولا أن يَعلَمَ شيئاً ، وبأن شرفه يقوم مقام الذُّرعان والسِّيقان كما يقوم مقامَ جميع أنواع المزايا ، فلا تكاد تَكفِى حتى حيلةُ شِيرُونَ لتجعل من مثل هذا الشريف أشِيلاً ذا رِجْلٍ خفيفة ، وكان الأمرُ يَزيدُ صعوبةً بِعَزْمِى على عدم أمْرِه بشىء ، وقد تَنَزَّلتُ عن حقوقى فى التحريض والوعد والوعيد والمباراة وحُبِّ الظهور ، وكيف أجْعَلُه يريد العَدْوَ من غير أن أقول له شيئاً ؟ إن العَدْوَ بنفسى وسيلةٌ مضمونةٌ قليلاً وذاتُ محذور ، ثم إنه كان من المطلوب أن أستخرج من ذلك التمرين معارفَ له أيضاً ، وذلك تعويداً لأعمال الآلة وأعمال الرأى أن تَسِيرَا جنباً إلى جنبٍ دائماً ، وإليك ما سلكتُ أنا الذى يتكلم فى هذا المثال :

---

* النبر : بيت التاجر الذى تنضد فيه الغلال والمتاع .

كنتُ حين أذهبُ للنزهة معه فى أوقات العصر أضع فى جيبى ، أحياناً ، قطعتين من الحَلْوى التى يُحِبُّ كثيراً ، وكان كلٌّ منا يأكل واحدةً منهما حين النُّزْهة [1] ، ثم نَعُود مسرورَيْن ، ومما أبْصَر ، ذاتَ يومٍ ، وجودُ ثلاثِ قِطَعٍ معى ، وكان يُمكِنه أن يأكل سِتًّا منها من غير أن يُزْعَج ، ويُسْرِع فى أكل قطعته ليَطْلُبَ منى الثالثة ، وأقول له : كلاًّ ، إننى سآكلها ، أو نقتسمها بيننا ، ولكننى أُفَضِّلُ أن يتنازعها ذانك الغلامان الصغيران فينالَهَا الفائزُ فى تسابقهما عَدْواً ، وأناديهما ، وأُريهما قطعةَ الحَلْوَى ، وأَعْرِض عليهما الشرطَ ، ولم يَطْلُبا ما هو خيرٌ من هذا ، وتُوضَعُ الحلوى على حجرٍ كبير اتُّخِذَ هَدَفاً ، وتُعيَّن المَسافة ، ونَذْهَب لنجلِس ، وتُعْطَى الإشارة ، وينْطَلِقُ الغلامان الصغيران ، ويَقْبِض الفائزُ على الحلوى ويأكلها بلا رحمةٍ على مرأى من الحُضُور والمغلوب .

وكانت هذه الأُلْهُوَّةُ خيراً من الحَلْوَى ، ولكنها لم تؤثِّر فى بدء الأمر ولم تأت بنتيجة ، ولم أيأس ، ولم أستعجل ، فتعليمُ الأولاد مهنةٌ تقضى بإضاعة الوقت كسباً منه ، ونداوم على نُزَهنا ، وتُؤخَذ ثلاثُ قِطَعٍ من الحَلْوَى غالباً ، وتؤخذ أربعُ قِطَعٍ منها أحياناً ، ويكون معنا فى الحين بعد الحين قطعةٌ واحدة أو قطعتان للعَدَّائين ، وإذا لم تكن الجائزةُ كبيرةً لم يكن مَنْ يتنازعونها من ذوى الطمع ، وإنما كان الفائزُ بها محلَّ ثناء واحتفال ، وكان كلُّ شىء يتمُّ بأُبَّهةٍ ، وكنت أجعل المَسافةَ أطولَ مما هى عليه وأُشْرِك

(١) النزهة الريفية كما يرى بعد قليل ، وأما النزه العامة فى المدن فهى تضر الولد من الجنسين ، فى هذه النزهة يصير الأولاد مختالين ومحل نظر ، وفى اللكسنبرغ والتويلرى ، ولا سيما الباله رويال ، تقتبس شبيبة باريس الرائعة ذلك الوضع الماجن الوقح الذى يجعلها موضع سخرية وهزوء وازدراء فى جميع أوربة .

فيها كثيراً من المتبارين توسيعاً لنطاق العدو وزيادةً فى الإمتاع ، ولا يكادُ المتبارون يَبْدَءون بالسباق حتى يقِفَ المارُّون لمشاهدتهم ، وكان يُشَجِّعهم الهُتَافُ والصُّراخ والتصفيق ، وكنتُ ، فى بعض الأحيان ، أرى الصبيَّ يهتزُّ ويَنهَضُ ويَصْرُخ عند ما يكاد أحدُ المتبارين يَبْلُغ الآخر أو يَسْبِقه ، فكانت هذه ألعاباً أُلَمْپِيةً بالنسبة إليه .

ومع ذلك فإن المتبارين كانوا يستعملون الخِداعَ أحياناً ، فيتحاجزون تبادلاً ، أو يُسقِطُ بعضُهم بعضاً ، أو يَدْفَعُ الواحدُ منهم فى طريق الآخر حَصَباً ، فيُجَهِّزنى هـذا بسببٍ لفصلٍ بعضهم عن بعض ، ولجعلهم ينطلقون من أماكنَ مختلفةٍ على أبعادٍ متساوية من الهَدَف ، وسترون علةَ هذا الحَذَر عما قليل ، وذلك لأننى سأعالج هذا الأمرَ المهمَّ مفصّلاً .

ويَسْأم السيدُ الشريف من أن يَرَى على عينٍ منه دائماً حَلَاوَى تحرِّك شهوتَه ، فيَدور فى خَلَدِه ، أخيراً ، أن حُسْنَ العَدْو يُمكِن أن يكون صالحاً لشىء ما ، وهو ، إذْ يَرَى لنفسه ساقيْن أيضاً ، يأخذ فى اختبار نفسه سِرًّا ، وأحترزُ من رؤية شىء ، ولكن مع إدراكى أن خِطَّتى نَجَحَت ، ولما اعتقد أنه ذو قوةٍ كافية ، وهذا ما أبصرتُه ، تظاهر بإزعاجى فى سبيل حيازته قطعةَ الحَلْوَى الباقية ، وأرْفِضُ ، ويُصِرُّ ، وأخيراً يقول لى بلهجة الغاضب : « حسناً ! ضَعْها على الحجر ، وعَيِّن المَيْدَان ، وسَنَرى » ، وأقول له ضاحكاً : « حسناً ! هل يستطيع الشريف أن يَرْكُض ؟ ستَشْتَدُّ فيك شهوةُ الطعام من غير أن تنال ما تَقْضِيها به » ، ويُنخَزُ بسُخْريتى فيَبْذُل جُهْدَه ، وينال الجائزة بسهولةٍ لِمَا كان من جعلى هذا السباقَ قصيراً

وإقصائى منه أحسنَ عَدَّاء ، وليس من الصعب أن يُتَصَوَّر ، بعد هذه الخُطوة الأولى ، كيف سَهُلَ علىّ أن أستَكِدَّه* ، ولسرعانَ ما بَلَغَ من الوَلَع بهذا التمرين ما صار يَطْمَئِنُّ معه تقريباً إلى الفوز على الأولاد الآخرين من غير محاباة مهما كان السباقُ طويلاً .

وأظْفَرُ بهذا النصر ، فينشأ عنه من النتائج ما لم يَخْطُر ببالى ، وكان يفوز بالجائزة على نُدْرَةٍ ، فيأكلُها وحدَه دائماً تقريباً ، وذلك كما كان يصنع منافسوه ، ولكنه لما تَعَوَّد النصرَ أصبح كريماً وصار يقاسِم المغلوبين إياها ، وهذا ما زَوَّدنى بملاحظةٍ أدبية عَرَفتُ بها مبدأ الكرمِ الحقيقىّ .

وعلى ما كان من استمرارى على تعيين الحدود فى مختلف الأماكن حيث يجب أن ينطلق كلٌّ واحدٍ معاً ، كنت أجعلُ المَسافاتِ متفاوتةً من غير أن يَشْعُر ، وبهذا كان يَلْحَقُ ضررٌ بَيِّنٌ بالذى يجب عليه أن يسيرَ أكثرَ من الآخر وصولاً إلى الهدف نفسِه ، ولكننى مع تَرْكِ الخِيار لتلميذى كان هذا التلميذ لا يَعْرِف الانتفاعَ به ، وذلك أنه كان يُفَضِّل أجملَ الطُّرُق غيرَ مبالٍ بالمَسافة دائماً ، وذلك مع بَصَرى خيارَه بسهولةٍ فكنتُ أسيطر تقريباً على فَوْزه بالحَلْوَى ، أو خُسْرِه لها ، كما أريد ، وكانت لهذه الشَّطَارةِ فائدةٌ لأكثرَ من غاية ، ولكنْ بما أن مَقْصِدى قام على إدراكه الفرقَ فقد سَعَيْتُ أن أجعلَ هذا الفرقَ ظاهراً لديه ، ولكنه ، وإن كان بايداً عند الهدوء ، كان كثيرَ النشاط فى ألعابه بالغَ الثقة بى ، فأَبْذُل كلَّ عناء لجعله يُدْرِك أننى أغُشُّه فى اللعب ، وأخيراً أَبْلُغ غايتى على الرغم من طَيْشه ، فيَلُومنى

---

* استكده : طلب منه الاشتداد فى العمل .

على ذلك ، وأقول : « من أيِّ شيء تَشْكو ؟ أمِنْ أجْل هبةٍ أريد حُسْن وَضْعها وأنا صاحبُ شروطها ؟ ومن ذا الذى يُكْرِهُك على العَدْو ؟ وهل وعدتُكَ بأن أجعلَ الأشواطَ متساويةً ؟ ألم يكن لك الخيار ؟ الْتَزِمْ أقصرَها ، فلا شيء يمنعُك من ذلك ، وكيف لا ترى أنك أنت الذى أُحابِي ، وأن التفاوت الذى تتذمَّر منه قد جُعِلَ نفعاً لك لو كنت تَعرِف أن تستفيدَ منه ؟ » ، والأمرُ واضحٌ ، وقد أدْرَكه ، وقد وجب أن ينظر إليه عن كَثَبٍ ليختار ، وأولُ ما أُريدَ هو أن يَعُدَّ الخُطُواتِ ، غير أن مقياسَ خُطُوات الولد بطيء قابلٌ للخطأ ، ثم إننى رأيتُ أن أُكَثِّرَ السِّبَاقاتِ فى اليوم الواحد ، وبما أن اللَّهوَ أصبح نوعاً من الوَلَع فقد أسِفَ الولد على إنفاق الوقت المُعَدِّ للعَدْوِ فى قياسِ الأشواط ، والواقعُ أن نشاط الوَلَدية يأبَى مثلَ هذا البطوء ، ولذا فقد دُرِّب الولدُ على حسن البصر والإصابةِ فى تقدير المَسافة بالنظر ، وبِذَا لم أجِدْ كبيرَ مشقةٍ فى توسيع هذا التميز وتغذيته ، وأخيراً كان له ببضعة أشهرٍ فى التجارِبِ والأغاليطِ المُصَحَّحَةِ من تقدير الأبعاد بالرؤية ما كنتُ إذا وَضَعْتُ معه بالفكر قطعةً من الحَلْوَى على شيء بعيد أظْهَرَ فى تعيين مسافتها بلَمْحَةٍ تعييناً دقيقاً ما يَظْهَرُ بسلسلةِ المَسَّاحِ تقريبًا .

وبما أن البصر هو أقلُّ ما يمكن فَصْلهُ من الحواسِّ عن أحكام الذهن فإنه لا بُدَّ من انقضاء زمنٍ طويل لتَعَلُّم الرؤية ، ولا بُدَّ من زمنٍ طويل يُقْضَى فى المقابلة بين حاسة البصر وحاسة اللمس تعويداً لأولى هاتين الحاستين أن تَجْعلَنا ذوى صِلةٍ صادقةٍ بالصُّوَر والمسافات ، ولولا حاسةُ اللمس ،

ولولا الحركةُ التدريجية ، ما كانت أنفذُ عيون العالم لتمنحنا أيَّ فكرٍ عن الاتساع ، ولا يجب أن يكون العالَمُ كلُّه غيرَ نقطةٍ عند المَحَار ، وما كان العالَمَ ليبْدُوَ أكبرَ من ذلك ولو أنبأتْ هذا المَحَارَ نفسٌ بشرية بذلك ، وليس بغير قوةِ المشى واللمس والعَدِّ والقياس ما نتعلم تقديرَ أبعاد الأشياء ، ولكنْ إذا ما قِسْنَا دائماً واعتمدت الحاسةُ على الآلة لم تَفُزْ هذه الحاسةُ بسدادٍ ، وكذلك لا يَجُوز أن ينتقل الولد من القياس إلى التقدير دفعةً واحدة ، وإنما يجب فى البُداءة أن يداوِم على المقابلة بين الأجزاء عند ما لا يستطيع أن يقابل دفعةً واحدة ، وذلك بأن يستبدل الكُسُورَ التقديريةَ بالكسور الصحيحة ، فيتعودَ تطبيقَ القياس بالعين وحدَها بدلًا من تطبيقه باليد دائماً ، وأودُّ ، مع ذلك ، أن يُحَقِّق عَمليَّاتهِ الأولى بالقياسات الحقيقية حتى يُصَحِّحَ أغاليطَه ، وأن يَتَعَلَّم ، عند بقاء ظاهرٍ خادع فى الحاسة ، تصحيحَه بتمييزٍ أصلحَ من ذاك ، ويوجد من المقاييس الطبيعية ما هو واحدٌ فى جميع الأمكنة كقَدَم الإنسانِ وطولِ ذراعيه وقامته ، وإذا ما قَدَّر الولدُ ارتفاعَ طبقةٍ من البناء أمكنه الانتفاعُ بعلمه قياساً ، وإذا ما قَدَّرَ ارتفاعَ بُرْجِ جَرَسٍ أمكن أن يَقِيسَه بالبيوت ، وإذا أراد أن يَعرِف فراسخَ الطريق عَدَّ ساعاتِ السَّيْر ، ولكنْ على أن يَصْنَع جميعَ هذا بنفسه ، لا أن يُصْنَع له شىءٌ منه .

ولا يُمْكِنُ تعلُّمُ تمييزِ اتساع الأجسام وحجمِها جيد قبل أن يُتَعَلَّم فى الوقت نفسِه معرفةُ أشكالِها ، حتى تقليدُها ، وذلك لأن هذا التقليد لا يتوقف ، من حيث الأساسُ ، على غير قوانين المناظر ، ولأنه لا يُمْكِن

تقديرُ الاتساع بظواهره من غير أن يُشْعَر بهذه القوانين بعضَ الشعور ، ويحاول جميعُ الأولاد ، الذين هم كثيرو التقليد ، أن يَرْسُمُوا ، وأُريد أن يُكِبَّ إميلُ على هذا الفنِّ ، لا للفنِّ نفسه ضَبْطاً ، بل لتقويم باصرته وجَعْلِ يده مَرِنةً ، وليس من المُهِمِّ ، على العموم ، أن يمارِس هذا أو ذاك ، وذلك على أن يكتسب بهذه الممارسة بصيرةَ الحسِّ وحسنَ عادة البدن ، ولذا فإننى أحترز كثيراً من تعيين معلمِ رسمٍ له لا يَحْمِلُه على غير تقليد مُقَلَّداتٍ ، ولا يَجْعَلُه يَرْسُم من غير الرُّسوم ، وأقْصِد بذلك ألّا يكون له غيرُ الطبيعةِ أستاذٌ ، وغيرُ الأشياء نَمُوذَجٌ ، وأُريدُ أن يكون الأصلُ نفسُه تحت عينيه ، لا الورقةُ التى تَعْرِضه ، كما أريد أن يَرْسُمَ بالقلم الرَّصاصيِّ بيتاً عن بيتٍ وشجرةً عن شجرة ورجلًا عن رجل حتى يتعودَ ملاحظةَ الأشياء وظواهرِها جيداً ، لا أن يَعُدَّ من التقليد الحقيقىّ ما هو زائفٌ اتفاقىٌّ من التقليدات ، وسأُحَوِّلُه ، أيضاً ، عن رسمِ شىء اعتماداً على الذاكرة عند عدم وجود الموادّ ، وذلك إلى حين انطباع صورها فى مُخَيِّلته انطباعاً صحيحاً عن ملاحظاتٍ متتابعة ، وذلك خشيةَ فَقْده معرفةَ النِّسَب وذَوْقَ محاسن الطبيعة عن استبداله بحقيقة الأشياء صُوَراً غريبةً وهمية .

وأعْرِف جَيِّداً أنه سيُسىء الرسمَ على هذا الوجه زمناً طويلاً قبل أن يَصْنَع ما تَسْهُلُ معرفتُه ، وأنه سيتأخرُ فى اقتباسِ رشاقة الخطوط ورسمِ المصوِّرين الخفيف ، ومن المحتمل ألا ينالَ ، على الإطلاق ، ما عند المُصَوِّر من بصرٍ فى الأشياء المائلة وحسنِ ذوقٍ فى الرسم ، وهو ، بالمقابلة ، سينال بَصَراً أكثرَ إصابةً ويداً أكثرَ إحكاماً ، ومعرفةً لما بين الحيوانات

والنباتات والأجسام الطبيعية من نِسَبٍ حقيقية فى الحجم والصورة ، وتجربةٌ سريعة فى أثَر المناظر ، وهذا ما أردتُ صنعه تماماً ، ولم أهْدِف إلى معرفته تقليدَ الأشياء كعلمه بها ، فأُفَضِّل أن يُرَبِّىَ نباتَ الأَقَنْثَة على إجادته رسمَ أوراقِ تاجٍ لعَمُودٍ .

ثم إننى لا أزْعُم أن لِتلميذى وحدَه لهواً فى هذا التمرين وغيره ، بل أريد أن أجعله أكثرَ طِيبًا له أيضاً ، وذلك بأن أقاسمه إياه دائماً ، ولا أريد أن يكون له منافسٌ غيرى مطلقاً ، ولكننى أكُونُ له منافساً بلا مَهَلٍ ولا خَطَر ، وهذا ما يَحْمِلهُ على الاكتراث لأشغاله من غير أن يُثِيرَ حسداً بيننا ، وسأتناول القلمَ الرَّصاصىَّ على مثاله ، وسأستعمله فى بدء الأمر استعمالاً سيئاً كما يَصْنع ، وسأكون مِثْل أبِلَّ ، فلا أجِدُنى غيرَ ردىء الرسم ، وسأبدأُ برسم رَجُلٍ كما يَرْسُم الخَدَمُ على الجُدْرَان ، فأجْعَلُ خطًّا لكلِّ ذراع وخطًّا لكلِّ ساق ، وأجعلُ أصابعَ أضخمَ من الذراع ، وسيُدْرِك كلٌّ منا عدم التناسب هذا بعد زمنٍ ، وسنلاحظ أن للساق ثِخَنًا ، وأن هذا الثِّخَنَ ليس واحداً فى كلِّ موضع ، وأن للذراع طُولاً معيناً بالنسبة إلى الجسم ، إلخ . ، وسأسيرُ فى هذا التدرج بجانب تلميذى ، أو إننى أسْبِقُه قليلاً حتى يَسْهُلَ عليه أن يَصِلَ إلىَّ دائماً وأن يتقدمنى غالباً ، وستكون لدينا أصباغٌ وأرياش ، وسنحاول تقليدَ ألوانِ الأشياء ومظهرِها وصورتها ، وسنلوِّن ، وسنُزَيِّن ، وسنسىء التصويرَ ، ولكننا لن ننقطعَ عن تَرَصُّد الطبيعه فى تصويرنا الردىء ، ولن نَصْنَع شيئاً غيرَ واقعٍ تحتَ عَيْنَىْ هذا الأستاذ .

وكنا فى هَمٍّ من أجْل زخارف غرفتنا ، وها هى ذى واقعةٌ الآن تحت

أيدينا ، وسنَضَعُ رسومَنا ضِمْنَ أُطُرٍ ، وسنُطبِقُها بزجاجٍ جميل لكيلا يَمَسَّها أحدٌ ، فإذا رآها كلٌّ واحدٍ منا باقيةً على الحال التى وضعناها فيها وَجَدَ من المصلحة ألاَّ يُهمِل رسومَه ، وأُرَتِّبها حَوْل الغرفة ترتيباً منتظماً ، وَيدُلُّ كلُّ رسمٍ مكرَّر عشرين مرةً ، أو ثلاثين مرةً ، على تقدُّم الواضعِ فى كلِّ نسخةٍ تقدُّماً يترجَّح بين الحين الذى كان البيتُ فيه مُرَبَّعاً غيرَ مُهَنْدَمٍ والحينِ الذى كان فيه مقدَّمُ البناء ومظهرُه الجانبيُّ وظِلالُه على أصحِّ ما يكون ، ولا يفُوتُ هذا التدرُّجُ أن يَعرِض علينا ، بلا انقطاع ، ألواحاً مُمْتعةً لنا جالبةً لأبصار الآخرين ، وأن يُحرِّك تنافسنا دائماً ، وأَضَعُ للأُولَى من هذه الرسوم ولأغلاطها أُطُراً على جانب من اللَّمَعان والتمويه بالذهب إمعاناً فى إظهارها ، ولكن التقليد عند ما يصبح أكثرَ دقةً ويكون الرسمُ حسناً حقًّا فإننى لا أَضَعُ له غيرَ إطارٍ بسيطٍ جدًّا ، فهو يَعودُ غيرَ محتاجٍ إلى زُخْرُفٍ غيرِ زُخْرُف نفسه ، فمن الخسْر أن يشاطِرَ الوَشْيُ ما يستحقه الشىء من انتباه ، وهكذا يتوق كلُّ واحدٍ منا إلى فَخْر الإطار غير المُدَبَّجِ ، ومتى أراد أحدُنا ازدراءَ رَسْمِ الآخر حَكَمَ عليه بإطارٍ مُمَوَّهٍ بالذهب ، ومن المحتَمَل أن تذهب هذه الأُطُرُ المُذْهَبةُ مثلاً بيننا ذات يومٍ ، فنقضى العجبَ من وجود أناسٍ كثيرين يَدُلُّون على حقيقتهم بوضعهم أنفسَهم ضِمْنَ أُطُرٍ على هذا الوجه .

وقد قلتُ إن علم الهندسة ليس فى متناول الأولاد ، ولكن هذا ذَنْبُنا ، ونحن لانَشْعُرُ بأن منهاجَهم غيرُ منهاجنا مطلقاً ، وبأن ما يُصْبح فَنَّ بَرْهنةٍ لنا لاينبغى أن يكون لهم غيرَ فنِّ الرؤية ، وأفضلُ لنا أن نتخذ منهاجَهم

من أن نمنحهم منْهاجَنا ، وذلك لأن أسلوبنا فى تعليم علم الهندسة هو عملُ خيالٍ كما هو عمل برْهنة ، فمتى بُسِطَتْ قضيةٌ وَجَب تَخَيُّل دليلِها ، أى أن تُوجَد القضيةُ المعروفة مُقدَّماً فيجب أن تكون هذه القضيةُ نتيجةً لها ، وأن تُختَار هذه النتيجة من بين جميع النتائج التى يُمكن استخراجُها من ذات القضية .

وهكذا فإن أدقَّ المُبَرْهِنين يبقى ضَيِّقَ النِّطَاق إذا لم يكن مُسْتَنبِطًا ، وما ينشأ عن ذلك ؟ ينشأ عن ذلك إملاء البراهين علينا بدلًا من حَمْلنا على اكتشافها ، وكَوْنُ المعلم يُبَرْهن من أجلِنا بدلاً من تعليمنا البَرْهنة ، فلا يُمرِّن غيرَ ذاكرتنا .

واصْنَعُوا صُوَراً مُتْقَنة ، ورتِّبُوها ، وَضَعُوا بعضَها فوق بعض ، وافْحَصُوا ما بينها من نِسَب ، تَجِدُوا جميعَ علم الهندسة الابتدائية سائراً من ملاحظةٍ إلى أُخرى ، وذلك من غير سؤالٍ ولا تعريفاتٍ ولا مسائلَ ولا أىِّ شكلٍ برهانىٍّ آخرَ غيرِ التنفيذ البسيط ، وأما أنا فلا أزعم أننى أُعلِّمُ إميلَ الهندسةَ مطلقاً ، وإميلُ هو الذى يُعلِّمنى إياها ، وأبحث عن النِّسَب ويَجِدُها ، وذلك لأننى أبحث عنها على وجهٍ أُحفِزُه به إلى اكتشافها ، ومن ذلك أننى ، بدلاً من استخدام بيكارٍ لرسم دائرةٍ ، أرْسُمُها بقلمٍ رَصاصىٍّ فى طرفِ خيطٍ دائرٍ حَوْل قُطب ، وإذا أردتُ ، بعد ذلك ، أن أُقابل بين أنصاف قُطْر الدائرة ضَحِك إميلُ منى وأرانى أن عَيْنَ الخيطِ المشدودِ دائماً لا يُمْكِن أن يَرْسُم مَسافاتٍ متفاوتة .

وإذا أردتُ قياسَ زاوية ذاتِ ستين درجةً رسمتُ من رأس هذه الزاوية دائرةً بكاملها ، لا قوساً ، وذلك لأنه لا ينبغى أن يُضْمَن الأولاد

شىء ، وأجِدُ أن جزء الدائرة الواقعَ بين ضِلْعى الزاوية هو سُدُسُ الدائرة ، وأرسُم من ذاتِ الرأس ، بعد ذلك ، دائرةً أكبرَ من تلك وأجِدُ أن هذه القوسَ الثانية هى سُدُس دائرتها أيضاً ، وأرسُم دائرةً ثالثةً مشتركةَ المركزِ وأقُوم عليها بذات التجربة ، وأُداوم على عين الاختبار فى دوائرَ جديدةٍ إلى أن يغتاظ إميلُ من غَباوتى فيُخْبِرَنى بأن كلَّ قوسٍ ، صغيرةٍ أو كبيرةٍ ، تشتمل عليها ذاتُ الزاوية تكون الجزء السادس من دائرتها ، إلخ . ، وها نحن أولاء نستعمل المِنْقَلة الهندسية عما قليل .

وتُرْسَمُ دائرةٌ لإثبات كون الزاويتين المتجاورتين مساويتين لزاويتين قائمتين ، وأما أنا فأصْنَع ، على العكس ، ما يلاحِظُ إميلُ به هذا فى الدائرة أوَّلاً ، ثم أقول له : « إذا ما أزلنا الدائرةَ وتركنا الخطوطَ المستقيمة فهل تُبَدَّل الزاويتان حجمَهما ، إلخ . ؟ » .

وتُهْمَل الدقةُ فى الأشكال لافتراضها ، ويُعْنَى بالإثبات ، وعلى العكس لا نبالِى بالإثبات ، وسيكون أهمّ شىء عندنا أن نَرْسُم خطوطاً مستقيمةً جِدًّا دقيقةً جِدًّا متساويةً جِدًّا ، وأن نَصْنَع مُرَبَّعاً كاملاً جـدًّا ، وأن نُخَطِّطَ دائرةً حسنةَ الاستدارة ، وسنَدْرُسُ الشكلَ بجميع خاصِّيَّاته المحسوسة تحقيقاً لدقته ، وسيُتِيحُ لنا هذا فرصةَ اكتشافِ خصائصَ جديدةٍ كلَّ يوم ، وسنَثْنِى نصفى الدائرة من القُطْر ، وسنَثْنِى نصفى المربع من الزاويتين المتقابلتين ، وسنقابل بين الشكلين لنرى أيُّهما أدقُّ أطرافاً ومن ثَمَّ أتقنُ صنعاً ، وسنتباحث حَوْلَ وجود هـذه المساواة فى التقسيم فى المُسَطَّحات المتوازية الأضلاع والمربعات المنحرفة ، إلخ . ، دائماً ، أوْ لَا ، وسنحاول ،

أحياناً ، أن نُبصِر نجاحَ التجربة قبل القيام بها ، وسنسعى فى اكتشاف الأسباب ، إلخ .

وليس علم الهندسة عند تلميذى غيرَ حسنِ استخدامِ المِسْطرة والبيكار ، ولا ينبغى له أن يَخْلِط بينه وبين الرسم حيث لا يَسْتَعْمل من هاتين الآلتين هذه ولا تلك ، فسيُقْفَل على المِسْطرة والبيكار بالمِفتاح ، ولن يُؤْذَن له فى استعمالهما إلّا نادراً ولوقتٍ قصير ، وذلك لكيلا يتعودَ إساءةَ التصوير ، ولكننا نستطيع أن نَحْمِل أشكالنا فى نُزَهِنا أحياناً لنتكلم عما صنعناه وعما نريد صُنْعَه .

ولن أنسى أننى شاهدتُ فتًى فى تُورِينَ عُلِّم فى صِباه ما بين الاستدارات والسُّطُوح من نِسَبٍ ، وذلك بأن يُترَك له كلَّ يومٍ أن يختار من الأشكال الهندسية ما تساوت استداراتُه طولاً ، وقد استنفذ هذا النَّهِمُ الصغيرُ فنَّ أرشميدس ليَجِدَ الشكلَ الذى كان يُوجَدُ فيه أكثرُ ما يُؤكَل .

ومتى أطار الولدُ طَيَّارةَ ورقٍ مَرَّن عينه وذراعَه على الإحكام ، ومتى ساط خُذْرُوفاً زاد قُوَّتَه باستعمالها ، ولكن من غير أن يتعلَّمَ شيئاً ، وقد سألتُ ، فى بعض المرات ، عن السبب فى أنه لم يُعْرَض على الأولاد من الألعاب القائمة على البراعة كالتى يقوم بها الرجال ، كالتَّنِس والصَّوْلجان والبِلْيار والنَّبْل والكُرَةِ وآلاتِ الطرب ، وقد أُجِبْتُ بأن بعض هذه الألعاب فوق قُوَاهم ، وبأن أعضاءهم وحواسَّهم ليست من النموِّ ما تَقُوم معه ببعضها الآخر ، وأَجِدُ هذه الأسبابَ واهيةً ، فليس للولد قامةُ الرجل ولكنه يَلبَس مِثلَ ثوبه ، ولا أعنى أن يَلْعَب بقِضباننا بلياراً بالغاً من

الارتفاع ثلاثَ أقدام ، ولا أقصِدُ أن يَلعب بالكُرَة فى ملاعبنا ، أو أن تُحَمَّل يدُه الصغيرةُ مِضرباً من مَضاربنا ، وإنما أريد أن يَلْعَب فى رَدْهةٍ تُضْمَن نوافذُها ، فلا يَستعمل فى البُداءة غيرَ كراتٍ رَخْوة ، وتكون مَضاربُه الأولى من خشب ، ثم من رَقّ ، ثم من وترٍ من الأمعاء مشدودٍ بنسبة تَقَدُّمه ، وتُفَضِّلون الطيارةَ الورقية لأنها أقلُّ إتعاباً ولا تنطوى على خَطَر ، ولستم على حَقٍّ فى هذين السببين ، فالطيارةُ الورقية من ألعاب النساء ، ولكنك لا تَجِدُ من النساء مَنْ لم تَفِرَّ من كُرَةٍ متحركة ، ولا ينبغى لجلودهنّ البيض أن تَخْشُن بالرَّضّ ، ولا تنتظر وجوهُهم جُروحاً ، وأما نحن الذين خُلِقوا ليكونوا أقوياء فهل نكون هكذا بلا مشقة ؟ وأىُّ دفاعٍ نَقْدِر عليه إذا لم نهاجَم قَطُّ ؟ يَقُوم الناسُ دائماً بألعابٍ لا ينطوى الخطأُ فيها على خطر ، ولا تُؤذِى الطيارة التى تَسْقُط أحداً ، ولكن لا شىء يَجْعَل الذِّرْعان لَيِّنةً كحِفْظ الرأس ، ولا شىء يَجْعلُ البصرَ صائباً كضَمان العيون ، وألعابٌ كالوثوب من طرف رَدْهةٍ إلى طرفها الآخر وكتقديرِ نَطَّةِ كُرَةٍ لا تزال فى الهواء وإعادتِها بيدٍ قويةٍ وطيدة أقلُّ ملاءمةً للرجل من صَلاَحِها لتكوينه .

ويقال إن ألياف الولد رَخْوَةٌ جدًّا ، وهى أقلُّ قوةً مما لدى الرجل ، ولكنها أكثرُ مرونةً ، وذراعُ الولد ضعيفةٌ ، ولكنها ذراعٌ فى آخر الأمر ، ويجب أن يُصْنَع بها ، مع حفظ النسبة ، كلُّ ما يُصْنَع بآلةٍ مماثلة أخرى ، ولا يُوجَدُ للأولاد فى أيديهم أىُّ حِذْقٍ كان ، ولِذَا فإننى أُريد منحَهم إياه ، وليس عند الرجل القليلِ التدريب أكثرُ مما عندهم ، ولا نستطيع أن نَعْرِف

عادةَ أعضائنا قبل استعمالها ، ولا يوجَدُ غير تجرِبةٍ طويلة واحدة نتعلَّم بها الانتفاعَ بأنفسنا ، وهذه التجرِبةُ هى الدرسُ الحقيقىُّ الذى لا يمكننا أن نُقبِل عليه باكراً .

وكلُّ ما يُصْنَعُ ممكنٌ صُنْعُهُ ، والواقعُ أنه لا شىء أكثرُ شيوعاً من أن يُرَى أولادٌ مَهَرَةٌ رَشَقٌ حائزون فى أعضائهم عينَ الرَّشاقة التى يُمكِن أن تكون فى الرجل ، ويشاهَدُ فى جميع الأسواق ، تقريباً ، من الأولاد مَنْ يَرْتجحون ويَمْشُون على أيديهم ويَقفِزُون ويَرْقُصون على الحبل ، وما أكثر السنين التى اجتذبت فيها كتائبُ من الأولاد ، برَقَصاتهم الرمزية ، جموعًا من حُضَّار الكُمِدْيةِ الإيطالية ! ومن ذا الذى لم يَسْمَع فى ألمانية وإيطالية حديثًا عن كتيبة التمثيل بالإشارات لِنيكولينى الشهير ؟ وهل لاحظ أحدٌ فى هؤلاء الأولاد حركاتٍ أقلّ نشوءاً وأوضاعًا أقلّ ظَرافةً وآذانًا أقلّ سَدَاداً ورقصاً أقلّ خفةً مما فى الراقصين الكاملى التدريب ؟ ولْتَكُن الأصابعُ ثخينةً قصيرةً قليلةَ الحركة فى البُداءة ، ولْتكُن الأيدى سمينةً قليلةَ القدرة على الإمساك ، فهل يَمْنَعُ هذا أولاداً كثيرين من الكتابة أو الرسم فى سنٍّ لا يَعرِف آخرون فيها إمساكَ اليَرَاع أو القلمِ الرَّصاصىّ ؟ ولا تزال باريسُ بأسْرِها تَذكُر أمرَ البُنَيَّة الإنكليزية التى كانت تأتى بالعجائب على البِيَان[1] ، وقد رأيتُ فى منزل حاكمٍ ابنًا له بالغًا من العُمُر ثمانىَ سنين كان يُوضَع على المائدة فيَبْدُو كالتمثال بين الأطباق فيَعْزِف على كَمَانٍ يَعْدِل حجمَه تقريبًا ، ويَقْضِى حتى المتفننون العجبَ من إيقاعه .

(١) أتى غلام فى السابع من عمره ما هو أدعى إلى العجب بعد ذلك الحين .

وتُثبِتُ هذه الأمثلةُ ومئةُ ألفِ مثالٍ مماثل أن ما يُعزَى إلى الأولاد من عدم أهليةٍ مفروضةٍ فى تمريناتنا أمرٌ خيالىٌّ كما يَلوح لى ، وأن النجاح إذا لم يُكتَبْ لهم فى بعضها كان هذا نتيجةَ عدمِ تدريبهم على ذلك مطلقاً .

وسيقال لى إننى أقَعُ هنا ، من حيث البدنُ ، فيما أنحِى باللائمة عليه من خطأٍ فى تثقيف ذهن الأولاد قبل الأوان ، والفرقُ عظيمٌ جدًّا ، وذلك لأن أحدَ هذين التقدمين ليس غيرَ ظاهرٍ مع أن الآخر حقيقىٌّ ، وقد أثبتُّ أنهم غيرُ حائزين للذهن الذى يَلُوح أنهم حائزوه ، مع أنهم يَفْعَلون جميعَ ما يَظْهَرُ أنهم فاعلوه ، ثم إن من الواجب أن يُذْكر دائماً أنه لا يجوز أن يكون جميعُ هذا غيرَ ما تطالبهم به الطبيعةُ من تسهيلِ الحركات وتوجيهها طَوْعاً ، غيرَ فَنِّ تحويل أُلْهُوَّاتهم إلى ما هو أحلى منها ، وذلك من غير أن يحَوِّلها أىُّ ضَغْطٍ إلى عمل ، وذلك مع السؤال أخيراً : أىُّ شىءٍ لا يَتَلَهَّوْن به فلم أَقْدِرْ أن أجعله موضعَ مَعْرفةٍ لهم ؟ حتى إننى عند عدم استطاعتى صُنْعَ هذا لا يكون تقدمهم فى المعرفة مهماًّ كثيراً فى الزمن الراهن ما داموا يَتَلَهَّوْن بلا ضرر ويَقْضُون أوقاتهم مَرِحين ، وذلك بدلاً من أنه إذاما قضت الضرورةُ أن يتعلموا هذا أو ذاك عند كلِّ مناسبة كان من المتعذر بلوغُ هذا أو ذاك من غير إكراه وكَدَر وضَجَر .

وما قلته عن الحاستين اللتين لهما من الاستعمال ما هو أدْوَمُ وأتمُّ يُمكِن أن يُتَّخَذ مثالاً للوجه الذى تمارَس به الحواسُّ الأخرى ، وتَسْرِى الباصرةُ واللامسةُ على الأجسام الساكنة والأجسام المتحركة على السواء ، ولكنْ بما أنه لا يوجد غيرُ اهتزاز الهواء ما يَقْدِر على التأثير فى حاسة السمع فإنه

لا يوجد غيرُ الجسم المتحرك ما يُحْدِث ضوضاء وصوتاً ، فإذا كان كلُّ شيء ساكناً لم نَسْمَعْ شيئاً مطلقاً ، وفى الليل ، حيث لا نتحرك إلاَّ بمقدار ما تروقنا الحركة ، لا نخشى ، إذَنْ ، غيرَ الأجسام التى تتحرك ، فمن المهمّ أن تكون لنا آذانٌ مرهفةٌ ، فنستطيعَ أن نَحْكُم ، بالإحساس الذى يَقْرَعُنا ، فى كَوْنِ الجسم الذى يُوجبه كبيراً أو صغيراً ، بعيداً أو قريباً ، وفى كَوْن اهتزازِه عنيفاً أو ضعيفاً ، ويكون الهواء المهتزُّ عُرْضةً لانعكاساتٍ تُرَدِّده ، وهذه الانعكاساتُ ، إذْ تُحْدِث أصداء ، تُكَرِّر الإحساسَ وتجعلنا نَسْمَع الجسمَ الصَّخَّابَ أو الرَّنَّان فى مكانٍ غيرِ المكان الذى يكون فيه ، وإذا ما وَضَعْنَا الأذن على الأرض فى سَهلٍ أو وادٍ سَمِعْنا صوتَ رجالٍ أو خَطْوَ خَيْلٍ أبعدَ كثيراً مما يكون لو بَقِينَا واقفين .

وكما أننا قابلنا بين الباصرة واللامسة كان من الحَسَن أن نقابل بين الباصرة وحاسة السمع ، وأن نرى أيُّ الأثرين يَصِلُ بأسرعَ من الآخر إلى عُضوه إذا ما صَدَرا عن ذات الجسم معاً ، ومتى رأينا نارَ مِدْفعٍ أمكننا اتقاء الضربة ، ولكنْ متى سَمِعْنا صوتَه عاد لا يكون من الوقت ما يُمْكِن ذلك معه ، فالقذيفةُ تكون قد وَصَلت ؛ ومن الممكن أن يُحْكم فى المسافة عند وقوع الرَّعد بفَتْرة الزمن الذى ينقضى بين البَرِيق والهَزِيم ، فاصنعوا ما يَعرِف الولدُ به جميعَ هذه التجارب ، ولْيَأْتِ من التجارب ما يكون فى متناوَله ، ولْيَجِد الأخرى باستقرائه ، بَيْدَ أننى أُفضل مئةَ مرةٍ جهلَه لها على أن تَقُولوها له .

ولدينا عُضوٌ يُجاوب حاسَّةَ السمع ، أى عُضوُ الصوت ، وليس لدينا من

الأعضاء ما يُجاوب حاسةَ البصر ، فلا نُردِّد الألوان كما نُردِّد الأصوات ، ثم إن هـذه وسيلةٌ لتَعهُّدِ حاسةِ السَّمْع بتمرين العُضو الفاعل والعُضو المنفعل مبادلةً .

وللإنسان ثلاثةُ أنواعٍ من الأصوات ، وهى : الصوت المتكلم أو الناطق ، والصوتُ المُغَنِّى أو المُطْرِب ، والصوتُ العاطفىُّ أو المُعَبِّر ، ويَصْلُح هـذا الأخيرُ لساناً للأهواء مُحَرِّكاً للشَّدْوِ والكلام ، وللولد هذه الأنواعُ الثلاثةُ من الصوت كما للرجل ، وذلك من غير أن يَعرِف مَزْجَ ما بينها ، وللولد ما عندنا من الضَّحِك والصُّراخ والتوجُّع والنداء والأنين ، ولكنه لا يَعرِف أن يَمزُج بين هذه الإمالات والصوتين الآخرين ، وليست الموسيقا الكاملةُ غيرَ التى تؤلِّف بأحسنِ ما يُمكِن بين هـذه الأصوات الثلاثة ، ويَعجِزُ الأولاد عن هذه الموسيقا ، وليس لغنائهم روحٌ مطلقًا ، وكذلك فى الصوت المتكلم لا تجِدُ للسانهم نَبَراتٍ ، وهم يَصْرُخون ، ولكنْ لا يَنبِرُون ، وكما أنه لا يوجد فى كلامهم نَبْرَةٌ إلا نادراً يَندُرُ وجود قوةٍ فى صوتهم ، وسيكون كلامُ تِلميذنا أكثرَ توحيداً وأعظمَ بساطةً أيضًا ، وذلك لأن أهواءه لا تَمزُج لسانَها بلسانه عن عدم تَنَبُّهٍ ، ولِذا لا تَحمِلُوه على تلاوة أدوارٍ ، عن ظَهْرِ القلب ، من مأساةٍ أو كُمِيدْيَةٍ ، ولا تَرغَبُوا فى تعليمه الإنشاد ، فلا بُدَّ له من حِسٍّ بالغٍ حتى يُنْعِم بصوتٍ على أُمورٍ لا يُدْرِكها ، وبنَبْرَةٍ على مشاعرَ لا يُحِسُّها مطلقًا .

وعَلِّمُوه الكلامَ بسيطاً واضحاً ، واللفظَ جليًّا جيداً ، والنطقَ مُحْكَمًا بعيداً من التكلف ، وعَلِّمُوه معرفةَ الحركاتِ النحوية ووَضْعَ الكلماتِ فى

مواضعها ، وأن يُخْرِج من الأصوات ما يَكْفِي للسماع دائمًا ، لا أن يُخْرِج منها أعلى مما يجب ، أى أن يجتنب هذا العيبَ الشائع بين الأولاد الذين نُشِّئُوا فى المدارس ، فلا يَجُوز وجودُ ما هو زائدٌ فى أىِّ شىء كان .

وكذلك فى الغِناء اجْعَلوا صوتَه مُحْكماً سَهْلًا لينًا ذا رَنين ، فتكُون أذنُه مُرْهفةً فى الوَزْن والانسجام لا غير ، ولا تلائم الموسيقا التقليديةُ والتمثيلية سِنَّه ، حتى إننى لا أريد أن يُغَنِّيَ بالكلام ، وهو إذاما أراد أن يُغَنِّيَ حاولتُ أن أضَع له أغانىَ مقصودةً ملائمة لعُمُره بسيطةً بساطةَ أفكاره .

وتَرَوْن أنى قليلُ العَجَلة فى تعليمه قراءةَ الخطِّ ، وليس غيرَ ذلك أمرى فى تعليمه قراءةَ الموسيقا ، فَلْنُبْعِدْ من دماغه كلَّ انتباهٍ شاقٍّ ، ولا نستعجِلْ تَثبيتَ الإشاراتِ الاصطلاحية فى ذهنه ، وأعترفُ بأن لهذا صعوبتَه كما يَلوح ، وذلك لأن معرفة المُجَسَّداتِ إذا لم تَبْدُ فى البُداءة أكثرَ لزومًا لمعرفة الغِناء من معرفة الحروف لمعرفة الكلام فإنه يوجد ، مع ذلك ، ذلك الفرقُ القائلُ إننا نُرَدِّد أفكارَنا الخاصةَ بالكلام وإننا لا نُرَدِّد غيرَ أفكار الآخرين بالغِناء ، والواقعُ أنه لا بُدَّ من قراءتها لترديدها .

ولكنَّ أولَ ما يقال إنها تُسْمَع قبل أن تُقْرَأ وإن الغِناء يُرَدَّدُ فى الأذن بأصدقَ مما فى العين ، ثم إنه لا يكفى ترديدُ الموسيقا لمعرفتها جيداً ، بل يجب تأليفُها ، ويجب تَعلُّمُ الأمرين معًا ، وإن لم يَحْدُث هذا لم تُعْرَف الموسيقا قَطُّ ، وفى البُداءة مَرِّنوا مُوسيقِيَّكم الصغيرَ على وَضع عباراتٍ منتظمةٍ حسنةِ الإيقاعِ ، ثم مَرِّنوه على رَبْط ما بينها بلحنٍ بسيطٍ جِدًّا ، وأخيراً مَرِّنوه

على تعيين ما بينها من علائقَ مختلفةٍ بترقيمٍ صحيح ، وهذا يكون بحُسْن اختيار المَحَاطّ والسَّكتَات ، وإياكم والغِناءَ الغريبَ على الخصوص ، وإياكم والشَّجَوِياتِ والتعبيرات ، فاللَّحْنُ الشادِى البسيطُ دائمًا ، واللحنُ المشتقُّ من أوتار النَّغَم الجوهريةِ دائمًا ، يَبْلُغ من الدلالة على أداته دائمًا ما يُشْعَرُ به ويُصَاحَبُ بلا مشقة ، وذلك أن تدريبَ صوت الولد وأُذنه يُوجبان عدمَ غِنائه بغير البيَان مطلقًا .

ويَتَطَلَّبُ تعيينُ الألحان جيداً أن تُلْفَظ واضحةً حين النطق بها ، ومن ثَمَّ أتت عادةُ التنغيم ببعض المقاطع ، ويتطلب تميز الدَّرَجات إطلاقَ أسماء على هذه الدرجات وعلى حدودها المختلفة الثابتة ، ومن هنا جاءت أسماء الفواصل ، كما جاءت ، أيضاً ، حروف الأبجدية التى تُمَازُ بها مفاتيحُ البيَان ومُجَسَّدات السُّلم ، ويُعَيِّن C و A ألحانًا ثابتة تُرَدَّدُ ، دائمًا ، بعين المفاتيح ، وغيرُ ذلك أمرُ ut و La ، فأما ut فهو ، على الدوام ، أساسُ السُّلَّم الأكبر ، أو وسيطُ السُّلَّم الأصغر ، وأما La فهو ، على الدوام ، أساسُ السلّم الأصغر ، أو المُجَسَّدَةُ السادسة للسلّم الأكبر ، وهكذا فإن الحروف تَمِيزُ الحدودَ الثابتة لنِسَب منهاجنا الموسيقىّ ، وإن المقاطع تَمِيزُ الحدودَ المتناظرة لِمَا تشابه من النِّسَب فى مختلف الألحان ، وتَمِيزُ الحروفُ مفاتيحَ البيان ، وتَمِيزُ المقاطع درجاتِ السُّلَّم ، وقد خَلَط مُوسيقيُّو فرنسة بين هذه الفروق خلطًا غريبًا ، فلم يُفرِّقوا بين معنى المقاطع ومعنى الحروف ، وهم ، إذْ ضاعفوا إشاراتِ المفاتيح على غير جَدْوَى ، لم يَدَعُوا من ذلك قطُّ ما يُعبَّر به عن أوتار الألحان ، وهكذا فإن ut و C عندهم شىءٌ واحد ، وليس الأمرُ هكذا ، ولا يجوز

أن يكون هكذا ، وإلاَّ فما يكون استعمال C ؟ وكذلك فإن طريقتهم فى التنغيم كثيرةُ الصعوبة من غير أن تكون لها أيةُ فائدة ، ومن غير أن تحمِل للذهن أيةَ فكرةٍ واضحة ، ما أمكن أن يَدُلَّ المقطعان ut و mi على الثالث الأكبر أو الثالث الأصغر أو الثالث الزائد أو الثالث الناقص ، وياله من نصيبٍ عجيبٍ أن يكون هذا البلدُ العالَمِىُّ الذى تُوضَعُ فيه أروعُ كتب الموسيقا عينَ البلد الذى يَبْدُو أصعبَ ما تُعَلَّم فيه ضَبْطًا !

ولْنَتَّبِعْ مع تلميذنا طريقاً أكثرَ بساطةً وأشدَّ وُضوحاً ، فلا يكونَ له غيرُ سُلَّمين ذواتى نِسَبٍ واحدةٍ بينهما دائماً ، فيشارَ إليهما بعين المقاطع دائماً ، وسواء أغَنَّى أم عَزَفَ على آلةٍ كان الرأىُ أن يَعْرِف إقامةَ سُلَّمه على كلِّ واحدٍ من الألحان الاثنى عشرَ التى يُمْكِنه الانتفاعُ بها أساساً ، وسواء ألَحَّنَ على D أم على C أم على G ، إلخ . ، كان الرأىُ أن تكون النهايةُ La أو ut وَفْقَ السُّلَّم ، وهكذا فإنه يُدْرِك مَقْصِدَكم دائماً ، وستكون نِسَبُ السُّلَّم الجوهريةُ للغِناء والعَزْفِ كما ينبغى حاضرةً فى ذهنه دائماً وسيكون إنجازُه أكثرَ وضوحاً وتقدُّمُه أكثرَ سرعةً ، ولا يُوجَدُ ما هو أغربُ مما يَدْعُوه الفرنسيون بالتنغيم الطبيعىِّ ، وذلك لقيامه على إقصاء ما ينطوى عليه الشىء من أفكارٍ واستبدالنا بها أفكاراً غريبةً لا تؤدى إلى غير الإغواء ، ولا شىء أقربُ إلى الطبيعة من التنغيم عن تغييرٍ فى اللحن عند تغيير السُّلَّم ، ولقد تكلمتُ عن الموسيقا بما يزيد على الكفاية ، فعَلِّمُوها كما تشاءون ، ولكنْ على ألّا تَعْدُوَ حَدَّ الأُلْهُوَّة على الإطلاق .

وها نحن أولاء قد اطلعنا جيداً على حال الأجسام الغريبة عن جسمنا

وعلى وزنها وشكلها ولونها ومتانتها وجسامتها ومسافتها وحرارتها وسكونها وحركتها ، وقد عرَفنا أىُّ الأجسام يلائمنا أن نَدْنُوَ منه أو نبتعد عنه ، وذلك على الوجه الذى يجب علينا أن نتخذ به من الوَضْع لكَسْر مقاومته ، أو لإبدائنا نحوه من المقاومة ، ما نَقِى به أنفسَنا من أذاه ، ولكن هذا ليس كافياً ، فبَدَنُنا يَضْنَى بلا انقطاع ، فيحتاج إلى تجديدٍ دائماً ، وعلى ما لدينا من قدرةٍ على تغييرنا موادَّ أُخرى فى عنصرنا الخاصِّ ، فإن خيارَنا ليس من الأمور التى لا يُؤْبه لها ، وليس كلُّ شىْء غِذاء عند الإنسان ، ولا يوجد بين ما يُمْكِن أن يكون غِذاء من الموادِّ ما يلائمه على السواء ، وذلك على حَسَب تركيب عِرْقه ، وعلى حسب الإقليم الذى يعيش فيه ، وعلى حسب مزاجه الخاصّ ، وعلى حسب طِراز حياته الذى يقتضيه حالُه .

ولو وجب ، لاختيار الأغذية التى تلائمنا ، أن ننتظر تعليمَ التجرِبة إيانا أن نعْرِفها وأن نَنْتَخِبَها لَهلكنا جائعين أو مسمومين ، غير أن اللطيف الأعلى الذى جَعَل من لَذَّة الموجودات الحساسة وسيلةَ بقائها قد أنبأنا بما يَرُوق حاسةَ ذوقنا ما يلائم مَعِدَتنا ، ومن الطبيعىِّ ألَّا يوجد للإنسان طبيبٌ أضمنُ من شهوة الطعام الخاصة فيه ، ولا أشُكُّ فى أن الإنسان فى حالته الابتدائية كان يَجِدُ فى ألذِّ الأطعمة أكثرَها نفعاً للصحة .

ويوجد ما هو أكثرُ من ذاك ، وذلك أن صانعَ البَرَايا لم يقْضِ ما جَعَل فينا من احتياجاتٍ فقط ، بل قَضَى ما جَعَلناه لأنفسنا أيضاً ، وهو ، لكى نَضَع الرغبةَ بجانب الحاجة ، قد جَعَلَ طُعُومَنا تتغير وتَفْسُدُ مع طُرُز

حياتنا ، وكلما ابتعدنا عن حال الطبيعة فَقَدْنا طُعُومنا الطبيعية ، وإن شئتَ فقُلْ إن العادة تجْعَل لنا طبيعةً ثانية نَبْلُغ من إقامتها مقامَ الأولى ما لا تجِدُ معه أحدًا منا يعْرِف غيرَها .

ومن ثَمَّ يُرَى أن أقرب الطُّعُوم إلى الطبيعة هى التى يجب أن تكون أكثرَها بساطةً ، وذلك لأنها أسهلُ ما يتحوَّل ، وذلك بدلاً من أن تتخذ شكلاً لا يتغير أبداً بما يكون من شَحْذِها وإثارتِها بأهوائنا ، والإنسانُ الذى لم يتكَيّف ببلدٍ بعْدُ ينْتَحِلُ عاداتِ أىِّ بلدٍ كان بلا مشقة ، ولكن الإنسان الذى هو من بلدٍ لايَعُودُ ابناً لبلدٍ آخر .

ويَلُوح لى هذا صحيحاً بالنسبة إلى جميع الحواسّ ، وأكثرُ من هذا أيضاً عند تطبيقه على حاسة الذوق حَصْراً ، واللبنُ هو غذاؤنا الأول ، ولا نتعود الطُّعُومَ القوية إلا بالتدريج ، وتكْرَهُها نفوسنا فى البُداءة ، وكانت ولائمُ الأوَّلين[1] تقوم على الفواكه والخُضَر والأعشاب ، وأخيرًا على بعض اللحوم المَشْوِيَّةِ بلا تابلٍ ولا مِلْحٍ ، وقَطَّبَ الهمجىُّ عند ما شَرِبَ الخمرَ لأول مرة ورَماها ، حتى إنه إذا وُجِدَ بيننا مَنْ عاش حتى العشرين من عُمُره من غير أن يذوقَ السوائلَ المختمرة عاد لا يستطيعُ تعوُّدَها ، ونكون كلُّنا من الزاهدين فى الخمر إذا لم تُقَدَّم إلينا فى صِبانا ، ثم إن طُعُومنا كلما كانت بسيطةً بدَت عامةً ، وتقَع أعمُّ كَراهِياتِنا على الأطعمة المركبة ، وهل شاهدتم أحدًا يكْرَه الماء والخبز ؟ هذا هو أثرُ الطبيعة ، وهذا هو نظامُنا إذنْ ، ولنَحْفَظْ للولد ذوقَه الفطرىَّ ما أمكن ، وليكن غِذاؤه عاديًّا بسيطاً ،

---

(١) انظر إلى أركادية بوزانياس ، وانظر ، أيضاً ، إلى قطعة بلوتارك المنقولة فيما بعد .

ولا تعتدْ حاسةُ ذوقه غيرَ الطُّعوم المعلَّلة قليلاً ، ولا ندعْه يكون ذا ذوْق نمطيٍّ حصراً .

ولا أبحث هنا فى هل هذا الطرازُ من العيش أصلحُ للصحة أو لا ، فلا أنظر إلى الأمر من هذه الناحية ، وإنما يكفينى أن أعْرِف ، لتفضيله ، أنه أكثرُ ما يلائم الطبيعة وأنه أسهل ما يتكيف مع جميع الطُّرُز الأخرى ، ويظهَرُ لى أن من غير الصواب ذهابَ بعضهم إلى وجوب تعويد الأولاد أطعمةً يتناولونها إذا ما كَبِروا ، ولِمَ يكون غذاؤهم هو إياه على حين يختلف طراز عيشهم كثيراً ؟ يحتاج الرجلُ الذى نَهَكه العملُ والهموم والمشاقُّ إلى أطعمةٍ عُصارِية تَحمِل نشاطاً جديداً إلى دماغه ، ويحتاج الولد الذى يلْهو وينْمو جسمُه إلى طعام وافر يورِثُه كثيراً من الكَيْلوُس ، ثم إن الرجل النامىَ يكون قد قرَّرَ مهنتَه وشُغله ومنزلَه ، ومن ذا الذى يستطيع أن يطمئن إلى ما يخبِّئه القدر للولد ؟ ومهما يكن من أمرٍ فلا نُعْطِه من الطِّباع المعينة ما يكلفه كثيراً إذا ما أراد تغييره عند الضرورة ، ولا نعْمَلْ ما يموت معه جوعاً فى البلدان الأخرى إذا لم يَجُرَّ وراءه طاهياً فرنسياً فى كلِّ مكان ، أو أن يقول ، ذاتَ يومٍ ، إن الإنسان لا يستطيع أن يأكل فى غير فرنسة ، وهذا مَدْحٌ مبْهجٌ جاء عَرَضاً ، وأما أنا فأقول ، على العكس ، إنه لا يوجد غيرُ الفرنسيين من لا يعرِفون الأكلَ ما وَجَبَ وجودُ فنٍّ خاصٍّ تجْعَلُ الأطعمةُ به صالحةً للأكل عندهم .

والذائقةُ ، بين مختلف حواسِّنا ، هى أكثرُ ما يؤثِّر فينا على العموم ، وذلك أن مما نكترث له أكثرَ من سواه هو أن نَحْكم جيداً فى الموادِّ

التى يجب أن تكون جزءاً من جوهرنا أكثرَ من أن تكونه الموادُّ التى لا تَعْدُو حَدَّ اكتنافنا ، ويوجدُ ألف شىء لا تكترث له اللامسةُ والسامعة والباصرة ، ولكنك لا تجد شيئاً لا تأبه له الذائقة .

ثم إن فعل هذه الحاسة بدنىٌّ مادىٌّ تماماً ، وهى الوحيدةُ التى لا تخاطِب الخيالَ بشىء ، أو التى هى أقلُّ ما يَدْخُل الخيالُ فى إحساساته ، وذلك على حين يَدْمَغُ التقليد والخيال أثرَ الحواسِّ الأخرى بطابعٍ أدبىٍّ غالباً ، وكذلك تؤثِّرُ حاسةُ الذوق تأثيراً فاتراً فى الأفئدة الرقيقة الشَّهّاءة والطبائعِ الهاوية الحساسة حقًّا ، مع أن الحواسَّ الأخرى تُحَرِّكُها بسهولةٍ على العموم ، ومع أنه يَلُوح وَضْعُ الذائقة دون الحواسِّ الأخرى ، ويُجْعَلُ المَيْلُ الذى يُسْلِمُنا إليها أدعى إلى الازدراء ، فإننى ، على العكس ، أَصِلُ إلى النتيجة القائلة إن أصلح وسيلة للسيطرة على الأولاد هو أن يُجْلَبُوا بأفواههم ، ويُفَضَّلُ عاملُ الشَّرَه على عامل الزهو خاصةً ، وذلك من حيث كونُ الأولِ شهوةَ الطعام الطبيعيةَ التابعة للذائقة رأساً ، ومن حيث كونُ الثانى من عمل الرأى التابع لهوى الناس ولضروب سوء الاستعمال ، والشَّرَهُ هو هَوَى الصِّبَا ، ولا يَقِفُ أمام هَوًى آخر ، ويتوارى عند أقلِّ منافسة ، وَىْ ! صَدِّقوا قولى إن الولد لا يُعَتِّم أن ينقطع عن التفكير فيما يأكل ، ومتى شُغِلَ قلبُه كثيراً عادت ذائقتُه لا تَشْغَلُه مطلقاً ، ومتى كَبُرَ وَجَدَ ألفَ إحساسٍ صائلٍ يَحُلُّ محلَّ شَرَهِه ، فلا يؤدى إلى غيرِ إثارة زهوه ، وذلك لأن هذا الهَوَى الأخير وحدَه يتزوَّد من الأُخَرِ حتى يَبْتَلِعَها جميعاً ، ومما بحثتُ فيه أحياناً أمرُ هؤلاء الذين يُعْنَوْن بالأطعمه النفيسة ، فلا يَحْلُمون ، عند ما يستيقظون ،

بغير ما يأكلون فى نهارهم ، ومنهم من وَصفَ وليمةً بأدقَّ مما صَنَع پُوليبُ عن إحدى المعارك ، وقد وجدتُ أن جميعَ هؤلاء الرجال المزعومين لم يكونوا غيرَ أولادٍ فى الأربعين من عُمُرِهم خالين من النشاط عاطلين من الثبات ، « فلسنا سوى رجالٍ مساكين » ، والشَّرَهُ هو عيبُ القلوب الضعيفة ، وتكون روحُ الشَّرِهِ فى ذائقته ، وهو لم يُخْلَق إلا ليأكل ، وهو من الغباوة والعجز ما تكون المائدةُ معه مكانَه الوحيد وما تكون الأطباقُ معه محلَّ تفكيره الوحيد ، ولْنَدَعْ له هذا العملَ غيرَ أسِفِين ، فهذا خيرٌ له ولنا .

ومن ضِيقِ الذهن أن يُخْشَى تأصُّلُ الشَّرَه فى ولدٍ قادرٍ على القيام بشىء ما ، ففى الوَلودية لا يُفَكَّرُ فى غير ما يؤكل ، وفى دَوْرِ الشباب يَعُودُ الولدُ غيرَ مفكِّرٍ فى ذلك ، وكلُّ طعامٍ صالحٌ عندنا ، ولدينا أمورٌ كثيرةٌ أخرى نُعْنَى بها ، ولا أريد ، مع ذلك ، استعمالَ دافعٍ وضيعٍ على غير رَصانة ، ولا أن تَدَّعوا بقطعةٍ لذيذة شرفَ صُنْعِ عملٍ جميل ، ولكنْ إذا كانت الوَلوديةُ لَعِباً ولَهواً فقط ، أو وجب أن تكون هكذا ، فإننى لا أرى السببَ فى عدم وجود جوائزَ ماديةٍ ومحسوسة للتمرينات البدنية الصِّرْفة ، وإذاما أبْصَرَ مايُورِقىٌّ صغيرٌ سَلَّةً على رأس شجرةٍ فأسقطها بضربة مِقْلاعٍ أفلا يكون من الإنصاف أن يستفيد من ذلك فيتناول فُطُوراً فاخراً تعويضاً له من القوة التى يكون قد استعملها نَيْلاً لها[1] ؟ وإذا ما استطاع شابٌّ إسپارطىٌّ أن يتسرب فى مطبخٍ بمهارةٍ متمثلاً خَطَرَ مئةِ جلدةٍ ،

(١) ترك المايورقيون هذه العادة منذ قرون كثيرة ، وقد كانت سبب شهرة راشق المقلاع بينهم فى حينها .

فسَرَق منه جَرْوَ ثعلبٍ حياً ومَضَى به فى ثوبه محتملاً خَدْشه وعَضَّه وإدماءه ، تاركاً إياه يُمَزِّق أحشاءه خشيةَ حياته من مفاجأةٍ ، وذلك من غير أن يَزْوِيَ ما بين حاجبيه أو أن يرفع صوتاً ، أفلا يكون من الإنصاف أن يستفيد من فريسته أخيراً فيأكلها بعد أن أُكِل ؟ لا ينبغى أن تكون الوجبةُ الفاخرةُ مكافأةً ، ولكن لِمَ لا تكون نتيجةَ جهودٍ بُذِلَتْ فَوْزاً بها ؟ لا يَعُدُّ إميلُ قطعةَ الحَلْوَى التى وضعتُها على الحجر جائزةَ عَدْوِهِ جيداً ، وإنما يَعْرِف أن الوسيلةَ الوحيدة لحيازة هذه القطعة هو أن يَصِلَ إليها قبل غيره .

ولا يناقض هذا المبادئ التى قَدَّمتُها منذ هنيهة حَوْل بساطة الأطعمة ، وذلك لأن مداراةَ شهوةِ الطعام فى الأولاد لا تَعنِى تهييجَ حسَّاسيتهم ، بل تَعنِى قضاءها فقط ، وهذا ما يُنَال بأكثرِ الأشياء شيوعًا بين الناس إذا لم يُعْمَل فى تَرْفيق ذوقهم ، وتُعَدُّ شهوةُ طعامِهم الدائمةُ التى تُهَيِّجها ضرورةُ النموِّ تتبيلًا ثابتًا يقوم فيهم مقامَ غيْره من تَتْبيلٍ كثير ، وما يكون من فواكهَ وألبانٍ وقِطَعٍ من الحلْوَى أدقُّ من الخبز الاعتيادى قليلاً ، ولا سيما فنُّ توزيعِ جميع هذا باعتدالٍ ، أمورٌ تساقُ بها جيوشٌ من الأولاد إلى أقصى العالَم من غير أن يُمْنَحُوا ذوقًا للأطعمة القوية ، ومن غير أن يجازَف بإضعاف ذائقتهم .

ومن الأدلة على كون ذَوْقِ اللحم غيرَ طبيعىٍّ للإنسان عدمُ اكتراث الأولاد لهذا الطعام وإجماعُهم على تفضيل الأغذية النباتية كالألبان والحَلَاوَى والفواكه ، إلخ . ، وكلُّ الأهمية فى عدم إفساد هذا الذوقِ الفطرىِّ ، وفى

عدم جَعْل الأولاد من الضوارى مطلقًا ، و إذا لم يَكُنْ هذا من أَجْلِ صحتهم فليكن من أَجْلِ طِباعهم ، وذلك لأنه مهما يكن من وجهٍ لتفسير الاختبار فإن من الثابت كونَ كِبَار أكلةِ اللحوم أقسى من غيرهم وأَجْفَى على العموم ، وهذه المشاهدةُ صادقةٌ فى كلِّ زمانٍ ومكان ، فبَرْبَرِيَّةُ الإنكليز أمرٌ معروف(١) ، وعلى العكس يُعَدُّ الغُورُ أكثرَ الناس حِلْماً(٢) ، وجميعُ الهَمَج قساةٌ ، ولا تَحْمِلُهم طبائعهم على أن يكونوا هكذا مطلقاً ، وتأتيهم قسوتهم من أطعمتهم ، وهم يذهبون إلى الحرب كما يذهبون إلى الصيد ، و يعاملون الناس كالدِّببة ، حتى إن الجَزَّارين لا تُقْبَلُ شهادتُهم فى إنكلترة ، وكذلك الجَرَّاحون(٣) ، وتَقْسُو قلوبُ أعظم الأشرار بشُرْب الدم اقترافاً للقتل ، و يَجْعَلُ أوميرسُ من السِّكْلُوب ، الذين هم أكلةُ لحمٍ ، أناساً فُظَعَاء ، و يَجْعَلُ من اللُّوتُوفاج* قوماً لُطَفَاء بَلَغُوا من الأُنْس ما يَنْسَى الإنسانُ ، إذا ما عاملهم ، بلدَه معه ليعيش بينهم .

قال پلُوتارك : « تسألنى عن سبب امتناع فِيثَاغُورَس عن أكل لحم الحيوان ، ولكننى أَعُودُ فأَسألك ، من ناحيتى ، عن مقدار الشجاعة التى

(١) أعرف أن الإنكليز يباهون كثيراً بإنسانيتهم وحسن مزاج قومهم الذين يدعونهم « الأمة ذات الطبيعة الطيبة » ، ومن العبث أن يملئوا هذا جهدهم ، فلا أحد غيرهم يكرر زعمهم .

(٢) يعد البانيان الذين يمتنعون عن تناول كل نوع من اللحم بأشد مما عليه الغور حلماء مثل هؤلاء تقريباً ، ولكن بما أن أخلاقهم أقل صفاء وديانتهم أقل صواباً فإنهم ليسوا مثلهم صلاحاً .

(٣) أشار أحد مترجمى هذا الكتاب من الإنكليز إلى غلطى هنا ، وكلاهما صحيحه ، فشهادة الجزارين والجراحين مقبولة ، غير أن الجزارين لا يقبلون كمحلفين أو أعضاء فى القضايا الجنائية مع أنه يسمح للجراحين أن يكونوا هكذا .

* هم أكلة النبق .

وجَبَ وجودُها عند أول إنسانٍ قرَّب من فمه لحمَ حيوانٍ مذبوح وكَسَرَ عظمَ حيوانٍ يَقْضِى أجَلَه ، وأَحْضَرَ أمامه أجسامَ أموات ، أى جُثثاً ، والْتَهَمَ فى مَعِدته أعضاءً كانت قُبَيْلَ ذلك تَثْغُو وتَخُور وتَسِير وتَنْظُر ، وكيف استطاعت يدُه أن تَطْعَن بسِكِّينٍ قَلْبَ موجودٍ حَسَّاس ؟ وكيف استطاعت عيناه أن تحتمل منظرَ القتل ؟ وكيف استطاع أن يشاهد ذَبْحَ حيوانٍ مسكين أَعْزَلَ وسَلْخَه وتقطيعَه ؟ وكيف استطاع أن يُطِيقَ مَرْأى لحوم مُخْتلجة ؟ وكيف لم يَقِئْ من رائحتها ؟ وكيف لم يَتَقَزَّزْ ولم يَشْمئزَّ ولم يأنَفْ عند ما أخذ يُقَلِّب أدرانَ هذه الجُرُوح ويُزِيلُ الدمَ الأسودَ الخاثر الذى كان يُغَطِّيها ؟

« كانت الجلود المسلوخةُ ممدودةً على الأرض ، وكانت اللحوم تَعِجُّ على السَّفُّود* ، ولم يستطع الرجلُ أن يأكلَها من غير أن يرتعش ، ويَسْمَع أنينَها فى بطنه .

« ذلك ما وجب أن يكون قد تَخَيَّله وأحسَّه فى المرة الأولى التى قَهَرَ فيها الطبيعة إعداداً لهذه الوَجْبَة الفظيعة ، فى المرة الأولى التى كان له فيها جُوعُ حيوانٍ حَىّ فأراد أن يَغتذِىَ بحيوانٍ لا يزال يَرْعى فقال كيف يجب أن تُذْبح الشاةُ التى كانت تَلْحَسُ يديه ، فمن أولئك الذين بدءوا هذه الولائم الجافية ما يجب أن يُدْهَش ، لا من الذين يتركونها ، ثم إنه كان يُمْكِن أولئك الأوائلَ أن يُسَوِّغوا وحشيتهم بمعاذيرَ تُعْوِزُ وحشيتَنا ، فيجعلنا عدمُ وجودها برابرةً أكثرَ منهم مئةَ مرة .

* السفود : حديدة يشوى عليها اللحم .

« أيْ أحِبَّاء الآلهة من الناس ! سيقول لنا أولئك الأوائل من الآدميين : قابِلوا بين الأزمنة ، وانظروا مقدارَ ما أنتم عليه من سعادةٍ ومقدارَ ما كنا عليه من بؤس ! لقد كانت الأرض التي تَكوَّنتْ حديثًا والهواء المشحون بالأبخرة غيرَ طائعيْن لنظام الفصول بَعدُ ، وكان مجرى الأنهار المتقلبُ يُخرِّب ضِفافها من كلٍّ ناحية ، فتغمُر الغُدْرانُ والبحيراتُ والمناقعُ العميقة ثلاثة أرباع وجه الدنيا ، وكان الربعُ الآخرُ مستوراً بالأدغال والغابات غيرِ المثمرة ، وكانت الأرض لا تُنْتِج أيةَ ثَمَرَاتٍ صالحة ، ولم تكن لدينا أيةُ آلة للحِراثة ، وكنا نَجْهَل فَنَّ الانتفاع بها ، وما كان وقتُ الحصاد لِيأْتِيَ مَنْ لم يَبْذُروا شيئًا قَطُّ ، وهكذا كان الجوع لا يتركنا مطلقاً ، وكان الطُّحْلُب والقِشْرُ طعامَنا العاديَّ في الشتاء وكان بعضُ جذورِ الكَرِش والخَلَنْجِ طعامَ مأدبَةٍ عندنا ، وكان الناسُ ، إذاما استطاعوا أن يَجِدُوا زُؤانًا وجَوْزاً أو بَلُّوطًا ، يَرْقُصُون طَرَبًا حَوْل سِنْدِيانةٍ أو زانَةٍ على صوتِ بعضِ الأغاني الغليظة ، داعين الأرضَ مُرْضِعَهم وأُمَّهم ، وهنالك كان مِهْرَجانُهم الوحيد ، وتلك كانت ألعابُهم الوحيدة ، وأما بقيةُ الحياة البشرية فلم تَكُنْ غيرَ ألمٍ وتَعَبٍ وشقاء .

« وأخيراً ، عند عدم تقديم الأرضِ الجرداء العارية شيئًا إلينا ، كنا نُضْطَرُّ إلى مخالفة الطبيعة في سبيل بقائنا ، فنأكل رفقاء شقائنا خشيةَ الهلاك معهم ، ولكنْ من ذا الذي يُكرِهُكُم على سفكِ الدماء أيها الرجال القُساة؟ انْظُرُوا إلى الأموال التي تَدَفَّق حَوْلكم ، وإلى مقدار ما تنتج الأرض من ثَمَرات ، وإلى ما تُعْطِيكم الحقول والكروم إياه من ثَرَوات ، وإلى

الحيوانات التى تُقَدِّم إليكم ألباناً لتغذيتكم وجِزَزاً لإلباسكم ! وما تَطْلُبُون منها زيادةً على ذلك ؟ وأيُّ سَوْرَةِ غَضَبٍ تَحْمِلُكم على اقتراف كثيرٍ من التقتيل مع أنكم مُشْبَعُون بالأموال طافحون بالأرزاق ؟ ولِمَ تكذِبون على أُمِّكم الأرضِ مُتَّهِمين إياها بالعجز عن إطعامكم ؟ ولِمَ تُذْنبون تجاه سِيرِسَ الواضعةِ للقوانين المقدسة وتجاه باخُوسَ الظريف المُفَرِّج عن الناس، وذلك كما لو كانت هباتُهما الوافرة غيرَ كافية لبقاء الجنس البشريِّ ؟ وكيف يَسْمَحُ لكم قلبُكم بأن تخلِطُوا ثِمَارَها الحُلْوَةَ بعظامٍ على موائدكم، وأن تَشْرَبوا مع اللبن دمَ الحيوان الذى يعطيكم إياه ؟ أجَلْ، إن النُّمُورَ والأُسود، التى تُطْلِقُون عليها اسمَ الضَّوَارى، تَتْبَعُ غريزتَها كَرْهًا، فتَقْتُل الحيواناتِ الأخرى لتعيش، ولكنكم، وأنتم أوحشُ منها مئةَ مرةٍ، تكافحون الغريزةَ بلا ضرورةٍ انهماكاً فى ملاذِّكم الجافية، وليست الحيواناتُ التى تأكلون من النوع الذى يأكلُ الأخرى، وأنتم لا تأكلون الضواريَ، بل تقلدونها، وأنتم لا تَبدُون جياعًا إلا تجاه الحيوانات البريئة الوَديعة التى لا تؤذى أحداً والتى ترتبط فيكم وتَنْفَعُكم فتفترسونها مكافأةً لها على خِدَمِها.

« أيها القاتل خلافاً للطبيعة ! إذا ما أصْرَرْت على زعمك أن الطبيعة صَنَعتْك لتَفْترس أمثالك من الموجودات ذاتِ اللحم والعظم، والحسَّاسةِ الحيةِ مثلَك، فاقضِ، إذَنْ، على ما تُوحِى به إليك من مقتٍ لتلك الأطعمة الكريهة، واقْتُل الحيواناتِ بنفسك، أى بيديك كما أقول، أى بلا آلاتٍ حديدية ولا سَوَاطِيرَ، ومزِّقها بأظفارك كما تَصْنَعُ الأُسود

والدّبَبة ، وعَضَّ هذه البقرة وَقَطِّعها إرْباً إرْباً ، وأنشِبْ أظفارَك فى جلدها ، وكُلْ هذا الحَمَلَ حَيًّا والتَهِمْ لحمَه دَفِيئاً ، واشْرَبْ رُوحَه مع دمه ، أنت تَرْتعش ! أنت لا تجْرُؤ أن تُحِسَّ لحماً حَيًّا يَرْتجف بين أسنانك ! أيها الإنسان السيئ ! أنت تبدأ بقتل الحيوان ، ثم تأكلُه ، كأنك تجْعَلُه يموت مرتين ، ولا يَكْفِى هـذا ، إنك لا تزال تشمئزُّ من اللحم الميت ، ولا تُطِيقُه أمعاؤك ، فيجب أن يُحوَّل بالنار ، أى أن يُسْلَقَ ويُشْوَى ويُعَلَّلَ بالتوابل التى يُنَكَّرُ بها ، ولا بُدَّ لك من جَزَّارين وطُهاةٍ وشَوَّائين ومن إليهم ممن يَنْزِعون منك مقتَ القتل ويُعَوِّدونك أجساماً ميتةً حتى تُخْدَعَ حاسةُ الذوق بهذا التنكير فلا تَلْفِظ ما هو غريبٌ عنها مطلقاً ، مُتَذَوِّقةً مع اللذة جُثَثاً يَشُقُّ على العين حتى منظرُها » .

ومع أن هـذه القطعةَ غريبةٌ عن موضعى فإننى لم أستطع مقاومة ما ساورنى من إغراءٍ بنقلها ، وأظنُّ أن القليل من القراء من يُنكِرُ علىَّ هذا .

ثم مهما يَكُنْ من نظامٍ تَمنَحُون الأولاد إياه ، ولـكن مع تعويدهم الأطعمةَ الشائعة البسيطة فقط ، فدَعُوهم يأكلونها ، ودَعُوهم يَعْدُون ويَلْعَبون كما يرُوقهم ، ثم ثِقُوا بأنهم لن يأكلوا كثيراً ، ولن تكون عندهم تُخَمَةٌ قَطُّ ، ولـكنْ إذا ما أجعتموهم نصفَ الوقت فوجدوا وسيلةً يُفلِتُون بها من رَقابتكم عَوَّضُوا أنفسَهم من ذلك بما لديهم من قوة ، فيأكلون حتى الطِّفاح ، حتى الانفِزَار ، ولا تجاوزُ شهوةُ الطعام حَدَّهـا فينا إلاَّ لأننا نريد منحَها قواعـدَ غيرَ قواعدِ الطبيعة ، وذلك مع دوامنا على الترتيب

والتعيين والزيادة والنقصان ، فلا نَصْنَع شيئاً إلاَّ والميزانُ فى يدنا ، ولكن هذا الميزان تابعٌ لأهوائنا لا لمِعدَتنا ، وأعُود إلى أمثلتى دائماً ، وترى خزائنَ الفواكه والخبز مفتوحةً عند القَرَويين ، ولا يَعرِف رجالُهم ، ولا أولادُهم ، ما التُّخَمُ .

وإذا حَدَث أن كان الولدُ أكُولاً على الخصوص ، وهذا ما يتعذر وقوعُه عند اتباع منهاجى على ما أعتقد ، فإنه يَسْهُل شَغْلُه بألهُوَّاتٍ ملائمةٍ لذوقه ، فيُنْتَهَى إلى نَهْكِه بخَوَاءٍ من غير أن يَشْعُر ، وكيف يَفُوت جميعَ المعلمين مثلُ هذه الوسائل الثابتة السهلة جدًّا ؟ ورَوَى هِيرُودُتُس أن مجاعةً كبيرةً ضربت أطنابها بين اللوديين فعَنَّ لهم أن يخترعوا من الألعاب وغيرِها من التسليات ما عَوَّضوا أنفسهم به من الجوع ، فقَضَوْا أياماً بكاملها من غير أن يُفكِّرُوا فى الأكل[1] ، ومن المحتمل أن قرأ معاموكم الفضلاء هذا الفصل من غير أن يَرَوْا ما يُمكِن تطبيقُه منه على الأولاد ، وقد يقول لى بعضهم إن الولد لا يَترُك غَداءه طَوْعاً فى سبيل دَرْسه ، فيا أيها المعلمون ، إنكم على صواب ، فلم أُفكر فى هذه الألهوَّة .

ونسبة الشامَّة إلى الذائقة كنسبة الباصرة إلى اللامسة ، فهى تَسْبِقُها ، وهى تُخْبِرُها بالوجه الذى يجب أن تتأثر به من هذه المادة أو تلك ، وهى

---

(١) تجد قدماء المؤرخين حافلين بآراء يمكن الانتفاع بها ، ولو كان ما يعرضونه من الوقائع غير صحيح ، ولكننا لا نعرف اقتباس أى فائدة حقيقية من التاريخ ، فالنقد الدقيق يستغرق كل شىء ، كأن من المهم جداً أن تكون الوقائع صحيحة حتى يكون من الممكن استخراج درس نافع منها ، فعلى العقلاء أن يعدوا التاريخ نسيجاً من الأقاصيص التى نرى الناحية الخلقية منها كثيرة الملاءمة للقلب الإنسانى .

تُرَغِّبُها فيها أو تُبْعِدها منها ، وذلك وَفْقَ الانطباع الذى يُتَلَقَّى عنها مقدَّماً ، ومما قِيلَ لى إن للهمج شامَّةً تتأثر على غير ما تتأثر به شامَّتُنا ، فَيَحْكُمُون عَلَى خلاف ما نَحْكُم فى الروائح الطيبة والروائح الكريهة ، وأعتقد صحةَ هذا، وذلك أن الروائح فى نفسها أحاسيسُ ضعيفةٌ ، وهى تَهُزُّ الخيالَ أكثرَ من أن تَهُزَّ الحاسَّة ، وهى لا تؤثِّر بما تَمْنَح بمقدار تأثيرها بما تَجْعَلُه يُنْتَظَر ، وإذا ما سُلِّمَ بهذا وُجِدَ أن أذواقَ فريقٍ إذْ تختلف بطراز عيشه عن أذواق الفريق الآخر فإنه وَجَبَ أن تَجْعَل له أحكاماً فى الأطعمة تختلف عن أحكام هذا اختلافاً كبيراً ، ومن ثَمَّ فى الروائح التى تُنْبِئُ بها ، ومن ذلك أن التَتَرِىَّ يتلذَّذ بشَمٍّ مُعَسْكَرٍ نَتِنٍ بحصانٍ ميت تَلَذُّذَ الصائد عندنا بحَجَلَةٍ نصفِ عَفِنَةٍ .

وكأن إحساساتِنا البَطَّالَةَ مُطَيَّبَةٌ بأزهارِ حديقةٍ فيجب ألاَّ يَشْعُرَ بها من يَمْشُون كثيراً حتى يَرْغَبُوا فى النزهة ، ومن لا يَعْمَلون بما فيه الكفاية حتى تكونَ لديهم شهوةُ السكون ، وما كان الجِيَاعُ دائماً ليَجِدُوا لذةً بعُطُورٍ لا تَنِمُّ على ما يؤكَل مطلقاً .

والشَّامَّةُ هى حاسةُ الخيال ، وهى ، إذْ تَمْنَحُ الأعصابَ قوةً بالغة الشدة ، تؤثِّرُ فى الدماغ كثيراً لا رَيْب ، ولذا فإنها تُوقِظُ المزاجَ لوقت وتَنْهَكُه لزمنٍ طويل ، وللشامَّة فى الحُبِّ نتائجُ لا تُنْكَر ، وليس العِطْرُ الناعُم فى غرفة الزينة شَرَكاً ضعيفاً بمقدار ما يُظَنُّ ، ولا أعْرِف هل يجب أن يُبارَك أو يُرْثَى للرجل العاقل والقليل الانفعال الذى لا تجعله رائحةُ الزهور على صدر خليلته يختلج مطلقاً .

ولا ينبغى لحاسة الشَّمِّ أن تكون ، إذنْ ، بالغةَ الفعل فى الدور الأول من العُمُر حيث لا تُحَرِّكُ الخيالَ غيرُ أهواءٍ قليلة بَعْدُ فلا يتقبَّل تهييجاً ، وحيث لا يكون هنالك من التجربة الكافية ما يُبْصَرُ معه ، بحاسةٍ مقدماً ، أمرٌ تَعِدُنا به حاسةٌ أخرى ، وقد أيَّدَت المشاهدة هذه النتيجةَ تأييداً تامًّا ، ومن المُحَقَّق أن حاسة الشَّمِّ كليلةٌ بليدة ، تقريباً ، عند مُعْظَم الأولاد ، لا عن كون الإحساس غيرَ دقيقٍ فى الأولاد كما فى الرجال ، أو أكثر مما عندهم على ما يحتمل ، بل عن كونهم لا يضيفون إليه أىَّ فكر آخر فلا يَسهُل تأثُّرهم بحسٍّ لذةٍ أو ألمٍ ، فيكونون أقلَّ منا افتتاناً أو تأذياً بذلك ، وإنى ، مع عدم خروجٍ عن ذات الطريقة ، ومن غير رجوعٍ إلى علم التشريح المقارَن بين الجنسين ، أعتقدُ سهولةَ معرفةِ السبب فى كون النساء أشدَّ تأثُّراً بالروائح من الرجال على العموم .

ويقال إن متوحشى كَنَدَة يُمَرِّنُون فى جعل شامَّتهم دقيقةً إلى الغاية منذ دَوْر الصِّبَا فيستغنون معه عن استخدام الكلاب فى الصيد مع وجود كلابٍ عندهم ، قائمين مقام الكلاب فى ذلك بأنفسهم ، ويُخَيَّلُ إلىَّ ، كما هو الواقعُ ، أن الأولاد إذا ما نُشِّئُوا على شَمِّ غدائهم كما يَشَمُّ الكلبُ الطريدةَ أمكَنَ إحكامُ شامَّتهم بما يَبْلُغُون معه هذه الدرجة ، ولكننى لا أرى ، فى الأساس ، إمكانَ الحُصُول على عادةٍ كثيرة الفائدة من هذه الحاسة ما لم يَكُنْ ذلك لإطْلاعهم على صِلاتها بحاسة الذوق ، وقد عُنِيَت الطبيعة بحَمْلِنا على معرفة هذه الصِّلات ، فجعلتْ عملَ هذه الحاسة الأخيرة غيرَ منفصلٍ عن عمل الأخرى ، وذلك بجعلها عضويهما متجاوريْن ، ووَضْعِها فى الفم

اتصالاً مباشراً بين الاثنتين ، فلا نَذُوقُ شيئاً من غير أن نَشَمَّه ، وإنما أُريدُ عدمَ إفساد هذه الصلات الطبيعية خَدْعًا للولد ، كأن يُخْفِى طَعْمُ العلاج بطِيبٍ طَيِّبٍ ، وبيانُ الأمر هو أن الحاستين من الاختلاف ما لا يُساء معه استعمالُهما ، وبما أن الحاسةَ الأشدَّ فعلاً تبتلع عَمَلَ الأخرى فإن العِلاج لا يُتَنَاوَل بأقلَّ من ذاك تَقَزُّزاً ، ويمتَدُّ هذا التَّقَزُّزُ إلى جميع الإحساسات التى تَقْرَعُه فى الوقت نفسه ، ويَستدعى الخيالُ عند أضعفِ إحساسٍ إحساسًا آخر ، ويَعُودُ أعْذَبُ عِطْرٍ رائحةً كريهةً عنده ، وهكذا فإن احتياطاتِنا الطائشةَ تَزِيدُ مقدارَ الإحساسات المستكرَهة على حساب الإحساسات المستعذَبة .

وبَقِىَ علىَّ أن أتكلم فى الأبواب الآتية عن تَعَهُّد حاسَّةٍ سادسة تُدْعى الحاسةَ العامة ، لأنها تنشأ عن استعمال الحواسِّ الأخرى استعمالًا منتظماً أكثرَ من كونها مشتركةً بين جميع الناس ، فتَدُلُّنا على طبيعة الأشياء بتزاحم ظواهر تلك الحواسِّ ، ومن ثَمَّ لا يوجد لهذه الحاسة السادسة عضوٌ خاصٌّ مطلقاً ، ولا تقيم هـذه الحاسةُ بغير الدماغ ، وتُسَمَّى أحاسيسُها ، الباطنيةُ مَحْضًا ، إدراكاتٍ أو أفكاراً ، ويقاسُ مَدَى معارفنا بعدد هذه الأفكار ، ويَصْدُرُ سَدَادُ الرأى عن صَفائها وجَلَائها ، وما يُدْعى العقلُ البشرىُّ قائمٌ على فَنِّ المقابلة بينها ، وهكذا فإن ما أُسميه العقلَ الحسَّاسَ أو الصَّبَوِىَّ يقوم على تكوين أفكارٍ بسيطة عن تزاحم كثير من الإحساسات ، وهكذا فإن ما أسميه العقلَ الذهنىَّ أو البشرىَّ يقوم على تكوين أفكارٍ مركبة عن تزاحم كثيرٍ من الأفكار البسيطة .

وإنى حين أفترض أن مِنْهاجى هو منهاجُ الطبيعة ، وأنى لم أُخطئْ فى

تطبيقه ، فإننا نكون قد أتينا بتلميذنا ، من خِلال بلد الإحساسات ، حتى حدودِ العقل الصِّبَوىِّ ، وتَكُون الخُطوة الأولى التى نجاوز بها هذه الحدودَ خُطوةَ رجل ، ولكنْ دَعْنا نُلْقِ نظرةً على الميدان الذى طُفْنا فيه قبل الدخول فى هذا الميدان الجديد ، ولكلِّ عُمُرٍ ، وإن شئت فقلْ لكلِّ دَوْرٍ فى الحياة ، كمالُه الملائم ، نَضْجُه الخاصُّ به ، ونَسْمَع حديثاً عن الرجل النامى فى الغالب ، ولكن لننظر إلى الولد النامى ، فسيكون هذا المنظرُ أكثرَ جِدَّةً علينا ، ولا يكون أقلَّ قبولاً على ما يحتمل .

وتُعَدُّ حياةُ المخلوقات المتناهية من الهُزَال والضيق ما لا تَهزُّنا معه مطلقاً عند ما لا نرى غيرَ ما هو كائن ، والأوهامُ هى التى تزيِّن الأشياء الحقيقية ، وإذا كان الخيال لا يُضِيف فُتُوناً إلى ما يَقِفُ نظارنا فإن اللذة الجديبة التى تَتَّفِقُ لنا تقتصر على العُضو ، وتَدَعُ الفؤادَ فاتراً ، أَجَلْ ، إن الأرض التى تَزَيَّنُ بكنوز الخريف تَعرِض ثَرْوَةً تُعْجَبُ بها العين ، بَيْدَ أن هذا الإعجابَ غيرُ مؤثرٍ مطلقاً ، وهو يَصْدُر عن التأمل أكثرَ من صدوره عن الإحساس ، وفى الربيع لا يستر الأريافَ العارية شىء بَعْدُ تقريباً ، ولا تُقَدِّم الغابُ من الظلِّ شيئاً ، ولا يَبْدُو من الخُضْرَة غيرُ النَّبْت ، ويتأثر القلبُ بمنظرها ، فنحن ، إذْ نرى بعثَ الطبيعة هكذا ، نَشْعُر بانتعاشنا ، ويحيط بنا خيالُ اللذة ، وتكون صواحبُ الشهوة هؤلاء ، وتكون الدموعُ العَذْبة هذه ، على أطراف أجفاننا ، ولكن منظر القِطَاف ، مهما كان حيّاً نشيطاً لطيفاً ، لا يُسِيلُ عَبرَةً .

ولِمَ هذا الاختلاف ؟ وذلك لأن الخيال يُضِيف إلى منظر الربيع منظرَ

الفصول التى تَعقُبه ، ويَضُمُّ إلى هذه البراعم التى تراها العينُ أزهاراً وثماراً وظِلالًا وأسراراً يُمكِن أن تستتر تحتها ، ويَجْمَعُ فى نقطةٍ واحدة أزماناً تتعاقب ، ويُبصِر الأشياء كما تَكون أكثر مما يريد ، ولأنها يتوقف عليه اختيارُها ، وعلى العكس لا يُبصَرُ فى الخريف غيرُ ما يكون ، وإذا ما أُريدَ بلوغُ الربيعِ وَقَفنَا الشتاء ، ويَزول الخيالُ المُجَمَّدُ على الثلج والجليد .

وهذا هو مصدر الفتُون الذى يَكون عند تأمُّل صِباً جميلٍ مُفَضَّل عَلَى كمال سِنِّ الرُّشد ، ومتى يَطِيبُ لنا أن نَرَى رجلًا ؟ ذلك عند ما تَحمِلنا ذكرى أفعاله على العَوْد إلى حياته وتجديد شبابه فى أعيننا من حيث النتيجةُ ، وإذا ما أُلزِمنا باعتباره كما هو ، أو بافتراض ما سيكون فى مَشِيبه ، فإن فكرة الطبيعة المائلة إلى الزوال تَقْضِى على جميع سرورنا ، فلا شىء يَسُرُّ فى رؤية رجلٍ يسير بخطاً كبيرةٍ نحو قبره ، وتَجْعَل صورةُ الموت كلَّ شىء قبيحاً .

ولكننى إذا ما تَمَثلْتُ ولداً يترجَّحُ عُمرُه بين العاشرة والثانية عشرة ، سليماً قويًّا حسنَ التكوين بالنسبة إلى سِنِّه ، لم يُوحِ إلىَّ بفكرةٍ غيرِ سارّة نظراً إلى الحاضر أو المستقبل ، فأراه فوّاراً حارًّا ذا حيويةٍ ، أراه بلا هَمٍّ قاضم وبلا احترازٍ طويل شاقٍّ ، أراه مُتَفرِّغاً لحاضره ، متمتعاً بعافيةٍ تامة يَبْدُو أنها تريد أن تَمتَدَّ إلى خارج نطاقه ، وأتَنَوَّره فى عُمرٍ آخرَ مُدَرَّباً لحواسِّه وذهنه وقُواه التى تَنمُو فيه يوماً بعد يوم فيُقيم فى كلِّ ساعة دليلًا عليها ، وأتأمَّله ولداً فيَرُوقنى ، وأتصورُه رجلاً فَيرُوقنى أكثر من ذاك ،

ويلوح أن دمه الحامى يُلهِب دمى ، فأعتقد أنى أحيا حياتَه وأن نشاطه يُجَدِّد شبابى .

وتدقُّ الساعةُ ، ويا له من تحَوُّل ! تُغْبِرُ عينُه من فوره ، ويَزُول سرورُه لحينه ، وَداعاً أيها الفرَح ، وداعاً يا ألعابَ المرَح ، ويُمْسكه رجلٌ شـديدٌ غَضُوبٌ من يده ، ويقول له بوقار : « لنذهب أيها السيد » ، ويَذْهب به ، وأُبْصِرُ كتباً فى الغرفة التى يَدْخُلانها ، كُتُباً ! يا له من أثاثٍ كئيب نظراً إلى سِنِّه ! وينقاد الولد المسكين ، ويُلْقِى نظرةَ أسفٍ على كلِّ ما يحيط به ، ويَسْكت ، وينصرف ، وتنتفخ عيناه دموعاً لا يَجْرُؤ على سَكْبها ، ويَضْخُم قلبُه زَفَراتٍ لا يَجْرُؤ على إظهارها .

وأنت الذى ليس لديه مثلُ ذلك ما يَخْشَى ، وأنت الذى ليس لديه دَوْرٌ من الحياة يُعَدُّ وقتَ ضيقٍ وسأم ، وأنت الذى يستقبل النهارَ بلا جزَع والليلَ بلا هَلَع ، وأنت الذى لا يَعُدُّ الساعاتِ إلَّا بمَسَرَّاته ، تعالَ ، تعالَ يا تلميذى السعيدَ الحبيبَ ، لنَتَعَزَّى بحضورك عن ذهاب ذلك التَّعِس ، تعالَ ، هو يَصِلُ ، وأشْعُرُ عند دُنُوِّه بهِزَّة فَرَح يشاطرنى إياها ، هذا هو صديقه وصاحبه ، هذا هو رفيقُ ألعابه الذى يجتمع إليه ، ومما لا مِرَاء فيه أنه حين يرانى لا يبقى زمناً طويلاً من غير أن يَلْهُوَ ، وليس أحدُنا تابعاً للآخر مطلقاً ، ولكننا نتفق دائماً ، ولا نكون مع أحدٍ سعداء كما نكون عليه معاً .

ويَنِمُّ مُحَيَّاه وشكلُه وقَوَامُه على الطُّمَأْنينة والرِّضا ، ويَطْفَحُ وجهُه صحةً ، وتَدُلُّ خُطاه الثابتة على القوة ، ولا يُوجَدُ فى سَحْنَتِه الرقيقة بلا تَفَهٍ شىء

من التأنُّث ، فالريحُ والشمسُ طَبعتاها بطابع الرجولة المُـكَرَّم ، وتأخذ عضلاتُه ، التى لا تزال مستديرةً ، فى الإشارة إلى أسارير وجهٍ ناشئ ، ويَظْهَرُ على عينيه ، اللتين لم تُلْهِبْهما نارُ هَوًى بعدُ ، صفاؤهما الأصليُّ على الأقلّ ، ما داما لم يُظلِما بأحزانٍ طويلة ، وما دامت لم تُخَطِّطْ خديْه دموعٌ لا حَدَّ لها ، وأبْصِرُوا فى حركاته السريعة ، ولـكن مع المَضَاء ، رشاقةَ سِنِّه ، ومتانةَ الاستقلال ، وتجرِبةَ التمارين الكثيرة ، أَجَلْ ، إن له وَجْهاً طليقاً وَثّاباً ، ولكن من غير صفاقةٍ ولا خُيَلاء ، ولا يَقَعُ وجُهه ، الذى لم يَلْصَقْ بالكتب ، على مَعِدَته مطلقاً ، ولا يحتاج إلى أن يقال له : « ارْفَـعْ رأسك » ، ولم يَحْمِلْه الخجلُ ولا الوَجَل على خَفْضِ رأسه قَطُّ .

ولْنَجْعَلْ له مكاناً فى وسط المجلس ، وافْحَصُوه أيها السادة ، واسألوه بكلِّ ارتياح ، ولا تَخْشَوْا لَجَاجَه ولا هَذْرَه ولا أسئلتَه الطائشة ، ولا تخافوا تَغَلُّبَه عليكم ، ولا زعمَه أن يَشْغَلَـكم بنفسه فلا تَقْدِرُوا على التخلص منه .

وكذلك لا تنتظروا منه أحاديثَ حُلْوَةً ، ولا أن يخاطبكم بشىء أُمْلِيه عليه ، ولا تنتظروا منه غيرَ الحقيقة الساذجة البسيطة الخالية من التزويق والتكلف والزَّهو ، وسَيُحدِّثكم عن سوء ما صَنَع أو عن سوء يَرَى أن يَصْنَع ، ولـكنْ بصَرَاحةٍ كالتى تُبْدَى عن خيرٍ يُصْنَع ، وذلك من غير أن يرتبكَ حَوْلَ ما يكون لقوله من أثرٍ فيكم ، فسيتخذُ من البساطة فى الـكلام ما يُذَكِّرُ بأول عهده .

ونُحِبُّ أن نَتوسَّمَ الخيرَ فى الأولاد ، ومما يُثِيرُ الأسفَ دائماً تلك الغباواتُ التى تَصْدرُ لتَقلِبَ ، دائماً تقريباً ، آمالاً يُرْغَبُ فى استنباطها من عبارةٍ

موفقة تجرى على لسانهم مصادفةً ، وإذا حدث ، ولكن على نُدْرَةٍ ، أن أُلْقَى تلميذى مثلَ هذه الآمال فإنه لا يَصْدُر عنه ما يوجب الأسفَ مطلقاً ، وذلك لأنه لا يَنْطِق بكلمةٍ باطلة مطلقًا ، ولا يَضْنَى بثرثرةٍ يَعْلَمُ أنها لا تُسْمَع مطلقًا ، وأفكارُه محدودةٌ ، ولكنها واضحةٌ ، وهو إذا لم يَعْرِف شيئًا من الاستظهار فإنه يَعْرِف كثيراً عن تجرِبة ، وهو إذا كان أقلَّ اقتداراً من ولدٍ آخر على القراءة فى كتبنا فإنه أحسنُ مطالعةً فى كتاب الطبيعة ، وليس ذهنُه فى لسانه، بل فى رأسه ، وهو أقلُّ ذاكرةً منه حكماً ، وهو لا يَعْرِف أن يتكلم غيرَ لغة واحدة ، ولكنه يُدْرِك ما يقول ، وهو إذا لم يكن كالآخرين حُسْنَ قولٍ فإنه يَفُوقهم حُسْنَ فعلٍ .

وهو لا يَعْرِف ما النَّمَطيةُ* ولا العُرْفُ ولا العادة ، وما صَنَعه أمسِ لا يؤثِّرُ فيما يَصْنَعُ اليومَ(١) مطلقاً ، وهو لا يَتَّبِع صيغةً مطلقاً ، وهو لا يُذْعِنُ لمَرْجعٍ ولا لمِثَالٍ مطلقاً ، وهو لا يَعْمَل ولا يقول غيرَ ما يلائمه ، وهكذا فلا تنتظروا منه كلاماً أُمْلِيَ عليه ولا أوضاعاً دُرِسَتْ له ، وإنما انتظروا منه ، دائمًا ، تعبيراً صادقًا عن أفكاره وسلوكاً ناشئاً عن مُيُوله .

وتَجِدُون له عدداً قليلاً من المبادئ الخُلقية الخاصة بحاله الحاضرة ، ولا

---

(١) تنشأ جاذبية العادة عن كسل الإنسان الطبيعى ، ويزيد هذا الكسل بتعاطيه ، فمن السهل البالغ صنع المصنوع ، وذلك بما أن السبيل تكون ممهدة فإن سلوكها يكون سهلا جداً ، وكذلك فإن من الممكن أن يلاحظ كون سلطان العادة عظيم إلى الغاية على الشيب والكسالى ، وكونه ضعيفاً إلى الغاية على الشبيبة وذوى النشاط ، وهذا النظام غير صالح لسوى أصحاب النفوس الضعيفة ، وهو يضعفها يوماً بعد يوم ، والعادة الوحيدة النافعة للأولاد هى الخضوع لضرورة الأمور بلا مشقة ، والعادة الوحيدة النافعة للرجال هى الخضوع للعقل بلا مشقة ، وكل عادة غير هذه نقيصة .

* La routine

تجِدُون له مبدأً خاصًّا بحال الناس ، وما فائدة هذه المبادئ للولد ما دامَ غيرَ عُضوٍ عامل فى المجتمع ؟ إذا ما كلمتموه عن الحرية والتملك ، وعن العهدِ أيضاً ، أمكنه أن يَعرِف حتى هذا الحدّ ، وهو يَعرِف السببَ فى أن الذى له هو له ، والسببَ فى أن الذى ليس له هو ليس له ، فإذا عدا هذا عاد لا يَعرِف شيئاً ، وإذا ما كلمتموه عن الواجب والطاعة لم يَعْرِفْ ما تَقْصِدون أن تقولوا ، وإذا ما أمرتموه أن يَصْنَع شيئاً لم يَصْنَعَ إليكم ، ولكنكم إذا قلتم له : « اعْمَلْ لى هذا المعروف أرُدُّه إليك فى الوقت المناسب » بادرَ من فوره إلى إرضائكم ، وذلك لأنه لا يَطْلُب ما هو أفضلُ من بَسْط سلطانه ، ومن حصوله منكم على حقوقٍ يَعرِف أنها لا تُنتهَك ، حتى إن من المحتمل ألَّا يأسف على مكانٍ يُحْرَز ، أو على حسابٍ يُقدَّم ، أو على مبلغٍ يُطْلَب ، ولكنه إذا ما ساوره هذا الباعثُ الأخير خَرَج عن دائرة الطبيعة ، وأعوزكم إغلاقُ جميع أبواب الغرور مقدَّماً .

ويحتاج ، من ناحيته ، إلى مساعدة ، وهو يطلبها مَنْ أول من يصادف بلا تفريق ، هو يَطْلُبُها من الملِك أو خادمه ، فجميعُ الناس متساوون فى نظره ، وتَرَوْن من اللهجة التى يَطْلُب بها أنه يَشعُرُ بعدم وجود أحدٍ مَدِينٍ له بشىء ، وهو يَعرِف أنه يَطْلُب فَضْلًا ، وهو يَعْرِف ، أيضاً ، أن الإنسانية تأمُرُ بأن يُجاب إلى ما يسأل ، ويَكُون كلامه بسيطاً موجَزاً ، ويَنِمُّ صوتُه ونَظْرته وحركته على مخلوقٍ تعوَّد القبولَ والرفضَ على السواء ، وليس هذا ما ينطوى عليه خضوعُ العبد من صَغار وذِلة ، ولا لهجةُ السيد المتجبر ، وإنما هو اعتمادُ متواضعٍ على نظيره ، وإنما هو حِلْمٌ كريمٌ مؤثِّرٌ ناشئٌ عن موجودٍ

حُرٍّ ، ولكنه حسَّاسٌ خافضُ جناحٍ يَطْلبُ العَوْن من موجودٍ حُرٍّ ، ولكنه قويٌّ محسنٌ ، وإذا منحتموه ما يَطْلب لم يَشْكُرْ لكم ، وإنما يَشْعُرُ بأنه عَقَدَ دَيْنًا ، وإذا رَفَضْتم ما يطلب لم يَألمْ ولم يُلْحِفْ قطُّ ، فهو يَعْرِف أن هذا غيرُ مُجْدٍ ، وهو لن يقول فى نفسه : « لقد رُفِضَ طلبى » ، بل يَقُول : « لم يَكُنْ هذا ممكناً » ، والأمرُ كما قلتُ : إنه لا ينبغى أن يُثَارَ على الضرورة المُسَلَّم بها .

ودَعُوه طليقًا وحدَه ، وارْقُبُوه وهو يَسِيرُ من غير أن تقولوا له شيئًا ، ورَوْا ما يَصْنع وكيف يَتأهَّب لِما يَصْنع ، وبما أنه لا يحتاج إلى إقناع نفسه بأنه حُرٌّ فإنه لا يفعل شيئًا عن طَيْشٍ مطلقاً ، وإنما يأتى عملَ سلطانٍ على نفسه ، أوَ لَا يَعْلَمُ أنه سيدُ نفسه دائماً ؟ وهو نشيطٌ رشيقٌ خفيفٌ ، وتَجِدُ فى حركاته كلَّ ما ينطوى عليه عُمُره من حيوية ، ولكنك لا تَرَى له من الحركات ما لا يَهْدِف إلى غاية ، ومهما يُرِدْ أن يَفْعَل فإنه لن يحاولَ فِعلَ ما يَفُوق طاقته ، وذلك لأنه اختبر قُوَاه وعَرَف ما هى ، وستكون وسائلُه صالحةً لمقاصده دائمًا ، ومن النادر أن يَعْمَل قبل أن يطمئن إلى النجاح ، وستكون له عينٌ بصيرةٌ يَقْظَى ، ولن يتصدى للآخرين حتى يسألهم بغباوةٍ عن جميع ما يرى ، ولكنه يُدَقِّقُ فيما يَرَى بنفسه ويَبْذُل جهداً ليَصِلَ قبل السؤال إلى ما يريد أن يَعلَمَ ، وهو إذا ما وَقَع فى ورطةٍ طارئةٍ كان ارتباكه بها أقلَّ من ارتباك الآخرين ، وإذا ما وُجِدَ خطرٌ قَلَّ ذُعْرُه أيضاً ، وبما أن خياله يَظَلُّ مُعطَّلاً أيضاً ، ولم يُصْنَعْ شىءٌ لإثارته ، فإنه لا يَرَى غيرَ ما هو واقع ولا يُقَدِّر الأخطار إلا بمقدارها محافظًا على اعتدال دمه دائمًا ،

وتَبْلُغ الضرورةُ من شِدَّة الوطأة عليه ما لا يقاومها معه أيضًا ، وهو يَحْمِل نِيرَها منذ ولادته ، وهو يتعودها ، فيكون مستعدًّا لكلِّ شيء في كلِّ وقت .

وسواء عليه أَعَمِل أم تَلَهَّى يتساوى هذان الأمران عنده ، فألعابُه أعمالُه ، لا فَرْقَ بينهما لديه ، وهو يَضَعُ في كلِّ ما يَصْنَع ما يُغْرِي بالمَرَح كما يَضَعُ من الحرية ما يَرُوق مُبْدِيًا ميلَ ذهنه ومَدَى معارفه ، أليس من مناظر هذا العُمُر الساحرة الحُلْوة أن يُرَى ولدٌ ظريفٌ حادُّ البصر مَرِح النظر ذو ملامحَ تدلُّ على الرِّضا والصفاء ، وذو وجهٍ طليقٍ باسمٍ ، يأتي أكثرَ الأمور جِدِّيَّةً وهو يَلْعب ، أو يأتي أكثرَ الألعاب لَغْوًا وهو يَعْمَل ؟

أَوَ تريدون الآن أن تَحْكُموا فيه بالقياس ؟ اجْعَلُوه بين أولاد آخرين ، ودَعُوه لنفسه ، فلا تَلْبَثُوا أن تَرَوْا أيُّهم أحسنُ تقويمًا حقًّا وأيُّهم أكثرُ اقترابًا من كمال سِنِّه ، ولا أحدَ بين أبناء المدينة أَمْهَرُ منه ، ولكنه أقوى من كلِّ واحدٍ آخر ، وهو إذا ما وُجِدَ بين الفِتْيان الفلاحين ساواهم قوةً وفاقهم مهارةً ، وهو في جميع الأمور التي تكون في متناوَل دَوْرِ الصِّبا يَظْهَرُ أحسنَ من جميعهم حُكْمًا وتعقلاً وبصيرةً ، وإذا ما دار الأمرُ حَوْل العمل والعَدْوِ والوثوب وزعزعةِ الأجسام ورَفْعِ الأجرام وتقدير المسافات واختراع الألعاب ونَيْلِ الجوائز قِيلَ إن الطبيعة خاضعةٌ لأوامره ما سَهُلَ عليه أن يَجْعَل كلَّ شيء خاضعًا لإرادته ، فهو قد صُنِعَ لقيادة أمثاله والسيطرةِ عليهم ، وما اتَّفَقَ له من نبوغٍ واختبارٍ يقوم مقام الحقِّ

والسيادة ، ومهما يَكنُ الرِّداء الذى يرتديه والاسمُ الذى يَحْمِلُه فلا أهمية لهما ، فَسَيُكْتبُ له السَّبْقُ فى كلِّ مكان ، وسيكون رئيساً للآخرين حيثما كان ، وهم سيشعرون بأنه أفضلُ منهم دائماً ، وهو سيكون السيدَ من غير أن يريدَ القيادةَ ، وهم سيطيعون من حيث لا يَدْرُون .

وهو قد بَلَغ ذروةَ الكمال من دَوْر الصبا ، وهو قد قَضى حياةَ وَلَدٍ ، وهو لم يَشْتَرِ كمالَه على حساب سعادته ، وعلى العكس قد تسابقت هذه الأمور انقياداً له ، وهو إذْ نال كلَّ ما لِسنِّه من عقلٍ كان سعيداً حُرًّا بمقدار ما تَسْمَح به بنيتُه ، وإذا ما أتى الموتُ الحاصدُ فَقَطَع به زهرةَ آمالنا لم نَبْكِ حياتَه ولا موته معًا قَطُّ ، ولم نُلْهِبْ آلامنا عن تَذَكُّرنا آلامًا أورثناه إياها ، وإنما نقول : « ولقد تَمَتَّع بصباه على الأقلّ ، ولم نَنْزِع منه شيئًا أنعمت الطبيعة به عليه » .

وأكبرُ محذور فى هـذه التربية هو كَوْنُها لا تُقَدَّر من غيرِ ذوى البصائر ، وكونُ الولد الذى يُنَشَّأُ بتلك العناية البالغة لا يَبْدُو فى عيون العوامِّ غيرَ خَشِن ، والمعلمُ يُفَكِّرُ فى مصلحة الولد أقلَّ مما يُفَكِّر مصلحته الخاصة ، وهو يُعْنَى بإثباته أنه لا يُضيعُ وقتَه ، وأنه يستحقُّ الأجر الذى يُعْطَاه ، وهو يُزَوِّده بمحصولٍ سَهْلٍ عَرْضُه ممكنٍ إظهارُه متى يرُاد ، وليس المهمُّ فى فائدة ما يُعَلِّمُه إياه ، بل فى سهولة تَبْيِينه ، وهو يَشْحَن ذاكرتَه بمئة حَشْوٍ يَرْكُمه فيها بلا انتخاب ولا تمييز ، ومتى وَجَبَ امتحانُ الولد حُمِل على نَشْرِ بضاعته ، وهو إذا ما عَرَضها حاز قَبُولاً ، ثم يَطْوِى رِزمتَه ، ويَذْهب ، وأما تلميذى فليس غنيًّا بهـذا المقدار ، وليست عنده رِزْمةٌ يَنْشُرُها مطلقًا ،

وليس عنده ما يَعْرِض غيرُ نفسه ، والواقعُ أن الولدَ ، كالرجل ، لا يُعْرَف فى دقيقةٍ واحدة ، وأين هم الراصدون الذين يمكنهم إدراكُ خصائصه أولَ وهلة ؟ أجَلْ ، قد يُوجَدُ مثلُ هؤلاء ، غير أنهم قليلون ، ولا تكاد تَجِدُ واحدًا منهم بين كلِّ مئة ألف أبٍ .

وإذا ما كُثِّرَت الأسئلةُ تَبَرَّم منها جميعُ الناس ، ولا سيما الأولادُ ورَفَضُوها ، وذلك أنه لاتكاد تَمْضِى بضعُ دقائقَ حتى يكونَ انتباهُهم قد كَلَّ ، وعادوا لا يُلقُون السمع إلى ما يسألهم عنه سَؤُولٌ عنيد ، وعادوا لا يُجِيبُون إلا عن غير تبَصُّر ، ويُعَدُّ هذا الأسلوبُ فى امتحانهم حَذْلَقيًا غيرَ نافع ، وفى الغالب تُعَدُّ الكلمة العابرة أفضلَ من الكلام المطوَّل فى الدلالة على إحساسهم وإدراكهم ، ولكن ليُحْتَرَزْ من كون الكلمة قد أُمْلِيَتْ أو أُلقيت عَرَضًا ، ولا بُدَّ للرجل من أن يكون صائبَ الحُكْم حتى يُحْسِنَ تقديرَ حُكْم الولد .

وقد سمعتُ المرحومَ اللورد هَيْد يقول إن صديقًا له عاد من إيطالية بعد غِياب ثلاثة أعوام ، فأراد فَحصَ ابنه البالغِ من العُمُر ما بين التاسع والعاشر ، ويَذْهَبُ ، ذاتَ مساء ، هو وابنُه ومعلمه للنزهة فى العَرَاء حيث يَلْهُو الطَّلبة بقيادة طَيَّاراتٍ ، وبَيْنَا كان الأب مارًّا قال لابنه : « أين الطَّيَّارة التى تُلْقِى هذا الظِّلَّ ؟ » ، فقال الولدُ من غير تردُّدٍ ولا رَفْعِ رَأْسٍ : « على الطريق العام » ، ويقول اللورد هَيْد مُعَقِّبًا : « حَقًّا أن الطريق العامَّ كان بيننا وبين الشمس » ، ويُقَبِّل الأبُ ابنَه عند سماع هذه الكلمة ، ويُنْهِى فَحصَه وينصرف من غير أن يقول شيئًا ، فلما كان الغدُ أرسل إلى

المعلم شهادةً يُجْرِى عليه بها وظيفةً مَدَى العُمُر فَضْلًا عن رواتبه .

يا لذلك الأب من رجلٍ ! ويا لَلْوَلد الذى وُعِدَ به ! إن السؤال ملائمٌ لعُمُر الولد ضبطاً ، والجوابُ بسيطٌ تماماً ، ولكن انْظُرْ إلى ما يَفْتَرِض من بصيرةٍ فى قوة التمييز عند الولد ! هذا هو الوجه الذى رَدَّ به تلميذُ أرسطو جِمَاحَ ذلك الحصان الشهير الذى لم يستطع أن يُرَوِّضه فارسٌ .

الجزء الثالث

إن جميع مجرى الحياة حتى المُرَاهقةِ هو دَوْرُ ضَعْفٍ ، ومع ذلك تُوجَدُ نقطةٌ فى أثناء دَوْر العُمُر الأول هذا يُجَاوِزُ فيها تَقَدُّمُ القُوَى تقدمَ الحاجات فيصير الحيوانُ النامى ، الذى لا يزال ضعيفًا على الإطلاق ، قويًّا نسبةً ، وبما أن احتياجاتهِ لم تَنْمُ كلُّها بعْدُ فإن قُوَاه الحاضرة تُرْبِي على الكفاية قضاء لِمَا لديه ، ويكون ضعيفًا إلى الغاية كرجلٍ ، ويَكُون قويًّا إلى الغاية كولد .

ومن أين يأتى ضعفُ الرجل ؟ يأتى من التفاوت بين قُوَّته ورَغَباته ، وأهواؤنا هى التى تَجْعَلُنا ضعفاء ، وذلك لأن قضاءها يتطلب من القُوَى ما هو أكثرُ مما تُعطِى الطبيعةُ ، وإذا ما نَقَصْتُمُ الرَّغباتِ بَدَوْتم كأنكم زِدْتم القُوَى ، ومَنْ يَقْدِرْ أكثرَ مما يَرْغَبُ تكن عنده قوةٌ احتياطية ، ويُعَدّ قويًّا جدًّا لا رَيْب ، وهذا هو دَوْرُ الوَلوديةِ الثالث ، وهو الذى أتكلم عنه الآن ، وأداوم على تسميته وَلُوديةً لعدم وجود كلمةٍ خاصة أُعَبِّرُ بها عنه ، وذلك لأن هذه السنّ تَدْنُو من المراهقة من غير أن تَصِل إلى البُلُوغ .

وتَنْمُو قُوَى الولد البالغِ من العمر اثنتى عشرةَ سنةً أو ثلاثَ عشرةَ سنةً بأسرعَ مما تَنْمُو به احتياجاتهُ ، ولا يزال أقوى الأهواء وأعنفها غيرَ معروف ، ولا يزال نُمُوُّه البدنىُّ ناقصًا منتظراً نداء الإرادة كما يَلُوح ،

ولا تؤثِّر فيه تقلباتُ الهواء والفصول إلّا قليلاً ، وهو يقاومها بلا عناء ، وتَقُوم حرارتُه الناشئةُ مقامَ الثياب ، وتقوم شهوةُ طعامه مقامَ تعليل غِذائه بالتوابل ، وكلُّ ما يُمكن أن يُبقِيتَ صالحٌ لسِنِّه ، وهو إذا ما أدركه النُّعَاسُ استلقى على الأرض ونام ، وهو يَجِدُ حَوْلَه كلَّ ما يحتاج إليه ، ولا يؤلمه أيُّ احتياجٍ خيالىّ ، ولا عَملَ لرأى الآخرين فيه ، ولا تبتعد رَغَباتُه عن مَدَى ذراعيه ، ولا يستطيع أن يَكْفِيَ نفسَه بنفسه فقط ، بل لديه من القُوَى ما يمتدُّ إلى ما وراء احتياجه أيضًا ، وهذا هو دورُ حياتِه الوحيدُ الذى تَزِيدُ قُوَّتُه على احتياجه .

وأشْعُرُ بالاعتراض قبل وقوعه ، ولن يقال لى إن للولد من الاحتياجات ما هو أكثرُ مما أعطيه ، ولكنه سيُنْكَر ما أعزوه إليه من القوة ، ولن يُفَكَّرَ فى أننى أتكلم عن تلميذى ، لا عن تلك الدُّمى المُتَنقِّلة التى تطوف بين غرفةٍ وغرفةٍ والتى تُقَلِّبُ صُندوقًا وتَحْمِل أثقالاً من المُقَوَّى ، وسيقال لى إن قوة الرجل لا تَظْهَر فى غير دَوْر الرُّجولة ، وإن الأرواح الحيوية ، التى تُعَدُّ فى أوعية ملائمة وتنتشر فى جميع البدن ، يُمْكِنُها وحدَها أن تَمْنح العضلاتِ ثباتًا ونشاطًا وقوةً ونابضًا ، أى ما تنشأ عنه طاقةٌ حقيقية ، وهذه هى فلسفةُ الحُجْرَة ، وأما أنا فأدعو إلى التجربة ، وأرى فى أريافكم فِتيانًا كِبَارًا يحْرُثون ويَقْلِبُون الأرض ويُمْسِكون المِحراث ويملأون بِرْميلَ خمر ويَسُوقون عربةً كآبائهم ، فيُحْسَبُون رجالاً لو لم يَنِمَّ صوتُهم عليهم ، حتى فى مُدُننا ترى أولاداً من العمال والحَدَّادين والقُيُون والبياطرة بالغين مثلَ قوة المعلمين تقريبًا ، فلا يَقِلُّون عنهم حِذْقًا إذا ما

دُرِّبوا فى الوقت المناسب ، وإذا وُجِدَ فرقٌ ، وهو ما لا أُنكِرُه ، فأقول مُكَرِّراً إنه أقلُّ كثيراً مما بين رَغَبات الرجل الفائرة ورَغَبات الولد المحدودة ، ثم إن الأمر ليس قاصراً هنا على القُوَى البدنية فقط ، بل يتناول ، خاصةً ، أيضًا ، قوةَ الذهن واستعدادَ الذهن الذى يُغْنِى عنها أو الذى يوجهها .

وهذه الفاصلةُ ، التى يَقْدِرُ الفردُ فيها أكثرَ مما يَرْغب ، وإن لم تكن دَوْرَ قُوَّته الكبرى المُطْلقة ، هى دَوْرُ قُوَّته الكبرى النسبية ، وهى أثمنُ دَوْرٍ فى حياته ، وهى الدور الذى لا يأتى غيرَ مرةٍ واحدة ، وهى الدورُ القصيرُ جدًّا ، وهى الدور الذى يَبْدُو بالغَ القِصَر عند النظر إلى أهمية استخدامه جيداً كما يُرَى ذلك فيما بعد .

وما يَصْنَعُ ، إذَنْ ، بهذا الزائد من الخصائص والقُوَى التى يحُوزُ كثيراً منها فى الوقت الحاضر والتى تَفُوته فى دَوْرٍ آخرَ من العمر ؟ هو سيسعى فى استخدامها فى أمورٍ يُمْكِنه الاستفادةُ منها عند الحاجة ، أى إنه يُلْقِى الزائدَ من وجودِه الحاضر فى المستقبل ، أى إن الولد العُضْلِىَّ سَيدَّخِر للرجل الضعيف ، ولكنه لن يَضَعَ ما يَخْزُن فى صناديقَ يُمْكِن أن تُسرَق منه ، ولا فى أنبَارٍ خارجةٍ عنه ، وفى ذراعيْه وفى رأسه وفى نفسه ما يَضَعُ الذى يَكْسِبُ تملكاً له حقًّا ، وهذا هو ، إذنْ ، وقتُ العمل والعِرْفان والدرس ، ولاحظوا أننى لستُ الذى يقوم بهذا الاختيار متحكِّمًا ، بل الطبيعةُ نفسُها هى التى تدلُّ عليه .

وللذكاء البشرىّ حدودُه ، ولا يستطيع الإنسانُ أن يَعْرِف كلَّ شىء ،

حتى إنه لا يستطيع أن يَعرِف تمامًا ما يَعرِفه الآخرون من شىء قليل ، وبما أن ما يناقض القضيةَ الباطلة حقيقةٌ فإن عدد الحقائق لا يَنفَدُ كعدد الأباطيل ، ولذا يوجد اختيارٌ فى الأمور التى يجب أن تُعلَّمَ كما فى الزمن الصالح لتعلُّمها ، ومن المعارف الواقعة فى متناوَلنا ما هو باطل وما هو غيرُ نافع وما يُفيدُ فى تَغذِية زَهْوِ الحائز لها ، وعددُ المعارف القليلُ الذى يساعد على رَفَاهِيَتِنا حقًّا هو الجديرُ وحدَه بتحرِّى الرجل العاقل ، ومن ثَمَّ بتَحَرِّى الولد الذى يُرَادُ جعلُه هكذا ، ولا يقوم الأمرُ على معرفة ما هو كائن ، بل على معرفة ما هو نافعٌ فقط .

ومن ذاك العدد القليل أيضًا يَجِبُ ، هنـا ، أن تُخرَجَ الحقائقُ التى يتطلب فهمُها قوةَ إدراكٍ تامةَ التكوين ، أن تُخرَجَ الحقائقُ التى تفترض معرفةَ صِلات الإنسان فلا يستطيع الولدُ اكتسابَها ، أن تُخْرَجَ الحقائقُ التى تَحمِلُ الذهنَ غيرَ المُجَرَّب على التفكير الفاسد فى موضوعاتٍ أخرى ، وإن كانت تلك الحقائقُ صحيحةً فى نفسها .

وها نحن أولاء قد قُصِرْنا على دائرةٍ صغيرة بالنسبة إلى وجود الأشياء ، ولكن هذه الدائرة تؤلِّف دائرةً واسعة بالنسبة إلى ذهن الولد ! ويا ظُلُماتِ الإدراك البشرىِّ ، أيةُ يدٍ مغامِرةٍ كانت من الجُرْأة ما مَسَّت معه حِجابَكِ ؟ ويا للهُوَى التى أرى حَفْرَها بعلومنا الباطلة حَوْل هذا الفتى التَّعِس ! وارْتَجِفْ أنت الذى يَقُوده من هذه الطُّرُق الخَطِرة ، والذى يَرْفَعُ أمام عينيه ستارَ الطبيعة المقدس ، ولْيَكُنْ رأسُه ورأسُكَ أولَ ما تطمئن إليه ، واخْشَ أن يُصَاب هذا أو ذاك بالدُّوار أو أن يصابا معًا على ما يحتمل ، وخَفْ سِحْرَ

الباطل المُمَوَّه وفُتُونَ أبخرةِ الزهو ، واذْكُرْ ، واذْكُرْ دائمًا ، أن الجهل لا يؤذى أبداً ، وأن الشؤم فى الضلال ، وأن الإنسان لا يَضِلُّ بما لا يَعْرِف بل يَضِلُّ بما يعتقد أنه يَعْرِف .

وقد يَصْلُح تقدمُه فى الهندسة دليلًا لكم وقياسًا صحيحًا عندكم على نُمُوِّ ذكائه ، ولكنه إذا ما استطاع أن يَمِيزَ النافعَ من غير النافع وَجَبَ اتخاذُ كثيرٍ من الحَذَر والبراعة جَذْباً له إلى الدروس النظرية ، وإذا ما أردتم ، مثلاً ، أن يَبْحَث عن وسطٍ مناسبٍ بين خَطَّيْن فاصنعُوا ما يجب أن يَجِدَ معه مُرَبَّعًا مساويًا لمُثَلَّثٍ ما ، وإذا ما طُلِبَ وَسَطان مناسبان وَجَبَ أن يُحْمَل ، أوَّلًا ، على الاكتراث لمضاعفة المُكعَّب ، إلخ . ، ورَوْا كيف نَدْنُو بالتدريج من المبادىء الخلقية التى تَمِيزُ الخيرَ من الشَّرِّ ، ولم نَعرِفْ حتى الآن غيرَ قانون الضرورة ، والآن نُعْنَى بما هو مفيدٌ ، وسننتهى إلى ما هو ملائمٌ حَسَنٌ عما قليل .

وتُحَرِّكُ عينُ الغريزة مختلفَ خصائص الإنسان ، ويَعْقُب نشاطَ البدن الذى يحاوِل أن يَنْمُوَ نشاطُ الذهنِ الذى يحاول أن يتعلَّم ، وليس الأولاد فى البُداءة غير قَلِقين ، ثم يكونون محبين للاطلاع ، ويُعَدُّ هذا الفُضولُ الحسنُ التوجيه مُحَرِّكَ العمُرُ الذى بلغناه ، ولْنُفَرِّق دائمًا بين الميول التى تَصْدُر عن الطبيعة والميولِ التى تَصْدُر عن رأى الناس ، ويوجَدُ شَوْقٌ إلى المعرفة ليس له أساسٌ غيرُ الرغبة فى الظهور بمظهر المتعلم ، ويُوجَدُ شوقٌ آخرُ إلى المعرفة ينشأ عن حبٍّ اطلاعٍ طبيعيٍ فى الإنسان حَوْلَ كلِّ ما يُمكن أن يُهِمَّه عن قُرْبٍ أو بُعْدٍ ، وما يكون من رغبةٍ غريزية فى

الرِّفاه ومن تعذُّرِ إشباع هذه الرغبة تمامًا يحْفِزُه إلى البحث بلا انقطاع عن وسائلَ جديدةٍ تُعينُ على ذلك ، وهذا هو أصلُ الفُضُولِ الأولُ ، وهذا هو الأصلُ الطبيعيُّ فى قلب الإنسان مع أن نشوءه يأتى على نسبة أهوائنا ومعارفنا ، ولْنَتَمَثَّلْ فيلسوفًا نُفِيَ إلى جزيرةٍ قَفرٍ مع آلاتٍ وكتبٍ عالمًا أنه سيقضى فيها بقيةَ حياته وحيداً ، فلن يُزْعِجَ هذا الفيلسوفُ نفسَه بمعالجة نظامِ العالَم وسننِ الجاذبية وحسابِ التفاضل ، ومن المحتمل ألَّا يفتح كتاباً واحداً مَدَى حياته ، ولكن مع عدم الاستنكاف عن رِيادِ جزيرته حتى آخر زاويةٍ منها مهما كانت هذه الجزيرةُ كبيرةً ، ولْنَحْذِفْ من دروسنا الأولى ، إذَنْ ، معارفَ ليس تَذَوُّقُها طبيعيًّا لدى الإنسان ، ولْنَقْتَصِرْ على المعارف التى تَحْمِلُنا الغريزةُ على البحث عنها .

والأرضُ هى جزيرةُ الجنس البشرىّ ، والشمسُ هى أكثرُ ما يَقِفُ نظرَنا ، وإذا ما أخذنا نبتعد عن أنفسنا وَجَبَ أن يَقَعَ انتباهُنا على هذه وتلك ، وهكذا فإن فلسفة جميع الشعوب الوحشية تقريبًا تَدُورُ حَصْراً حَوْلَ تقسيماتٍ خيالية عن الأرض وحَوْلَ ألوهية الشمس .

وقد يقال : يا له من ابتعاد ! لقد كنا نُعَالِجُ منذ هُنَيْهَةٍ ما يَمَسُّنا ، ما يُحِيطُ بنا مباشرةً ، وها نحن أولاء نَجُوبُ الأرض ونَقْفِزُ إلى أقاصى العالم بغتةً ! إن هذا الابتعادَ نتيجةُ تقدمِ قُوَانا ومَيْلِ ذهننا ، وإن اكتراثنا لبقائنا فى حالة ضعفنا ونقصنا يَحْصُرُنا ضِمْنَ أنفسنا ، وإن رغبتنا فى توسيع كياننا فى حالة قدرتنا وقوتنا تَحْمِلُنا إلى ما وراء ذلك وتدفعنا إلى الوُثوب إلى أبعدِ ما يُمكِنُنا ، ولكنْ بما أن العالَم الذهنىَّ لا يزال مجهولاً

لدينا فإن فكرنا لا يذهب إلى ما هو أبعدُ من عيوننا ، ولا يمتدُّ إدراكُنا إلا ضِمْنَ المسافةِ التى يَقِيسُ .

ولنُحَوِّلْ إحساساتِنا إلى أفكار ، ولكنْ لا نَقْفِزْ بغتةً من الأشياء المحسوسة إلى الأشياء الذهنية ، فبالأولى نَصِلُ إلى الثانية ، ودَعِ الحواسَّ أدِلَّاءَ أعمالِ الذهنِ الأولى دائماً ، فلا كتابَ غيرُ العالَم ، ولا تعليمَ غيرُ الأعمال ، والولدُ الذى يقرأُ لا يُفكِّرُ ، وهو لا يَفعَلُ غيرَ القراءة ، وهو لا يَتعَلَّمُ ، بل يحْفَظُ كلماتٍ .

واجعلوا تلميذَكم مُنْتَبِهاً لحادثات الطبيعة ، فلسُرْعان ما تجْعَلُونه مُحِبّاً للاطِّلاع ، ولكنَّ تغذيةَ فُضُولِه لا تَقْضِي بالمبادرة إلى إشباعه مطلقاً ، وضَعُوا الأسئلةَ ضِمْنَ متناوَله ، ودَعُوه يحُلُّها ، ولا ينبغى أن يَعرِفَ شيئاً عن كَوْنكم قد أطلعتموه عليه ، بل عن كَوْنه قد أدركه بنفسه ، ولا ينبغى أن يتعلم العلم ، بل يجب أن يكتشفه ، وإذا أقمتم السلطان مقامَ العقل فى ذهنه عاد لا يَتعَقَلُ وصار أُلْعوبةَ رأى الآخرين .

وتريدون أن يَتعلَّمَ هذا الولدُ الجغْرافيةَ ، وتُحْضِرُون له كُراتٍ وخرائطَ ، ويالها من آلات ! ولِمَ جميعُ هذه الرسوم ؟ ولِمَ لا تَبْدَءون بإراءته الشيءَ نفسَه حتى يَعرِف الشيءَ الذى تُحَدِّثونه عنه على الأقلِّ ؟

وفى مساءٍ جميلٍ يُذْهَبُ للنزهة فى مكانٍ ملائم حيث يُرَى غِيابُ الشمس عند الأُفُق الواسع ، وحيث تلاحَظ الأشياء التى تجْعَلُ مكانَ غِيابها سهلاً معرفتهُ ، وفى الغدِ يُرادُ تَنَسُّمُ الهواء العليل فيُرْجَعُ إلى عين المكان قبل طلوع الشمس ، ويُبْصَر من بعيدٍ أنها تؤْذِنُ نفسَها بما تلقيه من خطوط ناريةٍ

سابقةٍ لها ، ويزيد الحَرِيقُ ، ويَظْهَرُ الشرقُ مضطرماً لهيباً ، وعلى نُورِ ذلك يُنْتَظَرُ الكوكبُ طويلاً قبلَ أن يَطْلع ، ويُظَنُّ فى كلَّ ثانيةٍ أنه يُرَى ظهورُه ، ويشاهَدُ أخيراً ، وذلك أن نقطةً تَنطَلِقُ كالبرق فتَمْلأُ جميعَ الفضاء من فَوْرِها ، ويمَّحِى حجابُ الظلام ويَسْقُط ، ويَعْرِف الإنسانُ منزلَه ويَجِدُه مُزْدانًا ، وقد اكتسبت الْخُضَرُ فى الليل قوةً جديدة فلما أضاءها النهارُ الناشىء أبدَتها الأشعةُ الأولى مستورةً بشبكةٍ لامعةٍ من النَّدَى تَعكِس على العين نوراً وألواناً ، وتجتمع الطيورُ مواكبَ وتُحَيِّى ربَّ الحياة متفقةً ، ولا طيرَ يَسْكُتُ فى ذاك الحين ، وعلى ما يكون من ضعف تغريدها يُعَدُّ أبطأَ وأحلى مما فى بقية النهار ، فهو يَنِمُّ على انتباهٍ من النوم ساكنٍ وانٍ ، ويحمِلُ توافقُ جميعِ هذه الأمور إلى الحواسِّ أثراً من النضارة يَلُوح نفوذُه حتى الروح ، وهنالك يتَجَلَّى فتُونُ نصف ساعةٍ لا يستطيع الإنسانُ مقاومتَه ، وذلك منظرٌ عظيمٌ جدًّا ، رائعٌ جدًّا ، لطيفٌ جدًّا ، فلا يَقْدِرُ الإنسان أن يشاهده من غير أن يهتزَّ فؤادُه .

ويَفِيضُ المعلمُ حماسةً ، فيرِيد أن يشاطره الولدُ إياها ، ويعتقد أنه يُحَرِّكُ الولدَ بجعله ينتبه للإحساسات التى حَرَّكته بنفسه ، ويالها من حماقة صِرْفة ! إن بهاء منظر الطبيعة هو فى قلب الإنسان ، ويَجِبُ أن يُشعَرَ به لِيُرَى ، أجَلْ ، إن الولدَ يُبْصِرُ الأشياء ، ولكنه لا يستطيع أن يُبْصِر ما يَرْبِطُ بينها من صِلاتٍ ، ولكنه لا يستطيع أن يُدْرِكَ ما فى ائتلافها من انسجامٍ لطيف ، ولا بُدَّ له من تجْرِبةٍ لم يكتسبها قَطُّ ، ولا بدّ له من مشاعرَ لم يُحِسَّها قطُّ ، وذلك ليَشْعُرَ بالأثر المُرَكَّب الذى ينشأ عن جميع هذه

الإحساسات معاً . لا وهو إذا لم يَجُبْ سهولًا جديبةً زمناً طويلاً ، وهو إذا لم تَـكْوِ رِجليه رمالٌ مُحْرِقة ، وهو إذا لم يَضْغَطْه انعكاسُ الصخور التى لَفَحَتْها الشمسُ انعكاساً خانقًا ، فكيف يَسْتَطِيبُ الهواءَ العليلَ فى صباحٍ جميل ؟ وكيف تُفْتَنُ حواسُّه بعِطْر الأزهار وسِحْرِ الخُضَر و ببخار الندى الرطيب وبالمِشْية الخفيفة اللطيفة على الأرض المُخْضَرَّة ؟ وكيف يُوجِبُ فيه تغريدُ الطيور هَوَى شهوةٍ إذا كان جاهلا لحركات الغرام واللذة بَعْدُ ؟ و بأىِّ هَفيفٍ يَرَى ظهورَ نهارٍ بالغٍ تلك الروعة إذا لم يستطع خيالُه أن يُصَوِّر له ما يُمْكِن أن يَمْلأَه ؟ وأخيراً كيف يَرِقُّ لجمال منظر الطبيعة إذا كان يجهَل اليدَ التى عُنِيَتْ بزخرفتها ؟

ولا تُوَجِّهُوا إلى الولد من الـكلام مالا يستطيع أن يَفْهَم ، فلا وصفَ ولا بلاغةَ ، ولا مجازَ ، ولا شعرَ ، فليس الآن وقتُ الإحساس والذوق ، وداوموا عَلَى الوضوح والبساطة وأن تـكونوا فاترين ، عالمين أن زمنَ اتخاذ لغةٍ أخرى لا يأتى إلا باكراً .

وهو إذْ يُنَشَّأُ على روح مبادئنا وعلى استنباط جميع وسائله من نفسه ، وهو إذْ لا يستعين بالآخرين إلا بعد أن يُدْرِكَ عدمَ كفايته ، فإنه يَفْحَصُ طويلا كلَّ موضوعٍ جديد يراه ملتزماً جانبَ الصمت ، ويكون مُفَـكِّراً لا سَؤُولا ، وا كتَفُوا بِعَرْض الأشياء عليه فى الوقت المناسب ، ثمّ إذا ما أبصرتم حُبَّ الاطلاع فيه قائماً بما فيه الـكفاية فضعوا له من الأسئلة المختصرة ما يَحُلُّه .

وفى هذه الأثناء ، وبعد أن تُنْعِمُوا النظرَ معه فى الشمس البازغة ، وبعد أن تجعلوه يلاحظُ الجبالَ والأشياء المجاورة الأخرى من ذات الجهة ،

وبعد أن تدَعوه يتكلم حَوْلَ ذلك بلا تَعَبٍ اسكتُوا لبضعِ دقائقَ كرجلٍ سابحٍ فى الخيال ، ثمّ قولوا له : « إننى أُفكّرُ فى أمر الشمس التى غَرَبت أمسِ مساءً هنالك ، والتى طَلَعت اليومَ صباحاً هناك ، فكيف يُمكِن وقوعُ هذا ؟ » ، ولا تُضيفُوا شيئاً إلى ذاك ، وإذا ما وَضَع لكم أسئلةً فلا تُجيبُوه عنها مطلقاً ، وإنما كلِّمُوه عن شيء آخر ، ودَعُوه وشأنَه واثقين بأنه سيُفَكِّر فى ذلك .

ويجب ، لكى يتعودَ الولدُ الانتباهَ ، ولكى تَقِفَ نظرَه بعضُ الحقائق المحسوسة ، أن تَترُكَ له هذه الحقيقةُ بضعةَ أيامٍ من القلَق قبل اكتشافها ، وهو إذا لم يتمثّلْها على هذا الوجه بما فيه الكفاية كان هنالك من الوسائل ما يَجعَلُها أكثرَ بروزاً أيضاً ، وهذه الوسيلة هى إعادةُ السؤال ، وهو إذا كان لا يَعرِف كيف تأتى الشمس من مَغرِبها إلى مَشرِقها فإنه يَعرِف كيف تأتى من مشرقها إلى مغربها على الأقلّ ، وعيناه وحدَهما تُطْلِعانه على ذلك ، فأوضحوا السؤالَ الأول بالآخر إذَنْ ، وهنالك إما أن يكون تلميذُكم من الغباوة المطلقة ، وإما أن يكون التشابه من الوضوح البالغ ، ما يُمكِن معه أن يفوته ذلك ، وهذا هو درسه الأول فى علم الفلك .

وبما أننا نَسيرُ فى كلّ وقتٍ على مَهَلٍ من فِكرٍ محسوسٍ إلى فكرٍ محسوس ، وبما أن إيلافَنا أحدَ الفكرين يتطلب زمناً طويلاً قبل انتقالنا إلى الآخر ، وبما أننا لانُكرِه تلميذَنا على الانتباه مطلقاً ، فإنه لابُدّ من انقضاء وقت طويل عَلَى هذا الدرس الأول فى معرفة مجرى الشمس وشكلِ الأرض ، ولكن بما أن حركاتِ الأجرام السماوية الظاهرةَ كلَّها تابعةٌ لذات المبدإ ، وبما أن الرَّصَدَ الأول يؤدى إلى جميع الأرصاد الأخرى ، فإنه يُحتاجُ

إلى أقلِّ جُهْدٍ ، وإن كان يُحْتاج إلى أكثر وقتٍ ، للوصول من الدورة اليومية إلى حساب الكسوف والخسوف ، وذلك مما للوصول إلى إدراك الليل والنهار إدراكاً حسناً .

وإذ أن الشمس تدُورُ حَوْل الأرض فإنه يَرْسُمُ دائرةً ، ولا بُدَّ لكل دائرة من مركز ، وهذا ما عَلِمْناه سابقًا ، ولا تُمْكِنُ رؤيةُ هذا المركز لأنه فى وسط الأرض ، ولكنه يُمْكِن تعيين نقطتين متقابلتَين على السطح ، ويُعَدُّ العُودُ المارُّ من النِّقاط الثلاث والممتدُّ حتى السماء من الناحيتين محورَ الأرض ومحورَ حركةِ الشمس اليومية ، وإذا ما دار الخُذْروفُ المستدير على رأسه مَثَّلَ السماءَ الدائرةَ على محورها ، ومَثَّلَ طَرَفا الخُذْروفِ القطبين ، ويَسُرُّ الولدَ أن يَعْرِف أحدَهما ، وأُدُلُّه عليه بذَنَب الدُّبِّ الأصغر ، وهذا من لَهْوِ الليل ، وتُؤَلَفُ الكواكبُ بالتدريج ، ومن ثَمَّ ينشأُ أولُ ذَوْقٍ فى معرفة السَّيَّارات والبُرُوج .

ولقد رأينا طلوعَ الشمس فى منتصف الصيف ، وسنرى طلوعَها فى عيد الميلاد أو فى يومٍ جميلٍ آخرَ من أيام الشتاء ، وذلك لأننا لسنا كُسالَى كما هو معلوم ، ولأننا نَحْسُبُ اقتحامَ البرد من الألعاب ، وأُعْنَى بالقيام بهذا الرَّصَدِ الثاني فى عين المكان الذى قمنا فيه بالرَّصَد الأول ، وإذا ما أُبْدِيَ شىءٌ من البراعة فى إعداد المعاينة لم يَفُتْ هذا أو ذاك أن يَهْتِف قائلاً : « وَىْ ! وَى ! يا له من منظرٍ فَكِهٍ ! عادت الشمسُ لا تَطْلُعُ من عين المكان ! هنا دلائلُنا السابقة ، والآن تَطْلُع هنالك ، إلخ . ، إذَنْ ، يوجَد شَرْقُ صيفٍ وشرقُ شتاء ، إلخ . » ، ويا أيها المعلم الشابُّ ، أنت على

الطريق ، فيجب أن تكون هذه الأمثلةُ كافيةً لتعليم الكُرَة بوضوح ، ولاتخاذِ الأرضِ للأرض والشمسِ للشمس .

وعلى العموم لا تستبدل الرمزَ بالشيء مطلقاً إلّا إذا تعذَّر عليك إراءته ، وذلك لأن الرمز يستغرق انتباهَ الولد ويُنسيه الشيء المُمَثَّلَ .

وتَبْدُو لى الكُرةُ الأرْمِيارِيَّةُ* آلةً سيئةَ التركيب رديئةَ النِّسَبِ ، وما تشتمل عليه من دوائرَ مختلطةٍ وصُوَرٍ غريبةٍ مرسومةٍ يَمْنَحُها صبغةً سِحْرِيةً تخافها نفوسُ الأولاد ، والأرضُ فيها صغيرةٌ جِدًّا ، والدوائرُ فيها كبيرةٌ جِدًّا ، كثيرةٌ جِدًّا ، وبعضُها ، كدوائر السَّمْت مثلاً ، لا يُجْدِى نفعاً تماماً ، وكلُّ دائرةٍ فيها أوسعُ من الأرض ، ولها بثِخَن المُقَوَّى صلابةٌ توحى بأنها مطارقُ دائريةٌ موجودةٌ حقًّا ، فمتى قلتم للولد إنها دوائرُ خياليةٌ لم يَعْرِف ما يَرَى ، وعاد لا يَسْمَعُ شيئاً .

ولا نَعرِفُ أن نَضَع أنفسنا فى مكان الأولاد مطلقاً ، ولا نَنْفُذ أفكارَهم ، ونُعِيرُهم أفكارَنا ، وفى كلِّ وقتٍ نَتَّبِع براهيننا الخاصةَ بسلاسلَ من الحقائق فلا نَرْكُم فى رؤوسهم سوى تُرَّهاتٍ وأضاليلَ .

ويجادَل حَوْلَ اختيارِ التحليل أو التركيب فى دراسة العلوم ، ولكنْ لا يُحْتَاج إلى الاختيار دائماً ، فما يَحْدُث أحياناً إمكانُ التحليل والتركيب فى المباحث عينِها وإمكانُ إرشاد الولد بالمنهاج التعليميِّ مع اعتقاده أنه لا يَصْنَع غيرَ التحليل ، وهنالك إذْ يَتَّخِذُ هذا وذاك فإنه ينتفع ببراهينهما

* La sphère armillaire ، وهى مجموعة دوائر من معدن أو خشب أو مقوى تمثل حركات الأجرام السماوية ، وفى مركزها كرة تمثل الأرض .

مقابلةً ، وهو إذ يَذْهب من النقطتين المتقابلتين معاً ، وذلك من غير أن يُفكِّرَ فى سلوكه عينَ الطريق ، فإنه يُدْهَشُ من التقائهما . ويكون هذا الدَّهَشُ مُمتِعاً جِدًّا ، ومن ذلك أننى أريد تناول الجِغْرافية من هذين الحَدَّيْن وأن أُضيف إلى درس تحولات الكُرَة الأرضية قياسَ أجزائها بادئاً من المكان الذى يُسْكَن ، فبَيْناَ يَدْرُس الولدُ الكُرَةَ وينتقل إلى السماوات على هذا الوجه أُعِيدُوه إلى تقسيم الأرض ودُلُّوه إلى مَوْطنه قبل كلِّ شىء .

وستكون نقطتاه الأولَيَان فى الجِغْرافية مدينَتَه التى يقيم بها ومنزلَ أبيه فى الرِّيف ، ثم الأماكنَ المتوسطةَ ، ثم الأنهارَ المجاورة ، ثم منظرَ الشمس وكيفيةَ الاتجاه ، وهذه هى نقطةُ الالتقاء ، ولْيَصْنَع الخريطةَ بنفسه ، ولتكن الخريطةُ بسيطةً جِدًّا ، ولْيَكُن أولَ ما تشتمل عليه موضعان يُضِيفُ إليهما مواضعَ أخرى مقداراً فمقداراً . وذلك كلما عَرَف مسافَها ومراكزَها أو قَدَّرها ، وتُدْرِكُون أىَّ فائدةٍ قد حَبَوْناه بها مقدمًا بجعلنا بيكاراً فى عينيه .

ومع ذلك فإن مما لا مراء فيه وجوبَ إرشاده قليلاً ، ولكن قليلاً جِدًّا ، وذلك غير أن يَشْعُر ، فإذا ما أخطأ فدَعُوه وخطأه ، ولا تُصْلِحُوا خطأه مطلقاً ، وانتظروا صامتين حتى يراه ويُصْلِحَه بنفسه ، أو انتظروا ، على الأكثر ، فُرْصةً ملائمة تأتون فيها من الأعمال ما يَشْعر معه بخَطئه ، وهو إذا لم يُخْطِئْ قَطُّ لم تكْمُلْ معرفته ، وهو ، فضلاً عن ذلك ، لا يحتاج إلى معرفةِ طُپُغْرافية البلد معرفةً تامة ، بل يحتاج إلى وسيلة الاطلاع عليها ، وليس من المهمِّ كثيراً أن يَجْمَعَ فى رأسه خرائطَ ، وذلك على أن يَتَمَثَّلَ جيداً ما تَمَثَّلَه ، وعلى أن يكون لديه فكرٌ واضحٌ عن الفنِّ النافع فى

وَضعها ، وانظُرُوا إلى الفرق بين معرفة تلاميذكم وجَهْلِ تلميذى ! هم يَعْرِفون الخرائط ، وهو يَضَعُها ، وهذه زخارفُ جديدةٌ يُزَيِّن بها غرفته .

واذْكُرُوا دائماً عدمَ قيامِ روحِ مِنْهاجى على تعليم الولد أموراً كثيرة ، بل على عدم إدخالى فى دماغه غيرَ أفكارٍ صائبةٍ واضحة ، وليس من المهمِّ أَلَّا يَعْرِف شيئاً ، ولكنْ على أَلَّا يخطئْ ، ولا أَضَعُ فى رأسه حقائقَ إلا لصِيَانته من الخطأ الذى يَتَعَلَّمُ وضعَه فى مكانها ، ويأتيه الصوابُ والتمييزُ ببطء ، وتُسْرِع المُبْتَسَراتُ إليه جملةً ، والمبتسراتُ هى التى تجب وقايتُه منها ، ولكنكم إذا نظرتم إلى العلم نفسِه خُضْتم بحراً لا قَعْرَ له ولا ساحل ، خُضْتُم بحراً مملوءًا صخراً لا عَوْدَ منه مطلقاً ، وإذا ما رأيتُ رجلاً مُولَعاً بالمعارف يَدَعُ نفسه تُغْوَى بفُتُونها ، فيَعْدُو وراء واحدةٍ بعد الأخرى من غير أن يستطيع الوقوف ، اعتقدتُ أننى أرى ولداً على الشاطئ يَجْمَعُ صدفاً فيأخذ فى حَمْلها ، ثم يُغْرَى بما لا يزال يَرَى فيُلْقِى ما حَمَل ثم يَعُود فيأخذُه حتى يُثْقَلَ بكثرة ما نال فلا يَعْرِف كيف يختار فيَرْمى جميع ما حاز ويَرْجِعُ فارغاً .

وكان الزمنُ طويلاً فى الدور الأول من العمر ، فلم نحاول غيرَ إضاعته خشيةَ سوء استعماله ، والأمرُ هنا عكسُ ذلك ، وليس لدينا ما يَكْفِى لصنع ما يكون نافعًا ، وفكِّروا فى اقتراب الأهواء ، وفى أنها إذا ما قَرَعت البابَ عاد تلميذُكم لا ينتبه لغيرها ، ويكون دَوْرُ الذكاء الهادئُ من القِصر ما يَمُرُّ معه بسرعة ، ويكون من كثرة العادات الضرورية ما يُعَدُّ من الحماقة أن يُرَادَ معه كونُه كافياً لجعل الولد عالمًا ، ولا يَعْنِيكم أن تُعَلِّمُوه العلومَ ، بل أن تَمْنَحُوه من الذوق ما يُحِبُّها معه ومن المناهج ما يتعلمها به

عندما يُصْبِح هذا الذوقُ أحسنَ نشوءا ، ولا ريبَ فى أن هذا مبدأٌ أساسىٌّ لـكلِّ تربية صالحة .

وهذا أيضًا وقتُ تعويده ، بالتدريج ، إنعامَ النظر فى عين الموضوع ، ولـكن ليس القَسْرُ ، بل اللذةُ أو الرغبةُ ، ما يَجِبُ أن يؤدىَ إلى هذا الانتباه ، ويجب أن يُعْـنَى كثيراً بألاَّ يُرْهِقه الانتباه مطلقاً و بألاَّ يُفرَط فيه حتى السَّأَم ، فارْقبوا الأمرَ دائمًا إذَنْ ، ومهما يَـكُنْ من أمرٍ فدَعُوا كلَّ شىء قبل أن يَسْأَم . وذلك لأن مقدارَ ما يتعلَّم ليس من الأهمية بمقدار عدم جَعْله يَتعَلَّم على الرغم منه .

و إذا سألكم بنفسه فأجيبوه بمقدار ما يجب لتغذية حُبِّ الاطلاع فيه ، لا لإشباعه ، و إذا ما أبصَرْتم أنه لا يسأل ليَتعَلَّمَ ، بل يَهْـذُرُ بإرهاقكم بأسئلةٍ سخيفة ، فَقِفُوا من فَوْرِكم واثقين بأنه عاد لا يَـكْتَرِث للسؤال عن الشىء ، ولـكن ليستعبدكم لاستنطاقاته ، ولذا يجب أن يكون التفاتـكم إلى الباعث الذى يَحْمِـلُه على الـكلام أكثر مما إلى الـكلمات التى يَنْطِق بها ، ولا يَلْبَثُ هذا التحذير ، الذى كان أقلَّ لزوماً حتى الآن ، أن يصبح بالغَ الأهمية حينما يأخذ الولد فى التعقل .

وتُوجَدُ سلسلةٌ من الحقائق العامة تَرْتَبط جميع العلوم بها فى مبادئَ شاملةٍ وتَنْمُو بالتعاقب ، وهذه السلسلة هى مِنْهاجُ الفلاسفة ، وليس بها ما نُعْـنَى به الآن ، و إنما يُوجَدُ مِنْهاجٌ مختلفٌ آخرُ يُمْكِنُ كلَّ موضوعٍ خاصٍّ أن يستدعىَ به موضوعًا آخر فَينِمّ على ما يَلِيه دائمًا ، وهَلُمَّ جرًّا ، وهـذا النظامُ الذى يُغذِّى ، بفُضُولٍ مستمرٍّ ، ما يطلب الجميعُ من انتباهٍ هو

النظام الذى يَتَّبِعهُ مُعْظَم الناس ، ولا سيما النظامُ اللازمُ للأولاد ، ونحن ، إذْ نَقصِد أن نَضَع خرائطنا ، يَجبُ أن نَرْسُم دوائرَ لنصف النهار ، وما يَكُون من نقطتى تقاطعٍ بين ظلال الصباح والمساء المتساوية يُعطِى فَلَكيًّا فى الثالثةَ عشرةَ من سِنِيه دائرة نصفِ نهارٍ رائعةً ، بَيْدَ أن دوائرَ نصف النهار هذه تزول ، ولا بُدَّ من انقضاء وقتٍ حتى تُرْسَم ، وهى تقضى بالعمل فى عين المكان دائمًا ، وما يُبْذَل من كثيرِ عنايةٍ وجهْدٍ يُورِثُه سأمًا فى نهاية الأمر ، وقد أبصرنا هذا ، فنتلافاه مقدَّمًا .

وها أنا ذا داخلٌ دائرةَ الجزئيات المُطَوَّلةِ الدقيقة ، وأَسمَعُ تذَمُّرَكم أيها القراء ، فأقتحمه ، ولا أُريد أن أُساير مَلَالَكم مطلقًا ، فأُضَحِّى بأنفع قِسْمٍ من هذا الكتاب ، وتحزَّبوا على إسهابى لتحزُّبى على شكواكم .

ومما لاحظتُ أنا وتلميذى ، منذ زمن طويل ، أن بعض الموادِّ ، كالعَنْبَر والزجاج والشمع ، تجتذب التِّبْنَ إذا ما دُلِكَت ، وأن موادَّ أُخرى لا تجتذبه ، ومما وَجَدْنا مصادفةً مادةٌ لها خاصيَّةٌ أغربُ من تلك ، وهى أن تجتذب من مسافةٍ ، ومن غير دَلْكٍ ، بُرَادةَ الحديد وسُقَاطاتِه ، وما أكثر الوقتَ الذى أثارت فيه هذه الخاصيَّة لهوَنا دون سواه ! وأخيراً نجدها ذاتَ صلةٍ بذات الحديد المُمَغْنَط من بعضِ الوجوه ، ونَذْهَب إلى السُّوق ذاتَ يوم[1] ، ونشاهد مُشَعْوذاً يَجْذِب بِكِسْرَةِ خبزٍ بَطَّةً من

---

(١) لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك حينما قرأت نقداً دقيقاً لمسيو فورمه حول هذه القصة الصغيرة ، فقد قال : « إن هذا المشعوذ الذى يهتز بمنافسة صبى ، ويعظ معلمه بوقار هو فرد من عالم الإميلين » ، فما كان المتنادر مسيو فورمه ليستطيع أن يفترض أن هذا الفصل الصغير مدبر وأن المشعوذ كان عارفاً بالدور الذى يمثله ، وذلك لأننى لم أقل ذلك قط كما هو الواقع ، ولكن ما أكثر ما صرحت بأننى لم أكتب قط لأناس ينتظرون أن أقول كل شىء !

شمعٍ عائمةً فى حَوْض ماء ، ويعترينا دَهَش ، ولا نَقول ، مع ذلك ، إن هذا ساحر ، وذلك لأننا لا نَعْرِف ما الساحر ، وما انفَكَّتْ نتائجُ ما نَجْهَلُ عِلَلَه تَقِفُ نَظَرنا ، وذلك من غير أن نبادر إلى الحكم فيه ، ونَظَلُّ فارغى البال مقيمين على جهلنا حتى نَجِدَ الفرصةَ التى نَخْرُج بها منه .

ونَعُود إلى المنزل ، ونتكلم حَوْل بطة السوق ، ويَعِنُّ لنا أن نُقَلِّدَها ، ونتناول إبرةً صالحةً مُمَغْنَطةً جيداً ، ونشتمل عليها بشمعٍ أبيضَ ونَجْعَلُه على شكل بَطَّة على قَدَر الإمكان ، وذلك على أن تَنْفُذَ الإبرةُ جسمَها وأن يكون الرأسُ منها مِنقاراً ، ونَضَعُ البطةَ على الماء ، ونُدْنِى من المِنقار حَلْقةَ مفتاحٍ ، ونُبصِرُ بسرورٍ ، يَسْهُلُ إدراكُه ، اتِّبَاعَ البطة للمِفتاح كاتِّباعِ بطةِ السُّوق لِكِسْرَة الخبز ، وأما ملاحظةُ الاتجاه الذى تَقِفُ البطةُ عليه فوق الماء عندما تُتْرَك ساكنةً فهو ما نَصْنَعه فى مرةٍ أُخرى ، وأما الآن فلا نريد أن نفعل أكثرَ من ذلك لانهماكنا فى موضوعنا كلياً .

وفى المساء نفسِه نَعُودُ إلى السُّوق مع خُبْزٍ مُعَدٍّ فى جيوبنا ، ويَعُود المشعوذُ إلى دَوْره ، فيقول له عُوَيْلِمِى ، الذى لا يكاد يَمْلِكُ نفسه ، إن تمثيل هذا الدور غيرُ صعب ، وإنه يستطيع أن يقوم بمثله ، ويُكَلَّف بذلك ، فيُخْرِج من جيبه حالاً كِسْرَةَ خبزٍ مشتملةٍ على قطعةٍ من الحديد ، ويَخْفِق فؤادُه عند دُنُوِّه من المِنْضدة ، وترتجف يدُه تقريباً عند عَرْضِه كِسْرَةَ الخبز ، وتأتى البطة وتتبعه ، ويَصْرُخ الولد ويَنطُّ فَرَحاً ، وما

كان من تصفيقِ الحضور وهُتافهم أدار رأسَه وأطار لُبَّه ، ومع ذلك يأتى المشعوذُ القانط لتقبيله وتهنئته ولكى يَرْجُوَ منه أن يُشَرِّفه بحضوره فى الغد مرةً أخرى ، مضيفاً إلى ذلك قولَه إنه سيَبْذُل جُهْدَه فى جَمْع أناسٍ أكثرَ من أولئك ليَهْتِفوا لبراعته ، ويَشْمَخُ عُوَيْلِمِي الطبيعىُّ بأنفه ويريد أن يُثَرْثِر ، وأمنعه من الكلام حالاً ، وأعُود به مشمولاً ثناءً .

والولدُ ، حتى الغدِ ، يَعُدُّ الدقائقَ بقَلَقٍ مُضْحِك ، وهو يَدْعُو كلَّ من يُلاَقى ، وهو يَوَدُّ لو يكون جميعُ النوع البشرىِّ شاهدَ مَجْدِه ، وهو ينتظر الساعةَ بعَيَاء ، وهو يَسْبِقُها ، ويُهْرَعُ إلى المُلْتَقى ، ويَجِدُ القاعةَ زاخرةً ، ويَنْفَرِجُ غَمُّه حين يَدْخُلها ، ولا بُدَّ من تَقَدُّم ألعابٍ أُخَرَ ، ويَتَفَوَّقُ المشعوذ ويأتى بالعجائب ، ولا يَرَى الولدُ شيئاً من كلِّ هذا ، ويَتَمَلْملُ ، ويَعْرَق ، ولا يكاد يَتَنَفَّس ، ويَقْضِى وقته فى مَسِّه كِسْرَةَ الخبز داخلَ جيبه بيدٍ مرتعشةٍ جزَعاً ، وأخيراً يأتى دورُه ، ويُقَدِّمه المعلمُ إلى الجُمهور مُحْتفياً ، ويقترب على استحياء ، ويُخْرِجُ كِسْرَةَ خبزه ، ويالتَقَلُّبِ أمورِ البشر من جديد ! لقد صارت البطةُ الطائعةُ بالأمس نَفُوراً اليومَ ، فهى تُوَلِّى ذَنَبَها وتَفِرُّ بدلاً من أن تُقَدِّم مِنقارَها ، وهى تَتَجَنَّبُ كِسْرَةَ الخبز واليدَ التى تَعْرِضها بمثل الجهد الذى أبدته فى اتِّباعهما سابقاً ، ويحاوِل ألفَ مرةٍ على غير جَدْوَى ، ويُسْخَر منه تِباعاً ، ويتوجَّع الولد ويقول إنه خُدِع ، وإن بطةً أخرى استُبْدِلتْ بالأولى ، ويَدْعُو المُشَعْوِذَ إلى اجتذابها .

ويتناول المشعوذُ كِسْرَةَ خبزٍ من غير أن يجيب ، ويُقَدِّمُها إلى البطة ،

وتَتْبَع البطةُ كِسْرَةَ الخبز من فَوْرها ، وتأتى اليدَ التى تجتذبها ، ويتناول الولدُ ذاتَ الكِسْرَة فلا ينال نجاحاً كما فى المرة الماضية ، وهو يَرَى البطةَ تهزأ به وتَدُورُ حَوْلَ الحَوْض ، وأخيراً يبتعد مرتبكاً تماماً غيرَ مجترئٍ على مواجهة السُّخْريات .

وهنالك يتناول المشعوذُ كِسْرَةَ الخبز التى كان الولد قد أحْضَرها ، ويستخدمها بتوفيقٍ كالذى اتفق لكِسْرَته ، وذلك أنه يُخْرِج الحديدة منها أمام جميع الناس ، وهذا هُزُوءٌ آخرُ على حسابنا ، ثم أنه يجتذب البطةَ ، كما فى السابق ، بهذه الخُبْزَة التى أُخْلِيتْ على ذاك الوجه ، وهو يَفْعَلُ الشيء عينَه بكِسْرَةٍ أخرى قُطِعَت أمام الناس من قِبَل شخصٍ ثالث ، وهو يَصْنَع مثلَ هذا بقُفَّازه ومن طرف إصبعه ، وأخيراً يَنْأى إلى وسط الغرفة ، ويُعْلِنُ ، بتبجُّحٍ خاصٍّ بمَنْ هم على شاكلته ، أن بطته ليست أقلَّ إطاعةً لصوته منها لحركة يده ، ويُكَلِّمُها ، وتُطِيع ، ويقول لها أن تذهب إلى ناحية اليمين فتذهب ، ويقول لها أن تَعُود فتَعُود ، ويأمرها بأن تَدُور فتدور ، وتَتِمُّ الحركةُ بسرعةٍ وَفْقَ الأمر ، ويتضاعف الهُتافُ فيكون خِزْياً علينا بهذا المقدار ، ونَنْسَلُّ من غير أن يَشْعُر بنا أحد ، ونختلى فى غرفتنا من غير أن نَقُصَّ خبرَ نجاحنا على الناس كما كنا عازمين عليه .

ويُقْرَعُ بابُنا فى صباح الغد ، وأَفْتَحُ ، فأجِدُ أن المشعوذَ هو الطارقُ ، ويَشْكُو بتواضعٍ من سلوكنا ، وماذا صَنَع نحونا حتى نريدَ الإساءةَ إلى سُمْعَة ألعابه ونَحْرِمَه عيشَه ؟ وما يكون من عجيبٍ ، إذَنْ ، فى صَنْعةِ اجتذابِ بطةٍ من شَمْعٍ حتى يُبْتَاع هذا الشرفُ ضَرًّا بمعاش رجل

شريفٍ ؟ « صَدِّقُونى ، يا سادتى ، لو كان عندى نُبُوغٌ آخرُ لأعيش ما باهَيْتُ بهذا مطلقاً ، وثِقُوا بأن الرجل الذى قضى حياته فى ممارسة هذه الصنعة الحقيرة يَعْرِفُها أكثرَ مما تَعرِفون أنتم الذين يُعْنَوْن بها لبضع ساعات ، وإذا كنت لم أُبْدِ لكم فى البُداءة أحسنَ ما عندى من حِيَل فذلكَ لأنه لا ينبغى أن يبادَر بطيشٍ إلى عَرْض ما يُعْرَف ، وإنى أُعْنَى ، دائماً ، بحفظ أرْوَع الحِيَلِ لإظهاره فى الوقت المناسب ، ولا يزال يوجَدُ لدىَّ من الأدوار ما أَقِفُ به ، عند حَدٍّ ، كلَّ فتًى قليلِ الفِطنة ، وبَعْدُ ، أيها السادة ، تَرَوْننى قد أَتَيْتُ ، مختاراً ، لأعلمكم ذلك السِّرَّ الذى حيَّرَكم كثيراً راجياً أَلَّا تسيئوا استعماله ضَرًّا بى ، وأن تكونوا أكثرَ احترازاً فى المستقبل » .

وهنالك أطْلَعَنا على جهازه ، فرأينا ، دَهِشين ، أنه لا يَعْدُو كونه مغنَطِيساً قويًّا حَسَنَ الإعداد ، كان يحرِّكه ولدٌ مختَفٍ تحت مِنضَدةٍ من غير أن يُشْعَرَ به .

ويَطْوِى الرجلُ آلتَه ، ونُرِيد أن نُقدِّم إليه هديةً بعد الشكر له والاعتذار إليه فيَرْفِضُها ، ويقول : « كَلَّا ، يا سادتى ، لا أكون مَدِيناً لكم بشُكْرانٍ حتى أَقبلَ عطاياكم ، وسأَدَعُكم مَدِينين لى على الرغم منكم ، وهذا هو انتقامى الوحيد ، واعْلَمُوا وُجُودَ جُودٍ فى جميع الأحوال ، وأجُود بحِيَلِى من غير أن أُلْقِىَ دروساً عنها » .

ويَخرُج مُوجِّهاً لوماً إلىّ من فَوْره ، وذلك بقوله لى : « أَعْذُرُ هذا الولدَ طَيِّبَ الخاطر ، فهو لم يُذْنِبْ إلا عن جهلٍ ، وأما أنت ، يا سيدى ،

فقد كان يجب أن تَعْرِف خطأه ، فلِمَ تركتَه يقترفُه ؟ وبما أنكما تعيشان معاً ، وبما أنك أكبرُ منه سِنًّا ، فإن الواجب يقضى بأن تُحْسِن رعايتَه وأن تَمْحَضَه النُّصْحَ ، وتُعَدُّ تجرِبتُك دليلًا يَجِبُ أن يهتدىَ به ، فإذا ما كَبُرَ ولام نفسَه على ذنوبه لامَكَ ، لا رَيْبَ ، على عدم تحذيره منها أيامَ صِباه[1] » .

ويَنْصرِف ، ويَترُكنا نحن الاثنين خَجِلَيْن جِدًّا ، وألوم نفسى على سلوكى سبيلَ التساهل ، وأَعِدُ الولدَ بأننى سأضع مصلحته فى المرتبة الأولى لمرةٍ أخرى ، فأخبره بأغاليطه قبل أن يقترف منها ، وذلك لاقتراب الوقت الذى تتغير فيه صِلاتُنا ، والذى يجب أن تَعْقُب شدةُ المعلم فيه مجاملةَ الصديق ، ويجب أن يَقَعَ هذا التحول بالتدريج ، ويجب أن يُبْصَر كلُّ شىء ، وأن يَقَعَ ما يُبْصَرُ من مَدًى بعيد جِدًّا .

وفى الغَد نعود إلى السُّوق لنرى الحيلةَ التى عَرَفنا سِرَّها حديثاً ، ونقترب من المشعوذ سُقْراطَ حاملين له أعظمَ احترام ، ولم نَكَدْ نَجْرُؤْ على رَفْعِ أعيننا إليه حتى غَمَرنا بضروب الإكرام ووَضَعَنا فى مكانٍ ممتاز ، فكان لنا بهذا حِسٌّ خِزْىٍ أيضاً ، ويَقُوم بحِيَله كالعادة ، ولكنه يَتَلَهَّى بالبطة ويُجارِيها طويلًا ناظراً إلينا فى الغالب بنَظَرَاتِ المفاخِر ، ونَعْرِف كلَّ

---

(١) وهل على أن أفرض على القارئ من الغباوة ما لا يشعر معه فى هذا التصنيف بخطاب يمليه المعلم حرفياً للدعوة إلى وجهات نظره ؟ وهل يفترض كونى من الغباوة ما أعطى معه مشعوذاً هذه اللهجة ؟ أرانى قد أقمت ، على الأقل ، دليلا على صاحب نبوغ وضيع يخاطب الناس بما يلائم حالهم ، وكذلك انظروا إلى آخر الفقرة التالية ، ألم تشتمل على قول لكل شخص آخر غير مسيو فورمه ؟

شىء ، ولا تَنْبِسُ ببنت شفة ، فلو جَرُؤَ تلميذى على فتح فمه لكان ولداً يستحقُّ السَّحْق .

تَنْطَوى دقائق هذا المثال كلُّها على طائلٍ أكثرَ مما يَلُوحُ ، وما أكثرَ ما يشتمل عليه الدرسُ الواحد من دروس ! ويا لَلْعَوَاقبِ المُهينَة التى تجرُّ إليها حركةُ الزَّهْوِ الأولى ! فيا أيها المعلمُ الشابُّ ارْقُبْ هذه الحركةَ الأولى بدقةٍ ، وإذا ما استطعتَ أن تُمَهِّدَ بها السبيلَ لخزىٍ ، أو زوال حُظْوَةٍ[1] ، فاطْمَئِنَّ إلى عدم تكرارها لزمنٍ طويل ، ويا لَلْأَهَب كما تقول ! وأوافق على هـذا ، وذلك كلُّه لتجهيزنا ببَوْصَلَةٍ تُغنينا عن دائرة نصف النهار .

وإنا ، بعد أن علمنا أن المغنَطِيس يؤثِّر فى الأجسام الأخرى ، لم يَبْقَ لدينا ما نبادر إليه غيرُ صُنْع آلةٍ مشابهةٍ للتى رأينا ، وأن نُعِدَّ مِنضَدةً مُجوَّفةً وحَوْضاً مبسوطًا على مستوى المِنْضَدة مملوءاً ماءً مَحْضًاحًا ، وأن نُعِدَّ بطةً حَسَنةَ الصُّنْع ، إلخ . ، ونُنْعِمُ النظر حَوْل الحوْض غالباً ، فنلاحظ أخيراً أن البطة الساكنة تَتْبع عينَ الاتجاه دائماً ، ونَتَتَبَّعُ هذه التجربة ونَفْحَصُ هذا الاتجاهَ فنَجِدُ أنه من الجنوب إلى الشمال ، ولا نحتاج إلى ما هو أكثرُ من هذا ، فقد وُجِدَت بَوْصَلَتُنا أو ما يَعْدِلها ، وهكذا نَلِجُ نِطاقَ الفِزْياء .

---

(١) إذن ، يكون هذا الخزى وزوال الحظوة من عملى ، لا من عمل المشعوذ ، وبما أن مسيو فورمه يريد أن يستولى على كتابى ، وأن يطبعه على شكل لا يغير فيه غير نزع اسمى منه ووضع اسمه فى مكانه ، فليكلف نفسه ، على الأقل ، بأن يقرأه ، ولا أقول أن يؤلفه .

وتشتمل الأرض على أقاليمَ كثيرةٍ ، وتختلف هذه الأقاليم باختلاف درجات الحرارة ، وتختلف الفصولُ اختلافاً محسوسًا كلما اقتُرِب من القطب ، وتنقبض جميع الأجسام بالبرد ، وتنبسط بالحرّ ، وأكثرُ ما تقاسُ به هذه النتيجةُ فى الموائع ، وأكثرُ ما تكون محسوسةً فى المشروبات الروحية ، ومن هنا أتى ميزان الحرارة ، والريحُ تَلْطِم الوجهَ ، ولذا فإن الهواء جسمٌ سَيّالٌ ، ويُشْعَر بالهواء وإن لم تُوجَدْ وسيلةٌ لرؤيته ، واقْلِبُوا كأسًا فى الماء تَجِدُوا أنه لا يملؤها ما لم تَترُكوا للهواء مَخْرَجاً ، ولِذَا يكون الهواء قادراً على المقاومة ، وأغْطِسُوا الكأسَ أكثرَ من ذلك فى الماء تَجِدُوا الماء يَكْسِب فضاءً من الهواء من غير أن يَمْلأ هذا الفضاء تمامًا ، ولِذَا يكون الهواء قادراً على الانقباض إلى حدٍّ معين ، وتَنِطُّ الكُرَةُ المملوءةُ هواءً مضغوطًا بأحسن مما تكون مملوءةً بأية مادةٍ أخرى ، ولِذا يُعَدُّ الهواء جسماً مطّاطًا ، واسْتَلْقُوا فى الحمّام ، وارفعوا ذراعَكم أُفُقِيًّا خارجَ الماء تَشْعُروا بأنها مُثْقَلَةٌ بأوزانٍ هائلة ، ولِذا يَكون الهواء جسماً ثقيلًا ، ووازنو بين الهواء والسّيّالات الأخرى تستطيعوا قياسَ ثِقَلِه ، ومن هنا أتى ميزانُ الجوِّ والمِمَصّ والأُنبُوب الهوائىّ ومُفَرِّغَةُ الهواء ، ولو بَحَثْتَ فى قوانين توازن الأجسام وتوازن السوائل لوَجَدْتَها قد قامت على تجارِبَ غليظةٍ كهذه ، ولا أرْغَبُ فى دخولِ غرفةِ الفِزْياء التجريبية لشىء من جميع ذلك ، فلا يَرُوقنى جميعُ جهاز هذه الآلات والأدوات ، فالجوُّ العلمىُّ قاتلٌ للعلم ، وذلك لأن جميع هذه الآلات تُخيفُ الولد أو لأن صُوَرَها تُقاسِمُ ما يجب أن يُبْدِيَه من انتباهٍ نحو نتائجها وتَسْتَرِقُ هذا الانتباهَ .

وأُرِيدُ أن نَصْنَع جميعَ آلاتنا بأنفسنا ، ولا أريد البدء بصنع الآلة قبل التجرِبة ، ولكننى أريد ، بعد أن نُبْصِرَ التجرِبةَ مصادَفةً مثلاً ، أن نخترع الآلةَ التى تُحَقَّق بها ، وأُفَضِّلُ ألاَّ تكون آلاتُنا متقنةً دقيقةً ، وأن تكون لدينا أفكارٌ أكثرُ وضوحاً عما يجب أن تكون عليه هذه الآلات وعما يجب أن تؤدِّىَ إليه من أعمال ، وإنى ، كأول درسٍ عن توازن الأجسام والقُوَى ، لا أبحث عن الموازين ، وإنما أضَعُ عَصًا بالعَرْض على ظَهْرِ كرسىٍّ ، وأقيسُ بين قِسْمَى العصا عند التوازن ، وأُضيف إلى الأوزان من ناحيةٍ ومن أخرى فأجعلُها متساويةً تارةً ومتفاوتةً تارةً أخرى ، وأَجْذِب العَصَا وأَدْفَعُها كما تَقْضِى به الضرورة ، فأَجِدُ أخيراً أن التوازن ينشأ عن نسبةٍ متقابلة بين مقدار الأوزان وطول العَتَل ، وهكذا يصير عُوَيْلِمِى الفِزْيَوِىُّ قادراً على تعديل الموازين قبل أن يراها .

ولا مِرَاءَ فى أن ما يناله الإنسانُ من معارفَ حَوْلَ الأشياء عن تَعَلُّمٍ ذاتىٍّ يكون أكثرَ وضوحاً وضماناً من المعارف التى يتلقاها من الآخرين ، وَأضِفْ إلى هذا ما يكون من عدم تعويدِ الإنسان عقلَه أن يَخْضَع لذى سلطانٍ بدناءة فضلاً عن ظهورِه أكثرَ براعةً فى اكتشافه نِسَباً وربطه أفكاراً واختراعه أجهزةً مما يَحْدُث له ، عند انتحاله جميعَ هذه الأمور تلقيناً ، من انحطاطِ ذهنه فى البلادة ، شأنُ جسمِ الإنسان الذى يُلْبَسُ ويُحْذَى ويُخْدَمُ دائماً من قِبَل أُجرائه ويُجَرُّ من قِبَل خَيْلِهِ فَيَفْقِد قوةَ أعضائه وعادتها فى آخر الأمر ، وكان بُوَالُو يفاخِرُ بأنه عَلَّم راسِينَ نَظْمَ الشعر بصعوبة ، فبين كثيرٍ من المناهج الرائعة لتعلم العلوم بأخصر الطرق ترانا محتاجين

كثيراً إلى من يَمنَحُنا منهاجاً نَتَعَلَّمُها به مع الجُهْد .

وأكثرُ ما يُشْعَرُ به من فائدةٍ فى هذه الأبحاث البطيئة المُتعِبة هو أن يُحفَظ الجسمُ ، فى أثناء الدروس النظرية ، نشيطاً ، والأعضاء مَرِنَةً ، وأن تُدَرَّب الأيدى بلا انقطاع على ما ينفع الرجلَ من عملٍ وعادات ، وكَثُرَت الآلاتُ التى اختُرِعت لتكون دليلًا لنا فى تجارِبنا وتقومَ مقام دِقة حواسِّنا فتؤدى إلى إهمال تمرينها ، ويُغنِى مقياسُ المِساحة عن تقدير اتساع الزوايا ، وتعتمد العين ، التى كانت تُقَدِّر المَسافاتِ بدقةٍ ، على السلسلة التى تَذْرَعها عِوَضاً منها ، ويُعفِينى القَبَّان من الوزن الذى كنت أعْرِفه باليد ، وكلما كانت آلاتُنا مُتقَنةً غَدَتْ أعضاؤنا غليظةً خُرْقاً ، وكلما جمعنا آلاتٍ حَوْلَنا عُدْنا لا نَجِدُ منها فى أنفسنا شيئاً .

ولكنْ متى بَذَلْنا فى صُنْع هذه الآلات من الحِذْق ما يُعوِّض منها ، ومتى استعملنا فى تكوينها من الفَطَانة ما نستغنى معه عنها ، كان هذا غُنْماً بلا غُرْم ، وكان هذا إضافةَ فنٍّ إلى الطبيعة ، وصِرْنا أكثرَ دقةً من غير أن نصبح أقلَّ مهارةً ، وإذا ما شَغَلْتُ الولدَ فى مَصْنَعٍ ، بدلاً من تَغْرِيته على الكتب ، عَمِلَتْ يداه نفعاً لذهنه ، وأضحى فيلسوفاً مع اعتقاده أنه ليس سوى عامل ، ثم إنه يُوجَد لهذا التمرين من المنافع الأخرى ما أتكلم عنه فيما بعد ، فيُرَى كيف يُمكِن أن يُرْقَى من الرياضات الفلسفية إلى وظائف الرجل الحقيقية .

ومما قلتُ سابقاً إن المعارف النظرية الصِّرْفة لا تلائم الأولاد مطلقاً ، حتى مَنْ يَدْنُو من سنِّ المراهقة ، ولكنْ ، من غير إدخالٍ لهم ضِمْنَ نِطاقِ الفِزْياء النظرية ، اصْنَعْ ، على الخصوص ، ما يرتبط به بعضُ التجارِب

فى بعض ، وذلك بشىء من الاستنباط ، وذلك ليستطيعوا بهذا التسلسل أن يَضَعُوها منتظمةً فى أذهانهم ، وأن يَذْكُروها عند الحاجة ، فمن الصعوبة بمكانٍ أن تستقرَّ الأعمالُ ، حتى البراهينُ المنعزلة ، بذاكرتهم عند عدم وجود وسيلةٍ تردُّها إليها .

وفى البحث عن سُنَن الطبيعة ابْدءوا ، دائماً ، بأكثر الحادثات شيوعًا وأشدِّها ظهوراً ، وعَوِّدوا تلميذَكم عدمَ عَدِّ هـذه الحادثات عللًا ، بل وقائع ، وأتناول حجراً ، وأزْعُم أننى أَضَعُه فى الهواء ، وأَفتح يدى ، ويَسْقُط الحجر ، وأُبْصِرُ إميلَ منتبهاً لِماَ أفعل ، وأقول له : لِمَ سَقَط هذا الحجر ؟

وأىُّ ولد يَقْصُر عن فهم هذا السؤال ؟ لا أحدَ ، ولا إميلَ أيضاً ، وذلك ما لم أكُنْ قد بذلتُ جهداً كبيراً فى تعليمه عدمَ الجواب عنه ، وسيقول الجميعُ إن الحجر يَسْقُط لأنه ثقيل ، وما الثقيل ؟ هو الذى يَسْقُط ، أيَسْقُط الحجرُ لأنه يَسْقُط إذَنْ ؟ وهنا يتوقَّف فيلسوفى الصغير جِدِّيًّا ، وهذا هو درسه الأول فى الفِزْياء النظرية ، وسواءٌ أأفاده هذا الدرس على هذا الوجه أم لم يُفِدْه كان هذا الدرس صائباً دائماً .

وكلما تقدم الولدُ ذكاءً حَمَلَتْنَا عواملُ مهمةٌ أخرى على كثيرٍ من الحَذَر فى اختيار أشاغيله ، وهو إذا ما انتهى إلى معرفة نفسه بما فيه الكفاية ليتمثَّل ما يقوم عليه رفاهُه استطاع من فَوْره أن يُدْرِك من الملائق التى تكون على شىء من الاتساع للحكم فيما يلائمه وما لا يلائمه ، وهو يكون حينئذٍ فى حال يَشْعُرُ معها بالفرق بين الجِدِّ والهَزْل فلا يَعُدُّ هذا غيرَ إراحةٍ

لذاك ، وهنالك يُمْكِن الأمورَ ذاتَ النفع الحقيقيّ أن تَدْخُل ضِمْنَ دروسه وأن تُلْزِمه بتطبيقٍ لها أثبتَ مما يُعِيرُه من الألهُوَّاتِ البسيطة ، ومن شأن قانون الضرورة الناشئ دائماً أن يُعَلِّمَ الإنسان باكراً عَمَلَ ما لا يَرُوقه اجتناباً لسوء يؤذيه أكثرَ من ذاك ، وهذه هي عادةُ الحَذَر ، وعن هذا الحذر الحسن الترتيب أو السَّيِّء التنظيم ينشأ كلُّ حكمةٍ بشرية أو بؤسٍ بشريّ .

وكلُّ إنسانٍ يريد أن يكون سعيداً ، ولكنّ كونَ الإنسان سعيداً يَقْضِي ببدء الإنسان أن يَعْرِف ما السعادةُ ، وتكون سعادةُ الرجل الفطريّ بسيطةً بساطةَ حياتِه ، وهي تقوم على عدم ألمه ، وهي تتألف من الصحة والحرية والضرورة ، وغيرُ هذه سعادةُ الإنسان الأدبيّ ، ولكن ليست هذه موضوعَ البحث هنا ، ولا أكرِّرُ كثيراً أنه لا يوجد غيرُ الأشياء الحسية ما يُمكِن أن يكترث له الأولاد ، ولا سيما مَنْ لم يُوقَظْ زهوُهم ، ومَنْ لم يُفْسَدوا قَطُّ بسُمِّ الرأي .

وإذا ما أبْصَرَ الأولادُ احتياجاتِهم قبل أن يُحِسُّوها تمّ هذا على سابق تقدم ذكائهم كثيراً ، فيأخذون في معرفة قيمة الوقت ، وهنالك يكون من المهمِّ أن يُعَوَّدُوا استخدامَه في الأمور المفيدة ، ولكنْ على أن تكون هذه الفائدة مما يُبْصِرُه مَنْ في سِنِّهم ، وأن تكون في متناوَل مداركهم ، ولا ينبغي أن يُعْرَض عليهم حالاً كلُّ ما يرتبط في النظام الأدبيّ وعادة المجتمع ، فمن السخافة أن يطالَبوا بملازمة أمورٍ قيل لهم بإبهامٍ إنها تنطوي على خيرٍ لهم من غير أن يَعْرِفوا ما هذا الخير ، ووُكِّد لهم أنهم ينتفعون بها إذا ما

صاروا كِباراً ، وذلك من غير أن تكون لهم الآن أيةُ مصلحةٍ فى هذه الفائدة المزعومة التى لا يستطيعون فهمَها .

ولا تَدَعوا الولدَ يَصْنَع شيئاً على قَوْلٍ يَسْمَعُ ، فلا حَسَنَ عند الولد غيرُ ما يَشْعُر بأنه حسنٌ ، وإذا ما دفعتم الولد ، دائماً ، إلى ما وراء إدراكه حَسِبْتم أنكم أتيتم عملَ بَصِيرةٍ ، وما الأمرُ كذلك ، وإذا ما جَهَّزْتموه ببعض الآلات الفارغة ، التى لن يستعملَها مطلقاً على ما يحتمل ، نَزَعتم منه الإدراكَ السليم الذى هو أشْمَلُ ما لدى الإنسان ، وعَوَّدتموه أن يُقَادَ من قِبَل غيره دائماً وألا يكون غيرَ آلةٍ بيد الآخرين ، وأنتم تَوَدُّون أن يكون ذَلُولًا فى صِغَره ، وهذا يَعْنِى أن يكون ميقاناً* غافلاً فى كِبَره ، وأنتم لا تفتأون تقولون له : « إن جميع ما أطلبُ منك نافعٌ لك ، ولكنك لستَ فى حالٍ تُدْرِكه فيه ، وما يهمُّنى أن تَفْعَلَ هذا أو لا تَفْعَله ؟ وكلُّ ما تَصْنعُ هو فى سبيلِ نفسكَ وحدَها » ، وما يَصْدُرُ عنكم من مثل هذا القول الجميل الذى تُمْسِكونه به اليوم لتجعلوه حكياً تُعِدُّونَ به نجاحَ أقوالٍ يُمْسِكه بها ذاتَ يومٍ مفتونٌ أو نَفَّاثٌ أو ثرثارٌ أو مكارٌ ، أو مجنونٌ من كلِّ نوعٍ ، ليُوقِعَه فى حِبالته أو ليَحْمِلَه على انتحال حماقته .

ومن المهمِّ أن يَعْرِف الرجلُ أموراً كثيرة لا يُمْكِن الولدَ أن يدرك فائدتَها ، ولكن هل يَجِبُ ، وهل يُمكِنُ ، أن يتعلم الولدُ كلَّ ما يهمُّ الرجلَ أن يَعْرِفه ؟ واسْعَوْا فى تعليم الولد كلَّ ما هو صالحٌ له ترَوْا أن هذا يستغرق جميعَ وقته ، ولِمَ تريدون أن يَعْكُفَ الولدُ على دروسِ عمرٍ

* الميقان : الذى لا يسمع شيئاً إلا أيقن به .

قليلِ الاطمئنان إلى بلوغه ضِراراً بدروسٍ تلائمه اليوم؟ وستقولون: « ولكنْ أيكون من الوقت ما تتعلم فيه ما يَجِبُ أن يُعْرَف عند ما يَحِلُّ الوقتُ الذى تستعمله فيه ؟ » ، وأَجْهَلُ هذا ، ولكن الذى أعْرِف هو أن من المتعذر تَعَلُّمَه قبل الأوان ، وذلك لأن التجرِبة والشعورَ هما معلِّمانا الحقيقيان ، وما كان الرجلُ ليَعْرِف ما يلائم الرجلَ إلا فى الأحوال التى يُوجَدُ فيها ، ويَعْرِف الولدُ أنه صُنِعَ ليَصير رجلاً ، وتُعَدُّ جميعُ الأفكار التى يُمْكِنُ أن تكون لديه حَوْلَ حال الرجل فُرَصَ تعليمٍ له ، غير أنه يجب أن يبقى جاهلاً جهلاً مطلقاً للأفكار التى تَدُور حَوْل تلك الحال ولا تكون فى متناوَله ، وليس جميعُ كتابى غيرَ دليلٍ مستمرٍ على هذا المبدإ فى التربية .

ومتى انتهينْا إلى إعطاء تلميذنا فكرةً عن كلمة « مفيد » كانت لدينا وسيلةٌ كبيرة أخرى للسيطرة عليه ، وذلك لأن لهذه الكلمة فعلاً عظيماً فيه ما دام لا يُوجَدُ لها سوى معنًى واحدٍ مناسبٍ لسِنِّه ، وما دام يُبْصِر فيها بوضوحٍ ما يلائم رفاهيتَه الحاضرة ، وأما أولادُكم فلا عَملَ لهذه الكلمة فيهم مطلقاً ، وذلك لأنكم لم تُعْنَوْا بإعطائهم فكرةً عنها تكون فى متناوَلهم ، ولأنه يُعْهَدُ إلى آخرين ، دائماً ، أن يتداركوا ما يكون مفيداً لهم ، فلا يحتاجون إلى التفكير بأنفسهم فى ذلك مطلقاً ، ولا يَعْرِفون ما الفائدة .

وما فائدةُ ذلك ؟ هذه هى الكلمةُ المقدسةُ من الآن فصاعداً ، هذه هى الكلمةُ المُحَدِّدَةُ بينى وبينه لجميع أفعال حياتنا ، وهذا هو السؤال الذى يَتْبَع

من ناحيتي اتباعًا لامراء فيه جميعَ الأسئلة فيَصْلُح زاجراً لتلك الأسئلة الكثيرة السخيفةِ المُملة التي يُضْنِي بها الأولادُ ، بلا مَهَلٍ وعلى غير جَدْوَى ، جميعَ من يحيطون بهم ، وذلك ليمارسوا نَحْوَهم نوعًا من السلطان أكثرَ من قَصْدِهم أن يَفُوزوا بفائدةٍ ما ، ولا يَسْأَلُ إلا كما كان يَسْأَلُ سُقْرَاطُ ذلك الذي يُعَلَّمُ ، كأهمِّ درسٍ يُلْقَى عليه ، ألاَّ يَرْغَبَ في معرفة شيء غيرِ نافع ، فلا يَطْرَحَ سؤالاً من غير سببٍ ، وذلك لأنه يَعْرِف أنه سيُطْلَبُ منه أن يُبَيِّن سببَه قبل أن يَظْفَر بجوابٍ عنه .

ورَوْا أيةَ آلةٍ قوية أَضَعُ بين أيديكم لتُؤثِّرُوا في تلميذكم ، وبما أنه لا يَعْرِف سببَ أيِّ شيء فإنكم تستطيعون أن تَحْمِلُوه على السكوت متى أردتم ، وعلى العكس ما أعظمَ ما تَجِدُون في معارفكم وتجربتكم من نَفْعٍ في إطْلاَعه على فائدة جميع ما تُقَدِّمون إليه ! وذلك لأنه ، من غير أن تُنْسَبُوا إلى الخطأ ، يَنْطَوِي وَضْعُكم هذا السؤالَ له على تعليمه أن يَضَعَ لكم عينَ السؤال بدَوْره ، ويجب عليكم أن تتوقَّعُوا ، في كلِّ ما تَعْرِضون عليه فيما بعد ، أن يسير على مثالكم فلا يفوتَه أن يقول لكم : « وما فائدة ذلك ؟ » .

وقد يكون هنا أصعبُ شَرَكٍ يَجْتَنِبه معلمٌ ، وذلك أن الولد ، عند طَرْح سؤاله ، إذا لم تحاولوا غيرَ الخروج من المأزق فقدمتم إليه سببًا عنه لا يَسْتطيع أن يُدْرِكه ، يرى أنكم تستندون في دليلكم إلى أفكاركم ، لا إلى أفكاره ، فيعتقد أن ما تقولون له صالحٌ لسِنِّكم ، لا لسِنِّه ، فيَعُودُ غيرَ معتمدٍ عليكم ، وهنالك كلُّ الخسران ، ولكنْ أين المعلم الذي يَتَفَضَّلُ

بالوقوف فجأةً ويعترف بخطئه أمام تلميذه ؟ إن الجميع يَتَّبِعُ قاعدةً قائلةً بعدم الاعتراف حتى بالخطأ الذى يقترف فعلاً ، وأما أنا فأتخذ قاعدةً قائلةً بالاعترافِ حتى بالخطأ الذى لم أصْنَعْ ، وذلك عند ما أَعْجِزُ عن بَسْطِ أسبابى ضِمْنَ متناوَله ، وهكذا ، بما أن سلوكى يقوم على الوضوح فى نفسه دائمًا فإنه لا يرتاب منه دائمًا ، وبهذا أحتفظ بأعظم اعتمادٍ حين أفترض لنفسى خطأً يكتمون مِثْلَه عند صدوره عنهم فِعلاً .

وأولُ ما يجب أن يَخْطُرَ ببالكم نُدْرَةُ عَرْضِكم عليه ما يُلْزَم بتعلُّمه ، فهو الذى يجب أن يَرْغبَ فيه ، وأن يبحث عنه ، وأن يَجِدَه ، وعليكم أن تَضَعُوه ضِمْنَ متناوَله ، وأن تُوَلِّدُوا فيه هذه الرغبة بلباقةٍ وأن تُجَهِّزُوه بوسائل قضائها ، ومن ثَمَّ يجب أن تكون أسئلتكم قليلةَ الوقوع ، ولكنْ مع حُسْنِ الاختيار ، وبما أنه يكون لديه ما يَطْرَح عليكم من الأسئلة أكثرَ مما تَطْرَحون عليه بدرجاتٍ فإنكم تكونون أكثرَ سِتْراً دائماً ، وفى حال تسألونه معها غالباً : « ما فائدة معرفة ما تسأل عنه ؟ » .

ثم بما أن مما يهمُّ قليلاً أن يَعلَمَ هذا أو ذاك ، على أن يُحْسِنَ تَمَثُّلَ ما يتعلَّم واستعمالِ ما يتعلَّم ، فإنه يَحْسُن عدمُ إعطائه إيضاحاً صالحاً عما تقولون له ، عند ما يُعْوِزُكم هذا الإيضاح ، ولكن لا تترددُوا فى أن تقولوا له : « ليس لدىَّ جوابٌ حسنٌ أُعطيك إياه ، كنتُ على خطأ ، فدَعْنا نَطْرَح الموضوعَ جانباً » ، وإذا كان درسُكم فى غير محلِّه بالحقيقة فلا ضَيْرَ عليكم أن تتركوه تمامًا ، وهو إذا لم يكن هكذا لم تَلْبَثُوا أن تَجِدُوا ، مع قليلٍ من العناية ، فرصةَ جَعْل فائدته أمراً محسوساً .

ولا أُحبُّ الإيضاحَ بالكلام مطلقاً ، فلا يُعيرُه الشُّبَّان غيرَ انتباهٍ قليل ، وهم لا يَحْفَظُونه أبداً ، فالأشياء ! الأشياء ! ولن أُكرِّر بما فيه الكفاية كوننا نَمْنَحُ الكلماتِ قدرةً كبيرة ، فبِترْبيتنا القائمة على الثَّرْثرة لا نَصْنَع غيرَ ثَرْثارين .

وبَيْنا أَدْرُسُ مع تلميذى مجرى الشمس وكيف تُعَيَّن الجهاتُ إذْ يقاطعنى سائلاً عن فائدة جميع هذا كما أفترض ، ويا لَرَوْعة ما أُريد أن أقول له ! ويا لكثرة الأمور التى أغتنم فرصةَ تعليمه إياها حين أُجيب عن سؤاله ، ولا سيما عند وجود شهودٍ على حِوارنا[1] ! سأُحَدِّثه عن فائدة الرِّحْلات ومنافع التجارة وما يُنْتِج كلُّ إقليمٍ من محاصيلَ خاصةٍ ، وعن طبائع مختلف الشعوب ، وعن استعمال التقويم ، وعن حساب تعاقب الفصول للزراعة ، وعن فَنِّ المِلاحة ، وعن طريقة السير فى البحر واتباعِ الإنسان طريقَه فيه تمامًا من غير أن يَعْرِف أين هو ، وسيتناول إيضاحى السياسةَ والتاريخَ الطبيعىَّ وعلمَ الفلك وأخلاقَ الأمم حتى الحقوقَ الدَّوْلية ، وذلك على وجهٍ أُعطى تلميذى به فكرةً كبيرةً عن جميع هذه العلوم ورغبةً عظيمة فى تَعَلُّمِها ، ومتى فَرَغْتُ من قول كلِّ شىء حُسِبْتُ متحذلقاً لم يَفْهَم أيةَ فكرةٍ منه ، ويشتدُّ ميلُه إلى سؤالى عن فائدة تعيين الجهات ، ولكنه لا يَجْرُؤ على هذا خشيةَ غضبى ، ويَجِدُ أن الأفضلَ له أن يتظاهر بفهم ما حُمِلَ على الاستماع له ، وهذا هو الوجه الذى تزاوَل به أروعُ تربياتنا .

(١) مما لاحظت غالباً أنه يهدف فى الدروس العلمية التى تلقى على الطلبة إلى استرعاء سماع الحضور من الوجوه أكثر من استرعاء سماع الطلبة ، وإنى لعلى يقين بما قلت آنفاً ، فقد جربت ذلك بنفسى .

بَيْدَ أن إميل الذى نُشِّئَ تنشئةً أكثرَ خشونةً ، والذى نُلاقى عناءً كبيراً فى تعليمه فكرةً صعبةً ، لا يستمع لشىء من جميع هذا ، وهو يَهْرُبُ عند أول كلة لا يَفهَمُها مُتبَخْتِراً حَوْل الغرفة تاركاً إياى أسْهِبُ فى الكلام وحدى ، ولْنَبْحَثْ عن حَلٍّ أخْشنَ من ذاك ، فلا قيمةَ لجهازى العلمىِّ عنده .

وقد كنا نلاحظ موضعَ الغابة الواقعة شمالَ مُونمُورَنسِى عند ما قاطعنى بسؤاله المزعج ، وهو : « ما فائدة هذا ؟ » ، وأقول له : « الحقُّ معك ، ولكنْ دَعْنا نُفكِّر فى الأمر مَلِيًّا ، فإذا ما وجدناه غيرَ صالحٍ لشىء لم نَعُدْ إليه ، وذلك لأن الألْهُوّاتِ المفيدةَ لا تُعْوِزنا » ، ونَجِدُ شيئاً آخرَ نَفعَلُه مُعْرِضين عن الجِغْرافية بقيةَ يومنا .

وفى صباح الغد أقترحُ عليه القيامَ بنُزْهةٍ قبل الفَطُور ، ولا يَطْلُب ما هو أحسنُ من هذا ، ويَبْدُو الأولاد مستعدين للعَدْوِ دائماً ، ولهذا ساقان صالحتان ، ونَصْعَد فى الغابة ، ونَجُوب المروج ، ونَتِيهُ ، ولا نَعْرِف أين نحنُ وعندما أردنا العَوْدَ لم نَسْتَطِعْ أن نَجِدَ طريقَنا ، ويَمُرُّ الوقتُ ، ويُقْبِلُ الحرُّ ، ونَجُوع ، ونُسْرِع ، ونَهِيمُ على وجهنا عَبَثاً ، ولا نَجِدُ فى كلِّ مكان غيرَ الغاب والمقالع والسهول ، ولا نَجِدُ مَعْلَماً نهتدى به ، ونزيدُ حَرًّا وتَعَبًا وجوعًا ، ولا نزيد بسَيْرِنا إلَّا تيهانًا ، وأخيراً نجلِسُ للاستراحة والتشاور ، وأفترض أن إميلَ نُشِّئَ كأىِّ ولدٍ آخر ، فلا يُشِيرُ مطلقاً ، ويبكى ، ولا يَعْرِف أننا عند باب مُونمُورَنسِى التى يَحْجُبها عنا دَغَلٌ ، غير أن هذا الدَّغَلَ غابةٌ فى نظره ، وولدٌ فى مثل قامته يُدْفَنُ فى الدَّغَل .

وتَقْفِى بضعَ دقائقَ صامتين وأقول له مع شىء من القلق : « أى إميلى العزيز ، ما نَصْنَع للخروج من هنا ؟ » .

إميلُ عَرْفانَ باكيًا بكاءً مُرًّا : « لا أعْرِف شيئًا ، فأنا تَعِبٌ جائع عطشان ، ولا أستطيع أن أمضِىَ أكثرَ مما صنعتُ » .

جان جاك : « أتعتقد أننى فى حالٍ أحسنَ مما أنت عليه ؟ أوَ ترَى أن البكاء يُعْوِزنى لو كنتُ أستطيع الفَطُورَ بدموعى ؟ لا فائدةَ من البكاء ، والمهمُّ أن نهتَدِىَ إلى السبيل ، ولْنَنْظُرْ إلى ساعتك ، فما الساعة ؟ » .

إميل : « حَلَّ وقت الظهر ، وأنا جائع » .

جان جاك : « من سوء الحظِّ أن الغَدَاء لا يأتى للبحث عنى ، ونحن فى منتصف النهار ، وهذه هى الساعة التى لاحَظْنا فيها أمسِ موضعَ الغابة من مُونمُورَنْسى ، لو كنا نستطيع أن نلاحظ موضعَ مُونمُورَنْسِى من الغابة ! . . . » .

إميل : « أجَلْ ، ولكننا كنا نرى الغابةَ أمسِ ، ومن هنا لا نَرَى المدينة » .

جان جاك : « الأمرُ هكذا ، لو كنا نستطيع أن نجد موقعَها من غير أن نراها ! . . . » .

إميل : « آه ! يا صديقى العزيز ! » .

جان جاك : « ألم نَقُلْ إن الغابة كانت . . . » .

إميل : « فى شمال مُونمُورَنسى » .

جان جاك : « ومن ثَمَّ يجب أن تكون مُونْمُورَنْسِي ... » .

إميـل : « فى جَنوب الغابة » .

جان جاك : « أعندنا وسيلةٌ نَجِدُ بها الشمالَ وقت الظهر ؟ » .

إميـل : « نَعَمْ ، باتجاه الظِّلِّ » .

جان جاك : « ولكن الجنوب ؟ » .

إميـل : « ما نَصْنَع ؟ » .

جان جاك : « إن الجنوب هو المقابل للشمال » .

إميـل : « هذا صحيحٌ ، وليس علينا غيرُ البحث عن مقابل الظِّلِّ ، آه ! ها هو ذا الجنوب ! هذا هو الجنوب ! لا رَيْبَ فى أن مُونْمُورَنْسِي واقعةٌ فى هذه الجهة » .

جان جاك : « قد تكونُ على حَقّ ، فَلْنَسْلُكْ هذا الطريقَ الضيقَ من بين الغابة » .

إميلُ مُصَفِّقًا مُخْرِجًا صوتَ فَرَحٍ : « آه ! أرى مُونْمُورَنْسِي ! أراها أمامنا ، هى ظاهرة ، لنذهب للفَطُور ، لنذهب للغَدَاء ، لنَرْكُض ، أَجَلْ ، إن لعلم الفلك فائدةً فى بعض الأحوال » .

واعْلَمُوا أنه إذا لم يَقُلْ هذه الجملةَ الأخيرة فإنه يُفكِّر فيها ، ولا حَرَجَ ، وذلك بشرط أَلَّا أكونَ الذى يقولها ، وثِقُوا ، كما هو الواقع ، بأنه لن يَنْسَى درسَ هذا النهارِ مَدَى حياته ، وذلك بدلاً من أن ينساه فى الغد لو كنتُ قد اقتصرتُ على افتراضه له فى غرفته ، فيجب الكلامُ ما أمْكَنت الأفعالُ ، وألا يقالَ غيرُ ما يُسْتطاع من الأعمال .

ولا يَتَوَقَّع القارئُ أننى أَبْلُغَ من ازدرائه ما أورد له مثلاً عن كلِّ نوعٍ من الدرس ، ولكنْ مهما تَكُن المسئلةُ فإننى لا أستطيع أن أحُثَّ المعلم على قياس برهانه بقابلية التلميذ ، وذلك لأن الخطَر ، كما قلتُ ، ليس فيما لا يَفْهم مطلقاً ، بل فيما يَعْتقد أنه يَفْهَمُه .

ومما أذْكُرُ أننى أردتُ مَنْحَ أحدِ الأولاد مَيْلاً إلى الكيمياء ، وذلك بعد أن أطْلَعتُه على كثيرٍ من الرواسب المعدِنية ، فأوضحتُ له كيف يُصْنَع المِداد ، وقلتُ له إن سوادَه ينشأ عن حديدٍ مُجَزَّأٍ تجْزِئةً دقيقة ، منفصلٍ عن الزاج ، وراسبٍ بسائلٍ قِلْوِيّ ، وبينما كنت قائماً بإيضاحى العلمىّ إذْ قاطعنى الغادرُ الصغير بسؤالٍ كنتُ قد علَّمْتُه إياه ، وأقعُ فى حَيْرةٍ كبيرة .

وأُفَكِّرُ قليلاً ، وأُقَرِّرُ ما أصْنَع ، فأرْسِلُ مَنْ يأتينى بخمرٍ من قَبْوِ صاحب المنزل ، كما أُحْضِرُ خمراً رخيصةً من الخمَّار ، وأتناول قارورةً صغيرة من محلول القِلْى الثابت ، ثم أضع أمامى قدحين من نَوْعَيِ الخمر هذين[1] ، وأقول له ما يأتى :

يُغَشُّ كثيرٌ من الغِلَال لإظهاره أحسنَ من حقيقته ، ويَخْدَعُ هذا الغِشُّ العينَ والذوقَ ، ولكنه ضارٌّ ، ويَجعَلُ الشىءَ المغشوشَ ، بظاهره الجميل ، أسوأ مما كان عليه سابقاً .

وتُغَشُّ المشروباتُ ، ولا سيما الخمرُ ، وذلك لصعوبة اكتشاف الغشِّ ، ولأن الخادعَ يُعْطَى ربحًا كبيراً .

(١) ينفع كل جهاز صغير يسبق الإيضاح الذى يلقى على الولد فى جعل الولد منتبهاً .

وتُغَشُّ الخَمْرُ المُزَّة أو الخضراء بالمُرْداسَنْج ، والمُرْداسَنْجُ مُحَضَّرٌ من الرَّصاص ، والرَّصاصُ إذا رُكِّب مع الحوامض أسْفَرَ عن مِلْحٍ حُلْوٍ مُعَدِّلٍ لحُموضة الخمر ، ولكنه سامٌّ لمن يتناوله ، ولِذَا فإن من المهمِّ أن يُعْرَف ، قبل شُرْب الخمر المُشْتَبه فيها ، هل هى مُرْدَاسَنْجِيَّةٌ أو لا ، وهذا ما أصنع لاكتشاف ذاك .

لا تشتمل الخمرُ على روحٍ ملتهبٍ فقط ، كما أبصرتم من العَرَق الذى يُسْتخرج منها ، بل تشتمل على الحامض أيضًا ، كما يُمْكِنكم أن تَعْرِفوا ذلك من الخلِّ أو الثُّفْلِ الذى يُسْتَخرَج منها كذلك .

وللحامض علاقةٌ بالموادِّ المعدِنية وهو يتحدُ معها بالانحلال تكوينًا لملحٍ مركب كالصدإ الذى ليس سوى حديدٍ منحلٍّ بالحامض المشتملِ عليه الهواء أو الماء ، وكالزِّنْجار الذى ليس سوى نحاسٍ منحلٍّ بالخلِّ .

غير أنه يُوجَدُ لذاتِ الحامضِ علائقُ بالموادِّ القِلْوية أكثرُ مما بالموادِّ المعدِنية ، وذلك من حيث كَوْنُ الحامضِ محْمُولًا ، بتَدَخُّلٍ من الأولى فى الأملاح المركبة التى حَدَّثتُكم عنها ، على إرخاء المعدِن المتحِدِ به ليرتبط فى القِلْى .

وهنالك تَرْسُب المادةُ المعدِنية ، التى خَرَجت من الحامض المُمْسِك لها منحلةً ، وتجْعَلُ المائعَ كثيفًا .

ولِذا فإن إحدى تَيْنِك الخمريْن إذا كانت مُرْدَاسَنْجيةً فإن حامضَها يُمْسِك المُرْداسَنجَ منحلاً ، فإذا صَبَبْتُ المائعَ القِلْوِىَّ عليها فإن الحامض يُحْمَلُ على إطلاق المُرْداسَنج ليَتَّحِدَ بالقِلْى ، وبما أن الرَّصاص يعودُ غيرَ

منحلٍّ فإنه يَظْهَر ثانيةً ويُكَدِّر المائعَ ، ثم يَرْسُب فى أسفل القَدَح .

وإذا لم يُوجَدْ رَصاص[1] ، أو أىُّ معدِنٍ آخر فى الخمر ، فإن القِلْى يتّحِدُ اتحاداً هادئاً[2] بالحامض ، ويَبْقَيَان منحلَيْن ، ولا يُحْدِثان أىَّ رسوبٍ كان .

ثم أَصُبُّ من شرابى القِلْوىِّ فى القَدَحيْن تتابعاً ، فأما قَدَح خَمْرِى المنزلية فيبقى رائقاً شفّافاً ، وأما الآخرُ فيُعَكَّرُ فى ثانيةٍ ، فإذا ما انقضت ساعةٌ رُئِى الرَّصاص راسباً رسوباً واضحاً فى أسفل القدح .

فتلك هى الخَمْرُ الطبيعيةُ الصافية التى يَصْلُحُ شُرْبُها كما أقول مُكَرِّراً ، وهذه هى الخمرُ المغشوشة التى تَسُمُّ ، ويُكْتَشَفُ هذا بذات المعارف التى تسألوننى عن فائدتها ، والذى يَعْرِف جيداً كيف يُصْنَع الحِبْرُ يَعْرِفُ الخمرَ المَغْشوشةَ أيضاً .

وقد كنتُ مسروراً بمثالى كثيراً ، ومع ذلك فإننى أرى عدمَ وَقْفِهِ لنظر الولد مطلقاً ، وكان لا بُدَّ لى من قليلٍ وقتٍ حتى أَشْعُرَ بأننى لم آتِ غيرَ حماقةٍ ، وإنى ، من غير بحثٍ فى أن من المتعذر على ولدٍ فى الثانية عشرةَ من سِنِيه أن يَتَتَبَّع إيضاحى ، أرى أن فائدةَ هذه التجرِبة لا تَدْخل نِطَاقَ ذهنه ، وذلك لأنه ، إذ يَذُوق الخمريْن ، يَجِدُها صالحتيْن فلا يُعِيرُ أىَّ فكرٍ من كلمة الغِشِّ التى رأيتُ أننى أوضحتُها له جيداً ،

(١) مع أن الخمر التى تباع مفرقة من قبل الخمازين بباريس غير مزدمنجية فإن من النادر أن تكون خالية من الرصاص ، وذلك لأن مناضدهم مجهزة بهذا المعدن ، ولأن الخمر التى تفيض من الكيل تحل قسماً من هذا الرصاص حين مرورها عليه واستقرارها به ، ومن الغريب أن تسمح الشرطة بهذا التجوز الواضح الخطر ، بيد أن من الواقع كون الموسرين لا يشربون من هذه الخمر فلا يكونون عرضة لسمها !

(٢) يكون الحامض النباتى حلواً جداً ، وإذا كان هذا حامضاً معدنياً ، وكان أقل تمدداً ، فإن الامتزاج لا يقع من غير فوران .

حتى إنه لم يكن للكلمتين الأخريين « الوبيل والسُّمّ » أيُّ معنًى عنده ، فهو قد كان فى مثل حال مؤرخ الطبيب فِليپ ، وهذه هى حال جميع الأولاد .

ولا وُجودَ عندنا لِمَا بين المعلولات والعلل من صِلاتٍ لا نُبْصِرُ ارتباطَها ، كما أنه لا وجودَ عندنا لِمَا ليس لدينا عنه فِكْرٌ من الخير والشَّرّ ، كما أنه لا وجودَ عندنا لِمَا لا نُحِسُّ من الاحتياجاتَ مطلقاً ، ومن المُحَال أن نكترث بهذه الأمور لِصُنْع أمورٍ تَرْتبط فيها ، ويُبْصِرُ ابنُ الخامسةَ عشرةَ سعادةَ الرجل الحكيم ، ويُبْصِرُ ابنُ الثلاثين جلالَ الفِرْدَوْس ، ولا يُبْذَل غيرُ مجهودٍ قليل لنَيْلِهما إذا لم يُتَمَثَّلْ كلٌّ منهما ، وإذا ما وقَعَ تَمَثُّلُهما لم يُبْذَلْ غيرُ مجهودٍ قليل أيضاً عند عدم الرغبة فيهما ، وعند عدم الشعور بملاءمتهما لنا ، أَجَلْ ، إن من السهل إقناعَ ولدٍ بأن ما يُرَادُ تعليمه إياه نافعٌ ، ولكن إقناعَه لا يُعَدُّ شيئاً إذا لم يُعْرَف كيف يُحْمَلُ على اعتقاده ، فمن العبث أن يَجْعَلَنا العقلُ الهادئ نستحسن أو نستهجن ، وليس غيرُ الوَلَع ما يُسَيِّرُنا ، وكيف نولَعُ بمنافعَ لا وُجُود لها عندنا بَعْدُ ؟

ولا تُطْلِعُوا الولدَ على شيء لا يستطيع أن يراه ، وبَيْناً تكون البشريةُ غريبةً عنه تقريباً ، ولا يُمكِن رَفْعُه إلى حال الإنسانِ ، أنْزلوا الإنسانَ إلى حال الولد من أجْله ، وبَيْنَا تفكِّرون فيما يُمكِن أن يكون نافعاً له فى دَوْرٍ آخرَ من العمر لا تُحَدِّثوه عن أمرٍ غيرِ ما يَرَى الآن فائدتَه ، ثم لا تقابلوا بينه وبين الأولاد الآخرين مقابلةَ قياسٍ ، ولا تُحْدِثوا منافساتٍ ولا مباريَاتٍ ، ولا مسابقاتِ عَدْوٍ أيضاً ، وذلك عند ما يأخذ فى التعقل ،

فأُفَضِّلُ مئةَ مرةٍ ألاَّ يَتعلَّمَ مالا يَتعَلَّمُ إلاَّ عن حسدٍ وزَهْوٍ ، وإنَّما أُدَوِّن فى كلِّ عام ما يَتَّفِقُ له من تقَدُّم ، فأقابل بين هذا وما يتمُّ له فى العام القادم ، وأقول له : « لقد نموْتَ كثيراً ، وهذا هو الخندقُ الذى وثَبْتَ عليه والثِّقْلُ الذى حَمَلْتَه ، وهذا هو البُعْدُ الذى رَمَيْتَ إليه حَصَاةً والميدانُ الذى قطعتَه عَدْواً بنَفَسٍ واحد ، إلخ . ، ولْنَرَ الآن ما أنت صانع » ، وهكذا فإنى أُحَرِّضُه من غير أن أجعلَه حاسداً لأحد ، وإذا أراد أن يَتفوَّق على أعماله السابقة فَلْيَصْنَعْ ، فلا أَرَى ضرَراً فى منافسته لنفسه .

وأَمْقُتُ الكتبَ ، والكتبُ لا تُعَلِّمُ غيرَ الكلام حَوْلَ ما لا يُعْلَمَ ، ويُرْوَى أن هِرْمِسَ نَقَش أصولَ العلم على أعمدةٍ حفظاً لِمَا اكْتَشَفَ من طوفانٍ يَقَع ، فلو طَبَعَها فى رؤوس الناس لَنقِلَتْ جيلاً بعد جيل ، فالأدمغةُ الحسنةُ الإعداد هى أضْمَنُ ما تُنْقَشُ عليه المعارفُ البشرية .

أفلاَ تُوجَدُ وسيلةٌ يُقرَّب بها بين دروسٍ كثيرة مبعثرةٍ فى كتبٍ كثيرة ، فتُجمَعَ فى موضعٍ مشتركٍ يَسْهُل أن تُرَى فيه ، ويكُونَ من المُتيسِر أن تُتَّبع عنده ، ويُمْكِنَ اتِّخَاذُها مُغْرِيةً حتى فى ذلك الدور من العُمُر ؟ ولو أمكن اكتشافُ حالٍ تبدُو فيها جميعُ احتياجاتِ الإنسانِ الطبيعية محسوسةً فى ذهن الولد ، وحيث تتقدم وسائلُ قضاء هذه الاحتياجات متعاقبةً بعين السهولة ، لوَجَب أن تُعطَى مُخيَّلَتَهُ أولَ تمرينٍ برسم تلك الحال رسماً حيًّا ساذَجًا .

أيها الفيلسوفُ الهُمام ، أرى اشتعالَ مُخَيِّلتك ، لا تُزْعِجْ نفسَك ، فتلك حالٌ عُرِفَتْ سابقًا ، وقد وُصِفَتْ بأحسنَ كثيراً من وَصْفِك إياها بنفسك ، وهذا من غير إجحافٍ بك ، وذلك مع أعظمِ حقيقةٍ وأكثرِ بساطة

على الأقل ، وبما أنه لا بُدَّ لنا من الكتب على الإطلاق فإن لدينا من الكتب ، كما أرى ، ما يُزَوِّد بأفضلِ رسالةٍ فى التربية الطبيعية ، وسيكون هذا أولَ كتابٍ يقرؤه إميلُ ، وستتألَّف من هذا الكتاب وحدَه مكتبتُه لزمنٍ طويل ، وسيَحْتَلُّ مكانًا ممتازاً فى كلِّ وقت ، وسيكون المَتْنَ الذى لا تكون أحاديثُنا حَوْلَ العلوم الطبيعية غيرَ شَرْحٍ له ، وسيُتَّخذ دليلًا فى أثناء تقدمنا نحو حُسن الرأى ، وستَرُوقُنا مطالعتُه دائمًا ما ظَلَّ ذَوْقُنا غيرَ فاسد ، وما هذا الكتابُ العجيبُ إذَنْ ؟ أهو أرِسْطو؟ أهو بِلِينِى ؟ أهو بُوفُون ؟ كَلاَّ ، وإنما هو رُوبِنْسُن كُرُوزُو .

رُوبِنْسُن كُرُوزُو فى جزيرته ، هو وحيدٌ محرومٌ مساعدةَ أمثاله وأدواتِ جميع الصنائع ، وهو ، مع ذلك ، يتدارك معاشَه ويُدبِّرُ بقاءه ، حتى إنه ينال شيئًا من الرَّفاهية ، وهذا أمرٌ نافعٌ فى كلِّ دورٍ من العُمُر ، ويُوجَدُ ألفُ وسيلةٍ لجعله مقبولاً لدى الأولاد ، وإليك كيف نَبلُغُ الجزيرة القفرَ التى صَلَحَت للقياس فى البُداءة ، وأوافق على أن تلك الحالَ ليست حالَ الرجل الاجتماعىِّ ، ومن المحتمل ألاَّ تكون جزيرةَ إميل ، ولكنها عَيْنُ الحال التى يجب أن تُقَدَّر جميعُ الأحوال الأخرى عليها ، وتُرَى أضمنُ وسيلةٍ للترَفع عن المُبْتَسَرات ، وتنظيمِ الأحكام وَفْقَ ما بين الأمور من علاقاتٍ حقيقية ، فى وَضْع الإنسانِ نفسَه مَوْضِعَ الرجل المُنْعَزِل ، وفى حكمه فى الأشياء كما يَحْكُمُ هذا الرجلُ المنعزل ناظراً إلى فائدتها الخاصة .

وإذا ما أُزيل كلُّ حَشْوٍ من هذه القصة وُجِد أنها تبدأ بغَرَقِ سفينة رُوبِنْسُن بالقرب من جزيرته ، وأنها تنتهى بوصول السفينة التى حضرت لإخراجه

منها ، فيكون هذا لَهْواً ودرساً لإميلَ معًا ، وذلك فى دَوْرِ عُمُره الذى هو موضوعنا هنا ، وأريد أن يَدُور بها رأسُه وألاَّ ينفكَّ يُغْنَى بقصره ومَعْزِه وزَرْعه ، وأن يتعلَّم مُفَصَّلاً فى الأشياء ، لافى الكتب ، جميعَ ما تَجِبُ معرفتُه فى مثل هذه الحال ، وأن يَتصوَّر أنه رُوبِنْسُن بنفسه ، وأن يُبْصِر أنه لابِسٌ جلوداً وطَرْطُوراً وحاملٌ سيفًا كبيراً ، وكلُّ ما عند رُو بِنْسُن من جهاز غليظ ، وحائزٌ مِظَلَّةً قريبةً منه فلا يكادُ يحتاج إليها ، وأريد أن يَشْغَل باله بما يَتَّخِذُ من التدابير إذا ماأعْوَزَه هذا الشىء أو ذاك ، وأن يَدْرُس سلوكَ بَطَلِه ، وأن يَبْحَثَ فى هل أهْمَل شيئاً ، وفى وجود خيْرٍ من ذاك يَعْمَل ، وأن يُقَيِّد خطأَه ، وأن يستفيد منه لكيلا يَقَعَ فى حالٍ مماثل ، فلا يَتَطَرَّقْ إليكم شكٌّ فى عَزْمه على إقامة مثل هذه المؤسَّسة لنفسه ، فهذا قصرٌ فى الهواء لِمَنْ هو فى عُمُره السعيد حيث لا يُعْرَف من السعادة غيرُ الحرية والحاجيَّات .

ويالَلْوسيلة التى يُجَهِّزُ بها هذا الهَوَسُ رجلاً ماهراً لم يَجِدْها إلا ليَسْتعملَها ! يَكُون الولدُ الذى يبادِر إلى إقامة مستودَعٍ فى جزيرته أشدَّ حماسةً للتَّعَلُّم من حماسة المعلِّم للتعليم ، فهو يُرِيد أن يَعْرِف كلَّ ما هو مفيدٌ ، ولا يُرِيدُ أن يَعْرِف غيرَ هذا ، وأنتم تَعُودون غيرَ مضطرين إلى إرشاده ، ولا يكون عليكم غيرُ إمساكه ، ولْنُسْرِعْ ، إذنْ ، فى إسكانه هذه الجزيرةَ ما قَصَرَ سعادتَه عليها ، وذلك لاقتراب اليوم الذى لا يُرِيد فيه أن يعيش فى هذه الجزيرة وحدَه وإن كان يريد أن يستمرَّ على العيش فيها ، ولأن « الجُمُعة » التى لا تَمَسُّه الآن لا تَكفيه زمنًا طويلاً .

وتؤدى مزاولةُ الفنون الطبيعية ، التى يَكْفِى رجلٌ واحدٌ للقيام بها ،

إلى البحث عن الفنون الصِّناعية التي تحتاج إلى تضافرِ كثيرٍ من الأيدى ، أَجَلْ ، تُمْكِنُ ممارسةُ الفنون الطبيعية من قِبَل مُنْعَزِلين ، تُمكِن ممارستُها من قِبَل متوحشين ، ولكن الفنون الصِّناعية لا يُمكِن أن تَظْهَرَ فى غير المجتمع ، وهى تَجْعَل المجتمع أمراً ضروريًّا ، ويَكفِى الإنسانُ نفسَه ما عَرَف الاحتياجَ البدنىَّ فقط ، ويَجْعَل انتحالُ الفائض توزيعَ العمل والتقسيمَ أمراً ضروريًّا ، وذلك لأن الرجل الذى يَعمَل وحيداً إذا كان لا يَكسِبُ غيرَ رِزْقه فإن مئة رجلٍ يعملون متفقين ينالون من الأرزاق ما يعيش منه مئتا رجل ، ولذا فإنه إذا ما استراح فريقٌ من الآدميين وجب تعاون ذُرْعان من يَعْمَلون لتلافى بطالة مَنْ لا يَعْمَلون شيئاً .

ويجب أن يقوم أعظمُ جُهْدٍ تَبْذُلون على إبعادكم من ذهن تلميذكم جميعَ مفاهيم الصِّلات الاجتماعية التى لا تكون ضِمْنَ متناوَله ، ولكنْ إذا ما حَمَلكم تسلسلُ المعارف على إراءته اتِّباعَ بعض الناس لبعضٍ اتِّباعاً متقابلاً فوَجِّهوا جميعَ انتباهه نحو الصِّناعة والفنون الميكانيَّة التى تَجْعَل بعضَهم مفيداً لبعضٍ ، وذلك بدلاً من إراءته ذلك الاتِّباعَ من الناحية الأدبية ، وإذا ما أخذتموه من مَصنعٍ إلى مصنعٍ فَدَعُوه يُجَرِّب كلَّ عملٍ يَرَى ، ولا تَدَعُوه يتركه من غير أن يَعْرِف تماماً سببَ كلِّ ما يُعْمَل هناك ، أو سببَ كلِّ ما يسترعى انتباهَه ، ولِذَا فاعْمَلوا بأنفسكم ، وأعْطُوه المثلَ فى كلِّ موضع ، وكونوا تلميذاً فى كلِّ مكانٍ لتَجْعَلوا منه أستاذاً ، واعْلَمُوا أنه ينال فى ساعةِ عَمَلٍ من العِلْم بأمورٍ أكثرَ مما ينال من إيضاحٍ يَدُوم نهاراً بأسْرِه .

ويُوجَدُ تقديرٌ للفنون على نسبةٍ معكوسةٍ لفائدتها الحقيقية ، حتى إن هذا التقديرَ يُقاسُ بعدمِ نفعها مباشرةً ، وهذا ما يجب أن يكون ، فأفيَدُ الفنون هو أقلُّ الفنون رِبْحًا ، وذلك لأن عدد العمال يكون على نسبة احتياج الناس ، ولأن العمل الضروريّ لجميع الناس يَبْقَى ثمنُه فى حالٍ يستطيع الفقيرُ أن يؤدِّيَه معه قَسْراً ، وعلى العكس فإن هؤلاء الأماجد الذين يُدْعَوْن متفننين ، لا صُنَّاعاً ، يَعْمَلُون من أجْل الأغنياء والبطَّالين فيَفرِضون ثمناً مُرَادياً* لتُرَّهاتهم ، وبما أن أجْرَ هذه الأعمال الفارغة أمرٌ خياليٌّ فإن ثمنَها يَكُون جزءاً من هذا الأجْر فتُقَدَّر بنسبة نفاستها ، ولا يُقدِّرها الغنيُّ من حيثُ فائدتُها ، بل من حيثُ عدمُ استطاعة الفقير أن يؤدِّيَ ثمنَها ، « فلا أريد أن أحُوزَ من المال غيرَ الذى يُمكِنُ الشعبَ أن يَحْسُدَنى عليه » .

وما يَكُون أمرُ تلاميذكم إذا ما تركتموهم يَنْتَحِلون هـذا المُبْتَسَرَ الأحمق ، وإذا ما يَسَّرْتُمُوه بأنفسكم ، وإذا ما رأوكم تَدْخُلون ، مثلاً ، حانوتَ صائغٍ برعايةٍ أكبرَ مما تَدْخُلون بها دُكَّانَ قَفَّالٍ ؟ وأىُّ حُكْمٍ يساورهم حَوْلَ أجْرِ الفنون الحقيقيِّ وحَوْلَ قيمة الأشياء الحقيقية عند ما يَرَوْن فى كلِّ مكانٍ ثَمَنَ الوهمىِّ مبايناً للثمن المستخرج من النَّفْع الحقيقيِّ وأن الشىء كلما زاد تكليفاً قلَّ ما يساوى ؟ ومتى تَرَكْتُم هذه الأفكارَ تَدْخُل رأسَهم فدَعُوا ما بقى من تربيتهم ، فهم سيكونون كبقية الناس على الرغم منكم ، وتكونون قد خَسِرْتم جهودَ أربعَ عشرةَ سنة .

Arbitraire *

وإميلُ ، حين يَميلُ إلى تأنيث جزيرته ، تكون له طُرُزٌ أخرى فى النظر ، ومن شأنِ رُوبِنْسُنَ أن كان يُوَجِّه نظرَه إلى دُكَّان حَدّادٍ أكثر من توجيههِ إلى تَوافهِ سعيد ، فالحدّادُ كان يَلوح له رجلاً بالغَ الاحترام ، وسعيدٌ كان يَلُوح له مُمَخْرِقًا حقيراً .

« خُلِقَ ابنى ليعيش فى العالَم ، وهو لن يعيش مع العقلاء ، بل مع المجانين ، ولِذا يجِبُ أن يَعرِف جنونَهم ما داموا يريدون أن يُقادُوا بالجنون ، أجَلْ ، قد تكون معرفةُ الأشياء الحقيقية أمراً حسنًا ، بَيْدَ أن معرفة الرجال وآرائهم أفضلُ من ذلك ، وذلك لأن الإنسان فى المجتمع البشرىّ أعظمُ آلةٍ للإنسان ، فأعقلُ الناس هو خَيْرُ مَنْ يَسْتَعمِل هذه الآلة ، وما فائدةُ تلقين الأولاد فكرةً عن نظامٍ خيالىّ مخالفٍ للنظام الذى يَجِدُونه قائمًا والذى يجب أن يُرَتِّبُوا أمورهم على مقتضاه ؟ ولْيَكُنْ أولَ ما تُعطُونهم إياه من الدروس أن يكونوا عقلاء ، ثم تُلقُون عليهم دروسًا يَرَوْن بها سببَ كون الآخرين من المجانين » .

وهذه هى المبادئُ المُمَوَّهةُ التى يستند إليها حَذَرُ الآباء الزائفُ فى جَعْل أولادهم عبيداً لِماَ يُغذُّونهم به من مبتسرات ، ولُعَبًا لجُمهورٍ مجنونٍ يَرَوْن أن يجعلوا منه آلةَ أهوائهم ، وما أكثرَ الأشياء التى يجب أن نَعرِفها قبل أن نَعرِف الإنسان ! إن الإنسانَ هو آخرُ ما يَدْرُسُ العاقلُ ، وأنتم تَقْصِدُون أن تجعَلُوا منه أولَ ما يَدْرُس الولدُ ! فابدءوا بتعليمه تقديرَ إحساساتنا قبل أن تُعلِّمُوه إياها ، وهل يُعْرَف الجنونُ عند ما يُخْطَأُ فى عَدِّه عقلاً ؟ ويَقْضِى كَوْنُ الإنسان عاقلاً بفَرْز من ليس عاقلاً ، وكيف يَعرِف ولدُكم الرجالَ

إذا كان لا يَعْرِف أن يَحْكُمْ فى آرائهم ولا أن يَميزَ خطأهم ؟ ومن السُّوء أن يُعرَف ما يُفكِّرون فيه على حين يُجْهَلُ كَوْنُ ما يُفكِّرون فيه خطأً أو صواباً ، ولِذَا فَلْتكُنْ الأشياء كما هى أولَ ما تُعلِّمُون ولدَكم ، ثم تُعَلِّمُونه الوجهَ الذى تَبْدُو به لأعيننا ، وهكذا فإنه سيَعْرِفُ أن يقابل بين الرأى الشعبىِّ والحقيقة ، وأن يَرْتَقِىَ فوق العوامِّ ، وذلك لأن المبتسراتِ لا تُعْرَف بعد أن تُعتَنَق ولا يَقُودُ الرجلُ الشعبَ إذا ما شابَهَه ، ولكنكم إذا ما أخذتم فى تعليمه الرأىَ العامَّ قبل تعليمه تقديرَه فاعْلَمُوا أن هذا يَغْدُو رأيَه ولن تقدروا على إزالته مهما بَذَلْتُم من جُهْدٍ ، ومن ثَمَّ أرى أنَّ جَعْلَ الفَتَى حصيفاً يستلزم حُسْنَ تكوين أفكاره بدلاً من أن نُمْلِيَ عليه أفكارَنا .

وأنتم تَرَوْن أنى لم أُحَدِّث تلميذى عن الرجال حتى الآن ، ولا بُدَّ من أن يكون قد بَلَغَ من الرشاد ما يُصْغِى معه إلىَّ ، ولم تَكُنْ صِلاَتُه بنَوْعِه من الوضوح بَعْدُ ما يستطيع معه أن يَحْكُم فى الآخرين بنفسه ، ولا يَعْرِف موجوداً بشرياً غيرَ نفسه ، حتى إنه بعيدٌ من أن يَعْرِف نفسَه ، ولكنه إذا كان لا يَحْمِل غيرَ آراء قليلةٍ عن نفسه فإن هذه الآراء القليلةَ التى يَحْمِلُ صائبةٌ على الأقلِّ ، وهو يَجْهَلُ ما مكانُ الآخرين ، غير أنه يَشْعُر بمكانه ويَلْزَمُه ، وقد ربطناه بسلاسل الضرورة بدلاً من القوانين الاجتماعية التى لا يستطيع معرفتَها ، وهو لا يكاد يكون غيرَ جسمٍ ، فلنُدَاوِم على معاملته كأنه هكذا .

ويجب أن تُقَدَّر جميعُ أجسام الطبيعة وجميعُ أعمال الناس من حيث

صِلاتُهما المحسوسةُ بفائدة الإنسان وسلامتِه وبقائه ورفاهه ، وهكذا يجب أن يكون للحديد من القيمة فى نظره ما يَزِيدُ كثيراً على قيمة الذهب وأن يكون للزُّجاج من القيمة ما يزيد كثيراً على قيمة الألماس ، وهكذا يجب أن يُكرِم الحذَّاء والبَنَّاء أكثرَ من إكرامه أمثالَ لَنبِرَور ولُبْلان وجميعَ صُوَّاغ أوربة بدَرَجاتٍ ، وأن يَعُدَّ الحلْوَانىَّ ، على الخصوص ، رجلًا بالغَ الأهمية ، وأن يَفْدِىَ أحقرَ فَطَايرىٍّ فى شارع اللُّنبَار بجميع المجمع العلمىّ ، وليس الصَّاغةُ والنَّقَّاشون والمُذَهِّبُون والمُطَرِّزون فى نظره غيرَ كُسَالَى يَتَلهَّوْن بألعابٍ لا تَنْطوى على فائدة ، ولا يختلف عن هذا نظرُه إلى الساعاتىِّ أيضاً ، فالولدُ السعيد يتمتع بالوقت من غير أن يكون عبداً له ، وهو يستفيد منه ولا يَعْرِف قيمتَه ، وما يكون من سكون أهواء ، يَجْعَلُ تعاقبَ الأيام أمرًا متساوياً لديه دائماً ، يقوم مقام الآلة لقياسه عند الضرورة[1] ، وإذا ما افترضتُ لإميلَ ساعةً ، كما أفترضُ إبكاءه ، جعلتُ منه عاميًا ليكون نافعاً مدركاً لى ، وذلك لأن من الصحيح ألَّا يَصْلُحَ ولدٌ يختلف عن الآخرين بذلك المقدار مثالًا لشىء .

ويوجد نظامٌ ليس أقلَّ طبيعةً ، وهو أكثرُ صوابًا ، تُقدَّرُ الفنون به وَفْقَ العلائق الضرورية التى تَرْبِط بينها ، جاعلًا أكثرَها استقلالًا فى المرتبة الأولى ، وجاعلًا فى المرتبة الأخيرة ما يَتْبَعُ منها أكبرَ عددٍ من غيرها ، ويشابه السابقَ هذا النظامُ الذى يُزَوِّد باعتباراتٍ مهمة حَوْل

---

(١) يفقد الوقت قياسه لدينا إذا ما أرادت أهواؤنا تنظيم مجراه كما تود ، وساعة العاقل فى تساوى المزاج وهدوء النفس ، وهو محافظ على وقته دائماً ، وهو يعرفه دائماً .

المجتمع العامّ ، وهو يَخْضَعُ لذاتِ العكس فى تقدير النـاس ، وذلك أن استعمال الموادّ الأولى يَتِمُّ فى الحِرَف غيرِ ذات الشرف ، وغيرِ ذات الرِّبْح تقريبًا ، وأن هذه الموادّ كلما تَقَلَّبَتْ عليها الأيدى زاد أجْرُ العمل وصار شريفًا ، ولا أبحث فى هل من الصوابِ كَوْنُ الصِّناعة تكون عظيمةً وتستحقُّ أجرًا فى الفنون الدقيقة التى تَمْنَحُ آخرَ شكلٍ لهذه الموادّ أكثرَ مما يستحقُّه أولُ عملٍ يُحَوِّلها إلى استعمال الناس ، وإنما أقول فى كلِّ شىء إن الفنَّ الذى يكون استعمالُه أكثرَ عمومًا وأعظمَ لزومًا هو ، لا رَيْبَ ، ذلك الفنُّ الذى يستحقُّ أكبرَ تقدير ، وإن الفنَّ الذى هو أقلُّ ما يحتاج إلى الفنون الأخرى يستحقُّ تقـديرًا أكبر مما تستحقه الفنون التابعة ، وذلك لأنه أكثرُ حريةً وأقربُ إلى الاسـتقلال ، فهذه هى القواعد الحقيقية فى تقدير الفنون والصِّناعة ، وأما غيرُها فمُرَادِىٌّ تابعٌ للرأى العامّ .

والزراعةُ هى أول الفنون وأكثرُها اعتباراً ، وأَضَعُ الحِدَادة فى المرتبة الثانية ، وأَضَعُ النِّجارة فى المرتبة الثالثة ، وهَلُمَّ جرًّا ، وهذا ما يَحْكُم به الولدُ ضَبْطاً إذا لم تُغْوِه المُبْتَسرات العامِّيَّة ، ويا للتأملاتِ المهمةِ التى يستخرجُها إميلُ من رُوبِنْسُنَ حَوْل ذلك ! وفِيمَ يُفَكِّرُ حين يرى الفنونَ لا تتكامل إلا بانقسامها وبتكثير آلاتِ كلٍّ منها تكثيراً لا حَدَّ له ؟ وسيقول فى نفسه : « إن جميع هؤلاء الناس حاذقون بما يُعَدُّون معه من الحَمْقَى ، والناظرُ إليهم يعتقد أنهم يخافون ألاَّ تنفعَهم أذْرُعُهم وأصابعُهم فى شىء ما داموا يخترعون آلاتٍ تُغْنيهم عنها ، وتراهم مُعَبَّدِين لألف فنٍّ حتى يزاولوا فنًّا واحداً ، فكأنه يجب أن تكون لكلِّ عاملٍ مدينةٌ ، وأما أنا

ورفيقى فإننا نُنفِقُ ذكاءنا فى شطارتنا فنصنع من الآلات ما نستطيع حَمْلَه فى كلّ مكان ، وما كان جميعُ أولئك الذين يُباهُون بقرائحهم فى باريس ليَقْدِروا على شيء فى جزيرتنا ، وهم يكونون تلاميذَ لنا فيها بدَوْرِهم » .

ويا أيها القارئ ، لا تَقِفْ هنا عند رؤية التمرين البدنىّ وبراعةِ يدَىْ تلميذنا ، ولكن انظُرْ أىَّ توجيهٍ نوجِّهُ به ذاك الفُضُولَ الصبيانىّ ، انظُرْ إلى الحِسّ وروح الاختراع والبَصَرِ بالأمور ، انظُرْ أىَّ رأسٍ نُكَوِّنُ له ، وهو يريد أن يَعْرِف كلَّ شىء ، وأن يَعْرِف سببَ كلِّ شىء ، فى كلِّ ما يَرَى وكلِّ ما يَعْمَل ، وهو يريد ، دائماً ، أن يَرْجِعَ إلى الأولى بين آلةٍ وآلة ، وهو لن يقول بافتراض شىء ، وهو سيَرْفِضُ تَعلُّمَ كلِّ ما يتطلب سابقَ معرفةٍ غيرِ حائزٍ لها ، وهو إذا ما رأى صُنْعَ نابضٍ أراد أن يَعْرِف كيف استُخْرِج الفولاذُ من المَعْدِن ، وهو إذا ما رأى جَمْعَ قِطَعِ صُنْدُوقٍ أراد أن يَعْرِف كيف قُطِعَت الشجرة ، وهو إذا ما عَمِل بنفسه فى كلِّ آلةٍ يستخدمها لم يَفُتْه أن يقول : « إذا كنتُ غيرَ حائزٍ لهذه الآلة فكيف أستطيع صُنْعَ مثلها أو كيف أستغنى عنها ؟ » .

ومع ذلك فإن من الخطإ الذى يَصْعُب اجتنابُه فيما يُولَعُ به المعلم من الأشاغيل هو أن يُفتَرَض للولد عَيْنُ هذا الذوق دائماً ، وكُونُوا على حَذَرٍ ، عند ما يستحوذ لَهْوُ العمل عليكم ، من أن يَعْتَرِيَه سَأَمٌ فلا يَجْرُؤَ على إظهاره ، فالولدُ يجب أن يكون بَيْتَ القصيد ، ويجب أن تكونُوا للولد كليًّا ، فتلاحظوه وتَرْقُبُوه بلا انقطاع ومن غير أن يَشْعُر ، ويجب أن تُبْصِرُوا جميعَ مشاعره مُقدَّمًا وأن تَتَلافَوْا ما لا ينبغى وجودُه عنده ،

وأخيراً يجب أن تَشْغَلُوه بما لا يُحِسُّ معه أنه نافعٌ للشيء فقط ، بل أن يكون من عوامل سروره إدراكُه نَفْعَ ما يَصْنَع أيضًا .

ويقوم مجتمع الفنون على مبادلة الصنعة ، ويقوم مجتمع التجارة على مبادلة السِّلَع ، ويقوم مجتمع البُنُوك على مبادلة النقود والسِّمات ، وتتماسك جميع هذه الأفكار ، وقد اتُّخِذَتْ جميع المفاهيم الابتدائية ، وقد طَرَحْنا أُسُسَ جميع هذا منذ الدور الأول من العمر بعَوْنٍ من البستانيِّ رُوبِرْت ، والآن لم يَبْقَ علينا غيرُ تعميم هذه الأفكارِ وبَسْطِها بأمثلةٍ كثيرة ، وذلك ليُحْمَل الولدُ على إدراك الأعمال التجارية التي تُتَّخَذُ بنفسها وتُجْعَلُ أمراً محسوساً بجزئيات التاريخ الطبيعيِّ التي تُعْنَى بما يُنْتِجُ كلُّ بلد على الخصوص ، وبجزئيات الفنون والعلوم التي تُعْنَى بالمِلاحة ، ثم بمشكلة النقل على حسب بُعْدِ الأماكن وعلى حسب موقع الأَرَضين والبحار والأنهار ، إلخ ..

ولا يستطيع أيُّ مجتمع أن يُوجَدَ من غير مبادلة ، ولا تستطيع أية مبادلة أن توجد من غير قياسٍ مشترك ، ولا يستطيع أيُّ قياس مشترك أن يُوجَدَ من غير مساواةٍ ، وهكذا فإن القانون الأول لكلِّ مجتمعٍ يقوم على مساواةٍ عَهْدِية سواء بين الناس أو بين الأشياء .

وتَجْعَلُ المساواةُ العهدية بين الناس ، المختلفةُ عن المساواة الطبيعية ، أمرَ الحقِّ الوَضْعِيِّ ، أي الحكومةِ والقوانين ، ضروريًا ، ويجب أن تكون معارفُ الولدِ السياسيةُ واضحةً محدودة ، فلا ينبغى أن يَعْرِف شيئاً عن الحكومة على العموم غيرَ ما يناسب حَقَّ التملك الذى يُوجَدُ لديه فكرةٌ عنه .

وقد أدت المساواةُ المهدية بين الأشياء إلى اختراع النقد ، وذلك لأن النقد ليس غيرَ حَدٍّ مقابلةٍ بين قيمة الأشياء من مختلف الأنواع ، وعلى هذا المعنى يكون النقد رابطةَ المجتمعِ الحقيقيةَ ، غير أن كلَّ شيء يُمْكِن أن يكون نقداً ، وقديماً كانت الماشية نقداً ، ولا يزال الصَّدَف نقداً عند كثير من الأمم ، وكان الحديد نقداً فى إسپارطة ، وكان الجلدُ نقداً فى إسوج ، ونحن نتخذ نقدَنا من الذهب والفضة .

وبما أن المعادنَ أسهلُ نقلاً فقد اتُّخِذَت وسائطَ جامعةً بين جميع المبادلات ، وقد حُوِّلت هذه المعادن إلى نقدٍ توفيراً للكَيْلِ أو الوزن عند كلِّ مبادلة ، وذلك لأن سِمَةَ النقد ليست غيرَ شهادةٍ بأن القطعة الموسومة هكذا تشتمل على هـذا الوزن أو ذاك ، والأميرُ وحدَه هو صاحب الحقِّ فى ضَرْب النقد ما دام وحدَه صاحبَ الحقِّ فى الادعاء بكَوْن شهادته نافذةً بين جميع الشعب .

ويُدْرِك أغبى الناس فائدةَ هذا الاختراع إذا ما أُوضِحَتْ له على هذا الوجه ، ومن الصعب أن يقابَل مباشرةً بين أشياء مختلفةٍ طبيعةً ، كالجوخ والقمح مثلاً ، ولكنه إذا ما وُجِدَ مقياسٌ مشترك ، أى النقدُ ، سَهُلَ على الصانع والزارع أن يَرُدَّا قيمةَ الأشياء التى يريدون مبادلتَها إلى هذا المقياس المشترك ، فإذا كان مقدار الجوخ يَعْدِل مبلغاً من النقد وكان مقدارُ القمح يَعْدِل كذلك عَيْنَ المبلغ من النقد فإن الذى يَحْدُث هو أن التاجرَ إذْ يأخذ هـذا القمحَ فى مقابل جُوخِه يكون قد أتى مبادلةً عادلة ،

وهكذا فإن الأموال المختلفةَ الأنواع تَصِيرُ بالنقد صالحةً للقياس مُمْكنًا أن يقابَل بينها .

ولا تَذْهبوا إلى ما هو أبعدُ من هذا فتُدْخِلوا إلى الإيضاح نتائجَ هذا النظام الأدبية ، ويجب فى كلِّ أمرٍ أن يُحْسَن عَرْض العادات قبل أن يُبْدَى سوء الاستعمالات ، وإذا كنتم تزْعمون أنكم تَشْرَحون للأولاد كيف تؤدِّى الرموزُ إلى إهمال الأشياء ، وكيف نشأ عن النقد جميعُ أوهام الرأى العامِّ ، وكيف يجب أن يكون أغنى البلاد أفقرَها فى كلِّ شىء ، فإنكم تكونون قد عاملتم هؤلاء الأولاد كرجالٍ عقلاء ، لا كفلاسفةٍ فقط ، وتكونون قد ادَّعَيْتم إسماعَهم ما لم يُدْرِكْه غيرُ قليلٍ من الفلاسفة .

وما أكثرَ الأمورَ المُمْتِعة التى يُمْكِنُ أن يُحَوَّل إليها فُضُول التلميذِ على هذا الوجه من غير أن تُتْرَك العلائقُ الحقيقية والمادية التى تكون فى متناوَله ، ومن غير أن يُسْمَح بتَسَرُّب فكرٍ فى ذهنه لا يستطيع إدراكَه ا ولا يقوم فَنُّ المعلم على جعل الولد يستند فى مشاهداته إلى دقائقَ تافهةٍ ، بل على تقريب ذهنه بلا انقطاعٍ من علائقَ يجب أن يعرِفها ذاتَ يومٍ ليحْكُم حكماً صائباً حَوْل نظام المجتمع المدنىِّ الصالح أو الطالح ، ويجب أن يكون المعلم قادراً على التوفيق بين الأحاديث التى يُلْهيه بها وجَوْلاَتِ الذهن التى حَبَاه بها ، ومسئلةٌ مثلُ هذه لا يُمْكِنُ تلميذاً آخرَ أن يلتفت إليها ستُزْعجُ إميلَ ستة أشهر .

ونذهب لتناول الغَداء فى منزل مُوسِر ، ونَجِدُ استعدادَ عيدٍ ، نَجِدُ كثيراً من الناس والخَدَم ، ونَجِدُ كثيراً من الأطباق وصحونِ الأطعمة اللطيفة

الفاخرة ، وتَنْطَوِى عُدَّةُ النعيم والعيد هذه على أمرٍ مُنْكَرٍ لِمَنْ لم يَتَعَوَّدْها ، وأُبْصِرُ تأثيرَ جميع هذا فى تلميذى الفَتِيِّ ، وبَيْنَا تُقَدَّم الأطعمة ، وبَيْنَا تتعاقب الآنية ، وبَيْنَا يَسُود المائدةَ ألفُ حديثٍ صاخب ، أَدْنُو من أُذُن تلميذى وأقول له هَمْسًا : « كم عَددُ الأيدى التى تناولت ما ترَى قبل أن تَصِل إلى هـذه المائدة ؟ » ، وما أكثرَ الأفكارَ التى أُثيرُها فى دماغه بهذه الكلمات القليلة ! تزُول غيوم الهَذَيان حالًا ، ويَتَصَوَّر ويتأمل ويَحْسُب ويَضْطربُ باله ، وها هو ذا يَتَفَلْسَف منزوياً وحدَه ، وها هو ذا يسألنى ، على حين يَهْذِى الفلاسفةُ ويَهْذِرون كالأولاد بفعل الخمر أو بفعل الجالساتِ حولَهم ، وأمتنع عن الجواب ، وأصْرِفه إلى وقتٍ آخر ، ويَفْرُغ صبرُه ، ويَنْسَى الأَكلَ والشرب ، ويَتَحَرَّق شَوْقاً إلى وُجوده خارجَ المائدة ليحادثنى براحةٍ ، وأىُّ موضوعٍ يُثِيرُ فُضُولَه ! وأيةُ عبارةٍ تُوجِب تعليمَه ! وما يَكُون رأيُه ، بعَقْلٍ صحيحٍ لم يَسْطِعْ أن يُفسِدَه شىء ، فى الترف عند ما يَجِدُ أن جميع بقاع العالم تعاونت ، وأن من المحتمل أن تكون عشرون مليوناً من الأيادى قد عَمِلَتْ زمناً طويلًا ، وأن حياة الألوف من النـاس زَهَقَتْ ، لتَعرِض عليه من الثياب الفاخرة ظُهْراً ما يُودِعُ صُوانَه مساء ؟

وارْقُبُوا بدقةٍ تلك النتائجَ الخفيـةَ التى يستنبطها فى فؤاده من جميع هذه المشاهدات ، وإذا ما رَقَبْتُموه بأقلَّ ممـا أَفْتَرِضُ أَمْكَنَ أن يُحَوِّل تأملاتِه إلى معنًى آخرَ فيَعُدَّ نفسه ذا شأنٍ فى العالَم حين يَرَى تضافرَ كثيرٍ من الجهود فى إعداد غَدائه ، وإذا ما أَحْسَسْتُمْ بهذه البرهنة سَهُل عليكم أن تَحُولُوا دون وقوعها أو أن تَمْحُوا تأثيرَها من فَوْرِكم على الأقلّ ، وبما

أنه لا يَعْرف حتى الآن أن يَنْتحل الأمور إلّا بمُتْعَتِها المادية فإنه لا يستطيع أن يَحْكُم فى ملاءمتها له أو عدمِ ملاءمتها له إلّا بالعلائق المحسوسة، وما يكون من مقابلةٍ بين غَداء ريفىٍّ بسيط مُعَدٍّ بالتمرين ومُعَلَّلٍ بالجوع والحرية والسرور ووليمتِه الفاخرةِ جدًّا والبالغةِ التنظيم يَكْفِى لإشعاره بأن جميع جهاز المأدبة لم يُنْعِمْ عليه بأية فائدةٍ حقيقية كانت، وبأن مَعِدَته، إذْ غادرت مائدةَ القَرَوِىِّ راضيةً رِضاءها عن مائدة الغنىِّ، لم تَكْسِبْ من هذه ولا تلك ما يستطيع أن يَدْعُوَه مالًا له فى الحقيقة.

ولْنَتَمَثَّلْ ما يُمْكِنُ المعلمَ فى مِثْلِ هذه الحال أن يقول له: اذْكُرْ هذين الطعامين جيداً، وقَرِّرْ بنَفْسك: أيُّهما أَمْتَعَكَ أكثرَ من الآخر، وأيُّهما أَوْرَثَك سروراً أعظمَ من الآخر، وأيُّهما أكلتَ بشهوةٍ وشَرِبت بلذةٍ وضَحِكْت منه بمَرَحٍ أشدَّ مما اتَّفَقَ لك بالآخر، وأيُّهما دام بلا سأمٍ، ومن غير احتياجٍ إلى أن يتجدّد بسُمُطٍ أخرى، أطولَ مما دام الآخر؟ ومع ذلك فانظُرْ إلى الفَرْق: إن هذا الخبز الأسمر الذى تَجِدُه جيدًّا ينشأ عن القمح الذى يَحْصُدُه هذا الفَلّاح، وإن خمرَه الغليظةَ السوداء، ولكن مع إرواء واستمراء، مصنوعةٌ من غَلَّة كَرْمه، وإن بَيَاضاتِه تأتى من قِنَّبه، وتُغزَل فى الشتاء من قِبَل امرأته وبناته وخادمته، وإن لوازم مائدته لا تُعَدُّ بيدٍ غيرِ يد أُسْرَته، وإن أقربَ رَحًى وسُوقٍ هما حَدَّا العالَم عنده، فما تَمَتُّعُكَ فى الحقيقة، إذَنْ، بما تُقَدِّمه الأرضُ البعيدة وأيدى الرجال على المائدة الأخرى؟ إذا كان كلُّ ذاك لا يَعرِض عليك أطيبَ طعام، فما تكون قد كَسَبْتَ من هذا اليُسر؟ وما مقدارُ ما صُنِعَ

منه لك ؟ ويُمْكِنُ المعلمَ أن يضيفَ إلى ذلك قولَه : لو كنتَ ربَّ المنزل لكان لك أقلُّ نفع فى ذلك ، وذلك لأن ما تَبْذُل من جهدٍ فى عَرْض بهجتك على الآخرين يَنْزِع منك هذه البهجة ، فالعَناء واقعٌ عليك ، واللذةُ لهم .

أجَلْ ، قد يكون هذا الكلامُ رائعاً جِدًّا ، ولكنْ لا قيمةَ له عند إميلَ الذى يجاوز متناوَلَه والذى لا تُمْلَى عليه تأملاتُ أىٍّ كان ، وكلِّمُوه ، إذَنْ ، بما هو أبسطُ من ذلك ، وقُولُوا له فى صباح يومٍ بعد تينك التجربتين : « أين نَتَغَدَّى اليوم ؟ أحَوْلَ هذا الجبل الفِضِّىِّ الذى يُغَطِّى ثلاثةَ أرباع المائدة ، وحَوْل أحواض الزهر الورقِ التى تَنْفَعُ للنُّقْلِ على المَرَايا ، وبين هؤلاء النِّسْوَة ذوات الحُلَلِ الكبيرة اللائى يعاملنك مثلَ دُمْيةٍ متحركة ، فيُرِدْنَ أن تَقُولَ ما لا تَعْرِف ، أو فى تلك القرية البعيدة من هنا فرسخين ، عند أولئك الناس الطيِّبين الذين يستقبلوننا فَرِحين ويُقَدِّمون إلينا قِشْدةً فاخرة ؟ » ، ولا رَيْبَ فى خيار إميل ، وذلك لأنه ليس مِهْذاراً ولا مُغْتَرًّا ، ولأنه لا يُطِيقُ القَسْرَ ، ولأن جميع الأطعمة المعلَّلة الناعمة لا تَرُوقه مطلقاً ، ولأنه مستعدٌّ للعَدْوِ فى الأرياف دائماً ، ولأنه شديدُ الرغبة فى الفواكه الجيدة والخُضَر الصالحة والقِشْدَة الحَسَنة والناس الطيبين[1] ،

(١) يعد ما أفترض من أن ميل تلميذى إلى الأرياف ثمرة طبيعية لتربيته ، ثم بما أنه خال من ذلك الزهو والهندام الذى يروق النساء كثيراً فإنه أقل من الأولاد الآخرين احتفالا بالأعياد ، ومن ثم يكون أقل رضاً عن النساء ، وأقل دلالا فى مجتمعهن الذى لم يبلغ بعد من العمر ما يشعر معه بفتونه ، وقد احترزت من تعليمه تقبيل أياديهن وتملقهن وأن يبدى نحوهن من الأدب أكثر مما يبدى نحو الرجال ، وقد اتخذت قاعدة ثابتة قائلة بعدم مطالبته بشىء لا يدخل ضمن نطاق عقله ، فلا يوجد لدى الولد سبب صالح يعامل به أحد الجنسين على خلاف ما يعامل به الآخر .

وبينما نحن سائرون فى طريقنا يأتى التأملُ من نفسه ، « فأرى هذه الجموع من الناس ، الذين يَعْمَلُون لإعداد هذه الولائم الكبيرة ، تَخسَرُ متاعبَها أو أنها لا تُفَكِّرُ فى ملاذِّنا مطلقاً » .

وستكون أمثلتى ، الصالحةُ لولدٍ واحدٍ ، سيئةً لألفٍ آخرين ، وإذا ما اتُّخِذَ روحُها عُرِف جيداً كيف تُغَيَّر عند الحاجة ، ويتوقف الخيارُ على درس قريحة كلٍّ واحدٍ ، ويتوقف هذا الدرس على الفُرَص التى تَظْهَر بها هذه القريحة ، ولن يُتَصَوَّر أننا نستطيع ، فى السنين الثلاث أو الأربع التى نَشْغَلُها هنا ، أن نَمْنَح الولدَ الموهوب فكرةً عن جميع الفنون والعلوم الطبيعية كافيةً لتَعَلُّمِها ذاتَ يومٍ من تلقاء نفسه ، ولكننا ، إذْ نَعرِض أمامه جميعَ الموضوعات التى يهمُّه أن يَعرِفها ، نَضَعُه فى حالٍ يَنْمُو بها ميلُه ونبوغُه ، ويأتى بها أُولَى الخُطُوات نحو الموضوع الذى تَحْمِلُه إليه قريحته ، ونَدُلُّ بها على الطريق التى يجب فَتْحُها لمساعَدة الطبيعة .

ولسلسلة المعارف المحدودةِ ، ولكنِ الصائبةِ ، هذه فائدةٌ أخرى ، وهى أن تَبْدُوَ له بروابطها وصِلاتها ، وأن تُوضَع كلُّها فى أماكنها بتقديرٍ منه ، وأن يُحَال فيه دون المُبْتَسَرَاتِ التى يتخذها مُعْظَمُ الناس عُدَّةً ما يَتَعَهَّدُون من مواهبَ إقصاءً لمن يُغْفِلُونها ، ومَنْ يرَ نظامَ الكلِّ جيِّداً يُبْصِر المكان الذى يجب أن يكون للجزء ، ومن يرَ الجزءَ جيداً ويَعرِفه معرفةً أساسيةً يستطعْ أن يكون رجلًا عالماً ، ويكون الأولُ رجلًا حصيفاً ، وأنتم تَذْكُرون أن الحَصَافة هى ما نَقتَرِح اكتسابَه أكثرَ من اكتساب العلم .

ومهما يكن من أمرٍ فإن منهاجى مستقلٌ عن أمثلتى ، وهو قائمٌ على قياس قابليات الإنسان بمختلف أدوار عُمُره وعلى اختيار الأعمال الملائمة لقابلياته ، وأعتقد أن من السهل وجودَ منهاجٍ آخرَ يَلُوح به أنه يُعْمَلُ ما هو أحسن ، ولكنه إذا ما كان أقلَّ صلاحاً للنوع والسِّنِّ والجنس فإننى أَشُكُّ فى أن يَتَّفِقَ له ذاتُ النجاح .

ونحن حين بدَأْنا هذا الدورَ الثانىَ استفدنا من زيادة قُوَانا على احتياجاتنا حَمْلاً لنا خارجَ أنفسنا ، وقد انطلقنا إلى السماوات ، وقد قِسْنا الأرضَ ، وقد اقتطفنا سُنَنَ الطبيعة ، والخلاصةُ أننا طُفْنَا فى الجزيرة بأَسْرِها ، والآن نَعُود إلى أنفسنا ، ونَدْنو من مَسْكننا دُنُوًّا غيرَ محسوس ، ومن السعادة البالغة ألا نَجِدَه حين نَدْخُلهُ قبضةَ عَدُوٍّ يُهَدِّدنا ويستعدُّ للاستيلاء عليه !

وما يَبْقَى أن نَعْمَلَه بعد أن أنعمنا النظر فى جميع ما يحيط بنا ؟ يجب أن نُحَوِّل إلى ما فيه نَفْعُنا كلَّ ما نستطيع أن نناله ، وأن ننتفع بفُضُولنا زيادةً فى راحتنا ، وقد ادَّخَرْنا حتى الآن آلاتٍ من كلِّ نوع ، وذلك من غير أن نَعرِف التى نحتاج إليها ، ومن المحتمل ألا تكون آلاتُنا نافعةً لنا مع نفعها للآخرين ، ومن المحتمل أن نحتاج إلى آلات الآخرين بدَوْرِنا ، وهكذا فإننا نَجِدُ فائدتَنا من هذه المبادلات ، ولكن قيامَ هذه المبادلات يتوقف على معرفة احتياجاتنا المتقابلة ، فيجب أن يَعْرِف كلٌّ واحدٍ ما عند الآخرين من أشياء نافعةٍ له وما يُمكِن أن يُقَدِّم إليهم مقابلةً ، ولنَفْرِض وجودَ عشرةِ رجالٍ تكون لكلِّ واحدٍ منهم عشرةُ أنواعٍ من الاحتياجات ،

فيجب على كلٍّ واحدٍ أن يُكِبَّ على عشرة أنواعٍ من الأعمال قضاء لِما يحتاج إليه ، ولـكنه إذا ما نُظِرَ إلى اختلاف القابلية والقريحة وُجِدَ أن الواحدَ منهم يُحْسِن بعضَ هذه الأعمال وأن آخرَ منهم يُحْسِن بعضاً آخرَ منها ، ولو كان كلٌّ واحدٍ منهم صالحاً لشيء فصَنَع عينَ الأشياء لساءت خدمتُه ، وإذا ما أُلِّفَتْ شركةٌ من هؤلاء الرجال العشرة فقام كلٌّ واحدٍ منهم بالعمل الذى يُجيدُه أكثرَ من غيره نفعاً له وللتسعة الآخرين فإنه يستفيد من مواهب الآخرين كما لو كان وحدَه حائزاً لها كلِّها ، وبذلك يُتْقِن عملَه بتمرينٍ مستمرٍّ ، وبذلك يكون العشرةُ الذين كَمَلَ تجهيزهم على هذا الوجه ذوى فَيْضٍ لآخرين أيضاً ، وهذا هو المبدأُ الظاهر لجميع نُظُمنا ، وليس من موضوعى أن أبحث فى نتـائجه هنا ، فقد صنعتُ هذا فى كتابٍ آخر* .

وإذا ما نُظِرَ إلى هذا المبدأ وُجِدَ أن الإنسان الذى يُرِيدُ عَدَّ نفسه منعزلاً لا يُمْـكِنُ إلّا أن يكون بائساً لعدم استناده إلى أحدٍ ، ولـكفاية نفسه بنفسه ، حتى إنه يَتَعَذَّر عليه البقاء ، وذلك لأنه إذ يَجِدُ الأرضَ بأجمعها ملكاً لى ولك ، وليس له غيرُ بَدَنه ، فمن أين ينال ما يحتاج إليه ؟ ونحن ، إذْ نَخْرُجُ من حال الطبيعة ، نُلزِم أمثالَنا بالخروج منها أيضاً ، فلا أحدَ يستطيع البقاء فيها على الرغم من الآخرين ، ومما يُعَدُّ خروجاً منها حقّاً أن يُرادَ البقاء فيها مع تَعَذُّر العَيْش ، وذلك لأن البقاء قانونُ الطبيعة الأولُ .

---

* كتاب « أصل التفاوت بين الناس » ، وقد نقلناه إلى العربية . (المترجم)

وهكذا فإن أفكاراً عن الصِّلات الاجتماعية تتكوّن فى ذهن الولد بالتدريج ، حتى قبل أن يستطيعَ أن يكون عُضواً عاملاً فى المجتمع حقًّا ، ويَرَى إميلُ أن حيازته آلاتٍ لاستعماله تَقضِى بأن يكون لديه منها ما هو صالحٌ لاستعمال الآخرين فينالَ به مبادَلةً أشياء ضروريةً واقعةً تحت تَصَرُّفهم ، ويَسْهُلُ علىَّ أن أجعله يَشْعُر بضرورة هذه المبادلات وأن يكون فى حالٍ ينتفع معه بها .

« يجب أن أعيش يا سيدى » ، هذا ما قاله كاتبٌ هَجّاء بائسٌ لقِسِّيسٍ لامه على رِجْسِ هذه الحِرْفة ، « لا أرَى ضرورةً إليها » ، هذا ما أجاب به ذاك السَّرِىُّ ببرودة ، فهذا الجواب الرائعُ من قَسٍّ يُعَدُّ جافياً زائفاً إذا ما خَرَج من فَمٍ آخر ، فمن الواجب أن يعيش كلُّ إنسان ، ويَلُوح لى أنه لا يُوجَدُ رَدٌّ على هذا البرهان الذى يعطيه كلُّ واحدٍ من القوة الكبيرة أو الصغيرة على حسب ما يكون عنده من إنسانيةٍ قليلة أو كثيرة ، وذلك بالنسبة إلى من يستعملُه تجاه نفسه ، وبما أن مَقْتَ الموت أشدُّ ما تلقيه الطبيعة فينا من كراهيةٍ فإنه يُسْتَنْتَج من هذا كَوْنُ الطبيعة تُبِيحُ كلَّ شىء لمن ليس لديه وسيلةٌ ممكنة أخرى للعَيْش ، ومن البعيد عن تلك البساطة الابتدائية ما يتعلمه الإنسانُ الفاضل من المبادئ حَوْلَ ازدراء حياته والتضحية بها فى سبيل واجبه ، ويا لسعادة الشعوب التى يُمْكِن الإنسانَ أن يكون صالحاً فيها من غير جُهْدٍ وعادلاً من غير فضيلة ! وإذا وُجِدَتْ فى العالم حالُ بؤسٍ لا يستطيعُ كلُّ واحدٍ أن يعيش فيها من غير أن يَصْنَع شرًّا ، وحيث يكون المواطنون خبيثين عن ضرورةٍ ، فإن

الشِّرير لا يكون الشخصَ الذى يجب أن يُشْنَق ، بل الذى يَضْطَرُّه إلى أن يصير هكذا .

وإميلُ ، حين يَعرِف ما الحياةُ ، يَكُون أولَ ما أُعْنَى به هو أن أعلِّمه حِفظَها ، وحتى الآن لم أُفرِّق ، قطُّ ، بين الأحوال والمراتب والثَّرَوات ، وكذلك لن أُفرِّق بينها فيما بَعْدُ مطلقاً ، وذلك لأن الإنسان هُوَ هُوَ فى جميع الأحوال ، وبما أن مَعِدَة الغنىِّ ليست أكبرَ من مَعِدة الفقير وليست أصلحَ منها هَضْماً ، وبما أن ذراعى السيد ليستا أطولَ من ذراعى عبده ، وبما أن الكبير ليس أبلغَ طولاً من ابن الشعب ، ثم بما أن الاحتياجاتِ الطبيعيةَ هى هى فى كلِّ مكان ، فإن من الواجب أن تكون وسائلُ قضائها متساويةً فى كلِّ مكان ، واجْعَلُوا تربيةَ الإنسان ملائمةً للإنسان ، لا لِمَا ليس منه مطلقاً ، ألَا تَرَوْن أنكم ، بعَمَلِكم على تكوينه لحالٍ واحدةٍ حَصْراً ، تَجْعَلُونه غيرَ نافعٍ لأية حالٍ أخرى ، وأنه إذا ما جُعِلَ وَلوعاً بالثَّراء لم تَعْمَلوا على غير جعله تَعِساً ؟ وأىُّ شىء أدعى إلى السُّخْرية من أمير إقطاعىٍّ صار مُعْسِراً فبَدَا حاملاً فى بؤسه مبتسراتِ مَوْلده ؟ وأىُّ شىء أدعى إلى الازدراء من غنىٍّ أصبح فقيراً فصار يَذْكُرُ ما حُفَّ به الفقر من احتقارٍ فأخذ يَشْعُرُ بأنه أضحى آخرَ الناس ؟ تكون لأحدهما حرفةُ اللصِّ العامّ ، وتكون للآخر حِرْفةُ الخادم المُتَذَلِّل بالقول الجميل : « يجب أن أعيش » .

أنتم ترْكَنون إلى نظام المجتمع الحاضر من غير أن يَخْطُرَ ببالكم كَوْنُ هذا النظامِ عُرْضةً لثَوْراتٍ لا مَفَرَّ منها ، وكَوْنُه يتعذَّرُ عليكم أن تُبْصِرُوا ، وأن تَمْنَعُوا ، ما يُمْكِنُ أن يواجِه أبناءكم من فِتَنٍ ، ويصيرُ الكبير صغيراً

والمُوسِرُ فقيراً والأميرُ مأموراً ، وهل ضَرَبَاتُ القَدَر من النُّدْرَة ما تحسَبُون معه أنكم فى مأمنٍ منها ؟ نحن نَدْنُو من حال البُحْرَان وعَصْرِ الثَّوْرات[1] ، ومن ذا الذى يستطيع أن يجيب عما تكونونه وقتئذ ؟ إن كلَّ ما صَنَع الناسُ يستطيع الناس أن يَهْدِموه ، ولا يُوجد من السجايا التى لا تمَّحِى غيرُ ما طبعته الطبيعةُ ، ولا تَصْنَعُ الطبيعةُ أمراء ولا أغنياء ولا إقطاعيين كبَرَاءَ ، وما يَصْنَعُ فى أثناء سقوطه ، إذَنْ ، ذاك المَرْزُبَان الذى نَشَّأتُمُوه للعَظَمة ؟ وما يَفْعَل حين الفقر ذاك المَشَّارُ الذى لا يَقْدِرُ أن يعيش بغير الذهب ؟ وما يَعْمَلُ هذا المختالُ الغبيُّ ، الذى جُرِّدَ من كلِّ شيء ، فلا يَعْرِف أن ينتفع بنفسه مطلقاً ، والذى لا يَضَعُ وجودَه إلاَّ فيما هو غريبٌ عنه ؟ طُوبَى لِمَنْ يَعْرِفُ أن يَترُكَ ، حينئذٍ ، حالًا تترُكه وأن يَبْقَى رَجُلًا على الرغم من القَدَر ! وامْدَحُوا ما شئتم أن تَمْدَحُوا ذاك المليكَ المغلوب الذى يُرِيدُ أن يُدْفَنَ مُغَاضِباً تحت أنقاض عرشه . وأما أنا فأزدريه ، لأننى أرى أنه لا يكون إلاَّ من أجْل تاجه ، وأنه لا يُعَدُّ شيئاً إذا لم يكن ملكاً ، ولكن الذى يَخْسَرُ تاجَه ويستغنى عنه يُعَدُّ إذْ ذاك فوقه ، وذلك أنه يرتقى إلى مرتبةِ الرجل التى لا تجِدُ غيرَ القليل من الرجال مَنْ يَعْرِفون بُلُوغَها ، وذلك من مرتبة الملك التى يستطيع نَذْلٌ أو خبيثٌ أو مجنونٌ أن يَشْغَلَها كغيره ، وهنالك ينتصر على الطالع ويقتحمه ، ولا يكون مَدِيناً لغير نفسه ، وهو إذا لم يَبْقَ ما يُرِى غيرَ نفسه عاد لا يكون غُفْلًا ،

(١) أرى من المستحيل دوام الملكيات الكبرى فى أوربة لزمن طويل ، فقد ازدهرت كلها ، ولا بد من أفول كل ما يزدهر ، ولدى من الآراء الخاصة ما يدور حول تطبيق هذا المبدإ العام ، ولكن ليس هنا مكان بيانها ، وهى كلها بادية لكل ذى عينين .

بل صار شيئاً ما . أَجَلْ ، إنني أُفَضِّلُ مئةَ مرةٍ مَلِكَ سَرَقُوسة معلماً لمدرسةٍ في كُورِنْثُسَ ، وملكَ مقدونية مُوَثَّقاً في رومة ، على تارْكِنَ التَّعِسِ الذي لم يَعْرِف غيرَ المُلْك ، وعلى وارثِ الممالكِ الثلاثِ الذي صار أُلعوبةً لِمَنْ يُقْدِم على شَتْم بؤسه ، هائماً على وجهه بين بَلاطٍ وبَلَاطٍ ، طالباً عَوْناً في كلِّ مكان ، ملاقياً خِزْياً في كلِّ مكان ، وذلك عن عدم معرفةٍ في صُنْعِ شيءٍ آخرَ غيرِ حِرْفةٍ عادت خارجةً عن قدرته .

ومهما يَكُنْ من أمر الرجل أو المواطن فإنه ليس لديه من المال ما يَضَعُ في المجتمع غيرُ نفسه ، وأما أموالُه الأخرى فخاصةٌ بالمجتمع على الرغم منه ، وإذا ما كان الرجل غنياً فهو إمَّا ألاَّ يتمتع بغناه وإما أن يتمتع به الجُمهورُ أيضاً ، وفي الحال الأولى يَسْرِقُ من الآخرين ما يَحْرِم نفسَه إياه ، وفي الحال الثانية لا يُعطِيهم شيئاً ، وهكذا فإنه يَحْمِل الدَّيْنَ الاجتماعيَّ كاملاً ما دام لا يُؤَدِّي من غيرِ ماله ، ويَخْدُم والدي المجتمعَ إذْ يَكْسِبُ مالَه ، وليَكنْ كذلك ، فهو قد دَفَع دَيْنَه ، لا دَيْنَكم ، وأنتم مَدِينُون للآخرين أكثرَ مما لو كنتم قد وُلِدْتم بلا مال ما دمتم قد وُلِدْتم مُنْعماً عليكم ، وليس من الإنصاف مطلقاً أن يكون ما صَنَعَهُ الواحدُ للمجتمع مؤدِّياً لدَيْنِ رجلٍ آخرَ نحو المجتمع ، وذلك لأن كلَّ واحدٍ إذْ كان مديناً بكامله فإنه لا يستطيع أن يَدْفَع عن غير نفسه ، ولا يَقْدِرُ أبٌ أن يترك لابنه حقاً غيرَ نافعٍ لأمثاله ، والواقعُ أنكم تقولون إنه يَصْنَع هذا ، مع ذلك ، بنَقْلِه إليه ثَرَواته التي هي دليلُ العملِ وقيمتُه ، ومن يأكُلْ في البِطالة ما لم يكن قد اكتسبه بنفسه يُعَدُّ سارقاً له ، ولا يختلف ذو الدخل الذي تدفعه

إليه الدولة بلا مقابلٍ عن قاطع الطريق الذى يعيش على حساب أبناء السبيل ، وأما الرجلُ المنعزل ، إذْ كان خارجَ المجتمع وغيرَ مَدِينٍ لأحدٍ بشىء ، فإنه يحقُّ له أن يعيش كما يروقه ، ولكن الرجل فى المجتمع ، حيث يعيش على حساب الآخرين بحكم الضرورة ، فإنه مدينٌ لهؤلاء بالعمل فى مقابل حِفْظهم له ، ولا يُوجَدُ استثناء لهذا ، فالعملُ ، إذَنْ ، واجبٌ لازمٌ للإنسان الاجتماعىّ ، ويُحْسَبُ الغنىُّ أو الفقير والقوىُّ أو الضعيفُ ، أىْ كلُّ بَطَّالٍ ، سارقاً .

والحقُّ أن عمل اليد ، بين جميع الأشاغيل التى يُمْكِن أن تُزَوِّد بمعاش الإنسان ، هو أكثرُ ما يُدْنيه من حال الطبيعة ، وأن حال الصانع ، بين جميع الأحوال ، هى أكثرُ ما يكون استقلالاً عن النصيب والناس ، ولا يَخْضَعُ الصانع لغير عمله ، وهو حُرٌّ ، وهو حُرٌّ بمقدار ما يكون الأكّارُ عبداً ، وذلك لأن هذا تابعٌ لحقله الذى تَقَعُ غَلَّتُه تحت تَصَرُّف غيره ، ويُمْكِنُ العدوَّ أو الأميرَ أو الجارَ القوىَّ أو إحدى القضايا أن يَسْلُبَه هذا الحقلَ ، ويُمْكِن بهذا الحقل أن يُظْلَمَ بألف أسلوب ، ولكنه إذا ما أُرِيد ظلمُ الصانع فى أىّ محلٍّ لم تَلْبَثْ أمتعتُه أن تُحْزَم وينصرف من فَوْره ، ومع ذلك فإن الزِّراعة أولى حِرَف الإنسان ، وهى أفضلُ ما يُزَاوِل ، وأنفعُ ما يمارِس ، ومن ثَمَّ تُعَدُّ أشرفَ ما يتعاطى ، ولا أقول لإميلَ : « تَعَلَّمِ الزراعةَ » ، فهو يَعْرِفُها ، وهو دَرِبٌ بجميع الأعمال الريفية ، وبهذه الأعمال قد بدأ ، وإليها يَرْجع بلا انقطاع ، ولذا أقول له : « احْرُثْ تراثَ أبيك ، ولكنك إذا ما أضعتَ هذا التراثَ ، أو لم يكن عندك تراثٌ قط ، فما تَصْنَعُ ؟ تَعَلَّمْ حِرْفَةً » .

حِرفةٌ لابنى ! ابنى صانعٌ ! أوَ تُفكِّرُ فى هذا أيها السيد ؟ تفكيرى فى هذا خيرٌ من تفكيرك ياسيدتى ، أنتِ التى تُريدُ ألّا تجْعَل منه رجلاً لا يَقْدِر أن يكون غيرَ لُورْدٍ أو مَرْكيزٍ أو أميرٍ ، أو أقلَّ من شىء ذاتَ يومٍ على ما يحتمل ، وأما أنا فأريد أن أمنَحَه مرتبةً لا يُمْكِن أن يَخْسَرَها ، أُريد أن أمنحه مرتبــةً تُشَرِّفه فى جميع الأزمان ، أُريد أن أرفعه إلى حال الإنسان ، وعلى ما يُمْكِن أن تقولى سيكون له فى تلك المرتبة مُساوُون أقلُّ ممن يكونون له منكِ .

والحَرْفُ يقتل والروحُ يُحيِي ، ولأن تُتَعلَّمَ حِرْفةٌ لمعرفةِ حِرْفةٍ أقلُّ أهميةً من التَّغَلُّبِ على المُبْتَسرات التى تَزْدَرِيها ، ولن تُلْزَموا بالعمل لتعيشوا ، وَىْ ! يا لَلْحَيْف ، يا لَلْحَيْفِ عليكم ! ولـكن لا ضَيْرَ ، لا تَعْمَلُوا عن ضرورةٍ ، واعْمَلُوا من أجْلِ المجد ، واهْبِطُوا إلى حال الصانع لتكونوا فوقَ حالـكم ، وابْدَءوا بأن تكونوا مستقلين عن الثراء والأشياء لتَقْهَرُوها ، وابْدَءوا بالسيطرة على الرأى العامِّ حتى تُسَيْطِروا به .

واذْكُرُوا أننى لا أُطالبكم بنُبُوغٍ مطلقاً ، وإنما أُطالبكم بحِرْفةٍ ، بحرفةٍ حقيقية ، بفنٍّ ميكانىٍّ محْضٍ ، حيث تَعْمَل الأيدى أكثرَ من عمل الرأس ، وحيث لا يُنال الثَّراء ، بل يُمْكِن الاستغناء عنه ، وقد رأيتُ فى بيوتٍ ، يُسْتبعَدُ جِدًّا أن تُلِمَّ بهـا الفاقةُ ، آباءَ يَبْلُغُون من الحذَر ما يُضِيفُون معه إلى عنايتهم بتعليم أولادهم عنايةً بتزويدهم بمعارفَ يستطيعون الانتفاعَ بها للعيش عند النوائب ، ويعتقد هؤلاء الآباء الناظرون إلى العواقب أنهم يَعْمَلُون كثيراً ، وهم لا يَعْمَلون شيئاً ، وذلك لأن الوسائل التى يَرَوْن

أنهم يُجَهِّزون بها أولادَهم تتوقف على عَيْن الثراء الذى يريدون جعلَهم يَمْلُونه ، فإذا لم يُوجَدْ صاحبُ هذه المواهب الجميلة فى أحوالٍ ملائمة للانتفاع بها هَلَكَ بؤساً كأنه لم يَحُزْ واحدةً منها .

وإذا ما قام الأمرُ على الحِيَل والدسائس تَساوَى استعمالُها للبقاء فى سَعَةٍ واستعمالُها حين البؤس لِلعَوْد إلى الحال الأولى ، وإذا كنتم تتعهدون الفنونَ التى يتوقف نجاحُها على شهرة المتفنن ، وإذا كنتم تَجْعَلُون أنفسَكم صالحين لِخَدَمٍ لا تُنَالُ بغير المحاباة ، فما نَفْعُ جميعِ هـذا عند ما تَقِزُّ نفسُكم من العالَم حقًّا وتزدرون الوسائلَ التى لا يُمْكِن النجاحُ فيه بغيرها ؟ لقد دَرَسْتُم السياسةَ ومصالحَ الأمراء ، وهذا حَسَنٌ ، ولكن ما تَصْنَعُون بهذه المعارف إذا كنتم لا تستطيعون الوصولَ إلى الوزراء ونساء البَلاَط ورؤساء الدواوين ، وإذا كنتم لا تَعْرِفون سِرَّ الوقوع موقعَ الرِّضا عندهم ، وإذا كان الجميع لا يَجِدُون المُخَادِعَ فيكم ، فمَنْ يلائمهم ؟ وكونوا بَنَّائين أو مصوِّرين ، ولكنْ لا بُدَّ من التعريف بنبوغكم ، أَوَتَظُنُّون أنكم تَعرِضون أثَرَكم فى الرَّدْهة من غير سابق تمهيد ؟ وَىْ ! ليست هذه وسيلةَ الشروع في فى الموضوع ! يجب أن تكونوا من الأكاديمية ، حتى إنه يجب أن تكونوا محلَّ رعايةٍ لتنالوا فى زاويةٍ من الجدار مكاناً قاتماً ، دَعُوا المِسْطَرَةَ والمِنقاشَ جانبًا ، وارْكَبُوا عَرَبةً ، واقرَعوا باباً بعد باب تنالوا شُهْرَةً ، واعْلَمُوا ، إذَنْ ، أن لجميع هذه الأبواب المشهورة حُجَّاباً وحُرَّاساً لا يَسْمَعُون بغير الإشارة وتَقَعُ آذانُهم فى أيديهم ، وإذا ما أردتم تدريسَ ما تَعلَّمتم وأن تُصْبِحُوا أساتذةَ جِغرافية أو رياضياتٍ أو لغات أو موسيقا أو تصويرٍ

وَجَبَ أن تجِدُوا طُلَّاباً ، ومن ثَمَّ مادحين ، ورَوْا أن من المهمِّ أن تكونوا مخادعين أكثرَ من أن تكونوا ماهرين ، فإذا كنتم لا تعرِفون مهنةً غيرَ ما عندكم لم تُعَدُّوا غيرَ جاهلين .

وانظُرُوا ، إذَنْ ، مقدارَ ما عليه جميعُ هذه الوسائل الرائعة من قلة متانة ، ومقدارَ لزوم الوسائل الأخرى لكم لتنتفعوا بتلك ، ثم ما تُصْبِحُون بهذا الهبوط الوانى ؟ تُذِلُّكم النوازلُ من غير أن تُهَذِّبَكم ، وأنتم إذْ تَغدُون أُلعُوبةَ الرأى العامِّ أكثرَ مما فى أىِّ زَمَنٍ فكيف ترتفعون فوقَ المُبْتَسَرات التى هى حَكَمُ مصيرِكم ؟ وكيف تزدرون الذِّلَّةَ والنقائصَ التى تحتاجون إليها لتَعِيشُوا ؟ كنتم تابعين للثَّرَواتِ ، والآن تَتْبَعُون الأثرِياء ، وأنتم لم تَصْنَعُوا غيرَ زيادة عبوديتكم سوءًا وإرهاقِها ببؤسكم ، وها أنتم أولاء تبدُون فقراء من غير أن تكونوا أحرارًا ، وهذه هى أسوأ حالٍ يُمْكِنُ أن يَقَعَ فيها إنسان .

ولكنكم إذا ما استعنتُم بأيديكم وبما تَعرِفون من استعمالها عند الحاجة ، بَدَلًا من أن تَلجأوا ، لتعيشوا ، إلى تلك المعارف العالية التى جُعِلَتْ لتغذية الروح ، لا البدن ، زالت جميعُ المصاعب ، وأصبحت جميعُ الحِيَل غيرَ مُجْدِية ، وصارت الوسيلةُ حاضرةً دائمًا وقتَ استعمالها ، وعادت الاستقامةُ والفضيلة لا تكُونان عائقتين للحياة ، وعُدْتم لا تحتاجون إلى النذالة والكذب أمام الكبراء ، ولا إلى المُرُونة والتذلُّل أمام الخبثاء ، ولا إلى المجاملة الخسيسة تجاه جميع الناس من مُقْتَرِضين وسارقين ومن إليهم ممن تتخذون نحوهم ذاتَ الوضع عندما لا تَمْلِكون شيئًا ، ولا يَمَسُّكم رأى الآخرين

مطلقًا ، ولا يكونُ عليكم أن تتزلَّفوا إلى أحد ، ولا أن تتملَّقوا لبليد ، ولا أن تستميلوا حاجبًا ، ولا أن ترشُوا بغيًّا أو تأتوا بتبجيلها أمرًا إدًّا ، وما أكثرَ الأوغادَ الذين يديرون الشؤونَ العظيمة ! ولا أهميةَ لذلك ما دام هذا لا يَمنعُكم فى حياتكم القائمة أن تكونوا صالحين حائزين لخبزِكم ، وتَدْخُلون أولَ دكانٍ للحرفة التى تَعلَّمتم ، وتقولون : « أحتاجُ إلى عملٍ أيها المُعلِّم » ، ويقول : « هناك مكانُك أيها الرفيق ، فاعْمَلْ » ، وتَكْسِبُون غداءكم قبل وقت الغَداء ، وإذا كنتم من ذوى النشاط والقناعة فإنكم تكونون حائزين ، قبل مرور ثمانية أيام ، لِمَا تعيشون به ثمانيةَ أيام ، وستَحْيَوْن حياةً حرةً صحيةً صحيحةً جِدِّيَّةً مستقيمةً ، وليس من ضَياع الوقت أن يَقعَ الكَسْبُ على هذا الوجه .

وأُريد أن يتعلم إميلُ حِرْفةً ، وستقولون : « لتكن حِرْفةً شريفة على الأقلِّ » ، وما معنى هذه الكلمة ؟ أليست كلُّ حرفةٍ نافعةٍ للجُمهور شريفةً ؟ ولا أريد ، قَطعًا ، أن يكون مُطرِّزًا ولا مُذَهِّبًا ولا صَقَّالًا كالسيد الذى حكى عنه لُوك ، ولا أريد أن يكون موسيقيًّا أو ممثلاً أو مؤلفًا[1] ، وإذا عَدَوْتَ هذه المِهَنَ وما ماثلها فلْيَتَّخِذ المِهْنَةَ التى يُريد ، فلا أُريد أن أضايقه فى خِياره ، وأُفَضِّلُ أن يكون حَذَّاءً على أن يكون شاعرًا ، وأُفَضِّلُ أن يُبلِّط الشوارعَ على أن يَرْسُم أزهارًا على الصينىِّ ، ولكن ستقولون : « إن النَّبَّالة والجواسيس والجَلَّادين أناسٌ نافعون » ،

(١) سيقال لى إنك مؤلف ، فأعترف بأننى مؤلف لسوء حظى ، وليست ذنوبى ، التى كفرت عنها بما فيه الكفاية كما أرى ، سبباً لوجود مثلها لدى الآخرين ، ولا أكتب للاعتذار عن خطيئ‍تى ، بل لأحول دون تقليد القراء إياها .

فأقول : لا يَتَوَقَّف نفعُهم على غير الحكومة ، ولكنْ دَعْنَا نَمْضِي ، فقد أخطأتُ ، فلا يَكْفِي اختيارُ حِرْفةٍ مفيدة ، بل يجب ، أيضاً ، ألا تُنْمِيَ فيمن يزاولونها صفاتٍ روحيةً كريهةً منافيةً للإنسانية ، وهكذا فإننا ، إذ نَعُودُ إلى الكلمة الأولى ، نَتَّخِذُ حِرْفةً شريفة ، ولكنْ لِنَذْكُرْ ، دائمًا ، أنه لا شَرَف بلا نَفْعٍ مطلقًا .

وظَهَرَ فى هذا العصر مؤلفٌ مشهور[١] مُلِئت كتبُه بأعظم الخِطط مع أبصارٍ صغيرةٍ ، فهذا المؤلِّف قَطَع على نفسه عهداً بألّا تكونَ له زوجةٌ خاصة ، شأنُ جميع قساوسة طائفته ، ولكنه إذْ وُجِدَ أكثرَ من سواه تردُّدًا حَوْلَ الزنا فإنه ذهب ، كما يقال ، إلى اتخاذ خادماتٍ جميلات ليتلافى معهن ، جُهْدَه ، ما أتاه من إهانة لنوعه بعهده الطائش ، وقد كان يَعُدُّ من واجب المواطن أن يَمْنَح الوطنَ مواطنين آخرين ، وأن من الضرائب التى تؤدَّى إليه فى هذا المضمار زيادةَ طبقة الصُّنَّاع ، فإذا ما تَرَعْرَع هؤلاء الأولادُ حملهم جميعًا على تَعَلُّم صنعةٍ تلائم مَيْلَهم ، مستثنيًا المِهَنَ البَطَّالة التافهة الخاضعةَ للمُوضَة* كمِهْنة صُنْع الشُّعُور المستعارة التى ليست ضروريةً مطلقاً والتى يُمْكِن أن تكون غيرَ مفيدةٍ يومًا بعد يوم ما دامت الطبيعةُ جادَّةً فى الإنعام علينا بشَعْر .

وهذه هى الروح التى يجب أن تكون دليلًا لنا فى اختيار مهنة إميل ، وإن شئت فقل إن على إميلَ ، لا علينا ، أن يقوم بهذا الخيار ، وذلك

---

(١) رئيس دير القديس بطرس .

* La mode

لأن المبادئ التى أُشْبِعَ منها أوجبت ادِّخاره فى نفسه ازدراء طبيعيًّا للأشياء غيرِ المفيدة ، ولأنه لا يَرْضى بإنفاق وقته فى الأعمال التى لا قيمةَ لها ، ولا يَعرِف للأشياء قيمةً غيرَ ما لفائدتها الحقيقية ، فلا بُدَّ له من حرفةٍ يُمكِن أن تَنفَع رُوبِنْسُن فى جزيرته .

وإذا ما عرَضْنا أمام الولد مُنْتَجاتِ الطبيعة والفنّ ، وأثَرْنا فُضولَه ، وتَتَبَّعْنا ما يَسُوقُه إليه ، كانت لنا بهذا فائدةُ دراسةِ أذواقه ومشاربه ومُيُوله وتَبَيّنِ أولِ بَريقٍ من ذهنه ، عند وجود شيء مُقرَّرٍ من ذلك فيه ، ويَقُوم الخطأُ الشائع ، الذى يجب أن تُصَانوا منه ، على عَزْوِكم إلى تَوَقُّدِ القريحة فِعْلَ الحين ، وعلى عَدِّكم من المَيْلِ الواضح نحو هذا الفن أو ذاك روحَ التقليد المشترَكة بين الإنسان والقِرْد والتى تَحمِلُ كلاًّ منهما آليًّا على الرغبة فى صُنْع كلِّ ما يَرَى صنعَه من غير أن يُعْرَف كثيراً وجهُ الفائدة فيه ، والعالَمُ زاخرٌ بالصُّنَّاع ، ولا سيما المتفننون ، الذين ليس لديهم استعدادٌ فطرىٌّ للفنِّ الذى يزاولون والذى دُفِعُوا إليه منذ صِبَاهم فبُتَّ فيه عن عواملَ أخرى أو غُرَّ به عن غَيْرةٍ ظاهرةٍ كان من الممكن أن تَحفِزَهم إلى فنٍّ آخرَ أيضاً لو كانوا قد رأَوْا مزاولةَ هذا الفنّ حالًا ، وهذا يَسْمَعُ طَبْلًا فيَظُنُّ نفسه قائداً ، وذاك يَرَى بِناءً فيريد أن يكون مهندساً مِعْماريًّا ، وكلٌّ يُسَاقُ إلى الحرفة التى يشاهد القيامَ بها إذا ما اعتقدها مُعْتَبَرة .

ومما حدَث أن عَرَفتُ خادماً رأى معلِّمه وهو يَرْسُم ويُصَوِّر ، فأقنَع نفسَه بأن يكون مُصوِّراً ورسَّامًا ، وتناوَل القلمَ الرَّصاصىَّ منذ الدقيقة التى

اتّخذ فيها هذا القرارَ ، ولم يَترُك هذا القلمَ إلّا ليتناوَل ريشةَ الرسم والتصوير التى لم يتركها مدى حياته ، وأخذ يَرْسُم كلَّ ما يَقعُ نَظَرُه عليه غيرَ مستعينٍ بدروسٍ ولا قواعد ، وقضى ثلاثَ سنين بكاملها لاصقاً بخَرَابيشه التى لم يَكُنْ ليُحَرِّكه عنها شىءٌ غيرُ خِدْمته ، وما كان لِيَرُدَّه عن ذلك ما تَمَّ له من تقدُّمٍ قليلٍ ناشئٍ عن استعداده المادىِّ ، وقد رأيته يقضى أشهرَ صيفٍ شديدِ الحَرِّ فى غرفةِ انتظارٍ صغيرة مواجهةٍ للجَنوب ، فى هذه الغرفة التى يختنق الإنسان إذا مَرَّ منها ، فى هذه الغرفة التى يَجلِس فيها ، وإن شئت فقُلْ يُسَمَّرُ فيها ، على كرسىٍّ أمام كُرَةٍ ، فيَرْسُم هذه الكرةَ ويَرْسُمها ثانية ويَعُودُ إلى رسمها ويستأنفهُ بلا انقطاعٍ وبعنادٍ لا يُدْفَع إلى أن رَضِيَ عن استدارتها ، ويَحْبُوه معلمه بعطفه ، ويُرْشِدُه متفننٌ ، حتى بلغ درجةً يَخْلَعُ معها ثوبَ الخدمة ويعيشُ من ريشته ، ويقوم الثبات مقام النبوغ إلى حدٍّ ما ، وقد انتهى إلى هذا الحدِّ ، ولن يجاوزه مطلقًا ، ويستحقُّ جَلَدُ هذا الخادمِ الشريف وطموحُه الثناء ، وهو سيكون ، دائمًا ، محلَّ تقديرٍ من أجْل مثابرته وإخلاصه وأخلاقه ، ولكنه لن يَصْنَع غيرَ صُوَرٍ من الدرجة الثالثة ، ومن ذا الذى لم يُخْدَعْ بغَيْرته فيَعُدَّه ذا نبوغٍ حقيقىّ ؟ يُوجَدُ فرقٌ بين الإعجابِ بعملٍ والأهليةِ له ، ولا بُدَّ من مشاهداتٍ أدقَّ مما يُتَصَوَّر لِتَيَقُّنِ النبوغِ الحقيقىِّ والذوقِ الحقيقىِّ فى الولد الذى يُبْدِى رَغَبَاتِه أكثرَ من أهلياته والذى يُفْصَلُ فى أمره بالأولى عن عدم معرفةٍ بدَرْس الأخرى ، وأَتَمَنَّى وجودَ رجلٍ مِفْضالٍ يَضَعُ لنا رسالةً عن فنِّ رَقابة الأولاد ، وعلى ما لمعرفة هذا الفنِّ من أهمية عظيمة تَرَى الآباء

والمعلمين لا يزالون جاهلين مبادئه .

ولكننا هنا نُعَلِّقُ أهميةً كبيرةً على اختيار الحِرْفة على ما يحتمل ، وبما أن الأمر يدُور حَوْلَ العمل اليدوىّ فإن هذا الاختيار ليس ذا بالٍ بالنسبة إلى إميلَ ، وإميلُ قد أتمّ إلى الآن أكثرَ من نصف تخرُّجه بالتمرينات التى شَغَلْناه بها حتى اليومِ الحاضر ، وما تريدون أن يَصْنَع ؟ هو مستعدٌّ لكلّ شىء ، وهو يَعرِف استعمالَ المِعْزَقة والمِجْرَفة ، وهو يَعرِف استخدامَ المِخْرَطة والمِطْرَقة والمِنْجَر والمِبْرَد ، وهو مُلِمٌّ بآلات جميع الحِرَف ، وعاد لا يُلْتَفَتُ إلى غير حيازة آلاتٍ تكون من السرعة والسهولة ما تَعْدِل معه فى العَجَلة أحسنَ العمال الذين يستخدمونها ، وهو ، من هذه الناحية ، ذو مزيةٍ يفوق بها الجميع ، أى إنه ذو رَشَاقةٍ فى البَدَن ومرونةٍ فى الأعضاء يَتَّخِذُ بهما جميعَ الأوضاع بلا مشقةٍ ويطيل بهما جميعَ الحركات بلا جُهْد ، ثم إن له أعضاء صالحةً حسنةَ التدريب ، وهو عارفٌ بجميع الجهاز الفنىّ ، ولا تُعوِزُه غيرُ العادةِ ليستطيعَ العملَ مثلَ مُعَلِّم ، والعادةُ لا تُنَال إلّا مع الوقت ، وأىُّ الحِرَفِ بَقِيَ علينا أن نختار فتَمْنَح من الوقت ما يكون معه نشيطًا فيها ؟ وليسَ حَوْلَ غيرِ هذا ما يَدُورُ الأمر .

وامْنَحُوا الرجلَ حرفةً ملائمةً لجنسه ، وامْنَحُوا الشابَّ حرفةً ملائمةً لسِنِّه ، فكلُّ مِهْنةٍ حَضَريةٍ دارِيةٍ تُخَنِّثُ البَدَن وتُؤَنِّث الجسمَ لا تَرُوقُه ولا تُناسبه ، وما كان الشابُّ لِيَبْتَغِيَ أن يكون خَيَّاطًا من تلقاء نفسه ، ولا بُدَّ من الفَنّ لِيُحْمَلَ إلى حِرْفة النساء هذه ذاك الجنسُ الذى لم يُخْلَقْ

لها[1] ، وما كان السيفُ والإبْرَةُ ليُسْتَعْمَلا بأيدٍ واحدة ، ولو كنتُ وليًّا للأمر ما سَمَحْتُ بالخِيَاطة وحِرَف الإبرة لغير النساء ، والعُرْجانِ الذين هم فى حكم النساء ، وإذا ما افْتُرِض الخِصْيَانُ أناساً لا غُنْيَةَ عنهم وجدتُ الشرقيين من الحماقة ما يَصْنَعُون منهم عَمْداً ، ولِمَ لا يكتفون بمَنْ صنعت الطبيعةُ ، وبتلك الجموع من الآدميين الضعفاء الذين كَسَرت الطبيعةُ قلوبَهم ؟ فتُوجَدُ منهم بقيةٌ للحاجة ، وقد حكمت الطبيعةُ بالحياة الحَضَرية على كلِّ رجلٍ ضعيفٍ رقيقٍ جبان ، وقد خُلِقَ هـذا الرجلُ ليعيش مع النساء أو على طِرَازهنَّ ، ودَعُوه يزاول إحدى حِرَفِهن إذا أراد ، وإذا كانت هنالك ضرورةٌ إلى خِصْيَانٍ حقيقيين فليُرَدَّ إلى حال هؤلاء أولئك الرجالُ الذين يَجْلِبُون العارَ إلى جنسهم باتخاذهم حِرَفًا لا تُناسبه ، ألَا إن خِيَارَ هؤلاء يؤذِن بخطأِ الطبيعة ، فإذا ما أصلحتم هـذا الخطأَ على وجهٍ ما لم تَصْنَعُوا غيرَ الخير .

وأُحَرِّم على تلميذى الحِرَفَ غيرَ الصحية ، لا الحِرَفَ الشاقة ، ولا الحِرَفَ الخَطِرَةَ أيضاً ، فهذه الحِرَفُ تُمَرِّن القوة والشجاعة معاً ، وهي صالحةٌ للرجال وحدَهم ، وليس للنساء دَعْوَى بها مطلقاً ، وكيف لا يَخْجَلُون من تطاولهم على حِرَفٍ خاصة بهنّ ؟

« قليلٌ عددُ مَنْ يُحَارِبُ من النساء ، وقليلٌ من النساء مَنْ يأكلُ خبزَ الأبطال ، وأنتنَّ تَغْزِلْنَ الصوفَ ، فمتى تَمَّ عملُكنَّ أتَيْتُنَّ به فى السِّلَال » ..

---

(١) كان لا يوجد خياطون بين القدماء ، فقد كانت ثياب الرجال تصنع فى البيوت من قبل النساء .

وفى إيطالية لا تُرَى النساء فى الحوانيت مطلقاً ، ولا يُمْكِن أن يُتَصَوَّر ما هو أدْعَى إلى الغَمِّ من منظر الشوارع فى هذا البلد لدى مَنْ تَعَوَّدوا شوارعَ فرنسة وإنكلترة ، وإنى ، إذْ أرى تُجّارَ أزياء يَبيعُون من السيدات أوْشِحَةً وشَبَكاتٍ وقيطاناً ، وخُصَلَ ريشٍ أو صوفٍ للقُبَّعات ، أجِدُ هذه الزِّينات الناعمةَ مثيرةً للضحك فى الأيدى الغليظة التى خُلِقَتْ للنَّفْخِ فى الكِير أو للطَّرْق* على السَّنْدَان** ، فأقول فى نفسى : « يجب على النساء فى هذا البلد أن يقابِلْنَ السوءَ بالسوء فيُقِمْنَ دكاكينَ للصَّقْلِ وصُنْعِ الأسلحة » ، والآن ! لِيَصْنَعْ كلٌّ واحدٍ أسلحةَ جنسِه وَيبِعْها ، فلا بُدّ من استعمال هذه الأسلحة لمعرفتها .

ويا أيها الشابُّ ، اطْبَعْ يدَ الرجل على أعمالك ، وتَعَلَّمْ استعمالَ الفأس والمِنْشار بذراعٍ قوية ، وتَعَلَّمْ نَحْتَ الرافدة*** بزوايا قائمة ، وتَعلَّم تَسَنُّمَ أعلى البناء ، ووضعَ القِمَّة ، وتثبيتَها بالقوائم والدعائم ، ثم نادِ أختَك لتأتىَ وتساعدَكَ فى عملك ، وذلك كما كانت تطلب منك العَمَل فى غَرْزِها المُشْتَبِك .

وأشْعُرُ بأننى أسهبتُ فى بيان ذلك لدى معاصِرِىَّ اللُّطَفاء ، ولكننى أدَعُ نفسى تُساقُ بقوة النتائج أحياناً ، وإذا ما اعترى رجلاً ما خَجَلٌ من العمل عَلَانيةً مُجهَّزاً بمِنْحَتٍ ومُنَطَّقاً بوِزْرَةٍ من جِلْدٍ لم أرَ فيه غيرَ

---

* الكير : زق ينفخ فيه الحداد .

** السندان : من آلات الحدادين ، وهو ما يطرق عليه ، والكلمة من الدخيل .

*** الرافدة : خشبة السقف التى فوق الجسر ، والعامة تسميها الوصلة .

عبدٍ للرأى العامّ مُعَدّ للحياء من عمل الخير عند الضحك من ذوى الصلاح ، ومع ذلك دَعْنا نُذْعِن لمُبْتَسَر الآباء فى كلّ ما لا يُمكِن أن يَضُرّ رأى الأولاد ، وليس من الضرورىّ أن تُزَاوَلَ جميعُ المِهَن النافعة تكريماً لها كلِّها ، وإنما يكفى ألّا يُقدِّرَ الإنسانُ واحدةً منها على أنها دون مستواه ، وإذا كان لنا حَقُّ الخِيار بلا إكراهٍ فَلِمَ لا نختار من المِهَن التى هى من مرتبةٍ واحدة ما ينطوى على بَهْجَةٍ وملاءمةٍ ويدلُّ عليه المَيْلُ ؟ إن الأعمال المعدِنية مفيدةٌ ، وهى أكثرُ الأعمال فائدةً ، ومع ذلك فإننى لا أجعل من ابنكم بَيْطاراً ولا قَفَّالًا ولا حَدَّاداً ، ما لم يكن لدىّ سببٌ خاصٌ يَحْمِلُنى على ذلك ، وذلك لأننى لا أُحِبُّ أن أرى له فى معمل الحديد وجهَ جَبَّارٍ ، وكذلك لن أجعلَ منه بَنّاء ولا حَذّاء ، أَجَلْ ، يَجِبُ القيامُ بجميع الحِرَف ، ولكنه يَجِبُ على من يستطيع الخِيارَ أن يَنْظُر إلى النظافة ، ولا ينطوى هذا على معنى المُبْتَسَر الطَّبَقِىّ ، وحواسُّنا هى دليلُنا فى هذا الأمر ، ثم إننى لا أُحِبُّ المِهَنَ السخيفة التى يكون العمالُ فيها خالين من الصِّناعة ومعدودين آلِيِّين فلا يُحَرِّكون أيديَهم فى غير ذات العمل ، كالحَاكَة وصانعى الجوارب ونَشّارى الحجارة ، وما فائدةُ استخدام رجالٍ أذكياء فى هذه الحِرَف ؟ لا يَعْدُو الأمرُ حَدَّ آلةٍ تنتهى إلى آلة .

وإنى ، بعد إنعام النظر فى جميع الحِرَف ، أُحِبُّ النِّجَارةَ أكثر من سواها ، وهى ملائمةٌ لذوق تلميذى ، ولا غَرْوَ ، فهى نظيفةٌ مفيدة ، وهى تُزَاوَل فى المنزل ، وهى تَسْتَكِدُّ البَدَنَ ، وهى تستلزم فى العامل مهارةً

وبراعةً ، ولا يَخرُج الهَيَفُ والذوقُ من شكل مصنوعاتها الذى تُعيِّنُه الفائدةُ .

وإذا ما حَدَث اتفاقاً أن تَحوّل تلميذكم بحَزْمٍ نحو العلوم النظرية فإننى لا ألومكم على منحه مِهْنةً ملائمةً لمُيُوله ، وذلك كأن يتعلَّم ، مثلاً ، صُنْعَ آلاتٍ رياضية ونَظَّاراتٍ ومَرَاقِبَ ، إلخ .

وأُرِيدُ أن أتعلَّمَ مع إميلَ حِرْفتَه وقتَ تعلُّمِه إياها ، وذلك لاعتقادى أنه لا يُجِيدُ تَعلُّمَ غيرِ ما نتعلَّمُ معاً ، ولذا فإن كِلاَنا يأخذ فى التَّخرُّج ، ولا نَقْصِدُ أن نعامَلَ مِثْلَ سيدين ، ولكنْ مِثْلَ تلميذين حقيقيين جادَّيْن ، ولِمَ لا نَكُون هكذا فِعْلًا ؟ لقد كان القيصرُ بطرس نجاراً فى مَصْنَع السُّفُن وطَبَّالًا فى كتائبه ، أَوَ تَظنُّون أن هذا الأمير لا يَعْدِلُكم مَوْلِداً أو مِهْنةً ؟ تُدْرِكون أننى لا أقول هذا لإميلَ ، بل لكم أيًّا كنتم .

ومن دواعى الأسف أننا لا نستطيع قضاء جميع وقتنا فى المصنع ، فلسنا تلميذين من العمال ، بل تلميذين من الرجال ، ويَكُونُ التخرُّجُ فى هذه الحرفة الأخيرة أشقَّ مما فى الأخرى وأطْوَلَ ، وكيف نَصْنَعُ إذَنْ ؟ أنتخذ معلِّمَ مِنْجَرٍ ساعةً فى اليوم كما يُتَّخَذُ معلمُ الرقص ؟ كَلاَّ ، لا نكون تلميذين ، بل طالبين ، وذلك أننا نَطْمَحُ ببصرنا أن نكون نَجَّارَيْن أكثرَ من أن نتعلم النِّجَارة ، ولذلك أرى أن نذهب فى كلِّ أسبوعٍ مرةً أو مرَّتين على الأقل لقضاء نهارنا بكامله عند المعلِّم ، فنَنْهَضَ حين نهوضه ، ونَعْمَلَ قبل أن يَعْمَل ، ونأكلَ على مائدته ، ونشتغلَ تحت إمْرَته ، حتى إذا ما كان لنا شرفُ العَشَاء مع أُسْرَته عُدْنا ، عند ما نريد ، إلى فِراشنا الخَشِن ، وهذا هو الوجهُ الذى تُتَعَلَّمُ به حِرَفٌ كثيرةٌ معًا ، وهذا

هو السبيل الذى يُمارَسُ به عملُ اليد من غير إهمال التَّخَرُّج الآخر .

ولْنَتَذَرَّعْ بالبساطة عنـد عَمَل الخير ، ودَعْنا لا نُبْدِى زَهْواً حيث نكافح الزَّهْوَ ، ومَنْ يَزْهُ بفَوْزِه على المُبْتَسَرات يَتَضَمَّن زهْوُه هذا خضوعًا لها ، ويُرْوَى أن من عادة آل عثمان القديمة إلزامَ السلطانِ بالعمل بيديه ، وكلٌّ يَعْلَم أن آثار اليد السلطانية لا يُمْكِنَ أن تكون من غير الروائع ، ولذا فهو يوزِّع هذه الروائعَ بأُبَّهَةٍ بين أكابر الدولة ، ويُدْفَعُ ثمنُها وَفْقَ مقامِ الصانع ، وما أرى من شرٍّ فى هذا لا يقوم على هذا الجَوْر المزعوم ، وذلك لأنه ، على العكس ، خيرٌ ، وذلك لأن الأمير ، إذْ يُكرِه الأكابرَ على مقاسمته أسلابَ الشعب ، يكون أقلَّ اضطراراً إلى سَلْبِ الشعب مباشرةً ، فهذا تخفيفٌ للاستبداد ، ولولاه ما استطاع هذا الحكمُ الفظيع أن يدوم .

والشَّرُّ الحقيقىُّ فى مثل هذه العادة يقوم على إعطاء ذلك الرجل المسكين فكرةً عن مزيته ، وهو ، كالملك ميداس ، يرَى تحويلَ كلِّ ما يَمَسُّ إلى ذهب ، ولكنه لا يُبْصِرُ أىُّ الآذان يُنْبِت ، ونرِيدُ أن نحفَظ لإميلَ أذنيه القصيرتين فنصُونَ يديه من تلك الأهلية الغنية ، فلا يَعُودَ عليه عملُه بغير ثَمَنِ المصنوع ، لا بثَمَن الصانع ، ولا نُطِيقُ أن يُحْكَم فيما يَصْنَع من غير أن يقابَل بينه وبين ما يصنع أصلحُ العاملين ، ولْيُقَوَّمْ عملُه بالعمل نفسه ، لا بكونه صادراً عنه ، وقُولُوا عما هو مصنوعٌ جيداً : « هذا مصنوعٌ جيداً » ، ولكنْ لا تضيفوا إلى هذا قولَكم : « مَنْ صَنَع هذا ؟ » ، وإذا قال من تلقاء نفسه مفاخِراً مُعْجَبًا بذاته : « إنى أنا

الذى صَنَعه » فقولوا له بفتورٍ : « هو حَسَنُ الصُّنع ، ولا يهمُّنى أن تكون أنت قد صنعتَه أو غيرُك » .

ويا أيتها الأمُّ الصالحة احْذَرِى ما يُعدُّ لك من الأكاذيب على الخصوص ، وإذا كان ابنُكِ يَعلَمُ أشياءَ كثيرةً فكونِى فى رَيْبٍ من كلِّ ما يَعلَم ، وإذا كان من التَّعَسِ ما يُنشَّأُ معه بباريسَ وكان غنيًّا هَلَكَ ، وستكون لديه جميعُ قرائحِ المتفننين الماهرين ما وُجِد فيها ، وهو يَعُودُ غيرَ حائزٍ شيئاً منها عند ابتعاده عنهم ، والغنىُّ فى باريسَ يَعرِف كلَّ شىء ، ولا يُوجَد جاهلٌ غيرُ الفقير ، وهذه العاصمةُ زاخرةٌ بالهُوَاة ، ولا سيما الهاوياتُ اللائى يَقُمْنَ بأشغالهنّ كما يَختَرِعُ مسيو غِيُّومُ ألوانَه ، وأعْرِف لهذا استثناءاتٍ ثلاثةً مُكَرَّمةً بين الرجال ، وقد تَزِيدُ على هذا ، ولكننى لا أعْرِفُ أىَّ استثناء بين النساء ، وأشكُّ فى وجود شىء من هذا ، وعلى العموم يُكتَسَبُ اسمٌ فى الفنون كما فى الحُلَّة فيَغدُو الواحدُ متفنناً أو حَكَماً بين المتفننين كما يَغدُو دكتوراً فى الحقوق وقاضياً .

ولِذَا فإنه إذا ثَبَتَ ، ذاتَ مرةٍ ، أن من الجميل معرفةَ حِرْفةٍ فإن أولادكم لم يَلبَثُوا أن يَعرِفُوها من غير أن يتعلَّمُوها ، فيَظْهَرُوا مثلَ مستشارى زُوريخَ ، ولا شىء من هذا العُرْف والظاهرِ لإميلَ الذى يَحظَى بالحقيقة دائماً ، ولا تقُولوا ما يَعرِفُ ، ولكنْ دَعُوه يَتعلَّم صامتًا ، ودَعُوه يَصْنَع روائعَ دائماً على ألَّا يُدْعَى معلِّماً ، ولا تدَعُوه يَظهَر بلَقَبه ، بل بفعله ، عاملًا .

وإذا كنتُ قد صنعتُ حتى الآن ما أفقَهُ به فإن من الواجب أن يُدرِك كيف أُلقِى ، بعادةِ تمرينِ البدنِ وعَمَلِ الأيدى ، ذَوْقَ التأمل

والتفكير فى تلميذى إلقاء غيرَ محسوس ، وذلك لأُوازِن بين كَسَلِهِ الناشئ عن عدم اكتراثه لآراء الرجالِ ، وسكونِ أهوانه ، فيجب أن يَعْمَل مِثْلَ فَلَّاحٍ وأن يُفكِّرَ مِثْلَ فيلسوفٍ لكيلا يكونَ مُتَوَانياً توانىَ الهَمَجِىّ ، ويقوم سِرُّ التربيةِ الأعظمُ على جعل تمرينات البدن وتمرينات الذهن خادمةً دائماً مِثْلَ تَرَاخٍ من أحدهما نحو الآخر .

ولكنْ حَذَارِ أن تُعَجِّلوا المعارفَ التى تقتضى ذهناً أكثرَ نَضْجاً ، ولا يبقى إميلُ عاملًا زمناً طويلًا من غير أن يَشْعُر من تلقاء نفسه بتفاوت الأحوال الذى لم يلاحِظْه فى البُداءة ، وهو يُرِيد أن يَدْرُسَنى بدَوْرِى مستنداً إلى المبادئ التى أعطيته إياها والتى هى فى متناوله ، وهو إذ يَتَلَقَّى كلَّ شىء منى وحدى ، وهو إذْ يرى نفسه قريباً جِدًّا من حال الفقراء ، يريد أن يَعْرِف سبب بُعْدِى منها كثيراً ، وقد يَطْرَح علىَّ مِثْلَ الأسئلة الخطرة الآتية بغتةً ، وهى : « أنت غنىٌّ ، وقد قلتَ لى هذا ، وهذا الذى أرَى ، والغنىُّ مَدِينٌ بعمله للمجتمع أيضاً ما دام رجلًا ، ولكنْ ما تَصْنَعُ فى سبيل المجتمع إذَنْ ؟ » ، وما يَقُول عن هذا معلِّمٌ فاضلٌ ؟ أجهل ذلك ، وقد يكون من الغباوة ما يُحَدِّث معه الولدَ عن الجهود التى يَبْذُلها من أجْلِه ، وأما أنا فإن المَصْنَع يَنْتَشِلُنى من المُعْضِلة ، فأقول : « هذا سؤالٌ جميلٌ يا إميلُ العزيز ، وأَعِدُك بالجواب عن نفسى إذا ما استطعتَ الجوابَ عن نفسك بما أنت راضٍ عنه ، وريْثَما يَقَعُ ذلك سأعنى بأن أُعطِيَك وأُعطىَ الفقراء ما يَفِيضُ منى ، وبأن أصنع مائدةً أو مَقْعَداً فى كلِّ أسبوعٍ لكيلا أكونَ غيرَ نافعٍ تماماً » .

وها نحن أولاء نعود إلى أنفسنا ، وهاهو ذا ولدُكم أوْشَك ألَّا يَكُونَ ولداً داخلًا نَفْسَه ، وهاهو ذا يَشْعُرُ أكثرَ مما فى أىٍّ وقتٍ بالضرورة التى ترْبِطُه بالأشياء ، وقد مَرَّنَّا ذهنَه وتمييزَه بعد أن بدأنا بتمرين بَدَنه وحواسِّه ، وأخيرًا جَمَعْنا بين عادة أعضائه ومداركه جاعلين منه موجوداً عاملًا ومُفكِّرًا ، وعادَ لا يَبْقَى علينا لإكمال الإنسان غيرُ تكوين موجودٍ مُحِبٍّ حَسَّاس ، أى إتمامِ العقلِ بالإحساس ، ولكنْ دَعْنَا ، قبل الدخول فى نظام الأمور الجديد هذا ، نُلْقِ نَظْرةً على النظام الذى نَخْرُج منه لِنَرَى ، على أتمِّ ما يُمكن ، ما بَلَغْناه من حَدٍّ .

ولم يكن لدى تلميذنا غيرُ إحساساتٍ فى بدء الأمر ، فصارت لديه أفكارٌ ، ولم يكُ قادرًا على غير الإحساس ، فصار الآن يَحْكُم ، وذلك لأنه ينشأ عن المقابلة بين كثيرٍ من الإحساسات المتعاقبة ، أو التى تَقَعُ معًا ، وما يَدُور حَوْلَها من رأيٍ ضَرْبٌ من الإحساس المختلط أو المركب الذى أسميه فكراً .

والوجهُ الذى تُكَوَّن به الأفكارُ هو الذى يُنْعِمُ على الذهن البشرىِّ بطابع ، والذهنُ الذى لا يُكَوِّنُ أفكارَه إلَّا وَفْقَ العلائق الحقيقية هو ذهنٌ متين ، والذهنُ الذى يكتفى بالعلائق الظاهرة هو ذهنٌ سطحىٌّ ، والذهنُ الذى يرى العلائقَ كما هى هو ذهنٌ سديد ، والذهنُ الذى يسىء تقديرَ العلائق هو ذهنٌ فاسد ، والذهنُ الذى يَخْتَلِق علائقَ خياليةً لا تمتُّ إلى الحقيقة ولا إلى الظاهر بصلةٍ هو ذهنٌ أحمقُ ، والذهنُ الذى لا يقوم بالمقايسة مطلقاً هو ذهنٌ غبىٌّ ، وما يكون من استعدادٍ كبير أو

صغير للمقابلة بين الأفكار ولاكتشاف العلائق هو الذى يَجْعَل الذهنَ كبيراً أو صغيراً فى الناس ، إلخ .

وليست الأفكارُ البسيطة سوى إحساساتٍ مقابَلٍ بينها ، ويوجد فى الإحساسات البسيطة وفى الإحساسات المركبة من الأحكام ما أُسميه أفكاراً بسيطة ، والحكمُ فى الإحساس منفعلٌ مَحْضًا ، وهو يُؤَكِّد أنه يُشْعَرُ بما يشْعَرُ به ، والحكمُ فى الإدراك أو الفكر فاعلٌ ، وهو يُوَفِّقُ ، ويقابل ويُعَيِّنُ ، ما بين العلائق التى لا يُحَدِّدها الحِسُّ ، وهذا هو كلُّ الفَرْق ، ولكنه فرقٌ كبير ، ولا تَخْدَعنا الطبيعة مطلقاً ، ونحن الذين يُخادعون أنفسَهم دائماً .

ومما رأيتُ تقديمُ جُبْنَةٍ مُجَمَّدَة إلى ولدٍ فى الثامنة من سِنِيه ، ويَحْمِلُ المِلْعقةَ إلى فمه من غير أن يَعرِف ما هذا ، ويَصْرُخ قائلًا : « آه ! إن هذا يُحْرِقنى ! » ، ويُبْتَلَى بإحساسٍ شديد ، وحَرُّ النار هو أشدُّ ما يَعرِف ، ويَظُنُّ ذاك من هـذا ، ومع ذلك فإنه ينخدع ، فالبردُ الشديد يَقْرُصه ، ولكنه لا يُحْرِقه ، وليس هذان الإحساسان متشابهيْن ، ما دام الذين يُبْتَلَوْن بهما لا يَخْلِطُون بينهما مطلقاً ، وليس الإحساسُ ، إذَنْ ، هو الذى يَخْدَعُه بل الحُكْمُ الذى يَحْمِلُ عنه .

ومِثْلُ هذا حالُ الذى يَرَى لأول مرةٍ مرآةً أو آلةً بَصَرية ، أو الذى يَدْخُل قَبْواً عميقاً فى وَسَط الشتاء أو الصيف ، أو الذى يَغْمِسُ يدَه الحارةَ جِدًّا أو الباردةَ جِدًّا فى الماء الفاتر ، أو الذى يُدَحْرِج كُرَةً صغيرة بين إصبعين معقوفتين ، وإذا ما اكتفى بالقول عما يَشْعُر به أو يُحِسُّه فإن حكمه إذْ يكون

منفعلاً صِرْفاً كان من المتعذّر أن يُخْدَع ، ولكنه إذا ما حَكَم فى الأشياء على حَسَب الظاهر كان حكمه فاعلاً فيَقِيسُ ، ويُقِيمُ بالاستقراء علائقَ لا يَشْعُر بها ، وهنالك يُخْدَع أو يُمْكِن أن يُخْدَع ، ولا بُدَّ له من التجربة حتى يُصَحِّحَ الخطأ أو يَحُولَ دون وقوعه .

وأرُوا تلميذَكم فى الليل سُحُباً تَمُرُّ بينه و بين القمر ، تَرَوْه يعتقد أن القمر هو الذى يَمُرُّ إلى جهةٍ معاكسة وأن السُّحُبَ واقفةٌ ، ويقوم اعتقادُه هذا على استقراءٍ خاطفٍ لِماَ يَرَى عادةً من حركة الأشياء الصغيرة وسكونِ الأشياء الكبيرة ولِماَ تَبْدُو السُّحُب له أعظمَ من القمر الذى لا يستطيع تقديرَ بُعْدِه ، وهو إذا ما كان فى مَرْكبٍ يَشُقُّ الماء ونَظَر إلى الساحل من بُعْدٍ قليل وقَعَ فى الخطإ المعاكس ، واعتقدَ أن الأرضَ تَجْرِى ، وذلك بما أنه لا يُحِسُّ حركتَه فإنه يَعُدُّ المركبَ والبحرَ أو النهرَ وجميعَ أُفُقه كُلاًّ غيرَ متحرك ، ولا يَلُوحُ له الشاطئُ الذى يُبْصِرُ جَرْيَه غيرَ جزء من ذلك .

وإذا ما رأى الولدُ للمرة الأولى عصاً مغموراً نصفُها فى الماء أبصرَ عصاً مكسورةً ، والحِسُّ صحيحٌ ، وهو لا ينفكُّ يكون صحيحاً ولو لم نَعْرِف السبب ، وإذا ما سألتموه ، إذَنْ ، عما يرى قال : « عصاً مكسورة » ، وهو يقول الصحيح ، وذلك ليقينه بأن لديه إحساساً عن عصاً مكسورة ، ولكنه إذا ما ذهب إلى ما هو أبعدُ من ذلك ، مخدوعاً فى حكمه ، فوَكَّدَ أنه يَرَى عصاً مكسورةً ، ثُمَّ وَكَّدَ أن ما يَرَى هو عصًا مكسورةٌ بالحقيقة ، فإن قولَه هذا يكون حينئذٍ فاسداً ، ولِمَ هذا ؟ ذلك لأنه يَصِيرُ إذ ذاك

فاعلاً ، ولأنه عاد لا يَحْكُم عن ملاحظةٍ ، بل عن استقراء ، وذلك بتوكيده ما لا يُحِسُّ ، أى إن الحكم الذى يتلقاه بحِسٍّ يؤيِّدُ بحِسٍّ آخر .

وبما أن أحكامنا مصدرُ كلِّ خطأٍ فينا فإن من الواضح أننا إذا لم نكن محتاجين إلى الحُكْم لم يكن فينا احتياجٌ إلى التعلُّم ولم نَقَع قَطُّ فى حالٍ نُخْدَع فيها ، وبَدَوْنا بجهالتنا أكثرَ سعادةً مما نستطيع أن نكونَه بمعرفتنا ، ومن ذا الذى يُنكِرُ أن العلماء يَعْلَمُون ألفَ شىء صحيح لا يَعْرِفُه الجاهلون مطلقًا ؟ وهل العلماء أقربُ إلى الحقيقة لهذا السبب ؟ وعلى العكس تمامًا يبتعد العلماء عنها كلما تَقَدَّموا ، وذلك لأن زَهْوَ الحُكْم إذْ يتقدَّم أكثرَ من تقدم المعارف عندهم لا تأتى كلُّ حقيقةٍ يتعلمونها إلاَّ مع مئة حُكْمٍ فاسد ، وكلٌّ يَعْلَمُ أن الجمعياتِ العلميةَ فى أوربة ليست سوى مدارسَ عامةٍ للأكاذيب ، ولا رَيْبَ فى أن مَجْمَع العلوم ينطوى على خطأٍ أكثرَ مما ينطوى عليه قَوْمُ الهُورُون* بأسْرِهم .

وبما أن الرجال كلما عَرَفوا خُدِعُوا فإن الجهل هو الوسيلةُ الوحيدة لاجتناب الخطأ ، وإذا لم تَحْكُموا مطلقًا لم تَنْخَدِعوا مطلقًا ، وهذا هو درسُ الطبيعة كما هو درسُ العقل ، وإذا عَدَوْتَ ما للأشياء مَعَنا من علائقَ مباشِرةٍ قليلةٍ جِدًّا محسوسةٍ جِدًّا لم يُسَاوِرْنا غيرُ عدم اكتراثٍ عميقٍ نحو البقية بحكم الطبيعة ، وما كان الهمجىُّ ليُدِيرَ رِجْلَه حتى يشاهدَ أروعَ الآلات وجميعَ عجائب الكهربا ، وكلمةُ « ما يهمُّنى ؟ » هى أكثرُ ما يألفُ الجاهلُ وأكثرُ ما يلائم الحكيمَ .

---

* أهل أمريكة الشمالية الأصليون .

بَيْدَ أن من المؤسف أن عادَتْ هذه الكلمةُ لا تُوَاتِينا ، فكلُّ شىء يهمنا ما اتَّبَعْنا كلَّ شىء ، ويَمْتَدُّ فُضُولنا مع احتياجاتنا بحكم الضرورة ، وهذا هو السبب فى عَزْوِى كبيرَ فُضُولٍ إلى الفيلسوف وعدمِ عَزْوِى أىَّ فُضُولٍ إلى الهمجىِّ ، وذلك أن هذا لا يحتاج إلى أحد ، وأن ذاك يحتاج إلى جميعِ الناس ، ولا سيما المُعْجَبُون .

وسَيُقَال لى إننى أخْرُج عن الطبيعة ، ولا أعتقد ذلك ، فالطبيعةُ تختار وسائلَها وتنظِّمُها وَفقَ الحاجة ، لا وَفقَ الرأى ، والواقعُ أن الاحتياجاتِ تختلف باختلاف حال الناس ، وأنه يُوجَدُ اختلافٌ كبيرٌ بين الإنسان الطبيعىِّ الذى يعيش فى حال الطبيعة والإنسان الطبيعى الذى يعيش فى حال المجتمع ، وليس إميلُ همجيًّا يُقْصَى إلى الصَّحارَى ، بل همجىٌّ جُعِل ليقيم بالمدن ، ويجب أن يَعْرِف كيف يَجِدُ فى المُدُن ما يحتاج إليه وأن ينتفع بسكانها وأن يعيش معهم على الأقلِّ وإن لم يكن مثلَهم .

ولا بُدَّ له من الحكم على الرغم منه ما كان فى سواء كثيرٍ من العلائق الجديدة ، فلْنُعَلِّمْه كيف يُحْسِنُ الحُكْمَ إذَنْ .

وأحسنُ أسلوب لتعلُّم حُسْن الحُكْم هو ما يُفْضِى إلى تبسيط تجارِبنا أكثرَ من سواه ، والذى يغنينا حتى عن هذه التجارِب من غير وقوعٍ فى الخطأ ، ومن ثَمَّ نقول إنه يجب ، بعد تحقيقِ ما بين الحواسِّ من علائقَ فى زمنٍ طويل ، أن يُتَعَلَّمَ أيضاً تحقيقُ علائقِ كلِّ حاسةٍ بنفسها ، ومن غير احتياجٍ إلى الاستعانة بحاسَّةٍ أخرى ، وهنالك يَغْدُو كلُّ إحساسٍ فكراً لدينا ، ويَكُون هذا الفكرُ مطابقاً للحقيقة دائماً ، وهذا هو نوعُ

المعرفة الذى حاولتُ جمعَه فى هذا الدور الثالث من حياة الإنسان .

ويتطلب هذا الأسلوبُ فى السَّيْر صبراً وحَذَراً لا تجدُها فى غير قليل من المعلمين ، ولا يَتَعَلَّمُ التلميذُ الحُكْمَ بغيرها مطلقاً ، ومن ذلك أن التلميذ إذا ما خُدِعَ بظاهر العصا المكسورة بادرتُمْ ، لإطلاعه على خطئه ، إلى سَحْبِ العصا خارجَ الماء ، فتُزِيلُون ضلالَه على ما يحتمل ، ولكنْ ما تُعَلِّمُونه ؟ لا شىء غيرَ ما يتعلَّمُه بنفسه من فَوْره ، وَىْ ! ليس هذا ما يَجِبُ أن يُصْنَع ! وأقلُّ من هذا اعتباراً أن تُعَلِّمُوه حقيقةً بدلاً من أن تُطْلِعُوه على ما يجب أن يَتَّخِذَ لاكتشاف الحقيقة دائماً ، ولا ينبغى أن يُزَال ضلالُه حالاً لحُسْن تعليمه ، ولأتَّخِذْ نفسى مع إمِيلَ مَثَلاً .

وأولُ ما فى الأمر هو أن الولد الذى يُرَبَّى على الطريقة المعتادة لا يُعْوِزه أن يَكُون إيجابيًّا جوابُه عن ثانى السؤالين المُفْتَرَضيْن ، فيقول لا رَيْبَ : « إن هذه عَصاً مكسورةٌ » ، وأَشُكُّ كثيراً فى أن يأتِيَ إميلُ عينَ الجواب ، وإميلُ لا يبادر إلى الحُكْم مطلقاً لِمَا لا يُبْصِرُ من ضرورةِ كونِه عالماً أو ظهورِه بمظهر العالِم أبداً ، وإميلُ لا يَحْكُم فى غير الجَلِيِّ ، وإميلُ كثيرُ البعد من أن يَرَى ذلك جليًّا فى تلك الدقيقة ، وهو العارف بمقدار ما تكون عُرْضَةً له من وهمٍ أحكامُنا وَفقَ الظواهر ، إذا كان هذا فى حقل المناظر .

ثم بما أنه يَعْرِف ، عن تَجْرِبةٍ ، أن أكثر أسئلتى تَفِهاً يَنْطَوى ، دائماً ، على أمرٍ لا يُبْصِرُه فى البُداءة فإنه لم يتعوَّدْ ، قَطُّ ، أن يأتىَ جواباً طائشاً ، وهو ، على العكس ، يَحْذَر منه وينتبه إليه ويَفْحَصُه بعناية فائقة

قبل أن يجيب عنه ، وما كان ليأتيَ جواباً لا يَرْضى عنه بنفسه ، وهو الذى لا يَرْضَى إلا بصعوبة ، ثم إن كلانا لا يَفْتَخِر بمعرفة حقيقة الأمور ، بل باجتناب الخطأِ ، وترانا نَخْجَلُ من إبدائنا سبباً غيرَ صالح أكثرَ من خَجَلِنا عند عدم اكتشافنا هذا السببَ على الإطلاق ، وكلمةُ « لا أعْرِفُ » تلائمنا كثيراً ، ونحن نَبْلُغ من تكرارها كثيراً ما لا نَجِدُ معه أنها تُكَلِّفُ أيًّا منا شيئاً ، ولكنْ سواء أأفْلَت ذاك الطَّيْشُ منه أم اجتنبه بكلمة « لا أعْرِف » الملائمة لنا كان جوابى واحداً ، وهو : « لِنَنْظُر ، لِنَدْرُس » .

وهذه العصا المغمورُ نصفُها فى الماء مُثْبَتَةٌ عَمُوديًّا ، وما أكثرَ ما يجب أن نأتِيَ من أفعالٍ ، لِنَعْرِف هل هى مكسورةٌ ، قبل أن نَسْحَبها من الماء أو قبل أن نَمَسَّها !

(١) إن أول ما نَصْنَع هو أننا نَدُورُ حَوْل العصا ونَرَى القسمَ المكسور يَدُور مثلنا ، وعَيْنُنا هى التى تُغَيِّرُه إذَنْ ، وما كانت النَّظَرَاتُ لِتُحَرِّكَ الأجسام .

(٢) ثم نَنْظُرُ عَمُوديًّا فوق طرف العصا الواقع خارجَ الماء ، وهنالك تَعُود العصا غيرَ مُعْوَجَّة ، ويُخْفِي طرفُ العصا القريبُ من عيننا طرفها الآخرَ بإحكامٍ[1] ، فهل قَوَّمت عَيْنُنا العصا ؟

(٣) ونحرِّك سطحَ الماء ، ونَرَى العصا تَنْثَنِي فى قطعٍ كثيرة ، وتتحرك مُعْوَجَّةً وتَتْبَعُ تَمَوُّجاتِ الماء ، وهل تَكْفِي الحركةُ التى نُوجِبُها

---

(١) وجدت العكس بعد ذلك ، وذلك بتجربة أكثر صحة ، فالانكسار يعمل دائرياً ، وتبدو العصا أضخم بالطرف الذى فى الماء مما بالطرف الآخر ، غير أن هذا لا يغير شيئاً من قوة الدليل ، وليست النتيجة أقل صواباً .

فى هذا الماء لكَسْر العصا وإلانتها وصَهْرِها على ذلك الوجه ؟

(٤) ونُسِيلُ الماء ونَرَى العصا تستقيم مقداراً فمقداراً ، وذلك كلما نَقَص الماء ، أوَليس هذا يُوفِى على الغاية لتنوير الواقع وكَشْفِ الانكسار؟ وليس من الصحيح ، إذَنْ ، أن النظر يَخْدَعنا ما دُمْنَا نحتاج إليه وحدَه فى إصلاح الخطأ الذى نَعْزُوه إليه .

وإذا ما افترضنا الولدَ من الغباوة ما لا يَشْعُر معه بنتيجة هذه التجارِب فإنه يجب أن تُسْتَدْعى اللامسةُ لمساعدة الباصرة هنالك ، ودَعُوا العصا على حالها بَدَلاً من سَحْبِها خارجَ الماء ، واجْعَلُوا الولدَ يُمِرُّ يدَه عليها بين طَرَفيها ، فهو لن يُحِسَّ زاويةً ، وليست العصا مكسورةً إذَنْ .

وستقولون لى إنه لا يوجد هنا أحكامٌ فقط ، بل برهنةٌ شكلية ، وهذا حَقٌّ ، ولكن ألا تَرَوْن أن الذهن إذا ما بَلَغَ مرحلةَ الأفكار لم يَلْبَثْ كلُّ حكمٍ أن يَكُون برهنةً ؟ إن الشعور بكلِّ إحساس هو قضيةٌ ، هو حكمٌ ، ولِذَا فإنه إذا ما قُوبِلَ بين إحساسٍ وآخرَ فإنه يُبَرْهَنُ حالاً ، ففنُّ الحُكْم وفنُّ البرهنة هما هما تماماً .

ولن يتعلَّم إميلُ علمَ انكسارَ النور مطلقًا ، أو إننى أريد أن يتعلمَه حَوْل هذه العصا ، وهو لن يُشَرِّح الحَشَرات مطلقًا ، وهو لن يَعُدَّ أكلافَ الشمس مطلقًا ، وهو لن يَعْرِف ما المُجْهِر ولا المِرْقَب ، وسَيَسْخَرُ تلاميذُكم العلماء من جهله ، وهم ليسوا على غير حَقٍّ فى هذا ، وذلك لأننى أريد أن يَخْتَرِع الآلاتِ قبل أن يستخدمها ، وأنتم فى شكٍّ من كَوْنِ هذا يتمُّ سريعًا .

ذلك هو روحُ منهاجى فى هذا القسم ، وإذاما أدار الولدُ كُرَةً صغيرةً بين إصبعين معقوفتين واعتقدَ أنه يَشْعُرُ بكرتين لم أسمحْ له بأن يَنْظُرَ إلى ذلك قبل أن يَقْنَع بأنه لا يُوجَدُ غيرُ كُرَةٍ هنالك .

وأرى أن هذا الإيضاح يَكْفِى لإظهار ما اتَّفَقَ لذهن الولد من تَقَدُّم إظهاراً جليًّا وللدلالة على الطريق التى سُلِكَتْ وصولًا إلى ذلك التقدم ، ولكنَّ من المحتمل أن تكونوا قد ذُعِرْتم من مقدار الأشياء التى عَرَضتها عليه ، وأنتم تَخْشَوْن أن أُرْهِقَ ذهنَه بهذه المعارف الزاخرة ، والعكسُ هو الواقع ، فأنا أعلِّمه أنْ يَجْهَلها أكثرَ من أن يَعْرِفها ، وأنا أدُله على طريق العلم السهلةِ حقًّا ، ولكنْ مع طولٍ بالغ وبُطْء فى السَّيْر ، وأنا أَحْمِلَه على الخُطُواتِ الأولى حتى يَعْرِفَ الدخول ، ولكن لا أسمحُ له بالذهاب بعيداً على الإطلاق .

وهو ، إذْ يُلْزَم بالتعلُّم لنفسه ، يستعملُ عقلَه ، لا عقلَ الآخرين ، وذلك لأنه لا ينبغى إعطاء السلطان شيئًا لكيلا يُعْطَى العُرْفُ شيئاً ، ويأتينا مُعْظَم الأضاليل من الآخرين أكثرَ من صدوره عن أنفسنا ، ويجب أن ينشأ عن هذا التمرين المستمرِّ قوةٌ فى الذهن مشابهةٌ لما يُعْطَاه البدنُ بالعمل والتَّعَب ، وتكُون الفائدةُ الأخرى فى التقدم على نسبة القُوَى ، فلا يَحْمِلُ الذهن والبدن غيرَ ما يَقْدِران على حَمْله ، ومتى حاز الإدراكُ أموراً قبل خَزْنها فى الذاكرة فإن ما يأخذه منها فيما بعد يكون مالَه ، وذلك بدلًا من أن يُعرِّض لأخذ ما ليس له من الذاكرة بإرهاقها على غير علمٍ منه .

وما لدى إميلَ من معارفَ قليلٌ ، غيرَ أن ما عنده من المعارف هو مالُه حَقًّا ، ولا يَعرِف شيئاً نصفَ معرفةٍ ، وبين الأمور القليلة التى يَعرِف ، ويَعرِفُ جيداً ، ويُعَدُّ أكثرَ ما يَعرِفُ أهميةً ، هو وجودُ أمورٍ كثيرة يَجْهَلُها ويُمْكِنُه أن يَعرِفها ذاتَ يومٍ ، ووجودُ أمورٍ أكثرَ من هذه يَعرِفها أُناسٌ آخرون ، ولن يَعرِفَها مَدَى حياته ، ووجودُ أمورٍ أُخرى غيرِ محصورةِ العدد لن يَعرِفَها أحدٌ ، وهو حائزٌ لذهنٍ شامل ، لا بالمعارف ، بل بالقدرة على اكتسابها ، حائزٌ لذهن عريضٍ لامعٍ مستعدٍّ لكلِّ شيء ، قابلٍ للتعلُّم إذا لم يكن متعلِّماً كما قال مُونتين ، ويكفينى أن يكون عارفاً بـ « ما الفائدة ؟ » حَوْلَ كلّ ما يَصْنَع و بـ « لماذا ؟ » حَوْل كلِّ ما يعتقد ، وذلك ، كما أقولُ ثانيةً ، أن غَرَضى ليس منحَه علماً ، بل تعليمُه اكتسابَه عند الحاجة ، بل تقديرُ قيمته الحقيقية تماماً ، بل جعلُه يحبُّ الحقيقة أكثرَ من كلِّ شيء ، أَجَلْ ، إن التقدم بهذا المنهاج يكون قليلًا ، ولكنه لا يُؤْتَى من الخُطُوات ما هو غيرُ مفيدٍ ، ولا نكون مُكْرَهين على الرجوع إلى الوراء .

وليس لدى إميلَ غيرُ معارفَ طبيعيةٍ وفِزْيَوِيةٍ صِرْفة ، وهو لا يَعرِف حتى اسمَ التاريخ ، ولا عِلْمَ الأخلاقِ وما بعد الطبيعة ، وهو يَعرِفُ علائقَ الإنسان الجوهريةَ بالأشياء ، ولكنه لا يَعرِف أيةَ علاقةٍ خُلُقية بين إنسانٍ وإنسان ، وهو قليـــلُ المعرفة بتعميم الأفكار وقليلُ إتيانٍ بالمُجَرَّدات ، وهو يَرَى صفاتٍ مشتركةً بين بعض الأجسام من غير أن يُبَرْهِن حَوْلَ هذه الصفات بنفسها ، وهو يَعرِف الاتساعَ المُجَرَّد مستعيناً

بالأشكال الهندسية ، وهو يَعرِف الكَمِّيَّة المجرَّدة مستعيناً بالرموز الجَبْرية ، وهذه الأشكالُ والرموزُ هى أركانُ هذه المُجَرَّداتِ التى تَرْكَنُ إليها حواسُّه ، وهو لا يحاوِل معرفةَ الأشياء بطبيعتها مطلقاً ، ولكنه يحاولها بالعلائق التى تهمُّه فقط ، وهو لا يُقدِّر ما هو غريبٌ عنه بغير علاقته معه ، ولكن هذا التقديرَ صحيحٌ مُحْكَم ، ولا دَخْل للهوى والمُبْتَسَرِ فيه ؛ وهو أكثرُ ما يُقَدِّرُ الأشياء الأعظمَ فائدةً له ، وهو إذْ لا يَعْدِل عن هذا الطريق فى التقدير فإنه لا يلتفت إلى المُبْتَسَر مطلقاً .

وإميلُ مُجِدٌّ قَنُوعٌ صبور رصينٌ مملوءٌ شجاعةً ، وما كان خيالُه ، غيرُ المشتعل قطعاً ، ليُجَسِّم له الأخطارَ مطلقاً ، وهو يتأثَّرُ بأمراضٍ قليلةٍ عارفاً كيف يَصْبِرُ عليها بثبات ، وذلك لأنه لم يَتَعَلَّمْ قَطُّ أن يناهض القَدَر ، وهو لا يَعْرِف جيداً ما الموتُ أيضاً ، ولكنْ بما أنه تَعَوَّد معاناةَ سُنَّة الضرورة بلا مقاومةٍ فإنه يَمُوت ، عند وجوب الموت ، بلا أنينٍ ولا انتفاض ، وهذا كلُّ ما تَسْمَح به الطبيعة فى تلك الساعة الكريهة لدى الجميع ، وتُعَدُّ الحياةُ الحُرَّةُ وقلةُ الاكتراث لأمور البشر أفضلَ طريقةٍ لتَعَلُّم الموت .

والخلاصةُ أن إميلَ له من الفضيلة كلُّ ما يتعلَّق بشخصه ، وهو ، لكى يَحُوز الفضائلَ الاجتماعية أيضاً ، لا يُعْوِزُه غيرُ معرفة العلاقات التى تقتضيها ، ولا يُعوِزُه غيرُ المعارف التى تَرَى ذهنَه مستعدًّا كلَّ الاستعداد لتَقَبُّلِها .

وهو يَنظُر إلى نفسه غيرَ ملتفتٍ إلى الآخرين ، وهو يَجِدُ من الحَسَن ألاَّ يُفَكِّرَ الآخرون فيه مطلقاً ، وهو لا يَطْلُب شيئًا من أحد ، ولا يَرَى

أنه مَدِينٌ بشيء لأحد ، وهو وحيدٌ فى المجتمع البشرىّ ، ولا يعتمد على غير نفسه ، ويَحِقُّ له أن يعتمد على نفسه أكثرَ من سواه ، وذلك لأنه كلُّ ما يُمْكِنُ الإنسانَ أن يكونه فى مِثْلِ سِنِّه ، وهو خالٍ من الأضاليل ، أو إنه ليس لديه من هذه غيرُ ما لا مَفَرَّ منه ، وهو خالٍ من العيوب ، أو إنه ليس لديه من هذه غيرُ ما لا يستطيعُ إنسانٌ أن يَتَّقِيَه ، وهو ذو جسمٍ سليم وأعضاه رشيقة وذهنٍ صحيحٍ خالٍ من المُبْتَسَرات وقلبٍ طليقٍ خالٍ من الأهواء ، ولم يَكَدِ العُجْبُ ، الذى هو أول الأهواء وأقربُها إلى الجِبِلَّة ، يُساوِرُ فؤادَه بَعْدُ ، وهو ، من غير أن يُقْلِقَ راحةَ أحدٍ ، قد عاش راضيًا سعيداً حُرًّا بمقدار ما تأذن فيه الطبيعة ، أَوَ تجِدُون الولدَ الذى بَلَغَ الخامسةَ عشرةَ من سِنِيه على هذا الوضع قد أضاع سِنِيه السابقة ؟

الجزء الرابع

يا للسُّرْعة التى تَمُرُّ بها فوق هذه الأرض ! وقد انقضى الربعُ الأول من الحياة قبل أن يُعْرَفَ كيف يُسْتفادُ منها ، وينقضى الربعُ الأخير أيضاً بعد أن ينقطع الاستمتاع بها ، وأولُ مافى الأمر هو أننا لا نَعْرِف أن نعيش مطلقاً ، ولَسُرْعَانَ ما نَعُودُ غيرَ قادرين على ذلك ، ونحن نقضى ثلاثةَ أرباعِ الوقت الباقيةَ لنا فى النوم والعمل والألم والقَسْر والمتاعب من كلِّ نوع ، والحياةُ قصيرةٌ ، وهى ليست قصيرةً بالوقت القليل الذى تدوم فيه ، بل لِماَ لا يكاد يوجد لنا فيه من بُرَهٍ نتمتع بها ، ومن العبث أن يُذْهَبَ إلى بُعْدِ ما بين ساعة الموت وساعة الميلاد ، فالحياةُ تكون بالغةَ القِصر إذا لم يُحْسَن قضاء هذه الفاصلة .

ونقول إننا نُولَد مرتين ، الأولى لنَكُون ، والأخرى لنَحْيَا ، والأولى للنوع والأخرى للجنس ، ولاريبَ فى أن الذين يَعُدُّون المرأةَ إنساناً ناقصاً ليسوا على صواب ، ولكنْ لهم أن يَنْظُرُوا إلى المماثلة الخارجية ، ولا يُوجَدُ فى الأولاد من الجنسين حتى سِنِّ البلوغ من الظاهر ما يَميزُ بعضَهم من بعض فلهم عينُ المُحَيَّا وعينُ الوجه وعَينُ اللون وعينُ الصوت ، وكلُّ شيء فيهم متساوٍ ، والبناتُ من الأولاد والصِّبيانُ من الأولاد ، ويَكْفِى ذاتُ الاسم لأناسٍ متشابهين بهذا المقدار ، ويحافظ الذكور ، الذين وُقِفَ نُمُوُّهم الجنسىُّ ، على هذه المشابهة ماداموا أحياء ،

فهم يكونون أولاداً جِسَاماً دائماً ، ولا يَظْهر الإناث ، اللائى لا يَفقِدْن هذه المشابهة مطلقاً ، شيئاً آخر من عِدَّة وجوه .

بَيْدَ أن الإنسان ، على العموم ، لم يُخْلَقْ لِيَبْقَى فى الوَلُودية دائماً ، فهو يَخْرُج منها فى الوقت الذى عَيَّنته الطبيعة ، ولِدَوْر البُحْرَان هذا تأثيرٌ طويل على قِصَرِه .

ويشابه هذا الانقلابُ العاصفُ هديرَ البحر ، الذى يَسْبِقُ الزَّوْبعةَ من بعيد ، فيُنْبِئُ عن نفسه بهَمْهَمَةِ الأهواء الناشئة ، ويُخْبِرُ الاضطرابُ الأصمُّ بدُنُوِّ الخطر ، وما يكون من تغييرٍ فى المزاج ومن كثرةِ الاحتداد ومن هَيَاجٍ دائمٍ فى النفس يَجْعَلُ الولدَ غيرَ قابلٍ للانقياد تقريباً ، وهو يُصْبِح من الصُّمِّ تجاه الصوت الذى يَجْعَلُه طائعاً ، وهو يكون أسداً مصاباً بالحُمَّى ، وهو يُنْكِر مُرْشِدَه ، ويَعُودُ راغباً عن أن يُقَاد .

وتُضَافُ تغييراتٌ محسوسةٌ فى الوجه إلى علائمَ خُلُقيةٍ فى مزاجٍ يَفسُد ، وتَنْمو سيماه ، وتُوسَمُ بطابعٍ ، ويَسْمَرُّ القُطْنُ الحُلْو القليلُ الذى يَنْبُتُ فى أسفل خديْه ويَصْلُب ، ويتغيَّر صوتُه ، أو يَفقِدُ رونقَه ، ولا يكون ولداً ولا رجلاً ، ولا يُمْكن أن يتكلمَ مثلَ أحدهما ، وتَجِدُ عيناه ، ويَجِدُ عضوا الروح هـذان اللذان لم يقولا شيئاً حتى الآن ، لغةً وتعبيراً ، وتُلْهِبُهما نارٌ ناشئة وتَبْقى لنظَراتِهما ، التى تَصِيرُ أكثرَ التماعاً ، قُدْسِيَّةُ السذاجة ، ولكن مع عدم المحافظة على بلادتهما الأولى ، وكان قد شَعَر بأنه يُمْكِنُهما أن يقولا الشيء الكثير ، وهو يَبْدَأ بمعرفة غَضِّهما والاحمرارِ خَجَلاً ، وهو يُصْبِح حَسَّاساً قبلَ أن

يَعرِفُ ما يُحِسُّ ، وهو يكون مضطربَ البال من غير أن يَعلَمَ السبب ، ويُمكِنُ أن يَحدُث هذا رُوَيداً رُوَيْدًا تاركاً لكم وقتاً أيضاً ، ولكنْ إذا تَحوَّل هَيَجانُه إلى عدمِ صبرٍ بالغ ، وإذا انقلبت حُمَيَّاه إلى صَوْلة ، وإذا ما غَضِب ولان بين دقيقةٍ ودقيقةٍ ، وإذا ما سَكَبَ دموعاً بلا داعٍ ، وإذا ما ارتفع نَبْضُه والتهبت عينه بالقرب من أشياء تُصْبِحُ عاملَ خَطَرٍ له ، وإذا ما أخذ يرتعش من وَضْعِ امرأةٍ يدَها على يده ، وإذا ما اضطرب أو ارْتَعب بالقرب منها ، فيا أوليسُ ، يا أُوليسُ الحكيم ، احترزْ ، فقد فُتِحَت المنافذُ التي أغلقتَها بجُهْدٍ كبير ، وقد ثارت الرياح ، ولا تَترُكِ السُّكّانَ* دقيقةً ، وإلَّا هَلَكَ كلُّ شيء .

وهنا الوِلادةُ الثانية التي تكلمتُ عنها ، وهنا يُولَدُ الإنسانُ للحياة حَقًّا ، وهنا لا يكون غريباً عنه أيُّ أمرٍ بشريّ ، ولم تَكُنْ جهودُنا حتى الآن غيرَ ألعابِ ولدٍ ، وهي لا تكتسب أهميةً حقيقيةً إلَّا الآن ، وهذا الدَّوْرُ الذي تنتهي فيه التربياتُ العادية هو عَيْنُ الدَّوْر الذي يجب أن تَبْدَأَ فيه تربيتنا ، ولكنْ دَعْنا ، لحُسْنِ عَرْض هذا البرنامج الجديد ، أن نَعُود فنتناول مما تقدم حالَ الأمور الخاصة بذلك .

وأهواؤنا هي الوسائلُ الرئيسة لبقائنا ، ولذا فإن من المحاولات الفارغة المضحكة أن يُرادَ القضاء عليها ، وذاك تقييدٌ للطبيعة ، وذاك إصلاحٌ لعمل الرّبِّ ، ولو قال الرّبُّ للإنسان أن يَقْضِيَ على الأهواء التي مَنَحه إياها فإنه يكون مُرِيداً لذلك وغيرَ مُرِيدٍ له ، أي مناقضاً لنفسه ، ولم يَحدُث

---

* السكان من السفينة الدفة .

أن أصدرَ هذا الأمرَ المخالفَ للصواب ، ولم يَكُنْ مثلُ هذا مكتوباً على قلب الإنسان ، وما يُرِيدُ الرَّبُّ أن يصنعه الإنسانُ لا يُبَلِّغُهُ إياه بواسطة إنسانٍ آخر ، بل يقولُه له بنفسه ، وذلك أنه يَكْتُبُهُ فى صميم فؤاده .

والحقُّ أننى أجِدُ الذى يُرِيدُ مَنْعَ حدوث الأهواء يكون مجنوناً تقريباً كالذى يريد مَحْوَها ، ولا رَيْبَ فى أن الذين يعتقدون أن برنامجى كان هكذا حتى الآن يُعَدّون مُسيئين لفهمى .

ولكن هل من حُسْنِ البرهان أن يُسْتَنْتج من الأمر القائل بأن من طبيعة الإنسان أن يكون ذا أهواء كَوْنُ جميعِ ما نُحِسُّ فى أنفسنا وما نَرَى فى غيرنا من الأهواء طبيعياً ؟ أجَلْ ، إن مصدرَها طبيعىٌّ ، غير أنها ضُخِّمَتْ بألفِ جدولٍ غريب ، وهذا نهرٌ عظيمٌ يَزِيدُ بلا انقطاع ، فلا تكاد تُوجَدُ فيه بضعُ قَطَراتٍ من المياه الأولى ، وتُعَدُّ أهواؤنا الطبيعية محدودةً جِدًّا ، وهى وسائلُ لحريتنا ، وهى تَهْدِفُ إلى بقائنا ، وأما جميعُ الأهواء الأخرى التى تَقْهَرُنا وتُهْلِكُنا فتأتينا من مصادرَ أخرى ، ولا تَمْنَحُنَا الطبيعةُ إياها ، بل نَحُوزها إضراراً بها .

وحبُّ النفس هو مَنْبَعُ أهوائنا وأصلُ جميع الأهواء الأخرى ومَبْدَؤها ، وهو الوحيدُ الذى يُولَد مع الإنسان ولا يَتْرُكه ما دام حَيًّا ، وهو الهوى الفطرىُّ الغريزىُّ السابقُ لكلّ ماسِواه والذى تُعَدُّ جميعُ الأهواء الأخرى، من جهةٍ ، تغييراً له ، وتُعَدُّ جميعُ الأهواء الأخرى طبيعيةً من هذه الناحية ، إذا ما أُرِيدَ ذلك ، بَيْدَ أنه يُوجَد لمُعْظَم هذه التغييرات عِلَلٌ خارجية ما كانت هذه الأهواء لتَحْدُثَ مطلقاً لولاها ، وهذه التغييراتُ عَيْنُها ضارَّةٌ بنا بعيدةٌ

من أن تكون نافعةً لنا ، وهى تُغَيِّر أولَ موضوعٍ وتَسِيرُ على خلاف مَبدَئها ، وهنالك يكون الإنسان خارجَ الطبيعة ، ويناقِضُ نفسَه .

وحُبُّ النفس حَسَنٌ دائماً ، ويلائم النظامَ دائماً ، وبما أن كلَّ واحدٍ مُكَلَّفٌ بحفظ نفسه فإن مجهوداتِه الأولى وأهمَّها يجب أن تَهْدِفَ إلى هذا الحِفْظ بلا انقطاع ، وكيف تَسْهَرُ على هذا الحِفْظ هكذا إذا لم يَكُنْ لها أعظمُ فائدةٍ فى ذلك ؟

ولِذَا يجب أن نُحِبَّ أنفسنا فى سبيل بقائنا ، ويجب أن نُحِبَّ أنفسنا أكثرَ من أىِّ شىء آخر ، ونُحِبُّ ما يَحْفَظُنا كنتيجةٍ مباشرة لِعَيْن الإحساس ، وكلُّ ولدٍ يَتَعَلَّقُ بمُرْضِعه ، ولا بُدَّ من أن يكون رُومُولُوسُ قد أحبَّ الذِّئبةَ التى أرضعته ، وأولُ ما يُرَى كونُ هذا التَّعَلُّقِ آليًّا صِرْفًا ، وكلُّ ما يُيَسِّرُ راحةَ الفرد يَجتذبه ، وكلُّ ما يَضُرُّه يَدْفعه ، وليس ذاك غيرَ غريزةٍ عمياء ، والذى يُحَوِّلُ هذه الغريزةَ إلى شعورٍ والتَّعَلُّقَ الى حُبٍّ والكراهَةَ إلى حقدٍ هو القَصْدُ الذى يُبْدَى فى إلحاق الضرر بنا أو جلبِ النَّفْعِ إلينا ، ولا نُولَعُ بالموجودات الخاليةِ من الحِسِّ فلا تَتْبَعُ غيرَ ما تُوَجَّه به ، بل نُولَعُ بمن يُنْتَظَرُ منهم خيرٌ أو شرٌّ صادرٌ عن استعدادهم الباطنىِّ ، صادرٌ عن إرادتهم ، ومَنْ نَرَى سيرَهم سيراً حُرًّا معاكساً لنا أو موافقاً لنا يُوحُون إلينا بمشاعرَ مشابهةٍ للتى يُظْهِرون لنا ، ونَبْحَثُ عن الذى ينفعُنا ، ونُحِبُّ الذى يُرِيد أن ينفعَنا ، ونجتنب الذى يُؤْذِينا ، ونَحْقِدُ على الذى يريد أن يؤذِينا .

وأولُ شعورٍ فى الولد هو حُبُّه لنفسه ، والشعورُ الثانى فى الولد ، ويُشْتَقُّ من الأول ، هو حُبُّه مَنْ يُدْنُونَهُ منهم ، وذلك لأن الولدَ ، فى حال

الضَّعْف التى يَكُون عليها ، لا يَعْرِف أحداً بغير ما يتلقاه من عَوْنٍ وعناية ، وليس أولُ ما يُسَاوِرُه من تَعَلق بمُرْضِعه أو مُرَبِّيَته غيرَ عادةٍ ، وهو يَبْحَثُ عنهما لاحتياجه إليهما ولأنه يكون سعيداً بوجودهما عنده ، ويُعَدُّ هذا عِرْفاناً أكثرَ من أن يكون عطفاً ، ولا بُدَّ له من وقتٍ طويل حتى يُدْرِك أنهما تريدان أن تكونا نافعتين له ، فضلاً عن كونهما نافعتين له ، وهنالك يَبْدَأُ حُبُّه لهما .

ومن الطبيعىِّ ، إذَنْ ، مَيْلُ الولدِ إلى حُسْن الالتفات ، وذلك لأنه يَرَى أن كلَّ من يَدْنُو منه يَمِيلُ إلى مساعدته ، ولأنه يقتبس من هذه المشاهدة عادةَ شعورٍ ملائمٍ لنوعه ، ولكنه كلما وَسَّع نِطاقَ صِلاته وحاجاته وتابِعِيَّاته الفاعلةِ والمنفعلة أفاق حِسُّ علاقاته بالآخرين وأَسْفَرَ عن حِسِّ الواجبات والتفضيلات ، وهنالك يُصْبِح الولدُ مُتَجَبِّراً مِغْياراً خادعاً منتقماً ، وهو إذا ما حُمِلَ على الطاعة ، وهو إذْ لا يَرَى فائدةَ ما يُؤْمَرُ به ، فإنه يَعْزُو هذا إلى الهوَى وإلى قصد تعذيبه ، ويَتَمَرَّد ، وهو إذا ما أُذْعِنَ له فإنه يَعُدُّ كلَّ مقاومةٍ له عصياناً ومَيْلاً إلى صَدِّه فيَخْبِط الكرسىَّ أو المائدةَ لعدم إطاعته ، وإذا ما قُضِيَتْ احتياجاتُنا الحقيقية قَنِعَ حُبُّ النفس الذى لا يَتَعَلَّقُ بغيرنا ، ولكن الأنانية التى تقوم على قياس الإنسان بسواه لا تَقْنَع أبداً ، وهى لا يُمْكِن أن تكون هكذا ، وذلك لأن هذا الإحساس ، إذْ يُفَضِّلُنا على الآخرين ، يَتَطَلَّبُ أن يُفَضِّلَنا الآخرون على أنفسهم ، وهذا مُتَعَذِّر ، وذاك هو الوجه الذى تُولَدُ به الأهواء العَذْبَةُ الوَدُودُ من حُبِّ النفس ، وذاك هو الوجه الذى تولد به الأهواء النَّزِقةُ الحَقُودُ من الأنانية ، وهكذا فإن الذى يجعل الإنسان صالحاً جوهراً هو أن

يكون قليلَ الاحتياجات قليلَ القياس بينه وبين الآخرين ، وإن الذى يجعله شريراً جوهراً هو أن يكون كثيرَ الاحتياجات كثيرَ الارتباط فى رأى الآخرين ، وعلى هذا المبدإ يسهل أن يُرَى كيف يُمكِنُ أن تُوَجَّه جميع أهواء الأولاد والرجال إلى الخير أو الشرِّ ، ومن الصحيح أن يَصْعُبَ عيشُهم صالحين دائماً لعدم استطاعتهم أن يعيشوا وحدَهم دائماً ، وتزيد هذه الصعوبة نفسُها بعلاقاتهم حتْماً ، وبهذا على الخصوص تجعَلُ أخطارُ المجتمع لنا الحِذْقَ والانتباهَ أكثرَ لزوماً لِيُمْنَعَ فى قلب الإنسان ماينشأ عن احتياجاته الجديدة من فساد .

ودراسةُ الإنسان الموافقةُ هى دراسةُ علاقاته ، ويجب أن يَدْرُس نفسَه بعلاقاته مع الأشياء ما عَرَفَ نفسَه بكيانه البدنىِّ ، وهذا عملُ صِبَاه ، وهو إذا ما أخذ يَشْعُر بكيانه الأدبىِّ وَجَبَ أن يَدْرُس نفسَه بعلاقاته مع الناس ، وهذا هو عمــلُ حياته بكاملها ، بَدْءاً بالنقطة التى انتهينا إليها هكذا .

والإنسانُ يَعُودُ غيرَ وحيدٍ حالَمَا يحتاج إلى صاحبة ، وتُولَدُ جميعُ علاقاته بنوعه وجميعُ عواطفِ نفسِه مع تلك ، ولسُرْعان ما يُثِيرُ هواه الأولُ أهواءه الأخرى .

ومَيْلُ الغريزة غيرُ مُعَيَّن ، وأحدُ الجنسين مُجتَذَبٌ بالآخر ، وهذه هى حركةُ الطبيعة ، ويكون الاختيار والتفضيلات والعطفُ الشخصىُّ أعمــالَ معارفَ ومُبْتَسَراتٍ وعادةٍ ، ولا بُدَّ لنا من الوقت والمعــارف حتى نكونَ قادرين على الحُبِّ ، فلا يُحَبُّ إلا بعدَ الحُكْم ، ولا يُفَضَّلُ إلاَّ بعد

القياس ، وتكون هذه الأحكامُ من غير أن يُشْعَرَ بها ، ولكنها ليست أقلَّ من ذلك حقيقةً ، ومهما يُحَدَّثْ عن الحُبِّ الحقيقيِّ فإنه يُبجَّلُ من قِبَل الرجال دائماً ، وذلك لأنه وإن كان يُضِلُّنا بفوْرَاته ، وإن كان لا يَنْزِع من القلب الذى يُحِسُّه ما فيه من عيوب ممقوتة فضلاً عن إحداثه عيوباً من هذه فيه ، يَفْتَرِض ، مع ذلك ، من الصفات ما هو جديرٌ بالاحترام دائماً ، يَفْتَرِض من هذه الصفات الكريمة ما لا يُشْعَرُ به من غيره ، وعن العقل يَصْدُرُ هذا الخيار الذى يعارَضُ به العقل ، وقد قيل إن الحُبَّ أعمى ، وذلك لأن له عيوناً أفضلَ من عيوننا ، فهو يَرَى من العلاقات ما لا نستطيع الشعورَ به ، وتكون كلُّ امرأةٍ حسناء على السواء عند من ليست لديه فكرةٌ عن المزية والجمال فتُعَدُّ أولُ آتيةٍ أكثرَهن لطافةً دائماً ، وعلى بُعْدِ ما يَصْدُر الحُبُّ عن الطبيعة يكون ناظمَ ميولِها ورادعاً لها ، وإذا عَدَوْتَ المحبوبَ لم يَعُدْ أحدُ الجنسين عند الآخر شيئاً مذكوراً .

وما يُمْنَحُ من تفضيلٍ يرُادُ نَيْلُه، فيجب أن يَكُون الحُبُّ متبادَلاً ، ويَجِبُ أن يَجْعَل الإنسانُ نفسَه محبوباً ليُحَبَّ ، ويَجِبُ أن يَجْعَلَ الإنسانُ نفسَه محبوباً أكثرَ من سواه ، أكثرَ من كلِّ إنسانٍ آخر ، حتى يُفَضَّلَ على غيره ، وذلك فى نظر المحبوب على الأقلّ ، ومن ثَمَّ كانت نَظَراتُ الإنسان الأولى نَحْوَ أمثاله ، ومن ثَمَّ كانت المقارناتُ الأولى معهم ، ومن ثَمَّ كانت المباراةُ والمنافسات والحسد ، ومن شأن القلب المملوء شعوراً فَيَّاضاً أن يَوَدَّ الانْدِفاق ، وعن حاجة الصاحبة تنشأ حاجةُ الصاحب حالاً ، ومن يَذُقْ حلاوةَ كَوْنِه محبوباً يَوَدُّ لو يكونُ محبوباً لدى جميع الناس ، وما كان

الجميعُ ليُرِيدَ تفضيلات إذا لم يُوجَدْ كثيرٌ ممن هم غيرُ راضِين ، ومع الحُبِّ والصداقة تَظْهَرُ الاختلافات والعداوة والحقد ، وأرى رأيَ الناس يقيم لنفسه عرشاً ثابتاً من بين هذه الأهواء المختلفة ، وأن الناسَ البُلْهَ المُعَبَّدين لسلطانه لا يقيمون كيانَهم الخاصَّ إلاَّ على أحكام الآخرين .

وانْشُرُوا هذه الأفكارَ تُبْصِرُوا المصدرَ الذى يأتى أنانيَّتَنَا بشكلٍ نعتقد أنه طبيعىٌّ لها ، وكيف أن حُبَّ النفس يَصِيرُ ، بعد أن يَعْدِل عن كونه شعوراً مطلقاً ، كِبْرِياءً فى النفوس الكبيرة وغروراً فى النفوس الصغيرة ، وكيف أنه يَغْتَذِى فى هذين الفريقين على حساب القريب ، وبما أنه لا يُوجَدُ لهذا النوع من الأهواء أصلٌ فى قلوب الأولاد مطلقاً فإنه لا ينشأ من تلقاء نفسه ، وإنما نحن وحدَنا نَحْمِلُه إليها ، وما كانت لتتأصَّلَ إلاّ بخطأٍ منا ، ولكن الأمرَ يَعُودُ غيرَ هذا فى قلب الشابّ حيث تَنْبُتُ على الرغم منا ومهما صَنَعْنا ، ولذا يكون وقتُ تغيير المنهاج قد حَلَّ .

ولْنَبْدَأْ ببضعة تأملاتٍ مهمة حَوْل الوَضْع الحَرِج الذى هو موضوعُ بحثٍ هنا، وليس الانتقالُ من دَوْر الصِّبَا إلى دَوْر البُلُوغ من تحديد الطبيعة له ما لا يختلف فى الأفراد باختلاف الأمزجة والأقاليم ، وكلٌّ يَعْلَمُ ما يشاهَد من فروقٍ حَوْل هذه النقطة بين البلاد الحارة والبلاد الباردة ، وكلٌّ يَرَى أن الأمزجة الحامية تكْمُل بأسرعَ من الأمزجة الأخرى ، ولكنَّ من الممكن أن يُضَلَّ فى العِلَل ، فَيُعْزَى إلى البَدَنِىّ فى الغالب ما يجب أن يُعْزَى إلى الأدبىّ ، ويُعَدُّ هذا من أكثر الأضاليل التى تلازِم فلسفةَ عَصْرِنا شيوعاً ، ويأتى تعليمُ الطبيعة متأخراً بطيئاً ، وتأتى دروسُ الناس قبل الأوان دائماً تقريباً ، والحواسُّ فى الحال الأولى

تُذَبِّهُ الخيالَ ، والخيالُ في الحال الثانية يُنَبِّه الحواسَّ فيَمْنَحُها نشاطاً بَكُوراً لا يُعْوِزُه أن يُهَيِّجَ الأفرادَ ويُضعِفَهم فى البُداءة ، ثُمَّ النوعَ مع مَرِّ الأيام، وتَدُلُّ المشاهدة الأكثرُ عموماً والأعظمُ ثُبُوتاً من تأثير الإقليم على أن البلوغ وقدرةَ الجنس أسرعُ عند الأمم المتعلمة المتمدنة مما عند الأمم الجاهلة المتبربرة [1]، ويُوجَدُ لدى الأولاد فَطانةٌ عجيبة يَميزُون بها سيئ العادات من خِلال رِداء الحِشْمة الذى يستترون به ، ويُعَدُّ اللسانُ المُصَفَّى الذى يُملَى عليهم ، ودروسُ العَفَاف التى تُلْقَى عليهم ، وستارُ الزُّهْد الذى يَتَظَاهَرُ بوضعه أمام عيونهم ، مهاميزَ لفُضُولهم بذاك المقدار ، وإذا نُظِرَ إلى الوجه الذى يُتَّخَذُ وُجِدَ من الجَلِيِّ أن ما يُتَظَاهَرُ بإخفائه عنهم لا يَكون لغير تعليمهم إياه ، وهو أكثرُ ما يفيدُهم من الدروس بين جميع ما يُلْقَى عليهم .

واستشيروا التجرِبة تُدْرِكوا مقدارَ ما يؤدِّى إليه هذا المنهاجُ المخالفُ للصواب من تعجيلٍ لعمل الطبيعة وتقويضٍ للمزاج ، وهذا هو إحدى العلل الرئيسة التى تُفْسِدُ النَّسْل فى المدن ، وبما أن الشبان يَضْنَوْن باكراً فإنهم

(١) قال مسيو بوفون : «يصل الأولاد الذين تعودوا أغذية وافرة عصارية إلى تلك الحال بأسرع ما يمكن فى المدن ولدى الموسرين ، وأما الأولاد فى الريف ولدى الفقراء فإنهم يبلغونها متأخرين عن قلة طعام وسوء تغذية ، فلا بد من مرور عامين أو ثلاثة أعوام زيادة على ذلك حتى ينتهوا إلى تلك الحال » ، (التاريخ الطبيعى ، جزء ٤ ، صفحة ٢٣٨) ، وأقبل بالمشاهدة ، لا بالإيضاح ، ما دام سن البلوغ فى البلاد التى يتغذى القروى فيها كثيراً ويأكل كثيراً ، كما فى الفاله ، وفى بعض المناطق الجبلية بإيطالية أيضاً ، كالفريول مثلا ، يتأخر فى الجنسين على السواء أكثر من تأخره فى صميم المدن حيث يراد إرواء الزهو فيقتر فى الطعام إلى الغاية غالباً ، وحيث يعمل معظم الناس بالمثل القائل : « ثوب من مخمل وبطن خاو » ، ومن العجيب أن يشاهد فى هذه الجبال فتيان كبار أقوياء ذوو أصوات حادة وأذقان بلا لحى وفتيات كبيرات ناميات كثيراً بلا حيض ، فيبدو لى أن المصدر الوحيد لهذا الفرق هو أن خيال هؤلاء الناس البسطاء فى طبائعهم يكون هادئا ساكناً لزمن طويل فيتأخر فى إثارة دمهم ويجعل مزاجهم أقل نضجاً قبل الأوان .

يَبْقَوْن صغاراً ضعافاً سَيِّئِى التكوين ، فيَهْرَمون بدلًا من أن يَنْمُوا ، شأنُ الدَّالية التى تُحْمَلُ على الإثمار رَبيعاً فتَذْوِى وتموت قبل الخريف .

ولا بُدَّ من العيش بين الشعوب البسيطة الغليظة ليُعْرَف مَدَى العُمُرِ الذى يُمْكِن الجهلَ السعيدَ أن يطيل إليه طُهْرَ الأولاد ، ومن المناظر المؤثِّرة المُسَلِّية أن يُرَى الجنسان الموَكَلاَن إلى سلامة أفئدتهما يُطيلان فى زهرة العمر والجمال ألعابَ الصِّبَا الساذجة وأن يُبْدِيا حتى بأُلْفَتِهما نقاء لَهْوِهما ، وأخيراً إذا ما تَزَاوَج هذا الشبابُ اللطيف وتبادل الزوجان بواكيرَ ذاتِهما زاد كلٌّ منهما عِزًّا لدى الآخر ، وتَغْدُو كثرةُ الأولاد الأصحاء الأقوياء عَرَبُونَ قِرَانٍ لا يُفْسِدُه شىء ، وثمرَةَ حكمةِ سِنِيهما الأولى .

و إذا كانت السنُّ التى يكتسب الإنسان فيها شعوراً بجنسه تختلف بفعل التربية اختلافَها بفعل الطبيعة فإنه ينشأ عن هذا إمكانُ تعجيل هذه السن وتأخيرها على حسب الطريقة التى يُنَشَّأُ بها الأولاد ، و إذا كان البدن يَكْسِب أو يَخْسَرُ صلابةً كُلَّما عُجِّلَ هذا التقدمُ أو عُوِّق فإن الذى يُسْتَنْتَج من ذلك أيضاً هو أنه كُلَّما سُعِىَ فى تعويقه نال الفتَى بأساً وقوةً ، ولا أزال أتكلم عن النتائج البدنية ، وسيُرَى عما قليل أنها لا تقتصر على ذلك .

وأَسْتخرجُ من تلك التأملات حَلَّ المسئلة الآتية التى أُثيرت كثيراً ، وهى : هل يلائم تنويرُ الأولاد باكراً حَوْلَ موضوعاتِ فُضُولهم ، أو هل الأفضلُ أن يُخَادَعوا بتَمْوِيهاتٍ ذاتِ حِشْمة ؟ أَرَى ألَّا يُؤتَى هذا ولا ذاك ، وذلك ، أولاً ، أن هذا الفُضُول لا يأتيهم من غير أن يُفْسَح له فى المجال ، ولِذَا يجب أن يُصْنَعَ ما لا يكون لهم معه هذا المجال ، ثانياً ،

ان ما نحن غيرُ ملزمين بحلِّه من الأسئلة لا يستلزم مخادعةَ من يَطْرَحُها ، والأفضلُ أن يقابَل بالسكوت من أن يُجَابَ عنها بالكَذِب عليه ، وهو لن يُدْهَشَ من هذه السُّنَّة إذا ما عُنِيَ بإخضاعه لها فى الأمور التى يُؤْبَهُ لها ، وأخيراً ، إذا ما التُزِمَ جانبُ الجواب فلْيَكُن هذا بأقصى البساطة و بلا غُمُوضٍ ولا ارتباكٍ ولا ابتسام ، فالخطَرُ أقلُّ كثيراً فى إرواء فُضُول الولد مما فى تحريكه .

ولْتَكُنْ أجوبتُكم ، دائماً ، رصينةً قصيرةً حازمةً ، ومن غير أن يَشُوبَها تردُّدٌ مطلقاً ، وليس من الضرورىِّ أن أُضيف إلى ذلك وجوبَ كونها صادقةً ، فلا يُمْكِن تعليمُ الأولاد خطرَ الكَذِب على الناس من غير أن يُشْعَرَ من قِبَل الناس بخطرٍ أعظمَ من ذاك فى الكَذِب على الأولاد ، ومن نتائج الأُكْذُوبة المُوَكَّدَة التى يأتيها المعلم نحو التلميذ أن يُقْضَى على ثمرات التربية إلى الأبد .

وقد يكون الجَهْل المطلقُ حَوْل بعض الموضوعات أفضلَ ما يلائم الأولاد ، ولكنْ لِيَتَعَلَّمُوا باكراً ما يستحيل كَتْمُهُ عنهم دائماً ، ومما يَجِبُ ألَّا يَسْتيقظَ فُضُولُهم بأىِّ وجهٍ كان أو أن يُقْضَى قَبْلَ السِّنِّ التى يكون خَطِراً فيها ، ويَتَوَقَّفُ سلوكُكم نحو تلميذكم كثيراً على وَضْعِه الخاصِّ وعلى المجتمعات التى تحيط به وعلى الأحوال التى يُبْصَرُ إمكانُ وجودِه فيها ، إلخ . ، والمهمُّ هنا ألاَّ يُتْرَك شىءٌ للمصادفة ، وإذا لم تطمئنوا إلى جَعْلِه يَجْهَلُ الفرقَ بين الجنسين حتى السادسةَ عشرةَ من سِنِيه فاعْنَوْا بأن يتعلَّمه قبل العاشر من عُمُره .

ولا أُحبُّ أن يُتَّخَذ مع الأولاد لسانٌ مُمَحَّصٌ كثيراً ، ولا أن تُسْتَعمَل

مواربات طويلة يُبْصِرُونها لكيلا تُطْلَق على الأشياء أسماؤها الحقيقة ، فللأخلاق الصالحة فى هذه الموادّ بساطة بالغة دائماً ، ولكن الخيالاتِ المُلوَّثة بالمُنكَر تجعلُ الأذنَ مُرْهَفَةً فتُلْزِمُنا بتمحيص تعابيرنا بلا انقطاع ، ولا حاصلَ للألفاظ الغليظة ، فالأفكارُ الداعرة هى ما يجب أن يُقْصَى .

ومع أن الحياء طبيعىٌّ فى النوع البشرىّ فإنه ليس طبيعياً فى الأولاد ، وذلك أن الحياء لا يُولَدُ إلاّ مقروناً بمعرفة السّوء ، وكيف يكون لدى الأولاد ، الذين ليست لديهم هذه المعرفة ، أو لا ينبغى أن يَحُوزوها ، ذاك الحسُّ الذى ليس غيرَ نتيجةٍ لها ؟ ينطوى إعطاؤهم دروساً فى الحياء والحِشْمة على تعليمهم وجودَ أمورٍ شائنة فاحشة ، ينطوى على تلقينهم رغبةً خَفِيَّةً فى معرفة هذه الأمور ، وسيَعْرِفون هذا عاجلًا أو آجلًا ، ومن شأن الشرارة الأولى التى تَمَسُّ الخيالَ أن تُعَجِّل اشتعالَ الحواسِّ لا ريْبَ ، واحمرارُ الوجه دليلُ الذنب ، ولا تَسْتَحِى البراءةُ الحقيقية من شىء .

وليس عند الأولاد ما عندَ الرجال من تَوَقّات ، ولكنْ بما أنهم مِثْلَهم عُرْضةٌ للدَّنَس الضارِّ بالحواسِّ فإنهم يستطيعون بفعل هذا القَسْرِ أن يتَلَقَّوْا عينَ الدروس فى اللياقة ، واتَّبِعُوا رُوحَ الطبيعة التى تَضَعُ فى ذات المكان أعضاء اللذاتِ الخفية وأعضاء الحاجات الكريهة فتُوحى إلينا بعين العنايات فى مختلف أدوار العمر ، تُوحى عن هذه الفكرة تارةً وعن تلك تارة أخرى ، تُوحِى إلى الرجل عن حياء وإلى الولد عن نظافة .

ولا أَجِدُ غيرَ وسيلةٍ واحدةٍ لحِفْظ طُهر الأولاد ، وهى أن يحترمَهم ويحِبَّهم جميعُ من يحيطون بهم ، وإن لم يكنْ هذا نُقِضَ عاجلاً أو آجلاً

كلُّ جُهْدٍ يُبْذَل إمساكًا لهم ، فلهم في الابتسامة والنظرة والحركة الخاطفة قولٌ حَوْلَ كلِّ ما يحاوَل إخفاؤه عنهم ، ويَكْفِي لتعلُّمهم إياه أن يُرَى أنه يراد إخفاؤه عنهم ، وبما أن ما يَسْتَعْمِلُه المُهَذَّبون من جُمَلٍ وتعابيرَ فيما بينهم يَفْتَرِض ما ينبغي وجودُه بين الأولاد من معارف فإنه لا يكون له محلٌّ معهم ، ولكن بساطتهم إذا ما أُكْرِمَتْ حقًّا سَهُل علينا أن نَجِدَ في مخاطبتهم من الجُمَل ما يلائمهم ، وتَجِدُ سذاجةً في اللغة التي تلائم العَفَاف وتَرُوقه ، وهذه هي اللهجةُ الحقيقية التي تَصُدُّ الولدَ عن الفُضُول الخَطِر ، والولدُ إذا ما كُلِّم عن كلِّ شيء ببساطةٍ لم يُتْرَكْ له ما يَتَصوَّر معه بقاء شيء لم يُحدَّثْ عنه ، وإذا ما أُضيفت إلى الألفاظ الغليظة أفكارٌ غيرُ مستحبَّة ملائمةٌ لهم أُطْفِئت شعْلةُ خيالهم الأولى ، وهو لا يُمْنَعُ من النطق بهذه الكلمات ومن حيازة هذه الأفكار ، ولكنه يُلَقَّنُ من حيث لا يدرى كراهةَ تذَكُّرِها ، وما أكثر الارتباكَ الذي يُوَفَّرُ على أولئك الذين يتكلمون عن فؤادٍ دائمًا فيقولون الصدقَ ويُعْرِبون عنه كأنهم شاعرون به !

« وكيف يُصْنَعُ الأولاد ؟ » ، هذا سؤالٌ مُحَيِّرٌ يَعْرِض للأولاد طبيعةً ، وعلى الجواب عنه بطَيْشٍ أو برصانةٍ يتوقف ، أحيانًا ، أمرُ صحتهم وأمرُ خُلُقهم مَدَى حياتهم ، وأقصرُ طريقٍ تَتَصَوَّرُه الأمُّ للخلاص منه من غير أن تُخَادِع ابنَها هو أن تَفْرِض السكوت عليه ، ويكون هذا حسنًا إذا ما عُوِّد ذلك في المسائل التي لا أهميةَ لها ولم يَرَ سِرًّا في هذه اللهجة الجديدة ، ولكنَّ من النادر أن تَقِفَ الأمُّ هناك ، فستقول له : « هذا سِرٌّ بين المتزوجين ، ولا يجوز للأولاد أن يكونوا ذوى فُضُول بهذا المقدار

مطلقاً » ، أَجَلْ ، إن هذه وسيلةٌ حَسَنةٌ لخلاص الأمِّ من الورطة ، ولكنْ لتَعْلَمِ الأمُّ أن الولدَ ، إذْ يُنْخَزُ بهذا الزَّجْر ، لا يَهْدأُ له بالٌ قَبْلَ أن يَعْرِف سِرَّ المتزوجين ، فلا يَلْبَثُ أن يَعْرِفه .

ولْيُسْمَحْ لى بأن أذْكُرَ جوابًا مخالفًا تمامًا لِمَا سمعتُ عن ذاتِ السؤال ، فكان له أثرٌ كبير فى نفسى ما صَدَر عن امرأةٍ ذاتِ اتضاعٍ فى الكلام والأوضاع ، ولكن مع معرفتها عند الضرورة أن تنظر إلى خَيْرِ ابنها وإلى الفضيلة فتدوسَ كلَّ خوفٍ زائفٍ من اللوم وكلَّ كلامٍ فارغٍ يَصْدُرُ عن الماجنين ، ولَمَّا يَمْضِ زمنٌ طويلٌ على وقتِ رَمْيِ الولد فى البَوْل حجراً كان قد خَدَش إحليلَه ، ولكن العارضَ زال ونُسِيَ ، ويسأل الولد الطائش أمَّه : « كيف يُصْنَع الأولاد يا أُمَّاه ؟ » ، وتجيب الأم بلا تردُّدٍ : « أى وَلَدِى ! إن النساء يَبُلْنَه بمشقةٍ قد تُودِى بحياتِهِنَّ أحيانًا » ، ودَعُوا المجانين يضحكون والأغبياء يغتاظون ، ولكن دَعُوا الحكماء يَبْحَثُون ليَرَوْا هل يَجِدُون جوابًا أكثرَ صواباً من هذا وأعظمَ إيصالا إلى غاياته .

وفى البُداءة تُحَوِّل فكرةُ الاحتياج الطبيعىِّ المعروفةُ لدى الولد فكرةَ الغموض فيه ، وتُغَطِّى أفكارُ الألمِ والموت اللاحقةُ تلك الفكرةَ بستارٍ من الغمِّ يُضْعِفُ الخيالَ ويَرْدَع الفُضُول ، وكلُّ شىء يَصْرِف الذهن إلى نتائج الوِلادة ، لا إلى عِلَلِها ، وتكون آفاتُ الطبيعة البشرية والأمورُ الكريهة وأشكالُ الألم هى ما يُلْقِى هذا الجوابُ نوراً عليه إذا كان ما يُوحى به من اشمئزاز يَسْمَحُ للولد بأن يسأل عنها ، وبأية وسيلةٍ تكون لهمّ الرغائب فرصةُ الظهورِ بالأحاديث التى تُوَجَّهُ هكذا ؟ وتَرَوْن ، مع ذلك ، كَوْنَ الحقيقة

لم تُحرَّفْ قطُّ وأنه لم يُحتَجْ قطُّ إلى مخادعة التلميذ بدلاً من تعليمه .

وأولادُكم يَقرءون ، وهم ينالون بالقراءة معارفَ ما كانوا ليكسِبوها بلا قراءةٍ مطلقاً ، وهم إذا ما درَسوا اشتعل خيالُهم وأُرْهِفَ فى صَمْتِ الغُرْفة ، وهم إذا ما عاشوا بين الناس سَمِعُوا رَطانةً غريبة ورأَوْا أمثلةً تَقِفُ أبصارَهم ، وذلك أنه بُلِغَ من إقناعهم بأنهم من الرجال ما يبحثون معه حالاً ، فى كلِّ شىء يَفْعَلُه الرجالُ أمامهم ، كيف يُمكِنُ هذا أن يلائمهم ، وذلك أنه يَجِبُ أن تَصْلُحَ أعمالُ الآخرين نَمُوذَجاً لهم حينما تَصْلُح أحكام الآخرين لهم قانوناً ، ومن الخدَم الذين يُجْعَلون تابعين لهم ، ومن ثَمَّ يُمْنَوْن بأن يرُوقوهم ، مَنْ يَزْدَلِفُون إليهم على حساب الأخلاق الحسنة ، ومن المُرَبِّيَات الضَّواحك مَنْ يُحَدِّثْنَهم ، وهم فى الرابعة من سِنِيهم ، بأمورٍ لا يَجْرُؤُ أشدُّ النساء مُجُوناً أن يُحَدِّثْنَ بها مَنْ هم فى الخامسَ عشرَ من عُمُرهم ، ولسُرْعانَ ما يَنْسَيْن ما قُلْنَه ، ولكنهم لا يَنْسَوْن ما سَمِعُوا ، وتُعِدُّ الأحاديثُ الداعرة فاجرَ الأخلاق ، والخادمُ الخبيث يَجْعَلُ الولدَ فاسقاً ، ويَضْمَنُ سِرُّ أحدهما سِرَّ الآخر .

والولدُ الذى يُنَشَّأُ وَفْقَ سِنِّه وحيدٌ ، وهو لا يَعْرِفُ غيرَ روابط العادة ، فيُحِبُّ أختَه كما يُحِبُّ ساعتَه ، ويُحِبُّ صديقَه كما يُحِبُّ كلبَه ، وهو لا يَشْعُر بجنسٍ ولا نَوْع ، ويكون الرجلُ والمرأة غريبيْن عنه على السواء ، وهما لا يَقُصَّان عليه شيئاً مما يَصْنَعان ولا مما يقولان ، وهو لا يرَى ذلك ولا يَسْمَعُه ، وهو لا ينتبه إليه مطلقاً ، وهو لا يبالى بكلامهما ولا بأمثلتهما ، فجميع هذا لم يُصْنَعْ من أجْله قطُّ ، وليس ما يُمْنَحُه بهذا

المنهاج خطأً مصنوعاً ، بل جهلُ الطبيعة ، ويأتى الوقتُ الذى تُعْنَى فيه عَيْنُ الطبيعة بتنوير تلميذها ، وهنالك فقط تَجْعَلُه فى حالٍ يستفيد معها بلا خطَرٍ من الدروس التى تُلْقِيها عليه ، والمبدأُ هو ألَّا يكون تفصيلُ القواعد من موضوعى ، وتَنْفَعُ الوسائلُ التى أقْتَرِحُ نظراً إلى الموضوعات الأخرى مثالاً لهذا أيضاً .

وإذا أردتم أن يكون النظام والقانون سائدين للأهواء الناشئة فأطيلوا دَوْرَ نُمُوِّها ، وذلك ليكون لديها من الوقت ما تَتَّسِقُ معه كلما بَرَزَت إلى الوجود ، وهنالك لا يكون الإنسانُ هو الذى يُنَظِّمُها ، بل الطبيعةُ نفسُها ، ولا يَكُون ما تُعْنَوْن به غيرَ تَرْكِها تُنَظِّمُ عملَها ، وإذا ما كان تلميذُكم وحيداً لم يَجِبْ عليكم أن تَفْعَلوا شيئاً ، ولكنَّ كلَّ من يُحِيطُ به يُلْهِبُ خيالَه ، ويَجُرُّه سَيْلُ المُبْتَسرات ، ولا بُدَّ من دفعه إلى الجهة المعاكسة إمساكاً له ، ويجب أن يُقَيِّدَ الشعورُ الخيالَ وأن يُسْكِتَ العقلُ رأيَ الناس ، والحَسَّاسيةُ مصدرُ جميع الأهواء ، والخيالُ يُعَيِّنُ مَيْلَها ، وكلُّ مخلوقٍ شاعرٍ بصِلاته يَجِبُ أن يرتبك عند اختلال هذه الصلات وعند تَصَوُّره ، أو ظَنِّه أنه يَتَصَوَّرُ ، ما هو أكثرُ ملاءمةً لطبيعته ، وأضاليلُ الخيال هى التى تُحَوِّل إلى معايبَ أهواءَ جميع المخلوقات المحدودةِ ، حتى الملائكةِ إذا ما كانوا ذوى أهواء ، وذلك لأن من الواجب أن يَعْرِفوا طبيعةَ جميعِ الموجودات ليَعْرِفوا أيُّ الصلات أكثرُ ملاءمةً لهم .

وإليك ، إذَنْ ، خلاصةَ الحكمةِ البشرية من حيث استعمالُ الأهواء :

(١) الشعور بصلات الإنسان الحقيقية فى النوع وفى الفرد .

(٢) تنظيم جميعِ عواطف النفس وَفْقَ هذه الصلات .

ولكنْ هل الإنسانُ مسيطرٌ على تنظيم عواطفه وَفْقَ هذه الصِّلات أو تلك ؟ لا رَيْبَ ، إذا كان سيدَ تنظيم خياله حَوْلَ هذا الموضوع أو ذاك ، أو حَولَ مَنْحِهِ هذه العادةَ أو تلك ، ثم إننا نَكُون هنا أقلَّ اكتراثًا لِمَا يستطيع الإنسانُ أن يَفْعَلَه فى نفسه مما نَقْدِر على فِعْلِه فى تلميذنا باختيار الأحوال التى تَجْعَلُه فيها ، ويَعْنِى عَرْضُ الوسائل الخاصة بالبقاء ضِمْنَ نظام الطبيعــة بيانًا كافيًا للوجه الذى يُمْكِنُ الخروجُ به منه .

ولا يُوجَدُ أَدَبٌ لأفعاله ما بَقِيَتْ حَسَّاسيتُه مقصورةً على شخصه ، ومتى أَخذتْ تمتدُّ إلى خارج نفسه فازت فى البُداءة بالمشاعر وبمبادئ الخير والشَّرِّ التى تَجْعَلُه ، حَقًّا ، إنسانًا وجزءًا مُتِمًّا لنوعه ، فعلى هذه النقطة الأولى يَجِبُ تَثْبِيتُ ملاحظاتنا فى بدء الأمر .

وهذه الملاحظاتُ صعبةٌ من حيث إن إتيانَها يتطلَّبُ طَرْحَ الأمثلة التى تكون تحت عيوننا ، والبحثَ عن الأمثلة التى يَتِمُّ نُمُوُّها المتعاقبُ وَفْقَ نظامِ الطبيعة .

وما كان الولدُ المُهَذَّبُ المؤدبُ المتمدن ، الذى لا يَنْتَظِرُ غيرَ القدرة على استعمال ما تَلَقَّاه من معارفَ بَكُورٍ ، ليُخْدَعَ مطلقًا حَوْلَ الوقت الذى تأتى فيه هذه القدرة بغتةً ، ومن البعيد أن يَنْتَظِر هذا الولدُ ذلك الوقتَ ، فهو يُعَجِّلُه ، وهو يُثِيرُ دمَه قبل الأوان ، وهو يَعْرِف ما يَجِبُ

أن يَكُونَ موضوعُ رغائبه ، حتى قبل أن يُحِسَّها بزمنٍ طويل ، وليست الطبيعة هى التى تُحَرِّكه ، وإنما هو الذى يُكْرِهُها ، وهى ، إذْ تَجْعَله رجلًا ، لم يَبْقَ لديها ما تُعَلِّمُه إياه ، وهو قد كان بالفكر رجلًا قبل أن يَكُونَهُ فعلاً بزمنٍ طويلٍ .

ويَكُونُ سَيْرُ الطبيعة الحقيقيُّ أعظمَ تَدَرُّجًا وأشدَّ بُطُوءًا ، ويَشْتَعِلُ الدمُ مقداراً فمقداراً ، وتَنْضَجُ النفوس ، ويَتَكَوَّن المزاج ، ويُعْنَى العاملُ العاقل الذى يُدِيرُ المَصْنَع بإتقان جميعِ آلاته قبل استعمالها ، ويتقدم المُنَى الأولى هَمٌّ طويل ، وتُخَادَع بجهلٍ طويل ، ويُرْغَبُ من غير أن يُعْرَف فِيمَ يُرْغب ، ويَفُور الدم ويَثُور ، ويحاوِل فيضٌ من الحياة أن يمتدَّ إلى الخارج ، وتَسْتَحِرُّ العين وتَجُوب المخلوقاتِ الأخرى ، ونَبْدَأُ بالاكتراث لمن يحيطون بنا ، ونأخذ فى الشعور بأننا لم نُخْلَقْ لنعيش وحدَنا ، وهكذا فإن الفؤاد يَتَفَتَّحُ للعواطف الإنسانية ويصبح أهلًا للحبِّ .

والصداقةُ ، لا الحُبُّ ، هى الشعورُ الأول فى الشابِّ الذى يُعْنَى بتنشئته ، وأولُ عملٍ لخياله الناشئ هو تعليمُه وجودَ أمثالٍ له ، والنوعُ يؤثِّرُ فيه قبل الجنس ، وإليك ، إذَنْ ، فائدةً أُخرى للطُّهْر المُطَال : وذلك أن يستفاد من الحساسية الناشئة لتُلْقَى فى قلب المراهق بذورُ الإنسانية الأولى ، وهذه الفائدةُ هى أعظمُ ما يكون ، وذلك لأن ذاك هو زمنُ حياته الوحيدُ الذى يُمْكِن أن يُكْتَبَ النجاحُ الحقيقيُّ فيه لتلك الجهود .

وقد رأيتُ دائمًا أن الشبان الفاسدين باكراً ، والمنهمكين فى الدعارة والنساء ، كانوا قُسَاةً جافِين ، وكان هياجُ المزاج يَجْعَلُهم فاقدى الصبر

محبين للانتقام غِضَابًا ، وكان خيالُهم المملوء شيئًا واحداً يَرْفِضُ كلَّ شىء ما خلا هذا الشىء ، وكانوا لا يَعْرِفون رأفةً ولا رحمة ، وكانوا مستعدين للتضحية بالأب والأمّ وبجميع الناس فى سبيل أقلّ ملاذّهم ، وعلى العكس تَرَى الشابَّ الناشئْ فى بساطةٍ سعيدة محمولًا بحركات الطبيعة الأولى نحوَ رقيقِ الأهواء ووَدُودِها ، ويَتَحَرَّكُ فؤادُه الحَنُون عند كُرُوب أمثاله ، ويهتزُّ سروراً عند استقبال رفيقه ، وتَعرِف ذراعاه أن تَجِدَا عناقًا رقيقًا ، وتَعرِف عيناه أن تَذْرِفا دموعَ حَنَانٍ ، وهو يَعْلَم أن يأسَف على إساءته الآخرين بخجله من كَدَرٍ أوجبه ، وإذا كانت حرارةُ الدم التى تشتعل تَجْعَلُه نشيطاً نَزِقًا غضوباً فإنه يُبْصِرُ بعد حينٍ تَجَلِّيَ رِقَّةِ قلبه الطبيعية فى حماسة تَوْبته ، وهو يبكى ويئنُّ عن جَرْحٍ أوجبه ، وهو يَوَدُّ لو يفتدى بدمه ما سكب من دَمٍ ، ويَهْدَأ فائره ويَتَّضِعُ تَجَبُّرُه أمام شعوره بخَطَئه ، وإذا ما أُسىء إليه ، وكان فى سَوْرَة حِدَّته ، سَكَنَ عنه الغضب باعتذارٍ أو بكلمة ، وهو يَعفُو عن سيئات الآخرين بسلامة القلب التى يُصْلِح بها سيئاتِه ، وليست المراهقةُ سِنَّ الانتقام ولا سِنَّ الحقد ، بل سِنُّ الرحمة والشَّفقة والكَرَم ، أَجَلْ ، إننى أدَّعِى ، ولا أخاف أن تُكَذِّبَنى التجربة ، بأن الولد الحَسَن المَنْبِت والذى يحافظ على طُهْره حتى العشرين من عُمُره يَكُون فى هذه السِّنِّ أكرمَ الناس وأصلحَهم وأشدَّهم حُبًّا إليهم وأقربَهم مَوَدَّةً إلى قلوبهم ، ولم تُحَدَّثوا بمثل هذا قَطّ ، وهذا الذى أعْتَقِدُ جيداً ، وهذا ما غَفَل عن معرفته فلاسفتُكم الذين نُشِّئُوا على ما فى المدارس من فساد .

وَضَعْفُ الإنسان هو الذى يَجْعَلُه أنيساً ، وأَبْؤُسُنا المشتركةُ هى التى تَحْمِلُ أفئدتَنا إلى الإنسانية ، ولو لم نَكُنْ أناساً ما كُنَّا مَدِينين للإنسانية بشىء ، وكلُّ عطفٍ دليلٌ على نقصاننا ، ولو لم يَكُنْ كلُّ واحدٍ منا محتاجاً إلى الآخرين بشىء ما عَنَّ له أن يَتَّحِدَ بهم ، وهكذا ، فإن سعادتنا الواهنة تنشأ عن نقصنا ، ويكون الموجودُ السعيد حَقًّا موجوداً معتزلًا ، واللهُ وحدَه هو الذى يَنْعَمُ بسعادةٍ مطلقة ، ولكن مَنْ ذا الذى يَخْطُرُ بباله معنى هذا ؟ وإذا ما استطاع الموجودُ الناقصُ أن يَكْفِيَ نفسَه بنفسه فَبِمَ يَتَمَتَّع على ما نَرَى ؟ هو يكون وحيداً ، هو يكون بائساً ، ومما لا أتصورُه قدرةُ الذى لا يحتاج إلى شىء على حُبِّ شىء ما ، ولا أتصور قدرةَ مَنْ لا يُحِبُّ شيئاً أن يكون سعيداً .

ومن ثَمَّ يكون ارتباطُنا فى أمثالنا بحِسِّ مَلَاذِّهم أقلَّ مما بحسِّ أحزانهم وذلك لأننا نَكُونُ هنالك أحسنَ تمييزاً لوَحدة طبيعتنا ولضمانات حُبِّهم لنا ، وإذا كانت احتياجاتُنا المشتركة تُوَحِّدُ بيننا عن مصلحةٍ فإن أبؤُسَنا المشتركةَ تُوَحِّد بيننا عن محبة ، وذلك أن منظر الرجل السعيد يُوحِي بالحسد أكثرَ مما بالحُبِّ ، وأنه يُتَّهَمُ ، طوعاً ، بَسْلبِه حقًّا ليس له بجَعْلِه نفسَه سعيداً حَصْراً ، وذلك إلى أن أنانيَّتَنا تتأذَّى إذ تُشْعِرُنا بأن ذاك الرجلَ غيرُ محتاجٍ إلينا قطعاً ، ولكن مَنْ ذا الذى لا يَتَوَجَّعُ للتَّعِس الذى يَرَى ألمه ؟ ومن ذا الذى لا يريد إنقاذَه من وَيْلَاته ولو بالتمنى ؟ فالخيالُ يَضَعُنا فى مكان البائس أكثرَ من وَضْعِه إيانا فى مكان الرجل السعيد ، فنَشْعُر بأن إحدى هاتين الحالين تَمَسُّنا عن كَثَبٍ أكثرَ من الأخرى ، وتَنْطَوِى الشفقةُ

على حلاوة ، وذلك أننا إذْ نَجْعَلُ أنفسنا فى مكان الذى يَأْلَم نَشْعُر ، مع ذلك ، بلَذَّةِ عدمِ الألم مِثْلَه ، والحسدُ أليمٌ ، وذلك أن منظر الرجل السعيد إذ يَبْعُد من جَعْلِه الحاسدَ فى مكانه يُورِثُ أسفَ عدمِ كَوْنِه إياه ، ويَظْهَرُ أن أحدهما يُعفِيناَ من الآلام التى يقاسيها ، وأن الآخر يَنْزِع منا النِّعَمَ التى يتمتع بها .

وإذا ما أردتم ، إذَنْ ، أن تُثِيرُوا فى فؤاد الفتى أُولَى حركات الحِسِّ الناشئة وتُغَذُّوها ، وأن تُحَوِّلوا سَجِيَّتَه نحو الخير والصلاح ، فلا تبذروا فيه الكبرياء والزَّهْوَ والحسدَ بصورةٍ خادعة عن سعادة الناس ، ولا تَعْرِضوا على عينيه فى البُداءة أُبَّهَـةَ البلاَطات وبَذْخَ القصور وجَذْبَ المَجَالِى ، ولا تَطْلُبُوا له النُّزْهةَ فى الأندية ولا فى المجالس البَرَّاقة ، ولا تُرُوه ظاهِرَ المجتمعِ الكبير إلَّا بعد أن تَجْعَلُوه فى حالٍ يستطيع معها أن يُقدِّره بنفسه ، ولا يؤدى إطلاعُه على العالَم قبل أن يَعرِفَ الرجال إلى تكوينه ، بل إلى إفساده ، ولا يَنطَوِى على تعليمه ، بل على إغوائه .

ومن الطبيعىِّ ألا يكون الناسُ ملوكاً ولا كبراء ولا بَطَائِنَ ولا أغنياء ، فالجميعُ يُولَدُون عُرَاةً فقراء ، والجميعُ عُرْضةٌ لأَبؤُس الحيـاة ، ولِلكُرُوب والآلام والحاجات والأوجاع من كلِّ نوْع ، وأخيراً يُقْضَى على الجميع بالموت ، وهذا هو الحقُّ عن الإنسان ، وهـذا الذى لا يَنْجُو منه إنسان ، ومن طبيعة الإنسان ابْدءوا ، إذَنْ ، بدراسة ما لا يَنفَصل ، وهذا هو أفضلُ ما تتألَّف الإنسانية منه .

والمراهقُ ، فى السادسةَ عشرةَ من سِنِيه ، يَعْرِفُ ما الألم ، وذلك

لأنه أَلِمَ بنفسه ، ولكنه لا يكادُ يَعْرِف أن الخلائقَ الآخرين يَأْلَمُون أيضاً ، وليست الرؤيةُ بلا حِسٍّ معرفةً ، والولدُ ، كما قلتُ مئةَ مرةٍ ، إذْ لا يَتَصَوَّر ما يُحِسُّه الآخرون ، لا يَعرِف غيرَ كُرُوب نفسه ، ولكنْ إذا ما أَشْعَلَ أولُ نُمُوٍّ في حواسِّه نارَ الخيال بدأ يُحِسُّ نفسَه في أمثاله ، ويَضْطَرِب من أوصابهم ويَأْلَم من آلامهم ، وهنالك يَجِبُ أن تَحْمِلَ صورةُ الإنسانية المَكْرُوبةُ إلى قلبه أولَ ما يُحِسُّ من حَنَان .

وإذا كان من غير السهل أن تلاحِظوا تلك الحالَ في أولادكم فمَنْ تَلُومُون على ذلك ؟ أنتم تُعَلِّمُونهم هَزَّ الإحساس باكراً ، وأنتم تُعَلِّمونهم لغتَه حالًا ، وأنتم إذْ تكلِّمونهم بذات اللهجة دائماً تَجِدُونهم يُحَوِّلون دروسَكم ضِدَّكم ، فلا يَترُكون لكم أيةَ وسيلة تَميزُون بها وقتَ انقطاعهم عن الكذب من شعورهم بما يقولون ، ولكن لِنَنظُرْ إلى إميلَ في السِّنِّ التي سُقْتُه إليها حيث لا يَشْعُر ولا يَكْذِب ، فهو لا يَقُول لأحدٍ « أُحِبُّك جيداً » قَبْلَ أن يَعرِف ما الحُبُّ ، وهو لا يَعرِفُ أيَّ هيئةٍ يجب أن يَتَّخِذَ حين دخوله غرفةَ أبيه أو أُمه أو معلمه المريض ، وهو لا يُطْلَعُ على فَنِّ إظهار حُزْنٍ لا يكون عنده ، وهو لا يُظْهِرُ بكاء لمَوْت أحد ، وذلك لأنه لا يَعرِفُ ما الموتُ ، وتَرَى ذاتَ عدمِ الإحساس الذي في فؤاده بادياً في أوضاعه ، وهو إذْ لا يكترثُ لشيء خارجَ نفسِه ، كبقية الأولاد ، فإنه لا يلتفتُ إلى أحد ، ويَقُومُ كلُّ ما يَميزُه على رغبته عن الظهور مبالياً بأحد ، وعلى كَوْنِه دون الآخرين خِداعًا .

وبما أن إميلَ قليلُ التفكير حَوْل المخلوقات الحَسَّاسة فإنه لا يَدْرِي

ما الألم ولا الموتُ إلا متأخِّراً ، ويأخذ العويل والصُّراخ فى تحريك أحشائه ، ويُؤدِّى منظر الدم المسفوك إلى تحويل عينيه ، وتُورِثه تَشَنُّجَاتُ الحيوان المُشْرِفِ على الموت ألماً نفسيًّا ، ما أقُول ، قبل أن يَعْرِف مصدرَ هذه الحركات الجديدة ، ولو بَقِيَ غبيًّا جافياً ما عَرَضَتْ له ، ولو كان متعلِّماً لعَرَف أصلَها ، فهو قد أكثرَ من المقابلة بين الأفكار ما يُحِسُّ معها ، ولكن ليس بما فيه الكفاية حتى يَعْرِفَ ما يُحِسّ .

وهكذا تُولَدُ الشفقةُ ، يولَدُ هذا الشعورُ النسبيُّ الذى يَمَسُّ القلبَ البشرىَّ وَفْقَ نظام الطبيعة ، ويَجِبُ ، ليَصِيرَ الولدُ حسَّاساً رؤوفاً ، أن يَعْرِف وجودَ أناسٍ مماثلين له يألَمُون كما يألَم ويُحِسُّون ما يُحِسُّ من الآلام ، ووجودَ آخرين يجب أن تكون له فِكْرَةٌ عنهم كأُناسٍ يستطيع الشعورَ بهم أيضاً ، والواقعُ كيف نَدَعُ أنفسَنا تَتَحَرَّك بالشفقة إذا لم ننتقلْ خارجَ أنفسِنا ونَتَّحِدْ بالحيوان الذى يَأْلَمُ تاركين وجودَنا يتناول وجودَه ؟ فنحن لا نَأْلَمُ إلَّا بحُكْمِنا أنه يَأْلَم ، ونحن نَأْلَمُ ضِمْنَه ، لا فى أنفسنا ، وهكذا لا يصير أحدٌ حسَّاساً إلَّا عند تَحَرُّك خياله وأَخْذِه فى الانتقال خارجَ نفسه .

وما علينا أن نَصْنَعَ ، إذَنْ ، لتحريك تلك الحاسِّية الناشئة وتغذيتِها وتوجيهها أو اتباعِها فى ميولها الطبيعية إذا لم يَكُنْ تقديمُنا إلى الفتى أموراً يُمْكِنُ أن تؤثِّرَ فى قوة فؤاده التَّوَسُّعِيَّة ، فتُمَدِّده وتَبْسُطُه على موجوداتٍ أخرى وتَجْعَلُه خارجَ نفسه ، وإذا لم يَكُنْ إبعادُنا منه بعنايةٍ أموراً تُضَيِّقُه وتَجْمَعُه فى مركزٍ واحد وتَشُدُّ نابضَ الذاتِ البشرية ، وإن شئتَ فَقُلْ : إثارتُنا فيه الصلاحَ والإنسانيةَ والرحمةَ وحبَّ الخير وجميعَ الأهواء الجذَّابة

الحُلْوةِ التى تَرُوقُ الناسَ بحكم الطبيعة ، والتى تَحُول دون ظهورِ الحسد والطمع والحقد وجميعِ الأهواء الكريهة الجافية ، أى هذه الأهواء التى تَجْعَلُ الحَسَّاسيةَ سلبيةً فضلاً عن كونها لاغيةً ، وتورِثُ من يُبْتَلَى بها كَرْباً ؟

وأرى أنه يُمكِننى تلخيصُ جميع التأملات السابقة فى مبدأين أو ثلاثة مبادئ صريحة واضحة يَسْهُل إدراكُها .

المبدأ الأول

ليس من مقتضى القلب البشرىّ أن نَضعَ أنفسنا فى مكان مَنْ هم أسعدُ منا ، وإنما تقضى الطبيعة البشرية بأن نجعَل أنفسنا فى محلِّ مَنْ يَسْتدعُون رحمتنا .

وإذا ما وُجِدَت استثناءاتٌ لهذا المبدأ كانت فى الظاهر أكثرَ مما فى الحقيقة ، ومن ذلك أننا إذا ما وضعنا أنفسنا فى مكان الغنىّ أو العظيم الذى نَلزَمُه لم نَنْتَحِلْ غيرَ جزء من نعيمه ، ولو كنا صادقين فى ملازمته ، وهو يُحَبُّ فى مصائبه أحياناً ، ولكنه إذا ما أَيْسَرَ لم يَكُنْ له فى أثناء يُسْرِه صديقٌ حقيقىٌّ غيرُ مَنْ لم تَغُرَّه الظواهرُ ومَنْ يَرْثِى له أكثرَ من أن يَحْسُده على الرغم من يُسْرِه .

ومما يؤثِّرُ فى النفس ما يكتنف بعضَ الأحوال من سعادة ، كالحياة الريفية والرِّعائية مثلاً ، ولا يُسَمِّمُ الحسدُ ، مطلقاً ، فُتُونَ مشاهدةِ هؤلاء الناس السُّعَداء الصالحين الذين يُلْتَفَتُ إليهم حقًّا ، ولِمَ هذا ؟ ذلك لأن الإنسان يَشْعُر بقدرته على الهبوط إلى هذه الحال من الهدوء وسلامةِ الطَّوِية

وعلى التَّمَتُّع بعين السعادة ، وذاك بلاء لا يَمنَح غيرَ أفكارٍ مُسْتَحَبَّة ما دامت إرادة التمتع بها تَكْفِي للقدرة عليه ، ومما تَطِيبُ به النفسُ دائمًا أن ترَى مواردَها وأن تُنْعِم النظر فى مالها الخاصّ ، حتى عند عدم الرغبة فى الانتفاع به .

ومن ثَمَّ ترَى أن حَمْلَ الفتى على الإنسانية يستلزم إطلاعَه عليها من النواحى الكئيبة وجَعْلَه يخشاها مع البعد من جَعْلِه يُعْجَب بنصيب الآخرين الباهر ، وهكذا فإن من النتائج الواضحة وجوبَ شَقِّه طريقًا إلى السعادة غيرَ مُقْتَفٍ آثارَ أحدٍ .

المبدأ الثانى

لا نَأْلَمُ فى الآخرين لغير البلايا التى لا نعتقد إعفاءنا منها ، « وذلك لأننى بَلَوْتُ الشقاء الذى أعْرِف وروده بمساعدة التُّعَساء » .

ولا أعْرِف ما يَعْدِل هذا القولَ رَوْعةً وعمقًا وتأثيرًا .

ولِمَ يكون الملوكُ خالين من الرحمة نَحْوَ رعاياهم ؟ ذلك لأنهم لا يتَوَقَّعون أن يكونوا من الناس ، ولِمَ يكون الأغنياء بالغى القسوة تجاه الفقراء ؟ ذلك لأنهم لا يَخْشَوْن أن يُصْبِحوا من الفقراء ، ولِمَ يكون الأشراف كثيرى الازدراء للعوامّ ؟ ذلك لأن الشريف لن يكون عاميًّا ، ولِمَ يكون التُّرْكُ أكثرَ منا رِفقًا وقِرًى على العموم ؟ ذلك لأن عظمةَ الأفراد وثروتَهم ، فى حكومتهم المُرادِيَّةِ تمامًا ، إذْ تكونان زائلتين مُذَبْذَبتين دائمًا فإنهم

لا يَعُدُّون الخفْضَ والبُؤْس غريبَين عنهم[١] مطلقاً ، فيُمْكِن كلَّ واحدٍ أن يُصْبِح في الغد ممن يَتَصَدَّق عليهم اليومَ ، فهذا التأملُ المكرَّرُ كثيراً في القِصَص الشرقية يُنْعِمُ عليهم برقةٍ لا توجَدُ في أدبنا الجافِّ .

ولِذَا لا تُعَوِّدُوا تلميذَكم أن يَنْظُرَ من أعلى مجده إلى كُرُوب التعساء وأعمال البائسين ، ولا تأْمُلوا تعليمَه أن يتوَجَّع لهم إذا ما عَدَّهم غرباء عنه ، واجْعَلوه يُدْرِك أن مصيرَه قد يكون مثلَ مصير هؤلاء المَكْرُوبين ، وأن جميع بلاياهم تحته فيُمْكِنُ ألفَ حادثةٍ مفاجئةٍ محتومة أن تَجْعَلَه يَغطِس فيها بين حِينٍ وحِين ، وعَلِّمُوه عدمَ الاعتماد على النَّسَب وعلى الصحة والنَّشَب ، وأطْلِعُوه على تقلُّبات الطالع ، وابحثوا له عن أمثلةٍ كثيرة الوقوع دائماً حَوْل أناسٍ من أصْلٍ أرفعَ من أصله سَقَطُوا في حالٍ تحت حال أولئك المَنْكُودي الحظِّ ، وليس من موضوعنا الآن أن نُبَيِّن كَوْنَ ذلك نتيجةَ خطأٍ اقترفوه أو لا ، وإنما نقول : هل يَعْرِفُ ما الخطأ ؟ ولا تَجُورُوا على نظام معارفه مطلقاً ، ولا تُنيرُوه بغير بصائرَ تكون في متناوَله ، فهو لا يحتاج أن يكون بالغَ العِلْم حتى يَشْعُرَ بأن فِطْنَةَ الإنسان بكاملها لا تستطيع أن تجيبه بأنه سيكون حيّاً أو مَيْتاً في ساعة واحدة ، وأن آلامَ الكُلَى الحادّةَ لا تَجْعَلُه يَصْرُف بأسنانه قبل الليل مطلقاً ، وأنه سيكون غنياً أو فقيراً قبل مرور شهر واحد ، وأن من المحتمل ألّا يُجَدِّف تحت السَّوْط ، وقبل مرور عامٍ ، في سُفُن الجزائر ، ومن أخصِّ ما يكون ألّا تقولوا له

---

(١) يظهر أن هذا يتغير قليلا في الوقت الحاضر ، فالذي يلوح أن الأحوال تصبح أكثر ثباتاً وأن الناس يصيرون أكثر قسوة .

جميعَ هـذا بمِثْلِ بُرُودة كتابه الدينىِّ ، ولْيُبْصِرْ ، وليُحِسَّ مصائبَ الإنسان ، وهُزُّوا خيالَه ، وأَلْقُوا الرُّعْبَ فى هذا الخيال من الأخطار التى تُحيطُ بكلِّ إنسانٍ على الدوام ، ولْيَرَ جميعَ هذه المهاوى حَوْلَه ، ولْتَصِفُوها له حتى يبادِرَ إلى التَّعَلُّق بكم خَشْيةَ السقوط فيها ، وستقولون إننا نَجْعَلُه وَجِلًا جبانًا ، وسَنَرَى فيما بعد ، ولـكنْ لنبدأ الآن بجعله إنسانيًّا ، وهذا هو الذى يهمُّنا .

المبدأ الثالث

لا يقاسُ ما نُحِسُّ من شفقةٍ حَوْلَ بلاء الآخرين بمقدار هـذا البلاء ، بل بالشعور الذى نُعيرُه ممن يألمون به .

لا يُتَوَجَّعُ لتَعِسٍ إلا بمقدار ما نَرَى من احتياجه إلى التَّوَجُّع له ، وما يكون من إحساسٍ بدنيٍّ بآلامنا أضيقُ حَدًّا مما يَلُوح ، ولـكنها تحمِلُنا بالتوجع لها حقًّا بالذاكرة التى تَجْـعَلُنا نُحِسُّ دوامَها ، وبالخيال الذى يُمِدُّ مَدَاها إلى المستقبل ، وهذا ، كما أرى ، من الأسباب التى تجعلنا أشدَّ سوةً تجاه آلام الحيوان مما تجاه آلام الإنسان ، وإن كان من شأن الحَسَّاسية المشتركه أن تجعلنا متحدين بالحيوان جوهراً ، وما كان ليُتَوَجَّعَ لحصانٍ حُوذِيٍّ فى إصْطَبْله مطلقاً ، وذلك لأنه لا يُفْتَرَض أنه يُفَـكِّرُ وهو يأكل عَلَفَه فى الضَّرَبات التى تَلَقَّاها وفيما ينتظره من تعب ، وكذلك ما كان ليُتَوَجَّعَ لضائنٍ يُرَى وهو يَرْعى ، وإن كان يُعْرَفُ أنه سيُذْبَحُ عما قليل ، وذلك لأنه يُحْـكَمُ فى أنه لا يُبْصِرُ مصيرَه ، وإذا ما توسَّعْنا

فى الأمر وَجَدْنا ذاتَ القسوة تجاه نصيب الآدميين ، فالأغنياء يَتَعزَّوْن عما يُورِثُون الفقراء من ألَم بافتراضهم هؤلاء الفقراء أغبياء لا يَشْعُرُون بذلك ، وعلى العموم أحْكُمُ بالقيمة التى يَضَعُ كلٌّ واحدٍ فى مقابل سعادة أمثاله بالحال التى يَلُوح أنه يَتَمثَّلُها عنهم ، ومن الطبيعىّ أن تُعَدَّ رخيصةً سعادةُ مَنْ يُزْدَرَوْن ، ولا تَعْجَبُوا ، إذَنْ ، من حديث السياسيين عن الشعب بازدراء كبير ، ومن كونِ مُعْظَم الفلاسفة يُظْهِرُ الإنسانَ خبيثاً جِدًّا .

والشعبُ هو الذى يؤلِّفُ النوعَ البشرىَّ ، ومَنْ لَيْسُوا من الشعب هم من القلة ما لا يستحقون معه أن يُحْصَوْا ، والإنسانُ هو هو فى جميع المنازل ، وإذا كان الأمر هكذا فإن أكثرَ الطبقات أُناساً هى أكْثَرُ ما يستحقُّ الاعتبار ، وتزُول جميعُ الفرُوق أمام المفكِّر ، فهو يَرَى عينَ الأهواء وعينَ المشاعر فى الجِلْف والرجل المشهور ، وهو لا يَميزُ فيهما غيرَ لغتهما ، أى غيرَ تكلُّفٍ خفيفٍ فى لهجتهما ، وإذا ما وُجِدَ اختلافٌ جوهرىٌّ يُفرِّقُ بينهما كان هذا على حساب أكثرِهما رِئاء ، أَجَلْ ، إن الشعب يَبْدُو كما هو ، وهو ليس محبوباً ، ولكن لا بُدَّ لمن هم على المُوضَة من التَّنكُّر ، فلو بَدَوْا كما هم لاسْتُقْبِحُوا .

ويقول حكماؤُنا بوجودِ عينِ المقدار من السعادة والكَرْب فى جميع الطبقات ، وهذا المبدأ هو من الشؤم بمقدار ما يتعذَّرُ إثباتُه ، وذلك لأن الجميع إذا كانوا متساوين سعادةً فما احتياجى إلى إزعاج نفسى من أجْلِ أىٍّ كان ؟ ولْيَبْقَ كلٌّ كما هو عليه ، ولْيُعامَلِ العبدُ بسُوء ، ولْيَألَمِ العَليل ، ولْيَهْلِكِ الصُّعْلُوك ، ولا يُوجَدُ ما يَكْسِبُون من تغيير حالهم ، وهم يَعُدُّون آلامَ الغنىِّ ،

ويُثبِتُون بُطْلَانَ ملاذِّه الفارغة ، فيا للسَّفسَطة الغليظة ! إن آلامَ الغنيّ لا تأتيه من حاله ، ولكن من نفسِه التى يُسِيءُ استعمالَها ، وهو إذا كان أكثرَ تعَساً من الفقير فليس له أن يتوَجَّع ما دامت جميعُ آلامِه من صُنع نفسه ، وما دام أمرُ سعادته يتوقَّف عليــه ، غير أن ألم البائس يأتيه من الأشياء ، يأتيه من قسوة النصيب الشديد الوطأة عليــه ، ولا تُوجَدُ عادةٌ قادرةٌ أن تنزِع منه حِسَّ التعبِ البــدنىّ والضَّنَى والجوعِ ، وما كانت سلامةُ القلب ولا الحــكمةُ لتَنْفعَ فى نجاته من بلايا حاله ، وما رِبْحُ إبِكْتِيت من عِلْمه مُقَدَّماً بأن مولاه سيَكْسِرُ ساقَه ؟ كان يساورُه ألَمُ إدراكِ الأمر قبل وقوعه فضلًا عن ألمه ، ومتى صار الشعب من الرَّصانة بمقدار ما نفترض له من البلاهة فما يستطيع أن يَكُونَ على خلاف ما هو عليه ؟ وما يستطيع أن يَصْنَعَ غيرَ ما يَصْنع ؟ ادْرُسُوا أبناء هذه الطبقة تَجِدُوا ، مع اختلافٍ فى الكلام ، أنها ذاتُ ذهنٍ مِثْلِ ذهنكم وأنها أكثرُ منكم حُسْنَ ذَوْقٍ ، وأكْرِمُوا نوعَــكم إذَنْ ، وقَدِّروا أنه مؤلَّفٌ من مجموعة شعوبٍ جوهراً ، وأنه إذا ما نُزِع منها جميعُ الملوك والفلاسفة فإنهم لا يكادون يَبِدُون ، وإن الأمور لا تسير إلى أسوأ مما هى عليه ، والخلاصةُ هى أن تُعَلِّمُوا تلميذَكم حُبَّ جميع الناس ، حتى الذين يزدرونهم ، وتَصَرَّفوا تَصَرُّفاً لا يكون معه مكانٌ له فى أية طبقةٍ كانت ، ولكن مع وجوده فيها جميعاً ، وتَكَلَّمُوا أمامه برِقَّةٍ عن الجنس البشرىّ ، فالإنسانُ لا يَشِينُ الإنسانَ مطلقاً .

فبهذه الطريق وما ماثلها من الطرق ، المخالفة للتى شُقَّتْ ، يُسْتَحْسَنُ أن يُنْفَذَ فى فؤاد المراهِق لإثارة أُولى حركاتِ الطبيعة فيه ، وإنمائه ومَدِّه

إلى نظائره ، وإلى هذا أُضيف قولى إن من المهمّ أن يُخْلَطَ بهذه الحركات أقلُّ ما يُمكِن من المصالح الشخصية ، ولا سيما الزَّهْوُ والمنافسةُ وتلك المشاعرُ التى تَحْمِلُنا على قياس نفسنا بالآخرين ، وذلك لأن هذه المقايساتِ لا تتمُّ من غير حقدٍ ما على الذين ينازعوننا الأفضليةَ ، ولو من حيث تقديرُنا الخاصُّ ، وهنالك لا بُدَّ من التَّعامِى أو التَّنمُّرِ ، والخُبْثِ أو البَلَه ، فلْنَجْتَهِدْ فى اجتناب هذا التناوب ، وسيقال لى إن هذه الأهواءَ البالغةَ الخطر ستُولَدُ عاجلًا أو آجلًا ، ولا أُنكِر هذا ، فلكلِّ شىء زمانُه ومكانُه ، وإنما أقول إنه لا ينبغى أن تساعَدَ على الظهور .

وهذا هو روح المنهاج الذى يجب فَرْضُه ، ولا فائدةَ من الأمثلة والتفاصيل هنا ، وذلك لأنه يَبْدَأُ هنا ما لا يُحْصَى من تقسيم الأخلاق ، فلا يطابقُ المَثَلُ الذى أُورِد غيرَ واحدٍ من مئة ألفٍ على ما يحتمل ، وفى تلك السِّنِّ ، أيضاً ، تَبْدَأُ فى المعلم الماهر وظيفةُ الرقيب الفيلسوف الذى يَعرِف فَنَّ سَبْرِ القلوب بالعَمَل فى تكوينها ، وبَيْنا لا يُفكِّر الفتى فى التَّنكُّر الذى لم يُدْرِكْه بَعْدُ يُرَى فى ملامحه وعينيه وحركته ما تَلَقَّى من انطباعٍ عن كلِّ موضوعٍ يُعرَض عليه ، أى إنه يُقرَأ على وجهه جميعُ حركات روحه ، فإذا ما رُصِدَت هذه الحركات انْتُهِىَ إلى البصر بها ثم إلى توجيهها .

ومما يُلاحَظُ على العموم كَوْنُ الدمِ والجروحِ والصُّراخِ والأنينِ وجهازِ الأعمال المؤلمة وكلِّ ما يَحْمِلُ إلى الحواسِّ موادَّ المِحَن أموراً سريعةَ التأثير فى جميع الناس إجمالاً ، وبما أن فكرة الهدم أكثرُ تركيباً فإنها دون ذلك

تأثيراً ، ومن ذلك أن صورة الموت تؤثر تأثيراً متأخراً وأكثرَ ضعفاً ، وذلك لأنه لا أحَد يعرف ما الموتُ عن تجربةٍ ، فلا بُدَّ من رؤية الجُثث حتى يُشْعَرَ بشدائد المُحْتَضَرين ، ولكن هذه الصورة إذا ما تكوَّنت فى ذهننا مرَّةً لم يُوجَدْ ما هو أفظعُ من هذا المنظر فى أعيننا ، وذلك بسبب فكرة الهدم الشامل التى تثيرُها بواسطة الحواسّ ، أو لأن الإنسان يَعْلَمُ أن هذه الساعةَ تأتى جميعَ الناس حتماً فيكونُ بالغَ التأثُّرِ من حالٍ يَعْتَقِدُ عجزَه عن الإفلات منها .

أجَلْ ، إن لهذه الانطباعات المختلفة تَحَوُّلاتِها ودرجاتِها التى تتوقفُ على طَبْع كلِّ فردٍ وعلى سابق عاداته ، غير أنها عامةٌ ولا يُسْتَثْنى منها أحدٌ تماماً ، ومنها ما يأتى متأخراً ويكونُ أقلَّ عموماً فيلائمُ النفوسَ الحسَّاسة ، وتكون تلك الانطباعاتُ نتيجةَ كُرُوبٍ أدبية وآلامٍ باطنية وأحزانٍ وذُبولٍ وغَمٍّ ، ومن الناس من لم يُحَرَّكوا بغير الصُّراخ والبكاء ، وما كان الأنينُ الطويلُ الأصمُّ الصادرُ عن فؤادٍ مُنْقَبِضٍ ضِيقاً لِيَنْزِعَ منهم تأوُّهاً ، وما كان منظرُ مَوْعُوكٍ ووجهٍ شاحبٍ مُرَصَّصٍ وعينٍ مُنْطفئة عاجزةٍ عن البكاء لِيُبْكِيَهم ، فآلامُ النفس ليست شيئاً بالنسبة إليهم ، وهم يَزِنُونها ، ولا تَشْعُر نفسُهم بشىء منها ، ولا تنتظروا منهم غيرَ صلابةٍ لا تنثنى وغيرَ قسوةٍ وغِلْظة ، ومن الممكن أن يكونوا أعِفَّاء منصفين ، لا رُحماء كُرَماء شَفِقين ، وأقول إن من الممكن أن يكونوا منصفين إذا كان الإنسان قادراً أن يكون منصفاً من غير أن يكون راحماً .

ولكنْ لا تبادروا إلى الحكم فى الفِتْيان وَفْقَ هذه القاعدة ، ولا سيما

الذين نُشِّئُوا كما يَنْبَغِى أن يكونوا ، فليس لديهم أيةُ فكرةٍ عن الآلام الأدبية التى لم يُحْمَلُوا على اختبارها مطلقاً ، ولأنهم ، كما أقول مُكَرِّراً ، لا يستطيعون أن يَتَوَجَّعوا لغير ما يَعْرِفون من آلامٍ ، ولأن هذه اللاحَسَّاسية الظَّاهرة التى لا تأتى من غير الجَهْل لا تَلْبَثُ أن تتحوَّل إلى رِقَّةٍ عندما يأخذون فى الشعور بوجود ألفِ ألمٍ فى الحياة البشرية لا يَعْرِفونه ، وأما إميلُ فإذا كان ذا بساطةٍ وسلامةِ ذوقٍ فى صِباه فإننى أعتقد أنه سيكون ذا مُهْجَةٍ وحساسيةٍ فى شبابه ، فصدقُ الأحاسيس يتعلق بسَدَاد الأفكار كثيراً .

ولكنْ لِمَ نَذْكره هنا ؟ يُوجَدُ أكثرُ من قارئٍ سيَلُومنى ، لا ريب ، على نسيان أحكامى الأولى والسعادةِ الدائمةِ التى وعَدْتُ تلميذى بها ، تعساء ، مُحْتَضَرُون ، مناظرُ ألمٍ وبؤس ! أىُّ سعادة ! يا لَتَمَتُّع فؤادٍ فَتِىٍّ أصبح على باب الحياة ! إن معلمَه الحزين الذى أَعَدَّ له تربيةً بالغة الحلاوة لم يُوجِدْه لغير الألم ، وإليك ما يقال : وما يهمُّنى ؟ لقد وَعَدْتُ بأن أجعله سعيداً ، لا أن أجْعَلَه سعيداً ظاهراً ، وهل مِنْ ذَنْبِى أن تُخْدَعُوا بالظاهر دائماً فتعدُّوه حقيقةً ؟

ولنتاولْ فَتَيَيْن أتمَّا تربيتَهما الأولى ودَخَلا العالَم من بابين متقابليْن على خطٍّ مستقيم ، فصَعِدَ أحدُهما فوق الأُلِنْبيا بغتةً وظَهر فى أَسْطع مجتمع ، ويُؤْتَى به إلى البَلاط لدى العظماء والأغنياء والحِسَان ، وافْتَرَضه عَيَّد فى كل مكان ، ولا أفْحَصُ فِعْلَ هذا القَبُولِ فى عقله ، وإنما أُقَدِّر مقاومتَه له ، وتَطِيرُ المَلَاذُّ أمامه ، وتُلْهِيه كلَّ يومٍ أمورٌ جديدة ، ويَنْهَمِكُ فيها جميعاً

برغبةٍ تُغْوِيكم ، وأنتم تَرَوْنه منتبهاً مبادراً ذا فُضُول ، ويَقِفُ نظرَكم دَهَشُه الأول ، وتَعُدُّونه راضياً ، وإذا ما نظرتم إلى حاله النفسية اعتقدتم أنه يَتَمَتَّع ، وأما أنا فأعتقد أنه يتوجَّع .

وما الشيء الأول الذى يَرَى حينما يَفْتَح عينيه ؟ يَرَى كلَّ نوعٍ من المُتَع التى كان لا يَعْرِف ، والتى لا يكون معظمُها فى متناوَله غيرَ هُنَيْهَةٍ فلا يَلُوح أنها تَظْهَرُ له إلَّا لِتُورِثَه حَسْرَةً على أنه حُرِمَها ، وإذا ما طاف فى قَصْرٍ وجدتم مع اضطرابِ فُضُوله أنه يسأل فى نفسه عن السبب فى كَوْن منزله الأبوىّ من غير هذا الطِّرَاز ، وتُنْبِئُكم جميعُ أسئلته بأنه يقابل بين نفسه وبين رَبِّ هذا المنزل ، فيكون كلُّ ما يَجِدُ من إذْلال له بهذه المقارنة مُرْهِفاً لزهوه بإثارته ، وإذا ما لَقِىَ فتًى أحسنَ لباساً منه أبْصَرْته يُهَمْهِمُ سِرًّا ضِدَّ بُخْل والديه ، وإذا كان أحسنَ مِنْ فتًى آخرَ بِزَّةً ألِمَ من مشاهدته هذا الآخرَ يَحْجُبه بنَسَبه أو بذهنه ورأى أن ثَوْبَه المُذْهَب أُخْزِىَ بثوبٍ بسيطٍ من الجوخ ، وإذا ما تألَّق وحدَه فى مجلسٍ فوَقَف على طرف إصبع القدم حتى يكونَ أحسنَ ظهوراً فمن ذا الذى لا يستعدُّ سِرًّا لخَفْضِ ما عليه الفتى المختال من عُجْبٍ فارغ ؟ يَتَّحِد الجميعُ من فَوْرهم كما لو كانوا على اتفاق ، ولا يَلْبَثُ ما يُلْقِى رجلٌ رصينٌ من نَظَراتِ غَمٍّ ، وما يَنْطِق به رجلٌ لاذعٌ من كلمات هُزُوء ، أن يَصِلَ إليه ، ولو لم يَزْدَرِه غيرُ رجلٍ واحدٍ لسَمَّم هذا الازدراء هُتافاتِ الآخرين حالًا .

ولْنُعْطِه كلَّ شىء ، ولْنَغْمُرْه بكلِّ لَهْوٍ ، ولْنُفِضْ عليه بكلِّ فَضْلٍ ، وليَكُن حَسَنَ التكوين فَيَّاضَ الذهن خفيفَ الروح ؛ ليصيرَ ، إذَنْ ،

موضعَ بحث النساء ، ولكنه إذا ما غدا محلَّ طَلَبِهِنَّ قَبْلَ أن يُحِبَّهن جعلْنَه مجنوناً أكثرَ منه عاشقاً ، أى إنه يكون حسنَ الطالع من غير أن يَتَمَتَّعَ به ، وبما أن مُنَاهُ تَكون مسبوقةً دائماً ولا يكون لديها من الوقت ما تُولَدُ معه فإنه لا يَشْعُرُ فى سواء المَلَاذِّ بغير غَمِّ الضِّيق ، أى إن الجنس الذى خُلِقَ لسعادة جنسه يُورِثُه سَأَماً ، حتى إنه يَرْوِى غَلِيلَه قبل أن يَعْرِفه ، وهو إذا ما داوم على رؤيته كان هذا عن زَهْوٍ ، فإذا حان الوقتُ الذى يتعلَّقُ به عن ذَوْقٍ حقيقىٍّ لم يَكُنْ وحدَه الشابَّ الناضرَ المحبوب ، ولم يَجِدْ فى خليلاته عجائبَ الوفاء دائماً .

ولا أقول شيئاً عن المناكدات والخيانات والسُّخُمات والتَّوْبات وما إلى هذه من الأمور التى يَتَعَذَّرُ فَصْلُها عن مِثْل هــذه الحياة ، وأعْرِفُ أن اختبارَ العالَم يُوجِبُ نُفُوراً منه ، ولا أتكلم عن غير الغُمُوم التى تتصل بالوهم الأول .

يا للتضادِّ فى أمْرِ مَنْ حُصِرَ حتى الآن فى سَوَاء أُسْرَته وأصدقائه فأبْصَرَ نفسَه هَدَفاً وحيداً لكلِّ رعايةٍ منهم ، فدَخَل بغتة فى نظامٍ من الأمور لا يُكْتَرَث له فيــه إلّا قليلاً ، فوَجَدَ نفسَه غارقاً ضِمْنَ نطاقٍ غريب بعد أن ظَلَّ مركزَ نطاقه زمناً طويلًا ! وياللّمَهانات والمَخَازى التى يجب أن يقاسِيَها قبــل أن يَخْسَر بين أُناسٍ من الغرباء ما رَضَعَ بين أهلِيه من مُبْتَسَراتٍ حَوْل اعتباره ! كان الجميعُ يَخْضَعُ له وليداً فيُهْرَعُ إليه ، فلما أصبح فَتًى وَجَب أن يَخْضَع لجميع الناس ، أو إنه إذا ما بَقِيَ له شيءٌ قليلٌ من سابق مظاهره فما أقسى الدروسَ التى يُرَدُّ بها إلى نفسه !

وما كان من عادةِ نَيْلِه بسهولةٍ ما يَبْتَغى جَعَلَه كثيرَ الرَّغَبات فأدى إلى شعوره بحِرْمانٍ دائم ، ويَبْغِى كلَّ شىء يُغْرِيه ، ويُريدُ نَيْلَ كلِّ ما يَحُوزُه الآخرون ، أى إنه يَطْمَع فى كلِّ شىء ، ويَحْسُدُ كلَّ واحد ، ويريد أن يسيطر فى كلِّ مكان ، ويَقْضَمه الزَّهْوُ ، وتُلْهِبُ قلبَه الفَتِيَّ حرارةُ الشَّهَواتِ الجامحة ، وتُولِّدُ الغَيْرَةُ والحقد مع هذه الشَّهَوات ، وتنطلق جميعُ الأهواء المُلْتَهِمةُ معاً ، فيَحْمِلُ اضطرامَها بين ضوضاء العالَم ، وهو يأتى بها فى كلِّ مساء ، وهو يَرْجِعُ إلى منزله غير راضٍ عن نفسه وعن الآخرين ، وهو ينام مملوءاً بألفِ خِطَّةٍ فارغة ، مُكَدَّراً بألفِ هَوًى ، ويُصَوِّر له زَهْوُه ، حتى فى رُؤاه ، من المُتَعِ الوهمية ما تُزْعِجُه الرغبةُ فيه ، من تلك المُتَعِ ما لن يَحُوزَه مَدَى حياته ، فهاهو ذا تِلميذُكم ، ولْنَعُدْ إلى تِلميذى .

إذا كان أولُ مَنْظَرٍ يَقِفُ نظرَه أمراً مُغِمًّا فإن أولَ عَوْدٍ إلى نفسه يكون شعورَ لذةٍ ، وهو إذْ يَرَى مقدارَ ماهو ناجٍ منه من سُوء فإنه يَشْعُر بأنه أكثرُ سعادةً مما كان يَظُنُّ ، وهو يقاسم أمثالَه آلامَهم ، غيرَ أن هذه المقاسمةَ اختياريةٌ مستعذبة ، وهو يتمتع بما يساوره من رحمةٍ حَوْل وَيْلاتهم ومن السعادة التى تُعْفِيه منها ، وهو يَشْعُر فى هذه الحال بقُوَّةٍ تُطِيلُنا إلى ما وراء أنفسنا وتَجْعَلُنا نَحْمِلُ إلى غيرِ مكاننا ما يَفِيضُ من أثَرٍ يُسْرِنا ، أجَلْ ، لا بُدَّ من معرفة كُرَبِ الآخرين حتى يُتَوَجَّع له ، ولكنْ ليس من الضرورىِّ أن يُشْعَرَ به ، أَجَلْ ، إننا متى تَمَّ أَلَمُنا ، أو خَشِينَا أن نألم ، تَوَجَّعْنا لِمَنْ يَأْلَمُون ، ولكن الإنسان عند

أله لا يَتَوَجَّعُ لغير نفسه ، والواقعُ أن الجميعَ إذا كان خاضعاً لأبؤسِ الحياة ، ولم يَحْبُ الآخرين أحدٌ بغير الحسّاسية التى لا حاجةَ له بها ، فإنه يَتْبَعُ ذلك وجوبُ كَوْنِ الرحمة شعوراً كثيرَ العُذُوبة ما دامت الرحمةُ تَشْهَدُ لنا ، وعَدُّ الإنسانِ القاسى ، على العكس ، تَعِسًا دائمًا ما دامت حالُ قلبه لا تَدَعُ له أيةَ حَسَّاسيةٍ فيّاضةٍ يستطيع أن يُعيرَها من آلامِ الآخرين .

ونحن كثيرو الحكم فى أمر السعادة وَفْقَ الظواهر ، ونحن نفترض السعادةَ حيث أقلُّ ما تكون ، ونحن نبحث عنها حيث لا تكون ، وليس السرورُ غيرَ دليلٍ عليها كثيرِ الإبهام ، وليس الإنسان المَرِحُ ، فى الغالب ، غيرَ مَكْرُوبٍ يحاول التمويهَ على الآخرين وتعليلَ نفسِه ، وليس الضاحكون المتودِّدون المُشرِقون كثيراً فى حَلْقةٍ غيرَ حِزانٍ كثيرى التأنيب فى منازلهم تقريباً ، ويَحْمِلُ خَدَمُهم مشقةَ الترويح عن مجتمعاتهم ، ولا يكون الرِّضا الحقيقىُّ سروراً ولا بَطَراً ، ونحن إذْ نغتبط بهذا الإحساس البالغِ العُذُوبة حين نَذُوقه نُفَكِّر فيه ونَتَلَذَّذ به ونخاف أن يَزُول ، والإنسانُ السعيدُ حَقًّا لا يتكلّم أبداً ولا يضحك مطلقاً ، وإنما يَشُدُّ السعادةَ حَوْلَ فؤاده ، وتَسُرُّ الألعابُ الصَّخّابة والبشاشةُ الطَّيّاشة كلَّ سأمٍ ونُفور ، بَيْدَ أن السَّوْداء صاحبةُ الشهوة ، وترافقُ الرِّقَّةُ والدموعُ أحْلَى المُتَع ، ويُوجِبُ الفَرَحُ البالغُ دَمْعاً أكثر مما يوجب صُراخًا .

وإذا كانت كثرةُ الأُلْهُوّات وأنواعُها تساعدان على السعادة كما تَبْدُوان فى البُداءة ، وإذا كانت نمطيةُ الحياة المُمَهَّدَةِ تَبْدُو مُمِلّةً فى البُداءة ، فإنه

عند حُسْن النظر فى ذلك ، يُرَى ، على العكس ، أن أحلى عاداتِ النفس تَقُومُ على اعتدال النعيم الذى يَدَعُ قليلَ مَجَالٍ للرغبة والنُّفُور ، ويؤدِّى هَمُّ الرَّغائب إلى الفُضُول والتقلُّب ، ويؤدِّى فراغُ المُتَع الصَّخَّابة إلى السَّأم ، ولا يَسْأم الإنسانُ من حاله مطلقاً إذا لم يَعْرِف ما هو أَمْتَعُ منها ، وإذا نظرتَ إلى جميع الناس وجدتَ الهَمَج أقلَّهم فُضُولاً وأقلَّهم سأماً ، وكلُّ شيء عندهم سواء ، وهم لا يتمتعون بالأشياء ، بل بأنفسهم ، وهم لا يَقْضُون حياتَهم فى عمل أىِّ شىء كان ، وهم لا يسأمون مطلقاً .

ويَكُون رجلُ الدنيا ضِمْنَ قِناعه تماماً ، وهو ، إذْ لم يَكَدْ يكون إياه ، يُعَدُّ غريباً عن نفسه دائماً ، وهو يكون غيرَ مرتاحٍ إذا ما أُلْزِم بالعَوْد إلى حاله ، وما يَكُونُه لا يُعَدُّ شيئاً ، وما يَبْدُو أنه هو يُعَدُّ كلَّ شىء عنده .

ولا أستطيع أن أمْتَنِـع عن أن أرسم على وجه الفَتَى الذى تكلمتُ عنه آنفاً ، ما أقُول ، مُجُوناً أو دَمَاثةً أو تكلُّفاً يَأْنَفُ منه البسطاء ويسترذلونه وعلى وجهِ فَتَاىَ سِيا مُمْتِعةً بسيطةً دالَّةً على الرِّضا وعلى صفاء النفس الحقيقىِّ مُوحِيَةً بالتقدير والاطمئنان غير مُرْتَقِبَةٍ ، كما يَلُوح ، سوى تَدَفُّق الصداقة لمنحها من يَدْنُون منه ، ومما يُعْتَقَدُ كَوْنُ السِّيا ليست غيرَ نُمُوٍّ بسيطٍ للملامحَ رسمتها الطبيعة ، وأما أنا فأرى أنك إذا عَدَوْت هذا النموَّ وَجَدْتَ ملامحَ الوجه تتكون تَكَوُّناً غيرَ محسوس وتَتَّخِذ سِياها بمُؤَثِّرٍ اعتيادىٍّ مستمرٍّ صادرٍ عن بعض عواطف النفس ، وتَنْطَبِـعُ هذه العواطف على الوجه ، ولا شىءَ أَصَحُّ من هذا ، وهى إذا ما تَحَوَّلت إلى عادةٍ وَجَبَ أن تترك انطباعاتٍ دائمةً ، ومن ثَمَّ تَرَى كيف أَتَصَوَّر أن

السِّيما تَنِمُّ على السَّجيَّة وأنه يُمْكِنُ ، أحياناً ، أن يُحْكَمَ بإحداها فى الأخرى ، وذلك من غير بحثٍ عن تفسيرات حافلةٍ بالأسرار تَفْتَرِض معارفَ لسنا حائزين لها .

وليس لدى الولد سوى عاطفتين بارزتين ، وهما الفرَحُ والألم ، فهو يَضْحَك وهو يَبْكى ، وليست المراحلُ المتوسطة شيئاً يُذْكَرُ لديه ، وهو لا يَنْفَكُّ ينتقل من إحدى هاتين الحركتين إلى الأخرى ، ويَحُولُ تناوبُ هاتين الحركتين الدائمُ دون وجود أيٍّ انطباعٍ ثابتٍ على وجهه ودون اكتسابه سيما ، بَيْدَ أنه فى السِّنِّ التى يكون فيها أكثرَ إحساساً ، فيَظْهَرُ أشَدَّ عطفاً وأدْوَمَ شعوراً ، تَتْرُكُ الانطباعاتُ الأعظمُ عُمْقاً آثاراً يكون من الصَّعْب البالغ محوُها ، وينشأ عن حال النفس المُعْتَادَة نظامٌ من الملامح يَمْتَنِعُ زوالُه مع الزمن ، ومع ذلك فليس من النادر أن يُرَى أناسٌ يُغَيِّرون سيماهم فى مختلف أدوار العمر ، فقد شاهدتُ أناساً كثيرين فى هذه الحال ، وقد وجدتُ فى كلِّ حين أن مَنْ استطعتُ أن أرْقُبَهم وأتَتَبَّعَهم جَيِّداً كانوا يُغَيِّرُون أهواءهم المعتادةَ أيضاً ، ويَلُوحُ لى أن هذا الرَّصَد الوحيد المُؤيَّدَ تأييداً تامًّا قاطعٌ ، وأن له مكاناً فى رسالةٍ عن التربية حيث يَحْسُنُ أن يُتَعَلَّمَ الحُكْمُ فى حركات النفس بالعلامات الخارجية .

ولا أدْرِى هل يكون فتاى أقَلَّ جدارةً بالحُبِّ لعدم تَعَلُّمه تقليدَ الأوضاعِ الاصطلاحية وإظهارَه من المشاعر ما ليس لديه ، فليس هذا موضوعَ بحثٍ هنا ، وإنما أعْرِف أنه سيكون أكثرَ وُدًّا ، ويَصْعُبُ علىَّ أن أعتقد أن الذى لا يُحِبُّ سوى نفسِه يكون من القدرة على التَّنَكُّر ما يَرُوقُ معه

غيرَه بمقدار ما يَرُوقُ الإنسانُ الذى يَسْتخلص من تعلّقه بالآخرين شعوراً بالسعادة جديداً ، ولكننى أعتقد ، من حيث هذا الشعورُ نفسُه ، أننى قلت بما فيه الكفاية ما أُرْشِدُ معه القارئَ الرشيدَ حَوْلَ هذه النقطة دالاً على أننى لم أناقض نفسى .

وأعُود إلى مِنْهاجى وأقولُ إذَنْ : إذا ما اقترب دَوْرُ الخَطَر فقَدِّموا إلى الفِتيان مناظرَ تُمْسِكهم ، لا مناظرَ تُحَرِّكهم ، وغالطوا خيالَهم الناشئ بأمورٍ بعيدةٍ من إلهاب حواسِّهم زاجرةٍ لنشاطها ، وأبعدوهم من المدن العظيمة حيث يُعَجِّلُ تَبَرُّجُ النساء وعدمُ احتشامِهِنَّ دروسَ الطبيعة ويَسْبِقَانها ، وحيث يَعرِض كلُّ شىء على عيونهم ما لا يَنْبَغى أن يَعْرِفوه من الملاذِّ إلا حين يَقْدِرُون على اختيارها ، وأْتُوا بهم إلى مساكنهم الأولى حيث تَدَعُ بساطةُ الأرياف أهواءَ سِنِّهم تَنْمُو نُمُوًّا أقلَّ سرعةً ، أو إذا كان مَيْلُهم إلى الصنائع لا يزال يَرْبِطهم بالمِصْر فحوِّلوا بهذا المَيْل فيهم دُونَ بِطالةٍ خَطِرةٍ ، واعْنَوْا باختيار مجتمعاتهم وأشاغيلهم ومَلاذِّهم ، ولا تُطْلِعُوهم على غير التصاوير المؤثِّرة مع الاعتدال فتُحَرِّكهم من غير إغواء وتُغَذِّى حاسيَتَهم من غير إثارةٍ لحواسِّهم ، وكذلك اعْلَمُوا أنه يُوجَدُ فى كلِّ مكان من الفِسْق ما يُخْشَى ، وأنه يُوجَد من الأهواء المتطرفة ما يُوجِبُ فى كلِّ وقت من السوء ما لا يُجْتَنب ، ولا يُرَاد أن يُجْعَل من تلميذكم مُمَرِّضٌ أو راهبُ محبةٍ ، ولا أن تَغَمَّ عيناه بمناظرَ موجبةٍ للآلام والأوجاع ، ولا أن يُطَافَ به بين عَليلٍ وعليل وبين مَشْفًى ومَشْفًى ، وبين محالِّ الإعدام والسجون ، وإنما يُرَاد إثارةُ حَنَانِه ، لا إقسَاؤه بمنظر الأَبْؤُسِ البشرية ،

فالإنسانُ إذا ما واجهَ عينَ المناظر زمناً طويلاً عاد لا يَشْعُر بانطباعاتها ، فالعادةُ تُعَوِّدُ الإنسانَ كلَّ شيء ، وما يُرَى كثيراً يعُودُ بعيداً من الخيالِ ، والخيالُ وحدَه هو الذى يجْعَلنا نَشْعُر بمصائب الآخرين ، وهكذا فإن القساوسة والأطباء يصيرون فاقدى الرحمة بما يَتَّفِقُ لهم من مشاهدة الموت والألم ، ولْيَعْرِفْ تلميذُكم ، إذَنْ ، مصيرَ الإنسان وأبْؤسَ أمثاله ، ولكن دَعُوه لا يشاهدُ ذلك غالباً ، وما يُطْلَعُ عليه من شيء يُحْسَنُ اختيارُه ، وذلك فى يومٍ ملائم ، يُورِثُه رقةً وتأملاً لشهرٍ واحد ، ولا يَتَوَقَّفُ رأيُه حوْلَ أمرٍ ما على ما يرَى ، بل على ما يَكُون له من رَدِّ فِعْلٍ فيه ، وما يَتَلَقَّاه من انطباعٍ مستمرٍّ عن شىء ما يأتيه من ذات الشيء أقلَّ مما يأتيه من وجهة النظر التى تَحْمِلُه على تذَكُّره ، وهكذا فإنكم ، إذْ تُرَتِّبُون الأمثلةَ والدروسَ والصورَ ، تُكِلُّون مِهْمازَ الحواسِّ وتخادعون الطبيعةَ باتباع توجيهاتِها الخاصة .

وكُلَّما نال معارفَ اختاروا من الأفكار ما يلائمها ، وكلما اشتعلت شَهَواتُنا اختاروا من التصاوير ما هو صالحٌ لرَدْعِها ، وقد قَصَّ علىّ محاربٌ قديمٌ امتاز بأخلاقه وشجاعته أن أباه ، وكان رجلاً حصيفاً مع الوَرَع البالغ ، أبْصَرَ مزاجَه الناشئ يُسْلِمُه إلى النساء فلم يَدَّخِرْ وُسْعاً فى زَجْرِه ، ولكنه على ما أبْدَى من ضروب العناية شَعَرَ أخيراً بأنه كاد يُفْلِتُ منه فعَنَّ له أن يأتىَ به إلى مَشْفَى للإفرنجىِّ ، ويُدْخِلَه من غير سابق إنذارٍ قاعةً مشتملة على جَمْعٍ من أولئك التعساء الذين كانوا يُكَفِّرُون ، بمداواةٍ هائلةٍ ، عن الفِسْق الذى عرَّضهم لذلك ، ويَمْرَضُ الشابُّ عند هذا المنظر الفظيع

الذى يُنَغِّصُ جميعَ الحواسِّ ، وهنالك يقول له أبوه صائلاً : « اذهَبْ أيها الداعِر واتَّبِعْ مَيْلَكَ الساقط الذى يَسُوقك ، وستكون ، عما قليل ، سعيداً جِدّاً إذا ما قُبِلْتَ فى هذه القاعة حيث تكون ضحيةَ أشدِّ الآلام فَضْحاً ، فَتَحْمِلُ أباكَ على الشُّكْرِ لله عند موتك » .

وكان لهذه الكلماتِ القليلة ، مع المنظر الفَعَّال الذى وَقَفَ نَظَر الشابِّ ، أثرٌ لم يَزُلْ قَطُّ ، وبما أن مِهْنَتَهَ كانت تُلْزِمه بأن يَقْضِىَ شبابَه فى الحامِيَات فقد فَضَّل أن يقاسِىَ جميع سُخْريات رفقائه على تقليد فُجُورهم ، وقد قال لى : « كنتُ رجلاً ، وكان لى ضَعْفِى ، ولكننى ، وقد بلغتُ سِنِّى الحاضرة ، لم أَقْدِرْ على رؤية بَغِيٍّ قَطُّ من غيرِ نُفُورٍ » ، فيا أيها المعلِّم ، كُنْ قليلَ الكلام ، ولكن اختَرْ الأمكنة والأزمنة والأشخاص ، ثم ألْقِ دروسَك بالأمثلة ، واطْمَئِنَّ إلى أثرِها .

وليس الوجهُ الذى يُقْضَى به دَوْرُ الصِّبَا أمراً كبيراً ، وليس السوء الذى يَنْساب فيه بلا دواء مطلقاً ، وقد يأتى الخَيْرُ الذى يُصْنَع فيه متأخراً ، وليس الأمرُ هكذا فى الدور الأول من العمر حيث تبدأ حياةُ الإنسان حَقّاً ، ولا يَدُوم هذا الدور بما يَكْفِى للقيام بما يجب أن يُصْنَع فيه ، ويستلزم خَطَرُه انتباهاً مستمرّاً ، ولِذا فإننى أُصِرُّ على فَنٍّ إطالته ، ومن أَرْوع مبادئ الثَّقافة الصالحة أن يُؤَجَّلَ كلُّ شىء ما أَمْكن ، ودَعُوا التقدمَ يَسِيرُ وئيداً وطيداً ، وحُولُوا دون غُدُوِّ المراهق رجلاً حين لا يَبْقَى له شىء يَفْعَلُ ليَكُونَه ، وبَيْنَا يَنْمُو البدنُ تَنْشَأُ الأرواحُ المُعَدَّة لمَنْح الدمِ نشاطاً والألياف قوةً وتَنَضَجُ ، وإذا ما حَوَّلتموها إلى مجرًى آخرَ ، وسمحتم للقوة المُعَدَّةِ لكمال

شخصٍ بأن تنفع فى صُنْعِ شخصٍ آخرَ ، بَقِيَ كلاهما فى حال ضعفٍ وظَلَّ عملُ الطبيعة ناقصاً ، وتتأثَّرُ أعمالُ الذهن بِدَوْرِها من هذا التغيير، ولايكون للذهن الواهِنِ وَهْنَ البدن غيرُ وظائفَ ضعيفةٍ واهية ، ولا تَصْنَعُ الأعضاء الغليظة العُصُابِيَّة شجاعةً ولا نبوغاً ، وأُدْرِكُ أن قوةَ الروح لا تُلَازِم قوةَ البدن عند ما تكون أعضاء الاتصال بين العنصرين سيئةَ النظام ، ولكنْ مهما تَسْتَطِعْ أن تكون حسنةَ النظام فإنها تكون ضعيفةَ التأثير دائماً إذا لم يكن لها من الأصل سوى دمٍ مُسْتَنْزَفٍ فقيرٍ خالٍ من ذلك الجوهر الذى يُنْعِم بالقوة والحركة على جميع نوابض الآلة ، ومما يشاهَدُ على العموم وجودُ قوة ذهنٍ فى الرجال الذين صانوا سنواتِهم الأولى من فجورٍ باكرٍ أكثرَ مما فى الرجال الذين بدأ فُجُورهم حين قدرتهم على تعاطيه ، ولا جَرَم أن هذا من الأسباب فى كون الشعوب ذاتِ الأخلاق تَفُوقُ الشعوبَ الخالية من الأخلاق عادةً ، وذلك من حيث سلامةُ الذوق والبسالةُ ، وتَلْمَعُ هذه الشعوب الأخيرة ، فقط ، ببعض الصفات الرقيقة التى تُسَمِّيها حَصافةً ولَقانةً وكياسةً ، بَيْدَ أن وظائفَ العقلِ والحكمةِ الكبيرةَ الكريمةَ التى تَميزُ الإنسانَ وتُمَجِّدُه بصالح الأعمال وبالفضائل وبالجهود النافعة حَقًّا لا تُوجَدُ فى غير الشعوب الأولى مطلقاً .

ويَأْلَمُ المعلِّمون من كَوْن حرارة ذلك الدور من العُمُر تَجْعَلُ الشَّبابَ غيرَ قابل الانقياد ، وهذا ما أراه ، ولكنْ أليس هذا ذنبَهم ؟ أَوَيَجْهَلون أنهم إذا ما تركوا هذه الحرارةَ تأخذ مجراها بالحواسِّ عاد من المتعذر تحويلُها إلى مَجْرًى آخر ؟ أَوَ تُزِيل مواعظُ المتحذلقِ الطويلةُ الباردةُ من ذهن

تلميذه صورةَ الملاذِّ التى تَمثَّلها ؟ أَوَ تُبْعِدُ من فؤاده الأهواء التى تُعَذِّبُه ؟ أَوَ تُطْفِئُ نارَ مزاجٍ يَعْرِف التلميذُ عادتَه ؟ أَوَ لا يَثُور على الموانع التى تعترض فى سبيل ما يتصوره من سعادةٍ وحيدة ؟ وما يَرَى فى القانون الشديد الذى يُؤْمَرُ به من غير أن يُسْتطاعَ حَمْلُه على سماعه سوى هَوَى رجلٍ يحاول تعذيبَه وحقدِ هذا الرجل ؟ وهل من الغريب أن يتمرَّد عليه وأن يَمْقُتَه بدَوْرِه ؟

وأَتَصَوَّرُ جيداً أن الإنسان إذا كان سَهْلاً أَمْكَنَ أن يكون أكثرَ احتمالاً ، وأن يحافظ على نفوذٍ ظاهر ، ولكننى لا أرى فائدةَ نفوذٍ لا يحافِظُ عليه معلِّمٌ نحو تلميذه إلا بإلهاب المعايب التى كان عليه أن يزجرها ، شأنُ السائس الذى يُرِيدُ تَهْدِئَةَ حصانٍ جامح فيُوثِبُه فى هُوَّة .

ومن البعيد أن تكون حرارةُ المراهقِ عائقَ تربيةٍ ، وبهذه الحرارة تَتِمُّ وتَكْمُل ، وهى تُمَكِّنُكم من قلب الفتى عند ما يَعُود لا يكون دونكم قوةً ، وتَعَدُّ عواطفُه الأولى أعِنَّةً تُوَجِّهُون بها جميعَ حركاته ، أى إنه كان طليقاً فأراه قد استُرِقَّ ، ولم يكن تابعاً لغير نفسه واحتياجاته ما بَقِيَ غيرَ مُحِبٍّ لأحد ، وهو يَتْبَع عواطفَه عند ما يُحِبُّ ، وهكذا تتكوّن الصِّلاتُ الأولى التى تَرْبِطُه بنوعه ، وهو إذا ما وَجَّهتم حَساسِيَّتَه الناشئة نحو هذا الصَّوْب فلا تَظُنُّوا أنها ستَسَعُ جميعَ الناس فى البُداءة وأن كلمة الجنس البشرىِّ تنطَوِى على مَعْنًى لديه ، كلاَّ ، وإنما أمثالُه هم أولُ من تَقْتَصِرُ عليهم هذه الحَسَّاسيةُ ، ولن يكون أمثالُه مجهولين ، فهم الذين له معهم اتصالاتٌ والذين جعلتهم العادةُ عزيزين لديه ، أو لا غُنْيَةَ له عنهم ، والذين

يَرى من الواضح أن لهم معه وجوهَ تفكيرٍ وشعور مشتركةً ، والذين يراهم مُعَرَّضين لِمثْل آلامه ويَشْعُرون بمِثل الملاذِّ التي يَذُوق ، والذين يَمْنَحُه ما بينه وبينهم من تماثلٍ فى الطبيعة بالغِ الجَلَاء أعظمَ استعدادٍ لحبِّ نفسه كما هى غايةُ القول ، ولن يَنْتَهِىَ إلى تعميم مبادئه الفردية فى قالب مبدإ الإنسانية المجرَّد وإلى وَصْلِ عواطفه الخاصة بالعواطف التى يُمكِن أن توحِّد بينه وبين نوعه إلَّا بعد أن يَتَعَهَّد مَيْلَه بالرعاية على ألف وجه ، وبعد أن يقوم بكثيرٍ من التأملات حَوْل مشاعره الخاصة وحَول المشاعر التى يُبْصِرُها فى الآخرين .

ومتى أصبح قادراً على العطف صار عارفاً بعطف الآخرين[1] ، مُنْتَبِهاً بهذا إلى علامات هذا العطف ، وهل تَرَوْن أىَّ سلطانٍ جديد يكون لكم عليه ؟ ما أكثر القيودَ التى وضعتموها حَوْلَ فؤاده قبل أن يَشْعُرَ بهذا ! وما أكثرَ ما يُحِسُّ عند ما يَنظُرُ إلى نفسه فيُبْصِرُ ما صنعتموه له ويقابلُ بين نفسه والفِتْيانِ الآخرين البالغين مِثْلَ عُمُره ويقابل بينكم وبين غيركم من المعلمين ! وأقول « عند ما ينظر » ، ولكن احترزوا من أن تقُولوا له ذلك ، فإذا ما قلتموه له عاد لا يراه ، وإذا ما طالبتموه بالطاعة فى مقابل ما حَبَوْتُمُوه به من رعاية اعتقد مُخَادَعَتَكم له ، أى إنه يقول فى نفسه : بما أنكم أظهرتم رعايتَه بلا مقابل قصدتم تحميلَه دَيْناً ورَبْطَه بعقدٍ لم يوافق عليه قَطُّ ، ومن العبث أن تضيفوا إلى ذلك قولكم إن ما تطالبونه

(١) قد يكون العطف بلا عوض ، وليست الصداقة هكذا ، وذلك أن الصداقة مبادلة ، عقد كالعقود الأخرى ، وإن كانت أقدس العقود ، وليس لكلمة الصداقة غير رابطة نفسها ، ويكون كل إنسان غير صديق لصديقه مداجياً لا ريب ، وذلك لأن الإنسان ينال الصداقة بإعطائها أو بإظهار إعطائها .

به هو من أجْلِه ، وأخيراً تطالبون ، تطالبون وَفْقَ ما صنعتم بلا اعترافٍ منه ، وإذا ما أخذ تَعِسٌ دِرْهماً مع تظاهُرٍ بإعطائه إياه ثم وَجَد نفسه مُقَيَّدًا فى سجل الجندية على الرغم منه صَرَخْتم قائلين بجَوْر هذا ، أوَلَسْتُمْ أكثرَ جَوْراً فى مطالبة تِلميذكم بمقابلِ رعايةٍ لم يَرْضَ بها قَطُّ ؟

ويكون الكُنُودُ أكثرَ نُدُوراً إذا كانت محاسن الرِّبا أقلَّ ظهوراً ، ونُحِبُّ من يَصْنَع لنا معروفاً ، ويالَه من شعورٍ طبيعيٍّ ! وليس الكُنُودُ موجوداً فى قلب الإنسان ، بل المصلحةُ الشخصية ، ويوجد من ناكرى الجميل المَدِينين مَنْ هم أقلُّ من فاعلى الخير النَّفْعِيين ، وإذا ما بِعْتُمُ هِبَاتِكم منى ساومتُ حَوْل الثمن ، ولكنكم إذا ما تظاهرتم بالإعطاء حتى تَبِيعُوا منى بالثمن الذى تَضَعُون فيما بَعْدُ كنتم مخادعين ، فالعطاء بلا عِوَضٍ هو الذى يجعَلُها غيرَ قابلةٍ للتثمين ، ولا يَتَلَقَّى القلبُ قوانينَ من غير نفسه ، وهو يُطْلَقُ من حيث يُراد تقييده ، وهو يُقَيَّد من حيث يُترَك طليقاً .

وإذا ما ألْقَى الصيَّادُ طُعْماً فى الماء جاء السمكُ وبَقِيَ حَوْلَه بلا حَذَر ، ولكنه إذا ما تناول الصنَّارةَ المستترةَ تحت الطُّعْم شَعَرَ بسحب القَصَبة وحاولَ الفِرار ، فهل الصيادُ محسنٌ ؟ وهل السمكُ كَنُودٌ ؟ وهل يُرَى إنسانٌ نُسِيَ من قِبَل المحسن إليه يَنْسَى هـذا المحسنَ ؟ هو ، على العكس ، يتكلم عنه طَيِّبَ الخاطر دائماً ، وهو لا يُفكِّر فيه من غير تَحَنُّن ، وهو إذا ما وَجَدَ فرصةً يُطْلِعُه فيها ، بخدمةٍ غيرِ منتظرةٍ ، على أنه ذاكرٌ ما صَنَعَ له فما أشدَّ ما يُرْضى به شُكْرَانَه من ارتياحٍ باطنىٍّ ! وما أعظمَ ما يُلاقى من فرحٍ عَذْبٍ بما يُوجِبُ لنفسه من ثناء ! ويا للسرور الذى

يساوره إذ يقول له : « الآن جاء دَوْرى ! » ، فهذا هو صوت الطبيعة حقًّا ، وما كان الإحسانُ الحقيقيُّ ليَصْنَع كَنُوداً مطلقاً .

وإذا كان الشُّكْرانُ شعوراً طبيعيًّا وكنتم لا تَقْضُون على فِعْله بخطأٍ منكم فثِقُوا بأن تلميذَكم ، إذْ يأخُذُ فى إدراك قيمة ما بذلتم من جهودٍ فى سبيله ، يكون متأثِّراً بها ، وذلك بشرط ألاَّ تكونوا قد وضعتم ثمناً لجهودكم بأنفسكم ، وأن يكون لهذه الجهود فى فؤاده من النفوذ ما لا يستطيع أحدٌ أن يَقْضِىَ عليه ، ولكنْ احترزوا ، قبل الاطمئنان جيداً إلى هذا الخير ، أن تَنْزِعوه من حسابكم بإبداء شأنكم لديه ، ويَنْطَوِى افتخارُكم بخِدَمكم على جعلها أمراً لا يُطِيقه ، ويَنْطَوِى نسيانُها على تذكيره بها ، ولا يَدُرْ بحثٌ حَوْلَ ما هو مَدِينٌ لكم به ، بل حَوْلَ ما هو مَدِين به نحو نفسه ، وذلك حتى يَحِلَّ وقتُ معاملته مِثْلَ رجلٍ ، ولكن اترُكُوا له جميعَ حريته جَعْلاً له طائعاً ، واخْتَفُوا حملاً له على البحث عنكم ، ونَشِّئوا رُوحَه على الشعور النبيل القائل بعِرْفان الجميل مُحَدِّثين إياه عن مصلحته فقط ، ولم أُرِدْ قَطُّ أن يُحَدَّث عن كَوْن الذى يُصْنَع هو لمصلحته قَبْلَ أن يكون فى وَضْعٍ يُدْرِكُ ذلك معه ، وما كان ليَرَى فى هذا الكلام غيرَ خضوعكم ، وما كان ليَعُدَّكم فيه غيرَ خادمٍ له ، ولكنْ بما أنه أخذ الآن يَشْعُر بحقيقة الحبِّ فإنه يَشْعُر أيضاً بالرابطة الحُلْوَة التى يُمْكِن أن تَصِلَ الإنسانَ بمَنْ يُحِبُّ ، وعاد لا يَرَى فى الغَيْرة التى تَشْغَلُكم به بلا انقطاع تَعَلُّقَ عبدٍ ، بل عاطفةَ صديق ، والواقعُ أنه لا يوجد ما هو أكثرُ وَزْناً على القلب البشرىِّ من صَوْتِ الصداقة المعترف بها جيداً ، وذلك

لأنه يُعْرَف أنها لا تكلمنا إلاّ فى سبيل مصلحتنا ، وقد يُعْتَقَدُ أن الصديقَ مخطئٌ ، ولكننا لا نَذْهَبُ إلى أنه يُخَادِعنا ، وقد تقاوَم نصائحُه أحياناً ، ولكنْ من غير أن تزْدَرَى مطلقاً .

وأخيراً نَلِجُ داخلَ النظام الخُلُقىّ ؟ وقد سَبَق أن اتَّخَذْنا خُطوةَ الإنسانِ الثانيةَ ، وإذا لم يَكُنْ مكانَ ذلك هنا فإننى أحاول أن أُبَيِّنَ كيف أن حركاتِ القلب الأولى تثيرُ أصواتَ الشعور الأولى وكيف أنه ينشأ عن مشاعر الحبِّ والحقد مبادئُ الخير والشَّرِّ الأولى ، وسأُبَيِّن أن العدل والصلاح ليسا لفظين مجرَّدين وموجودين خُلُقيين صِرْفَيْن ناشئين عن الإدراك فقط ، بل هما عاطفتان حقيقيتان للنفس المُنارَة بالعقل فليسا سوى تَقَدُّمٍ مُنَظَّمٍ لعواطفنا الابتدائية ، كما أُبَيِّنُ أنه لا يُمْكِن بالعقل المستقلِّ عن الشعورِ وَضْعُ أىِّ قانونٍ طبيعىٍّ كان ، وأن كلَّ حَقٍّ طبيعىٍّ ليس سوى وهمٍ إذا لم يَقُمْ على احتياجٍ طبيعىٍّ للقلب البشرىّ[1] ، ولكننى لا أرى أن أَضعَ هنا رسالةً فى ما بعد الطبيعة . وفى الأخلاق ، ولا مباحثَ من أىِّ نوعٍ

(١) لا تجد للمبدأ القائل بأن تعامل الناس كما تريد أن يعاملوك به أساساً حقيقياً غير الإحساس والشعور ، وإلا فأين السبب الصريح فى المعاملة من حيث أنا كما لو كنت غيرى ، ولا سيما حينما أطمئن خلقياً إلى عدم وجودى فى عين الحال ؟ ومن ذا الذى يجيبنى عن سؤالى القائل إننى إذا ما اتبعت هذا المبدأ بإخلاص فمن يضمن اتباع الآخرين له نحوى بمين الإخلاص ؟ إن الخبيث يستفيد من صلاح المنصف وعدم إنصاف نفسه ، ومما يسره أن يكون جميع الناس صالحين خلا نفسه ، وليست هذه الصفقة رابحة للصالحين مهما قيل عنها ، ولكن إذا ما وحدت نفس توسعية بينى وبين نظيرى فشعرت بأننى فيه كان هذا لكيلا يألم حتى لا أتألم ، وأكثرت له حباً بنفسى ، وترى سبب المبدأ فى ذات الطبيعة التى توحى إلى برغبة فى هناءتى حيث أشعر بوجودى ، ومن ثم تعلم أنه ليس من الصحيح كون مبادئ القانون الطبيعى قائمة على العقل وحده ، فلهذه المبادئ أساس أكثر متانة وأعظم ثباتاً ، ويعد حب الناس المشتق من حب النفس مبدأ العدل الإنسانى ، وتجد خلاصة كل أخلاق فى الإنجيل نتيجة هذا القانون .

كان ، فيكفينى أن أدُلَّ على نظام مشاعرنا ومعارفنا وتقدمِها نظراً إلى نشوئنا ، ومن المُحْتَمَل أن يُفصِّل آخرون ما لم أفْعَلْ غيرَ الدلالة عليه هنا .

وبما أن إميلَ لم ينظُرْ غيرَ نفسه حتى الآن فإن أول نظرةٍ يُلقيها على أمثاله تَحْمِلُه على مقابلة نفسه بهم ، ويقوم أولُ شعورٍ تُثيرُه فيه هذه المقابلة على الرغبة فى المكان الأول ، وهذه هى النقطةُ التى يتحول فيها حُبُّ النفس إلى أنانيَّة ، وهـذه هى النقطة التى تَبْدَأُ منها جميعُ الأهواء بالصـدور عن الأنانيَّة ، ولكنَّ الحُـكْمَ فى هل الأهواء التى ستسيطر على طَبْعِه تكُون إنسانيةً لَيِّنةً أو قاسيةً مؤذية ، وهل تكون أهواء رأفةٍ ورحمةٍ أو أهواء حسدٍ وطمعٍ ، يستلزم معرفةَ المكان الذى يُحِسُّ نفسه فيه بين الناس ، ومعرفةَ أنواعِ الموانع التى يعتقد إمكانَ تغلُّبه عليها ، بُلوغاً للمكان الذى يُريد أن يَشْغَلَه .

والآن يجب إطْلاعُه على ما بين النـاس من فروقٍ توجيهاً له فى هذا البحث بعد أن أُطْلِـع على الناس من حيث العوارضُ المشتركةُ بين النوع ، وهنا يأتى قياسُ التفاوت الطبيعىِّ والمَدَنىِّ وصورةُ النظام الاجتماعىِّ .

ويَجِبُ أن يُدْرَسَ المجتمعُ فى الناس ، وأن يُدْرَسَ الناسُ فى المجتمع ، ومَنْ يَوَدّ معالجةَ كلٍّ من السياسة والأخلاق على حِدَة لا يَفْقَه شيئاً من كلٍّ منهما ، والإنسانُ إذا ما اقتصر فى البُداءة على الصلات الابتدائية أبْصَرَ كيف يجب أن يتأثر الناس بها وأىُّ الأهواء يجب أن ينشأ عنها ، أىْ يَرَى أن هذه الصلاتِ تتَّسِـع وتضيق مقابَلةً وَفْقَ تقدُّم الأهواء ، وتكون قوةُ الذُّرْعان أقلَّ من اعتدال القلوب جعلًا للناس مستقلين أحراراً ،

ومن يَرْغَبْ فى أشياء قليلةٍ يَكُنْ تابعاً لأناس قليلين ، ولكنْ بما أننا نَخْلِطُ دائماً بين ميولنا الفارغة واحتياجاتنا البدنية فإن الذين صَنَعوا من هذه الأخيرة أُسُسَ المجتمع البشرىِّ عَدُّوا المعلولاتِ عِلَلًا دائماً ، وحاكُوا فى جميع براهينهم ضلالًا حَصْراً .

وتُوجَدُ فى حال الطبيعة مساواةٌ فعلية حقيقية لا تَفْنَى ، وذلك لأن من المحال فى هذه الحال أن يكون الفرقُ الوحيدُ بين إنسانٍ وإنسانٍ من العِظَم ما يَجْعَلُ أحدَهما تابعاً للآخر ، وتُوجَدُ فى الحال المدنية مساواةٌ فى الحقوقِ وهميةٌ فارغةٌ ، وذلك لأن الوسائل المُعَدَّةَ لِحِفْظِها تُوجِبُ تقويضَها ، ولأن القوةَ العامة المضافةَ إلى الأقوى لاضطهاد الضعيف تَقْضِى على نوع التوازن الذى كانت الطبيعة قد وضعته بينهما[1] ، وينشأ عن هذا التناقض الأول جميعُ المتناقضات التى تشاهَدُ فى النظام المدنىِّ بين الظاهر والحقيقة ، وفى كلِّ وقت يُضَحَّى بالجُمهور فى سبيل عددٍ قليل ، وبالمصلحة العامة فى سبيل المصلحة الخاصة ، وفى كلِّ وقتٍ تَصْلُح كلماتُ العدل والنظام المُمَوَّهةُ وسائلَ للقَهْر وسلاحاً للجَوْر ، ومن ثَمَّ لا تكون الطبقاتُ الممتازة ، التى تَزْعُم أنها مفيدةٌ للطبقات الأخرى ، نافعةً لغير نفسها على حساب الطبقات الأخرى ، ومن ثَمَّ يجب أن يُحْكَم فى أمرِ الاعتبار الذى يستحقونه وَفْقَ العدل والعقل ، وبَقِيَ علينا أن نَرَى هل المقامُ الذى انتحلوه أكثرَ ملاءمةً لسعادة من يَشْغَلُونه ليُعْرَفَ أىُّ حكمٍ يجب على كلِّ واحدٍ منا أن يَحْمِلَه حَوْل

(١) تقوم الروح العامة للقوانين فى جميع البلدان على تأييد القوى ضد الضعيف دائماً ، وعلى تأييد المالك ضد غير المالك شيئاً ، ولا مفر من هذا الضرر الذى لا استثناء له .

نصيبه الخاصّ ، والآن إليك البحثَ الذى يهمُّنا ، ولكنّ حُسْنَ القيام به يستلزم البدء بمعرفة الفؤاد البشرىّ .

وإذا ما دار الأمرُ حَوْل إطْلَاعِ الفِتْيان على الإنسان ضِمْنَ قِناعه لم يَكُنْ هنالك احتياجٌ إلى إطْلَاعهم عليه ، فهم يَرَوْنه كثيراً فى كلّ وقت ، ولكنْ بما أن القِناعَ ليس عينَ الإنسان ، ولا ينبغى أن يُغوِيَه طِلَاؤه ، فإن الناس إذا ما وُصِفُوا لهم وجب أن يُوصَفُوا كما هم ، وذلك لا ليُبْغَضُوا ، بل لِيُرْثَى لهم ولئلّا تُرَادَ مشابهتُهم ، وعندى أن هذا أصْوبُ ما يُمْكِن أن يكون لدى الإنسان من رأىٍ حَوْلَ نوعه .

وعلى هذا فإن من المهمّ هنا سلوكَ سبيلٍ مخالفةٍ للسبيل التى اتَّبَعْنَاها حتى الآن ، وأن يُعَلَّمَ الفتى بتَجْرِبةِ الآخرين أكثرَ مما بتجربته ، وإذا كان الناسُ يخادعونه فإنه يَضْغَنُ عليهم ، ولكنه ، وهو مُكْرَمٌ من قِبَلهم ، إذا ما رآهم يتَخَادَعُون ، تَوَجَّعَ لهم ، قال فِيثاغُورَس : « إن منظر العالَمَ يشابه منظرَ الألعاب الأُلَنْبية ، فبعض الناس يتعاملون ولا يُفَكِّرون فى غير الرِّبح ، وبعضٌ آخرُ منهم يخاطرون بأنفسهم سعياً وراء المجد ، وآخرون منهم يَكْتَفُون بمشاهدة الألعاب ، وليس هؤلاء أسوأ الجميع » .

وأَوَدُّ لو يُخْتَارُ للفَتَى من المجتمعات ما يَحْمِلُه على التفكير فى أمرِ مَنْ يَعِيشُون معه ، وأن يُبْلَغَ من تعليمه حُسْنَ معرفةِ العالَمَ ما يُفَكِّرُ معه سوءًا فى جميعِ ما يُصْنَع فيه ، ولْيَعْلَمْ أن الإنسانَ صالحٌ طبيعةً ولْيَشْعُرْ بذلك ، ولْيَحْكُمْ فى جاره بنفسه ، ولكنْ ليُبْصِرْ كيف أن المجتمع يُفْسِد الناسَ ويُضِلُّهم ، ولْيَجِدْ فى مُبْتَسَراتهم مصدرَ جميعِ عيوبهم ، ولْيُحْمَلْ

على احترام كلِّ فرد ، ولكن ليزْدَرِ الجُمهورَ ، وليَرَ أن جميع الناس يَلْبَسُون عينَ القِنَاعِ تقريباً ، ولكنْ لِيَعْلَمْ أنه يُوجَدُ من الوجوه ما هو أجْمَلُ من القِنَاع الذى يَسْتُرُها .

ويجب أن يُعْتَرَف بأن لهذا المِنْهاج نقائصَه وبأنه ليس سهلاً عند التطبيق ، وذلك لأن الفتى إذا كان يصير راصداً باكراً ، وإذا كنتم تُدَرِّبونه على تَرَقُّب أفعالِ الآخرين عن كثب ، فإنكم تجعلونه مُغْتَاباً هاجِياً جازماً سريعَ الحُكْم ، وهو يَجِدُ لذةً ممقوتة فى تَحَرِّى العوامل السيئة وفى عدم رؤيته ما هو حسنٌ حتى فى الشىء الحسن ، وهو ، على الأقلِّ ، يُعَوِّدُ نفسَه منظرَ العيب ورؤيةَ الأشرار بلا نفور كما يُعَوِّدُ الإنسانُ نفسَه رؤيةَ التعساء بلا رأفة ، ولسُرْعان ما يَصْلُح الفسادُ العامُّ أن يكون درساً له أقلَّ من أن يكون معذرةً ، فيقول فى نفسه إذا كان الإنسان هكذا فلا يجب أن يكون خِلافاً لِماَ عليه الإنسان .

ولكنْ إذا أردتم تعليمَه عن مبدأٍ وإطلاعَه ، مع طبيعة القلب البشرىِّ ، على تطبيق العِلَل الخارجية التى تُحَوِّل مُيُولَنَا إلى عيوب ، وذلك بنقله ، بغتةً هكذا ، من الأشياء الحسية إلى الأشياء الذهنية ، فإنكم تكونون قد استعملتم ما بَعُدَ طبيعةٍ لا يستطيع إدراكه ، فتَقَعُون ثانيةً فى محذورٍ اجْتُنِبَ حتى الآن ، وهو إعطاؤه دروساً تُشَابه الدروسَ وأن تُقَامَ فى ذهنه تجرِبةُ المعلِّم ونفوذُه مقامَ تجرِبته الخاصة وتَقَدُّمِ عقلِه .

وإنى ، لكى أُزيلَ هذين العائقين دفعةً واحدةً وأَضَعَ القلبَ البشرىَّ فى متناوَله من غير مجازفةٍ بإفساد قلبه ، أُريد أن أُطْلِعَه على الناس من بعيدٍ ،

وذلك فى أزمنةٍ أخرى وأمكنةٍ أخرى ، وذلك على وجهٍ يستطيع معه أن ينظر إلى المنظر من غير أن يَقْدِر على الاشتراك فيه ، وهذا هو وقت التاريخ ، و بالتاريخ سيقرأ فى الأفئدة من غير دروسٍ فى الفلسفة ، و بالتاريخ سيراها ناظراً بسيطاً خالياً من الغَرَض والهَوَى ، وذلك مِثْلَ قاضٍ ، لا مِثْلَ شريكٍ لها ، ولا مِثْلَ مُتَّهِمٍ إياها .

وتَقْضِى معرفةُ الرجال بأن يُرَوْا وهم يَعْمَلُون ، والرجالُ فى العالَمَ يُسْمَعُون وهم يتكلمون ، وفى العالم يُظْهِرُون أقوالَهم ويُخْفُون أفعالَهم ، وأما فى التاريخ فيُكْشَفُ الغِطاء ويُحْكَمُ فيهم بالأعمال ، حتى إن أقوالَهم تُعِينُ على تقديرهم ، وذلك لأنه يُرَى بالمقابلة بين ما يقولون وما يفعلون مَنْ هم وما يريدون أن يَبْدُوا به معاً ، أى إنهم كلما تَنَكَّرُوا عُرِفُوا .

ومن المؤسف أن تكون لهذا البحث محاذيرُه من كلِّ نوع ، ومن الصعب انتحالُ وجهةِ نظرٍ واحدةٍ يُمْكِنُ الإنسانَ أن يَحْكُمَ بها فى أمثاله بإنصافٍ ، ومن أعظم عُيُوب التاريخ أن يُصَوِّر الرجالَ بنواحيهم السيئة أكثرَ مما بنواحيهم الحسنة ، و بما أن التاريخ لا يكون مُمْتِعاً إلا بالثَّوْرات والمصائب ، ولا يُحَدِّث شيئاً عن الأمة ما نَمَتْ وازدهرتْ فى سكونِ حكومةٍ سَلْمية ، فإنه لا يَبْدَأ بالكلام عنها إلّا عند عدم قدرتها على كفاية نفسها بنفسها فتَتَدَخَّلُ فى شؤون جاراتها أو تَدَع هذه الجاراتِ تَتَدَخَّلُ فى شؤونها ، وهكذا فإن التاريخ لا يُشْهِرُها إلّا بعد أن تأخذ فى الأفول ، وهكذا فإن جميعَ تواريخنا تَبْدَأ حيث يجب أن تنتهى ، ولدينا تاريخٌ بالغُ الدقة عن الأمم التى تَنْقَرِض ، والذى يُعْوِزنا هو تاريخٌ عن الأمم التى تتكاثر ، وهذه

الأمم هى من السعادة والحكمة مالا يَقُصُّ التاريخُ معه عنها شيئاً ، والواقعُ أننا نرى ، حتى فى أيامنا ، كونَ الحكوماتِ التى تُسَاس أحسنَ من سواها هى أقلَّ ما يُحَدَّث عنه التاريخ ، ونحن لا نعرِفُ غيرَ الشَّرِّ إذَنْ ، وأما الخيرُ فلا يكاد يُذْكَرُ ، ولا يُوجَدُ غيرُ الأشرار مَنْ يشتهرون ، ويُنْسَى الصالحون أو يُسْخَرُ منهم ، ومن ثَمَّ ترى كيف يَتَجَنَّى التاريخ ، كما تَتَجَنَّى الفلسفة ، على النوع البشريِّ بلا انقطاع .

وفضلًا عن ذلك فإن من البعيد جِدًّا أن تكون الوقائع الموصوفةُ فى التاريخ صورةً صادقة عن الوقائع كما حَدَثَتْ ، أى إنها تُغَيِّرُ شكلَها فى رأس المؤرخ ، وتُصَبُّ فى قالَبِ مصالحه وتكتسب لَوْنَ مُبْتَسَراتِه ، ومن ذا الذى يَعْرِفُ أن يَضَعَ القارئ وضعاً تامًّا فى مكان المَسْرَح حتى يَرَى كيف وقعت الواقعة ؟ إن الجهالة والمحاباة تُنَكِّران كلَّ شىء ، وما أكثرَ أوجهَ الخلافِ التى يُمْكِن أن تكتنف الحادثَ التاريخىَّ ، حتى من غير تحريفٍ له ، بتوسيعٍ أو تضييقٍ للأحوال التى تُنَاطُ به ! إذا ما وَضَعْتُمْ عينَ الشىء فى نواحٍ مختلفة لم يَكَدْ هذا الشىء يُرَى إياه ، ومع ذلك فإنه لم يتغير شىء غيرُ عينِ الناظرِ ، وهل مما يُشَرِّف الحقيقةَ أن تَرْوُوا لى واقعةً حقيقيةً بأن تُبْدُوها لى خلافاً لِما حَدَثَتْ ؟ وما أكثرَ ما قَرَّرتْ شجرةٌ زُهاء ، أو صخرةٌ عن اليمين أو الشمال ، أو سافِياءُ أثارتها الريحُ ، مصيرَ معركةٍ من غير أن يَشْعُرَ أحدٌ بذلك ! وهل يَمْنَعُ هذا المؤرخَ من أن يقول لكم سَببَ الانكسار أو الانتصار مطمئناً كما لو كان فى كلِّ مكان ؟ والحقُّ ما أهميةُ الوقائعِ عندى إذا ما ظَلَّ السببُ مجهولًا لدىَّ ؟ وأىُّ عِبَرٍ أستطيع أن أستخرج

من حادثٍ أجْهَلُ علتَه الحقيقية ؟ أجَلْ ، إن المؤرخ يُعْطِينى سبباً واحداً ، غير أنه يُلفِّقُه ، وليس النقد الذى تقوم حَوْلَه ضَجَّةٌ كبيرة سوى فنٍ للافتراض ، سوى اختيارِ أكثرِ الأكاذيب مشابهةً للحقيقة .

ألَمْ تقرءوا ، قَطُّ ، كليوپاترة وكَسَّنْدِر أو كُتُباً أخرى من هذا الطراز ؟ إن المؤلف يختار حادثةً معروفةً ، ثم يُوَفِّقُ بينها وبين وجهات نظره ويُزَخْرِفها بتفاصيلَ من اختراعه ورجالاتٍ لم يُوجَدُوا قَطُّ وصورٍ خيالية ، ويَرْكُم أوهاماً فوق أوهامٍ حتى يَجْعَلَ قراءتَه لذيذة ، ولا أرى غيرَ فرقٍ قليل بين هذه الروايات وتواريخكم ، ما لم يكن الكاتب الرِّوائىُّ أكثرَ اعتماداً على خياله الخاصِّ مع تَعْبيد المؤرخِ نفسَه لخيال الآخرين ، وإلى هذا أُضيفُ ، إذا ما أُرِيدَ ، كَوْنَ الكاتب الروائىّ يَتَّخِذُ موضوعاً خُلُقيًّا صالحاً أو طالحاً لا يَكْتَرِثُ له المؤرخُ مطلقاً .

وسيقال لى إن أمانة التاريخ أقلُّ إغراءً من صدق الطبائع والأخلاق ، وإن من المهمِّ قليلاً كونَ الحوادثِ مَرْوِيَّةً بأمانةٍ بشرط أن يُصَوَّر القلبُ البشرىُّ تصويراً حسناً ، وذلك لأنه يضاف إلى ذلك بعد كلِّ شىء : ما أرَبُنا إلى الوقائع التى حدثت منذ ألفى سنة ؟ أجَلْ ، تجدُ صواباً فى عَرْضِ الصُّوَر وَفْقَ الطبيعة ، ولكن إذا لم يكن نَمُوذَجُ مُعْظَمِها فى غير خيال المؤرخ أفَلَا يعنى هذا وقوعاً فى المحذور الذى أُرِيدَ الإفلاتُ منه ، وَرَدًّا إلى حُكْمِ الكُتَّاب ما يُرَاد نَزْعُه من حُكْمِ المعلِّم ؟ إذا كان لا ينبغى لتلميذى أن يَرَى غيرَ تصاويرَ يُمْلِيها الهوَى فإننى أُفَضِّلُ أن تُرْسَم بيدى على رَسْمِها بيدٍ أخرى ، وذلك لأنها تكون أحسنَ ملاءمةً له على الأقل .

وأسوأُ المؤرخين من أجْل الفتى هم الذين يُصْدِرون أحكاماً ، الوقائعَ ! الوقائعَ ! دَعُوه يحْكُم بنفسه ، هكذا يتعلَّمُ معرفةَ الرجال ، إذا كان حُكْمُ المؤلف يُرْشِدُه بلا انقطاعٍ فإنه لا يَرَى بغير عَيْنِ رجلٍ آخر ، وإذا ما أَعْوَزَتْه هذه العينُ عاد لا يَرَى شيئاً .

وأَدَعُ التاريخَ الحديثَ جانباً ، لا لأنه لا طابَعَ له ولأن رجالنا يتماثلون جميعاً ، بل لأن مؤرخينا الذين لا يهمُّهم غيرُ اللَّمْع حصْراً لا يُفكِّرون فى غيرِ وَضْع صُوَرٍ مُلَوَّنة جدًّا ، فلا تُمَثِّلُ شيئاً غالباً[1] ، وكان القدماء أقلَّ وضعاً للصور على العموم فكانوا فى أحكامهم أقلَّ اعتماداً على الذهن وأكثرَ استناداً إلى الشعور ، وكذلك لا بُدَّ من القيام بخيارٍ كبير يؤتَى بينهم ، ولا يجوز أن يُتَّخَذَ منهم ، فى البُداءة ، من هم أكثرُ حصَافةً ، بل مَنْ هم أعظمُ بساطةً ، ولا أودُّ أن أجْعَل فى يد الفتى بُولِيبَ ولا سالُسْتَ ، ويُعَدُّ تاسِيتُ كتابَ الشِّيب ، ولم يُصْنَع الفِتْيَان ليفقَهُوه ، أىْ إن من الواجب فى الأعمال البشرية أن تُعلَمَ رؤيةُ رسومِ القلب البشريِّ الأولى قبل أن يُرادَ سَبْرُ غَوْرِه ، وإن من الواجب أن تُحْسَنَ معرفة القراءةِ فى الوقائع قبل القراءة فى الأمثال ، فلا تلائم الفلسفةُ فى شكل الأمثال غيرَ التجربة ، ولا ينبغى للشباب أن يقوم بتعميم ، ويجب أن يقوم تعليمه وَفْقَ قواعدَ خاصةٍ .

وعندى أن تُوسِيدِيدَ مثالُ المؤرخين الصادقُ ، فهو يَرْوِى الوقائعَ

---

(١) انظر إلى دافيلا وغويشياردينى وسترادا وسوليس ومكيافيل ، وإلى دوتو فى بعض الأحيان ، وفرتو وحده تقريباً هو الذى كان يعرف الوصف من غير أن يضع صوراً .

من غير أن يَحْكُمَ فيها برأيه ، ولكنه لا يُهْمِلُ أياً من الأحوال الصالحة التى نَحْكُمُ بها فى ذلك ، وهو يَضَعُ كلَّ ما يَقُصُّ أمام عينى القارئ ، وهو يَتوارَى بعيداً من أن يقوم بين الحوادث والقُرَّاء ، فلا نعتقد أننا نَقرأ ، بل نعتقد أننا نَرَى ، ومن المؤسف أنه يتكلم عن الحرب دائماً ، ولا نَرَى فى أخباره غيرَ أقلِّ أمور الدنيا تثقيفاً ، أى المعارك ، وتكاد تكون ذاتُ الحكمة وذاتُ النقيصة تقريباً فى « تَقَهْقُر الآلافِ العشرة » و « تفاسير قيصرَ » ، وقد يكون هِيرُودُتُسُ الخالى من الصُّوَر والأمثال ، ولكن مع الانسجام والبساطة وكثرة الجزئيات التى هى أكثرُ ما يُمْتِع ويَرُوق ، أصلحَ المؤرخين لو لم تتحوَّل هذه الجزئيات ، فى الغالب ، إلى سذاجةٍ صبيانيةٍ خليقةٍ بأن تُفسِد ذوقَ الشباب أكثرَ من تكوينه ، وذلك أننا نحتاج إلى قوة تمييزٍ لمطالعته ، ولا أقول شيئاً عن تِيطُس لِيفْيُوس الذى سيأتى دَوْرُه ، والذى هو سياسىٌّ من فُرْسان البيان ، فلا يلائم هذا الدَّوْرَ من العُمُر .

والتاريخُ ناقصٌ على العموم ، وذلك من حيث كونُهُ لا يُسَجِّلُ غيرَ الوقائع المحسوسة البارزة التى يُمْكِن تعيينُها بالأسماء والأزمنة والمُدَد ، ولكن عللَ هذه الوقائعِ البطيئةَ التدريجيةَ التى لا يُمْكِن تعيينُها مِثْلَ ذلك تَبْقَى غيرَ معلومة دائماً ، وفى الغالب يوجد فى المعركة ، التى تُكْسَب أو تُخْسَر ، سببَ ثورةٍ كانت ، حتى قبل هذه المعركة ، قد أصبحت أمراً لا مفرَّ منه ، ولا تَصْنَعُ الحرب ، مطلقاً ، غيرَ إظهارِ حوادثَ كانت قد عُيِّنَتْ بعللٍ أدبيةٍ لا يَعْرِفها المؤرخون إلا نادراً .

وقد حَوَّل الروحُ الفلسفيُّ إلى هذه الناحية تأمُّلاتٍ كثيرٍ من كُتّاب هذا العصر ، ولكننى أشُكُّ فى كونِ الحقيقة تَكْسِب من عملهم ، فبما أن صَوْلةَ المناهج استحوذت عليهم جميعاً فإنه لا أحدَ يحاول أن يرَى الأمورَ كما هى ، بل كما تُطَابِقُ مِنْهاجَه .

وإلى جميع هذه التأملاتِ أضيفوا كَوْن التاريخ يُرِى الأعمالَ أكثرَ من الرجال ، وذلك لأن التاريخ لا يُمْسِك هؤلاء فى غير بعض الأوقات المختارة ضِمْنَ ثياب أُبَّهتهم ، والتاريخُ لا يَعْرِضُ غيرَ الرَّجل العامِّ الذى رَتَّبَ نفسَه لِيُرَى ، وهو لا يَتَعَقَّبُه ، مطلقاً ، فى بيته ، ولا فى حُجْرته ، ولا فى أُسْرَته ، ولا بين أصدقائه ، وهو لا يُصَوِّرُه إلّا حين يُمَثِّل ، ولباسُه ، لا شَخْصُه ، هو الذى يُصَوِّر .

وأُفَضِّلُ مطالعةَ السِّيَر الخاصة للبدء بدراسة القلب البشريِّ ، وذلك لأن من العبث أن يُخْفِيَ الرجلُ نفسَه ، فالمؤرخُ يَتَعَقبه فى كلِّ مكان ، وهو لا يَتْرُك له ساعةَ استراحة ، ولا زاويةً يُفْلِتُ فيها من عينه الثاقبة ، وهو كلما ظَنَّ أنه أحسنُ اختفاءً كان الآخرُ أحسنَ اطِّلاعاً عليه ، قال مُونْتِين : « كلما تَلَهَّى كاتبو السِّيَر بالمقاصد أكثرَ مما بالوقائع ، وبما يَصْدُر عن الباطن أكثرَ مما عن الظاهر ، كانوا مُفَضَّلين لدىَّ ، ولِذَا فإن پلُوتَارْك رَجُلى من كلِّ وجهٍ » .

حَقًّا أن عبقريةَ الرجال المجتمعين أو عبقريةَ الأمم كثيرةُ الاختلاف عن عبقرية الرجل وهو منفرد ، وأن من نقص المعرفة بالفؤاد البشريِّ عدمَ دَرْسِه بين الجمهور أيضاً ، بَيْدَ أنه لا يَقِلُّ عن هذا صحةً وُجُوبُ البدء

بدراسة الرَّجُل للحُكم فى الرجال وأن مَنْ يَعْرِف مُيولَ كلٍّ فرد معرفةً تامة يُبْصِر جميعَ آثارها التى تمازج كيانَ الأمة .

وهنا ، أيضاً ، يجب أن يُرْجَع إلى القدماء للأسباب التى قُلْتُها سابقاً ، ثم إن جميعَ الجزئياتِ المألوفة الوضيعة إذ كانت مُبْعَدَةً من الأسلوب الحديث ، مع كونها صحيحةً بارزةً ، بَدَا الرجالُ من تجميل مؤلفينا لهم فى سِيَرهم الخاصة مِثلَ تجميلهم فى ميدان العالَم ، وعاد الحياء ، الذى ليس أقلَّ صرامةً فى المؤلفات مما فى الأعمال ، لا يَسْمَحُ بالقول علناً أكثرَ مما يَسْمَحُ بصُنْعِه جهراً ، وبما أنه لا يُمكِنُ إظهارُ الرجال غيرَ مُمَثَّلين دائماً فإنهم لا يُعْرَفون فى كتبنا أكثرَ مما فى مسارحنا ، وصار من الممكن أن تُكْتَبَ حياةُ الملوك مئةَ مرَّةٍ ، وعاد لا يَكون عندنا مِثْلُ سويتُونيُوس[1] .

ويَبْرَعُ پلوتاركُ فى هذه الجزئيات التى عُدْنا لا نَجْرُؤ على الدخول فيها ، وله كِياسَةٌ منقطعةُ النظير فى تصوير أعاظم الرجال فى أدقِّ الأمور ، وهو من حُسْن التوفيق فى اختيار رسومه ما تكفى معه ، فى الغالب ، كلمةٌ أو ابتسامةٌ أو حركةٌ لإبراز بطله ، ومن ذلك أن أنيبال سَكَّنَ رَوْعَ جيشِه الخائف وجعله يزحف ضاحكاً إلى المعركةَ التى سَلَّمَتْ إليه إيطالية ، ومن ذلك أن أجيزيلاس ، الراكبَ حِصاناً على عصا ، حَبَّبَ إلىَّ قاهرَ الملك الأكبر ، ومن ذلك أن قيصر يَجُوبُ قريةً فقيرةً ويُكلِّم أصدقاءه ، فيَنِمُّ ، من حيث

---

[1] أقدم أحد مؤرخينا دوكلو ، الذى قلد تاسيت فى الرسوم الكبرى ، على تقليد سويتونيوس ، وعلى استنساخ كومين أحياناً ، فى الرسوم الصغرى ، ومع أن هذا أوجب زيادة قيمة كتابه فقد أدى إلى نقده بيننا .

لا يدرى ، على الماكر الذى يقول إنه لا يريد غيرَ مساواة پُونْپى ، ومن ذلك أن الإسكندر بَلَع علاجاً ولم يَنْبِس بكلمة فكانت هذه أجْمَلَ ساعةٍ فى حياته ، ومن ذلك أن أرِسْتِيد كتب اسمَه على صَدَفٍ مُسَوِّغاً لقبَه بهذا ، ومن ذلك أن فِيلُوپيمين ألقى رداءه جانباً وقطَّع حطباً فى مَطْبخ مُضَيِّفه ، فهذا هو فنُّ التصوير ، وما كانت السِّيما لتَبْدُوَ بالملامح الكبيرة ، وما كانت السَّجِيَّةُ لتتَجَلَّى فى الأعمال العظيمة ، وإنما التُّرَّهاتُ هى التى تَكْشِفُ عن الطَّبْع ، وتَكُون الأمورُ العامة عاديةً كثيراً أو مُعَدَّةً كثيراً ، وعند هذه وحدَها تقريباً يَسْمَحُ وَقَارُ العصر لمؤلفينا بأن يَقِفُوا .

ولا جِدَالَ فى أن مسيو دُوتُورِين من أعظم رجال القرن الأخير ، وقد جُرِئَ على جَعْل حياته ممتعةً بالجزئيات التى عَرَّفت الناس به وحَبَّبَتْه إليهم ، ولكن ما أكثرَ ما قُضِيَ بحَذْفِ كثيرٍ منها كان يَجْعَلُه معروفاً لدينا ومُحَبَّباً إلينا زيادةً على ما اتَّفَقَ له ! ولا أُورِدُ غيرَ واحدةٍ أقْتَبِسُها من مصدرٍ موثوقٍ به ، ولم يَكُ پلوتارك ليُهْمِلَها ، ولكن مع عدم تَسْجِيلٍ رَسْمِى لها حتى عند معرفته إياها :

فى يومٍ من الصيف شديدِ الحرّ كان ڤِيكُونْت دُوتُورِين عند نافذة غرفة الانتظار لابساً سُتْرَةً بيضاء وقَلَنْسُوَةً ، ويَظْهَرُ أحدُ خَدَمه بغتةً ، ويُخْدَعُ باللباس ، ويَظُنُّه أجيراً فى المطبخ معروفاً لديه ، ويَدْنو من خلفه على مَهْلٍ ، ويَضْرِبُه ضربةً شديدةً على أَلْيَته ، ويلتفت الرجلُ المضروب إلى ورائه من فَوْره ، ويَرَى الخادمُ وهو يرتعش ، وجهَ سيده ، ويَرْكَعُ والهاً ، ويقول : « مولاى ، لقد اعتقدتُ وجودَ جُورْج » ، ويقول

تُورِينُ وهو يَحُكُّ مؤخَّرَه : « لا يجوز الضربُ بهذه الشِّدَّة ولو كان جُورْجُ هو المضروبَ » ، وهـذا ، إذَنْ ، هو الذى لا تَجْرُءوا على قوله أيها المساكين ! وكُونوا إلى الأبد ، إذَنْ ، بلا فِطْرةٍ ولا عواطف ، وسَقُّوا قُلوبَكم بالحديد وقَسُّوها به داخلَ حيائكم المُزْدَرَى ، واجْعَلوا أنفسَكم محتقرين بفعل الوقار ، وأما أنت أيها الفتى الصالحُ ، الذى يقرأ هذه القصة والذى يَشْعُرُ شعورَ حَنَانٍ بكلِّ ما تدلُّ عليه من حِلْمٍ حتى فى الحركة الأولى ، فاقْرَأْ أيضاً صَغَاراتِ هذا الرجل العظيم حين البحث عن أصله واسمه ، واذْكُرْ أن تُورِينَ هذا هو الذى تظاهر فى كلِّ مكانٍ بأنه يَفْسَحُ فى المجال لابن عمه حتى يُرَى جيداً أن هذا الولدَ كان رئيسَ بيتٍ مالك ، وقابِلْ بين هـذه المتناقضات وأحِبَّ الطبيعة وازْدَرِ المُبْتَسَر واعْرِف الرجلَ .

وقليلٌ من الناس من يَتَمَثَّلُون ما قد يَكُون لهذه القراءات الموَجَّهة على هذا الوجه فى الفتى الخالى الذهن ، وبما أننا نكون مُثْقَلين بكتب صِبانا متعودين القراءةَ من غيرِ تفكيرٍ فإن ما نَقْرَأ يكون من قـلةٍ وَقْفه لنظرنا ما نَعُدُّ معه ما يَفْعَلُون أمراً طبيعياً عن سابقِ حَمْلِنا فى أنفسنا مُبْتَسَراتٍ وأهواءٍ تملأُ تاريخَ الرجال وسِيَرَهم ، ولأننا خارجَ الطبيعة فنَحْكُمُ فى الآخرين بأنفسنا ، ولكنْ لنتَصَوَّرْ فَتًى نُشِّئَ وَفْقَ مبادئى ، ولْنتَمَثَّلْ إميلَ الذى لم يَكُنْ لجهودِ ثمانىَ عشرةَ سنةً متواصلةً من الغاية غيرُ المحافظة فيه على تمييزٍ سليم وقلبٍ صحيح ، ولْنَتَخَيَّلْه بعد رَفْعِ السِّتار وهو يُلْقِى نَظَرَه على مَسْرَح العالَم للمرة الأولى ، أو لِنَتَنَوَّرْه وراء المَسْرَح ناظراً إلى المُمَثِّلين

وهم يتناولون ثيابَهم ويَلْبَسُونها عادًّا الحِبالَ والبَكَراتِ التى تَخْدَعُ عيونَ الحضُور ، فهو لا يَلْبَثُ أن تَعقُبَ دَهْشَتَه الأولى أحاسيسُ حياء وازدراء نحو نَوْعه ، ويَشْتاط غيظاً من مشاهدته جميعَ الجنس البشرىِّ ، هكذا ، أحمقَ بالغاً من الهوان ما يقوم معه بهذه الألعاب الصبيانية ، ويَحْزَن من رؤيته افتراسَ بعض إخوانه لبعضٍ فى سبيل أحلامٍ وتحوُّلَهم إلى ضَوارٍ لعدم معرفتهم الاكتفاء بأن يكونوا آدميين .

والحقُّ أنه إذا ما نُظِرَ إلى قابليات التلميذ كان ذلك التَّمرينُ له درسَ فلسفةٍ عملية أفضلَ ، لا رَيْبَ ، وأرعى للسماع من جميع الدروس النظرية الفارغة التى تُفْسِدُ ذهنَ الفِتْيان فى مدارسنا ، وذلك مهما قَلَّ ما يأتى المعلمُ من فِطْنةٍ واختيارٍ فى مطالعاته ومهما قَلَّ ما يُسْلِكُه سبيلَ التأمل الذى يجب استخراجُه منها ، ويَتَتَبَّعُ سِينِيَاسُ خِطَطَ بِيرُّوسَ الخيالية فيسألُه عن الخير الحقيقىِّ الذى ينال من فَتْح العالم ، من هذا الفتح الذى لا يستطيع أن يتمتع به الآن من غير كُرُوبٍ كثيرة ، ولا نَرَى فى ذلك غيرَ كلمة صالحة عابرة ، وأما إميلُ فسيرى فيها تأمُّلًا بالغَ الحكمة كان أولَ من أتاه فلا يَزُول من ذهنه أبداً ، وذلك لأن هذا التأمل لا يَجِدُ فى ذهنه أىَّ مُبْتَسَرٍ معاكِس يُمْكِن أن يَعُوقَ انطباعَه ، وهو إذا ما وَجَدَ ، بعد قراءة سيرة هذا الأحمق ، أن جميعَ خِططه العظيمة أدَّتْ إلى قتله بيد امرأةٍ فإنه ، بدلًا من الإعجاب بهذه البُطُولة المزعومة ، ما يرى فى جميع مفاخر هذا الرُّبَّان العظيم ، وفى جميع دسائس هذا السياسىِّ العظيم ، غيرَ خُطُواتٍ سار بها بحثاً عن تلك الآجُرَّة المشؤومة التى خَتَمَتْ حياتَه وقَضَتْ على

خِططه بموتٍ شائن ؟

ولم يُقْتَلْ جميعُ الفاتحين ، ولم يُصَبْ جميعُ الغاصبين بالحبوط فى مشاريعهم ، ويَبْدُو كثيرٌ منهم سُعَداء فى الأذهان المُشْرَبة من الآراء العامية ، بَيْدَ أن الذى لا يَقِفُ عند الظواهر ، فلا يَحكُم فى سعادة الناس إلّا وَفْقَ حال أفئدتهم ، يَرَى بؤسَهم فى فوزهم ، ويَرَى رغائبَهم وغوائلَهم القاصمة تَتَّسِع وتزيد مع طالعهم ، ويَرَى انقطاعَ نَفَسِهم وهم يتقدمون من غير أن يَبْلُغُوا حدَّهم مطلقاً ، ويراهم مشابهين للمسافرين الأغرار الذين يُوغِلُون فى جبال الألب فيتصورون أنهم يجاوزونها عند كلِّ جبل ، فإذا ما بلغوا الذروة وجدوا ، مع القنوط ، أعلى الجبال أمامهم .

وبَعْدَ أن أخضع أغسطسُ مواطنيه وقَضَى على منافسيه سَيْطَرَ مدةَ أربعين عاماً على أعظم إمبراطوريةٍ عُرِفَتْ ، ولكنْ هل حال هذا السلطانُ الواسع دون نَطْحِهِ الجدرانَ وملئه قصرَه العظيم صُراخاً طالبًا من ڤارُوسَ أن يُعيدَ إليه كتائبَه المُبادَة ؟ وهو ، بعد أن قَهَرَ جميعَ أعدائه ، ماذا كان نَفْعُ انتصاراته له على حينٍ كانت جميع المتاعب من كلِّ نوعٍ تَظْهَرُ حَوْلَه بلا انقطاع ، وعلى حينٍ كان أعزُّ أصدقائه يأتمرون به ليقتلوه فيَبْكى لِمَا يُلَاقى المُقَرَّبون إليه من خِزْىٍ أو قَتْلٍ ؟

أراد هذا التَّعِسُ أن يسيطر على العالَم ، وهو لم يستطع أن يهيمن على منزله ! وما الذى نشأ عن هذا الإهمال ؟ لقد أبْصَرَ هلاكَ ابنِ أخته وابنه بالتَّبَنِّى وصهرِه فى مَيْعَةِ الشباب ، وقد رأى اضطرارَ حفيده إلى أكْلِ حَشْوَةِ فِرَاشه إطالةً لحياته التَّعِسة بضعَ ساعات ، وقد غَمَرَتْه ابنتُه وحفيدتُه بفضائحهما

فماتت إحداهما بؤساً وجوعاً فى جزيرةٍ قفرٍ وهلكت الأخرى فى السجن بيدِ نبّال ، وأخيراً تحمِلُه زوجته الخاصة ، وهو بقيةُ أُسرتِه المنكودةِ الحظِّ ، على عدم تركه غيرَ غُولٍ لِيَرِثَه ، فذاك هو مصيرُ هذا السيد للعالمَ الذى مُجِّدَ كثيراً بسبب عِزِّه وسعادته ، وهل أعتقدُ أن واحداً ممن يُعْجَبُون به يَوَدُّ نَيْلَهما بهذا الثمن ؟

وقد اتخذتُ الطموحَ مثالاً ، غير أن لَعِبَ جميع الأهواء البشرية يَعرِض مِثْلَ هذه الدروس على من يُرِيدُ درسَ التاريخ حتى يَعرِف نفسَه ويكونَ حكماً على حساب الأموات ، ويَدْنو الوقت الذى ستكون سيرة أنطونيوس فيه لدى الشابِّ مِثْلَ سيرة أغسطس ، ولن يَعْرِف إميلُ أين هو فى الأمور الغريبة التى تَقِفُ نظرَه فى دروسه الجديدة ، ولكنه سيَعرِفُ أن يُبْعِدَ مُقدَّماً وَهْمَ الأهواء قبل أن تُولَد ، وهو ، إذْ يَرَى أنها أعمَتْ الرجال فى جميع الأزمان فإنه سيكون على علمٍ بالوجه الذى يُمكِن أن تُعمِيَهُ فيه بدَوْرِه إذا ما انقاد إليها(١) ، وأعرِف أن هذه الدروسَ غيرُ ملائمةٍ له ، وأن من المحتمل أن تكون عند الحاجة متأخرةً ناقصة ، ولكنْ اذْكُرُوا أننى لم أُرِدْ استخراجَها من هذا البحث ، فقد قَصَدْتُ أمراً آخرَ حين البدء بها ، ولا رَيْبَ فى أن سوء القيام بهذا الأمر يكون خطأً من المعلِّم .

واذْكُرُوا أن الأنانية إذا نَمَتْ لم تَلْبَث الذاتُ النِّسْبيةُ أن تتحرك بلا انقطاع فلا يلاحظ الفتى الآخرين من غير أن يَعُود إلى نفسه ويقابِلَ

(١) المبتسر هو الذى يثير صولة الأهواء فى قلوبنا دائماً ، ولا يولع ، مطلقاً ، من لا يرى غير ما هو كائن ولا يقدر غير ما يعرف ، ويؤدى خطأ أحكامنا إلى حرارة رغائبنا .

بينها و بينهم ، ولذا فإن من المهمّ أن تُعرَفَ المرتبةُ التي يَضَع نفسه فيها بين أمثاله بعد أن يَدْرُسهم ، وأرى ، بالأسلوب الذى يُحْمَلُ الشبّانُ به على مطالعة التاريخ ، أنهم يتحوّلون إلى جميع من يُبْصِرُون من السَّرَاة ، فيُسْعَى فى أن يُجْعَلَ منهم شيشرونُ أحياناً وترَاجَانُ مرةً والإسكندرُ تارةً ، فيَدِبُّ اليأسُ فى أفئدتهم إذا ما عادوا إلى نفوسهم حين يرَى كلٌّ واحدٍ منهم أنه هُوَ فقط ، ولهذا المنهاج بعض الفوائد التى لا أُنكرها ، ولكن إميلَ إذا ما حَدَثَ ذاتَ مرةٍ أن قام بهذه المقارنات ، فأراد أن يكون غيرَ نفسه ، ولو كان الآخرُ سقراطَ أو كاتُونَ ، عَدَدْتُنِى قد خَبِطْتُ فى عملى ، ومن يأخذ فى جَعْلِ نفسه غريبةً عنه لم يُعَتِّمْ أن يَنْسَى نفسه تماماً .

وليس الفلاسفةُ أحسنَ من يَعْرِفُ الرجالَ ، فالفلاسفةُ لا يَعْرِفونهم إلّا من خِلَال مُبْتَسَرَاتِ الفلسفة ، ولا أَعْرِف أحداً كالفلاسفة ذا مُبْتَسَر ، وللهمجيِّ رأىٌ فينا أصحُّ من رأى الفيلسوف ، والفيلسوفُ يَشْعُرُ بعيوبه ، ويغتاظ من عيوبنا ، ويقول فى نفسه : « كلُّنا خبيثٌ » ، ويَنْظُرُ الهمجىُّ إلينا من غير أن يهْتَزَّ ، ويقول : « أنتم من المجانين » ، وحُقَّ له أن يقول هذا ، وذلك لأنه لا أحدَ يَعْمَلُ السيئةَ للسيئة ، وتلميذى هو هذا الهمجىُّ ، وذلك مع الفارق القائل إن إميلَ ، إذْ كان أكثرَ تأمُّلاً ومقابلةً بين الأفكار واطِّلاعاً على أغاليطنا عن كَثَبٍ ، يَظْهَرُ أكثرَ احترازاً نحو نفسه ، ولا يَحْكُم بغير ما يَعْلَم .

وأهواؤنا هى التى تُثيرُنا على أهواء الآخرين ، ومصلحتُنا هى التى تحمِلُنا على مَقْتِ الأشرار ، وهؤلاء إذا لم يَفْعَلوا بنا سوءاً حَمَلْنا لهم عَطْفاً

أكثرَ من تحمّلِنا لهم حقداً ، وما يَفعلُ الأشرارُ بنا من سوء يجعلُنا ننسَى ما يفعلُون من سوء نحوَ أنفسهم ، ويَسهُلُ علينا أن نصفحَ عن سيئاتهم إذا ما استطعنا أن نعرفَ مقدارَ تعذيب فؤادهم لهم من أجلِها ، ونشعرُ بالذنب ولا نرَى العِقاب ، والمنافعُ ظاهرةٌ والعُقوبةُ خافية ، ومن يعتقد أنه يتمتع بثمرة عيوبه لا يكون بها أقلَّ عذاباً منه عند عدم نجاحه فيها ، والموضوعُ تغيَّر ، والهمُّ هُوَ هُوَ ، ومن العبث أن يُظهِرُوا نصيبَهم ، وأن يُخفُوا فؤادَهم ، فسُلوكُهم يَدُلُّ عليه على الرغم منهم ، ولكن لا ينبغى أن يكون لنا مثلُ فؤادهم للاطلاع عليه .

وما نُقاسِيهِ من أهواء يُغوِينا ، وما يَصْدِمنا من مصالحَ يُثيرُنا ، ومن التناقض الذى يأتينا منها أن نَذُمَّ فى الآخرين ما كُنَّا نَوَدُّ تقليدَه ، والكراهةُ والوهمُ من الأمور التى لا مَفَرَّ منها عند إلزامنا بأن نعانِيَ من قِبَل الآخر سوءاً نَعمَلُه لو كنا فى مكانه .

وما يجبُ أن يُصنَع لحُسْن البَصَر فى الرجال ؟ كبيرُ مصلحةٍ فى معرفتهم ، وعظيمُ إنصافٍ للحكم فيهم ، وقلبٌ على شىء من الإحساس لِتَمَثُّلِ جميع أهواء الناس ، وعلى شىء من السكون لعدم ابتلائها ، وإذا وُجِدَت فى الحياة ساعةٌ ملائمة لهذا الدرس كانت تلك التى اخترتُها لإميلَ ، والرجالُ كانوا غُرَباء عنه قبل الآن ، ثم يصير من أمثالهم ، ولمَّا يَنَلِ الرأىُ الذى يُبصِرُ فِعلَه سلطاناً عليه ، ولم يَهُزَّ فؤادَه قَطُّ ما يُحِسُّ أثرَه من أهواء ، وهو إنسانٌ ، ويكترثُ لإخوانه ، وهو عادلٌ ، ويَحكُمُ فى أقرانه ، والواقعُ أنه إذا ما حَكَمَ فيهم جيِّداً لم يُرِدْ أن يكون فى

مكان أيٍّ واحدٍ منهم مطلقاً ، وذلك بما أن غايةَ جميعِ ما يُلاقُون من كُرُوبٍ تقوم على ما ليس عنده من مُبْتَسَراتٍ فإن هذه الغاية تَلُوح له فى الهواء ، ويكون كلُّ ما يَرْغَبُ فيه إميلُ فى متناوله ، ومَنْ يَنْبَعُ إذا ما كَفَى نفسَه بنفسه وكانَ خالياً من المُبْتَسَرات ؟ وهو ذو ذراعين وصحةٍ[1] واعتدالٍ واحتياجاتٍ قليلة يُوجَدُ عنده ما يَقْضِيها به ، وهو إذْ نُشِّيءَ تنشئةً حُرَّةً مطلقةً عُدَّت العبوديةُ أشدَّ ما يَتَصَوَّرُ من آفات ، وهو يَرْثِى لهؤلاء الملوك المساكين الذين هم عبيدٌ لجميع من يطيعونهم ، وهو يَرْثى لهؤلاء الحكماء الزائفين المقيَّدين بصيتِهم الزائف ، وهو يَرْثِى لهؤلاء الأغنياء الأغبياء الذين هم ضحايا أُبهتهم ، وهو يَرْثِى لشَهاوَى التفاخر الذين يُسْلِمُون حياتَهم كلَّها إلى السَّأم حتى يَظْهَرُوا ذوى مَلَاذَّ ، وهو يَرْثى لعدوِّه الذى آذاه لِماَ يَرَى من بُؤسه فى خُبْثِه ، فيقول فى نفسه : « إن هذا الرجل جَعَلَ مصيره تابعًا لمصيرى لانتحاله ضرورةَ الإضرار بى » .

وإذا ما تَقَدَّمْنا خُطوةً أَصَبْناَ الهَدَف ، والأنانيةُ آلةٌ مفيدة ، ولكنها خَطِرة ، فهى تَجْرَح اليد التى تستعملها ، ومن النادر أن تَفْعَل خيراً بلا شَرٍّ ، وإميلُ ، إذْ يَنْظُرُ إلى مرتبته فى النوع البشرىِّ ويرى حُسْنَ مَوْضِعه منها ، يُغْوَى بتمجيد عقله عن عَمَل عقلكم فيَعْزُو إلى مزيته أمرَ سعادته ، ويقول فى نفسه : « إننى حكيمٌ ، والناسُ مجانين » ، وهو إذْ يَرْثِى للناس يَزْدَرِيهم ، وهو إذْ يُهَنِّئُ نفسَه يزيد تقديره لنفسه ، وهو إذْ يَشْعُرُ بأنه

---

(١) أعتقد إمكان إقدامى على عد الصحة وحسن البنية من المنافع التى اكتسبها بتربيته ، وإن شئت فقل من هبات الطبيعة التى حفظتها له تربيته .

أكثرُ منهم سعادةً يَعتقِدُ أنه أكثرُ من أهلٍ لها ، وهذا أكثرُ ما يُخْشَى من خطأٍ ، وذلك لأنه أصعبُ ما يُمكِن أن يُزَال ، وهو إذا ما بَقِيَ فى هذه الحال كان قليلَ الانتفاع من جميع جهودنا ، فإذا ما وَجَب الاختيار فلا أدرى هل أُفَضِّل وَهْمَ المُبْتَسَراتِ على وَهْم الخُيَلاء .

ولا يتطرقُ الوهم إلى أعاظم الرجال حَوْل تَفَوُّقهم ، فهم يَرَوْنه ويُحِسُّونه ، ولكنهم لا يَقِلُّون عن هذا تواضعاً ، وهم كُلَّما حازوا عَرَفُوا كلَّ ما يُعْوِزُهم ، وهم أقلُّ غروراً بارتقائهم فوقنا من هَوَانهم بما يُحِسُّون من ضَعْفهم ، وهم يَبْلغُون ، من حيث الأموالُ التى يَمْلِكونها حصراً ، درجةً من الصواب مالا يُغرُّون معه بعَطِيَّةٍ لم يصنعوها ، أَجَلْ ، قد يَزْهُو رجلُ الخير بفضيلته لأنها له ، ولكن مِمَّ يَزْهو رَجُلُ الذهن ؟ وما ذا صَنَع راسِينُ لكيلا يَكُونَ پرَادُونَ ؟ وماذا صَنَع بوَالُو لكيلا يَكُون كُوتَانَ ؟

والأمرُ هنا شىء آخرُ أيضاً ، ولْنَبْقَ ضِمْن المستوى العامِّ دائماً ، ولم أفترضْ فى تلميذى نبوغاً عالياً ولا تمييزاً واهياً ، وإنما اختَرْته من ذوى الأذهان العادية لأُثْبِتَ ما يُمْكِنُ أن يكون للتربية من فِعْلٍ فى الإنسان ، وتَكُون الشَّواذ كلُّها خارجَ القواعد ، وإذا ما فَضَّل إمِيلُ ، نتيجةً لجهودى ، طِرَازَ حياته وبصره وشعوره على طراز الآخرين حُقَّ له ذلك ، ولكنه إذا ما ظنَّ نفسه ، لهذا السبب ، من جِبِلَّةٍ أرفعَ من جِبِلَّتهم ومن أصلٍ أيْمَنَ من أصلهم عُدَّ مخطئاً ، أى ضالاً ، فوجبت إزالةُ ضلاله ، وإن شئت فقل تلافى خطئه ، وذلك خشيةَ أن يَمُرَّ من الوقت ما يَكُون إصلاح ذلك معه بعد الأوان .

وإذا عَدَوْتَ الزَّهْوَ لم تَجِدْ جُنُوناً يَتَعَذَّرُ شفاءُ رجلٍ غيرِ مجنونٍ منه ، وأما الزَّهْوُ فلا يُقَوِّمُه غيرُ التجربة لو وُجِدَ له علاجٌ حقًّا ، والزهوُ يُمْكِن أن يُحَالَ دُونَ استفحاله عند ظهوره على الأقلّ ، ولِذا فلا تُهْلِكوا أنفسَكم بإقامة البراهين الجميلة حتى تُثْبِتُوا للمراهق أنه إنسانٌ كالآخرين وأنه عُرْضةٌ لعين الضعف ، ودَعُوه يُحِسُّه ، أو إنه لن يَعْرِفَه مطلقاً ، وهنا ، أيضاً ، حالٌ استثنائية لقواعدى الخاصة ، وهذه هى حالُ عَرْضِ تلميذى ، طوعاً ، لجميع الحادثات التى يُمْكِن أن تُثْبِتَ له أنه ليس أكثرَ حكمةً منا ، ويُمْكِنُ أن تُكَرِّر عِرَافَةُ المُشَعْوِذ على ألف وجهٍ ، وأترُكُ المُصَانعين يستفيدون منه ، وإذا حَدَثَ أن ساقه بعض المُتَهَوِّرين إلى بعض الهَوْسَات تَرَكْتُه يُقَابِل الخطر ، وإذا ما صاوَلَه بعضُ المُخَادِعين فى اللعب تركته يُفَشّ[1] من قِبَلِهم ، أى تركتهم يُدَارُونه ويُدَاوِرُونه ويَنْتِفُونه ويَسْلُبونه ، وإذا ما أخذوا يَسْتَهْزِئون به بعد اسْتِنْزَافه شكَرْتُ لهم أمامه ما تَفَضَّلُوا بإلقائه عليه من دروس ، والأَشراكُ الوحيدةُ التى أُقِيه منها بعناية هى أَشْراكُ بناتِ الهَوَى ، والمجاملاتُ الوحيدة التى أُحَابِيه بها هى أن أُقاسمه جميعَ أخطاره التى تركته يُعَرَّض لها وجميعَ المَخَازِى التى تركته يَتَلَقَاها ، وسأحتمل كلَّ شىء صامتاً ، ومن

(١) وفضلا عن ذلك فإن تلميذنا يغوى بهذا الشرك قليلا ، وهو الذى يحيط به كثير من اللهو ، وهو الذى لم يسأم فى حياته ، وهو الذى لا يكاد يعرف استعمال النقود ، وبما أن المصلحة والزهو هما العاملان اللذان يقاد بهما الأولاد فإن هذين العاملين نافعان لبنات الهوى وللغششة فى التغلب عليهم فيما بعد ، وإذا ما أثرتم طمعهم بالجوائز والمكافآت ، وإذا ما رأيتم أنه يهتف لهم فى العاشرة من سنيهم بالمدرسة من أجل عمل عام ، أبصرتم كيف يغرون فى العشرين من عمرهم بالتخلى عن كيسهم فى دار قمار أو دار دعارة ، ويمكنكم أن تراهنوا دائماً على أن أكثر الأولاد جداً فى غرفة درسه سيصبح أكبر مقامر وداعر ، والواقع أنه لا يكون للوسائل التى لا تستعمل فى الصبا مطلقاً ذات المحذور فى الشباب ، ولكن لا يغب عن البال أن المبدأ الثابت الذى أتخذه هنا هو إظهار أسوأ ما فى الأمر ، ومنع العيب هو أول ما أحاول ، ثم أفترضه لمعالجته.

غير تذمرٍ وتأنيبٍ ، ومن غير أن أقول له كلمةً عن ذلك ، وثقوا بأن هذا السلوكَ الحكيمَ إذا ما حَصَل بإخلاصٍ فإن ما يَرَى من احتمالى فى سبيله يَكُون له من الأثرِ البالغ فى فؤاده أكثرَ مما يُعانِى بنفسه .

ولا أستطيعُ أن أمنع نفسى من التنبيه هنا إلى المقام الزائف للمعلمين الذين يَرَوْن انتحال الحكمة فيعاملون تلاميذَهم مِثْلَ الأولاد دائماً ، فيمتازون منهم دائماً فى كلِّ ما يَحْمِلونهم على صنعه ، وهكذا ابتعِدوا عن خَفْضِ إقدامهم الناشئ ، ولا تدّخِرُوا وُسْعاً فى رَفعِ نفوسهم ، واجْعَلوهم مساوين لكم حتى يصبحوا هكذا ، وإذا لم يستطيعوا الارتقاء إليكم أيضاً فاهْبِطُوا إليهم بلا خجلٍ ولا وَسْوَاس ، واذْكُرُوا أن سعادتكم عادَتْ لا تكون فيكم ، بل فى تلميذكم ، وشاطروه أوزارَه إصلاحاً لها ، واحتملوا خِزْيَه مَحْواً له ، واقْتَدُوا بالرومانىِّ الباسل الذى رأى هزيمةَ جيشه ولم يَقْدِر على جَمْع شَمْلِه فأخذ يَهْرُب على رأس جنوده قائلاً صارخاً : « إنهم لا يَفِرُّون ، بل يَتَّبِعُون قائدَهم » ، وهل أُصيبَ بعارٍ من هذا ؟ كلا ، بل زاد مَجْدَه إذْ ضَحَّى به على هذا الوجه ، أَلَا إن قوةَ الواجب وجمالَ الفضيلة يَجْذِبان أصواتَنا ويُزِيلان مُبْتَسَراتِنا السخيفةَ على الرغم منا ، فإذا ما صُفِعْتُ حين قيامى بواجباتى نحو إميلَ فإننى أُفاخر بهذا فى كلِّ مكانٍ بعيداً من الانتقام لنفسى ، ومما أشكُّ فيه وجودُ رجلٍ فى العالم يَبْلُغ من اللؤم[1] ما لا يزيد معه احتراماً لى من أجل ما تقدم .

ولا يَعْنِي هذا أن يَفْتَرِضَ التلميذُ فى مُعَلِّمه معارفَ محدودةً مِثْلَ

---

(١) أخطأت فى ظنى ، فقد وجدت واحداً ، وهو مسيو فورمه .

معارفه ، ولا سهولةَ إغواء مِثْلَه ، وهذا الرأىُ صالحٌ لولدٍ لا يَعْرِفُ أن يَرَى شيئاً ، ولا أن يَقِيسَ شيئاً ، فَيَجْعَلُ جميعَ العالَمَ فى متناوَله ولا يَضَعُ ثِقَتَه فى غيرِ مَن يَعْرِفون وَضْعَ أنفسِهم فى مستواه حَقًّا ، بَيْدَ أن فَتًى فى مِثْلِ سِنِّ إميلَ متصفاً بمِثْلِ صوابه لا يَبْلُغ من السُّخْفِ ما يقترف معه هذا الخطأ ، ولا يكون من المرغوب فيه ظهورُه هكذا ، ويجب أن يكون اعتمادُه على معلِّمه من غير هذا النوع ، وذلك أن من الواجب قيامَ هذا الاعتماد على سلطان العقل وعلى فَضْل المعارف وعلى ما يكون للفتى من فوائدَ فى العِلْمِ بها فيَشْعُرُ بنفعها لنفسه ، وقد أَقْنَعَتْه التجربةُ الطويلة بأنه محبوبٌ من قِبَلِ رائده ، وبأن هذا المرشدَ رجلٌ حكيم بصيرٌ راغبٌ فى سعادته عارفٌ بما يُمْكِنُ أن يأْتِيَه بها ، ويجب أن يَعْرِفَ أن مصلحته الخاصة تقضى بأن من الملائم له أن يستمع إلى نصائحه ، والواقعُ أن المعلم إذا ما سَمَحَ لنفسه بأن تُخْدَع مِثْلَ التِّلميذ يكون قد أضاع حقَّه فى مطالبته بالاحترام وفى إلقاء دروس عليه ، وأقلُّ من هذا وجوبُ افتراضِ التلميذ تركَ المعلمِ إياه يَقَعُ فى الأَشراك قَصْداً ونَصْبَه حبائل لبساطته عَمْداً ، وما يَجِبُ أن يُصْنَع ، إذَنْ ، لاجتناب هذين المحذورين معاً ؟ إن أفضَلَ ما فى الأمر وأقربَ إلى الطبيعة أن يكون مِثْلَه بسيطاً صادقاً ، وأن يُحَذِّره من الأخطار التى يُعَرِّضُ لها ، وأن يَدُلَّه عليها بوضوحٍ وعلى وجهٍ محسوس ، ولكنْ من غير مبالغةٍ ولا هَوًى ولا حَذْلقة ، ومن غير أن تُمَطُّوه آراءكم على شكل أوامر ، وذلك إلى الحين الذى تصبح فيه هكذا ، وإلى حين الذى تَغْدُو فيه لهجةُ الأمرِ هذه ضروريةً حتماً ، وإذا ما التزم جانبَ العناد بعد هذا ، كما يَقَعُ

غالباً ، فلا تقولوا له شيئاً ، ودَعُوه يكون طليقاً ، واتَّبعُوه ، وقَلِّدوه ، وليَكُنْ هذا بسلامةِ قلبٍ وحسنِ طَوِية ، وانْهَمِكُوا وتَلَهَّوْا مِثْلَه ما أمكَنَ هذا ، فإذا ما صارت النتائجُ حَرِجةً جِدًّا كنتم على استعدادٍ لوَقْفِها ، ومع ذلك فإن الفتى إذا كان شاهداً على حَذَرِكم ولطفِكم فما أكثرَ ما يَقِفُ نظرَه أحدُ الأمرين وما يتأثَّر بالآخر ! وتُعَدُّ أوزارُه كلُّها روابطَ يُجَهِّزُكم بها لردعه عند الضرورة ، وأكثرُ ما تتجلَّى به مهارةُ المعلِّم هنا ، كما هو الواقعُ ، هو أن يأتيَ بالفُرَص وأن يَسُوقَ النصائحَ على وجهٍ يَعْرِفُ به مُقَدَّماً متى يُذْعِنُ الفتى ومتى يَعْنِد ، وذلك ليُحَاطَ فى كلِّ مكانٍ بدروسٍ من التجرِبة ، وذلك من غير أن يُعرَّض للخطر كثيراً .

وحَذِّروه من سيئاته قبل أن يقع فيها ، وهو إذا ما سَقَطَ فيها فلا تَلُوموه مطلقاً ، وذلك لِمَا يُؤَدِّى إليه هذا من إلهاب أنانيته وإثارتها ، وما كان الدرسُ الذى يُثِيرُ ليُفِيدَ ، ولا أعْرِفُ ما هو أكثرُ سخافةً من هذه الكلمة : « كنتُ قد قلتُ لك هذا » ، وأحسنُ وسيلةٍ تُتَّخَذُ لتذكيره بما قيل له أن يُتَظَاهَرَ بنسيانه ، وعلى العكس إذا ما أبصرتموه خَجِلًا من عدم إطاعته لكم فأزيلوا هذا الخِزْىَ بالقول الطَّيِّب ، وهو يتعلّق بكم ، لا رَيْب ، عند ما يَرَى نسيانَكم نفسَكم فى سبيله ، وأنكم تُسَلُّونه بدلاً من أن تَسْحَقوه ، ولكنكم إذا ما أضفتم إلى غَمِّه تأنيباً وعِتاباً حَقَدَ عليكم وانتحل لنفسه دُستورَ عدمِ الإصغاء إليكم ، كأنه يريد أن يُثْبِتَ لكم أنه لا يُفَكِّر مِثْلَكم فى أهمية آرائكم .

وقد يكون الوجهُ الذى تأتُون به تسليتَكم إياه درساً نافعاً له بمقدار

عدم حَذَره منه ، ومتى قُلتمُ له ، مثلًا ، إن ألفاً من الناس يقترفون عينَ الخطيئات لم يَكُنْ هذا ما يَنْتَظِر ، وتُصْلِحُونه بظُهُورِكم مُتَوَجِّعين له ، وذلك لأن هذا ، عند من يَعْتَقد أنه أغلى من الآخرين ، اعتذارٌ مُخْزٍ بأن يَتَأَسَّى على مثالهم ، ولأن هذا يَعْنِي تَمَثُّلاً لِيَكُون أكثرِ ما يُمْكِنُ أن يَدَّعِيَه هو أنهم ليسوا أفضلَ منه .

وزمنُ السيئاتِ هو زمنُ الأمثال ، وإذا ما أُنِّبَ المذنبُ تحت قِناعٍ غريبٍ أُدِّبَ من غير أن يُهان ، وهنالك يُدْرِكُ أن المَثَلَ ليس كَذِباً ، وذلك من حيث الحقيقةُ التى يُطَبِّقُها على نفسه ، ولا يُدْرِكُ الولدُ الذى لم يُخْدَع قَطُّ بمَدْحٍ شيئاً من المَثَلِ الذى بحثتُ فيه آنفاً ، بيد أن الطائش الذى خُدِع بمُصَانِعٍ يَتَصَوَّر تصوُّراً عجيباً كَوْنَ الغُرَاب ليس غيرَ غبيٍّ ، وهكذا فإنه يستنبط مَثَلاً من حادثٍ ، وما يَنْسَى من تجرِبةٍ حالاً يُنْقَشُ بالمَثَلِ فى ذهنه ، ولا يُوجَدُ من المعارف الأدبية ما لا يُمْكِن اكتسابه بتجربة الآخرين أو بتجرِبة نفسه ، وإذا ما كانت هذه التجربة خَطِرَةً استُنْبِطَتْ عبرتُها من القِصَّة بدلاً من إتيانها فعلاً ، ومتى كان الاختبارُ غيرَ ذى بالٍ كان من الحسَن أن يُعَرَّض له الفتَى ، ثم يُصَاغُ فى قالَبِ أمثالٍ ، وبواسطة الحكاية ، ما عَرَف من أحوالٍ خاصة .

ومع ذلك فلا أَقْصِدُ بَسْطَ هذه الأمثال ، ولا التعبيرَ عنها أيضاً ، فلا شىء فارغٌ ولا سيئُ الفَهْم كالناحية الخُلُقية التى يُخْتَمُ بها مُعْظَمُ الأمثال ، وذلك كما لو كانت الناحيةُ الخُلُقية غيرَ مبسوطةٍ فى المَثَل ، أو كان من غير الواجب بَسْطُها فيه ، وذلك على وجهٍ يَكُون به محسوساً لدى القارىء ! ولِمَ ،

إذَنْ ، تُضَاف هذه الناحية الخُلُقية إلى خاتمة المَثَل فتُنْزَع من القارىء لذةُ اكتشافه لها بنفسه ؟ يقومُ فنُّ التعليم على جَعْل التلميذ راغباً فى التعلُّم ، والواقعُ أنه لا يَنْبَغِى ، لرغبته فى التعلُّم ، أن يَبْـقَى ذهنُه من السلبية فى كلٍّ ما تقولون له ما لا يَصْنَعُ معه شيئاً غيرَ الإصغاء إليكم ، ومما يَجِبُ هو أن تَتْرُكَ أنانيةُ المعلِّم ، دائمًا ، بابًا لتلميذه ، فيستطيعَ أن يقول : أُدْرِكُ ، أُبْصِرُ ، أتقدَّمُ ، أتَعَلَّمُ ، ومن الأمور التى تَجْعَلُ مُمَثِّلَ الكُمِيدْيةِ الإيطالية مُمِلاًّ هو ما يُعْـنَى به من إيضاحه للحُضُور ما كان يُسْمَعُ كثيراً ، ولا أُريد أن يكون المعلِّمُ كذلك المثِّل مطلقًا ، وأقلُّ من ذلك رغبتى أن يكون المؤلِّفُ مِثْلَه ، ومما يجب أن يَكُونَ ما نَقُولُ مفهومًا دائمًا ، ولكن لا ينبغى أن يقال كلُّ شىء دائمًا ، فالذى يقول كلَّ شىء لا يقول غيرَ أشياء قليلةٍ ، وذلك لأنه لا يُنْصَتُ له فى آخر الأمر ، وما معنى هذه الأبيات الأربعة التى أضافها لا فُونْتِن إلى مَثَلِ الضِّفْدِعة المُنْتفِخَة ؟ أيَخْشَى أَلّا يُفهَم ؟ أوَيحتاج هذا المُصَوِّر العظيم إلى كتابة الأسماء تحت الأشياء التى يُصَوِّرُها ؟ ويَبعُدُ من تعميم ناحيته الخُلُقية بذلك ، وهو يخصصها ، وهو يَقْصِرُها من بعض الوجوه على الأمثلة الواردة ، وهو يَحُول دون تطبيقها على أمثلةٍ أخرى ، وأودُّ قَبْل وَضْعِ أمثالِ هذا المؤلف المنقطعِ النظيرِ بين يَدَيِ الفتى أن يُحْذَف منها جميعُ تلك النتائج التى احْتَمَلَ مشقةَ إيضاحه بها ما قاله بجلاء وعلى وجهٍ مستحسن ، وإذا كان تِلميذُكم لا يَفْهَم المَثَلَ إلّا بالإيضاح فثِقُوا بأنه لن يَفْهَمَه حتى على هذا الوجه .

ومن المهمّ أيضاً أن تُمْنَحَ هذه الأمثالُ نظامًا أكثرَ تعلياً وأعظمَ

مطابقةً لتقدم مشاعر الفتى المراهق ومعارفه ، وهل يُتَصَوَّرُ شيء أقلُّ صوابًا من اتِّباع الترتيب العَدَدِيّ في الكتاب اتباعًا تامًّا مع عدم نظرٍ إلى الاحتياج أو المناسبة ؟ فالغُرابُ أوّلاً ، ثم الزِّيزُ[1] ، ثم الضِّفْدِعةُ ، ثم البَغْلان ، إلخ . ، وأرى هذين البغلين على قلبي ، وذلك لأنني أذكُرُ أنني رأيتُ ولداً رُبِّيَ للمالية ودُوِّخ بالوظيفة التي يَشْغَلها ، وقد حُمِلَ على قراءة هذا المثل وتعلُّمِه وتكرارِه مئاتِ المرّات من غير أن يَجِدَ أقلَّ اعتراضٍ على المِهْنة التي أُعِدَّ لها ، ولم أرَ قطُّ أولاداً يُطَبِّقون ما يتعلمون من أمثالٍ تطبيقًا وثيقًا فقط ، بل لم أرَ قطُّ أناسًا يُبالُون بحَمْلِهم على هذا التطبيق أيضًا ، والتعليمُ الخُلُقِيُّ ذريعةُ هذا الدرس ، ولكنَّ غَرَضَ الأمِّ والولدِ الحقيقيَّ لا يقوم على غير شَغْلِ جماعةٍ به حين تلاوتِه أمثالَه عن ظهر القلب ، وهذا إلى أنه يَنْسَاها كلَّها في كِبَرِه عند ما يعودُ الأمرُ غيرَ قائمٍ على استظهارها ، بل على الاستفادة منها ، وهذا إلى أن التَّثَقُّفَ بالأمثال لا يَخُصُّ غيرَ الرجال ، وها هو ذا وقتُ بدء إميلَ .

وكذلك بما أنني لا أريد أن أقول كلَّ شيء فإنني أدُلُّ من بعيدٍ على الطُّرُق التي تُبْعِدُ من الطريق الصالحة ، وذلك لِيُعْلَمَ اجتنابُها ، وأعتقد أنه إذا ما اتُّبِعَ الطريقُ الذي عُيِّنَ ابْتَاعَ تِلميذُكم معرفةَ الرجال ومعرفةَ نفسِه بأرخصِ ما يُمْكِنُ من ثمنٍ ، وأنكم تُمَكِّنُونه من تأمُّلِ صُرُوفِ الدهر من غير أن يَحْسُدَ المُفَضَّلين عنده على نصيبهم ، راضياً عن نفسه غير ظانٍّ أنه أكثرُ حكمةً من الآخرين ، وقد بدأتم ، أيضاً ، بجَعْلِه مُمَثِّلاً

---

(١) يجب أن يطبق هنا تصحيح مسيوفورمه أيضاً ، فالزيز أولا ، ثم الغراب ، إلخ .

جعلاً له واحداً من الحُضُور ، ويَجِبُ الإكمالُ ، وذلك لأن الأشياء تُرَى من أسفل المَسْرَح كما تَبْدُو ، وأما من المَسْرَح فتُرَى كما هى ، ولا بُدَّ من الجلوس على بُعْدٍ للاشتمال عليها جميعاً ، ولا بُدَّ من الدُّنُوِّ لرؤية الجزئيات ، ولكنْ بأية حجةٍ يتدخَّلُ الفتى فى أمور الدنيا ؟ وما حَقُّه فى الاطلاع على هذه الأسرار المُدْلَهِمَّة ؟ إن من مكايد اللذة ما يُحَدِّد مصالحَ سِنِّه ، وكذلك فإنه لا يتصرف فى غير نفسه ، وهذا كأنه لا يتصرف فى شيء ، والإنسانُ أرخصُ السِّلع ، وبين حقوقنا المهمة فى التملك تَجِدُ الحقَّ فى الشخص أقلَّها جميعاً .

وعند ما أرى الفِتْيَان فى سنِّ النشاط البالغ يُقْصَرُون على دروسٍ نظريةٍ صِرْفة ، وأنهم يُقْذَفون فى العالَم وفى الأمور دفعةً واحدة ومن غير أقلِّ تجربةٍ ، أَجِدُ فى هذا صَدْماً للعقل والطبيعة معاً ، وأَعُودُ لا أُدْهَشُ من قِلة مَنْ يَعْرِفون ما يَصْنَعُون ، وبأية ذهنيةٍ غريبة نُعَلِّمُ أشياء كثيرةً غيرَ نافعةٍ مع عدم عَدِّ فَنِّ العمل شيئاً مذكوراً ؟ يُزْعَم أننا نُعَدُّ للمجتمع ، ونُعَلِّمُ كما لو كان على كلِّ واحدٍ منا أن يَقْضِيَ حياته فى التفكير وحدَه داخلَ حُجَيْرَته ، أو أن يعالِجَ موضوعاتٍ باطلةً مع أخلياء ، وأنتم تعتقدون أنكم تُعلِّمُون أولادَكم أمرَ الحياة ، وذلك بتلقينهم شيئاً عن التواء العضَل فى البدن وصِيَغاً فى الكلام لا معنى لها ، وأنا ، أيضاً ، عَلَّمْتُ إميلَ أمرَ الحياة ، وذلك لأننى علمتُه الحياةَ مع نفسه ، وأن يَكْسِب عَيْشَه فضلاً عن ذلك ، ولكن هذا لا يكْفِي ، فلا بُدَّ للحياة فى العالَم من معرفة معاملة الناس ، ولا بُدَّ من معرفة الوسائل التى يؤثِّرُ بها فيهم ، ولا بُدَّ من تقدير

الفعل وردٌ الفعل للمصلحة الخاصة ضِمْنَ المجتمع المدنيّ ، ومن البَصرِ فى الحوادث بصراً صائبًا فيَنْدرُ خَدْعُه فى مشروعاته ، متخِذاً فى كلِّ وقتٍ أفضلَ وسائلِ النجاح على الأقلّ ، ولا تَسْمَحُ القوانين للفِتْيان بالقيام بمصالحهم الخاصة والتصرفِ فى أموالهم الخاصة ، ولكن ما نَفْعُ هذه الاحتياطات لهم إذا لم يستطيعوا حتى السنِّ المُقرّرة اكتسابَ أيةِ تجرِبةٍ كانت ؟ وما كانوا ليرْبَحُوا شيئاً من الانتظار ، وهم يكونون فى الخامسة والعشرين من سِنِيهم من الجِدَّة كما كانوا فى الخامسَ عشرَ من عُمرِهم ، أجَلْ ، يَجِبُ أن يُمْنَع الفتى الذى يُعْميه جَهْلُه أو تَخْدَعُه أهواؤه من الإضرار بنفسه ، ولكنه يُسْمَحُ للإنسان فى كلِّ سِنٍّ أن يكون محسناً ، ولكنه يُمْكِنُ فى كلِّ سِنٍّ أن يحافظ على التعساء الذين لا يحتاجون إلى غير سَنَدٍ ، وذلك تحت إشراف رجلٍ حكيم .

ويتَمَسَّكُ المَرَاضِعُ والأمهاتُ بالأولاد لِماَ يَبْذُلْنَ لهم من رعاية ، وتَحمِلُ ممارسةُ الفضائلِ الاجتماعية حُبَّ الإنسانية إلى صميم الأفئدة ، ويُصْبِحُ الإنسان صالحاً بفعل الخير ، ولا أعْرِف مَعروفاً أضمنَ من هذا مطلقاً ، واشْغَلُوا تلميذَكم بالأعمال الصالحة التى هى فى مُتَناوَله ، ولْتَكُنْ مصلحةُ المُعْوِزين مصلحتَه دائماً ، ولا يَقْتَصِرْ على مساعدتهم من ماله ، بل لِيَشْمَلْهم برعايته ، ولْيَخْدُمْهم ، ولْيَحْمِهم ، ولْيَقِفْ شخصَه ووقتَه عليهم ، ولْيَجْعَلْ من نفسِه وكيلَهم ، فهو لن يقوم فى حياته بعملٍ أنبَلَ من هذا ، وما أكثرَ المظلومين الذين لم يُسْمَعْ لهم قَطُّ فيَفُوزوا بالعدل عند ما يطلبه لهم بثباتٍ عظيمٍ تؤدِّى إليه مزاولةُ الفضيلة ، وعند ما يقتحم أبوابَ الكُبَراء والأغنياء ، وعند ما يَبْلُغ موطئَ العرش عند الضرورة ، إسماعاً لصوت المَكْرُوبين

المُؤْصَدةِ دُونَهم جميعُ المقابلات بسبب بؤسهم ، والذين يستحوذ عليهم خوفُ العِقاب على مصائبهم التى ابْتُلُوا بها فلا يَجْرُءون حتى على التوَجُّع منها !

ولكنْ هل نَجْعَلُ من إميلَ فارساً دَوَّاراً ، أو بطلاً للمظلومين نصيراً ، أو خيَّالاً مِغْواراً ؟ وهل يَتَدَخَّلُ فى الشؤون العامة ، ويَجْعَلُ من نفسه الحكيمَ المدافعَ عن القوانين لدى الكُبَراء والحُكَّام والأمير ، ويَجْعَلُ من نفسه المستدعِيَ لدى القضاة والمحامىَ فى المحاكم ؟ لا أعْرِف شيئاً من جميع هذا ، ولا تُغَيِّرُ كلمتا المُجُون والاستهزاء شيئًا من طبيعة الأمور ، وسيَصْنَعُ كلَّ ما يَعرِف أنه نافع صالح ، ولن يَصْنَعَ ما هو أكثرُ من هذا ، وهو يَعْلَمُ أنه لا نافعَ ولا صالحَ له غيرُ ما يلائم سِنَّه ، وهو يَعْلَمُ أن واجبه الأول يكون تجاه نفسه ، وأن على الفِتْيان أن يَحْذَروا أنفسهم ، وأن يكونوا مُتَحَفِّظِين فى سلوكهم ، مُحْتَرِمين لِمَنْ هم أسنُّ منهم ، حافظين للسانهم مُمْسِكين عن القول بلا سبب ، متواضعين فى الأمور الخَلِيَّة ، ولكن مع إقدامٍ فى صُنْع الخير وجُرْأةٍ فى قول الحقِّ ، وهذا ما كان عليه أولئك الرومان الأماجد الذين كانوا ، قَبْلَ أن يُقْبَلُوا فى المناصب ، يَقْضُون شبابَهم فى تعقب المجرمين والدفاع عن الأبرياء من غير أن تكون لهم مصلحةٌ سوى التَّفَقُّه حين خدمةِ العدل والمحافظة على حُسْن الأخلاق .

ولا يُحِبُّ إميلُ الضَّوْضاء ولا الشِّجارَ بين الناس[1] ، حتى بين

(١) ولكن ما يكون سلوكه إذا ما شاجره آخر ؟ أجيب عن هذا بقولى إنه لن يكون عرضة لشجار ما دام فى وضع لا يعرض معه لشجار ، ولكن يعقب على هذا بأن يسأل : من ذا الذى يكون فى مأمن من صفعة أو إهانة تصدر عن فظ أو سكير أو وغد يبدأ بفضح صاحبه حتى يتلذذ بقتله ؟ هذا شىء آخر ، فلا يجوز أن يكون شرف المواطنين ولا حياتهم تحت رحمة فظ أو سكير أو وغد ، ولا يستطيع أحد أن يحفظ نفسه من مثل هذا الحادث كما أنه لا يستطيع أن يحفظها من آجرة ، وتعد الصفعة أو الإهانة التى تنزل=

الحيوان ، وهو لم يُحَرِّضْ كَلْبَيْنِ على العِراك قَطُّ ، وهو لم يَحْمِلْ كلباً على تَعَقُّبِ سِنَّوْرٍ قَطُّ ، وهذه النفسُ المسالمة هى نتيجة تربيته التى لم تُثِرْ أنانِيَّتَه ولا زَهْواً فيه تَحَوَّلته عن طلب مَلَاذِّه فى قَهْرِ الآخرين وبؤسهم ، ويؤلمه منظر الألم ، وهذا شعورٌ طبيعيٌّ ، والذى يَجْعَل الفتى يَقْسُو ويَتَلَذَّذ بمنظر تعذيب كلِّ ذى حِسٍّ هو عَدُّه نفسَه معصومًا من ذات الآلام بحكمته أو بأفضليته عن ترديدِ زَهْوٍ ، ومن يَكُنْ وراءَ متناوَل الزَّهْو لا يُمْكِن أن يَقَعَ فى العيب الذى ينشأ عن الزَّهْو ، ولِذَا فإن إميلَ يُحِبُّ السلام ، ويَسُرُّه خيالُ السعادة ، وهو إذا ما استطاع المساعدةَ على إحداثها كانت هذه وسيلةً إضافيةً لمشاطرة الناس إياها ، ولم أفترضْ أنه حين رؤيته التُّعَساء لا يكون لديه غيرُ تلك الرحمة الجديبة الجافية التى تكتفى بالرِّثاء لكُرُوبٍ تستطيع أن تَشْفِيَ منها ، ومن شأن خَيْرِه الفَعَّال أن يَمْنَحَه من فَوْرِه معارفَ ما كان لِيَنَالَها مطلقاً بقلبٍ أشدَّ قَسْوَةً ، أو إنه ينالها مؤخَّراً ، وهو إذا ما رأى خلافاً بين رفقائه حاول أن يُوَفِّقَ بينهم ، وهو إذا ما رأى حُزَنَاءَ بَحَثَ عن سبب كَرْبِهم ، وهو إذا ما رأى رجلين متباغضين أراد

= ويحتمل من النتائج المدنية التى لا تستطيع أية حكمة أن تمنع وقوعها ، ولا تستطيع أية محكمة أن تنتقم للمعتدى عليه ، ونقص القوانين يجعله فى هذا مستقلا إذن ، فهنالك يكون وحده حاكماً وقاضياً بينه وبين المعتدى ، ويكون وحده مفسراً ومديراً للقانون الطبيعى ، ويكون من الواجب عليه إقامة العدل ويمكنه أن يقيمه وحده ، ولا يوجد فى الأرض حكومة تبلغ من السخافة ما تجازيه على إقامته لنفسه فى مثل هذه الحال ، ولا أقول إنه يجب عليه أن يقاتل ، فهذه حماقة ، وإنما أقول إنه ملزم بإقامة العدل لنفسه وإنه وحده موزع له فى ذلك ، ولو كنت ملكاً لأعرضت عن المراسيم الكثيرة الفارغة حول المبارزات ولأجبت بأنه لا يكون هنالك صفعة ولا إهانة فى مملكتى مطلقاً ، وذلك بوسيلة بالغة البساطة لا تتدخل المحاكم فيها أبداً ، ومهما يكن من أمر فإن إميل فى مثل هذه الحال يعرف ما يجب عليه من عدل لنفسه ، كما يعرف العبرة التى يأتى بها نفعاً لسلامة ذوى الشرف ، ولا يتوقف على أثبت الرجال أن يحول دون الإهانة ، وإنما يتوقف عليه أن يحول دون التفاخر طويلا بما كان من إهانته .

أن يَعرِفَ عِلّةَ بغضائهم ، وهو إذا ما رأى مظلوماً يئن من مظالم ذى سلطانٍ وذى ثَرَاء بَحَثَ عن وسائلَ لرَفْع هذه المظالم ، وما يساوره من اكتراثٍ لجميع البائسين يجعله يُعْنَى بالوسائل التى يَخْتِمُ بها بؤسَهم ، وما نَصْنَع للانتفاع بهذه القابليات على وجهٍ يلائم سِنَّه ؟ أن ننظم جهودَه ومعارفَه ، وأن نستخدم غَيْرَتَه لزيادتها .

ولا أتْعَبُ من قولى مُكرَّراً : اجْعَلُوا جميعَ دروس الفِتْيان عمليةً أكثرَ منها كلاميةً ، ولا ينبغى أن يَتَعَلَّمَ الأولادُ شيئاً من الكتب يُمْكِنُ أن يَتَعلَّموه من التجرِبة ، ويا لسخافة خِطةٍ فى تمرينهم على الكلام مع عدمِ وجود موضوعٍ يتكلمون عنه ، وفى اعتقاد جعلهم يَشْعُرُون ، وهم على مقاعد المدرسة ، بقوة لسان الأهواء وبجميع قوة فنِّ الإقناع ، وذلك من غيرِ وجودِ مصلحةٍ فى إقناع أحد ! ألَا إن جميعَ قواعد البيان لا تَبْدُو غيرَ هَذَرٍ لِمَنْ لا يَعرِفُ استخدامَها نَفعاً له ، وما أرَبُ التلميذِ فى معرفته كيف شَجَّع أنيبالُ جنودَه على مجاوزة جبال الألْب ؟ ثِقُوا بأنه يكون أكثرَ انتباهاً إلى قواعدكم لو قلتم له ، بدلاً من هذه الخُطَب الفخمة ، ما يجب أن يَصْنَع لحَمْل مديره على منحه عُطْلةً .

ولو أرَدْتُ أن أُلْقِيَ البيانَ على فَتًى نَمَتْ جميعُ أهوائه لعَرَضْتُ عليه بلا انقطاعٍ أموراً صالحةً لمداراة أهوائه ، ولدَرَسْتُ معه ما يجب أن يتخذ من لسانٍ نحو الآخرين حَمْلًا لهم على استحسان رغائبه ، بَيْدَ أن إميلَ ليس فى وَضْعٍ ملائمٍ لفنِّ البيان بهذا المقدار ، فهو إذْ قَصِرَ تقريباً على المادىِّ الضرورىِّ فإنه أقلُّ احتياجاً إلى الآخرين من احتياج الآخرين إليه ، وهو إذْ ليس لديه ما يسألهم عنه لنفسه فإن ما يُرِيدُ إقناعَهم به

لا يَمَسُّه عن كَثَبٍ فيَهُزّه إلى الغاية ، ومن ثَمَّ يُرَى أنه يجب أن يكون ، على العموم ، ذا لسانٍ بسيطٍ قليلِ المَجاز ، وذلك لأنه يتكلَّمُ فى أمرٍ مقصودٍ عادةً ، وليكون مفهوماً فقط ، وهو قليلُ الحِكَم والأمثال ، وذلك لأنه لم يتعلَّمْ تعميمَ أفكاره ، وهو قليلُ الصُّوَر ، وذلك لأن من النادر أن يكون هاوياً .

ومع ذلك فليس ذلك لأنه فاترُ المزاج باردٌ تماماً ، فلم تَكُنْ سِنُّه ، ولا أذواقُه ، ولا أخلاقُه ، لتَسْمَح بذلك ، وهو فى دَوْرِ مراهقته النارىّ تَحْمِلُ الأرواحُ المُنعِشَةُ ، المُخْتَرِسةُ المُقَطَّرَة المُكَرَّرة فى دمه ، إلى قلبه الفَتِىِّ حرارةً تَلْمَعُ فى نَظَراته وتُحَسُّ فى كلامه وتُبْصَرُ فى أعماله ، وقد اكْتَسَب مَنْطِقُه نَبْرةً ، وصَوْلَةً أحياناً ، وما يُلْهِمُه من شعورٍ نبيل يَمْنَحُه القوةَ والرِّفعة ، وبما أنه أُشْرِب حُبَّ الإنسانيةِ الرقيقَ فإنه يُفْضِى حين يتكلم بخواطر قلبه ، ولا أعْرِف كيف هذا ، ولكنْ يوجد فى صِدْق طَوِيَّته من الفُتُون ما هو أعظمُ مما يُوجَدُ فى بلاغة الآخرين المصنوعة ، وإن شئتَ فقُلْ إنه وحدَه هو البليغُ حقّاً ما كان عليه فقط أن يُظْهِرَ ما يَشْعُرُ به لِيَنْقُلَه إلى من يستمعون له .

وكلما فكرتُ فى ذلك وَجَدْتُ ، حين أَضَعُ حُبَّ الخير موضعَ العمل على ذلك الوجه ، وحين أستنبط من توفيقنا الحسن أو السيئ تأمُّلاتٍ حَوْلَ أسبابه ، معارفَ نافعةً قليلةً لا يُمْكِنُ تَعَهُّدُها فى رُوح الفتى ، وأن هذا الفتى يكتسب ، زيادةً على ذلك ، ومع ما يُمْكِنُ اكتسابُه فى المدارس من معرفةٍ صحيحة ، علماً أكثرَ أهميةً أيضاً ، وهو تطبيقُ هذا المُكْتَسَب على أغراض

الحياة ، وإذا ما بَلَغ ذاك المقدارَ من الاكتراث لأمثاله لم يَكُنْ من الممكن ألاَّ يَتَعَلَّمَ باكراً وَزْنَ أعمالهم وأذواقِهم وملاذِّهم وتقديرَها وألاَّ يَجْعَلَ ، على العموم ، لِمَنْ يُمكِن أن يساعدَ سعادةَ الناس أو يَضُرَّها قيمةً أقومَ مما يَجْعَلُ لمن لا يُبالون بأحدٍ فلا يَصْنَعُون للآخرين شيئاً مطلقاً ، ويُرَى الذين لا يُعْنَوْن بغير أمورهم الخاصة كثيرى الوَلَع بالحُكْم فى الأشياء حكماً سَديداً ، وذلك أنهم إذْ يَعدُّون كلَّ شىء مؤثِّراً فيهم وحدَهم ، ويُنَظِّمون مبادئ الخير والشَّرِّ وَفْقَ مصلحتهم الوحيدة ، يَمْلأُون نفوسَهم بألفِ مُبْتَسَرٍ مُثيرٍ للسُّخْرية ، وأنهم يَرَوْن من فَوْرِهم انقلابَ جميع العالَم فى كلِّ ما يُصِيبُ أقلَّ منفعةٍ لهم .

ولْنَجْعَل الأَثَرَةَ شاملةً للآخرين ، ولْنُحَوِّلْها إلى فضيلةٍ ، والفضيلةُ هى ما لا يُوجَدُ فؤادٌ لا يَكُون جَذْرُها فيه ، وكلما قَلَّ ارتباطُ غَرَضِ جهودِنا فينا مباشرةً قَلَّ الخوفُ من وَهْمِ المصلحة الخاصة ، وكلما عُمِّمَتْ هذه المصلحةُ صارت منصفةً ، وليس حُبُّ الجنس البشرىِّ شيئاً غيرَ حُبِّ العدل فينا ، وإذا ما أردنا أن يُحِبَّ إميلُ الحقيقةَ ، إذَنْ ، وإذا ما أَرَدْنا أن يَعْرِفها ، فلْنُمْسِكْه بعيداً من نفسه دائماً ، وكلما وَقَفَ جهودَه على سعادة الآخرين كانت هذه الجهود نَيِّرَةً حكيمة وقَلَّ خَدْعُه فى الخير والشَّرِّ ، ولكنْ لا نَسْمَحْ له بأن يأتى أىَّ تَفْضِيلٍ أعمى قائمٍ ، حَصْراً ، على المحاباة وسَبْقِ المَيْل المخالف للعدل ، ولِمَ يُؤذِى فَرْداً خدمةً لآخر ؟ إن مما يهمُّه قليلاً أمرُ مَنْ يَقَعُ عليه أعظمُ سعادةٍ فى القِسْمة بشَرْطِ أن يساعد على أعظم سعادةٍ للجميع ، فهناك مصلحةُ العاقل الأولى بعد مصلحته الخاصة ، وذلك

لأن كلَّ واحدٍ جزءٌ من نوعه ، لا جزءٌ من فردٍ آخر .

ويَجِبُ ، لِلْحَوْل دون تَدَنِّى الرحمة إلى ضعفٍ ، أن تُعَمَّم إذَنْ ، فتُنْشَرَ بين جميع الجنس البشرىِّ ، وهنالك لا يُسْتَرْسَلُ فيها إلاَّ بمقدار اتفاقها مع العَدْل ، وذلك لأن العَدْلَ ، بين جميع الفضائل ، هو أكثرُها مساعدةً على النَّفع العامِّ ، ويَقْضِى العقلُ وحُبُّنا لأنفسنا أن تكون رحمتنا لنوعنا أكثرَ مما لجارِنا ، فمن القَسْوة الكبيرة على الناس أن يُرْحَم الأشرار .

ولكنَّ مما يَجِبُ تَذَكُّرُه هو أن جميع هذه الوسائل التى أقْذِف بها تِلميذى خارجَ نَفْسه هكذا ذاتُ صلةٍ مباشرةٍ به فى كلِّ وقتٍ مع ذلك ما نشأت عنها لذةٌ باطنية فضلاً عن كونى أعْمَلُ لتعليمه الخاصّ إذْ أجْعَلُه محسناً نفعاً للآخرين .

والوسائلُ هى أولُ ما قَدَّمتُ ، والآن أرى نتيجتَها ، ويا للمناظر الكبرى التى أرى انتظامَها فى رأسه شيئاً فشيئاً ! ويا للمشاعر الرفيعة التى تُطْفِئُ فى فؤاده أصلَ الأهواء الحقيرة ! ويا لصَفَاء التمييز وسَداد العقل اللذين أبْصِرُ تكوينَهما فيه بفِعْل الميول المُهَذَّبة والتجربة التى تَجْمَعُ آمالَ النفسِ العظيمة ضمن حَدِّ الممكنات الضيق ، والتى تَجْعَلُ الرجلَ الذى يَعْلو الآخرين يَعْرِف أن يَهْبِطَ إلى مستواهم لعجزهم عن الارتقاء إلى مستواه ! إن مبادئ العدل الحقيقيةَ ونماذجَ الجمالِ الحقيقيةَ وجميعَ صلاتِ الناس الأدبية وجميعَ آراء الناس فى النظام تُنْقَشُ ضِمْنَ إدراكه ، فيَرَى مكانَ كلِّ شىء والسببَ الذى يُبْعِدُه منه ، ويَرَى ما يُمْكِن أن يُوجِبَ الخيرَ وما يَمْنَعُه ، وهو من غير شعورٍ بالأهواء البشرية يَعْرِف ما يُسْفِرُ عنها من أوهامٍ وعمل .

وأتقدم مَسُوقاً بقوة الأمور، ولكن من غير أن أفْرِض نفسى مُتحَكِّماً فى أحكام القُرَّاء ، والقُرَّاء ما انفكُّوا يَرَوْننى فى بلد الأوهام منذ زمن طويل، وأما أنا فما فتئتُ أراهم فى بلد المُبْتَسَرات، وما فَتِئْتُ، بابتعادى عن الآراء العامية كثيراً، أراهم ماثلين فى ذهنى وأُدْرُسُهم، وأفكِّر فيهم، لا لأتْبَعهم ولا لأتَجَنَّبهم ، بل لأزِنَهم بميزان البرهان ، وفى كلِّ مرةٍ يَحْمِلُنى البرهان على الابتعاد عن هذه الآراء العاميةِ أَعْلَمُ ، عن تَجْرِبةٍ ، أن قُرَّائى لا يُقلِّدوننى ، وأَعْرِف أنهم ، إذْ يُصِرُّون على عدم تَصَوُّرهم مُمْكِناً غيرَ ما يَرَوْن ، يَعُدُّون الفتى الذى أُصَوِّره موجوداً خيالياً وهمياً لاختلافه عمن يقابلون بينه وبينهم، وهم يَنْسَوْن أنه يجب أن يختلف عنهم ما دام قد نُشِّئَ على غير ما نُشِّئُوا ، وتأثَّرَ بمشاعرَ مغايرةٍ لِما هم عليه ، وتَعَلَّمَ على خلافِ ما تَعَلَّمُوا ، فتَكُون مشابهتُه لهم أدعى إلى الحيرة من ظهوره كما أَفْتَرِضُه ، وهو ليس إنسانَ الإنسان ، بل إنسانُ الطبيعة ، ولا مِراءَ فى وجوب كونه غريباً فى أعينهم كثيراً .

وإنى حين بدأتُ هذا الكتاب لم أفترض شيئاً لم أستطع أن أُلاحظه أنا والآخرون ، وأَعْنِي بذلك وِلادةَ الإنسان التى هى نقطةُ انطلاقٍ نَسِيرُ منها جميعاً على السواء ، ولكننا كلما تقدمنا ابْتَعَدَ بعضُنا عن بعضٍ لمراعاتى الطبيعةَ ولإفسادكم إياها ، وكان تِلميذى وهو فى السادسة من سِنِيه يختلف عن تلاميذكم قليلاً ، لِماَ لم يَكُنْ لديكم من الوقت ما تُشَوِّهونهم معه ، والآن عاد لا يوجد شىء يتشابهون به ، ومما يَجِبُ هو أن تُبْدِيَه سنُّ الرُّجولةِ ، التى يَدْنُو منها ، على شكلٍ مُطْلَقِ الاختلاف عنهم ما لم أكُنْ قد

أضعتُ جميعَ جهودى ، أجَلْ ، قد تكون كَمِّيَّةُ المُكْتَسَبِ متساويةً لدى الطرفين ، بَيْدَ أن الأمورَ المكتسبة لا تتشابه مطلقاً ، ومن دواعى حيرتكم أن تَجِدُوا لدى واحدٍ من المشاعر العالية مالا يُوجَدُ لدى الآخرين أقلُّ أصلٍ له ، ولكن اذْكرُوا أيضاً أن هؤلاء صاروا فلاسفةً ولاهوتيين قبل أن يَعْرِف إميلُ ما الفلسفة وقبل أن يَسْمَع قولاً حتى عن الرَّبِّ .

وإذا أتيتم وقلتم لى : « لا يُوجَدُ أحدٌ ممن تَفْتَرِضُ ، ولم يُصْنَع الفِتْيَانُ على هذا الوجه مطلقاً ، وعندهم هذا الهوى أو ذاك ، وهم يَفْعَلُون هذا أو ذاك » ، كان هذا كإنكاركم إمكانَ وجودَ شجرةٍ كُمَّثْرَى كبيرةٍ ، وذلك لأنه لا يُرَى غيرُ أشجارِ كُمَّثْرَى قصيرةٍ فى حدائقنا .

وأرجو من هؤلاء القضاة المُسْرِعين فى اللوم أن يذْكرُوا أن ما يقولون هناك مما أعرفُ كما يَعْرِفون ، وأن من الراجح أن فَكَّرْتُ فيه مَلِيًّا ، وأنه يَحِقُّ لى ، وليس لى غَرَضٌ فى فَرْضه ، أن يُنْفِقُوا من الوقت ، على الأقل ، ما يَبْحَثُون فيه عَمَّا أُخْدَع منه ، ولْيَبْحَثُوا جيداً فى كيان الإنسان ، ولْيَتَتَبَّعُوا مراحلَ نشوءِ القلب الأولى فى هذا الحال أو ذاك ، ليَرَوْا مقدارَ ما يُمْكِن الفردَ أن يختلف عن الآخر بقوة التربية ، ثم لْيُقَابِلُوا بين منهاجى فى التربية والنتائجِ التى أعْزوها إليه ، ولْيَقُولوا وجه الخطأِ فى بيانى ، فهنالك لا يكون لدىَّ ما أُجيب عنه .

والذى يَجْعَلُنى أكثرَ توكيداً لذلك ، وأهلاً للمعذرة عن ذلك ، كما أعتقد ، هو أننى أقلُّ ما يُمْكِنُ التفاتاً إلى البرهان وأننى لا أعتمد على غير المشاهدة ، وذلك بدلاً من استنادى إلى أىِّ مذهب ، ولا أُقيم أفكارى

على ما تَخَيَّلْتُ مطلقاً ، بل على ما رأيتُ ، أَجَلْ ، إننى لم أحْصُرْ تجاربى ضِمْنَ أسوارِ مدينةٍ ، كما أننى لم أقْصُرْها على طبقةٍ واحدةٍ من الناس ، بَيْدَ أننى ، بعد أن قابلتُ بين كثيرٍ من الطبقات والشعوب التى أمكننى أن أراها فى حياةٍ قضيتْ فى ملاحظتها ، حَذَفْتُ ، كأمرٍ مصنوعٍ ، ما هو من شعبٍ ، لا من آخرَ ، وما هو من طبقةٍ ، لا من أخرى ، ولم أعُدَّ ، على أنه خاصٌّ بالإنسان خصوصاً لا رَيْبَ فيه ، غيرَ ما هو مشتركٌ بين الجميع فى أىِّ دَوْرٍ من العُمُر كانوا ، ومن أية طبقة كانوا ، وإلى أية أمةٍ انتسبوا .

والواقعُ أنكم إذا كنتم ، وَفْقَ هذا المِنْهاج ، تَتَعَقَّبُون ، منذ دَوْرِ الصبا ، فتًى لم يكتسب شكلاً خاصًّا مطلقاً ، فيكُون أقلَّ ما يُمْكِن اتِّبَاعاً لسلطان الآخرين وآرائهم ، فهل تَرَوْن أنه يكون أكثرَ مشابهةً لتلميذى أو لتلاميذكم ؟ فهذه هى المسئلة التى يَلُوح لى وجوبُ حَلِّها ليُعْرَف هل أنا على ضلال .

ولا يَسْهُل على الإنسان أن يبدأ بالتفكير ، ولكنه إذا ما أَخَذَ يُفَكِّرُ لم يَنْقَطِعْ عن التفكير مطلقاً ، ومَنْ يُفَكِّرْ يُفَكِّرْ دائماً ، وعندما تُمَرَّن قوة الإدراك على التأمُّل ذاتَ مرةٍ تَعُودُ غيرَ قادرةٍ على البقاء ساكنةً ، ويُمْكِنُ أن يُعْتَقَدَ أننى أفعلُ كثيراً أو قليلاً ، وأنه ليس من طبيعة الإنسان أن يَتَفَتَّحَ سريعًا ، وأننى ، بعد أن أُعْطِىَ من التسهيل ما ليس لديه ، أُمْسِكُه لطويلِ زمنٍ مقيداً ضِمْنَ دائرةٍ من الأفكار يَجِبُ أن يجاوزها .

/ ولكن اذكروا ، أوّلا ، أننى حين أريدُ تكوينَ إنسان الطبيعة ، لا أوَدُّ أن أجْعَل منه لهذا السبب وحشيًّا وأن أقْصِيَه إلى وَسَطِ الغاب ، وإنما يَكْفِيه ، وهو محصورٌ داخلَ عاصفةِ المجتمع ، ألّا تَسُوقَه أهواء الناس ولا آراؤهم ، وأن يرى بعينيه ويَشْعُرَ بقلبه ، وألا يسيطر عليه سلطانٌ خارجَ سلطانِ عقله الخاصِّ ، ومن الواضح فى هذا الوَضْع أن كثرةَ الأمور التى تَقِفُ نظرَه ، ووَفْرَةَ المشاعر التى تؤثِّرُ فيه ، ومختلفَ الوسائل التى تُقْضَى بها حاجاتُه الحقيقيةُ أشياء يَجِبُ أن تُعْطِيَه من الأفكار الكثيرة ما ليس لديه ، أوْ ما يكتسبُه رُوَيْداً رُوَيْداً ، وقد عُجِّلَ تَقَدُّمُ الذهنِ الطبيعيُّ ، ولكنه لم يُقْلَب ، والإنسانُ ، الذى يجب أن يَبْقَى غَبِيًّا فى الغاب ، يَجِبُ أن يَغْدُوَ عاقلًا رصيناً فى المدن إذا ما كان ناظراً بسيطاً فيها ، ولا شىء أصلحُ لجعل الإنسان حكيماً من الحَماقات التى يراها من غير أن يشترك فيها ، حتى إن الذى يَشْتَرِكُ فيها يَتَعَلَّمُ أيضاً بشَرْطِ ألّا يُخْدَع بها ، وألّا يَحْمِلَ إليها خطأَ مَنْ يأتونها . /

واذكروا ، أيضاً ، أننا ، إذْ نُقْصَر بأهلياتنا على الأمور المحسوسة ، لا نكاد نَجِدُ سبيلًا إلى المبادئ الفلسفية المجرَّدة وإلى الأفكار الذهنية الصِّرْفة ، ويَجِبُ ، لبُلوغِها ، أن نتخلص من الجسم الذى نرتبط فيه ارتباطاً وثيقاً ، أو أن نتقدم ، بالتدريج وعلى مَهْلٍ ، من شىء إلى آخر ، أو أن نجاوز الفاصلةَ بسرعةٍ وبوثبةٍ واحدةٍ تقريباً وبخُطْوةٍ هائلةٍ لا تُسْتَطَاعُ فى دور الصِّبا ، بخُطْوَةٍ تقتضى القيامَ بعدَّةِ درجاتٍ تُصْنَع حتى للرجال قَصْداً ، والفكرُ المجردُ الأول هو أُولى هذه الدرجات ، ولكنه يَشُقُّ علىَّ كثيراً أن أرى كيف يَعِنُّ للبال صنعُها .

وإن الموجودَ غيرَ المفهوم ، والمحيطَ بكلّ شيء ، وواهبَ الحركةِ للعالِم ، وصانعَ نظام الكائنات ، لا تُدْرِكه الأبصارُ، ولا تَلْمسه الأيدى ، ولا تناله حواسُّنا ، فالصُّنْعُ بادٍ ، ولكن الصانع خافٍ ، ثم إن معرفة وجوده ليست من الأمور الصغيرة ، ومتى بَلَغْنَا هذا ، ومتى سألنا : من هو ؟ أين هو ؟ اضطرب ذهنُنا وتاه ، وعُدْنا لا نَعْرِفُ فِيمَ نُفَكِّر .

ويُرِيدُ لُوكُ أن يَبْدَأ بدراسة الأرواح ، وأن يُنْتَقَلَ بعد ذلك إلى دراسة الأجسام ، وهذا هو مِنْهاج الخرافات والمُبْتَسَرات والضَّلال ، وليس هذا منهاجَ العقل مطلقًا ، ولا منهاجَ الطبيعة المتقنة التنظيم أيضًا ، وهذا هو إغماض العيون لتعلُّم الرؤية ، ولا بُدَّ من دراسة الأجسام زمنًا طويلًا حتى يُمْكِنَ تكوينُ فكرٍ صحيحٍ عن الأرواح ويُتَصَوَّرَ أنها موجودةٌ ، ولا يَصْلُح النظامُ المعاكس لغير قيام الدَّهرية .

وبما أن حواسَّنا هى أُولى معارفنا فإن الموجوداتِ الماديَّةَ المحسوسةَ وحدَها هى التى تكون لدينا فكرةٌ مباشرةٌ عنها ، وليس لكلمة « روح » أىُّ معنًى لمن لم يَتَفَلْسَف ، وليس الروحُ غيرَ جسمٍ لدى العوامِّ والأولاد ، أوَلا يتصوَّرون أرواحًا تَصِيحُ وتتكلَّم وتُحْدِثُ ضجيجًا ؟ والواقعُ أنه سيُعْتَرَفُ لى بأن هناك أرواحًا لها ذُرعانٌ وألسنةٌ تُشَابه الأبدانَ كثيراً ، ولِذا تَرى جميعَ أمم العالَم ، ومنها اليهودُ ، قد جعلت لها آلهةً ذوى أجسام ، وترانا ، أيضًا ، من المُشَبِّهَة بكلمات الروح والثالوث والأقانيم ، وأعترف بأننا نُعَلَّمُ أن نقول إن اللهَ فى كلِّ مكان ، ولكننا نعتقد أن الهواء فى كلِّ مكان أيضًا ، أى فى جَوِّنا على الأقلِّ ، ولا تَعْنِي كلمةُ « روح » فى أصلها غيرَ « نَسمة »

و « ريح » ، وإذا ما عَوَّدْتم الناسَ على قَوْل كلماتٍ من غير أن يدركوها سَهُل عليكم بعد ذلك أن تجعلوهم يقولون كلَّ ما تريدون .

ويَحْمِلُنا حِسُّ تأثيرنا فى الأجسام الأخرى على اعتقادنا فى البُداءة أنها حين تؤثِّرُ فينا يكون تأثيرُها مشابهاً للوجه الذى نؤثِّرُ به فيها ، وهكذا فإن الإنسان بدأ بإحياء جميع الموجودات التى كان يُحِسُّ تأثيرَها ، والإنسانُ إذْ شَعَرَ بأنه أقلُّ قوةً من مُعْظَم هذه الموجودات ، عن عدم علمٍ بحدود قدرتها ، افترض أنه لانهاية لهذه القدرة فجَعَلَ منها آلهةً حالما جَعَلَ منها أجساماً ، والناسُ فى الأجيال الأولى إذ خافوا كلَّ شىء لم يَرَوْا موتاً فى الطبيعة ، ولم تكن فكرةُ المادة أقلَّ بطوءاً فى تَكَوُّنها باطناً من فكرة الروح مادامت هذه الفكرة تجريداً بنفسه ، وهكذا فإنهم مَلَئُوا الكَوْنَ بآلهةٍ ذوى إحساس ، فكان لكلٍّ من النجوم والرياح والجبال والأنهار والشجر والمدن ، حتى البيوتِ ، روحُه وإلٰهُه وحياتُه ، وكانت أصنامُ لابان ومعبوداتُ المتوحِّشين وأوثانُ الزنوج وجميعُ أعمال الطبيعة والناسِ أولَ آلهةٍ للأنام ، وكان تَعَدُّدُ الآلهة أولَ دِينٍ لهم ، وكانت الوثنيةُ عبادتَهم الأولى ، وهم لم يستطيعوا الاعترافَ بإلٰهٍ واحد إلا بعد أن عَمَّمُوا أفكارهم مقداراً فمقداراً فأصبحوا فى حالٍ يرتقون به إلى العلة الأولى ويَجْمَعُون معه نظامَ الموجودات الشامل تحت فكرةٍ واحدة ويُطْلِقُون معنًى على كلمة « الجَوْهر » التى هى أعظمُ المجرَّدات فى الأساس ، ولِذَا فإن كلَّ ولدٍ يؤمن بالله وثنىٌّ بحكم الضرورة ، أو إنه مُشَبِّهٌ على الأقلّ ، وإذا حَدَث أن أبصرَ الخيالُ الرَّبَّ ذات مرةٍ كان من النادر تمثُّلُه بقوة الإدراك ، وهذا هو الخطأ الذى يؤدى إليه مذهب لُوك .

فأما وقد انتهيتُ ، ولا أدرى كيف ، إلى فكرة الجوهر المُجرَّدة يُرَى ، للتسليم بالجوهر الفرْد ، أنه يجب أن تُفترَض له خاصّيّاتٌ متناقضةٌ متنافيةٌ تبادلًا كالتّصوُّر والحجم القابلِ أحدُهما للانقسام واللذين ينفِى الآخرُ منهما كلَّ قابليَّةٍ للانقسام ، ثُمَّ إن مما يُدْرَك كونَ التصورِ ، وإن شئت فقُل الإحساس ، خاصِّيَّةً أصليةً غيرَ قابلةٍ للانفصال عن الجوهر المُتعلِّقة به ، وقُلْ مِثْلَ هذا عن الحجم بالنسبة إلى الجوهر ، ومن ثَمَّ يُستَنْتَجُ كَوْنُ الموجوداتِ التى تَفقِدُ إحدى هذه الخاصِّيّات تَفْقِدُ الجوهرَ الذى تتعلّقُ به ، وَكَوْنُ الموتِ ليس سوى تفرُّق الجواهر ، وكونُ الموجودات التى تتّحِدُ فيها هاتان الخاصِّيّتان مؤلفةً من جوهرين تتعلّق بهما هاتان الخاصِّيّتان .

والآن اذْكُرُوا ، كما هو الواقع ، أىُّ بُعْدٍ لا يزال باقياً بين مبدأ الجوهرَيْن ومبدأِ الطبيعة الإلٰهية ، وبين المبدأ غيرِ المُدْرَك عن عمَلِ روحنا فى بدنتا ومبدأِ عمَلِ الرّبِّ فى جميع المخلوقات ، وكيف تتمثّلُ مبادئُ الخلْقِ والزوالِ والوجودِ فى كلِّ مكان والأزليةِ والقدرةِ المطلقة ومبدأُ الصفاتِ الإلٰهيةِ ، كيف تتمثّلُ هذه المبادئُ التى ينفرِد أناسٌ قليلون إلى الغاية برؤيتها بالغةَ الإبهام والغموض كما هى ، والتى لا غُمُوضَ فيها لدى العوامِّ لعدم إدراكهم شيئاً منها ، كيف تتمثّلُ بجميع ما فيها من قوةٍ ، أى بجميع ما فيها من غُمُوضٍ ، لفتيانٍ لا يزالون يُشْغَلون بأعمال الحواسِّ الأولى ولا يتصوّرون غيرَ ما يَلمِسُون ؟ ومن العبث أن تكون هُوَى اللّانهائىِّ كلُّها مفتوحةً حوْلَنا ، ولا يَعْرِفُ الولدُ أن يخافها مطلقاً ، ولا تستطيع عيناه الضعيفتان أن تَسْبُرَا غوْرَها ، وكلُّ شىء لا نهائىٌّ عند الأولاد ، ولا يَعْرِفُ الأولادُ

أن يَضَعُوا حدوداً لشيء ، لا لأنهم يجْعَلُون القياسَ طويلًا جِدًّا ، بل لأن إدراكهم قصيرٌ ، حتى إننى لاحظتُ وَضْعَهم اللانهائىّ دون الأبعاد التى يَعْرِفُون ، وهم يُقدِّرون المَسافةَ الواسعةَ بأرجلهم أكثرَ مما بأعينهم ، ولا تمتدُّ المسافةُ عندهم إلى أبعدَ مما يُمكِنهم أن يَرَوْا ، بل لا تمتدُّ إلى أبعدَ مما يُمكِنهم أن يَسِيرُوا ، وإذا ما حُدِّثوا عن قدرة الرَّبِّ قَدَّرُوه بالغاً مثلَ قدرة أبيهم تقريباً ، وبما أن معرفتهم فى كلِّ أمرٍ تكون عندهم مقياساً للممكنات فإنهم يَحْكُمُون فيما يقال لهم دائماً بأنه أقلُّ مما يَعْرِفون ، فهذه هى الأحكام الطبيعيةُ التى تَصْدُر عن ذهنٍ جَهُولٍ ضعيف ، وقد خَشِىَ أَجَكْسُ أن يقاسَ بأشيلَ ، وقد دعا جُوبيترَ للقتال عن مَعْرِفةٍ بأشيلَ وعدمِ معرفةٍ بجوبيتر ، وقد كان أحدُ قَرَوِيى سويسرة يَظُنُّ أنه أغنى الناس ، فلما أُوضِحَ له شأنُ المَلِك سأل مُختالًا : « هل يستطيع المَلِكُ أن يَمْلِكَ مئةَ بقرةٍ فى الجبل ؟ » .

وأُبصِرُ كثرةَ القراء الذين يَحَارُون من تَتَبُّعِى الدورَ الأول من عُمُر تلميذى من غير أن أُحَدِّثه عن الدين ، وقد كان ، ابناً للخامسةَ عشرةَ من سِنِيه ، لا يَعرِفُ هل له روحٌ ، ومن المحتمل أنه ، إذا ما بلغ الثامنةَ عشرةَ من سِنِيه ، لم يَحِلَّ من الوقت ما يتعلَّم معه هذا ، وذلك لأنه إذا ما تَعلَّمه بأسرعَ مما يَجِبُ تَعَرَّض لخطر عدم تَعلُّمه مطلقاً .

ولو كان علىَّ أن أُصَوِّر الغباوة المُغِمَّة لصَوَّرْتُ متحذلقاً يُعَلِّم الأولادَ كتابَ الدين ، ولو أردت أن أَجْعَل الولدَ مجنوناً لحَمَلْتُه على إيضاح ما يقول عند قراءته كتابَ دينه ، وسيُعْتَرَضُ علىَّ بأن يقال إن أكثر العقائد النصرانية إذْ كانت أسراراً فإن انتظار الدَّوْرِ الذى تصير فيه نفسُ الإنسان

قادرةً على إدراكها يَعْني انتظارَ تَحَوُّل الولد إلى رجل ، أى انتظارَ غُدُوٍّ الرجلِ غيرَ موجود ، وأولُ ما أُجيبُ به عن هذا وجودُ أسرارٍ يتعذَّر على الرجل أن يَتَمَثَّلَها فضلًا عن اعتقادها ، ولا أرى ما يُكْسَب من تعليم الأولاد إياها غيرُ تدريسهم الكَذِبَ باكراً ، وأقولُ زيادةً على ذلك إن الإقرار بالأسرار يَقْضِى بإدراك كونِها لا تُدْرَك على الأقلّ ، ولا يَقْدِر الأولاد حتى على ذاك الإدراك ، ففى السِّنّ التى يكون كلُّ شىء سِرًّا فيها لا تُوجَدُ أسرارٌ حَصْراً .

« يجب أن نؤمن بالله إذا أردنا النجاة » ، فهذه العقيدة التى أُسىء إدراكُها هى أصلُ عدم التسامح السَّفّاح ، وهى سببُ جميع تلك التعاليم الباطلة التى تُصيبُ العقلَ البشرىَّ بضربة قاضية عن تعويده القناعةَ بالكلمات ، ولا مِرَاء فى أنه يجب عدمُ إضاعةِ ساعةٍ لاستحقاق النجاة الأبدية ، بَيْدَ أنه يَكْفِى تكرارُ بعض الألفاظ لنَيْلِها ، ولا أرى ما يَمْنَع من إعمار السماء بالزَّرازير والغِرْبان كما بالأولاد .

ويَفْترض واجبُ الإيمان إمكانَ الإيمان ، ويُخْطِئُ الفيلسوفُ الذى لا يؤمن ، وذلك لسوء استعماله العقلَ الذى تَعَهَّده ، ولأنه فى حالٍ يُدْرِك بها الحقائقَ التى يَنْبِذُها ، ولكنْ ما يَعْتَقِد الولدُ الذى يَدِين بالنصرانية ؟ يَعْتَقِد ما يُدْرِك ، وهو من قلة إدراك ما يُحْمَلُ على قوله ما إذا قُلْتُمْ له العكسَ سَلَّم به طَوْعاً أيضاً ، ويُعَدُّ إيمانُ الأولاد وكثيرٍ من الرجال أمراً جغرافيًّا ، وهل يكافَأون على ولادتهم فى رُومة أكثرَ مما فى مَكَّة ؟ يُقال لأحدهم إن محمداً رسولُ الله فيقول إن محمداً رسولُ الله ، ويقال لآخرَ إن

محمداً ماكرٌ فيقول إن محمداً ماكرٌ ، وكان كلٌّ واحدٍ يُؤَكِّدُ ما يؤكِّد الآخرُ لو غَيَّر مكانه ، وهل يُمْكِنُ أن يُسَارَ عن مَقْصِدَيْن متشابهين إلى الغاية فيُرْسَلَ أحدُهما إلى الجنة والآخرُ إلى النار ؟ وإذا قال الولد أومن بالله فليس الله هو الذى يؤمن به ، بل يؤمن ببطرسَ أو بيعقوبَ الذى يقول له إنه يُوجَدُ شىء يُسَمَّى الرَّبَّ ، وهو يؤمن به على طريقة أوريبيدِس القائل :

« أىْ جُوبيتِرِ الذى لا أَعْرِف منه غيرَ اسمِه[1] ! » .

ونَذْهَب إلى أن كلَّ ولدٍ يَموت قبل سِنِّ العقل لا يُحْرَم السعادةَ الأبدية ، ويعتقد الكاثوليكُ عَيْنَ الشىء عن كلِّ ولدٍ عُمِّدَ وإن لم يَسْمَعْ حديثاً عن الله ، وتُوجَدُ ، إذَنْ ، أحوالٌ تُمْكِن النجاةُ بها من غير إيمانٍ بالله ، وتَكُون هذه الأحوالُ فى الوَلُودية وفى الجُنُون حينما يَعْجِزُ الروحُ البشرىُّ عن الأفعال اللازمة لمعرفة الله ، ويَقُوم الخلافُ الذى أراه هنا بينى وبينكم على زَعْمكم أن الأولاد حائزون هذه القابليةَ فى السادسة من سِنِيهم وعلى كَوْنِى لا أَمْنَحُهم إياها حتى فى الخامسَ عشرَ من عمرهم ، وسواء علىَّ أكنتُ مخطئاً أم صائباً ليس الأمرُ هنا مادةَ إيمانٍ ، بل ملاحظةٌ بسيطة حَوْل التاريخ الطبيعىِّ .

ويَتَّضِحُ من عَيْنِ المبدإ أن الإنسانَ إذا ما بَلَغ المَشِيبَ من غير إيمانٍ بالله لا يُحْرَم ، لهذا السبب ، مَحْضَرَ الرَّبِّ فى الحياة الآخرة إذا لم

---

(١) بلوتارك : رسالة فى الحب ، ترجمة أميو ، وذاك هو الذى تبدأ به مأساة ميناليبوس ، غير أن صيحات أهل أثينة أكرهت أوريبيدس على تغيير ذاك البدء .

يَكُنْ عَمَاه اختياريًّا ، وأقول إنه ليس اختياريًّا دائماً ، وتوافقون ، من حيث المجانينُ ، على أن مَرَضاً يَحْرِمُهم خصائصَهم الروحانية ، لا خاصِّيةَ الإنسانِ ولا الحقَّ فى نِعَم خالقهم نتيجةً ، ولِمَ لا نوافق على مِثْلِ ذلك ، إذَنْ ، فى أمر أولئك الذين فُرِزُوا من كلِّ مجتمعٍ منذ صِباهم فقَضَوْا حياةً بالغةَ الهمجية وحُرِموا من المعارف ما لا يُكْتَسَب إلَّا بمعاشرة الناس ؟[1] وذلك لأن من المُحَال الثابت قدرةَ مِثْلِ هذا الهمجىِّ على الارتقاء بتأمُّلاته إلى معرفة الإلٰهِ الحَقِّ ، ويُخْبِرُنا العقل بأن الإنسان لا يُجَازَى إلَّا بسيئاته المقصودة ، وأن جهلًا حائقاً كذلك لا يُمْكِنُ عَدُّه جنايةً منه ، ومن ثَمَّ يُسْتَنْبطُ أن كُلَّ إنسانٍ يُحْسَبُ مؤمناً أمام العدل الأبدىِّ إذا كان لديه من البصائر ما هو ضرورىٌّ ، وأنه لا يوجد من الكُفَّار مَنْ يُجَازَوْن غيرُ الذين أُقْفِلَتْ قلوبهم دون الحقِّ .

ولنَحْترِزْ من أن نُنْبِئَ بالحقيقة مَنْ ليسوا قادرين على إدراكها ، وذلك لِمَا يَنطَوِى عليه هذا من إقامة الخطأ مقامها ، وأجْدَرُ ألَّا تُحَازَ أيةُ فكرةٍ عن الأُلوهية من أن تُحَازَ عنها أفكارٌ حقيرةٌ وهمية ضارة غيرُ لائقةٍ بها ، ولَأَن تُنْكَرَ أقلُّ سوءاً من أن تُهان ، قال بلُوتارْك الصالح : « أُفَضِّلُ كثيراً أن يُعْتَقَدَ عدمُ ظهورُ بلُوتارْكَ فى العالَم على أن يقال إن بلُوتارْكَ ظالمٌ حاسدٌ مِغْيارٌ ، وأن يكون طَلَّاباً أكثرَ من أن يكون فعَّالًا إذا ما كان جَبَّاراً » .

---

(١) انظر إلى القسم الأول من رسالة « أصل التفاوت » حول الحال الطبيعية للروح البشرية وحول بطء تقدمها .

وأعظمُ سوءٍ فى الصُّوَر المُشَوَّهةِ عن الألوهية التى تُنْقَشُ فى ذهن الأولاد هو أنها تَبْقَى فيه هكذا مَدَى حياتهم ، فيَعُودون لا يتَصَوَّرون ، إذا ما صاروا رجالاً ، إلهاً آخرَ غيرَ إله الأولاد ، ومما رأيتُ فى سويسرة ربةَ أسْرَةٍ صالحةً تقيةً بلَغَتْ من اعتقادها هذا المبدأ ما لم ترِدْ معه ، قَطُّ ، أن تُعلِّمَ ابنَها الدِّينَ فى الدور الأول من العمر ، وذلك خشيةَ أن يَقْنَع بهذا التعليم الفليظ فلا يلتفتَ إلى ما هو أحسنُ منه إذا ما بَلغَ سِنَّ الرشد ، وكان هذا الولدُ لا يَسْمَع حديثاً عن الرَّبِّ إلّا مع جَمْعِ الحواسِّ والإجلال ، وكان ، إذا ما أراد الكلام عنه بنفسه ، يُفْرَض السكوتُ عليه كموضوعٍ رفيعٍ بالغِ العِظَم بالنسبة إليه ، وكان هذا التَّحَفُّظُ يُثيرُ فُضُولَه ، وكانت أُسْرَتُه تتَطَلّعُ إلى وقت الاطلاع على هذا السِّرِّ الذى يُخْفَى عنه بكثيرٍ من العنايةَ ، وكان كلما قَلَّ تَحْدِيثُه عن الرَّبِّ ، وقَلَّ سماحُه لنفسه بالحديث عن الرَّبِّ ، كَثُرَ اكتراثُه له ، فهذا الولدُ كان يَرَى الرَّبَّ فى كلِّ مكان ، وكان أكثرُ ما أخافه من أمر هذا السِّرِّ الذى يُلَوَّح به على غير رَصَانةٍ أن يُلْهِبَ خيالُ الفتى كثيراً فيُقْلَبَ رأسُه ويُجْعَلَ منه متعصبٌ بدلاً من أن يُجْعَل منه مؤمنٌ .

ولكن لا نَخَفْ شيئاً من هذا على إميلَ الذى لا يَلْتَفِتُ إلى كلِّ ما هو فوق مُتَناوَله ، فيَسْتَمِعُ ، مع عدم اكتراثٍ عميقٍ ، إلى ما لا يُدْرِك من الأمورِ ، وما أكثرَ الأمورَ التى تَعوَّد إميلُ أن يقول عنها بلا تفريقٍ : « إن هذا لا يَعنِينى » ، فمتى أخذ يبالى بهذه المسائل الكبيرة لم يَصْدُرْ هذا عن اقتراحٍ يَسْمَعُه ، وإنما يَنْشَأُ عن توجيه معارفه ، التى تَقَدَّمَتْ تقدُّماً

طبيعياً ، مباحثَه إلى هذه الناحية .

وقد رأينا أيُّ الطُّرُقِ التى تَدْنُو بها الروحُ البشريةُ المُثقَّفَةُ من تلك الأسرار ، وأُسَلِّمُ طَوْعاً بأنها لا تَنتَهى إليها ، بحُكْمِ الطبيعة ، فى صميم المجتمع نفسِه كما فى سِنٍّ أكثرَ تقدُّماً ، ولكنْ بما أنه يوجد فى المجتمع من الأسباب ما لا يُجْتَنب فيُعَجِّلُ به تقدمُ الأهواء فإنه إذا لم يُعَجِّل تقدُّمُ المعارف التى تَنفَع فى تنظيم هذه الأهواء ، خُرِج من نظام الطبيعة حقّاً واختَلَّ التوازن ، وإذا لم يُسَيْطَرْ على تعديلِ تقدمٍ كثيرِ السرعة وَجَبَ أن يُقَادَ بذات السرعة أولئك الذين يجب أن يلائموه ، وذلك لكيلا يُقْلَبَ النظام ، ولكيلا يَنفَصِل عنه من يجب أن يلازمه ، ولئلا يكونَ الإنسان ، الذى هو كلٌّ فى جميع أوقات حياته ، عند هذه المرحلة ببعض أهلياته ، وعند تلك المرحلة بأهلياته الأخرى .

ويا لَلعَقَبَة التى أرَى قيامَها هنا ! هذه العَقَبَةَ التى تَعْظُم كلما كانت فى الأشياء أقلّ منها فى جُبْن من لا يَجْرُءون على اقتحامها ، ولْنَبْدَأْ بالإقدام على عَرْضها على الأقلّ ، ويجب أن يُنَشَّأ الولد على دين أبيه ، ويُبَرْهَنُ للولد دائماً بَرْهَنةً حسنةً على أن هذا الدينَ وحدَه ، مهما كان ، هو الدينُ الحقُّ ، وأن جميع الأديان الأخرى ليست غيرَ باطلٍ وهذيان ، وتَتَوَقَّفُ قوةُ البراهين من هذه الناحية ، تَوَقُّفاً مطلقاً ، على البلد الذى تُعرَض فيه ، ولْيَذْهَب التركىُّ ، الذى يَجِدُ النصرانيةَ فى الآستانةِ غايةً فى السخافة ، إلى باريسَ ليَرَى كيف يُنظَرُ إلى الإسلام فيها ! ففى موضوع الدين ، على الخصوص ، يُكْتَبُ النصر للمُبْتَسِر ، وأما نحن الذين يريدون خَلعَ نِيرِه

عنا فى كلِّ شىء ، وأما نحن الذين لا يريدون مَنْحَ السلطان شيئاً ، وأما نحن الذين لا يَوَدُّون تعليمَ إميلَ شيئاً لا يستطيع أن يتعلَّمه بنفسه فى كلِّ بلدٍ ، فعلى أىِّ دين نُرَبِّيه ؟ وإلى أىِّ مذهبٍ نَضُمُّ ابنَ الطبيعة هذا ؟ إن الجواب بسيطٌ إلى الغاية كما يَلوح لى ، وهو أننا لن نَضُمَّه إلى هذا أو إلى ذاك ، وإنما نَضَعُه فى حالٍ يختار فيها الدينَ الذى يَسُوقه إليه حُسْنُ إعمالِ عَقْلِه .

« أسيرُ من بين النيران التى يَسْتُرُها رمادٌ خادعٌ » .

لا ضَيْرَ ! قامت الغَيْرَةُ وحُسْنُ النية عندى مقام الحذَر حتى الآن ، وأرجو ألَّا تترُكَنى هذه الضماناتُ عند الضرورة مطلقاً ، ولا تخافوا ، أيها القراء ، صدورَ احترازاتٍ منى غيرَ لائقةٍ بصديق الحقيقة ، فلن أنسى شعارى ، ولكننى أسْمَحُ لنفسى كثيراً بأن أحْذَر من أحكامى ، وأقولُ لكم ما يُفكِّرُ فيه رجلٌ أفضلُ منى بدلاً من أن أقولَ لكم ما أفكِّر فيه بنفسى ، وأضْمَنُ صِدْقَ الوقائع التى أرويها لكم ، فهى قد حَصَلَتْ للمؤلف الذى أنقُلُها منه ، ولَكُمْ أن تَرَوْا هل يُمْكِن استنباطُ تأمُّلاتٍ مفيدةٍ منها حَوْلَ الموضوع الحاضر ، ولا أقترحُ عليكم اتخاذَ رأيى أو رأىَ رجلٍ آخرَ قاعدةً ، وها أنا ذا أعْرِضُها عليكم للبحث فيها* :

« منذ ثلاثين سنةً وُجِدَ شابٌّ فى مدينةٍ إيطالية ، وُجِدَ فيها شابٌّ نُفِىَ من وطنه فكان فى أشدِّ درجات الفاقة ، وكان قد وُلِدَ كَلْفَنِيًّا ،

* يقصد المؤلف نفسه فيها ، والكلمة له ، فهو يقص فيها خبر إقامته بتورينو سنة ١٧٢٨ ، ومن يرغب فى تفصيل ذلك فليراجع الباب الثانى من « الاعترافات » للمؤلف ، (المترجم) .

ولكنه ، وقد وُجِدَ لاجئاً إلى بلدٍ أجنبيّ بلا معاشٍ نتيجة طَيْشٍ ، غَيَّرَ دينه نَيْلًا للعيش ، وكان يُوجَدُ فى هذه المدينة مأوًى للمهتدين حديثاً فقُبِلَ فيه ، ويُعَلَّمُ الجدَلَ فيُلَقَّنُ شبُهاتٍ لم تكن عنده ، ويُعَلَّمُ سُوءاً كان يَجْهَلُه ، وذلك أنه يَسْمَعُ عقائدَ جديدةً ، ويرى طبائعَ أكثرَ جِدَّةً أيضاً ، ويراها ، ويكاد يَذْهَبُ ضحيتَها ، ويُرِيدُ الفِرار ، ويُقفَلُ عليه ، ويَشْكُو ، ويعاقَب على شَكْوَاه ، ويَقَعُ تحت رحمة طُغاته ، ويُعامل معاملةَ المجرمين لأنه لم يُرِد الإذعانَ للإجرام ، وليَتَصَوَّرْ حالةَ فؤاده أولئك الذين يَعْرِفون مَبْلغَ ما يُثِيرُ بلاء العنف الأول وبلاء الجوْر الأول فى قَلْبِ فتًى غيرِ مُجَرَّبٍ ، وتَذْرِف عيناه دموعَ الغَيْظ ، ويَخْنُقُه الحَنَقُ ، ويَضْرَعُ إلى السماء والناس ، ويأْتَمِنُ العالَمَ فلا يُنْصِتُ له أحدٌ ، ولا يَرَى غيرَ خَدَمٍ أدْنياءَ خاضعين للفَضُوح الذى يُهِينُه ، أو شركاء فى ذات الذَّنب يَسْخَرُون من مقاومته فيُحَرِّضونه على تقليدهم ، وقد كاد يَضِلُّ لو لم يأتِ الملجأَ إكليريكىٌّ صالحٌ لبعض الشؤون ، فيَجِدُ وسيلةً لاستشارته سِرًّا ، وكان هذا القِسِّيسُ فقيراً ، وكان محتاجاً إلى جميع الناس ، ولكن المضطهَدَ كان أشدَّ احتياجاً إليه ، فلم يتردَّدْ فى مساعدته على الفِرار مجازفاً بانتحال عَدُوٍّ خَطِرٍ لنفسه .

« ويَنْجُو الشابُّ من المُنْكَر ليَعُودَ إلى الفقر ، فيكافِحُ مصيرَه على غير جَدْوَى ، وذلك مع اعتقاده ، ذاتَ حينٍ ، أنه يَفُوز عليه ، وتُنْسَى هُمُومه وحاميه عند أول وَمِيضٍ من حُسْن الطالع ، ولم يَلْبَثْ أن عُوقِبَ على هذا الكُنُود ، فقد زالت جميعُ آماله ، وذلك أنه ، وإن كان له عَوْنٌ بشبابه ، كانت أفكارُه الروائية تُفْسِدُ كلَّ شىء ، وذلك بما أنه ليس لديه

من الاستعداد والحِذْقِ ما يَكْفِى لشَقِّ طريقٍ سَهْلٍ ، وبما أنه لا يَعْرِف أن يكون معتدلاً ولا خبيثاً ، فإنه ادَّعَى أموراً كثيرةً لم يَنَلْ منها شيئاً ، وذلك أنه إذْ وَقَعَ فى ضِيقِه الأول خالياً من العَيْش خالياً من المأوى ، وكاد يَمُوتُ جُوعاً فقد ذَكَرَ المُحْسِن إليه .

« ويَعُود إليه ، ويَجِدُه ، ويُحْسِن قَبُولَه ، ويُذَكِّر منظرُه الإكْليريكىُّ بعملٍ صالحٍ كان قد صنعه ، وذكرى مِثْلُ هذه تَسُرُّ النفسَ دائماً ، ومن الطبيعىِّ أن كان هذا الرجلُ إنسانيًّا رءوفاً ، فكان يُحِسُّ آلامَ الآخرين بآلامه ، ولم يَقْسُ قَلْبُه بيُسْرٍ قَطُّ ، والخلاصةُ أن دروسَ الحكمة والفضيلةَ المُنَوَّرة كانتا قد ثَبَّتَتَا صلاحَه الطبيعىَّ ، ويَسْتَقبل الشابَّ ، ويبحث له عن مأوى ، ويُوصِى به ، ويقاسمه حاجيَّه الذى لا يكاد يَكْفِى الاثنين ، ويَفْعَلُ أكثرَ من هذا ، وذلك أنه يُثَقِّفُه ويُسَلِّيه ويُعَلِّمُه فنًّا صعباً ، يُعَلِّمُه فنَّ احتمال البؤس بصبرٍ ، فيا أصحابَ المُبْتَسَرات ، أتنتظرون وجودَ جميع هذا من قِسِّيسٍ ، فى إيطالية ؟

« وكان هذا الإكليريكىُّ الصالح قَسًّا فقيراً من ساڤوَا ، وكان قد أساء إلى أُسْقُفِه عن نَزَقِ شبابٍ ، فجاوز الجبالَ بحثاً عن مَوْرِدٍ كان يُعْوِزُه فى بلده ، ولم يكن خالياً من ذكاء ولا ثقافة ، وهو ، لِمَا كان من مُحَيَّاه الموجبِ للالتفات ، وَجَدَ من الحُماة مَنْ جَعَلُوه عند وزيرٍ لِيُنَشِّئَ ابنَه ، ويُفَضِّلُ الفقر على الخضوع ، ولا يَعْرِف كيف يكون سلوكُه لدى الكبراء ، فلا يَبْقَى طويلاً عند ذاك ، وهو ، إذْ يَتْرُكه ، لا يَفْقِدُ مكانتَه مطلقاً ، وهو ، إذ يعيش عَيْشَ حكيمٍ يُحَبِّبُ نفسَه إلى جميع الناس ، ويَغْتَبِطُ بما

لاقى من عَفْوِ أُسْقُفِه ، فينال منه أَبْرَشِيَّةً صغيرة فى الجبال لقضاء بقية أيامه فيها ، وكان هذا آخرَ حَدٍّ لطموحه .

« ويَنجَذِب إلى الشابِّ اللاجئ ، ويسأله باهتمام ، ويُبْصِرُ أن سوء الطالع أَذْبَل قلبَه ، وأن الازدراء والخِزْيَ ثَلَما بأسَه ، وأن زَهْوَه تحوَّل إلى حُزْنٍ مُرٍّ فلا يَدُلُّه ، ببَغْيِ الناس وقسوتهم ، على غير عَيْب طبيعة الناس ووَهْم الفضيلة ، وكان قد رأى أن الدين لا يَصْلُح أن يكون غيرَ قِناع للمنفعة ، وأن العبادة المقدَّسة لا تَصْلُح أن تكون سوى ستارٍ للرياء ، وكان قد رأى ، بدقائق الجدَل الفارغ ، أن الجَنَّة والنار جُعِلَتا فى مقابل التلاعب بالألفاظ ، وكان قد رأى أن فكرةَ الألوهيةِ العاليةَ الفطريةَ شُوِّهَتْ بخيالات الناس الجامحة ، وهو ، إذْ وَجَدَ أن الإيمان بالله يستلزم عُدُولًا عن العقل الذى أعطاه إياه ، نَظَرَ بعين الامتهان إلى أوهامنا المضحكة وإلى الأمر الذى نُطَبِّقُها عليه ، وهو ، من غير أن يَعْرِف شيئاً عن أصل الأشياء ولا تَصَوُّراً له ، غاص فى غباوته مع ازدراء عميق لجميع من يظنون أنهم يَعْرِفون عنه أكثرَ مما يَعْرِف .

« ويؤدِّى نسيانُ الدين إلى نسيان واجبات الإنسان ، وكان هذا التقدمُ نصفَ بعيدٍ من فؤاد هـذا الملحد ، ومع ذلك فإنه لم يكن سيئَ المَنْبِت ، ولكنْ بما أن الإلحاد والبؤس كانا يَخْنُقان الفِطْرةَ بالتدريج فإنهما كانا يسوقانه إلى البَوَار على عجلٍ ، ولا يُعِدَّان له غيرَ طِبَاع وَغْدٍ ، وأخلاقِ زِنْدِيق .

« ولم يَكْمُل الشرُّ ، الحائقُ تقريباً ، على الإطلاق ، وكان يوجد لدى الفَتى

معارفُ ، ولم تُهْمَلْ تربيته ، وكان فى ذلك العُمُر السعيد حيث يأخذ الدمُ الفائر فى تدفئة الروح من غير تعبيدها لصَوْلات الحواسّ ، ولم تَزَلْ نفسُه محافظةً على نابضها ، وكان الحياء الطبيعيُّ والخُلُق الهَيُوبُ يقومان مقام الضِّيق فيطيلان له ذلك الدور الذى تُمْسِكون فيه تِلميذَكم بجُهْدٍ كثير ، وما كان من مثالٍ بغيضٍ عن الفساد البَهَميِّ والمُنْكَر بلا فتُونٍ أضْعَفَ خيالَه بدلاً من إنعاشه ، وقد قام النفُور مقام الفضيلة فى حِفْظِ طُهْره لزمنٍ طويل ، وما كان طُهْرُه ليُذْعِن لغير أعْذَب إغواء .

« وأبْصَرَ القَسُّ الخَطَرَ والوسائلَ ، وما كانت المصاعبُ لتُخْمِدَ نشاطَه ، ويُرْضِيه عملُه ، ويَعْزِم على إنجازه ، وأن يُعيدَ إلى الفضيلة تلك الضحيةَ التى كان قد انتشلها من الرذيلة ، ويأخذ فى تنفيذ خِطته متحفظاً ، وتُثِيرُ روعةُ الحافز شجاعتَه وتُوحِي إليه بالوسائل التى تناسب غَيْرَته ، ومهما يَكُنْ من حاصلٍ فإنه كان واثقاً بعدم إضاعة وقته ، ويُكْتَبُ النجاح دائماً لمن لم يُرِدْ غيرَ فِعْل الخير .

« ويَبْدَأ بكسب ثقة المهتدى حديثاً بعدم سؤاله أجراً على أياديه مطلقاً ، وبعدم ظهوره مزعجاً له مطلقاً ، وبعدم قيامه بمواعظَ نحوه مطلقاً ، وبجعله نفسَه فى مستواه دائماً ، وبتصاغره حتى يساويَه ، وكان هذا ، كما يَلُوح لى ، منظراً على شيء من التأثير لِمَا يُرَى به رجلٌ رصين رفيقاً لمحتـال ، ولِمَا تُرَى به الفضيلةُ مُنْصِتَةً لصوت الإباحة حتى تنتصر عليها لا رَيْب ، وبَيْنَا كان الطائشُ يَكْشِف له عن سَرَائره الرَّعْنِ ويَفتَح له قلبَه كان القَسُّ يستمع له ويُلْقِي السَّكِينة إلى فؤاده ، وكان يكترث لكلِّ شيء من غير

استحسان للسوء ، ولم يَكُنْ ليَصْدُر عنه لَوْمٌ مخالفٌ للرّصانة صدًّا لهَذَره وحَصْراً لصدْرِه ، وما وَجَدَ من لذةٍ في الاستماع إليه زاده رغبةً في قول كلّ شيء ، وهكذا قام باعترافه العامّ ظانًّا أنه لم يَقُمْ بأيّ اعترافٍ كان .

« ويَرَى القِسِّيس من الواضح ، بعد أن دَرَس مشاعرَه وأخلاقَه ، ومن غير جَهْلٍ لسِنِّه ، أنه نَسِيَ كلَّ ما كان من المُهِمِّ أن يَعرِفه ، وأن العارَ الذى ألقاه فيه الطالعُ كان يَخْنُقُ فيه كلَّ شعورٍ حقيقيّ بالخير والشَّرّ ، ويوجد من الانحطاط درجةٌ تَنْزِع الحياةَ من الرُّوح ، ولا يستطيع صوتُ الباطن أن يُسْمَع لدى من لا يُفَكِّر في غير الغِذاء ، ويُرِيدُ أن يَصُون الفتى المَكْرُوبَ من هذا الموت الأدبيّ الذى كان قريباً منه كثيراً فيَبْدَأ بإيقاظ حُبِّه لنفسه وتقديره لِذَاتِه ، ويُرِيه مستقبلاً أكثرَ سعادةً بحسن استعمال مَوَاهبه ، ويحيِي في فؤاده هِمّةً كريمةً بما يَقُصّ عليه من أعمال الآخرين الرائعة ، وهو ، إذ يَجْعَلُه مُعْجَبًا بصانعيها يَحْمِلُه على الرغبة في صنع ما يماثلها ، وهو ، لكى يَفْصِلَه عن حياة البِطالة والتشرُّد فَصْلاً غيرَ محسوس ، يَحْمِلُه على الاقتطاف من كتبٍ مختارَة ، وهو ، إذ يتظاهر باحتياجه إلى هذه المقتَطَفات ، يُغَذّى فيه شعورَ معرفةِ الجميلِ الكريمَ ، وهو يُثَقِّفُه بهذه الكتب ثَقافةً غيرَ مباشرة ، وهو يَحْفِزُه إلى تكوين رأيٍ حَسَنٍ عن نفسه لكيلا يَظُنّ عدمَ صلاحه لأيّ خَيْرٍ كان ، ولكيلا يكون حقيرًا في نظره الخاصّ .

« ومن التُّرّهات حادثةٌ تَحْمِلُ على الحكم في براعة هذا الرجل المحسن الذى رَفَعَ بها فؤادَ تلميذه فوق كلِّ لؤمٍ رفعاً غيرَ محسوسٍ ، وذلك من

غير أن يَظْهرَ مفكراً فى أمر تعليمه ، وكان هذا الإكليريكىُّ من الصلاح الدائم والتميز البالغ ما يُفضِّل معه كثيرٌ من الناس أن يَجْعَلُوا صدقاتِهم بين يديه على جعلها بين أيدى خَوَارِنة المدن الأغنياء ، ومما حدَث ذاتَ يومٍ أن أُعْطِىَ نقوداً ليُوَزِّعها بين الفقراء ، وقد كان الفتى من الدَّناءة ما طلب معه حِصَّةً منها بصفته فقيرًا ، ويقول القَسُّ : « كَلَّا ، نحن رهبانٌ ، وأنت منسوبٌ إلىَّ ، فلا يجوز لى أن أَمَسَّ هذه الوديعة نفعاً لى » ، ثم أعطاه من ماله الخاصِّ مقدارَ ما طلب ، فدروسٌ من هذا النوع يَنْدُر أن تَضِيعَ فى قَلْبِ الفِتْيان الذين لم يَفْسُدوا تمامًا .

« ويُتْعِبُنِى أن أتكلم كشخصٍ ثالث ، والجُهْدُ غيرُ ضرورىٍّ ، وذلك لأنك تَشْعُر ، أيها المواطنُ العزيز ، بأن هذا اللاجئ التَّعِس هو أنا ، وأظُنُّنِى من الابتعاد عن فُسُوقِ شبابى ما أجْرُؤُ معه على الاعتراف به ، وان اليد التى انتشلتنى منه تستحقُّ تكريمًا على إحسانها ، وإن كان على حساب بعض العِذَار .

« وكان أكثرُ ما يَقِفُ نظرى هو أن أرى فى حياة معلمى الفاضل فضيلةً بلا رِئاء ، ورأفةً بلا ضعف ، وكلامًا صادقاً بسيطًا دائمًا ، وسلوكاً ملائمًا لهذا الكلام دائمًا ، ولم أرَه ، قطُّ ، يلتفت إلى أن الذين يساعدهم يقيمون الصلاةَ ، أو أنهم يعترفون غالبًا ، أو أنهم يَصُومون فى الأيام المُقَرَّرة ، فلا يتناولون لحماً ، كما أنه لا يَفرِض عليهم شروطًا مماثلةً يُمكِن أن تَمُوتوا بغيرها جوعًا قبل أن تَرْجُوا أىَّ عَونٍ من المُتَّقِين .

« وأبتعد عن عَرْضى أمامه غَيْرَةَ مهتدٍ حديث ، وأَتَشَجَّعُ بهذه

المشاهدات ، ولا أكتم عنه شيئاً من أوْجه تفكيرى ، ولا يؤذيه هذا ، ومما أقول فى نفسى أحياناً إنه يَتَغاضَى عن عدم اكتراثى للدين الذى اعْتَنَقْتُ لِمَا يَرَى من عدم اكتراثى ، أيضًا ، للدين الذى نشأتُ عليه ، فهو يَعْرِف أن استخفافى غيرَ مُوَجَّهٍ إلى نِحْلَةٍ معينة ، ولكنْ ما يكون تفكيرى حينما كنت أسْمَعُه ، فى بعض الأحيان ، يستحسن عقائدَ مخالفةً لعقائد الكنيسة الكاثوليكية ، ويُبْدِى قليلَ تقديرٍ لجميع طقوسها ؟ كنت أذهب إلى أنه بِرُوتِسْتَانىٌّ مُتَنكِّرٌ لو رأيته أقلَّ إخلاصاً لهذه العادات التى كان يَبْدُو قليلَ التقدير لها ، ولكننى كنت أعْلَمَ أنه يقوم بهذه الواجبات الدينية فى السِّرِّ والعلانية قيامًا دقيقًا فلا أدرى كيف أحْكُم فى هذه المتناقضات ، ولكنْ إذا عَدَوْتَ الخطأ الذى أدى إلى زوال حُظْوته سابقاً ، والذى لم يُصْلَح كلُّه ، وَجَدْتَ حياتَه مِثاليةً ، وأن أخلاقه لا غُبَارَ عليها ، وأنه صادقٌ منصفٌ فى كلامه ، وأعيشُ معه على أعظم ما يمكن من صفاء ، وأتعلَّمُ أن أحترمه كلَّ يومٍ أكثرَ من قبل ، ويستولى هذا اللطفُ على فؤادى تمامًا ، فأنتظرُ مبالياً كلَّ المبالاةِ وقتَ اطِّلاعى على المبدأ الذى يُقيمُ عليه تناسقَ حياةٍ كثيرة الغرابة كحياته .

« ولم يَحِلَّ هذا الوقتُ سريعاً ، فهو قبل أن يَكْشِف لتلميذه أسرارَ قلبه بَذَلَ جُهْدَه فى إنبات بذورِ العقل واللطف التى ألقاها فى روحه ، وكان أصعبُ ما يُمْكِن إزالتُه من نفسى هو نفورى من الناس مع الاختيال ، هو غِلْظَتِى نحو الأغنياء والسعداء ، كأنَّ غِناهم على حسابى ، وكأن سعادتهم المزعومة قد اغْتُصِبَتْ من سعادتى ، وما يساور الشبابَ من زهوٍ أرعنَ

يقاوم الهوان لم يُوجِبْ غيرَ زيادةِ مَيْلي إلى الخَلق ، وبما أن حُبَّ الذات الذى كان مُرْشِدى يحاول إيقاظه فىَّ يَحْمِلُنى على الخُيَلاء فإنه كان يَجْعَلُ الناس أشدَّ لؤمًا فى نظرى ولا يُسْفِرُ عن غير إضافة الازدراء إلى الحقد عليهم .

« ولا يكافح هذا الزهوَ كِفاحاً مباشراً ، وإنما يَمْنَعُ من تَحَوُّله إلى قَسْوَةِ قلبٍ ، ولا يَنْزِع منى تقديرى لنفسى ، وإنما يَجْعَله أقلَّ استخفافاً بقريبى ، وهو إذْ يُبْعِدُ الظاهر الفارغَ دائماً ، وهو إذْ يَدُلُّنى على ما ينطوى عليه الظاهرُ من شرورٍ حقيقية ، يُعَلِّمُنى الرِّثاء لخطيئات أمثالى والرِّقَّةَ لأبْؤُسِهم والتَّوَجُّعَ لهم أكثرَ من حسدهم ، وهو إذْ يهتزُّ رأفةً بالضعف البشرىِّ عن شعورٍ عميقٍ بضعفه الشخصىِّ يَرَى فى كلِّ مكانٍ ضحايا عيوبِهم الخاصة وعيوبِ الآخرين ، ويَرَى أنينَ الفقراء تحت نِيرِ الأغنياء ، وأنينَ الأغنياء تحت نِيرِ المُبْتَسَرات ، ويقول : « صدِّقوا قولى إن الأوهام تزيد شرورَنا بدلاً من إخفائها ، وذلك بجعلها قيمةً لما ليس له قيمة ، وبجعلنا نُحِسُّ ألفَ حِرْمانٍ ما كنا لِنَشْعُرَ به لولاها ، وتقوم راحة النفس على ازدراء كلِّ ما يُمْكِن أن يُزْعِجها ، ويُعَدُّ أحرصُ الناس على الحياة أقلَّهم قدرةً على التمتع بها ، ويُعَدُّ أطمعُ الناس فى السعادة أكثرَهم بؤسًا دائماً » .

« وأصرُخُ بمرارةٍ قائلًا : « وَىْ ! يالها من صُوَرٍ كئيبة ! إذا ما وَجَبَ رفضُ كلِّ شىء فما فائدة ولادتنا إذَنْ ؟ وإذا ما وَجَبَ ازدراء السعادة نفسِها فمن ذا الذى يكون سعيداً ؟ » ، وعن هذا يجيب القَسُّ ،

ذاتَ يومٍ ، بلهجةٍ وَقَفَتْ نظرى : « هو أنا » ، « أنت سعيدٌ ! أنت سعيدٌ مهما قلَّ عَوْن الطالع ذلك ومهما بلغتَ من الفقر والنفى والاضطهاد ! وماذا فعلتَ لتكون سعيداً ؟ » ، وعن هذا يجيب القَسُّ : « أى بُنَىّ ، سأقول لك هذا طَوْعًا » .

« وهنالك أخبَرَنى أنه يَوَدُّ أن يُدْلِيَ باعترافاته بعد أن تَلَقَّى اعترافاتى ، ويقول لى معانقاً : « سأصُبُّ فى صدرك جميعَ مشاعر فؤادى ، وستراني كما أَبْدُو لنفسى على الأقلّ إن لم يَكُنْ كما أنا عليه ، ومتى تلقيتَ اعترافىَ الدينىَّ بكامله ، ومتى عَرَفْتَ حالَ نفسى جيداً ، علمتَ السبب فى عَدّ نفسى سعيداً ، وإذا ما فَكَّرْتَ فى الأمر مِثْلى علمتَ كيف تكون سعيداً أيضًا ، بَيْدَ أن هذه الاعترافاتِ ليست مسئلةَ دقيقةٍ ، فلا بُدَّ من وقتٍ كافٍ لأشْرَح لك جميعَ ما أُفكِّر فيه حَوْل مصير الإنسان وحَوْل قيمة الحياة الحقيقية ، ولنعيِّنْ وقتاً ملائماً ومكاناً مناسباً للقيام بهذا الحديث بهدوء » .

« وأبْدِى مبادرتى إلى سماعه ، ولم يؤجِّل اللقاء إلى أبعدَ من صباح الغد ، وكنا فى فصل الصيف ، ونهض وقتَ الفجر ، ويأتى بى خارجَ المدينة ، إلى تلّ عالٍ يَمُرُّ تحته نهرُ الپُو الذى كان يُرَى مجراه من بين ضِفافه الخصيبة المُبَلَّلَة به ، وكانت سلسلةُ جبال الألپ الواسعةُ تتوِّجُ المنظر ، وكانت أشعةُ الشمس الطالعة تَمَسُّ السهول ، وتَرْسُمُ على الحقول ظِلالاً طويلةً للأشجار والرُّبَى والبيوت وتُغْنِي بألف عارضٍ من الضياء أروعَ ما يُمْكِن أن تقَع عليه عينُ إنسانٍ من الصُّوَر ، ولا عَجَب إذا قيل إن

الطبيعة كانت تَمْرِض على أعيننا جميعَ جَلَالِها تَزْويداً بنصٍّ حديثنا ، فهنالك ، بعد إمتاع النظر بتلك الأشياء مع صَمْتٍ حيناً من الزمن ، حَدَّثَنى رجل السلام بما يأتى » :

عقيدةُ القِسِّيسِ السَّاڤوَائِيِّ

أىْ بُنَىَّ ، لا تنتظر منى كلاماً علمياً ولا براهينَ بعيدةَ الغَوْر ، فلستُ فيلسوفاً كبيراً ، ولستُ أُبالى أن أَكُونَهُ إلا قليلاً ، ولكنَّ عندى ذوقًا سليماً أحياناً ، وأُحِبُّ الحقيقةَ دائماً ، ولا أَوَدُّ أن أُبَرْهِنَ معك ولا أن أُحاول إقناعَك ، ويكفينى أن أَعْرِض عليك ما أفكِّر فيه ببساطة فؤادى ، وشاوِرْ قلبَك فى أثناء حديثى ، وهذا كلُّ ما أطلبُ منك ، وإذا ما خُدِعتُ كان هذا عن حسن نية ، وحَسْبِى بهذا ألاَّ يُعَدَّ خِطْئِى جنايةً ، وإذا ما خُدِعْتَ أيضاً لم يَنطَوِ هذا على سوء كبير ، وإذا ما أحسنتُ التفكيرَ كان العقلُ مشتركاً بيننا ، وكانت لدينا ذاتُ المصلحة فى الإصغاء إليه ، ولِمَ لا تُفَكِّرُ كما أُفَكِّر ؟

لقد وُلِدْتُ فقيراً وقَرَوِيًّا ، وقد أُعْدِدْتُ بنصيبى لزراعة الأرض ، ويُرَى من الأجمل ، مع ذلك ، أن أتعلَّمَ كَسْبَ عيشى من القُسُوسَة ، ويُوجَدُ من الوسائل ما أُدْرِسُها به ، ولا رَيْبَ فى أننا لم نُفَكِّرْ ، أنا وأبواى ، أن نَطْلُب من هذا ما كان صالحاً ولا حقًّا ولا نافعاً ، ولكننا فَكَّرْنا فيما يجبُ أن يُعلَمَ لأكون قَسًّا ، وأتعلَّمُ ما أُرِيدَ منى أن أتعلَّم ، وأقول ما أُرِيدَ منى أن أقول ، وأُلزِم نفسى بما أُرِيدَ منى ، وأُنصَبُ قَسًّا ، بَيْدَ أننى لم

ألْبثْ أن شعَرْتُ بأنني ، حين ألزمتُ نفسى بألا أكون رجلًا ، وَعدْتُ بأكثرَ مما لا أستطيع إنجازَه .

ويقال لنا إن الشعورَ وليدُ المُبْتَسَرَات ، ومع ذلك فإننى أَعْلَم ، عن تجرِبةٍ ، أن الشعورَ يَعْنِدُ فى اتِّبَاع نظام الطبيعة على الرغم من جميع قوانين الناس، ومن العبث أن نُمْنَع من هذا أو ذاك ، ويكون لَوْمُ النَّدَمِ ضعيفاً دائماً حَوْل ما تُبيحُ لنا الطبيعةُ الحسنةُ التنظيم ، وأكثرُ من هذا ضعفُ ذاك اللوم حَوْل ما تأمر به الطبيعة ، ويا أيها الفتى الصالحُ لمْ تخاطِب الطبيعةُ حواسَّك بشىء بَعْدُ ، فعِشْ طويلًا فى هذه الحال من السعادة حيث يكون صوتُها صوتَ الطُّهْر ، واذْكُرْ أن سَبْقَك لتعليمها يَعْنَى إهانتَها إهانةً أشدَّ من مكافحتها ، ولا بُدَّ من البدء بتعلُّم المقاومة لمعرفة الوقت الذى يُمْكِن أن يُذْعَنُ فيه بلا إجرام .

وما فتئتُ منذ شبابى أحترم الزواجَ كأول نظامٍ للطبيعة وأكثرِ نُظُمها قُدُساً ، وإذْ أُنْزِعُ منى حَقَّ الإذعان لسلطانه فإنى أعْزِم على عدم انتهاكه مطلقاً ، وذلك لأننى ، على ما كان من ثقافتى ودراستي ومن قضائى حياةً نمطيةً بسيطة ، حافظتُ فى ذهنى على صفاء صُوَى* الفطرة كاملًا ، أى إن أمثال الناس لم تُسَوِّدْها قَطُّ ، وإن فقرى كان يُقْصِينى عن المُغْرِيات التى تُمْليها سَفْسَطةُ الفُسُوق .

وهــذا العَزْمُ أوجَبَ دَمَارِى ، وذلك أن احترامى لفراش الآخرين أدّى إلى كَشْفِ خطيئاتى ، وكان لا بُدَّ من التكفير عن زَلَّتى ، وأُوقَفُ

* الصوى : جمع صوة ، وهى الحجر الذى يكون دليلا فى الطريق .

وأُحْجَزُ وأُطْرَد ، وأكون ضحيةَ وَساوسى أكثرَ من أن أكون ضحيةَ دَعَارتى ، وكان لدىَّ ما أُدْرِكُ معه من التعزير الذى لازم زوالَ حُظْوَتى أنه يَجبُ ، فى الغالب ، زيادةُ الخطيئة للإفلات من العقوبة .

وقليلٌ من التجارب المماثلة يَسُوقُ الذهنَ الذى يتأمَّلُ إلى مَدًى بعيد ، وأُبْصِرُ بمشاهداتٍ كئيبة تَداعِيَ ما عندى من أفكارٍ عن العدل والصلاح وجميعِ واجبات الإنسان فأخْسَرُ كلَّ يومٍ بعضَ ما تلقيتُ من آراء ، وبما أن ما بَقِيَ لدىَّ منها عادَ غيرَ كافٍ لأصنع منه مجموعةً من الأفكار قادرةً على الوقوف وحدَها فقد أحسستُ بالتدريج اسودادَ وضوحِ المبادئ فى ذهنى ، ثم قُصِرْتُ على مرحلةٍ عُدْتُ لا أدرى معها ما التفكير ، فانتهيتُ إلى النقطة التى انتهيتَ إليها ، وذلك مع الفَرْق القائل إن إلحادى الذى هو ثمرةُ تقدمٍ فى السِّنِّ قد تَكَوَّن بمشقة عظيمة فيَصْعُب القضاء عليه .

وكنت فى حالٍ من الشكِّ والارتياب ما يَطْلُبُه ديكارتُ للبحث عن الحقيقة ، وما كانت هذه الحال لتدوم ، فهى تُورِث الهمَّ وتُوجِبُ العَناء ، وما كان لغير حُبِّ العَيْبِ وكَسَلِ النَّفْس ما يَدَعُنا فيها ، ولم يَكُنْ لدىَّ قلبٌ بَلَغَ من الفساد ما يُسَرُّ معه بذلك الوَضْع ، ولا شىء أحسنُ حِفْظًا لعادة التأمُّل من رِضَا الإنسان عن نفسه أكثرَ مما عن نصيبه .

وقد فكَّرْتُ ، إذَنْ ، فى مصير الناس الكئيب المُتَمَوِّجِ فَوْقَ بحر آراء البشر بلا سُكَّانٍ ولا بَوْصلة ، هؤلاء الناسَ المُوكَلين إلى أهوائهم العاصفة ، وذلك بلا دليلٍ غيرِ رُبَّانٍ غِرٍّ لا يَعرِف طريقَه ، ولا يَدْرِى من أين يأتى ، ولا إلى أين يذهب ، وأقول فى نفسى : « أُحِبُّ الفضيلة ،

وأنْشُدُها ، ولا أجِدُها ، ولأُطْلَعْ عليها حتى أستمسكَ بها ، ولِمَ تَستُرُ وجهها عن قلبٍ جادٍّ صُنِعَ ليَعْبُدَها ؟ » .

وإنى ، وإن بَلَوْتُ أشدَّ الآلام فى الغالب ، لم أقْضِ حياةً دائمةَ الكَرْب كما قَضَيْتُ فى أوقات القلَق والاضطراب تلك حيث كنتُ ضالاً بين شكٍّ وشكٍّ بلا انقطاعٍ فلم أفُزْ من تأملاتى الطويلة بغير الارتياب والإبهام والمتناقضات حوْل سبب وجودى وحوْل قاعدة واجباتى .

وكيف يُمْكِنُ الإنسانَ أن يكون مُرْتابًا عن مذهبٍ وحسنِ نيةٍ ؟ لا أستطيع إدراكَ هذا ، وإما أن يكون الفلاسفةُ موجودين ، وإما أن يكونوا أشقى الناس ، وإن الشَّكَّ فى الأشياء التى يُهِمُّنا أن نَعرِفَها هو أمرٌ بالغُ الشِّدَّة فى نفس الإنسان ، وهو لا يُمْكِنُ احتمالُه زمنًا طويلاً ، فالذهنُ يُقَرِّرُ إحدى الطُّرُق من تلقاء نفسه وعلى الرغم من ذاته ، وهو يُفَضِّلُ أن يُخْدَع على عدم الإيمان بشىء .

والذى كان يُضَاعِفُ ارتباكى هو أننى ، إذْ وُلِدْت فى كنيسة تُقَرِّرُ كلَّ شىء ولا تُبيحُ أىَّ شكٍّ ، كُنْتُ عند رفضِ نُقْطَةٍ أحْمَلُ على رفض بقية النِّقَاط ، وأنَّ تعذُّرَ التسليم بكثيرٍ من الأحكام غيرِ المعقولة كان يَفْصِلُنى ، أيضًا ، عن الأحكام التى لم تَكُنْ هكذا ، وكان إذا ما قِيلَ لى أن أعتقد كلَّ شىء عُدْتُ غير عارفٍ أين أقِف .

وشاورتُ الفلاسفة ، وتَصَفَّحْتُ كتبهم ودرستُ مختلفَ آرائهم ، فوجدتهم كلَّهم شُمَّخًا جازمين عَقَدِيِّين حتى فى ارتيابهم المزعوم ، ووجدتُهم لا يجهلون شيئًا ، ولا يُثْبِتون شيئًا ، ويَسْخَرُ بعضُهم من بعض ، ووجدتُهم

ينتصرون إذا ما هاجموا ، ووجدتهم بلا حَوْلٍ إذا ما دافعوا ، وإذا وَزَنْتُمْ براهينَهم لم تَجِدُوا عندهم منها غيرَ ما هو صالحٌ للهدم ، وإذا عَدَدْتم الطرُق أبصرتم اقتصار كلٍّ واحدٍ على طريقه ، وهم لا يتفقون على غير الجدال ، ولم يكن استماعى لهم وسيلةَ خروجى من ارتيابى .

وخُيِّلَ إلىَّ أن نَقْصَ الذهن البشرىِّ هو السببُ الأول لهذا الاختلاف العجيب فى المشاعر ، وأن العُجْبَ هو سببه الثانى ، وليس لدينا قياسُ هذه الآلة العظيمة مطلقًا ، ولا نستطيع حسابَ نِسَبِها ، ولا نَعرِف سُنَنَها الأولى ولا عِلَلَها الغائية ، ونحن نَجْهَلُ أنفسنا ، فلا نَعرِف طبيعتَنا ولا أصلَنا الفاعلَ ، ونحن لا نكاد نَعرِفُ هل الإنسانُ مخلوقٌ بسيطٌ أو مركّب ، وذلك لأن أسراراً خفيةً مُغْلَقةً تحيط بنا من كلِّ جانب ، وهى فوق المِنْطقة الحسَّاسة ، وترانا نعتقد أن لدينا من الذكاء ما نَنْفُذُها به مع أنه ليس لدينا غيرُ الخيال ، وكلٌّ يَشُقُّ ، من خلال هذا العالم الخيالىِّ ، طريقاً لنفسه يَظُنُّها صالحة ، ولا يستطيع أحدٌ أن يَعرِفَ هل تُوصِله طريقُه إلى الغاية ، ومع ذلك فإننا نريد نفوذَها ومعرفتَها جميعاً ، والأمرُ الوحيد الذى لا نَعرِفُه مطلقاً هو جهلُنا حَدَّ ما يُمْكِنُ أن يُعْرَف ، ونُفَضِّلُ أن نَرْكن إلى المصادفة وأن نَعتَقِد ما ليس موجوداً على الاعتراف بأن كلَّ واحدٍ منا لا يستطيع أن يَرَى ما هو ذاك ، وإذْ كنا جزءاً صغيراً من مجموعٍ كبير تَعزِب عنا حدودُه ويَدَعُه صانعُه لجدالنا الأحمق فإننا من البُطْل ما نُرِيدُ معه أن نُقَرِّر أمرَ هذا المجموع فى حَدِّ ذاته وأن نُقَرِّر ما نحن بالنسبة إليه .

ومتى صار الفلاسفةُ في حالٍ يكتشفون الحقيقةَ معها فمن ذا الذي يُعْنَى بأمرها منهم ؟ يَعْرِف كلٌّ واحدٍ منهم أن مذهبَه ليس أحسنَ أساساً من المذاهب الأخرى ، ولكنه يؤيده لأنه خاصٌّ به ، ولا تجدُ واحداً منهم انتهى إلى معرفة الحقيقة والكذب فلا يُفَضِّل الكذبَ الذي وَجَدَ على الحقيقة التي اكتشفها آخرُ ، وأين الفيلسوفُ الذي لا يخادع الجنسَ البشريَّ مختاراً في سبيل مَجْدِه ؟ وأين الفيلسوفُ الذي لا يَهْدِف في قَرَارَة قلبه إلى شيء آخرَ غيرِ الامتياز مِنْ سواه ؟ وما يَبْغِي أكثرَ من أن يَعْلُوَ العوامَّ وأن يُطْفِئَ نورَ منافسيه ؟ والمهمُّ هو أن يُفَكِّرَ على غير تفكير الآخرين ، فيكونَ ملحداً عند المؤمنين ومؤمناً عند الملحدين .

والثمرةُ الأولى التي اقتطفتُها من هذه التأملات هي أنني تعلَّمتُ قَصْرَ مباحثي على ما كان يُهِمُّني مباشرةً وأن أتذرَّع بجهلٍ عميقٍ فيما عدا ذلك ، وألاَّ أباليَ ، حتى مع الشكِّ ، بغير الأمور التي كان يجب أن أعْرِفها .

ومما أدركتُ أيضاً بُعْدُ الفلاسفة من إنقاذي من شكوكي غيرِ المجدية ، وأنهم لم يَصْنَعُوا غيرَ زيادة الرِّيَب التي تُزْعِجُني من غير أن يَحُلُّوا واحدةً منها ، ولِذَا فقد اتخذتُ دليلاً آخرَ وقلتُ في نفسي : « دَعْني أستَنِرْ بنُور الباطن ، فهو أقلُّ تضليلاً لي منهم ، أو إن خِطْئِي يكون خاصًّا بي على الأقلّ ، فأكونُ أقلَّ فساداً باتِّباع أوهامي الخاصة مما بانقيادي لأكاذيبهم » .

وأعْرِضُ في ذهني مُختَلِفَ الآراء التي سَيَّرَتني منذ وِلادتي مناوبةً ،

فأرى ، هنالك ، أنها ، وإن لم يُوجَدْ بينها واحدٌ بَلَغَ من الوضوح ما يُوجب القناعةَ حالًا ، كانت متفاوتةً احتمالاً فيُعِيرُها قَبُولى إياها ، أو رَفْضِى إياها ، باطنياً ، أوزاناً مختلفة ، وأستند إلى هذه الملاحظة الأولى فأُقابل بين جميع هـذه الأفكار المختلفة فى سُكُون المُبْتَسَرات فأجِدُ أن أولَها وأكثرَها شيوعًا كان أبسطَها وأقربَها إلى الصواب ، وأنه كان لا يُعْوِزها لجمْع جميع الأصوات غيرُ كَوْنِها آخرَ ما يُعْرَض ، وتَمَثَّلُوا جميعَ فلاسفتكم القدماء والمعاصرين ، وقد استنفدوا فى البُداءة مذاهبَهم الغريبة فى القوة والحظِّ والقَدَر والوجوبِ والذَّرَّات والعالَمِ الحىِّ والمادةِ الحية والمادِّيَّةِ من كلِّ نوع ، ثم تَمَثَّلُوا كلارْكَ المشهورَ وهو يُنِيرُ العالَمَ مُعْلِناً فى نهاية الأمر واجبَ الوجود وواهبَ الأشياء ، فبأىِّ إعجابٍ شامل ، وبأىِّ هُتافٍ إجماعىٍّ ، لا يُقْبَلُ هذا المذهبُ الجديد البالغُ العظمةِ والسُّمُوِّ والكثيرُ الصلاح لرَفْع الروح ومَنْح الفضيلة قاعدةً والبالغُ التأثيرِ والإشراق والبساطة ، والأقلُّ عَرَضاً ، كما يَلُوح لى ، لأمورٍ لا تُدْرِكها النفس البشرية التى تَجِدُها محالةً فى كلِّ مذهبٍ آخر ، وأقول فى نَفسى : « إن الاعتراضاتِ المُعْضِلةَ شائعةٌ بين الجميع ، وذلك لأن روح الإنسان من الضيق ما لا يستطيع معه أن يَحُلَّها ، ولِذَا فإن هذه المُعْضِلاتِ ليست براهينَ ضدَّ أىِّ مذهبٍ دون غيره ، ولكنْ يا لَلْفَرْق بين البراهين المباشرة التى قامت عليها هذه المذاهب ! ألاَ يَجِبُ تَفْضِيلُ ذاك الذى يُوضِحُ وحدَه كلَّ شىء عندما لا يَكُونُ له مِثْلُ مُعْضِلاَت الأخرى ؟ »

ولِذَا فإنى ، إذْ أَحمِلُ حُبَّ الحقيقة فى نفسى كفلسفةٍ وحيدة ، وإذْ

أَحمِلُ قاعدةً واضحةً بسيطة تُغْنِينى ، كمنهاجٍ وحيدٍ ، عن الدِّقَّة الفارغة فى البراهين ، فإننى أَعُودُ مستعيناً بهذه القاعدة إلى دَرْس المعارف التى تهمُّنى عازمًا على عَدِّى واضحاً كلَّ ما لا أستطيع أن أمنع عنه موافقتى من المعارف ، وعلى عَدِّى حقيقياً جميعَ المعارف التى يَلُوح لى أنها ذاتُ ارتباطٍ لازم فى تلك المعارف ، وذلك مع تركى جميعَ المعارف الأخرى ضِمْنَ نطاقٍ من الارتياب لا أرْفِضُها ولا أقبَلُها معه ، وذلك من غير أن أُزعج نفسى بإلقاء نورٍ عليها إذا كانت لا تؤدى إلى شىء نافع فى ميدان العمل .

ولكنْ مَنْ أنا ؟ وما حَقِّى فى الحُكْم فى الأمور ؟ وما الذى يُعيِّنُ أحكامى ؟ إذا كانت نتيجةً حَتْمِيَّةً لِمَا أَتَلَقَّى من انطباعاتٍ كان من العبث قيامى بمثل هذه التحقيقات ، فهى لا تتمُّ مطلقاً ، أو إنها تتمُّ بنفسها ومن غير أن أتدخَّل فى توجيهها ، ولِذَا فإن أولَ ما يجب أن أفعَل هو أن أرْجِع إلى نفسى لمعرفة الآلةِ التى أُريدُ اتخاذَها والمَدَى الذى يُمكننى أن أعتمد عليه فى استعمالها .

وأنا موجودٌ ، ولدىَّ حواسُّ أتأثَّرُ بها ، وهذه هى الحقيقة الأولى التى تقِفُ نظرى ، فألْزَمُ بقبولها ، وهل لدىَّ شعورٌ خاصٌّ بوجودى فلا أشْعُرُ به إلَّا بإحساساتى ؟ هذا هو شَكِّى الأولُ الذى يتعذَّرُ علىَّ حلُّه فى الوقت الحاضر ، وذلك بما أننى أتأثَّرُ دائماً بالإحساسات مباشرةً أو بفِعْل الذاكرة فكيف أستطيع أن أعْرِف كَوْنَ شعورى بنفسى أمراً خارجاً عن هذه الإحساسات وأن من الممكن كَوْنَ هذا الشعور مستقلاً عن هذه الإحساسات ؟

وَفِىَّ تَحْدُث إحساساتى ما دامت تُشْعِرُنى بوجودى ، بَيْدَ أن سببها

غريبٌ عنى ما دامت تؤثر فىّ سواء أكان لدىّ أىُّ سببٍ لوجودها أم لا ، ولِمَا لا يتوقّفُ علىّ أمرُ وجودِها أو أمرُ إبطالِهـا ، ولِذَا فإننى أرى بوضوحٍ أن إحساسى الذى فِىّ وسببَه أو موضوعَه الخارجَ عنى ليسا أمراً واحداً .

وهكذا تُوجَدُ موجوداتٌ أخرى فضلاً عن كونى موجوداً ، أى تُوجَدُ موضوعاتُ إحساساتى ، حتى إن هذه الموضوعاتِ إذا لم تكن غيرَ أفكارٍ فإن من الصحيح دائماً كَوْنَ هذه الأفكار ليست أنا .

والواقعُ أن كلَّ ما أُحِسُّه خارجَ نفسى ويؤثِّرُ فى حواسِّى أُسَمِّيه مادةً ، كما أُسَمِّى أجساماً جميعَ أجزاء المادة التى أتصوَّرها مجتمعةً فى موجوداتٍ فردية ، وهكذا فإن جميع مجادلات الخياليين والماديين لا معنى لها فى نظرى ، أى إن تفريقهم بين ظاهر الأجسام وحقيقتها أمرٌ وهمىٌّ .

ومن ثَمَّ ترانى قانعاً بوجود العالَم قناعتى بوجودى ، ثُمَّ أتأمل فى موضوعات إحساساتى ، وبما أننى أجِدُ فى نفسى قابليةَ المقابلةِ بينها فإنى أُحِسُّ اتصافى بقوةٍ فاعلةٍ لم أعْرِف حيازتى لها سابقاً .

والشعورُ هو الإحساسُ ، والقيـاسُ هو الحُكْم ، وليس الإحساسُ والحُكْمُ أمراً واحداً ، وبالإحساس تَظْهَرُ الموضوعاتُ لى منفصلةً منفردةً كما هى فى الطبيعة ، وبالقياس أُحركها وأنقُلُها وأَضَعُ بعضَها فوق بعض لأحْكُمَ فى اختلافها وتشابهها ، وفى جميع علائقها على العموم ، وعندى أن صفةَ الموجودِ الفاعل أو العاقلِ المميزةَ هى القدرةُ على مَنْحِ كلمة « هو موجودٌ » معنى ، وأبحث ، عَبَثاً ، فى الموجود الحِسِّىِّ الصِّرْف عن هذه القدرة العاقلة

التى تَنْضِدُ ثم تَحْكُمُ ، فلا أستطيع أن أراها فى طبيعته ، ويَشْعُرُ هذا الموجودُ المنفعلُ بكلٍّ موضوعٍ على انفراد ، أو إنه يَشْعُر بالموضوع المجموع المؤلَّف من الاثنين ، ولكن بما أنه ليس لديه من القوة ما يَثْنِى به أحدَهما على الآخر فإنه لن يقابل بينهما مطلقاً ، ولن يَحْكُم فيهما مطلقاً .

ولا تَعْنِى رؤيةُ الشيئين معاً رؤيةَ علائقهما ، ولا الحكمَ فى اختلافاتهما ، وليس الشعورُ بأشياءَ كثيرةٍ خارجٍ بعضُها عن بعض تعداداً لها ، فمن الممكن أن تكون لدىَّ فى ذات الدقيقة فكرةٌ عن عصاً كبيرةٍ وعصاً صغيرةٍ من غير أن يقابَل بينهما ومن غير أن يُحْكَم فى كون إحداهما أصغرَ من الأخرى ، كما أن من الممكن أن أرى جميعَ يدى جُمْلَةً من غير عَدٍّ لأصابعى[1] ، فهذه الأفكارُ القياسيةُ : « أعظمُ ، أصغرُ » ، وهذه الأفكارُ العَدَّيةُ « واحدٌ ، اثنان ، إلخ . » ليست إحساساتٍ حقًّا ، وإن كان ذهنى لا يُوَلِّدُها إلَّا بمناسبة إحساساتى .

ويقال لنا إن الموجود الحَسَّاس يَمِيزُ بعضَ هذه الإحساسات من بعض بما بين هذه الإحساسات نفسِها من فروق ، ويحتاج هذا إلى إيضاح ، ومتى كانت الإحساسات مختلفةً مازَ الموجودُ الحَسّاسُ بعضَها من بعضٍ بما بينها من فروق ، ومتى كانت متشابهةً ماز بينها لشعوره بأن بعضَها خارجُ بعض ، وإلاَّ فكيف يُمَازُ شيئان متساويان بإحساسٍ حَدَثَ فى آنٍ واحد ؟ لا بُدَّ له من أن يَخْلِط بين هذين الشيئين بحُكْمِ الضرورة واتخاذِه لهما

---

(١) تحدثنا رحلات مسيو دولا كوندامين عن شعب لا يعرف تعداداً يزيد على ثلاثة ، ومع ذلك فإن الناس الذين يتألف هذا الشعب منهم ذوو أياد فيرون أصابعهم من غير أن يستطيعوا العد حتى الخمسة .

كأمر واحد ، ولا سيما وَفْقَ مذهبٍ يُزْعَم فيه أن الإحساساتِ التصويريةَ للمَسافة ليست مَسَاوفَ مطلقاً .

ومتى شُعِرَ بإحساسين يُقابَل بينهما فإن انطباعَهما يَقَعُ ، وإن كلَّ شيء يُحَسُّ ، وإنهما يُحَسَّان ، بيد أنه لا يُشْعَر بعلاقتهما لهذا السبب ، وإذا لم يَكُنِ الحُكْمُ فى هذه العلاقة غيرَ إحساسٍ ، وإذا كان يأتينى من الشىء حَصْراً ، لم تَخْدَعنى أحكامى قَطّ ، وذلك لأنه ليس من الكَذب أن أحِسَّ ما أحِسُّ .

ولِمَ أُخْدَعُ ، إذَنْ ، حَوْلَ علاقة تَيْنِكَ العَصَوَيْن إذا لم تكونا متوازيتين على الخصوص ؟ ولِمَ أقولُ ، مَثَلاً ، إن العصا الصغيرة تَعْدِلُ ثلثَ الكبيرة مع أنها لا تَعْدِل غيرَ ربعها ؟ ولِمَ لا تكون الصورةُ التى هى إحساسٌ مطابِقةً لِمثالها الذى هو موضوعُها ؟ ذلك لأننى فاعلٌ حينما أحْكُم ، وذلك لأن فِعْل القياس مُخْتَلٌّ ، وذلك لأن إدراكى الذى يَحْكُم فى العلاقات يَخْلِطُ أغاليطَه بحقيقة الإحساسات التى لا تُظْهِرُ غيرَ الأشياء .

وإلى هذا أضيفوا فكرةً تَقِفُ نظرَكم إذا ما تأمّلْتُمُوها كما أُوَكِّد ، وذلك أننا إذا ما كنا منفعلين مَحْضاً فى استعمال حواسِّنا لم يَكُنْ بينها أىُّ اتصال ، وتَعذَّر علينا أن نَعرِف أن الجسمَ الذى نَمَسُّ والشىء الذى نَرَى هُمَا هما ، وذلك أننا إمّا ألاَّ نُحِسَّ شيئاً خارجَ أنفسنا مطلقاً ، وإما أن يكون لدينا خمسةُ عناصرَ محسوسةٌ ليس لدينا أيةُ وسيلةٍ لإدراك ذاتيتها .

ولْيُطْلَقْ هذا الاسمُ أو ذاك على قدرة روحى التى تُقَرِّب وتقابِل بين إحساساتى ، ولْتُدْعَ انتباهاً أو تَبَصُّراً أو تأمُّلاً أو كما يُرَاد ، فإن من

الصحيح دائماً أن تكون فِيَّ لا في الأشياء ، وأن أكُونَ وحدي الذي يُحْدِثُها وإن كنتُ لا أُحْدِثُها إلاَّ حينما أتَلَقَّى انطباعاً من الأشياء ، ومع أني لستُ مسيطراً على إحساسي أو عدمه فإنني مُطْلَقٌ في فَحْصِ ما أُحِسُّ على قَدَرِ الإمكان .

إذَنْ ، لستُ موجوداً حِسِّيًّا ومنفعلًا فقط ، بل موجودٌ فاعلٌ عاقلٌ ، ومهما يَكُنْ من قَوْلِ الفلسفة فإنني أجْرُؤ على ادعاء شرف التفكير ، فأَعْرِف أن الحقيقة في الأشياء ، لا في رُوحِي الذي يَحْكُمُ فيها ، وأنني كلما قَلَّ ما أَضَعُ مما عندي في الأحكام التي أُحْمِلُ عنها زادتْ ثقتي باقترابي من الحقيقة ، وهكذا فإن قاعدتي في الانقياد للشعور أكثَرَ مما إلى العقل تأيدتْ بالعقل نفسِه .

وإذ أنني واثقٌ بنفسي ، كما أقول ، فإنني أبدأ بالنظر إلى خارج نفسي ، وأعُدُّنِي ، مع شيء من الارتعاش ، مطروحاً ضائعاً في هذا الكَوْن الواسع ، غارقاً في بحر الموجودات غيرَ عارفٍ شيئاً عما هي عليه ، سواء فيما بينها أو بالنسبة إليَّ ، وأدْرُسُها وأرْقُبُها ، والأمرُ الأولُ الذي يَعرِض لي للمقارنة بينها هو نَفْسِي .

وكلُّ ما أُحِسُّ بالحواسِّ هو مادةٌ ، وأستنبط خواصَّ المادةِ الجوهريَّة كلَّها من الصفات المحسوسة التي تَجْعَلُني أشْعُرُ بها والتي لا يُمكِن أن تَنْفَصِل عنها ، وأرى المادةَ متحركةً تارةً ساكنةً[1] تارةً أخرى ، ومن

(١) وإن شئت فقل إن هذا السكون أمر نسبي ، ولكن بما أننا نشاهد شيئاً ما في الحركة فإننا نتمثل بوضوح أحد الحدين المتناهيين ، وهو السكون ، ونحن نبلغ من تمثله ما نميل معه إلى عد السكون أمراً مطلقاً مع أنه نسبي ، والواقع أن من غير الصحيح كون الحركة من جوهر المادة إذا ما أمكن تصورها ساكنة.

ثمَّ أستَنْتِجُ أن السكون والحركة ليسا أمرين جوهريين لها ، ولكنْ بما أن الحركة فعلٌ فإنها معلولةُ علةٍ ليس السكونُ غيرَ عَدَمٍ لها ، ولِذَا فإنه إذا لم يؤثِّرْ شيء فى المادة فإنها لا تتحرك مطلقاً ، ولذا فإن السكونَ والحركة إذْ يتساويان لدى المادة يُعَدُّ السكونُ حالَ المادةِ الطبيعيَّ .

وأبْصِرُ فى الأجسام نوعين للحركة ، وهما : الحركةُ الاكتسابية والحركةُ التلقائية أو الاختيارية ، وفى الأولى يكون السببُ المُحَرِّك خارجَ الجسم المتحرك ، وفى الثانية يكون السببُ المُحَرِّك ذاتيًّا ، ولا أستنتج من ذلك كَوْنَ حركة الساعة ، مثلاً ، أمراً تِلْقَائيًّا ، وذلك لأنه إذا لم يُوجَدْ شيء غريبٌ عن النابض مؤثِّرٌ فيه فإنه لا يميـلُ إلى الاعتدال ولا يجتذب السلسلة مطلقاً ، ولِذَاتِ السبب لا أوافقُ ، كذلك ، على كون حركةِ السوائلِ تلقائيةً كما أننى لا أعْزُو حركةً تلقائيةً إلى النار التى تُوجِبُ سائليَّتَها[1] .

وتسألوننى عن كون حركات الحيوان تلقائيةً ، وأجيبكم بأننى لا أعْرِف عن ذلك شيئاً ، ولكن القياس يؤيده ، وتسألوننى ، أيضاً ، كيف أعْرِف ، إذَنْ ، وجودَ حركاتٍ تلقائية ، وأجيبكم بأننى أعْرِفُها لأننى أشْعُرُ بها ، وأريدُ تحريكَ ذراعى وأحَرِّكُها من غير أن يكون لهذه الحركة سببٌ مباشرٌ غيرُ إرادتى ، ومن العبث أن تراد البَرْهنةُ تقويضاً لهذا الشعور فىَّ ، فهو أقوى من كلِّ دليل ، وذاك يَعْدِلُ أن يُثْبَتَ لى كونى غيرَ موجودٍ .

---

(١) يعد الكيماويون عنصر الالتهاب ، أى عنصر النار ، أمراً متفرقاً ساكناً راقداً فى المركبات التى هو جزء منها ، وذلك إلى أن تطلقه وتجمعه وتحركه علل غريبة فتحوله إلى نار .

وإذا كان لا يُوجَدُ أيُّ تِلْقَائِيَّةٍ في أفعال الناس ، ولا في أيِّ شيء يَحْدُث على الأرض ، فإن من أصعب الأمور أن تُتَصَوَّر العلةُ الأولى لكلِّ حركة ، وأما أنا فإنني أَشْعُرُ بأنني بلغتُ من اعتقاد كَوْنِ الحال الطبيعية للمادة في سكونٍ ، ومن أنه لا يُوجَدُ فيها أيةُ قوةٍ للحركة بنفسها ، ما أَحْكُمُ معه من فَوْرى ، حين أرى حركةَ الجسم ، بأن هذا الجسم حَيٌّ أو إن هذه الحركةَ قد اتصلت إليه ، ويأبى ذهنى كلَّ موافقةٍ على مبدأِ المادة غيرِ العضوية المتحركة من تلقاء نفسها ، أو التى تأتى عَمَلاً ما .

ومع ذلك فإن هـذا العالَمَ المرئيَّ مادةٌ ، ولـكنه متفرِّقٌ مَيِّتٌ[1] لا يُوجَدُ في مجموعه ما في أجزاء الجسم الحيّ من اتحادٍ ونظامٍ وشعورٍ مشترَك ما دام من الثابت أننا ، نحن الأجزاء ، لا نُحِسُّ في المجموع قطعًا ، وهذا العالَمُ نفسُه في حركةٍ ، وهو ، في حركاتِه المنتظمةِ النَّمطية الخاضعة لسُنَن ثابتة ، خالٍ من تلك الحرية التى تَبْدُو في حركات الإنسان والحيوان الغريزية ، وليس العالَمُ ، إذَنْ ، حيوانًا عظيمًا يتحرك من تلقاء نفسه ، ويُوجَدُ لحركاته ، إذَنْ ، عِلّةٌ غريبةٌ عنه لا أُدْرِكُها ، غير أن لدىَّ من القناعة الباطنية ما يجعلنى أَشْعُرُ بهذه العلة شعوراً لا أرى معه دَوَرَانَ الشمسِ من غير أن أتصوَّر قوةً تَدْفَعُها ، أو من غير أن أَعتقدَ شعورى بيدٍ تُدِيرِ الأرضَ إذا كانت تَدُور .

وإذا ما وجب القولُ بالسُّنَن العامة التى لا أُدْرِك علاقاتِها الجوهريةَ

(١) بذلت جميع جهودى لأتمثل ذرة حية ، فكان هذا على غير جدوى ، ويظهر لى أن فكرة المادة الشاعرة بلا حواس أمر متناقض لا يدرك ، ولا بد من البدء بإدراك هذه الفكرة لقبولها أو رفضها ، فأعترف بأنى لم أنل هذه السعادة .

بالمادة مطلقاً فما يكون مَدَى تقدُّمي؟ بما أن هذه السُّنَنَ ليست موجوداتٍ حقيقةً ، ولا عناصرَ ، فإنه يكون لها ، إذَنْ ، أساسٌ آخرُ مجهولٌ لديَّ ، وقد جعلتنا التجربةُ نَعرف سُنَنَ الحركة ، وهذه السُّنَنُ تُعيِّنُ المعلولاتِ من غير أن تُطْلِعَ على العلل ، وهي لا تكفي لإيضاح نظام العالَمَ ولا لتفسيرِ سَيْرِ الكَوْن مطلقًا ، وقد أغْلَق ديكارْتُ السماءَ والأرضَ بالنَّرْد ، ولكنه لم يَسْتطع أن يَمْنَح هذا النردَ أولَ حركة ، كما أنه لم يُعْمِلْ قوتَه الدافعةَ عن المركز إلاَّ بدَوْرَةٍ مِحْوَرِيَّة ، وقد وَجَدَ نيُوتُنُ قانونَ الجاذبية ، ولكن الجاذبيةَ وحدَها لم تَلْبَثْ أن حوَّلت العالَمَ إلى كتلةٍ جامدة ، وإلى هذا القانون يَجِبُ أن تُضَاف قوةٌ دافعةٌ لوَصْفِ إهْليلجيات الأجرام السماوية ، ولْيُحَدِّثْنا ديكارْتُ عن القانون الطبيعيِّ الذى يُدِيرُ دَوْراتِه ، ولْيَدُلَّنا نيُوتُنُ على اليد التى ألقت السَّيَّاراتِ على مُماسٍّ مَدَاراتِها .

وليست أُولَى عِلَلِ الحركة فى المادة مطلقًا ، والمادةُ تَتَلَقَّى الحركةَ وتَنْقُلُها ، ولكنها لا تُحْدِثُها ، وكلما لاحظتُ فِعْلَ قُوَى الطبيعة وردَّ فِعْلِها ، وبعضُها يؤثِّرُ فى بعضٍ ، وجدتُ أنه لا بُدَّ ، بالارتقاء من معلولاتٍ إلى معلولاتٍ ، من الانتهاء إلى إرادةٍ على أنها العلةُ الأولى ، وذلك لأن افتراضَ سلسلةٍ لا نهايةَ لها من العلل يَعْنى عدمَ وجودٍ للعلة الأولى ، والخلاصةُ أن كلَّ حركةٍ لم تَصْدُر عن أخرى لا يُمْكِن أن تأتِيَ من غير فعلٍ تلقائيٍّ اختياريٍّ ، ولا تسير الأجسامُ غيرُ الحيةِ بلا حركة ، ولا يوجد فِعلٌ بلا إرادة ، وهذا هو مَبْدَئِى الأول ، ولِذَا فإننى أعتقد أن الإرادة تُحَرِّكُ الكَوْنَ وتُحْيِي الطبيعةَ ، وهذه هى عقيدتى

الأولى أو مادةُ اعتقادى الأولى .

وكيف تُسْفِرُ إرادةٌ عن عملٍ فِزْيَوِيٍّ أو جِسْمِيٍّ ؟ لا أعْلَمُ ذلك ، وإنما أشْعُرُ فى نفسى بأنها تُحْدِثه ، وأريد أن أفْعَلَ شيئاً فأفْعَلُه ، وأريد أن أُحَرِّكَ بَدَنى فيَتَحَرَّكُ ، وأما أن يَتحرك جسمٌ جامدٌ ساكنٌ من تلقاء نفسه وأن يُحْدِث حركةً فأمرٌ لا يُدْرَكُ ولا مَثِيل له ، وأعْرِف الإرادةَ بأفعالها لا بطبيعتها ، وأعْرِف هذه الإرادةَ عِلّةً مُحَرِّكةً ، وأما أن تُتَصَوَّر المادةُ مولِّدةً للحركة فيَعْنِي أن تَتَصَوَّر بجلاء معلولًا بلا علة ، ويَعْنِى هذا ألا تَتَصور شيئاً على الإطلاق .

وليس أكثرَ إمكاناً لدىَّ أن أتَصَوَّر كيف تُحَرِّكُ إرادتى جسمى من أن أتصور كيف تؤثِّرُ إحساساتى فى نفسى ، حتى إننى لا أعْرِف السببَ فى كَوْن أحد هذين السِّرَّين أهلًا للإيضاح أكثرَ من الآخر ، وأما أنا فتَبْدُو لى وسيلةُ اتحاد العنصرين أمراً لا يُدْرَكُ مطلقاً سواء علىَّ أكنت فاعلًا أم منفعلًا ، ومن الغرابة بمكانٍ أن يُمْضَى من تَعَذُّر الإدراك هذا ليُخْلَط بين العنصرين كأنَّ أفعالًا من طبيعةٍ مختلفةٍ ذلك الاختلافَ تَكُون أصلحَ للإيضاح ضِمْنَ موضوعٍ واحدٍ مما ضِمْنَ موضوعين .

أجَلْ ، إن العقيدة التى أُقَرِّرُها غامضةٌ ، غير أنها تُلْقِي مَعْنًى فى نهاية الأمر ، وهى لا تنطوى على شىء يأباه العقل وتأباه الملاحظة ، وهل يقال عن المادية ذلك المقدار ؟ أليس من الواضح أن الحركة إذا كانت أمراً جوهريًّا للمادة تَعَذَّر انفصالُها عنها ، وكانت على ذات الدرجة فيها دائماً ، وكانت بذات المقدار فى كلِّ قسم من المادة دائماً ، وكانت غيرَ قابلة للانتقال ،

فلا تقبَل الزيادةَ والنقصان ، حتى إنه لا يُمكِن تصورُ المادة فى سكون ؟ و إذا ما قِيلَ لى إن الحركة ليست أمراً جوهريًّا للمادة ، بل ضروريةٌ ، فإنه يُراد خَدْعى بألفاظٍ يَسْهُل دَحْضُها إذا كانت أكثرَ معنًى نوعاً ما ، وذلك لأن حركة المادة إما أن تأتيَها من المادة نفسها ، وحينئذٍ تكون أمراً جوهريًّا لها ، و إما أن تأتيَها من عِلَّةٍ خارجية ، وحينئذٍ لا تكون ضروريةً للمادة إلّا بدوام تأثير العلة المحرِّكة فيها ، و بذلك نعُود إلى المُعضِلة الأولى .

وتُعَدُّ الأفكارُ العامة المجرَّدة مصدرَ أعظم خطأٍ فى الناس ، وما كانت رَطانةُ ما بعد الطبيعة لتَكْشِفَ أيةَ حقيقة كانت ، وقد ملأتْ هذه العُجْمَةُ الفلسفةَ بالسخافات التى يُخْجَلُ منها عند تجريدها من ألفاظها الفَخْمة ، وقُل لى ، ياصديقى ، إنك إذا ما حُدِّثْتَ عن قوةٍ عمياء منتشرةٍ فى جميع الطبيعة فهل يُحْمَلُ إلى ذهنك فكرٌ حقيقىٌّ ؟ أجَلْ ، يُعْتَقَدُ أنه يُقال شىء بكلمات « القوة العامة ، والحركة الواجبة » ، ولكنه لا يُقال شىء مطلقاً ، وليست فكرةُ الحركةُ غيرَ فكرة الانتقال من مكانٍ إلى آخر ، ولا تُوجَدُ حركةٌ بلا اتجاهٍ مطلقاً ، وذلك لأن الموجود الفردىَّ لا يستطيع الحركة نحو جميع الجهات دفعةً واحدة ، و إلى أية جهة تتحرك المادة حتماً ؟ وهل جميعُ المادة فى الجسم ذو حركةٍ نَمَطِيَّة أو تكون لكلِّ ذرةٍ حركتُها الخاصة ؟ تَذْهَب الفكرة الأولى إلى وجوب تكوين الكون بأسره كتلةً متينةً لا تتجزأ ، وتذهب الفكرة الثانية إلى وجوب عدم تكوين الكون غيرَ سائلٍ مُفَرَّقٍ فاقدِ الرِّباط ، فلا يُمْكِن أن تتحد بذلك ذرَّتان مطلقاً ، وما يكون اتجاه هذه الحركة المشتركة بين جميع المادة ؟ أتكون على خطٍّ مستقيم أم إلى الأعلى أم إلى

الأسفل أم إلى اليمين أم إلى الشِّمال ؟ وإذا كان لكلِّ ذرةٍ في المادة اتجاهُها الخاصُّ فما تكون عِلَلُ جميع هذه الاتجاهات وجميعِ هذه الاختلافات ؟ وإذا كانت كلُّ ذرة في المادة لا تَصْنَع غيرَ دَوَرَانها حَوْلَ مركزها الخاصِّ فإنه لاشيء يترك مكانَه ولا تُوجَدُ حركةٌ متحولهٌ مطلقاً ، حتى إنه في هذه الحالة يجب أن تتجه هذه الحركة الدَّوْرية نحو جهةٍ ما ، ويَعْني مَنْحُ المادة حركةً بالتجريد قَوْلَ كلماتٍ لا مَعْنَى لها ، ويَعْني منحُها حركةً مُعَيَّنَةً افتراضَ علةٍ مُعَيَّنَةٍ لها ، وكلما كَثَّرَت القُوَى الخاصة كان لدىَّ من العلل الجديدة ما أُوضِحُه من غير أن أجِدَ فاعلًا مشـتركاً مُوَجِّهاً لها ، وأَجِدُني بعيداً من إمكان تصورى أىَّ نظامٍ ضِمْنَ تزاحم العناصر العرَضىِّ فلا أستطيع حتى تَصَوُّرَ اعتراكها ، ويَبْدُو لى اختلاطُ عناصر الـكَوْن أمراً لا يُدْرَك أكثرَ من تَعَذُّر إدراك انسجامه ، وأُدْرِكُ أن من الممكن ألَّا يُدْرِكَ ذِهْنُ الإنسان جهازَ العالَم ، ولـكن الإنسان إذا ما أخذ في إيضاحه وجب أن يقول أموراً يَفْهَمُها الناسُ .

وإذا كانت المادة المتحركة تدلُّني على إرادةٍ فإن المادة المتحركة تَدُلُّني على عقل وَفْقَ بعض النواميس ، وهذه هي المادة الثانية من عقيدتى ، ويكون العملُ والمقارنةُ والاختيار أفعالَ كائنٍ فاعلٍ عاقل ، وهذا الـكائنُ موجودٌ إذَنْ ، وأين تَرَوْنه موجوداً ؟ وهذا ما تَقُولون لى ، إنه ليس في السماوات التى تَدُور والنجم الذى ينيرنا فقط ، وليس في أنفسنا فقط ، بل ، أيضاً ، في الشَّاة التى تَرْعَى والطائرِ الذى يَطِير والحجرِ الذى يَسْقُط والورقةِ التى تَذْرُوها الريح . وأَقْضِي في نظام العالَم وإن كنت أَجْهَلُ غايتَه ، وذلك لأنه يكفيني

للحكم فى هذا النظام أن أقابل بين الأقسام وأن أدرس سِياقها وعلائقها وأن ألاحظ توافقها ، وأجْهَلُ سببَ وجود العالمَ ، ولكننى لا أنفكُّ أرى كيف تحوّل ، ولا يُعْوِزُنى أن أبْصِرَ ذاك التوافقَ الوثيقَ الذى تتعاون به الموجوداتُ المؤلَّفُ منها تعاوناً متقابلًا ، وأرانى مِثْلَ الرجلِ الذى يرى ساعةً مفتوحةً للمرة الأولى ، ولا يَفتأُ يُعْجَبُ بصُنْعها وإن كان لم يَعْرِف استعمالَ الآلة ولم يَرَ وجهَها قَطُّ ، ويقول إننى لا أعْلَمُ ما نَفْعُ جميعها ، وإنما أرى أن كلَّ جزء منها قد صُنِعَ من أجْل الأجزاء الأخرى ، وأُعْجَبُ بالصانع فى تفاصيل صُنْعه ، وأجِدُنى مُوقِناً بأن جميع هذه الدواليب لا تَسِيرُ متفقةً على هذا الوجه إلَّا من أجْلِ غايةٍ مشتركة يتعذَّرُ علىَّ إدراكُها .

ولنقابِلْ بين الغايات الخاصة والوسائل والعلائق المُنَظَّمة لكلِّ نوع ، ولْنَسْتَمِعْ إلى الشعور الباطنىّ ، فأىُّ ذهنٍ صحيح يستطيع أن يَرْفِضَ شهادتَه ؟ وأيةُ عيون غيرِ متأثِّرةٍ بالمُبْتَسرات لا يُنْبِئُها نظامُ الكَوْنِ المحسوسُ بعقلٍ عالٍ ؟ وأيةُ سَفْسَطاتٍ يَجِبُ أن تُرْكَمَ لإنكار انسجام الموجودات وتعاونِ كلِّ جزء على حِفْظِ الأجزاء الأخرى ؟ وحَدِّثُونى ما شِئتم عن التركيبات والمصادفات ، فما نَفْعُكم من حَمْلِى على السكون إذا كنتم غيرَ قادرِين على إقناعى ؟ وكيف تَنْزِعون منى شعوراً غيرَ إرادىّ يُكَذِّبكم على الرغم منى دائماً ؟ وإذا كانت الأجسام العُضْوية قد تَرَكَّبت عَرَضاً على ألف وجهٍ قبل اتخاذها أشكالاً ثابتةً فتكونت فى البُداءة مِعَدٌ بلا أفواه وأرجلٌ بلا رؤوس وأيدٍ بلا ذُرْعان وأعضاء ناقصةٌ مُنَوَّعة ، وانقرضت عن عدم قدرةٍ على البقاء ، فلِمَ عاد كلُّ واحدٍ من هذه التجارِب الناقصة لا يَقِفُ نَظَرَنا ؟ ولِمَ فَرَضَت

الطبيعةُ فى نهاية الأمر سُنَنًا لم تَخْضَعْ لها فى البُداءة؟ ولا ينْبَغى أن أُدْهَشَ، مطلقاً، من أمرٍ يَقَعُ إذا كان ممكناً، ومن التعويض بمقدار التجارِب من صعوبة الحادث، وأوافق على هـذا، ومع ذلك فإنه إذا ما قيلَ لى إن حروفَ المطبعـةِ المطروحةَ اتفاقاً أسفرت عن الإِنيِيد كاملةَ الترتيب فإننى لا أتنازل أن أقوم بخُطوةٍ لتحقيق الكِذْبة، وسيقال لى: إنك تنسى كثيراً من التجارِب، ولكن ما مقدار التجارِب التى يجب أن أَفْتَرِض لجعل التركيب أمراً محتملًا؟ وأما أنا الذى لا يَرَى غيرَ تجرِبةٍ واحدة فلدىَّ ما أُرَاهِنُ بمالا حَدَّ له تجاه واحدٍ على أن حاصلها ليس نتيجةَ المصادفة مطلقاً، وإلى هذا أضيفوا أن التركيبات والاتفاقات لا تؤدِّى إلى غير مُنْتجاتٍ من طبيعة العناصر المركَّبة، وأن التَّعْضِيَة والحياة لا تَصْدُران عن تجرِبةِ ذراتٍ، وأن الـكيماوىَّ إذ يُعِدُّ المُركَّباتِ يَفْعَلُ ما لا يُشْعَرُ بها معه، ولا يُفـكِّر فيها معه، داخلَ مِذْوَبة(١).

وقد قرأتُ نيو ِفنْتِي حائراً مُمَيَّراً تقريباً، وكيف استطاع هذا الرجلُ أن يَعزِم على وَضْع كتابٍ عن عجائب الطبيعة الدالَّة على حكمة صانعها؟ ويكون كتابُه ضَخْماً ضخامةَ العالَمَ قبل أن يَسْتَنْفد موضوعَه، وعند ما أردنا الدخول فى التفصيلات فاتَتْنا أعظمُ العجائب، أي انسجامُ الـكلِّ

(١) وهل يعتقد، عند عدم البرهان، كون هذيان الإنسان يبلغ هذه النقطة؟ وقد زعم أماتوس لوزيتانوس أنه رأى قزماً طوله بوصة محبوساً فى زجاجة مصنوعاً من قبل يوليوس كاميلوس صنعاً كيماوياً، مثل بروميثوس، ويعلم باراسلس طريقة صنع هؤلاء الأقزام ويدعى أن الزعانف والتنابيل والغيلان والحوريات من أعمال الكيمياء، والواقع أننى لا أرى بقاء شىء كثير بعد الآن لإثبات إمكان هذه الأمور، ما لم يقع ادعاء بأن المادة العضوية تقاوم حر النار وبأن من الممكن أن تبقى ذراتها حية فى فرن حام.

وتوافقه ، ويُعَدُّ تناسلُ الأجسامِ الحيةِ العضويةِ وحدَه هُوَّةَ الذهن البشريِّ ويَدُلُّ السَّدُّ المَنيعُ الذى وضعته الطبيعة بين مختلف الأنواع ، لكيلا تختلطَ ، على نِيَّاتها بأوضح برهان ، ولم تَكْتفِ الطبيعة بإقامة النظام ، بل اتخذت من التدابير الثابتة ما لا يستطيع شىء أن يُكَدِّره .

ولا يُوجَدُ فى الكون موجودٌ لا يُمكِنُ أن يُعَدَّ ، من بعض الوجوه ، مركزاً مشتركاً بين جميع الموجودات الأخرى ، فتَنْتَظِمُ كلُّها حَوْلَه ، وتكون كلُّها غاياتٍ ووسائلَ مُبَادَلةً ، ويَضْطَرِب الذهنُ ويَتِيهُ فى هذه العلاقات التى لا تُحْصَى والتى لا تَضْطَرب واحدةٌ منها ، ولا تَتِيهُ ، فى الجَمْع ، وباللافتراضات المُحَالة لاستنتاج جميع هذا الانسجام من الجهاز الأعمى للمادة المتحركة عَرَضاً ! ومن العبث أن يَسْتُرَ أولئك المُنكِرون لوَحْدة المَقْصِد ، التى تَتجَلَّى فى علاقات جميع أجزاء هذا المجموع الكبير ، بَلْبَلَتَهم فى التجريدات والتنسيقات والمبادئ العامة والتعابير الرمزية ، ومهما يكن ما يصنعون فإنه يتعذَّر علىَّ أن أتصور نظاماً للموجودات بالغاً ذلك المقدار من الترتيب الثابت من غير أن أتصور عقلًا ناظماً له ، ولا أَقْدِر أن أعتقد أن المادة المنفعلة الميتة استطاعت أن تُنْتِج موجوداتٍ حيةً شاعرة ، وأن قَدَراً أعمى استطاع أن يُنْتِجَ موجوداتٍ عاقلةً ، وأن الذى لا يُفكِّرُ مطلقاً استطاع أن يُنْتِجَ موجوداتٍ تُفكِّر .

ولِذَا فإننى أعتقد أن العالَمَ تسيطر عليه إرادةٌ قادرة حكيمة ، وأُبْصِرُ هذا ، وإن شئت فقُلْ إننى أُحِسُّ هذا ، ويهمُّنى أن أعْرِف هذا ، ولكنْ هل هذا العالَمُ أزَلِيٌّ أو مخلوقٌ ؟ وهل يُوجَدُ للأشياء أصلٌ واحد ؟ وهل

يُوجَدُ لها أصلان أو أكثر ؟ وما طبيعتُها ؟ لا أعْرِف ذلك ، وما اهتمامى بذلك ؟ كلما صارت هذه المعارفُ مُمْتِعةً لدىَّ لم أُقَصِّرْ فى اكتسابها ، وأعْدِلُ ، حتى أنالَ ذلك ، عن الأسئلة اللاغية التى يُمْكِن أن تُقِضَّ مضاجعى ، والتى لا فائدة منها فى سَيْرِى ، والتى هى أعلى من عقلى .

واذْكرُوا ، دائماً ، أننى لا أعَلِّمُ حِسِّى مطلقاً ، بل أعْرِضُه ، وسواء أكانت المادةُ أزليةً أم مخلوقة ، وسواء أكان أصلُها منفعلًا أم لا ، يُعَدُّ من الثابت دائماً كَوْنُ الكُلِّ واحداً ، وأنه يُنبئُ بعقلٍ فريد ، وذلك لأننى لا أرى شيئاً ليس منتظماً فى ذات النظام ، ولا يساعد على ذات الغاية ، أى بقاء الكُلِّ فى النظام القائم ، واللهَ أُسَمِّى هذا الموجودَ المُرِيدَ القادر ، هذا الموجودَ الفعَّالَ بنفسه ، هذا الموجودَ ، مهما كان ، الذى يُسَيِّرُ الكَوْنَ ويُدَبِّرُ جميعَ الأمور ، وأَضُمُّ إلى هذا الاسم مبادئْ العقل والقدرة والإرادة مضافةً إلى مبدإ اللطْف الذى هو نتيجةٌ لازمةٌ لها ، ولكننى لستُ أحسنَ معرفةً من ذلك للموجود الذى أُسْنِدُها إليه ، فهو خافٍ عن حواسِّى وإدراكى ، وكلما فَكَّرْتُ فيه زدتُ ارتباكاً ، وأعْرِف كلَّ المعرفة أنه موجودٌ ، وأنه موجودٌ بذاته ، وأعْرِف أن وجودى تابعٌ لوجوده ، وأن هذه هى ، أيضاً ، حالُ جميعِ الأشياء المعروفةِ عندى على الإطلاق ، وأرى اللهَ فى أفعاله فى كلِّ مكانٍ ، وأشْعُرُ به فى نفسى ، وأبْصِرُه حَوْلِى ، ولكننى عندما أُريد أن أنْظُرَ إليه بذاته ، وعندما أريد أن أَجِدَ مكانه ، وأعْرِفَ من هو وما كُنْهُه ، يُفْلِتُ منى ، وتَعُودُ نفسى المضطربةُ لا ترَى شيئاً .

وأرانى قانعاً بعجزى فلا أُبَرْهِنُ حَوْل كُنْهِ الله ، ما لم أُحْمَلْ على

ذلك بشعورٍ يساورنى عن علائقه بى ، وجميعُ هذه البراهين مجازفةٌ دائماً ، وما كان للعاقل أن يُكِبَّ عليها إلاَّ مرتجفاً عالماً أنه لم يُخْلَق ليتعمَّق فيها ، وذلك لأن أكثرَ ما ينطوى على جَنَفٍ فى الإله أن يُساءَ التفكيرُ فيه ، لا ألاَّ يُفَكَّرَ فيه مطلقاً .

وإنى أعود إلى نفسى بعد اكتشافى من صفاته ما أتصوَّرُ معه وجودَه فأبحث عن المرتبة التى أشْغَلُها فى نظام الأمور الذى يسيطر عليه فأستطيع أن أفحصه ، ولا جَرَم أننى أجِدُ نفسى فى المرتبة الأولى بنَوْعى ، وذلك لأننى ، بإرادتى وبوسائل تنفيذها التى فى متناوَلى ، حائزٌ قوةً أعمَلُ بها فى جميع الأجسام التى تحيط بى ، انتفاعاً بفعلها أو دَفْعاً لأثَرِها كما يَرُوقنى ، أعظمَ مما عند أيِّها من حيث تأثيرُها فىَّ عن باعثٍ فزيوىٍّ فقط على الرغم منى ، وذلك لأننى بذكائى أكُون الوحيدَ الذى يَمْلِك رَقَابةً على الكلِّ ، وأىُّ موجودٍ غيرِ الإنسان يستطيع فى هذه الدنيا أن يَرْقُب غيره وأن يَقيسَ حركاته مع نتائجها وأن يَحْسُبَها وأن يُدْرِكها قبل وقوعها ، ومن ثَمَّ أن يُضيفَ إحساسَ الوجودِ العامِّ إلى إحساس وجوده الفردىِّ ؟ وأىُّ شىء أدعى إلى السُّخْرية من التفكير فى أن كلَّ شىء قد صُنِعَ من أجْلِى إذا كنتُ الوحيدَ الذى يَعْرِفُ أن يَرُدَّ كلَّ شىء إليه ؟

ومن الصحيح ، إذَنْ ، أن يكون الإنسانُ مَلِكَ الأرض التى يَسْكُنُها ، وذلك لأنه لا يُرَوِّض جميعَ الحيوانات فقط ، ولأنه لا يتصرف فى العناصر ببراعته فقط ، بل لأنه الوحيدُ الذى يَعْرِف فى الأرض أن يتصرف فيها ، والذى يختصُّ متأمِّلًا ، حتى بالكواكب التى لا يستطيع أن يَدْنُوَ منها ،

ولأُطْلَعْ على حيوانٍ فى الأرض قادرٍ على استعمال النار عارفٍ أن يُعْجَب بالشمس ، ماذا ! أستطيع أن ألاحظ الموجوداتِ مع علائقها وأن أعْرِفها ، وأستطيع أن أشْعُرَ بالنظام والجمال والفضيلة ، وأستطيع أن أُنعِمَ النظرَ فى العالَمَ وأن أرْتَقِيَ إلى اليد التى تُدِيرُه ، وأستطيع أن أُحِبَّ الخيرَ وأصنعَه ، ثم أُشَبِّه نفسى بالبهائم ! ويا أيتها النفس الحقيرة ، إن فلسفتَكِ الكئيبةَ هى التى تجعلكِ مشابهةً للبهائم ، أو إن من الأجدر أن يقال إنكِ تُرِيدين أن تَهُونى عَبَثًا ، فذكاؤكِ يُكَذِّب مبادئَكِ وقلبُكِ المِنْعَامُ يُكَذِّب مذهبَكِ ، حتى إن سوء استعمال أهلياتكِ يُثْبِتُ فَضْلَكِ على الرغم منكِ .

وأما أنا الذى ليس لديه مذهبٌ يؤيده ، وأما أنا ، أى الرجلُ البسيط الذى لا ينساق مع أىِّ روحٍ حزبىٍّ ، والذى لا يَبْغِى أن يَتَشَرَّف برئاسةِ مذهبٍ ، والذى هو راضٍ عن المكان الذى وَضَعه فيه الله ، فإنى لا أرى شيئًا بعد الله أفضل من نوعى ، ولو كان لى حَقٌّ اختيار مكانى فى نظام الموجودات فما أختارُ أكثرَ من أن أكون إنسانًا ؟

وهذا التأملُ أقلُّ نَفْخًا لى من مَسِّه لى ، وذلك لأن هذه الحال ليست من خِيَارِى مطلقًا ، وهى لم تكن مَدِينَةً لمزيةِ موجودٍ لم يُوجَدْ بَعْدُ ، وهل أستطيع أن أرى نفسى ممتازةً على هذا الوجه من غير أن أُهنِئَ نفسى بشَغْل هذا المقامِ الكريم ، ومن غير أن أحْمَدَ اليَدَ التى وضعتنى فيه ؟ ويَنْشأ عن رُجْعَى بَصَرى إلىَّ شعورُ شكرانٍ فى فؤادى وإحساسِ حَمْدٍ فى قلبى لصانع نوعى ، ويستوجب هذا الإحساسُ والشعورُ تقديمَ وَلائى الأولِ إلى الرَّبِّ المنَّان ، وأعْبُدُ القديرَ العلىَّ ، وأَلِينُ ثناءً على إحسانه ، ولا أحتاج إلى مَنْ

يُعَلِّمُنى هذه العبادة ، فقد أمْلَتْها الطبيعةُ نفسُها علىَّ ، أوَ ليس من النتائج الطبيعية حبُّ الذات أن يُبَجِّلَ ذاكَ الذى يُجِيرُنا ، وأن يُحِبَّ ذاكَ الذى يريد الخيرَ لنا ؟

ولكننى إذا ما أردتُ ، فيما بَعْدُ ، أن أعْرِف مكانىَ الفردىَّ فى نوعى فنَظَرْتُ إلى مختلف المراتب وإلى الرجال الذين يَشْغَلونها فما أكُونُ ؟ يا له من منظر ! أين النظامُ الذى كنت قد شاهدته ؟ لا تَعْرِضُ صورةُ الطبيعة علىَّ غيرَ الانسجام والتَّنَسُب ، ولا تَعْرِضُ صورة الجنس البشرىِّ علىَّ غيرَ الاضطراب والارتباك ! ويَسُودُ الاتفاق بين العناصر ، ويكون الناسُ فى بلبلةٍ والتباس ! والبهائمُ سعيدةٌ ، ومَلِكُها وحدَه هو الشقىُّ ! أيتها الحكمة ، أين القوانين ؟ أيتها العناية الرَّبَّانية ، أهكذا تسيطرين على العالَمَ ؟ أيها الربُّ الكريم ، أين قدرتُك ؟ أرى الشَّرَّ على الأرض .

أوَ تعتقد ، يا صديقى العزيز ، أن هذه التأملاتِ الكئيبةَ وهذه المتناقضاتِ الظاهرةَ تؤلِّف فى نفسى أسمى المبادئ عن النفس ، هذه المبادئ التى لم تُسْفِر عنها مباحثى قطُّ حتى الآن ؟ بَيْنَا أُنْعِمُ النظرَ فى طبيعة الإنسان أرانى مكتشفاً لمبدأين مختلفين يُرْتَقى بأحدهما إلى البحث عن الحقائق الأزلية ، وإلى حُبِّ العدل والخُلقِ القويم ، وإلى مناطق عالَمَ الفكر التى يؤدى تأمُّلُها إلى سعادة الحكيم ، ويَرُدُّه الآخر إلى نفسه نُزُولاً ، ويُخْضِعُه لسلطان الحواسِّ وللأهواء التى هى وسائلُ لها ، ويعارِض بهما كلَّ ما يوحى إليه بالمَيْل الأول ، وإنى إذْ أشْعُر بأنى مجذوبٌ مُحارَبٌ بهاتين الحركتين المتناقضتين ، أقول فى نفسى : كلاَّ ، إن الإنسان ليس واحداً مطلقاً :

فأُريدُ ولا أُريدُ ، وأشْعُرُ بأنى عبدٌ وحُرٌّ معًا ، وأرى الخيرَ وأُحبه وأصنع الشَّرَّ ، وأكون فاعلاً عند ما أُصغِى إلى العقل ، وأكون منفعلاً عند ما تَسُوقنى أهوائى ، ويَكُون شعورى بأننى كنت أستطيع المقاومةَ أسوأَ غَمٍّ يلازمنى حينما أُغلَب .

واسْتَمِعْ إلىَّ ، أيها الفَتَى مطمئنًّا ، فسأتذرَّع بحسن النية دائمًا ، وإذا كان الضميرُ من عَمَلِ المُبْتَسَرات كنتُ على خطأٍ لا رَيْبَ ، ولم تُوجَدْ أخلاقٌ قائمةٌ على البرهان مطلقاً ، ولكنْ إذا كان فَوَاقُ الجميعِ مَيْلاً طبيعياً لدى الإنسان ، وإذا كان حِسُّ العدل ، مع ذلك ، غريزياً فى فؤاد الإنسان ، فَدَعِ الذين يجعلون من الإنسان موجوداً بسيطاً يُزِيلُون هذه المتناقضاتِ ، وهنالك أَعُودُ غيرَ عارفٍ بغير عنصرٍ واحد .

وستلاحظون أننى بكلمةِ « عنصرٍ » أقْصِدُ ، على العموم ، موجوداً متصفاً ببعض الصفات الابتدائية مُجَرَّدةً من كلِّ تبديلٍ خاصٍّ أو تحويلٍ ثانوىّ ، وإذا كانت جميعُ الصفات الابتدائية المعروفةِ لدينا تستطيع أن تَتجمّع فى عين الوجود ، إذَنْ ، وَجَبَ عدمُ القول بغير عنصرٍ واحد ، ولكنْ إذا وُجِدَ من الصفات ما يتنافى مباذَلةً وُجِدَ من العناصر المختلفة بذاك المقدار ما يُمكِن أن ينشأ عن مِثْل ذاك التنافى ، وستُنْعِمُون النظر فى ذلك ، وأما أنا ، فمهما قال لُوكُ ، لا أحتاج فى معرفتى المادةَ إلى غير كَوْنها اتساعًا وقابليةً للانقسام حتى أطمئنَّ إلى عدم قدرتها على التفكير ، فإذا ما جاء فيلسوفٌ ليقول لى إن الأشجار تَشْعُر وإن الصَّخر تُفكِّر[١]

(١) يلوح لى أن الفلسفة الحديثة تبتعد عن القول بأن الصخر تفكر، وأنها ، على العكس، قد =

كان من العبث رَبْكُه إياى ببراهينه الدقيقة ، وذلك أنى لا يُمْكِننى أن أرى فيه غيرَ سَفْسَطِيٍّ سيئِ النية يُفَضِّلُ أن يَمْنَح الحجارةَ شعوراً على مَنْح الإنسان روحاً .

ولنفترض أن أحد الصُّمِّ يُنكِرُ وجودَ الأصوات لأنها لم تَقْرَع أُذُنَه قَطُّ ، وأضَعُ تحت عينيه آلةً ذاتَ وَتَرٍ ، وأجْعَلُها تَرِنُّ مع الإيقاع بفعل آلةٍ أخرى خافيةٍ عنه ، ويَرَى الأصمُّ اهتزازَ الوتر ، وأقول له : « إن الصوت هو الذى يَفْعَلُ هذا » ، ويقول مجيباً : « كلاَّ ، إن الوتر نفسَه هو علةُ اهتزازه ، وإن الاهتزاز على هذا الوجه صفةٌ مشتركة بين جميع الأجسام » ، وأرُدُّ عليه بقولى : « أرِنى هذا الاهتزازَ فى الأجسام الأخرى ، أو علتَه فى هذا الوتر على الأقل » ، ويقول الأصمُّ مُعَقِّباً : « لا أَقْدِرُ على هذا ،

= اكتشفت عدم تفكير الناس مطلقاً ، وعادت هذه الفلسفة لا تعترف بغير موجودات حساسة فى الطبيعة ، ويقوم كل فرق تجده بين الإنسان والحجر على كون الإنسان موجوداً حساساً ذا أحاسيس وكون الحجر موجوداً حساساً خالياً من الأحاسيس ، ولكن إذا صح أن كل مادة تحس فأين أدرك الوحدة الحسية أو الذات الفردية ؟ أهى فى كل ذرة من المادة أم فى الأجسام المؤلفة من ذرات ، وهل أضع هذه الوحدة فى السوائل والجوامد ، وفى المركبات والعناصر ؟ ولا يوجد غير أفراد فى الطبيعة كما يقال ! ولكن من هم هؤلاء الأفراد ؟ وهل هذا الحجر فرد أو مجموعة أفراد ؟ وهل هو موجود حساس واحد أو إنه يشتمل على موجودات حساسة بمقدار حب الرمل ؟ وإذا كانت كل ذرة أولية موجوداً حساساً فكيف أتصور هذا الاتصال الوثيق الذى تشعر به كل ذرة ضمن الأخرى ، وذلك بحيث تختلط الذرتان فى واحدة ؟ أجل ، قد تكون الجاذبية ناموساً للطبيعة نجهل سره ، ولكننا ندرك ، على الأقل ، أن الجاذبية ، إذ تؤثر وفق الكتل ، لا تنطوى على ما يناقض الاتساع وقابلية الانقسام ، وهل تتصورون الإحساس على هذا الوجه ؟ إن الأجزاء الحساسة اتساعات ، ولكن الموجود الحساس واحد غير قابل للانقسام ، وهو لا يتجزأ ، وهو كل أو هو عدم ، ولذا فإن الموجود الحساس ليس جسماً ، ولا أعرف كيف يدركه ماديونا ، ولكنه يلوح لى أن ذات المصاعب التى حملتهم على نبذ الفكر يجب أن تحملهم على طرح الإحساس أيضاً ، ولا أرى بعد قيامهم بالخطوة الأولى سبباً لعدم قيامهم بالخطوة الثانية أيضاً ، وما يكلفهم هذا ؟ وكيف يجرؤون على توكيد إحساسهم ماداموا يرون أنهم لا يفكرون .

ولكنْ بما أننى لا أتصور كيف يهتزُّ هذا الوتر فلِمَ أوضِحُه بأصواتكم التى لا يوجد لدىَّ أية فكرةٍ عنها ؟ إن هـذا إيضاحٌ لأمرٍ غامضٍ بعلةٍ أشدَّ غموضاً ، وعليكم أن تجعلوا لى أصواتكم محسوسةً ، أو إننى أقول إنها غيرُ موجودة » .

وكلما أنعمتُ النظر فى الفكر وفى طبيعة روح الإنسان وجدتُ أن برهان الماديين يشابه برهانَ ذلك الأصمّ ، والحقُّ أنهم صُمٌّ تجاه الصوت الباطنىِّ الذى يناديهم بنغمةٍ يَصْعُب إنكارُها ، ولا تُفَكِّرُ الآلة مطلقاً ، ولا توجد حركةٌ ولا صورةٌ تُحْدِث تأمُّلاً ، وفى نفسك شىءٌ يحاول أن يَكْسِرَ الروابط التى تَضْغَطُها ، وليس الفضاء مقياسَكَ ، وليس العالَم من الاتساع ما يناسبك ، فلمشاعرك ورغائبك وهَلَعِك ، وكبريائك أيضاً ، مبدأٌ آخرُ غيرُ هذا الجسمِ الضَّيِّق الذى تَشْعُرُ بأنك مقيدٌ فيه .

ولا تَرَى موجوداً مادياًّ فاعلاً بنفسه ، وأما أنا ففاعلٌ ، ومن العبث أن تجادلونى فى هذا ، فأنا أُحِسُّه ، وهذا الإحساس الذى يخاطبنى أقوى من العقل الذى يجادِل فيــه ، ولدىّ جسمٌ تؤثِّر فيه الأجسام الأخرى ، وهو يؤثِّر فيها ، ولا رَيْبَ فى هذا العمل المتبادَل ، غير أن إرادتى مستقلةٌ عن حواسِّى ، وأوافق أو أقاوم ، وأُغْلَبُ أو أَغْلِبُ ، وأَشْعُرُ بنفسى تماماً عندما أفعل ما أُرِيدُ أن أفعل ، أو عند ما لا أُذعن لغير أهوائى ، ولدىَّ قدرةٌ على الإرادة دائماً ، لا قدرةٌ على التنفيذ ، ومتى أَسْلمتُ نفسى إلى المُغْرِيات سِرْتُ وَفْقَ دافع الأمور الخارجية ، ومتى لُمْتُ نفسى على هذا الضعف لم أستمع لغير إرادتى ، فأنا عبدٌ بمعايبى وحُرٌّ بمَنَادِمى ، ولا يزول إحساسُ

حريتى فىّ إلاّ بفسادى وعند منعى صوتَ روحى من الارتفاع ضدّ سلطان البدن .

ولا أعرِفُ الإرادةَ إلاّ بإحساس إرادتى ولست أحْسَنَ معرفةً بالإدراك من ذاك ، وعند ما أُسْأل عن العلة التى تُجْبِرُ إرادتى أَسْأل بدَوْرِى عن العلة التى تُجْبِرُ حُكْمِى ، وذلك لأن من الواضح كَوْنَ هاتين العلتين لَيْستَا سوى علةٍ واحدة ، وإذا ما فُهِمَ جَيِّداً أن الإنسان فاعلٌ فى أحكامه وأن إدراكه ليس سوى القدرة على المقارنة والحُكْم ، رُئِىَ أن زَهْوَه ليس غيرَ قدرةٍ مماثلةٍ أو مشتقةٍ من تلك ، وهو يختار بين الخير والشَّرِّ وَفْقَ حكمه فى الصدق والكَذِب ، وما العلةُ التى تُجْبِرُ إرادته إذَنْ ؟ هى حُكْمُه ، وما العلة التى تُجْبِرُ حُكْمَه ؟ هى صفتُه العاقلة ، هى قدرته على الحكم ، وتَقَعُ العلةُ التى تُجْبِرُ فيه ، فإذا عَدَوْتُ هذا عُدْتُ لا أدرك شيئاً .

ولا رَيْبَ فى أننى لست مختاراً فى عدم إرادتى خَيْرِىَ الخاصّ ، وفى أننى لست مختاراً فى إرادة شَرِّى ، بيد أن اختيارى يقوم على الأمر القائل إننى لا أستطيع إرادةَ غيرِ ما يلائمنى ، أو الذى أُقَدِّرُ أنه يلائمنى ، وذلك من غير أن يُوجَد شىءٌ غريبٌ عنى يُجْبِرُنى ، وهل يُسْتَنْتَجُ من ذلك كَوْنى لستُ سيدَ نفسى لأننى لستُ سيداً فى كَوْنى غيرَ ما أنا عليه ؟

ومبدأُ كلِّ فِعْلٍ هو فى إرادة موجودٍ مختار ، ولا يُمْكِن الذهابُ إلى ما هو أبعدُ من هذا ، وليست كلمةُ الاختيار هى التى لا تَعنى شيئاً ، بل كلمةُ الضرورة ، ويَعْنِى افتراضُ فعلٍ ما ، أى افتراضُ معلولٍ ما لا يُشْتَقُّ من أصلٍ فاعلٍ ، وقوعاً ضِمْن دَوْرٍ مُتَسَلْسِل ، والأمرُ هو إما ألاّ يُوجَدَ

دافعٌ أوّلُ مطلقاً ، وإما ألاَّ يكون لكلٍّ دافعٍ أوّلَ أيةُ علة سابقة ، فلا إرادةَ حقيقيةً بلا اختيار ، ولذا فإن الإنسان مختارٌ فى أفعاله ، والإنسانُ هكذا يكون حيًّا بعنصرٍ غيرِ مادىٍّ ، وهذه هى مادةُ إيمانى الثالثةُ ، ويَسْهُل عليكم أن تستنبطوا من هذه الثلاث الأولى جميعَ الأخرى من غير أن أستمرَّ على عدِّها .

وإذا كان الإنسان فاعلًا مختاراً فإنه يَعْمَل من تلقاء نفسه ولا يَدْخُل جميعُ ما يصنع ضِمْنَ النظام الذى رتَّبته العنايةُ الإلهية ، ولا يُمْكن أن يُنسَب إليها ، فهى لا تريد الشرَّ الذى يَفْعَلُه الإنسان بإساءته استعمالَ الاختيار الذى تُعطِيه إياه ، ولكنها لا تَمنَعُه من فِعْلِه ، وذلك إما لأن صدورَ هذا الشَّرِّ عن موجودٍ بالغِ الضعف أمرٌ لا يؤبه له فى نظرها ، وإما لأنها لا تستطيع أن تمنعه من غير أن تَعُوق اختيارَه فتأتىَ شرًّا أعظمَ من ذلك بحطٍّ طبيعته ، وهى قد جعلته حرًّا لكيلا يَصْنَع الشَّرَّ ، بل ليَصْنَع الخيرَ عن خيارٍ ، وهى قد وَضَعَتْه فى حالٍ يَفْعَلُ فيها هذا الخيارَ باستعماله كثيراً من الخصائص التى أنعمت بها عليه ، ولكنها بَلَغَتْ من تحديد قُوَاه ما لا يُكَدِّر النظامَ العامَّ معه سوءُ استعمال الحرية التى تَدَعها له ، وما يأتيه الإنسان من شرٍّ فيَقَع عليه من غير أن يُغَيِّرَ شيئاً من نظام العالَم ، ومن غير أن يَحُولَ دون بقاء النوع البشرىِّ على الرغم منه ، وينطوى كلُّ تَذَمُّرٍ من أن الله لا يَحُول دون فِعْل الشَّرِّ على تَذَمُّرٍ من أنه خَلَق ذلك النوعَ من طبيعة رائعة ، ومن أنه وَسَمَ أفعالَه بأدبٍ يُشَرِّفها ، ومن أنه جَعَلَ له حقًّا فى الفضيلة ، ويتجلَّى أرفعُ إمتاعٍ فى رِضا

النفس ، ونحن ، لكي نستحق هذا الرِّضا ، جُعِلْنا على الأرض وُحمِّلْنا بالاختيار ، وأُغْوِينا بالأهواء ورُدِعنا بالضمير ، وماذا كانت القدرة الصَّمَدانية تَصْنَع أكثرَ من ذلك نفعاً لنا ؟ أما كانت تَجْعَلُ تناقضاً فى طبيعتنا فتَمْنَح من هو عاجزٌ عن صُنْع الشَّرِّ جائزةً على صُنْع الخير ؟ ماذا ! هل كان من الواجب قَصْرُ الإنسان على الغريزة وجَعْلُه من البهائم مَنْعاً له من أن يكون شَرِيراً ؟ كَلَّا ، رَبِّ نفسى ، لن أَلُومَك ، مطلقاً ، على أنك خلقته على مثالك ليُمْكِنَنى أن أكون حُرًّا صالحاً سعيداً مِثْلَك .

وسوء استعمال مواهبنا هو الذى يَجْعَلنا تعساء أشراراً ، وتَصْدُر عنا كُرُوبنا وهمومُنا وآلامنا ، ولا جدالَ فى أن الشَّرَّ الْخُلُقِىَّ من عملنا ، وفى أن مرضنا البدنىَّ لا يكون شيئاً لولا عيوبُنا التى تجعلنا عُرْضةً له ، ألم تَجْعَلْنا الطبيعةُ شاعرين باحتياجاتنا حِرْصاً على بقائنا ؟ أليس أَلَمُ الجسم دليلاً على اختلال الآلة وتنبيهاً إلى تلافيه ؟ والموتُ . . . ألَا يُسَمِّمُ الأشرارُ حياتَهم وحياتَنا ؟ ومن ذا الذى يريد أن يعيش مُخَلَّدًا ؟ إن الموت علاجٌ للشرور التى توجبونها على أنفسكم ، فالطبيعةُ لم تُرِدْ أن تألموا دائماً ، وما أقَلَّ الآلامَ التى يكون الإنسانُ الحىُّ عُرْضةً لها فى البساطة الابتدائية ! وهو يعيش بلا أمراضٍ تقريباً كما يعيش بلا أهواء ، وهو لا يُبْصِرُ الموتَ ولا يَشْعُر به ، وهو إذا ما أَحَسَّه رَغَّبَتْه فيه أَبْؤُسُه ، ولِذَا عاد لا يكون شرًّا عنده ، وإذا ما كنا راضين بالحال التى نحن عليها لم نَرْثِ طالعَنا مطلقاً ، ولكننا نَجْلِبُ لأنفسنا ألفَ شَرٍّ حقيقىٍّ فى سبيل البحث عن سعادةٍ خيالية ، ومن لم يَعْرِف احتمالَ قليلِ ألمٍ وجب

أن يَتَوَقَّعَ كثيرَ وَجَعٍ ، ومن يُفسِدْ بِنْيَتَه بحياةٍ داعرةٍ يُرِدْ إصلاحَها بعلاجات ، فيُضَافُ إلى المرض الذى يُحَسُّ مَرَضٌ يُخْشَى ، وما يَقَعُ من حَذَرِ الموتِ يَجْعَلُه كريهًا ويُعَجِّلُه ، وكلما أُريد الفِرارُ منه شُعِرَ به ، ويُصَابُ الإنسانُ بالموت عن خَوْفه إياه مدى حياته ، وذلك بما يَتَبَرَّم به ضِدَّ الطبيعة عن شرورٍ صنعَها لنفسه بإساءته إلى الطبيعة .

فيا أيها الإنسان ، لا تبحث عن فاعل الشَّرِّ أكثرَ مما بحثتَ ، فأنت ذاك الفاعلُ ، ولا يُوجدُ شَرٌّ آخرُ غير الذى تَصْنَع أو الذى منه تَتَوَجَّع ، ومن نفسك يأتيك هذا وذاك ، ولا يُمْكِنُ الشَّرَّ العامَّ أن يَكُون فى غير عدم النظام ، وأرى فى نظام العالَمَ انتظامًا لا يناقِض نفسَه مطلقًا ، ولا يكون الشَّرُّ الخاصُّ فى غير شعور الموجود الذى يَأْلَمَ ، ولم يَتَلَقَّ الإنسانُ هذا الشعورَ من الطبيعة ، بل الإنسانُ هو الذى صنعه لنفسه ، وليس للألم غيرُ سلطانٍ قليلٍ على قليلِ التأمُّلِ فلا تكونُ لديه ذكرى ولا حَذَرٌ ، وانْزِعوا تقدمَنا المشؤوم ، وأزيلُوا خطأَنا وعيوبَنا ، وامْحُوا عملَ الإنسان ، يَغْدُ كلُّ أمرٍ خيراً .

ولا جَوْرَ حيث كلُّ أمرٍ خيرٌ ، ولا انفصالَ للعدل عن الجُود ، والواقعُ أن الجُود نتيجةٌ ضروريةٌ لقدرةٍ لا حَدَّ لها ولحُبٍّ النفس الجوهرىِّ لكلِّ موجودٍ ذى إحساس ، ومن هو قادرٌ على كلِّ شىء يَبْسُط وجودَه ، لهذا السبب ، على وجود المخلوقات ، والإنتاجُ والبقاء من عَمَل القدرة الدائم ، ولا يَدُور الأمرُ حَوْلَ ما هو غيرُ موجودٍ مطلقًا ، وليس الإلهُ إلهَ الأموات ، ولا يُمْكِن أن يكون هادماً شريراً من غير أن يسىء نفسه ،

ومَنْ يقْدِر على كلِّ شيء لا يُمْكِن أن يريد غيرَ الخير[1]، ولِذَا فإن من الواجب أن يكون الكائنُ الذى هو كاملُ الجُود ، لأنه كاملُ القدرة ، كاملَ العدل أيضًا ، وإلاَّ فإنه يناقض نفسَه ، وذلك لأن حُبَّ النظام الذى يوجبه يُدْعَى جُودًا ، ولأن حُبَّ النظام الذى يحافظ عليه يُدْعى عدلاً .

ويقال لا ينبغى للرَّبِّ أن يكون مدينًا لمخلوقاته بشىء ، وأظُنُّ أنه مدينٌ لهم بكلِّ ما وَعَدَهم به حينما أنعم عليهم بالوجود ، والواقعُ أنه وعدهم بالخير إذ مَنَحَهم فكرةً عنه وأشْعَرَهم بالاحتياج إليه ، وكلما خَلَوْتُ إلى نفسى فَكَّرْتُ وقَدَّرتُ وقرأتُ هذه الكلماتِ المكتوبةَ فى روحى وهى : « كُنْ عادلاً تَكُن سعيداً » ، ومع ذلك فإن الأمر يَبْدُو غيرَ ذلك عند النظر إلى حال الأشياء فى الوقت الحاضر ، فالشِّرير يَزْدهر والصالحُ يَظَلُّ مظلوماً ، وكذلك انْظُرُوا أىُّ غَيْظٍ يشتعل فينا عند خَيْبَة هذا الانتظار ! ويَثُور الضمير ويتذمر من بارئه ، ويدعوه مرتجفًا قائلاً : « لقد خدعتنى ! » .

« خَدَعتُكَ أيها المتهوِّر ! من قال لك هذا ؟ هل مُحِيَ رُوحُك ؟ هل انقطع وجودُك ؟ أىْ برُوتُوس ! أىْ بُنَىَّ ! لا تُدَنِّسْ حياتَك الكريمة بإنهائها مطلقاً ، ولا تَدَعْ أملك ومجدَك مع بَدَنك لحقول فِلِيبِّى ، ولِمَ تقول : « ليست الفضيلةُ شيئاً » عند ما كِدْتَ تتمتع بجائزة فضيلتك ؟ تَرَى أنك تَمُوت ! كلاَّ ، إنك تحيا ، وهنالك أكون قد قُمْتُ بما وَعَدْتك به » .

---

(١) كان القدماء على صواب كبير عندما كانوا يسمون الرب الأعلى «العلى الأعلى» ، ولكنهم يكونون على صواب أدق من ذلك لو قالوا « الأعلى العلى » ، ما دام جوده يأتى من قدرته ، وهو جواد لأنه عظيم .[أ]

ويقال عند النظر إلى تَذَمُّر فاقدى الصبر من الناس إن الرَّبَّ مَدِينٌ لهم بالجائزة قبل استحقاقها وإنه ملزمٌ بدَفع بَدَل الفضيلة سَلَفاً ، وَىْ ! لِنَكُنْ صالحين أوَّلاً ، ثم نكون سعداء ، ولا نطالبْ بالجائزة قبل الفوز ، ولا بالأجرة قبل العمل ، قال پلُوتارْكُ : « لا يتمُّ فى المَلْعَب تتويجُ الفائزين فى ألعابنا المقدسة ، بل يتمُّ بعد أن يقوموا بمباراتهم » .

وإذا كانت الروحُ غيرَ مادية أمْكَن أن تَبقَى حيةً بعد البَدَن ، وهى إذا ما بَقِيَتْ حَيَّةً بعده سُوِّغَت العنايةُ الرَّبانية ، ولو لم يَكُنْ لدىَّ دليلٌ آخرُ على لامادِّيَّةِ الروحِ غيرُ فَوْزِ الشِّرير واضطهادِ الصالح فى هذا العالَمَ لكفى هذا وحدَه لِمَنْعِى من الشَّكِّ فى ذلك ، وتنافرٌ كثيرُ الأذى كهذا فى انسجام العالمَ يَدْفعنى إلى محاولة حَلِّه ، فأقول فى نفسى : « لا ينتهى كلُّ شىء مع الحياة عندنا ، فكلٌّ يجدُ مكانَه بالموت » ، والحقُّ أننى أُحَمِّلُ نفسى غَوْلَ السؤال عن مكان الإنسان بعد زوال كلِّ ما كان لديه من أمرٍ محسوس ، وعاد هذا السؤالُ لا ينطوى على صعوبةٍ لدىَّ ما اعترفتُ بعنصرين ، ومن البساطة البالغة ألَّا أُدرِكَ شيئاً بغير حواسِّى فى أثناء حياتى البدنية فيَفُوتنى ما لا يَخْضَعُ لها مطلقاً ، فمتى زال اتحادُ البدن والروح أدركتُ إمكانَ انحلال أحدهما وبقاء الآخر ، ولِمَ يؤدِّى زوالُ أحدهما إلى زوال الآخر ؟ وعلى العكس كانا فى حالِ شِدَّةٍ باتحادهما لاختلاف طبيعتهما ، فمتى زال هذا الاتحاد عادا كِلاَهما إلى حالها الطبيعية ، أى إن العنصرَ الفاعل الحىَّ يستردُّ جميعَ القوة التى كان يستعملها فى تحريك العنصر المنفعل الميت ، واحَسْرَتاه ! إننى أُحِسُّ كثيراً بمعايبى كَوْنَ الإنسان لا يعيش غيرَ

نصفِ عيشٍ فى أثناء حياته ، وأن حياةَ الروح لا تبدأ إلا بمَوْت البدن .

ولكنْ ما هذه الحياة ؟ وهل الروحُ خالدٌ بطبيعته ؟ لا يتصور إدراكى المحدودُ شيئاً غيرَ محدود ، ويَفُوتُنى كلُّ ما يُدْعَى لا حَدَّ له ، وما أستطيع أن أنكِرَ وأُوَكِّدَ ؟ وأىُّ برهانٍ يُمْكِنُنى أن أقيم حَوْل ما لا أَقْدِرُ أن أُدرِك ؟ أعتقد أن الروح تَبْقَى حيةً بعد البدن لحفظ النظام ، ومن يَعْرِفُ أن هذا يَكْفِى لخلودها أبداً ؟ ومهما يكن من أمرٍ فإننى أُدرك كيف يَبْلَى البدن ويَفْنَى بتفَرُّق الأجزاء ، ولكننى لا أستطيع أن أدركَ مثلَ هذا الفناء للموجود المفكِّر ، وإنى ، إذْ لا أتصوَّر كيف يُمكِن أن يَمُوت ، أفترض أنه لا يموت ، وبما أن هذا الافتراض يُفرِّج غَمِّى ولا ينطوى على شىء مخالفٍ للصواب فَلِمَ أخشى أن أُسَلِّمَ به ؟

وأَشْعُرُ بروحى ، وأعْرِفه بالشعور وبالفكر ، وأعلم أنه موجود من غير أن أعلم ما جوهرُه ، ولا أَقْدِر أن أُبَرْهِن حَوْل أفكارٍ ليست لدىَّ ، والذى أعْرِف جيداً كَوْنُ ذاتِى لا تَمْتَدُّ بغيرِ الذاكرة ، وأننى لكى أكون إيَّاىَ فى الحقيقة يجب أن أذْكُر أننى كُنْتُ ، والواقعُ أننى لا أستطيع أن أذْكُر بَعْدَ مماتى ما كنت فى أثناء حياتى ما لم أذْكُرْ ما كنتُ أُحِسُّ ، ومن ثَمَّ ما كنتُ أعْمَلُ ، ولا رَيْبَ عندى مُطْلقاً فى كَوْن هذا الذِّكْرِ يَكُون ، ذاتَ يومٍ ، مدارَ سعادة الأبرار وعذاب الأشرار ، وتَجِدُ فى هذه الدنيا ألفَ هَوًى حارٍّ يَسْتَغْرِق الشعورَ الباطنىَّ ويخادِع وَخْزَ الضمير ، وما تَجْلُبُه ممارسة الفضائل من هَوَانٍ وفَقْدِ حُظوةٍ يَحُول دون الشعور بفُتُونها

كاملةً ، ولكنْ متى نجَوْنا من الأوهام التى يُوجِبُها الجسمُ والحواسُّ فينا فتَمَتَّعْنا بتأمُّلِ الكائن الأعلى وبالحقائق الخالدة الذى هو أصلُها ، ومتى فَرَغَ جمالُ النظام جميعَ قُوَى روحنا فشُغِلْنا ، فقط ، بالمقابلة بين ما صَنَعْنا وما كان يَجِبُ أن نَصْنَع ، استردَّ صوتُ الضمير قُوَّتَه وسلطانَه هنالك ، ومَيَّزَتِ اللذةُ الخالصةُ عن رضا النفس والندامةُ الأليمةُ عن تَدَنٍّ ، بمشاعرَ لا تَنْضُبُ ، ما أعَدَّه كلُّ واحدٍ لنفسه من مصير ، ولا تسألنى ، يا صديقى العزيز ، مُطْلَقاً ، عن وجودِ منابعَ أخرى للسعادة والآلام ، فهذا أمرٌ أَجْهَلُه ، وإنما أجِدُ فى المنابع التى أتخيَّلُ ما يكفى لتسليتى فى هذه الحياة ولأَرْجُوَ حياةً أخرى ، ولا أقُول ، مطلقاً ، إن الصالحين سيكافأون ، فما الخَيْرُ الآخرُ الذى يُمْكِن أن ينتظره موجودٌ مَجِيدٌ إن لم يكن وجودُه وَفْقَ طبيعتِه ؟ بيد أننى أقول إنهم سيكونون سعداء ، وذلك لأن بارئهم ، الذى هو فاعلُ كلِّ عدلٍ ، إذْ خَلَقهم ذوى إحساسٍ ، لم يَصْنَعْهم للألم ، وذلك لأنهم ، إذْ لم يسيئوا استعمالَ اختيارهم في الأرض ، لم يَخُونوا مصيرهم بذنبِهم ، أى إنهم أَلِموا فى هذه الحياة ، فيُعَوَّضُون فى حياةٍ أخرى إذَن ، وهذا الشعورُ أقلُّ استناداً إلى استحقاق الإنسان مما إلى مبدأ الصلاح الذى يَلُوح لى أنه تَعَذُّرُ انفصاله عن الكُنْهِ الإلهىّ ، ولا أصنع غير افتراضِ سُنَنِ النظام الملاحَظَةِ ، واللهُ قائمٌ بذاته[1] .

وكذلك لا تسألونى عن كَوْن الأشرار خالدين فى العذاب أبداً ، فأنا

---

(١) «ليس لنا يا رب ، ليس لنا ، لكن لاسمك أعط مجداً من أجل رحمتك ، من أجل أمانتك» .
(المزمور المئة والخامس عشر) .

أَجْهَلُ هذا أيضاً ، وليس لدىَّ من الفُضُول الفارغ ما أُوضِحُ به هـذه المسائلَ غيرَ المُجْدِية ، وما أَرَبى فى مصير الأشرار ؟ إننى قليلُ الاكتراث لِمَا يَصِيرُون إليه ، ومع ذلك فإنه يَصْعُب علىَّ أن أعتقد أنهم محكومٌ عليهم بعذابٍ لا نهايةَ له ، فإذا كان العدلُ الأعلى يَنْتَقِمُ فإنه يَنْتَقِمُ فى هذه الحياة ، وأنتم ، أيها الأقوام ، مع ضَلَالاتكم ، وكلاءُ له ، وهو يستعمل الشرورَ التى تأْتُون للعقاب على الجرائم التى اجتذبتها ، وذلك أن الأهواء المُنْتَقِمَة تجازى على مُنْكَرَاتكم فى أفئدتكم الشَّرِهة التى أكلها الحسدُ والبخل والطمع ، وفى صميم يُسْرِكم الزائف ، وهل من حاجةٍ إلى البحث عن النار فى الحياة الأخرى ؟ فالنارُ هنا فى قلب الأشرار .

ويجب أن تنقطع أهواؤنا وجرائمنا حيث تنتهى احتياجاتُنا الزائلةُ ورَغَباتُنا غيرُ الصائبة ، وأىُّ فُسُوقٍ تكون النفوس النقيةُ مستعدةً له ؟ وهى إذْ ليست محتاجةً إلى شىء فَلِمَ تكون شَرِيرةً ؟ وهى إذ تكون فى مَنْجًى من حواسِّنا الغليظة فإن سعادتَها تكون فى تأَمُّل الموجودات ولا تستطيع أن تريد غيرَ الخير ، وهل يكون خبيثاً إلى الأبد مَنْ يَنْقَطع عن الشَّرِّ ؟ كَلاَّ ، وهذا ما أَمِيلُ إلى اعتقاده ، وإن لم أُكَلِّفْ نفسى عناء اتخاذِ قرارٍ فى هذا ، فيأيها الرَّبُّ الرحيم الكريم ، إننى أَعْبُدُ قضاءك مهما كان ، وإذا كنتَ تجازِى الأشرار جزاءً أبديًّا فإننى أُلْغِى عقلىَ الضعيف أمام عدلك ؟ ولكن إذا كان ندَمُ هؤلاء التعساء يَنْطَفِئ مع الزمن ، وإذا كانت آلامهم تنتهى ، وإذا كان السلام عينُه ينتظرنا كلَّنا على السواء ذاتَ يومٍ فَلَكَ منى الثناء من أجْلِ هذا ، أَوَ ليس الشِّرِّيرُ أخاً لى ؟ وما أكثرَ

ما أغْرِيتُ بمشابهته ! ولْيَزُل سوؤه الملازمُ له بخَلَاصه من شقائه ، ولْيَكُنْ سعيداً مثلى ، فلا تؤدى سعادتُه إلى غير زيادة سعادتى ، وذلك مع استبعاد إثارة غَيْرَتِى بذلك .

وهكذا فإننى ، إذْ أنظرُ إلى الله فى أعماله ، وإذْ أبْحَثُ عنه بصفاته التى يُهِمُّنى أن أعرِفها ، أنتَهِى إلى توسيعى وزيادتى بالتدريج فكرتى ، الناقصةَ المحدودةَ فى البُداءة ، عن هذا الكائن العظيم ، ولكنْ إذا كانت هذه الفكرة قد تحولت إلى ما هو أنبَلُ وأكبر ، فإنها كذلك أقلُّ تناسباً مع العقل البشرىّ ، وكلما دَنَوْتُ بالروح من النُّور الأزلىِّ بَهَرَنى سَنَاؤه وحَيَّرنى ، فأُضطَرُّ إلى ترك جميع المفاهيم الدنيوية التى كانت تساعدنى على تَصَوُّره ، فيَعُود الرَّبُّ غيرَ جِسْمِيّ وغيرَ حِسِّيّ ، ويعود العقلُ الأعلى الذى يهيمن على العالَمِ لا يكون عينَ العالَم ، وأرْفَعُ ذهنى وأتعبه لإدراك كُنْهِه على غير جَدْوَى ، ومتى فَكَّرْتُ فى أنه هو الذى يُنْعِمُ بالحياة والفاعلية على العنصر الحىِّ الفعال المسيطر على الأجسام الحية ، ومتى سمعتُ قولاً عن كَوْن نفسى روحانيةً وعن كَوْن الرَّبِّ روحاً ، ساوَرَنى غَيْظٌ من تدَنِّى الكُنْه الإلٰهىّ كما لو كان الرَّبُّ وروحى من طبيعة واحدة ، وكما لو كان الرَّبُّ وحدَه ليس المُطْلَقَ الفاعلَ الشاعر العاقل المُرِيدَ بذاته حَقًّا فنقتبس منه العقلَ والشعور والفاعلية والإرادة والاختيار والكِيان ! ونحن لسنا مُخيَّرِين إلاَّ لأنه أراد أن نكون هكذا ، ويُعَدُّ كُنْهُه خافياً على أرواحنا خفاء أرواحنا على أجسامنا ، ولا أعْرِف شيئاً عن خلقه المادةَ والأجسامَ والأرواح والعالَمَ ، وتَرْبُكُنى فكرةُ الخلق وتجاوِزُ مُتناوَلى ،

وأعتقدها بمقــدار ما أستطيع تَمَثُّلَها ، ولكننى أعْرِف أنه صَوَّر الكونَ وكلَّ موجود وأنه صَنَع كلَّ شيء ونَظَّم كلَّ شيء ، والله أبديٌّ لا رَيْب ، ولكن هل يستطيع ذهنى أن يستوعب فكرة الأبدية ؟ ولِمَ أُقْنِعُ نفسى بكلماتٍ لا معنى لها ؟ وكلُّ ما أتصورُ هو أنه كان قبل الأشياء ، وأنه يكون ما بَقِيَتْ ، وأنه يكون بعدها ، أى إذا ما انتهى أمرُها ذاتَ يوم ، وليس من الغموض وتَعَذُّر الإدراك أن يُنْعِمَ الوجودُ الذى لا أُدْرِكُ بالحياة على الموجودات الأخرى ، ولكنَّ تَحَوُّلَ كلٍّ من الوجود والعدم إلى الآخر بنفسهما ينطوى على تناقضٍ جَلِيٍّ ، وهو مُحَالٌ واضح .

والله عاقل ، ولكنْ كيف يَكُونُه ؟ والإنسانُ عاقلٌ عند ما يُبَرْهِن ، ولا يحتاج العقل الأعلى إلى البرهنة ، ولا تُوجَدُ له مقدِّماتٌ ولا نتائجُ ، حتى إنه لا يُوجَدُ له قضيةٌ ، وهو عِيانِيٌّ مَحْضاً ، وهو يَرَى على السواء ما هو كائنٌ وما يُمْكِن أن يكون ، وليست جميعُ الحقائق عنده سوى فكرةٍ واحدة ، كما أن جميع الأمكنة عنده ليست سوى نقطةٍ واحدة ، وكما أن جميع الأزمنة عنده ليست سوى هُنَيْهَةٍ واحدة ، وتَعْمَلُ قدرةُ الإنسان بالوسائل ، وتَعْمَلُ قدرةُ اللهِ بذاتها ، واللهُ يَقْدِرُ لأنه يُرِيد ، وإرادتُه قدرتُه ، واللهُ جوادٌ ، ولا شيء أوْضحُ من هذا ، غير أن جُودَ الإنسان قائمٌ على حُبِّ أمثاله ، وجُودَ اللهِ قائمٌ على حُبِّ النظام ، وذلك لأنه يُمْسِكُ بالنظام ما هو موجود ، فيَرْبِطُ كلَّ جزء بالكلِّ ، واللهُ عادلٌ ، وأعتقدُ هذا ، وهذا نتيجةُ جُوده ، وظلمُ الناس من عملهم ، لا من عمله ، وليس ما يُدْلِي به الفلاسفةُ من فسادٍ أدبيٍّ ضدَّ العناية الربانية غيرَ دليل على ذلك

العدل فى نظرى ، بَيْدَ أن عدل الإنسان يقوم على إعطاء كلِّ ذى حَقٍّ حَقَّه ، وأن عدل الله يقوم على مطالبة كلِّ واجدٍ بأن يُقَدِّم حساباً عما أعطاه إياه .

وإذا كنتُ قد وُفِّقْتُ لاكتشافى ، بالتعاقب ، هذه الصفاتِ ، التى ليس لدىّ أيةُ فكرةٍ مطلقة عنها ، فذاك باعتمادى على نتائجَ ضروريةٍ ، وذاك عن حُسْنِ استعمال عقلى ، غير أننى أؤيِّدُ وجودها من غير أن أدركها ، وليس هذا تأييداً من حيث الأساسُ ، ومن العبث أن أقول إن الله هو هكذا ، أى إننى شاعرٌ به مختبرٌ له ، وما كنت لأتَمَثَّلَ ما هو أفضلُ من هذا فى إمكان كَوْن الرَّبِّ هكذا .

وحاصلُ القول أننى كلما سَعَيْتُ فى تأمُّل كُنْهِه الذى لا حَدَّ له قلَّ إدراكى له ، ولكنه موجود ، وهذا يَكْفِينى ، وكلما قلَّ إدراكى له كَثُرَت عبادتى له ، وأخْشَعُ وأقول له : « أى رَبَّ كلِّ موجود ، أنا موجودٌ لأنك موجود ، ويعنى تأمُّلُكَ دائماً ارتقائى إلى منبعى ، ويَكُون أفضلُ استعمالٍ لعقلى فى تَذَلُّلِه كلياً أمامك ، وهذا هو سَلْبُ قلبى وفُتُونُ ضعفى ، وهذا شعورى بأنى مشمولٌ بعظمتك . »

وإنى بعد أن استنبطتُ الحقائقَ الرئيسةَ التى يُهِمُّنى معرفتُها ، وذلك من انطباعِ الأشياء المحسوسة ومن الشعور الباطنىِّ الذى يَحْمِلُنى على الحُكْم فى العلل وَفْقَ براهينى الطبيعية ، بَقِيَ علىَّ أن أبحث عن أىِّ المبادئ التى يَجِبُ أن أستخرج منها سلوكى ، وعن أىِّ القواعد التى يَجِبُ أن أُلزِم بها نفسى قياماً بمُقْتَضَى مصيرى فى الأرض وَفْقَ مَقْصِد الذى جعلنى فيها ،

أَجَلْ ، إننى باتباعى منهاجى ، دائمًا ، لا أستنبط هذه القواعدَ من مبادئ الفلسفة العليا مطلقًا ، وإنما أجِدُها مسطورةً فى صميم فؤادى من قِبَل الطبيعة بحروف لا تُمْحَى ، وليس علىَّ أن أشاوِر غيرَ نفسى حَوْل ما أريد أن أصنع ، وكلُّ ما أشعُرُ بأنه خيرٌ هو خيرٌ ، وكلُّ ما أشعُر بأنه شرٌّ هو شرٌّ ، والضميرُ أفضلُ حَلّالٍ للمشاكل ، ولا يُصَارُ إلى دقائق البرهان إلاَّ عند مساومته ، وواجبُ الإنسان نحو نفسه هو أولُ الواجبات ، ومع ذلك فما أكثرَ ما يقول لنا صَوْتُ الباطن إننا نَصْنَع الشَّرَّ بصنعنا خَيْرَنا على حساب الآخرين ! ونحن نعتقد أننا نَتَّبِـعُ دافعَ الطبيعة ، ونحن نقاومه ، ونحن ، إذْ نستمع إلى ما تخاطِب الطبيعةُ به حواسَّنا ، نَزْدَرِى ما تخاطب به قلوبَنا ، فالموجودُ الفاعلُ يُطِيع ، والموجودُ المنفعل يَصْطَنِع ، والضميرُ صوت الروح ، والأهواء صوتُ البدن ، وهل من العجيب أن يتناقض هذان اللسانان فى الغالب ؟ وهنالك أىُّ اللسانين يجب أن يُنْصَت له ؟ والعقلُ يُخَادِعُنا فى الغالب ، ولنا كلُّ الحقِّ فى رَفْضِه ، ولكن الضمير لا يَخْدَع مطلقاً ، وهو دليلُ الإنسانِ الصادقُ ، وهو بالنسبة إلى النفس كنسبة الغريزة إلى البدن[1] ، ومن يَتَّبِعْه يُطِعْ الطبيعةَ

(١) لا تقول الفلسفة الحديثة، التى لا تقبل غير ما تفسر ، بالخاصية الغامضة المسماة «غريزة» ، والتى تسوق الحيوانات نحو الغرض من غير معرفة مكتسبة ، وليست الغريزة عند (كونديياك) الذى هو من أحكم فلاسفتنا غير عادة خاصة فى التأمل ، ولكن مع اكتسابها بالتأمل ، ويجب أن يستنتج من الوجه الذى يوضح به هذا التقدم كون الأولاد أكثر من الرجال تأملا ، وهذا قول غريب ، وهو من الغرابة مالا يستحق معه أن يفحص ، ولا أدخل هنا فى هذا الجدل ، وإنما أسأل عن الاسم الذى يجب أن أطلقه على ما يبديه كلبى من نشاط فى مقاتلة المناجذ* التى لا يأكلها مطلقاً ، وعلى ما يبديه من صبر ساعات بكاملها=

* المناجذ : جمع خلد من غير لفظها ، والخلد نوع من القواضم يعيش تحت الأرض ، وهو ليس له عينان ولا أذنان .

ولا يَخْشَ أن يَضِلَّ أبداً ، وهذه النقطةُ مهمة ، وإني ، إذ أَتَتَبَّعُ المُنْعِمَ عليَّ وأُبْصِرُ أنى أنقطع عنه ، أقول : دَعُونى أَقِفُ قليلاً لإيضاحها .

ويَقُوم كلُّ أدبٍ فى أفعالنا على الحكم الذى نَحْمِلُه عنها ، وإذا كان من الصحيح أن الخيرَ خيرٌ وجب أن يكون هكذا فى صميم قلوبنا كما فى أفعالنا ، وتكونُ جائزةُ العدل الأُولى فى شعورنا بأننا نقيمه ، وإذا كان الصلاح الخُلُقِىُّ مطابقاً للطبيعة فإن الإنسان لا يكون سليمَ الروح والجسم إلا بصلاحه ، وإذا لم يَكُن الأمر هكذا وكان الإنسان شَرِيراً طبيعةً فإنه لا يستطيع أن ينقطع عن هذا الوضع من غير أن يَفْسُد ، ولا يكون الصلاح فيه سوى عَيْبٍ ضِدَّ الطبيعة ، وإذا ما صُنِعَ الإنسانُ لإيذاء أمثاله كان كالذئب الذى يَذْبَحُ فريسته وبدا الإنسانُ البشرىُّ حيواناً فاسداً كالذئب الرحيم ، والفضيلةُ وحدها هى التى تَدَعُ فينا وخزاً للضمير .

= كامناً لها ، وعلى ما يبديه من براعة فى إمساكها وقذفها خارج أرضها عند بروزها وفى قتلها بعد ذلك لتركها هنالك من غير أن يدرى به أحد على هذا الصيد ، ومن غير أن يعلم من أحد وجود مناجد فى ذاك المكان ، وأسأل أيضاً ، وسؤالى هذا أكثر أهمية ، عن السبب فى استلقاء هذا الكلب على الأرض مثنى الأرجل متخذاً وضع ضارع مؤثر فى ، متخذاً هذا الوضع الذى كان يبقى عليه لو ضربته وهو فى هذه الحال من غير أن يستجلب عطفى ، ماذا ! كلبى الصغير الذى ولد منذ وقت قصير يكتسب مبادئ خلقية ! وهل كان يعرف ما الرحمة والكرم ؟ وما البصائر المكتسبة التى كان يرجو أن يسكننى بها تاركاً نفسه تحت تصرفى على هذا الوجه ؟ إن جميع كلاب العالم يأتون ذات الشىء فى ذات الحال دائماً ، ولا أقول شيئاً عما يمكن كل واحد أن يحقق لنفسه ، وليتفضل الفلاسفة ، الذين يرفضون الغريزة بازدراء ، أن يوضحوا لنا هذا الأمر بالإحساسات والمعارف التى يفترضون اكتسابنا لها ، وليوضحوا لنا ذلك على وجه يقنع به كل ذى عقل ، وهنالك لا يبقى لى ما أقول ، وهنالك لا أتكلم عن الغريزة مطلقاً .

ولْنَعُدْ إلى أنفسنا يا صديقى الشابّ ! ولْنَطْرَحْ كلَّ مصلحةٍ شخصية جانباً ، ولْنَبْحَثْ عن المَدَى الذى تَحْمِلُنا إليه مُيُولُنا ، وأىُّ منظرٍ يَفْتِنُنا أكثرَ من غيره، أمنظر آلام الآخرين أم منظرُ سعادتهم ؟ وأىُّ الأمرين أحْلَى لنا أن نَصْنعه فيَتْرُكَ فينا أثراً أكثرَ لطافةً بَعْدَ فِعْله ، أعَمَلُ الخير أم عملُ الشرِّ ؟ وما الذى يَعْنِيكم فى مسارحكم ؟ أتَجِدُون لذةً بالجرائم ؟ أتَسْكُبون دموعاً من أجل فاعليها المأخوذين بها ؟ هم يقولون : لا يُوجَدُ فى جميع ذلك ما نكترث له خارجَ مَسْرَحنا ، وعلى العكس نَجِدُ بحلاوة الصداقة والإنسانية سُلْواناً فى آلامنا ، حتى إننا نكون فى ملاذِّنا وحيدين بائسين كثيراً إذا لم نَجِدْ من يقاسمنا إياها ، وإذا لم يُوجَدْ شىء من الأخلاق فى قلب الإنسان فمن أين يأتيه ، إذَنْ ، هذا التهلُّلُ من أجْلِ أعمال البطولة وهذا الجَذَلُ حُبًّا لذوى النفوس الكبيرة ؟ وما علاقة هذه الحماسة للفضيلة بمصلحتنا الخاصة ؟ ولِمَ أُفَضِّلُ أن أكُونَ كاتُونَ الذى يُمَزِّق أحشاءه على أن أكون قيصرَ الظافر ؟ إذا ما نزعتم من قلوبنا حُبَّ الجمال أزَلْتُمْ كلَّ فُتُونٍ فى الحياة ، وإن الذى خَنَق ساقِطُ الأهواء فى نَفْسِه هذه المشاعرَ اللطيفة ، وإن الذى حَصَرَ أفكاره فى شخصه فصار لا يُحِبُّ غيرَ نفسه ، عاد لا يكون صاحبَ حميةٍ ، وعاد فؤادُه الجامدُ لا يَخْفِقُ سروراً ، وعاد لا يُخْضِلُ عينيه حَنانٌ حُلْوٌ ، وعاد لا يتمتع بشىء ، وعاد التَّعِسُ لا يُحِسُّ ولا يعيش ، فهو قد مات .

ولكنْ مهما يَكنْ عددُ الأشرار فى الأرض فإن من القليل أن تَجِدَ أناساً من ذوى النفوس الجيفِيَّة التى أصبحت لا تَشْعُر ، خارجَ مصلحتها ،

بكلٍّ ما هو عادلٌ صالح ، ولا يَرُوقُنا الجَوْرُ إلّا بمقدار ما يفيدُنا ، فإذا عَدَوْت هذا وَجَدْتنا نريد حمايةَ البرىء ، وإذا ما رُئِىَ فى شارعٍ أو طريقٍ قَسْوَةٌ وظلمٌ لم تَلبثْ أن تَثُور حركةُ غضبٍ وسخطٍ فى صميم القلب حالًا فتَحْمِلَنا على التزام جانب الدفاع عن المظلوم ، غير أن واجباً أقوى من ذاك يُمسِكنا ، وتَنزِعُ القوانين منا حَقَّ حماية البراءة ، وعلى العكس إذا حدث أن وقف نظرنا عملُ رحمةٍ أو كرمٍ فما أكثرَ ما يوحى إلينا من إعجابٍ ومحبة ! ومن ذا الذى لا يقول فى نفسه : « يا ليتنى صنعتُ مثلَ هذا » ؟ ولا ريب فى أن مما نبالى به قليلًا كَوْنَ هذا الرجل أو ذاك شريراً أو عادلاً منذ ألفى سنة ، ومع ذلك فإن ذات الغَرَض يساورنا فى التاريخ القديم كما لو كان جميعُ هذا قد حَدَث فى أيامنا ، وما عَمَلُ جرائم كاتيلينا فىَّ ؟ أأَخْشَى أن أكون ضحيته ؟ ولِمَ أحِلُ له ، إذَنْ ، ذاتَ المَقْت كما لو كان معاصراً لى ؟ ونحن لا نُبْغِض الأشرارَ لأنهم يؤذوننا فقط ، بل لأنهم أشرارٌ ، ولا نريد أن نكون سعداء فقط ، بل نريد سعادة الآخرين ، وإذا كانت هذه السعادة لا تُكلِّف سعادتَنا شيئاً زادَتْها ، والخلاصةُ أن الإنسان يَرِقُّ للتعساء على الرغم منه ، وهو يألَم إذا رآهم يألَمُون ، وما كان أكثرُ الناس فساداً ليَفْقِدُوا هذا العطف تمامًا ، وهــذا ما يجْعَلُهم يناقضون أنفسَهم ، ويَكسو اللصُّ الذى يَسْلُب السَّابلةَ الفقيرَ العارىَ ، ويساعد أشدُّ الناس سفكاً للدماء من يَرَى سقوطَهم إغماءً .

ويُحَدَّث عن صوت النَّدَم الذى يجازى سِرًّا عن الجرائم الخفية ، والذى يُظْهِرُها غالباً ، واحَسْرَتاه ! مَنْ منا لا يَسْمَعُ هذا الصوت المزعج ؟ نحن

نتكلم عن تجرِبةٍ ، ونُريدُ خَنْقَ هذا الشعورِ الجائرِ الذى يُورِثُنا ألماً كبيراً ، ولنُطِع الطبيعةَ ، وسنَعْلَمُ بأىِّ رِفْقٍ تهيمن ، وأىُّ فُتُونٍ ينطوى عليه الضميرُ الصالح جواباً عن صوتها بعد أن يَسْتمع إليه ، والشِّرِير يخاف الطبيعة ويَفِرُّ منها ، وهو يُسَرُّ إذا ما رَمَى بنفسه خارجَ نفسه ، وهو يُدِيرُ حَوْلَه عيوناً هَلُوعًا ، وهو يبحث عن شىء يُلْهِيه ، ولولا الأهاجىُّ اللاذعةُ والسُّخْرِيةُ المؤذيةُ لكان مَكْرُوباً دائماً ، وتقوم لَذَّته الوحيدة على ضَحِكه الساخر ، وعلى العكس يكون صفاء الصالح باطنياً ، ولا يكون ضحكه عن خُبْثٍ ، بل عن حُبُور ، وهو يَحْمِلُ مَنْبعَ هذا الحُبُورِ فى نفسه ، وهو يكون مسروراً وحيداً أو بين جَمْعٍ على السواء ، وهو لا يقتبس رِضاه ممن يَدْنُون منه ، وهو يُشْرِكهم فيه .

وألقُوا عيونَكم على جميع أمم العالم ، وتَصَفَّحُوا جميعَ التواريخ ، وتَجِدُون بين كثيرٍ من الأديان الجافية ، وبين هذا الاختلاف الغريب فى الطبائع والأخلاق ، عَيْنَ الأفكارِ عن العدل والصلاح فى كلِّ مكان ، وعَيْنَ المبادئ عن الخير والشَّرِّ فى كلِّ مكان ، أَجَلْ ، أوجدت الوثنيةُ القديمة آلهةً قِباحاً لو وُجِدُوا فى هذه الدنيا لعُوقِبُوا مِثْلَ المجرمين ، وقد كانوا لا يَعْرِضون عن السعادة العليا منظراً غيرَ فواحشَ تُقْتَرَف وغيرَ أهواء تَقَعُ موقع الرِّضا ، بَيْدَ أن المُنْكَرَ المُسَلَّحَ بسلطانٍ مقدَّسٍ كان يَنزِل من مقامه الأبدىِّ على غير جَدْوَى ، فقد كانت الغريزةُ الخُلُقية تَطْرُده من قلوب الآدميين ، وبينما كانت الشعائرُ تُقَامُ لدَعاراتِ جوبيترَ كان يُعْجَبُ بعَفَاف إكْزِينُوقراطس ، وكان العفيفُ لُوكرِيسُ يَعْبُد ڤِينُوس ، وكان

الرومانىُّ الجرىء يُقدِّم القرابينَ إلى الخوف ، وكان يَضْرَع إلى الإله الذى بَتَرَ أباه ، ويموت بيد أبيه من غيرِ تَبَرُّمٍ ، وكان أعاظمُ الرجال يَخْدِمون أحقرَ الآلهة ، وكان صوتُ الطبيعة المقدسُ ، الذى هو أقوى من صوت الآلهـة ، يُحْتَرَم فى الأرض فيَلُوح أنه يُقْصِى الجريمةَ إلى السماء مع المجرمين .

ولِذَا يُوجَدُ فى أعماق النفوس مبدأٌ غريزىٌّ عن العدل والفضيلة نَسْتَنِدُ إليه ، على الرغم من مبادئنا الخاصة ، فى الحُكْم فى أفعالنا وأفعال الآخرين على أنها صالحةٌ أو طالحة ، وهذا المبدأ هو الذى أُطْلِقُ عليه اسمَ الضمير .

غير أننى أسمع من كلِّ جانب ارتفاعَ صُراخِ الحكماء المزعومين ، وهم يَرْفَعُون عقيرتهم قائلين بالإجماع : أغاليطُ الصِّبا ، مُبْتَسَراتُ التربيـة ! لا يُوجَدُ فى الروح البشرىِّ شىءٌ غيرُ الذى يَدْخُلُ فيه بفِعْل التجربة ، نحن لا نَحْكُم فى شىء إلا عن أفكارٍ مكتسبة ، وهم يَذْهَبُون إلى ما هو أبعدُ من هذا فيَجْرُءون على إنكار ذاك الاتفاق الواضح العامِّ بين جميع الأمم ، وهم يعاكسون ما أجمع عليه الناس من حُكْمٍ منسجم ساطع فيَبْحَثُون فى الظَّلام عن بعض الأمثلة المبهمة التى لا يَعْرِفُها غيرُهم ، وذلك كأن جميعَ ميول الطبيعة قد زالت بفساد إحدى الأمم ، وكأن النوعَ يعود شيئاً غيرَ مذكور عند وجودِ أناسٍ سَيِّئِى الأخلاق ، ولكنْ ما فائدة المرتاب مُونتِين من عَذَابٍ فَرَضه على نفسه لِلعثُورِ فى زاويةٍ من العالَم على عادةٍ مخالفة لمبادئ العدل ؟ وما فائدته من منحه أكثرَ السُّيَّاح محلاً للطَّمْن من الثقة ما يَحْبِسُه عن أبعد الكُتَّاب صِيتاً ؟ وهل من شأن بعض العادات الغريبة

المشكوكِ فيها ، والقائمةِ على بعض العوامل المحلية التى نجهَلها ، أن تهدِم الاستقراء العامَّ المستنبَط من تسابق جميع الأمم المختلفة فى كلِّ شىء عدا ذلك الأمر ؟ فيامُونـتين ! يا مُونتِينُ الذى يتَبَجَّحُ بالصدق والحقِّ ، كُنْ مخلصاً أميناً إذا أمكنَ الفيلسوفَ أن يكون هكذا ، وحَدِّثنى عن وجود بلدٍ فى العالم يكون من الجناية فيه أن يُنْجِزَ الإنسانُ وعدَه وأن يكون رحيماً محسناً كريماً وعن وجودِ بلدٍ يُزْدَرَى فيه رجلُ الخير ويُكْرَمُ فيه الغادرُ .

ويقال إن كلَّ واحدٍ لا يساعِد على الخير العامِّ إلّا فى سبيل مصلحته ، ولكنْ من أين يأتى ، إذَنْ ، كَوْنُ الصالح يساعِد على ذلك ضَرًّا بنفسه ؟ وهل يَذهب الإنسان إلى الموت في سبيل مصلحته ؟ أَجَلْ ، لا أحدَ يَسِيرُ فى أمرٍ إلَّا من أجْلِ خَيْرِ نفسه ، ولكنْ إذا وُجِدَ خيرٌ خُلُقىٌّ يجب أن يُحْسَبَ له حسابٌ فإنه لن يُفَسَّرَ بالمصلحة الخاصة غيرُ أعمال الأشرار ، حتى إنه يُعتَقَدُ أنه لا يحاوَل الذهابُ إلى ما هو أبعدُ من ذلك مطلقًا ، وتكون فلسفةً ممقوتةً تلك التى تَضِيقُ بالأعمال الصالحة ذَرْعًا ، والتى لا يُتَخَلَّصُ فيها من ورطةٍ إلا بأن تُلَفَّقَ لتلك الأعمال نِيَّاتٌ ساقطة وأسبابٌ من الفضيلة عاطلةٌ ، والتى يُلزَم فيها بإهانة سُقْرَاط وسَبِّ رِيغُولُوس ، ولو قُيِّضَ لمثل هذه المذاهب أن تَنْبُتَ بيننا ما انفكَّ صوتُ الطبيعة وصوت العقل يرتفعان ضدها ، وما تَرَكا لأحد من أنصارها اعتذاراً بصدور ذلك عن حسن نية .

وليس من مقاصدى أن أَدْخُل هنا فى مجادلاتٍ خاصةٍ بما بعد الطبيعة تجاوِز متناوَلى ومتناوَلكم ولا تؤدى إلى شىء من حيثُ الأساسُ ، وكنتُ

قد قلتُ لكم إننى لا أريد أن أتفلسف معكم ، وإنما أريد أن أُساعدكم على مشاورة قلبكم ، فإذا ما أثْبَتَ جميعُ الفلاسفة أَننى مخطئ ، وإذا ما شَعَرْتم أننى على حَقٍّ ، لم أُرِدْ أكثرَ من هذا .

ولا يتطلب ذلك أكثرَ من أن تُفَرِّقوا بين أفكارنا المكتسبة ومشاعرنا الطبيعية ، وذلك لأننا نَشْعُر قبل أن نَعْرِف ، وكما أننا لا نتعلم إرادةَ خيرنا والفرارَ من شَرِّنا ، وإنما ننال هذه الإرادةَ من الطبيعة ، يكون حُبُّنا للصالح ومقتُنا للطالح من الأمور الطبيعية كحُبِّنا لأنفسنا ، وليست أعمالُ الضمير أحكاماً ، بل مشاعرُ ، ومع إتيانِ جميع أفكارنا من الخارج تجِد المشاعرَ التى تَزِنُها فى باطننا ، وبهذه المشاعر وحدَها نَعرِف الموافقةَ أو عدمَ الموافقة التى بيننا وبين ما يَجِبُ احترامُه أو اجتنابُه من الأشياء .

والوجودُ عندنا هو الإحساس ، ولا مِراء فى أن حَسَّاسِيَّتنا أقدمُ من عقلنا ، وأن لدينا أحاسيسَ قبل أن تكون لدينا أفكارٌ (١) ، ومهما تكن علةُ وجودنا فإنها دَبَّرَت أمرَ بقائنا بمنْحِها إيانا أحاسيسَ ملائمةً لطبيعتنا ، ولا يستطيع أحدٌ أن يُنكِر أن هذه غريزيةٌ على الأقلّ ، وإذا نُظِرَ إلى هذه الأحاسيس من حيث الفردُ وُجِدَ أنها عبارةٌ عن حبٍّ النفس والخوف من الألم ومقتِ الموت والرغبةِ فى الرفاهة ، ولكنْ إذا كان الإنسانُ اجتماعيًّا بطبيعته ، ولا رَيْب فى هذا ، أو إنه خُلِقَ ليَصِيرَ هكذا على الأقل ، فإنه

(١) تكون الأفكار أحاسيس ، وتكون الأحاسيس أفكاراً من بعض الوجوه ، ويناسب الاسمان كل إدراك يشغلنا بموضوعه وبنا نحن الذين يتأثرون به ، ولا يوجد غير أمر هذا التأثير ما يعين الاسم الذى يلائمه ، وإذا كان الموضوع أول ما نبالى به ، فلا نفكر فى أنفسنا بغير التأمل ، كان هذا فكراً ، وعلى العكس إذا كان الانطباع الذى يتم تلقيه يثير انتباهنا الأول ، فلا نفكر بغير التأمل فى الموضوع الذى يوجبه ، كان هذا إحساساً .

لا يُمكِن أن يكون هكذا بغيرِ مشاعرَ غريزيةٍ أخرى مناسبةٍ لنوعه ، وذلك لأنه عند عدم النظر إلى غير احتياجه الجُثْمانىّ ، يُرَى أن هذا الاحتياج يوجب تفرُّقَ الناس بدلًا من التقريب بينهم ، والواقعُ أن الدافعَ الوجدانىَّ ينشأ عن النظام الخُلُقِيِّ المؤلَّف من علاقة الإنسان بنفسه و بأمثاله ، ولا تَعْنِي معرفةُ الخير حُبَّه ، أى إن هذه المعرفة ليست غريزيةً فى الإنسان ، ولكن ضميره يَحْمِلُه على حُبِّه عند ما يُعَرِّفه عقلُهُ إياه ، وهذا الإحساسُ هو الغريزىُّ .

ولِذَا فلا أعتقد ، يا صديقى ، أن من المتعذرُ أن يُوضَح بنتائج طبيعتنا مبدأُ الضمير المباشرُ مستقلاً عن العقل ذاته ، حتى إن هذا لو كان متعذراً لظَهَر غيرَ ضرورىٍ ، وذلك أن أولئك الذين يُنْكِرون هذا المبدأ المُسَلَّمَ به والمعترفَ به من قِبَل الجنس البشرىِّ لا يُثْبِتُون عدمَ وجوده مطلقاً ، و إنما يكتفون بالتوكيد ، ونحن إذا ما وَكَّدنا وجودَه كنا على أساسٍ أحسنَ من أساسهم ، وذلك لمَا لدينا ، زيادةً على التوكيد ، من شهادة الباطن وصوتِ الضمير الذى يَشْهَدُ لنفسه ، وإذا كان وَمِيضُ الحُكْمِ الأولُ يَبْهَرُنا ويَخْلِط بين الأمور فى نظرنا فى البُداءة ، فلْنَنْتَظِرْ انفتاحَ عيوننا ثانيةً واشتدادَها ، وهنالك لا نَلْبَثُ أن نرى تلك الأمورَ نفسَها على نور العقل ، وكما أطْلَعَتْنَا عليها الطبيعة فى بدء الأمر ، و إن شئتَ فدَعْنا نكون أكثرَ بساطةً وأقلَّ بُطْلًا ودَعْنا نَقْتَصِرُ على المشاعر الأولى التى نَجِدُها فى أنفسنا مادام البحث يَرُدُّنا إليها دائماً عند ما لا يُضَلِّلُنا مطلقاً .

أيها الضميرُ ! أيها الضمير ! أيتها الغريزةُ الرَّبانية والصوتُ الخالد السماوىّ ، أيها الدليلُ الوطيد لموجودٍ جاهل محدود ، ولكن مع العقل والاختيار ، أىْ

قاضىَ الخير والشَّرِّ المعصومَ من الضلال والذى يَجْعَل الإنسان على مثال الربِّ ، أنت الذى تقوم عليه رَوْعَةُ طبيعته وأدبُ أفعاله ، لولا أنت ما شَعَرْتُ بشىء فى نفسى يَرْفعنى فوق البهائم ، لولا أنت ما شَعَرْتُ بغير امتيازٍ كئيبٍ فى الضلال بين خطأٍ وخطأٍ مستعيناً بإدراكٍ لا قاعدةَ له و بعقلٍ لا مبدأ له .

حَمْداً لِلّه ، ها نحن أولاء قد نَجَوْنا من جهاز الفلسفة المخيف ، فنستطيع أن نكون رجالًا من غير أن نكون علماء ، وها نحن أولاء قد أُعفينا من قضاء حياتنا فى دراسة الأخلاق ، فنَمْلِكُ بأقلِّ ثمنٍ دليلًا أ كثرَ وَثاقةً فى هذا التِّيه الواسع لآراء الإنسان ، ولـكنْ لا يَكْفِى أن يكون هذا الدليل موجوداً ، فيجب أن يُعْرَف وأن يُتَّبَع ، وإذا كان يخاطِب جميعَ القلوب فلِمَ لا يُوجَدُ غيرُ أناسٍ قليلين يستمعون له ، والآن ، إن لسان الطبيعة هو الذى يخاطبنا به ، وكلُّ شىء يَسُوقنا إلى نسيانه ، وَالضميرُ وَجِلٌ يُحِبُّ الانزواء والهدوء ، و يُفزِعه الضجيجُ والناس ، و تُعَدُّ المُبْتَسَراتُ التى جُعِلَ صادراً عنها أشدَّ أعدائه ، و يَفِرُّ أمامها أو يَسْكُت ، ويَخْنُق صوتُها الصاخب صوتَه و يَمْنَعُه من أن يُسْمَع ، ويَجْرُؤ التعصب على تقليد صوته و يُمْلِي الإجرامَ باسمه ، و تَخْمُد همتُه عن سوء معاملةٍ ، و يَعُودُ غيرَ مخاطِبٍ لنا ، و يَعُود غيرَ مجيبٍ لنا ، وهو ، بعد كثيرِ ازدراءٍ له ، يَصْعُب ذِكْرُه صعوبةَ سابقِ إبعادِه .

وما أ كثر ما تَعِبْتُ فى أثناء مباحثى من الفتور الذى كنت أُحِسُّ فى نفسى ! وما أ كثر ما صبَّ الـكَرْبُ والسَّأم سمومَهما فى تأملاتى فيَجْعَلانها أمراً لا يُطَاق عندى ! كان قلبى الجَدِيبُ لا يَمْنَح حبَّ الحقيقة غيرَ غَيْرَةٍ ذاوية فاترة ، فأقول فى نفسى : لِمَ أُعَذِّب نفسى فى البحث عما هو غيرُ

موجود ؟ ليس الخير الخُلُقيُّ سوى وهمٍ ، ولا يُوجَدُ شيء حَسَنٌ سوى ملاذِّ الحواسِّ ، وَىْ ! ما أصعب استردادَ ذوق ملاذِّ الروح إذا ما فُقِدَ مَرَّةً ! وأيُّ شيء أصعبُ من تناول الإنسان له عند عدم حيازته إياه سابقاً ! إذا وُجِدَ إنسانٌ بَلَغَ من الشقاء ما لا يَذْكُرُ معه أنه صنع فى جميع حياته ما تجْعَلُه ذكراه راضياً عن نفسه مسروراً بسابق عيشه ، فإن هذا الإنسان يكون عاجزاً عن معرفة نفسه مطلقاً ، وهو ، إذ يُعْوِزُه كلُّ شعورٍ بما يلائم طبيعتَه من صلاحٍ ، يَظَلُّ شَرِيراً قَسْراً وَيَبْقَى شقيًّا إلى الأبد ، ولكنْ أتعتقدون أنه يُوجَدُ فى العالم بأَسْرِه إنسانٌ واحد بَلَغ من الفساد ما لا يُسْلِمُ معه فؤاده إلى إغواء فعل الخير ؟ إن هذا الإغواء هو من شِدَّة الطَّلاوةِ وموافقةِ الطبيعة ما يَتَعذَّر معه أن يقاومه دائماً ، ويكفى ما يوجبه هذا الإغواء من لذةٍ مَرَّةً لاستدعائه بلا انقطاع ، ومن المؤسف أن يكون قضاؤه شاقًّا فى البُداءة ، ويُوجَدُ ألفُ سببٍ لامتناع الإنسان عن اتِّباع مَيْل فؤاده ، فالحَذَرُ الزائف يَحْصُر هذا القلب ضمن حدود الذاتية الإنسانية ، ولابُدَّ من بَذْلِ ألفِ جُهْدٍ فى الشجاعة حتى يُجْرَأَ على مجاوزتها ، وما يَجِدُ الإنسان من لذةٍ فى صُنْعِ الخير هو جائزةُ ما صَنَع من خير ، ولا ينال الإنسانُ هذه الجائزة إلا بعد استحقاقه لها ، ولا شيء أحلى من الفضيلة ، ولكنه يَجِبُ أن تُجَرِّب لتُعْرَف هكذا ، وإذا ما أُريد اعتناقُها بَدَت على ألف شكلٍ مخيف فى البُداءة ، كالإله پرُوتِه الذى وَرَدَ ذكره فى الأساطير ، وهى لا تَبْدُو على شكلها الحقيقىِّ فى نهاية الأمر إلّا لمن لم يَعِفُّوا عن انتحالها مطلقاً .

وإذ كلفتنى ، بلا انقطاعٍ ، مشاعرى الطبيعيةُ التى تكلمتْ فى سبيل

المصلحة العامة ، وعقلى الذى رَدَّ كلَّ شىء إلىَّ ، تَرَجَّحْتُ فى جميع حياتى بين هذا التناوب الدائم ، صانعاً للشَّرِّ ومحبًّا للخير ، ومُضَادًّا نفسى لو لم تُنِرْ فؤادى بصائرُ جديدةٌ ولم تُوَطِّد الحقيقةُ ، التى ثَبَّتَتْ آرائى ، سَيْرِى وجعلتنى مسالماً لنفسى ، ومن العبث أن أُرِيدَتْ إقامةُ الفضيلة بالعقل وحدَه ، وأىُّ أساسٍ متين يُمْكِن أن تُعْطَى؟ ويقولون إن الفضيلة هى حُبُّ النظام ، ولكنْ أَيُمْكِنُ إذَنْ ، أيَجِبُ إذَنْ ، أن يَتِمَّ الفَوْزُ لهذا الحبِّ على حُبِّ رفَاهتى ؟ دَعْهُمْ يُعْطُوننى سبباً واضحاً كافياً لهذا التفضيل ، ولو نَظَرْتَ إلى الأساس لوجدتَ أن مبدأهم المزعومَ تلاعبٌ بالكلام ، وذلك لأننى أقول كذلك إن الإثم حُبٌّ للنظام بمعنًى آخر ، ويُوجَدُ نظامٌ خُلُقِىٌّ حيث يوجد عقلٌ وإحساس ، والفرقُ فى أن الصالح ينتظم بالنسبة إلى الكلِّ ، وفى أن الشِّرِيرَ يَنْظِم الكلَّ بالنسبة إلى نفسه ، ويَجْعَل الشِّرِيرُ من نفسه مركزاً لكلِّ شىء ، ويَقِيسُ ذلك شُعاعَه ويَبْقَى ضِمْنَ الدائرة ، وهنالك ينتظم بالنسبة إلى المركز العامِّ الذى هو الرَّب ، وبالنسبة إلى جميع الدوائر ذواتِ المركز الواحد التى هى مخلوقاتُ الرَّبِّ ، ولو كان الرَّبُّ غيرَ موجود لم يُوجَدْ غيرُ الشِّرِير من يَعْقِل ، ولم يكن الصالحُ غيرَ مجنون .

أىْ بُنَىَّ ! قد تُحِسُّ ذاتَ يومٍ أىُّ حِمْلٍ أُزِيحَ ، وذلك أنك ، بعد أن تستوعب بُطْلَ الآراء البشرية وتَذُوقَ مرارةَ الأهواء ، تَجِدُ قريباً منك كثيراً ، فى نهاية الأمر ، طريقَ الحكمة ، وثوابَ الأعمال فى هذه الحياة ، ومنبعَ السعادة التى يَئِسْتَ منها ! وذلك أن جميع واجبات القانون الطبيعىِّ التى مُحِيَت من قلبى بظُلْم الناس تُرْسَمُ ثانيةً هناك باسم العدل الأزلىِّ الذى يَفرِضها

علىَّ والذى يرانى أقوم بها ، وعُدْتُ لا أشعُرُ فى نفسى بغير كَوْنى صُنْعَ الموجودِ العظيم وأداتَه ، هذا الموجودَ العظيمَ الذى يُرِيدُ الخيرَ ويفعَلُه ، والذى يَصْنَعُه لى بتضافر عزائمى وعزائمه وبحسن استعمال اختيارى ، وأرْضَى بالنظام الذى يُقِيم ، مطمئنًّا إلى أننى أتمتع بهذا النظام ذاتَ يومٍ مُلَاقياً فيه سعادتى ، وأىُّ سعادةٍ أحْلى من شعور الإنسان بأنه قد انتَظَم ضِمْنَ نظامٍ يكون فيه كلُّ شىء حسناً ؟ وأحْتَمِلُ الألمَ صابراً إذْ يُوَاثِبُنى ذاكراً أنه عابرٌ آتٍ من جسم غير جسمى ، وإذا صنعتُ عملًا صالحًا لا شاهدَ عليه عَلِمْتُ أنه قد رُئِى ، وأننى أُسَجِّلُ سَيْرِى فى هذه الحياة من أجْلِ الحياة الأخرى ، وإذا ما عانَيْتُ ظلماً قلتُ فى نفسى : إن الكائنَ العادل المهيمنَ على كلِّ شىء سيُعَوِّضنى ، وإن من شأن احتياجات جسمى وأبْؤُسِ حياتى أن يَجْعَلَ فكرةَ الموت عندى أكثرَ احتمالًا ، وبذلك تكون القيودُ التى تُقْطَع قليلةً عند ما يجب تَرْكُ كلِّ شىء .

وَلِمَ يَخْضَعُ روحى لحواسِّى ويُقَيَّدُ بهذا الجسم الذى يُعَبِّدُه ويضايقه ؟ لا أعْرِف من ذلك شيئاً ، وهل دخلتُ ضِمْنَ أوامر الرَّبِّ ؟ ولكننى أستطيع ، من غير تَهَوُّرٍ ، أن آتِىَ بافتراضاتٍ متواضِعة ، وأقولُ فى نفسى : إذا كان روح الإنسان قد بَقِىَ طليقاً نقيًّا فأيةُ مزيةٍ تكون له فى حُبِّ النظام الذى يراه قائماً وفى اتباع هذا النظام الذى لا تكون له أيةُ مصلحةٍ فى الإخلال به ؟ أجَلْ ، إنه يكون سعيداً ، ولكن سعادتَه يُعْوِزُها أعلى الدرجات ، وهو مجدُ الفضيلة وحُسْنُ الشهادة بنفسه ، وهو لا يكون إلا كالملائكة ، ولا مِراءَ فى أن الإنسان الصالح يَزِيدُ عليهم ،

وإذْ يتَّحِدُ الروح فى الجسم الفانى بروابطَ ليست أقلَّ قوةً من كَوْنِها غيرَ مُدْرَكة فإن العناية بحفظ هذا الجسم تَحْمِلُ الروح على رَدِّ كلِّ شىء إليه، وعلى منحه مصلحةً مخالفةً للنظام العامِّ ، فيستطيع أن يرى ويُحِبَّ ، وهنالك يتحول حُسْنُ استعمال اختياره إلى استحقاقٍ وأجْرٍ ، ويُعِدُّ نفسَه لسعادةٍ ثابتة بمكافحته أهواءه الدنيوية وبقائه ضمن إرادته الأولى .

وإذا كانت جميعُ ميولنا الأولى شرعيةً حتى فى حال انْخفْض حيث نحن فى هذه الحياة ، وإذا كانت جميعُ عيوبنا تأتينا من أنفسنا ، فَلِمَ نَشْكُو من سيطرتها علينا ؟ ولِمَ نَلُوم خالقَ الأشياء على الشرور التى نَصْنَعُ ، وعلى الأعداء الذين نُسَلِّحُ ضِدَّ أنفسنا ؟ آه ! دَعْنَا لا نُفْسِدُ الإنسان مطلقاً ، فهو سيكون صالحاً بلا عناء دائماً ، وهو سيكون سعيداً بلا نَدَمٍ دائماً ، ويكون المجرمون ، الذين يَدَّعون أنهم اضْطُرُّوا إلى الجريمة ، أشراراً كاذبين ، وكيف لا يَرَوْن ، مطلقاً ، أن الضعف الذى يَشْكون منه هو من عملهم الخاصِّ ، وأن فسادهم الأول يأتيهم من إرادتهم ، وأنهم إذْ أرادوا الإذعانَ لمُيُولهم فاسْتَرْسَلُوا معها أذعنوا لها على الرغم منهم فى آخر الأمر وجعلوها أمراً لا يُقاوَم ؟ أَجَلْ ، عاد لا يَتَوَقَّف عليهم ألَّا يكونوا أشراراً ضعفاء ، بَيْدَ أنه تَوَقَّف عليهم سابقاً ألاَّ يصبحوا هكذا ، وَيْ ! ما أسهلَ بقاءنا قابضين على عِنَان أنفسنا وأهوائنا ، حتى فى أثناء هذه الحياة ، لو كنا ، حين عدم اكتسابنا لعاداتنا بَعْدُ ، وحين أَخْذِ أنفسنا فى التَّفَتُّح ، قد عَرَفنا أن نَشْغَلها بأمورٍ يجب أن تَعْرِفها تقديراً لِما لا تَعْرِف ، ولو كنا قد أردنا ، بإخلاصٍ ، أن نُنيرَ أنفسنا ، لا لِنَلْمَعَ فى نظر

الآخرين ، بل لنكون حكماء صالحين وَفْقَ طبيعتنا ، ولِنَكُونَ سعداء بممارسة واجباتنا ! وتَبْدُو لنا هذه الدِّراسةُ شاقَّةً مملَّة ، وذلك لأننا لم نُفكِّرْ فيها إلاَّ بعد أن فَسَدْنا بالعيب وأَسْلَمْنا أنفسنا إلى أهوائنا ، ونحن نُقَرِّرُ أحكامَنا وتقديرَنا قبل أن نَعْرِف الخيرَ والشَّرَّ ، ثم نَرُدُّ كلَّ شيء إلى هذا القياس الفاسد فلا نُعْطِى شيئاً قيمتَه الصحيحة .

ويأتى دَوْرٌ من العُمُر يكون القلبُ فيه طليقاً بَعْدُ ، ولكن مع نشاطٍ وقَلَقٍ وطمعٍ فى سعادةٍ لا يَعْرِفها ، فيَنْشُدها ، ولكن مع تَقَلُّبٍ ذى فُضُول ، وتَخْدَعُه الحواسُّ ، ويستقرُّ ، أخيراً ، عند منظرها الفارغ فيعتقد أنه وَجَدَها حيث لا تُوجَدُ مطلقاً ، وقد لازمتنى هذه الأوهامُ زمناً طويلاً ، ومن دواعى الأسف أن عَرَفْتُها مؤخَّراً ، ولم أَقْدِر على تبديدِها تماماً ، وهى سَتَبْقَى ما بَقِيَ هذا البدنُ الفانى الذى يُحْدِثُها ، وقد صار من العَبَث ، على الأقلِّ ، إغواؤها لى ؛ فهى لا تَغُرُّنى ، وأَعْرِف ما تَسْعَى إليه ، وأزدريها حين أَتْبعُها ، وأرى فيها عائقاً لسعادتى بدلاً من أن أجِدَ فيها هدفاً لها ، وأَتُوق إلى الوقت الذى أَتَخَلَّصُ فيه من قيود البدن ، فأكون « أنا » بلا تناقضٍ وغيرَ منقسم إلى قِسْمين ، ومن غير احتياجٍ إلى غير نفسى لأكون سعيداً ، وإنى إذْ أنتظر ذلك أجِدُنى سعيدًا حتى فى هذه الحياة لقلة التفاتى إلى شرورها ، ولأننى أعُدُّها غريبةً عن وجودى ، ولأنه يتوقف علىَّ كلُّ خير يمكننى استخلاصُه منها .

وأَتَمَرَّنُ على أعلى التأملات رَفْعاً لنفسى مُقَدَّماً إلى هذه الحال من السعادة ، من القوة والحرية ، ما أمكن ، وأتأمَّل فى نظام الكَوْن ،

لا لتفسيره بمناهجَ فارغةٍ ، بل للإعجاب به دائماً ، ولعبادة الصانع الحكيم الذى يُشْعِرُ بنفسه فيه ، وأُخاطبه ، وأنعم النظر بما أُوتيتُ من قوة فى جوهره الرَّبَّانىّ ، وأَلِينُ بنِعَمِه ، وأَحْمَدُه وأَشْكُر له ما أعطى ، ولكننى لا أدعوه ، وما أسأله ؟ أأَطْلُب منه أن يُغَيِّرَ مجرى الأمور من أَجْلِي ، أى أن يَصْنَع معجزاتٍ نَفعاً لى ؟ وإذْ يَقْضِى الواجبُ بأن أُحِبَّ ، عدا ذلك ، جميعَ النظامِ القائمِ بحكمته والثابتِ بقدرته ، فهل أُريدُ أن يَخْتَلَّ هـذا النظامُ من أَجْلِي ؟ كلاَّ ، فهذا الدعاء الجرىء يستحقُّ أن يعاقَب عليه أكثرَ من أن يُسْتجاب ، وكذلك لا أَلتمس منه قدرةً على فعل الخير ، ولِمَ أَطْلُب منه ما أعطانى ؟ أَلَمْ يُنْعِمْ علىَّ بشعورٍ أُحِبُّ به الخير ، وبعقلٍ أَعْرِفه به وبخيارٍ أختاره معه ؟ إننى إذا ما فعلت الشَّرَّ لم أَكُ معذوراً مطلقاً ، فأنا أَفْعَلُه لأننى أريده ، وذلك لأن طلبى منـه تغييرَ إرادتى يَعْنِى طلبى منه ما يَطْلُبُ منى ، وذلك يَعْنِى أن يقوم بعملى وأن أنال أجرَه ، ويَعْنِى عدمُ رِضَاىَ عن حالى عدمَ إرادتى أن أبقى إنساناً ، أى أن أُريدَ أمراً آخرَ غيرَ ما هو قائم ، أى أن أُريد الاضطرابَ والشرَّ ، أىْ مصدرَ العدلِ والحقِّ ! أيها الرَّبُّ الرحيم الكريم ! أَتوَكَّلُ عليك ، وأَقولُ إن أَقْصَى ما أَرْجو هو أن يَتِمَّ ما تريد ، فإذا ما أَضَفْتُ إرادتى إلى هذا أَكونُ قد فعلتُ ما فَعَلْتَ ، وأَرْضَى بِجُودِك ، وأعتقد أننى أَتمتع سَلَفاً بالسعادة العليا التى هى ثواب ذلك .

والشىء الوحيدُ الذى أَلتمسه منه ، عنـد عدم اعتمادى على نفسى عن حَقّ ، أو الشىء الوحيدُ الذى أنتظر من عدله على الأصحِّ ، هو أن يُقَوِّم

خطئى إذا ما زَلَلتُ وإذا ما كان هذا الضلال خَطِراً علىَّ ، ويقضى حُسْن النيـة بألّا أعتَقِدَنى معصوماً من الخطأ ، وقد تَكُون آرائى التى تَلُوح لى أكثرَ ما يكون صِدْقاً كاذبةً بهذا المقدار ، وإلاَّ فأىُّ إنسان لا يتمسك بآرائه ؟ وما عَدَدُ الناس الذين يتفقون على كلٍّ شىء ؟ وقد يأتينى الوهمُ الذى يَخدَعنى من نفسى ، والله وحدَه هو القادر على شفائى منه ، أَجَلْ ، لقد صنعتُ كلَّ ما أستطيعُ صُنْعَه لأصِلَ إلى الحَقِّ ، غير أن مصدرَه بالغُ الارتفاع عنى ، ومتى أعْوَزَتْـنى القُوَى فى الإمعان بُعْدًا فما ذَنْبِى ؟ إن على الحَقِّ أن يَدْنُوَ منى .

• • •

لقد تَـكلَّم القَسُّ الصالحُ بحماسة ، وقد كان هائجاً ، وقد كنت مِثلَه هياجاً ، وكان يُخَيَّلُ إلىَّ أننى أسمع الرَّبَّانىَّ أُورفُوسَ وهو يُرَتِّلُ الأناشيدَ الأولى ويُعَلِّمُ الناسَ عبادةَ الآلهة ، ومع ذلك فقد كنتُ أبْصِرُ عدداً كبيراً من الاعتراضات يُوَجِّهُ إليه ، ولم أبْدِ واحدًا منها ، وذلك لأنها كانت أقربَ إلى التشويش منهـا إلى الجِدِّ ، ولأنى كنت أمْيَلَ إلى الاقتناع ، وكان كلما تقدم فى الكلام وَفْقَ ضميره لاح ضميرى مُثَبِّتاً إيَّاىَ على ما يَكُون قد قال لى .

وأقول له : « إن ما عَرَضْتُم علىَّ من مشاعرَ يَلُوح لى أكثرَ جِدَّةً بما تعترفون أنكم تَجْهَلُون مما بما تَقُولون إنكم تعتقدون ، وفى ذلك أرى ، تقريباً ، اعتقادًا بوحدانية الله أو الدينِ الطبيعىِّ ، أى الدينِ الذى يَظهرُ أن النصارى

يَخلِطون بينه وبين الإلحاد أو الكُفْر الذى هو مذهبٌ مباينٌ لذلك رأساً ، ولكننى فى الحال الحاضر من إيمانى أَميلُ إلى الصعود أكثرَ مما إلى الهبوط اعتناقاً لآرائكم ، وأجِدُ من الصعب أن أبقَى حيث أنتم ضَبْطاً ما لم أكن مِثْلَكم حكمةً ، وأرِيدُ أن أشاورَ نفسى حتى يَكُونَ لى ذاكَ الإخلاصُ على الأقلِّ ، والشعورُ الباطنيُّ هو الذى يجب أن يَقُودَنى إلى مثالكم ، وقد علَّمتمونى بأنفسكم أن تذَكُّرَه ليس عَمَلَ ساعةٍ بعد أن فُرِضَ السُّكُوتُ عليه زمناً طويلاً ، وأَمْضِى بكلامكم فى فؤادى ، ولا بُدَّ لى من تأمُّلِه ، وإذاما كنتُ مِثْلَما أنتم عليه قناعةً بعد أن أُشاور نفسى جيداً كنتم آخرَ رسولٍ لى وصِرْت مهتدياً بكم حتى الموتِ ، ومع ذلك فداوموا على تعليمى ، فلَمْ تقولوا لى غيرَ نصفِ ما يَجِبُ أن أعْرِف ، فحَدِّثوا عن الوَحْيِ والكتب المقدسة ، وعن تلك العقائدِ الغامضة التى تُهْتُ فيها منذ صِباى من غير أن أستطيع إدراكَها أو اعتقادَها ، ومن غير أن أعتنقها أو أن أنبِذَها » .

ويقول معانقاً إيَّاى : « أَجَلْ ، يا بُنَىَّ ، سأقول لك كلَّ ما أفكِّرُ فيه ، ولا أُريد أن أفتح لك نصفَ قلبى مطلقاً ، ولكن ما تُبْدِى لى من رغبةٍ كان ضروريًّا ليَدْفَعَنى إلى عدم اتخاذ أىِّ تَحَفُّظٍ نحوك ، ولم أَقُلْ لك حتى الآن شيئاً لم أعتقد إمكانَ فائدته لك ولم أكن قانعًا به قلبيًّا ، وما بَقِىَ علىَّ أن أقومَ به من بحثٍ مختلفٌ جدًّا ، ولا أُبْصِرُ فيه غيرَ الارتباكِ والغموض والالتباس ، ولا أَحْمِلُ إليه غيرَ الشَّكِّ والارتياب ، ولا أُقْدِم عليه إلاَّ مرتجفًا ، وأقول لك رِيَبِى أكثرَ من أن أقول لك آرائى ، ولو كانت آراؤك أكثرَ ثباتاً لتردَّدْتُ فى عَرْض آرائى عليك ،

ولكنك فى الحال التى أنت عليها لك كَسْبٌ فى التفكير مثلى[١] ، ثم لا تَمْنَحْ كلامى غيرَ سلطانِ البرهان ، فأنا أَجْهَلُ كَوْنِى على خطأٍ ، ومن الصعب عند الجدال ألاَّ تُتَّخَذَ لهجةٌ جازمة أحيانًا ، ولكن اذْكُرْ أن جميع توكيداتى هنا ليست غيرَ أسبابٍ داعيةٍ إلى الشَّكِّ ، وابْحَثْ عن الحقيقة بنفسك ، وأما أنا فلا أَعِدُك بغير حسن النية .

« أنتم لا تَرَوْن فى بيانى غيرَ الدين الطبيعىِّ ، ومن الغريب جِدًّا أن يُحْتَاجَ إلى غيره ، وبأية وسيلةٍ أَعْرِفُ هذه الحاجة ؟ وبأىِّ شىء أُعَدُّ مذنبًا إذا ما عَبَدْتُ الرَّبَّ على حَسَبِ البصائر التى يُنْعِم بها على نَفْسى ووَفْقَ المشاعر التى يُوحِى بها إلى قلبى ؟ وأىُّ صفاء خُلُقِىٍّ ، وأىُّ اعتقادٍ نافع ، يُمْكِننى استنباطُه من مذهبٍ وضعىٍّ فلا أستطيع أن أستنبطه من حُسْنِ استعمال مواهبى ؟ أَرُونى ما يُمْكِنُ إضافته ، فى سبيل مَجْدِ الرَّبِّ ، وفى سبيل خَيْرِ المجتمع ، وفى سبيل مصلحتى الخاصة ، إلى واجبات الناموس الطبيعىِّ ، وأىُّ فضيلةٍ يُمْكِنُكم أن تُنْبِتُوا من دِينٍ جديد لا تكون نتيجةً لدينى ، فأعظمُ الأفكار عن الرَّبِّ تنشأ عن العقل وحدَه ، وانْظُرُوا إلى منظر الطبيعة ، وأَنْصِتُوا لصوت الباطن ، أَفَلَمْ يَقُل اللهُ كلَّ شىء لأعيننا ولضميرنا وحُكْمنا ؟ وما يَقُول لنا الناسُ زيادةً على ذلك ؟ لا يَصْنَعُ وَحْيُهم غيرَ تنزيل مقام الرَّبِّ بإسباغ أهواء الناس عليه ، وأَرَى أن العقائد الخاصة تَعَقِّدُ مبادئَ الكائن الأعلى بدلًا من إلقاء نورٍ عليها ، وأرى العقائدَ الخاصةَ تَحُطُّها بدلًا من أن تَرْفَعَها ، وأنها تُضِيفُ متناقِضاتٍ

---

(١) أعتقد أن هذا هو الذى يستطيع القسيس أن يخاطب به الجمهور فى الوقت الحاضر .

مُحَالَةً إلى الأسرار الخفية التى لا يُمْكِن تصورُها ، وأنها تَجْعَلُ الإنسانَ مختالًا متعصباً قاسياً ، وأنها تَحْمِلُ الحديدَ والنارَ إلى الأرض بدلًا من إقرار السلام فيها ، وأسأل نَفْسِى عن فائدة جميع هذا من غير أن أعْرِفَ كيف أُجيب ، ولا أرى فى ذلك غيرَ جرائمِ الناس و بؤس الجنس البشرىّ .

« ويقال لى إنه لا بُدَّ من الوحى لتعليم الناس كيف يَعْبُدُون الله كما يُرِيد ، ويُسَاقُ كدليلٍ على ذلك اختلافُ ما أقامه الناس من عباداتٍ غريبةٍ متنوعة ، ولم يُرَ أن هذا التنوعَ ناشئٌ عن هَوَى الوَحْى ، فالشعوبُ ، منذ عَنَّ لها أن تَجْعَل الرَّبَّ يتكلَّم ، جَعَلَه كلٌّ واحدٍ منها يتكلَّم وَفْقَ ذَوْقه ، وحَمَله على قول ما يريد ، ولو اسْتُمِع إلى ما قال الرَّبُّ لقلب الإنسان ما وُجِدَ غيرُ دينٍ واحد على الأرض .

« ووَجَبَ وجودُ عبادةٍ واحدة ، وأريدُ هذا ، ولكن هل كان هذا الأمرُ من الأهمية البالغة ، إذَنْ ، ما اقتضى معه جميعَ جهازِ القدرة الإلهية لإقامته ؟ ولا نَخْلِطْ بين الدين وطقوسه مطلقاً ، فالعبادةُ التى يطلبُها الرَّبُّ هى عبادةُ القلب ، وتكون هذه على نَمَطٍ واحد ، دائماً ، عند إخلاصها ، ومن الزَّهو الأخْبَل أن يُتَصَوَّر أن الله يُبَالِي كثيراً بشكل حُلَّة القِسِّيس و بنظامِ الكلمات التى يَنْطِقُ بها وبالحركاتِ التى يأتيها عند المحراب وبجميع رَكَعاته ، آهْ ! انْتَصِبْ ، يا صديقى ، تَبقَ قريبًا من الأرض دائمًا ، واللهُ يريد أن يُعْبَد بالروح والصِّدْقِ ، وهذا الواجبُ ملائمٌ لجميع الأديان وجميع البلدان ولكلِّ إنسان ، وأما العبادةُ الخارجية فإذاما وجب أن تكون على نَمَطٍ واحدٍ لحُسْن النظام كان هذا عَمَلَ شُرْطةٍ مَحْضًا ، ولا يستلزم هذا وحياً مطلقًا .

« ولا أبدأ بجميع هذه الأفكار ، وبما أنني مَسُوقٌ بمُبْتَسرات التربية وبالأنانية الخَطِرَة التي تهدِف ، دائماً ، إلى حَمْل الإنسان فَوْقَ نِطَاقه ، وبما أنني لا أستطيعُ رَفْعَ مداركي الضعيفة إلى الموجود الأعظم ، فإنني أحاول خَفْضَه إلى حيث أنا ، وأُقَرِّب بين العلائق البعيدة إلى الغاية التي وَضَعَها بين طبيعته وطبيعتي ، وأُرِيدُ صِـلاتٍ أكثرَ مباشرةً ومعلوماتٍ أكثرَ خصوصيةً ، وبمـا أنه لا يُرْضِيني أن أَجْعَل الرَّبَّ مشابهاً للإنسان حتى أكون ممتازاً بين أمثالي ، فإنني أُرِيدُ معارفَ خارقةً للعادة ، وأُرِيدُ عبادةً خاصة ، أُريد إلٰهاً يخاطبني بما لم يخاطب به الآخرين ، أو بما لم يُدْرِكه الآخرون كما أُدْرِك .

« وإني إذْ أَعُدُّ النقطةَ التي انتهيتُ إليها نقطةً مشتركةً يَنطَلِقُ منها جميعُ المؤمنين وصولاً إلى شكلٍ من الدين أكثرَ نوراً لا أجِدُ في عقائد الدين الطبيعيِّ غيرَ عناصرِ جميع الأديان ، وأنظُر إلى هذا الاختلاف بين النِّحَل السائدةِ للأرض والتي تَتَّهِمُ كلٌّ واحدة ما سواها بالكذب والضلال فأسأل : « أيُّها على الحقِّ ؟ » ، ويُجِيبُ كلُّ واحدٍ عن هـذا بقوله : « نِحْلَتي » ، ويقول كلُّ واحدٍ : « أُفكِّرُ أنا وجميعُ أتباعي تفكيراً صادقاً ، وأما الآخرون فكلُّهم على ضلال » ، وأسأل : « كيف تَعرِفون أن نِحْلَتكم هي التي على الحقِّ ؟ » ، وأُجابُ عن هذا بكلمةٍ : « ذلك لأن الله قال هذا »[1] ، وأسأل : « ومن يقول لكم إن اللهَ قال هذا ؟ » ،

(١) قال قسيس صالح حكيم : « جميع الناس يقولون إنهم يحافظون عليه ويؤمنون به (وجميع الناس يستعملون عين الرطانة) على أنه من الله ، لا من الناس ، ولا من أي مخلوق كان . =

ويقال لى : « هو قِسِّيسُنا الذى يَعْرِف ذلك جيداً ، وهو يقول لنا أن نُؤمِنَ هكذا فنؤمن ، وهو يقول مُوَكِّدًا إن جميع الذين يقولون غيرَ هذا يَكْذِبون ، فلا نَستَمِعُ إليهم » .

« ماذا ! وهل أَظُنُّ أن الحقيقة ليست واحدة ؟ وهل يكون ما أراه حقيقةً باطلًا عندكم ؟ وإذا كان منهاجُ الذى يَتَّبِع الطريقَ الصالح ومنهاجُ الذى يَضِلُّ واحداً فأىُّ مزيةٍ أو أىُّ خطإٍ يكون بجانب الواحد أكثرَ مما بجانب الآخر ؟ إن خيارهما نتيجةُ المصادفة ، وينطوى عَزْوُها إليهما على جَوْر ، وهو يعنى مجازاتَهما أو مكافأتهما لِولادتهما فى هذا البلد أو ذاك ، وتُعَدُّ الجُرْأةُ على القول بأن الرَّبَّ يَحْكُم فينا هكذا طَعْناً فى عدله .

« وجميعُ الأديان إما أن تكون صالحةً مقبولة لدى الله ، وإما أن يكون اللهُ قد أمَرَ الناسَ باتِّباع واحدٍ منها فيجازى من يُنكِرُه ، باتّباع واحدٍ منها مَنَحَه علائمَ ثابتةً واضحةً ليُمَازَ بها ويُعرَفَ على أنه الحقُّ وحدَه ، علائمَ متماثلةً فى كلِّ زمان ومكان ، واضحةً لدى كلِّ إنسان ، كبيراً كان هذا الإنسانُ أو صغيراً ، عالماً أو جاهلًا ، أوربيًّا أو هنديًّا أو إفريقيًّا أو همجيًّا ، فإذاما وُجِدَ على الأرض دينٌ لا يَكُون غيرُ العذابِ

= « ولكننى أقول الحق ، والحق أقول بلا مصانعة ولا مواربة ، إنه لا شيء من هذا ، فالأديان تعرف بأيد ووسائل بشرية ؛ ودليل ذلك أولا طريقة تلقيها فى العالم من قبل الأفراد سابقاً ولاحقاً ، وذلك أنها وليدة الشعب والبلد والمكان ، وذلك أننا نختن ونعمد فنكون يهود ومسلمين ونصارى قبل أن نعرف أننا آدميون ، وذلك أن الدين ليس أمراً يقع تحت خيارنا وانتخابنا ، وذلك لما يرى من سوء توافق الحياة والطبائع مع الدين ، وذلك لما يشاهد من مخالفة الإنسان لأحكام دينه عند أخف البواعث البشرية » ، شارون ، الحكمة ، باب ، فصل ٥ ، صفحة ٢٥٧ ، طبعة بوردو ، سنة ١٦٠١ .

ومن الواضح أن عقيدة لاهوتى كوندون لا تختلف كثيراً عن عقيدة القسيس السافوائى .

الأبدىَّ خارجَ نطاقه ، وإذا لم يُوجَدْ فى بُقعةٍ ما من العالم غيرُ إنسانٍ واحدٍ لم يُؤْمِنْ ببرهان هذا الدين عن حُسْن نية ، كان إلهُ هذا الدين أظلمَ الطُّغاة وأشدَّهم قسوةً .

« أَوَ نبحَثُ عن الحقيقة بإخلاص ؟ دَعْنا لا نمنَحُ حَقَّ النسب وسلطانَ الآباء والقِسِّيسين شيئاً ، ولكن لِنَدْعُ إلى امتحان الضمير والعقل جميعَ ما عَلَّمُونا إياه منذ صِبانا ، ومن العبث قولهم بصوتٍ عالٍ : « اقْهَرْ عَقْلَك » ، فهذا مَبْلَغُ ما يستطيع أن يقوله مخادع ، ولا بُدَّ من وجود أسبابٍ لدىَّ حتى أقْهَرَ عقلى .

« ويقتصر جميعُ علم اللاهوت الذى يُمكِنُنى اكتسابُه من تلقاء نفسى ، بملاحظة الكَوْن وبحُسْنِ استعمال مواهبى ، على ما أوضحتُه لكم سابقاً ، ولا بُدَّ من الالتجاء إلى وسائلَ خارقةٍ للعادة لمعرفة ما هو أكثرُ من ذلك ، ولا تقوم هذه الوسائل على سلطان الناس ، وذلك بما أنه لا إنسانَ يكون من غير نوعى فإن كلَّ شىء يَعْرِفه الإنسان طبيعةً أستطيع أن أعْرِفه أيضاً ، ويُمكِنُ إنساناً آخرَ أن يُخْدَع كما أُخْدَع ، ومتى اعتقدتُ ما يقول لم يَكُنْ هذا لأنه قاله ، بل لأنه أثبتَه ، وليست شهادةُ الناس من حيث الأساسُ ، إذَنْ ، غيرَ شهادة عقلى ذاتِه ، وهى لا تزيد شيئاً على الوسائل الطبيعية التى أنعَمَ اللهُ بها علىَّ لأعْرِف الحقيقة .

« ويا رسولَ الحقيقة ، ما عليكم أن تقولوا لى ، إذَنْ ، غيرَ ما لا أكون قاضيَه ؟ قد قال اللهُ بذاته : استمعوا لوحيه ، ذاك أمرٌ آخر ، وقد قال اللهُ ! تلك كلمةٌ عظيمة حقًّا ، ومن كَلَّم اللهُ ؟ لقد كَلَّم الناسَ ، ولِمَ لم أسْمَعْ

من ذلك شيئاً ؟ لقد عَهِدَ إلى أناسٍ آخرين فى تبليغ كلامه إليكم ، وأُدْرِكُ ! يَقُول أناسٌ لى ما قال اللهُ ، وأُفَضِّلُ أن أسْمَعَ اللهَ ذاته ، وهذا لا يُكَلِّفُه كثيراً ، وسأكون فى مأمنٍ من الإغواء ، وهو يَحْفَظُكم منه بإعلان بِعْثة مُرْسَليه ، وكيف يَكُون هذا ؟ بالمعجزات ، وأين هذه المعجزات ؟ فى الكتب ، ومَنْ وَضَع هذه الكتب ؟ الناسُ ، ومن رأى هذه المعجزاتِ ؟ الناسُ الذين شَهِدُوها ، ماذا ! شهاداتٌ بشرية دائماً ، أناسٌ يَقُصُّون علىَّ ما رواه أناس آخرون ! وما أكثرَ من هم بينى و بين الرَّبِّ ! دَعْنا نَنْظُرُ مع ذلك ، دَعْنا نَفْحَص ونقابل ونُحقِّق ، آه ! إذا ما تَفَضَّل الرَّبُّ بإعفائى من جميع هذا العمل أفلاَ أعْبُدُه بكلِّ فؤادى ؟

« وانْظُرْ ، يا صديق ، أىَّ جِدالٍ هائل شُغِلْتُ به الآن ، وأىَّ معرفةٍ واسعة أحتاج إليها لأَرْجِعَ إلى أبعد القرون القديمة ، فأبْحَثَ فى النبوءات والوحى والوقائع وجميع آثار الدين المعروضة فى جميع بلاد العالم وأَزِنَها وأُقابلَ بينها تعييناً للأزمنة والأمكنة والفاعلين والعوامل ! وما أعْظَم ما يُعْوِزُنى من إصابة نقدٍ لأُميزَ المُسْتَنَداتِ الصحيحة من المستندات المُزَوَّرة ، ولأقابل بين الاعتراضات والجَوَابَات والتَّرْجمات والأصول ، وللحكم فى عَدَالة الشهود وحُسْنِ بصيرتهم وفى معارفهم ، ولأعْرِفَ هل حُذِف شىء وأُضيف وحُرِّف وبُدِّل وزوِّر ، ولأُزيلَ ما يَبْقَى من المتناقضات ، ولأحْكُمَ فيما يجب أن يُعَارَ من أهميةٍ حَوْلَ سكوت الخصوم عن الوقائع الواردة ضِدَّهم ، وللحُكْم فى هل هذه البراهينُ كانت معروفةً عندهم ، وهل أقاموا لها من الوَزْن ما يَتَنَازلون معه إلى الجواب عنها ، وهل كانت الكُتُبُ من الشيوع

ما تتَّصِلُ معه كُتُبُنَا بها ، وهل نحن من حُسْن النية ما نَدَعُ كُتُبَهم معه تَسِيرُ بيننا وما نَتْرُك معه أقوى اعتراضاتِهم باقيةً كما وَضَعُوها ؟

« ومتى قُبِلَتْ جميعُ هذه الوثائقِ على أنها تَقْبَلُ الجدل وجب الانتقالُ إلى أدلةِ بعثة واضعيها ، فوجبت معرفة نواميس الحُظوظ والاحتمالات للحُكْم فى أية نبوءةٍ يُمكِن قيامُها بلا معجزة ، ووجبت معرفةُ روح اللغات الأصلية لتميز ما هو نبوءةٌ فى هذه اللغات ، وما هو غيرُ شكلٍ خطابىّ ، ووجبت معرفةُ أىّ الأشياء فى نظام الطبيعة وأىّ الأمور الأخرى ليس فيها ، فيُحَدَّث عن الحدّ الذى يستطيع رجلٌ ماهرٌ أن يَسْحَرَ به عيونَ البُسَطاء ويُلقِى الحيْرة فى نفوس المُثقَّفين ، ووَجَبَ أن يُبْحَثَ عن نوع المعجزة وعما يَلزَمُ وجودُه فيها من صِدْقٍ لا لِتُعْتَقَدَ فقط ، بل ليُعَاقَبَ على الشَّكّ فيها ، ووَجَبَ أن يقابَلَ بين أدلة المعجزات الصادقة والمعجزات الكاذبة فيُعْثَرَ على قواعدَ ثابتةٍ للتفريق بينها ، ثم لِمَ يختار الرَّبُّ ، لإثبات كلامه ، وسائلَ تحتاج احتياجاً كبيراً إلى إثبات ، كما لو كان يلاعب سرعةَ التصديق فى الناس مجتنباً عمداً وسائلَ إقناعهم الحقيقيةَ .

« ولنفترض أن الجلالة الإلهية تفضلت فتنازلت بما فيه الكفاية لتجعل أحدَ الناس واسطةَ عزائمها المقدسة ، فهل من العقل والعدل أن يطالَب جميعُ الجنس البشرىّ بتلبية نداء هذا الواعظ من غير أن يُجْعَل معروفاً هكذا ؟ وهل من الإنصاف ألاَّ يُعطَى من أوراق الاعتماد غيرُ إشاراتٍ خاصةٍ تتِمُّ أمام قليلٍ من ذوى النفوس الغامضة على حين لا تَعْرِف بقيةُ

الناس من ذلك غيرَ ما تَعلَم تَماعًا ؟ وإذا ما عُدَّ من الحقائق فى جميع بلاد العالم جميعُ العجائب التى يقول العوامُّ والبسطاء إنهم رأوها كانت كلُّ نحلةٍ صالحةً ، وَوُجِدَ من العجائب ما يَزِيدُ على الحادثات الطبيعية ، وكانت أعظمُ المعجزات فى الأمكنة التى يُوجَدُ فيها متعصبون مضطهدون من غير أن تُوجَدَ فيها معجزاتٌ مطلقاً ، ونظامُ الطبيعة الثابتُ هوأحسنُ ما يَدُلُّ على اليد الحكيمة التى تُدِيرُه ، فإذاما وُجِدَ شواذٌّ كثيرةٌ لهذا كِدْتُ لا أعْرِف فيما أفكِّر ، وأما أنا فقد بلغتُ من شِدَّة الإيمان بالله مالا أُومِن معه بمعجزاتٍ كثيرة غيرِ حرِيَّةٍ به .

« ولْيَأتِ رجلٌ ولْيَقُلْ لنا بهذه اللهجة : أيها الناس ! أُخْبِرُكم بمشيئة الربِّ الأعلى ، واعْرِفُوا فى ندائى نداء الذى أرسلنى ، فأنا آمُرُ الشمسَ بتغيير مجراها ، والنجومَ باتخاذ نظامٍ آخرَ لها ، والجبالَ بأن تُسَوَّى ، والأمواجَ بأن ترتفع ، والأرضَ بأن تُغَيِّرَ منظرَها ، ومن ذا الذى لا يَعرِف سيدَ الطبيعة بهذه المعجزات من فَوْره ؟ والطبيعةُ لا تطيع المُخَادعين مطلقاً ، وتَقَعُ معجزاتُ هؤلاء فى المَفارِق والبَرَارِىِّ والحُجُرات حيث تَرُوجُ بضاعتُهم لدى عددٍ قليلٍ من الحُضُور المستعدين لاعتقاد كلِّ شىء ، ومن ذا الذى يَجْرُؤُ على بيانه لى مقدارَ شهود العِيَان الذين لا بُدَّ منهم لجَعْلِ المعجزةِ أمراً جديراً بأن يؤمَن به ؟ وإذا كانت معجزاتُكم التى صُنِعَت لإثبات مذهبكم محتاجةً إلى إثباتٍ فما يَكُون نفعُها ؟ لا فَرْقَ بين الإتيانِ بها وعَدَمِه فائدةً .

« وأخيراً تبقى ضرورةُ القيامِ بأهمِّ تمحيصٍ فى ذاك المذهب ، وذلك

بما أن الذين يقولون إن الربَّ يأتى بمعجزاتٍ فى هذه الدنيا يَزْعُمون أن الشيطان يُقلِّدُها أحياناً ، فإننا لا نكون قد تقدَّمنا أكثرَ مما فى السابق بأحسنِ ما شوهِدَ من المعجزات ، وذلك بما أن سَحَرَةَ فرعونَ قد أقْدموا أمام موسى نفسِه على إتيان عين الآيات التى أتاها بأمرٍ صريحٍ من الربِّ فَلِمَ لا يَدَّعون بعَيْن القدرة فى غِيابه مع ذات العُنوان ؟ وهكذا يَجِبُ ، إذَنْ ، إثباتُ المُعْجِزة بالمَذْهب بعد أن أُثْبِت المذهبُ بالمعجزة[1] ، وذلك خشيةَ عَدِّ عمل الشيطان من عمل الربِّ ، فما قَوْلكم عن هذا الافتراض فيما يُطْلب برهانُه وإثباتُه ؟

« ولو كان هذا المذهبُ صادراً عن الربِّ لوَجَبَ أن يَحْمِلَ طابَعَ الألوهية المقدس ، وذلك أنه لا يَكْفِى أن يُوضِح لنا مُخْتلِطَ الأفكار التى يَرْسُمها البرهانُ فى ذهننا ، بل يَجِبُ ، أيضاً ، أن يَعْرِض هذا المذهبُ علينا عبادةً وأدباً ومبادئَ ملائمةً للصفات التى نَتَمَثَّلُ بها وحدَها كُنْهَ

(١) هذا أمر صريح فى ألف مكان من الكتاب المقدس، ومن ذلك قول الفصل الثالث عشر من سفر تثنية الاشتراع إنه إذا أخبر نبى عن آلهة غريبة فأيد كلامه بمعجزات وحدث ما أنبأ به وجب قتل هذا النبى من غير نظر إلى ما وقع ، فما حدث ، إذن ، من قتل الوثنيين للرسل الذين أخبروهم بإله غريب مؤيدين رسالتهم بنبوءات ومعجزات لا أرى أنه كان يمكن أن يعترض عليهم من أجله اعتراضاً متيناً بما لا يمكن أن يوجهوه إلينا حالا ، وما الذى يصنع فى مثل هذه الحال؟ يصنع أمر واحد، وهو أن يرجع إلى البرهان مع ترك المعجزات حيث هى ، والأفضل ألا يلجأ إليها ، وهذا من أبسط قواعد الذوق السليم الذى لا يعمى بغير البيانات التى هى على شىء من الدقة البالغة ، دقائق فى النصرانية ! ولكن يسوع المسيح كان مخطئاً ، إذن ، حين وعد البسطاء بملكوت السموات ، ولكنه كان مخطئاً ، إذن ، حين بدأ أروع كلامه بتبشير فقراء الذهن ... لو اقتضى وجود ذهن غزير لفهم مذهبه وتعليم الإيمان به ، ولو أثبتم لى أن الخضوع من واجباتى لصار كل شىء حسناً ، ولكن إثبات هذا لى يتطلب وضع نفسكم على مستواى ، واجعلوا براهينكم مطابقة لقابلية فقير فى الذهن ، و إلا عدت لا أعرف فيكم تلميذاً حقيقياً لمعلمكم ، وعاد ما تخبروننى به لا يكون مذهبه.

الرّبّ ، و إذا كان لا يُعلِّمنا ، إذن ، غيرَ أمورٍ مستحيلةٍ مخالفةٍ للصواب ، و إذا كان لا يُوحى إلينا بغيرِ مشاعرِ الكراهية لأمثالنا و بغيرِ ذُعرٍ لأنفسنا ، و إذا كان لا يُصوِّرُ لنا غيرَ ربٍّ غضوب مِغيارٍ مِثْار مُغرِض مُبغِضٍ للبشر ، ربٍّ للحرب والمعارك متأهِّبٍ للتخريب والتدمير ، مُحدِّثٍ ، دائماً ، عن العذاب والنَّكال ، مُباهٍ بمعاقبة الأبرياء أيضاً ، فإن فؤادى لا يَنجذب إلى هذا الإله الهائل محترزاً من ترك الدين الطبيعيّ اعتناقاً لذاك المذهب ، وذلك لأنه لا بُدَّ من الاختيار عن ضرورةٍ كما ترون ، وأقول لأتباعه ليس إلٰهكم إلٰهنا ، وليس الذى يَبدأ باختيارِ شعبٍ واحدٍ فقط ، طارداً بقيةَ الجنس البشريّ من حمايته ، أباً عامًّا للناس ، وليس الذى يُعِدُّ مُعظَمَ مخلوقاته للعذاب الأبديّ ذاك الإلٰهَ الرحيمَ الكريم الذى دلّنى عليه عقلى .

« والعقلُ ، من حيث العقائدُ ، يقول لى إنه يجب أن تكون واضحةً ساطعةً تَقِفُ الأبصارَ بجلائها ، و إذا كان الدينُ الطبيعىُّ ناقصاً فذاك للغموض الذى يَترُكه فى الحقائق الكبرى التى يُعلِّمنا إياها ، فعلى الوحى أن يُعلِّمنا هذه الحقائقَ على وجهٍ يُدرِكها به ذهنُ الإنسان ، وأن يَضعَها فى متناوله ، وأن يجعله فى حالٍ يتمثّلها معه حتى يؤمنَ بها ، ويتأيَّدُ الإيمانُ بالفهم ويشتدُّ ، ولا مِراء فى أن أحسنَ الأديان أوضحُها ، وأما الدينُ الذى يَشحَنُ ما يَعِظُنى به من العبادة بالأسرار والمتناقضات فإنه يُعلِّمنى الحذرَ منه لهذا السبب ، وليس الإلٰه الذى أعبُدُ إلٰهَ الظَّلام ، وهو لم يُنعِمْ علىَّ بإدراكٍ ليَمنَعنى من الانتفاع بهذا الإدراك ، ويَنطوى كلُّ قولٍ لى بأن أقهر عقلى على إهانة صانعه ، ولا يجُور ولىُّ الحقّ على عقلى ، بل يُنيره .

« وقد طَرَحْنا كلَّ سلطانٍ بشريّ جانباً ، وما كان لِيُمكِنَني أن أرى بغير هذا السلطان كيف يستطيع الإنسانُ أن يُقنِعَ إنساناً آخرَ بوعظه بمذهبٍ مخالف للصواب ، ولْنَدَعْ هذيْن الإنسانين يتخاصمان ساعةً من نهارٍ ، ولْنَبْحَثْ عما يمكن أن يقولا فى عُنفِ اللهجة المعتادة لديهما .

المُلْهَم :

« يُعَلِّمُنا العقلُ أن الكلَّ أعظمُ من جُزْئه ، وأما أنا فأخبِرُك ، باسم الرَّبِّ ، أن الجزء أعظمُ من الكلِّ » .

المُبَرْهِن :

« ومَنْ أنت حتى تَجْرُؤَ على القول لى إن الرَّبَّ يناقضُ نفسَه ؟ وأيُّكما أُفَضِّلُ أن أُصَدِّقَ : هو الذى يُعَلِّمُنى بطريق العقل كَوْنَ الحقائق أزليَّةً ، أو أنت الذى يُخْبِرُنى مستحيلًا باسمه ؟ » .

المُلْهَم :

« صَدِّقنى ، وذلك لأن تعليمى أكثرُ إيجابيَّةً ، وسأُثبِتُ لك بما لا يترك للشَّكِّ مجالًا أنه هو الذى أرسلنى » .

المُبَرْهِن :

« كيف ؟ أنت ستُثْبِتُ لى أن الرَّبَّ أرسلك لتشهد ضِدَّه ؟ ومن أىِّ جنسٍ ستكون براهينُك لإقناعى أن الرَّبَّ يخاطبنى بفَمِك أكثرَ مما بالإدراك الذى أنعم به علىَّ ؟ » .

المُلْهَم :

« الإدراك الذى أنعم به عليك ! يا لك من إنسان صغير مغرور ! كأنك

أولُ مُلْحِدٍ يَضِلُّ بعقله الذى أفسدته الخطيئة ! » .

المُبَرْهِن :

« أيها القِدِّيس ، وكذلك أنت لا تكون أولَ خادعٍ يتخذ انتفاخه دليلاً على رسالته » .

المُلْهَم :

« ماذا ! حتى الفلاسفةُ ينطقون بالإهانات ! » .

المُبَرْهن :

« أحياناً ، عند ما يجعَل القديسون من أنفسهم قُدْوَةً » .

المُلْهَم :

« وَىْ ! أنا ، يَحِقُّ لى أن أقول ذلك ، فأنا أتكلم باسم الرَّبِّ » .

المُبَرْهن :

« الأفضلُ أن تُبْرِز حُجَجَك قبل أن تستعمل امتيازاتِك » .

المُلْهم :

« إن حُجَجِى صحيحة ، وتَشْهَدُ الأرضُ والسماواتُ لى ، فاتَّبِع براهينى كما أطلبُ منك » .

المُبَرْهن :

« براهينك ! أنت لا تُفَكِّر فيها ، ألاَ يَعْنِى تعليمى أن عقلى يخادعنى رفضاً لكلِّ ما يقول لى من أجلِك ؟ وعلى كلِّ من يريد رَدَّ العقل أن يُقْنِعَ من غير أن ينتفع به ، وذلك لنفترِضْ أنك أقنعتنى بالبرهنة فكيف أعْرِف أن عقلىَ الفاسدَ بالخطيئة هو الذى يجعلنى أوافقُ على ما تقول لى ؟ ثم أىُّ دليل وأىُّ برهان

يمكنك استعماله يكون أوضحَ من الأمر البَدَهيّ الذى يجب عليه أن ينقُضَه ؟ وكذلك إن مما يُمكِنُ تصديقُه أن يكون القياسُ المنطقيُّ الحسنُ أكثرَ كَذِبًا من كَوْن الجزء أعظمَ من الكُلّ » .

المُلْهَم :

« يا للفَرْق ! إن براهينى بلا جواب ، وهى من نظامٍ خارق للطبيعة » .

المُبَرْهِن :

« خارق للطبيعة ! ما معنى هذه الكلمة ؟ لا أُدرِكه » .

المُلْهَم :

« تغييرات فى نظام الطبيعة ، نبوءات ، معجزات ، عجائب من كلّ نوع » .

المُبَرْهِن :

« معجزات ! عجائب ! لم أرَ قَطُّ شيئًا من جميع هذا » .

المُلْهَم :

« لقد رآه آخرون نيابةً عنك ، جموعٌ من الشهود . . . شهادة أقوام . . . » .

المُبَرْهِن :

« هل شهادة الأقوام من النظام الخارق للطبيعة ؟ » .

المُلْهَم :

« كلاّ ، وإنما تكون أمراً لا مِرَاءَ فيه عند ما تكون مُجْمَعًا عليها » .

المُبَرْهِن :

« لا شيء يكون أمراً لا جِدَالَ فيه أكثرُ من مبـادئ العقل ، ولا يُمْكِن قبولُ شيءٍ محالٍ بناءً على شهادة آدميين ، ثم لنرَ أدلتَك الخارقةَ للطبيعة ، وذلك لأن شهادة الجنس البشريّ ليست من هذه الأدلة » .

المُلْهَم :

« أيها القلبُ القاسي ، لا تخاطبك النعمة مطلقاً » .

المُبَرْهِن :

« ليس هذا ذَنْـبي ، وذلك لأنك ترى أنه لا بُدَّ من سابق نَيْلٍ للنعمة حتى يُعْرَف طَلَبُها ، ولِذَا فابدأ بمخاطبتي بدلاً منها » .

المُلْهَم :

« آه ! هذا ما أصْنَعُ ، وأنت لا تستمع إليّ ، ولـكن ما تقول عن النُّبُوءات ؟ » .

المُبَرْهِن :

« إن أولَ ما أقُولُ هو أنني لم أسْمَعْ عن النبوءات أكثرَ مما أبْصَرْتُ عن المعجزات ، ثم أقول إنه لا نبيَّ يستطيع أن يكون حجةً عليّ » .

المُلْهَم :

« أيْ عَوْنَ الشيطان ! لِمَ لا تكون النبوءات حجةً عليك ؟ » .

المُبَرْهن :

« ذلك لأن اتفاقَ تلك الحجةِ لما يستلزم ثلاثةَ أمورٍ يستحيل توافقُها ، وهى أن أكُون شاهدَ النبوءة ، وأن أكون شاهدَ الحادثة ، وأن يُثْبَتَ لى أن هـذه الحادثة لا تطابق النبوءةَ عَرضاً ، وذلك أن النبوءة ، حتى عند كَوْنها أكثرَ دقةً ووضوحاً وجلاءً من بَدَهيات الهندسة ، لا يَجْعَل هذا الوضوحُ تمامَ النبوءة القائمة على المصادفة أمراً مستحيلاً ، فلا يُثْبِتُ هذا التمامُ ، لدى وقوعه ، شيئاً لمن تَنَبَّأَ به حصراً » .

« ورَوْا ، إذَنْ ، إلى أىِّ شىء تنتهى براهينُكم الخارقةُ للطبيعةِ المزعومةُ ومعجزاتُكم ونبوءاتُكم ، إنها تنتهى إلى اعتقادِ جميع هذا استناداً إلى إيمان الآخرين ، وإخضاعِ سلطان الرَّبِّ ، إذْ يخاطب عقلى ، لسلطان الناس ، وإذا أمكن الحقائقَ الأزليةَ التى يَتَمَثَّلُها ذهنى أن تُعَانِيَ عَنَتاً عاد لا يكون لدىَّ أىُّ نوعٍ من اليقين ، حتى إننى ، مع البُعْدِ من الاطمئنان إلى أنكم تخاطبوننى من ناحية الرَّبِّ ، لا أكون مطمئناً إلى وجوده .

« وهذه مشاكلُ كثيرةٌ يا بُنَيِّ ، وليس هذا كلَّ شىء ، ويُوجَدُ بين كثيرٍ من مختلف الأديان ، التى تَتَهادر وتَتَهادم مبادلةً ، دينٌ واحدٌ طَيِّبٌ عند وجود مثل هذا الدين ، ولا يكفى لمعرفة هذا الدين أن يُدْرَسَ دينٌ واحدٌ ، بل أن تُدْرَس جميع الأديان ، ولا يجوز العِقابُ بلا سماعٍ فى أىِّ موضوعٍ كان[1] ، فيَجِبُ أن يقابَل بين الاعتراضات والبينات ، ويَجِبُ

(١) ذكر بلوتارك ، فيما ذكر من الأقوال الغريبة ، أن الرواقيين كانوا يذهبون ، فى الحكم المتناقض ، إلى أن من غير المفيد سماع الفريقين ، وذلك أنهم كانوا يقولون إن الفريق الأول إما أن يكون قد أثبت قوله ، وإما ألا يكون قد أثبته ، فإذا ما أثبته كان كل شىء قد قيل ووجب الحكم على الخصم ، وإذا لم =

أن يُعْرَف ما يعترض به كلٌّ واحدٍ على الآخرين ، ويجب أن يُعْرَف الجواب ، وكلما ظَهَرَ لنا ثبوتُ رأيٍ وَجَبَ أن نبحث عما يستند إليه كثير من الناس لكيلا يَرَوْه كما هو ، ويَجبُ أن يَكُون الإنسانُ بسيطًا ليَعْتَقِدَ كفايةَ سماعِ علماء فريقه حتى يَكُونَ على بَيِّنةٍ من براهين الفريق الآخر ، وأين هم علماء اللاهوت الذين يُبَاهون بخُلُوص النية ؟ وأين هم علماء اللاهوت الذين لا يَبْدَءون بإضعاف براهين خصومهم رَفْضًا لها ؟ وكلٌّ يَسْطَعُ في فريقه ، ولكنَّ الذي يَزْهو بين فريقه ببراهينه يُعَدُّ بالغَ الغباوة بهذه البراهين بين رجال الفريق الآخر ، وإذا أردتم أن تستقصُوا في الكتب فما أكثرَ ما يَجِبُ اكتسابُه من علمٍ ! وما أكثر ما يجب تعلُّمه من لغات ! وما أكثر ما يَجِبُ أن يطالَع من مكتبات ! وما أوْسع ما يجب القيامُ به من قراءة ! ومَنْ يكون دليلًا لي في الاختيار ؟ إن من الصعب أن يُوجَدَ في بلدٍ أحسنُ كتبِ الفريق المعاكس ، وأصعبُ من ذلك وجودُ كتبِ جميع الأفْرِقاء ، وهي إذا ما وُجِدَتْ رُدَّت من فَوْرها ، ويُعَدُّ الغائب مخطئًا دائمًا ، وتَمْحُو البراهينُ السيئةُ التي تقال مع التوكيد حَسَنَ البراهين مَحْواً سهلًا مقرونًا بالاحتقار ، وهذا إلى أنه لا شيء أكثرُ تضليلًا من الكتب في الغالب ، فلا تُعَبِّرُ هذه الكتب عن آراء مؤلفيها إلاَّ نادراً ، وإذا أردتم أن تَحْكُمُوا في المذهب الكاثوليكيّ

=يثبته كان على غير حق ووجب رد دعواه ، وأجد أن منهاج جميع الذين يقبلون وحياً دون سواه يشابه كثيراً منهاج هؤلاء الرواقيين ، فمتى زعم كل خصم أن الحق بجانبه وحده وجب سماع جميع الخصوم لتمييز صاحب الحق منهم ، وإلا وقع الظلم .

مستندين إلى كتاب بُوسُويه وَجَدْتم أنفسكم على خطأٍ بعد أن تعيشوا بيننا ، وقد رأيتم أن المذهبَ الذى يُجابُ به البُروتِستْان ليس المذهبَ الذى يُلْقَى على عامَّة الناس ، وأن كتاب بُوسُويه لا يشابه دروسَ الوعظ مطلقًا ، ولا يَنْبَغِى أن يُدْرَس الدينُ فى كتب أتباعه لحُسْن الحُكْمْ فيه ، وإنما يجب أن يُعْرَف عند هؤلاء الأتباع حيث يختلف عن ذاك كثيراً ، ولكلٍّ تقاليدُه وشعوره وعاداتُه ومُبْتَسراتُه التى يتألف منها اعتقاده ، فيجب أن تضاف إلى ذلك للحكم فى ذلك .

« وما أكثرَ الأممَ الكبرى التى لا تَطْبَعُ كتبًا مطلقًا ولا تقرأ كُتُبَنَا ! وكيف تَحْكُمُ فى آرائنا ؟ وكيف نَحْكُمُ فى آرائها ؟ ونحن نَضْحَكُ منها ، وهى تزدرينا ، وإذا كان سُيَّاحُنا يَسْخَرُون منها فإنها لا تحتاج لردِّ السخرية إلى غير السياحة بيننا ، وأىُّ بلادٍ لا يُوجَدُ فيها أناسٌ عقلاء مخلصون صالحون مُحِبُّون للحقيقة فلا يحاولون معرفةَ الحقيقة ليَجْهَرُوا بها ؟ ومع ذلك فإن كلَّ واحدٍ يراها فى دينه ويَجِدُ أديانَ الأمم الأخرى مخالفةً للصواب ، ولِذَا فإن هذه الأديانَ الأجنبية ليست من البُطْلان بمقدار ظهورها لنا ، أو إن ما نَجِدُ فى أدياننا من برهانٍ لا يُثْبِتُ شيئاً .

« ولدينا ثلاثةُ أديان مهمة فى أوربة ، فأحدُها يقول بوحيٍ واحد ، والثانى يقول بوحيَيْن ، والثالث يقول بثلاثة ، وكلٌّ منها يزدرى الآخرَيْن ويَلْعَنُهما ويتهمهما بالعَمَى والقسوة والعناد والكَذِب ، وأىُّ إنسانٍ منصف يَجْرُؤُ على الحكم بينها إذا لم يَزِنْ فى أول الأمر أدِلَّتَها ويَسْمَعْ براهينَها ؟ والدينُ الذى لا يقول بغير وحيٍ واحدٍ هو أقدمُها ، ويَلُوح أنه أكثرُها

رُسوخاً ، والدينُ الذى يقول بثلاثة هو أحدثها ، ويلوح أنه أكثرُها منطقاً ، وقد يكون الدينُ الذى يقول بوحيين ويَرْفِضُ الثالثَ أحسنَها ، ولكنه يعارَض بجميع المُبْتَسَرات ، فيَبْدُو خُلُوُّه من المنطق لكلِّ ذى عينين .

« والكتبُ المقدسة فى التنازيل الثلاثة مَسْطورةٌ بلغاتٍ لا تَعْرِفُها الأممُ التى تَتَّبِعُها ، فعاد اليهودُ لا يَفْهَمُون العِبْرية ، ولا يَفْهَمُ النصارى العبريةَ ولا اليونانية ، ولا يفهم التركُ والفرسُ العربيةَ مطلقاً ، حتى إن العربَ المعاصرين أنفسَهم لا يتكلمون بلغةِ محمدٍ مطلقاً ، أَوَليس من الغباوة أن يُعلَّمَ الناسُ ويُخاطَبُوا دائماً بلغةٍ لا يَفْقَهُونها مطلقاً ؟ سيقال إن هذه الكتبَ تُتَرْجَم ، فيا له من جواب ! فمن ذا الذى يُؤَكِّدُ لى أن هذه الكتبَ تُرْجِمَت بإخلاصٍ وأن من الممكن أن تُتَرْجم تَرْجمةً صحيحة ؟ وإذا كان الربُّ قد تنازل إلى مخاطبة الناس فَلِمَ يحتاج إلى تُرْجمان ؟

« وما كنتُ لأتَصَوَّرَ مطلقاً كَوْنَ ما يُلزَم كلُّ إنسانٍ بمعرفته مَحْجُوزاً فى كُتُبٍ ، وكونَ الذى لا يَصِلُ إلى هذه الكتب ، ولا ينتهى إلى أناسٍ يَفْهَمونها ، يُعاقَبُ على جَهْلٍ غيرِ اختيارىّ ، كتبٌ دائماً ، يا له من هَوَس ! يَعُدُّ الأوربيون الكتبَ أمراً ضرورياً لأن أوربة مملوءةٌ بالكتب ، وذلك من غيرِ تفكيرٍ فى أن ثلاثة أرباع العالَمِ لم تَرَ كُتُباً قَطُّ ، ألم تُكْتَب الكتبُ كلُّها من قِبَل آدميين ؟ وكيف يحتاج الإنسان إلى كتب ، إذَنْ ، حتى يَعْرِف واجباتِه ؟ وما الوسائلُ التى كان يَعْرِف

بها هذه الواجباتِ قَبلَ وَضع هذه الكتب ؟ إما أن يكون قد تعلَّم واجباته من تلقاء نفسه ، وإما أن يكون قد أُعْفِيَ من تَعَلُّمها .

« ويُحْدِث الكاثوليكُ عندنا ضَجَّةً كبيرة حَوْل سلطان الكنيسة ، ولكن ما يَكْسِبون من هذا إذا احتاجوا إلى جهازٍ عظيم من البراهين لإقامة هذا السلطان احتياجَ النِّحَلِ الأخرى لإقامة مذهبها رأساً ؟ تَحْكُم الكنيسة بأن لها حَقَّ الحُكْم ، وهل أُثبِتَ هذا السلطانُ جيداً ؟ اخرُجوا من هذا تَدْخُلوا جميعَ مجادلاتنا .

« أَوَتَعْرِفون كثيراً من النصارى كابَدُوا مشقةَ البحث بعنايةٍ فيما أَوْرَدَ اليهودُ من براهينَ ضِدَّهم ؟ إذا حَدَث أن بعضَهم اطَّلَع على شيء من ذلك كان ذلك فى كتب النصارى ، فيالصلاح الأسلوب فى تَعَلُّم براهين الخصم ! ولكنْ كيف العمل ؟ إذا حَدَث أنْ أَقْدَمَ بعضُهم على نشرِ كتبٍ تَستَحْسن اليهوديةَ بيننا جَهْراً عاقَبْنا المؤلفَ والطابعَ والكُتُبيَّ[1] على ذلك ، فهذه الضابطةُ ملائمةٌ وطيدةٌ لحيازة الحقِّ دائماً ، ومما تَقَرُّ به العينُ أن يُرْفض من لا يَجْرُءون على الكلام .

« وليس أحسنَ من ذلك ، مطلقاً ، حالُ الذين أُتيحت لهم من بيننا فرصةُ محادثة اليهود ، فهؤلاء التعساء يَشْعُرون بأنهم تابعون لسلطاننا ، وما يمارَسُ نحوَهم من طغيانٍ يَجْعَلُهم خائفين ، وهم يَعْرِفون مَبْلَغَ عدم اكتراث البرِّ

---

(١) إليك حادثة من ألف حادثة لا تحتاج إلى تفسير ، وذلك أن علماء اللاهوت من الكاثوليك قضوا فى القرن السادس عشر بإحراق جميع كتب اليهود بلا تفريق ، فلما استشير العالم المشهور روكلين فى هذا الأمر جلب إلى نفسه أهوالا كادت تؤدى إلى هلاكه إذ رأى إمكان الاحتفاظ من هذه الكتب بما ليس ضد النصرانية ، وبما يعالج المسائل التى لا تهم الدين .

النصرانىَّ للظُّلْم والقسوة ، وما يُقْدِمون على قوله من غير أن يُعرِّضوا أنفسَهم لتُهْمَة التجديف ؟ وما نحن عليه من الطمع يوحى إلينا بالغَيْرة ، وما هم عليه من الثَّرَاء يَجْعَلُهم مذنبين ، ويَبْدُو أكثرُهم علماً وثقافةً أكثرَهم تحفُّظاً ، وأنتم تُحَوِّلون بعض البائسين عن دينهم ، وأنتم تَدْفَعُون إليهم من المال ما يَفْتَرُون فى مقابله على مِلَّتِهم ، وأنتم تَحْمِلون على الكلام بعض الساقطين الأدْنياء الذين يُذْعنون نِفَاقاً لكم ، وأنتم تَفُوزُون على جهالتهم ونذالتهم ، وذلك على حين يَتَبَسَّمُ علماؤهم صامتين من بلاهتكم ، ولكنْ أتظنون أن من السَّهل أن تُصِيبُوا منهم نَيْلًا فى الأماكن التى يَشْعُرون فيها بأنهم فى أمانٍ ؟ ومن الجَلِيِّ فى السُّورْبُون أن نبوءات المسيح تَرْجِعُ إلى يسوع ، ومن الجَلِيِّ عند رَبَّانِيِّي أمستردام أن هذه النبوءاتِ لا تَرْجع إليه مطلقاً ، ولا أظُنُّنِي استمعتُ إلى براهين اليهود الذين لا تُوجَدُ لهم دولةٌ حُرَّة ، ولا مدارسُ وجامعاتٌ ، يستطيعون أن يتكلموا فيها ويناقِشوا بلا خَطَر ، وهنالك فقط يُمْكِنُنا أن نَعْرِف ما لديهم أن يَقُولُوا .

« ويُدْلِي التُّرْكُ بأدلَّتهم فى الآستانه ، ولكنْ من غير أن نَجْرُؤَ على الإدلاء بما لدينا ، فهناك دَوْرُنا فى التَّمَسْكُن ، وإذا كان التُّرْكُ يطالبوننا بأن نحترم محمداً الذى لا نؤمن به مطلقاً ، كما نطالب اليهودَ بأن يحترموا يَسُوعَ المسيحَ الذى لا يؤمنون به أيضاً ، فهل يُعَدُّون مخطئين ؟ وهل الحقُّ بجانبنا ، وإلى أيِّ مبدأٍ عادل نَسْتَنِدُ فى حَلِّ هذه المسألة ؟

« وليس ثُلُثَا الجنس البشريِّ يهودَ ولا مسلمين ولا نصارى ، وما أكثرَ ملايينَ الآدميين الذين لم يَسْمَعُوا باسم موسى وعيسى ومحمد ! وهم يُنْكِرون

ذلك ، ومما يُقرِّرُ كَوْنُ مُبَشِّرِينا يَذْهَبون إلى كلِّ مكان ، وهذا ما يقال حالاً ، ولكنْ هل يَذْهَبون إلى أواسط إفْرِيقية التى لا تزال مجهولةً ، والتى لم يَرُدْها أىُّ أوربىٍّ حتى الآن ؟ وهل يَذْهَبون إلى أواسط بلاد التَّتَر مُتَتَبِّعِين على ظُهُور الخيل قبائلَ لا يَدْنو منها أجنبىٌّ مطلقاً ، قبائلَ لا تكاد تَعرِف كاهنَها الأكبر فضلاً عن سماعها باسم البابا ؟ وهل يَذْهَبُون إلى قارّاتِ أمريكة الواسعة المشتملة على أقوامٍ بكاملهم لا يزالون يَجْهَلُون وجودَ أممٍ من العالَم الآخر قد وَطِئَتْ عالَمهم ؟ وهل يَذْهبون إلى بلاد اليابان التى أسفرت دسائسُهم عن طردهم منها إلى الأبد ، والتى لم يُعْرَف أسلافُهم فيها من قِبَل أجيالٍ تَنْشَأُ إلّا حاكَةَ مكايدَ أتَوْا ، حاملين غَيْرَةً ذات رِئاء ، للاستيلاء على الإمبراطورية بِرِفْقٍ ؟ وهل يَذْهبون إلى دوائر الحريم لدى أمراء آسية لتبشير ألوف العبيد المساكين بالإنجيل ؟ وما صَنَع نساء ذلك القِسْم من العالَم حتى لا يستطيعَ أىُّ مُبَشِّرٍ أن يَعِظَهنَّ بالإيمان ؟ أوَ يَذْهَبْن جميعاً إلى جهنمَ لِما كان من عَزْلِهِنَّ ؟

« وإذا ما ثَبَتَ تبليغُ الإنجيل فى جميع العالَم فما يَكُون كَسْبُ ذلك ؟ إن مما يَحْدُث عَشِيَّةَ وصول أول مُبَشِّرٍ إلى بلدٍ موتَ إنسانٍ فيه لم يَتَمَكَّنْ من سماعه لا رَيْب ، فقولوا لى : ما نفعل بهذا الإنسان الآن ؟ إذا لم يُوجَدْ فى جميع العالم غيرُ إنسانٍ واحدٍ لم يُبَشَّرْ بيسُوعَ المسيحِ كانت قوةُ الاعتراض من حيث هذا الإنسانُ وحدَه كقوة الاعتراض من حيث ربعُ الجنس البشرىِّ .

« وإذا ما سَمَّعَ المبشرون بالإنجيل أنفسَهم للأمم البعيدة فما يقولون لهم من قولٍ يُمْكِن قبولُه كما يَجِبُ استناداً إلى كلامٍ منهم لا يتطلّبُ أدقَّ

تحقيق ؟ وأنتم تُنبِئُوننى بإلهٍ وُلِدَ ومات منذ ألفى سنةٍ فى الطَّرَف الآخر من العالَم ، فى مدينةٍ صغيرةٍ ما لا أعْرِفُها ، وأنتم تقولون لى إنه سيُحْكَمُ بالهلاك الأبدىّ على كلِّ من لا يؤمن بهذا السِّرِّ الخفىّ ، فهذه أمورٌ غريبة لا يبادر إلى اعتقادها استناداً إلى روايةِ رجلٍ لا أعْرِفه مطلقاً ! وَلِمَ أحدَثَ الإلهُكم ، على ذلك البُعْد منى ، أموراً أراد إلزامى بأن أكون عارفاً بها ؟ وهل من الإجرام أن أجْهل ما يَقَعُ فى الناحية المقابلة من الكُرَة الأرضية ؟ وهل أستطيعُ أن أتنبَّأَ بوجود شعبٍ عِبْرِىٍّ وبمدينةٍ تُدْعَى أورَشَلِيمَ فى النصف الآخر من الكُرَة الأرضية ؟ يَعْدِل هذا إجبارى على معرفة ما يَقَعُ فى القمر ! تقولون إنكم آتون لتعليمى إياه ، ولكنْ لِمَ لم تأتوا لتعليم أبى إياه ؟ أو لِمَ تحكمُون بالهلاك الأبدىّ على هذا الشيخ الصالح لعدم معرفته شيئاً عن ذلك مطلقاً ؟ وهل يَجِبُ أن يعاقَب عِقاباً أبديّاً من أجْل كَسَلكم مع أنه كان بالغَ الصلاح كثيرَ الإحسان فلا يَبْحَثُ عن غير الحقيقة ؟ تَذَرَّعوا بحُسْن النية ، ثم ضَعُوا نَفْسَكم فى مكانى ، ورَوْا : هل أنا ملزمٌ ، استناداً إلى شهادتكم وحدَها ، بأن أعتقد جميعَ ما تقولون لى من أمورٍ لا تُصَدَّق وبأن أُوَفِّق بين كثيرٍ من المظالم وبين الرَّبِّ العادل الذى تُخْبِرُوننى به ؟ تَفَضَّلُوا بتركى أذْهَبُ لأرى ذلك البلدَ البعيد الذى يَقَعُ فيه كثيرٌ من العجائب لا عهدَ لهذا البلد بها ، ولأعلمَ السببَ فى كَوْنِ أهلِ أورَشَلِيمَ عاملوا الرَّبَّ مِثْلَ قُطَّاع الطُّرُق ، وأنتم تقولون لى إنهم لم يعترفوا بأنه إلهٌ ، وما أَصْنَعُ ، إذَنْ ، أنا الذى لم يَسْمَعْ حديثاً عنه بغير واسطتكم ؟ وأنتم تقولون لى إنهم عُوقِبُوا ، ومُزِّقُوا كلَّ مُمَزَّق ،

واضْطُهِدُوا ، وعُبِّدُوا ، فلا يستطيع أحدٌ منهم أن يَدْنُوَ من تلك المدينة ، أَجَلْ ، إنهم استحقُّوا جميعَ هذا ، ولكنْ ما يَقول أهلوها اليومَ عن قَتْل إلهِ أسلافهم المُتَجَسِّد ؟ إنهم يُنْكِرُونه ، إنهم لا يعترفون بالرَّبِّ رَبًّا ، إنهم ليسوا ، إذَنْ ، خيراً من أبناء السكان الأصليين .

« ماذا ! فى تلك المدينة نفسِها ، حيث مات الرَّبُّ ، لم يَعْتَرِف القدماء ولا المعاصرون بهذا الرَّبِّ قَطُّ ، ثم تريدون أن أعترفَ به أنا الذى وُلِدَ بعده بألفى عامٍ وعلى بُعْد ألفى فَرْسَخٍ من هناك ! أَلَا تَرَوْن أنه يَجِبُ علىَّ ، قَبْلَ تصديق هذا الكتاب الذى تُسَمُّونه مقدَّسًا والذى لا أفقَه منه شيئاً ، أن أعْرِف من غيركم متى وُضِعَ ، ومَنْ وَضَعَه ، وكيف حُفِظَ ، وكيف انتهى إليكم ، وما يقولون عنه فى البلاد التى تَرْفِضُه ، وما أسبابُ رَفْضِهم إياه ، وإن كانوا يَعْرِفون مثلما تَعْرِفون جميعَ الذى تُلَقِّنوننى إياه ؟ أنتم تَشْعُرون جيداً بأن الضرورة تقضى بأن أذهب إلى أوربة وآسية وفلسطين لفَحْصِ كلِّ شىء بنفسى ، فمن الحماقة أن أستمع إليكم قبل ذاك الحين .

« ولا يَبْدُو لى هـذا المقالُ معقولًا فقط ، وإنما أذهبُ إلى أن كلَّ إنسانٍ عاقلٍ مُكلَّفٌ فى مثل هـذه الحال بأن يتكلم هكذا وبأن يُقْصِىَ المُبَشِّرَ الذى يريد ، قبل تمحيص الأدلة ، تعليمَه وتعميده ، وأَذْهَبُ ، كما هو الواقع ، إلى أنه لا يُوجَدُ وحىٌ لا يُوَجَّهُ إليه من الاعتراضات الشديدة نفسِها كما يُوجَّه إلى النصرانية ، ومن ثَمَّ يُرَى أنه إذا كان لا يَوجَدُ غيرُ دينٍ حقيقىٍّ واحد ، وأن كلَّ إنسانٍ مُلْزَمٌ باتباعه خَلَاصاً من الهلاك

الأبديّ ، فإنه يجب عليه أن يَقْضِيَ حياتَه فى دراسة جميع تلك الأديان والتعمقِ فيها والمقابلةِ بينها ، وفى جَوْب البلاد التى قامت فيها ، ولا أحدَ مُعْفًى من واجب الإنسان الأول ، ولا يَحِقّ لأحدٍ أن يعتمد على حُكْم الآخرين ، ويجب على الصانع الذى لا يعيش من غير عمله والحارثِ الذى لا يَعرِف القراءة والفتاةِ الغيْدَاء الهَيُوبِ والعليلِ الذى لا يكاد يَقْدِر على مغادرة فراشه ، يجب على هؤلاء جميعاً ، يجب على هؤلاء بلا استثناء ، أن يَدْرُسوا ويُفَكِّرُوا ويجادلوا ويسافرُوا ويَطوفُوا فى العالَم ، فيَعُودُ لا يُوجَدُ من الأمم ما هو مستقرٌّ ثابت ، ولا تُصْبِح الأرضُ غيرَ مستورة بالحَجِيج الذاهبين بنفقاتٍ عظيمة والمحتملين متاعبَ طويلةً للتحقيق والمقابلة والبحث فيما يَجِدُون من مختلف الأديان ، وهنالك قُلْ على المِهَن والفنون والعلوم الإنسانية وجميع الأشاغيلِ المدنيةِ العَفَاء ، وهنالك لا يُمْكِنُ أن يكون من الدراسات غيرُ دراسة الدين ، وهنالك يَصْعُب جِدًّا على الذى يتمتع بأحسنِ صحةٍ ، ويكون خيرَ مَنْ يَسْتَعمل وقتَه وأفضلَ مَنْ يستخدم عقلَه ويُعَمِّرُ أكثرَ من غيره ، أن يَعرِفَ أين هو فى مَشِيبه ، فيكونُ من دواعى الحَيْرَة أن يَعْلَمَ قَبْلَ موته أىُّ الأديان كان يجب أن يعيش عليه .

« وهل تريدون أن تُلَطِّفُوا هذا المِنْهَاجَ فتوجبوا قليلَ سلطانٍ للناس ؟ وهنالك تَرُدُّون إليه كلَّ شىء ، وإذا كان ابنُ النصرانىِّ يَصْنَعُ خيراً حين يَتَّبِعُ دينَ أبيه بلا درسٍ عميقٍ خالٍ من الغَرَض فلِمَ يَصْنَعُ ابنُ التركىِّ سوءاً حين يَتَّبِعُ دين أبيه أيضاً ؟ أتحدَّى جميع المتعصبين بأن يجيبوا عن هذا بشىء يَرْضَى عنه الرجل العاقل .

« وتَثْقُلُ وطأةُ هـذه البراهين ، فيُفَضِّلُ بعضُ الناس جَعْلَ الرَّبِّ جائراً يجازى الأبرياء من أجْلِ ذنبٍ اقترفه أبوهم على الارتداد عن عقيدتهم الجافية ، ويَخْرُج آخرون من الوَرْطة بأن يُرْسِلوا بمَعْرُوفٍ مَلَكاً يُعَلِّم من عاشوا حَسَنى الأخلاق مع جَهْلٍ مُطْبِق ، فيا لَرَوْعةِ إبداع هـذا المَلَك ! إنهم لم يَكْتَفُوا بتَعْبِيدنا لآلاتهم ، فجَعَلُوا الرَّب نفسَه يستعملها عن وُجُوبٍ .

« وانظُرْ ، يا بُنَيّ ، أيَّ مُحَالٍ يؤدِّى إليه الزَّهْوُ والتعصب حينما يُرِيدُ كلُّ واحدٍ أن يكون الناس على رأيه ، وحينما يَظُنُّ أنه ذو حَقٍّ على بقية الجنس البشريِّ حَصْراً ، وأتّخِذُ رَبَّ السلام ، الذى أعْبُدُ وأبَشِّرُكم به ، شاهداً على إخلاصى فى جميع مباحثى ، ولكننى إذْ أراها كانت ، وتكونُ دائماً ، بلا توفيق ، ولـكنى إذْ أرانى أغْرَقُ فى بحرٍ محيطٍ لا حَدَّ له ، فإننى أرْجِعُ القَهْقَرَى وأحْصُرُ إيمانى ضِمْن مبادئى الابتدائية ، ولم أستطع قَطُّ أن أعتقد أن الرَّب أمرنى أن أكون حائراً مثلَ ذاك العِلْم جاعلاً جَهَنَّمَ جزاءَ مخالفتى ، ولِذَا فقد أغلقتُ جميعَ الكتب ، ولم يَبْقَ منها غيرُ واحدٍ مُفَتَّحٍ لجميع العيون ، وهو كتابُ الطبيعة ، ففى هذا الكتاب العظيم الرفيع أتعلَّمُ عبادةَ صانعه الإلٰهىِّ والقيامَ بشعائره، ولا يُعْذَرُ أحدٌ على عدم القراءة فيه ، وذلك لأنه يخاطِب الناسَ بلغةٍ تَفْهَمُها جميعُ الأذهان ، وإذا ما وُلِدْتُ فى جزيرةٍ قَفْر ، وإذا لم يَقَعْ نظرى قَطُّ على إنسانٍ آخرَ غيرى ، وإذا لم أعْلَمْ قَطُّ ما حَدَث قديمًا فى زاويةٍ ما من العالَم ، وإذا ما أعْمَلْتُ عقلى ، وإذاما تعهدتُه ، وإذا ما أحسنتُ استعمالَ المواهب المباشِرَة التى أنعَمَ الرَّبُّ بها عَلَيَّ ، تَعَلَّمتُ من تلقاء نفسى أن

أعْرِفَه ، وأن أحِبَّه ، وأن أحِبَّ أعمالَه ، وأن أريدَ الخيرَ الذى يريد ، وأن أقوم بجميع واجباتى فى الأرض نَيْلًا لِرِضاه ، وما يُمْكِنُ جميعَ عِلْم الناس أن يُعَلِّمَنِي أكثرَ من ذاك ؟

« وأما من ناحية الوحى فإذا ما كنتُ أحسنَ بَرْهنةً وأصلحَ معرفةً فمن المحتمل أن أشْعُر بحقيقته ، وبنفعه لِمَنْ كُتِبَتْ لهم سعادةُ قبوله ، ولكننى إذاما أبصرتُ أدلّةً ملائمةً له لا أستطيع مكافحتَها فإننى أرى ضِدَّه أيضاً اعتراضاتٍ لا أستطيع حَلَّها ، وتُوجَدُ براهينُ متينةٌ موافقةٌ ومخالفةٌ لا أعْرِفُ إلى أيّها أنحاز فلا أعترف به ولا أرْفِضُه ، ولكنّ الذى أرْفِضُ هو الإلزام بقبوله ، وذلك لأن هذا الإلزامَ المزعوم منافٍ لعَدْل الرّبّ ، بعيدٌ من رَفْع موانع النجاة ، مُكَثِّرٌ لها جاعلٌ إياها منيعةً لدى مُعْظَم الجنس البشرىّ ، وإذا عَدَوْتَ هذا وَجَدْتَنى مرتاباً ارتيابَ توقيرٍ عند هذه النقطة ، وليس لدىّ من الخُيَلاء ما أظُنُّنِي معه معصوماً من الخطأ ، وقد أمْكَنَ أناسًا آخرين أن يُقرِّروا ما يَظْهَرُ لى أنه غيرُ مقرَّر ، فأنا أبَرْهِنُ من أجْل نفسى ، لا من أجْلهم ، ولا ألُومهم ، ولا أقَلِّدُهم ، وقد يكون حُكْمهم أفضلَ من حُكْمِي ، ولكنْ لا يَقَعُ الذنبُ علىَّ فى عدم موافقة حكمى لحُكْمِهم .

« وأعترف لكم ، أيضاً ، بأننى أعْجَبُ بجَلَالِ الكتب المقدسة ، وبأن قَدَاسَة الإنجيل تخاطِب فؤادى ، وانظُرُوا إلى كتب الفلاسفة مع جميع فخامتها تَرَوْا مقدارَ تَصَاغُرِها بجانب ذاك ، أوَ ليس من الممكن أن يكون أحدُ الكتب رفيعاً بسيطًا معًا وأن يكون من وَضْع الناس ؟ أوَ ليس

من الممكن أن يكون ذاك الذى يشتمل على قصته هذا الكتابُ بَشَراً ؟ وهل تلك اللهجةُ لهجةُ مُتَحَمِّسٍ أو متعصبٍ طَمُوح ؟ يا للرِّفْق والنَّقاء فى أخلاقه ! ويا للطَّلاوة المؤثِّرة فى تعاليمه ! ويا للسُّمُوِّ فى أمثاله ! ويا للحكمة البالغة فى أقواله ! ويا لثَبَات الجَنَان والرِّقة والسَّدَاد فى أجوبته ! ويا لسلطانه على أهوائه ! وأين الرجل، وأين الحكيم، الذى يَعْرِف أن يَسير ويألَمَ ويموت من غير ضَعْفٍ ولا افتخار ؟ عندما وَصَف أفلاطونُ رَجُلَه الصالحَ الخياليَّ الذى غُمِرَ بكلِّ ما فى الجناية من عارٍ، والذى هو هو أهلٌ لكل جائزةٍ عن الفضيلة، وَصَف يَسُوعَ وصفًا دقيقًا، وقد بَلَغَ وجهُ الشَّبَه بينهما ما شَعَرَ به جميعُ آباء الكنيسة وما يتعذَّر على الإنسان أن يُخْدَع معه، وأيُّ مُبْتَسَرٍ، وأيُّ عَمًى، لا يكون حتماً فى الإقدام على المقارنة بين ابن سُفْرُونِسْكا وابنِ مريم ؟ ويا لَبُعْدِ ما بينهما ! لقد سَهُل على سُقْراطَ أن يحافظ على جلاله حتى النهاية فمات بلا ألمٍ ولا عارٍ، ولو لم يُشَرِّف هذا الموتُ الهَيِّنُ حياتَه لساورت النفوسَ ظُنُونٌ بأن سقراطَ ليس غيرَ سُوفِسْطَائِيٍّ مع ما كان عليه من عقل، ويُرْوَى أنه واضعُ علم الأخلاق، وعلمُ الأخلاقِ ما طَبَّقه آخرون قبله، فهو لم يَصْنَعْ غيرَ قَوْل ما كانوا قد فعلُوا، وهو لم يَصْنَعْ غيرَ صَوْغ أمثلتهم فى دروس، وقد كان أَرِيسْتِيدُ عادلًا قبل أن يُحَدِّث سقراطُ عن العدل، وقد مات لِيُونِيدَاسُ فى سبيل بلده قبل أن يَجْعَلَ سُقْراطُ من حُبِّ الوطن واجباً، وقد كانت إسپارطة قانعةً قبل أن يُثْنِيَ سقراطُ على القناعة، وقد كانت بلاد اليونان زاخرةً بذوى الفضل قبل أن يُعَرِّف سقراطُ

الفضيلةَ ، ولكن أين تَدَفّق يسوعُ عند ذَوِيه تلك الأخلاقَ النقيةَ العالية التى ألْقَى وحدَه دروسَها ومَثَلها(١) ؟ وتُسْمِعُ أرفعُ الحكمة نفسَها فى سواء التعصب الصائل وتُمَجِّدُ بساطةُ أقربِ الفضائل إلى البطولة أحقرَ الناس كلَّهم ، ويُعَدُّ موتُ سقراطَ ، وهو يَتَفَلْسَفُ هادئاً بين أصدقائه ، ألطفَ ما يُمْكِن أن يُرْغَبَ فيه ، ويُعَدُّ موتُ يَسُوعَ ، وهو يقضى أجَله فى الآلام بين الإهانة والسُّخْرية واللعنة من قِبَل جميع الشعب ، أفظعَ ما يُمْكِن أن يُخْشَى ، وتَناول سقراط كأسَ السُّمِّ شاكراً لمن قدَّمها إليه وهو يبكى ، ودعا يسوعُ لجلَّاديه الضَّوارى بين نَكالٍ هائل ، أجَلْ ، إذا كان مَحْيَا سقراطَ ومَماتُه جديرَيْن بحكيمٍ فإن حياةَ يسوعَ وموتَه خليقيْن بإله ، وهل نقول إن قصة الإنجيل من صُنْعِ الخيال ؟ أىْ صديقى ، لا يقع الاختلاقُ هكذا ، وقد كانت أعمالُ سقراطَ التى لا يَشُكُّ فيها أحدٌ أقلَّ من أعمال يسوعَ المسيح مشاهدةً من قِبَل الناس ، وفى الأساس يعنى هذا تأخيراً للمشكلة من غير هَدْمٍ لها ، ويكون اتفاقُ أُناسٍ كثير على اختلاق ذلك الكتاب أكثرَ عدمَ تصوُّرٍ من أن يُزَوِّد موضوعَه رجلٌ واحد ، وما كان مؤلفو اليهود ليَقْدِرُوا على إيجاد مثل تلك اللهجة ولا ذلك الأدب ، ويتصف الإنجيل بصفاتٍ بالغةٍ من الحقيقة ووقفِ النظر وتعذرِ التقليد ما يكون معه مُخْتَلِقُه أدعى إلى العَجَب من بَطَلِه ، ومع ذلك فإن هذا الإنجيلَ نفسَه مملوء بأمورٍ لا تُصَدَّقُ ، بأمورٍ يَرْفِضُها العقل فيستحيل على

---

(١) انظر، فى الموعظة التى ألقاها فى الجبل، إلى المقابلة التى وضعها بنفسه بين أدبه وأدب موسى (إنجيل متى ، فصل ٥ ، فقرة ٢١ وما بعدها) .

كلٌّ ذى عقل أن يتصوَّرَها وأن يَقْبَلَها ، وما يُعْمَلُ بين جميع هــذه المتناقضات ؟ أن يكون الإنسانُ دائماً معتدلاً مُحْتَرِزًا يا بُنَىَّ ، فيحترِمَ صامتاً ما لا يستطيع رَفْضَه ولا فَهْمَه وأن يتواضع أمام الموجودِ الأعظم الذى يَعْرِف الحقيقةَ وحدَه .

« وذلك هو الشَّكُّ غيرُ الاختيارىِّ الذى بقيتُ عنده ، بَيْدَ أن هذا الشكَّ لم يكنْ شاقًا علىَّ قَطُّ ، وذلك لعــدم امتداده إلى نِقَاط العمل الجوهرية ، ولأننى قَضَيْتُ فى أمر المبادئ حَوْل جميع واجباتى ، وأَعْبُدُ اللهَ ببساطة قلبى ، ولا أُحاول معرفةَ غيرِ ما يُهِمُّ سلوكى ، وأما العقائدُ التى لا تؤثِّرُ فى الأعمال ولا فى الأخلاق والتى تُقْلِقُ بال كثيرٍ من الناس فلا أُبالى بها مطلقاً ، وأَعُدُّ جميع الأديان الخاصة نُظُماً نافعةً تأمر فى كلِّ بلدٍ بطرازٍ نَمَطِىٍّ واحدٍ فى تمجيد الربِّ بعبادةٍ عامة ، ويُمْكِن أن تكون لها أسبابُها فى الإقليم أو الحكومة أو عبقرية القوم أو فى عاملٍ محلىٍّ آخرَ يَجْعَل أحدَها أَوْلَى من الآخر على حسب الأزمنة والأمكنة ، وأعتقد أنها كلَّها صالحةٌ إذا ما عُبِدَ اللهُ بها عبادةً لائقةً ، وَعبادةُ القلب هى العبادة الجوهرية ، وما كان اللهُ ليَرْفِضَ طاعةً مهما كان الشكلُ الذى تُقَدَّم به إذا ما كانت خالصة ، وإذا ما دُعيت إلى تَعَبُّد الكنيسة وَفْقَ الدين الذى أُعْلِنُ فإننى أُتِمُّ فيها ما أُمِرْتُ به من عنايةٍ بكلِّ ما يُمْكِن من إتقــان ، ويُؤَنِّبُنى ضميرى إذا ما قَصَّرْتُ فى أىِّ شىء من ذلك قصداً ، وقد نِلْتُ ، كما تعلم ، بحُظْوَةِ لَدُنْ مسيو دوميلَّاريد ، وبعد مَنْعٍ كَنَسِىٍّ طويل ، إجازةً باسترداد وظائفى مساعَدَةً لى على العيش ، وقديماً كنتُ أقوم بالقُدَّاس

برشاقةٍ يُنْتَفَعُ بها مع الوقت فى الأمور المهمة إذا ما كُرِّرَت غالباً ، وما فتئتُ منذ مبادئى الجديدة أَقُومُ به مع أعظم تكريم ، وقد أُشبِعْتُ من جلال الكائن الأعلى ومن وجوده ومن نَقْص الذهن البشرىّ الذى هو قليل الإدراك لِمَا يتعلَّق بصانعه ، وإنى ، إذْ أرانى حاملًا له أدعيةَ الناس على شكلٍ مُقَرّر ، أتَّبِعُ جميعَ الطقوس بعناية ، وأُرَتِّلُ بانتباه ، وأسعى فى عدم إهمال أقلّ كلمةٍ ولا إغفال أىّ من الشعائر ، ومتى حان وقتُ التقديس جمعتُ حواسّى لأقوم به وَفْقَ جميع مراسيمِ الكنيسة وعظمةِ التقديس ، فأسعى فى إلغاء عقلى أمام العقل الأعلى ، وأقول فى نفسى : من أنت حتى تَقِيسَ القدرةَ التى لا حَدَّ لها ؟ وأَنْطِقُ مع الاحترام بكلمات السِّرِّ المُقَدَّس ، وأُعِيرُ عملَها كلَّ ما يُمْكِنِ منحُه من اعتماد ، ومهما يكن من أمرِ هذا السِّرِّ الذى لا يُدْرَك فإننى لا أَخْشَى أن أُجازَى يومَ الحساب على أننى امتهنته فى فؤادى .

« وقد شُرِّفْتُ بالكَهَنُوت ، وإن كان ذلك فى المرتبة الأخيرة ، فلا أَفْعَلُ شيئاً ، ولا أقول شيئاً ، يُمْكِن أن يَجْعَلنى غيرَ أهلٍ للقيام بواجباته العالية ، وسأَعِظُ الناسَ بالفضيلة دائماً ، وسأُحَرِّضهم على فعل الخير دائماً ، وسأجعل نفسى قُدْوةً لهم فى ذلك ما استطعتُ ، وليس من شأنى أن أجعل الدينَ محبوباً لديهم ، وليس من شأنى أن أُثَبِّتَ إيمانهم فى العقائد النافعة حقًّا والتى يُلْزَم كلُّ إنسانٍ باعتقادها ، ولكنْ معاذَ الله أن أَعِظَهم بعقيدة التعصب الجافية ، ولكنْ معاذ الله أن أَحْمِلَهم على ازدراء جارهم ، وأن أقول

للآخرين : سيُحكَمَ عليكم بالهلاك الأبديّ ، ولا نجاةَ خارجَ الكنيسة[١] ، ولو كنتُ في مرتبةٍ أكثرَ امتيازاً لأمكَن هذا التحفظَ أن يجْذِبَ إليَّ أموراً ، ولكنني من صِغَر الشأن ما لا يُوجَد معه ما أخشاه كثيراً ، ولا يُمكِنُ أن أسْقُطَ إلى أسفَل مما أنا عليه مطلقاً ، ومهما يَحْدُثْ فإنني لن أُجَدِّف على العدل الإلٰهيّ ، ولن أفتريَ على الروح القُدُس .

« وقد رَغِبْتُ زمناً طويلاً في أن أنال شرفَ نَصْبِي خُورِيًّا ، ولا أزال راغباً في ذلك ، ولكنني عُدْتُ لا آمُلُ ذلك ، ولا أجِدُ ، يا صديقي العزيز ، ما هو أجْمَلُ من مَنْصِب الخوريّ ، فالخوريُّ الصالح هو وكيلُ الحِلْم كما أن الحاكم الصالح وكيلُ العدل ، وليس لدى الخوريّ من شرّ يَصْنَع ، وإذا كان لا يستطيع أن يَصْنَع الخير بنفسه دائماً فإن التماسه له يكون في محلّه ، وهو يفوز به غالبًا متى عَرَف أن يُحْتَرَم ، آه ! لو كنت في جبالنا صاحبًا لخورنيّةٍ أخْدِمُ رجالَها الصالحين لكنت سعيداً إذَنْ ، وذلك لأنني أكون ، كما يَلوح لي ، سببَ سعادة ساكنيها ، أجَلْ ، إنني لا أجْعَلُهم أغنياء ، ولكنني أشاطرُهم فقرَهم ، وأنْزِع منهم العيبَ والازدراء اللذين هما أشدُّ وَطْأً من العَوَز ، وأُحَبِّبُ إليهم الاتفاقَ والمساواة اللذين يَطْرُدان البؤسَ غالبًا ويَجْعَلانه أمراً محتملاً دائمًا ، ومتى رأوْا أنني لا أكون أحسنَ حالًا منهم في شيء ، وأنني أعيش قَنُوعًا مع ذلك ، تَعَلَّموا أن يتعزَّوْا عن نصيبهم

(١) لا يدخل واجب محبة الإنسان لدين بلده واتباعه هذا الدين نطاق العقائد المخالفة لحسن الأخلاق كعدم التسامح مثلا ، وهذه العقيدة الكريهة هي التي تسلح بعض الناس ضد بعض رتجعلهم كلهم أعداء للجنس البشرى ، وكل تفريق بين التسامح المدنى والتسامح اللاهوتى صبيانى باطل ، فلا يمكن فصل أحد هذين التسامحين عن الآخر ، ولا يمكن قبول أحدهما دون الآخر ، حتى إن الملائكة لا يمكن أن يعيشوا مسالمين لأناس يعدونهم أعداء للرب .

وأن يعيشوا قُنُعًا مِثْلى ، وأكونُ فى تعاليمى أقلَّ ارتباطًا فى روح الكنيسة مما فى روح الإنجيل حيث العقيدةُ بسيطةٌ والأدبُ رفيعٌ ، وحيث تَقِلُّ الطقوسُ الدينية وتَكثُر أعمالُ التقوى ، وأبْذُل جُهْدى فى القيام بما يَجِبُ أن يُعمَل قبل أن أُعَلِّمَهم إياه ، وذلك ليَرَوْا جيداً أنى أُفكِّر فى جميع ما أقول لهم ، ولو وُجِدَ فى جوارى أو فى خُورْنِيَّتِى بِرُوتِسْتانٌ مازِرْتُهم من سكانها مطلقاً ، وذلك فى كلِّ ما يَتعلَّقُ بالبِرِّ النصرانى ، وأَحْمِلُهم كذلك على التحابِّ وعلى عَدِّ أنفسهم إخوةً وعلى احترام جميع الأديان وعلى عَيْشِ كلٍّ واحدٍ منهم مطمئنًّا فى دينه ، وأرى أن تَرْغيبَ الواحدِ فى ترك الدين الذى وُلِدَ فيه ينطوى على ترغيبه فى الإساءة ، ومن ثَمَّ فى إساءة نفسه ، ولْنُحَافظْ على النظام العامِّ منتظرين بصائرَ أعظمَ مما اتَّفَق ، ولْنَحْترم القوانينَ فى كلِّ بلدٍ ، ولا نُكَدِّرْ صَفْوَ العبادة التى تأمُر بها ، ولا نَحْمِل المواطنين على العصيان مطلقاً ، وذلك لأننا لا نَعْلَمَ علمَ اليقين هل من الخير لهم أن يتركوا آراءهم مُتَحَوِّلين إلى غيرها ، كما أننا نَعْرِف أن من المُحَقَّق وجودَ شَرٍّ فى التمرُّد على القوانين .

« والآن يا صديقى الشابُّ قد سَرَدْتُ لك مجاهراً عقيدتى كما يَقْرَؤُها الرَّبُّ فى قلبى ، وأنت أولُ مَنْ صنعتُ له ذلك ، وقد تكون الوحيدَ الذى أصْنَع له ذلك ، ومما لا يَجُوزُ مطلقاً ، ما بقى اعتقادٌ حسنٌ بيننا ، أن يُعَكِّرَ ذوو النفوس الهادئة ، وأن يُكَدِّر إيمانُ البُسَطاء بمشا كلَ لا يستطيعون حلَّها فتُقْلِقُ بالَهم من غير أن تُنيرَهم ، ولكنْ إذا ما ارْتَجَّ كلُّ شيء مَرَّةً وجب حِفْظُ الساق على حساب الأغصان ، ولا غَرْوَ ،

فإن الضمائرَ المضطربةَ القَلِقةَ ، الخامدةَ تقريباً ، فى الحال التى وَجَدْتُ عليها ضميرَك ، تحتاج إلى تقويةٍ وإيقاظ ، ويَجِبُ ، لإعادة قيامها على أساس الحقائق الخالدة ، أن يَتِمَّ خَلْعُ الأركان المذبذبة التى لا تزال تَرَى الاستمساكَ بها .

« وأنت فى الدَّوْر الخَطِر من العُمُر حيث تَتَفَتَّحُ الروحُ لليقين ، وحيث يأخذ القلبُ شكلَه وطابعَه ، وحيث يُقَرَّرُ لِمَدَى الحياة سلوكُ سبيلِ الخير أو سبيلِ الشرِّ ، ثم يَتَصَلَّب العنصرُ وتَعُودُ السِّمات الجديدة لا تؤثِّرُ أبداً، فيا أيها الفَتى ، تَلَقَّ فى نفْسِكَ ، المَرِنةِ بعْدُ ، طابعَ الحقيقة ، ولو كنتُ أكثرَ ثقةً بنفسى لاتخذتُ معك طَوْراً اعتقادياً حازماً ، ولكنى رجلٌ غافلٌ عُرْضةٌ للخطأِ ، وما أستطيع أن أصنع ؟ لقد فتحتُ لك قلبى بلا تحفظ ، وحَدَّثْتُكَ عما أراه صحيحاً كما هو ، وأعربتُ لك عن شُكُوكِى كشُكوكٍ ، وأعربتُ لك عن آرائى كآراء ، وبَيَّنْتُ لك أسبابَ شَكِّى واعتقادى ، والآن عليك أن تَحْكُم ، فقد استمهلتنى ، وكان هذا احترازاً حكيماً جعلنى أفكِّر فيك ، وابْدَأْ بوَضْع ضميرك فى حالٍ يُرِيدُ معها أن يُنوَّر ، وكُنْ مخلصاً نحو نفسك ، وانْتَحِلْ من آرائى ما يُقْنِعُك واطْرَح البقية ، ولم تَبْلُغْ من الفساد بالعَيْب بَعْدُ ما تَقَعُ معه فى خَطَر سوء الاختيار ، وأقترحُ أن نتحادث فى ذلك بيننا ، ولكنْ إذا ما وَقَعَ الجَدَل حَمِيَ الوطيسُ ومازجَ الزهوُ والعنادُ ذلك ، وعاد حُسْن النية لا يكون ، ولا تجادِلْ ، يا صديقى ، مطلقاً ، وذلك لأن الإنسان لا يُنِيرُ نفسَه ، ولا غيرَه ، بالجدال ، وأما أنا فلم أعْزِم إلَّا بعد تفكيرِ سنينَ كثيرةٍ ، وأَقِفُ هناك مستريحَ الضمير هادئَ البال ، ولو أردتُ أن

أستأنف البحث في مشاعرى ما انتهيتُ إلى حُبٍّ للحقيقة أكثرَ صفاء ، ويكون ذهني ، الذى غدا أقلَّ نشاطًا ، دون الحال الذى يَعْرِفُها فيه ، وأبقى كما أنا عليه ، وذلك خشيةَ أن يؤدِّيَ ذَوْقُ التأمل ، إذْ يَصِيرُ هَوًى عاطلًا ، إلى فُتُورى في ممارسة واجباتى ، وخشيةَ الوقوع ثانيةً في شَكِّى الأول من غير أن أجِدَ قدرةً على الخروج منه ، وقد مَضَى أكثرُ من نصف حياتى ، وعاد لا يَكُون لدىَّ غيرُ ما يَجِبُ من وقتٍ للانتفاع ببقية حياتى ، ولأَمْحُوَ خطيئاتى بفضائلى ، وإذا ما خُدِعْتُ كان هذا على الرغم منى ، ومن يقرأ ما في صميم فؤادى يَعْلَمْ جيداً أننى لا أُحبُّ عَمَاى ، والحياةُ الصالحة هى الوسيلةُ الوحيدة التى بَقِيَتْ لى للخروج من العَمَى عند العَجْز عن الخلاص منه ببصائرى الخاصة ، وإذا كان الرَّبُّ قادراً على إخراج أولادٍ لإبراهيمَ حتى من الحجارة حُقَّ لكلِّ إنسانٍ أن يَرْجُوَ إنارتَه عند ما يَجْعَلُ نَفْسَه أهلًا لها .

« وإذا ما ساقتك تأملاتى إلى التفكير كما أفكِّر ، وإذا كنت تشاطرنى مشاعرى ، وإذا كان كلٌّ منا يَجْهَرُ بذات العقيدة ، فإليك نصيحتى : لا تُعَرِّض حياتك ، بَعْدُ ، لمَنَازِع البؤس واليأس ، ولا تَقْضِها ، بَعْدُ ، في العار تحت رحمة الغُرَباء ، وامْتَنِعْ عن أكل خبز الصدقة الحقير ، وارْجِعْ إلى وطنك ، وعُدْ إلى دين آبائك ، واتَّبِعْهُ بقلبٍ مُخْلص ، ولا تَرْتَدَّ عنه أبداً ، فهو بسيطٌ جدًّا ، وهو مُقَدَّسٌ جدًّا ، ولا أرى بين أديان الأرض ما هو أنقَى مِنه أدبًا ، ولا ما هو لدى العقل أكثرُ منه قبولاً ، وأما نفقاتُ السَّفَر فلا تُفَكِّرْ فيها ، فستُدَبَّر ، وكذلك

لا تَخْشَ حياءً زائفًا من عَوْدٍ مُزْرٍ ، فيجب أن يُخْجَل من اقترافِ ذَنْبٍ، لا من إصلاحه ، وأنت لا تزال فى دَوْرٍ من العُمُر يُغْفَرُ فيه كلُّ شيء ، ولكن مع العقاب على كلِّ ما يُرْتَكَبُ فيه ، وإذا ما أردتُ أن تُنْصِتَ لضميرك زال ألفٌ من الموانع الباطلة عند صوته ، وستَشْعُر فى دور الشَّكِّ الذى نحن فيه بأن من الافتراض الذى لا يُغْتَفَر أن يُجْهَرَ بدينٍ آخرَ غيرِ الذى يُولَدُ المرء فيه ، وبأن من البهتان ألاَّ يمارِس المرء بإخلاصٍ دينًا يُجْهَرُ به ، وهو إذا ما كانت له معذرةٌ كبيرة أمام محكمة القاضى العَلِيّ ، أفلا يَعْفُو هذا القاضى عن سيئةٍ وُلِدَ معها الإنسانُ أكثرَ من عفوه عن سيئة جَرُؤ على اختيارها ؟

« واجْعَلْ نفسَك ، يا بُنَىَّ ، فى حالٍ تَبْتَغِى فيها ، دائمًا ، وجودَ ربٍّ واحد ، فلا تَشُكَّ فيه أبداً ، ثم مهما يكن من قرارٍ يُمْكِنُك أن تتخذ اذْكُرْ أن واجباتِ الدينِ الحقيقيةَ مستقلةٌ عن تعاليم الناس ، وأن القلبَ الصادق هو هيكلُ الرَّبِّ الحقيقىُّ ، وأن محبةَ الله تفضيلاً على كلِّ شىء ، ومحبةَ القريب كمحبة النفس ، هما خلاصةُ الشريعة فى كلِّ بلدٍ ونِحْلَةٍ ، وأنه لا يُوجَدُ دينٌ يُعْفِى من الواجبات الأدبية ، وأنه لا يُوجَدُ غيرُ هذه الواجباتِ ما هو جوهرىٌّ حقًّا ، وأن العبادة الباطنية هى أولَى هذه الواجبات ، وأنه لا فضيلةَ حقيقيةٌ بلا إيمان .

« واجْتَنِبْ أولئك الذين يتذَرَّعون بإيضاح الطبيعة فيَبْذُرون فى قلوب الناس مذاهبَ مُكَدِّرة ، يَبْذُرون مذاهبَ يُعَدُّ شكُّها الظاهرُ إيجابيًّا اعتقاديًّا أكثرَ من لهجة خصومهم الجازمة ، وهم إذْ يَتمسَّكون بذريعةِ

قائمةٍ على الغَطْرسة قائلةٍ إنهم وحدَهم ذوو بصائرَ وحقٍّ وحُسْنِ نيةٍ فإنهم يُخضِعُوننا لأحكامهم القاطعة بصَلَفٍ ، ويَزْعمون أنهم يَمنَحُوننا ، كمبادئ حقيقيةٍ عن الأشياء ، نُظُماً لا تُفْهَم أقاموها فى خيالهم ، ومع ذلك فإنهم ، إذْ يَقلِبون جميعَ ما يحترم الناس رأساً على عَقِب ويُقَوِّضونه ويدوسونه ، فإنهم يَنزِعون من المَكْرُوبِ بين آخرَ سلوانٍ عن بؤسهم ، ومن الأقوياء والأغنياء زاجرَ أهوائهم الوحيدَ ، ويستأصلون من القلوب نَدَمَها على الإجرام وأملَها فى الفضيلة ، ثم يفاخرون بأنهم محسنون للجنس البشرىّ ، وهم يقولون إن الحقيقة غيرُ ضارّةٍ بالناس مطلقاً ، وأعتقدُ هذا كما يعتقدون ، وأرى أن هذا دليلٌ كبيرٌ على أن الحقيقة ليست ما يُعَلِّمُون[1] .

---

(١) يبلغ الفريقان من التصاول بكثير من السفسطات ما يصعب معه كثيراً معالجة جميع ما يذهبان إليه ، وهيهات أن يقيد بمضى ذلك كلما ظهر ، ومن أكثر ما اعتاده الفريق المتفلسف أن يقابل بين قوم من الفلاسفة الصالحين كما يفترض وقوم من النصارى الطالحين ، كأن صنع قوم من الفلاسفة الصادقين أسهل من صنع قوم من النصارى الصادقين ! ولا أدرى هل يسهل عليك أن تجد بين الأفراد أحد الرجلين أكثر مما يسهل عليك أن تجد الرجل الآخر ، وإنما أعرف جيداً أنه يجب ، عندما تكون الأقوام موضوع بحث ، افتراض وجود من يسيئون استعمال الفلسفة بلا دين ، كما يسىء أهلونا استعمال الدين بلا فلسفة ، وهذا ينطوى على تغيير كبير فى حال السؤال .

وقد أجاد بيل فى إثباته أن التعصب أشد ضرراً من الإلحاد بمراحل ، وهذا أمر لا جدال فيه ، وإنما الذى لم يتفضل بقوله ، مع أنه ليس أقل حقيقة ، هو أن التعصب ، وإن كان سفاكاً للدماء طاغياً ، هوى عظيم قوى مع ذلك ، هوى يرفع قلب الإنسان ويحمله على ازدراء الموت ، هوى محرك عجيب له ، هوى يجب حسن توجيهه لاستخراج أعلى الفضائل منه ، وذلك بدلا مما ينشبه الإلحاد ، والروح الفلسفى المبرهن على العموم ، فى الحياة فيخنث النفوس ويحطها ، ويجمع جميع الأهواء ضمن نذالة المصلحة الخاصة وفى دناءة الأنانية البشرية ، وهكذا فإنه يقوض ، مع قليل ضوضاء ، دعائم كل مجتمع ، وذلك لأن ما بين المصالح الخاصة من اشتراك هو من الضآلة ما لا يوازن المصالح المقابلة . =

« ويا أيها الفتى الصالح ، كُنْ مخلصاً صادقاً خالياً من الُخيَلاء ، واعْرِف

= وإذا كان الإلحاد لايؤدى إلى سفك دماء الناس فذلك عن عدم اكتراث للخير أكثر مما عن حب السلام ، كما لو كان الحكيم المزعوم غير مبال بما يقع على أن يبقى مستريحاً فى غرفته ، أجل ، إن مبادئه لاتقتل الناس ، ولكنها تحول دون ولادتهم بتقويضها الأخلاق التى توجب تناسلهم ، وبفصلها عن نوعهم ، وبرد جميع عواطفهم إلى أثرة خفية شؤم على الأهلين كشؤمها على الفضيلة ، ويشابه عدم الاكتراث الفلسفى هدوء الدولة فى عهد الاستبداد ، وهو سكون الموت ، وهو أكثر تخريباً من الحرب نفسها .

وهكذا فإن التعصب ، وإن كان أكثر شؤماً بنتائجه المباشرة مما يدعى اليوم بالروح الفلسفية ، أقل شؤماً بنتائجه البعيدة ، ثم إن من السهل عرض مبادئ رائعة فى الكتب ، ولكن المسئلة تدور حول حسن ملاءمتها للمذهب ، وحول صدورها عنه حتماً ، وهذا الذى لم يظهر واضحاً حتى الآن ، وبقى علينا أن نعرف هل الفلسفة ، وهى فى يسرها وعلى عرشها ، مهيمنة على زهو الإنسان وغرضه وطمعه وأهوائه الحقيرة ، وهل تطبق تلك الإنسانية البالغة العذوبة التى تباهى بها والقلم فى اليد .

ولا تستطيع الفلسفة مبدأ أن تصنع أى خير لا يصنع الدين ما هو أروع منه ، ويصنع الدين من الخير ما هو أكثر مما تستطيع الفلسفة صنعه .

والأمر غير ذلك عملا ، ولكن لا بد من التمحيص ، ولا أحد يتبع دينه فى كل أمر عندما يكون له دين واحد ، وهذا صحيح ، وليس لمعظم الناس دين مطلقاً ، ولا يتبعون ما لديهم مطلقاً ، وهذا صحيح أيضاً ، ولكن يوجد لبعض الناس دين ، ويتبعونه بعض الاتباع على الأقل ، ومما لا ريب فيه وجود بواعث للدين تمنع من فعل الشر غالباً ، وتظفر منهم بفضائل وأعمال حميدة ما كانت لتحدث لولا هى .

ولينكر راهب إحدى الودائع ، فما يعقب ذلك غير عد الذى أودعه إياها من المجانين؟ وإذا كان بسكال هو الذى أنكرها عد هذا دليلا على أن بسكال من المداجين ، ولكن الراهب ! . . . وهل الذين يتاجرون بالدين عندهم دين إذن ؟ إن جميع الجرائم التى تقع بين الإكليروس ، كما تقع عند غيرهم ، لا تثبت كون الدين غير نافع مطلقاً ، وإنما تثبت كون الذين هم أصحاب دين قليلين .

ولا مراء فى أن حكوماتنا الحديثة مدينة للنصرانية بسلطانها المتين وقلة ثوراتها ، وقد جعلتها النصرانية أقل سفكاً للدماء ، ويثبت هذا فعلا عند المقابلة بينها وبين الحكومات القديمة ، فالدين ، إذ أحسنت معرفته ، أقصى التعصب ومنح الأخلاق النصرانية حلماً كبيراً ، وليس هذا التحول وليد الآداب ، وذلك لأن احترام الإنسانية لم يزد حيث ازدهرت الآداب ، وذلك كما تدل عليه قسوة الأثنيين والمصريين وأباطرة رومة والصينيين ، ويالأعمال الرحمة التى هى من فعل الإنجيل ! وما أكثر ما يؤدى إليه الإنجيل من إصلاح وتصحيح واعتراف بين الكاثوليك ! وما أكثر ما يؤدى إليه اقتراب أوقات تناول القربان من مصالحات وإعطاء صدقات ! وما أكثر ما جعلت سنة الأبرار لدى العبريين فريق الناصبين أقل طمعاً ! وما أكثر =

كيف تكون غافلًا ، أى لا تُخَادِعْ نفسكَ ولا الآخرين ، وإذا كانت مواهبُك من الثَّقافة ما تخاطب معه الناسَ فلا تُكَلِّمْهم إلَّا وَفْقَ ضميرك ومن غير التفاتٍ إلى هُتافهم لك ، ويؤدِّى سوء استعمال المعرفة إلى عدم الاعتقاد ، ويزدرى كلُّ عالمٍ رأىَ العوامّ ، ويُريدُ كلُّ عالمٍ أن يكون ذا رأيٍ خاصّ ، وتَسُوقُ الفلسفةُ المتعاظمة إلى التعصب ، واجْتَنِبْ هذه الحدودَ النهائية ،

= ما حالت دونه من بؤس ! إن الإخاء الشرعى يوحد بين جميع القوم فلا يوجد عندهم متسول ، وكذلك لا يوجد متسولون بين الترك حيث لا يحصى ما عندهم من الأوقاف الخيرية ، وهم مضاييف عن مبدأ دينى ، حتى نحو أعداء دينهم .

وروى شاردان : « أن المسلمين يقولون إن جميع الأجسام بعد الحساب الذى يعقب البعث العام تمر على جسر يسمى الصراط قائم على النار الأبدية ، على جسر يمكن تسميته ، كما يقولون ، بالحساب الثالث والأخير وبالحساب الحقيقى النهائى ، وذلك لأن عليه يفصل الأخيار من الأشرار . . . إلخ » .

ويقول شاردان مواصلا : « والفرس مفتونون بهذا الجسر كثيراً ، فتى لحقت بالواحد منهم إهانة لا يستطيع غسلها بأية وسيلة كانت وفى أى وقت كان وجد آخر عزاءه بقوله : « حسناً ! والحى القيوم ، إنك ستدفع لى ثمن ذلك مضاعفاً يوم الحساب ، ولن تمر على الصراط قبل أن ترضينى مقدماً ، وسأتعلق فى طرف ثوبك وسأطرح نفسى على ساقيك » ، وقد شاهدت وجهاء كثيرين من كل مهنة يخشون أن يصرخ بهم حين مرورهم فوق هذا الجسر الهائل على هذا الوجه فيلتمسون العفو ممن يتوجعون منهم ، وقد لاقيت مثل هذا بنفسى مئة مرة ، وذلك أن أناساً من ذوى المكانة كانوا إذا ما حملونى مع الإزعاج على القيام بأعمال لا أريدها اقتربوا منى بعد مرور وقت يكفى لزوال ألمى وقالوا لى : « دع هذا الأمر يكون شرعياً حقاً » ، حتى إن بعضهم قدم إلى هدايا وقام نحوى بخدم ، وذلك لأعفو عنه معلناً أن عفوى هذا وقع عن رضاً ، وما يكون سبب هذا غير الاعتقاد بأن جسر جهنم لا يجاوز قبل أن يدفع أقصى تعويض إلى المظلوم ؟ » ، (جزء ٧ ، صفحة ٥٠) .

وهل أعتقد أن مبدأ هذا الجسر الذى يمحو كثيراً من الآثام لا يمنع وقوعها ؟ وإذا ما نزع من الفرس هذا المبدأ بإقناعهم أنه لا يوجد صراط ولا ما يماثله حيث ينتقم للمظلومين من ظالميهم بعد الموت أفلا يكون من الواضح زوال مخاوف هؤلاء الظالمين بذلك مع خلاص لهم من كل جهد فى تطييب خواطر أولئك التعساء ؟ ولذا فإن من الضلال أن يقال إن هذا المبدأ ضار ، ولو لم يكن صحيحاً .

أجل ، إن قوانينك الخلقية رائعة جداً أيها الفيلسوف ، ولكن تفضل فدلنى على مؤيد لها ، وكف

والْزَم طريقَ الحقيقة دائماً ، أوْ ما يَبْدُو لك هكذا ضِمْنَ بساطة قلبك ، وذلك من غير أن تتحول عن ذلك عن زهوٍ أو ضَعْفٍ مطلقاً ، واجْهَرْ بالإيمان بالله أمام الفلاسفة ، واجْهَرْ بوعظ المتعصبين بالإنسانية ، ومن المحتمل أن تَبْقَى وحدَك ، ولكنك ستحْمِل فى نفسك شاهداً يُغنِيك عن شهود الناس ، وليس من المهمِّ أن يُحِبُّوك أو يَكْرَهوك ، وأن يَقْرَءوا ما تكتب أو يَزْدروه ، وقُل الحقَّ وافعَل الخيرَ ، فالذى يُهِمُّ الإنسانَ هو أن يقوم بواجباته فى العالَم ، والإنسانُ إذا ما نَسِيَ نفسَه عَمِل فى سبيل نفسه ، والمصلحةُ الخاصةُ تخدَعنا يا بُنَيّ ، وأمَلُ الصالح وحدَه هو الذى لا يَخْدَع مطلقاً » .

• • •

لقد نقلتُ تلك الوثيقة لا كقاعدةٍ عن المشاعر التى يَجِبُ اتباعُها فى موضوع الدين ، بل كمثالٍ عن الموضوع الذى يُمكن البَرْهَنَةُ حوْله مع تلميذى لكيلا أبتعدَ عن المنهاج الذى حاولتُ إقامتَه ، ولا تستطيع بصائرُ العقل أن تأتى بنا ضِمْنَ نظام الطبيعة إلى ما هو أبعدُ من الدين الطبيعيِّ ما دام لم يُذْعَنْ بشيء لسلطان الناس ولا لمُبْتَسَرات البلد الذى يُولَد فيه ، وهذا ما أقتَصِرُ عليه مع إميل ، وإذا ما وجب اعتناقُه ديناً آخرَ عُدْتُ غيرَ ذى حَقٍّ فى أن أكون دليلًا له فى ذلك ، فعليه وحدَه أن يختاره .

ونَعْمَل متفقين مع الطبيعة ، وبَيْنا تُكوِّن الطبيعةُ الرجلَ الطبيعيَّ نحاولُ تكوينَ الإنسان الأدبيِّ ، بيد أن تقدُّمنا ليس واحداً ، وذلك أن الجسم أصبح عُضْلُبيًّا قويًّا على حينِ لا يزال الروح واهناً ضعيفاً ، ومهما

يَسْتَطِعْ الفنُّ البشريُّ أن يَصْنَع فإن المزاج يَسْبِقُ العقل دائماً ، وقد بَذَلْنا جميعَ جهودنا حتى الآن فى ضبط أحدهما وتنشيط الآخر وصولًا إلى جَعْل الإنسان واحداً ما أمْكَن ، ونحن حين أنْمَيْنَا الجِبِلِّيَّ ضَبَطْنا حَسَّاسيته الناشئةَ ونَظَّمْناها بتَعَهُّدِنا العقل ، وكانت أمورُ العقل تُعَدِّل انطباعَ أمور الإحساس ، ونحن إذ رَجَعْنَا إلى أصل الأشياء أنْقَذْناه من سلطان الحواسِّ ، فكان من السَّهْل أن يُرْفَعَ من دراسة الطبيعة إلى البحث عن صانعها .

ويا للسُّبُل الجديدة التى تكون لنا على تلميذنا ، ويا للوسائل الحديثة التى نُخَاطِبُ بها فؤادَه ، عندما ننتهى إلى هنالك ! وهنالك فقط يَجِدُ مصلحته الحقيقية فى صلاحه وفى عمل الخير بعيداً من أنظار الناس ومن غير أن تُكْرِهَه عليه القوانين وفى كونه بارًّا بين الله ونفسه ، وفى قيامه بواجبه حتى على حساب حياته ، وفى حمله الفضيلةَ فى قلبه ، ليس ، فقط ، عن حبِّ النظام الذى يُفَضِّل عليه كلٌّ واحدٍ حُبَّ نفسه دائماً ، بل عن حُبِّ صانع وجوده ، عن هذا الحُبِّ الذى يختلط بحبِّ النفس ذاك ، وذلك للتمتع أخيراً بالسعادة الدائمة التى تَعِدُه بها راحةُ الضمير والتأمُّلُ فى ذلك الموجود الأعلى ، وذلك فى الحياة الأخرى ، بعد أن يكون قد اسْتَنْفَدَ هذه الحياةَ تماماً ، وإذا عَدَوْتَ ذاك عُدْتُ لا أرَى غيرَ الجَوْر والرِّئاء والكذب بين الناس ، وتُعَلِّمُ المصلحةُ الخاصةُ التى تَفُوزُ ، عند المزاحمة ، على كلِّ ما سواها بحُكْم الضرورة ، كلَّ واحدٍ منهم أن يُلْبِسَ الرذيلةَ قِنَاعَ الفضيلة ، ولْيَصْنَعْ مَنْ سواى من الناس ما فيه خَيْرى على حساب منفعتهم ، ولْيُسَلِّمْ زِمامُ كلِّ أمرٍ إلىَّ وحدى ، ولْيَهْلِكْ جميع الجنس البشرىِّ ألماً

وبؤساً عند الاقتضاء حِفْظاً لى من الألم والجوع ساعةً ، فهذا هو اللسانُ الباطنىُّ عند كلِّ مُلْحدٍ يأتى بالبراهين ، أجَلْ ، إننى سأعُدُّ من الكاذبين أو المجانين ، مادمتُ حيًّا ، كلَّ من يقول فى قلبه « لا يُوجَدُ إلهٌ مطلقاً » ، على حينَ يَجْهَرُ بغير هذا .

ويا أيها القارئُ ، عبثاً أحاول ، فما أشْعُرُ به جيداً أننا ، أنا وأنت ، لن نرى إميلَ متصفاً بذات الخصائص ، فأنت تَتَمَثَّلُ إميلَ مماثلًا لفِتْيانك دائماً ، أنت تتمثَّله ، على الدوام ، طائشاً أشِراً قَلُوباً تائهًا بين حَفْلةٍ وأخرى ، وبين لَهْوٍ وآخرَ ، عاجزاً عن الاستقرار على حالٍ مطلقاً ، وستَضْحَك إذ ترانى أجْعَلُ متأمِّلًا فيلسوفًا ولاهوتيًّا حقيقيًّا من شابٍّ أجُوجٍ نَزِقٍ غَضُوب هائج فى أشدِّ أدوار الحياة غَلَيانًا ، وستقولون إن هذا الحالِمَ يَتَّبِعُ وهمَه دائماً ، وإنه ، إذْ يعطينا تِلْميذاً على شاكلته ، لا يُنَشِّئه فقط ، بل يَخْلُقُه ويُخْرِجه من دماغه ، وإنه إذْ يَعْتَقِد اتِّبَاعَه الطبيعة دائماً ، يبتعد عنها فى كلِّ دقيقة ، وأما أنا فإنى ، إذْ أقابل بين تلميذى وتلاميذكم ، لا أكاد أجِدُ ما يُمْكِن أن يكون مشتركاً بينهما ، وإذْ نُشِّئَ تلميذى على خلاف ما نُشِّئُوا فإن من المعجزة أن يشابههما فى بعض الأمور ، وبما أنه قَضَى صِباه فى مثل الحرية التى يتخذونها فى شبابهم فإنه يَبْدَأ فى شبابه باتخاذ القاعدة التى حُمِلُوا على الخضوع لها وهم أولادٌ ، وتُصْبح هذه القاعدةُ بلاءهم ، ويَعُدُّونها موضعَ مَقْتٍ لهم ، ولا يَرَوْن فيها غيرَ طغيانٍ للسادةِ مَديدٍ ، ويَظُنُّون أنهم لا يَخْرُجون من دَوْر الصبا إلَّا بإلقاء كلِّ نيرٍ عنهم[1] ، وهنالك

---

(١) لا تجد أحداً ينظر إلى دور الصبا بازدراء كبير كالذين يخرجون منه ، كما أنك لا تجد بلداً =

يُعَوِّضون أنفسهم من الضغط الطويل الذى أُمسِكُوا فيه ، وذلك كالسجين الذى يَنْجُو من القيود فيَمُدُّ أعضاءه ويُحَرِّكُها ويَثْنِيها .

وعلى العكس يفتخر إميلُ بأن يصير رجلاً وبأن يُخْضِع نفسَه لنِير العقل الناشئ ، وقد عاد بَدَنُه الذى تَكَوَّن لا يحتاج إلى عين الحركات ، فأخذ يَقِفُ من تلقاء نفسه ، على حين يحاول روحُه نصفُ النامى أن يَنْهَض بدَوْره ، وهكذا ليست سِنُّ العقل لدى أناسٍ غيرَ سِنِّ الإباحة ، وهى تكون سنَّ التعقل لدى الآخر .

وهل تريدون أن تَعرِفوا أىُّ الفريقين أقربُ إلى نظام الطبيعة ؟ انظُرُوا إلى الفروق بين أولئك الذين هم بعيدون منها بعضَ البعد ، ولاحِظوا الفِتْيانَ عند القَرَوِيِّين ، ورَوْا هل هم بَطِرُون كفِتْيانكم ، قال مسيو لُوبُو : « يُرَى الهَمَجُ دائمى النشاط فى دَوْر الصِّبا مباشرين ، بلا انقطاعٍ ، ألْعاباً مختلفةً تُحَرِّكُ أبدانَهم ولكنهم لا يكادون يَبْلُغون سِنَّ المراهقة حتى يَغْدُوا هادئين حالمين ، ثم يَعُودون لا يتعاطَوْن غيرَ الألعاب الجِدِّيَّة أو القمار[1] » ، وبما أن إميلَ قد نُشِّئَ بكلِّ ما عند فِتْيان الفلاحين وفِتيان الهَمَج من حرية فإنه يجب أن يُغيِّرَ ويَقِفَ مِثْلَهم إذا ما كَبِر ، وكلُّ الفرْقِ فى أنه ، بدلاً من أن يَسِيرَ من أجْلِ اللَّعِب ومن أجْل الغِذاء حصراً ، تعلَّمَ التفكير فى أعماله وفى ألعابه ، وأما وقد انتهى إلى هذا الحدِّ من هذا الطريق إذَنْ وَجَدَ نفسه مستعدًّا كلَّ الاستعداد لِمَا أَدْخِلُه إليه ، وما أَعْرِض عليه

= تحفظ فيه المراتب مع كثير من التكلف أشد مما فى البلاد التى لا يكون التفاوت فيها عظيماً والتى يخشى كل واحد فيها ، دائماً ، أن يخلط بمن هم أدنى منه .

(١) مغامرات مسيو لوبو ، المحامى لدى البرلمان ، جزء ٢ ، صفحة ٧٠ .

من موضوعاتٍ تأمُّلٍ يُثيرُ فضُولَه ، وذلك لرَوْعة هذه الموضوعات بنفسها ، ولكاملٍ جِدَّتها بالنسبة إليه ، ولأنه فى حالٍ يستطيع أن يُدْركها معه ، وأما تلاميذُكم فهم ، على العكس ، إذْ كانوا مَلُولين مُثقَلين بدروسكم التافهة وبعلوم أخلاقكم المطوَّلة وبتعاليمكم النصرانية الدائمة فكيف لا يأبَوْن أن يُعيرُوا ذهنَهم الذى جُعِلَ كئيباً من المبادئ الثقيلة التى ما انفكُّوا يُرْهَقُون بها ومن التأملات حَوْلَ صانع وجودهم الذى جُعِلَ منه عدوٌّ مَلَاذِّهم ؟ ولم يُوحِ إليهم جميعُ هذا غيرَ النفور والكَرَاهِيَة والسَّأم ، وقد صَدَّهم القَسْرُ عنه ، ولِمَ يُكَرِّسُون أنفسَهم له فى وقت يأخذون فى الاختيار لها ؟ لا بُدَّ من جديدٍ لهم حتى يُمْكِنَ الوقوعُ عندهم موقعَ الرضا ، وعاد لا ينبغى أن يُكَرَّر لهم ما يقال للأولاد ، والأمرُ هكذا نحو تلميذى الذى إذا ما صار رجلاً كَلَّمْتُه مثلَ رجلٍ ولم أَقُلْ له غيرَ أشياءَ جديدةٍ ، نحو تلميذى الذى يجب أن يَجِدَها ملائمةً لذوقه عن كَوْنِها تُورِث الآخرين مَلَالاً .

ومن ثَمَّ ترى كيف أَكْسَبْتُه وقتاً مضاعَفاً بتأخيرى تَقَدُّمَ الطبيعة نفعاً للعقل ، ولكن هل أَخَّرْتُ هذا التقدمَ بالحقيقة ؟ كلاَّ ، وإنما حُلْتُ ، فَقَطْ ، دون تعجيل الخيال للطبيعة ، ووازنتُ بدروسٍ من طرازٍ آخرَ دروساً مُعَجَّلَة يتلقَّاها الفِتْيانُ فى أماكنَ أخرى ، وبينا يَجُرُّه سَيْلُ مناهجنا القائمةِ يُجْذَب إلى الجهة المقابلة بمناهجَ أخرى ، فيعنى هذا إمساكَه فى موضعه ، لا إخراجَه منه .

ثم تَحِينُ ساعةُ الطبيعةِ الحقيقيةُ ، ويجب أن تَحِين ، وبما أنه لا بُدَّ

من موت الإنسان وجب أن يتناسل ليَبْقَى النوعُ وليُحْفَظ نظامُ العالَم ، ومتى شعَرتم بحلول ساعة الخطَر بالعلائم التى تكلمتُ عنها فاترُكوا أسلوبَكم القديمَ إلى الأبد من فَوْرِكم ، فهو لا يزال مُرِيداً لكم ، وهو يَعُود غيرَ تلميذٍ لكم ، وهو يكون صديقاً لكم ، وهو يكون رجلاً ، فعاملوه هكذا بعد الآن .

ماذا ! أأتخَلَّى عن سلطانى عند ما أغدُو أشدَّ ما أكُونُ احتياجاً إليه ؟ وهل يجب أن أُلقِيَ حَبْلَ المُراهقِ على غارِبه حينما يصير أقلَّ ما يستطيع سَيْراً وأكثرَ ما يكون إتياناً لأعظم الانحرافات ؟ وهل أتَنَزَّلُ عن حقوقى عند ما يُصْبِح أكثرَ ما يكون اضطراراً إلى ممارستى لها ؟ حقوقكم ! مَنْ يقول لكم أن تتَنَزَّلوا عنها ؟ تَبْدَأ الآن فى سبيله فقط ، ولم تنالوا منها شيئاً بغير القوة والحيلة حتى الآن ، وقد كان السلطانُ وقانونُ الواجب مجهولين لديه ، فكان لا بُدَّ من إخافته أو مخادعته حَمْلاً له على إطاعتكم ، ولكنكم تَرَوْن مقدارَ القيود التى أحَطْتُم بها فؤادَه ، ويخاطبه العقلُ والصداقة وعِرْفانُ الجميل وألفٌ من العواطف بلهجةٍ لا يستطيع أن يُنكِرَها ، ولم يَجْعَلْه العَيْبُ أصَمَّ تجاه صوتها ، ولا يزال يتأثَّرُ بأهواء الطبيعة فقط ، ويُسْلِمُه إليكم حُبُّ النفس الذى هو أوَّلُها جميعاً ، وتُسْلِمُه العادة إليكم أيضاً ، وإذا ما نُزِع منكم بفَوْرَةِ ساعةٍ فإن الندم يعيده إليكم حالاً ، والشعورُ الذى يَرْبِطه بكم هو الدائمُ وحدَه ، وأما المشاعرُ الأخرى فتَمْضِي وتَمَّحِي مبادَلَةً ، ولا تَدَعُوه يَفسُد مطلقاً ، فسيكون طَيِّعاً دائماً ، وهو لا يأخذ فى التمرد إلَّا بعد أن يكون الفسادُ قد دَبَّ فيه .

وأعترف بأنكم إذا ما جَبَهْتُم رغائبَه الناشئةَ فكنتم من الغباوة ما تَعُدُّون معه من الجرائم ما يَتَمَخَّضُ فيه من الاحتياجات الجديدة لم يُصْغِ إليكم زمناً طويلاً ، ولكنكم إذا ما تركتم مِنْهاجى عُدْتُ غيرَ مسؤول عن النتائج نحوكم ، واذْكُرُوا ، دائماً ، أنكم وكلاء الطبيعة ، ولن تكونوا عَدُوًّا لها مطلقاً .

ولكنْ أىُّ قرارٍ يُتَّخَذ ؟ لا يُنْتَظَرُ من الخِيار هنا غيرُ استحسانِ مُيُولهِ أو مكافحتِها ، غيرُ كونِكم طاغيتَه أو مُلاطِفين له ، ولكلٍّ من الأمرينْ من النتائج البالغة الخطَر ما لا بُدَّ معه من التردُّد بينهما كثيراً عند الاختيار .

وأولُ وسيلةٍ تَخْطُر على البال لحلِّ هذه المشكلة هو أن يُزَوَّج سريعاً ، ولا جِدالَ فى أن هذه الطريقة أضمنُ الطرق وأقربُها إلى الطبيعة ، ومع ذلك فإننى أشكُّ فى كَونها أحسنَ الطرق وأكثرَها فائدةً ، وسأُبَيِّنُ براهينى فيما بعد ، ورُبَّما أصْنَعُ هذا أوافق على زواج الفِتْيان فى سِنِّ البلوغ ، غير أن هذه السِّنَّ تأتى قبل الأوان ، ونحن الذين يُعَجِّلونها ، فيجب إطالتُها حتى سِنِّ الرُّشد .

ولو وَجَبَ ألَّا يُسْتَمَعَ لغير المُيُول وألَّا يُتَّبَعَ غيرُ العلائم لَقُضِىَ الأمرُ سريعاً ، ولكنْ يُوجَدُ بين حقوق الطبيعة وقوانيننا الاجتماعية من التناقض الكثير ما لا بُدَّ معه من الالتواء والتردُّد بلا انقطاعٍ للتوفيق بينهما ، ولا بُدَّ من استعمال كثيرٍ من الحِذْق لمَنْع الإنسان الاجتماعىِّ من أن يكون مصنوعاً .

وأستندُ إلى الأسباب المعروضة آنفاً فأُقدِّرُ أن من الممكن ، بالوسائل التي أعطَيْتُ وبما ماثلَها ، تمديدَ الدَّوْر الذى تُجْهَلُ فيه مُيُولُ الحواسِّ ويُحْفَظُ فيه نقاؤها حتى العشرين من العمر على الأقلّ ، وهذا هو من الصحة ما يَبْقَى معه الفتَى الجرمانىُّ مفضوحاً إذا ما أضاع طُهْرَه قبل هذه السِّنّ ، ومن الصواب عَزْوُ المؤلفين قوةَ البِنْية لدى الجرْمان وكثرةَ أولادهم إلى عَفَاف هؤلاء القوم فى دَوْر شبابهم .

حتى إن من الممكن إطالةَ ذاك الدورِ كثيراً ، ولا شيء كان أكثرَ شيوعاً من هذا فى فرنسة نفسِها منذ قرونٍ قليلة ، ومن بين كثيرٍ من الأمثلة المعروفة نذْكُر مثالَ أبِى مُونـتِين الذى لم يكن قويًّا حسن البِنْيَة أكثرَ منه مُتَحَسِّباً صادقاً فأقسَم أن يَتزَوَّج طاهراً فى الخامسة والثلاثين من سِنِيه بعد خدمةٍ طويلة فى حروب إيطالية ، ومما يُرَى فيما كتب الابنُ أىُّ قوةٍ ومَرَحٍ حافظ عليهما الأب بعد مجاوزته الستين من عُمُره ، ولا جَرَمَ أن الرأى المعاكس يَتَوَقَّفُ على طِبَاعنا ومُبْتَسراتنا أكثرَ مما على عِرْفان النوع على العموم .

ولِذَا فإن من الممكن أن أطرح جانباً مثالَ شبابنا ، فهو لا يُثْبِتُ شيئاً تجاه من لم يُنَشَّأْ مِثْلَه ، وإنى ، بعد النظر إلى أن الطبيعة لم تَضَعْ حدًّا يَتَعَذَّرُ تقديمُه أو تأخيره ، أعتقد أننى أستطيع ، من غير مجاوزةٍ لناموسها ، أن أفترض بقاء إميلَ حتى ذلك الحين ضِمْنَ طُهْرِه الابتدائىِّ نتيجةً لِمَا بَذَلْتُ من عناية ، وإنى أبْصِرُ قُرْبَ نهاية هذا الدور السعيد ، وهو ، إذْ يُحاطُ بأخطارٍ مُطَّرِدةٍ زيادةً ، يَتَفَلَّتُ منى عند أولِ فرصةٍ على الرغم

من جهودى ، ولن يتأخر وقوعُ هذه الفرصة ، وهو سيَتّبِعُ غريزةَ الحواسِّ العمياء ، ويُوجَد رِهانُ ألفٍ فى مقابل واحدٍ على ضَياعه ، وقد أنعمتُ النظرَ كثيراً فى طبائع الناس لكيلا أرى نفوذ هذا الدور الأول الذى لا يُقْهَر فى بقية حياته ، وهو إذا ما كَتَمْتُ وأظهرتُ أننى لا أرى شيئاً تَغلَّب على ضعفى ، وهو إذا ما اعتقد أنه يخادعنى استخفَّ بى وصِرْتُ شريكاً فى ضَياعه ، وإذا ما حاولتُ ردَّه كان هذا بعد الأوان ، وعاد لا يُصْغِى إلىَّ ، وصار يَعُدُّنى مُزْعِجاً ممقوتاً ثقيلاً ، فلا يتأخر عن التخلُّص منى ، ولِذَا عاد لا يكون لدىَّ غيرُ سبيلٍ معقول أسْلُكه ، وهو أن أجعلَه مسؤولاً عن أعماله نحو نفسه ، وأن أحْفَظَه من مباغتات الخطأ على الأقلّ ، وأن أدلَّه بلا مُوَارَبةٍ على المَخَاطِر التى تحيط به ، وقد وَقَفْتُهُ بجَهْله حتى الآن ، والآن يجب أن أقِفَه بالمعارف .

وهذه المعارفُ الجديدةُ مهمةٌ ، ومن الملائم تناولُ الأمور من الأعلى ، وهذه هى ساعةُ تقديم حساباتى إليه ، فأدلُّه على استعمال وقته ووقتى وأُبَيِّنُ له من هو ومن أنا ، وما فَعَل وما أفْعَلُ ، وما كلٌّ منا مَدِينٌ به للآخر ، وجميعَ صلاتِه الأدبية ، وجميعَ ما عَقَدَ من الالتزامات ، وجميعَ ما عُقِد معه ، ومقدارَ ما اتَّفَقَ لمواهبه من التقدم ، وما الطريقُ التى بَقِىَ عليه أن يَسْلُكَها ، وما سَيَجِدُ فيها من المصاعب ، وما الوسائلُ التى يقتحم بها هذه المصاعب ، وما يُمْكننى أن أساعده عليه بَعْدُ ، وما يُمكِنُه أن يُعِينَ عليه نفسَه بنفسه بعد الآن ، وما عليه من خطرٍ ، وما يحيط به من مخاطرَ جديدةٍ ، وجميعَ العوامل المتينة التى يجب أن تَحْمِلَه على ملاحظةِ

نفسه بدقةٍ قبل أن يُصْغِيَ إلى رغائبه الناشئة .

واذْكُرُوا أنه لا بُدَّ لقيادة المراهق من اتخاذكم جميعَ ما صنعتم لقيادة الولد ، ولا تتردَّدوا ، مطلقًا ، فى تعليمه هـذه الأسرارَ الخطِرة التى كَتَمْتُموها عنه بعنايةٍ كبيرة زمناً طويلًا ، ومن المهمِّ ألا يَعلَمَها من آخرَ ولا من نفسه ، بل منكم وحدَكم ، ويجب أن يَعرِف عدوَّه خشيةَ المباغتة ما دام مُلزَمًا بالنضال فيما بعدُ .

وما كان الفِتْيانُ الذين يُوجَدُون عارفين بهذه الأمور ، من غير أن يُعلَّمَ كيف عرَفوها ، ليصبحوا ذلك بلا عِقاب ، وبما أن هذا العرفانَ الطائش لا يُمكِن أن يكون ذا غَرَضٍ صالح فإنه يُدَنِّسُ ، على الأقلِّ ، خيالَ مَنْ يَتَلَقَّوْنه ويُعِدُّهم لرذائلِ من يُلْقُونه ، وليس هذا كلَّ ما فى الأمر ، فمن الخدَم من يَنْسابون فى ذهن الولد هكذا وينالون ثقتَه ويُبْدُون له مُرَبِّيَه رجلاً كئيباً ثقيلًا ، ويكون انتقاصُه من الموضوعات المُفَضَّلة فى أحاديثهم السِّرِّية ، فإذا ما صار التلميذُ فى هذا الوضع استطاع أن يَنْزَوِيَ لِمَا يَعودُ غيرَ قادرٍ على صُنْع ما هو صالح .

ولكنْ لِمَ يَخْتارُ الولدُ أنْجِيةً خاصِّين ؟ ذلك ، دائماً ، بسبب طغيان من يقومون برقابته ، ولِمَ يَتَوارَى منهم إذا لم يَكُنْ مُضْطَرًّا إلى الاختفاء ؟ ولِمَ يَتَوَجَّعُ إذا لم يُوجَدْ ما يَتَوَجَّعُ منه ؟ إن من الطبيعيِّ أن يكون هؤلاء الرُّقباء أولَ الأنجية ، ويُرَى من الهمة التى يقول لهم بها ما يُفَكِّرُ فيه اعتقادُه أنه يَبْقَى نِصفَ مُفَكِّرٍ فيه حتى يَقُولَه لهم ، واعْلَمُوا أن الولد إذا لم يَخْشَ من ناحيتكم وعظًا ولا تعزيراً قال لكم كلَّ شيء دائمًا ، وأنه لا أحدَ

يَجْرُؤ على قول شيء له يُخْفِيه عنكم ، وذلك لأنه يُعْلَم جيداً أنه سيقول لكم كلَّ شيء .

والذى يَجْعَلُنى أكثرَ اعتماداً على منهاجى هو أننى لا أرى ، باتباعى مَناحِيَه بما يمكننى من الدقة ، وَضْعاً فى حياة تلميذى لا يَدَعُ لى صورةً مستحبَّةً عنه ، حتى إننى لا أزال أجِدُه على بساطته الأولى فى حُمَيَّاه وهيجانه حين تسوقه صَوْلاتُ المزاج ، وحين يَتمرَّد على اليد التى تَقِفُه فَيَنْتَفِضُ ويَأْخُذ فى التملُّص منى ، وليس فؤادُه النقىُّ نقاءَ بَدَنِه أعلمَ بالتَّستُّر مما بالمُنكر ، ولم يَجْعَلْه التعزيرُ ولا الازدراء نَذْلًا قطُّ ، ولم يُعَلِّمْه الخوفُ الدنىءُ أن يَتنكَّر مطلقاً ، وهو يتصف بكلِّ ما فى الطُّهْر من رصانة ، وهو ساذجٌ بلا وَسْواس ، وهو لم يَعرِف بَعْدُ فائدةَ الخِداع ، ولا يَقَعُ مَيْلٌ فى نفسه من غير أن يَنِمَّ عليه لسانُه وعيناه ، وأَعْرِفُ ما يَشْعُر به من أحاسيسَ بأسرعَ مما يَعْرِفُ غالباً .

وليس عندى ما أخافُ ما داومَ على فَتْح قلبه لى طليقاً ، وعلى قوله لى ما يُحِسُّ مسروراً ، وليس الخَطَرُ بَعْدُ قريباً ، ولكنه إذا ما أصبح أكثرَ وَجَلاً وتحفُّظاً فأبصَرْتُ فى محادثاته ارتباكَ الحياء الأول دَلَّ هذا على نموٍّ فى الغريزة وعلى أخذ مبدأ السُّوْء يضاف إليها ، فعاد لا يكون لدىَّ وقتٌ أفرِّطُ فيه ، فإذا لم أبادر إلى تعليمه تعلَّم من فَوْره على الرغم منى .

وسيرَى أكثرُ من قارئٍ ، حتى عند انتحال أفكارى ، أن المسئلة هنا لا تَعْدُو حَدَّ محادثةٍ تَقَعُ مصادفةً مع الفتى ، وأن الأمرَ كلَّه يُسَوَّى

بهذا ، آه ! لا يُهَيْمَنُ على قلب الإنسان هكذا ! وما يقال لا يَدُلُّ على شيء إذا لم يُهَيَّأْ وقتُ قَوْلِه ، ولا بُدَّ من حَرْث الأرض قبل البَذْر ، ويَنْمُو بَذْرُ الفضيلةِ بصعوبةٍ ، ولا بُدَّ من أُهُبَاتٍ طويلة حتى يُجْعَلَ له جَذْرٌ ، ومن الأمور التى تَجْعَلُ المواعظَ أكثرَ ما يكون عدمَ فائدةٍ هو أنها تُعْرَض على جميع الناس بلا تمييزٍ ومن غير تفريقٍ ولا اختيار ، وكيف يُرَى أن الوعظ عَيْنَه يلائم كثيراً من المستمعين الكثيرى الاختلاف استعداداً وذهناً ومزاجاً وسِناً وجنساً وشأناً ورأياً ؟ ومن المحتمل ألا يُوجَدَ اثنان يُنَاسِبُهما ما يقال للجميع ، وتكون جميعُ عواطفنا من قلة الثبات ما لا يحتمل معه وجودُ ساعتين فى حياة كلِّ إنسانٍ يَتَّفِقُ فيهما لعين الكلام عينُ التأثير فيه ، ورَوْا هل يكون الوقتُ الذى تلتهب فيه الحواسُّ ، فتَخْبُلُ العقلَ وتُنَاكدُ الإرادةَ ، هو الوقتَ الذى يُصْغَى فيه إلى دروس الحكمة الرصينة ، ولذَا فلا تخاطِبُوا الفِتْيانَ بالعقل حتى فى سِنِّ العقل ، ما لا لم تكونوا قد هَيَّأتموهم لإدراكه فى أول الأمر ، وتَجِدُ مُعْظَم الخُطَب قد ذهب أدراج الرياح عن خَطَأِ الأساتيذ أكثرَ مما عن خطأِ التلاميذ ، أَجَلْ ، يقول المتحذلقُ والمعلِّمُ عينَ الأمور تقريباً ، غير أن الأول يقولها فى كلِّ وقت ، وأن الثانى لا يقولها إلا عند اطمئنانه إلى تأثيرها .

وإميلُ كالسائر فى النوم التائهِ فى رُقاده فيَمْشِى وهو وَسْنَانُ على أطراف هُوَّةٍ يَسْقُط فيها إذا ما أُوقِظَ بغتةً ، وهكذا فإن إميلَ ، وهو فى رُقاد الجهل ، يتفلَّتُ من الأخطار التى لا يراها مطلقاً ، فإذا ما نَبَّهْتَه برَجْفةٍ هَلَك ، فلنُحَاوِلْ أن نُبْعِدَه من الهُوَّة أوَّلا ، ثم نُنَبِّهُه لنُطْلِعَه عليها من بعيد .

وتُعَدُّ المطالعةُ والعزلة والحياةُ الحَضَرية الناعمة ومخالطةُ النساء والغِلمان سُبُلًا خَطِرَةً على مَنْ يكون فى مِثل عُمُره ، فتجعله قريباً من الهلاك دائماً ، وإنى أُحَوِّل حواسَّه بأمورٍ حسيةٍ أخرى ، وإنى أرْسُم مَجْرًى آخرَ لهواجسه فأُحَوِّلها عن المجرى الذى أخذت تَسْلُكه ، وإنى أُمَرِّن بَدَنه على أشغالٍ شاقةٍ فأقِفُ نشاط الخيال الذى يَسُوقُه ، ومتى اشتغلت الذِّرْعان استراح الخيال ، ومتى تَعِبَ البدن لم يَشْتعل القلبُ قطُّ ، ويكون أسرعُ احترازٍ وأسهلُ تَحَفُّظٍ فى نَزْعِه من الخطر المحلىِّ ، وآتى به فى البُداءة خارجَ المدن بعيداً من الأمور التى تستطيع أن تُغْوِيَه ، بَيْدَ أن هذا لا يَكْفِى ، ففى أية باديةٍ ، وفى أىِّ ملجأٍ مهجور ، سيتخلَّصُ من الصُّوَر التى تَتَعَقَّبُه ؟ ولا أَعَدُّ قد أقصيتُ الأشياءَ الخَطِرَة إذا لم أُقْصِ ذِكْرَاها أيضاً ، وإذا لم أجِدْ وسيلةً لفَصْلِه عن كلِّ شىء ، وإذا لم أُلْهِه عن نفسه ، كان من الجَدِير أن يُتْرَك حيث كان .

ويَعْرِف إميلُ صِناعةً ، ولكن هذه الصِّناعة ليست وسيلتنا هنا ، وهو يُحِبُّ الزِّراعةَ ويُدْرِكها ، ولكن الزراعة لا تكفينا ، وتصير الأشاغيلُ التى يَعْرِف نَمَطِيَّةً ، وهو إذْ يتعاطاها يُعَدُّ غيرَ فاعلٍ شيئاً ، وهو يُفَكِّر فى أمرٍ آخر ، ويَتَحَرَّك الرأسُ والذراعان على انفراد ، ولا بُدَّ له من أُشْغُولةٍ جديدة توجِبُ التفاتَه بجِدَّتها ، أُشْغُولةٍ تَسْتَكِدُّه وتَرُوقُه ، وتَشْغَله وتُحَرِّكه ، أُشْغُولةٍ يُولَعُ بها وينقطع إليها بكُلِّيَّتِه ، والواقعُ أن الصيدَ هو الأُشغولةُ التى يَلُوح لى أنها جامعةٌ لجميع هذه الشروط ، وإذا كان الصيدُ مُتْعَةً سليمةً ملائمةً للإنسان فإن الآن هو دور الالتجاء إليه ، وعند إميلَ كلُّ

ما يَلزَمُ للنجاح فى الصيد ، فهو عُضْلُبِيٌّ ماهرٌ صابر لا يَتْعَب ، ولا شكَّ فى أنه سيَرْغَب فى هذه الرياضة ، وهو سيَضَع فيها جميعَ حرارة عُمُره ، وهو سيُضِيعُ فيها ، لزمنٍ ما على الأقل ، ما ينشأ عن التَّرَف من مُيُولٍ خَطِرة ، وذلك أن الصيد يُخَشِّن القلبَ والبدن ويُعَوِّد الإنسانَ منظرَ الدم والقسوة ، وقد جُعِلَ من ديانا عَدُوُّ الحُبِّ ، والرَّمزُ صحيحٌ جِدًّا ، تَخَدَرُ الحبِّ لا ينشأ عن غير الراحة الحُلْوة ، والرياضةُ العنيفة تُخْمِدُ الأحاسيسَ الناعمة ، وفى الغابِ والحقول يكون العاشقُ والصائد من اختلاف التأثُّر ما يَحْمِلان معه صُوَراً بالغةَ الاختلاف عن عَيْن الأشياء ، وذلك أن الظِّلالَ الوارِفة والغاباتِ الظليلةَ والمساكنَ اللينة لدى الأولِ ليست لدى الآخرِ غيرَ مَرْتَعٍ للوحوش وغيرَ حصونٍ ومَحاطٍّ للعَجَل ، فلا يَسْمَع أحدُهما فيها غيرَ حَفيف الأشجار وتغريد الهَزَار وصُداحِ الأطيارِ ، ولا يتمثَّل الآخرُ فيها غيرَ الأبواق ونُباحِ الكلاب ، ولا يتصورُ أحدُهما فيها غيرَ عُلَّيقٍ وحَوْرِيَّات ، ولا يَتَخَيَّل الآخرُ فيها غيرَ رُوَّاضٍ وخيلٍ وأسْرابِ كلابٍ ، وطُوفُوا فى الأرياف مع هذين الصنفيْن من الناس ، لم تَلْبَثُوا أن تَعرِفوا من اختلاف اللهجة أنه لا يوجد للأرض منظرٌ مماثل عندهما ، وأن أوجه الرأى فيهما مختلفةٌ اختلافَهما فى اختيار ملاذِّهما .

وأُدرِكُ كيف تتَّحِدُ هذه الأذواقُ ، وأُدْرِك كيف يُوجَدُ من الوقت لها جميعاً فى آخر الأمر ، بَيْدَ أن أهواء الشباب لا تَنقَسِم على ذاك الوجه ، فإذا منحتم الشبابَ أشغولةً يُحِبُّهَا لم يَلْبَثْ أن يُنْسَى ما سِوَاها ، ويأتى تَنَوُّع الرغائب من تَنَوُّع المعارف ، وأُولَى الرغائب التى تُعرَف هى ما يُبْحَثُ

عنه وحدَه زمناً طويلًا ، ولا أريد أن ينقضى جميعُ فتــاء إميلَ فى قتْل الحيوان ، حتى إننى لا أدَّعى تسويغَ هذا الهوَى جُمْلَةً ، وإنما يَكفينى أن يكون نافعاً ، بما فيه الكفاية ، لتأجيل هَوًى أشدَّ خطراً كَيْماَ أسْمَعُ إذا ما تكلمتُ عنه بهدوء وكيما يكونُ لدىَّ من الوقت ما أصِفهُ فيه من غير أن أُثِيرَه .

وتقع فى حياة الإنسان أدوارٌ لا تُنْسَى أبداً ، ومنها دَوْرُ التعليم الذى أتكلَّم عنه والذى لا بُدَّ من تأثيره فى بقية حياته ، ولنحاولْ أن نَنْقُشَه فى ذاكرته إذَنْ ، فلا يُمْحَى منها مطلقاً ، ومن أغاليط عصرنا استعمالُ العقل عارياً تماماً ، كما لو كان الناس ذهناً خالصاً ، وإذا ما أُهْمِلَتْ لغة الإشارات التى تخاطب الخيالَ فقدَ أَمْضَى الألسنة ، ويكون تأثيرُ الكلام ضعيفاً دائماً ، ويخاطَب الفؤادُ بالعيون أفْضَلَ مما بالآذان ، ونحن ، إذْ مَنَحْنَا العقلَ كلَّ شىء ، رَجَعْنَا جميعَ تعاليمنا إلى أقوالٍ ، ولم نشتمل عليها بالأفعال ، وليس العقلُ وحدَه فعَّالًا ، وهو يَرْدَعُ أحياناً ، وهو يُحَرِّك نادراً ، وهو لم يأتِ بعظيمٍ مطلقاً ، ومن هَوَس النفوس الصغيرة أن يُلْجَأَ إلى العقل دائماً ، وللنفوس القوية لسانٌ آخرُ ، وبهذا اللسان يَقَعُ الإقناع ، وبه يُسَيَّرُ الإنسان .

وألاحِظُ فى القرون الحديثة أن بعضَ الناس عاد لا يكون ذا سلطانٍ على بعضٍ بغير القوة والمصلحة ، على حين كان القدماء يؤثِّرون بالإقناع القلبيِّ وعواطف النفس أكثرَ من ذلك ، وذلك لأنهم كانوا لا يُهْمِلُون لغةَ الإشارات ، وكانت جميعُ العهود تتِمُّ بمَرَاسِيمَ صَوْناً لها من النقض ،

وكان الآلهةُ حُكّامَ الجنس البشريّ قبل قيام القوة ، وكان الناس يَضَعُون أمام الآلهة معاهداتِهم ومحالفاتِهم ويَقْضُون بعقودهم ، وكان وجهُ الأرض كتاباً تُحْفظُ فيه الوثائق ، وكانت الصَّخرُ والأشجارُ وأكوامُ الحجارة المُثْبِتَةُ بهذه العهود والمحترمةُ لدى البرابرة أوراقاً لهذا الكتاب المفتوح أمام جميع العيون بلا انقطاع ، أَجَلْ ، كانت بئرُ الحِلْف وبئرُ الحيّ الناظر وبَلُّوطةُ مَمْرَا القديمةُ والكَوْمةُ الشاهدة آثاراً غليظةً ، ولكنها جليلةٌ عن قَدَاسة العقود ، فما كان ليَجْرُؤَ أحدٌ على انتهاك حرمة هذه الآثار بيدٍ مُدَنِّسة ، وكان عهدُ الناس أوثَقَ بضمان هؤلاء الشهود الصامتين مما بكلِّ صَرَامة القوانين فى الوقت الحاضر .

وكان الناسُ فى الحكومة يُرْهَبُون بجهاز السلطان الملكيّ ، وكانت أشعِرَة الشرف والعرشُ والصَّوْلجانُ والحُلَّةُ الأُرْجُوانية والتاجُ والعِصَابة أشياء مقدسةً ، وكانت الإشاراتُ المُكَرَّمة وما توحى به من احترامٍ تَجْلِب إجلالًا لمن يَزَّيَّنُ بها ، فكان إذا ما قال أُطيع بلا جُنْدٍ ولا وعيد ، والآن يُتَظَاهرُ بإبطال هذه الرموز[1] ، فما ينشأ عن هذا الازدراء ؟ ولْيَزُلْ

(١) حافظ الإكليروس الرومانى عليها بمهارة فائقة ، وحذا حذوهم بعض الجمهوريات كجمهورية البندقية ، وهكذا فإن حكومة البندقية لا تزال تتمتع بكل محبة وعبادة من قبل الشعب نتيجة لجهاز جلالها القديم وعلى الرغم من سقوط الدولة ، فلا تجد بعد البابا المزين بتاجه ، ملكاً ولا عاهلا ، ولا أحداً من رجال الدنيا يحترم ، على ما يحتمل ، كما يحترم رئيس جمهورية البندقية العاطل من القوة والسلطان ، ولكن مع جعله مقدساً بأبهته ومزيناً بعقيصة امرأة تحت إكليله الدوكى ، ويثير الاحتفال بمركب البندقية المعروف بالبوسانتور ضحك كل مجنون مع أنه يجعل البندقى يسفك دمه حفظاً لحكومته المستبدة .

جلالُ الملوك من جميع القلوب ، ولْيَعُدِ الملوكُ لا يُطَاعُون بغير قوة الجنود ، ولْيَتِمِ احترامُ الرعايا على الخوف من العِقاب ، فهنالك لا يكون على الملوك أن يُزْعِجوا أنفسَهم بلُبْس تاجهم ولا بحَمْل سِمَات مقامهم ، وإنما يحتاجون إلى مئة ألف ذراعٍ دائمةِ الاستعداد لتنفيذ أوامرهم ، ومهما يكن من احتمال ظهور هذا أكثرَ رَوْعةً فى أعينهم فإن من السهل أن يُبْصَر أنهم لا يَرْبَحون من هذه الصفقة مع الزمن .

ومن العجائب ما اتفق للقدماء بالبلاغة ، ولم تَقُمْ هـذه البلاغةُ على حُسْنِ الكلام المُحْكَم النظام فقط ، بل كانت تؤثر تأثيراً بالغاً بالتزام الخطيب جانبَ الإيجاز ، وما كان ليُعَبِّرَ بالكلمات عن أعظمِ ما يُمْكِن تأثيراً ، بل بالإشارات ، وكان لا يُنْطَقُ به ، بل يُدَلُّ عليه ، وما يُعْرَض على العيون من شىء يَهُزُّ الخيالَ ، ويُحَرِّكُ الفُضُول ، ويَجْعَلُ الذهنَ منتظِراً لِما يقال ، وفى الغالب يكون هذا الشىء قد قال كلَّ شىء ، ألم يكن تَرازِيبُولُ وتارْكِنُ بقطعهما رؤوسَ الخشْخاش ، والإسكندرُ بوَضْعِه طابَعَه على فم نَدِيمه ، وذِيُوجانِسُ بسَيْرِه أمام زِنُون ، قد تكلموا بأفصحَ من الخُطَب الطويلة ؟ وأىُّ إسهابٍ فى الكلام كان يُمْكِن أن يُعْرِب عن تلك الأفكار بمِثْل ذلك الأداء ؟ وبينما كان دارًا يحارِب فى سِيثْيَة مع جيشه تَلَقَّى من ملك السِّيت طائراً وضِفْدَعاً وفأْراً وخمسةَ نِبَال ، ويُسَلِّمُ السفيرُ الهديةَ ويَعُود من غير أن يَنْطِق بكلمة ، ولو أتى هذا الرجلُ بذلك فى أيامنا لعُدَّ مجنوناً ، وتُفْهَمُ هذه الخطبةُ الهائلة ، ويَرْجِعُ دارا إلى بلده بأقصى ما يُمْكِن من السرعة ، ولو وضعتم فى مكان هذه الرموز كتاباً

لوجدتم أن هذا الكتاب كلما زاد وعيداً قلّ تخويفاً ، وما كان ليُعَدّ غيرَ حَذْلقةٍ يقابلها دارا بالضّحِك .

ويالاعتناء الرومان بلغة الرموز ! ثيابٌ مختلفة على حسب العُمُر ووَفْقَ المقامات ، حُلَلٌ وسُتَرٌ وأردية للأشراف ، وحَوَاشٍ وأهدابٌ ، وكَرَاسٍ وضُبّاطٌ وحُزَمٌ وفؤوس ، وأكاليلُ من ذهبٍ وأعشابٍ وأوراقٍ ، واستقبالُ غزاةٍ ومواكبُ نصرٍ ، وكان كلُّ شيء عندهم يَنِمُّ على أبهةٍ وجاهٍ ومظهر فيؤثِّر فى قلوب المواطنين ، ومما كان يُهِمُّ الدولةَ أن يجتمع الشعبُ فى هذا المكان أكثرَ مما فى ذاك ، وأن يشاهِد الكابِيتُولَ أو لا ، وأن يَتّجِه نحو السِّنات أو لا ، وأن يتشاور فى هذا اليوم أو ذاك تفضيلاً ، وكان المُتّهَمُون ، والمُرَشّحون أيضًا ، يُغيِّرون ثيابهم ، وكان المجاهدون لا يفاخِرون بمآثرهم ، وإنما كانوا يُظْهِرون جروحَهم ، وأَتَصَوَّرُ أن أحدَ خطبائنا ، وهو يُرِيدُ تحريكَ الشعب عند موت قيصرَ ، قد استنفد جميعَ مظانِّ الفنِّ العامةِ ليَصِفَ جُرُوحَه ودَمَه وجُثّتَه وصفًا مؤثِّراً ، وأتصورُ أنطونيوس وهو لا يقول شيئًا من هذا مع فصاحته مكتفيًا بعَرْض الجُثْمان ، فيا للبلاغة !

غير أن هــذا الاستطراد يُخْرِجنى من نطاق موضوعى على وجهٍ غير محسوس كما يَصْنَعُ آخرون كثيرون ، واستطراداتى هى من الكثرة ما لا تُطَاقُ معه بلا أناةٍ وصَبْر ، ولِذَا فإنى أعود إلى الصَدَد .

ولا تُبَرْهنوا مع الشباب برهنةً جافّةً وألْبِسُوا البرهانَ بَدَنًا إذا ما أردتم جعلَه محسوسًا ، ودَعُوا لسانَ الذهن يَمُرُّ على القلب حتى يُفْهَم ، وأقول

مُكَرِّراً إن البراهين الفاترة يُمكِن أن تُعيِّن آراءنا ، لا أفعالَنا ، وأن تَحْمِلنا على التفكير ، لا على العمل ، فالبرهانُ يكون حَوْل ما يجب أن يُفكَّر فيه ، لا حَوْلِ ما يجب أن يُعمَل ، وإذا ما صَحّ هذا من حيث جميعُ الناس فإن من الأجدر أن يَصِحّ هذا من حيث الفِتْيانُ الذين لا يزالون مُشْتَمِلين بحواسّهم فلا يُفكِّرون إلا إذا تَخَيَّلوا .

وأحْتَرِزُ جيداً ، إذَنْ ، حتى بعد الإعدادات التي تكلمتُ عنها ، من الذهاب إلى غرفة إميلَ بغتةً كَيْماً أُلْقِي عليه قولاً طويلاً عن الموضوع الذي أُريد أن أُعَلِّمه إياه ، وأبدأُ بإثارة خياله ، وأختار الزمان والمكان وأكثرَ الأمور ملاءمةً لِما أُريدُ من تأثير ، ولِذَا فإنني أدعو جميعَ الطبيعة لتكون شاهدةً على محاوراتنا ، وأُشْهِدُ الكائنَ الأزليَّ والصانعَ للطبيعة على صحة أقوالي ، وأجْعَلُه حَكَماً بيني وبين إميل ، وأُعَيِّن المكانَ الذي نحن فيه ، كما أُعَيِّن الصخرَ والغابَ والجبالَ التي تحيط بنا ، لتكون آثاراً تذكاريةً لعهودي وعهوده ، وأَضَعُ في عينيّ ولهجتي وحركتي ما أريد إلقاءه فيه من الحماسة والهِمَّة ، وهنالك أُكلِّمه ويُصْغِي إليّ ، وأَلِينُ ويهتزّ ، وكلَّما تأثَّرْتُ بقُدُس واجباتي جعلتُ واجباتِه أكثرَ جلالًا ، وأُنْعِشُ قوةَ البرهان بالصور والأشكال ، ولن أكون مُسْهِباً مُطَوِّلًا في المبادئ الباردة مطلقاً ، ولكنْ غزيراً في المشاعر الزاخرة ، وسيكون عقلي رزيناً حكيماً ، ولكن مع عدم قَوْل قلبي بما فيه الكفاية مطلقاً ، وهنالك ، حين أُطْلِعه على كلِّ ما صنعتُ من أَجْله ، أُطْلِعُه عليه كأنه صُنِعَ في سبيلي ، وسيُبْصِرُ في عطفي الرقيق سببَ كلِّ رعايةٍ من قِبَلي ، ويا للمفاجأة ، ويا لَلْهَزْهَزَة التي أُورِثُه إياها

بتغيير اللهجة بغتةً ! وذلك بدلاً من تضييق رُوحه بمحادثته عن مصلحته دائماً ، ومصلحتى هى التى أكلِّمُه عنها فيما بعد فأَزِيدُ فيه تأثيراً ، فأُلهِبُ فؤادَه الفتىّ بجميع ما أنبتَتْه من مشاعر الألفة والكرم ومعرفة الجميل التى يَحْلو تَعَهُّدُها ، وأَضُمُّه إلى صدرى ساكباً عليه دموعَ الحنان قائلًا له : « أنت مالى وولدى وصُنْعِى ، ومن سعادتك أنتظر سعادتى ، فإذا ما خابت بك آمالى كنتَ سالباً لعشرين عامًا من عُمُرى ، وسببَ شقائى فى أيامِ مَشِيبِى » ، فعلى هذا الوجه يُحْمَل الفتَى على الإصغاء فتُنْقَشُ فى سوداء فؤاده ذكرى ما يقال له .

وقد حاولتُ ، حتى الآن ، إعطاء أمثلةٍ عن الأسلوب الذى يجب أن يتخذه المعلم لتعليم تلميذه فى الأحوال الصعبة ، وقد حاولتُ أن آتِيَ بكثير منها فى الدَّوْر الحاضر ، ولكننى أَعْدِل عنها بعد كثيرٍ من التجارِب قانعاً بأن اللغة الفرنسية هى من النَّفَاسة البالغة ما لا تُطِيقُ معه فى كتابٍ ، مطلقاً ، سذاجةَ الدروس الأولى حَوْل بعض الموضوعات .

ويقال إن اللغة الفرنسية أطهرُ اللغات ، وأنا أعتقد أنها أكثرُ اللغات بذاءةً ، وذلك لأن طُهْرَ اللغة ، كما يَلوحُ لى ، لا يقوم على اجتناب التعابير القبيحة بعناية ، بل على عدم وجودها فيها ، والواقعُ أن اجتنابها يستلزم تفكيراً فيها ، ولا يُوجَدُ كالفرنسيةِ لغــةٌ يَصْعُب الكلام فيها بصفاء من كلِّ وجهٍ ، وبما أن القارئ يكون ، دائمًا ، أكثرَ حِذْقًا فى كشف المعانى البذيئة من المؤلِّف فى إقصائها فإنه يَنْتَمُّ من كلِّ شيء ويَجْفِلُ منه ، وكيف يَتَجَنَّبُ ما يَمُرُّ من آذانٍ قَذِرَةٍ بذاءتَها ؟ وعلى العكس ترى للشعب ذى الطباع الحسنة كلماتٍ خاصةً لكلِّ شيء ، وتكون هــذه الكلماتُ

نزيهةً دائمًا لاستعمالها بنزاهةٍ دائمًا ، ويتعذَّر أن تتصور لغةً أكثرَ حِشْمةً من لغة التوراة لقول كلِّ شىء فيها بسذاجة ، ويكفى أن تُتَرْجَم عينُ الأشياء إلى الفرنســية لجعلها فاقدةَ الحشمة ، وما يجب أن أقوله لإميلَ لا ينطوى على غير ما هو صالحٌ طاهر يَقْرَع سمعَه ، ولـكنَّ ظهورَه هكذا عند المطالعة يقتضى حيازةَ قلبٍ نَقِيٍّ مثلَ قلبه .

حتى إننى أرى أنه يُوجَد من التأملات حَوْل نقاءةِ الـكلامِ الحقيقيةِ وحَوْلَ رقةِ المُنْـكَر الزائفة ما يُمْـكِن أن يكون له مكانٌ نافعٌ فى المحادثات الخُلقية التى يَسُوق إليها هذا الموضوع ، وذلك لأنه حين يتعلَّمُ لغةَ الصلاح يجب أن يتعلَّم لغةَ الحِشْمة أيضاً ، كما أنه يَجِبُ أن يَعْلَم السببَ فى كون هاتين اللغتين مختلفتين كثيراً ، ومهما يَكُنْ من أمرٍ فإننى أذهب إلى أنه بدلًا من التعاليم الفارغة التى تُقْرَع بها آذانُ الشباب قبل الأوان ، والتى يَسْخَرُ الشبابُ منها عند ما يَبْلُغ سِنَّ الانتفاع بها ، وإلى أنه إذا ما انتُظِرت الساعةُ التى يُسْتَمَعُ فيها وأُعِدَّتْ هذه الساعةُ ، وإلى أنه إذا ما أُطْلِـعَ على سُنَنِ الطبيعة بكلِّ ما فيها من حقيقة ، وإلى أنه إذا ما دُلَّ على مُؤيِّدِ هذه السُّنَن نفسِها فى الأضرار المادية والأدبية التى تُصِيبُ المذنبين نتيجةً لمخالفتها ، وإلى أنه إذا ما حُدِّث عن سِرِّ النَّسْل الذى يتعذَّر إدراكُه فَضُمَّتْ إلى فـكرة المَيْل ، الذى أَنْعَم به صانعُ الطبيعة على ذاك الفعل ، فـكرةُ الارتباط الحاجبِ لِماَ سواه والذى يجعل ذاك الفعلَ لذيذًا جِدًّا ، وفـكرةُ واجبات الوَفاء والحياء التى تحيط به والتى تُضَاعِفُ فُتُونَه بإتمامه غَرَضَه ، وإلى أنه إذا ما وُصِفَ له الزواجُ على أنه أقدسُ العقود

وأكثرُها حُرْمةً فَضْلًا عن كونه أحلى المُعاشَرات فقيلَتْ له بقوةٍ جميعُ الأسباب التى تجْعَلُ هذه العُقْدَةَ الكثيرةَ القُدُس محترمةً عند جميع الناس والتى تَغْمُرُ بالمَقْت واللعنة كلَّ من يجْرُؤ على تدنيس قَدَاستها ، وإلى أنه إذا ما رُسِمَتْ له لَوْحَةٌ بارزة صادقةٌ عن قبائح الفُسُوق وعن خَبَاله الأَرْعن وعن المَيْلِ غيرِ المحسوس المؤدِّى إلى جميع الدَّعارات بالدَّعَرِ الأول والذى يوجب خُسْران من يتعاطاها فى نهاية الأمر ، وإلى أنه إذا ما أُطْلِعَ بوضوحٍ ، كما أقول ، على أن الصحة والقوة والشجاعة والفضائل ، حتى الحبّ ، وجميعَ منافع الإنسان الحقيقيةَ أمورٌ تتوقف على الرغبة فى الطُّهْر ، أذهب إلى أنه يجْعَلُ له ، إذْ ذاك ، ذلك الطُّهْرُ العزيزُ المَنْشُود ، وأنه يَظْهَرُ ذا ذهنٍ منقاد لِمَا يُعْطَاه من الوسائل حِفْظًا لذلك الطُّهْر ، وذلك أنه كلما حُفِظَ احْتُرِم ، وهو لا يُزْدَرَى إلا بعد ضَيَاعه .

ومن غير الصحيح مطلقاً أن يكون المَيْلُ إلى الشَّرِّ أمراً لا يُقْهَر ، وأن الإنسان لا يكون قادراً على قَهْره قبل أن يتَعَوَّد الوقوعَ فيه ، ويقول أورِلْيُوس فِكْتُور إن رجالاً كثيراً أفقدهم الحُبُّ رشدَهم فاشْتَرَوْا بحياتهم ليلةً من ليالى كليُوپاترة مختارين ، وأن هذه التضحية ليست من المُحَال على تَمَلِ الهَوَى ، ولكنْ لِنَفْتَرِضْ أن أكثر الناس هياجاً وأقلّهم سيطرةً على شَهَواته يرَى جهازَ العِقاب مُوقِناً بأنه سيَهْلِك به مع النَّكال بعد رُبُع ساعة ، فهذا الرجل يَصِيرُ أرفعَ من كلِّ إغواء منذ هذه الدقيقة ، حتى إنه لا يلاقى غيرَ قليلٍ فى مقاومته ، وذلك أن ما يلازم ذاك الإغواء من خيالٍ كريه يَصْرِفه عنه من فَوْره ، وذلك أنه يعترى ذاك الإغواء الذى يُخْمَدُ

دائماً كلالٌ فلا يعاوده ، وهذا هو فتورُ إرادتنا الوحيدُ الذى يُوجِبُ جميعَ ضَعْفِنا ، ونحن من القوة دائماً ما نَصْنَع معه ما يُرَادُ بقُوَّة ، « فلا شيء يَصْعُب على الإرادة القوية » ، آه ! لو كنا نَزْدَرِى المُنْكَرَ بمقدار ما نُحِبُّ الحياة ، ونحن نَمْتَنِعُ عن اقتراف ذنبٍ لذيذ امتناعَنا عن تناول سُمٍّ قاتلٍ فى طبقٍ لذيذ .

وكيف لا يُرَى أن جميع الدروس التى تُلْقَى على الفتى إذا كانت غيرَ ناجحةٍ فذلك لعدم ملاءمتها لسِنِّه ، فيَكُونُ من المهمِّ فى كلِّ دورٍ من أدوار العُمُر أن يُكْسَى العقلُ أشكالاً تَجْعَلُه محبوباً ، فخاطبوه باتِّزانٍ عند الاقتضاء ، ولكنْ ليَكُنْ ما تقولون له من الجاذبية فى كلِّ وقتٍ ما يَحْمِلُه على الإنصات لكم ، ولا تكافحوا مُيُولَه بجفَاء ، ولا تَخْنُقُوا خيالَه ، وكُونُوا أدلَّاءَ لهذا الخيال خشيةَ أن يَلِدَ غِيلاناً ، وحَدِّثُوه عن الحُبِّ والنساء والمَلَاذِّ ، واصنَعُوا ما يَجِدُ معه فى حديثكم فُتُوناً يُدَارَى به قلبُه الفَتِيُّ ، ولا تَدَّخِرُوا وُسْعاً حتى تُصْبِحُوا نَجِيّاً له ، وليس بغيرِ هذا ما تَغْدُون سيداً له حَقّاً ، وهنالك لا تَخْشَوْا ، بَعْدُ ، أن تُورِثَه أحاديثُكم سأَماً ، فهو سَيَحْمِلُكم على الكلام أكثرَ مما تريدون .

ولا أشُكُّ ثانيةً فى أننى إذا عَرَفْتُ اتخذَ جميعِ التحفظات الضرورية حَوْلَ هذه المبادئ وخاطبتُ إميلَ بكلام ملائمٍ لِمَا يُفتَرَضُ انتهاؤه إليه بتقدم السنين فإنه يأتى من تلقاء نفسه إلى النقطة التى أودُّ سَوْقَه إليها فيَضَع نفسَه تحت ظِلِّى بِهِمَّةٍ ويكاشفنى بكل ما عليه عُمُره من حرارةٍ متأثراً بالأخطار التى يَرَى نفسه محاطًا بها قائلًا : « أىْ صديقى وظهيرى ومعلِّمى ! استَرِدَّ

السلطانَ الذى تريد أن تتخلّى عنه فى الحين الذى يَكُونُ أكثرَ ما يُهِمُّنى بقاؤه لك ، وأنت لم تَحُزْه حتى الآن بغير ضعفى ، وستَحُوزُه الآن بإرادتى ، وسيكون لدىَّ أقدسَ ما يُمْكِن ، واحْفَظْنِى من جميع الأعداء الذين يحيطون بى ، ولا سيما الذين أَحمِلُ معى فيخونوننى ، واسْهَرْ على مَنْ صَنَعْتَ حتى يَبْقى جديرًا بك ، وأُرِيدُ إطاعةَ قوانينِك ، وأريد هذا دائمًا ، وهذه إرادتى الثابتة ، وإذا ما عَصَيْتُك كان هذا على الرغم منى ، واجْعَلْنى طليقًا بوقايتى من أهوائى التى تَغْصِبُنى ، وحُلْ دُون كونى عبداً لها ، وأَلْزِمنى بأن أكون سيدَ نفسى بعِصْيانى أهوائى ، لا عَقْلِى » .

وإذا ما جَلَبْتُمْ تلميذَكم إلى هذه النقطة (ويَقَعُ الذنبُ عليكم إذا لم يأت إليها) فاحترزوا من الإسراع فى مؤاخذته على الكلمة ، وذلك خشيةَ أن يَظْهَر سلطانُكم له جافيًا جِدًّا فيَرَى من حَقِّه أن يَتَخَلَّص منه متهماً إياكم بأنكم أخذتموه على حين غفلةٍ ، وذاك هو الوقت الذى يكون فيه التحفظُ والوقارُ فى محلّهما ، وسيكون هذا الوضعُ أكثرَ ما يُمْكِن تأثيراً فيه إذا ما اتخذتموه نحوه أول مرة .

ولِذَا فستقولون له : « أنت تُلْزِم نفسك ، أيها الفتى ، إلزاماً خفيفًا بتعهداتٍ شاقة ، ولا بُدّ من معرفتها قبل أن يكون لك حَقُّ صَوْغها ، وأنت لا تَعرِف بأية صَوْلةٍ تَسُوق الأهواءُ أمثالَك إلى هُوّة المُنْكَرات تحت جواذب اللذة ، وأعرف جيداً أنك لست صاحبَ نفسٍ دنيئة ، وأنك لن تَنْقُض عهدَك ، ولكن ما أكثرَ ما يُمْكِن أن يكون من نَدَمك على إعطائك إياه ! وما أكثرَ ما ستَلْعَنُ صديقَك الذى يَجِدُ أنه مضطرٌّ إلى

كسْرِ قلبك حِفْظًا لك من الآثام التى تُهَدِّدك ! وستكون مِثْلَ أُولِيسَ الذى حرَّكه غِناء سِيرِنَ فصاح بمُجَذِّفى قارِبه لفكِّ قيوده ، فتريدُ كسْرَ الأغلال التى تُضايقك عن إغواء جاذبية المَلاذّ لك ، وستُزْعجنى بعَويلك ، وستلومنى على استبدادى حينما أكون أكثرَ ما يُمْكِن اكتراثًا لك مع الرِّقة ، وسأجْلِبُ مَقْتَك إلى نفسى مع عدم تفكيرى فى غير سعادتك ، ويا إميلُ ، لن أُطِيقَ مطلقاً ألَمَ كونى مكروهاً لديك ، حتى إن سعادتك غاليةٌ كثيراً بهذا الثَّمن ، أوَلا ترَى ، أيها الفتى العزيز ، أنك إذا ما أكرهتَ نفسَك على إطاعتى أكرهتنى على قيادتك ، وعلى نسيان نفسى وَقْفًا لها عليك ، وعلى عدم الإنصات لتوَجُّعك وتذَمُّرك ، وعلى مكافحة مُيُولك ومُيُولى بلا انقطاع ؟ وأنت تفرِضُ علىَّ نِيراً أقسى من نِيرك ، فَلْنَزِنْ قُوانا قبل حَمْلِهما ، وخُذْ فُرْصةً للتفكير وأعطنى مثلَها ، واعْلَمْ أن أبطأَ ما يُوعَدُ هو أصدقُ ما يُنْجَز » .

واعلَمُوا ، أيضًا ، أنكم كلما جعلتم العَهْدَ صعبًا سَهُلَ تنفيذه ، والمهمُّ فى أن يَشْعُر الفَتَى بأنه يَعِدُ كثيراً وبأنكم أكثرُ منه وعداً ، ومتى حَلَّ الوقتُ وأمضى العقدَ فغَيِّرُوا اللهجةَ ، وضَعُوا من الحِلْم فى سلطانكم ما يَعْدِل الشِّدَّةَ التى أعلنتم ، وقولوا له : « أىْ صديقى العزيز ، تُعْوِزُكَ التجربةُ ، ولكننى صنعتُ ما لا يُعْوِزُك العقلُ معه ، وأنت فى حالٍ تُبْصِرُ بها سلوكى من كل وَجهٍ ، ولِذَا فليس عليك غيرُ الانتظارِ هادئَ البال ، وابْدَأْ بالطاعة دائمًا ، ثم اطْلُبْ حسابًا عن أوامرى ، وسأكون مستعدًّا لتقديمه إليك عند ما تكون مستعدًّا للإصغاء إلىَّ ، ولن أخشى اتخاذَك حَكَمًا بينى وبينك ، وأنت تَعِدُ بأن تكون طائعًا ، وأنا أعِدُ بألَّا أستعملَ هذه الطاعة إلَّا

لأجعلَكَ أسعدَ الناس ، واتَّخِذِ النصيبَ الذى تمتعتَ به حتى الآن ضامنًا لوَعْدِى ، ودُلَّنى على واحدٍ من لِدَاتك قَضَى حياةً حُلْوَةً مِثْلَ حياتك ، ولا أَعِدُكَ بخيرٍ من هذا » .

وسيَكُونُ أولُ ما أُعْنَى به ، بعد إقامة سلطانى ، هو أن أبْعِدَ ضرورةَ استعمالى له ، ولن أدَّخِرَ وُسْعًا بأن أكون محلَّ ثقته بالتدريج وبأن أكون نَجِىَّ فؤادِه وحكَمَ مَلَاذِّه مقداراً فمقداراً ، وسأتجَنَّبُ مكافحةَ مُيُولِ سِنِّه مستطلعًا إياها كيما أُسيطرُ عليها ، وسأنظر إلى الأمور من حيث وِجْهاتُ نظره حتى أُوَجِّهَها ، ولن أبحث له عن سعادةٍ بعيدة على حساب الحاضر ، ولا أُريد أن يكون سعيداً لِمَرَّةٍ واحدةٍ مطلقًا ، بل ليكون سعيداً دائمًا إذا كان هذا ممكنًا .

ومن يَوَدّ توجيهَ الشباب بحكمةٍ حِفْظًا له من أَشْرَاكِ الأهواء يَحْمِله على مقت الغرام ويَجْمُل لِمَنْ فى سِنِّه جُرْمًا من التفكير فيه ، كما لو كان الغرامُ قد صُنِعَ للشِّيب ، وما كانت جميعُ هذه الدروس الخادعة التى يُكذِّبُها القلبُ لتُقْنِعَ مطلقًا ، وفى السِّرِّ يَضْحَكُ الشابُّ المُسَيَّرُ بغريزةٍ أكثرَ صدقًا من المبادئ الكئيبة التى يتظاهر بقبولها ، ولا يَنْتَظِرُ غيرَ الساعة التى يَنْبِذُها فيها ، وكلُّ هذا مخالفٌ للطبيعة ، وأَبْلُغُ عَيْنَ الهَدَفِ على وجهٍ أكثرَ ضمانًا إذا ما سَلَكْتُ سبيلًا معاكسًا ، ولن أَخْشَى ، مطلقًا ، أن أُدَارِىَ فيه ما هو مُولَعٌ به من إحساسٍ حُلْوٍ ، وسأُصَوِّرُه له مِثْلَ سعادةٍ للحياة ساميةٍ ، وذلك لأنه هكذا بالحقيقة ، وإنى ، إذْ أُصَوِّره له ، أُريد أن يَنْهَمِكَ فيه ، وإنى ، إذْ أُشْعِرُه بما يُضِيفُ اتحادُ القلوب من فُتُونٍ

إلى جواذبِ الهوَى ، أُوحِي إليه بالنُّفُور من الفُجُورِ ، فأجْعَلُه حكيماً إذْ أجْعَلُه عاشقًا .

ويا لَمَا يَجِبُ أن يَكون من ضِيق الذهن حتى لا يُبْصر فى المُيُول الناشئة للفَتَى غيرُ عوائقَ لدروس العقل ! وأما أنا فأرى فيها وسيلةً صحيحةً لجعله منقاداً لهذه الدروس عينها ، ولا يُسَيْطَرُ على الأهواء بغير الأهواء ، ويَجِبُ أن يكافَحَ استبدادُ الأهواء بسلطان الأهواء ، ويجب أن تُسْتَخْرَجَ الأدواتُ الصالحةُ لتنظيم الطبيعة من الطبيعة نفسها .

ولم يُصْنَعْ إميلُ ليَبْقَى وحيداً دائمًا ، وهو عُضْوٌ فى المجتمع ؛ فيجب أن يَقُوم بواجباته ، وهو قد صُنِعَ ليعيش مع الناس ، فيجب أن يَعرِفهم ، وهو يَعْرِفُ الإنسانَ على العموم ، فبَقِيَ عليه أن يَعرِف الأفراد ، وهو يَعرِف ما يُصْنَعُ فى العالَم ، فبَقِيَ عليه أن يَرَى كيف يعيش الناسُ فيه ، وقد أتَى وقتُ إطْلاَعِه على وجه هـذا المَسْرَح العظيم الذى عَرَفَ جميعَ ألعابه الخَفِيَّة ، وقد عاد لا يَحْمِلُ إليه ما يَصْدُرُ عن الفتى الطائش من إعجابٍ سخيف ، بل يَحْمِلُ إليه إدراكَ ذهنٍ مستقيم صائب ، ولا رَيْبَ فى إمكانِ مخادعةِ أهوائه له ، ومتى كانت هذه الأهواء لا تَخْدَع من ينقادون لهـا ؟ ولكنه لا يُخْدَعُ ، مطلقًا ، بأهواء الآخرين على الأقلّ ، وهو إذا ما أبْصَرَهم أبْصَرَهم بعين الحكيم ، وذلك من غير أن يُجَرَّ بأمثلتهم ، ومن غير أن يُغْوَى بمبتسراتهم .

وكما أنه يُوجَدُ عُمُرٌ صالح لدراسة العلوم يُوجَدُ عُمُرٌ صالحٌ لإدراك عُرْفِ العالَم ، ومن يتعلَّم هذا العُرْفَ فى فَتَائه الباكر يَتَّبِعه مَدَى حياته

بلا خِيَارٍ ولا تأمُّل ، ومن غير أن يَعْرِف جيداً ما يَفْعَل مطلقاً ، وإن كان مع الجَدَارة ، ولكن الذى يتعلمه ويرَى أسبابَه يَتَّبِعُه بتمييزٍ أكثرَ من ذاك ، ومن ثَمَّ يَتَّبِعُه بسدادٍ وكِياسةٍ أكثرَ من ذاك ، وأعطونى ولداً فى الثانيةَ عشرةَ من سِنِيه غيرَ عارفٍ شيئاً ، فإذا ما بَلَغَ الخامسَ عشرَ من عُمُره وَجَبَ علىَّ أن أُعيده إليكم عالماً بمثل ما عليه الولد الذى عَلَّمْتُموه منذ الدور الأول من العُمُر ، وذلك مع الفارق القائل إن معرفة ولدكم لا تكون فى غير ذاكرته ومعرفةَ ولدى تكون فى تمييزه ، وكذلك أدْخِلوا إلى العالَم فَتًى ابناً للعشرين من عُمُره ، فإذا ما أُحْسِنَ تسييرُه كان فى عامٍ واحدٍ أكثرَ أُنْسًا وأعظمَ تهذيباً مع الحصافة من ذاك الذى غُذِّىَ بذلك منذ صباه ، وذلك لأن الأول إذْ يكون قادراً على الشعور بأسباب جميع الأساليب الخاصة بالعُمُر والحال والجنس ، أى بالأمور التى تتألف منها تلك العادة ، فإنه يستطيع أن يَرُدَّ هذه الأمورَ إلى مبادئ وأن يَجْعَلها شاملةً لأحوالٍ غيرِ منتظرة ، وذلك على خلاف الآخر الذى ليس عنده غيرُ رُتينه* حَوْلَ كلِّ قاعدةٍ فيرتبك فَوْرَ خروجه منه .

ويُنَشَّأُ جميع الأوانسِ من الفرنسيات فى الأديار حتى يُزَوَّجْن ، وهل يُرَى أنهن يجِدْنَ ، إذْ ذاك ، مشقةً فى اتخاذ تلك الأوضاعِ التى يُبْصِرْنَها بالغةَ الجِدَّة ؟ وهل يُتَّهَمُ نساء باريسَ بعدم اللباقة وبالتردُّد وبجهلِ ما اصطَلَح عليه العالَمُ لأنهنَّ لم يَتَعلَّمْنَه منذ صِباهنّ ؟ يأتى هذا المُبْتَسَرُ من رجال العالَمِ الذين لا يَعْرِفون شيئاً أهمَّ من ذلك العلم التافه فيُخَيَّلُ

* La routine

إليهم، زُوراً، أن من غير الممكن تحصيلَه بسرعة .

والحقُّ أنه لا يجوز الانتظارُ طويلاً ، ومن يَقْضِ جميعَ شبابه بعيداً من العالَمَ الأكبر يَحْمِلْ إليه فى بقية حياته تردُّداً واقتساراً وقصداً بلا داعٍ دائماً وأوضاعاً ثقيلةً خُرْقاً ، فيَعُودُ غيرَ قادرٍ على التَّخَلُّص منها بعادة العيش فى ذلك العالَمَ ، ولا ينال غيرَ مَظْهرٍ جديدٍ من السُّخْرية بما يَبْذُل من جُهْدٍ للخَلَاص منها ، ولكلِّ نوعٍ من التعليم زمانُه الخاصُّ الذى يجب أن يُعْرَف وأخطارُه التى يجب أن تُجْتَنَب ، وتَتَجَمَّعُ الأخطارُ فى هذا الدور من العُمُر على الخصوص ، ولكننى لا أُعَرِّض لها تلميذى من غير احتياطٍ لوقايته منها .

ومتى أصاب منهاجى عَيْنَ الهدف من جميع الوجوه ، ومتى دَفَع محذوراً فَمَنَعَ من وقوع محذورٍ آخرَ ، حَكَمْتُ بأنه صالحٌ وبأننى على الحقِّ ، وهذا ما يَظْهَرُ أننى أُبْصِرُه فى الطريقة التى يُوحِى إلىَّ بها هنا ، وإذا أردت أن أكون صارماً جافياً مع تلميذى أضعتُ ثقتَه وتَوَارى عنى من فَوْره ، وإذا أردتُ أن أكون ياسراً سَهْلاً أو مُتَغَاضِياً فما يَكُون نَفْعُه من وجوده تحت حِرَاستى ؟ لا أكون صانعًا غيرَ إجازةٍ لجوره وترويح ضميره على حساب ضميرى ، وإذا ما أدخلتُه إلى العالَمَ عازمًا على تعليمِه فقط فإنه يتعلَّمُ أكثرَ مما أريد ، وإذا ما أبعدتُه عن العالم حتى النهاية فما يكون قد تَعلَّمَ منى ؟ كلَّ شيء على ما يحتمل ، وذلك خلا ألزمَ فَنٍّ للإنسان والمواطن ، أى معرفةَ السلوك مع أمثاله ، وإذا ما وَسَمْتُ هذه العنايات بفائدةٍ بعيدةٍ كثيراً كانت هذه الفائدةُ هباءً منثوراً ، فالحاضرُ هو

ما يلتفت إليه ، وإذا ما اقتصرتُ على تزويده بالأُلْهُوَّات فما الخيرُ الذى أكونُ قد صنعتُ له ؟ إنه يَخْنَثُ ولا يتعلَّمُ مطلقًا .

لا شيء من كلٍّ ذلك ، وطريقتي تتلافى جميعَ ذلك ، وأقول للفتى : يحتاج فؤادُكَ إلى رفيقة ، فدَعْنَا نَذْهَب للبحث عن التى تلائمك ، ومن المحتمل ألاَّ نجِدَها بسهولة ، فالمزيةُ الحَقَّةُ نادرةٌ دائماً ، ولكننا لا نستعجل ولا نَخِيبُ أبداً ، ولا مِرَاء فى وجود واحدة من هذا الطراز ، وأننا سنَجِدُها فى آخر الأمر ، أو نَجِدُ واحدةً قريبةً منها كثيراً على الأقل ، فبهذا العَزْم المُدَالِي له أُدْخِلُه إلى العالَمَ ، وما احتياجى إلى قولٍ أكثرَ من هذا ؟ ألا تَرَوْن أننى قمتُ بكلٍّ شيء ؟

ويُمكِنُكم ، حين أصِفُ له الخليلةَ التى أُعِدُّها له ، أن تتصوَّروا هل أستطيعُ إسماعَ نفسى ، وهل أستطيعُ جَعْلَ الصفاتِ التى يَجِبُ أن يُحِبَّ مقبولةً لديه عزيزةً عليه ، وهل أستطيعُ أن أهيئ جميعَ مشاعره لِمَا يَجِبُ أن يَبْحَث عنه أو يَفِرَّ منه ، وأُعَدُّ أخْرَقَ الناس إذا لم أجْعَلْه مُولَعاً مُقَدَّمًا من غير أن يَعرِفَ مَنْ هى ، وليس من المهمِّ أن يكون الشخصُ الذى أصِفُ له خياليًّا ، فيَكْفِى أن يُنَفِّرَه ممن يُمكِن أن يُغْوِيَه ، ويكفى أن يُلَاقِيَ فى كلٍّ مكانٍ مقارَناتٍ تَجْعَلُه يُفَضِّلُ خيالَه على الأشخاص الحقيقيين الذين يَقِفُون نظرَه ، وما الغرام الحقيقىُّ إن لم يكن خيالاً ومَيْناً ووَهماً ؟ تُحَبُّ الصورةُ التى تُتَخَيَّلُ أكثرَ جِدًّا من الشخص الذى تُطَبَّقُ عليه ، وإذا ما نُظِرَ إلى الشخص الذى يُحَبُّ كما هو عليه عاد لا يكون فى الدنيا حُبٌّ ، وإذا ما كُفَّ عن الحبِّ بَقِيَ

الشخصُ الذى يُحَبُّ هو عَيْنُه كما كان سابقاً ، ولكنه عاد لا يُرَى كما كان يُرَى ، والواقعُ أننى ، إذْ أُزَوِّدُ بالشخص الخيالىِّ ، أكون مسيطراً على المقارنات مانعاً بسهولةٍ من الوَهْم حَوْل الأشخاص الحقيقيين .

ولا أُرِيدُ ، للوصول إلى هذا ، أن يُخَادَع الفَتى بأن يُصَوَّرَ له نَمُوذَجٌ من الكمال لا يُمْكِن أن يُوجَد ، ولكننى أُبْلُغ من اختيار معايب خليلته ما يُلَائمُه وما يَرُوقه فيَنْفَع فى إصلاح معايبه ، وكذلك لا أُريد أن يُكْذَب عليه مُؤَكَّداً زوراً كَوْنَ الشخص الذى يُصَوَّرُ له موجوداً ، ولكن الصورة إذا ما طابت له لم يَلْبَثْ أن يَتَمَنَّى لها أصلًا ، ويَسْهُل قَطْعُ المسافة بين التَّمَنِّى والافتراض ، وهذا من عَمَلِ بعض الأوصاف اللَّبِقَة التى تُسْبِغُ على هذا الشخص الخيالىِّ مَسْحَةً كبيرة من الحقيقة تحت صفاتٍ أكثرَ وضوحاً ، وأُبْعِدُ فأذهبُ إلى حَدِّ تسميته ، فأقول ضاحكاً : دَعْنَا نَدْعُ خليلَتَك القادمة صُوفِيَةَ ، وصُوفية اسمٌ مَيْمُونٌ ، ولو كانت التى ستَخْتَارُ غيرَ حاملةٍ لهذا الاسم لكانت جديرةً بحَمْلِه على الأقلِّ ، ولِذَا يُمْكِننا أن نُكْرِمَها به سَلَفاً ، ولو كنا ، بَعْدَ جميع هذه التفاصيل ، قد تَفَلَّتْنَا بأعذارٍ ومن غيرِ تصديقٍ ولا إنكارٍ لتحولت رِيبَتُه إلى يقين ، ولاعتقد أنه يُنْسَجُ له سِرٌّ حَوْل الزوجة التى تُعَدُّ له وأنه سيراها متى أنَى له ذلك ، وهو إذا ما انتهى إلى هذه النتيجة ذاتَ مرةٍ وأُحْسِن اختيارُ الأوصاف التى يجب إطلاَعُه عليها سَهُل كلٌّ ما بَقِىَ ، فأمْكَنَ عَرْضُه على العالَمِ بلا خطرٍ تقريباً ، وإنما صُونُوه من حِسِّيَّاته ليطمئنَّ قلبُه .

ولكنْ ، سواءٌ عليه أشَخَّصَ النَّمُوذَجَ الذى استطعتُ أن أُحَبِّبَه إليه

أم لم يُشَخِّصْه ، لا يَقِلُّ رَبْطُ هذا النَّمُوذَج إياه ، عند إتقان صُنْعه ، بكلٍّ من يُشَابهه ، ولا يَقِلُّ إبعادُه إياه من كلِّ من لا يُشَابهه ، كما لو كان شخصاً حقيقياً ، ويا لَلْخَيْرِ فى وقاية قلبه من الأخطار التى يُعَرِّضُ لها شَخْصُه ، وفى زَجْر حِسِّيَّاتِه بخياله ، وفى نَزْعه ، على الخصوص ، من هؤلاء الواهبات للتربية اللاتى يُقَدِّمنها غاليةَ الثمن ، واللاتى لا يُعَلِّمْن الفتى أدباً إلّا بخَلْعِهِنَّ منه كلَّ عِذَار ! ويا لحياء صُوفِيَةَ البالغ ! فبأىِّ عَيْنٍ تَنْظُرُ إلى ما يُقَدِّمْنَ ؟ ويا لبساطةِ صُوفِيَةَ الكثيرةِ ! فكيف تُحِبُّ ظواهرهنَّ ؟ إنهن بعيدات من أفكارِه وتَرَصُّداتِه ، فلا يَكُنَّ خَطِرَاتٍ عليه مطلقاً .

ويَنْبَعُ جميعُ من يتكلَّمون عن حكومة الأولاد عَيْنَ المُبْتَسَراتِ وعَيْنَ المبادئ ، وذلك عن سوء رَقابةٍ ، وعن سوء تأمُّلٍ أيضاً ، وبالرأيِ يَبْدَأُ ضَلَالُ الشباب ، لا بالمِزاج ولا بالحِسِّيَّات ، ولو بحثتُ هنا عن الفِتْيَان الذين يُنَشَّأون فى الكليات ، وعن الفَتَيَاتِ اللاتى يُنَشَّأن فى الأديار ، لأظْهَرْتُ صحةَ ذلك حتى من ناحيتهم ، وذلك لأن الدروس الأولى التى يتلقاها أولئك وهؤلاء ، وهى الدروسُ الوحيدةُ التى تُثْمِرُ ، هى دروسُ المُنْكَر ، والقُدْوَةُ ، لا الطبيعةُ ، هى التى تُفْسِدُهم ، ولكنْ لِنَتْرُكْ لتلاميذ الكليات والأديار أخلاقَهم الفاسدة لِتَعَذُّرِ إصلاحِهم دائماً ، فلا أتكلم عن غير التربية المنزلية ، وتناوَلُوا فَتًى نُشِّئَ تنشئةً حسنةً فى بيت أبيه بالمُلْحَقَات ، وابْحَثُوا فى أمره حين وصوله إلى باريسَ أو دَعُوه يَدْخُل المجتمع ، تَجِدُوه مفكِّراً فى أمورٍ صالحة كثيرة ، صاحباً لعزمٍ سليم

وعقلٍ مستقيم ، وتَرَوْه مزدرياً للمُنكَر كارهاً للفُجور ، وتُبْصِرُوا فى عينيه دليلَ الطُّهْر عند ذكر أية مُومِس ، وأرى أنه لا يُوجَدُ فَتَى يُمْكِنُ أن يَعزِم على الدخول بمفرده منازلَ هؤلاء الشَّقِيَّاتِ الكئيبةَ ، ولو كان عالماً بعادتها شاعراً بالحاجة إليها .

ثم ارْجِعُوا البَصَرَ إلى الفَتَى عينِه بعد ستة أشهر لتَرَوْا أنكم عُدْتم غيرَ عارفين إياه ، وذلك أنَّ ما يكون من أحاديثه الجريئة ومبادئه العصرية وأوضاعه الطليقة يَحْمِلُ على عَدِّه إنساناً آخرَ ، وذلك لولا أن فُكاهاتِه حَوْلَ بساطته الأولى وما يعتريه من خَجَلٍ حين تذكيره بها تَدُلُّ على أنه هُوَ هُوَ وعلى أنه يَسْتَحِي من نفسه ، وَىْ ! ما أكثرَ ما تحوَّل فى وقت قليل ! ومن أين يأتى هذا التغير الكبير المفاجئ ؟ يأتى من نشوء المزاج ، أوَ ما كان يَتَّفِقُ لمزاجه ذاتُ التقدم فى المنزل الأبوىّ ؟ لا رَيْبَ أنه ما كان لِيتَّخِذَ ذاتَ الصِّبْغَة ولا ذاتَ المبادئ ، أَمَلَاذُّ الحواسِّ الأولى ؟ إنه إذا ما أُخِذَ ، على العكس ، فى تعاطى ذلك اتَّصِفَ بالجَزَع والهَلَع ، واجْتُنِبَ النُّورُ والضوضاء ، وتَكُون الشَّهَواتُ الأولى حافلةً بالأسرار دائماً ، ويُتَبِّلُها الحياء ويَسْتُرُها ، ولا تَصْنَعُ الخليلةُ الأولى ماجناً ، بل تَصْنَعُ خجولًا ، ويستغرقُ هذا الوضعُ التامُّ الجِدَّة جميعَ الفَتَى فيَجْمَعُ حواسَّه ليتمتعَ به ، فيرتجفُ دائماً خَشْيةَ أن يُضِيعَه ، ولو كان صَخَّاباً ما كان شَهْوَانياً ولا ناعماً ، ولا يُعَدُّ متمتعاً ما دام مُتَبَجِّحاً .

وللتفكير وجوهٌ أخرى نشأت هذه الفروقُ عنها وحدَها ، ولا يزال فؤادُه كما هو ، ولكن آراءه تغيرت ، وتَفْسُدُ أحاسيسُه بأبطأَ من فساد آرائه ،

وهى تَفْسُد بهذه الآراء فى آخر الأمر ، وهنالك فَقَطْ يكون فاسداً حقًّا ، وهو لا يكاد يَدْخُل المجتمعَ حتى يتلقَّى فيه تربيةً ثانيةً مُبَاينةً للأولى ، فيتعلَّم بها ازدراء ما كان يُقدِّرُ ، ويُقدِّر ما كان يَزْدَرِى ، أى إنه يَعُدُّ دروسَ والديْه ومعلميه رَطانةَ حَذْلقةٍ ، ويَعُدُّ ما يَعِظُونه به من واجباتٍ عِلْماً صبيانيًّا فى الأخلاق لا مَعْدِل له عن الاستهانة به بعد أن صار كبيراً ، وهو يعتقد اضطرارَه إلى تغيير سلوكه عن شَرَفٍ فيَغْدُو جريئاً مع النساء بلا رغبةٍ ومَزْهُوًّا عن حياءٍ سَيِّئ ، وهو يهزأ بصالح الطبائع قبل أن يَذُوقَ فاسدَها ، وهو يفاخر بالدَّعَر من غير أن يكون داعراً ، ولن أنسى اعترافَ ضابطٍ شابٍّ فى الحَرَس السويسرىِّ كان يَتَبَرَّم كثيراً من لهو رفقائه الصاخب فلا يَجْرُؤ على رفض الاشتراك فيه خَشْيةَ استهزائهم به ، وقد قال : « إننى أتمَرَّن على هذا كما أتمرَّن على تعاطى التَّبْغ مع ما يساورنى من نُفُور ، ويأتى الذوق بالعادة ، فلا يجب أن يبقى الإنسان صبيًّا دائماً » .

وهكذا فإنه يجب صَوْنُ الفَتَى الداخلِ فى المجتمع من الزَّهو أكثرَ من الشَّهْوَة ، فالفتى يُذْعِن لمُيُول الآخرين أكثرَ من إذعانه لميول نفسه ، ويَصْنَعُ حُبُّ النفس فُجَّاراً أكثرَ مما يَصْنَعُ الغرامُ .

وأسأل بعد بيان ذلك : هل يُوجَدُ فى العالَمِ بأجمعه إنسانٌ كتلميذى مُسَلَّحٌ تجاه كلِّ ما يُمكِن أن يهاجِمَ أخلاقَه ومشاعرَه ومبادئَه ، قادرٌ على مقاومة السَّيْل ؟ وذلك تجاه أىِّ إغواء لا يكون مدافعاً ؟ فإذا كانت مُيُوله تسوقه إلى الجنس الآخر لم يَجِدْ فيه من يَبْحَثُ عنها ، ويُمْسِكُه فؤادُه المهموم ، وإذا كانت حواسُّه تُحَرِّكه وتُحَدِّث قَلْبَه فأين يَجِدُ ما يَقْضِى به

وَطَرَها ؟ يُقصِيهِ مَقْتَه للزِّنى والفجور عن المُومِسات والمتزوجات على السواء ، ويبدأ فِسْقُ الشباب مع أيٍّ من هذين الفريقين دائمًا ، أَجَلْ ، قد تكون الفتاةُ الصالحةُ للزواج مِغْناجاً ، ولكنها لا تكون خالعةَ العِذَار ، وهى لا تذهب إلى إلقاء رأسها على فَتًى يُمْكِنُ أن يتزوَّجها إذا ما اعتقد حُسْنَ سلوكها ، ثم إنها تجِدُ مَنْ يَقُوم برَقابتها ، وكذلك إميلُ لن يُوكَلَ إلى نفسه تماماً ، وسَيَجِدَان فى الخوف والحياء ، على الأقل ، رقيبين ملازمين للميول الأولى ، فلا ينتقلان إلى آخرِ الدلال بغتةً ، ولا يكون لديهما من الوقت ما يأتيانه بالتدريج من غير عَقَبَات ، ولا بُدَّ لسلوكه غيرَ هذا السبيل من أن يكون قد تَلَقَّى درساً من رفقائه فتعلَّم منهم أن يَسْخَرَ من زَجْرِ نفسه وأن يصير ماجناً على غِرَارهم ، ولكن أيُّ إنسانٍ فى العالَم يَكُونُ أقلَّ من إميلَ تقليداً ؟ وأيُّ إنسانٍ يكون أقلَّ تأثُّراً بالسُّخْرِيَة من هذا الذى ليست لديه مُبْتَسراتٌ ولا يستطيع أن يَخْضَع لمبتسرات الآخرين ؟ لقد عَمِلْتُ عشرين عاماً فى تسليحه ضِدَّ المستهزئين ، وهم يحتاجون إلى أكثرَ من يومٍ واحد حتى يُغَرَّ بهم ، وذلك لأنه يرى المَهْزَأَة فى برهان الأغبياء ، ولأنه لا شىء يَجْعَلُ الإنسانَ غيرَ متأثِّرٍ بالسُّخْرية سوى وجوده فوقَ المُبْتَسَر ، وهو يحتاج إلى براهينَ بدلًا من الفُكاهات ، ولا أَخْشَى أن يَنْزِعه الفِتْيانُ المجانين منى ما وَقَفَ عند ذلك الحدّ ، فالضميرُ والحقيقةُ هما ما أُبصِرُ بجانبى ، وإذا ما وَجَب تَدَخُّلُ المُبْتَسَرِ فى الأمر كان تَعَلُّقُ عشرين عامًا شيئًا يُذْكَرُ أيضاً ، فلن يُوجَدَ من يُقْنِعُه بأنى أورَثْتُه سأمًا بدروسٍ فارغة ، ومن شأن صوت الصديق المخلص الصادق أن يَمْحُوَ فى القلب المستقيم

الحسّاس كلَّ أثرٍ لأصوات عشرين من الغاوين ، وبما أن الأمر يدُورُ ، حَصْرًا ، حَوْل إطْلاعه على مخادعتهم له ، وعلى أنهم ، حين يتظاهرون بمعاملته مِثْلَ رجلٍ ، يعاملونه مِثْلَ ولدٍ بالحقيقة ، فإننى أتظاهر بالبساطة ولكن مع الاتزان والوضوح فى براهينى ، وذلك كيما يَشْعُرُ بأنى أنا الذى يعامِلُه مِثْلَ رَجُل ، فأقولُ له : « ترَى أن مصلحتك الوحيدة التى هى مصلحتى هى التى تُمْلِي علىَّ كلمِي ، ولا يُمْكِنني أن أصْنَع غيرَ ذلك ، ولكن لِمَ يُرِيدُ هؤلاء الفِتْيانُ إقناعَك ؟ ذلك لأنهم يريدون إغواءك ، وهم لا يحبُّونك مطلقًا ، وهم لا يُبالون بك مطلقًا ، ويقوم دَاعِيهم الوحيدُ على غيظهم الخفيِّ من كَوْنك أفضلَ منهم، فَيوَدُّون لو يُنزِلونك إلى مستواهم الحقير، وهم لا يَلُومُونك على خضُوعك للرّقابة إلا ليسيطروا عليك بأنفسهم ، وهل يُمْكِنك أن تعتقد وجودَ كَسْبٍ لك فى ذاك التحول ؟ وهل بَلَغُوا من سُمُوِّ الدراية ما بَلَغْتُ إذَنْ ؟ وهل وَلَعُ يومٍ واحدٍ أقوى من وَلَعِي ؟ لا بُدَّ لهم من القدرة على إعطاء وَزْنٍ لسلطانهم حتى يُقامَ وَزْنٌ لسُخْرِيتهم ، وأيةُ تجرِبةٍ اتفقت لهم رفعًا لمبادئهم فوق مبادئنا ؟ هم لم يَصْنَعُوا غيرَ تقليد طائشين آخرين ، فتراهم يريدون أن يُقلِّدُوا بدَوْرِهم ، وهم يريدون أن يَجْعَلوا أنفسهم فوق مبتسرات آبائهم ، فتراهم يُخْضِعُون أنفسهم لمُبْتَسَراتِ رفقائهم ، ولا أُبْصِرُ ما يَكْسِبون من هذا مطلقًا ، ولكنى أُبْصِرُ أنهم يَخْسرُون به فائدتين عظيمتين لا رَيْب ، وهما : فائدةُ العطفِ الأبويِّ الذى يكون ما يَصْدُرُ عنه من نصائحَ لَيِّنًا صادقًا ، وفائدةُ التجرِبة التى تَحمِلُ

على الحكم فى الأمور بما هو معروفٌ ، وذلك لأن الآباء كانوا أولاداً ، ولم يكن الأولادُ آباء .

« ولكنْ أتَظُنُّ أنهم مخلصون فى مبادئهم الحُمْقِ على الأقل ؟ ولا هذا أيضًا يا إميلُ العزيز ، فهم يَخْدَعُون أنفسهم ليَخْدَعوك ، وهم ليسوا على اتفاقٍ مع أنفسهم ، ويُكذِّبهم فؤادهم دائمًا ، ويناقضهم لسانهم غالبًا ، ومنهم هذا الذى يُحَوِّل إلى سُخْرِيةٍ كلَّ ما هو صالح مع اليأس من تَفْكِير زوجته مثلَه ، ومنهم ذاك الذى يَبْلُغ من عدم الاكتراث للأخلاق ما يَجْعَلُه شاملاً لزوجته القادمة أو إنه يَبْلُغُ من الانغماس فى العار ما لا يكترث معه لسلوك زوجته ، ولكنْ تَقَدَّمْ إلى الأمام ، وحَدِّثْه عن أمه ، وانْظُرْ هل يوافقُ أن يعامَل ابنًا لزانيةٍ وامرأةٍ سيئةِ السلوك فيَحْمِلَ اسماً زائفًا لأُسرةٍ ويَسْرِقَ تُرَاثَ وارثٍ شرعىّ ؟ أىْ هل يُطِيقُ أن يعامَل مِثْلَ نَغْلٍ ؟ ومَنْ منهم يُرِيدُ أن يَرُدَّ على ابنته عاراً غَمَرَ به بنتَ رجلٍ آخر ؟ ولم يُوجَدْ واحدٌ منهم لم يَعْتَدِ حتى على حياتك إذا ما انتحلتَ معه فى ميدان العمل جميعَ المبادئ التى يَبْذُل وُسْعَه فى مَنْحِك إياها ، وهكذا فإنهم يُبْدُون تناقضَهم فيُعْلَمَ أن كلَّ واحدٍ منهم يقول ما لا يَعْتقد ، وهذه بَرَاهينُ يا إميلُ العزيز ، ففكِّر فى براهينهم إذا كان عندهم برهانٌ ، ثم قارِنْ بينها وبين براهينى ، ولو أردتُ أن أستعين بالازدراء والهزوء كما يستعينون لرأيتهم يُسْلِمُون أنفسَهم إلى السُّخْرية كما أُسْلِمُ أو أكثر ، ولكننى لا أَخْشَى الاستقصاء الجِدِّىّ ، ففَوْزُ المستهزئين قصيرُ الأجل ، وتَبْقَى الحقيقة ، ويزول ضَحِكُهم المخالفُ للصواب » .

ولا تتصوَّرون كيف يُمكِن إميلَ ، البالغَ من السِّنّ عشر سنين ، أن يكون طائعًا ؛ ويا للاختلاف فى تفكيرنا ! ولا أُدْرِك كيف أمْكنه أن يكون طائعًا ابنًا للعاشرة من سِنِيه ، وأىُّ سلطانٍ يَكُون لى عليه فى ذاك العُمُر ؟ لقد بَذَلْت جهودَ خمسَ عشرةَ سنةً لوقاية هذا السلطان ، ولم أُنَشِّئه فى ذلك الحين ، بل كنت أُعِدُّه لِيُنَشَّأ ، والآن بَلَغَ من التنشئة ما يَكْفِي ليكون طائعًا ، وهو يَعْرِف صَوْت الصداقة ، وهو يَعْرِف أن يُذْعِن للعقل ، أَجَلْ ، إننى أترك له مَظْهَر الاستقلال حَقًّا ، ولكنه لم يكن تابعًا لسلطانى أكثرَ مما فى الوقت الحاضر ، وذلك لأنه أراد أن يكون هكذا ، وقد بقيتُ مسيطراً على شخصه ما عَجَزْتُ عن السيطرة على إرادته ، فلا أتركه دقيقةً واحدة ، والآن أَكِلُه إلى نفسه أحيانًا ، وذلك لأننى أُهَيْمِنُ عليه دائمًا ، وإذا ما تركته عانقته وقلت له بلهجة الواثق : « أَدْفَعُك إلى صديقى لتكون وديعةً عنده ، وأُسَلِّمُك إلى قلبه الكريم ، وهو الذى سيُجِيبُنى عنك » .

ولا يتمُّ فى ساعةٍ واحدةٍ إفسادُ المشاعر السليمة التى لم يَطْرَأ عليها أىُّ فسادٍ سابقًا ، وزوالُ المبادئ المشتقةِ مباشرةً من أنوار العقل الأولى ، وإذا حَدَث تغييرٌ فى أثناء غِيَابى لم يكن على شىء من الطول مطلقًا ، وهو لا يُمْكِن أن يُكتَم عنى بما فيه الكفاية حتى لا أدركَ الخطرَ قَبْلَ الشرِّ ولا يكون لدىَّ من الوقت ما أُعالجه فيه ، وكما أن الفساد لا يتمُّ دفعةً واحدةً فإن تَعَلُّمَ المخادعة لا يتمُّ دفعةً واحدة ، وإذا ما وُجِدَ إنسانٌ غيرُ حاذقٍ فى هذه الصِّناعة كان هذا الإنسانُ إميلَ الذى لم

تُتَحْ له فرصةٌ واحدة فى حياته لمزاولتها .

وأعتقدنى بهذه الجهود وما ماثلها قد بَلَغْتُ من ضمانه تجاه الأمور الخطِرة والمبادئ المبتذلة ما أفضِّلُ أن أراه معه فى وسط أكثرِ مجتمعاتِ باريسَ فساداً على أن أشاهده وحدَه فى غرفته أو فى رَوْضةٍ مُوكَلاً إلى هَمٍّ عُمُرِه ، ومهما يكن من أمرٍ فإن الشابَّ نفسَه هو أخْطَرُ جميع الأعداء الذين يُمْكِن أن يهاجموه ، وهو الوحيدُ الذى لا يُمْكِن إقصاؤه ، ومع ذلك فإن هذا العدوَّ لا يكون خَطِراً إلا بخطإٍ يَصْدُر عنا ، وذلك لأن الحواسَّ تستيقظ بالخيال وحدَه كما قلتُ ذلك ألفَ مرة ، وليست حاجتُها حاجةً بَدَنيةً بحضرِ المعنى ، وليس من الصحيح أن يكون هذا احتياجاً حقيقيًّا ، ولو لم يَقِف الموضوعُ الداعرُ نظرَنا ، ولو لم يَدْخُل الفكرُ الفاجر ذِهْنَنا ، لم يُشْعِرْ هذا الاحتياجُ المزعومُ بنفسه فينا على ما يحتمل ، ولَبَقِينا أطهاراً خالين من النَّزَعات والجهود والمزية ، ولا يُعْرَفُ أيُّ فَوَرانٍ أصمَّ يُثِيرُه بعضُ الأوضاع وبعضُ المناظر فى دَمِ الشبابِ من غير أن يَعْرِف بنفسه تمييزَ علةِ هذا الهمِّ الأول الذى لا يَسْهُل تسكينُه والذى لا يَلْبَثُ أن يُبْعَث ، وأما أنا فكلما تأمَّلتُ هذه الأزْمةَ المهمةَ ، وأنعمتُ النظرَ فى عِلَلِها القريبةِ والبعيدة ، قَنِعْتُ بأن المُعْتَزِلَ الذى رُبِّىَ فى بَرِّيَّة بلا كتبٍ ولا تعليمٍ ولا نِسْوَةٍ يَمُوت فيها بَتُولاً مهما يَكُنِ العُمُر الذى يَبْلُغه .

ولكنْ ليس هنا موضوعُ بحثٍ عن وحشيٍّ من هذا الطراز ، وليس من الممكن ، ولا من الملائم أيضاً ، أن يُنشَّأ دائماً ضِمْن هذه الجهالة

الشافية ، وشَرٌّ من هذا على الحِكْمة أن يكون نصفَ عارفٍ ، وتَتْبَعُنا في العُزْلة ذكرى الأمور التي وَقَفَتْ نظرَنا والأفكارُ التي اكتسبناها ، وهي تَعْمُرُها ، على الرغم منا ، بصُوَرٍ أكثرَ إغواءً من الأشياء نفسِها ، وهي تَجْعَلُ العزلةَ شؤماً على الذي يَحْمِلُها إليها بمقدار فائدتها للذي بَقِيَ وحيداً فيها دائماً .

ولِذَا فارْقُبُوا الشابَّ بدقةٍ ، وهو يستطيع أن يَقِيَ نفسَه من البقية ، ولكنْ يَتَوَقَّفُ عليكم أن تَقُوه من نفسه ، ولا تَتْرُكوه وحدَه ليلاً ولا نهاراً ، وناموا في غرفته على الأقلّ ، ولا تَدَعُوه يَدْخُل الفِراشَ إلّا تَعِباً نُعَاساً ، فلا يَخْرُج منه إلى حين يُفِيقُ ، واحْذَرُوا الغريزةَ عند ما تَعُودُون غيرَ مقتصرين عليها ، وهي تكون صالحةً ما سارَتْ وحدَها ، وهي تكون محلَّ ارتيابٍ ما اتصلت بمؤسَّساتِ الناس ، ولا يَجُوز أن يُقْضَى عليها ، بل يَجِبُ تنظيمُها ، وقد يكون تنظيمُها أصعبَ من إزالتها ، ومن الخطر البالغ أن تُعَلِّمَ الغريزةُ تلميذَكم مخادعةَ حواسِّه ، وأن نُعَوِّض من فُرَصِ قضاء هذه الحواسّ ، فإذا ما عَرَف تلميذُكم هذا العِوَضَ ضَاعَ ، وذلك أنه يكون هائجَ الجسمِ ثائرَ الفؤادِ منذ ذلك الحين دائماً ، وأنه يَحْمِلُ حتى القبرِ نتائجَ هذه العادةِ الكئيبةَ ، هـذه العادةِ التي تُعَدُّ أشأمَ ما يُمْكِن أن يُعَبَّدَ لها شابٌّ ، ولا رَيْبَ في أن الأفضلَ . . . وإذا ما صارت صَوْلاتُ المزاجِ الأجُوجِ أمراً لا يُقْهَرُ ، يا إميلُ العزيز ، فإني أرْثِي لك ، ولكنني لا أتردَّدُ ثانيةً ، ولا أتساهل مطلقاً ، في أمرِ التَّملُّص من غَرَض الطبيعة ، وإذا ما وجب أن يُخْضِعَك طاغيةٌ فإنني

أُسَلِّمُكَ إلى هذا الذى أستطيع إنقاذك منه ، أى مهما يَكُنْ من أمرٍ فإننى أنْزِعُكَ من النساء بأسهلَ من أن أنْزِعَكَ من نفسك .

ويَنْمُو البَدَنُ حتى العشرين من السِّنِّ ، ويحتاج البَدَن إلى جميع جوهره ، ويكون العَفَافُ من نظام الطبيعة حتى ذلك الحين ، ولا يُنْقَضُ هذا النظام على إلا حساب بُنْيَانه ، فإذا حَلَّ العشرون من العُمُر أصبح العفافُ واجبًا خُلُقيًّا ، وغَدَا مُهِمًّا لتعلُّم ضبطِ النفس وبقاء الإنسان سيدَ شَهَوَاته ، بَيْدَ أن للواجبات الخلقية تحوُّلاتِها واستثناءاتِها وقواعدَها ، وإذا ما اقتضى الضعفُ البشريُّ تناوباً ، وصار هذا التناوبُ أمراً لا مفرَّ منه ، وجب اختيارُ أخفِّ الضررين ، ومهما يَكُنْ من أمرٍ فإن اقترافَ وِزْرٍ أهْوَنُ من إيلاف مُنْكَرٍ .

واذْكُرُوا أننى عُدْتُ لا أتكلَّمُ عن تِلميذى هنا ، بل عن تِلميذكم ، وتُخْضِعُكم أهواؤه التى تركتموها تثُور ، فاخْضَعُوا لها ، إذَنْ ، جَهْراً ومن غير أن تُخْفُوا عنه فَوْزَه ، وإذا ما استطعتم أن تُرُوه إياه على حقيقته ظَهَرَ به أقلَّ زَهْوًا منه خَجِلاً ، وظَهَر لكم من الحَقِّ ما تُرْشِدُونه به فى أثناء ضلاله حَمْلاً له على اجتناب المصائب ، ومن المهمِّ ألا يَصْنَع الطالبُ شيئاً لا يَعْرِفه المعلِّم ولا يريده ، ولو كان ذاك الشىء شرًّا ، وأفْضَلُ مئةَ مرةٍ أن يوافق المعلم على ذَنْبٍ يُمَوِّهُا على نفسه من أن يخادِعه تِلميذُه وأن يُقْتَرَف الذنبُ من غير أن يَعْرِف عنه شيئاً ، ومَنْ يظُنّ وجوبَ الإغْضاء عن أمرٍ لا يَلْبَثْ أن يرَى اضطرارَه إلى الإغماض عن جميع الأمور ، ويؤدى أولُ سوء استعمالٍ يُغَضُّ البصرُ عنه إلى سوء

استعمالٍ آخر ، ولا تنتهي هذه السلسلةُ إلى غير انهيار كلِّ نظام وازدراء كلِّ قانون .

ويُوجَدُ خطأٌ آخرُ كنت قد ناهضته ، ولكنْ مع عدم صدوره عن النفوس الصغيرة مطلقاً ، وهو أن يُظْهَرَ بمظهر وقار الحاكم دائماً ، وأن يُرَادَ الدخولُ في ذهنِ التلميذ مِثْلَ رجلٍ كاملٍ ، فهذا المنهاجُ مخالفٌ للصواب ، وكيف لا يَرَوْن أنهم يُقَوِّضون سلطانَهم من حيث يَوَدُّون توطيدَه ، وأنه لا بُدَّ لهم من وضع أنفسهم فى مكان من يخاطَبُون ليَحْمِلُوا على سماع جميع ما يقولون ، وأنه لا بُدَّ للواحد من أن يكون إنساناً حتى يَعْرِفَ مخاطبةَ القلبِ الإنسانىّ ؟ لا يؤثِّر جميعُ هؤلاء الفُضَلاء ولا يُقْنِعُون ، ويقال دائمًا : « يَسْهُل عليهم أن يناهضوا ما لا يَشْعُرُون به من الأهواء » ، فأطْلِعُوا تلميذَكم على ضعفكم إذا ما أردتم شفاءه من ضعفه ، ولْيُبْصِرْ فيكم عَيْنَ الكفاح الذى يُحِسُّ ، وليتعلَّمْ أن يَقْهَرَ نفسَه على غِرَارِكم ، ولا تَدَعوه يقول كما يقول الآخرون : « يُرِيدُ هؤلاء الشِّيبُ الذين يَغيظُهم أنهم عادوا لا يكونون شُبَّانًا ، أن يعاملَ الشبابُ كما لو كانوا شِيبًا ، فيَجْعَلُون من أهوائنا جُرْمًا لانْطِفاءِ أهوائهم » .

ويَرْوِى مُونتِينُ أنه سأل سِنْيُورَ لانْجِه ذاتَ يومٍ عن عَدَدِ ما سَكِرَ بسبب خدمة الملك فى أثناء مفاوضاته ألمانية ، وأسألُ معلِّمَ أحد الشباب ، بطَوْعى ، عن عدد المرات التى دَخَلَ فيها أحدَ المواخير خِدْمَةً لتلميذه ؟ أنا مخطئٌ ، فإذا لم تَنْزِعِ المرةُ الأولى من الداعر مَيْلَ العَوْدِ إليه ، وإذا لم يَرْجع منه تائبًا خَجِلاً ، وإذا لم يَسْكُب على صدركم سيولاً من

الدموع ، فدَعُوه من فَوْرِه ، فهو ليس سوى عُولٍ ، أو إنكم لستم من غير الأغبياء ، فلن تكونوا نافعين له فى شىء مطلقًا ، ولكنْ لنَتْرُكْ هذه الطرائقَ المتناهية الكئيبة الخَطِرَة والتى لا تَمُتُّ إلى تربيتنا بصِلَة .

ويا للاحتياطات التى تُتَّخَذُ تجاه شابٍّ أصيلٍ قَبْلَ تمْرِيضه لأوضاع العصر الشائنة ! إن هذه الاحتياطاتِ شاقّةٌ ، ولكنها ضرورية ، والإهمالُ هو الذى يُضيعُ جميعَ الناشئة من هذه الناحيــة ، ويَنْحَطُّ الناسُ بفُجُورِ الدَّوْر الأول من العُمُر فيتحوَّلون إلى الحــال التى يُرَوْن عليها اليوم ، وهم إذْ يَبْدُون أدنياء نُذَلاء حتى فى معايبهم فإنهم لا يكونون من غير أصحاب النفوس الحقيرة ، وذلك لفسادهم باكراً عن وَهْنٍ فى أبدانهم ، فلا يكاد يَبْقى لهم من الحياة ما يكفى للتحرُّك ، وتَنِمُ أفكارُهم الدقيقة على أذهانٍ يُعوِزُها الجوهر ، وهم لا يَقْدِرون على الشعور بأمرٍ جليــلٍ أو نبيل ، ولا يوجدُ عندهم نشاطٌ ولا بساطةٌ ، وبما أنهم نُذَلاء فى كلِّ شىء ، وبما أنهم أشرارٌ مع الدناءة ، فإنهم ليسوا غيرَ مُبْطِلين خُبَثاءَ مُرَائين ، حتى إنه ليس لديهم من الشجاعة ما يكونون معــه فُجَّاراً ظاهرين ، وهؤلاء هم الأذلاء الذين يُسْفِرُ عنهم دَعَرُ الشباب ، وإذا ما وُجِدَ بينهم واحدٌ يَعْرِف أن يكون معتدلًا وقوراً قادراً أن يَحْفَظ بينهم فؤادَه ودمَه وأخلاقَه ، وذلك من عَدْوَى القُدْوَة ، سَحَق جميعَ هؤلاء الحَشَرات ابناً للثلاثين من عُمُره وصار سيدَهم بجُهْدٍ أقلَّ من الذى يَبْذُل ليَظَلَّ سيدَ نفسه .

ومهما يكن من قلةِ ما عند إميلَ من نَسَبٍ ونَشَبٍ فإنه يَصِيرُ ذاك الإنسانَ الذى يُرِيدُ أن يَكُونَه ، غير أنه يَبْلُغ من ازدرائه لهم ما لا يتنازل

معه أن يستعبدهم ، والآن لننظُرْ إليه بينهم وهو يَدْخُل المجتمعَ ، لا لتكون له الصدارةُ فيه ، بل ليَعْرِفَه وليَجِدَ فيه رفيقةً تناسبه .

وستكون بُداءتُه بسيطةً وبلا تَصَنُّع مهما كانت الطبقة التى وُلِدَ فيها والمجتمعُ الذى أُدْخِلَ إليه ، ومعاذَ اللهِ أن يكون من الشقاء ما يَلْمَعُ معه فى ذاك المجتمع ! فليست الصفاتُ التى تؤثِّرُ عند أول نظرةٍ صفاتِه ، وهو لم يَحُزْها ولا يُرِيدُ حيازتَها ، وهو قليـلُ الالتفات إلى رأى الآخرين فى تقدير مُبْتَسَرَاتهم ، ولا يكترث لتقدير الناس إياه ، أو لعدم تقديرهم له ، قَبْلَ أن يَعْرِفوه ، وليس الوجهُ الذى يَظْهَر به مُتَّضِعاً ولا فارغاً ، بل طبيعىٌّ حقيقىٌّ ، وهو لا يَعْرِف الانقباض ولا التنكُّر ، ويكون فى وسط الحَلْقة مِثْلَه وحيداً وبلا شاهد ، وهل يكون بهذا فَظًّا مُزْدَرِياً غيرَ مُبَالٍ بأحد ؟ والعكسُ هو الواقعُ ، فإذا كان لا يأبه وحدَه للآخرين فَلِمَ لا يأبه لهم ما دام عائشاً بينهم ؟ إنه لا يُفَضِّلُهم على نفسه فى أوضاعه ، لأنه لا يُفَضِّلُهم على نفسه فى فؤاده ، بَيْدَ أنه لا يُرِيهم عدمَ اكتراثٍ يُعَدُّ بعيداً من الشعور به ، وهو إذا كان خالياً من صِيَغ المجاملة فإن له عنايةً بالإنسانية ، وهو لا يُحِبُّ أن يَرَى إنساناً يَأْلَم ، وهو لا يُقَدِّم مكانَه إلى آخرَ عن رِئاء ، وإنما يَتْرُكه له بطَوْعه عن لطفٍ ، وذلك إذا ما رآه مُهْمَلًا وقَدَّر أن هذا الإهمالَ يُذِلُّه ، وذلك لأنه يَجِدُ غَضَاضةً فى بقائه واقفاً طَوْعاً أقلَّ مما يَجِدُ فى مشاهدته آخرَ يَبْقَى واقفاً كَرْهاً .

ومع أن إميلَ لا يَعْتَبِرُ الناسَ على العموم فإنه لا يُظْهِرُ لهم ازدراءً مطلقاً ، وذلك لأنه يَتَوَجَّعُ لهم ويَحِنُّ عليهم ، وبما أنه لا يستطيع أن يَمْنَحَهم ذوقَ الخير

الحقيقىّ فإنه يَدَعَ لهم خيرَ الرأى الذى يُرْضِيهم ، وذلك خشيةَ أن يَجْعَلَهم أكثرَ شقاء من قَبْلُ بنَزْعِه هذا الخيرَ منهم ، ولِذَا فهو ليس مِجْدالًا وَلا معارضاً ، وليس ملاطِفاً ولا مصانعاً ، وهو يُبْدِى رأيه من غير أن يناهِض رأىَ أحدٍ ، وذلك لأنه يُحِبُّ الحرية فَوْقَ كلّ شىء ، ولأن الصراحة من أروع ما تنطوى عليه الحرية من حقوق .

وهو قليلُ الكلام ، وذلك لأنه لا يَشْغَلُ بالَه بأن يُكْتَرَث له ، وهو لا يُحَدِّث عن غير الأمور النافعة لهذا السبب ، وإلا فأىُّ شىء يَحْمِلُه على الكلام ؟ إن إميل من الاطلاع الكثير ما لا يكون معه ثَرْثاراً ، ويَصْدُر الهَذْرُ الكبيرُ، بحُكْم الضرورة ، عن زَعْم الذهن الذى سأتكلّم عنه فيما بعد، أو عن القيمة التى تُعطاها التُّرَّهَاتُ فنكون من السخافة ما نَظُنُّ معه أن الآخرين يعتبرونها مثلَ اعتبارنا لها ، ولا يُكْثِرُ من الكلام مطلقاً ذاك الذى يكون عنده من المعرفة ما يَكْفِى لإعطاء كلّ شىء قيمتَه الحقيقية ، وذلك لأنه يَقْدِر أن يُقَدِّر ما يُنْتَبَه به إليه وما يُمْكِن أن يُوجَد فى كلامه من نَفْع ، وعلى العموم تَرَى الذين يَعْرِفُون قليلًا يتكلمون كثيراً ، وتَرَى الذين يَعْرِفون كثيراً يتكلمون قليلًا ، أجَلْ ، إن من الأمور البسيطة أن يَجِدَ الجاهل جميعَ ما يَعْرِفُ أمراً مهمّاً فيقُولَه لجميع الناس ، غير أن الرجل المُثَقَّف لا يَعْرِض ما يَعْرِف بسهولة ، فلديه أمورٌ كثيرة يُحَدِّث عنها ، ثم يرى أموراً أكثر من تلك تقال بعد ذلك ، فيلتزمُ جانبَ الصمت .

ولا يَصْدِمُ إميلُ أوضاعَ الآخرين ، وهو يلائمها طَوْعاً بما فيه الكفاية ، لا ليَظْهَرَ عارفاً بالعادات ، ولا ليَظْهَرَ مهذَّباً ، بَلْ خشيةَ أن يُمَاز ، ولئلا

يكون مَحَلَّ نظر ، ولا شيء يُرِيحُه أكثرُ من عدم الانتباه إليه .

وهو ، وإن كان يَجْهَلُ أوضاعَ المجتمع جهلًا مُطْلَقاً عند دخوله إياه ، لا يكون وَجِلًا هَلُوعاً لهذا السبب ، وهو إذا كان يتوارى فليس هذا عن ارتباكٍ مطلقاً ، بل لأنه يجب ألّا يُرَى الإنسان حتى يَرَى جيداً ، وذلك لأن ما يُفكِّرُ فى أمره لا يُقْلِقُه مطلقاً ، ولأنه لا يَعْتَرِيه أدنى فَزَعٍ من الهُزُوء ، وهو ، إذ يَهْدَأُ دائماً ويكون معتدلًا ، لا يُزْعَجُ بالخجَل ، وهو ، سواء أنُظِرَ إليه أم لم يُنْظَر ، يَصْنَع ما يَصْنَع مع ما يمكنه من إتقان ، وبما أن عليه أن يلاحظ الآخرين دائماً فإنه يُدْرِكُ أوضاعَهم بسهولةٍ تتعذَّرُ على عبيد رأى الآخرين ، ولِذَا يُمْكِن أن يقال إنه ينتحل عُرْفَ المجتمع عن عدم اكتراثٍ له .

ومع ذلك فلا تخْدَعوا أنفسَكم حَوْلَ وَضْعه ، ولا تقابلوا بين هذا الوَضْعِ ووَضْعِ مُتَظَرِّفيكم ، فهو رَصِينٌ غيرُ مُخْتَالٍ ، وهو طَليقُ الأطوار غيرُ مُزْدَرٍ ، ولا يَخُصُّ طَوْرُ البَطَر غيرَ العبيد ، وليس فى الاستقلال شيء من التصنع ، ولم أرَ قَطُّ إنساناً ذا عُلُوٍّ فى النفس يُبْدِيه فى طَوْره ، وأكثرُ ما يكون هذا التصنُّعُ خاصًّا بأصحاب النفوس الحقيرة المختالة التى لا تستطيع أن تَغُرَّ بغير ذلك ، ومما قرأتُ فى كتابٍ أن أجنبيًّا دَخَل على مَرْسِيلَ الشهيرِ فى بَهْوِه فسأله هذا عن بلده ، فأجابه الأجنبيُّ عن سؤاله بقوله : « إننى إنكليزيٌّ » ، فقال له الراقصُ : « أنت إنكليزيٌّ ! أنت من تلك الجزيرة التى يكون للمواطنين فيها نصيبٌ فى الإدارة العامة ،

ويُعَدُّون جزءاً من السلطان ذى السيادة[1] ! كَلَّا يا سيدى ، إن هـذا الجبين المُطرِق وهذا النظرَ الوَجِل وهذه المِشْيةَ الحائرة أمورٌ لا تدلنى على غير عبدٍ مُلَقَّبٍ بناخب » .

ولا أعلَمَ هل هذا الحكمُ يدلُّ على معرفة واسعة بالصلة الحقيقية بين خُلَق الإنسان وظاهره ، وأما أنا فلم يكن لى شرفُ معلمٍ فى الرقص ، فترَانى أرَى العكس ، فأقول : « إن هذا الإنكليزىَّ ليس نديماً ، ولم أسْمَعْ قَطُّ أن الندماء ذوو جِباهٍ مُطرِقةٍ ومِشْيةٍ حائرة ، ومما لا يَنْبَغِى عند الراقص ألا يكون الرجلُ الخجِلُ فى مجلس العموم » ، ولا مراء فى أن مسيو مَرْسِيلَ ذاك يَحْسَبُ مواطنيه كَكثيرٍ من الرومان .

ومن يُحِبَّ يُرِدْ أن يُحَبَّ ، وإميلُ يُحِبُّ الناسَ ، فيُرِيدُ أن يَقَعَ عندهم موقعَ الرِّضا إذَنْ ، وأكثرُ من هذا كَوْنُه يُرِيدُ أن يرُوقَ النساءَ ، وما عليه من عُمُرٍ وخُلُقٍ وقَصْدٍ يتضافر على تغذية هذه الرغبة فيه ، وقد قلتُ أخلاقَه لِماَ لها من أثرٍ بالغ ، وعُبَّاد النساء الحقيقيون هم الذين عندهم خُلُق ، أجَلْ ، ليس لديهم ما عند الآخرين من رَطانةٍ ساخرةٍ فى المغازلة ، غير أنه يُوجَدُ عندهم من المبادرة ما هو أكثرُ صدقاً وأعظمُ عطفاً ، لصدوره عن القلب ، ويُمْكِنُنى أن أمِيزَ بجانب فتاةٍ رجلًا ذا أخلاقٍ وضَبْطِ نفسٍ بين مئة ألف فاجر ، واحْكُمُوا فيما يُمْكِنُ أن يَكُونه إمِيلُ صاحبًا لمزاجٍ

---

(١) كأنه لا يوجد مواطنون أعضاء للمدينة لم يكونوا ، هكذا ، جزءاً من السلطان ذى السيادة! ولكن الفرنسيين ، الذين رأوا من المناسب اغتصاب أسم المواطنين المكرم المعدود من حقوق المدن الغولية ، أفسدوا مبدأه إفساداً جرده من كل معنى ، ومما حدث أن رجلا كتب إلى ترهات كثيرة ضد « إلويز الجديدة » ، فزخرف إمضاءه بلقب « مواطن من بنبوف » ظاناً أنه يقوم نحوى بدعابة رائعة .

تامٌّ الجِدَّة مع كثيرٍ من الأسباب للمقاومة ! وأظُنُّ أنه سيكون بجانبهن خَجِلًا مرتبكاً أحياناً ، ولـكن هذا الارتباك لا يُورِثُهن غيظًا ، ولا يَجِدُ أقلُّهن غُنَاجًا من ذلك غيرَ وسيلةٍ للتمتع بذلك مع زيادته غالبًا ، ثم إن مبادرته تَتَّخِذُ من الأشكال ما يختلف مع الأحوال ، فيكون أكثرَ تواضعًا وأعظمَ احترامًا للنساء وأشدَّ نشاطًا ولِينًا تجاه البنات الصالحات للزواج ، ولا يَغِيبُ غَرَضُ تَحَرِّياته عن نظره ، ويكون أكبرُ نصيبٍ من انتباهه مُوَجَّهًا دائمًا إلى التى تُذَكِّرُه بذلك .

ولا أحدَ يَكُونُ أكثرَ انتباهًا إلى جميع الاعتبارات القائمة على نظام الطبيعة ، وعلى حُسْن نظام المجتمع أيضاً ، غير أن الأولى تُفَضَّلُ على الأخرى دائمًا ، وهو سيكون أكثرَ احترامًا لمن هو أَسَنُّ منه مما لحاكمٍ من لِذَاته ، وبما أنه يَكُون ، عادةً ، من أصغرِ مَنْ فى المجتمعات التى يُوجَدُ فيها إذَنْ ، فإنه يكون من أكثرهم تواضعًا دائمًا ، لا عن زَهْوِ الظهور هكذا ، بل عن شعورٍ طبيعىّ قائمٍ على العقل ، ولن يكون عنده ، مطلقًا ، ما لدى الشابِّ المختال من سلوكٍ ماجن ، من سلوكِ هذا الشابِّ الذى يَنْزِع إلى تسلية العُشَرَاء فيتكلَّم بصوتٍ أعلى من صوت الحكماء ويَقْطَع كلامَ الشيوخ ، وهو لن يَسْمَحَ من ناحيته ، مطلقًا ، بمثلِ جوابِ السيد الشائب إلى لويسَ الخامسَ عشرَ الذى سأله عن أىِّ العَصْرَيْن يُفَضِّلُ : عصرِه أو العصرِ الحاضر ، والجوابُ هو : « لقد قَضَيْتُ شبابى ، يا مولاى ، فى احترام الشِّيب ، فيجب أن أَقْضِيَ مشيبى فى احترام الأولاد » .

وبما أنه ذو نفسٍ لَيِّنَةٍ حَسَّاسة ، ولكن مع عدمِ إقامةِ وزنٍ للرأى العامّ ، وإن كان يَوَدُّ أن يَرُوقَ الآخرين ، فإنه قليلُ المبالاة بأن يُعَدَّ من ذوى الاعتبار ، ومن ثَمَّ يَكُون أكثرَ وُدًّا منه تأدُّباً ، ولا تَبْدُو عليه ملامح الانتفاخ مطلقاً ، ويتأثَّرُ بالملاطفة أكثرَ مما بألف ثناء ، وهو لن يُهْمِلَ أطوارَه ولا أوضاعَه لهذا السبب ، حتى إنه سَيُمْكِنُه أن يقوم بشىء من التحرى فى أمر زُخْرُفه ، لا ليَظْهَرَ رَجُلَ ذوقٍ ، بل ليَجْعَلَ وجهَه مقبولاً ، وهو لن يَلْزَم الإطارَ المُذْهَبَ مطلقاً ، وما كانت سِمَةُ الثَّرَاء لتُلَوِّثَ زِينَتَه أبداً .

وتَرَى أن جميع هذا لا يتطلَّبُ منى عَرْضاً للتعاليم ، فهو ليس سوى نتيجةٍ لتربيته ، ويُنْسَجُ لنا سِرٌّ كبيرٌ عن عادة المجتمع ، كأنَّ هذه العادةَ فى دَوْرِ العُمُر الذى تُتَّخِذُ فيه لا تُتَّخَذُ بحُكْمِ الطبيعة ، وكأنه لا يَجِبُ أن يُبْحَثَ فى القلب الصالح عن قوانينها الأولى ! ويقوم التهذيبُ الحقيقىُّ على إظهار لُطْفٍ للناس ، وهو يُشْعِرُ بنفسه بلا تَعَبٍ عند وجوده ، ويُضْطَرُّ من يَخْلُو من اللطف إلى تَكَلُّفٍ فى المظاهر .

« وأسوأُ نتيجةٍ للتهذيب المصنوع هو تعليمُ فنٍّ ما يُقَلِّدُه من فضائل ، وإذا ما أوحت إلينا التربيةُ بالإنسانية والإحسان نَكُون ذوى تهذيب ، أو إننا نَعُودُ غيرَ محتاجين إلى التهذيب .

« وإذا لم يكن عندنا من التهذيب ما تَنِمُّ عليه الألطاف فإنه يكون عندنا تهذيبٌ يَنِمُّ على الإنسان الصالح وعلى المواطن ، فلا نحتاج إلى العَوْذ بالرِّئاء .

« ويَكفِي أن يكون الإنسان صالحاً ليَرُوقَ ، بدلاً من أن يكون متصنعاً ، ويَكفِي أن يكون الإنسان متسامحاً لمُدَاراة ضعف الآخرين بدلاً من أن يكون منافقاً .

« ولن يَكُونَ من تُتَّخَذُ نحوهم مثلُ هـذه الطرُقِ مُتَكَبِّرين ولا فاسدين ، وإنما يكونون شاكرين ، ويَظْهَرُون أحسنَ حالاً » .

ويَلُوحُ لى أن تَرْبيةً ما إذا كانت تُسْفِرُ عن تهذيبٍ من هـذا النوع الذى يتطلبه مسيو دُوكْلُو بَدَت هذه التربيةُ تلك التى وَضَعْتُ رَسْمَها حتى الآن .

ومع ذلك فإننى أوافق على أن إميلَ لن يكون ، مطلقاً ، كبقية الناس بهذه المبادىء المختلفة جِدًّا ، وأدعو الله أن يَحفَظَه من أن يكون هكذا ! ولكنه لن يكون فيما يَخْتَلِفُ به عن الآخرين مُكَدِّراً ، ولا للهزوء مستحقًّا ، وسيكون الاختلاف محسوساً من غير أن يكون شاقًّا ، وإن شئت فقل إن إميل سيكون أجنبيًّا محبوباً ، وأولُ ما يَحْدُث أن تُغفَرَ له غرابتُه بأن يقال : « إنه سَيَتَخرَّج » ، ثم يَحْدُث فيما بَعْدُ ما تُتَعَوَّد معه أوضاعُه ، فيُصْفَحُ عنه أيضاً حين يُرَى أنه لم يُغيِّرْها ، فيُقَال : « إنه تَكَوَّنَ هكذا » .

أَجَلْ ، إنه لن يُحْتَفَلَ به مثلَ رجلٍ محبوب ، ولكنه سيُحَبُّ من غير أن يُعْرَفَ السببُ ، أَجَلْ ، إنه لن يَمْدَح أحدٌ ذهنَه ، ولكنه سيُتَّخَذُ حَكَماً بين رجال الذهن عن طَوْعٍ واختيار ، وسيكون واضحَ الذهن محدودَه ، وسيكون صادقَ الشعور سليمَ الحُكْم ، وبما أنه لا يَسْعَى وراءَ جديدٍ

الأفكار مطلقاً فإنه لا يُمكِن أن يَهْتَزَّ بذهنه ، وقد أشعرتهُ بأن جميعَ الأفكار الشافية النافعة للناس حقّاً هى أولُ ما عُرِف وبأنه يتألف منها وحدَها روابطُ المجتمع الحقيقيةُ فى كلِّ زمن ، وبأنه لا يبقى على ذوى الذهن الطامح سوى الامتياز بالأفكار المؤذية المشؤومة على الجنس البشرىِّ ، وما كان هذا الطِّراز فى إثارة العَجَب ليؤثِّرَ فيه مطلقاً ، وهو يَعْرِفُ أين يَجِدُ سعادةَ حياته ، وبِمَ يُمْكِنُ أن يساعد على سعادة الآخرين ، ولا يمتدُّ نطاقُ معارفه إلى أبعدَ مما هو نافع ، وتَكُون طريقُه ضيِّقةً جيِّدَةَ الحدود ، وهو إذْ لم يحاول أن يَخْرُج منها فإنه يظلُّ مختلطاً بمن يَتْبَعُونها ، وهو لا يُريدُ أن يَضِلَّ ولا أن يَلْمَع ، وإميلُ إنسانٌ مستقيمُ العقل ، ولا يَوَدُّ أن يكون شيئاً آخر ، ومن العبث أن يُرَاد إيذاؤه بهذا اللقب ، فهو سيعتزُّ به دائماً .

ومع أن رغبته فى الرَّوَقَان لا تَدَعُه يَكُونُ ، على الإطلاق ، أكثرَ عدمَ اكتراثٍ لرأى الآخرين فإنه لا يَعْتَبِرُ من هذا الرأى غيرَ ما يتصل بشخصه مباشرةً ، وذلك من غير أن يبالىَ بكلِّ تقدير مُرَادِىٍّ ليس له قانونٌ سوى المُوضَة* أو المُبْتَسَرات ، أَجَلْ ، إنه سيكون لديه زَهْوُ العَزْم على إتقان كلِّ ما يَصْنَع ، حتى إرادةُ فِعْلِه بأحسنَ مما يَفْعَلُ الآخرُ ، فيَوَدُّ أن يكون الأخفَّ فى العَدْو ، والأقوى فى المصارعة ، والأمهرَ فى الشُّغْل ، والأبرعَ فى الألعاب اليدوية ، ولكنه قليلُ البحث عن الفوائد غيرِ الواضحة بنفسها والتى تحتاج إلى تقريرٍ بحُكْمِ الآخرين ، ككَوْنه أذكى من الآخر وأطلقَ منه لساناً وأكثرَ علماً ، إلخ . ، وأقلُّ من ذلك أيضاً

* La mode

بحثُه عن الفوائد التى لا تتعلّق بشخصه مطلقاً ، كأن يُعَدَّ عالىَ النسب وافرَ الثَّراء كبيرَ الاعتماد عظيمَ الاعتبار مُموِّهًا بالبَهْرَج .

وبما أنه يُحِبُّ الناسَ لأنهم أمثالُه فإنه سيُحِبُّ أكثرَهم مشابهةً له على الخصوص ، وذلك لِمَا يَجِدُ بذلك من حُسْنِ شعورٍ بالمزاج ، وبما أنه يَحْكُمُ فى هذه المشابهة بتشابه الأذواق فى الأمور الأدبية ، وذلك من حيث حُسْنُ الخُلُق ، فإن مما يَسُرُّه أن يَقعَ مَوْقع الرِّضا ، وهو لن يقول فى نفسه ضبطاً : أَسَرُّ لأننى أَسْتَحْسَنُ ، بل أَسَرُّ لِمَا يَكُون من استحسانِ حُسْنِ ما صنعتُ ، وأَسَرُّ لأن الذين يُكرِموننى أهلٌ للإكرام ، ومن الجميل أن يُنَال تقديرُهم ما كان حُكْمُهم سلياً .

وبما أنه يَدْرُس الناسَ بسلوكهم فى المجتمع ، وبما أنه درسَ الناسَ سابقاً بأهوائهم فى التاريخ ، فإنه سيُتاح له من الفُرَص فى الغالب ما يتأمل معه فيما يُدَارِى الفؤادَ البشرىَّ أو يَصْدِمُه ، وها هو ذا يَتَفلسفُ حَوْلَ مبادئ الذوق ، وهذا هو الدرس الذى يلائمه فى هذا الدور .

وكلما أوْغَلْنا فى البحث عن تعاريف الذوق ضَلَلْنا ، فليس الذوقُ غيرَ قدرةٍ على الحُكم فيما يَرُوقُ ، وما لا يَرُوقُ ، أكبرَ عدد ممكن ، واخرُجوا من هناك تَعُودُوا غيرَ عارفين ما الذَّوْق ، ولا يُسْتَخْرَج من ذاك وجودُ رجالٍ ذَوْق أكثرَ من الآخرين ، وذلك لأن الأكثرية ، وإن كانت تَحْكُمُ حُكْماً صحيحاً فى كلِّ أمرٍ ، لا يُوجَدُ غيرُ قليلٍ من الناس من يَحْكُمون مِثْلَها فى الجميع ، ومع أن تسابق أعمِّ الأذواق يُسْفِرُ عن الذوق الصالح فإن رجال الذوق قليلون ، وذلك كقلة وجود أشخاصٍ جميلين ،

وإن كان اجتماعُ أكثرِ الملامح شيوعًا يُسْفِرُ عن الجمال .

ومما تجب ملاحظتُه أننا لا نعالِجُ هنا ما نُحِبُّ لأنه نافعٌ لنا ، ولا ما نَكْرَه لأنه يَضُرُّنا ، فالذوقُ لا يتناول غيرَ أمورٍ خَلِيَّةٍ أو ذاتَ غَرَضٍ فى اللهو على الأكثر ، لا أموراً تتعلّقُ باحتياجاتنا ، أى إن الذوق ليس ضرورياً للحكم فى هذه ، فالتَّشَهِّى يَكْفِى ، وهذا ما يَجْعَل أحكامَ الذوقِ الصِّرْفةَ بالغةَ الصعوبة ، مراديةً جدًّا كما يَلُوح ، وذلك لأنك إذا عَدَوْت الغريزة التى تُعَيِّنُ الذوقَ عُدْتَ لا تَرَى أسبابَ هذه الأحكام ، وكذلك يجب أن يُفرَّق بين قوانينه فى الأمور الأدبية وقوانينه فى الأمور المادية ، ففى هذه يَظْهَرُ أن إيضاحَ مبادئ الذوق متعذِّرٌ على الإطلاق ، غيرَ أن من المهمِّ أن يلاحَظَ وجودُ عنصرٍ أدبيٍّ فى كلِّ ما ينطوى على تقليد[1] ، وهكذا يُفَسَّرُ الجمال الذى يكون ماديًّا ظاهراً ولا يكون كذلك حقيقةً ، وإلى هذا أُضيفُ وجودَ قواعدَ محليةٍ للذوق تَجْعَلُه فى ألفِ أمرٍ تابعاً للأقاليم والطبائع والحكومة وأمور النظام ، ووجودَ قواعدَ أخرى تتعلَّقُ بالعُمُر والجنس والسَّجِيَّة ، فبهذا المعنى لا ينبغى أن يجادَل حَولَ الأذواق .

والذوقُ أمرٌ طبيعىٌّ لدى جميع الناس ، ولكنه ليس على مقياسٍ واحدٍ عند كلِّ واحدٍ منهم ، وهو لا يَنْمُو فى الجميع على درجةٍ واحدة ، وهو فى الجميع عُرْضةٌ للفساد بعِلَلٍ مختلفة ، ويتوقف قياسُ ما يُمْكِنُ أن يكون من الذوق على درجة الإحساس الذى يُتَقَبَّل ، ويَتَوَقَّفُ تعهُّدُه وشكلُه على المجتمعات التى تتمُّ الحياةُ فيها ، وذلك : أولاً لا بُدَّ من العيش

(١) أثبت هذا فى « رسالة حول أصل اللغات » التى تجدها فى مجموعة مؤلفاتى .

فى مجتمعات كثيرة للقيام بكثير من المقارنات ، ثانياً لا بُدَّ من وجود مجتمعاتِ لهوٍ وفراغٍ كثيرة ، وذلك لأن القاعدةَ فى مجتمعات الأعمال هى المصلحةُ ، لا اللذة ، ثالثاً لا بُدَّ من وجودِ مجتمعاتٍ لا يكون التفاوت فيها كبيراً جدًّا ، ويكون استبدادُ الرأى العامِّ فيها معتدلاً ، وتَسُودُ الشهوةُ فيها أكثرَ من الزَّهْو ، وإلاَّ خنقت المُوضَةُ الذوقَ ، وصار يُبْحَثُ عما يَميزُ ، لا عما يَرُوقُ .

وفى هذه الحال الأخيرة عاد لا يُعَدُّ من الصحيح كَوْنُ الذوقِ الحَسَنِ ذوقَ أكبرِ عدد ، ولِمَ هذا ؟ ذلك لأن الغرَضَ يَتَغيَّرُ ، وهنالك يَعُودُ الجمهورُ غيرَ ذى رأىٍ خاصٍّ به ، وهنالك يَعُودُ الجمهورُ غيرَ تابعٍ لغير حُكْم مَنْ يَرَى أنهم أعظمُ بصيرةً منه ، فيستحسن ما يستحسنون ، لا ما هو حَسَنٌ ، واجْعَلُوا فى كلِّ وقتٍ لكلٍّ واحدٍ إحساسَه الخاصَّ ، فيصيرُ أكثرُ ما يَرُوقُ فى ذاته أكثرَ جَمْعًا للأصوات دائماً .

والناسُ فى أشغالهم لا يَصْنَعُون ما هو جميلٌ بغير التقليد ، وفى الطبيعة تَكُون جميعُ نَماذج الذوق الصحيحةِ ، وكلما ابتعدنا عن المعلِّم بَدَت ألواحُنا مُشَوَّهةً ، وهنالك نَسْتنبط نماذجَنا من الأشياء التى نُحِبُّ ، فيَعُودُ جمالُ الخيال ، الذى هو عُرْضةٌ للهوَى والنفوذ ، لا يكون غيرَ ما يَرُوق الذين يَقُودُوننا .

والمتفننون والكبراء والأغنياء هم الذين يقودوننا ، وصالحُ هؤلاء أو زهوُهم هو الذى يقودُهم ، ويَبْغِى هؤلاء عَرْضَ غِناهم ويَبْغِى الآخرون أن يستفيدوا منه ، فيَبْحَثُون عن وسائلَ جديدةٍ للإنفاق ، وبهذا يُقيمُ التَّرَفُ

الأكبر سلطانَه ويُحَبِّبُ ما هو صعبٌ غالٍ ، وهنالك يَبْعُدُ الجمالُ المزعوم من تقليد الطبيعة ، وهو لا يَكُون على ما هو عليه إلّا بمخالفتها ، ومن ثَمّ تَرَى كيف أن الترف والذوق الفاسد أمران لا يُمْكِنُ فصلُ أحدهما عن الآخر ، ويَكون الذوق فاسداً حيث يكون مُسْرِفاً .

وبِتَعَاشُر الجنسين على الخصوص يكتسب الذوقُ شكلَه ، سواءٌ أكان هذا الذوقُ حسناً أم سيئاً ، والواقعُ أن تَعَهُّدَ الذوق نتيجةٌ ضرورية لغرض هذا المجتمع ، ولكنْ إذا قَتَّرتْ سهولةُ التمتع حُبَّ الرَّوَقان فَسَدَ الذوقُ لا محالة ، وهذا ، كما يَلُوح لى ، من أكثر الأسباب المحسوسة فى كَوْنِ الذوقِ الحسَن ينشأ عن حُسْن الطباع .

واستشيروا ذَوْقَ النساء فى الأمور المادية التى تنشأ عن حكم الحواسّ ، واستشيروا ذوقَ الرجال فى الأمور الأدبية التى تَتَعَلَّقُ بقوة الإدراك ، فمتى صار النساء كما يَجِبُ أن يَكُنَّ عليه فاخَرْنَ بما يَقَعُ تحت اختصاصهن وكان حُكْمُهُنَّ حسناً دائماً ، ولكنهن عُدْنَ لا يَعْرِفْن شيئاً منذ انتَحَلْنَ صِفَةَ الحَكَم فى الآداب وأخَذْنَ يَحْكُمْنَ فى الكتب ويَضَعْنَ منها بما أُوتِينَ من قوة ، ويَكُون المؤلِّفون الذين يستشيرون العالِماتِ حَوْلَ مؤلَّفاتهم على ثقةٍ بسوء ما يُشَارُ به عليهم ، ويَكُون الظُّرَفاء الذين يستشيرونهن حَوْل زينتهم لابسين ثياباً تُثِيرُ السُّخْرية دائماً ، وستُتَاح لى ، عما قليلٍ ، فرصةُ الحديث عن مواهب هذا الجنس الحقيقية ، وعن وَجْهِ تَعَهُّدِها ، وعن الأمور التى يجب أن يُنْصَتَ فيها لأحكامهن .

وتلك هى الاعتبارات الأوَّلية التى أضَعُها كمبادئ حين برْهَنَتِى مع

إميلَ حَوْلَ مسئلةٍ ليست مما لا يُبَالِي به فى الحال التى هو فيها ، وفى الاستقصاء الذى يُشْغَل به ، وتجاهَ مَنْ تَكُون مسئلةً لا يُبَالَى بها ؟ لا تَكُون معرفةُ ما يُمْكِن أن يكون مقبولاً أو مكروهًا عند الناس أمراً ضروريًّا لدى من هو محتاج إليهم ، بل لدى من يُرِيدُ أن يكُون نافعًا لهم أيضاً ، حتى إن من المهمّ أن يَرُوقهم حتى يَخْدُمهم ، وليس من اللغو فنُّ الكتابة إذا ما استُعْمِلَ لحَمْلِ الناس على السماع للحقيقة .

وإذا ما وجب علىَّ أن أتعهد ذَوْقَ تلميذى فأختارَ بين البلاد التى لم يُولَدْ فيها هذا التعهد بَعْدُ ، والبلادِ التى فَسَدَ فيها ، فإننى أتَّبِعُ نظامَ الرجوع إلى الوراء ، وأبدأ بطوافه من هذه الأخيرة وأنتهى بالأولى ، وأسْتَنِدُ فى هذا الاختيار إلى أن الذوق يَفسُد برقّةٍ متناهية تَجْعَل بعضَ الأمور من الحسَّاسية ما لا يُدْركه الغِلاَظُ من الناس ، وتَسُوقُ هذه الرِّقةُ إلى روح الجدَل ، وذلك لأن الأمور كلما رُقِّقَتْ كَثُرَت فتَجْعَلُ هذه الرِّقةُ قوةَ الحسِّ أكثرَ لطافةً وأقلَّ تناسقاً ، وهنالك يتكوَّنُ من الأذواق ما هو بعدد الرؤوس ، ويتسع نطاقُ الجدَل حَوْل الأفضلية والفلسفة والمعارف ، وهكذا يُعَلَّمُ التفكير ، ولا يُمْكِن أن يقوم بالملاحظات الدقيقة غيرُ أناسٍ كثيرى الاختلاط بالمجتمع لوَقْفِ هذه الملاحظاتِ نظرَنا بعد غيرها ، ولأن من كان تعوُّدُهم للمجتمعات الكثيرة العدَد قليلاً يستنفدون انتباهَهم هنالك حَوْل أعظم الرسوم ، ومن المحتمل أنك لا تَجِدُ فى الدنيا مكاناً مُتَمَدْيِناً يكون الذوقُ العامُّ فيه أكثرَ فساداً مما بباريسَ ، ومع ذلك فإن الذوقَ الحسَن يُتَعَهَّدُ فى هذه العاصمة ، ولا يَظْهَرُ فى أوربة غيرُ كتبٍ مُقَدَّرةٍ

قليلةٍ لا يَكُون مؤلفوها قد تَخَرَّجوا فى باريس ، ومَنْ يَرَوْا أن يَكْتَفُوا بمطالعة الـكتب التى تُوضَعُ فيها يُخْدَعُوا ، فبحديث المؤلفين يُتَعَلَّمُ أكثرَ مما فى كتبهم ، وليس المؤلفون أنفسُهم أكثرَ مَنْ يُتَعَلَّمُ منهم ، وروحُ المجتمعات هو الذى يُنْمِى الرأسَ المُفَـكِّر ويَحْمِلُ البصرَ إلى أبعد ما يُمكِنُ أن يَمْتَدَّ ، وإذا كان لديكم شىءٌ من تَوَقُّد الذهن فاقضُوا سنةً بباريسَ حيث لا تَلْبَثُون أن تَـكُونوا كلَّ ما يُمْكِنُـكم أن تكونوا ، أو لا تَـكُونون شيئاً مطلقاً .

ويُمْـكِنُ أن يُتَعَلَّمَ التفكيرُ فى الأماكن التى يَسُودُها الذوقُ الفاسد ، ولكن لا يَجُوز أن يُفَـكَّر مِثْلَ تفكير هؤلاء الذين لديهم هذا الذوقُ الفاسد ، ومن الصعوبة ألَّا يَحْدُث هذا بعد البقاء معهم زمناً طويلًا ، ويجب أن تُـكْمَل آلةُ الحُـكْم بجهودهم ، وذلك باجتناب استعمالها مِثْلَهم ، وأحترزُ من صَقْل حُكْم إميلَ حتى درجةِ تشويهه ، ومتى كان لديه من الحِسِّ الرقيق ما يُحِسُّ به مختلفَ أذواقِ النـاس ويقارِنُ بينها فإننى آتى به ليُوَطِّدَ ذوقَه حَوْل الأمور البسيطة .

وأَبعدُ فى السَّيْرِ فأحْفَظُ له ذوقاً سليماً خالصاً ، وأَغتنمُ فرصـةَ هَرْج الطَّيْش فأَنْفَحُه بأحاديثَ نافعةٍ مُوَجَّهاً لها دائماً حَوْل أُمورٍ تَرُوقه ، جاعلًا لها ، مع الجهد ، مدارَ تسليةٍ له بمقدار ما هى مُمْتِعَةٌ ، وهذا دَوْرُ المطالعة والـكتب المقبولة ، وهذا دَوْرُ تعليمه تحليلَ الـكَلِم وجعلِه شاعراً بكلِّ ما فى البلاغة والإلقاء من جمال ، وليس من المهمِّ تَعَلُّمُ اللغـات لذاتها ، وليست مزاولتُها من الأهمية بالمقدار الذى يُظَنُّ ، بَيْدَ أن دراسةَ اللغات تؤدى إلى دراسة النحو العامِّ ، ويَجِبُ تَعَلُّم

اللاتينية لحُسْنِ معرفة الفرنسية ، ويَجِبُ تَعلم هذه وتلك والمقابلةُ بينهما لإدراك قواعد فنِّ الكلام .

ويُوجَدُ ، فضلًا عن ذلك ، بساطةٌ فى الذوق تَذْهَبُ إلى القلب ، ولا تُوجَدُ فى غير كتب القدماء ، وسيَجِدُها إميلُ فى البلاغة والشِّعر وكلِّ نوعٍ من الآداب زاخرةً بأمورٍ زاهدةً فى الحُكم كما فى التاريخ ، وعلى العكس يقول مؤلفونا قليلًا ويَنْطِقُون كثيراً ، وليس إعطاؤنا حُكْمَهم ، بلا انقطاعٍ ، مِثْلَ قانونٍ وسيلةَ تكوين حُكْمنا ، ويُشْعِرُ الفرقُ بين ذوقين بنفسه فى جميع الآثار ، حتى على القبور ، وتَرَى آثارَنا مستورةً بالمدائح ، ولا يُقْرَأ على آثار القدماء سوى الأفعال .

« قِفْ أيها المسافر ، فبَطَلٌ هو الذى تَدُوس » .

وإذا ما وَجَدْتُ القَبْرِيَّةَ على أثرٍ قديم ظَنَنْتُ أنها حديثةٌ أولَ وهلةٍ ، وذلك لأنه لاشيء أكثرُ شيوعاً من الأبطال بيننا ، غير أن الأبطال نادرون عند القدماء ، فالقدماء كانوا يقولون ما صَنَع الرجلُ ليكون بطلًا بدلًا من أن يقولوا إنه كان بطلاً ، وقابلوا بين قَبْرِيَّة هذا البطل وقَبْرِيَّة المُخَنَّث سَرْدَانابَال القائلةِ :

« أقَمْتُ طَرَسُوسَ وأنكيالة في يوم واحدٍ ، والآن أنا مَيِّتٌ » .

فأيُّ القَبْرِيَّتَيْن أكثرُ قَوْلًا على رأيكم ؟ ليس أسلوبُنا الرُّخاميُّ مع بَهْرَجه صالحاً لغير نَفْخ أقزامٍ ، وكان القدماء يُظْهِرُون الرجالَ كما هم ، فيُرَى أنهم رجالٌ حقًّا ، وقد بَجَّلَ إكْزِينُوفُونُ ذكرى بعضِ المجاهدين الذين قُتِلُوا غَدْراً فى أثناء ارتداد الآلاف العشرة ، فقال : « إنهم قُتِلوا

مُبَرَّئِين من العيب فى الحرب والمَوَدَّة » ، وهذا كلُّ ما قال ، ولكنْ رَوْا فى هذا الثناء المُوجَزِ البسيط مقدارَ ما كان فى المؤلِّف من قلبٍ عامر ، والوَيْلُ لمن لم يَجِدْ هذا فاتناً !

ووُجِدَت الكلماتُ الآتية منقوشةً على رُخامٍ فى التِّرْمُوپِيل ، وهى : « اذهَبْ ، أيها المارُّ ، وأخبِرْ إسپارطة بأننا قُتِلْنا هنا طائعين لقوانينها المُقَدَّسة » .

ومن الواضح أن هذا ليس من تأليف أكاديمية الخُطُوط .

وأكون مخطئاً إذا كان تلميذى ، الذى لا يُقِيم غيرَ قليلٍ وزنٍ للكلام ، لا يُعِيرُ انتباهَه الأول من هذه الفروق فلا تؤثِّرُ فى اختيار قراءاته ، وهو سينساق مع فصاحة دِيمُوسْتِن الرُّجُولية فيقول : « هذا خطيب » ، ولكنه إذا ما قرأ شِيشِرون قال : « هذا محامٍ » .

وعلى العموم سيتذوَّق إميلُ كتبَ القدماء أكثرَ من تذوُّقه كُتُبَنا ، وبما أن القدماء هم الأوَّلون فإنهم أقربُ إلى الطبيعة وإن عبقريتَهم أكثرُ بروزاً ، ومهما يكن من قَوْل لامُوتَ ورئيسِ الدير تِرَّاسونَ لا تَرَى تقدماً حقيقياً فى عقل النوع البشرىِّ ، وذلك لأن ما يُكْتَسَبُ من ناحيةٍ يُخْسَرُ من ناحيةٍ أخرى ، ولأن جميع الأذهان تَنْطَلِق من ذات النقطة دائماً ، ولأن الوقت ، الذى يُسْتَعْمَلُ لمعرفة ما فَكَّرَ فيه الآخرون ، إذْ يَضِيعُ على تَعَلُّم التفكير الذاتىِّ ، فإنها تَنالُ معارفُ كثيرةٌ وقلةُ نشاطٍ فى الذهن ، وتشابه أذهانُنا ذُرْعانَنا التى تُدَرَّبُ على صُنْع كلِّ شىء بالآلات ، والتى لا تَصْنَعُ كلَّ شىء بنفسها ، وكان فُونْتِنِلُ يقول إن هذا النزاعَ بين القدماء

والمعاصرين يُرَدُّ إلى معرفتنا هل الأشجارُ فى الماضى كانت أكبرَ منها فى الوقت الحاضر ، فلو كانت الزِّراعة قد تغيَّرَتْ ما عُدَّ هذا السؤال من الوقاحة .

وإنى ، بعد أن سِرْتُ بإميلَ إلى منابع الآداب الصافية ، أُطْلِعُه ، أيضاً ، على مجارى الأحواض فى المُصَنِّفِين المعاصرين ، وذلك من جرائدَ وتَرْجماتٍ ومَعَاجمَ ، فيُلْقِى نَظْرَةً على جميع هذا ، ثم يَتْرُكه لكيلا يعودَ إليه مطلقاً ، وأُسْمِعُه ثَرْثَرَةَ الأكادِيميات تسليةً له ، وأدُله على أن كلَّ واحدٍ ممن تتألف منهم أفضلُ بمفرده منه عُضْواً فى الهيئة ، وهنالك يستنبط بنفسه نتيجةَ فائدةِ جميع هذه المؤسَّسات الجميلة .

وآتى به إلى المسارح لدراسة الذوق ، لا الأخلاقِ ، وذلك لأن الذوق هنالك يَتَجَلَّى لمن يَعْرِفُون أن يتأمَّلُوا ، وأقُول له : دَعْ تعاليمَ الأخلاق جانباً ، فلا ينبغى تَعَلُّمُها هنا ، ولم يُصْنَعِ المَسْرَحُ للحقيقة ، بل صُنِعَ لمداراة الناس وتسليتهم ، ولا تَجِدُ مدرسةً يُتعَلَّمُ فيها جيداً فَنُّ رَوَقانِ الناس واستهواء القلب البشرىِّ كما يُتَعَلَّمُ هنالك ، وتؤدِّى دراسةُ التمثيل إلى دراسة الشعر ، ولكلٍّ من الدراستين عينُ الغَرَض تماماً ، وإذا كان لديه بصيصٌ من الذوق فى الشعر فبأىِّ لذةٍ سيُكِبُّ على لغات الشعراء : اليونانية واللاتينية والإيطالية ! وستكون له هذه الدِّراساتُ الْهُوَّاتِ بلا قَسْرٍ ، ولا تكون أقلَّ نَفْعاً من هذا ، وستكون لذيذةً له فى سِنٍّ وأحوالٍ يُعْنَى الفؤادُ البشرىُّ فيهما ، مع كثيرِ فُتُونٍ ، بجميع أنواع الجمال التى أُبْدِعتْ للتأثير فيه ، وتَمَثَّلُوا إمِيلَ من ناحيةٍ ، وتَمَثَّلُوا

طائشاً من المدرسة وهو يَقرأُ الإنْيذَ أو تِيبُولَ أو وليمةَ أفلاطون ، فيا لَلفَرْق ! وما أكثرَ ما يُهَزُّ به فؤاد إميل بما لا يُؤَثِّرُ به فى الآخر ! ويا أيها الفتى العزيز ! قِفْ ، اقْطَعْ قراءتك ، أراك هائجاً كثيراً ، أريد أن ترُوقَك لغةُ الغرام ، لا أن تُضِلَّك ، وكُنْ إنساناً حساساً ، ولكنْ كُنْ إنساناً حكيماً ، فإذا لم تكن غيرَ واحدٍ من الاثنين كُنْتَ عَدَماً ، ومع ذلك فإن من المهمِّ قليلاً أن يَتَوَفَّقَ ، أو لا يتوفَّقَ ، فى اللغات الميتة وفى الآداب والشِّعْر ، ولا ضَيْرَ عليه إذا كان لا يَعْرِف من ذلك شيئًا ، فلا تقوم تربيته على مثل هذه اللطائف مطلقًا .

ويَقُوم غَرَضى الرئيسُ ، إذْ أُعَلِّمُه أن يُحِسَّ الجمالَ ويُحِبَّه ، على تَرْكيز عواطفه وأذواقه ، وعلى عدم فساد شهواته الطبيعية ، وعلى عدم بَحْثِه فى ثَرَائه ، ذاتَ يوم ، عن وسائل سعادته التى يجب أن يَجِدَها أكثرَ قُرْباً إليه ، وقد قلتُ فى مكانٍ آخرَ إن الذَّوْقَ لم يكن غيرَ فنِّ الخبير فى الأمور الصغيرة ، وهذا صحيحٌ جدًّا ، ولكنْ بما أن لذة العيش تتوقفُ على نسيجٍ من الأمور الصغيرة فإن مِثْلَ هذه الجهود لا تكون شيئًا صغيراً ، ونحن بها نتعلَّمُ القيامَ بما يكون فى مُتَنَاوَلنا من صالح ، وذلك ضِمْنَ ما يُمْكن أن يكون لها فى نظرنا من حقيقةٍ كُلِّيَّة ، وهنا لا أَقْصِدُ صالحات الخُلُق التى تتعلق بحُسْن تَصَرُّف النفس ، وإنما أقْصِدُ ، فقط ، ما هو من الحِسِّيَّة والشهوة الحقيقية بمَعْزِلٍ عن المُبْتَسَرَات والرأى العامّ .

وليُؤْذَنْ لى ، لِحُسْنِ تفصيل رأيى ، أن أَدَعَ ، لوقتٍ قَصِيرٍ ، إميلَ الذى عاد قلبُه النقىُّ السليمُ لا يَصْلُحُ قاعدةً لأحد ، وأن أبحث فى نفسى

عن مثالٍ أكثرَ بُرُوزاً وأقربَ إلى طبائع القارئ .

ويُوجَدُ من المِهن ما يَلُوحُ تَبْدِيلُه للطبيعة وتغييرُه للرجال الذين يقومون بها ، ويَصِيرُ الجبانُ شجاعاً بدخوله فى كَتِيبَةٍ نَبَرَّة ، وليس فى الجيش وحدَه ما تُكْتَسَب العَصَبية ، وليس فى الخير وحدَه ما يُشْعَرُ بنتائجها دائماً ، وقد أبصرتُ مذعوراً مئةَ مرةٍ أننى لو كنتُ من الشقاء اليوم ما أقُومُ معه بمثل تلك الخدمة فى بعض البلدان لغَدَوْتُ فى الغَدِ تقريباً حتْماً طاغيةً سارقاً لبيت المال هادماً للشعب ضارًّا بالأمير عدوًّا محترفاً للإنسانية والإنصاف ولأنواع الفضيلة .

وكذلك لو كنتُ غنيًّا لفعلتُ كلَّ ما يجب لأصيرَه ، ولذا فإننى أكون عاتياً نذْلاً ، حسَّاسًا سريعَ الانفعال فى سبيل نفسى ، فاقدَ الرحمة قاسىَ القلب تجاه جميع الناس ، رقيباً مزدرياً لبؤس الأراذل ، وذلك لأننى لا أجِدُ اسمًا غيرَ هذا أطْلِقُه على المُعْسِرين لإنساء كونى من طبقتهم فيما مضى ، وأخيراً سأجْعَل من ثَرَائِي وسيلةً لمَلَاذِّى التى سأُعْنَى بها حصراً ، سائراً حتى ذلك على غِرَار غيرى .

ولكننى أعتقد اختلافى عنهم كلَّ الاختلاف فى أمرٍ واحد ، وذلك أننى سأكون حِسِّيًّا شهوانيًّا أكثرَ من أن أكون غِطْرِيسًا مغروراً ، وأننى سأكون منهمكاً فى تَرَف العيش أكثرَ مما فى تَرَف الفَخْر ، حتى إننى سأستَحى بعضَ الحياء من عَرْض ثَرَائى كثيراً ، مُتَمَثِّلًا دائمًا أننى أُبْصِرُ الحسودَ ، إذْ أسْحَقُه ببَذْخى ، يقول لجيرانه هَمْسًا : « هذا خبيثٌ يَخْشَى كثيراً ألَّا يُعْرَف هكذا » .

وسأبحث ، بين هذا الإسراف فى الأطايب التى تغمُر الأرضَ ، عن أكثرِ ما يكون مقبولًا عندى وأفضلِ ما أستطيع تملُّكه ، ولِذا سيكون شراء الفراغ والحرية أولَ ما ينفعُنى به ثرائى ، وإليهما أضيفُ الصحةَ إذا كان لها ثمنٌ ، ولكنْ بما أنها لا تُشترَى بغير الاعتدال ، وبما أنه لا تُوجَدُ لذةٌ حقيقيةٌ فى الحياة غيرُ الصحة ، فإننى أكون معتدلاً فى الحِسِّيَّة .

وسأبقَى بجانب الطبيعة دائمًا ما أمكن ، وذلك مصانعَةً للحواسِّ التى نِلتُها منها ، واثقًا بأنها كلما وَضعتْ نصيبًا منها فى مُتَعِى وَجَدْتُ نصيبًا من الحقيقة فى هذه المُتَع ، وسأتخذ الطبيعةَ نموذجًا دائمًا عند اختيار الأمور القائمة على التقليد ، وسأفَضِّلُ الطبيعةَ فى شَهَواتى وسأستشير الطبيعةَ فى أذواقى دائمًا ، وسأُريد من الأطعمة دائمًا أحسنَ ما تُعِدُّ وأقلَّ ما يَمُرُّ من الأيدى وصولاً إلى موائدنا ، وسأحُولُ دون مخادعاتِ الغِشِّ ، وسأذهب لملاقاة اللذة ، ولن يَغتنِىَ رئيسُ الخَدَم من نَهَمِى الطائش الغليظ ، ولن يَبيعَنى ، مطلقًا ، سُمًّا بثقله ذَهَبًا على أنه سَمَكٌ ، ولن تكون مائدتى مستورةً ، مطلقًا ، بأجهزةٍ من الأقذار والجِيَفِ آتيةٍ من بعيد ، وسأُنفِقُ مَشَقَّتى قضاءً لحسيتى ، ما دامتْ هذه المشقةُ ، إذْ ذاك ، لذةً بنفسها تَزِيدُ على ما يُنتَظَر ، وإذا أردتُ أكلَ طعامٍ يُؤتَى به من أقصى الدنيا ذَهبْتُ ، مِثلَ أپيسِيُوسَ ، للبحث عنه هنالك مُفَضِّلًا هذا على جَلْبِه من هنالك ، وذلك لأنه يُعوِز أفخرَ الأطعمة من التعليل ، دائمًا ، ما لا يُجلَب معها ، وما لا يستطيع أىُّ طاهٍ أن يَمنَحَها إياه ، فهواء الإقليم هو الذى أنتجها .

ولذاتِ السبب لن أُقَلِّدَ أولئك الذين لا يكونون فى حالٍ حسنٍ إلا حيث لا يكونون مطلقاً ، فيَجْعلُون بعضَ الفصول مناقضاً لبعض دائماً ، ويجعلون الأقاليمَ مناقضةً للفصول ، والذين يَبْحَثُون عن الشتاء فى الصيف ، وعن الصيف فى الشتاء ، فيذهبون إلى إيطالية طلباً للبرد وإلى الشمال طلباً للحرِّ ، غيرَ مُفَكِّرين فى أنهم حين يَرَوْن الفِرارَ من شِدَّة الفصول يَجِدُون هذه الشدةَ فى الأماكن التى لم يَتَعَلَّمْ اتقاؤها فيها قَطُّ ، وسأبقى حيث أنا ، أو إننى أَسْلُكُ السبيلَ المعاكس ، أى إننى أرغبُ فى استخلاصى من الفصل كلَّ ما فيه من لذة ، ومن الإقليم كلَّ ما فيه من خصائص ، وسيكون لدىَّ من تنوُّع الملاذِّ والعادات ما لا يتشابه مطلقاً ، مع وجوده فى الطبيعة دائماً ، فأذهبُ لقضاء الصيف فى نابْل ولقضاء الشتاء فى بُطْرُسْبُرْغ ، فأستنشقُ تارةً نسيماً لطيفاً وأنا نِصْفُ مُضْطَجعٍ فى مَغَاراتِ تارَنْتَ الرَّطيبةِ ، وأتمتعُ تارةً بنُورِ قصرٍ من جَمَدٍ وأنا ضَيِّقُ النفَس تَعِبٌ من ألطاف المَرْقَص .

وأُرِيدُ فى أدوات مائدتى وزينةِ منزلى أن أُقَلِّدَ تَنَوُّعَ الفصول بزخارفَ بالغةِ البساطة ، فأستَخْلِصَ من كلِّ فصلٍ جميعَ مُتَعِه غيرَ سابقٍ لِمُتَعِ الفصل الذى يَتْبَعُه ، وهكذا تُوجَدُ مشقةٌ ، لا ذَوْقٌ ، فى إقلاق نظام الطبيعة ، وفى انتزاع مُنْتَجَاتٍ غيرِ إرادية تُنعِمُ بها كَرْهاً ضِمْنَ لَعْنَتِها فلا تستطيع هذه المنتجاتُ تَغْذِيةَ المَعِدةِ ولا مصانعةَ الحلْق عن عدم وجود خاصِّيَّةٍ لها ولا طعم ، ولا شىءَ أتفهُ من البواكير ، وليس بغير نفقاتٍ كبيرة ما يستطيع الغنىُّ الفلانىُّ بباريسَ ، مع أفرانه ومِدْفَآته ،

أن يُحْضِرَ إلى مائدته فى جميع السنة خُضَراً سيئةً وفواكهَ رديئةً ، وإذا كنتُ حائزاً كَرَزاً أيامَ الجليد وشَمَّامًا عَنبرِيًّا فى وَسَط الشتاء فبأيةِ لذةٍ أذُوقُهما عندما يكون حَلْقِى غيرَ محتاجٍ إلى تَطْرِيَةٍ ولا إلى تَرْطيب؟ وهل تَطِيبُ لى الكستناء الثقيلة أيام الحرِّ الشديد ؟ وهل أُفَضِّلُها خارجةً من المَوْقِد على الكِشْمِش والتُّوت الفِرَنجىِّ والفواكه المُبَرِّدة التى تُقَدَّم إلىَّ فوقَ الأرض من غير جُهْدٍ كبير ؟ يَنطَوِى سَتْرُ الإنسان لمَوْقِده فى شهر يناير بنباتاتٍ مُتَصَنَّعَة وأزهارٍ مُصفَرَّةٍ خاليةٍ من الرائحة على عَطَلٍ من زينة الربيع أكثرَ مما تنطَوِى على تزيينٍ للشتاء ، أى إنه يَنطَوِى على حِرْمان الإنسان لذةَ الذهاب إلى الغاب للبحث عن البَنَفْسَجة الأولى وتَرَصُّدِ البُرْعُم الأول ، والهُتَافِ فى نَشْوَةٍ من البهجة بالكلمة : « أيها الناس ، إنكم لم تُتْرَكوا ، فلا تزال الطبيعةُ حَيَّةً » .

وسيكون عندى قليلٌ من الأُجَراء لأُخْدَمَ جيداً ، وهذا ما كان قد قِيلَ ، وهذا ما يَصْلُح قولُه أيضاً ، وينال ابنُ الطبقة الوسطى من أجيرِه الوحيدِ خدمةً حقيقيةً أكثرَ مما ينال الدُّوكُ بعشرةٍ من السادة يحيطون به ، ومما فَكَّرْتُ فيه مئةَ مرةٍ أننى ، حين وجودى حَوْلَ المائدة والقَدَحُ بجانبى ، أشْرَبُ عندما أُرِيدُ بَدَلًا من وجودى حَوْلَ مائدةٍ كبيرةٍ فيرتفع عشرون صوتاً لإحضار الشراب قبل أن أستطيع إطفاء عطشى ، فكلُّ ما يُصْنَعُ من أجْل الآخرين يُصْنَعُ سَيِّئاً كما يُتَّخَذُ ، ولِذَا فلا أُرسِلُ أحداً إلى الباعة ، بل أذْهَبُ بنفسى ، وذلك خشيةَ أن يَتَّفِقَ خَدَمى مع الباعة قبل أن يَتَّفِقُوا معى ، وذلك لأطمئن ، أيضاً ، إلى الاختيار وأَدْفَعَ

أقلَّ ما يُمكِن من الثمن ، وأذهبُ للقيام برياضةٍ لذيذة. ولأُشاهدَ بعضَ المشاهدة ما يَقَعُ خارجَ منزلى ، وهذا يُسَلِّى ، وهذا يُهَذِّبُ أحياناً ، وأخيراً أذهبُ للنزهة ، وهذا شىء يُذكَرُ دائماً ، ويبدأ السَّأمُ بالحياة الحضرية كثيراً ، ومتى كَثُرَت النزهةُ قَلَّ المَلَلُ ، ويُعَدُّ البَوَّابُ والخَدَم من أسوأ التراجمة ، فلا أُريدُ ، مطلقاً ، أن يكون هؤلاء الناسُ بينى وبين بقية الناس دائماً ، كما أننى لا أُريد أن أَسِيرَ دائماً مع قَرْقَعةِ عَرَبةٍ كما لو كُنْتُ أخافُ أن يُقْتَرَب منى ، وتكون خَيْلُ من يَنْتَفِعُ بساقيه مستعدةً دائماً ، فإذا ما تَعِبَتْ أو مَرِضتْ عَرَفَ هذا قبل غيره ، وهو لا يَخْشَى أن يُضْطَرَّ إلى التزام منزله متعلِّلًا بهذه الذريعة إذا ما أراد حُوذِيُّه أن يتنزَّه ، وما كان ألفُ عائقٍ فى الطريق ليستنفد صبرَه ، فلا يبقى فى مكانه حينما يريد أن يُغِذَّ فى السَّيْر ، وأخيراً إذا كان لا يُوجَدُ من يَنْفَعُنا جيداً كما نَنْفعُ أنفسنا وَجَبَ علينا ألَّا نتلقَّى من الآخرين خِدَماً غير ما لا نستطيع إنجازَه بأنفسنا ، ولو كنا أقوى من الإسكندر وأغنى من قارون .

ولا أَوَدُّ أن أكُون صاحبَ قصرٍ للإقامة ، وذلك لأننى لن أَسْكُنَ غيرَ غرفةٍ واحدة من هذا القصر ، وكلُّ غرفةٍ مشتركةٍ ليست لأحدٍ ، وتَكُون غرفةُ كلٍّ واحدٍ من خَدَمى غريبةً عنى كغرفة جارى ، ومع أن الشرقيين كثيرو الشهوة فإنهم بَسِيطُو السَّكَن والأثاث ، وهم يَعُدُّون الحياة سَفَرًا ومنزلهم فُنْدُقاً ، ومن القليل أن يتناول هذا السببُ أغنياءنا الذين يَقْصِدُون العيشَ مُخَلَّدين ، ولكن سيكون لدىَّ سببٌ آخرُ يؤدِّى إلى عين النتيجة ، فيلوح لى أن إقامتى بمكانٍ واحدٍ مع تلك الأبهة يَعْنِى

إقصائى عن جميع الأماكن الأخرى ، وحَبْسِى فى قصرى هكذا ، والعالَمَ قصرٌ جميلٌ بما فيه الكفاية ، أَوَليس كلُّ شىء للغنىِّ إذا ما أراد التمتع ؟ وشعارُ الغنىِّ هو « وطنُكَ حيث تكون بخير » ، وآلهةُ البيت عنده هى الأمكنة التى يَقدِرُ المال فيها على كلِّ شىء ، ويكون بلدُه كلَّ مكانٍ يُمكِن انتقالُ خزينته إليه ، شأنُ فيليبَ الذى كان يَعُدُّ من أملاكه كلَّ حِصْنٍ يُمكِن أن يَدْخُلَه بَغْلٌ مُحَمَّلٌ مالاً ، ولِمَ ذهابُ الإنسان ، إذَنْ ، ليَحْصُرَ نفسَه ضِمْنَ جُدْرانٍ وأبواب فلا يَخْرُجَ منها أبداً ؟ وإذا ما طَرَدنى وباء أو حربٌ أو تَمَرُّدٌ من مكانٍ ذهبتُ إلى آخرَ ووَجَدْتُ وصولَ فُنْدُقِى إليه قَبْلى ، ولِمَ أُعْنَى بإقامة منزلٍ لنفسى وقد أُقيمت لى منازلُ فى جميع العالَمَ ؟ ولِمَ أُعِدُّ لنفسى ، وأنا الذى يستعجل الحياةَ كثيراً ، مُتَعاً من بعيدٍ مع أنه يُمكِننى أن أجِدَها حيث أنا اليوم ، وما كان الإنسان ليستطيعَ أن يَجْعَل لنفسه مصيراً مقبولاً إذا ما عارضَ نفسَه بلا انقطاع ، وهكذا كان أبيذقليس يَلُوم الأغريجَنْتِيِّين على تكديسهم المَلاذَّ كأنه لم يَبْقَ لهم غيرُ يومٍ يَعيشُون فيه وعلى البناء كأنهم لا يَمُوتون أبداً .

ثُمَّ ما فائدتى من منزلٍ بالغِ الاتساع ما قَلَّ عندى من يَعْمُرُه وما كان أقلَّ من ذلك ما يَمْلَؤُه ؟ سيكون أثاثى بسيطاً بساطةَ أذواقى ، ولن يكون عندى رِواقٌ لعَرْض الصور ولا مكتبةٌ ، ولا سيما عند وَلَعى بالمطالعة ومعرفتى بالألواح ، لعِلْمِى هنالك أن مجموعاتٍ كهذه لا تكون كاملةً مطلقاً ، ولأن نَقْصَ ما يُعْوِزُها يُورِثُ غَمًّا أكثرَ من عدم حيازتها ، وبهذا يُسْفِرُ اليُسْرُ عن عُسْر ، ولا تَجِدُ صانعَ مجموعاتٍ لم يَشْعُرْ بهذا ، وإذا كنتَ

خبيراً فلا ينبغى لك أن تَضَع مجموعةً مطلقاً ، ولا ينبغى لك أن تُطْلِع الآخرين على مكتبك إذا كنتَ تَعرِف الانتفاعَ به لنفسك .

وليس القِمارُ أُلْهُوَّةَ الرجل الغنىِّ مطلقاً ، والقمارُ وسيلةُ البَطّال ، وتَمنَحُنى ملاذّى من الأعمال ما لا تَترُك لى معه وقتاً أسىء شَغْله بذلك المقدار ، وإذا كنتُ معتزِلاً فقيراً لم أَلْعَبْ قَطُّ ما لم يَكُنْ هذا لَعِبَ الشِّطْرَنْج ، وهذا يُوفى على الغاية ، وإذا كنتُ غنيًّا كان لَعِبِى أقلَّ من ذلك أيضًا ، وكان لَعِبِى صغيراً جدًّا ، وذلك لئلا أَرَى أحداً مُسْتاءً مطلقًا ، ولكيلا أَكُونَ ساخطًا ، وبما أن فائدةَ اللَّعِب يُعْوِزُها الباعثُ فى اليُسْر فإنها لا تتحول إلى غيظٍ ، مطلقًا ، فى غير نَفْس سيئة الوَضْع ، وما يستطيع الرجل الغنىُّ أن ينال من فوائدَ فى اللَّعِب يَكُون محسوسًا لديه ، دائمًا ، أقلَّ مما فى الخسارة ، وبما أن من شأن شكل الألعاب المعتدلة ، التى يُتَمَتَّعُ بفائدتها مع الزمن ، أن توجب خُسْراً أكثر من أن تُورِث كَسْبًا على العموم فإن من غير المُمْكِن ، عند حُسْن الانتباه ، أن يُولَعَ كثيراً بأُلْهُوَّةٍ تَقَع جميعُ أخطارها عليه ، ويُمْكِن الذى يُغَذِّى زَهْوَه بمُفَضَّلاتِ الطالع أن يَبْحَث عنها فى أكثر الأمور تأثيراً ، ولا تَتَبَيَّنُ هذه المُفَضَّلاتُ فى أصغر الألعاب أقلَّ مما فى أكبرها ، ولا يتناول ذَوْقُ القِمار ، الذى هو ثَمَرَةُ البُخْل والمَلَل ، غيرَ النفوس الفارغة والقلوب الخالية ، ويَلُوح لى أننى أَكُون من الشعور والمعارف الكافية ما أستغنى به عن مِثْلِ هذه التكملة ، ومن النادر أن يُسَرَّ المفكِّرون بالقمار الذى يُعَطِّل عادةَ التفكير ، أو يُحَوِّلها إلى تدابيرَ جَدِيبةٍ ، وكذلك فإن

إحدى المنافع التى نشأت عن تَذَوُّق العلوم ، ورُبَمَا كانت المنفعةَ الوحيدة ، هى أن تُضْعِفَ بعضَ الضعف ذلك الولعَ الدَّنِسَ ، والناسُ يفضلون كشفَ فائدةِ اللعب على تعاطيه ، وسأكافحه بين اللاعبين ، وسيكون سرورى بأن أسْخَرَ منهم إذْ أراهم يَخْسَرُون أعظمَ مما يكْسَبِ أموالهم منهم .

وسأكون على نَمَطٍ واحدٍ فى حياتى الخاصة وفى معاشرتى للناس ، وسأريد أن يَضَعَ نصيبى يُسْراً فى كلِّ مكان ، وألاَّ يُشْعِرَ بتفاوتٍ مطلقاً ، ويُعَدُّ بَرِيقُ الزينةِ الخادعُ ثقيلاً من ألفِ ناحية ، وأَوَدُّ ، للاحتفاظ بين الناس بكلٍّ ما يُمْكِنُ من الحرية ، أن أكُونَ من المَظْهَرِ ما أبْدُو به فى مكانى عند جميع الطبقات . فلا أُمَازُ فى أية واحدة منها ، فأستطيعُ أن أختلط ، من غير تَصَنُّعٍ أو تَغَيُّرٍ فى شخصى ، بالجُمهور فى الحانة أو بالطبقة العليا فى الپَالِهْ رَوَيَّال ، ومن ثَمَّ أجْعَلُ فى متناوَلى دائماً مَلاَذاً جميع الطبقات لِماَ أكون أكثرَ سيطرةً على سلوكى ، ويقال إنه يُوجَد من النساء من يُوصِدْن أبوابَهن دون أكمام القُمْصَان المُطَرَّزة فلا يستقبلن أحداً من غير مُخَرَّمات ، ولِذَا فإننى أذهب لقضاء يومى فى مكانٍ آخر ، ولكن إذا كان هؤلاء النِّسْوةُ من الفتَيات الغَوَانى أمكننى أن أَلْبَسَ فى بعض الأحيان من المُخَرَّمات ما أقْضِى معه هنالك ليلةً على الأكثر .

وستَقُوم العلاقةُ الوحيدة فى مُصَاحباتى على تبادل العواطف وتوافق الأخلاق ، وسأَلْزَمُها مِثْلَ رجلٍ ، لا مثل غنىٍّ ، ولن أُطيقَ تسميمَ فُتُونها بالمنفعة مطلقاً ، وإذا كان يُسْرِى قد تَرَكَ لى شيئاً من الإنسانية فإننى أُوَسِّعُ مَدَى خِدَمى وإحسانى إلى بعيد ، ولكننى أريد أن يَكُون

حولى مُجْتَمَعٌ لا بَلاطٌ ، وأصدقاء لا مُحْتَمُون ، ولن أكونَ حاميًا لضيوفى مطلقًا ، بل قارِيًا ، وسيَتْرُكُ الاستقلالُ والمساواةُ لصِلَاتى كلَّ سلامةِ نِيَّةٍ وحُسْن التفاتٍ ، وستَكُون المسرَّةُ والصداقةُ وحدَها قانونًا حيث لا يكون للواجب ولا المنفعة مكانٌ .

ولا يُشْتَرَى الصديقُ ولا الخليلةُ ، أَجَلْ ، إن من السهل حيازةَ نساء بالمال ، بيد أن المال وسيلةُ عدم كَوْن الواحد عاشقًا لأية واحدةٍ منهن ، ومع أن بَيْعَ الغرام أمرٌ مُسْتَبْعَد فإن المال يَقْتُلُه لا مَحَالَة ، ومن يَدْفَعُ مالًا لا يُحَبُّ لزمنٍ طويل بسببِ دَفْعِه ولو كان أحْرَى الناس بالحُبِّ ، وذلك أنه لا يَلْبَثُ أن يَدْفَعَ من أجْلِ آخر ، وإن شئتَ فَقُلْ إنه سيُدْفَعُ إلى هذا الآخرِ من ماله ، فتَكُون المرأةُ الطامعةُ الخائنةُ الخبيثة فى هذه العلاقة المضاعَفةِ التى نُسِجَتْ من المنفعة والدَّعارة والخاليةِ من الحُبِّ والشَّرَف واللذة الحقيقية ، تكُونُ هذه المرأةُ التى تعامَل من قِبَل النَّذْلِ المدفوعِ إليه مالٌ كما تعامِل الغبيَّ الدافعَ إليها مالاً بريئةَ الذمةِ نحو الاثنين على هذا الوجه ، ومن أَحْلَى الأمور أن يكون الإنسانُ نَدِيَّ الكفِّ تجاه من يحبُّ إذا لم يؤدِّ هذا إلى مساومة ، ولا أعْرِفُ غيرَ وسيلةٍ واحدة يرْوِى الرجلُ بها هذا المَيْلَ مع خليلته من غير أن يُسَمِّمَ الحُبَّ ، وهى أن يُعْطِيها كلَّ شىء ، ثم أن تَقُوم بأمور عيشه ، وقد بَقِيَ أن يُعْرَف أين تكون المرأةُ التى يَخْلُو اتخاذُ هذه الطريقة معها من هَوَس .

ومن قال : « إن لا ييسَ مُلْكِى من غير أن أكونَ مُلْكاً لها » كان قولُه هذا خالياً من المعنى ، فليست الحيازةُ غيرُ المتبادَلة شيئاً مذكوراً ، وذلك

فضلاً عن كونها حيازةَ جنسٍ ، لا حيازةَ فردٍ ، ولكن إذا كان أدبُ الحُبِّ غيرَ موجود فَلِمَ يُثَارُ ضجيجٌ حَوْل الباقى ؟ لا شيء أسهلُ من أن يُوجَد ، ويَكُون البَغَّالُ أقرب إلى السعادة من صاحب الملايين من هذه الناحية .

وَىْ ! لو أَمْكَن التوسُّعُ فى متناقِضات الفُسُوق بما يكفى لوُجِدَ ، عند بلوغِه غَرَضَه ، كثيرَ البُعْدِ من حسابه ! ولِمَ هـذا الجَشَعُ الوحشىُّ فى إفساد الطُّهْرِ ، وفى جَعْلِ ضحيةٍ من الشابِّ الذى تَجِبُ وقايتُه ، وفى هذه الخُطْوة الأولى التى تَجُرُّ ، لا مَحَالَةَ ، إلى هُوَّةٍ من البُؤْس لا يُخْرَج منها إلاَّ بالموت ؟ غِلْظَةٌ وغرورٌ وغباوةٌ وغَوَايةٌ ، ولا شئَ أكثرُ من هـذا ، حتى إن هذه اللذة ليست من الطبيعة ، وإنما هى من الرأى الدارج ، من هـذا الرأى الذى هو أسفلُ ما يَكون لقيامه على ازدراء النَّفْس ، ومَنْ يَشْعُرْ بأنه آخرُ الناس يَخْشَ مقارنتَه بغيره ، ويَرْغَبْ أن يَكُون الأولَ ليكونَ أقلَّ مقتاً عند الآخرين ، ورَوْا هل يكون أكثرُ الناس طمعاً فى هـذا المُشْتَهى الخيالىِّ من الشبان اللُّطَفَاء الذين هم أهلٌ لأن يَقَعُوا موقعَ الرِّضا فيُعْذَروا كثيراً إذا ما بَدَوْا مُسْتَعْصِين ، كَلاَّ ، فلا يَخْشَى الذى يكون وسيماً صاحباً لمزيةٍ وعواطفَ اختبارَ خليلته إلا قليلاً ، فهو يقول لها مطمئناً : « لستُ أبالى أن تَعْرِفى الملاذَّ ، ففؤادى يُخْبِرُنى عنكِ بأنكِ لم تَعْرِفيها قَطُّ » .

ولكنْ إليك شيخاً أسطوريًّا من شيوخ الغاب نَهَكَهُ الفُجُور وخَلاَ من الفُتُون والملاطفة والاعتبار ومن أنواع الحياء وصار عَيًّا غيرَ جديرٍ بأن يَرُوقَ

أية امرأةٍ تعاشر أهلَ الحُبِّ فيَرَى هذا الشيخُ أن يُعوِّض من هذا بفتاة طاهرة ، فيجعل المبادرةَ تَسْبِقُ التجربة ويُحَرِّكُ حواسَّها للمرة الأولى ، ويَقُومُ آخرُ أملٍ له على نَيْلِ الحُظْوة بالطُّرْفة ، أجَلْ إن هذا ينطوى على الباعث الخفيِّ لذاك الهوَى ، ولكنه مخطئ ، فما يأتي من رِجْسٍ ليس أقلَّ صدوراً عن الطبيعة من الميول التى يُرِيدُ تهييجها ، وهو مخطئ أيضاً فى أمله ، فالطبيعةُ عينُها تُعْنَى بادِّعاء حقوقها ، وذلك أن كلَّ فتاةٍ تَبيعُ نفسَها هى غيرُ بِكْرٍ منذ زمنٍ ، وذلك أنها إذْ تكون قد وَهَبَتْ نفسَها عن خِيارٍ تَكُون قد أتت ما يَخْشَى من مقارنةٍ ، ولِذَا فإنه يشترى لذةً خيالية ، يشترى لذةً ليست أقلَّ إثارةً للمقت .

وأما أنا فتُوجَدُ نقطةٌ لا أتغيَّر عندها مطلقاً مهما بلغتُ من الغِنَى ، وإذا لم يَبْقَ عندى خُلُقٌ ولا فضيلة بَقِيَ عندى شيء من الذوق والشعور والرِّقة على الأقلِّ ، وهذا يَقِينى من زَلَلِ إنفاق ثروتى على الأوهام واستنفاد كِيسى وحياتى حَمْلاً لأولادٍ على الاستهزاء بى وعلى خيانتى ، ولو كنتُ فَتًى لبحثت عن مَلَاذِّ الشباب ، وإنى ، إذ أطْلُبُها بكلِّ ما تنطوى عليه من شهوة ، لا أبحث عنها كرجلٍ غنيّ ، ولو بقيت كما أنا عليه الآن لكان الأمرُ شيئاً آخر ، أى لاقتصرتُ على ملاذِّ سِنِّى بحكمةٍ ، فأتَّخِذُ الأذواقَ التى أستطيع أن أتمتع بها وأخْنُقُ التى عادت لا تُورِثُنى غيرَ الغَمِّ ، ولن أعَرِّض لحيتى الرَّمادية لازدراء الفَتَيات مطلقاً ، ولن أطِيقَ ، مطلقاً ، أن أرى ملاطفاتى المستكرَهة التى تخْلَع منهن القلب ، وأن أُعِدَّ لهن ، على حسابى ، أدعى الأحاديث إلى الهُزْء ، وأن أتمثَّلهنَّ وهنَّ يَصِفْن ملاذَّ

القِرْد الأشْمَط ، كأنهن ينتقمن لأنفسهن من اصطبارهن عليه ، وإذا ما حوّلَتْ عاداتى التى أسىء كفاحُها سابقَ ميولى إلى احتياجاتٍ قضيتُ هذه الاحتياجات على ما يحتمل ، ولكن مع خجلٍ من نفسى ، وأُميزُ الهوَى من الاحتياج ، وأتوافَقُ ما أمكَنَنِى ، وأقتصرُ على ما اتفق لى ، فأعُودُ غيرَ مبالٍ بضعفى ، ولا أُريدُ أن يكون لى غيرُ شاهدٍ واحد على ذلك خاصةً ، وللحياةِ البشرية ملاذ أخرى إذا ما أعْوَزَتها تلك ، وإذا ما سَعَيْنا ، عَبَثًا ، وراء ما يَفِرُّ منها حُرِمنا ما بَقِىَ لنا منها ، فلْنُغَيِّرْ أذواقنا مع السنين ، ولا نحاولْ تبديلَ سِنّ بسِنّ أكثر من محاولتنا وَضْعَ فصلٍ مَوْضِعَ الفصول الأخرى ، وهكذا يجب أن نكون على ما نحن عليه فى جميع الأوقات وألا نكافح الطبيعة ، فمِثْلُ هذه الجهود تُبْلِى الحياة وتَحُولُ دون انتفاعنا بها .

ولا يَسْأَمُ الجمهورُ مطلقًا ، فحياتُه فاعلة ، وألْهُوّاتُه نادرةٌ وإن لم تكن مُنَوّعة ، وما يَقْضِى من أيامِ تعبٍ كثيرةٍ يُذِيقُه بضعةَ أيامِ عيدٍ مع النعيم ، وما يكون من تناوبٍ بين الأشغال الطويلة والعُطَل القصيرة يَقُوم مقامَ التعليل فى مَلَاذِّ طبقته ، ويُعَدُّ السَّأَمُ من أعظم المصائب التى يُصاب بها الأغنياء ، ويُضْنِيهم السَّأَمُ فى سواءِ كثيرٍ من الألْهُوّات التى تُنَظَّمُ بنفقات باهظة ، ويُضْنِيهم السأمُ بين كثير من الناس الذين يتسابقون إلى الوقوع عندهم موقعَ الرِّضا ، فيَقْتُلهم ، وهم يَقْضُون حياتهم فى الفِرار منه وفى الإصابة به ، وهم يُرْهَقُون بأثقاله التى لا تُطاق ، ويُفْتَرَسُ النساء ، اللائى عُدْنَ لا يَعْرِفْن اكتراثًا ولا لهوًا ، باسم الأبْخِرَة السَّوْداوية على الخصوص ، ويتحول

السَّأَمُ لدى النساء إلى مَرَضٍ هائل يَنْزِعُ عقولَهن ثم حياتَهن أحياناً ، وأما أنا فلا أَعْرِفُ مصيراً أفظعَ من مصيرِ الحسناء بباريسَ ، مصيرِ هذه الحسناء التى يُولَعُ بها فتًى لطيفٌ فيَغْدُو هذا الفتى مِثْلَ امرأةٍ فى البِطالة ويبتعد عن رُجُولته تماماً فيحتمل ، عن زهوٍ بأن يكون ذا نصيبٍ حسنٍ ، أسوأَ ما يَمُرُّ على مخلوقٍ من عُبُوسِ أَكْلَحِ الأيام .

وتشتمل اللِّيَاقاتُ والمُوضَاتُ ، وما يُشْتَقُّ من الترف وحُسْن الوَضْع من عادات ، على مجرى الحياة فى أَعْبَسِ ما يكون من اطِّرَاد ، وتُعَدُّ اللذة التى يُرادُ عَرْضُها على أعين الآخرين ضائعةً لدى جميع الناس ، فنحن لا نتمتع بها ، ولا نَجْعَل الآخرين يتمتعون بها(١) ، ويكون السُّخْرَةُ* ، الذى يَخَافُه الرأىُ العامُّ فى كلِّ أمرٍ ، بجانب الرأى العامِّ دائماً ليَجُورَ عليه ويجازِيَه ، ولا يكون الإنسانُ سُخْرَةً بغير أشكالٍ مُعَيَّنة ، ومن يَعْرِفْ تنويعَ أوضاعِه وملاذِّه يَمْحُ اليومَ تأثيرَ الغد ، أَجَلْ ، إنه يُسْتَرْذَل فى نفوس الناس ، ولكنه يَتَمَتَّعُ ، وذلك لأنه وَقْفٌ على كلِّ ساعةٍ وكلِّ أمرٍ ، وذاك هو طَوْرِى الثابت ، وفى كلِّ وضعٍ لا أبالى بأىِّ وَضْعٍ آخرَ كان ، وسأتخذُ كلَّ يومٍ على حِدَةٍ مستقلاً عن الأمس والغَد ، وبما أننى

(١) انتحلت اثنتان من السيدات العصريات دستوراً لهما بألا تذهبا إلى الفراش قبل الساعة الخامسة صباحاً للدلالة على أنهما التهتا كثيراً ، ويقضى خدمهما أشد أوقات الشتاء فى الشارع انتظاراً لهما ملاقين كل شدة لاتقاء الجمود ، ومما حدث ذات ليلة ، وإن شئت فقل ذات صباح ، أن وقع دخول المنزل الذى قضتا فيه لهواً كبيراً فتركتا الساعات تمر من غير حساب ، فوجدتا ، وحدهما ، نائمتين على مقعدين ذوى مساند .

* السخرة : من يسخر به .

أكون من الشعب ومع الشعب فإننى أكون رِيفِيًّا فى الحقول ، فإذا ما تكلمتُ عن الزراعة لم يَهْزَأ الفَلّاح بى ، ولن أذهب لبناء مدينةٍ لى فى الأرياف ولوَضْع قَصْرٍ كالتّويلْرِى أمام منزلى فى الإقليم ، وسيكون لى على مُنْحَدَرِ تلّ لطيفٍ ظَلِيلٍ منزلٌ حقلىٌّ صغيرٌ أبيضُ مع مصاريعَ خُضْرٍ ، ومع أن الفِماءَ* يَكُون أحسنَ ما يُمْكِن فى كلّ فصلٍ فإننى أُفَضِّلُ تفضيلاً بَهِيًّا أن يكون الغطاء من القِرْميد ، لا من الأَرْدُوَاز الكئيب ، وذلك لِماَ للقِرْميد ، الذى تُغَطَّى به منازلُ بلدى ، من منظرٍ أطهرَ وأبهرَ من الفِماَء ، ولِماَ يذكِّرُنى القِرْميدُ بشىء من دَوْرِ شبابى السعيد ، وستكون لى ساحةٌ كفِناء للدَّواجِن ، وسيكون لى إصطبلٌ كمُرَاحٍ للبقر ، نَيْلًا للألبان التى أُحِبُّ كثيراً ، وسأكون صاحباً لمَبْقَلة ، وصاحباً لحديقة مشابهة للتى سأتكلم عنها فيما بعد ، وستكون الفواكه تحت تصرف المتنزهين فلا تُعَدُّ ولا تُقْتَطَفُ من قِبَل بستانىّ ، وما يَشُوب كَرَمى من ضَنٍّ لا يَعْرِضُ على العيون ، مطلقاً ، صُفُوفَ أشجارِ الفواكهِ الرائعةَ المُسْنَدَةَ إلى الحيطان والتى لا يكاد يَجْرُؤُ أحدٌ على مَسِّها ، والواقعُ أن هذا التبذيرَ الضئيلَ يكون غالياً قليلًا ، وذلك لاختيار مَأْوَاىَ فى إقليمٍ بعيدٍ يُرَى فيه قليلُ مالٍ وكثيرُ غِلَالٍ ويَسُوده الوَفْرُ والفقْر.

وهنالك أَجْمَعُ حَوْلى عُصْبَةً مختارةً أكثرَ منها وافرةً ، أَجْمَعُ عُصْبةً مؤلَّفةً من أصدقاءَ محبين للتَّسْرِية عارفين بها ، ومن نساء يَسْتَطِعْن مغادرةَ مقاعدِهن ذاتِ المَسَاند ، وتعاطىَ الألعابِ الريفية ، وتناولَ الصِّنَّارةِ

* الفماء : ما فوق سقف البيت من التراب وغيره .

والدِّبْقِ ومِشْطِ جامعى القُشَاش وسَلَّةِ قاطفى العِنَب أحياناً بدلاً من المَكُوك وورق اللعب ، وهنالك تُنْسَى مظاهرُ المُدُن كلُّها ، فنَصِيرُ قَرَويين فى القرية ونَجِدُ أنفسنا مُوكَلِين إلى طائفةٍ من مختلف الأُلْهُوَّات التى لا تَحْبُونا فى كلِّ مساء بغير همِّ الاختيار للغَد ، ويَجْعَلُ لنا التمرين والحياةُ الفَعَّالة مَعِدَةً جديدة وأذواقاً جديدة ، وتكون جميعُ وَجَبَاتِنا ولائمَ حيث يَرُوق الوَفْرُ أكثرَ من اللطافة ، ويَكُون الجَذَلُ والأشغالُ الريفية والألعابُ المَرِحة طُهَاةَ العالَمَ الأولين ، وتكون الأطعمة الفاخرة مثيرةً للسخرية عند من يَكُدُّون منذ طلوع الشمس ، ولا يكون لطعامنا نظامٌ أكثرَ من أن تكون له نفاسةٌ ، وستكون غرفةُ طعامنا فى كلِّ مكان ، فتكون فى الحديقة أو فى السفينة أو تحت شجرةٍ ، كما تكون أحياناً فى مكان بعيد بالقرب من يَنْبُوعٍ وعلى الكلأ الأخضر الرطيب وتحت باقات الحَوَر وشجر البُنْدُق ، ويَحْمِل مَوْكِبٌ طويل من المَدْعُوِّين المَرِحين أُهْبَةَ الوليمة مع الغِناء ، ويُتَّخَذُ العُشْب مائدةً ومَقْعداً ، وتُسْتَعْمَل أطرافُ الحَوْض مَقْصَفاً ، ويَتَدَلَّى نَقْلُنا من الشجر ، وتُقَدَّم الأطعمة بلا نظام وتُغْنِي شهوةُ الطعام عن المجاملات ، ويُفَضِّلُ كلُّ واحدٍ نفسَه على غيره جَهْرًا فيَجِدُ من الحَسَن أن يَسِيرَ كلُّ واحدٍ على غِراره فيُفَضِّل نفسَه عليه بدَوْره ، فعن هذه الأُلفةِ القلبية المعتدلة ينشأ ، بلا غِلْظَةٍ ولا رِئاء ولا قَسْرٍ ، اختلافٌ ضاحكٌ أكثرُ فُتُوناً من المجاملة مئةَ مرةٍ وأصلحُ منها لتأليف ما بين القلوب ، ولا تَرَى هناك خادماً مزعجاً يَرْقُبُ كلامنا ، وينتقد أوضاعَنا مُخَافِتاً ، ويَعُدُّ لُقَمنا بعينٍ تَنِمُّ على الشَّرَه ويَتَلَهَّى بحَمْلِنا على

انتظار الشراب ، ويتذمر من طُول الغَداء ، وسنكون خَدَمَ أنفسنا لنكونَ سادةَ أنفسنا ، وسيُخْدَم كلُّ واحدٍ من قِبَل الجميع ، ويَمْضِي الوقت من غير أن يُعَدَّ ، وتكون الوليمةُ راحةً ، وتَدُوم ما دام حَرُّ النهار ، وإذا ما مَرَّ قريباً منا فَلَّاحٌ ما عائداً إلى العمل حاملاً آلاتهِ على كتفه سَرَّيْتُ عن فؤاده بكلامٍ طَيِّب وبقَدَحٍ أو قدحين من الخمر الفاخرة ، أى بأشياء تجعَلُه يَصْبِرُ على بؤسه مسروراً ، وستكون لى مَسَرَّةٌ ، أيضاً ، بأن أحِسَّ اهتزازَ فؤادى وأن أقولَ فى نفسى سِرًّا : « وأنا رجلٌ أيضاً » .

وإذا حَدَث أن أوجب احتفالٌ حقلىٌّ اجتماعَ أهل الناحية كنتُ مع عُصْبتى فى المُقَدَّمة ، وإذا ما احْتُفِلَ بزواجاتٍ فى جوارنا ، يُبَارِكها الرَّبُّ أكثرَ مما يبارك زواجاتِ المُدُن ، عُرِف أننى أُحبُّ الفَرَح ودُعِيتُ ، فأحمِلُ إلى هؤلاء القوم الصالحين بعضَ الهدايا البسيطةِ مِثْلَهم ، والتى تساعد على الفَرَح فأجِدُ فى مقابلها من المحاسن ما لا يُقَدَّر بثمنٍ ، أجِدُ من المحاسن التى تَقِلُّ معرفةُ أمثالى لها ، أى أجِدُ الصراحةَ والسرور الحقيقىَّ ، وأتناول عَشَائى فى طرف مائدتهم الطويلة مسروراً ، وأشترك فى ترديد إحدى الأغانى الريفية ، وأرقُصُ فى نِبْرِهم* أطيبَ خاطراً مما أَصْنَعُ لو كنتُ فى مَرْقَصِ الأُبِرَا .

وسيُقَال لى : « إن كلَّ شىءٍ يسير سيراً حسناً حتى الآن ، ولكنْ ما أمْرُ الصيد ؟ وهل على الإنسان أن يتعاطاه فى الأرياف ؟ » ، وأسْمَعُ ، وقد كنتُ لا أُريد غيرَ مَزْرعة ، وقد كنت مخطئاً ، وأفترضُ نفسى غنيًّا ،

* النبر : بيت التاجر الذى تنضد فيه الغلال والمتاع .

ولا بُدَّ لى ، إذَنْ ، من مَلاذٍ حَصْراً ، من مَلاذٍ مُدَمَّرة ، وهذا أمرٌ آخرُ تمامًا ، ولا بُدَّ لى من أرَضين ومن غاباتٍ ومن حَرَسٍ وإجارات ومن حقوق إقطاعية ، ومن لُبَانٍ وماء مُقَدَّس .

حَسَنٌ جِدًّا ، ولـكن سيكون لهذه الأرض مجاورون حريصون على حقوقهم راغبون فى اغتصاب حقوق الآخرين ، وسيتشاجر خُفراؤنا ، ورُبما السادة ، وإليك منازعاتٍ ومخاصماتٍ وأحقاداً ، وقضايا على الأقلّ ، وليس هذا مستحَبًّا كثيراً ، وليس مما يَسُرُّ المستأجرين منى أن يَرَوْا أرانبى كادِحةً فى بُرِّهم ، وأن يَرَوْا خنازيرى جادَّةً فى فُولِهم ، وبما أن كلَّ واحدٍ لا يَجْرُؤ على قتل عدوِّه الذى يقضى على عمله فإنه يريد طردَه من حقله ، فهم بعد أن يَقضُوا النهار فى زراعة أرَضِيهم لا بُدَّ لهم من قضاء الليل فى حراستها ، وستكون عندهم كلابُ حراسةٍ وطُبُولٌ وأبواقٌ وأجراس ، وهم بهذا الضجيج يزعجوننى فى نومى ، وأُفَـكِّرُ فى بؤس هؤلاء الفقراء على الرغم منى ، ولا أستطيع أن أمنع نفسى من لَوْمِها على ذلك ، ولو شُرِّفتُ بأن أكون أميرًا ما أثَّرَ ذلك فىَّ مطلقاً ، وأما أنا الحديثُ النعمةِ الحديثُ الغِنَى فلا أزال أحْمِل قلباً عامياً نوعاً ما .

وليس هذا كلَّ ما فى الأمر ، فـكثرةُ الصَّيْد تُغرِى الصائدين ، وسيكون لدىَّ ، عما قريب ، صائدون فى أرَضى الآخرين بلا إذنٍ للعِقاب ، وسأحتاج إلى سجونٍ وسَجَّانين وقَوَّاسين ومحكومٍ عليهم بالأشغال الشاقة ، ويَلوحُ لى جميعُ هذا قاسياً ، وسيأتى نساء هؤلاء التعساء لحصار بابى وإزعاجى بصُراخهنّ ، فيجب أن يُطْرَدْن أو أن يُهَنَّ ، وسيأتى المساكينُ

الذين لا يصطادون فى أرض الآخرين بدون إذنٍ ، والذين تَرُودُ طريدتى حَصادَهم ، للشَّكْوَى من ناحيتهم ، فيجازَى بعضهم لقتلهم الطريدة ، ويفتقر الآخرون لأنهم تَرَفَّقُوا بها ، ويا له من تناوب كئيب ! ولن أرى من كلِّ ناحية غيرَ أُمورِ بؤسٍ ، ولن أَسْمَع سوى الحَسرات ، ويَظْهَرُ لى أن هذا يُكَدِّر كثيرًا لذةَ ذبح جماعات الحَجَل والأرانب تحت الأرجل، تقريباً ، بلا انزعاج .

وإذا أردتم أن تكُون المَلاَذُّ خاليةً من الألم فلا تحتكروها ، وكلما تركتموها شائعةً بين الناس ذُقْتُمُوها خالصةً دائماً ، ولا أَصْنَعُ مطلقاً ، إذَنْ ، كلَّ ما قلتُ ، ولكننى ، من غيرِ تغييرٍ للأذواق ، أَتَّبِعُ ما أفترضه منها أقلَّ نفقةً ، وسأُقيم منزلى فى بلدٍ يكون الصيد فيه مباحاً لجميع الناس وحيث أستطيع أن أتلهَّى بلا عائق ، أَجَلْ ، ستكون الطرائدُ أكثرَ نُدْرَةً ، ولكنه سيكون هنالك أعظمُ حِذْقٍ فى البحث عنها ، وأكبرُ لذةٍ فى نَيْلِها ، وأَذْكُرُ دَقَّاتِ قلب والدى عند طَيَران أولِ حَجَلٍ ، ومقدارَ ما ساوَرَه من فَرَحٍ حين وَجَدَ الأرنبَ الذى طلبه فى نهاره كلِّه ، نَعَمْ ، إننى أُصَرِّح بأنه عاد وحدَه مساءً مع كلبه حاملاً بندقيتَه وقذائفَه وجِرابَه وصيدَه الصغيرَ مَنْهُوكًا تَعَباً ومُمَزَّقاً بالعَوْسَج وراضياً عن يومه أكثرَ من جميع صَيَّاديكم المعتادين الذين لا يَفْعَلُون ، وهم راكبون خيلاً أصيلةً ومُتَّبَعُون بعشرين بندقيةً مُعَدَّةً ، غيرَ تناولِ البندقية بعد البندقية مُطْلِقين القذائف ، فيَقْتُلون ما حولهم بلا فَنٍّ ولا فخرٍ ، وبلا ممارسة تقريباً ، ولذا فلا تكون اللذة أقلَّ حدوثاً ، ويزول المحذور عند عدم وجود أرضٍ تُحْرَسُ وعدمِ

وجودِ صائدٍ فى أرض غيره يجازَى ، وعدمِ وجودِ بائسٍ يُؤْذَى ، وهذا سببٌ قوىٌّ فى التفضيل ، ومهما تَفْعَلُوا فإنكم لا تستطيعون أن تُؤْذُوا إلى الأبد أناساً من غير أن تُعَانُوا اضطراباً ، وما يُصَبُّ من لَعَنات الشعب يَجْعَلُ الطريدةَ مُرَّةً عاجلاً أو آجلاً .

وقُلْ ، فضلاً عما تقدم ، إن احتكار اللذات يَقْتُل اللذات ، وتقوم الأُلْهُوّات الحقيقية على مشاطرة الشعب إياها ، ومَنْ يُرِدْ حيازةَ لَذَّاتٍ لنفسه وحدَها يَعُدْ غيرَ حائزٍ لها ، وإذا كانت الجُدُر التى أُقِيمُ حَوْل حديقتى تَجْعَلُ لى من هذه الحديقة حبساً كئيباً فإننى لا أكون قد صنعتُ غيرَ نَزْعِي من نفسى لذةَ النُّزْهة بنفقات كبيرة ، ولِذَا تَرَانِي مضطرًّا إلى البحث عنها فى مكان بعيد ، ويُفْسِدُ شيطانُ التملك كلَّ ما يَمَسُّه ، ويريد الغنىُّ أن يكون سيداً فى كلِّ مكان ، وهو لا يَجِدُ نفسَه على خيرٍ إلّا حيث لا يكون سيداً ، وهو يُضْطَرُّ إلى الفِرار من نفسه دائماً ، ولِذَا فإننى أَصْنَعُ فى غِنَاى ما أَصْنَعُ فى فقرى ، والآن إذْ أكون أكثرَ غِنًى بمال الآخرين مما بمالى فإننى أَقْبِضُ على كلِّ ما يلائمنى فى جوارى ، ولا يُوجَدُ غازٍ أكثرَ منى عَزْمًا ، حتى إننى أغتصبُ من الأمراء أنفسِهم ، فأستولى على جميع الأَرَضين المكشوفة التى تَرُوقُنى بلا تفريق ، وأُطْلِقُ أسماء عليها ، وأَجْعَلُ من إحداها حديقتى وأَجْعَلُ من الأخرى شُرْفتى ، وأكون صاحباً لهذه وتلك ، فأَتَنَزَّه هناك بلا عِقاب ، وأعود إلى هناك غالباً حفظاً لتصرفى ، وأنتفعُ بالأرض ما أردتُ بقوة السَّيْر فيها ، ولن أُقْنِعَ نفسى بأن الصاحبَ الاسمىَّ للأرض التى أنتَحِلُها ينتفع بالمال الذى يناله منها أكثرَ

من انتفاعى بها ، وليس من المهمّ أن أُغاظَ بخنادقَ وسياجاتٍ ، فسآخُذُ حديقتى على كَتِفِيّ ، وأضَعُها فى مكانٍ آخرَ ، فليست الأمكنةُ قليلةً فى الجِوار ، وسيَمْضِى وقتٌ طويلٌ على سَلْبِى لجيرانى قبل أن يُعْوِزَنى الملجأ .

وهذه محاولةٌ للذوق الصحيح فى اختيار العُطَل المستحبَّة ، وهذه هى روح المَرَح ، وكلُّ ما عداها وهمٌ وخيالٌ وزَهْوُ حماقةٍ ، ومن يبتعدْ عن هذه القواعد يأكُلْ ذَهَبَه على دِمْنَة مهما كان غِنـــاه ، ولا يَعْرِفْ قيمةَ الحياة مطلقاً .

ومما يُرَدُّ به علىَّ ، لا رَيْبَ ، كَوْنُ هذه الأُلْهُوَّاتِ فى متناوَل جميع الناس ، وأنه ليس من الضرورىّ أن يكون الإنسانُ غنيًّا ليتمتع بها ، وهذا ما أردتُ الوصولَ إليه ضبطاً ، فالإنسانُ يَفُوز باللذة إذا ما أرادَ حيازتَها ، وسَبْقُ الرأى وحدَه هو الذى يَجْعَلُ كلَّ شىء صعباً ، وهو الذى يَطْرُد السعادةَ أمامنا ، وكَوْنُ الإنسان سعيداً أسهلُ مئةَ مرةٍ من ظهوره هكذا ، وذلك أنه لا حاجةَ لرجل الذوق ، واللذةِ حقًّا ، بالغِنَى ، فيكفيه أن يكون حُرًّا سيداً لنفسه ، ومَنْ يَتَمَتَّعْ بالصحة ولا يُعْوِزْه الحاجِىُّ يُعَدُّ على شىء من الغِنَى إذا ما نَزَع من قلبه زادَ سَبْقِ الرأى ، وهذا هو كَفافُ هُوراسَ الميمونُ ، فيا أصحابَ صناديق المال ، ابْحَثُوا عن توظيفٍ آخرَ لثروتكم إذَنْ ، فالثَّراء لا يَصْلُح لشىء فى حَقْل اللذة ، ولن يَعْرِف إميلُ جميعَ هذا أحسنَ مما أعْرِف ، ولـكن بما أنه ذو قلبٍ أكثرَ صفاءً وسلامةً فإنه يكون أحسنَ شعوراً بذاك ، ولا تؤدى جميعُ ملاحظاته فى العالم إلى غير توكيد ذلك .

وبينما نقضي وقتنا هكذا نَبْحَثُ عن صُوفيَة دائماً ، وذلك من غير أن نَجِدَها مطلقاً ، ومن المهمِّ كَوْنُها لم تُوجَدْ بسرعة ، وقد طلبناها فى مكانٍ كنتُ واثقاً بأنها لم تكن فيه(١) .

وأخيراً يُلِحُّ الوقتُ ، وقد حَلَّ وقتُ البحث عنها بجِدٍّ ، وذلك خشيةَ أن يتَّخِذَ إميلُ امرأةً أخرى بدلاً منها فلا يَعْرِفَ خطأه إلا بعد الأوان ، فوَدَاعاً ، إذَنْ ، يا باريسُ ، هذه المدينةَ المشهورةَ ، هذه المدينة ذاتَ الضوضاء والدُّخَان والوَحَل حيث عادَ النساء لا يُؤمِنَّ بالشرف وبالرجل الصالح ، وَدَاعاً يا باريسُ ، فنحن نَبْحَثُ عن الُحبِّ والسعادة والعفاف ، ولن نكون بعيدين منكِ بما فيه الكفايةُ مطلقاً .

(١) ومن يجد المرأة الفاضلة ؟ هى بعيدة ، فإذا ما أتت من أقصى الدنيا كانت موضع تقدير.

الجزء الخامس

ها نحن أولاء قد وَصَلْنا إلى الفصل الأخير من الفتَاء، ولكننا لم نَبْلغ الخاتمة بعدُ .

وليس من الحَسَن أن يكون الرجلُ وحيداً ، وإميلُ رجلٌ ، وكنا قد وعدناه برفيقة ، فيجب إعطاؤه إياها ، وهذه الرفيقة هى صُوفْية ، وأين مأواها ؟ وأين نجِدُها ؟ يَجِبُ أن تُعْرَف لتُوجَـد ، ولنَعْرِفْ من هى أوّلاً ، ثم نَكُون أحسنَ حكماً فى الأماكن التى تَسْكُن ، ولا يكون عملنا قد انتهى بالعثور عليها ، وقد قال لُوك : « بما أن فتانا الماجد أوشك أن يتزوج فقد أَنَى وقت تَرْكه بجانب خليلته » ، فبهذه الكلمات يُتِمُّ كتابَه ، وأما أنا الذى لم يَكُنْ لى شرفُ تَنْشِئَةِ ماجـدٍ فإننى أحترزُ من اتبِّاَع لُوكَ فى ذلك .

صُوفْيَـة أو المرأة

يجب أن تكون صُوفية امرأةً كما أن إميلَ رجلٌ ، أى يجب أن تكون حائزةً جميعَ ما يلائم بُنْيَةَ نوعها وجنسها للقيام بدَوْرِها فى النظام المادىِّ والأدبىِّ ، ولْنَبْدَأْ ، إذَنْ ، بفحص ما بين جنسنا وجنسها من تشابهٍ واختلاف .

وإذا عَدَوْتَ كلَّ ما لا يتعلَّقُ بالجنس وَجَدْتَ المرأةَ رجلاً ، فلها عيْنُ الأعضاء وعينُ الاحتياجات وعينُ الخصائص ، فالآلةُ أُلِّفَتْ على ذات الطِّراز ، وقِطَعُها هى هى ، وعَمَلُ إحداها هو عملُ الأخرى ، وتتشابهُ الهيئة ، ومهما

يكن الوجه الذى تَنْظُرُ به إليها فإنها لا تختلف فيما بينها إلا بمقدار .

وترى للمرأة والرجل فى كلٍّ ما يتعلق بالجنس علاقاتٍ فى كلٍّ مكان واختلافاتٍ فى كلٍّ مكان ، وتنشأ صعوبة المقابلة بينهما عن تعييننا فى بِنْيَةِ كلٍّ منهما ما هو خاصٌّ بالجنس وما هو غيرُ خاصٍّ به ، ويَدُلُّ علمُ التشريح المقارَن ، حتى المشاهدةُ وحدَها تَدُلُّ ، على وجود فروقٍ عامة بينهما تَظْهَرُ غيرَ خاصةٍ بالجنس مطلقاً ، وهى خاصةٌ به مع ذلك ، ولكنْ بصِلاتٍ لا تَدْخُل ضِمْنَ نِطَاق انتباهنا ، ونحن لا نَعرِف المدى الذى يُمْكِنُ أن تمتدَّ إليه هذه الصِّلات ، والأمرُ الوحيد الذى نَعْلَمُه عِلْمَ اليقين هو أن كلَّ ما هو مشتركٌ بينهما هو من النوع ، وأن كلَّ ما هو مختلف بينهما هو من الجنس ، ونَرَى ، بعد النظر إلى وِجْهَةِ النظر المزدوجة هذه ، أنه يُوجَدُ بينهما من المطابقات والاختلافات ما يكون من عجائب الطبيعة معه أن تستطيع صُنْعَ موجودَيْن بالِغَيِ التشابه بتكوينهما مختلفين بهذا المقدار .

ولا بُدَّ من تأثير هذه العلاقات والاختلافات فى الأخلاق ، وهذه النتيجةُ واضحةٌ موافقةٌ للتجربة ، وهى تدلُّ على بُطْلِ المجادلات حَوْلَ تَفْضِيل أحد الجنسين أو المساواة بينهما ، وذلك كما لو كان كلٌّ من الجنسين يَسِيرُ نحو غايات الطبيعة وفْقَ مصيره الخاصِّ فلا يكون أكثرَ كمالًا فى هذا إلَّا إذا كان أكثرَ مشابهةً للآخر ! وهما يتساويان فيما هو مشتركٌ بينهما ، وهما لا يقارَن بينهما فيما يختلفان فيه ، ولا ينبغى للمرأة الكاملة والرجل الكامل أن يتشابها روحاً أكثرَ من أن يتشابها وجهاً ، ولا يَقْبَلُ الكمالُ زيادةً ولا نقصاناً فى ذلك .

وكلٌّ من الجنسين يساعِدُ ، باقترانهما ، على الغَرَض المشترك متساوياً ،

ولكن ليس على طراز واحد، ويَنْشَأ عن هذا التنوع أولُ اختلافٍ يُمكن تعيينُه في العلائق الأدبية بين الجنسين، فيجب أن يكون أحدُهما فاعلاً قويًّا وأن يكون الآخرُ منفعلاً ضعيفاً، ويجب أن يُريدَ أحدُهما ويَقدِرَ بحكم الضرورة، ويَكْفِي أن يقاوِم الآخرُ قليلاً.

ويُسْفِرُ تقريرُ هذا المبدأ عن كون المرأة خُلِقَتْ لتَرُوقَ الرجلَ، وإذا ما وَجَبَ أن يَرُوقَها الرجلُ بدَوْرِه فذاك عن ضرورةٍ أقلَّ مباشرةً، فمزيةُ الرجل في قدرته، وهو يَرُوقُ لأنه قويٌّ فقط، أَجَلْ، ليس هنا قانونُ الحبِّ، وأُوافقُ على هذا، وإنما هذا قانونُ الطبيعة السابقُ للحُبِّ نفسه.

وإذا كانت المرأةُ قد خُلِقَتْ لتقَعَ مَوْقِعَ الرضا وتَخْضَعَ فإنه يجب عليها أن تصير مقبولةً عند الرجل بدلاً من إغْضابه، فقوةُ المرأة في فُتُونها، وبهذا الفُتُون يَجِبُ أن تَحمِلَه على أن يَجِدَ قوَّته وأن يستعملَها، وأَضْمَنُ فَنٍّ في إنعاش هذه القوة هو جعلُها ضروريةً بالمقاومة، وهنالك تقترن الأنانيةُ بالرغبة ويفُوز أحدُهما بالنصر الذى يُنِيلُه الآخرُ إياه، ومن ثَمَّ يُولَدُ الهجومُ والدفاع وجُرْأةُ أحد الجنسين وحشمةُ الآخر، ثم الحياء والخجلُ اللذان تُسَلِّحُ الطبيعةُ بهما الضعيفَ لإخضاع القويِّ.

ومن يستطيع أن يتصور أن الطبيعة فَرَضَت ذات السُّلَفِ لهذا الجنس وذاك الجنس، وأن الأول الذى يَشْعُر بالرغبة يجب أن يَكُون أولَ من يُبْدِيها أيضاً؟ ويا للفساد الغريب في الحكم! وبما أن للمشروع نتائجَ بالغةَ الاختلاف لدى الجنسين فهل من الطبيعيِّ أن يكون عندهما عين الجُرْأة في الإقدام عليه؟ وكيف لا يُرى، بمِثْل ذلك التفاوت العظيم في الحِصَّة

(٤٢)

المشتركة ، كَوْنُ الاحتياطيِّ إذا كان لا يَفرِضُ على أحدها ما تَفرِض الطبيعةُ على الآخر من الاعتدال فإنه لا يَلبَثُ أن ينشأ عن هذا ، في الحال ، فسادُ الاثنين فيَهلِكُ النوعُ البشريُّ بالوسائل التي قامت لحفظه ؟ وإذا وُجِدَ ، مع السهولة التي يُثيرُ النساء بها حواسَّ الرجال ويُوقِظْن في قلوبهم بقايا مزاجٍ خامدٍ تقريباً ، إقليمٌ تَعِسٌ في الأرض تُدْخِلُ الفلسفةُ إليه تلك العادةَ ، ولا سيما في البلاد الحارة حيث يُولَدُ إناثٌ أكثرُ من الذكور ويَجُرْنَ عليهم ، فإنهم يذهبون ضحايا لهنَّ في آخر الأمر ، ويَرَوْن أنفسَهم مَقُودِين إلى الموت من غير أن يَقْدِرُوا على رَدِّه مطلقاً .

وإذا لم يُوجَدْ عند إناث الحيوان عينُ الحياء فما ينشأ عن ذلك ؟ وهل يكون عندها ، كما عند النساء ، من الرغائب التي لا حَدَّ لها فيكون هذا الحياء زاجراً لها ؟ لا تأتيها الرغبةُ إلّا مع الحاجة ، فإذا ما قُضِيَتْ هذه الحاجةُ انتهت الرغبة ، وعادت لا تَرُدُّ الذكَرَ عن تَكَلُّفٍ[1] ، بل عَنْ جِدٍّ ، بل تَصْنَعُ عكسَ ما كانت تَصنَع بنتُ أغسطس ، فتَعُودُ لا تَتَقَبَّلُ مسافرين بعد أن يكون للمركب شِحْنَتُه ، وتكون أوقاتُ ألطافها قصيرةً ، فلا تَلبَثُ أن تَنقَضِيَ ، فالغريزةُ تَسُوقُها والغريزةُ تَقِفُها ، وأين تكون تَكمِلَةُ هذه الغريزةِ السلبية في النساء إذا ما نزعتم الحياءَ منهن ؟ يَعْني انتظارُ عدمِ اكتراثهنَّ للرجال بَعْدُ انتظارَ عدمِ صلاحهنَّ لشيءٍ بَعْدُ .

وقد أراد الكائن الأعلى أن يُكَرِّم النوعَ البشريَّ بإنعامه على الإنسان

(١) كنت قد لاحظت أن مماثعات التصنع والدلال أمر شائع بين جميع الإناث تقريباً ، حتى بين الحيوان ، حتى حين كونهن أكثر استعداداً لتسليم أنفسهن ، ويدل إنكار هذا على عدم ملاحظة أسلوبهن .

بمُيُول لا حَدَّ لها ، كما أنه أنعم عليه ، فى الوقت نفسه ، بقانون ناظم لها ، حتى يكونَ طليقاً مسيطراً على نفسه ، فهو إذْ يُسْلِمُه إلى أهواء متطرفة يضيف العقلَ إلى هذه الأهواء حتى يهيمن عليها ، وهو إذْ يُسْلِمُ المرأةَ إلى رغائبَ لا حَدَّ لها يضيف الحياء إلى هذه الرغائب حتى يَرْدَعها ، وهو ، زيادةً على ذلك يُضِيفُ ، أيضاً ، مكافأةً حاضرةً إلى حُسْن استعمال القابليات ، أى يُضِيفُ الذوقَ الذى يُنَال من صالح الأمور عند اتخاذها قاعدةً للأعمال ، وهذا يساوى غريزةَ الحيوانات كما يَلُوح لى .

وسواء أقاسمت الأنثى الرجلَ شَهَوَاتِه أم لا ، وسواء أرَغِبَتْ فى قضائها أم لم تَرْغَبْ ، تَدْفَعُهُ وتدافع عن نفسها دائماً ، ولكن ليس بذات القوة دائماً ، ولا بذات الفوز نتيجةً ، ويَجِبُ لِفَوْزِ المهاجِم أن يأذَن المهاجَمُ فيه أو أن يشير به ، وما أكثرَ الوسائلَ اللَّبِقَةَ التى يُتَذرَّعُ بها لحَمْلِ الصائل على استعمال قُوَّته ! وما كان أكثرُ جميع الأفعال حريةً وحلاوةً ليقْبَلَ عُنْفاً حقيقيًّا مطلقاً ، فالطبيعةُ والعقلُ يأبيان ذلك ، وذلك من حيث إن الطبيعة زَوَّدت الأضعفَ بما يحتاج إليه من القوة للمقاومة إذا ما أرادها ، ومن حيث إن العقل يَقْضِى بكون العنف الحقيقىِّ أفظعَ جميع الأفعال فضلاً عن أنه مخالفٌ لمَقْصِده ، وذلك لكون الرجل يَشْهر ، هكذا ، حرباً على رفيقته ويُجِيزُ لها الدفاعَ عن نفسها وحريتها حتى على حساب حياة المعتدِى ، ولكون المرأةِ وحدَها حَكَماً فى الحال التى تكون عليها ، فلا يكون للولد أبٌ ، مطلقاً ، إذا ما استطاع كلُّ رجلٍ اغتصابَ حقوقِه .

وبكونه تابعاً للأضعف حقيقةً ، وليس هذا عن انتحالٍ لعادة الغَزَل التافهةِ ، ولا عن كرم الحامى الزاهى ، ولكنْ عن قانون الطبيعة الثابت الذى يَمْنَح المرأةَ سهولةً فى تحريك الشَّهَوات أكثرَ من منحها الرجلَ سهولةَ قضائها ، فتَجْعَلُ هذا ، مع ما عنده من ذلك ، تابعاً لرغبتها وتُكْرِهُه ، بدَوْرِه ، على طلب رضاها نَيْلاً لموافقتها على تَرْكِه يَكُونُ الأقوى ، وهنالك يَكون أحلى ما عند الرجل فى فوزه شَكُّه فى كَوْنِ الضعف هو الذى يُذْعِنُ للقوة أو فى كَوْن الإرادةِ هى التى تخْضَع ، ويقوم مَكْرُ المرأة العادىُّ على تَرْك هذا الشكِّ ماثلاً بينه وبينها ، ويلائم ذِهْنُ النساء فى هذا بُنْيَتَهن ملاءمةً تامةً ، فيُقِمْنَ مجدَهنَّ على ضَعْفِهن بعيداتٍ من الخَجَل منه ، وذلك أن عَضَلاتِهن المَرِنةَ تكون بلا مقاومة ، وذلك أنهن يُبْدِين عجزَهنَّ عن رَفْع أخفِّ الأثقال فيَسْتَحِينَ من أن يَكُنَّ قوياتٍ ، ولِمَ هذا ؟ لا يكون هذا من أجْل ظهورهن ناعماتٍ ، بل عن احترازٍ أكثرَ مهارةً ، وذلك أنهن يُزَوِّدْنَ أنفسهن بالمعاذير من بعيد وبحقِّ كونِهنَّ ضعيفاتٍ عند الضرورة .

وما اكتسبناه بمَعَايِبنا من تجارِبَ غيَّرَ قديمَ الأفكار بيننا كثيراً حَوْل هذه النقطة ، وعاد لا يُحَدَّث ، مطلقاً ، عن الاغتصابات منذ قَلَّتْ ضرورتُها ، ومُذْ عاد الرجالُ لا يؤمنون بها مطلقاً[1] ، وذلك بدلاً من شُيُوعها البالغِ

(١) من الممكن أن يوجد تفاوت عظيم فى السن والقوة ما يقع معه غصب حقيقى ، ولكن بما أنى أعالج هنا حال الجنسين النسبى وفق نظام الطبيعة فإننى أنظر إليهما من حيث العلاقة المشتركة التى يتألف منها ذلك الحال .

فى العالمَيْن اليونانىّ واليهودىّ القديمَيْن ومن كون هذه الآراء نفسِها ضِمْنَ بساطة الطبيعة فاستطاعت تجرِبةُ الفُجُور وحدَها أن تستأصلها ، وإذا كان يُذْكَرُ فى أيامنا قليلٌ من أعمال الغَصْب لم ينشأ هذا ، لا رَيْبَ ، عن كون الرجال أكثرَ اعتدالًا ، بل نشأ عن كونهم أقلّ سرعةَ تصديقٍ ، وعن كَوْنِ مِثْلِ ذلك العويل ، الذى أقنع الشعوبَ البسيطةَ فيما مضى ، لا يُثِيرُ غيرَ ضَحِك المستهزئين فى أيامنا ، فصار التزامُ جانب الصمت أكثرَ فائدةً ، ويُوجَدُ فى سِفْرِ تَثْنِية الاشتراع حُكْمٌ قائلٌ بمعاقبة الفتاة المَغْصُوبة مع غاويها إذا ما اقْتُرِفَت الخطيئة فى المدينة ، فإذا اجْتُرِح الذنبُ فى البَرِّية أو فى الأماكن البعيدة عُوقِبَ الرجلُ وحدَه ، وذلك لقول الشريعة : « إن الفتاة تكون قد صَرَخت فى البرية فلم تجِدْ من يَسْمَعُها » ، فهذا التفسيرُ الكثيرُ التساهل كان يُعلِّمُ الفتياتِ ألاَّ يَدَعْنَ أنفسَهن يُباغَتْنَ فى الأماكن المطروقة .

وتأثيرُ هذه الاختلافات فى الآراء حَوْل الطِّباع أمرٌ محسوسٌ ، ويُعَدُّ الغَزَلُ الحديث نتيجةً لها ، وإذْ كان الرجال يَجِدُون اتِّباع ملاذِّهم لإرادة الجنس اللطيف بأكثرَ مما لم يتصوروا فقد قَهَرُوا هذه الإرادةَ بملاطَفاتٍ عَوَّضَهم هذا الجنسُ منها خيرَ تعويض .

ورَوْا كيف أن البدنىّ يَسُوقُنا إلى الأدبىّ سَوْقًا غيرَ محسوس ، وكيف أنه ينشأ عن اقتران الجنسين الغليظِ أحلى قوانين الُحبّ بالتدريج ، ولا يقوم سلطان النساء على إرادة الرجال مطلقًا ، بل لأن الطبيعة أرادته هكذا ، وكان هذا السلطان للنساء قبل ظهورهن حائزاتٍ له ، وهِرْكُولُ نفسُه هو الذى

اعتقد اغتصابَه لبناتِ تِسْپِيُوسَ الحسين ، فاضطُرَّ إلى الغَزْل بالقُرْب من أنْفَال ، ولم يَكُنْ شَمْشُونُ الجبارُ بالغَ القوة أمامَ دَليلَة ، فهذا السلطانُ خاصٌّ بالنساء ، ولا يُمكِن نزْعُه منهن حتى عند ما يُسِئْنَ استعمالَه ، ولو أمْكَن فَقْدُهنّ له لكان هذا الفِقْدانُ قد وَقَعَ منذ زمنٍ طويل .

ولا يُوجَدُ أيُّ تماثلٍ بين الرجل والمرأة من حيث الجنسُ ، وليس الذَّكَرُ ذَكَراً إلا فى بعض الأحوال ، والمرأةُ امرأةٌ مَدَى حياتها ، أو مَدَى فَتَائِها على الأقلِّ ، وكلُّ شىء يُذَكِّرُها بجِنْسِها بلا انقطاع ، ولا بُدَّ لها من بُنيةٍ تلائم وظائفَها حتى تُحْسِنَ القيامَ بهذه الوظائف ، ولا بُدَّ لها من المُدَاراة فى أثناء حَمْلها ، ولا بُدَّ لها من السكون فى نِفاسها ، ولا بُدَّ لها من حياةٍ منزليةٍ ناعمة لإرضاع أولادها ، ولا بُدَّ لها ، لتربية أولادها ، من الصبر والرِّفْق وما لا يُخْمِدُه شىء من الغَيْرة والعطف ، وهى تَصْلُح أن تكون أداةَ وَصْلٍ بينهم وبين أبيهم ، وهى وحدَها تُحَبِّبُهم إليه ، وهى وحدَها تُوحِي إليه من الثقة ما يَدْعُوهم معه أولادَه ، ويا لاحتياجِه إلى اللطف والعناية حتى يَشُدَّ جميعَ الأُسْرَة برابطة الاتحاد ! وأخيرًا لا ينبغى أن يُعَدَّ جميعُ هذا من الفضائل ، بَلْ من الميول التى لولاها لانطفأ النوعُ البشريُّ من فَوْره .

وما يُلْزَمُ به الجنسان من واجباتٍ ليس واحداً ، ولا يُمكِن أن يكون واحداً ، بالنسبة إلى كلٍّ واحدٍ منهما ، وإذا ما أَلِمَت المرأة من التفاوت غيرِ العادل الذى يَجْعَلُه الرجلُ فى ذلك كانت مخطئةً ، فليس هذا التفاوتُ نظامًا بشريًّا مطلقًا ، أو إن هذا التفاوتَ ليس ، على الأقلِّ ، من عمل المُبْتَسَر مطلقًا ،

بل من عمل العقل ، وذلك أن الطبيعة جعلت من الجنس الذى حمّلته الأولادَ وديعةً مسؤولاً لدى الجنس الآخر ، ولامراء فى أنه لا يجوزُ لشخصٍ أن ينقضَ عهدَه ، فيُعَدُّ كلُّ زوجٍ خائن يحرِمُ امرأته ثمنَ واجباتِ جنسها الصارمةِ ظالمًا غليظًا ، ولكن المرأة الخائنة تصنعُ ما هو أعظم ، فهى تحلُّ الأسرةَ وتقطعُ جميعَ الروابط الطبيعية ، وهى حين تُعطِى الرجلَ أولاداً ليسوا له تكون قد خانته وخانتهم ، وذلك بإضافتها الغدْرَ إلى عدم الوفاء ، ومن العسير علىَّ أن أرَى أىَّ اختلالٍ وذنبٍ لا يَلزَمُ ذلك ، فإذا وُجِدَ فى العالم حالٌ هائل كان هذا حالَ أبٍ تَعِسٍ لا يَثِقُ بامرأته فلا يجرُؤُ على السَّيْرِ مع أحلى مشاعرِ فؤادِه ، حالَ أبٍ يَشُكُّ حين يُقبِّلُ ولدَه فى تقبيله ولدَ غيرِه ، فى تقبيل رَهْنِ شَيْنِه الذى هو سالبُ تُراثِ أولاده الحقيقيين ، وما تكون الأُسْرَةُ حينئذٍ إذا لم تكن جمعيةً من الأعداء الخَفِيِّين الذين تُسلِّحُ امرأةٌ مذنبةٌ بعضَهم ضِدَّ بعضٍ مع حَمْلِهم على الظهور بمظهر المتحابِّين ؟

وليس من المهمِّ ، إذَنْ ، أن تكون المرأة وَفِيَّةً فقط ، بل يجبُ أن يُقضَى بأنها هكذا من قِبَل زوجها وأقربائها وجميعِ الناس ، ومن المهمِّ أن تكون مُحتشِمةً مُنتبهةً مُتبصِّرةً ، وأن تُقدِّم إلى أعين الآخرين ، كما تُقدِّم إلى ضميرها الخاصِّ ، شهادةً على فضيلتها ، وأخيراً إذا كان من المهمِّ أن يُحِبَّ الأبُ أولادَه فإن من المهمِّ أن يُقدِّر أمَّهم ، وهذه هى الأسباب التى تضَعُ الظاهرَ فى عِداد واجبات النساء ولا تجعَلُ الشَّرفَ والصِّيتَ أقلَّ لزُومًا من العَفاف ، ومن هذه المبادئ يُشتقُّ ، مع الفَرْق الخُلُقِيِّ بين الجنسين ، عاملُ واجبٍ ولِياقةٍ يَفرِض على النساء ، خاصةً ، أدقَّ

انتباه فى سلوكهنّ وأوضاعهنّ ورزانتهنّ ، ويُعَدُّ الادعاء الغامض بأن الجنسين متساويان وبأن واجباتهما واحدةٌ تيهاً فى الكلام الفارغ ، ولا ينطوى هذا الكلامُ على شىء ما دام لا يُجيبُ عن ذلك .

أليس من وجوه البرهنة المتينة أن تُقدَّم استثناءاتٌ جواباً عن سُنَنٍ عامةٍ ثابتةِ الأساس ؟ تقولون لا يَضَعُ النساء أولاداً دائماً ! كلا ، وإنما يقوم عملُهنّ الخاصُّ على وَضْع ذلك ، ماذا ! تَعلَمُون وجودَ نحو مئة مدينةٍ كبيرة فى العالَم يَقضِى النساء فيها حياةَ تَحَلُّلٍ فلا يَضَعْنَ غيرَ أولادٍ قليلين فتَزْعُمُون أن حال النساء يقضى بوَضْع أولادٍ قليلين ! وما تُصْبِحُ مُدُنُكم إذا كانت الأريافُ البعيدة التى يقضى النساء فيها حياةً أكثرَ بساطةً وعَفَافًا لا تُعوِّض من عُقْم السيدات ؟ وما أكثر الأقاليمَ التى تُعَدُّ فيها هذه المرأةُ أو تلك قليلةَ النَّسْل إذا لم تَضَعْ غيرَ أربعة أولاد أو خمسة أولاد[1] ! وأخيراً ما أهميةُ وَضْعِ هذه المرأة أو تلك قليلَ أولادٍ ؟ وهل حالُ المرأة أقلُّ من كَوْنها أمًّا ؟ أوَليس على الطبيعة والطبائع أن تُعالِجا هذه الحالَ بسُنَنٍ عامة ؟

وإذا ماوُجِدَ بين أدوار الحَبَل ما يُفتَرَضُ من الفواصل الطويلة فهل تُغيِّرُ المرأةُ طِرَازَ الحياة هكذا بغتةً ومناوبةً بلا مجازفةٍ ولا خَطَر ؟ وهل تَكُونُ اليومَ مُرْضِعًا وغداً محاربةً ؟ وهل تُغيِّر مزاجها وأذواقها كما تُغيِّر الحِرْباء ألوانها ؟ وهل تنتقل فجأةً من ظِلِّ منزلها وواجباتها البيتية إلى

(١) ولولا ذلك لباد النوع بحكم الضرورة ، ويقضى بقاء النوع بأن يعوض من كل شىء ، فتضع كل امرأة أربعة أولاد تقريباً ، وذلك لأن نحو نصف الأولاد يموتون قبل أن يمكن وضع آخرين ، فلا بد من بقاء اثنين من الأولاد لتمثيل الأب والأم ، فانظروا هل تزودكم المدن بأولئك الأهلين .

تقلبات الهواء وأعمال الحرب ومتاعبها وأخطارها ؟ وهل تكون هَلُوعًا[1] تارةً وباسلةً تارةً أخرى ؟ وهل تكون لطيفةً أحيانًا وعُضْلُبيةً أحيانًا أخرى ؟ وإذا كان يَشُقُّ على من يُنَشَّأون فى باريسَ احتمالَ حياة الجندية فهل يحتملها النساء اللائى لم يواجهنَ الشمسَ ، ولا يَكَدْنَ يَسِرْنَ ، بعد خمسين عامَ تَرَفٍ ؟ وهل يَتَّخِذْنَ هذه المهنة فى عُمُرٍ يَتْرُكُها الرجالُ فيه ؟

وأُوافِقُ على وجود بلادٍ تَلِدُ النساءُ فيها بلا عناء تقريباً ، ويُرْضِعْنَ أولادهنَّ فيها بلا جهدٍ تقريباً ، ولكن الرجال فى هذه البلاد نفسِها يَمْشُون نِصْفَ عراةٍ فى كلِّ وقت ، ويَصْرَعون الضوارى ، ويَحْمِلون قارباً كأنه جِرابٌ ، ويقومون بضروب الصيد على مسافة سبعمئة فرسخٍ أو ثمانمئة فرسخٍ ، وينامون فى العَرَاء ، ويَحْتَمِلون ما لا يُمْكِنُ تصديقُه من المتاعب ، ويقضون عِدَّةَ أيامٍ من غير أن يأكلوا ، وإذا ما صار النساء عُضْلُبياتٍ صار الرجال أكثرَ منهن بأسًا ، وإذا ما أصبح الرجال مُتْرَفين أصبح النساءُ أعظمَ منهم تَرَفًا ، وإذا ما تَغيَّر الفريقان على السواء بَقِيَ الفرقُ كما هو .

وأفلاطونُ فى جُمهوريته يَمْنَحُ النساء ما يَمْنَحُ الرجالَ من تمرينات رياضية ، وأعتقدُ هذا جيداً ، وبما أنه نَزَعَ الأُسَرَ الخاصةَ من حكومته ، وبما أنه عاد لا يَعْرِفُ ما يَصْنَعُ بالنساء فقد رأى أنه مُضْطَرٌّ إلى جعلهنَّ رجالًا ، وقد نَظَّمَ هذا الداهيةُ الأغرُّ كلَّ شيء ، وأبصرَ كلَّ شيء ،

---

(١) ثم إن وجل النساء غريزة طبيعية تجاه ما يلاقين من خطر مضاعف فى أثناء حبلهن .

وقد استعدَّ لاعتراضٍ لم يفكِّر أحدٌ فى توجيهه إليه على ما يحتمل ، ولكنه أساء حَلَّ الاعتراض الذى يُوَجَّه إليه ، ولا أتكلَّم ، مُطْلَقاً ، عن شركة الزوجات المزعومة التى يُثْبِتُ ما وُجِّهَ إليها من تأنيبٍ مُكَرَّرٍ أن الذين أتَوْه لم يقرءوا كتابَه قَطُّ ، وإنما أتكلَّم عن ذلك العَبث الدنىِّ الذى يَخْلِط فى كلِّ مكانٍ بين الجنسين فى ذات الخِدَم والأعمال والذى لا يُمْكِنُ أن يُعْوِزَه توليدُ ما لا يُطاقُ من سوء الاستعمال ، وإنما أتكلم عن هَدْم أحلى مشاعر الطبيعة التى يُضَحَّى بها فى سبيل شعورٍ مصنوع لا يُمْكِن أن يَدُوم بدونها ، وذلك كما لو كان من غيرِ الواجب وجودُ سبيلٍ طبيعىٍّ لتكوينِ روابطِ عهدٍ ! وذلك كما لو كان حُبُّ الإنسان لأقربائه شيئاً آخرَ غيرَ المبدأِ الواجبِ نحو الدولة ! وذلك كما لو كان القلبُ لا يرتبط فى الوطن الأكبر بالوطَن الأصغر ، أى الأُسرةِ ! وذلك كما لو كان الابنُ الصالح والزوجُ الصالح والأبُ الصالح لا يُكَوِّنون المواطنَ الصالح !

وإذا ثبَتَ مَرَّةً أنه ليس للرجل والمرأة عَيْنُ الأخلاقِ والمزاج ، وأنه لا ينبغى أن يَكُون لهما عينُ الأخلاق والمزاج ، تَبِعَ ذلك كَوْنُه لا يجوز أن تكون لهما عينُ التربية ، وإذا ما اتَّبَعَا مَنَاحِيَ الطبيعة وجب أن يَسِيرَا متعاونَيْن ، ولكن ليس من الواجب عليهما أن يَقُوما بذات الأمور ، أجَلْ ، إن غايةَ الأعمال مشتركةٌ ، ولكن الأعمالَ مختلفةٌ ، ومن ثَمَّ تختلف المُيُول التى توجِّهُها ، وإنى بعد أن سَعَيْتُ فى تكوينِ الرجلِ الطبيعىِّ وَجَب أن نَرَى ، أيضاً ، كيف يَجِبُ أن تُكَوَّن المرأةُ التى تناسب هذا الرجل .

وإذا أردتم أن تكونوا حَسَنِى التوجيه دائماً فاتَّبِعُوا مَنَاحِىَ الطبيعة دائماً ، ويَجِبُ احترامُ كلِّ ما يَميزُ الجِنسَ على أنه من صُنْع الطبيعة ، وأنتم تقولون ، بلا انقطاعٍ ، إنه يُوجَدُ للنساء من هذه النقائص أو تلك ما ليس عندنا ، فزَهْوُكم يَخْدَعُكم ، فما تَجِدُوا من هذه النقائص يُعَدَّ مزايا لهن ، وكلُّ شىء يَسِيرُ سيراً أقلَّ صلاحاً إذا عَطِلْن من تلكَ النقائص ، وحُولُوا دون انحطاط تلك النقائص ، ولكن احترزوا من القضاء عليها .

ولا يَكفُّ النساء ، من ناحيتهن ، عن الصُّرَاخ قائلاتٍ إننا نُنَشِّئُهن ليَكُنَّ مغروراتٍ غَنِجَاتٍ ، وإننا نُلْهِيهنَّ ، دائماً ، بصِبْيَانياتٍ حتى يَسْهلَ علينا أن نبقى سادةً لهنّ ، وهنَّ يَلُمْنَنا على نقائصَ نَلُومُهنَّ عليها ، فيا لَلْحماقة ! فمتى صار الرجال يتدخلون فى تربية البنات ؟ وما الذى يَمْنَعُ الأمهاتِ من تنشئتهن كما يَرُوقُهن ؟ ليست لهن كلياتٌ مطلقاً ، فيا لَلْبَلَاء العظيم ! وَىْ ! لو سَمَحَ الرَّبُّ بألاَّ يكون للصبيان شىء من ذلك لنَشَأوا على ما هو أصلحُ وأقربُ إلى الصواب ، وهل تُكْرَهُ بناتُكم على قضاء أوقاتهن فى توافه الأمور ؟ وهل يُحمَلْنَ ، مُكْرَهاتٍ ، على قضاء نصف حياتهن فى أمور زينتهن سَيْراً على غِراركم ؟ ومن يَمْنَعُكم من تعليمهن أو من حَمْلهن على التعلم كما تشاءون ؟ وهل يَقَعُ الذَّنْبُ علينا إذا ما طِبْنَ لنا عن حُسْنٍ فيهن ، وإذا ما أغْوَيْنَنا بمُنَاجهنَّ ، وإذا كان الفنُّ الذى يتعلَّمْنه منكم يجتذبنا ويَفْتِنُنا ، وإذا كنا نُحِبُّ أن نراهنَّ رائعاتِ الهِنْدَام ، وإذا كنا نَدَعُهن يَشْحَذْن على مَهْلٍ ما يُخْضِعْنَنَا له من السلاح ؟ وَىْ !

اذهبوا إلى تنشئتهن كالرجال ، والرجالُ يوافقون على ذلك طيِّبى الخاطر ، وهنَّ كلما أَرَدْنَ مشابهة الرجال قَلَّتْ سيطرتُهن عليهم ، وهنالك يصير الرجال سادةً حقًّا .

أَجَلْ ، إن جميع خصائص الجنسين المشتركةِ ليست مقسومةً بينهما على السواء ، ولكنها إذا ما نُظِرَ إليها فى مجموعها وُجِدَ أن كلَّ واحدٍ من الجنسين يعتاض من الآخر ، والمرأةُ أكثرُ قيمةً كامرأةٍ وأقلُّ قيمةً كرجلٍ ، وهى تَفْضُلُ حيث تُرَوِّج حقوقَها ، وهى تَبْقَى دوننا حيث تريد اغتصابَ حقوقِنا ، ولا يُمْكِن رَدُّ هذه الحقيقة العامة بغير استثناءات ، أىْ بغير أسلوبٍ فى البرهنة ثابتٍ يأتى به ذوو الأُنس من أنصار الجنس اللطيف .

ولِذَا فإن من الواضح أن تَعَهُّدَ صفات الرجل فى المرأة وإهمالَ ما هو خاصٌّ بهن يَنْطَوِى على الإضرار بهن ، ويَبْلُغ ذواتُ المكر من رؤية ذلك جيداً ما لا يُخْدَعن معه بذلك ، وهنَّ حين يُجَاهِدْنَ فى اغتصاب منافعنا لا يَتْرُكْنَ منافعهن ، ولكنْ بما أنهن لا يستطعن تدبير أمر هذه وتلك جيداً لتباينهما فإنه ينشأ عن ذلك بقاؤهن دون مستواهن من غير ارتقاء إلى مستوانا ، وخُسرانُهن نصفَ قيمتهن ، واتَّبِعى نصيحتى ، أيتها الأمُّ العاقلة ، فلا تَجْعَلى من ابنتك رجلاً صالحاً ، لِمَا ينطوى عليه هذا من تكذيبٍ للطبيعة ، واصنعى منها امرأةً صالحةً ، وثِقِى بأن هذا أفضلُ لنا ولها .

وهل يُسْتَدَلُّ من ذلك وجوبُ تنشئتها جاهلةً لكلِّ شىء ، مقصورةً

على الواجبات المنزلية وحدَها ؟ وهل يَصْنَعُ الرجلُ خادمتَه من رفيقته ؟ وهل يَحْرِمُ نفسه نحوَها من أعظم فُتُونٍ فى المجتمع ؟ وهل يَمْنَعُها من الشعور بشىء ومن معرفة أىِّ شىء إمعـاناً فى استعبادها ؟ وهل يَجْعَلُ منها تمثالاً متحركاً ؟ كلا ، لا رَيْب ، فليس هذا ما تَقُول الطبيعةُ التى منحت النساءَ روحًا كثيرةَ الرقة بالغةَ اللطافة ، والطبيعةُ ، على العـكس ، تريد أن يُفَـكِّرْنَ ويَحْـكُمْنَ ويُحْبِبْنَ ويَعرِفْنَ ويَتَعَهَّدْنَ ذهنَهن كما يَتَعهدن صورتَهن ، وهذه هى الأسلحة التى أنعمت الطبيعةُ بها عليهن لتقوم مقام القوة التى تُعوِزُهنَّ ولتوجيه قُوَّتنا ، ويجب عليهن أن يَتَعَلَّمْنَ أموراً كثيرة ، على أن تَـكُون معرفةُ هذه الأمورِ ملائمةً لهنَّ .

وسواء علىَّ أنظرتُ إلى غَرَض الجنس الخاصِّ ، أم لاحظتُ مُيُولَه ، أم عَدَدْتُ واجباتِه ، وَجَدْتُ كلَّ شىء يتضافر تضافراً متساوياً على دَلَالتى إلى شكل التربية التى تلائمه ، أَجَلْ ، إن كُلًّا من المرأة والرجل خُلِقَ فى سبيل الآخر ، غير أن اتباع أحدهما للآخر ليس متساوياً ، فالرجالُ تابعون للنساء برغائبهم ، والنساء تابعاتٌ للرجال برغائبهن واحتياجاتهن ، ونحن نعيش بدونهنّ أكثرَ من عيشهنّ بدوننا ، وذلك أنه يجب ، لحيازتهنَّ الحاجىَّ ولوجودهنّ فى حالهنَّ ، أن نُعْطِيَهن إياه ، وأن نُريدَ إعطاءهن إياه ، وأن نُقَدِّر استحقاقَهن له ، وهن تابعاتٌ لمشاعرنا ولِما نَجْعَل من ثَمَنٍ لمزيتهن ولِمَا يكون عندنا من فـكرٍ عن فُتُونهن وفضائلهن ، حتى إن من مقتضيات قانون الطبيعة أن يكون النساء تحت رحمة أحكام الرجال من أجل أنفسهن ومن أجل أولادهن ، فلا يَكْـفِي أن يَكُنَّ أهلًا للتقدير ،

بل يجب أن يَكُنَّ مُقَدَّراتٍ ، ولا يكفى أن يكنَّ جميلاتٍ ، بل يجب أن يَرُقْنَ ، ولا يكفى أن يَكُنَّ حكيماتٍ ، بل يجب أن يُعْرَفْن هكذا ، وليست سعادتهن فى سلوكهن ، ولكن فى سُمْعَتهن ، وليس من الممكن استطاعةُ التى توافق على عَدِّها شائنةً أنْ تكون شريفةً مطلقاً ، ولا يتوقف أمرُ الرجل الذى يَعْمَلُ صالحاً على غير نفسه ، ويستطيع الرجل أن يقتحم الحُكْمَ العامَّ ، ولكنَّ المرأة إذا ما عَمِلَتْ صالحاً لا تكون قد قامت بغير نصف عملها ، فما يَدُور حَوْلَها من فكرٍ لا يَكُون عندها أقلَّ أهميةً مما هى عليه حقيقةً ، ومن ثَمَّ يُرَى أن نظام تربيتها يجب أن يكون ، من هذه الناحية ، مخالفاً لنظام تربيتنا ، أى إن رأْىَ الناس قَبْرٌ للفضيلة بين الرجال ، ويكون عرشُه بين النساء .

وتتوقف بِنيةُ الأولاد على حُسْن بِنية الأمهات فى بدء الأمر ، ويتوقف أولُ تربيةٍ للرجال على عناية النساء ، وتتوقَّف على النساء ، كذلك ، طِباعُهم وأهواؤهُم وأذواقُهم ورغائبُهم ، وسعادتهم أيضاً ، وهكذا فإن كلَّ تربيةٍ للنساء يجب أن تُرْسمَ نظراً إلى الرجال ، وتقوم واجباتُ النساء فى جميع الأوقات على وقوعهنّ مَوْقِع الرضا لديهم وعلى فائدتهن لهم وعلى تَحْبيب أنفسهن لهم وعلى تمجيدهن من قِبَلهم وعلى تنشئتهن لهم فتياناً وعنايتهن بهم كِبَاراً وعلى نصيحتهم وتسليتهم وجَعْلِ الحياة مقبولةً حُلْوَةً عندهم ، وهذا ما يَجِبُ تعليمُهن إياه منذ صِبَاهن ، ويُبْتَعَدُ عن الغاية ما ابْتُعِدَ عن هذا المبدأ ، فلا يكون لجميع التعاليم التى تُلْقَى عليهن نَفعٌ لسعادتهن وسعادتنا .

ولكنَّ كلَّ امرأةٍ ، وإن كانت تُرِيدُ أن تَرُوق الرجالَ ، وكان لِزَاماً عليها أن تريد ذلك ، يُوجَدُ فرقٌ كبيرٌ بين رَوَقانها رَجُلَ الفضلِ ، والانسِ حقّاً ، وإرادتها أن تَرُوق صغارَ اللطفاء الذين يَشِينُون جنسَهم والجنسَ الذى يُقَلِّدونه ، وما كانت الطبيعةُ ، ولا العقلُ ، ليستطيعا حَمْلَ المرأة على أن تُحِبَّ فى الرجال من يشابهها ، وكذلك لا ينبغى للمرأة أن تنتحل أوضاعَ الرجال فتحاول حملَهم على حُبِّها .

ولِذَا فإن النساء إذا ما تَرَكْنَ احتشامَ جنسِهنَّ ووَقارَه واتخذنَ أوضاعَ هؤلاء الطائشين ابْتَعَدْنَ عن اتِّباع ما يُسِّرْنَ له وعَدَلْنَ عنه ، وحَرَمْنَ أنفسَهنّ ما يَرَيْنَ أنهنّ اغتصبْنَه من حقوق ، وهنّ يَقُلْنَ : « لو كنا غيرَ هذا ما وَقَعْنَا موقعَ الرضا عند الرجال مطلقاً » ، وهنَّ يَكْذِبْنَ ، فلا بُدَّ من جنون المرأةِ حتى تُحِبَّ المجانين ، وتَدُلُّ الرغبةُ فى اجتذاب أولئك الناس على ذوق التى تُوَطِّن نفسَها على ذلك ، وإذا وُجِدَ من الرجال من هم غيرُ طائشين مطلقاً بادرتْ إلى جَعْلِهم طائشين ، ويكون طيشُهم من صُنْعها أكثرَ من أن يكون طيشُها من صُنْعهم ، وإذا كانت المرأةُ تحبُّ الرجال الصادقين وتريدُ أن تَرُوقَهم اتَّخَذَتْ من الوسائل ما يلائم غَرَضها ، وتكون المرأةُ ذاتَ دَلالٍ عن وَضْعٍ ، ولكن الدَّلال يتغير شكلاً وموضوعاً وَفْقَ مقاصدها ، فلْنُنَظِّم هذه المقاصدَ وَفْقَ أغراض الطبيعة ، وهنالك تنال المرأةُ ما يلائمها من التربية .

وصُغْرَياتُ البناتِ يُحْبِبْنَ الزينةَ منذ ولادتهن تقريباً ، وهنَّ لا يَرْضَيْنَ أن يَكُنَّ حِساناً ، وإنما يُرِدْن أن يُرَيْنَ هكذا ، ويُرَى من خلال ملامحهن

أن هذا الالتفاتَ يَشْغَل بالَهن منذ البُداءة ، وهنَّ لا يَكَدْن يَكُنَّ فى حالٍ يُدْرِكْن بها مايقالُ لهن حتى يُسَيْطَرَ عليهن بما يُفَكِّرُ فيه حَوْلَهن ، وإذا كنتم من الخِفَّة ما تَعرِضون معه ذاتَ الباعث على الصبيان لم تَجِدُوا له ذاتَ السلطان عليهم ، وهم إذا ما كانوا ذوى استقلالٍ وكان لهم لَعِبُهم قَلَّتْ مبالاتُهم ، إلى الغاية ، بما يُمْكِن أن يُفَكَّر فى أمرهم ، وليس بغير فِعْل الوقت والجُهْد ما يُجْعَلُون خاضعين لحُكْم عَيْنِ القانون .

ومهما تكن الجهةُ التى يأتى منها هذا الدرسُ الأولُ إلى البنات فإنه يُعَدُّ صالحاً جِدًّا ، وبما أن البدنَ يَسْبِقُ الذهنَ وِلادةً فإن تمرين البدن هو أولُ ما يَجِبُ أن يكون ، وهذا النظامُ مشتركٌ بين الجنسين ، غير أن غَرَضَ هذا التمرين مختلفٌ ، فهو يَكُون نُمُوَّ القُوَى فى جنسٍ ، وهو يكون نُمُوَّ المَحَاسِن فى الجنس الآخر ، ولا يَعْنِى هذا أن تكون هذه الصفاتُ أو تلك فى هذا الجنس أو ذاك حصراً ، وإنما تكون على نسبة معكوسة ، ولا بُدَّ من وجود قوةٍ كافية فى النساء حتى يأتِينَ جميعَ ما يأتِينَ بلَطافةٍ ، ولا بُدَّ من مهارةٍ فى الرجال حتى يأتُوا جميعَ ما يأتون بسهولةٍ .

ويَبْدَأُ تَخَنُّث الرجال بإفراط النساء فى التَّخَنُّث ، ولا يَنْبَغى للنساء أن يَكُنَّ قَوِيَّاتٍ كالرجال ، بل من أَجْل الرجال ، وذلك لكي يَكُونَ مَنْ يَضَعْنَ من الرجال أقوياء أيضاً ، وبهذا تكون الأديارُ ، حيث يتناول الطالباتُ الداخليات طعاماً غليظاً ، ولكن مع كثيرِ نُزَهٍ ومسابقاتٍ وألعابٍ فى الهواء الطَّلْقِ وفى الحدائق ، أفضلَ من المنزل الأبوىّ حيث تتناول البنتُ غذاءً ناعماً ، وتُدَارَى أو تُعَزَّرُ دائماً ، وحيث تَجْلِسُ على مَرْأى

من أمِّها فى غرفةٍ محكمةِ الإغلاق ، فلا تَجْرُؤُ على النهوض والمشى ولا على الكلام والهَمْس ، ولا تتمتع بساعةٍ من الحرية ، فلا تَلْعَب ولا تَثِب ولا تَرْكُض ولا تَصْرُخ ، وتَلْزَمُ نَزَقَ سِنِّها الطبيعىَّ ، فإما رَخَاءٌ خَطِرٌ وإما جَفَاءٌ طائشٌ ، ولا شىء وَفْقَ العقل ، وهذا هو الوجهُ الذى يُقَوِّض به بَدَنُ الشباب وقلبُه .

وكانت بنات إسپارطة يَتدرَّبْنَ ، كالفِتْيان ، على الألعاب العسكرية ، لا لِيَذْهَبْنَ إلى الحرب ، بل لِيَحْمِلْنَ ، ذات يومٍ ، أولاداً قادرين على احتمال مشاقِّها ، وليس هـذا هو الذى أستحسنُ ، فلا يَقْضِى مَنْحُ الدولةِ جنوداً أن تَحْمِلَ الأمهاتُ بنادقَ ويَقُمْن بِتَمْرِينٍ على الطريقة البُروسية ، وإنما أجِدُ أن التربية اليونانية كانت ، على العموم ، كثيرةَ البراعة من هذه الناحيـــة ، فكانت الفتَياتُ يَظْهَرْن عَلَناً فى الغالب ، ولـكن مع تَجَمُّعٍ فيما بينهن وعدمِ اختلاطٍ بالفِتْيان ، وما كُنْتَ تَرَى عيدًا تقريباً ، ولا قُرْباناً ، ولا احتفالًا ، لا تُرَى فيه أفواجٌ من بنات وُجُوه المواطنين ، وهنّ مُتَوَّجاتٌ بالزُّهور مُرَتِّلاتٌ للأناشيد مؤلِّفاتٌ أجواقاً للرقص حاملاتٌ سِلَالًا وآنيةً وتَقْدِماتٍ وعارِضاتٌ على حواسٍّ الأغارقة الفاسدة منظرًا ساحرًا صالحًا لموازنة ما للرياضة البدنية النابية من أثرٍ سيئ ، ومهما يكن من عملٍ لهذه العادة فى قلوب الرجال فقد كانت نافعةً ، دائماً ، فى مَنْح الجِنْس بُنْيَةً حَسَنةً فى شبابه بتمريناتٍ مُسْتَحَبَّةٍ معتدلة صحية ، وفى شَحْذِ ذوقه وتكوينه برغبةٍ مستمرة فى الوقوع موقع الرِّضا ، وذلك من غير مجازفةٍ بالأخلاق .

وكان هؤلاء الفتيات إذا ما تزوجن عدن لا يُرَيْنَ بين الناس وصِرْن مقصورات في بيوتهن قاصرات جميعَ جهودهن على تدبير منازلهن والعناية بأُسَرهن ، وهذا هو طرازُ الحياة الذى تأمر الطبيعةُ والعقل به الجنسَ ، ثم إن هؤلاء الأمهاتِ كُنَّ يَضَعْنَ أصحَّ رجالِ العالَمِ وأقواهم وأحسنَهم تقويماً ، وعلى ما كان يتمتع به بعض الجُزُر من سُمْعَةٍ سيئة فإن من الثابت أن جميع الأمم ، ومنها الرومانُ أيضاً ، لم تَشْمَل ما اشتملت عليه بلادُ اليونان في الزمن القديم من النساء الجامعات بين الحكمة والأُنس ، و بين الأخلاق والجمال .

ومما يُعْرَف أن اتساع الثياب ، الذى لا يُضايق الجسمَ مُطلقاً ، كان يساعد كثيراً على تَرْكه لبدَن الجنسين تلك النِّسَب الرائعة في تماثيلهما فلا تزال تَصْلُح أن تكون نَموذجاً في الفن بعد أن انقطعت الطبيعةُ المُشوَّهةُ عن تقديمه بيننا ، ولم يَكُنْ لأولئك عهدٌ بشيء من جميع هذه العوائق القوطية وهذه الكثرة في الرُّبُط التى تَضْغَطُ أعضاءنا من كلِّ ناحية ، وكان نساؤهم يَجْهَلْنَ استعمالَ هذه القوالبِ الحوتيَّة التى يُنَكِّر نساؤنا بها قاماتِهن أكثرَ من الدلالة عليها ، ولا أستطيع أن أتصوَّرَ أن هذا السوء في الاستعمال ، الذى أُمْعِنَ فيه بانكلترة إلى حدٍّ لا يُتَصَوَّر ، لا يُؤَدِّى إلى انحطاط النوع في آخر الأمر ، فأذهبُ إلى أن الفُتُون الذى يُهْدَف إليه بهذا يَنِمُّ على ذوقٍ فاسد ، فليس من المستحسَن أن تُرَى المرأةُ مَقْطُوعةً إلى قسمين كالزُّنبُور ، لِما ينطوى عليه هذا من إيذاء النظر وإيلام الخيال ، فلِدِقَّةِ القَدِّ نِسَبُها وقياسُها ككلِّ شيء آخر ، فإذا وقعت مجاوزةُ ذلك ظَهَر

العيب ، حتى إن هذا العيبَ يَقِفُ النظر فى العُرْىِ ، فَلِمَ يَكُون جمالاً تحت الثياب !

ولا أجْرُؤ على اعتصار الأسباب التى يُصِرُّ النساء بها على الادِّراع هكذا ، فيَظْهرُ صدرٌ هابط و بطنٌ ضَخْمٌ ، إلخ . ، وأوافق على أن هـذا يُسْتَكْرَه فى التى تكون فى العشرين من سِنِيها ، ولكن هذا يَعُود غيرَ مؤذٍ للنظر فيمن تكون فى الثلاثين ، و بما أنه يجب ، فى كلِّ وقت ، أن نَكُونَ ، على الرغم منا ، فى حالٍ نَرُوقُ معه الطبيعةَ ، وألَّا تُخْدَع عينُ الرجل فى ذلك مطلقاً ، فإن هذه العيوب تكون أقلَّ إغاظةً فى كلِّ سِنّ من انتحال تَصَنُّعاتِ ابنةٍ صغيرة انتحالاً أخرقَ فى الأربعين من العُمُر .

ويُعَدُّ من الذوق الفاسد كلُّ ما يضايق الطبيعة ويَضْغَطُها ، ويَصْدُقُ هذا فى أزياء البدن كما يَصْدُق فى أزياء الذهن ، ويجب أن تأتىَ الحياةُ والصحة والعقل والراحةُ فى المرتبة الأولى ، ولا تكون المَلَاحة بلا راحةٍ مطلقاً ، وليست الرقةُ ذُبولاً ، فلا يَقْضِى الرَّوَقَان بأن يكون الإنسانُ عليلاً ، أجَلْ ، تُثَارُ الرأفةُ عند التألُّم ، غير أن اللذةَ والرغبة تَنْشُدان صحةً ناضرة .

وللأولاد من الجنسين أُلْهُوَّاتٌ مشتركة كثيرة ، وهذا الذى يجب أن يكون ، أوَلَا يكون لهم عين اللَّهْو إذا ما كَبِرُوا ؟ وكذلك يُوجَدُ لهم من الأذواق الخاصة ما يَميزُ بعضهم من بعض ، فالبنون يَنْشُدُون الحركة والضوضاء والطبولَ والدُّوَّام والمَرْكَباتِ الصغيرةَ ، والبناتُ يُفَضِّلْنَ على ذلك ما يُمْتِـعُ النظرَ ويَنْفَعُ للزينة ، كالمرايا والحُلِىِّ والشُّرُط ولا سيما

اللَّعِبُ ، واللُّعْبةُ هى الأُلْهُوَّةُ الخاصة بهـذا الجنس ، وهـذا يدلُّ دلالةً واضحةً على ميلها إلى ما قُدِّرَت له ، وفى الحِلْية تتجلَّى طبيعةُ فنِّ الرَّوَقان ، وهذا كلُّ ما يستطيع الأولاد تَعَهُّدَه من هذا الفنِّ .

وتَرَوْن ابنةً صغيرة تَقْضِي نهارَها حَوْل لُعْبَتِها ، فلا تنفكُّ تُغَيِّر ثيابَها ، فتُلْبِسُها وتُعَرِّيها مئةَ مرةٍ ، ولا تفتأُ تَقُومُ بترتيباتٍ جديدة من الزُّخْرُف حَسَنةِ المطابقة أو سيئةِ الموافقة ، من غير ما ضَرَرٍ ، أَجَلْ ، يُعْوِزُ الأصابعَ مهارةٌ ، ولَمَّا يُكَوَّنِ الذوقُ ، ولـكن مع تَجَلِّى الميل ، ويَمْضِي الوقت وهى منهمكةٌ بذاك العمل الدائم من غير أن تَشْعُر بمروره ، وتَمُرُّ الساعاتُ من غير أن تَشْعُر بمُضِيِّها ، حتى إنها تَنْسَى وَجَباتِها ، فهى أكثر شوقاً إلى الزينة مما إلى الطعام ، ولـكنكم ستقولون إنها تُزَيِّنُ لُعْبَتَها لا شخصَها ، ولا ريبَ فى أنها ترى لُعْبَتَها ، ولا تَرَى نفسَها ، وهى لا تستطيع صُنْعَ شىء لنفسها ، وهى لم تَتَـكَوَّن ، وهى ليست ذاتَ قريحة أو قوة ، وهى ليست شيئاً بَعْدُ ، وهى منصرفةٌ إلى لُعْبَتها دائماً واضعةٌ جميعَ دَلالها فيها ، ولن تَبْقَى هكذا ، فهى تنتظر الزمن الذى تَـكُون فيه لُعْبَتَها بنفسها .

وذاك ، إذَنْ ، أولُ مَيْلٍ مُقَرَّرٍ جيداً ، فما عليكم غيرُ تَتَبُّعِ هذا الميل وتنظيمه ، ولا مِرَاءَ فى أن البنت الصغيرة تَوَدُّ من صميم فؤادها أن تُزَخرف لُعبتَها وأن تُقَوِّم عُقَدَ كُمِّها ومِنْديلَ عُنُقها وتعاريجَ ثوبها وتخاريمَ ردائها ، وهى تُجْعَلُ فى جميعِ هذا من اتِّباعِ ذوقِ الآخرين اتباعاً وثيقاً ما يكون من الخَيْر معه أن تعتمد فيه على حِذْقها ، وهكذا يأتى الباعثُ

الدروس الأولى التى تُلْقَى عليها ، وليست هذه جهوداً تُتَكَلَّفُ بها ، بل ألطافٌ تُحْبَى بها ، والواقعُ أن جميع البنات الصغار يَتَعَلَّمْنَ القراءةَ والكتابة على مَضَضٍ تقريباً ، ولكن استعمال الإبرة هو ما يتعلَّمْنَه عن رضًا دائمًا ، وهن يتصوَّرْن مقدَّمًا أن يَكُنَّ كبيراتٍ فيَرَوْن مع اللذة إمكانَ انتفاعِهن بهذه الأهليات للتَّجَمُّل ذاتَ يوم .

ويَسْهُلُ اتِّبَاعُ هذه الطريقِ الأولى المفتوحة ، فالخِيَاطةُ والتطريزُ والتخريمُ أمورٌ تأتى من نفسها ، وليس وشْىُ الفَرْش وَثِيقَ القُرْبِ من رضاهن ، والنِّجَادةُ كثيرةُ البُعْد منهن ، فالأثاثُ أمرٌ غيرُ تابعٍ للشخص ، وإنما يتعلَّقُ بآراءٍ أخرى ، ويُعَدُّ وَشْىُ الفَرْش أُلْهُوَّةَ النساء ، ولا يساور البناتِ الصغيراتِ كبيرُ رغبةٍ فيه مطلقاً .

ويمتدُّ هذا التقدم الاختيارىُّ بسهولةٍ حتى الرَّسْم ، وذلك لأن هذا الفنَّ ليس غريباً عن فَنِّ اللُّبْسِ الأنيق ، ولكننى لا أُريد شَغْلَهنَّ بالمناظر ، وأقلُّ من هذا شَغْلِى لهن بالهيئة ، وتَكْفِيهنَّ أوراقُ الشجر والفواكهُ ووَشْىُ الفَرْش وكلُّ ما يُمْكِن أن يكون نافعاً لِمَنْحِ الأَزْيان نطاقاً جميلاً ، ولجَعْلِ البنت قاضيةً فى أمر التطريز عندما لا تَجِدُ نَمُوذجًا يُعْجِبُها ، وإذا كان يُهِمُّ الرجالَ ، على العموم ، أن يَقْصِروا دراساتهم على معارفَ نافعةٍ لهم فإن هذا يُهِمُّ النساءَ أكثر مما يُهِمُّهم ، وذلك لأن حياة النساء ، وإن كانت أقلَّ مَشَقَّةً ، وكانت ، أو وَجَبَ أن تكون ، أكثرَ مثابرةً على القيام بواجباتهن ، وأكثرَ تقطُّعًا بمختلف الواجبات ، لا تَسْمَحُ لهن بأن يَتَجَرَّدْن ، عن خِيارٍ ، لأىٍّ من أعمال النبوغ الأخرى ضَرًّا بواجباتهن .

ومهما يكن من قول الساخرين فإن صوابَ كلا الجنسين واحدٌ ، وتكون البناتُ أطوعَ من الصِّبيان على العموم ، ويجب ، مع ذلك ، أن يُتَّخَذ نحوهن سلطانٌ أكثرَ مما يتخذ نحو الصِّبيان كما أُبَيِّنُ ذلك عما قليل ، ولكن لا يُسْتَنْبَطُ من هذا وجوبُ مطالبتهن بشيء لا يستطعن رؤيةَ فائدته ، ويَقُوم فنُّ الأمهات على إراءتهن ذلك في كلِّ ما يأمرنهن به ، وتتجلَّى سهولةُ هذا في كون الذكاء لدى البنات أبْكَرَ نَضْجاً مما عند الصِّبيان ، ولا تُبْعِدُ هذه القاعدةُ من جنسهن ، كما أنها لا تُبْعِدُ من جنسنا ، فقط ، جميعَ الدراسات الفارغة التي لا تؤدي إلى شيء صالح والتي لا تَجْعَل أكثرَ قَبُولاً ، حتى لدى الآخرين ، ما وَضَعه هؤلاء الآخرون ، بل تُبْعِدُ أيضاً جميعَ الدروس التي لا تناسب فائدتها السِّنَّ والتي لا يُمْكِنُ الولدَ أن يُبْصِرَ نفعَها في غيرِ عُمُرٍ متقدم ، وإذا كنتُ لا أُريد ضَغْطَ الغلام كَيْماَ يتعلمُ القراءةَ فإن من الأَوْلى أَلَّا أُريدَ حَمْلَ الفتَيات على القراءة قبل جعلهن يَشْعُرْن بفائدتها جيداً ، ويُرَى من الأسلوب الذي يُطْلَعْنَ به عادةً على هذه الفائدة أننا نَتَّبع فكرَنا الخاصَّ أكثرَ من اتباع فكرهنَّ ، ومع ذلك فما أَرَب البنت أن تَعْرِف القراءة والكتابة باكراً ؟ وهل يَكُون لها على عَجَلٍ منزلٌ تُدَبِّرُ شؤونَه ؟ لا يُوجَدُ غيرُ قليلٍ من هؤلاء من لا يُكْثِرْن إساءةَ استعمال هذه المعرفة المشؤومة ، وجميعُ هؤلاء من كثرة الفُضُول ما لا يتعلَّمْنَ معه ذلك من غيرِ إكراههن عليه ، وذلك عند ما يكون لديهن فراغٌ وفرصةٌ لذلك ، وقد يَجِبُ تَعَلُّمُهن الحسابَ قبل كلِّ شيء ، وذلك لأنك لا ترى كالحساب شيئاً يكون ذا نفعٍ ظاهر في كلِّ حين ويتطلب طويلَ ممارسةٍ

ويَدَعُ مجالاً كبيراً للخطأِ ، وإذا كانت البنت الصغيرة لا تنال كَرَزَ عَصْرُونيتها* إلا بعمليةٍ حسابية أجبتكم بأنها لا تَلْبَث أن تتعلم الحساب .

وقد عَرَفتُ فتاةً تعلمت الكتابةَ قبل أن تتعلم القراءة ، وقد بدأت هذه الفتاة تَعَلُّمَ الكتابة بالإبرة قبل تعلُّمها الكتابةَ بالقلم ، وهى لم تُرِدْ من جميع الكتابة أن تَرْسُم غيرَ حرف O ، وكانت ترسم حرف O بلا انقطاعٍ على أشكالٍ متداخلةٍ كبيرةٍ وصغيرة ومن كلِّ طُولٍ ومع تنكيسٍ ، ومن المؤسف أن رأت نفسَها فى المرآة ذاتَ يومٍ وهى مشغولةٌ بهذا التمرين المفيد فوجدتْ أنها تكون بهذا الوضع المضغوط سيئةَ الظرافة ، كما لو كانت مِنيرْڤَا أخرى ، فألقت القلمَ جانباً وعادت لا تريد رَسْم حرف O ، وكان أخوها لا يُحِبُّ الكتابةَ أكثرَ مما تُحِبُّ ، ولكن الذى كان يَغيظُه هو الضِّيْقُ ، لا المنظرُ الذى يَكْتَسِبه بالضِّيْق ، ويُتَّخَذُ تدبيرٌ آخرُ لردِّها إلى الكتابة ، فبما أن البنت الصغيرة كانت رقيقةً غَرِيرةً لم تَقْبَلْ قَطُّ أن تَلْبَس أخواتُها ثيابَها فكان يُعْلَمُ على هذه الثياب ، فصار يُرْغَبُ عن وَضْعِ علامةٍ عليها ، فوَجَبَ أن تُعْلِمَ البنتُ عليها بنفسها ، وأما بقيةُ الأمر فيُمْكِن تَصَوُّره .

وسَوِّغوا ما تَفْرِضُون على صِغار البنات من جهود ، ولكن افْرِضوا هذه الجهودَ عليهن دائماً ، فالفَرَاغُ والعُقُوقُ كلاهما أخطرُ ما يكون من النقائص على البنات ، وهما أقلُّ ما يُشْفَى منه إذا ما تَعَوَّدْنَهما ، ويَقْضِى الواجبُ على البنات بأن يَكُنَّ حَذِراتٍ مجتهدات ، وليس هذا كلَّ ما فى الأمر ، فيجب

---

* Le goûter

أن يُضَايِقْنَ باكراً ، وإذا كان هذا البلاء ملازماً لهنّ فهو غيرُ منفصلٍ عن جنسهنّ ، وهن لا يتخلَّصْن منه إلّا ليُكابِدْن ما هو أشدّ منه بدرجات ، وهن يَقْضين أعمارَهن مُسْتَعْبَدَاتٍ لأَدْوَمِ ضَيْقٍ وأشدّ عُسْرٍ ، أى ضَيق اللياقة ، ويَجِبُ أن يُعَوَّدْن الاقتسارَ فى البُداءة لكيلا يُكلِّفْهُنَّ شيئاً مطلقاً ، كما يجب أن يُعَوَّدْن قَمْعَ جميع أهوائهن كَيْمَا يُخْضَعْن لعزائم الآخرين ، وإذا أَرَدْن العَمَل دائماً وَجَبَ حَمْلُهنّ على عدم عمل شىء أحياناً ، ويُعَدُّ الإسرافُ والطَّيْشُ والتقلُّب نقائصَ تُولَدُ بسهولةٍ من ميولهن الفاسدة الأولى والتى تُتَّبَعُ دائماً ، وعَلِّمُوهن قَهْرَ أنفسهن على الخصوص مَنْعاً لهذه المساوئ ، وتَقُومُ حياةُ المرأة الصالحة فى مراكزنا الحُمْق على جهادٍ مستمرّ ضِدّ نفسها ، ومن الإنصاف أن يقاسِم هذا الجنسُ أَلَمَ الشُّرور التى أَوْرَثَنَا إياها .

وحُولُوا دُونَ سَأَم البنات فى أثناء أشاغيلهن ودُونَ شَغَفهن فى أُلْهُوَّاتهن ، وذلك كما يَقَعُ ، دائماً ، فى التَّرْبيات العامية حيث يُوضَعُ جميعُ السأم فى ناحيةٍ ويُوضَعُ كلُّ لَهْوٍ فى ناحية أخرى كما قال فِنِيلُون ، وإذاما اتُّبِعَتْ القواعد السابقة فإنه لا يكون للأول من هذين المحذورين مكانٌ إلّا عند عدم وقوع من يحيط بالبنات موقعَ الرِّضا لدى هؤلاء البنات ، فالبنتُ الصغيرة التى تُحِبُّ أمَّها أو صديقتَها تَعْمَلُ نهارَها كلَّه بجانبها من غير سأم ، والهَذْرُ وحدَه هو الذى يُعَوِّضها من جميع ضَيْقها ، ولكنْ إذا كانت لا تُطِيق من تُسَيْطِرُ عليها فإنها تَجْزَع من كلِّ ما تَقَعُ عليه عينها ، ومن الصعب جِدًّا أن يَحْسن ذات يومٍ وَضْعُ البنات اللاتى لا تَسُرُّهن صحبةُ

أمهاتهن أكثرَ مما تَسُرُّهن صحبةُ أيِّ شخصٍ آخر فى العالم ، ولكنْ يَجِبُ ، للحُكْم فى مشاعرهن الحقيقية ، أن يُدْرَسْنَ ، لا أن يُعْتَمَدَ على ما يَقُلْن ، وذلك لأنهن مصانِعاتٌ مُدَاجياتٌ يَعرِفْن التَّنَكُّرَ باكراً ، وكذلك لا يَنْبَغى أن يؤمَرْن بمحبة أمهاتهن ، فالُحبُّ لا يَصْدُر عن واجبٍ مطلقاً ، ولا يَنفَعُ القَسْرُ هنا ، ويَحْمِلُ الوَلَعُ والرعايةُ والعادةُ على حُبِّ البنت لأمِّها إذا لم تَفْعل الأمُّ ما يَجْلِب إليها حقدَ البنت ، حتى إن الضِّيْقَ الذى تُمْسِكُ الأمُّ به ابنتَها ، والذى تُحْسَن إدارتُه ، يَزِيدُ ذلك الولعَ بدلاً من إضعافه ، وذلك لأن الخضُوع إذْ كان أمراً طبيعيًّا لدى النساء فإن البناتِ يَشْعُرْن بأنهن خُلِقْنَ للطاعة .

وهنَّ ، لذات السبب القائل بأن لديهن ، أو يجب أن يكون لديهن ، قليلُ حريةٍ ، يَعْمَلْن بأقصى ما يُترَك لهن منها ، وهنَّ ، إذْ كُنَّ مُتَنَاهياتٍ فى كلِّ شىء ، يَتَجَرَّدْنَ لألعابهن بحُمَيَّا أشدَّ من حُمَيَّا الصِّبيان ، وهذا هو المحذورُ الثانى الذى تكلمتُ عنه ، ويجب أن تكون هذه الُحمَيَّا مشوبةً بالاعتدال ، وذلك لأنها علةُ كثيرٍ من المعايب الخاصة بالنساء ، ومنها هَوَى الوَلَع الذى تنتقل به المرأةُ اليوم إلى هذا أو ذاك الغَرَض الذى لا تُبْصِرُه غداً ، وكذلك تَقَلُّبُ الميولِ هو من الشُّؤْم عليهن كإفراطهن ، ويأتيهن هذا وذاك من ذات المصدر ، ولا تَنْزِعوا منهن الجَذَلَ والضحك والصَّخَبَ والألعابَ المَرِحة ، ولكن حُولُوا دون شَبَعِهن من أحدها طَلَباً لآخرَ ، ولا تدَعُوهنَّ فى حياتهن دقيقةً بلا رادع ، وعَوِّدوهنَّ قَطْع ألعابهن والعَوْدَ إلى أشاغيلهن بلا تَذَمّر ، وهنا تكفى العادةُ وحدَها ، فالعادةُ

لا تَفْعَل غيرَ مساعدة الطبيعة .

وينشأ عن هذا القَسْرِ المعتاد انقيادٌ يحتاج إليه النساء مَدَى حياتهن ما فتئن يَخْضَعْنَ لرجلٍ أو لأحكام الرجال فلا يُسْمَحُ لهنّ أن يَكُنّ فوق هذه الأحكام ، واللطفُ أوّلُ صفاتِ المرأة وأهمُّها ، والمرأةُ إذْ خُلِقَتْ لإطاعة مخلوقٍ كالرجل ناقصٍ أيضاً ، مُفْعَمٍ بالمعايب غالباً ، مملوء بالشوائب دائماً ، وجب أن تتعلّم باكراً أن تَصْبِرَ حتى على الجوْر وأن تحتمل خطأ الزوج من غير أن تشتكى ، وليس عليها أن تكون لطيفةً من أجْلِه ، بل من أجْل نفسها ، ولا تؤدى شراسةُ النساء وعنادُهنّ إلى غير زيادة آلام النساء وسوء معاملتهن من قِبَل الأزواج ، والأزواجُ يَشْعُرون بأنه لا ينبغى لهن أن يَغْلِبْنَهم بهذه الأسلحة ، ولم يَصْنَعْهُنّ الرّبُّ فاتناتٍ مُقْنِعاتٍ ، قَط ، ليَكُنّ شَكِساتٍ ، ولم يَصْنَعْهنّ الرّبُّ ضعيفاتٍ ، قَطُّ ، ليَكُنّ مُتَجَبِّراتٍ ، ولم يُنعِمِ الرَّبُّ عليهن ، قَطُّ ، بصوتٍ بالغِ العُذُوبة ليَنْطِقْنَ بالشتائم ، ولم يَجْعَل الرَّبُّ لهن تلك الملامحَ الدقيقة ليُشَوِّهْنَها بالغضب ، وهنّ إذا ما سَخِطْن نَسِينَ أنفسهن ، أجَلْ ، إن الحقّ بجانبهنّ فى شَكْواهن غالباً ، ولكنهن يكنّ مخطئاتٍ إذاما وَبَّخْنَ ، فكلٌّ مُلْزَمٌ بالمحافظة على لهجة جنسه ، فإذا كان الزوجُ كثيرَ الرقة أمْكنه جعلُ المرأةِ قليلةَ الحياء ، ولكن لطفَ المرأة يَرُدُّه ويتغلّبُ عليه عاجلاً أو آجلاً مالم يكن غُولاً .

وليَكُن البناتُ طائعاتٍ دائماً ، ولكنْ لا ينبغى أن تكون الأمهاتُ متصلِّباتٍ دائماً ، ولا يَجُوز جعلُ البنت تَعِسةً جَعْلاً لها طائعةً ، ولا يَجُوزُ

خَبْلُها جعلاً لها مُحْتَشِمةً ، وعلى العكس لا يَغيظُنى أن يُسْمَحَ لها فى الحين بعد الحين باستعمال شىء من الشَّطَارة ، لا لاجتناب الجزاء على عصيانها ، بل لإعفائها من الطاعة ، ولا يُقْصَدُ جَعْلُ خضوعِها شاقًّا ، فيكفى حَمْلُها على الشعور به ، وتُعَدُّ الحيلة من مواهب الجنس الطبيعية ، وبما أنى قانعٌ بأن جميع المُيُول صالحةٌ مستقيمةٌ بذاتها فإنى أرى تَعَهُّدَ الحيلة كالمُيُول الأخرى ، والمُهِمُّ فى مَنْع سوء استعمالها .

وأَحْتَكِمُ فى صحة هذه الملاحظة إلى كلِّ ناظرٍ حَسَنِ النية ، ولا أُريدُ أن يُفْحَصَ النساء أنفسُهن حَوْل ذلك مطلقاً ، فيُمْكِنُ نُظُمَنا المزعجةَ أن تَحمِلَهن على شَحْذِ أذهانهن ، وإنما أريدُ فَحصَ البناتِ ، وإنما أريدُ فَحصَ صغار البنات اللاتى وُلِدْن حديثاً كما أودُّ أن أقول ، فيقابَلُ بينهن وبين صِغار البنين الذين هم من لِدَاتهن ، فإذا لم يَبْدُ هؤلاء ثقلاء طائشين أغبياء بجانبهن كنتُ مخطئًا لا مِرَاءَ ، ولْيُسْمَحْ لى بإيراد مثالٍ واحدٍ عن السذاجة الصبيانية .

إن من الشائع كثيراً منعَ الأولاد من طَلَبِ شىء حَوْل المائدة ، وذلك لأنه لا يُعْتَقَدُ ، مطلقًا ، ما هو أحسن للنجاح فى تربيتهم من إرهاق هذه التربية بأحكامٍ غيرِ مجدية ، وذلك كما لو كانت القطعةُ من هذا أو ذاك قد مُنِحَتْ أو رُفِضَتْ[1] حالًا من غير أن تؤدىَ ، بلا انقطاعٍ ، إلى موت الولد المسكين بطَمَعٍ شُحِذَ بالأمل ، وكلٌّ يَعْلَمُ شطارةَ الصبىِّ

(١) يصير الولد مزعجاً إذا وجد نفسه فى أن يكون هكذا ، ولكنه لن يطلب الشىء عينه مرتين إذا لم ينقض الجواب الأول على الإطلاق .

الخاضع لهذا النظام والذى يُنْسَى حَوْلَ المائدة فيَعِنُّ له أن يَطْلُب مِلْحًا ، إلخ . ، ولا أقُول إنه كان من الممكن توبيخُه عند طلبه مِلْحًا مباشرةً وعند طلبه لحماً تعريضاً ، فقد كان الإهمال من القسوة ما لا يمكننى أن أعتقد معه عِقابَه عندما خالف النظام جهراً وقال بلا مواربةٍ إنه جائع ، ولكنْ إليك ما وَقَع أمامى من أمرِ ابنةٍ فى السادسة من سِنِيها كانت فى وضْعٍ أصعَبَ من ذلك بدرجات ، وذلك أنها ، فضلًا عن كَوْنها حُظِرَ عليها حَظْراً شديداً أن تطلب شيئًا مباشرة أو تعريضاً ، لم تكن لتستحقَّ العفو عن عصيانها ما دامت قد أكلت من جميع الأطباق عدَا واحداً نُسِىَ إعطاؤها شيئًا منه مع شدة رغبتها فيه .

والواقعُ أنها أرادت تلافىَ ذلك الإغفال من غير أن تُتَّهم بعصيانٍ ، فألقت نظرةً على جميع الأطباق مشيرةً إليها بإصبعها قائلةً بصوتٍ عالٍ : « لقد أكلتُ من هذا ، وقد أكلتُ من ذاك » ، بَيْدَ أنها تخطَّتْ الطبقَ الذى لم تأكل منه من غير أن تقُول كلمةً ، ولكنْ على وجهٍ يُثيرُ انتباهَ بعضهم فيسألُها : « ألم تأكلى من هذا ؟ » ، فتجيب هذه النَّهِمَة الصغيرة مُطْرِقةً قائلةً بلُطْفٍ : « وَىْ ! كلَّا » ، ولا أُضيفُ شيئًا ، وقابلوا بين هذا التدبيرِ الذى هو حيلةُ بنتٍ وذلك التدبيرِ الذى هو حيلة صبىٍّ .

وما هو كائنٌ حسنٌ ، ولا يُوجَدُ قانونٌ عامٌّ سيئٌ ، وتُعَدُّ هذه الشَّطارةُ الخاصة التى حُبِىَ بها الجنس النِّسْوِىُّ تعويضاً عادلًا من القوة التى تُعْوِزُه ، ولولا هذا ما كانت المرأةُ رفيقةَ الرجل ، ولولا هذا لكانت

أَمَةً له ، والمرأةُ بهذه الأفضلية فى المَوْهِبَة تَظَلُّ مساويةً له وتسيطر عليه بإطاعتها إياه ، وكلُّ شيء مضادٌّ للمرأة ، ولها ما يعاكِسُها فى نقائصنا وفى حياتها وضعفها ، ولا يُوجَدُ ما يقول لها غيرُ حِذْقِها وجمالها ، أَوَ ليس من الصواب أن تتعهد هذا وذاك ؟ بَيْدَ أن الجمال ليس عامًّا ، وهو يَزُول بألفِ عارضٍ ، وهو يتلاشى مع السنين ، والعادة تَقْضِي على تأثيره ، واللَّقَانَةُ وحدَها هى وسيلةُ الجنس النِّسْوِيِّ الحقيقيةُ ، لا تلك اللَّقَانَةُ الحمقاء التى تُعَارُ قيمةً كبيرة فى العالم من غير أن يكون لها أقلُّ نَفْعٍ فى جعل الحياة سعيدةً ، بل اللَّقَانَةُ الملائمةُ لحالها ، واللباقةُ فى الانتفاع بحالنا والتغلُّبِ على منافعنا الخاصة ، ولا يُعْرَفُ مقدارُ ما لَنَا من فائدةٍ فى حِذْقِ النساء هذا ، ولا مقدارُ ما يُضِيفُ من فُتُونٍ إلى مجتمع الجنسين ، ولا مقدارُ نَفْعِه فى قَهْرِ نَزَق الأولاد ، ولا مقدارُ ما يَرْدَع من أزواجٍ غِلَاظ ، ولا مقدارُ ما يَحْفَظُ من راحةٍ فى المنزل الذى يَسُودُه الشِّقاقُ لولا ذلك ، وأَعْرِف أن النساء الماكراتِ الخبيثاتِ يُسِئْنَ استعمال ذلك ، ولـكن ما الشىء الذى لا يُسَاء استعمالُه بالعيب ؟ فلا نَقْضِ ، مطلقًا ، على وسائل السعادة لأن الخبثاء يستعملونها للأذى أحيانًا .

ويُمْكِنُ الإشراقُ بالحُلِيِّ ، ولـكن لا يُرَاقُ بغيرِ الشخص ، ولسنا أَزْيانَنا مطلقًا ، وفى الغالب تَعْطَلُ أَزْيانُنا بقوة ما تُبْتَغَى ، وفى الغالب تكون الأَزْيَانُ التى تُوجِبُ ملاحظةَ مَنْ تَحْمِلُها أقلَّ ما يُلاحَظُ ، وتكون تربيةُ الفَتَياتِ عندنا على عكس ذلك تمامًا ، فهنَّ يُوعَدْن بأَزْيانٍ مكافأةً ، وتُحَبَّبُ إليهن الحُلِيُّ المنشودةُ ، ويُقَالُ للواحدة منهن

عند ما تَزَيَّنَّ كثيراً : « يا لها من جميلة ! » ، مع أن العكس هو ما يجب أن يقال لهن فيَسْمَعْن أنه لا يُقصَدُ بكثرة الزينة غيرُ سَتْرِ النقائص ، وأن فَوْزَ الجمالِ الحقيقيّ هو بإشراقه بنفسه ، ويُعَدُّ حُبُّ المُوْضَات من فساد الذوق ، فالوجوهُ لا تتغير بها ، وبما أن الوجهَ يَبْقَى كما هو فإن ما يُلَائِمه مرةً يُلَائِمه دائماً .

ومتى أبْصَرْتُ الفتاةَ تَميسُ فى حِلْيَتها صَرَفتُ هَمِّى إلى وَجْهها الذى نُكِّرَ على هـذا النحوِ وإلى ما يُمْكِنُ الناسَ أن يُفَكِّرُوا فى أمرها ، فأقول : « إن جميع هذه الزخارف تُزَيِّنُها كثيراً ، فيـا لَلْخَسَارة ! أوَ تَظُنُّون إمكانَ اصطبارها على ما هو أبسطُ ؟ وهل هى من الجمال ما يُمْكِنُها أن تستغنىَ معه عن هذا أو ذاك ؟ » ، ومن المحتمل أن تكون إذْ ذاك أولَ مَنْ يَرْجُو نَزْعَ هذه الزينة عنها ، فيُحْكَمُ فى أمرها وهى فى هذه الحال ، ويُرَى هل يُوجَدُ محلٌ للإعجاب بها ، ولن أُثْنِيَ عليها ، مُطْلَقاً ، ما لم تَكُنْ بسيطةَ المَلْبَس إلى أبعد حَدٍّ ، وهى إذا لم تَعُدَّ الحِلْيَةَ غيرَ مُتِمَّةٍ لألطافِ الشخص وغيرَ اعترافٍ ضِمْنِيٍّ باحتياجها إلى مساعَدَةٍ اترُوق لم تَزْهُ بزَيْنِها قَطُّ واعتراها صَغَارٌ منه ، وهى إذا ما ازَّيَّنَتْ بأكثرَ من المألوف وسمعتْ مَنْ يَقُول : « يا لها من جميلةٍ ! » احمرَّ وجهُها غيظاً .

ومع ذلك فإنه يُوجَدُ من الهيئات ما يحتاج إلى حِلْيَة ، ولكنه لا يُوجَدُ منها ما يحتاج إلى حُلِيّ ثمينة مطلقاً ، فالحُلِيُّ المؤديةُ إلى الإفلاس هى من خُيَلَاء الطبقة ، لا من مقتضيات الشخص ، وهى مَنُوطةٌ بالمُبْتَسَر حَصْراً ، أَجَلْ ، إن الدلال الحقيقيّ مرغوبٌ فيه أحياناً ، ولكنه ليس مُخْتَالاً مطلقاً ،

وقد كان جُونُونُ أَبْهَى من ڤينُوسَ لباساً ، وقد قال أَپيلُ لمصورٍ رديء كان قد صَوَّر هِيلانة زاخرةً بالجواهر : « إنك لم تَقْدِرْ أن تجعلَها جميلةً ، فجعلتَها غنيَّةً » ، ومما لاحظتُ ، أيضاً ، أن أفخمَ الحُلِيِّ يَنِمُّ على نساء شُوهٍ في الغالب ، فلا يُعْرَفُ غُرُورٌ أخرقُ من ذاك ، وأَعْطُوا فتاةً ذاتَ ذوقٍ ، وذاتَ ازدراءٍ للمُوضَة ، أَوْشحةً وشُفُوفاً ومَوْصِليًّا وأزهاراً بلا ألماس وبلا باقاتٍ من حريرٍ ومُخَرَّماتٍ[1] ، تَرَوْها صانعةً لزينةٍ تَجْعَلُها أكثرَ فُتُوناً مئةَ مرةٍ مما يَجْعلُها جميعُ نسائج لأَدُوشَاب المتألِّقة .

وبما أن الحَسَنَ حَسَنٌ دائماً ، وبما أنه يجب أن يَكُون أحسنَ ما يُمْكِنُ دائماً ، فإن النساء اللائى يَعْرِفْنَ من هُنَّ بالأَزْيان يَخْتَرْن ما حَسُنَ ويتمسَّكْنَ به ، ولا يُغَيِّرْن شيئاً منه فى كلِّ يوم ، وهنَّ يَكُنَّ أقلَّ اشتغالاً به من اللاتى لا يَعْرِفْنَ أين يَثْبُتْنَ ، وتَقْتضى الرغبةُ الحقيقية فى الحُلِيِّ قليلَ تَبَرُّجٍ ، ومن النادر أن يَتَبَرَّج الأوانس تبرجاً بهيًّا ، فهنَّ يَقْتُلْن نهارَهنَّ بالشُّغْل والدروس ، ومع ذلك فإنك إذا عَدَوْت الحُمْرَةَ وَجَدْتَهن كالسيدات عنايةً باللباس وأحسنَ منهن ذوقاً فيه غالباً ، وليس سوء استعمال الزينة كما يُفَكَّرُ فيه ، فهو ينشأ عن السَّأم أكثرَ مما عن الزَّهو ، ولا تَجْهَلُ المرأة التى تَقْضِى ستَّ ساعاتٍ فى زينتها أنها تَفْرُغُ منها بحالٍ أحسنَ من حال التى تَقْضِى فيها نصفَ ساعةٍ فقط ، ولكن هذا يَنْطَوِى على تَخَلُّصٍ من الوقت الطويل القاتل ، فالأَوْلَى للإنسان أن يَتَلَهَّى من

---

(١) يزرى النساء ، اللائى يكن من بياض الجلد ما يستغنين معه عن المخرمات ، بغيرهن إذا لم يلبسنها ، ويكاد يكون النساء الشوه وحدهن من يأتين بالموضات التى يخضع لها الحسان عن غباوة .

أن يَتبَرَّم بكلِّ شيء ، وما يُصْنَعُ بالحياة فيما بين الظُّهر والساعة التاسعة لولا الزينةُ ؟ وإذا ما جَمعتْ نساءً حَوْلَها تَلَهَّتْ بإفراغ صبرهن ، وهذا شيء يُذْكَر ، وهي بهذا تجتنب مواجهةَ زوجها الذي لا تراه في غير ذلك الوقت ، وهذا أكبرُ من ذلك كثيراً ، ثم يأتي التجار وباعةُ التُّحَف وصِغارُ السادة وصِغارُ المؤلِّفين والأشعارُ والأغاني والرسائلُ ، ولولا التَّبَرُّجُ ما جُمِعَ جميعُ هؤلاء مطلقاً ، وتقوم فائدةُ هذا الوحيدةُ الحقيقيةُ على كَوْنه ذريعةً للمباهاة بأكثرَ مما بالادِّثار ، ومن المحتمل ألَّا تكون هذه الفائدةُ كبيرةً كما يُظَنُّ ، ولا يَكْسِبُ النساء من ذلك بمقدار ما يَقْلْنَ ، وأنعِمُوا بتربية المرأة على النساء بلا وَسْواسٍ ، واجْعَلُوا منهن مُحِبَّاتٍ لجنسهن ذواتِ حياء عارفاتٍ بالسَّهَر على تدبير منازلهن والعناية ببيوتهن ، فبهذا يتوارى التَّبَرُّجُ الأكبر من تلقاء نفسه ، ولا يَلْبَسْن عن غيرِ أفضلِ ذوق .

وأولُ شيء يراه الفتَياتُ إذا ما كَبِرْنَ هو أن جميعَ هذه المَلاحاتِ الخارجيَّةَ لا تكون كافيةً لهن ما لم يَكُنَّ حائزاتٍ لطائفَ ذاتيةً ، أجَلْ ، لا يُمكِنُ انتحالُ الجمال مطلقاً ، ولا يَستَطِعْن نَيلَ الدَّلال عاجلًا ، غير أنهنَّ قادراتٌ أن يُحاوِلْنَ ، منذ البُداءة ، منحَ حركاتِهن حالاً مقبولاً ، ومَنحَ أصواتهن نَبْرَةً مُدارِيَةً وإنشاءهن طَوْراً لأنفسهن ، وسيرَهن مع خفةٍ ، واتخاذَهن أوضاعاً لطيفة ، واختيارَهن نافعاً لهن في كلِّ مكان ، ويمتدُّ الصوت ويتقوَّى ويكون ذا رَنِين ، وتنمو الذِّرْعان ، ويَثْبُتُ الخَطْوُ ، ويُبْصَرُ وجودُ فَنٍّ يُوَجِّهُ الأنظارَ إلى الشخص مهما كان زِيُّ الرِّداء الذي يُرْتَدَى ، وهنالك يَعُود الأمرُ غيرَ مُتَوَقِّفٍ على الإبْرَة والصِّناعة ،

فقد أخذت تَبْدُو مواهبُ جديدةٌ كان قد شُعِرَ بفائدتها .

« وأعْرِف أن المعلمين الأشدَّاء يريدون ألاَّ يُعلَّمَ الفتَيات غِناء ولا رَقْصاً ولا فنّاً من الفنون اللطيفة ، ويَلُوح لى هذا مُضْحِكاً ، ومن يَوَدُّون أن يتعلمها إذَنْ ؟ أيتعلَّمُها البنون ؟ ومَنْ مِنَ الرجال أو النساء ينال هذه المواهبَ تفضيلاً ؟ يُجِيبُون عن هذا بقولهم : لا أحدَ من هؤلاء ولا من أولئك ، فالأغانى الدنيوية من الجرائم والرقصُ من صُنْعِ الشيطان ، ولا يجوز أن تَتَلَهَّى البنتُ بغير عملها وصَلَاتها ، وهذه هى الأُلْهُوَّاتُ الغريبة لولدٍ فى العاشرة من سِنِيه ! وأما أنا فأخشى كثيراً ألاَّ يَقْضِيَ هؤلاء القِدِّيساتُ الصغيرات ، اللاتى حُمِلْنَ على قضاء صِبَاهن فى الصلاة إلى الرَّبِّ ، شبابَهن فى أمرٍ آخر ، وألَّا يُعَوِّضْن أنفسَهن أزواجاً من الوقت الذى أضَعْنَه بناتٍ ، وأرى من الواجب أن يُرَاعى ما يناسِبُ السِّنَّ كما يُرَاعى ما يناسِبُ الجنسَ ، وأنه لا ينبغى أن تَقْضِيَ البنتُ حياةً كحياة جَدَّتِها ، وأنه يجب أن تكون نشيطةً مازحةً لَعُوباً فتَتَغَنَّى وتَرْقُصَ ما رَاقَها الغِناءُ والرقصُ وتَذُوقَ جميعَ ملاذِّ جنسِها الطاهرةِ ، فلَسُرْعانَ ما يَحِينُ زمنُ الرَّزَانةِ واتخاذِ وضعٍ يكون أكثرَ رَصانةً . »

ولكنْ هل ضرورةُ هذا التحوُّلِ حقيقيةٌ بذاتها ؟ أليس من الممكن ألاَّ تكون ثمرةَ مُبْتَسَراتِنا ؟ لقد أُقْصِيَ عن الزواج كلُّ ما يَجْعَلُه مستحبّاً لدى الرجال نظراً إلى تعبيد النساء الصالحات لكَئِيبِ الواجبات ، وهل يَجِبُ أن يُعْجَبَ من كَوْن الصمت القاتم الذى يَسُود منازلَهم يَطْرُدُهم منها ، أو من كَوْنِهم يُفْتَنُون قليلاً بانتحال حالٍ مُسْتَكْرَهةٍ كثيراً ؟ إن النصرانية

بمجاوزتها الحدَّ فى جميع الواجبات تجْعَلُ هذه الواجباتِ فارغةً غيرَ عملية ، وإن النصرانية بحَظْرِها الغِناء والرقصَ وجميعَ أُلْهُوّاتِ العالَمَ على النساء تَجعل النساء عابساتٍ مُعَزَّزاتٍ لا يُطَقْنَ فى بيوتهن ، ولا تَجِدُ دِيناً يُجْعَلُ الزواجُ فيه خاضعاً لواجباتٍ شديدةٍ جِدًّا كهذا الدين ، ولا تَجِدُ ديناً يُسْتَخَفُّ فيه بمثل هذا العقد المقدس كما يُسْتَخَفُّ به فى هذا الدين ، وقد صُنِعَ ما يَمْنَعُ النساءَ من أن يَكُنَّ أنيسات بمقدار ما صُنِعَ لجَعْلِ الأزواج أخلياءَ غيرَ مكترثين ، ولا يَنْبَغِى أن يَقَعَ هذا ، وهذا ما أُدْرِكه جيداً ، ولكننى أقول إنه لا بُدَّ من وقوع هذا ما دام النصارى من الناس نتيجةً ، وإنما أُرِيدُ أن تَتَعَهَّدَ الإنكليزيةُ بعنايةٍ فائقةٍ ما يَطِيبُ من المواهب لتَرُوقَ الزوجَ الذى سيكونُ لها كما تتعهدُها الألبانيةُ من أَجْلِ دائرة الحريم فى أصْبَهان ، ويقال إن الأزواج لا يُبالون بجميع هذه المواهب ، وهذا ما أذهبُ إليه حَقًّا ، وذلك أن هذه المواهبَ بعيدةٌ من الوقوع عندهم موقعَ الرِّضا فلا تَنفَعُ أن تكون غيرَ طُعْمٍ لاجتذابِ شُبّانٍ خالِعِى العِذار إلى منازلهم التى يَشِينُونها ، ولكنْ أتَرَوْن أن المرأةَ اللطيفةَ الحكيمةَ المُزَيَّنَةَ بمثل هذه المواهب ، والواقفةَ لهذه المواهب على تسلية زوجها ، لا تَزِيدُ فى سعادة حياته ، وأنها لا تَمْنَعُه ، إذا ما خَرَجَ من مكتبه مَنْهُوكَ الرأس ، من البحث عن التسليـة خارجَ منزله ؟ ألم يَرَ أحدٌ أُسَراً سعيدةً مجتمعةً على هذا الوجه فيَعْرِفُ كلٌّ واحدٍ أن يساعِدَ من قِبَله على الأُلْهُوّات المشتركة ؟ ولْيَقُلْ هل الثقةُ والدَّالَّةُ اللازمتان لذلك ، وهل نقاوةُ المَلاذِّ وعذوبتُها اللتان تُذاقان هنالك ، أمورٌ لا تُغنِى عما يلازم المَلاذَّ العامة من صَخَبٍ بالغ ؟

وقد أُمْعِنَ في رَدِّ المواهب المستحَبَّة إلى فُنُونٍ ، وقد أُمْعِنَ في تعميمها ، وقد جُعِلَ كلُّ شيء مبادئَ وقواعدَ ، وقد أُورِثَ الشبابُ سَأَماً شديداً في كلِّ ما لا ينبغي أن يكون له غيرُ لَهْوٍ وألعابٍ مَرِحةٍ ، ولا أتصورُ أمراً أدعى إلى السُّخْرية من مشاهدةِ معلمٍ للرقصِ أو الغِناء شائبٍ يقابل عابساً شباباً لا يَطْلُب غيرَ الضَّحِك ويَتَّخِذُ لتعليمه علمَه الطائشَ لهجةً أكثرَ حَذْلَقةً وأعظمَ تَحَكُّماً مما يَتَّخِذُ لو كان يُعَلِّمُهم أُصولَ دينهم ، وهل فَنُّ الغِناء ، مَثَلاً ، تابعٌ للموسيقا المسطورة ؟ أَوَ لا يُمْكِن جَعْلُ الصوتِ لَيِّناً مستقيماً وتَعَلُّمُ الغِناء بالذوق ، حتى بالمصاحبة ، من غير أن تُعْرَف نوتةٌ* واحدة ؟ وهل يلائمُ نوعُ الغِناء الواحد جميعَ الأصوات ؟ وهل يناسبُ عينُ المِنْهاج جميعَ النفوس ؟ ولن أُحْمَلَ على القول بأن عينَ الأوضاع وعينَ الخُطُوات وعينَ الحركات وعينَ الإشارات وعينَ الرَّقَصات التي تُوَافِقُ صغيرةً سمراءَ نشيطةً جَذَّابةً توافِق شقراء طويلةً حسناء ذاتَ عينين ذابلتين ، ولِذا فإذا ما رأيتُ معلماً يُلْقِي على الاثنتين ذاتَ الدروس تماماً قلتُ : « إن هذا الرجل يَتَّبِعُ رُتَيْبَه ، ولكنه لا يَفْقَه شيئاً من فَنِّه » .

ويُسْأَل : هل يجب أن يكون للبنات معلِّمون أو معلِّماتٌ ؟ لا أدري ، وإنما أُريدُ ألَّا يَحْتَجْنَ إلى هؤلاء أو أولئك ، وإنما أريد أن يتعلَّمْنَ بحريةٍ ما يَمِلْنَ كثيرًا إلى تعلُّمِه ، وإنما أُريد ألَّا يُرَى طوافُ كثيرٍ من المُهَرِّجين المُتَبَرِّجين في مُدُننا طَوَافاً غيرَ منقطع ، ويَصْعُب عليَّ أن

La note *

أعتقد أن ضَرَّ معاشرةِ هؤلاء الناس على الفتيات لا يكون أعظمَ من نفع دروسهم لهنّ ، وأن رَطانتهم ولهجتهم ومظاهرهم لا تَمنَحُ طالباتِهم أولَ ذَوْقٍ للترّهاتِ المهمةِ لديهم كثيرًا فلا يَلْبثْنَ أن يَسِرْنَ على مثالهم جاعلاتٍ منها شُغْلَهنّ الوحيد .

وفى الفنون التى لا تَهدِف إلى غير اللهو يَصْلُحُ كلٌّ أن يكون معلّمًا لهنّ ، ومن ذلك أبوهن وأمهن وأخوهن وأختهن وصديقاتهن ومرآتهن ، ولا سيما ذوقهن الخاصُّ ، ولا يَجُوز ، مطلقًا ، أن يعرِضَ إلقاء دروسٍ عليهن ، فالواجبُ يَقضى بأن يَكنّ اللائى يطلُبْنَ ذلك ، ولا يَجُوزُ ، مطلقًا ، أن يُؤتَى عملٌ يُعَدُّ مكافأةً ، ففى هذه الأنواعِ من الدروس على الخصوص يَكُون النجاحُ الأول فى إرادة النجاح ، ومع ذلك فإنه إذا كان لا بُدَّ من الدروس المنتظمة فإننى لا أقرِّر ، مطلقًا ، أىُّ الجنسين يجب أن يُعطِيَها ، ولا أدرى هل يَجُوزُ أن يأخُذَ معلمٌ للرقص طالبةً فتاةً من يدها الناعمة البيضاء وأن يَحمِلَها على تَشمِير تَنُّورتها* ورَفْعِ عينيها وبَسْطِ ذراعيها وإبرازِ صدرها المُختلج ، وإنما أَعلَمُ أنه لا يُوجَدُ فى العالَمِ من يستطيع إغوائى بأن أكون ذاك المعلّم .

ويَتكوّن الذوقُ بالحِذْق والمَناقب ، وبالذوق يَتفتّقُ الذهنُ تَفتُّقًا غيرَ محسوسٍ لمبادئ الجمال من كلّ نوعٍ ، ثم لمبادئ الأخلاق التى ترجِعُ إليها ، وقد يَكُون هذا من الأسباب فى كون حِسّ اللُّطف والحياء يَنسابُ إلى البنات بأبكَرَ مما إلى البنين ، وذلك لأن الذهاب إلى أن هذا الحِسَّ

---

* La jupe

الباكر من عمل المُرَبِّيَات يَنطَوِى على جهلٍ بأسلوب دروسهن وبسَيْرِ الذهن البشريِّ ، وتَحْتَلُّ موهبةُ الكلام مكانَ الصَّدارة فى فنِّ الرَّوْقان ، وبهذه الموهبة وحدَها يُمكِن أن يضافَ فُتُونٌ جديد إلى مَنْ تُكِلُّ العادةُ حواسَّهم ، ولا يُنعِشُ الذهنُ البدنَ فقط ، بل يُجَدِّدُه من بعض الوجوه ، وهو يُحْيِي المُحَيَّا ويُحَوِّلُه ، وهو بالكلام الذى يُوحى به يَجْعَلُ الانتباه المُسْتَكَدَّ سَنَداً لعَيْنِ المصلحةِ حَوْلَ عَيْنِ الغاية لزمنٍ طويل ، ولجميع هذه الأسباب ، على ما أعتقد ، ينال البنات بسرعةٍ شيئًا من الهَذَر المستعذَب ، ويَضَعْنَ نبَرَاتٍ فى أحاديثهن ، حتى قَبْلَ أن يَشْعُرْن بها وقَبْلَ أن يَلْهُوَ الناس بالاستماع لها بعد قليل ، حتى قَبْلَ أن يستطعن إدراكَها ، والناسُ يرْقُبْنَ الساعةَ الأولى لهذا الإدراك نُفُوذاً إلى أولِ شعورٍ على هذا الوجه .

ولسانُ النساء لَيِّنٌ ، فهن أبكرُ نُطْقاً من الرجال وأسهلُ كلامًا وألطفُ قولاً ، وهنَّ يُتَّهَمْنَ ، أيضًا ، بأنهنَّ أكثرُ منهم حديثًا ، وهذا ما يجب أن يكون ، وسأُحَوِّل هذا اللومَ إلى ثناء أيضًا ، وذلك أن للفم والعينين عندهنَّ نفْسَ الفعل وذاتَ السبب ، والرجلُ يقول ما يَعْلَمُ ، والمرأة تقول ما يَرُوقُ ، والرجلُ يحتاج إلى معرفةٍ ليتكلم ، والمرأةُ تحتاج إلى ذوقٍ لتتكلم ، والرجلُ يجب أن تكون لديه أمورٌ مفيدة كغَرَضٍ رئيسٍ ، والمرأةُ يجب أن تكون لديها أمورٌ لطيفة كغرضٍ رئيس ، ولا يجب أن يكُون بين كلامهما من أوجه الشَّبَه غيرُ الصِّدْق .

ولِذَا لا يَجِبُ أن يُلْجَمَ هَذَرُ البناتِ ، كما يُلْجَمُ هَذَرُ البنين ، بهذا

السؤال الشديد ، وهو : « ما فائدة هذا ؟ » ، بهذا السؤال الآخر الذى لا يَسْهل الجواب عنه ، وهو : « ما الأثرُ الذى سيؤدى إليه هذا ؟ » ، وفى ذاك الدور الأول من العمُر ، حين يَعْجِزْن عن تمييز الخيرِ من الشرِّ ، لا يَكُنَّ قاضياتِ أحدٍ ، فيجب أن يُلزِمْنَ أنفسَهنَّ بدُستورٍ قاضٍ بألَّا يَقُلْنَ غيرَ ما يكون مُسْتَحَبًّا عند مَنْ يخاطِبْنَ ، والذى يَجْعَلُ استعمالَ هذه القاعدة أكثرَ صعوبةً هو بقاؤها تابعةً للأولى دائماً ، أى عدمُ الكذب مطلقاً .

وهنالك أجِدُ مصاعبَ كثيرةً أخرى أيضاً ، غير أنها خاصةٌ بدَوْرٍ من العمر أكثرَ تَقدماً ، وأما الآن فلا يقتضى كَوْنُ الفَتَياتِ صادقاتٍ غيرَ كَوْنِهنّ هكذا بلا غِلْظَةٍ ، وبما أن هذه الغِلْظَةَ غيرُ ملائمةٍ لهن عن طبيعة فإن من السهل أن تُعَلِّمَهن التربيةُ اجتنابَها ، وألاحِظُ فى معاشرة الناس على العموم أن أدبَ الرجال يكون مُسْعِفاً وأدبَ النساء يكون مُلَاطفاً ، وليس هذا الفرقُ وضعيًّا ، بل طبيعىٌّ ، فالرجلُ يَلوحُ أنه أكثرُ محاولةً ليَخْدُمَكم ، والمرأةُ تَلوح أنها أكثرُ محاولةً لتَرُوقَكم ، ومن ثَمَّ يَكُون أدبُ النساء أقلَّ زُيُوفاً من أدَبنا مهما قِيلَ عن أخلاقهن ، وذلك أن ذاك الأدب لا يُوجِبُ غيرَ توسيع غريزتهن الأولى ، ولكن متى تظاهر الرجل بأنه يُفَضِّل مصلحتى على مصلحته الخاصة لم يخامرنى شكٌّ فى أنه أتى أكذوبةً مهما حاول تَمْوِيهَها ، ولِذا فإنَّ كَوْنَ النساء ذواتِ أدبٍ لا يُكلِّفُهنَّ شيئاً ، كما أنه لا يُكلِّفُ البناتِ شيئاً ، من حيث النتيجةُ ، تَعَلُّمُهنَّ أن يَصِرْنَ ذواتِ أدب ، ويأتى الدرسُ الأول من الطبيعة ، ولا يَصْنَعُ الفنُّ غيرَ اتِّبَاعِها وغيرَ تعيينِ الشكل الذى يَبْدُو به الأدَبُ وَفْقَ عاداتنا ، وأما أدبُ النساء

فيما بينهن فأمرٌ آخرُ تماماً ، فهنّ يَبْلُغنَ من جَعْلِهنّ له ظاهراً من القَهْرِ وفاتراً من الالتفات ما لا يُعْنَيْن معه بإخفاء ضَيْقِهنّ إذا تَضَايَقْنَ مبادلةً ، وهن يَلُحْنَ من الإخلاص حتى فى كَذِبِهن ما لا يحاوِلْن معه تنكيرَه ، ومع ذلك فإن الفتياتِ يأتين من الصَّداقاتِ أحياناً ما يَنْطوِى على أبلغ صدقٍ ، ويَقُومُ المَرَحُ فى سِنِّهن مقامَ حُسْنِ الوضْعِ ، وهنّ إذْ كُنّ راضياتٍ عن أنفسهن فإنهنّ يَكُنّ راضياتٍ عن جميع الناس ، ومن الثابت أيضاً أنهن يَتَلَاثَمْنَ عن طِيبَةٍ ويتعانقن بأعظمِ لطفٍ أمام الرجال مُخْتَالاتٍ بشَحْذِهن الحِرْصَ بلا عِقَابٍ ، وذلك بصورة الألطاف التى يَعْرِفن إثارةَ غَيْرتِهم نحوَها .

وإذا كان من غير الجائز أن يُسْمَح للبنين بأن يُورِدُوا أسئلةً مخالفةً للرّصانة فإن من الأجدر أن تُحْظَرَ على الفتياتِ اللاتى يكون لفُضُولهنّ عند قضائه وسوء إقصائه نتيجةٌ أخرى ، وذلك نظراً إلى بَصَرِهنّ الثاقب فى تَبَيُّنِ ما يُكتَمُ عنهن من أسرارٍ وحِذْقهنّ فى كَشْفِ هذه الأسرار، ولكننى ، من غير إباحةٍ لأسئلتهن أريد أن يُكْثَرَ من وَضْعِ أسئلةٍ لهن ، فيُعْنَى بحَمْلِهن على الكلام ، ويُثَرْنَ تدريباً لهن على الكلام بسهولةٍ وجعلًا لهن سريعاتٍ فى الجواب وحَلاًّ لعُقْدَةِ ذهنهنّ ولسانهن ، ولكنْ بشرط السّلامة ، وتُسْفِرُ هذه الأحاديثُ المحوَّلةُ إلى مَرَحٍ دائمًا ، ولكن مع مداراةٍ بمهارةٍ وحُسْنِ توجيهٍ ، عن لَهْوٍ فاتنٍ فى تلك السِّنِّ ، فيُمْكِنُ أن تَحْمِلَ فى أفئدةِ هؤلاء الفتيات البريئة أولَ ما يَتَلَقَّيْنَ فى حياتهن من دروسٍ فى الأخلاق وأنفعَ ما يُمْكِن من هذه الدروس ، وذلك بتعليمهن ، عن جَذْبٍ من اللذةِ والزهو ، أىُّ الصفاتِ يَمْنَحُ الرجالُ تقديرَهم بالحقيقة ، وأىُّ

الأمور يقوم عليها مَجْدُ المرأة الصالحة وسعادتُها .

ومما يُدْرَكُ جيداً أن الذكورَ من الأولاد إذا كانوا عاجزين عن تكوين فكرةٍ حقيقية حَوْل الدِّين فمن الأَحْرَى أن تكون عَيْنُ الفكرة فوق متناوَل البنات ، ولذات العلة أُريدُ أن أُسْرِع فى مخاطبة هؤلاء عن الدين ، وذلك لأنه إذا ما رُئى انتظارُ بلوغهن الحالَ التى يناقِشْنَ فيها نِقاشاً أُصُولياً حَوْلَ هذه المسائل العميقة وَقَعَ خَطَرُ عدمِ مكالمتهن بعد ذلك فى أمر الدين مطلقاً ، ويُعَدُّ عَقْلُ النساء عقلاً عمليًّا يَجِدْنَ به ، مع المهارة ، وسائلَ الوصول إلى الغَرَض المطلوب ، ولكنْ مع عدم انتهائهن به إلى كَشْفِ هذا الغَرَض ، وتُعَدُّ صلةُ الجنسين الاجتماعيةُ أمراً عجيباً ، وينشأ عن هذه الشركة شخصٌ معنوىٌّ تَكُون المرأةُ عينَه ويَكُون الرجلُ ذراعَه ، ولكنَّ المرأةَ ، باتِّبَاعِ كلٍّ من الجنسين للآخر ، تَتَعَلَّمُ من الرجل ما يَجِبُ أن ترَى ، كما يتعلم الرجلُ من المرأة ما يَجِبُ أن يَعْمَل ، وإذا كانت المرأةُ تستطيع ، كما يستطيع الرجلُ ، أن تَطَّلِعَ على المبادئ ، وإذا كان الرجلُ يستطيع ، كما تستطيع ، أن يَنفُذَ فى الجزئيات ، فإنهما يعيشان فى شقاق دائم ولا تستطيع شركتهُما أن تَبْقَى ، ولكنَّ كُلاًّ منهما يَهْدِف إلى الغَرَض المشترك بفعل ما يكون بينهما من انسجام ، ولا يُعْرَفُ أىٌّ منهما يكون أكثرَ تقديماً من الآخر ، فكلٌّ منهما يَتَّبِعُ دافعَ الآخر ، وكلٌّ منهما يُطِيعُ ، وكلاهما سيدٌ .

وبما أن المرأةَ خاضعةٌ فى سلوكها للرأى العامِّ فإنها خاضعةٌ فى مُعْتَقَدِها للسلطان ، ويجب أن تَكُون كلُّ بِنْتٍ على دينِ أُمِّها ، ويجب أن

تكون كلُّ امرأةٍ على دين زوجها ، وإذا كان هذا الدين على خطأٍ فإن الطاعةَ التى تَخْضَعُ بها الأمُّ والأُسْرَةُ لأمر الطبيعة تَمْحُو ذَنْبَ الخطأ لَدَى الرَّبِّ ، وإذْ يَعْجِزُ البناتُ عن القضاء فى أمر أنفسهن فإنه يجب عليهن أن يَتَلَقَّيْن حُكْمَ الآباء والأزواج كما يَتَلَقَّيْن حكمَ الكنيسة .

وبما أن النساء لا يَسْتَطِعْنَ أن يَسْتَنْبِطْن بأنفسهن قاعدةَ إيمانهن فإنهن لا يَسْتَطِعْنَ أن يَمْنَحْنَه حدودَ اليقين والعقل ، ولكنْ بما أنهن يَدَعْنَ أنفسهن تُساق بألفِ دافعٍ أجنبيٍّ فإنهن يَكُنَّ من ناحية الحقِّ هذه أو تلك على الدوام ، وبما أنهن متطرِّفاتٌ دائماً فإنهن يكن فاسقاتٍ أو تَقِيَّات ، ولا يُرَيْنَ جامعاتٍ بين الحكمة والوَرَع مطلقاً ، ولا يَكُون مَنْبَعُ السّوء في طَبْعِ جنسهن المُفْرِط فقط ، بَلْ ، أيضاً ، فى سلطان طبعنا السيئ التنظيم أيضاً ، ومن شأن فِسْقِ الطبائع أن يُزْدَرى الدين ، ومن شأن رُعْبِ التوبة أن يكون الدين طاغياً ، وهكذا تَرَى كيف يكون الإفراط والتفريط فيه .

وبما أن على السلطان أن يُعَيِّنَ دينَ النساء فإن المهمَّ هو فى عَرْض ما يُعْتَقَدُ عليهن بجلاء أكثر مما فى شَرْح ما يَعْتَقِدْن ، وذلك لأن ما تُخْتَبَى به الأفكارُ الغامضةُ من إيمانٍ هو أولُ مصدرٍ للتعصب ، ولأن الإيمان الذى يُطْلَبُ من أجْلِ أمورٍ مستحيلة يؤدِّى إلى الجنون أو الكُفْر ، ولا أدرى أىُّ الأمرين أكثر ما تؤدى إليه كتب أصول الدين عندنا : الإلحاد أو التعصب ، وإنما أَعْرِفُ أنها تُسْفِرُ عن هذا أو ذاك بحُكْم الضرورة .

وأولُ ما يجب عليكم فى تعليم الفَتَيَاتِ الدينَ ألَّا تَجْعَلوا منه مَوْضعَ

غَمٍّ وضِيقٍ مطلقاً ، وألّا تجعَلوا منه شُغْلاً ولا واجباً مطلقاً ، ومن ثَمَّ لا تُعلِّموهن على ظهر القلب شيئاً خاصاً به ، حتى الصلواتِ ، واكتفُوا بالقيام بصلواتكم أمامهن قياماً منتظماً ، وذلك من غير إكراههن على حضورها ، واجعَلوا صلواتِكم قصيرةً كما علَّمَ يَسُوعُ المسيحُ ، وقوموا بها مع ما يناسبها من تجمُّع الحواسِّ والإجلال ، واذكُرُوا أننا عند ما نسألُ الكائنَ الأعلى أن يلتفت إلى ما نقول يجدر أن نُنْعِمَ النظر فيما نَقْصِد أن نقول .

ومعرفةُ الفَتَياتِ لدينهنَّ من فَوْرِهنَّ أقلُّ أهميةً من معرفته جيداً ، ومن محبته على الخصوص ، وإذا ما جعلتم الدِّينَ عبئاً عليهن ، وإذا ما وَصَفْتُمُ الرَّبَّ بأنه ساخطٌ عليهنَّ ، وإذا ما فَرَضتم ألفَ واجبٍ شاقٍّ باسمه عليهن من غير أن يَرَيْنَ قيامَكم بهذه الواجبات على الإطلاق ، فما يُمكِنُ أن يكون تفكيرُهنَّ غيرَ معرفتِهن أن كتابَ أصوله والصلاةَ للرَّبِّ من واجبات صُغْرَيات البنات مع رجائهن أن يَكبَرْن حتى يُعْفَيْنَ مثلكم من جميع هذا العَناء ؟ فالقُدْوَةَ ! القُدْوَةَ ! وبغير القُدْوَةِ لا يُكتَبُ نجاحٌ لشيء لدى الأولاد .

ومتى شرحتم لهنَّ قواعدَ الدين فاجعَلوا هذا في شكل تعليمٍ مباشِر ، لا على شكلِ أسئلةٍ وأجوبة ، وليس من الواجب عليهن ، مُطْلَقاً ، أن يَقُومَ جوابُهن على غير ما يُفكِّرْن فيه ، لا على ما أُمْلِيَ عليهن ، وجميعُ أجوبة كِتاب قواعد الدين على طريقٍ معاكس ، فالطالبُ فيها هو الذي يُعلِّمُ المعلِّمَ ، حتى إن هذه الأجوبةَ أكاذيبُ في فَمِ الأولاد ما داموا

يُوضِحُون ما لا يَعقِلُون مطلقاً ، وما داموا يُؤَكِّدون ما يَعجِزُون عن اعتقاده ، وبين أذكى الرجال دُلُّونى على من لا يَكْذِبون حين تلاوة كتاب دينهم .

وأولُ سؤالٍ أرَى فى كتاب ديننا هو : « من خَلَقكم وجَعَلكم فى فى العالَمَ ؟ » ، فمَنْ هذا السؤال تُجِيبُ البنتُ بلا تردُّدٍ بقولها : « إنه الرَّبُّ » مع اعتقادها أنه أُمُّها ، والشىءُ الوحيدُ الذى تَرَى هنالك هو أنها أتت عن سؤالٍ لا تُدْرِكه مطلقاً بجوابٍ لا تُدْرِكه مطلقاً .

وأودُّ لو يَعْرِفُ رجلٌ سَيْرَ ذهنِ الأولادِ فيَضَع لهم كتاباً عن أصول الدين ، فقد يكون هذا الكتابُ أنفعَ ما كُتِبَ على الإطلاق ، وعندى أنه لا يَقِلُّ عن هذا ما يَحْبُو هذا الكتابُ مؤلِّفَه من فَخْرٍ ، ومما لا مِرَاء فيه أن هذا الكتاب إذا ما ظَهَر صالحاً لم يشابِهْ كُتُبَنا الدينيةَ مطلقاً .

وكتابٌ فى الدين كهذا لن يكون صالحاً إلَّا إذا أسْفَرَ عن إتيان الولدِ عند ما يُسْأل أجوبةً من تلقاء نفسه ومن غير سابق تَعَلُّمٍ ، وهذا مع العلم بأن الولد يكون ، أحياناً ، فى وضعٍ يسأل معه عن أشياء بِدَوْرِه ، وإنى ، لكى أَحمِلَ على إدراك ما أُرِيدُ أن أقول ، أُضْطَرُّ إلى ضَرْبٍ من النماذج ، وأشْعُرُ بما يُعْوِزُنى لِرَسْم هذا النمُوذج ، ومع ذلك فإننى سأحاول إعطاء فكرةٍ طفيفةٍ عن ذلك .

ولِذَا فإننى أتَمَثَّلُ ، لتناول السؤال الأول من كتابنا الدينىِّ ، بَدْء ذلك كما يأتى تقريباً :

المُرَبِّية : أتَذْكُرِينَ الزمنَ الذى كانت أُمُّك ابنةً فيه ؟

الصغيرة : كَلَّا يا مُرَبِّيَتى .

المُرَبية : ولِمَ كَلَّا ، مع أنكِ ذاتُ ذاكرةٍ جيدة ؟

الصغيرة : ذلك لأننى لم أكُنْ فى الدنيا .

المربية : إذَنْ ، لم تَكُونى حَيَّةً دائمًا ؟

الصغيرة : كَلَّا .

المربية : أتَعيشِين إلى الأبد ؟

الصغيرة : نَعَمْ .

المربية : هل أنت بُنَيَّةٌ أو شائبة ؟

الصغيرة : أنا بُنَيَّةٌ .

المربية : وهل جَدَّتُك بُنَيَّةٌ أو شائبة ؟

الصغيرة : شائبة .

المربية : وهل كانت بُنَيَّةً ؟

الصغيرة : أَجَلْ .

المربية : ولِمَ عادتْ لا تكون بُنَيَّةً ؟

الصغيرة : ذلك لأنها شابَتْ .

المربية : وهل تَشِيبين مثلها ؟

الصغيرة : لا أَعْلَمَ[1] .

المربية : وأين ثيابُك فى العام الماضى ؟

---

(١) إذا ما وضعت فى كل محل كلمة « لا أعلم » كان جواب الصغيرة على وجه آخر ، فيجب الاحتراز من جوابها وجعلها توضحه بعناية .

الصغيرة : لقد فُتِقَتْ .

المربية : ولِمَ فُتِقَتْ ؟

الصغيرة : ذلك لأنها ضاقت عليّ كثيراً .

المربية : ولِمَ ضاقتْ عليك ؟

الصغيرة : لأنني كَبِرْت .

المربية : وهل تَكْبَرِين أكثرَ مما أنتِ عليه ؟

الصغيرة : وَىْ ! نَعَمْ .

المربية : وما يصير كُبْرَيَاتُ البنات ؟

الصغيرة : يَصِرْن نساء .

المربية : وما يصير النساء ؟

الصغيرة : يَصِرْن أمهاتٍ .

المربية : وما يَصِيرُ الأمهاتُ ؟

الصغيرة : يَصِرْن شائباتٍ .

المربية : ستصيرين شائبةً إذَنْ ؟

الصغيرة : متى صِرْتُ أمًّا .

المربية : وما يصير الشائبات ؟

الصغيرة : لا أَعْلَمَ .

المربية : وماذا صار جَدُّك ؟

الصغيرة : مات[1] .

(١) ستقول الصغيرة هذا لأنها سمعته، ولكنه يجب أن يحقق هلتوجد لديها فكرة صحيحة عن=

المربيــة : ولِمَ ماتَ ؟

الصغيرة : لأنه كان شائباً .

المربيــة : وما يَصِيرُ الشائباتُ إذَنْ ؟

الصغيرة : يَمُتْنَ .

المربيــة : وأنتِ متى صِرْتِ شائبةً . . .

الصغيرة مقاطِعةً : وَىْ ! لا أريد أن أموت يا مُرَبِّيَتى .

المربيــة : أى ابْنَتِى ، لا يُرِيدُ أحدٌ أن يموت ، وجميعُ النـاس يَمُوتون .

الصغيرة : كيف ! وهل تَمُوتُ والدتى أيضاً !

المربيــة : كجميع الناس ، فالنساء يَشِبْنَ كالرجال ، ويؤدى المَشِيب إلى الموت .

الصغيرة : وما يُفْعَلُ لتأخير دَوْرِ المَشِيب ؟

المربيــة : الحياةُ بحكمةٍ فى دَوْرِ الصِّبَا .

الصغيرة : سأكون حكيمةً يا مربيتى .

المربيــة : هنيئاً لكِ ، ولكنْ أتَعْتَقِدِين أنك تَعِيشين إلى الأبد ؟

الصغيرة : متى شِبْتُ كثيراً ، متى شِبْتُ كثيراً . . .

المربيــة : حَسَناً .

الصغيرة : والخلاصةُ أنك تقولين إنه لا بُدَّ من الموت عند المَشِيب .

= الموت ، وذلك لأن هذه الفكرة ليست من البساطة ومن متناول الأولاد بالمقدار الذى يظن ، ومن الممكن أن يرى فى قصيدة أبيل الصغيرة مثال عن الوجه الذى يعلمون به أمره ، ويوحى هذا الأثر الفاتن ببساطة حلوة يغذى بها فى محادثة الأولاد .

المربيـة : ستَموتينَ ذاتَ يومٍ إذَن ؟

الصغيرة : يا حَسرَتى ! أجَلْ .

المربيـة : ومن عاش قَبْلَك ؟

الصغيرة : أبى وأمى .

المربيـة : ومن كان يعيش قبلهما ؟

الصغيرة : أبوهما وأمهما .

المربيـة : ومن يَعيشُ بعدك ؟

الصغيرة : أولادى .

المربيـة : ومن يعيش بعدهم ؟

الصغيرة : أولادهم ، إلخ .

وإذا ما سُلِكَتْ هذه السبيلُ دَلَّ الاستقراء الواضحُ على أن للجنس البشرىِّ بُداءةً ونهايةً كما لجميع الأشياء ، أى أبٌ وأمٌّ لم يَكُنْ لهما أبٌ ولا أمٌّ ، وأولادٌ لن يَكُونَ لهم أولادٌ مطلقاً[1] .

وليس بغيرِ سلسلةٍ طويلة من مِثل هذه الأسئلة ما يُهَيَّأُ معه السؤال الأول من كتاب الدين بمـا فيه الكفاية ، ولكن ما أوسع الوُثُوبَ من هنالك حتى الجوابِ الثانى الذى يُعَرَّف به الكُنْهُ الإلهىُّ كما أَقْصِدُ أن أقول ! ومتى تُملَأُ هذه الفاصلة ؟ والرَّبُّ روحٌ ! وما الروح ؟ وهل أُرَكِّبُ الولدَ هذا المركبَ من إبهامِ ما بعد الطبيعة الذى يلاقى الرجالُ كثيراً من

(١) لا يمكن تطبيق فكرة الخلود على الأجيال البشرية تطبيقاً موافقاً للعقل ، فكل سلسلة عددية يقع ردها إلى فعل تكون مناقضة لهذه الفكرة .

المشقة للخروج منه ؟ ولا تطالَبُ البنتُ الصغيرة بحلِّ هذه المسائل ، ومن الكثير أن تَضَعَها ، وهى إذا ما وَضَعَتْها أجبتُ عنها ببساطة : « أنتِ تسألين عن الرَّبِّ ، فليس من السهل قَوْلُ هذا ، فلا يُمْكِن أن يُسْمَعَ الرَّبُّ ولا أن يُرَى ولا أن يُلْمَس ، وهو لا يُعْرَف بغير أعماله ، وانتَظِرى معرفةَ ما صَنَعَ حتى تَعرِفى من هو » .

وإذا كانت جميع عقائدنا من ذات الحقيقة فإن جميعها ليس من ذات الأهمية ، وليس مما يُبالِى به جَلالُ الرَّبِّ أن نَعْرِفه فى كلِّ أمرٍ ، ولكن مما يُهِمُّ المجتمعَ البشريَّ وكلَّ عضوٍ من أعضائه أن يَعرِف كلُّ إنسان ما تَفرِضُه عليه سُنَّةُ الرَّبِّ من الواجبات نحو نفسه وجاره وأن يقوم بهذه الواجبات ، وهذا ما يجب أن يُعَلِّمَه كلٌّ منا للآخر دائماً ، وهذا ما يُلزَم الآباء والأمهاتُ بتعليمه لأولادهم ، وسواء أكانت العذراء أمًّا لخالقها وأنها وَلَدَت الرَّبَّ أم إنه إنسانٌ تَسَرَّب فيه الرَّبُّ فقط ، وسواء أكان كُنْهُ الأب والابن واحداً أم متشابهاً ، وسواء أصدرت الروح عن أحد الاثنين اللذين هما هما أم عن الاثنين معاً ، لا أَرَى أن تقرير هذه المسائل ، الجوهريةِ ظاهراً ، أهمُّ للنوع البشريِّ من معرفةِ أيٍّ من أيام القمر يجب أن يُحْتَفَل فيه بعيد الفِصْح ، ومن وجوب ، أو عدم وجوبِ ، التسبيحِ والصومِ والانقطاعِ عن أكل اللحم والدُّهن واستعمالِ اللاتينية أو الفرنسية فى الكنيسة وتزيين الجُدْران بالصور وإقامةِ القُدَّاس وسماعِه وعدمِ الاختصاص بامرأةٍ مطلقاً ، وليُفكِّرْ كلُّ واحدٍ فى ذلك كما يَرُوقه ، وأجْهَلُ ما يُمكِن أن يكون للآخرين من مصلحةٍ فى ذلك ، وأما أنا فلا أُبالى بذلك مطلقاً ، وإنما الذى أُبالى به أنا وجميعُ أمثالى هو

أن يَعْرِف كلٌّ واحدٍ وجودَ حاكمٍ فى مصير الناس فنُعَدُّ كلُّنا أولاداً له فيأمُرُنا بأن نكون أبرارًا وبأن نتحابَّ ، وبأن نكون رُحماء محسنين ، وبأن نُوفِىَ بعهودنا نحو جميع العالَم ، حتى نحو أعدائنا وأعدائه ، وأن نَعْرِف أن سعادةَ هذه الحياةِ الظاهرةَ ليست شيئاً يُذْكَر ، وأنه يوجد بعدها حياةٌ أخرى يكافِئُ هذا الكائنُ الأعلى فيها الأبرارَ ويَدِينُ الأشرارَ ، فهذه العقائدُ وما ماثلها هى التى يُهِمُّ تعليمُها للشبيبة وإقناعُ جميع المواطنين بها ، ولا رَيْبَ فى استحقاق من يناهضُها للعِقاب ، لِما يكون بهذا مُخِلاً بالنظام عَدُوًّا للمجتمع ، ومن يُجاوِزْ هذه العقائدَ ويُرِدْ إخضاعَنا لآرائه الخاصة يَحِلْ إلى ذات النقطة من طريقٍ معاكسة ، وهو يُعَكِّرُ السلام من حيث إقامتُه النظامَ على نَمَطه ، وهو يَنتَصِبُ تُرْجماناً للألوهية عن زَهْوٍ مُغامِرٍ ، وهو باسمها يطالِب الناسَ بضُرُوب الطاعة والإجلال ، وهو يَجْعَلُ من نفسه إلهاً ما استطاع إلى هذا سبيلاً ، وهذا الآدمىُّ هو مَنْ يَجِبُ أن يُجازَى كمُدَنِّسٍ للقُدْسيات إذا لم يُعاقَبْ كمتعصب .

ولِذا فانبِذُوا جميعَ تلك العقائدِ الحافلة بالأسرار ، والتى نَعُدُّها ألفاظاً بلا أفكار ، انبِذُوا جميعَ هذه المذاهب الغريبة التى تَقُومُ دراستُها الباطلةُ مقامَ الفضائل لدى من يزاولونها والتى تَنفَع لجَعْلِهم مجانينَ أكثرَ من جعْلهم صالحين ، وأمْسِكوا أولادَكم ، دائماً ، ضِمْنَ دائرةٍ وثيقةٍ من العقائد التى تتصل بالأخلاق ، وأقْنِعُوهم بأنه لا شىء تَنفَعُ معرفتُه أكثرَ مما يُعَلِّمُنا صُنْعَ الخير ، ولا تَجْعَلُوا من بناتكم ، مطلقاً ، لاهوتياتٍ ولا مُبَرْهِنات ، ولا تُعَلِّمُوهن من أمور السماء شيئاً غيرَ ما يَنْفَعُ للحكمةِ الإنسانية ، وعَوِّدوهنَّ

الشعورَ بأنهنَّ تحت عَيْنَيِ الرَّبِّ دائماً ، وجَعْلَ اللهِ شاهداً على أفعالهن وأفكارهنَّ وفضائلهن ومَلَاذِّهن ، وعملَ الخيرِ بلا فَخْرٍ لأن اللهَ يحبُّ هذا ، واحتمالَ الأذى بلا تَذَمُّرٍ لأن اللهَ سيُعَوِّضُهنَّ من هذا ، ثم أن يَكُنَّ في جميع أيام حياتهنَّ ما تَقَرُّ به أَعْيُنُهنَّ حين المُثُول بين يديه ، فهذا هو الدِّينُ الصحيحُ ، وهذا هو الدِّينُ الوحيد الذى لا مكانَ فيه لسوء الاستعمال والإلحاد والتعصب ، ودَعُوا بَعْضَهم يُبَشِّرُون بدين أَسْمَى منه ما شاءوا ، وأما أنا فلا أعترف بدينٍ غيرِ هذا مطلقًا .

ومع ذلك يَحْسُنُ أن يلاحَظَ أنه ، حتى العُمُرِ الذى يَسْتنير فيه العقلُ والذى يَحْمِلُ الشعورُ الناشئُ فيه ضميرَ الإنسان على الكلام ، يَكُونُ ما هو خيرٌ أو شرٌّ لدى الفتياتِ هو ما يُقَرِّرُ مَنْ يُحِيطُ بهن من الناس أنه هكذا ، فما يُؤْمَرْنَ به هو خيرٌ ، وما يُنْهَيْنَ عنه هو شرٌّ ، ولا يُطَالَبْن بمعرفة ما هو أكثرُ من هذا ، ومن ثَمَّ يُرَى ما يكون من أهميةٍ ، تكون عندهن أعظمَ مما عند الصِّبيان ، في اختيار الأشخاص الذين يَجُوزُ أن يعاشروهن وأن يمارسوا سلطانًا عليهن ، ثم يأتي الوقت الذى يَبْدَأْن فيه بالحُكْم في الأمور بأنفسهن ، وهنالك يَحِلُّ الزمنُ الذى يُغَيَّرُ فيه مِنْهاجُ تربيتهن .

ومن المحتمل أن أَفَضْتُ في الكلام عن ذلك حتى الآن ، وإلامَ نَرُدُّ النساء إذا لم نَجْعَلْ لهنَّ دستوراً غيرَ المُبْتَسَراتِ العامَّة ؟ ولا نَخْفِضْ إلى هذه النقطة ذلك الجنسَ الذى يَحْكُم فينا ، والذى يُشَرِّفنا إذا لم نُذِلَّه ، ويُوجَدُ لجميع النوع البشريِّ قاعدةٌ أقدمُ من الرأى العامِّ ، ويجب أن تُرَدَّ جميعُ المناحى الأخرى إلى هذا المُوَجِّه الذى لا يَنْثَني ، ويُعَدُّ هذا المُوَجِّهُ

حَكَماً حتى فى المُبْتَسَر ، ولا يكون لتقدير الناس سلطانٌ علينا إلا بمقدار ما يوافق هذا التقدير ذاك المُوَجِّه .

والشعورُ الباطنىُّ هو تلك القاعدة ، ولا أُكَرِّرُ ، مطلقًا ، ما قِيلَ عنه فيما تقدم ، ويكفينى أن ألاحظ أن هاتين القاعدتين إذا لم تساعدا على تربية النساء كانت هذه التربيةُ ناقصةً ، فما كان الشعور بغير الرأى العامِّ لِيُنْعِمَ عليهن ، مطلقًا ، بلطافة الروح التى تُجَمِّل جَمِيلَ الطِّباع بإجلال الناس ، وما كان الرأى العامُّ بغير الشعور لِيُسْفِرَ عن غير نساء فاسدات خبيثات يَضَعْنَ الظاهرَ موضعَ الفضيلة .

ولِذَا فإن من المهمِّ عندهنّ تَعَهُّدَ مَوْهِبةٍ تَصْلَحُ حَكَماً بين الدليلين فلا تَدَعُ الشعورَ يَضِلُّ مطلقًا مُقَوِّمةً أضاليلَ المُبْتَسَرات ، وهذه المَوْهِبةُ هى العقل ، ولكنْ ما أكثرَ المسائلَ التى تُثِيرُها هذه الكلمة ! وهل يستطيع النساءُ أن يأتِين ببُرْهانٍ متين ؟ وهل من المهمِّ أن يَتَعَهَّدْنه ؟ وهل يَتَعَهَّدْنه بتوفيق ؟ وهل هذا التعهدُ نافعٌ للوظائف المفروضة عليهن ؟ وهل هو موافقٌ للبساطة التى تلائمهن ؟

ومن شأن مختلفِ الأساليب التى تواجَهُ بها هذه المسائلُ وتُحَلُّ أن يُذْهَب إلى الحدَّيْن المتناهيين المتناقضين فيَقْصُرَ بعضُهم المرأةَ على الخَيْطِ والغَزْل فى منزلها مع خادماتها فلا يَجْعَلوا منها بهذا غيرَ خادمةِ السيد الأولى ، ولا يَرْضَى الآخرون بضمان حقوقها فيَجْعَلُونها تغتصب حقوقنا ، وإلّا فما يكون تَرْكُها فَوْقَنا فى الصفات الخاصة بجنسها ، وجعلُها مساويةً لنا فى جميع الصفات الأخرى ، غيرَ نَقْلِ الصدارة ، التى تُنْعِمُ الطبيعةُ بها

على الزوج ، إلى المرأة ؟

وليس العقلُ الذى يَسُوق الرجلَ إلى معرفة واجباته كثيرَ التعقيد ، ويكون العقلُ الذى يَسُوقُ المرأة إلى معرفة واجباتها أكثرَ بساطةً أيضاً ، ويكون الانقيادُ والإخلاصُ الملزمةُ بهما نحو زوجها ، ويكون اللُّطفُ والرعايةُ الملزمةُ بهما نحو أولادها ، نتائجَ تَبْلُغ من ملاءمة الطبيعة ومن التأثُّر بحالها ما لا تستطيع معه ، بلا سوء نِيَّةٍ ، أن تَرْفِضَ موافقتَها على الشعور الباطنىِّ الذى يُوَجِّهُها ، ولا أن تُنْكِرَ الواجبَ ضِمْنَ مَيْلِها الذى لم يَفْسُد بَعْدُ .

ولا أعْذُلُ ، من غير تمييزٍ ، اقتصارَ المرأة على أشغال جنسها فقط ، وأن تُتْرَكَ ضِمْنَ جَهْلٍ عميقٍ بغير هذه الأشغال ، ولكن هذا يتطلب طِباعاً عامةً كثيرةَ البساطةِ كثيرةَ السلامة أو طرازَ حياةٍ كثيرَ الاعتزال ، وتكون هذه المرأةُ فى المدن الكبيرة ، وبين الرجال الفاسدين ، سهلةَ الإغواء ، ويكون طُهْرُها تابعاً للأحوال فى الغالب ، ولا بُدَّ لها من ابتلاء فى عصر الفلسفة الحاضر فيجب أن تَعرِف مُقَدَّماً ما يُمكِن أن يقال لها وما يُمكِن أن يَدُور فى خَلَدها حَوْل ما يقال لها .

وهى ، إذْ كانت خاضعةً لحكمْ الرجال فضلاً عن ذلك ، وجب أن تستحقَّ تقديرَهم ، ولا سيما تقديرُ زوجها ، ومن الواجب ألاَّ تقتصرَ على تحبيب نفسها إلى زوجها ، بل يجب أن تجْعَله يستحسن سلوكَها ، ويجب أن تُسَوِّغ أمام الناس ما أتت من اختيار ، وأن تَخيِل على إكرام الزوج بالإكرام الذى تُحْبَى به المرأة ، ولكن كيف تَقُوم بجميع هذا إذا كانت تَجْهَل نُظُمَنا وإذا كانت لا تَعْرِف شيئاً عن عاداتنا وآدابنا وإذا كانت

لا تَعرِف مصدرَ أحكامنا البشرية ولا تَعرِف الأهواء التي تَقضي بها ؟ وبما أنها تابعةٌ لضميرها وآراء الآخرين معاً فإن من الواجب أن تتعلم كيف تقارن بين هاتين القاعدتين وأن تُوَفِّقَ بينهما وألاَّ تُرَجِّحَ الأولى إلاَّ عند اختلافهما ، وهى تَصِيرُ قاضيةَ قضاتها ، فتقرِّرُ متى يجب أن تُذْعن لهم ومتى يجب رَفْضهم ، وهى تَزِنُهم قبل رَفْضِهم أو قبولهم ، وهى تتعلم بلوغَ منبعهم وتحذيرَهم وجعلَهم ملائمين ، وهى تُعْنَى بألّا تَجْلِب اللومَ إلى نفسها إذا ما سَمَح لها واجبُها باجتنابه ، ولا شئ من جميع هذا يُمْكِن أن يتمّ جيداً من غير تثقيف ذهنها وعقلها .

وأعُودُ إلى المبدإ دائماً ، فهو يُزَوِّدنى بحلٍّ جميع مشاكلى ، وأدْرُسُ ما هو كائن ، وأبْحَثُ عن علته ، ثم أجِدُ أن ما هو كائنٌ هو حَسَنٌ ، وأدْخُلُ البيوتَ المفتوحة التى يَقُوم رَبُّها ورَبّتُها معاً بحُسْنِ استقبال الناس ، وقد نال كلٌّ منهما عينَ التربية ، ويتصفُ كلٌّ منهما بأدبٍ متساوٍ ، وكلٌّ منهما مُجَهَّزٌ بذَوْقٍ وذهنٍ على السواء ، ويُسَاوِرُ كلاًّ منهما عَيْنُ الرغبة فى حُسْن استقبال الناس وفى تشييع كلّ منهم راضياً عنهما ، ولا يألُ الزوجُ جُهْداً فى التفاته إلى كلِّ واحدٍ ذاهباً آيباً طائفاً محتملاً ألفَ عناء قاصداً أن يَكُونَ انتباهاً خالصاً ، وتَظَلُّ الزوجةُ فى مكانها ، وتلتفُّ حَوْلَها حَلْقةٌ صغيرة فيَلُوح أنها تَحْجُب عنها بقيةَ المجلس ، ومع ذلك فإنه لا يَغِيبُ عنها شيء ، ولا يَخْرُجُ أحدٌ لم تكن قد حادثته ، وهى لم تُهْمِلْ شيئاً يُمْكِنُ أن يُمْتِعَ كلّ واحد ، وهى لم تَقُلْ لأحدٍ شيئاً غيرَ مُسْتَحَبٍّ لديه ، ولم يُغْفَلْ أصغرُ مَنْ فى المجلس أكثرَ من إغفالِ الأول فيه ، وقد

أُعِدَّت المائدةُ ، وقد جَلَس كلٌّ واحدٍ فى مكانه ، وذلك أن الزوج المطلَع على المتوافقين من الحضور وَضَعَهم وَفْقَ ما يَعْرِف ، وأن المرأة التى لم تَعْرِف شيئًا من ذلك لم تُخَادَعْ بذلك ، فهى كانت قد قرأت فى العيون والأطوار جميعَ الموافقات فوَجَدَت كلَّ واحدٍ جالسًا كما كان يَوَدُّ ، ولا أقول ، مطلقاً ، إنه لم يُنْسَ أحدٌ من قِبَل الخَدَم ، وكان يُمْكِنُ ربَّ المنزل ألَّا يَنْسَى أحداً حين طوافه حَوْل الجميع ، ولكن المرأة تُبْصِرُ ما يُنْظَرُ إليه برغبةٍ فتقدِّم إليكم منه ، وبينما تُحَدِّث المرأةُ جارَها تلاحِظُ آخرَ المائدة فتميزُ مَنْ لا يأكلُ مطلقًا لأنه غيرُ جائع من الذى لا يَجْرُؤ على تناول شىء أو طلبِ شىء عن خَرَقٍ أو حياء ، وإذا ما تُرِكت المائدةُ اعْتَقَدَ كلٌّ واحدٍ أنها لم تُفَكِّرْ فى غيره ، ورأى الجميعُ أنه لم يكن عندها من الوقت ما طَعِمَتْ فيه قطعةً واحدة مع أنها أكلت أكثرَ من كلِّ واحدٍ فى الحقيقة .

ومتى انْصَرَف الضيوفُ حُدِّث عما وَقَع ، ويَرْوِى الزوجُ ما قِيلَ له وما قالوا وما تَمَّ بينــه وبين من حادثهم ، وإذا لم تَكُن المرأةُ أصدقَ حديثًا فى ذلك دائمًا فإنها بالمقابلة قد أبصرتْ ما قِيلَ هَمْسًا فى الطَرَف من البَهْو فتَعْرِفُ ما فَكَّرَ فيه هذا أو ذاك كما تَعْرِف معنى هذا القول أو مَغْزَى تلك الإشارة ، ولم تَكَدْ تَقَعُ حركةٌ ذاتُ دَلالةٍ لم تَكُنْ مستعدةً لتفسيرها وَفْقَ الحقيقة تقريباً .

ومن شأن مرونة الذهن ، التى تَجْعَل المرأةَ العصرية بارعةً فى فنِّ القِرَى ، أن تَجْعَل المِغْنَاجَ بارعةً فى فنِّ إلهاء كثيرٍ من العُشَّاق ، حتى إن الغُنَاجَ يقتضى بصيرةً أدقَّ مما يقتضيه الأدب ، وذلك لأن المرأةَ المُهَذَّبة تكون

على شىء من حُسْنِ الصُّنْع دائماً إذا ما كانت ذاتَ أدبٍ واحدٍ نحوَ جميعَ الناس ، وأما المِغْنَاجُ فإنها لا تَلْبَثُ أن تَخْتَر سلطانَها بمثل هـذه النمطية الخَرْقاء فَيَنْفَضّ جميعُ عُشَّاقِها من حَوْلها عن قَصْدِها إرضاءهم على السواء ، وفى المجتمع لا تَتْرُكُ الأوضاعُ التى تُتَّخَذُ نحوَ جميع الناس قَوْلاً لقائل ، وفى المجتمع لا يُنْظَرُ إلى التفضيلات عن كَثَبٍ بشرط حُسْن المعاملة ، ولكنّ المحاباةَ فى الحُبِّ تُعَدُّ إهانةً إذا لم تكن حَصْراً ، ويُفَضِّلُ الرجلُ الحسَّاسُ مئةَ مرةٍ أن يُؤْذَى وحدَه على أن يلاطَف مع الآخرين جميعاً ، ويكون شَرُّ ما يُصَابُ به هو ألاَّ يُمـازَ مطلقاً ، ولِذَا فإن من الواجب على المرأة الراغبة فى الاحتفاظ بكثيرٍ من العُشَّاق أن تُقْنِع كلَّ واحدٍ منهم بأنها تُفَضِّلُه ، وأن يَقَعَ إقناعُهـا هذا على أعين الآخرين ، فيَقْنَعَ كلٌّ واحدٍ من هؤلاء بأنه المُفَضَّل .

وإذا أردتم أن تَرَوْا رجلًا حائراً فضَعُوه بين امرأتين تكون بينه وبين كلٍّ منهما علاقاتٌ سِرِّية ، ثم لاحظوا أىَّ وجهٍ بليد يكون له هنالك ، وضَعُوا فى مثل ذات الحال امرأةً بين رجلين لتَرَوْا أن العِبْرَةَ لا تكون أكثرَ نُدْرَةً لا رَيْب ، وذلك أنكم تَقْضُون العجبَ من البراعة التى تخادِع بها الاثنين وتَجْعَلُ كلاً منهما يَضْحَك من الآخر ، والواقعُ أن هذه المرأة إذا كانت تُظْهِرُ لهما ذات الثقة ، وتَحْبُوهما بذات الزُّلْفَى ، فكيف يُخْدَعان بها طَرْفةَ عين ؟ وإذا كانت تعاملهما معاملةً متساوية أفلا تَدُلُّ على وجود نَفْسِ الحقوق لهما عليها ؟ وى ! إنها أكثرُ حَذَراً من هذا ! إنها بعيدةٌ من معاملتهما على وجهٍ واحد ، إنها تتظاهر بجعلِ تفاوتٍ بينهما ، إنها تَبْلُغُ

من الحِذْق ما يَعتقد معه الذى تُدَارِيه أن مداراتَها ناشئةٌ عن حُنُوٍّ منها ، وما يعتقد معه الذى تُسِيء إليه أن إساءتها هـذه واقعةٌ على الرغم منها ، وهكذا فإن كلَّ واحدٍ راضٍ بنصيبه معتقداً أنها تَشْغَل بالها به مع أنها لا تُفَكِّرُ فى غير نفسها بالحقيقة .

والدَّلالُ ، من حيث الرغبةُ العامة فى الرَّوَقان ، يُوحِى بوسائلَ مماثلة ، والأهواء لا تُوجِبُ غيرَ الاستنكاف إذا لم تُدَارَ بحكمة ، وهى إذا ما وُزِّعَتْ ببراعةٍ أسفَرَتْ عن سلاسلَ وثيقةٍ من العبيد .

« فالمرأةُ تتخذ جميعَ الحِيَل حتى تنال بأشراكها عاشقاً جديداً ، وهى لا تحافظ على ذات الوجه نحو الجميع ولا فى كلِّ حين ، ولكنها تُغَيِّر وَضْعَها ومنظرَها على حَسَب الأوقات » .

وما سَنَدُ هذا الفنِّ إذا لم يَقُمْ على ملاحظاتٍ دقيقة دائمة تُبْصِرُ بها فى كلِّ ثانيةٍ ما يَدُور فى خَلَد الرجال وتُمِدُّها عند كلِّ حركةٍ خفية تُدْرِكها بحَمْلِ ما يجب من قوةٍ لِعَوْق هذه الحركة أو تعجيلها ؟ وهل يُتَعَلَّمُ هذا الفنُّ إذَنْ ؟ كلاَّ ، وإنما يُولَدُ مع النساء ، وجميعُ النساء حائزاتٌ له ، ولم يَحُزْه الرجال بهـذا المقدار قَطُّ ، وهذا من خصائص الجنس النِّسْوِىِّ البارزة ، فحُضُور الذهن والبصرُ النافذ والملاحظاتُ الدقيقة أمورٌ تُعَدُّ عِلْمَ النساء ، ويقوم نُبُوغُ النساء على البراعة فى الانتفاع بهذا العِلْم .

وهذا ما هو كائنٌ ، وقد رأينا السببَ فى كَيْنُونةِ هذا ، ويقال لنا إن النساء زائفاتٌ ، وهنَّ يَصِرْنَ زائفاتٍ ، والشطارةُ ، لا الزُّيُوفُ ، هى موهبتُهن الخاصة ، وليس النساءُ زائفاتٍ فى مُيُول جنسهنَّ الحقيقيةِ ولو

كَذَبْنَ ، ولِمَ تستشيرون فَمَ النساء ، وهو الذى ليس له أن يتكلّم ؟ وإنما استشيروا عيونَهن وسَحْنتَهن وتَنَفُّسَهن وهَلَعَهن ومقاومتَهن الناعمة ، وهذا هو اللسان الذى أنعمت به الطبيعة عليهن ليُجيبَكم ، أَجَلْ ، إن الفمَ يقول : « كلا » ، وهذا هو الذى يجب أن يَقول ، ولكن النَّبْرَةَ التى تُضيفُها إلى هذه الكلمة ليست على وَتيرةٍ واحدةٍ دائماً ، وهذه النَّبْرَةُ هى التى لا تَعْرِف الكَذِبَ مطلقاً ، أوَليس لدى المرأة عَيْنُ احتياجاتِ الرجل ، وذلك من غير أن يكون لها عينُ الحقِّ فى إبدائها ؟ يَكُونُ نصيبُها جائراً جدًّا لو كانت عاطلةً ، حتى فى الرغائب المُحَلَّلة ، من لسانٍ يَعدِلُ الذى لا تَجْرُؤ على استعماله ، وهل يجب أن يَجْعَلَها حياؤها شَقِيَّةً ؟ أوَلا تحتاج إلى فَنٍّ تُطْلِعُ به على مُيُولها من غير أن تَكْشِفَها ؟ ويا لاحتياجها إلى براعةٍ تُخْفِي بها ما تَتَلَظَّى شَوْقاً إلى الموافقة عليه ! وما أكثرَ ما يُهِمُّها أن تَعْرِفَ مَسَّ فؤادِ الرجل من غير أن تَظْهَر أنها تُفكِّر فيه ! ويا لَلْكلام الذى تنطوى عليه تُفَّاحةُ غَلاَتِيه وفِرارِها الأخرق ! وما كان عليها أن تُضيفَ إلى ذلك ؟ وهل تَذْهبُ لتقول للراعى الذى يَتَعَقَّبُها بين الصَّفْصاف إنها لم تَهْرُب إلا لاجتذابه ؟ ولو قالت هذا لكَذَبَتْ ، وذلك لأنها تَعُودُ ، هنالك ، غيرَ مُجْتَذِبةٍ له ، وكلما كانت المرأةُ محتشِمةً وجب أن تكون حاذقةً حتى مع زوجها ، نَعَمْ ، إننى أَذْهَبُ إلى أنها إذا وَضَعت الدلالَ ضِمْنَ حدوده كانت صادقةً خَجْلَى فجُعِلَ من هذا ناموسٌ فى الحياء .

وقد أجاد أحدُ خصومى فى ادعائه أن الفضيلة واحدةٌ ، فلا تُجَزَّأ لقبول قسمٍ ونَبْذِ القسم الآخر ، وهى إذا ما أُحِبَّتْ أُحِبَّتْ كاملةً ، ويُمْنَع

القلبُ إذا ما أمكن ، ويُحْبَسُ الفَمُ ، دائماً ، دون المشاعرِ التى لا ينبغى أن تكون مطلقاً ، وليست الحقيقةُ الأدبيةُ ما هو كائنٌ ، بل ما هو حَسَنٌ ، ولا ينبغى أن يكون ما هو سيئٌ مطلقاً ، كما لا ينبغى أن يُعْتَرَف به ، ولا سيما إذا كان هذا الاعترافُ يَجْعَل له من الأثر الذى لا يكون لولا وقوعُه ، وإذا ما أُغْرِيتُ بالسَّرِقة فأَغْرَيْتُ آخرَ أن يكون شريكى باعترافى له بذلك أفلا ينطوى تصريحى له بإغرائى على إذعانٍ لذاك الإغراء ؟ ولِمَ تقولون إن الحياء يَجْعَلُ النساء زائفاتٍ ؟ وهل يكون اللائى يَفْقِدْنه أكثرَ من غيرهن أصدقَ من هؤلاء ؟ كلاَّ ، وإنما يكنَّ أكثرَ زُيُوفاً منهن ألفَ مرة ، ولا يُبْلَغُ هذا الحدُّ من فساد الأخلاق بغير المعايب التى تُحْفَظُ كلُّها والتى لا تَسُود بغير الدسائس والـكَذِب[1] ، وعلى العكس يكون اللاتى لا يَزَلْنَ ذواتِ حياء ، واللائى لا يُفاخِرْن بخطيئاتهن مطلقًا ، واللواتى يَعْرِفنَ كَتْمَ رغائبهن حتى عن الذين يوحون بها إليهن ، ومن لا يُنْزَعُ منهن الاعترافُ إلَّا بأعظمِ عناء ، أكثرَ النساء صدقًا وإخلاصًا وثباتًا فى جميع عهودهن ، وأكثرَ مَنْ يُمْكِن أن يُرْكَنَ إلى عهودهنَّ على العموم .

ولا أَعْرِف غيرَ الآنسة دُولَنْكلُو من أَمْكَن إيرادُها استثناء معروفًا

---

(١) أعرف أن النساء اللائى التزمن سلوكاً معيناً علانية يزعمن أن جهرهن هذا أثبت لشأنهن ، وهن يحلفن إنهن حائزات لجميع الفضائل عدا واحدة ، ولكننى أعرف جيداً ، أيضاً ، أنهن لم يقنعن بهذا غير الأغبياء ، وإذا زال أعظم زاجر لجنسهن فما الذى يبقى رادعاً لهن ؟ وما الشرف الذى يقام له وزن عندهن بعد أن تنزلن عن شرفهن الخاص ؟ لم يبق عندهن أى سبب لضبط النفس بعد أن خضعن لأهوائهن ، « فالمرأة إذا ما فقدت حياءها لم يبق عندها شىء تمنعه » ، وهل عرف أى مؤلف قلب الإنسان فى الجنسين أحسن مما عرف هذا المؤلف ؟

لهذه الملاحظات ، ومع ذلك فقد عُدَّت الآنسةُ دُولَنْكلُو نادرةَ زمانها ، ويُرْوَى أنها حافظت على فضائل جنسنا عن ازدراء لفضائل جنسها ، فيُثْنَى على إخلاصها واستقامتها وضمان عِشْرَتها ووفائها فى الصداقة ، ثم أُتِمَّت صورةُ مجدها بأن تَحَوَّلَتْ إلى رجل ، حَبَّذا ، ولكننى ما كنت لأُريدَ أن يكون هذا الرجل صديقًا لى أكثر من أن يكون خليلةً لى على ما يتمتع به من شهرة واسعة .

وليس جميعُ هذا خارجاً عن الموضوع كما يَلُوح ، وأُبْصِرُ أين تَمِيلُ مبادئُ الفلسفة الحديثة بتحويلها حياءَ الجنس النِّسْوىِّ وزُيُوفَه المزعومَ إلى سُخْرِية ، وأُبصِرُ أن أَثْبَتَ أثرٍ لهذه الفلسفة هو أن يُنزَعَ من نساء عصرنا ما بَقِىَ لهن من شرفٍ قليل .

وأعتقدُ ، بعد النظر إلى هذه الاعتبارات ، إمكانَ تعيين نوع الثقافة الملائم لذهن النساء وما يُمْكِنُ أن تُوَجَّه إليه تأملاتُهن من موضوعاتٍ منذ فَتَائِهن .

ومعرفةُ واجباتِ جنسهنَّ أسهلُ من إنجازها كما قُلْتُ فيما تقدم ، وأولُ شىء يجب أن يتعلَّمْنَه هو حُبُّهن لهذه الواجبات نَظَراً إلى فوائدها ، وهذه هى الوسيلةُ الوحيدة لجعلها سهلةً ، ولكلٍّ حالٍ ، ولكلٍّ سِنٍّ ، واجباتُها ، ونحن لا نَلْبَثُ أن نَعْرِف واجباتِنا إذا ما أحببناها ، فأَكْرِموا حالكنَّ كامرأة ، ومهما يَكُنِ المكانُ الذى يَضَعُكُنَّ فيه الرَّبُّ فإنكنَّ تكنَّ نساء خيرٍ دائماً ، والمهمُّ أن تكنَّ كما صنعتكن الطبيعة ، وليس النساء غيرَ كثيراتِ الاستعداد ليكُنَّ كما يريد الرجال .

وليس مِنْ نابضِ النساء بَحْثُهن عن الحقائق المجردة والنظرية ، وعن المبادئ والأوليات فى العلوم ، وعن كلِّ ما يَميلُ إلى تعميم الأفكار ، وإنما يجب أن تُرَدَّ دِراساتُهن إلى العمل ، فعليهنَّ أن يَقُمْنَ بتطبيق ما وَجَدَه الرجلُ من مبادئ ، وهنَّ يأتين بالملاحظات التى تَسُوق الرجلَ إلى إقامة المبادئ ، ويجب أن تَهْدِفَ جميعُ تأملاتِ النساء ، فى كلِّ ما لا يتعلَّق بواجباتهن مباشرةً ، إلى دراسة الرجال والمعارفِ اللطيفة التى ليس لها موضوعٌ غيرُ الذوق ، وذلك لأن آثارَ العبقرية تُجاوِزُ متناوَلَهن ، ولأنه ليس لديهن من الإصابة والانتباه ما يُوَفَّقْن معه فى العلوم الصحيحة ، وأما من حيث المعارفُ الفِزْيَوية فالجنسُ الذى هو أكثرُ فعَّاليةً وإقداماً وبَصَراً بالأمور ، والذى هو أكثرُ قوةً وممارسةً لهذه القوة ، هو الذى يَحْكُمُ فى العلاقات بين الموجودات الحسَّاسَة وسُنَنِ الطبيعة ، والمرأةُ ، وهى الضعيفةُ التى لا تَرَى شيئاً فى الخارج ، تُقَدِّرُ الدوافعَ التى تستطيع أن تتصرف فيها تَلَافياً لضعفها ، وهذه العواملُ هى أهواء الرجل ، ويُعَدُّ جهازُها أقوى من جهازنا ، ويَهُزُّ الفؤادَ البشريَّ ما يشتمل عليه من عَتَلِ جهازُها الذى هو أقوى من جهازنا ، ويجب أن يَكُون لديها من الفن ما يَجْعَلُنا نُرِيدُ معه كلَّ ما لا يستطيع جنسُها أن يَصْنَعَ بنفسه مع كونه ضروريًّا له مستحبًّا عنده ، ولذا يجب أن تَدْرُس ذهنَ الرجل درساً أساسياً لا ذهنَ الرجلِ على العموم مجرَّداً ، أى أن تَدْرُس ذهنَ الرجال الذين يحيطون بها ، أى ذهنَ الرجال الذين أُخْضِعَتْ لهم سواء أبالقانون أم بالرأى العامِّ ، ومما يَجِبُ أن تَعْرِف كيف تَنْفُذُ مشاعرَهم من خِلالِ أقوالِهم وأفعالهم ونَظَراتهم

وحركاتهم ، ومما يجبُ أن تحبُوَهم بأقوالها وأفعالها ونظراتها وحركاتها ما يَرُوقها من المشاعر من غير أن تَظْهَرَ قاصدةً ذلك ، أجَلْ ، إن الرجال يتفلسفون حَوْلَ القلب البشريِّ خيراً مما تَصْنع ، ولكنها خيرٌ منهم قراءةً فى القلب البشريِّ ، ومن ثَمَّ يَلْزَمُ النساء أن يَجِدْنَ الأَدَبَ التَّجْرِبىَّ ويَلْزَمُنا أن نَرُدَّه إلى نظامٍ ، فالنساء أكثرُ أرَبًا والرجلُ أكثرُ عبقريةً ، والمرأةُ تلاحظُ والرجلُ يتعقَّل ، وينشأُ عن هذا التعاون أسْطَعُ ما يكون من نورٍ وأكملُ ما يكون من علمٍ يُمْكِنُ الذهنَ البشريَّ أن يكتسب بنفسه ، أى أثبتُ معرفةٍ ينالُهـا الإنسانُ عن نفسه وعن غيره وتكُونُ فى متناوَل نوعنا ، ومن ثَمَّ تَرَى كيف يستطيع الفنُّ أن يَمِيلَ بلا انقطاعٍ إلى إكمال الآلة التى مَنَحَتْها الطبيعة .

والعالَمُ كِتَابُ النساء ، ويقَعُ الذنبُ عليهن إذا ما أسأنَ قراءته ، أو إذا أعماهن بعضُ الأهواء ، ومع ذلك فإن أمَّ الأُسْرةِ الحقيقيةَ بعيدةٌ من أن تكون امرأةَ دُنيا فلا تكون فى منزلها أقلَّ اعتزالاً من الراهبة فى دَيْرِها ، ولِذَا يجب أن يُصْنَع للفتَيات اللاتى يَصْلُحن للزواج كما يُصْنَعُ ، أو كما يَجِبُ أن يُصْنَع ، لِلاَّتى يُوضَعْن فى الأديار ، أى أن يطَّلِعْنَ على المَلاَذِّ التى يَهْجُرْن قبل تَرْكِهِنَّ هنالك يَعْدِلْنَ عنها ، وذلك خشيةَ أن تُؤَدِّى صورةُ هذه المَلاَذِّ الزائفةُ التى يَجْهَلْنَها إلى إغواء قلوبهن وتكديرِ صَفْوِ عُزْلتهن ذاتَ يوم ، وفى فرنسة يعيش البناتُ فى الأديار ويتمتع النساء بالدنيا ، والعكسُ هو ما كان عند القدماء ، فقد كان لدى البنات ، كما قلتُ ، ألعابٌ كثيرة وأعيادٌ عامة ، وقد كان النساء يَعِشْنَ

معتزلات ، وقد كانت هـذه العادة أقربَ إلى الصواب وأكثرَ حفظاً للأخلاق ، ويُبَاح للبنات الصالحات للزواج ضَرْبٌ من الدلال ، ويُعَدُّ لهوهنَّ شغلَهنَّ الأكبرَ ، وللنساء أشاغيلُ أخرى فى بيوتهن ، فقد عُدْنَ لا يَبْحَثْنَ عن أزواج ، ولـكنهن لا ينتفعن بهذا الإصلاح ، ومن المؤسِف أنهن لا يُعَنِّيَنَّ ضَرْبَ الغِناء ، ويا أيتها الأمهات ، اجْعَلْن من بناتكن رفيقاتٍ لـكن على الأقلّ ، وامنحوهنّ حِسًّا صادقاً وروحاً صالحاً ، ثم لا تكتموا عنهن شيئاً يُمْـكِنُ أن تقَعَ عليه عينٌ طاهرة ، ويُمْـكِن أن يُعْرَض على العيون السليمة بلا خَطَرٍ كلُّ ما يَفْتِنُ الشبيبةَ الغافلةَ عند النظر السيِّئ إليه من مراقصَ وولائمَ وألعابٍ ، ومَسارحَ أيضاً ، فهنَّ كلما شاهدن هذه اللطائفَ الصاخبةَ زَهِدْنَ فيها .

وأسْمَعُ الضجيجَ الذى يرتفع صَدى ، وأيةُ بنتٍ تقاوم هذا المثالَ الخطِر ؟ لم يَكَدْنَ يَرَيْنَ العالَمَ حتى تَدُورَ رؤوسهن جميعاً ، فلا تريد أيةُ واحدةٍ منهن تَرْكَه ، أجَلْ ، يُمْـكِنُ هذا ، ولـكنْ هل أعْدَدْتُمُوهنّ لمشاهدته من غير اهتزازٍ قبل عَرْض هذه الصورة الخادعة عليهن ؟ وهل أنبأتموهنّ جيداً بما يَعرِض من موضوعات ؟ وهل أحسنتم تصويرها لهنّ كما هى ؟ وهل سلحتموهنّ ضِدّ أوهام الغُرُور ؟ وهل حَمَلْتُمْ إلى قلوبهنّ الفَتِيَّةِ من ذَوْق المَلاذِّ الحقيقية ما لا يُوجَد فى هذا الهَرْج والمَرج مطلقاً ؟ وماذا اتخذتم من الاحتياطات والتدابير لوِقايتهنّ من الذوق الفاسد الذى يُضِلُّهنّ ؟ لقد غَذَّيتم أذهانَهن بالمُبْتَسَرات العامة بدلاً من إقامة العوائق دونها ، وقد حَمَلْتُمُوهن ، مقدَّمًا ، على حُبِّ جميع ما يَجِذْن من لَهْوٍ طائش ،

وأنتم تجعلونهن يُحبِبْن هذا اللهوَ ، أيضاً ، بملازمتكم إياه ، ومنَ الفتياتِ مَنْ إذا دخَلْنَ العالمَ لم يَجِدْنَ مُرَبِّيَاتٍ لهن غيرَ أمهاتهنَّ اللاتى يَكُنَّ أكثرَ حماقةً منهن فى الغالب ، واللائى لا يستطعنَ إراءتَهنَّ الأمور على غير ما يَرَيْن ، وبما أن مثالَ الأمِّ أقوى من العقل نفسِه فإنه يُسَوِّغ هذه الأمور فى عيون بناتها ، ولا غَرْوَ ، فسلطانُ الأمِّ فى نظر البنت مَعْذِرَةٌ لا تُرَدُّ ، وعند ما أردتُ إدخالَ الأمِ بِنْتَها إلى العالمَ افترضتُ إراءته لها كما هو .

ويبدأ الشَّرُّ قبل الأوان أيضاً ، فالأديارُ مدارسُ حقيقيةٌ للغُنَاج ، لا ذاك الغُنَاجِ الحلال الذى تكلمتُ عنه ، بل الغُنَاجُ الذى يُسْفِرُ عن جميع انحرافات النساء ويؤدى إلى أكثرِ الشابَّات هَوَساً ، ومتى خَرَجَ فتياتُ النساء من هنالك للدخول فى المجتمعات الصاخبة كان أولَ ما يَشْعُرْن به كونُهن فى منزلهن ، وذلك أنهن نُشِّئْنَ لِيَعِشْنَ به ، وهل يُعْجَبُ من ملاءمته لهن ؟ ولا أتقدَّمُ ، مطلقاً ، بما كنتُ قد قلتُ ، وذلك خشيةَ انتحال مُبْتَسَرٍ على أنه مشاهَدةٌ ، ولكن الذى يَلُوح لى أنه يُوجَدُ فى البلدان البروتستانية ، على العموم ، أُسَرٌ أكثرُ عطفاً وزوجاتٌ أكثرُ جدارةً وأمهاتٌ أكثرُ حَناناً مما فى البلدان الكاثوليكية ، وإذا كان الأمرُ هكذا لم يُشَكَّ فى كَوْن هذا صادراً قِسْماً عن تربية الأديار .

وتقضى محبةُ الحياة المنزلية الهادئة بأن تكون معروفةً وبأن تُذَاقَ حلاوتُها منذ الطفولة ، وليس فى غير المنزل الأبوىِّ ما نَتَذَوَّق منزلَنا الخاصَّ ، وما كانت المرأةُ التى لم تُنَشِّئْها أمُّها قَطُّ لتُحِبَّ تنشئةَ أولادِها

مطلقاً ، ومن دواعى الأسف أنه عاد لا يوجد فى المدن الكبيرة تربيةٌ خاصةٌ ، وذلك أن المجتمع فيها بالغٌ من الشُّمُول والاختلاط ما لا يَبْقَى معه مكانٌ للعزلة ، حتى إن الإنسان فيها يَشْعُر فى منزله بأنه بين الناس ، وعاد لا يُوجَدُ ما يُعَدُّ أُسْرةً بفعل العيش مع جميع الناس ، ولا يكاد الإنسان يَعْرِف والدَيْه ، أى إنه يَنْظُر إليهما كما يُنظَر إلى الغرباء ، وتزول بساطةُ الطِّباع المنزلية مع الدَّالَّة الحُلوة التى تُوجِبُ فُتُونَها ، وهكذا يُرْضَع مع اللبن ذَوْقُ ملاذِّ العصر وما يُرَى أنه يَسُود العصرَ من مبادئ .

ويُلْزَم البنات بحَصْرٍ ظاهر ليَجِدْن من البُلْه من يَتزَوَّجونهن استناداً إلى وَضْعِهن ، ولكن ادرسوا أمرَ هؤلاء الفَتَيَات ساعةً من الزمن تَرَوْا أنهن يُخْفِين تحت ظاهرٍ من الحصر إخفاء رديئاً ما يَلْتَهِمْنَ من هَوًى ، ومما كان يُقرَأ فى عيونهن رغبةٌ حارةٌ فى تقليد أمهاتهن ، وليس الزوجُ هو ما يَشْتَهِينَه ، بل تَحَلُّلُ الزواج ، وما الحاجةُ إلى الزواج مع وجود كثيرٍ من السُّبُل للاستغناء عنه ؟ ولكنه يُحْتَاج إلى زوجٍ لسَتْرِ هذه السُّبُل[1] ، فالحياء فى وجوههن ، والخلاعةُ فى صميم قلوبهن ، ويُعَدُّ هذا الحياء المصنوع دليلاً عليها ، وهنّ لا يتظاهرنَ به إلا للخلاص منه سريعاً ، وأطلبُ عفوَكنّ يا نساء باريسَ ولندن ، فلا يَخْلُو مكانٌ من مُعْجِزاتٍ ، وأما أنا فلا أعْرِف منها شيئاً مطلقاً ، وإذا ما وُجِدَتْ بينكن واحدةٌ ذاتُ نفسٍ نَقِيَّةٍ حقّاً فإننى لا أفْقَهُ شيئاً من طرائقكن .

---

(١) كان سبيل الإنسان فى شبابه أحد الأمور الأربعة التى لم يستطع الحكيم أن يدركها ، وأما الأمر الخامس فهو وقاحة المرأة الزانية ، «كذلك طريق المرأة الفاسقة تأكل وتمسح فاها وتقول ما عملت إثماً» ، (سفر الأمثال ٣٠ : ٢٠) .

وتُسْلِمُ جميعُ هذه التربياتُ المُنوّعة ، على السَّوَاء ، فَتَيات البنات إلى تَذَوُّق مَلَاذِّ المجتمع وإلى الأهواء التى لا تَلْبَث أن تنشأ عن هذا الذوق ، ويبدأ الفساد مع الحياة فى المدن الكبيرة ، ويبدأ مع العقل فى المدن الصغيرة ، ومن فَتَيات الأقاليم مَنْ يتعلَّمْنَ ازدراء ما تَنْطَوِى عليه طِباعُهن من بساطةٍ مباركة فيُبَادِرْن إلى قَصْدِ باريسَ ليقاسِمْن فَتَياتِنا فسادَهنّ ، وبما أن المعايبَ المُزَوَّقةَ باسم المَنَاقب الرائعِ هدفُ رِحْلتهنّ الوحيدُ ، وبما أنه يعتريهنّ عند وصولهن خجلٌ من ابتعادهن عن تَحَلُّل نساء العاصمة النبيل ، فإنهن لا يَلْبَثْن أن يَصِرْن جديراتٍ بهذه العاصمة أيضًا ، وأين يَبْدأ السّوء على رأيكم ؟ أيبدأ فى الأمكنة التى يُرْسَم فيها أم فى الأماكن التى يُنْجَزُ فيها ؟

ولا أُريد أن تأتى الأمُّ الرصينة بابنتها من الإقليم إلى باريسَ لتُطْلِعَها على تلك المناظر البالغة الفساد لغيرها ، وإنما أقول إن هذا إذا وَقَعَ فإن هذه البنتَ إما أن تكون سيئةَ التنشئة وإما أن تكون تلك المناظرُ قليلةَ الخطَر عليها ، وإذا ما وُجِدَ ذَوْقٌ للأمور الصالحة وشعورٌ بها وحُبٌّ لها لم تكن تلك المناظر من القدرة على الجذب بمقدار ما تؤثِّرُ فِيمَنْ يَدَّعون أنفسَهم يُفْتَنُون بها ، ومما يلاحَظُ فى باريس أن أولئك الفتياتِ الرُّعْنَ اللاتى يُبَادِرْن إلى انتحال طابع هذه المدينة ويَسِرْن مع مُوضَتها لستة أشهر يَسْخَرْن بقيةَ حياتِهن ، ولكن من ذا الذى يلاحِظُ أن أولئك اللاتى يَنْفِرْن من ذلك الضجيج فيتحوَّلْن عنه إلى إقليمهن راضياتٍ عن نصيبهن بعد مقابلته بالذى يَغَارُ منه الأُخْرَيات ؟ وما أكثرَ من رأيتُ من فَتَياتٍ

النساء اللائى أتى بهن إلى العاصمة أزواجٌ قاصدون الاستقرارَ بها مع عزمٍ فيُحَوِّلْنَهم عن ذلك بأنفسهن وتُغادَرُ بعزمٍ أكثرَ من الذى قُصِدَت به مع القول العاطفىّ عَشِيَّةَ الرحيل : « وَىْ ! لنَعُدْ إلى كُوخنا حيث نَقضى حياةً أسعدَ من التى تُقْضَى فى القصور هنا ! » ، ولا أعلمُ عددَ من بَقِىَ من الصالحات اللاتى لم يَرْكَعْنَ أمام الصنم قطُّ فيَزْدَرِين عبادتَه المخالفةَ للصواب ، ولا يوجد صاخباتٌ غيرُ الحُمْق ، وأما النساء العاقلات فلا تَسْمَعُ لهن صَوْتاً مطلقاً .

وإذا ما حافظ كثيرٌ على حُكْمٍ فى الأمور راسخٍ على الرغم من الفساد العامِّ والمُبْتَسَراتِ الشاملة وتربيةِ البنات السيئة فما يَحْدُث إذا ما غُذِّىَ ذاك الحُكْمُ بمعارفَ مناسبةٍ ، وإن شئتَ فَقُلْ إذا لم يُفْسَد بمعارفَ داعرة ؟ وذلك لأن كلَّ شىء يقوم على حفظ المشاعر الطبيعية أو تجديدها ، ولا يَقضِى هذا بأن يُسْأَمَ الفتيَاتُ ، مطلقاً ، بمواعظكم الطويلة ، ولا أن تَبيعُوا منهن أخلاقياتِكم الجافيةَ ، فالأخلاقياتُ تَنطَوِى على مَوْتٍ لكلِّ تربيةٍ صالحةٍ لدى الجنسين ، ولا تَكُون الدروس الكئيبةُ صالحةً لغير إثارة الحقد على مَنْ يُلقُونها وعلى كلِّ ما يقولونه ، ولا يُقْصَدُ ، عند مخاطبة الفتياتِ ، تخويفُهن من واجباتهن ، وتَثْقِيلُ النِّير الذى فرضته الطبيعةُ عليهن ، وكُونُوا عند عَرْض هذه الواجبات عليهن مُدَقِّقِين هَيِّنِين ، ولا تَدَعُوهُنَّ يَرَيْنَ أنفسهن محزوناتٍ عند قيامهن بها ، فلا كَدَرَ ولا عُبُوسَ مطلقاً ، وكلُّ ما يجب أن يَدْخُل فى القلب يجب أن يَخْرُج منه ، ويجب أن يكون كتابُهن الخُلُقىُّ مختصراً واضحاً مثل كتابهن الدينىِّ ، ولكن

لا ينبغى أن يكون وَزِيناً ، وأَطْلِعُوهنّ ، فى الواجبات عَيْنِها ، على مصدر لَهْوِهن وأساسِ حقوقهن ، وهل من الشاقّ أن يُحِبَّ الإنسانُ حتى يُحَبَّ ، وأن يَظْهَرَ أنيساً ليكون سعيداً ، وأن يصير جليلًا ليُطَاع ، وأن يُكرِم نفسه ليُكْرَم ، ويا لروعةِ هذه الحقوق ! ويا لكونها أهلًا للاحترام ! ويا لكونها عزيزةً على قلب الرجل إذا ما عَرَفت المرأةُ أن تنتفع بها ! ويجب ألَّا تُنْتَظَرَ السُّنُونَ ولا المشيبُ للتمتع بها ، فسلطانُ المرأة يَبْدَأُ مع فضائلها ، ولا تكاد جواذبُها تَنْمُو حتى تَسُودَ بدَمَاثتها جاعلةً تواضعها باهراً ، وأىُّ رجلٍ فَظٍّ غليظٍ لا يُلِينُ خُيَلاءه ولا يَتَّخِذُ من الأوضاع أدعاها إلى الانتباه بجانب فتاةٍ فى السادسةَ عشرةَ من سِنِيها محبوبةٍ حكيمةٍ صَمُوتٍ قليلةِ الكلام ذاتِ احتشامٍ فى أوضاعها وصلاحٍ فى أحاديثها فلا يُنْسِيها حُسْنُها جنسَها وفَتَاءَها ، فتَقِفُ بحيائها النظرَ وتَجْتَلِبُ إلى نَفْسِها ما تَحْمِلُ إلى جميع الناس من إكرام .

ومع أن تلك الدلائلَ خارجيةٌ فإنها ليست خاليةً من المعنى مطلقاً ، وهى ليست قائمةً على جَذْب الحواسِّ وحدَها مطلقاً ، وهى تنشأ عن هذا الشعور الباطنىّ الذى يساوِرُنا جميعاً والقائلِ إن النساء قاضياتٌ طبيعيات فى مقدرة الرجال ، ومن ذا الذى يُرِيدُ أن يكون مُزْدَرًى من قِبَلِ النساء ؟ لا أحدَ فى العالَم ، حتى الذى عاد راغباً عن حُبِّه لهن ، وهل تَعتقدون أننى لا أكترث لأحكامهن مع أننى أخاطبهنّ بحقائقَ قاسيةٍ جِدًّا ؟ كلاَّ ، فأصواتُهنّ أعزُّ علىّ من أصواتكم أيها القراء الذين هم أكثرُ منهن نِسْوِيَّةً ، فإذا كنتُ أزدرى أخلاقَهن فإننى لا أزال أريد إكرامَ

عَذْلِهن ، وإذا كنت مُلْزِماً لهن بإكرامى فلا أُبالى بكُرْههن لى إلا قليلًا .

وما أعظمَ الأمورَ التى تُصْنَع بهذا النابض إذا ما عُرِف استعماله ! ووَيْلٌ للعَصْر الذى يَفْقِدُ النساءُ فيه نفوذَهنّ فلا يَكُون لأحكامهنّ عملٌ فى الرجال ! وهذه هى آخرُ درجةٍ من الانحطاط ، وقد أَكْرَمَت النساء جميعُ الشعوب التى كانت على شىء من الأخلاق ، وانْظُرُوا إلى إسپارطة ، وانْظُروا إلى الجِرْمان ، وانْظُروا إلى رومة ، إلى رومة التى كانت مَقَرّ المجدِ والفضيلة ، لتَرَوْا ما كان لهن عند هذه الأمم من مقام ، وفى رومة كان النساء يُشِدْنَ بمفاخرِ أكابر القُوَّاد ، وكنّ يَبْكِينَ آباءَ الوطن جَهْراً ، وكانت نُذُورُهن أو حِداداتُهن الموقوفةُ عليهم أعظمَ ما فى الجُمهورية من حُكْمٍ احتفالىّ ، وكانت جميع الثَّوْرات الكبيرة تَصْدُر عن النساء ، ومن ذلك أن نالت رومةُ الحريةَ بفضل امرأة ، وأن نال العوامُّ القنصليةَ بفضل امرأة ، وأن انتهى استبداد الحكام العشرة بفضل امرأة ، وأن أَنْقَذَ النساء رومةَ المحاصَرَةَ من يَدِ طَليلٍ ، ويا أيها الفرنسيون من ذوى الشهامة ماذا كنتم تقولون عند ما تَرَوْن مرورَ هذا المَوْكِبِ المثيرِ للضَّحِك كثيراً فى أعينكم الساخرة ؟ كنتم تقابلونه بصَرَخات الهزوء ، ويا لاختلافنا فى النظر إلى عين الأشياء ! ومن المحتمل أن يكون الحقُّ بجانبى وجانبكم ، وأَلِّفوا هذا الموكب من حِسان الفرنسيات تَجِدُونى لا أَعْرِفُ ما هو أَكْثَرُ حِشْمةً منه ، ولكنكم إذا ما أَلَّفْتُموه من رومانيات كانت لكم كلّكم عيونُ الفُولْسك وقلبُ كُورْيُولان .

وأقول أكثرَ من ذاك وأذهب إلى أن الفضيلة ليست أقلَّ ملاءمةً للحبِّ من حقوق الطبيعة الأخرى ، وأن سلطان الخليلات ليس أقلَّ ربحاً بها من رِبْح سلطان الزوجات والأمهات ، ولا يُوجَدُ حُبٌّ حقيقيٌّ بلا هُيَامٍ ، ولا يُوجَدُ هِيامٌ بلا موضوعٍ كاملٍ ، حقيقيًّا كان هذا الموضوعُ أو وهميًّا ، ولكنْ مع وجوده فى الخيال دائماً ، ولِمَ يَلْتَهِبْن حَوْل عُشَّاقٍ لا يُبَالون بهذا الكمال ولا يَرَوْن فيمن يُحِبُّون غيرَ موضوعٍ لذةٍ للحواسّ ؟ كلاَّ ، لا تَضْطَرِم النفسُ ، ولا تَسْتَسلم ، على هذا الوجه إلى هِياجٍ سَيِّئٍ يُوجِبُ هذيانَ العاشقين وفُتُونَ هواهم ، ولا شىء غيرُ وهمٍ فى الغرامِ كما أعْتَرِفُ ، ولكن الحقيقىَّ هو ما يُنْعِشُنا بمشاعرَ حَوْل الجمال الصحيح فيَحْمِلُنا على حُبِّه ، وليس هذا الجمالُ فى الشىء الذى يُحَبُّ مطلقاً ، وإنما هو من عَمَل تصورنا ، وَىْ ! وما الأمر ؟ وهل نحن أقلُّ تضحيةً بجميع هذه المشاعر المنحطة فى سبيل ذاك النَّمُوذج الخيالىّ ؟ وهل قَلْبُنَا أقلُّ تَقَبُّلًا للفضائل التى تُعْزَى إلى من يُحِبُّ ؟ وهل نحن بذلك أقلُّ انفصالًا عن الذاتية البشرية ؟ وأين هو العاشقُ الحقيقىُّ الذى لا يستعدُّ للتضحية بنفسه فى سبيل خليلته ؟ وأين هو الهوى الشَّهْوانىُّ الغليظُ فى الرجل الذى يَطْلُبُ الموت ؟ وإذا كُنَّا نَسْتهزىء بأمراء البَلَاط القدماء فلأنهم يَعْرِفون الُحبَّ ولأننا لا نَعْرِف غيرَ الفُجُور ، وعند ما أخذتْ هذه المبادئُ الروائية تصير مهازئَ كان هذا التحولُ وليدَ سَيِّئِ الأخلاق أكثرَ من أن يكون من عمل العقل .

ومهما يَكُن العَصْرُ فإن العلاقاتِ الطبيعيةَ لا تتغير مطلقاً ، ويَبْقَى ما ينشأ عنها من خيرٍ أو شرٍّ كما هو ، ولا تُغَيِّرُ المُبْتَسَراتُ منها غيرَ

الظاهر مستترةً تحت اسمٍ فارغٍ للعقل ، ومن أعظم الأمور وأجملها دائماً أن يسيطر الإنسان على نفسه ولو خُضُوعاً لآراء وهمية ، وستُخَاطِب بواعثُ الشرف ، دائماً ، قلبَ كلِّ امرأةٍ حَوْلَ ما تَطْلُبُ من حُكْمٍ فى سعادة الحياة ضِمْن حالها ، ويجب أن يَكُون الطُّهْرُ ، على الخصوص ، فضيلةً لذيذةً تَتَجَمَّلُ بها المرأةُ الحسناء التى تكون على شىء من سُمُوٍّ النفس ، وبينما تَرَى جميعَ الأرض عند قدميها تَفُوز بنفسها وبكلِّ شىء ، وهى تُقِيمُ فى قلبها الخاصِّ عَرْشاً يأتى الجميعُ لتكريمه ، وما يَكُون من مشاعرَ ناعمةٍ أو غَيْرَى ، ولكنْ مع توقيرٍ للجنسين ، وما يكون من تقديرٍ عامٍّ وخاصٍّ ، يُسْلِفُها معاركَ لأُوَيقاتٍ ضريبةً ، أَجَلْ ، إن الحِرْمان أمرٌ عابر ، غير أن ثمنه دائم ، وأيةُ مُتْعَةٍ تَتَّفِق للنفس الكريمة التى يُضَافُ زَهْوُ الفضيلة إلى جمالها ! واجْعَلوا منها بَطَلَةَ روايةٍ لتَذُوق من اللذات ما هو أطيبُ مما نالت لَايِيسُ وكليوپاترة ، وعندما يَعُود جمالُها غيرَ موجود يَبْقَى لها مجدُها ونُعْماها ، وهى تَعْرِف أن تتمتع بالماضى وحدَها .

وكلما كانت الواجبات شاقةً عظيمةً وَجَبَ أن تَكُون الأسبابُ التى تَقُوم عليها واضحةً قوية ، ويوجد من الكلام الوَرِع ما يَدُور حَوْل أكثرِ الموضوعات جِدِّيَّةً فيَقْرَعُ آذان الشبيبة من غير أن يؤدِّىَ إلى إقناع ، ومن هذا الكلام غيرِ المتناسب مع أفكارها ، والذى لا تقيم له فى السرِّ وزناً ، تُولَدُ سهولةُ انقيادها لميُولها ، وذلك عن عدم وجود أسبابٍ لمقاومتها ناشئةٍ عن الأمور نفسها ، أَجَلْ ، إن البنت التى نشِئَتْ تَنْشئةً حكيمةً تقيةً تكون مُجَهَّزَةً بأسلحةٍ لمقاومة الشَّهَوات ، بَيْدَ أن البنت التى يُغَذَّى

قَلْبُها حَصْراً ، وإن شئتَ فقُلْ أُذنها ، برَطَانةِ التقوى تَذْهبُ ، لا مَحالةَ ، فريسةَ أولِ غاوٍ ماهر يتَصَدَّى لها ، ولا تَزْدرى الفتاةُ الحسناء بدَنها ، ولا تأسفُ ، صادقةً ، على الذُّنوب الكبيرة التى حمَلها جمالُها على اقترافها ، ولا تَبكِى أمام الرَّبِّ مُخلِصَةً عن كونها موضعَ اشتهاء ، ولا تستطيع أن تَقْنَع فى نَفسها بأن أحلى حِسٍّ قلبيٍّ هو من صُنْع الشيطان ، وأَعْطُوها أسباباً أخرى فى الداخل ومن أَجْل نفسها ، وذلك لعدم تأثير تلك ، وأسوأُ من ذلك ، أيضاً ، أن يُوضَعَ تناقضٌ فى أفكارها كما يُصْنَع غالبًا ، وأن يُجْعَل محلَّ إجلال مِثْلَ هيكلِ يسوعَ المسيح ، بدَنُها الذى ازْدُرِىَ كثيراً بعد أن أُذِلَّ بإرذاله ، وتكون الأفكار البالغةُ السُّمُوِّ والوضيعةُ جدًّا ناقصةً على السواء ولا يُمكِنُها أن تتشارك ، ولا بُدَّ من عقلٍ يكون فى مُتَناول الجنس النِّسْوِىِّ وسِنِّه ، ولا يَكُون لاعتبارات الواجب قوةٌ ما لم تُضَف إليها بواعثُ تَحْمِلُنا على القيام به .

« فالتى لا تَقْتَرِف ذنبًا إلَّا لأنها مُنِعَتْ منه تُعَدُّ »

« ساقطةً فى الذنب »

ولا يُظَنُّ أن أوفِيدَ هو الذى يُصْدِرُ حُكمًا بالغًا هذه الشِّدَّة .

ولِذَا فإذا أرَدْتُم أن توحُوا بحُبِّ حُسْن الأخلاق إلى الفَتَيات فلا تَقُولوا لهن : « كُنَّ حَسَناتِ السلوك » ، وإنما اجْعَلوا من مصلحتهن الكبيرة أن يَكُنَّ حَسَناتِ السلوك ، واجْعَلُوهن يَشْعُرْن بقيمة حُسْن السلوك ، وحينئذٍ تُحَبِّبُونه إليهن ، ولا يَكفِى أن يُطْلَعْنَ على هذه المصلحة فى المستقبل ، وإنما أظهِرُوها لهن فى الساعة الحاضرة ، وذلك فى صِلَات عُمُرهِنّ وفى

أخلاق عشّاقهن ، وصِفُوا لهنّ رجلَ الخير ورجلَ الفضْل ، وعلِّمُوهن أن يَعْرِفنه ويُحْبِبْنَه ، وأن يُحْبِبْنَه من أَجْل أنفسهن ، وأثْبِتُوا لهن أن هذا الرجل وحدَه يُمكنُه أن يَجْعَلهن سعيدات ، صديقاتٍ كُنَّ أو زوجاتٍ أو خليلاتٍ ، واجْلِبُوا الفضيلةَ بالعقل ، واجْعَلُوهنّ يَشْعُرْن بأن سلطان جنسهن وجميعَ ما ينطوى عليه من منافعَ أمورٌ لا تتوقف على حسن سلوك هذا الجنس وأخلاقه فقط ، بل تتوقف على حسن سلوك الرجال وأخلاقهم أيضاً ، وبأنه ليس لهن غيرُ سبيلٍ قليل على النفوس الحقيرة الساقطة ، وبأن العاشق لا يستطيع أن يقوم بخدمة خليلته إلا إذا كان يستطيع أن يقوم بخدمة الفضيلة ، وهنالك ثِقُوا بأنكم إذا ما قمتم بوَصْف أخلاق زماننا أوْحَيْتم إليهن بنفُورٍ صادقٍ منها ، وإذا ما أرَيْتمُوهنّ مَنْ هم على المُوضة جعلتموهنّ يَزْدَرِينَهم ، ولم تؤدُّوا إلى غير ابتعادهن عن مبادئهم وكُرْهٍ لإحساساتهم واحتقارٍ لمغازلاتهم ، وبَذَرْتُم فيهن طُمُوحاً أكثرَ نُبْلًا ، أى طموحَ السيطرة على النفوس الكبيرة القوية ، أى طموحَ نساء إسپارطة الذى كان قائماً على قيادة الرجال ، ومِنْ عَمَلِ المرأةِ الخالعةِ العِذار المتهتكةِ الأرّاجة التى لا تَقْدِرُ أن تجتذب عشّاقها إلا بالغُنَاج ، ولا تحتفظ بهم إلّا بالألطاف ، أن تحْمِلَهم على الطاعة كما يُحْمَل الأُجَراء على الأمور الخسيسة المعتادة ، وأما فى الأمور المهمة الرّصينة فلا سلطانَ لها عليهم ، ولكن المرأةَ الصالحة اللطيفة العاقلة ، ولكن المرأة التى تُلزِم ذَوِيها باحترامها ، ولكن المرأةَ الرّزانَ وذاتَ الحياء ، أى المرأةَ التى تدْعَمُ الحُبَّ بالإكرام ، تُرْسِلُهم بإشارةٍ

منها إلى أقاصي الدنيا وإلى الحرب وإلى المجد وإلى الموت حيث تُرِيد(١)، فهذا السلطانُ رائعٌ، وهو يستحقُّ أن يُشْتَرَى.

وهذه هي الروحُ التي نُشِّئَتْ عليها صُوفية، وذلك بعنايةٍ أكثرَ مما بمَشَقَّة، وباتِّباع ذوقها أكثرَ مما بحَضْرِه، والآن لنَقُلْ كلمةً حَوْل شخصها وَفْقَ ما وَصَفْتُها به لإميل ووَفْقَ ما يَتَمَثَّلُ إميلُ بنفسه الزوجةَ التي يُمْكِنُ أن تجْعَلَه سعيداً.

ولا أُكرِّر كثيراً تَرْكِي النادرين جانباً، فليس إميلُ منهم، وكذلك صُوفية ليست منهم، وإميلُ رجلٌ، وصُوفية امرأةٌ، وعلى هذا يَقُوم فخرُهما، وفي زماننا الذي يختلط فيه الجنسان يُعَدُّ من المعجزات، تقريباً، أن يَلْزَمَ الواحدُ جنسَه.

وصُوفيةُ حسنةُ المولدِ ذاتُ موهبةٍ طبيعية، ولها قلبٌ حَسَّاسٌ جدًّا، وهذه الحساسيةُ المتناهية تُنْعِم عليها، أحياناً، بنشاطٍ في الخيال يَصْعُب تَعْديلُه، ولها ذهنٌ ثاقب أكثرُ منه صائباً، ولها مزاجٌ لَيِّنٌ مع تَقَلُّب، ولها وجهٌ معتادٌ، ولكنه مستحَبٌّ، ولها سِيما تَنِمُّ على روح ولا تَكْذِب،

(١) روى برانتوم أن فتاة في عهد فرنسوا الأول كان لها عاشق ثرثار ففرضت عليه صمتاً مطلقاً لا حد له، فلزمه بإخلاص مدة عامين كاملين، فظن أنه أبكم عن مرض، وفي ذلك الحين كان الغرام يتم في جو من الكتمان فلم يعرف أحد أن تلك الفتاة خليلته، ومما حدث في أحد المجالس ذات يوم أن تبجحت بأنها تشفيه من فوره فلم تقل له غير كلمة «تكلم»، ألا يوجد شيء بطلي عظيم في ذلك الحب؟ وماذا كانت فلسفة فيثاغورس تصنع أكثر من هذا مع ما هي عليه من فخامة؟ أما كان الخيال يذهب إلى رب ينعم على إنسان بعضو الكلام؟ وأية امرأة تستطيع اليوم أن تعتمد على مثل هذا الصمت يوماً واحداً مهما دفعت من ثمن تقدر عليه؟

وهى يُمْكِن أن تقابَل بلا اكتراث ، ولكنها لا تُتْرَك بلا اهتزاز ، ويُوجَدُ مَنْ هُنَّ ذواتُ صفاتٍ تُعْوِزُها ، ويُوجَدُ مَنْ هُنَّ ذواتُ صفاتٍ كصفاتها على أوسعِ مقياسٍ ، ولكنك لا تجدُ واحدةً منهن ذاتَ صفاتٍ أحسنَ توافقاً من صفاتها فى تأليف طَبْعٍ سعيد ، حتى إنها تستطيع الانتفاع من عيوبها ، فلو كانت أكثرَ كمالًا لظَهَرَتْ أقلَّ وقوعاً موقعَ الرِّضا .

وليست صُوفيةُ جميلةً ، ولكن الرجال يَنْسَوْن الحِسَانَ بجانبها ، ولا يَرْضَى الحِسَانُ عن أنفسهن إذا ما كُنَّ بالقُرْب منها ، وهى لا تكاد تكون مليحةً عند أول نظرة ، ولكنها تزْدان كلما نُظِرَ إليها ، وهى تَرْبَحُ حيث يَخْسَر غيرُها ، وهى لا تَخْسَرُ ما تَرْبَحُ ، أَجَلْ ، يُمْكِن أن تكون إحدى النساء أجملَ منها عيناً ، وأحسنَ منها فماً ، وأروعَ منها وجهاً ، ولكنك لا تَرَى من هى أفضلُ منها قامةً ، وألطفُ منها لوناً ، وأبيضُ منها يداً ، وأصغرُ منها رِجلًا ، وأعذبُ منها نظرةً ، وأفعَلُ منها مُحَيَّا ، وهى تَقِفُ النظر من غير أن تَبْهَر ، وهى تَفْتِنُ من غير أن يُعْرَف السبب .

وتُحِبُّ صُوفيةُ الزِّينةَ ، وهى تَعْرِف أن تزَيَّن ، ولا تَعْرِف أمُّها لنفسها ماشطةً غيرَها ، ولديها ذَوْقٌ كبيرٌ فى حُسْن اللباس ، ولكنها وتكْرَه الثيابَ الفاخرة ، وأنت تُبْصِرُ فى ثوبها بساطةً مع الأناقة دائماً ، وهى لا تَرْغَبُ فى الساطع ، بل ترْغَبُ فى اللائق ، وهى تجهَلُ أىَّ الألوان يكون على المُوضة ، ولكنها تَعْرِف الألوان التى تلائمها بما يُثيرُ

العجب ، ولا تجدُ فتاةً تَلُوح لابسةً مع قليلٍ تَصَنُّعٍ ومُزَيَّنَةً مع كثير تَكَلُّفٍ ، ولا تستعملُ قطعةً مصادفةً ، ومع ذلك لا تُبْصِرُ فى أىٍّ من ذلك تعمُّلا ، وتكون زينتُها كثيرةَ البساطة ظاهراً كثيرةَ الظرافة حقيقةً ، وهى لا تَعرِض محاسنَها مطلقاً ، وهى تُخْفِيها ، ولكنها ، إذْ تُخْفِيها ، تَعْرِفُ أن تَحْمِلَ على تَصَوُّرِها ، ويقال عندما تُرَى : « هذه فتاةٌ متواضعةٌ عاقلة » ، ولكنكم إذا ما بَقِيتُم بجانبها جالت عيونُكم وأفئدتكم فى جميع شخصها من غير أن تستطيعوا فَصْلَهما عنها ، فيقال إن هذه الزينةَ البسيطةَ بهذا المقدار لم تُوضَعْ فى محلِّها إلا لتُنزَعَ منه قطعةٌ بعد الأخرى بالخيال .

ولصُوفيةَ مواهبُ طبيعيةٌ ، وهى تَشْعُر بها ، ولم تُهمِلْها ، ولكنْ بما أنه لم يُتَحْ لها بَذْلُ كثيرِ حِذْقٍ فى تثقيف هذه المواهب فقد اكتفت بتمرين صوتها الجميل على الغِنَاء مع الإحكام والذوق ، وتمرينِ رجليها الخفيفتين على المشى برشاقةٍ وسهولةٍ ولطافة ، كما مَرَّنت نفسها على المجاملة فى جميع الأوضاع بلا عُسْرٍ ولا جفاء ، ثم إنه لم يَكُنْ لها معلمٌ للغناء غيرُ أبيها ، ولم تكن لها معلمةٌ للرقص غيرُ أمِّها ، وقد تَلَقَّتْ من أُرْغُنِيٍّ جارٍ لها دروسَ مسايرةٍ فى العَزْف على البِيَان فأَكَبَّتْ عليها وحدَها زمناً طويلاً ، وكان أولَ ما فَكَّرَتْ فيه إظهارُ يدها بتفوقٍ على تلك المفاتيح السُّود ، ثم وَجَدَت أن صوتَ البِيَانِ الحادَّ الجافَّ يَجْعَل رَنِينَ الصوت أكثرَ حلاوةً ، ثم صارت بالتدريج عارفةً بالإيقاع ، وأخيراً أخذتْ ، بعد أن كَبِرَتْ ، تَشْعُر بفُتُون الأداء وتُحِبُّ المُوسيقا لنفسها ، ولكن

هذا ذوقٌ أكثرَ من أن يكون نبوغاً ، وهى لا تعرِف أن تقرأ لَحناً على النوتة مطلقاً .

وأحسنُ ما تَعرِفُ صُوفية وما عُـلِّمَتْه بأعظمِ عنايةٍ هو أشغالُ جنسِها ، حتى التى لا تخطُر ببالـكم مطلقاً ، كتفصيل ثيابها وخَيْطِها ، ولا يُوجَدُ شُغْلٌ بالإبرة لا تَعرِفه ولا تأتيه بلذةٍ ، غير أن التخريم هو الشُّغلُ الذى تُفَضِّلُه على سواه ، وذلك لأنه لا يُوجَدُ كالتخريم شُغْلٌ يَمْنَحُ وَضْعاً أعظمَ لطافةً وتُزَاوِلُه الأصابعُ بظَرَافة وخِفَّة ، وكذلك تعاطت جميعَ أمور المنزل مُفَصَّلاً ، وهى تَعرِف الطَّهْوَ وخِدْمةَ السُّفْرَة ، وهى تَعرِف أثمانَ الموادِّ الغذائية وخواصَّها ، وهى تَعلَم قَيْدَ الحسابات جيداً ، وهى تَصلُح أن تكون رئيسةَ خَدَمٍ لأُمِّها ، وهى إذْ كُوِّنت لتكون أمَّ أُسْرَةٍ ذاتَ يومٍ ، وهى إذْ تتعلَّم إدارةَ منزل أبيها ، تَتَعَلَّمُ إدارةَ منزلها ، وهى تستطيع أن تقوم بوظائف الخَدَم فتَفْعَلُ هذا طَوْعاً ، وما كنتم لِتعرِفوا أن تُحْسِنوا الأمرَ بشىءٍ لا يُمْـكِنُكم أن تُنَفِّذوه بأنفسكم ، وهذا هو السببُ فى شَغْلِ أمِّها إياها على هذا الوجه ، وما كانت صُوفية لتُبْعِدَ فى الموضوع بهذا المقدار ، فواجبُها الأول هو واجبُ البنت ، وهـذا الواجبُ وحدَه هو الذى تَرَى أن تَقُوم به فى الوقت الحاضر ، وكلُّ ما تَنظُر إليه هو أن تَخدُمِ أمَّها وأن تُخَفِّفَ عنها بعضَ أعمالها ، ومع ذلك فإن من الواقع أنها لا تقوم بجميع هذه الأعمال بلَذَّةٍ متساوية ، ومن ذلك مثلاً أنها لا تُحِبُّ الطَّهْوَ مع أنها نَهِمَة ، وذلك لما تَنطوى عليه جزئياتُه من عواملِ نُفُورها ، فما كانت لتَجِدَ فيه نظافةً كافية ، وهى فوقَ ذلك ذاتُ لطافةٍ متناهية ، فلما أفرطت

فى هذه اللطافة تحوَّلت إلى إحدى نقائصها ، وهى تُفَضِّل أن تأكل النارُ جميعَ الغَدَاء على تلويث كُمِّها ، وهى لم ترْغَبْ ، قَطُّ ، فى تَفَقُّد الحديقة لذاتِ السبب ، فالترابُ يَلُوح لها أنه قَذِرٌ ، وهى إذا ما رأت الزِّبْل خُيِّل إليها أنها تَشَمُّ رائحته .

وهذه النقيصةُ نتيجةُ دروس أمِّها ، وعندها أن النظافة من أول واجبات المرأة ، هذا الواجبَ الخاصَّ اللازمَ المفروضَ من قِبَل الطبيعة ، ولا يُوجَدُ فى العالَمَ شىء أدعى إلى الاشمئزاز من امرأةٍ قَذِرة ، ولا يَكُون الزوجُ الذى يشمئزُّ منها مخطئاً مطلقاً ، والأمُّ قد أكثرتْ من وَعْظِ ابنتها بهذا الواجب منذ طفولتها ، وهى قد استلزمت كثيرَ نظافةٍ لنفسها وثيابِها وغرفتِها وشُغْلها وزينتها ، فتحوَّلت هـذه العناية إلى عادة وصارت تستوعب قسماً كبيراً من وقتها مع السيطرة على القسم الآخر ، فلا يأتى إتقانُ ما هى مكلَّفةٌ بصنعه فى غير المرتبة الثانية من جهودها ، وأما المرتبةُ الأولى فهى وَقْفٌ على صُنْعه نظيفاً .

ومع ذلك فإن جميع هذا لم يَنْحَطَّ إلى تَصَنُّعٍ فارغ ، ولا إلى نعيم ، فلا محلَّ هناك لدقائق الترف ، وما كان ليَدْخُل منزلَها غيرُ الماء الزُّلال ، وما كانت لتَعْرِفَ عِطْراً غيرَ شَذَا الأزهار ، وما كان زوجها ليَشَمَّ ما هو أحلى من نَكْهَتِها*، ثم إن ما تُعيرُه المَظْهَر من عناية لا يُنْسِيها أنها مدينةٌ بحياتها وزمانها لعواملَ أكثرَ نُبلاً ، فهى تَجْهَل أو تزدرى هذا الإفراطَ فى نظافة البدن التى تُدَنِّسُ الرُّوح ، فصُوفيةُ أكثرُ من نظيفة ، هى طاهرة .

* النكهة : رائحة الفم .

وقلتُ إن صُوفية نَهِمةٌ ، ومن الطبيعىّ أن كانت نَهِمةً ، بَيْدَ أنها صارت قَنُوعاً عن عادةٍ ، والآن هى قَنُوعٌ عن فضيلة ، ولا يُوجَدُ من البنات ، كما يُوجَدُ من البنين ، مَنْ يُمكِن أن يُسَيْطَر عليهن بالنَّهَم إلى حَدٍّ ما ، وليس هذا الميلُ بلا عواقبَ فى الجنس النِّسْوىّ مطلقاً ، فمن الخطَر الكبير أن يُتْرَكَ وشأنَه ، وكانت صوفيةُ الصغيرة فى طفولتها ، إذا ما دخلت غرفةَ أمِّها وحدَها ، لا تَرْجِعُ منها فارغةً دائماً ، فهى لم تكن أمينةً عند كلّ امتحانٍ حَوْل أقراص السُّكَّر والمُلَبَّسات ، وقد فاجأتها أمُّها وعَزَّرتها وعاقبتها وصَوَّمتها ، وأخيراً وُفِّقَتْ أمُّها لإقناعها بأن المُلَبَّس يُفسِد الأسنان وبأن النَّهَم يُضَخِّم القَوَام ، وهكذا أصلحت صُوفية نفسَها ، فلما كَبِرَت انتحلت من الأذواق ما حَوَّلها عن تلك الحِسِّيَّة الوضيعة ، والقلبُ إذا ما انتعش عند النساء كما عند الرجال عاد النَّهَمُ لا يكون نقيصةً مسيطرة ، وقد حافظت صوفيةُ على الذوق الخاصّ بجنسها ، فهى تُحِبُّ الألبان والحَلاوَى ، وهى تحِبُّ المَعْجُونات والمَأْدُومات ، ولكن مع مَيْلٍ قليلٍ إلى اللحم ، وهى لم تَذُقْ ، قَطُّ ، خمراً ولا مُسْكِراً مُقَطَّراً ، وهى ، فضلاً عن ذلك ، معتدلةٌ كلَّ الاعتدال فى طعامها ، ولا غَرْوَ ، فجِنسُها أقلُّ كَدْحاً من جنسنا ، ولِذا فهو أقلُّ من هذا احتياجاً إلى تجديد النشاط ، وهى فى كلِّ شىء تُحِبُّ ما هو طيبٌ وتَعرِف أن تَذُوقه ، وهى تَعْرِف ، أيضاً ، أن تكتفى بما هو غيرُ جيد ، وذلك من غير أن يَصْعُب عليها هذا الحِرْمان .

وصُوفيةُ مقبولةُ الذهن من غير تألّق ، وصوفيةُ قويةُ الذهن من غير عمق ، وصوفيةُ ذاتُ ذهنٍ لا يُحَدَّث عنه مطلقاً لِما لا تَبْدُو أكبرَ مما

هى عليه أو أصغر ، ولها من الذهن ما تَرُوقُ به من يُكَلِّمُونها دائماً وإن لم يكن من التجميل ما يطابق الفكرَ الذى يساورنا حَوْل تهذيب ذهن النساء ، وذلك لأن ذهنها لم يُكَوَّنْ بالقراءة قَطّ ، بل كُوِّن بأحاديث أبيها وأمها وبتأمُّلاَتها الخاصة وما تَمَّ لها من ملاحظاتٍ فيمن رأتْ من أناسٍ قليلين ، ومن الطبيعىّ أن ظهرت صوفية ذاتَ مَرَح ، حتى إنها كانت لَعُوباً فى طفولتها ، غير أن أمَّها عُنِيَتْ بزَجْر مناحيها الطائشة بالتدريج ، وذلك خشيةَ أن يقع سريعاً من التغيير الفاجئ ما تَطَّلِعُ به على الوقت الذى تكون فيه مُبْتَغاة ، ولِذَا فقد صارت متواضعةً متحفظة حتى قبل أن تبلغ ذلك ، والآن حَلَّ ذلك الوقت فصار أسهلَ عليها أن تحافظ على الوَضْع الذى اتخذته من انتحاله مع عدم بيان السبب فى هذا التحول ، ومن الأمور المستحبَّة أن تُرَى فى بعض الأحيان عاكفةً ، ببقيةٍ من العادة ، على نشاط الطفولة ، ثم أن تَعُود إلى نفسها بغتةً فتَبْدُوَ صامتةً مُطْرِقةً مُحْمَرَّةً ، ولا عَجَبَ ، فلا بُدَّ فى الدَّوْر الفاصل بين العُمُرين من تَسَرُّب شىء منهما فيه .

وصوفيةُ من فَرْطِ الإحساس ما لا تحافِظ معه على اعتدالٍ كامل فى المِزَاج ، ولكنها من فَرْط اللطف ما لا يكون هذا الإحساسُ معه كثيرَ الإزعاج للآخرين ، وهى لا تُؤلِم غيرَ نفسها بذلك ، وإذا ما وُجِّهَتْ إليها كلمةٌ لاذعة لم تُظْهِر استياءها ، ولكن قَلْبَها ينتفخ ، فتحاولُ أن تُفْلِت لتذهبَ وتَبْكِىَ ، وإذا ما ناداها أبوها أو أُمُّها بكلمةٍ واحدة وهى تبكى أتتْ من فَوْرها لاعبةً ضاحكةً مُكَفْكِفةً دموعَها بلباقةٍ محاولةً كَتْمَ زَفَراتها .

ثم إنها غيرُ خاليةٍ من النَّزْوة ، فإذا ما نُخِزَتْ مِزاجاً تَمرَّدتْ ونَسِيَتْ نفسَها ، ولكنْ إذا ما تَرَكْتُم لها وقتاً تَعُودُ فيه إلى نفسها عُدَّتْ لها فضيلةٌ تقريباً بالوجه الذى تَمْحُو فيه خطأَها ، وإذا ما عُوقِبَتْ بَدَتْ طائعةً خاضعةً وظَهَرَ أن حياءها يَصْدُرُ عن ذنبها أكثرَ مما عن عِقابها ، وإذا لم تُقَلْ لها كلمةٌ لم يُعْوِزْها أن تَمْحُوَه بنفسها ، ولكن بإخلاصٍ كبيرٍ ولطفٍ كثيرٍ يتعذر معهما أن يَتْرُكَ ذلك أثراً للضغينة ، وهى تُقَبِّلُ الأرضَ أمام أحقر خادم ، وذلك من غير أن يوجب هذا الاتِّضاعُ أقلَّ ألمٍ فيها ، وهى إذا ما عُفِىَ عنها تَمَّ فَرَحُها واغتباطُها على مقدار الحِمْل الذى أُزِيح عن فؤادها ، والخلاصةُ أنها تحتمل خطأَ الآخرين صابرةً ، وأنها تُصْلِح خطأَها مسرورةً ، وهـذا هو طَبْعُ جنسِها الجميلُ قبلِ أن نُفسِده ، وقد صُنِعَت المرأةُ لتُذْعِن للرجل ، ولتحتملَ حتى جَوْره ، ولن تُحَوِّلُوا فَتَياتِكم إلى النقطة عينِها ، فالشعورُ الباطنىُّ يرتفع ويَثُور ضِدَّ الجَوْر ، ولم تصنعهن الطبيعةُ للتسامح فيه .

« فذاك هو الغضب المشؤوم الناشئ »

« عن ابن پيلِه الشَّرِس » .

ولصُوفية دينٌ ، ولكنه دينٌ معقولٌ بسيطٌ مع عقائدَ قليلةٍ وعباداتٍ أقلَّ منها ، أو إنها لا تَعرِف من الشعائر الجوهرية غيرَ الأدبىِّ ، فهى تَقِفُ جميعَ حياتها على عبادة الرَّبِّ بصُنْع الخير ، وقد عَوَّدها أبواها أن تُبدِيَ خضوعَ احترامٍ فى جميع المعارف التى حَبَوَاها بها حَوْل هذا الموضوع إذْ يقولان لها : « يا بُنَيَّة ، إن هذه المعارف لا تناسبُ سِنَّكِ ، وسيعلِّمك

زوجُكِ إياها فى الوقت المناسب » ، ثم إنهما ، بدلاً من الإسهاب فى الكلام عن التقوى ، يكتفيان بوعظها على مثالها ، وهذا المثالُ منقوشٌ على فؤادها .

وتُحِبُّ صوفية الفضيلة ، وصار هذا الحُبُّ هواها المهيمنَ ، وهى تُحِبُّ الفضيلة لأنه لا يُوجَدُ ما هو جميلٌ كالفضيلة ، وهى تحب الفضيلة لأنها تؤدى إلى مجد المرأة ، ولأن المرأة الفاضلة تَبْدُو لها كالملائكة تقريباً ، وهى تُحِبُّ الفضيلة لأنها الطريقَ الوحيد للسعادة الحقيقية ، وهى تُحِبُّ الفضيلةَ لأنها لا تَرَى غيرَ البؤس والإهمال والشقاء والعار والخِزْيِ فى حياة المرأة غيرِ المستقيمة ، ثم إنها تُحِبُّ الفضيلة لأن الفضيلة عزيزةٌ على أبيها الجليل وأمِّها الحَنُونِ الوَقور ، ولا يكتفى هذان الوالدان بأن يكونا سعيدين بفضيلتهما الخاصة ، بل يُريدان أن يَسْعَدَا بفضيلتها أيضاً ، وهى تُبْصِرُ سعادتَها الأولى فى رجائها أن تجعلهما سعيدين ، وتُوحِى جميعُ هذه المشاعر إليها بحماسةٍ ترتفع بها روحاً وتُعَبِّدُ بها جميعَ ميولها الصغيرة لَهوًى نبيلٍ جدًّا ، وستكون صُوفية طاهرةً صالحةً حتى النَّفَس الأخير من حياتها ، وقد أقسمتْ على هذا فى صميم فؤادها ، وهى قد أقسمتْ على ذلكِ فى وقتٍ كانت تُدْرِكُ فيه كلَّ ما ينطوى عليه البِرُّ من قيمة ، وهى قد أقسمتْ على ذلك فى وقتٍ كانت تَحْنَثُ فيه لو كانت حواسُّها قد كُوِّنت لتسيطر عليها .

ولم تَسْعَدْ صُوفيةُ بأن تكون فاتنةً فرنسيةً ، فاترةً عن مزاجٍ ، مِغْنَاجًا عن زهوٍ ، راغبةً أن تُشْرِقَ أكثرَ من أن تَرُوق ، باحثةً عن اللَّهْو لا عن السُّرور ، وتُضْنِيها ضرورةُ الحبِّ الوحيدة ، وتَشْغَلُها وتُقْلِقُ بالَها

فى الأعياد ، وقد فقدت مرحها السابق ، وعادت الألعاب المرحة لا تلائمها ، وهى تبحث عن العزلة بدلاً من أن تخشاها ، وفى العزلة تفكر فيمن يجب أن يجعلها حلوة ، ويزعجها جميع الأخلياء ، وتحتاج إلى عاشق ، لا إلى بطانة ، وتفضل أن تروق رجلا كريماً واحداً ، وأن تقع موقع الرضا عنده دائماً ، على أن تنال استحسان مجتمع يدوم يومًا ثم يتحول إلى سخرية فى الغد .

ويتكون الحكم فى النساء بأسرع مما فى الرجال ، وبما أن النساء يكن فى وضع المدافع منذ طفولتهن تقريبًا ، وبما أنهن يكن مثقلات بوديعة يصعب حفظها ، فإن الخير والشر يكونان معروفين عندهن بأسرع مما عند الرجال بحكم الضرورة ، وكذلك صوفية ، الناضجة باكراً فى كل شىء نتيجة لمزاجها ، ذات حكم أسرع تكونًا مما عند البنات اللاتى هن فى مثل عمرها ، ولا شىء خارق للعادة فى هذا ، فالبلوغ فى الوقت نفسه لا يكون على وتيرة واحدة فى كل مكان .

وتعرف صوفية واجبات الجنسين وحقوقهما ، وتعرف نقائص الرجال ومعايب النساء ، وتعرف أيضاً ما تباين من الفضائل والصفات ، وقد طبعتهما جميعاً فى صميم قلبها ، ولا يمكن تكوين فكر عن المرأة الصالحة أرفع من الذى تمثلته عنها ، وما كانت هذه الفكرة لترعبها مطلقاً ، ولكنها تفكر بارتياح أكثر من ذلك فى الرجل الصالح ، فى الرجل الفاضل ، فتحس أنها كونت لهذا الرجل الذى تليق به فتستطيع أن تعيد إليه السعادة التى تنالها منه ، وهى تشعر بأنها ستعرفه جيداً ، فالأمر يتوقف على لقيانها إياه .

ومن الطبيعيّ أن يكون النساءُ قاضياتٍ في مزية الرجال كما يكون الرجال قُضَاةً في مزية النساء ، وتُعَدُّ هذه من حقوقهما المتبادَلة ، ولا يَجْهَلُ هذا أيٌّ من الفريقين ، وتَعرِف صُوفية هذه الحقوقَ وتمارسُها ، ولكنْ مع ما يلائم فَتاءها وتجربتها ووَضْعَها من التواضع ، وهي لا تَحْكُم في غير الأمور التي تَكُون في متناوَلها ، وهي لا تَحْكُم فيها إلّا عند ما يَنفَع هذا في تنوير بعض المبادئ المفيدة ، وهي لا تتكلم عن الغائبين إلا بحَذَرٍ كبير ، ولا سيما النساءُ إذا ما كُنَّ غائباتٍ ، وهي تَرَى أن الذى يَجْعَلُهن مُغتاباتٍ هاجياتٍ هو الحديثُ عن جنسهن ، فإذا ما اقتصرن على الكلام عن جنسنا لم يَكُنَّ غيرَ منصفات ، ولذا فإن صُوفية تقتصر على هذا ، وأما النساءُ فإنها لا تتكلَّم عنهن ، مطلقاً ، إلا لتقولَ عنهن ما تَعْرِف من خير ، وهذا إكرامٌ يَجِبُ عليها أن تقومَ به نحو جنسها على ما تَعْتقد ، وأما اللائى لا تَعْرِف خيراً تَقُوله عنهن فلا تُحَدِّثُ عنهن بشيء ، وهذا يَكْفِي .

وصُوفيةُ قليلةُ المعرفة بالناس ، ولكنها ذاتُ مُرُوءة وانتباه ، وتُظْهِرُ لُطفًا في كلِّ ما تَصْنَع ، وما فُطِرَت عليه من طَبْعٍ مباركٍ أنفعُ لها من كثيرِ شطارةٍ ، وهي ذاتُ أدبٍ خاصٍّ بها غيرِ تابعٍ للصِّيَغِ ، وغيرِ مُسَخَّرٍ للمُوضَات فلا يَتَغَيَّر بتغيُّرها ، وغيرِ صانع شيئًا عن عادة ، بل صادرٌ عن رغبةٍ صادقة في الوقوع موقعَ الرِّضا فيَرُوقُ فعلًا ، وهي لا تَعرِفُ المجاملاتِ المبتذلةَ مطلقًا ، ولا تَبْتَكِر من المجاملات ما ينطوى على كبير تكلُّفٍ ، وهي لا تقول إنها مدينةٌ لفضلٍ ، أو ذاك يشرِّفها كثيراً ، أو

لا يُتْعِبُ ذلك نفسَه ، إلخ . ، وأقلُّ من هذا أيضًا أن يَخْطُر ببالها انتحالُ جُمَلٍ لنفسها ، وهى تُجِيبُ عن انتباهٍ أو أدبٍ معتادٍ بحَنْوِ الرأس أو بكلمة « شُكْراً » البسيطة ، وذلك مع العلم بأن نُطقَها بهذه الكلمة يُجْزِئ عن غيرها ، وإذا ما أُسْدِيَ إليها بخدمةٍ دَعَتْ قلبَها يتكلم ، وليس كلامُ الفؤاد ضربًا من المجاملات ، وهى لم تُطِقْ ، مطلقاً ، أن تَعَبَّدَها العاداتُ الفرنسية لنيرِ المظاهر ، كأن تَمُدَّ يدها ، عند مرورها بين غرفةٍ وأخرى ، إلى ذراع شيخٍ فى الستين من عُمُره مساعَدةً له ، وإذا ما عَرَض مِغنَاجٌ مُعَطَّرٌ عليها القيامَ بهذه الخدمة النابية تركت الذراعَ المُتَكَرِّمة على السُّلَّم وطارت إلى الغرفة بوَثبتيْن قائلةً إنها ليست عَرْجاء ، والواقعُ أنها ، وإن لم تكن طويلةً ، لم ترْغب فى الأعقاب العالية قَط ، فهى من صِغَر الرِّجلين ما تستغنى معه عنها .

ولا تلتزمُ جانبَ الصمت وتَقُومُ بالاحترام نحو السيدات فقط ، بل تفعل ذلك نحو الرجال المتزوجين أيضاً ، أو نحو من يَكْبُرونها فى السنِّ كثيراً ، وهى لا تَقْبَلُ ، مطلقاً ، مكاناً فوقهم إلَّا عن طاعةٍ ، ثم لا تَلْبَثُ أن تتخذ مقعداً لها تحتهم عند ما يُمْكِنُها ذلك ، فهى تَعْلَمُ أن حقوق السِّنِّ فوق حقوق الجنس ، وذلك لِمَا يُفْتَرَضُ من ملازمة الحِكْمة للمَشِيب ، والحكمةُ هى ما يجب أن يُكْرَم قبل كلِّ شىء .

والأمرُ غيرُ ذلك تجاه الشباب ، فهى تَسْتلزم وضعاً مختلفاً عن ذاك نَيْلًا لاحترامهم ، وهى تناله من غير أن تُغَيِّر ما يناسبها من تواضع ، وإذا ما كانوا متواضعين متحفظين أمكنها أن تتخذ نحوهم ما يقتضيه الفتاة من دالَّةٍ

مستحبة ، وقامت أحاديثهم البريئة على المُزَاح ، ولكن مع الاحتشام ، وإذا ما التزموا جانبَ الجدّ وَدَّتْ أن يَكُونوا نافعين ، وإذا ما أَسَفُّوا لم تَلبَثْ أن تُسْكِتَهم ، وذلك لأن أخصّ ما تزدريه هو رَطانةُ المغازلة المُهينةَ كثيراً لجنسها ، وهى تَعلَمُ جيداً أن الرجل الذى تَبحَثُ عنه خالٍ من هذه الرَّطانة ، فلا تحتمل ، عن اختيارٍ ، أن يَصْدُر عن آخرَ ما لا يناسبُ الرجلَ المطبوعةَ أخلاقُه فى صميم فؤادها ، وما عندها من رأيٍ عالٍ عن حقوق جنسها ، وما يُسْفِر عن صفاء مشاعرها من زهوٍ فى النفس وما تُحِسُّه من فضيلةٍ فى نفسها فيَجْعَلُها محترمةً فى نظرها الخاصّ ، أمورٌ تَحْمِلُها على الإصغاء ، مع الغيظ ، إلى الأحاديث التافهةِ الحلاوة التى يُزْعَمُ أنها تُسَلِّيها ، أَجَلْ ، إنها لا تَتَلَقَّاها بغيظٍ ظاهر ، ولكن بهُتَافٍ ساخرٍ يُفحِم ، أو بفتور غيرِ منتظر ، ولو بَرَزَ لها رجلٌ جميلٌ مِثْلُ فِيبُوسَ فأظْهَر لها ظَرَافتَه وأبدى لها من المَلَاحة ما مَدَحَ معه جمالَها وألطافَها نَيْلًا لشَرَفِ الوقوع عندها موقعَ الرضا لوَجَد فيها فتاةً تُسْكِتُه بقَوْلها المؤدَّب له : « أَخْشَى كثيراً ، يا سيدى ، أن أكون عارفةً بهذه الأمور أكثرَ مما تَعْرِفُ ، فإذا لم يَكُنْ لدينا ما هو أَمْتَعُ من هذا الكلام فإننى أظنُّ أننا نستطيع أن نَضَع حدًّا لهذا الحديث » ، وليس إرْفَاقُ هذه الكلمات باحترامٍ كبير ثم الابتعادُ عنه عشرين خُطوةً غيرَ عملِ ثانيةٍ ، واسألوا فاتنِي النساء لديكم هل من السهل أن يُدَاوَم على الهَذْر مع نَفْسٍ غيرِ هَيِّنةٍ كتلك .

ومع ذلك فإن ذلك لا يَعْنِي أنها لا تُحِبُّ أن تُمْدَح مطلقاً ، وإنما

تُريد الإخلاصَ فى المدح فيُمكِنُها أن تعتقد أن المادح مؤمنٌ بما يقول لها من خيرٍ فى الحقيقة ، وقد يلاطِفُ الوَلاءُ القائمُ على التقدير فؤادَها الأبيَّ ، ولكن كلَّ غزَلٍ خادع يقابَل بالرفض دائماً ، فلم تُكوِّنْ صُوفية لتمارِسَ مواهبَ حقيرةً كمواهب البَهْلَوَان .

وما كانت صُوفيةُ لتعامَل من قِبَل والديها كما يعامَل الأولاد بعد ذاك النُّضْج فى الحُكْم وذاك التكوين الخَليقِ ، من كلِّ ناحيةٍ ، بفتاةٍ فى العشرين من عُمُرِها مع أنها فى الخامسةَ عشرةَ من سِنِيها ، وهما لا يكادان يُبْصِران فيها أوّلَ هموم الشباب حتى يُبادرا إلى تلافيها فيخاطباها بكلامٍ لَيِّنٍ رَصين ، والكلامُ اللينُ الرصينُ مما يلائم سنَّها وطبعَها ، وإذا كان طبعُها كما أتصوَّرُ فلِمَ لا يخاطِبُها أبوها كما يأتى تقريباً :

« أىْ صُوفية ، لقد كَبِرْتِ كما نَرَى ، وستصبحين امرأةً عما قليل ، ونُريد أن تكونى سعيدةً ، ونُريدُ هذا من أجْل أنفسنا ، وذلك لأن سعادتنا تتوقف على سعادتكِ ، وتَقُوم سعادةُ البنت الصالحة على صُنْع سعادة الرجل الصالح ، ولِذَا فلا بُدَّ من التفكير فى تزويجك ، ويجب أن يُفكَّر فى ذلك باكراً ، فعلى الزواج يتوقف مصيرُ الحياة ، وليس لدينا وقتٌ كبير للتفكير فى أمره .

« ولا شيءَ أصعبُ من اختيارِ الزوج الصالح ، إن لم تكن الصعوبةُ فى اختيار الزوجة الصالحة على ما يحتمل ، أىْ صُوفية ، ستكونين هذه المرأةَ النادرة ، وستكونين تاجَ حياتنا وسعادةَ أيامنا الآفلة ، ولكنْ مهما تَكُن المزيةُ التى تَتَّصفين بها فإنه لا يُعوِزُ الأرضَ رجالٌ يكونون أعظمَ مزيةً منكِ ،

ولا يُوجَدُ في الأرض رجلٌ لا يُشَرِّفه أن يَفوزَ بك ، وفي الأرض رجالٌ تَفوزين بشرفٍ منهم أكثرَ مما يَفوزون ، ويَدُور الأمرُ حَوْلَ لُقيانِ رجلٍ يلائمك ، وأن يَعْرِفَ ، وأن يَعرِّف بك .

« ويَتَوقَّفُ أعظمُ سعادةٍ في الزواج على كثيرٍ من الموافَقَات التي يُعَدُّ من الحماقة أن يُرَادَ جمعُها كلُّها ، وأول ما يَجبُ هو أن يُضْمَن أهمُّها ، فإذا ما وُجِدَت الأخرى بينها كان هذا خيراً ، وإذا لم تُوجَدْ اسْتُغْنِيَ عنها ، أَجَلْ ، إن السعادة الكاملة غيرُ موجودة في العالَم ، ولكن أعظم المصائب ، وهي التي يُمْكِنُ اجتنابُها دائماً ، أن يكون الإنسان شقياً بخطأ منه .

« ومن الموافقات ما هو طبيعيٌّ ، ومنها ما هو وَضْعيٌّ ، ومنها ما هو تابعٌ للرأى العامّ وحدَه ، فأما النوعان الأخيران فالأَبَوَان قاضيان فيهما ، وأما النوع الأول فالأولادُ قضاةٌ فيه ، ويُسْتَنَدُ إلى الموافقات الوضعية وإلى الموافقات التابعة للرأى العام ، حَصْراً ، في الزواجات التي تتمُّ بسلطان الآباء ، والأحوالُ والأموالُ ، لا الأشخاصُ ، هي التي تُزَوَّج هنا ، غير أن جميعَ هذا يُمْكِن أن يَتَغَيَّر ، والأشخاصُ وحدَهم هم الذين يَبْقَوْن دائماً ، والأشخاصُ يكونون حيث هم في كلِّ مكان ، وليس بغير الصِّلات الشخصية ما يُمْكِنُ أن يكون الزواجُ سعيداً أو سيِّئاً ، وذلك على الرغم من الثَّرَاء .

« وكانت أُمك حَسيبةً ، وكنتُ غنيًّا ، وهذان العاملان وحدَهما هما اللذان حَمَلا والدَيْ كلٍّ منا على جَمْعِ ما بيننا ، وقد أَضَعتُ أموالي ، وقد أضاعت اسمَها ، وما فائدتُها اليومَ من كَوْنها قد وُلِدَت آنسةً بعد أن

نُسِيَتْ من قِبَل أُسْرَتها ؟ لقد أَسْلَانا اتحادُنا عن كلِّ شيء فى جميع مصائبنا ، وكان من توافق أذواقنا أن اخْتَرْنا هذه العزلة ، فنعيش فيها سعداء مع الفقر ، وكلٌّ منا كلُّ شيء فى نظر الآخر ، وصُوفيةُ هى كنزُنا المشترك بيننا ، ونَشْكُر لله إنعامَه علينا بها ونَزْعَه منا كلَّ شيء غيرَها ، وانْظُرِى يا بُنَيَّتِي إلى أين ساقتنا العناية الرَّبانية ، فقد زالت الموافقات التى جعلتنا نتزوج ، ولسنا سعيدَيْن بغير الموافقات التى لم يُؤْبَهْ لها .

« ويَجِبُ على الزوجين أن يختار كلٌّ منهما الآخر ، ويَجِبُ أن يكون ميلُهما المتبادَل أولَ رابطةٍ بينهما ، ويجب أن تكون عيونُهما وقلوبُهما أدلَّاءها الأولى ، وذلك بما أن واجبهما الأول ، بعد أن يَتَزَوَّجا ، هو أن يتحابَّا ، وبما أن الُحبَّ أو عدمَ الُحبِّ أمرٌ لا يتوقَّفُ علينا مطلقاً ، فإن هذا يستلزم واجباً آخرَ بحكم الضرورة ، وهو أن يُبْدَأ بالتحابِّ قبل الاقتران ، وهذا هو حَقُّ الطبيعة الذى لا يستطيع شىء أن يَنْقُضه ، وقد عُنِيَ الذين ضايقوا هذا الحقَّ ، بكثيرٍ من القوانين المدنية ، بالنظام الظاهر أكثرَ مما بسعادة الزواج وطِباع المواطنين ، ومن ثَمَّ تَرينَ ، يا صُوفية ، أننا لا نَعِظُكِ بأدبٍ صَعْبٍ ، وهذا الأدبُ لا يَهْدِفُ إلى غير جعلِ أمرِكِ بيدك تاركين لك أمرَ اختيار زوجك بنفسك .

« وإنا ، بعد أن حَدَّثناكِ عن الأسباب فى تركنا لكِ كلَّ الحرية ، يُعَدُّ من الصواب أن نُحَدِّثكِ ، أيضاً ، عما لديكِ من أسبابٍ فى استعمال هذه الحرية بحكمة ، فيا بُنَيَّتِى ، أنت صالحةٌ رشيدة ، وعندكِ إنصافٌ وتَقْوَى ، ولديكِ من المواهب ما يناسب النساء الصالحاتِ ، ولستِ خاليةً

من الألطاف ، ولكنك فقيرةٌ ، وأنت حائزةٌ لأكثر المحاسن أهلًا للتقدير ، ويعوزك أكثرُ ما يُقدَّرُ منها ، ولا تبتغي ، إذن ، غيرَ ما تقدِرين على نيله ، ونظِّمي طموحك وَفقَ رأي الرجال ، لا على حسَبِ أحكامك وأحكامنا ، وإذا ما دار الأمرُ حَوْلَ تساوي المزايا فإنني لا أدري عَلَامَ يَجِبُ أن أجعل آمالَكِ قاصرةً ، ولكنْ حَذَارِ أن ترْفعيها إلى ما فوق نصيبك مطلقاً ، ولا تنْسَيْ أنه من المرتبة الدنيا ، ومع أن الرجل الخليقَ بكِ لا يعدُّ هذا التفاوتَ عائقاً فإنه لا يجُوز لك أن تَصْنَعي ، إذ ذاك ، ما لا يَصْنَع ، فعلى صُوفية أن تسيرَ على غرار أمِّها ، وأن تدْخُلَ أُسْرَةً تفاخِر بها ، وأنتِ لم ترَيْ يُسْرَنا قطُّ ، وأنتِ قد وُلِدْتِ في دَوْرِ عُسْرِنا فقط ، وأنتِ قد جعلتِ فقرَنا حُلْوًا لدينا ، وأنت تُقاسِمينا إياه بلا عناء ، وثِقِي بي ، يا صُوفية ، ولا تطْلُبي أموالًا نحْمَدُ اللهَ على أنه أنقذنا منها ، فنحن لم نَذُقْ طعم السعادة إلا بعد أن خسِرْنا الثَّرَاء .

« أنت من كثرةِ اللطف ما ترُوقين معه كلَّ إنسان ، وليس بؤسك من الحال ما يَنْقبِضُ معه صدرُ الرجل الصالح منك ، وسَتُخْطَبين ، وقد تقعُ خِطْبَتُكِ من قِبَل أُناسٍ لا ترْغَبُ فيهم ، وهم إذا ما أظهروا أنفسهم على حقيقتهم أمكنكِ أن تُقَدِّريهم بقيمتهم ، فما كان مظهرُهم ليَخْدَعَك زمناً طويلًا ، ولكنْ مهما يَكُنْ من صلاح حُكْمِك ومن حُسْن معرفتكِ بالمزية فإن التجربة تُعوِزُك ولا تعرِفين مَدَى قدرة الرجال على التَّنكُّر ، ومن ذلك أن الماكر الماهر يستطيع أن يَدْرُس أذواقَك لإغوائك وأن يُظْهِر أمامك ما ليس فيه من الفضائل مطلقاً ، فيكون سببَ ضَياعك ، يا صُوفية ،

قبل أن تَعْرِفى ، ولا تعرفين خطأَك إلا للبكاء ، وأشدُّ الأشراك خطَراً ، وهو الذى لا يستطيع العقلُ اتقاءه ، هو شَرَكُ الحواسّ ، وإذا كنتِ من الشقاء ما تقعين فيه لم تُبْصِرى غيرَ الأحلام والأوهام ، فستُسْحَرُ عيناكِ وسيَخْتَلُّ حُكْمكِ ، وسيَفْسُد عَزْمُكِ ، حتى إن خطأَك سيكون عزيزاً عليكِ ، وعند ما يُتَاحُ لك بعد ذلك أن تَريه لا يَرُوقُك أن تترُكيه ، فيا بُنَيَّتِي ، أُسَلِّمُكِ إلى عقل صُوفية ، ولا أُسلِمُك إلى مَيْلِ قلبها مطلقاً ، وابْقِى قاضيةَ نَفْسِك ما دُمْتِ رابطةَ الجأش ، فإذا ما أحْبَبْتِ فأعيدى إلى أُمّك أمرَ العناية بك .

« وأقترحُ عليكِ وَضْعَ اتفاقٍ يُبَيِّنُ لكِ تقديرَنا ويُعيدُ النظامَ الطبيعىَّ بيننا ، ومن مُقْتَضَى العادة أن يختار الأبوان زوجَ البنت وألا يستشيراها إلا شكلاً ، وسنَصْنَع غيرَ هذا بيننا ، فستختارين وسَنُسْتَشَار ، فمارِسى حَقَّك فى ذلك ، يا صُوفية ، بحريةٍ وحكمة ، فيجب أن يكون اختيارُ الزوج الذى يلائمكِ من حقّك ، لا من حقّنا ، ولكنّ من حقنا أن نحكُم فى كونك قد خُدِعْتِ فى الموافقات ، وفى كونك تأتين أمراً غيرَ ما تريدين من غير أن تَعْرِفى ذلك ، ولا يَدْخُل الأصلُ والمال والمقام والرأىُ العامُّ فى بواعثنا مطلقاً ، واتَّخِذى لك رجلاً صالحاً يَرُوقُك شخصُه وتلائمك أخلاقه ، وليَكُنْ بعد ذلك من شاء ، فسنَرْضَى به صهراً لنا ، وسيكون ذا رزقٍ كافٍ دائماً إذا ما كان ذا ذراعين وأخلاقٍ وكان مُحِبّاً لأسرته ، وسيكون ذا مقامٍ مَرْمُوقٍ دائماً إذا ما شَرَّفه بالفضيلة ، وما يُهِمُّنا

إذا ما لامنا جميعُ العالَم ؟ فنحن لا ننشُدُ موافقةَ الناس ، ونحن نكتفى بسعادتكِ » .

ويا أيها القُرّاء ، إننى أجهل أىَّ أثَرٍ يكون لِمثْل هذا الكلام فى البنات اللائى يُنَشَّأن على طريقتكم ، وأما صُوفية فيُمْكِنُها ألاَّ تُجِيبَ عنه بالأقوال ، فما تتصف به من حياء ورِقَّةٍ يَمْنَعُها من التعبير عما فى نفسها بسهولة ، ولكننى مطمئنٌ إلى أنه سيَبْقَى منقوشاً فى قلبها ما دامت حَيَّةً ، وإذا كان من الممكن أن يُعْتَمَدَ على حُكْمٍ بشرىٍّ فهو الُحكْمُ الذى تكُون به أهلًا لتقدير أبويها .

ولْنَأتِ بأسوأ احتمالٍ فنفترضَ لها مزاجاً أجُوجاً يَجْعَلُ الانتظارَ الطويل شاقًّا عليها ، فأقول إن حُكْمها ومعارفَها وذوقَها ولطفَها ، ولا سيما مشاعرُها التى غُذِّى بها فؤادُها فى صِباها ، أمورٌ تعارضُ فَوَرانَ حواسِّها بثِقَلٍ يكفيها لقَهْر هذه الحواسِّ أو مقاومتها زمناً طويلًا على الأقلِّ ، وهى تُفَضِّل أن تَمُوت شهيدةَ حالِها على أن تُحْزِن أبويها بتزوُّج رجلٍ خالٍ من الفضل وتَعْرِيض نفسها لشقاء زواجٍ غيرِ مُوَفَّقٍ ، حتى إن الحرية التى فازت بها لم تُوجِبْ غيرَ عُلُوٍّ جديدٍ فى النفس وغيرَ جعلها أصعبَ مِرَاساً فى اختيار مولاها ، وهى ، على ما فيها من مزاجٍ الإيطالية وحَسَّاسيةِ الإنكليزية ، حائزةٌ لزَهْو الإسپانيةِ التى إذا ما بَحَثَتْ حتى عن عاشقٍ لم يَسْهُلْ عليها أن تَجِدَ من تُقَدِّرُ أنه كُفْءٌ لها .

وليس كلُّ واحدٍ قادراً أن يُدْرِك أىُّ نابضٍ يُمْكِنُ حُبَّ الأمور الصالحة أن يُورثَ النفسَ إياه ، وأىُّ قوةٍ يُمْكِنُ الواحدَ أن يَجِدَها فى

نفسه إذا ما أراد أن يكون فاضلاً بإخلاص ، ومِنَ الناسِ مَنْ تَبدُو لهم كلُّ عظمةٍ وَهْمًا ، ومَنْ لا يَعْرِفون ، بعقلهم السافل المنحطّ ، ما يُمْكِن أن يَكُون ، حتى لجُنُونِ الفضيلة ، من تأثيرٍ فى أهواء البشر ، ولا يَجُوز أن يخاطَب هؤلاء الناسُ بغيرِ الأمثلة ، ويَقَعُ اللومُ عليهم إذا ما أصَرُّوا على إنكارِها ، وإذا قلتُ لهم إن صُوفية ليست إنساناً خياليًّا ، وإن اسمها وحدَه هو من اختراعى ، وإن تربيتَها وطِباعَها وأخلاقَها ، وهيئتَها أيضاً ، قد وُجِدَت حقًّا ، وإن ذكراها لا تزال تُسِيل عَبَراتِ كلِّ أسْرةٍ صالحة ، لم يُصَدِّقوا شيئاً من هذا لا رَيْب ، ولكنْ لِمَ لا أجازفُ فأُتِمَّ بلا التواء قصةَ فتاةٍ كثيرةِ الشَّبَهِ بصُوفيَة فيُمْكِنَ أن تكون هذه القصةُ قصتَها من غيرأن يَحَارَ منها أحدٌ ؟ وليس من المهمِّ أن يُعْتَقد أن القصة واقعيةٌ أو لا ، وليُقَلْ ، إذا أُرِيدَ ، إنى أَقُصُّ أوهاماً ، فلا يُهِمُّ هذا ، وإنما الذى يُهِمُّ هو أن أشْرَحَ منهاجى فأَبْلُغَ غاياتى دائماً .

إن الفتاة التى حَمَلْتُ صُوفيةَ مزاجَها حائزةٌ لجميع الموافقات التى يُمْكِن أن تجْعَلَها أهلًا لهذا الاسم فأترُكه لها ، وإن أباها وأمَّها رَأَيا ، بعد الحديثِ الذى رَوَيتُه آنفاً ، أنّ طالبى الزواج لا يأتُون لعَرْض أنفسهم فى الكُوخ الذى يقيمان به ، فأرسلاها إلى المِصْرِ لتَقْضِيَ فيه شتاءً عند خالةٍ لها أطْلَعاها سِرًّا على سبب الرِّحْلة ، وذلك لأن صُوفيةَ المختالةَ كانت تَحْمِل فى قَرَارة قلبها من الزَّهْوِ الكريم ما تَعْرِف معه أن تَضْبِطَ نفسَها ، ولأنها ، مهما يَكُنْ من احتياجها إلى زوجٍ ، تُفَضِّل الموتَ على الذهاب للبحث عنه .

وقد عَمِلَتْ خالتُها بوِجهاتِ نظر أبويها فقدَّمتها فى البيوت ، وأتتْ بها

إلى المجتمعات ، وأحْضَرتها إلى الولائم والأعياد ، وعَرّفتها بالناس ، وإن شئت فَقُل عَرّفت بها الناس ، وذلك مع كَوْن صُوفية قليلةَ المبالاة بهذه القرْقعات ، ومع ذلك فقد لُوحِظَ أن صُوفية لم تَجْتنب من يَبْدُون متواضعين ذوى احتشامٍ من وُسَماء الشُّبّان ، حتى إن احترازَها ينطوى على فَنٍّ فى اجتذابهم مشابهٍ للدلال ، ولكنها ارتدّتْ عنهم بعد أن حادثتهم مرتين أو ثلاثَ مرات ، وذلك أنها لم تَلْبَثْ أن اتخذت وَضْعاً أكثرَ تواضعاً وأدباً أكثرَ دَفْماً بدلاً من ظاهرِ السلطان الذى يَتَقَبَّلُ المجاملاتِ كما يَلوح ، وذلك أنها كانت دائمةَ الانتباه إلى نفسها فعادت لا تَدَعُ لهم فرصةَ تقديمِ أيةِ خدمةٍ لها ، وهذا يَعنِى أنها لم تُرِدْ أن تكون خليلةً لهم .

وما كانت القلوب الحسّاسة لتُحِبَّ الملاهىَ الصاخبة ولا السعادةَ الباطلةَ الماحلةَ عند أناسٍ لا يُحِسُّون شيئاً معتقدين أن تمتُّعَ الإنسانِ بحياته قائمٌ على خُمارِها ، وبما أن صُوفية لم تَجِدْ ضالّتَها مطلقاً ، وبما أنها يَئِسَتْ من لُقيانها ، فقد سَئِمتْ من المِصْر ، وقد كانت تُحِبُّ أبويْها حُبَّ حَنانٍ فلم تَجِدْ ما يُعَوِّضها منهما ، ولم يَظْهَرْ لها شىءٌ تنساهما به ، فعادت لتَلْحَقَ بهما قبل الوقت المعين لرجوعها بزمنٍ طويل .

وهى لم تَكَدْ تَعُودُ إلى واجباتها فى منزل والديْها حتى رُئِىَ أنها غَيّرتْ مزاجَها مع المحافظة على سلوكها ، وذلك أنها بَدَتْ ذات ذهول ومَلَلٍ وغَمٍّ ووَهْمٍ فتتوَارى لتَبْكِىَ ، وقد ظُنَّ فى البُداءة أنها تُحِبُّ وأنها خَجْلَى من ذلك ، فكلّماها فى ذلك فرَدّته عنها محتجةً بأنها لم تَرَ رجلاً أمكنه أن يَمَسَّ فؤادَها ، وصُوفية لا تَكْذِب مطلقاً .

ومع ذلك فإن الذُّبُول كان يزيد بلا انقطاع ، وأخذتْ صحتُها تَفْسُد ، فعزَمَتْ أمُّها ، التى ساورها الهمُّ من هذا التحول ، على معرفة العلة ، فخلَتْ إليها ، واتخذت نحوها لهجةً مؤثِّرة وأظهرت لها من الألطاف التى لا تُرَدُّ ما لا يَصْدُر عن غير عاطفة الأمِّ ، قالت لها أمُّها : « بُنَيَّتِى ، لقد حَمَلْتُكِ فى بَطْنى ، ولا أفتأُ أَحْمِلُكِ فى فؤادى ، فأفْضِى بأسرار قلبك إلى ضمير أُمِّك ، وما هذه الأسرار التى لا تَقْدِر الأمُّ أن تَعرِفها ، ومن ذا الذى يتَوَجَّعُ لكرُوبك ، ومن ذا الذى يقاسِمُك إياها ، ومن ذا الذى يريد أن يَكْشِفَها عنك ، إن لم يكن والدكِ ووالدتكِ ؟ آه ! يا بُنَيَّتِى ، أتوَدِّين أن أموتَ بسبب أَلَمِكِ من غير أن أعْرِفه ؟ » .

لم تَكْتُم البنتُ هُمُومَها عن أمِّها ، ولم تَطْلُبْ ما هو أحْسَنُ من أن تكون أمُّها مُفرِّجةً لِغُمَّتها محلاً لأسرارها ، غير أن الحياء كان يَمْنَعها من الكلام ، وما هى عليه من حِشْمةٍ كان لا يَجِدُ لسانًا لوَصفِ حالٍ غير خليقٍ بها كالهَيَجان الذى يُبَلْبِلُ حواسَّها على الرغم من جميع جهودها ، وأخيراً اتخذتْ أُمُّها من حيائها نفسِه دليلاً فانتزعت منها هذه الاعترافاتِ الفاضحةَ ، ولم تُحْزِنْها أُمُّها بتعزيرٍ جائر ، بل أَسْلَتْها وتَوَجَّعَتْ لها وبَكَتْ عليها ، وهى من الحكمة البالغة ما لا تَجْعَلُ لها معه جريمةً من سوء قسا عليها بسبب عَفَافها وحدَه ، ولكنْ لِمَ احتمالُها ، بلا ضرورةٍ ، سوءاً سهلاً دواؤه شَرعيًّا علاجُه ؟ ولِمَ لا تستعين بحريةٍ كانت قد مُنِحَتْها ؟ ولِمَ لا تَقْبَلُ زوجًا ؟ ولِمَ لا تختارُ بَعْلًا ؟ ألَا تَعْلَمَ أن مصيرَها يتوقَّف عليها وحدَها وأنه مهما يَكُنْ من اختيارها يُوافَق عليه ما دام هذا الاختيارُ

لا يَقَعُ على غيرِ صالحٍ ؟ لقد أُرْسِلَتْ إلى المِصْر ، ولم تُرِدِ البقاءَ فيه مطلقاً ، وقد قُدِّم إليها كثيرٌ من طالبي الزواج فرفضتهم جميعاً ، وما تَنْتَظِر إذَنْ ؟ وما تُرِيدُ ؟ يا له من تناقضٍ غامض !

وكان الجوابُ بسيطاً ، فلم يَدُرِ الأمرُ على غير إغاثةٍ للشباب ، ولا يَلْبَث الاختيارُ أن يَقَع ، ولكن لا يَسْهُلُ اختيارُ سيدٍ لِمَدَى الحياة ، وبما أنه لا يُمْكِن فَصْلُ أحدِ الاختيارَيْن عن الآخر فإنه لا بُدَّ من الانتظار ، ولا بُدَّ من ضَيَاع الشباب ، فى الغالب ، قَبْلَ لُقْيان الرجل الذى يُرَادُ قضاء الحياة معه ، وكان هذا حالَ صُوفية التى كانت محتاجةً إلى عاشق على أن يكون زوجاً لها ، ومن الصَّعْب أن تَجِدَ قلباً كما تريد ، سواء أكان قلبَ زوجٍ أم قلبَ عاشق ، ولم يَقُمْ ما بينها وبين أولئك الشبان النُّضَراء من موافقةٍ على غير السِّنِّ ، وأما الموافقاتُ الأخرى فتُعْوِزُهم دائماً ، وما كانوا عليه من ذهنٍ سطحىّ ، ومن خُيَلاء ورطانةٍ ، ومن طِباعٍ بلا نظام ، ومن تقليدٍ طائش ، كان يُورِثُها نفوراً منهم ، وكانت تبحث عن رجلٍ فلا تَجِدُ غيرَ قِرَدَةٍ ، وكانت تَبْحَثُ عن روحٍ فلا تَجِدُ منه شيئاً .

قالت لأمِّها : « يا لشَقَائى ! إننى محتاجةٌ إلى الحُبِّ ، ولا أَرَى أحداً يَرُوقنى ، ويَرْفِضُ فؤادى كلٌّ من يخاطبُ حواسِّى ، ولا أَجِدُ واحداً لا يُثِيرُ رغائبى ، ولا أُبْصِرُ واحداً لا يَزْدَع مُيُولى ، ولا يُكْتَبُ بقاءٌ لذَوْقٍ بلا احترام ، آه ! ليس هنالك من هو أهلٌ لابنتك صُوفية ! إن مِثالَها الفاتنَ منقوشٌ فى صميم فؤادها ، وهى لا تستطيع حُبَّ غيرِه ،

وهى لا تستطيع أن تجعل سعيداً سواه ، وهى لا تستطيع أن تكون سعيدةً مع غيره ، وهى تُفَضِّل أن تَضْنَى وتناضل بلا انقطاع ، وأن تموت شقيةً حُرَّةً ، على أن تكون يائسةً بجانب رجلٍ لا تُحِبُّه فتجعله شقيًّا أيضاً ، وأَفْضَلُ لها أن تَهْلِك من أن تَبْقَى لِتَأْلَمَ » .

ووَقَفَتْ هذه الغرَاباتُ نَظَرَ الأمِّ فوجدتها من الشُّذُود البالغ ما لم يخامِرْها معه شكٌّ فى وجود سِرٍّ فى الأمر ، ولم تَكُنْ صُوفيةُ متصنِّعةً ولا مثيرةً للسُّخْرية ، وكيف أَمْكَنَ هذه الرِّقَّةَ المتناهية أن توافقها ، وهى التى لم تتعلَّمْ منذ طفولتها غيرَ الاكتفاء بأناسٍ كان عليها أن تعيش معهم وأن تقوم نحوهم بمُقْتَضَى الفضيلة ؟ إن هذا المثالَ للرجل المحبوب الذى فُتِنَتْ به كثيراً ، والذى تُرَدِّد اسمَه فى جميع أحاديثها غالباً ، قد جَعَل أُمَّها تَظُنُّ أن لهذا الهوَى أساساً آخرَ لا تزال جاهلةً له وأن صُوفية لم تَقُلْ كلَّ شىء ، ولم تحاول هذه الشَّقِيَّةُ المُثْقَلَةُ بكَرْبها الخفىِّ غيرَ الكلام بثقة تامة ، وتُلِحُّ أُمُّها ، وتتردَّد ، ثم تُذْعِن ، وتَخرُج من غير أن تقول كلمةً ، وتَعُود بعد هُنَيْهة حاملة كتاباً بيدها ، وتقول : « اشْفَقِى على ابنتك الشقية ، فلا دواءَ لكَرْبها ، ولا يُمْكِن أن تَكُفَّ عن البكاء ، وأنتِ تُرِيدِين معرفةَ العلة ، حَسَناً ، ها هى ذِى » ، قالت هذه الكلمة وطَرَحَت الكتابَ على المِنْضَدَة ، وتتناول الأمُّ الكتابَ وتَفْتَحه ، فإذا هو « مغامرات تِلِماك » ، ولم تُدْرِك شيئاً من هذا اللُّغز فى البُداءة ، وتَدُور أسئلةٌ مبهمة وأجوبة غامضة فترَى الأمُّ فى آخر الأمر ، مع دَهَشٍ يُمْكِن تَصَوُّره ، أن ابنتها منافسةٌ لأُوكاريس .

وكانت صُوفية تُحِبُّ تِلماك ، وكانت تحِبُّه بهوًى لم يستطع شيء أن يَشْفِيَها منه ، ولمَّا عَلِمَ أبوها وأمُّها هيامَها ضَحِكا منه ورأيا أن يَرُدّاها عنه بالعقل ، وقد كانا على خطأٍ فى ذلك ، فلم يَكُنْ العقلُ كلُّه بجانبهما ، فقد كان لصُوفية عقلُها أيضاً ، وكانت تَعرِف أن تنتفع به ، وما أكثرَ ما حَمَلَتْهما على السكوت بتوجيهها إليهما براهينَهما الخاصة ، وبإثباتها لهما أنهما أساسُ العلة لِمَا كان من عدم إعدادِهما إياها لرجلٍ من رجال عَصْرِها ، وأن الضرورة كانت تَقْضِى بأن تعتنق أوْجُهَ تفكيرِ زوجها أو أن تَمْنَحه أوْجُهَ تفكيرِها ، وأنهما جَعَلَا الوسيلةَ الأولى أمراً متعذِّراً عليها بالأسلوب الذى نَشَّآها عليه فتَبْحَثُ عن الوسيلة الأخرى تماماً ، وقد قالت : « أعطيانى رجلاً مُشْبَعاً من مبادئى ، أو رجلاً أستطيعُ تعليمَه إياها ، حتى أتزوجه ، ولكنْ لِمَ تُؤَنِّبانِنى حتى ذلك الحين ؟ ارْحَمانى ، فأنا شقيةٌ ، لا حَمْقاء ، وهل القلبُ تابعٌ للإرادة ؟ ألَمْ يَقُلْ والدى ذلك بنفسه ؟ وهل يَقَعُ الذنبُ علىَّ إذا كنتُ أُحِبُّ مَنْ هو غيرُ مَيْسُور ؟ ولستُ تخَيُّلِيةً ، فلا أُريدُ أميراً مطلقاً ، ولا أبْحَثُ عن تِلِمَاكَ مطلقاً ، وأعلمُ أنه ليس إلّا وَهْماً ، وإنما أنْشُدُ له شبيهاً ، ولِمَ يَتَعَذَّرُ وجودُ هذا الرجل ما دمتُ موجودةً ، أنا التى تَشْعُرُ بقلبٍ يشابه قلبَه كثيراً ؟ كَلَّا ، لا ينبغى أن نَشِين البشريةَ هكذا ، ولا يَجُوز أن نَذْهب إلى أن الرجل الفاضل المحبوب ليس إلاَّ وَهْماً ، إنه موجودٌ ، إنه حَىٌّ ، وقد يَكُون باحثاً عنى ، فهو يَبْحَثُ عن نَفْسٍ تَعرِف أن تحِبَّه ، ولكنْ من هو ؟ وأين هو ؟ أجْهَلُ ذلك ، ولا غَرْوَ ، فهو ليس ممن رأيتُ ، وليس واحداً ممن أرى ، أمَّاه ! لِمَ جَعَلْتِ الفضيلةَ

مُحَبَّبَةً إلىَّ كثيراً ؟ إذا كنتُ عاجزةً عن حُبٍّ غيرها فالذَّنْبُ يَقعُ عليكِ أكثرَ مما يَقعُ علىَّ » .

وهل أسُوقُ هذه القصة الشَّجِيَّة حتى آخرِها ؟ وهل أذْكُر المناقشاتِ الطويلةَ التي سَبَقَتْها ؟ وهل أعْرِض أمًّا هَلوعاً تُعَيِّرُ بصرامةٍ ألطافَها الأولى ؟ وهل أدُلُّ على أبٍ غَضُوبٍ نَسِيَ عهودَه الأولى معاملاً أفضلَ البناتِ مِثْلَ مجنونة ؟ ثم هل أصِفُ الشقيةَ التى صارت أكثرَ ارتباطاً فى وهمها بفعل الاضطهاد الذى آلمها ماشيةً إلى الموت مشياً وَئيداً ، ونازلةً إلى القبر حينَ يُظَنُّ أنها تُجَرُّ إلى الهيكل ؟ كلا ، إننى أبتعد عن هــذه الأمور السيئة ، فلا أحتاج إلى المغالاة حتى أُبَيِّنَ بمثالٍ بارزٍ بما فيه الكفاية ، على ما يَلُوح لى ، أن حرارة الصلاح والجمال عادت لا تكون أكثرَ غرابةً عن النساء مما عن الرجال ، وأنه لا يُوجَدُ ، بتوجيهٍ من الطبيعة ، ما لا يُسْتطاعُ نيله مِنَّا ومنهنَّ ، وذلك على الرغم من المُبْتَسَرات التى تنشأ عن طبائع العصر .

وأُوقَفُ هنا ليُسْأل منى عن كون الطبيعة هى التى تَفْرِض علينا أن نُعَانِيَ كثيراً من المتاعب لزجر الرغائب الجامحة ، فأجيب بالنَّفْيِ ، ولكننى أقول إن الطبيعة ، أيضاً ، ليست هى التى تُعْطِينا كثيرًا من الرغائب الجامحة مطلقاً ، والواقع أن كلَّ شيء ليس من الطبيعة مخالفٌ لها ، وقد أثبتُّ هذا ألفَ مرة .

ولنَرُدَّ صوفية إلى إميل ، ولنَبْعَثْ هذه الابنَةَ المحبوبة لِنُوحِيَ إليها بخيالٍ أقلَّ شِدَّةً وبنصيبٍ أكثرَ سعادةً ، وقد أردتُ وصفَ امرأةٍ

مألوفة ، وقد بَلْبَلْتُ عقلَها من حيث رَفْعُ روحها ، فضَلَلْتُ ، فدَعنا نعُود إلى خُطأنا ، فليس لدى صُوفية غيرُ طَبْعٍ صالح فى رُوحٍ معروف ، وكلُّ ما لديها أكثرَ مما عند النساء الأُخَرِ هو أثرُ تربيتِها .

* * *

لقد نَوَيْتُ فى هـذا الـكتاب أن أقول كلَّ ما يُمْـكِنُ عَمَلُه تاركاً لكلِّ واحدٍ اختيارَ ما هو فى متناوَله فى الأمور التى استطعتُ أن أقول عنها خيراً ، وقد رأيتُ منذ البُداءة أن أُكَوِّن قرينةَ إميلَ وأن أُنشِّئ كُلاًّ منهما للآخر ومع الآخر ، ولـكننى ، حين فَـكَّرْتُ فى ذلك ، وجدتُ أن جميعَ هذه التدابيرِ التى تُتَّخَذُ قبلَ الأوان عادمةُ الفِطْنة وأن مما يخالف الصواب إعدادَ وَلَدَيْن للاقتران قبل أن يكون من الممكن معرفةُ ملاءمة هذا الزواج لنظام الطبيعة أوْ لا ، وهل يكون بينهما من المصاحَباتَ ما يناسبُ تكوينَ هذا الزواج أوْ لا ، ولا يجُوز أن يُخْلَط بين ما هو ملائم للحال الوحشية وما هو ملائم للحال المدنية ، ففى الحال الأولى يلائمُ جميعُ النساء جميعَ الرجال ، وذلك لِمَا لا يزال يكون بين هذين الفريقين من طَوْرٍ ابتدائىٍّ مشترك فقط ، وفى الحال الثانية ، حيث يَنْمُو كلُّ طَبْعٍ بالنُّظُم الاجتماعية ، وحيث ينال كلُّ ذهنٍ طَوْرَه الخاصَّ المعيَّنَ بتعاون الطبيعىِّ والتربية تعاوناً حسنَ الترتيب أو سيِّئَ التنظيم ، لا من التربية وحدَها ، عاد لا يُمْـكِن جَمْعُ ما بينهما قبل تقديم كلٍّ منهما إلى الآخر ليُرَى هل يتوافقان من كلِّ ناحية أو أنهما يلتزمان اختياراً يتضمن مُعْظَمَ هذه الموافقات .

والسوء فى أن الحياة الاجتماعية ، إذ تُنمِي الطِّباع ، تميِّزُ بين الطبقات ، وأن كلاً من الفريقين إذ لا يشابه الآخرَ مطلقاً يُخْلَطُ بين الطِّبَاع كُلَّما فُرِّق بين الطبقات ، وهذا هو مصدرُ الزواجات غير المتجانسة ومصدرُ جميع ما ينشأ عنها من ارتباكات ، ومن ثَمَّ يُرَى ، كنتيجةٍ جليَّةٍ ، أنه كُلَّما ابْتُعِدَ عن المساواة فَسَدَت المشاعرُ ، وأنه كلما زادت المسافةُ بين الكُبراء والصُّغراء فَتَرت العلاقةُ الزوجية ، وأنه كلما وُجِدَ أغنياء وفقراء قَلَّ وجودُ الآباء والزوجات ، وقد عاد لا يكون للسادةِ والعبيد أُسْرَةٌ ، فلا يَرَى كلٌّ منهما غيرَ طبقته .

وإذا أردتم أن تَحُولُوا دون سوء الاستعمال وأن تَنْتَهُوا إلى زواجاتٍ مُوَفَّقة فاقضُوا على المُبْتَسرات وانْسَوُا النُّظُمَ البشرية وشاوروا الطبيعة ، ولا تَجْمَعُوا بالزواج بين أناسٍ لا يتوافقون إلاَّ وَفْقَ شرطٍ معلوم ، فإذا تغيَّر هذا الشرط عادُوا لا يتوافقون ، وإنما زَاوِجُوا بين أُناسٍ يَتَوافقون فى أيِّ وَضعٍ يكونون فيه وفى أى بلدٍ يقيمون به ومن أية طبقةٍ يُمْكِن أن يكونوا ، ولا أقول بعدم الاكتراث للمصاحبات التقليدية فى الزواج ، وإنما أقول إن تأثير المصاحبات الملائمة للطبيعة هو من عِظَم الأهمية ما يُقَرِّرُ وحدَه مصيرَ الحياة وإنه يُوجَدُ من توافق الأذواق والمشارب والمشاعر والطِّباع ما يجب أن يَحفِزَ الأبَ العاقل ، ولو كان أميراً أو مَلِكاً ، إلى تزويج ابنه ، من غير تَرَدُّدٍ ، بابنةٍ تَجْمَعُهُ بها جميعُ الموافقات ولو كانت هذه البنت قد وُلِدت فى أُسرةٍ قبيحة ، ولو كانت ابنةَ جَلاَّد ، أَجَلْ ، إننى أذهب إلى أن جميعَ ما لا يُتَصَوَّرُ من المصائب لو صُبَّ على زوجين

حَسَنَىِ الاقتران لوجدا بيكائهما معاً من السعادة ما لا يَحُوزانه بجميع أموال الأرض المُسَمَّمَةِ باختلاف القلوب .

ولِذَا فإننى انتظرتُ معرفةَ الزوجة التى تلائم إميلَ بدلًا من إعدادها له منذ الطُّفُوله ، والطبيعةُ ، لا أنا ، هى التى قامت بهذا الإعداد ، ويَقُوم عملى على لقاء هذا الاختيار الذى أتاه ، وأقُول عملى ، لا عَمَلَ الأب ، وذلك لأنه ، بتفويضه إلىَّ أمرَ ولده ، يَكُون قد تَنَزَّل لى عن مكانه ، فأقام حَقِّى مقام حَقِّه ، فأنا أبو إميلَ الحقيقىُّ ، وأنا الذى جعله رجلًا ، وقد كُنْتُ أرْفِضُ تنشئتَه لو لم أَغْدُ مسيطراً على أمر تزويجه وَفْقَ خياره ، أى خِيارى ، ولا أَجِدُ غيرَ لذةِ صُنْعِى رجلًا سعيداً ما يُمْكِن أن يُعَدَّ أجراً على عملى .

ولكنْ لا تَظُنُّوا ، كذلك ، أننى قَصَدْتُ ، كَيْمَا أَجِدُ زوجةً لإميل ، أن أُلْقِىَ عليه واجب البحث عنها ، وليس هذا البحثُ المصنوعُ غيرَ ذريعةٍ لجعله عارفاً بالنساء حتى يَشْعُرَ بقيمة التى تلائمه ، أَجَلْ ، إن صوفية وُجِدَت منذ زمن طويل ، ومن المحتمل أن يكون إميلُ قد رآها ، ولكنه لن يَعْرِفها قبل الوقت المناسب .

ومع أن تساوىَ الأحوال غيرُ ضرورىٍّ للزواج فإن هذه المساواةَ إذاما ضُمَّتْ إلى الموافقات الأخرى مَنَحَتْها قيمةً جديدة ، وهى ، وإن لم تَدْخُلْ فى الميزان مع أية موافقةٍ أخرى ، تُمِيلُه عند تساوى الجميع .

والرجلُ ، مالم يَكُنْ مَلِكاً ، لا يستطيع أن يَبْحَث عن المرأة فى جميع الطبقات ، وذلك لأن ما ليس عنده من مُبْتَسَراتٍ يَجِدُه عند الآخرين ،

ومن المحتمل أن يَجِدَ البنتَ التي تلائمه ، فلا يَنَالها لتلك العلة ، ولِذَا يُوجَدُ للحَذَر مبادئُ يجب أن تُحَدَّد بها مباحثُ الأب الحصيف ، ولا يَنْبَغي لهذا الأب أن يُرِيدَ مَنْحَ تلميذه زواجًا فَوْقَ طبقته مطلقًا ، فهذا أمرٌ لا يَدْخُل ضِمْن نطاق قدرته ، وهو إذا ما استطاعه لا يَنْبغي له أن يريده أيضاً ، وإلّا فما أهميةُ الطبقة لدى الشابِّ ، ولا سيما شابِّي ؟ ومع ذلك فإنه إذا ما صَعِد عَرَّض نفسه لألف بلاء حقيقيٍّ يَشْعُر به مَدَى حياته ، حتى إنني أقول إنه لا يَنْبغي له أن يُرِيدَ الموازنة بين أمورٍ مختلفةٍ طبيعةً كالشَّرَف والثَّراء مثلاً ، وذلك لأن كلاً منهما يَنْتقص قيمةَ الآخر بما لا يَقْبَلُ تعديلاً ، فضلاً عن أنه لا يُتَّفَقُ على تقدير شامل ، والخلاصةُ أن ما يَمْنَحُ كلٌّ منهما رأسماله من تفضيلٍ يُعِدُّ شقاقًا بين الأُسْرَتين ، وبين الزوجين غالباً .

ثم إن هنالك اختلافَ اعتبارٍ في نظام الزواج من حيث اقترانُ الرجل بمن فوقه أو بمن تحته ، فأما الحالُ الأولى فمخالفةٌ للعقل تمامًا ، وأما الحالُ الثانية فأكثرُ ملاءمةً له ، وبما أن الأُسْرَة لا تَرْتبط في المجتمع إلا برئيسها فإن مَقام هذا الرئيس هو الناظمُ لمَقامها بأَسْرِه ، فإذا ما اقترن من مرتبةٍ دون مرتبته فإنه لا يَهْبِط مطلقاً ، وإنما يَرْفَعُ زوجَه ، وعلى العكس إذاما تَزوّج امرأةً تَعْلُوه مرتبةً فإنه يَخْفِضها من غير أن يَرْفَعها ، وهكذا فإنه يوجد في الحال الأولى خيرٌ بلا شَرّ ، ويُوجَدُ في الحال الثانية شَرٌّ بلا خير ، وفضلاً عن ذلك فإن من نظام الطبيعة أن تُطِيع المرأةُ الرجلَ ، ولِذَا فإنه إذا ما أخذها من طبقةٍ دون طبقته تَوَافقَ النظامُ الطبيعيُّ والنظامُ

المدنىُّ وسار كلُّ شىء على ما يُرام ، وعكسُ هذا ما يَقعُ إذاما اقترن الرجلُ بمَنْ هى من طبقة تَعلُوه ، وذلك أنه يكون بين أمريْن : بين حَقٍّ له مُتقلِّصٍ أو شُكرانٍ منه ناقص ، وبين جُحُودٍ منه أو ازدراء له ، وهنالك تَدَّعى المرأةُ السلطانَ فتَغدُو طاغيةَ رئيسها ، وهنالك يكون سيدُها ، الذى صار عبداً ، أدعى الناس إلى السُّخْرية وأكثرَهم بؤسًا ، وهذا هو حال المُقرَّبين التُّعَساء الذين يُكرِمهم ملوكُ آسية ويؤذونهم فى زواجهم ، والذين لا يَجْرُؤون عند النوم مع نسائهم أن يَدْخلوا السَّرِيرَ إلَّا من رِجْلِه .

وأَتوَقَّع أن يَتَّهمنى كثيرٌ من القُرَّاء بأننى أناقض نفسى هنا حين يَذْكُرون أننى أَحْبُو المرأةَ بمَوْهبةٍ طبيعية تُسَيطر بها على الرجل ، ومع ذلك فهم مخطئون ، فيُوجَدُ فرقٌ كبير بين الادعاء بحقٍّ الأمر والسيطرة على من يأمر ، وذلك أن سلطانَ المرأة سلطانُ رِفْقٍ وحِذْقٍ وملاطفة ، وأن أوامر المرأة مُلاَمَساتٌ وأن تهديداتِها عَبَراتٌ ، وعلى المرأة أن تَحْكُمَ فى المنزل كما يَحْكُمُ الوزير فى الدولة ، وذلك بأن تُحمَل على صُنْع ما تريد ، ومن الثابت فى هذه الناحية أن أحسنَ تدبيرٍ منزلىّ هو ما يكون للمرأة فيه أعظمُ سلطان ، ولكنها إذا ما أنكرتْ صوتَ الرئيس وأرادت غَصْبَ حقوقه وانتحالَ القيادة لنفسها لم يَنْشَأ عن هذا الاختلال غيرُ الشقاء والعار والشَّنَار .

وقد بَقِىَ أمرُ اختياره ممنْ هن مساوياتٌ له أو ممنْ هن دُونَه ، وأظُنُّ أنه لا يَزَال يُوجَدُ من القُيُود ما يَجِبُ أن يؤتَى حَوْل هؤلاء الأخيرات ، وذلك لأن من الصعب أن تُوجَدَ فى الطبقة الدنيا زوجةٌ قادرةٌ على جعل

الرجل الصالح سعيداً ، وليس سببُ هذا كَوْنَ العيبِ فى الطبقات الدنيا أكثرَ مما فى الطبقات العليا ، بل لأنه يساور هذه الطبقة قليلُ فكرٍ حَوْلَ ما هو صالحٌ جميلٌ ولأن جَوْرَ الطبقاتِ الأخرى أدَّى إلى عَدِّ الطبقة الدنيا ما هى عليه من عُيوب عَدْلاً .

ومن الطبيعىِّ ألَّا يَفكرَ الرجلُ مطلقاً ، فالتفكيرُ فنٌّ يتعلمُهُ كجميع الفنون الأخرى ، وهو فنٌّ يتعلَّمُهُ بأصعبَ مما يتعلَّمُ الفنونَ الأخرى ، ولا أعْرِفُ للجنسين غيرَ طبقتين مختلفتين : فأما إحداهما فمؤلَّفَةٌ من أناس مفكِّرين ، وأما الأخرى فمؤلفةٌ من أناسٍ لا يُفكِّرون مطلقاً ، وينشأُ هذا الاختلافُ عن التربية حَصْراً تقريباً ، ولا ينبغى للرجل من أولَى هاتين الطبقتين أن يُصاهِر فى الأخرى مطلقاً ، وذلك لأن أكبرَ فُتُونٍ فى المجتمع يُعوِزُ مجتمعَه إذا ما قُصِرَ بزاوجه على التفكير وحدَه ، ولا يَكُون عند مَنْ يَقضُون الحياةَ بأكملها قضاءً تامًّا فى العمل من أجْل المعيشة فكرةٌ أخرى غيرُ فكرةِ عملهم أو مصلحتهم فيَلُوح أن ذهنَهم مستقرٌّ بطرَف ذُرْعانهم ، وليس هذا الجهلُ بضائرٍ صلاحِهم وأخلاقِهم ، حتى إنه يكون نافعاً لها غالباً ، ومما يَقَعُ فى الغالب أن نكتفىَ بواجباتنا عند تأمُّلِنا فيها فنَضَع مَوْضِعَ الأشياء رَطانةً فى نهاية الأمر ، والشعورُ أكثرُ ما ألقَى الفلاسفةُ عليه نوراً ، ولا نحتاج إلى الاطلاع على « واجبات » شِيشِرُون حتى نكونَ أهلَ خيرٍ ، وقد تكون أصلحُ نساء العالَمِ أقلَّ الناس عِلْماً بمعنى الصلاح ، ولكن ليس أقلَّ من هذا حقيقةً كونُ الذهنِ المُثَقَّفِ وحدَه يَجعَل المعاشرةَ أمراً مستحَبًّا ، ومن الأمور المؤسفة أن يُضْطَرَّ ربُّ الأسْرَة الذى يُسَرُّ فى منزله

أن يَنطَوِيَ على نفسه فلا يستطيعَ أن يَجعَلَ نفسَه مُدْرَكاً من قِبَلِ أحدٍ فيه .

ثم كيف تُرَبِّي المرأةُ التي لم تتعود التفكيرَ ، قطُّ ، أولادَها ؟ وكيف تميزُ ما يلائمهم ؟ وكيف تُعِدُّهم للفضائل التي لا تَعرِفُها وللمزايا التي لا يساورها أيُّ فكرٍ عنها ؟ لن تَعرِف غيرَ مداراتِهم أو تهديدِهم ، وغيرَ جعلهم سُفهاء أو جُبناء ، وستَجعَلُ منهم قِرَدةً مُتَصَنِّعين أو فَجَرَةً طائشين ، لا أولاداً أذكياء أو محبوبين .

ولِذَالا يلائم الرجلَ الذى تَلَقَّى تربيةً أن يختار زوجةً لم تَنَلها مطلقاً ، ومن ثَمَّ أن يأخذَها من طبقةٍ لا يُمكِنُ تَلَقِّيها فيها ، ولكننى أُفَضِّلُ مئةَ مرةٍ فتاةً بسيطةً ذاتَ تنشئةٍ خَشِنَة على فتاةٍ عالمةٍ أريبةٍ تأتى لتُقِيمَ فى منزلى مَحكَمةَ آدابٍ تحت رئاستها ، فالمرأةُ الأريبة تكون آفةَ زوجها وأولادها وأصدقائها وخَدَمِها وجميعِ الناس ، وذلك لأن ما تكون عليه من نبوغٍ رفيع يؤدى إلى استهانتها بواجبات المرأة فتحاولُ أن تنتحل ، دائماً ، طَوْرَ الرجل على غِرار الآنسة دُولَنكلُو ، وهى فى خارج منزلها تكون مثيرةً للسُّخْرية دائماً ، عُرْضةً للنقد بإنصاف ، شأنُ الرجل الذى يُلاقى ذلك عند ما يَهجُر حالَه من غير أن يكون أهلاً للحال التى يُرِيدُ اتخاذَها ، وما كان جميعُ هؤلاء النساء من ذوات النبوغ الكبير ليُمَوِّهْن على غير الأغبياء ، ونَعرِف ، دائماً ، مَن هو المتفنن أو الصديق الذى يُمسِك القلم أو الريشة حينما يشتغلن ، ونَعرِفُ من هو رجلُ الأدبِ الكَتُومُ الذى يُملِي عليهن آياتهن ، فجميعُ هذا الخِداع غيرُ جديرٍ بالمرأة الصالحة ، ومتى

كانت المرأةُ ذاتَ نبوغٍ صادق أدى ادعاؤها إلى إرْذالها ، ويَقُوم شَرَفُها على كَوْنها مجهولةً ، ويَقُوم مَجْدُها على تقدير زوجها ، ويقوم سرورُها على سعادة أُسرتها ، فيا أيها القراء ، إننى أحتكم إليكم ، فأجيبوا عن سؤالى الآتى بإخلاص ، وهو : أىُّ الأمرين يُوحى إليكم بأحسنِ رأىٍ عن المرأة إذاما دَخَلْتم غرفتَها ، وأىُّ الأمرين يَحْمِلُكم على مقابلتها بأكبرِ احترامٍ : أن تَرَوْها قائمةً بأعمال جنسها و بتدبير أمور منزلها محاطةً بثياب أولادها ، أو أن تَجِدُوها تكتب أشعاراً عن زينتها محاطةً بأنواع الكَرَارِيس و برِقاعٍ صغيرة من جميع الألوان ؟ إن كلَّ بنتٍ أديبة تَبْقَى بنتاً مَدَى حياتها إذا لم يُوجَدْ على الأرض غيرُ العقلاء من الرجال .

« تَسْأَلِين ، يا غَلا ، عن السبب فى »
« عـــدم زواجى بك ، فأنت »
« مدققـــةٌ فى اللغـــة كثيراً . »

ويأتى باعثُ الوجه بعد تلك البواعث ، وهو أول ما يَقِفُ النظر ، وهو آخر ما يجب أن يَكُون ، ولكن مع عدم الذهاب إلى عَدِّه شيئاً غيرَ مذكورٍ ، ويَلوح لى فى الزواج أن اجتنابَ الجمالِ الباهر أفضلُ من نِشْدانِه ، فالجمالُ يُبتَذَلُ سريعاً بالحِيَازة ، فإذا ما مَرَّت ستةُ أسابيعَ عاد لا يُعَدُّ شيئاً عند الحائز ، ولكنَّ أخطاره تَدُوم بدوامه ، ويَكُون زوجُ الحسناء أشقى الرجال ما لم تَكُنْ هذه الحسناء من الملائكة ، وهى إذاما كانت من الملائكة فكيف تَحُولُ دون إحاطتها بالأعداء بلا انقطاع ؟ وإذا لم يُورِثْ أقصى البَشَع نفوراً فإننى أُفَضِّلُه على أقصى الجمال ، وذلك لأن هذا

وذاك إذ يَكُونان فى حُكْمِ العَدَم لدى الزوج بعد زمنٍ قليل فإن الجمال يصير عُسْراً والبَشَعَ يصير يُسْراً ، ولكن البَشَع الذى يؤدِّى إلى النفور هو أعظمُ المصائب ، ومن البعيد أن يَزُول هذا الحِسُّ ، وهو يَزِيدُ بلا انقطاع ، ويَتَحَوَّلُ إلى بَغضاء ، ويَكُون مِثْلُ هذا الزواج جحيماً ، فالموتُ خيرٌ من القِران فى مثل هذه الحال .

واطْلُبُوا الاعتدالَ فى كلِّ حال ، ولا تَسْتَثْنُوا منه حتى الجمالَ ، والوجهُ الوَضِيء المقبولُ الذى لا يُوحى بالغرام ، بل يُوحى بحُسْن الالتفات ، هو ما يجب أن يُفضَّل ، فلا خَطَر منه على الزوج ، ويَتَحَوَّل خَيْرُه إلى نَفْعِ الزوجين ، ولا تَبْلَى الألطاف كما يَبْلَى الجمال ، وهى ذاتُ حياة ، وهى تتجدَّدُ بلا انقطاع ، وإذا ما مَضَى عشرون عاماً على الزواج راقَت المرأةُ الصالحةُ زوجَها بألطافها كما راقته فى اليوم الأول من قِرانهما .

وهذه هى التأملاتُ التى جعلتنى أعْزِم على اختيار صُوفية ، وهى إذْ كانت تلميذةَ الطبيعة كإميلَ فقد كُوِّنَتْ له أكثرَ من أيةٍ واحدةٍ أخرى ، وهى ستكون امرأةَ الرجل ، وهى مساويةٌ له مولِداً ومزيةً ، وهى أقلُّ منه نصيباً ، وهى لا تَفْتِن أولَ وَهْلةٍ ، وهى تَقَعُ موقع الرِّضا كلَّ يومٍ أكثرَ من قبل ، ولا يؤثِّرُ فُتُونُها الأكبرُ إلَّا بالتدريج ، ولا يَظْهَرُ هذا الفُتُون إلَّا عند الاجتماع القائم على الصداقة ، وسيَشْعُر زوجُها بهذا أكثرَ من جميع الناس ، وليست تربيتُها ساطعةً ولا مُهْمَلَةً ، ولها ذوقٌ بلا دَرْسٍ ، ومواهبُ بلا فَنٍّ ، وحُكْمٌ بلا معارفَ ، وذهنُها خالٍ من العِلْم ، ولكنه هُذِّب ليتعلَّم ، وهذه هى أرضٌ أُعِدَّت جيداً فلا تَنْتظر غيرَ الحَبِّ لتُغِلَّ ،

وهي لم تَقرأْ غيرَ كتاب بَرْيمَ ، وكتاب تِلِماكَ الذى وَقَع فى يدها مصادفةً ، ولكنْ هل يكون لدى البنت التى تُولَعُ بتِلِماكَ قلبٌ بلا إحساس وذهنٌ بلا رِقَّة ؟ فيا لَلْجَهْل المحبوب ! طُوبَى لِمَنْ قُدِّر له أن يُعَلِّمَها ! لن تكون مُعَلِّمَةَ زوجها مطلقاً ، بل تلميذَه ، وهى ستنتحلُ أذواقَه بدلاً من إخضاعه لأذواقها ، وهى ستكون عنده أفضلَ مما لو كانت عالمةً ، وسيَطِيبُ له أن يُعَلِّمَها كلَّ شيء ، وأخيراً حان وقت تعارفهما ، فلْنُقَرِّب بينهما .

ونغادِرُ باريسَ حِزَاناً غارقين فى الأوهام ، فليس مكان الهذر هذا مركزاً لنا ، ويُلقِى إميلُ نظرةَ ازدراءٍ على هذه المدينة العظيمة ويقول غاضباً : « يا لَلْوَقت الذى أضعناه فى البحث على غير جَدْوَى ! وَىْ ! ليست هنالك زوجةُ فؤادى ، أىْ صديقى ، أنت كنت تَعْرِف باريسَ ، ولكنْ لا قيمةَ لوقتى عندك مطلقاً ، ولستَ بالذى يَأْلَمَ لآلامى » ، وأُحَدِّقُ إليه ، وأقول له بصوتٍ ثابت : « أتَعْنِي ما تقول يا إميلُ ؟ » ، وهنالك يعانقنى من فَوْره خَجِلاً ويَضُمُّنى إلى صدره بلا جواب ، وهذا هو جوابُه فى كلِّ وقتٍ إذا كان مخطئاً .

والآن نَجُوب الحقولَ كالفرسان الحقيقيين التائهين ، لا كالذين يَنْشُدُون المغامراتِ ، وقد هَرَبنا منها بمغادرتنا باريسَ ، ولكننا فى تَجْوَابنا نَسِيرُ سيراً غيرَ متساوٍ على غِرار الفرسان التائهين ، فنُسْرِعُ تارةً ونُبْطِئُ تارةً أخرى ، وإنه ، لِمَا كان من اتِّباع عادتى ، اكْتُسِبَ روحُها أخيراً ، فلا أتصوَّر قارئاً عارفاً بمثلها يَفْتَرِض نومَنا على كرسىٍّ فاخرٍ فى عَرَبة بريدٍ مُحَكَمَةٍ

الإغلاق ، فلا نَرَى شيئًا أو نلاحِظُ شيئًا ، ولا نَشْعُر بالفاصلة بين الذهاب والوُصُول خاسرين فى سرعة سفرنا ما نقتصد من الوقت .

ويقول الناسُ إن الحياةَ قصيرةٌ ، وأراهم لا يألُون جُهْدًا فى جعلها قصيرةً ، وذلك أنهم ، إذ كانوا لا يَعْرِفون كيف يَسْتَعْمِلونها فإنهم يتوجَّعُون من سرعة الوقت ، والوقتُ ما أرى مرورَه ببطء كما يريدون ، وذلك بما أنهم مُشْبَعُون ، دائمًا ، من الغَرَض الذى يميلون إليه فإنهم يُبْصِرُون ، قَسْرًا ، ما يَفْصِلُهم عنه من فَتْرَة ، فَيَنْظُر أحدُهم إلى الغد ، ويَنْظُر آخرُ إلى الشهر القادم ، وينظر ثالثٌ إلى ما بعد عشرِ سنين ، ولا يريد أحدٌ منهم أن يعيش اليومَ ، ولا يَرْضَى أحدٌ منهم بالساعة الحاضرة ، وكلٌّ منهم يَجِدُها تَمْضِى بطيئةً جِدًّا ، وهم يكذبون حينما يقولون إن الوقت يَمُرُّ مُسْرعًا جِدًّا ، وإنما هم يُفَضِّلُون ابتياع سلطةِ تعجيله مختارين ، وإنما هم يستخدمون ثَرَاءهم ، مختارين ، إفناء لحياتهم كلِّها ، ومن المحتمل أنك لا تجِدُ واحداً لا يَوَدُّ أن يُحَوِّل سِنِيه إلى ساعاتٍ قليلة جِدًّا لو كان قادراً أن يَتَخَلَّص ، بطَوْعه ، من الساعات المُرْهقة له ، ومن الساعات التى تَفْصِلُه عن الساعة المَنْشودة ، ومن الناس مَنْ يَقْضِى نصفَ حياته فى الذهاب من باريسَ إلى فِرْسايَ ، ومن فِرْسايَ إلى باريسَ ، ومن المِصْر إلى الأرياف ، ومن الأرياف إلى المِصْرِ ، ومن حَىٍّ إلى آخر ، فكان يَضِيقُ بساعاته ذَرْعًا لو لم يكن عنده سِرٌّ إنفاقها على هذا الوجه ، وذلك بابتعاده عن أعماله عَمْدًا حتى يعُودَ باحثًا عنها ، وهو يَظُنُّ أنه يَكْسِب الوقتَ الذى يُنفِقُ فى ذلك فلا يَعْرِف ما يَصْنَع لولا ذلك ، أو

إنه ، على العكس ، يَطُوف للطواف ، ويأتي بعربة البريد ، لا لسببٍ غيرِ الرجوع إلى حيث كان ، فيا أيها الناس ، ألَا تَكُفُّون عن الافتراء على الطبيعة ؟ ولِمَ تألَمُون من كَوْن الحياة قصيرةً لأنها ليست كما تريدون ؟ إذا ما عَرَف أحَدُكم أن يُلزِم رغائبَه بالاعتدال ، لكيلا يتمنى انقضاء الوقتِ مطلقاً ، فإنه لا يَعُدُّ الوقتَ قصيرًا مطلقًا ، فتَكُونُ الحياةُ والتَّمَتُّعُ أمراً واحداً عنده ، فلو مات شابًّا لم يَمُتْ إلَّا بعد شِبَعٍ من الأيام .

ولو لم يَكُنْ لمنهاجي غيرُ تلك المنفعة لوجب تفضيلُه على كلِّ منهاجٍ آخرَ ، ولم أُنَشِّئْ إميلَ للرغبة ، ولا للانتظار ، قَطُّ ، بل للتَّمَتُّع ، وهو إذا ما أجَّلَ رغائبَه إلى ما بعد الساعة الحاضرة لم يَكُنْ هذا ، قَط ، مع وجود حرارةٍ صائلةٍ فيه كَيْلاَ يُزْعَجُ ببُطْء الوقت ، فهو لن يتمتع بمَلَاذِّ الرغبة فقط ، بل يتمتع ، أيضاً ، بلذة الذهاب إلى الغَرَض الذى يَرْغَب فيه ، وهو من اعتدال الأهواء ما يعيش معه فى اليوم الذى يكون فيه أكثرَ من اليوم الذى سيكون فيه .

ولِذا فإننا لا نَسِيحُ مِثْلَ سُعَاةٍ ، بَلْ مِثْلَ رُوَّاد ، ولا نُفَكِّرُ فى الحدَّيْن فقط ، بل نُفَكِّرُ فى الفاصلة بينهما أيضاً ، حتى إن الرِّحْلةَ نفسَها لذةٌ عندنا ، ونحن لا نقوم بالرِّحلة جالسين جلوسَ الحزين ومثلَ السجين فى قَفَصٍ صغيرٍ مُحْكَمِ الإغلاق ، ولا نَسِيحُ فى مِثْلِ تَرَف النساء وراحتهن مطلقاً ، ونحن لا نَحْرِم أنفسَنا الهواءَ الطَّلِق ، ولا منظرَ الأشياء التى تحيط بنا ، ولا فرصةَ تأمُّلها كما يَطِيبُ لنا ، وما كان إمِيلُ ليَدْخُلَ عربةً ، ولا أن يسافر بها ، ولو كان مستعجِلاً ، ولكنْ أيُّ شيء يَسْتعجلُ إميلُ ؟ إنه يَسْتعجل

شيئاً واحداً ، وهو التمتعُ بالحياة ، وهل أُضيفُ إلى هذا صنعَ الخير ما استطاع إليه سبيلاً ؟ كَلاَّ ، وذلك لأن هذا تَمَتُّعٌ بالحياة أيضاً .

ولا أتصورُ غيرَ نَمَطٍ واحدٍ للسياحة ألطفَ من ركوب الخيل ، وهو السَّيْرُ على الأقدام ، وذلك أننا نسافر متى نريد ، وأننا نَقِفُ كما نشاء ، وأننا نَبْذُل من العناء ما هو قليلٌ أو كثيرٌ مثلما نَهْوَى ، وأننا نشاهدُ جميع البلد ، ونلتفتُ يُمْنَى ويُسْرَى ، وأننا نَفْحَصُ كلَّ شيء يَحْلُو لنا ، وأننا نَقِفُ عند جميع وجهات النظر ، وإذا ما رأيتُ نهراً سِرْتُ وإياه ، وإذاما رأيتُ غابةً كثيفةً مَشَيْتُ تحت ظلِّها ، وإذا ما أبصرتُ مَغارةً زُرْتُها ، وإذا ما أبصرتُ مَقْلَعاً بحثتُ عن الجمادات ، وفى كلِّ مكانٍ أبقَى حيث يَرُوقُنى ، ثم أنصرف حينما يَعْتَرِينى سأمٌ ، ولا أكون تابعاً لحصُنٍ ولا لحوذِيٍّ ، ولا أُضْطَرُّ إلى اختيار الطُّرُقِ المُعَبَّدة ولا السُّبُل السهلة ، وأمُرُّ من كلِّ مكانٍ يُمْكِنُ الإنسانَ أن يَمُرَّ منه ، وبما أننى لستُ تابعاً لأحدٍ غيرِ نفسى فإننى أتمتَّع بكلِّ ما يُمْكِن الإنسانَ أن يتمتع به من حرية ، وإذاما وَقَفَتْنِى رداءةُ الجوِّ وسئمتُ رَكِبْتُ خيلاً ، وإذا ما تَعِبْتُ . . . ولكنَّ إميل لا يَتْعب مطلقًا ، فهو عُضْلِيٌّ ، ولِمَ يَتْعَبُ ؟ فهو لا يُضْغَطُ مطلقًا ، وهو إذا ما وَقَف فكيف يَسْأم ؟ فهو يَحْمِلُ فى كلِّ مكان ما يَتَلَهَّى به ، وهو يَقْصِد معلِّمًا ويشتغل ، فيُمَرِّن ذراعيه ليُرِيحَ رجليه .

والسَّفَرُ سيرًا على الأقدام هو مِثْلُ سَفَرِ تاليسَ وأفلاطون وفيثاغُورَس ، ومن الصعب علىَّ أن أدرِكَ أن الفيلسوف يُمْكِنُ أن يُزْمِعَ السفرَ على

وجهٍ آخر ، فيَسْلُب نفسَه درسَ ثَرَواتٍ يَدُوسُها تحت قَدَميه وتَعرِضها الأرض على عينيه ، ومن ذا الذى لا يُحِبُّ الزراعةَ بعضَ الحبِّ فلا يُرِيدُ الاطلاعَ على المُنتَجات الخاصة بإقليم الأماكن التى يجاوزها وطريقةِ زراعتها ؟ ومن ذا الذى يَكُون على شىء من الميل إلى التاريخ الطبيعىِّ فيُمْكِن أن يَمُرَّ على أرضٍ من غير أن يَدْرُسَها ، وعلى صخرةٍ من غير أن يَكْسِر شيئًا من أطرافها ، وعلى جبالٍ من غير أن يَفْحَص نباتَها ، وعلى حَصْباء من غير أن يبحث عن مُسْتَحاثاتٍ بينها ؟ ويَدْرُس فلاسفةُ الأزِقَّةِ عندكم التاريخَ الطبيعىَّ فى غُرَفٍ للمطالعة ، ولديهم نماذجُ صغيرةٌ ، وهم يَعرِفون الأسماء ، وليس عندهم أىُّ فكرٍ عن الطبيعة ، غير أن غرفة إميل للمطالعة أغنى من غُرَف الملوك ، فهى الأرضُ بأسْرِها ، وكلُّ شىءٍ فيها فى مكانه ، وقد عُنِىَ العالِمُ الطبيعىُّ بترتيب جميع ذلك وَفْقَ نظام متين رائع ، وما كان دُوبِنْتُونُ ليصنعَ خيرًا من ذلك .

وما أكثرَ ما يُجمَعُ من مَلَاذَّ مُنوَّعةٍ بهذا النَّمطَ المستحبِّ من السياحة ! فالمزاجُ يبتهج ، دَعِ الصحةَ التى تَتَقوَّى ، وممن شاهدتُ ، دائمًا ، أولئك الذين يسافرون فى عَرَباتٍ جميلةٍ مُرِيحة فيَبْدُون حالِمين أو مُكْتئِبين أو مُهَمْهِمِين أو مُتَوَجِّعين ، وممن شاهدتُ أولئك الذين يسافرون ماشين فيَبْدُون ، دائمًا ، نُشَطاء فَرِحين راضين بكلِّ شىء ، وما أكثرَ ما يَطْرَب القلبُ عند الاقتراب من البيت ! وما أكثرَ ما تَظْهَر الوَجْبَةُ الغليظةُ لذيذةً ! ويا لَلَّذةِ التى تكون عند الاستقرار حَوْل المائدة ! ويا للنوم المستطاب فى سريرٍ ردىء ! إذا لم يُرْغَبْ فى غير الوصول أمكن العَدْوُ بعَرَبةٍ بريدٍ ،

وإذا ما أريدت الرحلة وجب السَّيْرُ مشياً .

وإذا لم تُنْسَ صُوفيةُ قبلَ قَطْعِنا خمسين فَرْسخاً على الوجه الذى أتصور وَجَبَ أن أكون فاقدَ اللَّباقة أو أن يكون إميلُ قليلَ الفُضُول ، وذلك لأن من الصعب ، مع تلك المعارف الابتدائية الكثيرة ، ألَّا يحاول نَيْلَ معارفَ أكثرَ مما اكتسب ، والإنسانُ لا يكُون ذا فُضُولٍ إلَّا بنسبة ما تَعلَّمَ ، ولدى إميلَ من العِرْفان الكافى ما يُريد معه أن يتعلَّم .

ومع ذلك فإن الشيء يَسُوق إلى شيء آخر ، ونحن نتقدم دائماً ، وقد جعلتُ لجَوْلتنا الأولى حدًّا بعيداً ، والذريعةُ سهلةٌ ، فلما غادرنا باريسَ وجبَ البحثُ عن امرأةٍ فى مكانٍ قاصٍ .

وقد ضَلَلْنا طريقَنا بعد بضعة أيامٍ قضيناها ، زيادةً على العادة ، بين الأودية والجبال حيث لا يُرَى أىُّ طريقٍ كان ، ولا ضَيْرَ ، فكلُّ طريقٍ صالحٌ بشرط الوصول ، ولكنْ لا بُدَّ من بُلُوغ مكانٍ ما عنــد وُقوع الجوع ، ومن حُسْن الحظِّ أن وجَدْنا فَلَّاحاً أتى بنا إلى كُوخه ، فأكلنا بشهوةٍ كبيرة ما قدَّم من غَداه هزيلٍ ، وقد قال لنا إذْ رآنا كثيرى التعب والجوع : « لو ساقكم الرَّبُّ الكريم إلى الناحية الأخرى من التلِّ لقُبِلْتُم بأحسنَ مما قُبِلْتُم هنا ... ولَوَجَدْتُم منزلاً مُريحاً ... وأناساً كثيرى الإحسان ... كثيرى اللطف ! ... أجَلْ ، إنهم ليسوا أطيبَ منى جَنَاناً ، ولكنهم أكثرُ منى غِنًى ، وإن قِيلَ إنهم كانوا فى الماضى أفضلَ حالاً ... وهم لم يفتقروا والحمدُ لله ، وجميعُ البلد يَعْلَم ما بَقِيَ لهم » .

سَمِـعَ إميلُ هذه الكلمةَ التى تَصْدُر عن الصالحين فانشَرَح صدرُه ،

وقد قال وهو يَنْظُر إلىّ : « لنَذْهَبْ ، يا صديقى ، إلى ذلك المنزل الذى يُبَارِك لأصحابه جميعُ الجوار ، فيَسُرُّنى كثيراً أن نَرَاهم ، وقد يُسَرُّون بأن يَرَوْنا ، وإنى لواثقٌ بأنهم يُحْسِنُون قبولَنا ، وسَيُلاَئمونا كما نلائهم » .

ونَذْهَبُ بعد أن نُدَلَّ على الطريق جيداً ، ونَضِلُّ فى الغاب ، فقد فاجأنا مطرٌ غزيرٌ ونحن سائرين ، ويَعُوقنا المطرُ من غير أن يَقِفَنا ، وأخيراً نَجِدُ سبيلَنا ، ونَصِلُ مَسَاءً إلى المنزل المُعَيَّن لنا ، ولهذا المنزل ، الوحيدِ مع البساطة ، بعضُ المنظر فى الضَّيْعة التى تحيط به ، ونُقَدِّم أنفسَنا ، ونطلُب الضِّيَافة ، ونُـكَلَّف بمكالمة صاحب المنزل ، ويسألُنا بأدبٍ ، ونُخْبِره بسبب سلوكنا الطريقَ الأطولَ من غير أن نُبَيِّنَ له غَرَضَ رِحْلتنا ، وكان قد احتفظ من سابق يُسْرِه بسهولةِ معرفته لحال الناس من خِلاَل أوضاعهم ، ولا عَجَبَ ، فإن من النادر أن يُخْدَعَ بها من عاش معاشراً للناس فى مجتمعاتهم ، فكان لنا بجواز السفر ذاك ما أَسْفَر عن قبولنا .

ونُدَلُّ على غُرْفةٍ صغيرة جِدًّا ، ولـكنها نظيفةٌ مُرِيحة ، وتوقَدُ النارُ ، ونَجِدُ فيها بَيَاضاتٍ وثياباً وكلَّ ما نحتاج إليه ، ويقول إميلُ دَهِشاً : « ماذا ! يَظُنُّ الإنسان أنهم كانوا ينتظروننا ! حَقًّا كان الفلاح على حَقٍّ ! يا للانتباه ! يا للصلاح ! يا للحَذَر ! حتى نحو الغرباء ! أَرَانى فى زمن أوميرُس » ، وأقول له : « يَسرُّنى شعورُك بجميع هذا ، ولـكن لا تَعْجَبْ منه ، ففى كلِّ مكانٍ يَنْدُر فيه الغُرَباء يُحْسَنُ قبولُهم ، ولا شىء يَجْعَلُ الرجلَ أكثرَ قِرًى من عدم الاحتياج إلى قِرَاه غالباً ، فكثرةُ الضُّيوف

هى التى تَقْضِى على القِرَى ، فالناسُ فى زمن أُومِيرس كانوا لا يسافِرون مطلقاً ، وهم إذا ما سافروا تُقُبِّلوا قبولاً حسناً فى كلّ مكان ، وقد نكون وحدَنا كلّ من رُئِىَ هنا من المسافرين فى العام كلّه » ، ويقول إميلُ : « لا ضَيْرَ ، إن من دواعى الثَّناء أن يُسْتَغْنَى عن الضيوف وأن يُحْسَنَ قبولُهم دائمًا » .

ونُجَفِّفُ أنفسنا ونُقَوِّم ثيابَنا ، ونذهب لِلقاء ربِّ البيت ، ويُقَدِّمنا إلى زوجته ، وتستقبلنا بأدبٍ ودَعَةٍ ، وتُوَجِّه نظراتِها إلى إميـلَ ، ومن النادر أن نَرَى أمٌّ فى مِثْل حالها دخولَ شابٍّ بيتَها من غير أن يعتَرِيَها همٌّ أو فُضُولٌ على الأقلّ .

ويُعَجِّلُ تقديمُ العَشَاء إكراماً لنا ، ونَدْخُل غرفةَ الطعام ، ونَرَى خمسةَ كراسٍ مُعَدَّة ، ونَجْلِس ، ويَبْـقَى أحـدُ المقاعد خاليًا ، وتَدْخلُ فتاةٌ ، وتَحْنُو رأسَها احترامًا ، وتَجْلِسُ جلُوسَ حَيَاء من غير أن تتكلم ، ويكون إميلُ مُفَـكِّراً فى جُوعه أو فى أجوبته فيُسَلِّمُ عليها ويتكلَّمُ ويأكل ، ولا يزال غَرَضُ رِحْلتِه الرئيسُ بعيداً من ذهنه بُعْدًا يَعْتَقِدُ معه أنه ناء عن المقصود ، ويَدُور الحديث حَوْلَ تَيَهَانِ المسافرِيْن ، ويقول ربُّ المنزل لإميلَ : « يَلُوحُ لى ، أيها السيد ، أنك فـتًى لطيفٌ عاقل ، ويُذَكِّرُنى وصولُك ، أنت ومُعَلِّمك ، إلى هنـا تَعِبَيْن مُبَلَّلَيْن بتِلِماكَ والمرشِدِ فى جزيرة كَلِيبْسُو » ، ويُجِيبُ إميل بقوله : « حقًّا أننا نَجِدُ هنـا قِرَى كَلِيبْسُو » ، ويُضِيف مُرْشِدُه إلى هذا قولَه : « وفُتُونَ أُوكارِيس » ، بَيْدَ أن إميلَ يَعْرِف الأُوذِيسّة ، ولم يَقرأ تِلِماكَ قطُّ ، فلا يَعلَم شيئاً عن

أوكاريس ، وأما الفتاةُ فقد احْمَرَّ وجهُها حتى العينين ، وتَغُضُّ طَرْفَها على الطَّبَق ، ولا تكاد تَتَنَفَّسُ ، وتلاحِظُ أمُّها ارتباكَها ، وتُوعِزُ إلى الأب بإشارةٍ ، فيُغَيِّرُ الحديثَ ، وهو إذْ يتكلَّم عن عُزْلته يأخُذُ فى الحديث ، من حيث لا يَشْعُر ، حَوْلَ الحوادث التى أدَّتْ إلى التزامه إياها ، وحَوْلَ ما كان من مصائب حياته ، وما كان من ثبات زوجته ، وما وَجَد من سُلْوَانٍ فى قِرانهما ، وما يَجِدَان من حياةٍ حُلْوَةٍ هادئة فى عزلتهما ، وذلك من غير أن يَقُولَ كلمةً عن الفتاة ، وتتألفُ من جميع هذا قصةٌ لطيفة مؤثرةٌ لا تُسْمَعُ من غير اهتمام ، ويهتزُّ إميلُ ويَرِقُّ ويَنْقَطِع عن الطعام ليَسْتَمع ، ثم لمَّا تَكَلَّم ذلك الذى هو أصلحُ الرجال مُغْتبطاً عن حُبٍّ أفضل النساء ساوَرَ الفَتَى المسافرَ وَجْدٌ فأمسك بإحدى يدى الزوج وصافحها وتَنَاوَل بيده الأخرى يدَ الزوجة ومال إليها هائجاً مُبَلِّلا إياها بدموعه ، ويؤثِّرُ الشابُّ فى الجميع بِهِيَاجِه الساذَج ، وتَكُون البنتُ أكثرَ مَنْ تأثَّرَ بهذا الدليلِ على قلبه الطيب فتظنُّ أنها تشاهِدُ تِلِماكَ حَزِيناً على مصائب فِيلُوكْتِيت ، وتَنْظُرُ إليه خُلْسَةً لتَفْحَصَ وجهَه جَيِّداً فلا تَجِدُ شيئاً يُكَذِّبُ المقارنةَ ، وتَنِمُّ طلاقةُ وجهه على الحرية بلا عُنْجُهِيَّة ، وتَنِمُّ أوضاعُه على النشاط بلا طَيْش ، وتَجْعَل حَسَّاسيتُه نظراتِه أكثرَ عُذُوبةً ، وتَجْعَلُ سِيماه أكثرَ تأثيراً ، وتكاد الفتاة تَمْزُجُ دمعَها بدمعه حينما رأته باكياً ، ويُمْسِكُها حياءٌ خَفِيٌّ مع وجود عُذْرٍ رائعٍ لها إذا ما بَكَتْ ، وقد لامَتْ نَفْسَها على سَكْب عبَرَاتٍ كادت تُفْلِتُ من عينيها كما لو كان ذَرْفُها شُؤْمًا على آلها .

وتُبصِرُ أمُّها ، التى ما فتئت تَرْقُبُها منذ البُداءة ، كَرْبَها ، فتُنْقِذُها منه بإرسالها للقيام بأمرٍ ، وتمرُّ دقيقةٌ فتَعُود الفتاةُ ، ولكن مع سوء شفاء ظَهَر معه اضطرابُها لجميع الأعين ، وتقول لها أمُّها برِفْقٍ : « أىْ صُوفية ، اضبُطِى نفْسَكِ ، وكُفِّى عن البكاء على مصائب أبويْكِ ، ولا تكُونى أكثرَ تأثراً منهما حَوْلَ بلاياهما وأنت التى تُسْلِيهما عنها » .

ويا ليتكم رأيتم ارتعاشَ إميلَ عند ذِكْر اسم صُوفية ، فقد قَرَع سمعَه هذا الاسمُ العزيزُ كثيراً ، وانتبه مرتجفاً ، وألقى نظرةَ وَلَعٍ على تلك التى تَجرُؤ على حَمْلِه ، صُوفية ! واهًا لصُوفية ! أأنت التى يَنْشُدُها فؤادى ؟ أأنت التى يُحِبُّها قلبى ؟ ويَنْظر إليها ويتأمَّلُها مع شىء من الهَلَع والحذَر ، ولا يَرَى الوجهَ الذى رسَمَه لنفسه تمامًا ، ولا يَدْرِى هل الذى يَرَى يشابهُه كثيراً أو قليلاً ، وهو يَدْرُس جميعَ ملامحها ويرقُبُ كلَّ حركةٍ وإشارةٍ منها ، فيَجِدُ لكلٍّ من هذه الأمور ألفَ تفسيرٍ غامض ، ويَوَدُّ أن يَهَبَ نصفَ حياتِه لو تَنْطِقُ بكلمةٍ ، وهو يَنْظُرُ إلىَّ جَزُوعًا مضطربًا ، وتُلْقِى عيناه علىَّ مئةَ سؤالٍ ومئةَ عِتابٍ معاً ، فكأنه يقول لى عند كلِّ نظرة : « أرْشِدْنى فلا يزال يُوجَدُ وقت ، فإذاما أذْعَن فؤادى وزَلَّ فلا شفاء لى منه مطلقاً » .

وإميلُ أقلُّ مَنْ فى العالَم قدرةً على التَّنكُّر ، وكيف يَتنكر وقد اعتراه أعظمُ اضطرابٍ فى حياته بين أربعة نُظَّارٍ يَفحَصُونه فيكُونُ أكثرُهم تشاغُلاً عنه أكثرَهم انتباهًا إليه بالحقيقة ؟ وما كان ارتباكُه لِيَخْفَى على عَيْنَىْ صُوفية النَّفَّاذتين مطلقاً ، ومع ذلك فإن عينيه تُخْبِرانها بأنها هى

المقصودة ، وهى تُبصِرُ أن هذا الهَلَع ليس من الحبِّ ، ولكن ما أهمية ذلك ؟ فهو يَشْغَل بالَه بها ، وهذا يَكفِى ، ومن شقائها الشديد أن يَصْرِف هَمَّه إليها بلا عِقَاب .

وللأمّهاتِ عيونٌ كبناتهنّ فضلاً عن التجربة ، وتبتسم أمُّ صُوفية لنجاح خِططنا ، وهى تقرأ ما يَدُور فى خَلَد الشابيْن ، وهى تُبصِرُ أن الوقت حَلّ لثبات فؤادِ تِلمِاكَ الجديد ، فتَحمِل ابنتَها على الكلام ، وتُجيبُ ابنتُها ، مع دَعَتِها الفطرية ، بصَوْتٍ يَنِمُّ على الحياء فيكون له أبلغُ الأثر ، ويَسْتَسلِمُ إميلُ عند أول رَنَّةٍ لهذا الصوت ، فهذه هى صُوفية ، ولا يَشُكُّ فى هذا ، ولو كان الأمرُ غيرَ هذا لجاء إنكارُه متأخّرًا جدًّا .

وهنالك يتدفق فُتُون هذه البنتِ الساحرةِ إلى فؤاده كالسَّيْل ، وهنالك يأخذ فى ابتلاع السُّمِّ الذى تُسْكِرُه به على جَرَعاتٍ طويلة ، وعادَ لا يَتكلم ، وعاد لا يُجيب ، وصار لا يَرَى غيرَ صوفية ، وصار لا يَسْمَعُ غيرَ صُوفية ، فإذا ما نَطَقت بكلمةٍ فتحَ فاه ، وإذا ما كَسَرتْ من طَرْفها غَضَّ من طَرْفه ، وإذا ما أبصرَها تَتأوَّهُ تأوَّهَ ، فيَظْهَرُ أن رُوحَ صُوفية هو الذى يُحرِّكه ، ويا لَتغيُّرِ رُوحها فى أُوَيقَات ! والآن أتَى دَوْرُ إميلَ فى الارتعاش ، لا دَوْرُها ، والآن وَدَاعًا أيتها الحرية والسذاجةُ وسلامةُ القلب ، وقد عاد لا يَنْظُر إلى من حَوْلَه عن اضطرابٍ وارتباك وجَزَع ، وخشيةَ أن يَرَى أنه يُنظَر إليه ، ويَسْتَحِى أن يُنفَذَ إلى سريرته فيَوَدُّ لو يَخْفَى على جميع الناس حتى يَشْبَعَ من تأمُّلِها بإحكامٍ بعيداً من العيون ،

وعكسُ هذا حالُ صُوفية التى اطمأنَّتْ إلى وَجَل إميلَ فأبصرتْ نَفْرَهَا وسُرَّت به .

« هى لا تُبْدِيه ، وإن كانت تُسَرُّ به »
« فى فؤادها » .

أجَلْ ، إنها لم تُغَيِّرْ سِيماها ، بيد أن فؤادها ، مع هذا الوَضْع المتواضِع وخَفْضِ طَرْفِها ، يَخفِقُ فَرَحًا فيُخْبِرُها بأن تِلِماكَ قد وُجِد .

وإذا ما تناولتُ هنا قصةَ هواهما العُذْرِىِّ الساذَجِ البسيطِ إلى الغاية عُدَّت هذه التفصيلاتُ من التُّرَّهات على غير حَقٍّ ، وذلك أنه لا يُنظَرُ بما فيه الكفاية إلى ما يجب أن يكون لأول اتصالٍ بين الرجل والمرأة من تأثيرٍ فى مجرى حياة كلٍّ منهما ، ولا يُرَى أنه يَكُون للانطباع الأول القوىِّ ، كانطباع الُحبِّ أو الميلِ الذى يقوم مقام الُحبِّ ، من التأثير الطويل ما لا يُبْصَرُ معه تسلسلُه بمرور السنين مطلقًا ، ولكنه لا يَنقَطِع عن العمل حتى الموت ، ويُعْرَضُ علينا فى كتب التربية حَشْوٌ كبيرٌ غيرُ مُجْدٍ ، وقائمٌ على الحَذْلقة ، حَوْلَ واجبات الأولاد الوهمية ، فلا تُذْكَرُ لنا كلمةٌ فيها عن أهمِّ أقسام التربية وأصعبها ، أىْ عن أَزْمة الانتقال من دَوْرِ الوُلُودية إلى دَوْرِ الرُّجولة ، وإذا كنتُ قد استطعتُ أن أجْعَل موضوعاتى مفيدةً فذلك لتوسُّعِى فى هذا القسم الأساسىِّ الذى أهْمَلَه الآخرون ، ولأننى لم أرتدَّ عن عملى بالدقائق الزائفة ولا بمصاعب التعبير ، وإذا كنتُ قد قلتُ ما يَجِبُ أن يُصْنَع فإننى قلتُ ما وَجَبَ علىَّ أن أقول ، ولا يُهِمُّنِي أن أكتب روايةً إلا قليلاً ، وتُعَدُّ روايةُ الطبيعة البشرية رائعةً ، وهل

يَقَعُ الذَّنبُ عليَّ إذا لم تُوجَدْ في غير هذا الكتاب ؟ ويجب أن تكون هذه قصةَ نوْعِي ، وأنتم إذْ تُفْسِدون هذا النوعَ تجْعَلُون من كتابي روايةً .

ويُوجَدُ باعثٌ آخرُ يؤيِّدُ الأولَ ، وذلك أن الأمرَ هنا لا يَدُورُ حَوْل فَتًى أسْلِمَ منذ دَوْرِ الطُّفُولة إلى الخوْف والطمع والحسد والزَّهْو وجميعِ الأهواء التي تَصْلُح أن تكون وسائلَ للتربيات الشائعة ، وإنما يَدُور حَوْل فتًى يساوِرُه هنا أولُ حُبٍّ فضلاً عن أولِ هَوًى من كلِّ نوعٍ ، ويتوقَّفُ آخرُ طَوْرٍ يكتسبه طَبْعُه على هذا الهَوَى الوحيد الذى سيَشْعُر به شعوراً قوياً ما دام حَيًّا على ما يحتمل ، وستَنَال طُرُزُ تفكيره ومشاعرُه وأذواقُه ، الراسخةُ بهوًى دائم ، ثباتاً لا يَدَعُ لها مجالًا تَفْسُدُ فيه .

ويُدْرِكُ أن الليلة التى تَعقُب مِثْلَ تلك السهرة لا تُقْضَى كلُّها فى النوم من قِبَلِي وقِبَل إميلَ ، وهل يوجب تَوَافُقُ الاسم وحدَه مثلَ ذلك التأثير فى رَجُلٍ عاقل ؟ ألَا يوجَدُ غيرُ صُوفيةٍ واحدةٍ فى العالَمِ ؟ وهل يتشابه جميعُهن روحاً واسماً ؟ وهل كلُّ صُوفيَةٍ يَرَاها هى صُوفِيَتُه ؟ وهل بَلَغَ من الجنون ما يُولَعُ معه بمجهولةٍ لم يُكلِّمْها قطُّ ؟ انتَظِرْ أيها الرَّجُل وافحَصْ ولاحِظْ ، حتى إنك لا تَعْرِف مَنْ هو مُضَيِّفُك ، ومن يَسْمَعْك يَظُنَّ أنك فى منزلك .

وليس هذا وقتَ الدروس ، ولم تُوضَعْ هذه الدروس لِتُسْمَعَ ، وهى لا تَصْنَع غيرَ إثارتها لدى الفتى رَغْبَةً جديدة فى صُوفية تَسْوِيغاً لميله إليها ، ولم يؤدِّ هذا التوافق فى الأسماء وهذا اللقاء الذى يَعْتقد وقوعَه اتفاقاً ، حتى تحَفُّظِي ، إلى غيرِ تحريك حُمَيَّاه ، وقد بَدَتْ صُوفيةُ له من جدارتها

بالتقدير البالغ ما شَعَرَ معه باستطاعته أن يُحَبِّبَها إليَّ .

وفى الصباح ساورنى شَكٌّ فى محاولة إميلَ أن يَجْعَل نفسَه زاهياً بثياب رِحْلتِه الرديئة ، ولم يُعْوِزْه الأمرُ ، ولكننى ضَحِكْتُ من اكتفائه بثياب المنزل ، وأنفُذُ فى أفكاره ، وأقرأ فيها مسروراً محاولتَه القيامَ بمبادلاتٍ حين إعداده وسائلَ للإعادة ، وإقامتَه ضَرْباً من المراسَلة يَجْعَل له حقّاً فى الرَّدِّ والعَوْدِ إلى هنالك .

وقد انتظرتُ أن أجِدَ صُوفية أحسنَ لباساً من ناحيتها أيضاً ، فكنت مخطئاً فى ذلك ، وذلك أن الدَّلالَ المبتذَل صالحٌ لمن يُرِدْن الوقوعَ موقعَ الرِّضا ، وأما دلالُ الحبِّ الحقيقيِّ فأكثرُ دِقَّةً ، وهو ذو مزاعمَ كثيرةٍ أخرى ، وبَدَتْ صُوفيةُ أبسطَ ثياباً مما كانت عليه عَشِيَّةً ، حتى إنها ظَهَرَت أكثرَ تهاوُناً مع نظافةٍ بالغةٍ دائماً ، ولا أرى دلالاً فى هذا التهاون إلا لأننى أرى فيه تظاهراً ، أجَلْ ، إن صُوفية تَعرِف جَيِّداً أن الإفراط فى الزينة يَنطَوِى على تصريحٍ ، ولكنها لا تَعرِف أن التهاون بالزينة ينطوى على تصريحٍ آخر ، وهى تَدُلُّ على أنه لا يُكْتَفَى فى الرَّوَقان بحُسْن الثياب ، بل يُوقَعُ بالشخص مَوْقِعَ الرِّضا ، والآن ما أرَبُ العاشقِ بثيابها إذا ما رأى أنها تُفَكِّر فيه ؟ وتَطْمَئِنُّ صُوفيةُ إلى سلطانها على إميلَ فلا تَقْتَصِر على وَقْفِ عينيه بفُتونها إذا لم يَبْحَثْ فؤادُه عن هذا الفُتون ، وقد عادت لا تكتفى بأن يَلْحَظَ هذا الفُتونَ ، وإنما تريد أن يَفْتَرِضه ، أوَ لم يُبْصِرْ منه ما فيه الكفاية حتى يُضْطَرَّ إلى التَّنَبُّؤ بالبقية ؟

ويُظَنُّ أن صُوفية وأمَّها لم تَبْقيا صامتتين فى أثناء حديثنا فى تلك الليلة ،

فهنالك اعترافاتٌ قد نُزِعَتْ وأوامرُ قد صَدَرَتْ ، وفى الغد يُحْسَنُ إعدادُ الاجتماع ، ومنذ اثنتى عشرةَ ساعةً لم يجتمع الفَتَيَان ، ولم يُكلِّم أحدُهما الآخرَ بكلمةٍ حتى الآن ، وكان قد رُئِى توافقهُما ، وليس تقابلُهما مألوفاً ، فهو مَشُوبٌ بالحياء والارتباك ، ولا يَنْطِقان مطلقاً ، ويَظْهَرُ أن عَيْنَىْ كلٍّ منهما مُجانِبَتَيْن لعَيْنَىِ الآخر ، حتى إن هذا دليلٌ على التفاهم ، أَجَلْ ، ذاك تجانبٌ ، ولكن مع اتفاق ، ويَشْعُران بحاجةٍ إلى الكتمان قَبْل قولهما كلمةً ، ولمّا انصرفنا طَلَبْنا أن يُؤْذَن لنا فى العَوْد بأنفسنا لإعادة ما نأْخُذ معنا ، ويَطْلُب إميلُ هذا الإذنَ من الأب والأمِّ بفمه ، على حين كانت عيناه الجَزُوعان مُوَجَّهتين إلى الفتاة طالبتين منها بإلحاحٍ ، ولا تَنْطِق صوفية بكلمة ، ولا تأتى بإشارةٍ ، ولا تَظْهَرُ أنها تَرَى شيئاً أو تَسْمَعُ قَوْلًا ، ولكنها تَحْمَرُّ خجلاً ، وهذا الحياء جوابٌ أوضحُ من جواب الأبوين .

ويُسْمَحُ لنا بالرجوع من غير أن نُدْعَى إلى البقاء ، وهذا سلوكٌ ملائمٌ ، فإذا أُذِن للمسافرين الذين دَهَمهم الظلامُ فى المَبَاتِ فإن من غير اللائق أن ينام عاشقٌ فى بيت خليلته .

ولم نَكَدْ نغادرُ هذا المنزلَ العزيز حتى رأى إميلُ أن نُقِيمَ بالجِوَار ، ويَلوحُ له أن أقربَ منزلٍ بعيدٌ جدًّا ، فوَدَّ لو يَنَامُ فى خَنْدق القصر ، فأقول له عاطفاً : « أيها الفتى الطائش ! ماذا ! هل أَعْمَاك الهَوَى ؟ أراك لا تراعى اللياقةَ والعقل ! يا لك من تَعِس ! تعتقد أنك تحِبُّ ثم تُرِيدُ فَضْحَ خليلتك ! ما يُقَال عنها إذا عُلِمَ أن فَتًى خَرَج من منزلها ونام فى

جوارها ؟ أنت تقول إنك تُحِبُّها ! فهل تُريدُ القضاء على سُمعتها إذَنْ ؟ أهذا ثَمَنُ القِرَى الذى حبَانا به والداها ؟ أتُلْحِقُ عاراً بتلك التى تنتظرُ سعادتَك منها ؟ » ، ويُجيبُ بحرارةٍ قائلًا : « والآن ! ما أهميةُ هَذْرِ الناس ورِيَبِهم الجائرة ؟ ألم تُعَلِّمنى ألَّا أُقيمَ لذلك وَزْنًا ؟ ومَنْ يَعْرِفُ أكثرَ منى مقدارَ ما أُجِلُّ صُوفية وما أُرِيدُ لها من إكرام ؟ لن يكون وَلَعى بها عاراً ، بل يُوجِبُ لها افتخاراً ، وسيكون جديراً بها ، وإذا ما قام فؤادى وجهودى فى كلِّ مكان بما تستحقُّ من تبجيلٍ فبأى شىء أكون قد أهَنْتُها ؟ » ، وأرُدُّ على إميلَ معانقًا : « أىْ إميلَ العزيز ، أنت تَتَعَلَّلُ بالأمر من حيث وِجْهةُ نظرك ، فتَعَلَّمْ تقليب الأمرِ من أجْلها ، ولا تَقْرِن شرفَ أحد الجنسين بشرف الجنس الآخر مطلقًا ، فلكلٍّ منهما مبادئُ تختلف عن مبادئ الآخرِ كلَّ الاختلاف ، وهذه المبادئُ متينةٌ صائبة على السواء لاشتقاقها من الطبيعة على السواء ، وما عندك من فضيلةِ تَحَمُّلك على ازدراء كلام الناس يُلزِمُك باحترام هذا الكلام من أجْل خليلتك ، فإذا كان شَرَفُك قائمًا فيك وحدَك فإن شرفها يتعلق بالآخرين ، فإهمالُ هذا الشرف يَنْطَوِى على إهانةٍ لشرفك أيضًا ، وليس سوى امتهانٍ منك لِمَا هو واجبٌ عليك ألَّا تَصْنَعَ ما هى أهلٌ له من الاحترام » .

وهنالك فَصَّلْتُ له أسبابَ هذه الفروق فأشْعَرْتُه بما يكون من بَغْيٍ فى عدم الاكتراث لها ، ومَنْ قال له إنه سيكون زوجاً لصُوفية ، وهى التى يَجْهَل مشاعرَها ، وهى التى قد يَكُون قلبُها وأبواها مرتبِطَين بعهودٍ سابقة ، وهى التى قد لا يكون بينه وبينها من الموافَقات ما يُمْكِن أن

يجعَل قِرانَهما سعيداً ؟ وهل يجهَل أن كلَّ عارٍ يُصِيبُ البنتَ دَنَسٌ لا يُمحَى ، وأنه لا يَزُول حتى بتزوجها الذى أوجب هذا العارَ لها ؟ والآن ! مَنْ هو الرجلُ الحسَّاسُ الذى يُرِيدُ أن يَفقِد من يُحِبُّ ؟ وأىُّ رجلٍ صالحٍ يُرِيدُ أن يوجبَ إلى الأبد بكاءَ شَقِيَّةٍ تَعَسَ وقوعها موقعَ الرِّضا لديه ؟

ويَخشَى الفَتَى ما أطلعتُه عليه من النتائج ، وبما أنه يَلزَم أقصى حذرٍ لأفكاره دائماً فإنه يُبصِرُ أنه لا يزال غير بعيد من منزل صوفية بما فيه الكفاية فيضاعف خَطْوَه إمعاناً فى الفِرار ، ويَنظُرُ حَوْلَنا ليَرَى هل يَسمَعُنا أحدٌ ، ولا غَرْوَ ، فهو يُضَحِّى بسعادته ألفَ مرةٍ فى سبيل شرفِ مَنْ يُحِبُّ ، وهو يُفَضِّلُ ألاَّ يراها ثانيةً مَدَى حياته على أن يُكَدِّرَ صَفْوَها مرةً واحدة ، وهذه هى الثمرةُ الأولى للعناية التى حَبَوْتُه بها منذ صباه كيما أجعَلُ له قلباً يَعرِف أن يُحِبَّ .

ولذا فإن الأمر يَدُور حَوْلَ وجود ملجأٍ بعيدٍ على ألاَّ يكونَ كثيرَ البُعْد ، ونَبْحَث ونَستَعلِم ، ونَعلَم وجودَ مدينةٍ بعيدة فرسخَيْن ، ونحاول أن نَجِدَ لنا مَسكَناً فيها ، مُفَضِّلين إياه على مسكنٍ فى القُرَى الأكثرِ قُرْباً حيث تكون إقامتُنا محلَّ شُبْهةٍ ، وأخيراً يَصِلُ إلى هنـاك عاشقٌ جديدٌ مملوءٌ حُبًّا وأملاً وسروراً ، ومشاعرَ طيبةً على الخصوص ، ومن ثَمَّ تَرَى كيف وَجَّهْتُ بالتدريج هواه الناشئَ نحوَ ما هو صالح شريفٌ ، وكيف أعدَدْتُ جميعَ مُيُولِه لسلوك ذاتِ القصد .

وأدْنُو من آخر عملى ، وأُبْصِرُ ذلك من بعيد ، وقد ذَلَّلْتُ جميعُ

المصاعب الكبيرة ، وقد اقتُحِمَتْ جميعُ العَقَبات العظيمة ، ولم يَبْقَ لدىَّ من المشاقِّ ما أُسَوِّى غيرُ عدم إفسادِ صُنْعى بإسراعى فى إنجازه ، ولْنَنْظُرْ إلى ما تَنْطوى عليه حياةُ الإنسان من قَلْقَلَةٍ فنَجْتَنِبَ ، على الخصوص ، ذاك الحَذَرَ الزائفَ القائلَ بأن يُضَحَّى بالحاضر فى سبيلِ المستقبل ، وذلك لِمَا يَعْنِى هذا ، غالباً ، من التضحية بما هو كائنٌ فى سبيل ما لا يَكون مطلقاً ، ولْنَجْعَلِ الإنسانَ سعيداً فى جميع أدوار عُمُره ، وذلك خشيةَ أن يموت قبل أن ينالها مع كلِّ ما يُبْذَلُ من جهود ، والواقعُ أنه إذا وُجِدَ وقتٌ يُتَمَتَّعُ فيه بالحياة فذاك ، لا رَيْب ، هو دَوْرُ الشبابِ حيث تكون قُوَى الروح والبَدَن أعظَمَ نشاطٍ فيها ، وحيث يُبْصِرُ الإنسان ، فى وسط سِبَاقه ، من بعيدٍ ، ما يُشْعِرُه بِقِصَرِها من حَدَّين ، وإذا ما خُدِع الشبابُ الغافل لم ينشأ هذا عن كونه يُرِيدُ أن يتمتَّع ، بل عن كونه يَبْحَثُ عن التمتع حيث لا يَكُون مطلقاً ، وهو ، إذْ يُعِدُّ نفسَه لمستقبلٍ بائس ، لم يَعْرِفْ حتى الاستمتاعَ بالساعة الحاضرة .

واحْسُبُوا إميلَ ، بعد إتمامِه العشرين من عُمُره ، حَسَنَ التَّنْشِئَة ، حسنَ التكوين روحاً وبَدَناً ، قوياً سليماً نشيطاً رشيقاً عُضْلُبِيّاً ، مملوءاً إحساساً وعقلاً وصلاحاً وإنسانيَّةً ، صاحبَ أخلاقٍ وذوقٍ ، محبّاً للجمال ، فاعلاً للخير ، خالياً من الأهواء الجامحة ، بريئاً من نِيرِ المُبْتَسَر ، ولكن مع خُضُوعٍ لسلطان العقل ، مجيباً لداعى الصداقة ، حائزاً لجميع المواهب النافعة ولكثيرٍ من المواهب المُسْتَحَبَّة ، قليلَ المبالاة بالثَّرَوات ، معتمداً فى عيشه على ذراعيه ، غيرَ خائفٍ أن يُعْوِزَه الخبزُ مهما حَدَثَ ، والآن تَرَاهُ

نَشْوانَ بِهوًى ناشئٍ ، فيتفتّحُ فؤادُه لأُولَى نيرانِ الغرام ، وتَصْنَعُ له أوهامُه الحُلْوةُ عالَماً جديداً من النعيم والاستمتاع ، ويُحِبُّ بُغْيَةً مُبْتَغَاةً ، وهى تُبْتَغَى بأخلاقها أكثرَ مما بشخصها ، وهو يأمُل وينتظر ما يُحِسُّ استحقاقَه له من ثواب .

ومِن تَوَاصُلِ القلوب وتسابقِ المشاعر الصالحة تألّف ميلُهما الأول ، وهذا المَيْلُ هو ما يجب أن يَظَلّ باقياً ، ويَسْتَسْلِمُ هـذا الميلُ مطمئناً ، ومُحِقًّا أيضاً ، إلى هَذَيانٍ بالغ ، وذلك بلا وجلٍ وأسفٍ ونَدَمٍ ، وبلا هَلَعٍ آخرَ غيرِ الذى لا يَنفَصِلُ حِسُّ السعادة عنه ، وما يُمْكِن أن يُعوِزَه هنالك ؟ انظُرُوا واستعلموا وتَصَوَّروا كلَّ ما يَحْتاج إليه بَعْدُ ، وكلَّ ما يُمكِنُ أن يُمْنَحَ زيادةً على ما لديه ، وهو يَجْمَعُ جميعَ الخيْرات التى يُمكِن أن تُنالَ معاً ، ولا يُمكِنُ أن يضاف إليها شىءٌ إلّا على حساب شىءٍ آخر ، وهو سعيدٌ بأقصى ما يستطيع الإنسان ، وهل أَخْتَصِرُ الآن نصيباً بالغَ الحلاوة ؟ وهل أُكَدِّرُ صَفْوَ شهوةٍ بالغةِ النَّقاء ؟ آه ! إن كلَّ قيمةٍ للحياة قائمةٌ ضِمْنَ ما يذوق من سعـادة ، وما أستطيع أن أُعِيدَ إليه فى مقابل ما أكون قد نَزَعْتُ منه ؟ حتى إننى لو أطفَحْتُه سـعادةً لعُدِدْتُ بذلك مُقَوِّضاً أعظمَ فُتُونٍ عنده ، وهذه السعادةُ العليا هى أحلَى مئةَ مرةٍ بأن تُؤمَّل مما بأن تُنال ، وهى يُتَمَتَّعُ بها عند ما تُنْتَظَر بأفضلَ من أن تُذاق ، ويا إميلُ الصالح ، أَحِبَّ وكُنْ محبوباً ! وتَمَتَّعْ زمناً طويلًا قبلَ أن تحوز ، وتمتّعْ بالغرام والطُّهْر معـاً ، واجْعَلْ جنّتَك فى الأرض منتظراً الجنّةَ الأخرى ، ولن أختَصِرَ هذا الدَّوْرَ السعيد من حياتك مطلقاً ، وسأغزِل لك منه فُتُوناً ،

وسأُطِيلُ مَدَاه ما أمكننى ذلك ، واهاً ! يَجِبُ أن يَنْتَهِيَ ، وأن يَنْتَهِيَ فى وقت قصير ، ولكننى سأبْذُل من الجُهْدِ ما يَبْقَى معه قائماً فى ذاكرتك على الأقلِّ ، فلا تَنْدَمُ على ذوقك إياه مطلقاً .

ولم يَنْسَ إميلُ أن لدينا ما نُعِيدُ ، فإذا ما أُعِدَّ تَنَاوَلْنَا خَيْلاً وانطلقنا عَدْواً ، وإميلُ فى هذه المرة يُرِيد الوصول ، ومتى فُتِحَ الفؤادُ للهوى انفتح لسأم الحياة ، وإذا لم أُضِعْ وقتى لم يَقْضِ حياته هكذا .

ومن المؤسف أن يَكُون الطريقُ مشتبكاً والبلدُ صعباً ، فنَضِلُّ ، ويَكُون أولَ من يُدْرِك ذلك ، ولا يَجْزَع ولا يَتَوَجع ، وإنما يَصْرِف جميع انتباهه فى لُقْيَان الطريق ، ويَجُول طويلاً قَبْلَ أن يَعْرِف أين هو ، وذلك مع ضَبْطٍ للنَّفس دائمٍ ، أَجَلْ ، إن هذا أمرٌ لا يستحقُّ الذكرَ عندكم ، ولكنه أمرٌ مهمٌّ عندى ، أنا الذى يَعْرِف مقدارَ اهتمامه عن طَبْعٍ ، وأُبْصِرُ ثمرةَ الجهود التى بَذَلْتُ منذ صباه لجَعْلِه يَحْتَمِلُ ضرباتِ الضرورة .

وأخيراً نَصِل ، ويكون استقبالُنا أكثرَ بساطةً ولطفاً مما فى المرة الأولى ، وذلك لأننا عُدِدْنا من المعارف ، ويُسَلِّمُ كلٌّ من إميلَ وصُوفية على الآخر مع شىء من الارتباك ، ومن غير أن يتحادثا ، وما يَتَحادثان عنه أمامنا ؟ لا يحتاج الحديث الذى يَرْغَبان فيه إلى شهود ، ونَتَنَزَّه فى الحديقة ، وقد أُفرِز من هذه الحديقة قسمٌ للخُضَر حَسَنُ التنظيم ، وتشتمل هذه الحديقة على روضةٍ مستورة بأشجارٍ كبيرة رائعةٍ مثمرة من كلِّ نوع ، وتَقْطَعُ هذه الروضةَ جداولُ جميلةٌ من جهاتٍ مختلفة ، ولهذه الروضةِ حواشٍ زاخرةٌ بالزهور ، ويَقُول صارخاً إميلُ الذى استحوذ عليه أُومِيرُس وكان هائجَ

النفس دائماً : « يا لحُسْن المكان ! يُخَيَّلُ إلىَّ أننى أرى جَنَّةَ أَلْسِينُوس » ، وتُرِيدُ البنت أن تَعْلَمَ من هو أَلْسِينُوس ، وتسأل الأمُّ ، وأقُول : « كان أَلْسِينُوسُ ملكَ كُورْسِيرَ الذى وَصَفَ أُومِيرُسُ حديقتَه وانتقدها رجالُ الذوق لكثرة بساطتها وقلة زينتها[1] ، وكان لأَلْسِينُوسَ هذا ابنةٌ لطيفةٌ تَلَقَّى غَرِيبٌ قِرًى من أبيها ، فرأتْ فى منامها ، قَبْلَ ذلك بليلةٍ ، أنها ستتزوّج عما قليل » ، وتُبْهَتُ صُوفيةُ ، ويَحْمَرُّ وجهها ، وتَكْسِر من طَرْفها ، وتَعضُّ بنانَها ، ويَبْدُو من اضطرابها ما لا يُتَصَوَّر ، ويَرُوقُ الأبَ أن يَزِيد ارتباكَها ، فيتناول الحديثَ ويقول إن الأميرة الفتاة كانت تذهب إلى النهر لتَغْسِل البَيَاضاتِ بنفسها ، ويداوم على الحديث بقوله : « أوَ تَظُنُّون أنها كانت تَزْدرى مَسَّ الخِرَق القَذِرة قائلة إن رائحة الصراصير تنتشر منها ؟ » ، وتَنْسَى صُوفية ، التى تُوجَّهُ إليها الطعنةُ ، حياءها الطبيعىَّ وتَعتذر بحماسة ، ويَعْرِف أبوها جيداً أنه لا يُوجَدُ غيرُها من يَغْسِلُ البَياضاتِ الصغيرةَ إذا ما

(١) « إذا ما خرجتم من القصر أبصرتم حديقة واسعة مؤلفة من أربعة أفدنة ، مسيجة من جهاتها الأربع ، مغروسة فيها أشجار كبيرة مزهرة ، فتنتج كمثرى وتفاحاً ورماناً وفواكه أخرى من أطيب الأنواع ، كما أنها تشتمل على أشجار تين ذات ثمر حلو ، وعلى أشجار زيتون ناضرة ، وما كانت هذه الأشجار الرائعة لتبقى بلا ثمر فى جميع السنة ، وفى الشتاء والصيف يوجب ما يأتى من الغرب من النسيم اللطيف ترنح الأشجار ونضج الثمار معاً ، ويرى ذبول الكمثرى والتفاح والتين مع الجفاف على الأشجار ، ويرى ذبول المناقيد على الدوالى ، ولا تفتأ الكرمة التى لا تنفد تحمل عنباً جديداً ، ويترك بعض العنب على الجرن لينضج ويتحول إلى زبيب تحت الشمس على حين يقتطف آخر منه ويترك على الكرمة ما لا يزال فى دور الازدهار أو ما لا يزال حصرماً أو ما يأخذ فى الاسوداد ، ويرى فى أحد الطرفين مربعان مزروعان جيداً مستوران بأزهار فى جميع السنة مزينان ببركتين يوزع ماء إحداهما فى جميع الحديقة ، ويساق ماء الأخرى ، بعد أن يقطع القصر ، إلى بناء قائم فى المصر ليسقى المواطنين » .

فذلك هو وصف حديقة ألسينوس الملكية فى الجزء السابع من الأوذيسة ، حيث لا ترى عرش ولا تماثيل ولا شلالات ولا خيام من أزهار ، وإن كان هذا لا يروق ذاك الشائب الحالم بأوميرس وأمراء عصره .

تُرِكَ لها القيامُ بذلك[1] ، وأنها تَقُوم بأعظمَ من هذا إذا ما أُمِرَتْ به ، وكانت ، فى أثناء هذا الكلام تنظُر إلىَّ من طَرْفٍ خَفِيّ مع قَلَقٍ لم أستطع أن أمنعَ معــه نفسى من الضَّحك قارنًا فى فؤادها البسيط ضُرُوبَ الذُّعْر الذى يَحْمِلُها على الكلام ، وكان من القَسْوة ما يَزِيدُ معه هذا الطيشَ بأن يسألَها ساخراً عن سبب حديثها عن نفسها ، وعن وجود علاقة بينها و بين ابنةِ أُلْسِينُوس ، ويعتريها خَجَلٌ وارتجافٌ فلا تَجْرُؤُ بَعْدَ ذلك على النُّطْق بكلمة ، ولا على النظر إلى أحد ، فيا أيتها الفتاة الفاتنة ! ليس هذا وقتَ التَّنَــكُّر ، فقد أظهرتِ نفسكِ على الرغم منك .

ولم يلبث هذا المنظر الصغير أن نُسِيَ أو ظَهَر أنه نُسِيَ ، ومن حُسْنِ حَظِّ صُوفية أن إميلَ وحدَه هو الذى لم ينتبه إلى ما وَقَع ، وتَدُوم النُّزْهة ، وقد شَقَّ على الفتيين، اللذين كانا بجانبنا فى البُداءة ، أن يُنظِّمَا نفسَهما وَفْقَ بُطْء سيرنا ، فهما يسبقاننا من حيث لا يَشْعُران ، ويتدانيان ويتقاربان فى آخر الأمر ، ونراهما على شىء من البُعْدِ أمامنا ، وتَظْهَرُ صُوفيةُ مُنْتَبِهةً رَزِينةً ، ويتكلم إميــلُ مع نشاطٍ فى الحركات ، ويَلُوح أن الحديث لا يُورِثُهما ملالاً ، ونَعُود بعد ساعة تامة ، ونناديهما ، ويأتيان ، ولكن مع بُطْء بدَوْرِهما ، ويُرَى أنهما يقضيان وقتاً مُمتعاً ، وأخيراً يَنقَطِع حديثُهما بغتةً قبل أن يَكُون سماعُه فى مُتَناوَلنا ، ويضاعِفان الخَطْوَ ليَلْحَقَا بنا ، ويَدْنُو إميلُ منا طليقَ الوجه لطيفَ المُحَيَّــا ، وتَلْمَع عيناه سروراً ، ومع

---

(١) أعترف بالجميل لأم صوفية التى لم تصنع ما تفسد به فى الصابون يدا صوفية الجميلتان اللتان سيقبلهما إميل كثيراً .

ذلك فإنه يُدِيرُها نحو أمٍّ صُوفية مع شيء من الجزَع ليَرَى كيف يكون قَبُولُها له ، ولا تَظْهَرُ صُوفْية في مثل تلك الطَّلاَقة ، وهي ، إذ تَدْنو ، تَلُوح مُرْتبكةً بظهورها مُخْتَلِيةً بفتًى ، وهي التي حدَث كثيراً أن وُجِدَتْ مع آخرين في مِثْلِ هذه الحال من غير أن ترتبك ، ومن غير أن تُرَى في وَضْعٍ سَيِّئٍ مطلقاً ، وتَسِيرُ عَدْواً إلى أمِّها ، وتقول ، وهي تَلْهَثُ قليلاً ، بعضَ ألفاظٍ لا تَدُلُّ على كبيرِ شيء ، وذلك كما لو كانت تَدُلُّ على وجودها هناك منذ وقتٍ غير قصير .

ويَظْهَرُ من طَلاَقة مُحَيًّا هذين الفَتَيَيْن اللطيفين أن هذا الحديثَ ألقى حِمْلاً ثقيلاً عن قَلْبَيْهما الفتِيَّيْن ، وليس أقلَّ من هذا تَحفُّظُ كلٍّ منهما نحو الآخر ، غير أن تحفُّظَهما أقلُّ ارتباكاً ، وقد عاد هذا التحفظ لا يَصْدُر عن غير احترام إميل وحياء صُوفية وعن صلاح الاثنين ، أَجَلْ ، إن إميلَ يَجْرُؤُ أن يُوَجِّه إليها بعضَ الكلمات ، وإنها تجْرُؤُ على الجواب أحياناً ، بَيْدَ أنها لا تَفْتَح فَمَها للجواب من غير أن تَنْظُر إلى أمِّها ، وأكثرُ ما يُشْعَرُ به من تَغَيُّرٍ فيها ، كما يَلُوحُ ، هو شعورُها نحوى ، وهي تُظْهِرُ لى أعظمَ احترام ، وهي تَنْظُر إلىَّ باهتمام ، وهي تُكلِّمنى بمَوَدَّة ، وهي تَبْذُل جُهْدَها للوقوع منى موقعَ الرِّضا ، وأرى أنها تُكرِمُنى عن تقديرٍ منها وأنها ليست ممن لا يبالى بِنَيْل تقديرى ، وأُدْرِكُ أن إميلَ حدَّثها عنى ، فيُمْكِن أن يقال إنهما تآمَرَا على الفَوْز بى ، ومع ذلك فليس الأمرُ كذلك ، فليست صُوفية نفسُها ممن يُنَال بسرعةٍ ، ومن المحتمل أن يكون إميلُ محتاجاً إلى زُلْفاى عندها أكثر من زُلْفاها عندى ، ويا لهما من اثنين فاتنين ! ...

إنى أتمتع بجائزة عنائى حينما أُبْصِرُ أن ما لدى صديقى الشابِّ من فؤادٍ حسَّاسٍ قد أدخلنى كثيراً إلى أول حديثٍ بينه و بين خليلته ، فلى بصداقته كلُّ مكافأة .

وتُكرَّرُ زياراتُنا ، ويصير ما يَدُور بين الفتيين من أحاديثَ أكثرَ وقوعًا ، ويَبلُغ إميلُ من تَمَلُّل الحُبِّ ما يعتقد معه أنه يَلمِسُ سعادتَه ، ومع ذلك فإنه لا يَظفَر باعترافٍ صريح من صُوفية ، فهى تُصْغِى إليه ولا تقول له شيئاً ، ويَعرِف إميلُ جميعَ حيائها ، ولذلك فإنه لا يُدْهَشُ من صمتها إلاَّ قليلاً ، وهو يَشعُر بأنه ليس سيئَ الوَضْع عندها ، وهو يَعرِف أن الآباء هم الذين يُزَوِّجون الأولاد ، وهو يَفترِض أن صوفية تنتظر أمراً من والديها ، فيَطلُب منها أن تَسمَح له بأن يَلتمسه ، فلا تُمارِض فى هذا ، ويخاطبنى إميلُ فى الموضوع ، وأتكلَّم باسمه ، حتى حين حضوره ، ويا لَدَهَشه إذْ عَلِم أن أمرَ صُوفيةَ بيدها وأنه ليس عليها إلاَّ أن تُرِيدَه حتى تجعَلَه سعيداً ! ويأخذ فى عدم إدراك شىء من سلوكها ، وتَنقُص ثقتُه ويُذْعَرُ ، ويُبْصِرُ أنه أقلُّ تقدُّمًا مما كان يَنتظِر ، وهنالك يَستعمل الغرامُ الأرقُّ لغتَه الأعظمَ تأثيراً حتى تَلِين صُوفية .

ولم يُصْنَعْ إميلُ ليتنبَّأَ بما يضرُّه ، وهو إذا لم يُخْبَرْ به لم يَعرِفه فى جميع أيامه ، وصُوفيةُ فخورٌ كثيراً بأن تُنْبِئَه إياه ، وما يَعُوقُها من مصاعبَ تَعُدُّها غيرُها عاملَ استعجالٍ ، وهى لم تَنسَ دروسَ والديها ، وهى تَعلَمُ أنها فقيرةٌ وأن إميلَ غنىٌّ ، وما أكثر احتياجَه إلى جعلها تُقَدِّرُه ! وأيةُ مزيةٍ لا بُدَّ له منها حتى يَمْحُوَ هذا التفاوت ! ولكن كيف تخطُر بباله

هذه العوائق ؟ وهل يَعْرِف إميلُ أنه غنىٌّ ؟ وهل يتنازلُ فيَسْتَعْلِمَ عنها ؟ حَمْداً لله على أنه غيرُ محتاج إلى الثراء مطلقاً ، فهو يَعْرِف أن يكون محسناً بلا غِنًى ، وهو يَسْتَخْرِج الخيرَ الذى يَصْنَعُ من قلبه لا من جَيْبِه ، وهو يَبْذُل للبائسين وقتَه وجهودَه وعواطفَه ونَفْسَه ، وهو لا يكاد يَجْرُؤُ فى تقدير حُسْنَيَاته على حساب المال الذى أنفقه على الفقراء .

وبما أنه لا يَعْرِف وجهاً لِلَّوْم على بَلْواه فإنه يَعْزُوها إلى خطأٍ منه ، وذلك لأنه من يَجْرُؤُ على اتهام مَوْضِع عبادته بالشذوذ ؟ ويَزِيدُ خِزْىُ حبٍّ الذات حَسَراتِ الغرامِ المصروفِ بغلظة ، وعاد لا يَدْنُو من صُوفية بذلك الاعتياد المُسْتَحَبِّ لقلبٍ يَشْعُرُ بأنه جديرٌ به ، ويكون جَزُوعاً مرتجفاً أمامها ، وعاد لا يأمُل أن يَلْمِسها بالرقة ، وإنما يحاول أن يُلِينَها بالاستعطاف ، وينفَدُ صبرُه أحياناً ، فيكاد يُغاضِبُ ، ويَلُوح أن صُوفية تَشْعُر بما يساوره من أحاسيسَ فتنظرُ إليه ، وهذه النظرةُ وحدَها هى التى تُسَكِّنُ غضبَه وتُلْقِى فيه الرُّعْبَ ، فيكون خاضعاً أكثرَ من قبل .

ويُكَدِّر صفوَه بهذه المقاومة القائمة على العناد وبهذا السكوت الذى لا يُقْوَى عليه ، فيفتح قلبَه لصديقه ، ويُودِعُ صديقَه آلامَ فؤاده المكلوم كَرْباً ، ويَضْرَعُ إليه أن يُعِينَه وأن يَنْصَحه ، ويا له من سِرٍّ خَفِيٍّ ! « هى تكترث لنصيبى ، ولا يُمْكِنُنى الشكُّ فى هذا ، ومن البعيد أن تبتعد عنى ، ويَرُوقُها أن تكون معى ، وتُبْدِى سرورَها عند وصولى ، وتُظْهِر أسفَها عند انصرافى ، وتتلقى عنايتى بلطف ، ويَلُوح أن خِدَمى تقع منها موقعَ القبول ، وتتفضَّلُ فتَخْبُونى بآراء ، حتى إنها تُصْدِرُ إلىَّ أوامرَ

فى بعض الأحيان ، ومع ذلك فإنها تَرُدُّ التماسى ورجائى ، وإذاما جرؤتُ على الكلام حَوْلِ القِرَان ألزمتنى بالسكوت قَسْراً ، وإذا ما أضفتُ كلمةً تركتنى فَوْراً ، وبأىٍّ حَقٍّ عجيبٍ تُرِيدُ أن أكون لها من غير أن تُرِيدَ إسماعى كلمةً عن كَوْنها لى ؟ تَكَلَّمْ واحْمِلْها على الكلام ، أنت الذى تُجِله وتُحِبُّه ولا تَجْرُؤُ على إسكاته ، واخْدُم صديقَك ، وأكْمِلْ عملَك ولا تَجْعَلْ جهودَك شؤماً على تلميذك ، آه ! إنك إذا لم تُتِمَّ سعادتَه كان ما اكتسبَ منك سببَ شقائه » .

وأكَلِّم صُوفية ، وأنْزِعُ منها مع قليلِ جهدٍ سِرًّا كنتُ أعْرِفُه قَبْلَ أن تقوله لى ، وأصْعَبُ من هذا نَيْلِي منها إذناً فى إطلاع إميلَ عليه ، وأفُوزُ به أخيراً وأعْمَلُ وَفْقَ مقتضاه ، ويُلْقِيه هذا الإيضاحُ فى دَهَشٍ لا يُمْكِن أن يُشْفَى منه ، وهو لا يُدْرِكُ شيئاً من هذه الدِّقة ، وهو لا يتصور ما قد يكون للدنانير ، قليلةً كانت أو كثيرةً ، من عَمَلٍ فى الخُلُقِ والمزية ، ولَمَّا أسمعتُه بما يكون لها من فِعلٍ فى مُبْتَسَراتِ الناس أخذ يضحك ، وقد تَهَلَّل وجهُه سروراً فأراد أن يذهب من فَوْره ليُمَزِّق كلَّ شيء ويَرْمِيَ كلَّ شيء ويَعْدِلَ عن كلِّ شيء نَيْلاً لشرف الفقر مِثْلَ صوفية وكَيْماَ يَعُودُ ليكونَ زوجَها .

وأَقِفُه ، وأقولُ له ضاحكاً بدَوْرِى من اندفاعه : « ماذا ! ألا يَنْضَجُ هذا الرأسُ الفَتِيُّ مطلقاً ؟ أَلَا تتعلَّمُ التَّعَقُّلَ ، مطلقاً ، بعد أن تَفَلْسَفْتَ فى جميع حياتك ؟ وكيف لا تَرَى أنك ، باتباعك خِطَّتَك السخيفةَ ، تكون قد زِدْتَ حالَك سوءاً وجَعَلْتَ صُوفية شَمُوساً ؟ ومن المفيد بعضَ

الفائدة أن يكون عندك من المال أكثرَ مما عندها ، ومن العظيم جِدًّا أن تُضَحِّيَ بجميعه من أجْلِها ، وإذا كانت من الزهْو ما لا تُطِيقُ معه أن تكون مدينةً لك بإحسانٍ قليل فكيف تَحْتَمِلُ أن تكون مدينةً لك بفضلٍ كبير ؟ وإذا كانت لا تُطِيقُ إمكانَ تعيير الزوجِ إياها بأنه أغناها فهل تَحْتَمل إمكانَ تعييره إياها بأنه افتقر فى سبيلها ؟ ويا أيها التَّعِسُ ! احترزْ من أن يَلُوحَ لها أنك تُفَكِّرُ فى هذه الخطّة ، وعلى العكس كُنْ مقتصداً يَقِظاً حُبًّا لها ، وذلك خشيةَ أن تَتَّهِمَك بأنك تريد نَيْلَها بالحيلة ، وبأنك تُضَحِّى طَوْعًا بما ستُبَذِّرُه إهمالًا .

« وهل تعتقد أن الأموال الكبيرة تُخِيفُها حقيقةً ، وأن معارضاتِها تنشأ عن الثَّرَوات ضَبْطاً ؟ كلاً ، يا إميلُ العزيز ، إن لمعارضاتها سبباً أكثرَ قوةً وأعظمَ شِدَّةً بالأثر الذى تُوجبه هذه الثَّرَواتُ فى نَفْسِ صاحبها ، وهى تَعْرِف أن جميع منافع الثَّرَاء مُفَضَّلةٌ على كلِّ شىء عند من هم حائزون لها ، وجميعُ الأغنياء يَعُدُّون الذهب قبل المَزِية ، وإذا ما وُضِعَ المال بجانب الخِدَم وَجَدُوا ، دائماً ، أن الخِدَم لا تُوفِى المالَ حقَّه مطلقاً ، وظَنُّوا أن مَنْ قَضَوْا حياتَهم فى خِدْمتهم آكلين خبزَهم مدينون لهم بالبقية ، ولذا فما عليك أن تَعْمَلَ ، يا إميلُ ، لتسكين مخاوفها ؟ دَعْها تَعْرِفُك جيداً ، وليس هذا عملَ يومٍ واحد ، وأثبتْ لها أن فى كُنُوز روحك الكريم ما يوازن ثراءً كان من سوء حَظِّك نَيْلُك إياه ، وتَغَلَّبْ على مقاومتها بالثبات ومع الزمن ، واجْعَلْها تَنْسَى ثَرَاءَكَ بمشاعرك الجليلة النبيلة ، وأحِبَّها ، واخْدِمْها ، وقُمْ بخدمة والديْها المحترميْن ، وأقِمْ لها الدليلَ على أن

هذه العناياتِ ليست نتيجةَ هَوًى سَعِرٍ عابر ، بل هى مبادئُ لا تُطْمَسُ منقوشةٌ فى صميم فؤادك ، وبَجِّلْ ما يُهِينه الثراء من مزيةٍ تبجيلاً لائقاً ، فهذه هى الوسيلةُ الوحيدة لمسالمة المزية التى تُعزُّها » .

ويُدْرَكُ مقدارُ الفرح الذى يوجبه هذا الكلام فى الفَتَى ، ومقدارُ ما يُورِثه إياه من ثقةٍ وأمل ، ومقدارُ ما يَسْتَبْشِر به فؤادُه الشريف فيما يَصْنَعُ ليَقَعَ موقعَ القبول عند صُوفية ، أو فيما يَصْنَعُ من تلقاء نفسه عند عدم وجود صُوفية ، أو عند ما لا يكون عاشقاً لها ، ومهما يَكُنْ من قلةِ إدراكٍ لخُلُقه فمَنْ ذا الذى لا يَتَصَوَّرُ سلوكَه فى مثل هذه الحال ؟

وها أنا ذا ، إذَنْ ، نَجِيُّ فَتَيَّ الصالحيْن وواسطةُ حُبِّهما ! ويا له من صُنْعٍ رائع يَقُوم به المُرَبِّى ! وقد بَلَغَ هـذا العمل من الجمال ما لم أصنعْ معه فى حياتى شيئاً رفعنى فى عينيْ نفسى بهذا المقدار وجَعَلَنى راضياً عن نفسى بهذا المقدار ، ومع ذلك فإن لهذا العمل ملاذَّه ، وذلك أننى لم أقْبَلْ فى المنزل قبولاً سيئاً ، وأنه أُرْكِنَ إلىَّ فى إمساك العاشقيْن ضِمْنَ النظام ، فلم يَظْهر إميلُ ذَلُولاً ظُهُورَه فى هذه المرة مرتجفاً دائماً من إمكانِ عدم وقوعه موقعَ الرِّضا ، وقد غَمَرَتنى الفتاةُ بصداقةٍ صادقة لا أتناول غيرَ حِصتى منها ، وهكذا فإنها تُعَوِّضُ نفسَها تعويضًا غيرَ مباشرٍ من شِدَّةٍ تُخِيفُ بها إميلَ ، وهى تَقُوم له فى شَخْصِى بألفٍ وُدٍّ رقيقٍ مُفَضِّلَةً الموتَ على إبدائه له بنفسه ، وهو يَعْرِف أننى لا أُريد الإضرارَ بمصالحه فيَسُرُّه أن أكون على وِئامٍ معها ، وله سُلْوانٌ ، عنـد رفضها ذراعه فى أثناء النُّزْهة ، بأن يقوم هذا الرفضُ على ترجيحها ذراعى ، وهو

يَبْتَعِدُ من غير أن يتذمَّر مصافحاً إياى قائلاً لى مخافتًا بالصوت والعين : « تَــكَلَّمْ من أجْلِي يا صديقى » ، وهو يَتْبَعُنا بعينيه مع الاهتمام ، وهو يحاول أن يقرأ مشاعرنا على وَجْهنا وأن يُفَسِّرَ كلامَنا بحركاتنا ، وهو يَعْرِف أنه لا شىء فيما يَدُور بيننا من حديثٍ خارجٌ عن نِطاق الاكتراث له ، ويا صُوفية العزيزة ، ما أكثرَ ما يَكُونُ فؤادُك المخلصُ مرتاحًا عند ما يُمْــكِنُكِ أن تحادثى مُرْشِدَ تِلِمَاكَ من غير أن يَسْمَعَك تِلِمَاك ! ويا لسلامة الطَّوِيَّة التى تَدَعينه يقرأ بها فى هذا القلب الحَنُون جميعَ ما يَدُور فيه ! ويا لَلَذَّة التى تُطْلِعينه بها على ما تَحْمِلين من إعزازٍ جامع لتلميذه ! ويا للإخلاص المؤثِّر الذى تَدَعينه يَنفُذُ به أحلى المشاعر ! ويا لَتَــكَلُّفِ الغضبِ فى صَرْف اللَّجُوج عند ما يَحْمِلُه عدمُ الصبر على قَطْع حديثك ! ويا لتــكلُّفِ الأسف الفاتن الذى تَلُومينَه به على عدم الرَّصانة عند ما يجىء لمنعك من قَوْلِ الخير عنه وسماعه عنه مستخرجةً من أجوبتى دائمًا سبباً جديداً لحُبِّه !

وهكذا فإن إميل بَلَغَ مرحلةً أُذِنَ له فيها أن يتخذ وضعَ العاشق المعروف فصار يتمتع بجميع حقوقه فيتكلم ويُلِحُّ ويلتمس ويُلْحِف . وصار لا يبالى أن يخاطَب بشــدَّةٍ وأن يعامَل بسوء على أن يسْمع ، وأخيراً يَحْظَى ، ولــكنْ مع صعوبةٍ ، بأن تتفضَّل صُوفية ، من ناحيتها ، فتَنْتَحِل سلطانَ الخطيبة جَهْراً ، فتُمْلِيَ عليه ما يجب أن يَفْعل ، وتأمرَه بدلًا من أن تَرْجُوَ منه ، وتَقْبَلَ بدلًا من الشُّــكر ، وتُنَظِّمَ عدد الزيارات وأوقاتَها ، وتمنعَه من المجىء حتى اليومِ الفلانىِّ ومن البقاء بعد الساعةِ الفلانية ، ولم

يُصْنَعْ بجميعُ هذا عن لَهْوٍ ، بل عن جِدٍّ بالغ ، وهى إذا كانت قد قَبِلَتْ هذه الحقوقَ بصعوبة فإنها تُبْدِى من التدقيق فى استعمالها ما يَجْعَلُ إميلَ المسكينَ يأسَفُ ، فى الغالب ، على منحها إياها ، ولكنها مهما تأمرْ لا يتأخرْ عن الامتثال ، ومما يَحْدُثُ ، غالباً ، أنه إذا ما ذهب عن إطاعةٍ نَظَرَ إلىَّ بعينين طافحتين سروراً قائلتين لى : « إنها مَلَكتنى كما ترَى » ، ومع ذلك فإن صُوفية المُخْتَالة تَنْظُرُ إليه من طَرْفٍ خَفِيٍّ ، وتَبْتَسم سرًّا من زَهْوِ عبدها .

أعيرانى ، يا أَلْبَانُ ويا رَفائيلُ ، ريشةَ اللذة ! وعَلِّمْ قلمىَ الغليظَ ، يا مِلْتُونُ السماوىُّ ، مَلَاذَّ الحبِّ والعَفَاف ! ولكنْ كلاًّ ، أَخْفُوا فنونَكم الكاذبة أمام حقيقة الطبيعة المقدَّسة ، وكُونوا ذوى قلوبٍ حَسَّاسة ونفوسٍ شريفةٍ ، ثم دَعُوا خيالَكم يجُول بلا قَسْرٍ حَوْلَ هِيَام العاشقيْن الشابَّيْن اللذين يُسْلِمان نفسَهما على أعين والديْهما ومُرْشديهما ، ومن غير كَدَرٍ ، إلى الوهم العَذْب الذى يَفْتِنُهما ، وهما إذْ يتقدمان ، فى نشوة الرغائب ، إلى الغاية على مَهْلٍ يَشْبِكان بالأزهار والأكاليل تلك الرابطةَ السعيدةَ التى يجب أن تَجْمَع بينهما حتى القبر ، وهنالك صُوَرٌ ساحرة تُسْكِرُنى ، وأَجْمَعُها بلا ترتيب ولا نظام ، وما تُوجبه من هَذَيانٍ فىَّ يَحُول دون ربط بعضها ببعض ، وَىْ ! من ذا الذى يكون ذا قَلْبٍ ولا يستطيع أن يَصْنع فى نفسه لوحةً لطيفةً لمختلف الأوضاع التى يتخذها الأبُ والأمُّ والبنت والمربِّى والتِّلميذ ، ولِتَعاوُنِ هؤلاء على قِرَانِ أكثر الأزواج فُتُوناً فيُمْكِن الحبَّ والفضيلةَ أن يُسْفِرَا عن سعادتهما ؟

والآن ، حين صار إميلُ يبادر إلى الوقوع موقعَ القبول في الحقيقة ، أخَذَ يَشْعُر بقيمة المواهب اللطيفة التي حُبِيَ بها ، وتحِبُّ صُوفيةُ الغِناء فيُغَنِّي معها ، ويَفْعَل أكثرَ من هذا ، أي يُعَلِّمُها الموسيقا ، وهي نشيطةٌ رشيقة فتحبُّ الوثوب ، وهو يَرْقُص معها ، ويُحَوِّل وَثَباتها إلى خُطاً ، ويَسيرُ بها نحو الإتقان ، وهذه الدروس فاتنةٌ ويُنْعِشُها المَرَحُ اللَّعُوب الذي يُلَطِّفُ حُرْمةَ الحبِّ القائمةَ على الحياء ، ويُباح للعاشق أن يُعطِيَ هذه الدروسَ مع اللذة ، ومن المباح أن يكون العاشق أستاذَ خطيئته .

ويُوجَدُ بِيانٌ قديم مختلٌّ تماماً ، ويُصْلِحُه إميلُ ويُهَيِّئُه ، وإميلُ صانعٌ ومصحِّحٌ للآلات الموسيقية كما أنه نجارٌ ، ويَقُوم مَبْدؤه الدائم على تَعَلُّم الاستغناء عن عَوْن الآخرين في كلِّ ما يستطيع عملَه بنفسه ، ويقَعُ المنزل في موضع رائع ، فيَرْسُم له عدة صُوَرٍ فتَضَعُ صُوفيةُ يدَها عليها أحياناً وتُزَيِّن بها غرفةَ أبيها ، وليست أُطُرُ هذه الصور مزخرفةً مطلقاً ، وهي غيرُ محتاجة إلى الزخرفة ، وهي تتكامل إذْ ترَى إميلَ يَرْسُم فتُقَلِّدُه ، وهي تُثَقِّف جميعَ مواهبها على مِثال إميل ، ويُزَيِّن فُنُونُها جميعَ ما تصنع ، ويذْكُر أبوها وأمُّها سابقَ يُسْرِهما حينما يشاهدان حَوْلَهما ثانيةً إشراقَ الفنون الجميلة التي تُنْعِمُ وحدَها على الثَّرَاء بقيمة ، وقد جَمَّلَ الحبُّ جميعَ منزلهما ، والحبُّ وحدَه هو الذي أوجب ، بلا نفقةٍ ولا مشقةٍ ، تَجَلِّيَ ذاتِ الملاذِّ التي كانا لا يَجْمَعانها فيه سابقاً إلاَّ بالمال والمَلاَل .

ويُحِبُّ العاشقُ إحاطةَ الكمالِ بصاحبته فيُرِيدُ إضافةَ زخارفَ جديدةٍ إليها بلا انقطاع ، شأنُ الوثنيِّ الذي يُزَوِّق من الذخائر ما يُقدِّر

أنه موضعُ عبادته ويُجَمِّلُ فوق المذبح الإلَهَ الذى يَعْبُد ، والصاحبةُ لا تحتاج إلى شىء من ذلك لتَرُوقَه ، وإنما هو يحتاج إلى تزيينها ، وهذا إكرامٌ جديدٌ يَرَى أنه يقوم به نحوَها ، وهذا اهتمامٌ جديدٌ يَنْفَحُ به لذةَ مشاهدتها ، ويَلُوح أنه لا شىء جميلَ يكون فى موضعه إذا لم يُزَيِّن الجمالَ الأسْمَى ، ومن المناظر المؤثِّرة المضحكة معاً أن يُرَى إميلُ وهو يبادرُ إلى تعليم صُوفية جميعَ ما يَعْلَم ، وذلك من غير أن يَنْظُر هل يلائم ذوقَها ما يُرِيد تعليمَها إياه ، أو هل هذا الأمرُ يناسبها ، وهو يُحَدِّثها عن كلِّ شىء ، وهو يُوضِحُ لها كلَّ شىءٍ بنشاطٍ صبيانىّ ، وهو يَظُنُّ أن عليه أن يَتَكَلَّم ، فتَفْقَهُ ما يقول من فَوْرِها ، وهو يَتَمَثَّلُ مقدَّماً ما يَتَّفِقُ له من لذةٍ فى البرهنة والتَّفَلْسُفِ معها ، وهو يَعُدُّ من الأمور غيرِ المُجْدِية كلَّ شىء حَصَّلَه فلا يستطيع عَرْضَه على عينيها مطلقاً ، ويَحْمَرُّ وجهُه خجلاً تقريباً من معرفته شيئاً لا تَعْرِفه .

وها هو ذا ، إذَنْ ، يُلْقِى عليها درساً فى الفلسفة والفيزياء والرياضيات والتاريخ ، وكلِّ شىء آخرَ ، وتُرَاعيه صُوفيةُ فى غَيْرَته طَيِّبَةَ الخاطر ، وتحاول الاستفادةَ منه ، وما أكثرَ ما يَطيبُ لإميلَ أن تَسْمَح له بأن يُلقِىَ دروسَه عليها وهو جاثٍ أمامها ! فهو يَعْتَقِد أن السماواتِ قد فُتِّحَتْ أبوابُها ، ومع ذلك فإن هذا الوضعَ الذى هو أكثرُ مضايقةً للتِّلميذ مما للمعلِّم ليس أكثرَ ما يناسِب التعليم ، وذلك لأنه لا يُعْرَف حينئذٍ ما يَصْنَعُ أحدُهما بعينيه اجتناباً للعينين الأُخريين اللتين تَتَعَقَّبانهما ، فإذا ما تلاقت العيونُ لم يَسِرِ الدرسُ سيراً حسناً .

أجَلْ ، إن فنّ التفكير ليس غريباً عن النساء ، بَيْدَ أنه لا ينبغى لهن أن يَصْنَعْنَ غيرَ لَمْسِ العلوم العقلية لَمْساً خفيفاً ، وتَفْهَمُ صُوفيةُ كلَّ شىء ، ولا تَحْفَظُ كبيرَ شىء ، وأعْظَمُ ما يَكُون تقدُّمُها فى علوم الأخلاق وأمورِ الذوق ، وأما الفيزياء فلا تَحْفَظُ منها غيرَ قليلٍ من النواميس العامة ونظام الكون ، ومما يَحْدُثُ فى أثناء نُزَهِهما ، أحيانًا ، أن يتأمَّلا عجائبَ الطبيعة فيجرُؤُ فؤادُهما البرىء على الارتقاء إلى صانعها ، فهما لا يَخْشَيان حضورَه ، وهما يَبُوحَان بأسرار قلبهما أمامه .

ماذا ! عاشقان فى زهرة العُمُر يَبْحَثان فى الدين على انفراد ، ويَقْضِيان وقتَهما فى الكلام حَوْل كتابهما فى الدين ! وما فائدة الحَطِّ مما هو عالٍ ؟ أجَلْ ، لا رَيْبَ ، إنهما يتكلَّمان حَوْله حين سبْحِهما فى الخيال الذى يَفْتِنُهما ، فيَرَيَان أنهما كاملان ، ويتحابَّان ، ويتحادثان بحماسةٍ فيما يَجْعَلُ للعَفَاف قيمة ، وما يَبْذُلان فى سبيله من تضحيات يَجْعَلُه عزيزاً عليهما ، وهما فى أثناء الهِيَاج الذى يَجِبُ أن يَتَغَلَّبا عليه يَسْكُبان فى بعض الأحيان من الدموع ما هو أصفى من نَدَى السماء ، فتَكُون هذه العَبَرَاتُ الحُلْوة فتنةَ حياتهما ، وذلك أنهما يكونان فى أعظم ما تُبْتَلَى به نفسٌ بشرية من هذيانٍ ساحر ، ويَزِيدُ حِرمانُهما نفسُه فى سعادتهما ويُشَرِّفُ تضحيتَهما فى أعينهما ، أجَلْ ، إنهما سيَعْرِفان ملاذَّ كما ذاتَ يومٍ أيها الناسُ ، أيتها الأبدانُ بلا روح ، فيأسفان مَدَى حياتِهما على الأوقات المباركة التى امتنعا فيها عن التمتع بهذه الملاذِّ !

ومع ما هو واقعٌ بينهما من اتفاقٍ رائع فإنه يَحْدُث بينهما فى الحين بعد الحين خلافٌ ، ونزاعٌ أيضاً ، فليست الصاحبةُ بلا جِماحٍ ، وليس العاشقُ

بلا حِدَّة ، غير أن هذه العواصفَ الصغيرة تَمُرُّ بسرعةٍ ولا تؤدى إلى غير تثبيت الاتحاد ، حتى إن التجربة عَلَّمت إميلَ ألاَّ يخشاها ، فالإصلاحُ فى كلِّ وقتٍ أنفعُ له من شقاقٍ يَخْسَرُ به ، وما كان للخلاف الأول من نتائجَ جَعَلَه ينتظر نتيجةً مماثلةً من جميع الخلافات ، أَجَلْ ، إنه مخطئٌ فى هذا ، ولكنه ، حتى عند عدم نَيْلِه فائدةً ظاهرةً كتلك دائماً ، يكون له كَسْبٌ دائمٌ بما يَرَى من توكيد صُوفية لاهتمامها بحُبِّه ، ويُرَادُ أن تُعْرَف هذه الفائدة ، وهذا ما أَقُوم به مختاراً ما دام هـذا المثال يُتِيحُ لى فرصةَ عَرْض مبدأٍ مفيدٍ جدًّا وفرصةَ مكافحة مبدأٍ كثيرِ الشُّؤْم .

وإميلُ يُحِبُّ ، ولِذَا فهو ليس مغامراً ، وأحسنُ من هذا تمثُّلاً أن يُدْرِك أن صُوفية الآمرة ليست بالفتـاة التى تَمُنُّ عليه بأُلْفَاتٍ ، وبما أن للحكمة حَدَّها فى كلِّ شىء فإن صُوفية تُنْسَبُ إلى الشِّدَّة أكثرَ ممـا إلى المُسَاهلة ، حتى إن أباها يَخْشَى ، فى بعض الأحيان ، أن يتحوَّل زهوُها المتناهى إلى كبرياء ، وما كان إميلُ فى أكثر الخَلَوَات خفاءً ليلتمس من الألطاف حتى أخفَّها ، ولا ليَظْهَرَ بمَظْهر الراغب فى ذلك أيضاً ، وهى إذاما تَفَضَّلَتْ فى أثناء النُّزْهة بأن تَجْعَـل ذراعَها تحت ذراعه لم يَنِمَّ هـــذا على تغييرٍ فى الحقوق ، فلا يكاد ، أحياناً ، يَضْغَط بذراعها صدرَه تَلَهُّفاً ، ومع ذلك فإنه يخاطِرُ بَعْدَ حَصْرٍ طويل فيُقَبِّلُ ثوبَها خِفْيَةً ، وما أكثرَ ما يكون سعيداً إذا ما مَنَّتْ عليه بعدم التفاتها إلى ذلك ، وإذا حَدَث ، ذاتَ مرةٍ ، أن أراد انتحالَ ذاتِ الحرية بشىءٍ من العلانية عَنَّ لها أن تَجِدَه سيئاً جِدًّا ، ويُصِرُّ ، وتَغْضَبُ ، ويُمْلِي الغضبُ عليها بعضَ الألفاظ

اللاذعة ، ولا يحتملها إميلُ بلا جواب ، فتمرُّ بقيةُ النهار مُنَغَّصَةً ، ثم يفترقان مستاءين .

وتَغتَمُّ صوفية على مَهلِها ، وأمُّها نَجِيَّةٌ لها ، وكيف تكتم عنها كَرْبَها ؟ وهـذا أولُ شقاقٍ وقَع بينهما ، وشقاقُ سـاعةٍ أمرٌ جَلَلٌ ! وتَنْدَم على ما صَدَر عنها من خطأٍ ، وتأذَنُ أمُّها لها فى إصلاحه ، ويأمرُها أبوها بإصلاح ذاتِ البَيْن .

وفى الغد يَعُود إميلُ هَلُوعاً قبل الساعة المعتادة ، وتكون صوفيةُ فى مَخْدَع أمِّها ، ويَكُون أبوها فى هذه الغرفةِ أيضاً ، ويَدْخُل إميلُ محترِماً ، ولكنْ مكتئباً ، ولم يَكَد الأبُ والأمُّ يُسَلِّمان عليه حتى عادت صوفية وهى تُقَدِّمُ إليه يدَها وتسأله عن صحته ، ومن الجلِيِّ أن هذه اليـدَ الجميلة لم تُمَدَّ هكذا إلا لتُقبَّل ، ويتناولُها ولا يُقَبِّلُها ، وتستردُّها صوفية ، التى كانت على شىء من الخجَل ، بأقصى ما يُمكِنُها من اللطف ، وما كان إميـلُ ليَتَنَسَّى بسهولة ولا ليَهْدَأ بسرعة ، وإميـلُ هو الذى لم يُنشَأْ وَفْقَ أطوار النساء ، وإميلُ هو الذى لا يَعرِف وَجْهَ الحُسْنِ فى اتباع الإنسان هواه ، ويراها أبوها مرتبكةً فيُتِمُّ ارتباكَها بسُخْرِياتٍ ، ولا تَعرِف الفتاةُ المسكينة المضطربة الخجْلَى ما تَفعَل فتكاد تَبكِى ، وهى كُلَّما ضبطت نفسَها انتفخ قلبُها ، وأخيراً تُفلِتُ منها دمعةٌ على الرغم منها ، ويُبصِرُ إميلُ هذه العَبْرةَ فيبادر إلى صُوفية راكعاً ويتناول يدَها ويقبِّلُها غيرَ مرةٍ تقبيلاً مؤثِّراً ، ويقول الأب ضاحكاً : « حقًّا أنك رجلٌ طيبٌ جدًّا ، ولو كنتُ فى مكانك لكنت أقلَّ تسامحاً تجاه جميع هذه الحماقات ولعاقبتُ الفمَ الذى أهاننى » ،

ويَجْتَرِئُ إميلُ بهذه الكلمة فيُدِير عيناً ضارعة إلى الأمّ ، ويَظُنُّ أنه يُبْصِرُ إشارةَ موافقةٍ منها ، فيَدْنو مرتجفاً من وجه صُوفية التى تُدِيرُ رأسَها إنقاذاً لفَمِها فتَعْرِض خَدًّا وَرْدِيًّا ، ولا يكتفِي عادمُ الفطنة بهذا ، فالمقاومةُ ضعيفةٌ ، وأيةُ قُبْلةٍ تكون لو لم تُؤْخَذْ على مرأى من أُمِّها ! ويا صُوفيةُ الشديدة ، احترزى ، فسَيُطْلَبُ ثوبُكِ لِيُقَبَّل غالباً على أن تَرْفِضى ذلك أحياناً .

ويَخْرُج الأبُ لبعض الشؤون ، وتُرْسِلُ الأمُّ صُوفيةَ لبعض المعاذير ، ثم تُوَجِّه الكلامَ إلى إميلَ وتقول له جادَّةً :

« أظنُّ أن شابًّا حسنَ المولِدِ حسنَ المَنْشَأِ مِثْلَك ، أيها السيد ، فيكونُ صاحباً لمشاعرَ وأخلاقٍ ، لا يقابل بِهَتْكِ السِّتْرِ أُسْرَةً حَبَتْه بصداقتها ، ولستُ شَرِسةً مُفْرِطةً فى الاحتراس ، وأعْرِف جميعَ ما يُمْكِن أن يَمُرَّ على الشباب اللَّعُوب ، وما اصطَبَرْتُ عليه أمامى يُثْبِتُ لك ذلك بما فيه الكفاية ، وشاوِرْ صديقك فى واجباتك ، فهو سيُخْبِرُك بالفَرْق بين اللَّعِب الذى يُبِيحُه حضورُ الأب والأمِّ والحريةِ التى تُتَّخَذُ فى غيابهما مع إساءةِ استعمالِ لثقتهما وتحويلٍ إلى حبائلَ ما ليس غيْرَ طُهْرٍ فى حضرتهما من الألطاف عينِها ، وهو سَيُخْبِرُكَ ، أيها السيد ، بأنه لا ذَنْبَ لابنتى معك غيرُ كَوْنِها لم تَرَ منذ المرة الأولى ما لا ينبغى أن تعانِيَه مطلقاً ، وهو سَيُخْبِرُك بأن كلَّ ما يُعَدُّ من الألطاف هو من الألطاف وبأنه لا يليق برجل الشرف أن يسىء استعمالَ بساطةِ فتاةٍ فيَغْتصب سِرًّا عينَ الحرية التى يُمْكِنُها أن تعانِيَها أمام جميع الناس ، وذلك لأنه يُعْرَف ما يُمْكِن أن تسمح به اللياقةُ جَهْراً ، ولكنه يُجْهَل أين يَقِفُ فى ظِلِّ الخفاء ذاك الذى يكون

وحدَه قاضياً فى أهوائه » .

تتركنا هذه الأمُّ الحكيمةُ بعد قيامها بهذا اللوم الصائب الموجَّهِ إلىَّ أكثرَ مما إلى تِلميذى ، وتَدَّعِى مُعْجَباً بفطنتها النادرة التى تُعدُّ بها لَثْمَ فمِ ابنتها أمامها أمراً لا يؤبه له فتُذْعَرُ من الإقدام على تقبيل ثوب هذه البنت على انفراد ، وإنى حين أُنعِمُ النظر فى سخافة مبادئنا التى تُضَحِّى ، دائماً ، بالصلاح الحقيقىِّ باسم الحشمة أدركُ السبب فى أن اللسان يكون عفيفاً بنسبة ما تكون الأفئدة أكثرَ فساداً ، وفى أن الأوضاع تكون صحيحةً بنسبة ما يكون أصحابُها أكثرَ عدمَ استقامةٍ .

وإنى حين أُنفِذُ ، فى هذه النُّهْزَة ، فؤادَ إميلَ حَوْلَ الواجبات التى كان يجب أن أُمْلِيَها عليه يَرِدُ خاطرى فِكْرٌ جديدٌ يحتملُ أنه أكثرُ ما يكون تشريفاً لصُوفية ، فأحترزُ ، مع ذلك ، من إطلاع عاشقها عليه ، وذلك أن من الواضح أن ذاك الزهوَ المزعوم الذى تُلاَمُ عليه ليس غيرَ احتياطٍ بالغِ الحكمة لوقاية نفسها من نفسها ، فهى إذْ كانت من الشقاء ما تَشْعُرُ معه بمزاجها الملتهب ذُعِرَت من الشرارة الأولى فصرَفتها عنها بما أُوتِيَتْ من قوة ، وهى ليست شديدةً عن زهوٍ ، بل عن تواضع ، وهى تتخذ من السلطان على إميلَ عن خشيةٍ عدم اتخاذه نحو نفسها ، وهى تنتفع بسلطانٍ لمقاومةِ الآخر ، ولو كانت أكثرَ اعتماداً على نفسها لَظَهرَتْ أقلَّ زَهْواً ، وأيةُ فتاةٍ فى العالمَ تكون أكثرَ دَماثةً وأعظمَ لطفاً إذاما عَدَوْتَ هذه الناحية ؟ ومَنْ يكون أكثرَ احتمالاً للإهانة ؟ ومَنْ يكون أكثرَ فزَعاً من إهانة غيره ؟ وإذا عَدَوْتَ الفضيلةَ فمن يكون أقلَّ زَعماً ؟ ثُمَّ إنها

لا تَزْهو بفضيلتها ، وهى إذا ما زَهَتْ لم يَكُنْ هذا إلّا لحفظ فضيلتها ، ولو كانت تستطيع أن تَسْتسلم إلى مَيْلها بلا خَطَرٍ لَلاَطفتْ حتى عاشقَها ، ولكن أمَّها الرَّزانَ لا تَبُوح بهذه الجزئيات حتى إلى أبيها ، فلا يَنْبغى للرجال أن يَعْرِفوا كلَّ شىء .

وقد صارت صوفيةُ البعيدةُ حتى من الظهور بمظهر الفَخُور بنَصْرِه ، أكثرَ أُنساً وأقلَّ تَطَلُّباً تجاه جميع العالَمَ ، وذلك مع استثناء ذاك الذى أوجب هذا التحول على ما يحتمل ، وعاد حِسُّ الاستقلال لا يَنْفُخُ فؤادَها النبيل ، فهى تنال ، مع التواضع ، نَصْرًا يُكلِّفُها حريتَها ، وأصبحت أقلَّ طلاقةً فى الهيئة وأكثرَ حياء فى اللهجة منذ عادت لا تَسْمَع كلمةَ « العاشق » من غير أن يَحْمَرَّ وجهُها خجلاً ، بَيْدَ أن الرِّضا يَظْهَرُ من خلال ضِيقها ، وليس هذا الخجَلُ نفسُه شعوراً مُكَدِّراً ، وأكثرُ ما يكون الفارقُ في سلوكها تجَلِّياً هو عند اجتماعها بالطارئين من الشُّبّان ، فهى إذْ عادت لا تخشاهم زال كثيرٌ من سابق تَحَفُّظِها المتناهى نحوهم ، وهى إذْ قَطَعَتْ فى أمر اختيارها ظهرت مؤنسةً للأخْلياء من غير تردُّد ، وهى إذْ غَدَت أقلَّ تَشَدُّداً حَوْل مزيتهم منذ عادت لا تبالى بهم وجدتهم ، دائماً ، على شىء من اللطف لدى أُناسٍ لا يُعَدُّون عندها شيئاً غيرَ مذكور مطلقاً .

وإذا كان الحبُّ الحقيقىُّ يحتمل الدلالَ ظَنَنْتُ أننى أرى آثاراً له فى الوجه الذى تتصرف فيه صوفية مع أولئك فى حَضْرة عاشقها ، فيقال إنها لم تَكْتَف بالهوَى الحارِّ الذى تُلْهِبُه فيه بمزيجٍ لذيذٍ من الحِشْمة والملاطفة فصار لا يؤسِفُها أن تَزِيد هذا الهوى سعيراً بقليلٍ من الهمِّ ، ويقال إنها ،

حين تَسُرُّ ضيوفَها من الشبان عَمْدًا ، تقصِد أن تُعَذِّب إميلَ بألطافِ دُعابةٍ لا تُبِيحُ لنفسها أن تَصْنعها معه ، بَيْدَ أن صوفية هي من الانتباه والصلاح والحَصَافة ما لا تُعَذِّبه معه حقيقةً ، فالحبُّ والشرف يَقُومان مقام الفطنة في تلطيف ذاك المُغرِي الخطِر ، وهي تَعرِف أن تُذْعِرَه وتُسَكِّن رَوْعَه ، تمامًا ، عند الاقتضاء ، وهي إذا ما أورثته غَمًّا أحيانًا لم تُورِثْه حُزْنًا مطلقًا ، ولْنَغْفِرْ لها ذلك الهمّ الذي تلقيه في ذلك الذي تُحِبُّ مع خَوْفها ألّا يَكُون مرتبطًا فيها ارتباطًا كافيًا .

ولكنْ ما يكون تأثيرُ هذه الحيلة الصغيرة في إميل ؟ ألاَ تأكلُه الغَيْرَة أم لا ؟ يَجِبُ دَرْسُ هـذا ، وذلك لأن مثل هذه الاستطرادات تَدْخُلُ ضِمْن مادة كتابي أيضًا ، وتُبْعِدُني من موضوعي قليلًا .

لقد بَيَّنْتُ سابقًا كيف يَجِدُ هَوَى الغَيْرَة إلى قلب الإنسان سبيلَه في الأمور التابعة للرأي العامِّ ، ولكنَّ الأمرَ غيرُ هذا في الغرام ، فهنالك تكون الغَيْرةُ من قُرْبها إلى الطبيعة ما يَصْعُب معه أن يُعتَقد عدمُ صدورها عنها ، ويَلُوح أن مثال الحيوانات ، التي بلغت الغَيْرةُ في كثيرٍ منها درجةَ الجنون ، يُؤَيِّد هذا الإحساسَ تأييدًا لا يُرَدُّ ، وهل رأيُ الناس هو الذي يُعَلِّم الدُّيُوكَ تمزيقَ بعضها بعضًا ؟ وهل ذاك الرأي هو الذي يُعَلِّمُ الثِّيرانَ الاصطراعَ حتى الموت ؟

ولا جِدَالَ في أن ما يساورُنا من نفورٍ حَوْل كلِّ ما يُكَدِّرُ ملاذَّنا ويقاومها دافعٌ طبيعيٌّ ، وقُلْ مِثْلَ هـذا ، إلى حَدٍّ ما ، عن الرغبة في حيازتنا ما يَرُوقُنا حيازةً مطلقة ، ولكن هذه الرغبة إذا ما أصبحت

هَوًى ، فتحولت إلى صَوْلةٍ أو إلى خيالٍ جافلٍ ذى اكتئاب اسمُه « الغَيْرَة » تَغيَّر الأمرُ ، فأمكَن أن يكون ذلك الهوى طبيعيًا أوْ لا يكون ، فلا بُدَّ من التميز .

وكنتُ قد عالجتُ فى رسالتى عن « التفاوت » مثالَ الحيوانات ، والآن أنعِم النظر فى هذا المثال مُجَدَّداً فيَظْهَرُ لى أنه من المتانة ما أَجْرُؤُ معه على ردِّ القُرّاء إليه ، وإنما أُضِيفُ إلى الإيضاحات التى قُمتُ بها فى ذلك الكتاب كَوْنَ الغَيْرَةِ التى تَصْدُر عن الطبيعة كثيرةَ الاتِّباع لقوة الجنس ، وأن هذه القوة إذا كانت ، أو بَدَتْ ، لا حَدَّ لها طَفَحَ كَيْلُها ، وذلك لأن الذكر إذْ يَزِنُ ، إذْ ذاك ، حقوقَه بأوطاره فإنه لا يُطِيقُ ، مطلقاً ، أن يَرَى ذكراً آخرَ منافساً مزعجًا له ، وبما أن الإناث فى هذه الأنواع تُطِيعُ أولَ مُقْبِلٍ فإنها لا تكون تابعةً للذكور إلَّا بحقِّ الفتح وتكون سبباً لِمَا لا يَنْتَهى من صِرَاعٍ بينهم .

والأنثى ، على العكس ، إذْ كانت فى الأنواع التى يقترن الواحدُ فيها بواحدةٍ ، وحيث السِّفَادُ يُسْفِرُ عن ضَرْبٍ من الرابطة الأدبية ، أى يُسْفِرُ عن ضَرْبٍ من الزواج ، خاصَّةً بالذَّكَر الذى وَهَبَتْ نفسَها له عن اختيارٍ منها ، فإنها تَمْنَعُ نفسها من أىِّ ذكرٍ آخرَ على العموم ، وإذْ أن للذكر ضمانًا لوفائها بهذا الحُبِّ عن ترجيحٍ فإن هذا الذكر يكون أقلَّ غَمًّا بمنظر الذكور الآخرين ، ويعيش معهم عيشًا أكثرَ سلامًا ، والذكرُ فى هذه الأنواع يشترك فى رعاية الصِّغار ، ويَلُوحُ ، بسُنَنِ الطبيعة التى لا تُلاحَظُ من غير تَحَنُّنٍ ، أن الأنثى تُظهِرُ للأب حُبًّا كالذى تُظهِر لأولادها .

والواقعُ أننا إذا نَظَرْنا إلى النوع البشريّ فى بساطته الابتدائية سَهُلَ علينا أن نَرَى ، بقدرة الذَّكَرِ المحدودةِ وباعتدال رغائبه ، أنه أُعِدَّ من قِبَل الطبيعة للاكتفاء بأنثى واحدة ، وهذا ما تؤيده المساواةُ العددية بين أفراد الجنسين ، فى أقاليمنا على الأقلّ ، هذه المساواةُ التى لا محلّ لها ، غالبًا ، فى الأنواع التى تكون قوةُ الذكور فيها من القدرة العظيمة ما يجمع الواحدُ منهم معها بين إناثٍ كثير ، ومع أن الرجل لا يَرْخُم كالحمام ، وليست له ثُدِيٌّ للإرضاع ، فإنه يُعَدُّ من ذوات الأربع من هذه الناحية ، ويَظَلُّ الأولادُ من الزَّحْف والضعف لزمنٍ طويل ما يَصْعُبُ عليهم وعلى أُمهم أن يَسْتغنوا معه عن عطف الأب وعن رعايته التى هى نتيجةُ هذا العطف .

وتتسابق جميعُ المشاهدات ، إذَنْ ، في إثباتها أن صَوْلةَ الغَيْرَة فى ذكور بعض الحيوانات لا تَدُلُّ على شيء فى الإنسان ، حتى إن استثناء الأقاليم الجنوبية القائلة بتعدد الزوجات لا يُعَدُّ إلاّ مؤيِّدًا للمبدأِ ما دام احترازُ الأزواجِ الاستبداديُّ لا ينشأ عن غير كثرة النساء ، وما دام شعورُ الرجل بضعفه الخاصّ يَحمِلُه على الاستعانة بالقهر تخلُّصاً من سُنَن الطبيعة .

وتَجِدُ الغَيْرَةُ بيننا ، حيث تكون هذه السُّنَنُ نفسُها أقلَّ تجنُّباً من هذه الناحية ، ولكن مع كونها أكثرَ تجنُّباً من الناحية الأخرى ، وذلك على وجهٍ أدعى إلى المَقْت ، عواملَها فى أهواء المجتمع أكثرَ مما فى الغريزة الابتدائية ، ويكون العاشقُ فى مُعْظَم روابط الدلال أكثرَ مقتاً لمنافسيه من حُبِّه لصاحبته ، وهو إذا كان يَخْشَى ألاّ يُستَمَعَ إليه وحدَه فذاك لأنه نتيجةُ حبٍّ النفس الذى بيَّنْتُ أصلَه ، ولأن الزهوَ أكثرُ من

الحبِّ إثارةً له ، وذلك فضلاً عن كَوْنِ نُظُمِنا السخيفة قد جعلت النساء من المداجاة[1] ، وقد بلغت من إشعال شهواتهن ، ما لا يكاد الواحدُ يعتمد معه على أكثرِ مَوَدَّاتهنّ ثبوتاً ، فَعُدْن لا يستطعن الإشارة إلى التفضيلات التى تُلْقِي السَّكِينَةَ فى القلب تجاه الخوف من المنافسين .

وأما الُحبُّ الحقيقىُّ فأمرٌ آخر ، وقد بَيَّنْتُ فى الكتاب المذكور آنفاً أن هذا الإحساس ليس من الطبيعة بالمقدار الذى يَظُنُّ الناسُ ، فيُوجَدُ فرقٌ كبيرٌ بين العادةِ المستحبَّة التى يُحِبُّ بها الرجلُ رفيقتَه ، والحرارةِ الجامحة التى تُسْكِرُه بجواذبَ وهميةٍ حَوْل شىء يَعُود لا يراه كما هو ، ولا يختلف عن الزَّهْوِ هذا الهوى الذى لا يَتَنَسَّمُ غيرَ استثناءاتٍ وتفضيلات إلا بكون الزَّهْوِ ، الذى يَطْلُب كلَّ شىء ولا يَحْبُو بشىء ، جائراً دائماً ، وذلك بدلاً من الحبِّ الذى يُعْطِي بمقدار ما يَطْلُب فيَكُون بذاته إحساساً مملوءاً إنصافاً ، وذلك فضلاً عن أن الُحبَّ كلما كان طَلُوباً كان مِيقَاناً* ، ومن شأن الوهم الذى يُوجبه أن يجعل إقناعَه سَهْلاً ، وإذا كان الُحبُّ هَلُوعاً فإن الاعتبارَ يكون مُؤْتَمَناً ، وما كان الُحبُّ بلا اعتبارٍ ليوجَدَ فى قلبٍ شريفٍ، وذلك لأنه لا أحدَ يُحِبُّ فيمن يُحِبُّ غيرَ الصفاتِ التى يقيم لها وزناً .

ويمكننا ، بعد إيضاح جميعِ ما تقدم ، أن نُبَيِّنَ واثقين نوعَ الغَيْرة

(١) يخالف نوع المداجاة الذى أقصد هنا ذلك النوع الذى يلائمهن والذى يأتيهن من الطبيعة ، فأحدهما يقوم على إخفاء ما عندهن من مشاعر ، ويقوم الآخر على إظهار ما ليس عندهن منها ، ويقضى جميع نساء المجتمع حياتهن فى الافتخار المزعوم بإحساسهن ، مع أنهن لا يحببن غير أنفسهن فى الحقيقة .

* الميقان : الذى لا يسمع شيئاً إلا أيقن به .

التى يَقدِر عليها إميلُ ، وذلك بما أن جُرْثومة هذا الهوى تكاد تكون فى قلب الإنسان فإن التربية هى التى تُعيِّن شكلَه حَصْراً ، ولن يكون إميلُ العاشقُ الغَيُور غضوباً جَفُولًا ظَنُوناً ، ولكنه سيكون رقيقاً حَسَّاساً هَيُوباً ، وهو سيكون جَزُوعاً أكثرَ منه مَغيظاً ، وهو سيُعْنَى بنَيْل خليلته أكثرَ مما بتهديد مُنَافسه ، وهو سيُقْصِيه إذا ما استطاع كما يُقْصَى المانع ، وذلك من غير أن يُبْغِضَه كما يُبْغَضُ العدوُّ ، وهو إذا ما أبْغضه فلن يكون هذا لأنه أبْدَى من الجُرْأة ما ينازعه به فؤاداً يدَّعيه ، بل لخطرٍ حقيقىٍّ يَحْمِله عليه فيؤدى إلى ضَياعه له ، ولا يَكُون من الحماقة ما يَثُورُ به عُجْبُه العَسُوف من جُرْأةٍ على منافسته ، وبما أنه يُدْرِك أن حَقَّ الأفضلية قائمٌ على المزية وحدَها وأن العِزَّ فى الفَوْز فإنه سيضاعِفُ جهودَه ليكون محبوباً ، ومن المحتمل أن يُكتَب له النجاح ، وستَعْلَم صُوفية الكريمة ، حين تُثِيرُ ذُعْرَه ، أن تُسَوِّىَ هذا الذُّعْرَ وأن تُعوِّضه منه ، ولا يَلْبَثُ المنافسون الذين لم يألَمُوا إلا ليَبْتَلوه أن يُرَدُّوا .

ولكن إلى أين أُساقُ من حيث لا أدرى ؟ وَىْ ، إميلُ ! ماذا أصبحت ؟ وهل يُمكِنُنى أن أعْرِف فيك تلميذى ؟ ما أكثرَ ما أراك قد سَقَطْتَ من مرتبتك ! وأين هذا الشابُّ الذى كُوِّن تكويناً خَشِناً جدًّا ، والذى كان لا يُبَالى بمكاره الفصول ، والذى كان يُسْلِمُ بدنَه لأشدِّ الأعمال ويُسْلِمُ روحَه لقوانين الحكمة فقط ، والذى كانت المُبْتَسَراتُ والأهواء لا تَجِدُ إليه سبيلًا ، والذى كان لا يُحِبُّ سوى الفضيلة ولا يُذْعِن لغير العقل فلا يأبه لِمَا لا يأتى منه ؟ والآن قد أُتْرِف بالفَرَاغ فيَرْضى أن

يُسَيْطر عليه النساء ، وتقوم أشاغيلُه على لهوهنّ فتكون عزائمُهن دساتيرَ له ، وتَظهَرُ فتاةٌ حَكَمًا فى مصيره ، ويَزْحَفُ وينحنى أمامها ، ويَبْدُو إميلُ الرزينُ ألعوبةَ ولدٍ !

وهكذا تتحوَّلُ مناظرُ الحياة ، فلكلِّ عُمُرٍ نوابضُه التى تُحرِّكه ، ولكنَّ الرجلَ هُوَ هُوَ دائمًا ، والرجلُ إذا كان فى العاشرة من سِنِيه سِيقَ بالحلْوَى ، وإذا كان فى العشرين سِيقَ بخليلةٍ ، وإذا كان فى الثلاثين سِيقَ باللذات ، وإذا كان فى الأربعين سِيقَ بالطُّموح ، وإذا كان فى الخمسين سِيقَ بالطَّمع ، فمتى يَسْعَى فى طلب الحكمة حَصْراً ؟ طُوبَى لمن يُساق إليها على الرغم منه ! وليَكُن المُرْشِدُ من أىِّ قبيلٍ كان على أن يَسُوقَه إلى الغاية ، وقد أدَّى الأبطالُ والحكماء أنفسُهم هذه الجِزْيةَ إلى الضَّعف البشرىِّ ، وليس من أدَارتْ أصابعُهم مَبَارِمَ أقلَّ من هؤلاء عظمةً لهذا السبب .

وإذا أردتم أن تَبْسُطُوا على الحياة كلِّها عَمَل تربيةٍ مُوَفَّقة فأطيلوا فى دَوْر الشباب عاداتِ دَوْرِ الصِّبا الصالحةَ ، ومتى كان تلميذُكم ما يجبُ أن يَكُون فافعَلُوا ما يَكُون عَيْنَه فى جميع الأوقات ، وهذا هو آخر ما يَبْقَى عليكم أن تُكمِلوا به صُنْعَكم ، ولهذا فإنه يكون من المهمِّ ، على الخصوص ، تركُ مُرَبٍّ للشُّبَّان ، وذلك لأنه يُخْشَى بعضَ الشىء ألَّا يَعْرِفوا القيامَ بالحبِّ بغيره ، ويتطرَّقُ الخطأُ إلى المُرَبِّين ، ولا سيما الآباء ، مِنْ ظنِّهم أن طرازاً للحياة يَجْعَل طرازاً آخرَ لها أمراً متعذراً ، فمتى كَبِرَ الولدُ وَجَب أن يُعْدَل عن كلِّ ما كان يُصْنَع له فى صِغَرِه ، وإذا كان هذا صحيحًا فما نَفْعُ العنايةِ بدور الصِّبا ما دام يَزُول بزواله ما يُصْنَع من صالحه وطالحه ، وما

دامت تُتَّخَذُ طُرُزٌ للتفكير أخرى باتخاذ طُرُزٍ للحياة مختلفةٍ عن تلك كلَّ الاختلاف ؟

وكما أنه لا يَحُلُّ الذاكرةَ غيرُ الأمراض الكبيرة فإنه لا يوجد غيرُ الأهواء الكبيرة ما يَحُلُّ الأخلاقَ ، ومع أن أذواقَنا ومُيُولَنا تتغير فإن هذا التغير ، الذى يكون مفاجئًا أحيانًا ، يُلَطَّفُ بالعادات ، ويجب على المتفنن الماهر أن يَجْعَل الانتقالاتِ فى تعاقب ميولنا أمراً لا يُشْعَرُ به ، كما يُتَدَرَّجَ فى الألوان تَدَرُّجًا صالحًا ، فيَخْلِط بين الأصباغ ويَمْزُج بعضَها ببعض ، وأن يَبْسُطَ كثيراً منها على أثره لكيلا يَنفصل أىٌّ منها ، وقد أيَّدَت التجربةُ هذه القاعدةَ ، فمن يجاوزون حَدَّ الاعتدال يُغيِّرُون فى كلِّ يوم عواطفَهم وأذواقهم ومشاعرهم ، فلا شىءَ ثابتٌ عندهم غيرَ عادةِ التغيير ، وأما الرجل المُتَّزِنُ فيعودُ إلى عاداته السابقة دائمًا ولا يَفقِد ، حتى فى مَشِيبه ، ذَوْقَ المَلاذِّ التى كان يُحِبُّها وهو صبىٌّ .

وإذا ما صنعتم ، عند الانتقال إلى دَوْرٍ جديدٍ من العُمُر ، ما لا يَزْدَرِى الشُّبَّانُ معه دَوْرَ العُمُر السابق مطلقاً وما لا يتركون معه سابقَ العادات عند إيلافِهم عاداتٍ جديدةً ، وما يُحِبُّون معه فِعْلَ الخير دائمًا غيرَ ناظرين إلى الوقت الذى بَدَأوا فيه ، فهنالك ، فقط ، تُنقِذون عملَكم وتَطْمئنون إليهم حتى آخرِ أيامهم ، وذلك لأن أكثرَ ما يُخْشَى من ثورةٍ هو ثورةُ العُمُرِ الذى تَرْقبُونه الآن ، وبما أنه يؤسَفُ عليه دائمًا فإن من الصعب أن يُقْضَى على الأذواق التى يُؤْتَى بها إليه من دَوْر الصِّبا ، ولكنها لا تَعُود إذا ما قُطِعت .

وليس من العادات الحقيقية معظمُ العادات التى تَظُنُّون أنكم تُلَقِّنُون الأولادَ والشُّبَّانَ إياها، وذلك لأنهم، إذْ لم يَتَلَقَّوْها إلا كُرْهاً، ولأنهم إذْ يَتَّبِعُونها على الرغم منهم، لا ينتظرون غيرَ فرصةِ التخلُّص منها، فلا يُقْتَنَىُ ذوق البقاء فى السجن عن فِعْلِ الإقامة به، فالعادةُ هنالك تَزِيدُ النفورَ بدلاً من نَقْصِه، وليس هـذا حالُ إميلَ الذى لم يَصْنَع شيئاً فى صِبَاه إلا طَوْعاً وبلذَّةٍ، فلما صار رجلاً داوم على عَيْن الفعل، ولم يَعْمَلْ غيرَ إضافة سلطان العادة إلى ألطاف الحرية، وقد بَلَغَ من احتياجه إلى الحياة الفعالة وإلى عمل الذراعين وإلى التمرين والحركة ما لا يَتْرُك معه هذه الأمورَ من غير أن يَأْلَمَ، ويَنْطَوِى إلزامُه من فَوْرِه بحياةٍ ناعمةٍ حضَرِيةٍ على سَجْنه وتقييده وإلقائه فى حالٍ من الشِّدَّة والقَهْر، ولا رَيْبَ عندى فى فسادٍ يُصَابُ به مِزَاجاً وصحةً على السواء، وهو إذا ما كاد يكون قادراً على التنفس هنيئاً فى غُرْفةٍ مُقْفَلةٍ تماماً احتاج إلى الهواء الطَّلْق وإلى الحركة والعَنَاء، حتى إنه إذا ما كان راكعاً أمام صُوفِيةَ لم يَسْتَطع أن يَمْنَع نفسَه من إلقاء نظرةٍ إلى الحقول فى الحين بعد الحين مع رغبةٍ فى أن يَجُوبها معها، ومع ذلك فإنه يَبْقَى حينما يَجِبُ البقاء، ولكنْ مع غَمٍّ واضطراب، ويَلُوح أنه يَنْتَفِضُ بقَصْد التملُّص، وهو يَبْقَى لأنه مُوثَقٌ بالقيود، وسَوفَ تقولون: «إذَنْ، هذه احتياجاتٌ قد أَخْضَعَتْه لها، وهذه عُبُودِيَّاتٌ قد حَبَوْته بها»، وجميعُ هذا صحيحٌ، وإنما جعلتُه خاضعاً لحال الرُّجولة.

أَجَلْ، إن إميلَ يُحِبُّ صُوفية، ولكنْ ما الفُتُون الأول الذى

رَبَطَه بها ؟ الحُنُوُّ والفضيلة وحبُّ الأمور الصالحة ، وهو إذا أحبَّ هذا الحُبَّ فى صاحبته فهل يَفْقِدُه فى نفسه ؟ وما الثَّمَنُ الذى تَضَعُ صُوفية لنفسها بدَوْرِها ؟ إنها تَضَعُ جميعَ المشاعر التى تُساوِرُ قلبَ عاشقها من تقدير الأمور الصالحة والقناعةِ والبساطة والخُلُوِّ من الغَرَض وازدراء البَذْخ والثراء ، وكانت هذه الفضائل موجودةً فى إميلَ قبل أن يَفرِضها الحبُّ عليه ، وفِيمَ يَكُونُ إميلُ قد تَغَيَّر فى الحقيقة ؟ لَدَيْه أسبابٌ جديدة يَكُونُ بها إياه ، وهذه هى النقطة الوحيدة التى يَخْتَلف بها عما كان عليه .

ولا أتصور استطاعةَ أحدٍ حين يقرأ هذا الكتاب بشىء من الدقة أن يعتقد أن جميع الأحوال التى تكتنف الوضعَ الذى يَكُون عليه قد تَجَمَّعَت حَوْله مصادفةً على ذلك الوجه ، وهل من المصادفة أن توجد هذه الفتاةُ التى تَرُوقه فى صميم مكانٍ منعزلٍ ناء مع تقديم المدن كثيراً من البنات اللطيفات ؟ وهل لَقِيَها مصادفةً ؟ وهل توافقا مصادفةً ؟ وهل من المصادفة ألاَّ يستطيعا الإقامة بعَيْن المكان؟ وهل من المصادفة ألاَّ يَجِدَ ملجأً إلاَّ فى مكان بعيد منها ؟ وهل من المصادفة ألاّ يَرَاها إلاّ نادراً وأن يُضْطَرَّ إلى اشتراء نِعْمَةِ رؤيتها ، أحيانًا ، بمتاعبَ كبيرةٍ ؟ أنتم تقولون إنه يَتَخَنَّث ، وهو على العكس يَتَخَشَّن ، ويجب ، كذلك ، أن يكون من الاشتداد كما نَشَّأْتُه حتى يقاومَ المشاقَّ التى تَحَمَّلَه صُوفية على احتمالها .

هو يَسْكُن منزلاً بعيداً فرسخين منها ، وهذه المسافةُ هى كِيرُ الحَدَّاد ، وبهذه المَسَافة أُسَقِّى سهامَ الحُبِّ ، ولو كان كلٌّ منهما جاراً للآخر ،

أو لو كان قادراً على الذهاب لرؤيتها جالسًا على فراشٍ وثيرٍ داخلَ عربةٍ فاخرة لأحبَّها حُبًّا مُريحًا ، أى لأحبّها على الطريقة الباريسية ، وهل كان لِيَانْدِر يَطْلُبُ الموتَ من أَجْلِ هِيرُو لو لم يَفْصِلْه البحرُ عنها ؟ فيا أيها القارئ ، اكْفِنِي مَؤُونةَ الكلام ، فإذا كنتَ قد كُوِّنْتَ لإدراكِي اتَّبَعْتَ ، بما فيه الكفاية ، مبادئى كما فَصَّلْتُ .

وكُنَّا فى المرات الأولى التى ذهبنا فيها لرؤية صُوفية قد رَكِبْنا خَيْلاً للسير بسرعةٍ ، ونَجِدُ هذه الوسيلةَ ملائمةً ، ونداوم على رُكُوب الخيل حتى المرة الخامسة ، وكنا نُنْتَظَر ، ونشاهدُ أناسًا فى الطريق على مَسافةِ نصفِ فرسخٍ من البيت ، ويلاحِظُ إميلُ ، ويَخْفِقُ قَلْبُه ، ويدنو ، ويَعْرِف صُوفية ، ويَتَرَجَّلُ بسرعة ، ويَنْطَلِقُ ، ويَطِير ، ويَصِلُ إلى الأُسْرَة المحبوبة ، ويُحِبُّ إميلُ جيادَ الخَيْل ، ويَكُون جوادُه رشيقًا ، ويَشْعُر بأنه طليق ويَهْرُب عَدْواً من خلال الحقول ، وأتبعه وأبْلُغُه بعَنَاء وأُعيدُه ، ومن المؤسِف أن صُوفية تخافُ الخيلَ ، فلا أَجْرُؤُ على الاقتراب منها ، ولا يُبْصِرُ إميلُ شيئًا ، ولكن صُوفية تُسِرُّ إليه فى أُذنه بما تَرَكَ لصديقه من مشقةٍ ، ويُسْرِعُ إميلُ خَجِلاً ويَتَسَلَّمُ الخيلَ ، ويفترق عنا ويَكُون أولَ من يَذْهَبُ للخلاص من مَطَايانا ، وهو إذْ تَرَكَ صُوفية وراءه على هذا الوجه عاد لا يَجِدُ الحِصانَ مَرْكَبًا مُرِيحًا ، ويَعُودُ لاهثًا ، ويلاقينا فى مُنْتصف الطريق .

وفى الرحلة الآتية يَعُودُ إميل راغبًا عن الخيل ، وأقول له : « لماذا ؟ ليس علينا إلاَّ أن نأخذ خادماً للالتفات إليها » ، ويقول : « آه ! أَوَ نُرْهِقُ

الأُسرةَ الـكريمةَ مصروفاً على هذا الوجه ؟ وأنت تَرَى جيداً أنها تُرِيدُ إطعامَ الجميع من خَيْلٍ وآدميين » ، وأرُدُّ عليه بقولى : « أَجَلْ ، إن عندهم نُبلَ قِرَى الفقراء ، أَجَلْ ، إن الأغنياء ، البخلاء فى أُبهتهم ، لا يؤوون غيرَ الأصدقاء ، ولـكن الفقراء يؤوون ، أيضاً ، خيلَ الأصدقاء » ، ويقول : « لِنَسِرْ على الأقدام ، ألا تُقْدِمُ على هـذا أنت الذى يقاسِمُ مَسَارَّ ابنـهِ المُتعبة طَيِّبَ الخاطر ؟ » ، وأَقولُ مُعَقِّباً من فَوْرِى : « أذهَبُ عن رِضاً ، وكذلك الُحبُّ لا يُرِيدُ ، كما يَـلُوح لى ، أن يَقَع مع كثيرٍ من الضوضاء » .

ونَدْنُو فنَجِدُ الأمَّ والبنتَ أبعدَ مما كانتا عليه فى المرة الأولى ، وقد أتينا كالسهم ، ويـكون إميلُ غارقاً فى عَرَقه ، وتتفَضَّل يَدٌ عزيزة بإمْرَار مِنْديلٍ على خَدَّيْه ، فستُوجَدُ خيلٌ كثيرٌ فى العالَم قبل أن نُغْوَى بالانتفاع بها بعد الآن .

ومع ذلك فإن من القسوة أَلَّا نستطيعَ قضاء السَّهْرة معاً ، فقد أخذَ الصيف يَنْقَضى ، وقد أخذت النُّهُرُ تَنْقُصُ ، ومهما يُمْـكِنُنا من قَوْلٍ فإنه لا يُسْمَحُ لنا بالرجوع من هناك ليلاً مطلقاً ، وإذا لم نَفِدْ منذ الصباح وَجَبَ العودُ حين وصولنا تقريباً ، وأخيراً يَعِنُّ للأُمِّ ، عن تَوَجُّعٍ لنا وقَلَقٍ من أجْلِنا ، أنه ، وإن كان من غير اللائق أن نُقِيم بالمنزل ، يُمْـكِن أن يُوجَد لنا مَسْكَنٌ فى القرية كَيْمَا ننامُ فيه أحياناً ، ويُصَفِّق إميلُ عند سماع هـذه الكلمة ويَطرَب ، وتُقَبِّل صوفية أُمَّها أكثرَ من المعتاد لهذه الوسيلة التى وَجَدَتْها .

ويَقُوم لطفُ الصداقة ودَلُّ الطُّهْر ويَثْبُتَان بيننا مقداراً فمقداراً ، وأجىء عادةً مع صديقى فى الأيام التى تُعَيِّنُ من قِبَل صوفية أو أمّها ، وأدَعُه يَذْهَبُ وحدَه أحياناً ، والاعتيادُ يَرْفَعُ الرُّوح ، وعاد لا ينبغى أن يعامَل الرجلُ مِثْلَ ولدٍ ، وما أكون قد أنجزْتُ حتى الآن إذا كان تِلميذى لا يستحقُّ إكرامى ؟ وبما يَحْدُثُ أن أذْهَب من غير أن يَكُون معى ، وهنالك يَغْتَمُّ ولا يَتَذَمَّر ، وما فائدتُه من التذمُّر ؟ ثم إنه يَعْرِف جيداً أننى لا أصْنَعُ ما يُؤْذِى مصالحَه ، واعْلَمْ أنه لا جَوَّ يَعُوقُنا سواء علينا أذهبنا معاً أم على انفراد ، وكلٌّ منا فخورٌ بالوصول فى حالٍ يُرْثى لها ، ومن دواعى الأسف أن تَحْرِمنا صوفية هذا الشرف ، فهى تمنَعُنا من المجىء إذا كان الجوُّ رديئاً ، وهذه هى الفرصةُ الوحيدة التى تتمردُ فيها على القواعد التى أمْلِيها عليها سِرًّا .

ومما وَقَع ذات يومٍ أن ذهب وحدَه وأننى لم أنتظر رجوعَه إلّا فى الغد ، فأراه يَعُود فى ذات المساء ، وأقول له معانقاً : « ماذا ! أراكَ تَرْجِعُ إلى صديقك ! » ، ولكنه ، بدلاً من أن يُجِيبَ عن ملاطفاتى ، قال لى مع قليلٍ مزاجٍ : « لا تَظُنَّ أننى أعُود بهذه السرعة مختاراً ، بل أعُودُ على الرغم منى ، فقد أرادت أن أجىء ، وإنى أجىءُ من أجْلِها ، لا من أجْلك » ، وأتأثَّرُ من هذه السَّذاجة ، وأعانقه ثانيةً قائلاً له : « أيتها النفسُ الصَّدُوق ، أيُّها الصديقُ المخلص ، لا تكتم عنى شيئًا يَتعلَّق بى ، إذا كنتَ قد أتيتَ من أجْلها فإنك تقول هذا من أجْلى ، أجَلْ ، إن رجوعك من عملها ، ولكنَّ صراحتَك من عملى ، فحافظ على

هـذه السَّرِيرةِ الجديرة بالنفوس الطيبة إلى الأبد ، أَجَلْ ، يُمْكِن أن يُتْرَك للأخلياء أن يُفَكِّرُوا كما يشاءون ، ولكنَّ من الإجرام أن يُطَاقَ جَعْلُ الصديقِ لنا مزيةً عن شىء لم نَصْنَعْه من أجْله » .

وأحترزُ من تنزيل قيمة هذا الاعتراف فى نظره بأن وَجَدْتُ فيه غراماً أكثرَ من أن أجِدَ كَرَماً ، وبأن أَقُول له إنه يريد أن يُجَرِّد نفسه من شرف هذه العودة أقلَّ من أن يَحْبُوَ به صُوفية ، ولكنه يَكْشِفُ لى عن سريرته من حيث لا يَدْرِى ببيانه أنه إذا ما جاء على مَهْلٍ وبخطاً ضيقة حالماً بحُبِّه لم يكن غيرَ عاشقٍ لصوفيـة ، ولكنه إذا ما وَصَل بخُطاً واسعة نَزِقاً مع هَمْهَمة كان صديقاً لمُرْشده .

وتَرَوْن بهذه التدابير أن فَتَاىَ بعيدٌ من قضاء حياته بجانب صُوفيـة ومن رؤيتها بمقدار ما يُرِيد ، وكلُّ ما يُسْمَحُ له به هو أن يَقُوم بِرِحْلةٍ أو رِحْلتين إليها فى الأسبوع الواحد ، وفى الغالب تَدُوم زياراتُه نصفَ نهارٍ ، ومن النادر أن تَمْتَدَّ إلى الغد ، ويَقْضِى وقتَه فى رجائه أن يَرَاها أو فى تهنئته نفسَه بأنه رآها أكثرَ مما فى رؤيتها فِعْلاً ، حتى إنه فى الوقت الذى يُخَصِّصُ لِرِحْلاته يَقْضِى من الزمن فى ذهابه وإيابه أكثرَ مما يَقْضِى بجانبها ، والواقعُ أن لهوَه الصحيح الطاهرَ اللذيذ ، ولكن مع كونه حقيقيًّا أقلَّ منه خياليًّا ، يُثِيرُ حُبَّه أكثرَ من أن يُخَنِّثَ قلبَه .

ولا يَكُون فى الأيام التى لا يراها فيهـا مُتَعَطِّلاً ولا مُتَحَضِّراً مطلقًا ، بل يكون إميلَ أيضًا ، أى إنه لا يكون مُتَحَوِّلاً قَطْعًا ، فهو يَجُوبُ الأريافَ المجاورة غالبًا ، فيَتَتَبَّعُ التاريخَ الطبيعىَّ ، فيلاحظُ الأَرَضين

ويَفحَصُها ويَفحَص محصولاتِها وزراعتَها ، وهو يقارِن بين الأعمال التى يَرَى والأعمالِ التى يَعرِف ، وهو يَبحَثُ عن أسباب الفروق ، فمتى أبصَرَ أساليبَ أخرى أفضلَ من التى فى المكان أطْلَع الزُرَّاعَ عليها ، وإذا اقترَحَ شكلاً أصلحَ للمِحْراث حَمَلَ على صُنعِ ما يلائم رَسْمَه ، وإذا وَجَد مَقْلَعًا من سِجِّيل* عَلَّمَهم كيف يستعملونه فى البلد ، وما أكثرَ ما يُبَاشِرُ العمل بنفسه ، فيُدْهَشُون كلُّهم من استعماله آلاتِهم بأسْهَلَ مما يَفْعَلُون بأنفسهم ، ومن شَقِّه أتلامًا أعمقَ من أتلامهم وأضيقَ وأكثرَ استقامةً ، ومن إلقائه البَذْرَ إلقاءً أكثرَ تساويًا ، ومن توجيهه التربةَ المنقولةَ بلِصْقِ حائطٍ على شكلٍ مُنْحَدِرٍ للزرع توجيهًا أكثرَ لَقَانَةً ، وهم لا يَسْخَرُون من كَوْنه كثيرَ الحديثِ فى أمر الزراعة ، فهم يَرَوْن أنه يَعرِفها حقيقةً ، والخلاصةُ أنه يُوَسِّعُ مَدَى هِمَّتِه وجهودِه فى كلِّ ما تأتى فائدتُه فى المرتبة الأولى وتكون عامةً ، حتى إنه لا يقتصر على ذلك ، فهو يَزُور بيوتَ الفَلَّاحين ويَقِفُ على أحوالهم وعلى شؤون أُسَرِهم وعددِ أولادهم ، وعلى مقدارِ أرَضِيهم وطبيعةِ محصولهم ، وعلى أسواقهم وأرزاقهم ، وعلى أعبائهم وديونهم ، إلخ ، وهو يُعْطِى نقداً قليلاً عارفًا سوءَ استعمالِه عادةً ، ولكنه يُدِيرُ أمرَ استعماله بنفسه جاعلًا إياه نافعًا لهم مع وجود نَقْدٍ لديهم ، وهو يُزَوِّدُهم بعُمَّال ، وهو ، فى الغالب ، يَدْفع إليهم أجورَهم اليوميةَ عن الأعمال التى يحتاجون إليها ، فيَحْمِلُ الواحدَ منهم على إقامة كُوخه نصفِ الهابط أو على سَقْفِه ، ويَحْمِلُ آخرَ على إحياء أرضه المهجورة عن فقرٍ ، ويُقَدِّم إلى آخرَ بقرةً أو فرَسًا أو ماشيةً بدلاً مما فَقَد ،

* السجيل : الطين اليابس المؤلف من كربونات الكلس والصلصال والرمل .

وإذا أوشك جاران أن يتقاضيا توجَّه إليهما وأصْلَح بينهما ، وإذا مَرِضَ فَلَّاحٌ حَمَل على معالجته ، أو داواه بنفسه[1] ، وإذا ظَلَمَ جارٌ قوىٌّ جارَه الضعيف حَماه وأوصى به ، وإذا ما تحابَّ شابّان ساعدَها على الاقتران ، وإذا ما فَقَدَتْ أمٌّ ولدَها العزيز زارها وعزَّاها ولم يَخْرُج من عندها بُعَيْدَ دخوله ، وهو لا يَزْدَرِى المُعْوِزين مطلقًا ، وهو لا يُسْرِعُ فى تَرْك البائسين مطلقًا ، وهو يتناول طعامَه ، فى الغالب ، عند مَنْ يساعِدُ من الفَلَّاحين ، وهو يَقْبَلُ كذلك دعوةَ مَنْ ليسوا محتاجين إليه ، وهو ، إذْ يَصِيرُ مُحْسِنًا إلى بعضهم وصديقًا لآخرين ، لا يَنفَكُّ يَكُون مساويًا لهم ، والخلاصةُ أنه يَصْنَع الخيرَ بشخصِه كما يَصْنَعه بماله .

ومما يَحْدُث ، أحيانًا ، أن يُوَجِّه جَوْلاتِه نحو البيت السعيد ، فيُمْكِنه أن يَرْجُوَ مشاهدةَ صُوفية خِفْيةً وأن يراها من غير أن تراه ، بَيْدَ أن إميلَ لا يَنْحَرِف فى سلوكه ، وهو لا يَعْرِف المواربة ولا يُرِيدُها ، وهو يَتَّصِفُ بتلك اللطافة السائغة التى تُدَارِى حُبَّ الذات وتُغَذِّيه بحُسْن الشعور ، وهو يَتَقَيَّدُ بحدود الإقامة تَقَيُّدًا وثيقًا ، وهو لا يَدْنُو دُنُوًّا كافيًا ليَظْفَر مصادفةً بما يَرْغَبُ فى نَيْلِه من صُوفيةَ نفسِها ، وهو ، عِوَضًا من ذلك ، يَجُول فى الجِوار طَيِّبَ الخاطر باحثًا عن آثار خُطَا صاحبته رَاقًا لِما تُلَاقى

(١) لا تعنى مداواة الفلاح المريض إعطاءه مسهلا ، أو تقديم عقاقير إليه ، أو إرسال طبيب إليه ، وليس هذا ما يحتاج إليه هؤلاء المساكين فى أثناء مرضهم ، وإنما يحتاجون إلى غذاء أحسن مما عندهم وأوفر ، والصوم خير ما تصنعون عند ما تصابون بالحمى ، ولكن فلاحيكم ، إذا ما أصيبوا بالحمى ، أعطوهم لحماً وخمراً ، فجميع أمراضهم تنشأ عن البؤس والضنى ، ويكون خير شراب لهم فى قبوكم ، ويكون جزاركم صيدليهم الوحيد .

من مَشَاقٍّ وللجَوْلات التى تفَضَّلَتْ فقامت بها لمجاملته ، وهو يَذْهب عَشِيَّةَ الأيام التى يَجِبُ أن يَرَاها فيها إلى مزرعةٍ مجاورةٍ ليُوصِيَ بِوَجْبَةٍ خفيفةٍ للغد ، وتَسِيرُ النُّزْهةُ إلى تلك الناحية من غير أن يُشْعَر بذلك ، ويُدْخَلُ هنالك كما لو وَقَع هذا مصادفةً ، وتُوجَدُ فواكهُ وحَلْوَى وقِشْدَة ، وتُحِبُّ صُوفية الأطعمةَ اللذيذة فلا تكون غيرَ مكترثة لهذه الالتفاتات ، فتبتهج بما كان من استعدادنا ، وأنال نصيبى من المجاملة وإن لم أشتركْ فى الجُهْد الذى استوجبها ، وهذا أسلوبٌ تتَّخِذُه فتاةٌ صغيرة لكيلا تجِدَ حَرَجاً فى الشكر ، ونأكل ، أنا والأب ، من الحَلْوَى ونَشْرَب من الخمر ، ولكن إميلَ من حِصة النساء ، فيتَرَقَّبُ ليَسْتَرِقَ طبقاً من القِشْدَةِ التى غُمِسَتْ فيها مِلْعقة صوفية .

وتَسُوقنى الحَلْوَى إلى الكلام عن مُبَارَيَاتِ إميلَ السابقة ، ويُرَادُ أن يُعْرَفَ ما هذه المُبَاريات ، وأُوضِحُها ، ويَضْحَكون ، ويُسْأَلُ عن كَوْنه لا يزال قادراً على العَدْو ، ويُجِيبُ بقوله : « أحْسَن مما فى أىِّ وقتٍ كان ، ومما يَغِيظُنِي كثيراً أن أنساه » ، ويَرْغَبُ أحدُ الأصحاب أن يراه ، ولا يَجْرُؤ على قول هذا ، ويأخُذُ آخرُ على عاتقه أن يقترح هذا ، ويَقْبَل ، ويُجْمَعُ له اثنان أو ثلاثةٌ من الجِوار ، وتُعْرَض جائزةٌ ، وتُوضَعُ قطعةٌ من الحَلْوَى على الهدف كما كُنَّا نَصْنَع فى الألعاب السابقة ، ويَسْتَعِدُّ كلُّ واحد ، ويُعْطِى أبو صُوفيةَ الإشارةَ بتصفيقه ، ويُسَابِقُ إميلُ الرشيقُ الريحَ ويَبْلُغ الهَدَف قبل أن يأخذ الثلاثة الغِلاظ فى الانطلاق ، ويتناول إميلُ الجائزة من يد صُوفية ، ولا تكون أقلَّ كَرَمًا من إنيَاسَ فتُقَدِّمُ هدايا إلى جميع المغلوبين .

وفى أثناءِ سَناءِ هذا الفوز تجرُؤ صُوفية على تحدِّى الفائز فتَتَبَجَّحُ بأنها تستطيع العَدْوَ جَيِّدًا مِثلَه ، ولا يَرْفِضُ خَوْضَ الوَغَى معها مطلقاً ، وبَينَا هى تَسْتَعِدُّ للقيام بهذا الأمر الصَّعْب فتُشَمِّرُ ثوبَها من الناحيتين ، وتكونُ أحْرَص على إظهارِ ساقٍ دقيقةٍ لإميلَ مما على قَهْرِه فى هذه المبارزة ، فتنظر هل تَنُّورتُها* قصيرةٌ بما فيه الكفاية ، ويُسِرُّ إلى الأمِّ بكلمة ، فتَبتَسم وتُبدِى إشارةَ استحسان ، وهنالك يَضَعُ نفسه بجانب منافسته ، ولم تَكَدِ الإشارةُ تُعطَى حتى يُرَى انطلاقُها كالعُصفور .

ولم يُخلَق النساء للعَدْوِ ، وهنَّ إذا ما هَرَبْنَ فلكى يُدْرَكْنَ ، وليس العَدْوُ هو الشىء الوحيدَ الذى لا يُتقِنَّه ، ولكنه الشىء الوحيد الذى يَقُمْنَ به مع عدم لباقة ، وذلك أن مَرَافِقَهن ، إذْ تكون مُلصَقةً ببَدَنِهِنَّ نحو الخَلْف ، تَمنَحُهن وضعاً موجباً للضحك ، وأن كُعُوبهن العالية التى يَقُمْنَ عليها تُظهِرُهن كالجراد الذى يحاول العَدْوَ من غير أن يَثِب .

ولا يَتَصَوَّرُ إميلُ أن صُوفيةَ تَعْدُو خيراً من النساء ، فلا يَتَنازل أن يَخرُج من مكانه ، وهو يراها تَنطلق مُتبسِّماً ساخراً ، ولكن صُوفية خفيفةٌ وتَلبَس كَعْبَيْن وطيئين ، وهى لا تحتاج إلى حيلةٍ حتى تَظهر ذات رِجْلٍ صغيرة ، وهى تَبلُغُ من سرعة العَدْو ما لم يَكُنْ لديه غيرُ ما يحتاج إليه من الوقت لإدراكِ أتلَنْتَةَ الجديدةِ التى يُبْصِرُها بعيدةً كثيراً منه ، ويَنطَلِقُ بدَوْرِه ، إذَنْ ، مشابهاً للنَّسْرِ الذى يَنقَضُّ على فريسته ، ويَتعقبها ويطاردها ، وأخيراً يُدْرِكُها ضَيِّقةَ النفس ، ويَضَعُ ذراعَه

---

* Jupe

اليُسرى حَوْلَهَا برِفْقٍ ويَرْفَعُها كريشةٍ ويَضُمُّ هذا الحَمْلَ اللطيف إلى فؤاده ، ويُتِمُّ العَدْوَ هكذا ، ويَجْعَلُها أولَ مَنْ يَمَسُّ الهدفَ ، ثم يَهْتِفُ قائلاً : « الفوزُ لصُوفية ! » ، ويركع على ركبةٍ واحدةٍ أمامها ويعترف بأنه المغلوب .

وتُضَاف إلى هذه الأشاغيل المختلفة أُشْغُولةُ الحِرْفة التى تَعَلَّمناها ، فإذا ما عَدَوْتَ يوماً واحداً فى الأسبوع على الأقلِّ مع جميع الأيام التى لا يَسْمَحُ لنا الجوُّ الردىء بأن نَسْعَى فى الحقول فإننا نَذْهَبُ ، أنا وإميلُ ، للعَمَل عند مُعَلِّمٍ ، ونحن لا نَشْتَغِلُ شكلاً كما يَشْتغلُ مَنْ يَعلُون هذه الحِرْفةَ ، ولكننا نَشْتَغِل جِدِّيًّا مِثْلَ عُمَّالٍ حقيقيين ، ويأتى أبو صُوفية ليرانا فيَجِدُنا جادَّيْن فى العمل ، فلا يُعوِزُه أن يَرْوِىَ لزوجته وابنته ما رأى روايةَ المُعْجَب ، وهو يقول لهما : « اذهَبا وانْظُرَا هذا الشابَّ فى المَصْنَع لتَرَيا هل يَزْدَرِى حالَ الفقير ! » ، ومن الممكن أن يُتَصَوَّر ما تَسْمَع به صُوفية هذه الكلمةَ مع الارتياح ! ويتكلَّمون فى الموضوع ثانية ، وتُرَادُ مباغتته فى أثناء عمله ، وأُسْأل من غير وجودِ غَرَضٍ خاصٍّ ظاهراً ، وتَتَثَبَّتُ الأمُّ والبنتُ فى أمر يومٍ من أيامنا ، ويَرْكَبان عَرَبَةً ، ويأتيان إلى المِصْر فى ذات النهار .

وتَدْخُل صوفية المَصْنع فتشاهد فى الطرف الآخر شابًّا لابسًا سُتْرةً ، مُهْمِلاً تسريحَ شَعْره ، بالغًا من الجِدِّ فى عَمَلِه ما لم يُبْصِرْها معه قَطُّ ، وتَقِفُ ، وتأتى بإشارةٍ لأُمِّها ، ويَكُون إميلُ حاملاً إزْمِيلاً بيدٍ ومِطْرَقةً باليد الأخرى ، فيُتِمُّ فَرْضَ خشبة ، ثم يَنْشُرُ لوحًا ويَضَعُ قطعةً منه

تحت المِلْزَمة لصَقْلِها ، ولا يُثِيرُ هذا المنظرُ ضَحِكَ صُوفية مطلقًا ، بل يؤثِّرُ فيها ، ويستوجب احترامَها ، فيا أيتها المرأة ، أكْرِمى زوجَك ، فهو يَعْمَل من أجْلِك ويَكْسِب خبزَكِ ويُطْعِمُك ، وهذا هو الرَّجُل .

وبينما كانتا تُلاَحظانه بدقةٍ أبْصرُها ، فأجُرُّ إميلَ من كُمِّه ، ويَلتفتُ ، ويراها ، ويَطْرَحُ الآلاتِ جانباً ، ويَطير إليهما هاتفاً مسروراً ، ويُقْعِدُها بعد أن أسْلَمَ نفسَه إلى فرحه الأول ، ويستأنِفُ عملَه ، ولكن صُوفية لا تَصْبِرُ على البقاء جالسةً ، فتَنْهَضُ برشاقةٍ وتَجُوب المعملَ وتَفْحَص الآلاتِ ، وتمَسُّ الألواحَ المصقولة ، وتَلُمُّ نُشَارَةً من الأرض ، وتَنْظُر إلى أيدينا وتقول إنها تُحِبُّ هذه الحِرْفة لأنها نظيفة ، حتى إن هذه اللَّعوب تحاول تقليدَ إميلَ ، فتَدْفَع مِنْحَتًا على اللَّوْح ، ويزْلَقُ المِنْحَتُ ولا يَقْرِضُ مطلقًا ، ويَلُوح لى أن الحبَّ نفسَه يُحَلِّق فوقَنا ويُصَفِّقُ بجناحيه ، ويَلُوح لى أننى أسْمَعُه يَهْتِفُ ابتهاجًا قائلاً : « أخِذَ ثأرُ هِرْكول ! » .

ومع ذلك فإن الأمَّ تسأل المعلمَ : « ما أجرةُ هذين العاملَيْن يا مُعَلِّم ؟ » — « أدْفَعُ إلى كلٍّ منهما عشرين دانقًا عن كلِّ يومٍ ، يا سيدتى ، فضلاً عن طعامهما ، ولكن هذا الشابَّ يَكْسِب أكثرَ مما يأخذ بدَرَجاتٍ لو أراد ، فهو أحسنُ عاملٍ فى البلد » ، وتقول الأمُّ وهى تنظر إلينا بحَنَانٍ : « عشرون دانقًا فى اليوم وتُطْعِمُهما ! » ، ويَرُدُّ المعلمُ عليها بقوله : « أجَلْ ، إن الأمر هكذا يا سيدتى » ، وتُهْرَع إلى إميلَ عند سماع هذه الكلمة وتعانقه وتَضُمُّه إلى صدرها وهى تُفِيض عليه من

دمعها ، فلا تستطيع أن تقول له شيئًا آخرَ غيرَ تكرارِها كثيراً كلمةَ : « ابْنِي ! ابنى ! » .

وتقول الأمُّ لبنتها بعد قضائهما بعضَ الوقت في الحديث معنا ، ولكن من غير أن تَقْطَعا عملنا : « لِننصَرِف من هنا ، فقد تأخَّرْنا ، ولا يَجُوز أن نَخذِلَ الأبَ على انتظارنا ، ثم تَدْنو من إميلَ ، وتَضْرِبُه ضربةً خفيفةً على خَدِّه وهى تَقُول له : « حسنًا ! أيها العامل الصالح ، ألا ترْغَبُ فى المجىء معنا ؟ » ، ويُجِيبُها بلهجةِ المَلْهُوف : « إننى مُتقبِّلٌ لعملٍ ، فاسألى المعلم » ، ويُسْأَلُ المعلِّمُ عن إمكان تَفَضُّله بالاستغناء عنا ، فيُجِيب بأنه لا يستطيع ذلك ، وقد قال : « يُوجَدُ عملٌ مُسْتَعْجَلٌ يجب أن أُنْجِزَه بعد يومين ، وقد اعتمدت على هذين السيدين فرَفَضْتُ عُمَّالًا عَرَضوا أنفسَهم ، فإذا أَعْوَزَنى هذان العاملان لم أَدْرِ أين أَجِدُ من يقوم مقامهما ، ولم أستطع تسليمَ العمل فى اليوم الموعود » ، ولم تُجِب الأمُّ بشىء ، وتنتظر قَوْلاً من إميلَ ، ويَخْفِضُ إميل رأسه ويَسْكُت ، وتقول له مع بعض الحَيْرَة من هذا الصمت : « أليس عندك ما تقول لهذا ؟ » ، ويَنْظُرُ إميلُ نَظَرَ حَنَانٍ إلى ابنتها ، ولا يَنْطِقُ بغير كلمة : « يجب أن أبقى كما تَرَيْن » ، وهنالك تَنصرِف السيدتان ، ويُشَيِّعُهما إميلُ حتى الباب ، ويُتْبِعُهما بعينيه ما استطاع ، ويتأوَّه ، ويَعُود إلى العمل من غير أن يَنْبِسَ بكلمة .

وتألَمُ الأمُّ فتُحَدِّث ابنتَها فى الطريق عن غرابة هذا الأسلوب ، وتقول : « ماذا ! أكان من الصعب كثيراً إقناعُ المعلِّم فلا يُضْطَرَّ إلى البقاء ؟ أفلا

يَجِدُ هذا الفَتَى المِتْلاَفُ ، الذى يُنْفِقُ المال بلا ضرورةٍ ، ما يَسْتَعْمِلُ منه فى الأحوال المناسبة ؟ » ، وتجيب صُوفية بقولها : « أُمَّاه ! معاذَ اللهِ أن يَعْتَمِدَ إميلُ على المال وأن يَنْتفعَ به فيَنْقُضَ عهداً شخصياً ويُخْلِفَ قَوْلَه بلا عِقَابٍ ويَحْمِلَ آخرَ على نَقْضِه ! أَجَلْ ، إننى أعْرِف أنه يَسْهُلُ عليه أن يُعَوِّضَ العلمَ من ضررٍ طَفيف يَنْشأُ عن غِيابه ، ولكنه يُعَبِّدُ نفسَه بذلك للثَّراء فيتعوَّدُ وضعَه فى مكان واجباته ويعتقدُ أنه يُعْفَى من كلِّ شىء إذا ما دَفَع مالاً ، يُوجَدُ لإميلَ أساليبُ أخرى فى التفكير فأرجو ألَّا أكونَ سبب تغييره لها ، أوَتَظُنِّين أن بقاءه لا يُكَلِّفُه شيئاً ؟ أُمَّاه ، لا تَرْكَبِي مَتْنَ الخطأ ، فهو قد بَقِيَ من أَجْلِي ، وقد أَبْصَرْتُ ذلك فى ناظرَيْه » .

ولا يَعْنِى ذلك كَوْنَ صُوفية متساهلةً فى دلائل الحبِّ الحقيقية ، فعلى العكس تَجِدُ صُوفيةَ مُتَجَبِّرَةً طَلُوباً ، فتُفَضِّلُ ألاَّ تُحَبَّ على أن تُحَبَّ باعتدال ، وهى تتصف بزَهْو المزية النبيلِ الشاعرِ بنفسِه والمُقَدِّرِ لِذَاته والذى يُرِيدُ أن يُكْرَم كما يُكْرِم نفسَه ، وهى تَزْدرى قلباً لا يَعْرِف قيمةَ قلبها ولا يُحِبُّها من أَجْلِ فضائلها حُبًّا يَعْدِل فُتُونَها أو يَزِيد ، قلباً لا يُفَضِّل عليها واجبَه الخاصَّ ، قلباً لا يُفَضِّلها على كلِّ شىء آخر ، وهى لا تَرْغَبُ ، مطلقاً ، فى عاشقٍ لا يَعْرِف سلطاناً غيرَ سلطانها ، وهى تريد أن تهيمن على رجلٍ لم يُفْسَدْ بها قَطُّ ، فعلى هـذا الوجه ازْدَرَتْ سِيرْسِه أصحابَ أُوليسَ بعد إذْلالها لهم فوَهَبَتْ نفسها له وحدَه لعدم استطاعتها أن تُغَيِّرَه .

ولـكنك إذا عَدَوْتَ هذا الحقَّ المَصُونَ المُقَدَّسَ وجدت صُوفية غَيُوراً

على جميع حقوقها ، فهى تَرْقُب ، مع التدقيق ، مقدارَ احترام إميلَ لهذه الحقوق ، ومقدارَ ما يَبْذُل من همة فى تنفيذ رغائبها ، ومقدارَ حِذْقه فى حَزْرِه لهذه الرغائب ، ومقدارَ انتباهه إلى الوصول فى الدقيقة المقرَّرة ، فهى لا تريد أن يتأخَّر أو يتقدَّم ، وإنما تريد أن يكون مُدَقِّقًا ، إهمالُ صُوفية ! هذا لا يَقَعُ مرتين ، وكلُّ شكٍّ جائرٍ يساورها يَقْضِى على كلِّ شىء ، ولكن صُوفيةَ مُنْصِفةٌ ، ولكن صُوفية تَعرِف كيف تُصْلِح خطأها .

ونُنْتَظَرُ ذاتَ مساء ، فقد تَلَقَّى إميلُ الأمرَ ، ويُؤتَى لاستقبالنا ، ولا نَصِلُ مطلقًا ، وماذا حدَث لنا ؟ وأيةُ بَلِيَّةٍ أُصِبْنا بها ؟ لا أحدَ من ناحيتنا ، ويُقْضَى المساء فى انتظارنا ، وتَظُنُّ صُوفية المسكينةُ أننا متنا ، ويَعْتَرِيها حُزْنٌ شديد ، ويَضِيقُ صَدْرُها ، وتُحْيِى ليلتَها بالبكاء ، ويُرْسَلُ فى المساء رسُولٌ للبحث عنا ، ولِيَأْتِيَ فى صباح الغد بخبرٍ عنا ، ويَعُود الرسول مع آخرَ من قِبَلنا ليُبَلِّغ اعتذارَنا ويقولَ إننا فى حال جَيِّدة ، ويَمْضِى وقت قصير فنَظْهرَ بأنفسنا ، وهنالك يَتَغَيَّر المنظر ، فتُكَفْكِفُ صُوفية دموعَها ، وهى إذا ما سَكَبَتْ منها كان ذلك عن غضب ، فلم يكن فؤادُها المُخْتَال لينال شيئًا من اطمئنانه إلى حياتنا ، فإميلُ حَىٌّ ، وقد أوجبَ انتظارَه على غير جَدْوَى .

ونَصِلُ ، فتُرِيد أن تُقْفِلَ عليها البابَ ، ويُرَادُ أن تَبْقَى ، فتَبْقَى ، ولكنها إذْ تنقاد من فَوْرِها تُظْهِر من الهدوء والرِّضا ما يُمَوِّهُ على الآخرين ، ويأتى الأبُ أمامنا ، ويقول لنا : « لقد أقلقتما بالَ أصدقائكما ، ويوجد هنا مَنْ

لا يَسْهل عليهم أن يَعفُوا عنكما » ، وتقول صُوفية بأعذبِ ما يُمكِنها من تبَسُّم : « مَنْ هم ، إذنْ ، يا أبى ؟ » ، ويجيب الأبُ بقوله : « وما يُهمُّك ، على ألاَّ تكونى منهم ؟ » ، فلا تَرُدُّ صُوفيــة على هذا ، وتطرِقُ على شُغْلها ، وتستقبلُنا الأمُّ ببُرُودةٍ وتــكلُّف ، ويرتبك إميلُ فلا يَجْرُؤُ على الدُّنُوِّ من صُوفية ، فتكون أولَهما كلامًا فتسأله عن صحتــه ، وتَدْعُوه إلى الجلوس ، وتُظهِرُ من التَّنَــكُّر ما يُخْدَع معه بذاك الفُتُورِ هذا الشابُّ المسكينُ الذى لا يزال غيرَ مُدْركٍ للغة الأهواء العنيفة ، فيُوشِكُ أن يَغضَب .

وأريدُ أن أزيل الغِشاوة عنه فأبادر إلى يَدِ صُوفية وأوَدُّ أن أرفعها إلى شَفَتَىَّ كما أفعَل أحيانًا ، فتَسْحَبُها من فَوْرها مع كلمة « سَيِّدى » التى كان نُطقُها بها من الغرابة ما كَشَفَتْها معه هذه الحركةُ غيرُ الإرادية لعَيْــنَىْ إميلَ حالاً .

وتُبصِرُ صُوفية أنها كَشَفَتْ سِرَّها فيَقِلُّ ضَبْطُها لنفسها ، وتتحولُ رباطةُ جأشها الظاهرةُ إلى ازدراء تَهَكمِىّ ، وتُجيبُ عن كلِّ ما يقال لها بكلماتٍ ذاتِ مَقْطع واحد تَنطِقُ بها بتؤدةٍ وتردُّد كأنها تخافُ أن يَنِمّ كلامُها على غيظها كثيراً ، ويَظهَرُ إميلُ نصفَ ميتٍ ذُعْراً ويَنظُر إليها متألِّمًا ، ويحاوِل أن يَحمِلها على إلقاء نَظَراتٍ عليه فَتلتَقِي أعينُهما فيقرأ فى عينيها مشاعرَها الحقيقية ، وتَــكون صُوفية أكثرَ غَيْظًا من اعتداده بنفسه فتُلقِي عليه نظرةً تَنزِعُ منه كلَّ رغبةٍ فى الفَوْز بنظرةٍ أخرى منها ، ويُلْجَمُ إميلُ ويَرتجف ، وعاد لا يَجرُؤُ ، لحُسْن حظِّه ، على مخاطبتها ولا على النظر إليها ، وذلك لأنها ما كانت لتَصفَحَ عنه ولو لم يَكُن مذنبًا ، ولو استطاع أن يَحتمل غضبَها .

وأرى أن دَوْرِيَ قد أتَى ، وأن وقت الإيضاح قد حَلَّ ، فأعُودُ إلى صُوفية ، وأتناولُ يدَها ثانيةً ، ولا تَخْطَفُها ، وإن كانت مستعدةً للظهور سيئةَ الحال ، وأقول لها برقّةٍ : « نحن تُعَساء ، يا صُوفية العزيزة ، ولكنكِ عاقلةٌ عادلة ، فسوف لا تَحْكُمِين في أمرِنا من غير أن تَسْمَعينا ، فاسْتَمِعِى إلينا » ، ولا تُجيبُ بكلمة ، وأقول ما يأتى :

« لقد انطلقنا أمسِ فى الساعة الرابعة ، وقد أُشِيرَ علينا بأن نَصِلَ فى الساعة السابعة ، ونحن نحتاط لأنفسنا بوقتٍ أطولَ مما نحتاج إليه كيما نستريحُ عند ما نَدْنُو من هنا ، ونَقْطَع ثلاثةَ أرباع الطريق ، فتَقْرَع أسماعَنا نياحاتٌ مؤلمة صادرةٌ عن مَضِيقٍ بجانب التَّلِّ بعيدٍ بعضَ البعد منا ، ونُهْرَع إلى مكان الصُّراخ ، فنَجِدُ فلَّاحاً تَعِساً راجعاً من المِصْر مجترعًا بعضَ الخمر على حِصانه فَسَقَطَ منه سقوطًا شديداً كُسِرَ منه ساقُه ، ونَصِيحُ ونَطْلُب العَوْنَ ، ولا نَجِدُ مَنْ يُجيب ، ونحاول وضعَ الجريحِ على حِصانه فلا نستطيعُ صنعَ ذلك ، فهذا التَّعِسُ يعانى من الآلام أعظمَها هَوْلاً عند أقلِّ حركة ، ونُزْمِع على رَبْطِ الحِصان فى مكانٍ منحرفٍ من الغابة ، ثم نَجْعَل من أذرعنا مَحْمِلاً ، ونَضَعُ الجريحَ عليه ، ونَحْمِلُه بأعظمِ ما يُمكن من الرِّفْق عاملِيْن بإشارته فى الطريق التى يجب السَّيْرُ عليها لبلوغ منزله ، وتكون المَسافةُ طويلة ، ونُلْزَم بالاستراحة مراتٍ كثيرةً ، وأخيراً نَصِل منهوكَيْن تَعَباً ، وكان من دَهَشِنا المُرِّ أن كنا نَعرِف البيتَ وأن كان هذا البائسُ الذى نَقَلْناه بجُهْدٍ عظيمٍ هو عينَ الرجل الذى تَقَبَّلَنا بقبولٍ وِداديّ يومَ وصولنا الأول إلى هنا ، وما كان يساورنا من كَدَرٍ جميعاً حال دون تعارفنا حتى تلك الساعة .

« ولم يكن عنده غيرُ طفلين ، وكانت زوجُه قريبةً من مَنْحِه طفلاً ثالثاً ، وبَلَغَ ما عانته من التأثرِ حين رأت وصوله ما شَعَرَتْ معه بأوجاعٍ حادةٍ ووَضَعَتْ بعد ساعاتٍ قليلة ، وما يُصْنَع فى هذه الحال فى كُوخٍ بعيد حيث لا يُرْجَى أىُّ عَوْن ؟ عَزَم إميلُ على أخذ الحِصان الذى تركناه فى الغابة فيَرْكَبُه ويَعْدُو بأقصى ما يُمْكِن من السرعة لإحضار جَرّاحٍ من المِصْر ، ويُعْطِى الجَرّاحَ الحِصانَ ، وبما أنه لم يستطع أن يَجِدَ مُمَرِّضَةً على عَجَلٍ فقد عاد سائراً على قَدَمَيْه مع خادمٍ بعد أن أرسل إليكم ساعياً ، وبينما كنتُ مرتبكاً ، كما يُمْكِنُ أن يَلُوحَ لكم ، بين رجلٍ مكسورِ الساق وامرأةٍ فى دَوْر الطَّلْق كنت أُعِدُّ فى البيت كلَّ ما كان يُمْكِنُنى أن أُبْصِرَه ضروريًّا لمساعدة الاثنين .

« ولن أُفَصِّلَ البقيةَ مطلقاً ، فهى ليست موضعَ بحثٍ ، وقد حلَّت الساعةُ الثانية بعد منتصف الليل قبل أن تُتَاح لكلٍّ منا ، نحن الاثنين ، دقيقةُ راحة ، والخلاصةُ أننا عُدْنا إلى مأوانا القريب من هنا قبل طلوع الشمس ، فانتظرنا فيه ساعةَ انتباهكم من النوم كَيْما نُخْبِرَكم بما حَدَثَ لنا » .

وأَسْكُتُ من غير إضافة شىء ، ولكن إميلَ يَدْنُو من صاحبته قبل أن يتكلَّم أحدٌ ، ويَرْفَعُ صوته ويقول لها برَصَانةٍ لم أَتَوَقَّعْها : « أىْ صُوفية ، أنت حَكَمٌ فى مصيرى الذى تَعرِفين جيداً ، أَجَلْ ، إنك قادرةٌ أن تحكمى علىَّ بالموت أَلَماً ، ولكنْ لا تأمُلِي أن تَحْمِلينى على نسيان حقوق الإنسانية ، فهذه الحقوقُ أقدسُ من حقوقك ، ولن أتنزّل عنها من أَجْلِك » .

سَمِعَتْ صُوفية هذه الكلماتِ ، فنَهَضَتْ من غير أن تجيب ، ووضعت ذراعَها حَوْلَ عُنُقه ، وطَبَعَتْ قُبْلةً على خَدِّه ، ثم مَدَّت إليه يَدَها بلطفٍ منقطع النظير ، وقالت له : « أىْ إميل ، تناولْ هذه اليد ، فهى لك ، وكُنْ ، متى شئتَ ، زوجى أو مُعَلِّمى ، فسأحاول أن أكون أهلاً لهذا الشرف » .

ولم تَكَدْ صُوفيةُ تُقَبِّلُه حتى صَفَّق أبوها المسرورُ هاتفاً : « مرةً أخرى ، مرةً أخرى » ، ولم تلبث صُوفية أن قَبَّلَتْ خَدَّه الآخرَ مرتين من غير استعجال ، ولكنها لم تَنْشَبْ أن اعتراها وَجَلٌ فى ذات اللحظة تقريباً فالتجأت إلى ذراعَىْ أُمِّها وأخفت وجهَها الملتهب خَجَلاً فى صدر أُمِّها .

ولن أَصِفَ سرورَنا الشاملَ مطلقاً ، فجميعُ الناس يَشْعُرُون به ، ونتناول الغَداء فتطلب صُوفية أن يُزَارَ ذانك المريضان الفقيران ، وتَرْغَبُ صُوفية فى ذاك العمل الصالح ، ويُذْهَبُ إلى هناك ، ويشاهَدَان على فراشيْن منفصلين ، وكان إميلُ قد جَلَبَ فراشًا لهما ، ويُرَى حولهما أناسٌ لتسليتهما ، وإميلُ هو الذى قام لهما بهذا ، ولكنهما ، مع ذلك ، يألَمَان به من سوء وضعهما أكثرَ من حالهما ، وتتناول صُوفية وِزْرةً من الزوجة الصالحة ، وتُرَتِّبُها على فراشها ، ثم تَصْنَع مِثْلَ ذلك للزوج ، وتَعْرِف أن تَبْحَث بيدِها اللطيفة الخفيفة عن كلِّ ما يؤلمهما ، وأن تجْعَل أعضاءهما المتألِّمة فى وَضْعٍ أكثرَ إراحةً ، وسَبَقَ أن شَعَرا بسكونٍ فى الوَجَع عند دُنُوِّها ، فكأنها تَتَنَبَّأُ بكلِّ ما يؤلمُهما ، وما كانت هذه الفتاةُ البالغةُ

الرِّقَّة لترْتدّ أمام القذارة ولا أمام الرائحة الكريهة ، وهى تعرف كيف تُزيل هذه وتلك من غير استعانةٍ بأحد ومن غير إزعاجٍ للمريضيْن ، وتعود هذه الفتاةُ التى تُرَى ذاتَ حياء دائماً ، ومُزْدَرِيةً أحياناً ، والتى لم تَمَسَّ بطرف إصبعها فراشَ رجلٍ ، وتُغَيِّرُ بَيَاضاتِ الجريح بلا ترَدُّد ، وتجْعَلُه فى وَضْعٍ مُريحٍ يستطيع أن يَبْقى عليه وقتاً طويلاً ، وحَمِيَّةُ الإحسان خيرٌ من الحياء ، وما تَفْعَلُ تَصْنَعُه بخفةٍ ومهارة يُحِسُّ بهما سكونَ وجعه من غير أن يَعْرِف أنها مَسَّته ، ويتفق الزوج والزوجة على شكْرِها للفتاة اللطيفة التى تَخْدُمهما وتتوجَّع لهما وتُفَرِّج الغمَّ عنهما ، وهى من ملائكة السماء الذين يُرْسلهم الله ، ولا عَجَبَ ، فلها وجهُ مَلَكٍ ولطفُه ورِقتُه ودَعَتُه ، ويكون لهذا أبلغُ الأثر فى نفس إميلَ فيَتَأَمَّلُها صامتاً ، فيا أيها الرجلُ أَحِبَّ قرينتَك ، فقد أعطاك اللهُ إياها لتفريج كَرْبِكَ فى آلامك ، وكَشْفِ هَمِّك فى أوصابك ، وهذه هى المرأة .

ويُعَمَّدُ المولودُ حديثاً ، وبَيْناً كان العاشقان يُقَدِّمانه إلى جُرْن العِماد كانا يَتُوقان من صميم فؤادهما إلى الوقت الذى يُرْزَقان فيه ولداً فيُعَمَّدُ ، وكانا يتوقان إلى اليوم المرغوب فيه ، وكانا يَشْعُران باقترابه ، وقد زالت جميعُ وساوس صُوفية ، ولكنَّ وساوسى أَتَتْ ، فهما ليسا ، بَعْدُ ، حيث يُفكِّران ، ولا بُدَّ من أن يكون لكلٍّ دَوْرُه .

مَرَّ ، ذات مَرَّةٍ ، يومان من غير أن يَرَى أحدُهما الآخرَ ، فدخلتُ غرفةَ إميلَ حاملاً كتاباً بيدى وسألتُه مُحَدِّقاً إليه : « ما تَصْنَعُ إذا ما أخبرك أحدُ الناس بأن صُوفية ماتت ؟ » ، ويَصِيحُ ويَضْرِب يداً

بيَدٍ ، ويَنظُر إليَّ بعينين حائرتين من غير أن يَنبِسَ بكلمة ، وأداوم على قولى هادئاً : « أجِبْ إذَنْ » ، ويساوره غضبٌ ويَتَميَّزُ من الغيظ إذْ يرانى رابطَ الجأش هادئاً ، ويتَّخِذُ من الوَضْع ما يَنِمُّ على الوَعيد تقريباً ، ويقول : « ما أصْنَع ؟ . . . لا أدرى ، وإنما الذى أعْرِف هو أننى لن أُلقِىَ نظرةً على الذى يَنقُل إلىَّ هذا الخبرَ ما دمتُ حَيًّا » ، وأقول له مُتَبَسِّماً : « قَرَّ عَيْناً ، فصُوفية حَيَّةٌ ، وتتمتَّع بصحة جيدة ، وهى تُفَكِّر فيك ، وهم ينتظروننا فى هذا المساء ، ولكنْ لِنقُمْ بجَوْلةٍ قصيرة ، وسنتكلم » .

وما يَشْغَل بالَه من هَوًى عاد لا يَسْمَحُ له ، كما فى الماضى ، بمحادثاتٍ قائمةٍ على العقل الخالص ، فلا بُدَّ من استمالته بهذا الهوى نفسِه إلى انتباهه لدروسى ، وهذا ما فعلتُ بهذا المَدْخل الهائل ، فأنا الآن مطمئنٌّ إلى أنه سيَسْتمع لى .

« لا بُدَّ من السعادة يا إميلُ العزيز ، فالسعادةُ غايةُ كلِّ موجودٍ حَسَّاس ، وهى الرغبةُ الأولى التى طبعتها الطبيعةُ فينا والتى لا تفارقنا مطلقاً ، وكلٌّ يَطْلُبها ، ولا أحدَ يَجِدُها ، وكلٌّ يُفْنِى حياتَه فى البحث عنها فيَمُوت من غير أن يَصِلَ إليها ، ويا صديقى الشابّ ، هل كنتُ أعْرِفُ ما ألزمتُ نفسى به عند ما تناولتك بين ذراعىَّ عند وِلادتك وأشهدتُ الرَّبَّ العلىَّ على العهد الذى أقدمتُ على عَقْده ، فوَقَفْتُ أيامى على سعادة أيامك ؟ كلاَّ ، وإنما كنت أعْرِف أننى إذا ما جعلتك سعيداً اطْمأْننتُ إلى سعادة نفسى ، فكنتُ إذا ما قمتُ بهذا البحث المفيد فى

سبيلك جعلته مشتركاً بيني و بينك .

« وتَقُوم الحكمةُ على البطالة ما دُمْنا نَجْهَل ما يجب أن نَصْنع ، وهذا أكثرُ ما يحتاج إليه الإنسانُ من المبادئ ، وهذا أقلُّ ما يَعْرِف اتِّبَاعَه ، ويَعْنِي البحثُ عن السعادة من غير أن يُعْرَفَ أين هي تَعْرِيضَ الإنسانِ نفسَه للفِرار منها ، يَعْنِي تَعْرِيضَ الإنسانِ نفسَه لأخطارٍ كثيرة مختلفة بمقدار ما يُوجَدُ من طُرُقٍ يَضِلُّ عنها ، ولكنْ ليس من شأن جميع الناس أن يُسْتَطَاعَ عدمُ السَّيْر مطلقاً ، ففي غَمٍّ من سَوْرَة النعيم يساوِرنا نُفَضِّلُ أن نَخْدَع أنفسنا في نِشْدانه على عدم عمل شيء للبحث عنه ، ونحن إذا ما خَرَجنا مَرَّةً من الموضع الذي نستطيع أن نَعْرِفه فيه عُدْنا غير قادرين على العَوْد إليه .

« وقد حاولتُ اجتنابَ عينِ الخطإ عن عينِ الجهْل ، وإني ، إذْ أخذتُ على عاتقي أن أعْنَى بك ، عَزَمْتُ ألاَّ أقوم بخُطوةٍ غير مُجْدِية كما عَزَمتُ أن أَحُول دون اتخاذِك مثلَ هــذه الخُطوة ، فالتزمتُ سبيلَ الطبيعة التي لا تَبْدِيلَ لها والتي كنتُ أتَّبِعُها من غير أن تَخْطُر ببالي .

« وكنْ شاهدي وحاكمي ، فلن أرْفِضَك مطلقاً ، فلم يُضَحَّ بأعوامك الأولى في سبيل جميع الأعوام التي يجب أن تَعْقُبَها ، وقد تمتعتَ بجميع المواهب التي أنعمتْ بها الطبيعةُ عليك ، وما أخضعتْك له الطبيعةُ من شرورٍ فقد استطعتُ أن أقِيَك منه ، ولم تَشْعُرْ بغير الشُّرُور التي تستطيع أن تُقَوِّيَكَ على سواها ، ولم تُعانِ ، قَطُّ ، من الشرور ما عانيتَ إلا لاجتناب ما هو أعظمُ منها ، وأنت لم تَعرِف الحقدَ ولا العبودية ، وقد بَقِيتَ ، وأنت الحرُّ القانعُ ، عادلاً صالحًا ، وذلك لأن الألمَ والعيبَ

أمران ملازمٌ أحدُهما للآخر ، ولا يَصِيرُ الإنسانُ شَرِيراً إلا إذا كان شقياً ، وَلْتَسْتَطِعْ ذِكْرَى صِباك أن تَطُول حتى أواخر أيامك ! ولا أخشى ، مطلقًا ، أن يَذْكُرَ قلبُك الطَّيِّبُ هذا الصِّبا من غير أن يبارك لليد التى رَبَّتْه .

« ولما بلغتَ سِنَّ الرشد صُنْتُك من مُبْتَسَرات الناس ، ولما صار فؤادُك حَسَّاسًا حَفِظْتك من سلطان الأهواء ، ولو استطعتُ إطالةَ هذا السكون الباطنيِّ إلى آخر حياتك لوَضَعْتُ عملى فى مأمنٍ ، ولَحُزْتَ من السعادة الدائمة أقصى ما يستطيع إنسانٌ أن يَحُوزَه ، ولكننى غَمَسْتُ روحَك فى مياه ستِيكْس يا إميلُ العزيز ، فلم أستطع أن أجعلها معصومةً من الجروح فى كلِّ مكان ، وذلك أنه يَنْهَضُ عدوٌّ جديدٌ لم تَتَعَلَّمْ أن تقهرَه بَعْدُ ، ولم أقْدِرْ أن أصُونكَ منه ، وهذا العدوُّ هو نفسُك ، وقد تركَتْك الطبيعةُ والنصيبُ ، فيُمْكِنُك أن تحتمل البؤسَ وأن تَصْبِرَ على آلام البدن ، وأما آلامُ النفس فقد كانت مجهولةً لديك ، وأنت لم تَكُ تابعاً لشىء غيرِ الحال البشرىِّ ، والآن تَتْبَعُ جميعَ ما جعلتَ لنفسكَ من روابط ، فأنت إذْ تعلمتَ الرغبة جعلتَ نفسَك عبداً لرغائبك ، وأنت ، من غير أن يتغيَّرَ فيك شىء ، ومن غير أن يُهِينَك شىء ، ومن غير أن يَمَسَّ وجودَك شىء ، ما أكثرَ الآلامَ التى يُمْكِن أن تُغِيرَ على نفسكَ ، وما أكثرَ المَضَارَّ التى يُمْكِنِ أن تَشْعُرَ بها من غير أن تكون مريضاً ! وما أكثرَ المَوْتَاتِ التى يُمْكِن أن تُعَانِيَها من غير أن تموت ! أجَلْ ، يُمْكِنُ أن يُوقِعَكِ فى القنوط كَذِبٌ أو خطأٌ أو شَكٌّ .

« وقد رأيتَ فى المَسْرَح أبطالاً يقاسُون آلامًا متناهية ، فتُدَوِّى دارُ

التمثيل بصرخاتهم الجافية ، وينتحبون كالنساء ، ويبكون كالأولاد ، فيستوجبون هتافات الحضور ، واذكر ما تورثه إياك من الفضائح هذه النياحات والصرخات والأنات في رجال لا ينتظر منهم غير الرصانة والجلد ، وتقول ساخطاً : « إن هذه أمثلة تلقى علينا لاتباعها ، وهذه نماذج تعرض علينا للاقتداء بها ، وهل يخشى ألا يكون الرجل صغيراً شقياً ضعيفاً بما فيه الكفاية إذا لم يكرم ضعفه بمظهر من الفضيلة زائف ؟ » ، فيا صديقي الشاب ، كن أكثر تسامحاً نحو المسرح بعد الآن ، فقد أصبحت أحد أبطاله .

« وتعرف أن تألم وأن تموت ، وتعرف أن تصبر على سنة الوجوب في الأمراض البدنية ، ولكنك لم تفرض قوانين على شهوات قلبك بعد ، فعن عواطفنا ، لا عن احتياجاتنا ، ينشأ اضطراب حياتنا ، ومدى رغائبنا واسع ، ولا تعد قوتنا شيئاً مذكوراً تقريباً ، ويتبع الرجل برغائبه ألف شيء ، ولا يتبع شيئاً بنفسه ، حتى حياته الخاصة ، وكلما زاد الرجل ارتباطاته زاد آلامه ، وكل شيء في الأرض عابر ، وكل ما نحب يفلت منا عاجلاً أو آجلاً ، ونحن نتصرف في الأمر كما لو وجب أن يدوم إلى الأبد ، ويا للذعر الذي حدث عند الظن بأن صوفية ماتت ! أو تذهب ، إذن ، إلى أنها ستعيش أبداً ؟ ألا يموت إنسان في مثل سنها ؟ لا بد من موتها يا ولدي ، وقد تموت قبلك ، ومن يعرف أنها حية الآن ؟ إن الطبيعة لم تخضعك لغير موتة واحدة ، وأنت تخضع نفسك لموتة ثانية ، وهكذا تضع نفسك في حال تموت بها مرتين .

« وهكذا أراكَ ، إذْ تخضَعُ لأهوائك الجامحة ، محلاً للتوجع ! حِرْمانٌ دائمٌ ، خُسْرانٌ دائمٌ ، همٌّ دائم ، حتى إنك لا تتمتعُ بما يُترَك لك ، وما يساورك من خوْفِك أن تخسَر كلَّ شيء يَمْنَعُك من حيازة أيِّ شيء ، ولن تستطيع قضاء أهوائك لرغبتك فى عدم اتِّباع شيء غيرِ أهوائك ، وأنت تَطْلُب الراحةَ ، والراحةُ ستَفِرُّ منك دائماً ، وستكون بائساً ، وستصير شَرِيراً ، وكيف يُمْكِنُك ألا تكون هكذا وأهواؤك الجامحة هى التى تسيطر عليك ؟ وإذا كنتَ لا تستطيع احتمالَ الحرمانِ غيرِ الإرادىِّ فكيف يُمْكِنُك أن تُلزِم نفسَك بحرمانٍ إرادىٍّ ؟ وكيف يُمْكِنُك أن تُضَحِّيَ بالمَيْلِ فى سبيل الواجب فتقاومَ فؤادَك لتُصْغِيَ إلى عقلك ؟ أنت تقول إنك لا تُرِيدُ أن ترَى من يُخْبِرُك بموت صاحبتك فكيف ترى مَنْ يُريدُ نَزْعَها منك حَيَّةً فيَجْرُؤ على قوله لك : « هى ميتةٌ نظراً إليك ، فالفضيلةُ تَفْصِلُك عنها ؟ » ، وإذا كان لا بُدَّ من العيش مع صُوفية مهما وقَع فلا أهميةَ فى كونها متزوجةً أو غيرَ متزوجة ، وفى كونها طليقةً أو غيرَ طليقة ، وفى كونها تُحِبُّك أو تَكْرَهُك ، وفى إعطائك إياها أو رَفْضِ ذلك ، فأنت تريدُها ، ولا بُدَّ من حيازتها بأىِّ ثمنٍ كان ، فأخبِرْنى ، إذَنْ ، عن الجريمة التى تَقِفُ رجلاً لا سلطان لغير أمانىِّ قلبه عليه ، فلا يستطيع أن يقاوم شيئاً يرغب فيه .

« ويا بُنَيَّ ، لا سعادةَ بلا شجاعةٍ ، ولا فضيلةَ بلا كفاح ، وتأتى كلمة الفضيلة « vertu » من كلمة القوة « force » ، والقوةُ أساسُ كلِّ فضيلة ، ولا تخُصُّ الفضيلة غيرَ مخلوقٍ ضعيف بطبيعته قوىٍّ بإرادته ، وعلى هذا

وحدَه تقوم مزيةُ الرجل العادل ، ومع أننا نَدْعو الرَّبَّ صالحاً فإننا لا نَدْعُوه فاضلاً ، وذلك لأنه لا يحتاج إلى جهودٍ لصنع الخير ، وقد انتظرتُ بلوغَك من الحال ما تفهمني معه حتى أفَسِّرَ لك هذه الكلمةَ التي انْتُهِكَتْ حرمتُها كثيراً ، ولا كبيرَ احتياجٍ إلى معرفة الفضيلة إذا كانت ممارستُها لا تُكَلِّف شيئاً ، ويأتى هذا الاحتياجُ عند تَنَبُّه الأهواء ، وقد أتاك منذ حين .

« وإنى حين نَشَّأتُك بكلِّ مافى الطبيعة من بساطة وَقَيْتُك العيوبَ التى تَجْعَلُ الواجباتِ شاقَّةً بدلاً من أن أُوصِيَكَ بالواجبات الشاقة ، وجعلتُ الـكَذِبَ أقلَّ مَقْتاً لديك من أن يكون غيرَ مفيد ، وكنتُ أقلَّ تعليماً لك بأن تَرُدَّ لـكلِّ ذى حقٍ حقَّه من عدمِ اكتراثِك لحقِّك ، وصنعتُ منك صالحاً أكثرَ من أن أجعلَ منك فاضلاً ، ولـكنَّ الذى ليس غيرَ صالحٍ لا يَبْـقَى صالحاً إلّا ببقاء رغبته فى أن يكون هكذا ، ويَتَحَطَّمَ الصلاحُ ويَزُول بصدمةٍ من الأهواء البشرية ، فالرجلُ الذى لا يَكُون غيرَ صالحٍ ليس صالحاً إلا من أَجْلِ نفسه .

« ومَن الرجلُ الفاضلُ إذَنْ ؟ هو الرجلُ الذى يَعرِف أن يَقْهَر عواطفَه ، وذلك لأنه يَتْبَعُ عقلَه وضميرَه إذ ذاك ، فيَقُومُ بواجباته ، ويَلْزَم نظامًا لا يستطيع شىء أن يُبْعِده منه ، ولم تَـكُنْ ، حتى الآن ، حُرًّا إلاَّ فى الظاهر ، ولم يكن عندك غيرُ حريةٍ مؤقَّتَةٍ كحرية العبد الذى لم يؤمَرْ بشىء ، والآن كُنْ حُرًّا حقيقيًّا ، وتَعَلَّمْ أن تكون سيدَ نفسِك ، ومُرْ فؤادَك ، تَـكُنْ فاضلاً يا إميلُ .

« وإليكَ ، إذَنْ ، تَدَرُّباً آخرَ أمامك ، وهذا التدرُّبُ أصعبُ من الأول ، وذلك لأن الطبيعة تُنقِذُنا من الشرور التى تَفرِضُها علينا أو تُعلِّمُنا احتمالَها ، ولكنها لا تَقُول لنا شيئاً عما يأتينا من أنفسنا ، فهى تَكِلُنا إلى أنفسنا ، وهى تَترُكُنا ضحايا لأهوائنا ، وهى تَدَعُنا نَرْزَح تحت آلامنا الباطلة ، فنُباهى بدُمُوعٍ يجب أن تحْمَرَّ وجوهُنا منها خجلاً .

« واعْلَمْ جيداً أن هذا الهَوَى ليس جُرْمًا ، فهو نَقِىٌّ نقاءَ النفوس التى تُحِسُّه ، والشرفُ يُكَوِّنه والطُّهْرُ يُغَذِّيه ، ويا أيها العاشقان السعيدان ! لا يُسْفِرُ فُتُونُ الفضيلةِ عن غير زيادةٍ فى فُتون الُحبّ ، وليس القِرَانُ المبارك الذى ينتظركما أقلَّ مكافأةً لكما على حِكْمَتكما مما على ارتباطكما ، ولكنْ قُلْ لى ، أيها الرجل المُخْلص ، هل أنت أقلُّ خُضُوعاً لسلطان هذا الهوى الخالص ؟ وهل أنت أقلُّ من يَكُون عبداً له ؟ وهل تَخْنُقُه منذ الغد إذا ما عاد فى الغد لا يكون بريئاً ؟ والآن هو وقتُ تجْرِبة قُوَاك ، فإذا ما وَجَبَ استعمالُها كان الوقتُ قد مَضَى ، ويَجِبُ وقوعُ هذه التجارِب الَخطِرَة بعيدةً من الخطر ، فما كان ليُمَرَّنَ على القتال أمام العدوّ مطلقاً ، وإنما يُسْتَعَدُّ له قبل الحرب ، فتُخَاضُ المعركة بعد إعداد كلِّ شىء .

« ومن الخطأِ أن يُفرَّق بين الأهواء المُباحة والأهواء المحظورة ، تعاطِياً للأولى وامتناعاً عن الأخرى ، فجميعُ الأهواء حَسَنةٌ إذا ما بقينا مسيطرين عليها ، وجميعُ الأهواء سيئةٌ إذا ما تركناها تسيطر علينا ، ويقوم ما حَرَّمته الطبيعة على توسيع مدى صِلاتنا إلى ما هو أبعدُ من قُوَانا ،

ويقوم ما حرّمه العقل على الرغبة فيما لا نَقْدِر على نَيْله ويَقُوم ما حَرَّمه الضمير على ترك أنفسنا تُغْلَب بالإغواء ، لا على إغوائها ، ولا يتوقَّفُ علينا أن نكون ذوى أهواء أو لا نَكُونَ ، وإنما يتوقف علينا أن نسيطر عليها ، وجميعُ المشاعر التى نهيمن عليها شرعية ، وجميع المشاعر التى تهيمن علينا إجرامية ، ولا يكون الرجلُ الذى يُحِبُّ امرأةَ غيره مذنباً إذا ما جعل هذا الهوَى المؤسفَ خاضعاً لقانون الواجب ، وهو يكون مذنباً إذا ما أحبَّ امرأتَه الخاصة فيُضَحِّى بكلِّ شىء فى سبيل حُبِّها .

« ولا تَنْتَظِر منى مبادئَ طويلةً عن الأخلاق ، وليس لدىَّ غيرُ مبدأٍ واحدٍ أُلقيه عليك شاملٍ لجميع المبادئ الأخرى ، وهو : كُنْ رجلاً ورُدَّ قلبَك إلى حدود رُجُولتك ، فادْرُسْ هذه الحدودَ واعْرِفْها ، ومهما تَكُنْ هذه الحدودُ ضيقةً فإننا لا نكون تُعَساء ما أحطنا أنفسَنا بها ، ونحن لا نَشْقَى إلاَّ إذا أردنا مجاوزتَها ، ونحن نجاوزُها إذا ما وَضَعْنَا برغائبنا المخالفةِ للصواب غيرَ الممكن فى مرتبة الممكنات ، ونحن نجاوزُها ، إذا ما نسينا رُجُولتَنا ، لنَصْنَعَ رُجولاتٍ وهميةً فنَنْزَلِقَ منها إلى رُجُولتنا دائماً ، ويَكُون المتاعُ الذى يؤثِّرُ فينا ضَياعُه وحدَه هو ما نَعْتَقد أنه حقٌّ لنا ، وما يَكُون من تَعَذُّرِ نَيْلِه تعذُّراً جليًّا يَصْرِفُ الذهنَ عنه ، وما كانت الرغائبُ بلا أملٍ لتُؤْلِمَ مطلقاً ، وما كان الصُّعْلوكُ لِيَأْلَمَ من رغبته فى أن يكون مَلِكاً ، ويُرِيدُ الملكُ أن يكون إلهًا عند ما يعتقد أنه عاد لا يكون رجلاً .

« وأوهامُ الزَّهْوِ هى مصدرُ أعظمِ شرورنا ، ولكن إنعامَ النظر فى

بؤس الناس يَحْمِلُ الحكيمَ معتدلاً دائماً ، فيَلزَم مكانَه ولا يحاول أن يَخْرُج منه مطلقاً ، وهو لا يستعمل قُوَاه على غير جَدْوَى حتى يتمتعَ بما لا يستطيع حِفْظَه ، وهو إذا ما استعملها كلَّها ليتصرف تصرفاً حسناً فى كلِّ ما يمْلِكُ كان ، في الحقيقة ، بالغَ القوة بالغَ الغِنَى بنسبة ما يكون أقلَّ رغبةً منا ، وهل أُكَوِّن لنفسى ، وأنا الموجودُ الهالكُ الفانى ، سلاسلَ أبديةً فوق هذه الأرض حيث يتغيَّر كلُّ شىء وينقضى كلُّ شىء وسأزول غداً ؟ وَىْ إميل ! وَىْ بُنَىَّ ! ما يَبْقَى لى من نفسى إذا ما خَسِرْتُك ؟ ومع ذلك فإنه يجب أن أعْرِف افتقادَك ، وذلك لأنه من يَعْلَمُ متى تُنْزَعُ منى ؟

« وإذا كنتَ تُرِيدُ أن تعيش سعيداً حكيماً ، إذَنْ ، فلا تَرْبِطْ فؤادَك بغير الجمال الذى لا يزُول أبداً ، ولْتُحَدِّدْ رغائبُك بوَضْعِك ، ولْتَسْبِقْ واجباتُك ميولَك ، واجْعَلْ دُستورَ الضرورةِ شاملاً للأمور الأدبية ، وتَعَلَّم افتقاد ما يُمْكِن أن يُنْزَع منك ، وتَعَلَّمْ تَرْكَ كلِّ شىء عند ما تأمُرُك الفضيلةُ بذلك ، وتَعَلَّمْ وَضْعَ نفسِك فوق الحوادث فتَنْفَصِل عنها فؤادَك قَبْلَ أن تُمَزِّقه ، وتَعَلَّمْ أن تكون جسوراً فى الضَّرَّاء لكيلا تكونَ بائساً أبداً ، وتَعَلَّمْ أن تكون ثابتاً فى واجبك لكيلا تكون مجرماً أبداً ، وهنالك تكون سعيداً على الرغم من الثراء وحكيماً على الرغم من الأهواء ، وهنالك تَجِدُ حتى فى حيازة الأموال السريعة الزوال لذةً لا يستطيع شىء أن يُكَدِّرَها ، فتتصرفُ فى هذه الأموال من غير أن تتصرف فيك ، وتَشْعُرُ بأن الرجل الذى تَفَلَّتَ منه كلُّ شىء لا يَتَمتع بغير ما يَعْرِف أن يُضِيع ، أَجَلْ ، لن يساوِرَك وهمٌ فى المَلاذِّ الخيالية مطلقاً ، أَجَلْ ، لا تُصَابُ بآلامٍ تنشأ عنها مطلقاً ،

وسَتَرْبَحُ كثيراً من هذه المبادلة ، وذلك لأن هذه الآلام منتشرةٌ حقيقية ، ولأن تلك المَلاَذَّ نادرةٌ باطلة ، وأنت ، إذْ تَقْهَرُ كثيراً من الآراء الخادعة ، تَقْهَرُ الرأىَ الذى يُعْطِى الحياةَ قيمةً عظيمة ، وستقضى حياتَك بلا كَدَر وستختِمُها بلا ذُعْرٍ ، وستفارقُها كما تفارق كلَّ شىء ، وليَسْتَولِ الهَوْلُ على الآخرين حين يُفَــكِّرُون فى انقطاعهم عن الوجود بتركهم الحياة ، ولكنك إذْ تَعْلَم أن الحياةَ عَدَمٌ تَعْتَقِدُ أنك بادئٌ لها ، فالموتُ خاتمةُ الحياة الخبيثة وفاتحةُ الحياة الطيبة » .

ويَسْتَمِع إميلُ إلىَّ بانتباهٍ ممزوجٍ بجَزَع ، فهو يَخْشَى أن تكون لهذه الديباجة نتيجةٌ مشؤومة ، وهو تُحَدِّثه نَفْسُه ، حين بيانى له ضرورةَ ممارسةِ قوة الروح ، بأننى أُرِيدُ إخضاعه لهذا النظام القاسى ، ومَثَلُه فى هذا كَمَثَل الجريح الذى يرتجف عند ما يُبْصِرُ اقترابَ الجراحِىِّ فيَسْبِقُ إلى ظَنّه شعورُه باليد المُوجِعَة على جُرْحه ، ولكنْ مع السلامة ، لأنها تَحُولُ دون فساده .

ويَبْدُو حائراً مضطرباً مستعجلًا معرفةَ الموضع الذى أريد أن آتى به إليه ، فيسألنى بدلًا من الجواب ، ولكنْ مع الخوف ، « وما يَجِبُ أن أصنع ؟ » ، هذا ما يَقُوله مرتجفاً تقريباً ، ومن غير أن يَجْرُؤَ على رَفْع عينيه ، وأُجيبُ بصوتٍ رصين : « إن الذى يَجِبُ أن تَصْنَع هو أن تترك صُوفية » ، ويَصْرُخ مع الهياج قائلًا : « ما تقول ؟ أتْرُكُ صُوفية ! أتْرُكها ! أَخْدَعُها ! أكون خائناً ! أكون مُدَاجياً ! أكون ناقضاً للعهد ! . . . » ، وأتناول الكلامَ قاطعاً قوله : « ماذا ! أمِنِّى يَخَافُ إميلُ أن أُعلِّمه استحقاقَه لمِثْل هذه

النُّعُوت ؟ » ، ويداوم على كلامه بعين الصَّوْلة : « كَلاَّ ، لا منك ولا من غيرك ، ويمكنني أن أحْفَظَ عملَكَ على الرغم منك ، ويُمْكِنني ألا أستحقَّ تلك النعوت » .

وكنتُ منتظراً هذا الاندفاعَ الأول ، وأَدَعُه يَمُرُّ من غير أن أثُور ، ولو لم يَكن عندى اعتدالٌ أُوصيه به لكان عندى لطفٌ أُعِظُه به ! ويَعْرِفنى إميلُ كثيراً فلا يعتقد إمكانَ مطالبته بشىء يكون سيئاً ، وهو يَعْرِف جيداً أنه يَصْنَع سوءاً إذا ما تَرَكَ صُوفية ضِمْنَ المعنى الذى يُطْلِقه على هذه الكلمة ، والخلاصةُ أنه ينتظر منى إيضاحاً ، وهنالك أستأنفُ كلامى :

« أَوَ تَظُنُّ ، يا إميلُ العزيز ، وجودَ رجلٍ من أىِّ حالٍ كان يستطيع أن يكون أكثرَ سعادةً منك منذ ثلاثة أشهر ؟ إذا كنت تَظُنُّ هذا فأَزِلْ ضلالك ، فقد استنفدتَ سعادةَ الحياة قبل أن تَذُوقَ مَلَاذَّها ، ولا يُوجَد شىء يَزِيدُ على ما اختبرتَ ، وسعادةُ الحواسِّ عابرةٌ ، وبها تَخْسَرُ حالَ الفؤادِ المعتادةُ دائماً ، وقد تمتعتَ بالأمل أكثرَ مما ستتمتعُ به فى الحقيقة ، وما يُزَيِّنُه الخيالُ من المرغوب فيه يَترُكه بالحيازة ، وإذا عَدَوْتَ الموجودَ بذاته وحدَه لم يُوجَدْ جميلٌ سوى غيرِ الموجود ، وإذا ما أَمْكَنَ دوامُ هذه الحال فى كلِّ وقتٍ وجدتَ السعادةَ العُلْيا ، ولكنَّ كلَّ ما يتعلَّقُ بالإنسان يُشْعَرُ بمصيره إلى الزوال ، وكلُّ شىء فى حياة الإنسان عابرٌ له نهاية ، ومتى دامت الحالُ التى تَجْعَلُنا سعداءَ دواماً متصلاً نَزَعَتْ عادةُ التمتع بها ذوقَها ، وإذا لم يَتَغَيَّرْ شىء فى الخارج تغيَّرَ القلبُ ، فالسعادةُ تتركنا أو نحن نتركها .

« وفى أثناء هذيانك كان يَمُرُّ الوقتُ الذى لم تَلتَفِتْ إليه ، وقد انتهى الصيفُ ، والشتاء يَدْنو ، حتى إننا إذا ما استطعنا أن نداوم على جَوْلاتنا فى فَصْلٍ بالغِ القسوة كالشتاء لم تُطَقْ على الإطلاق ، ولا بُدَّ من تغيير طراز الحياة على الرغم منا ، فلا يُمْكِن دوامُ هذا الطراز ، وأُبْصِرُ فى عينيك الجَزُوعين أن هذا المانعَ لا يَعُوقك مطلقاً ، فما كان من اعتراف صُوفية ومن رغائبك الخاصة يُوحى إليك بوسيلةٍ سَهْلةٍ لاتقاء الثلج والعدولِ عن السَّفر فى سبيل رؤيتها ، ولا رَيْبَ فى سهولةِ هذه الوسيلة ، ولكن الربيع إذا جاء ذابَ الثلجُ وبَقِيَ الزواجُ ، ولا بُدَّ من التفكير فى أمره من أجْلِ جميع الفصول .

« وتُريدُ أن تتزوج صُوفية ولَمَّا تَمضِ خمسةُ أشهر على معرفتك إياها ! وتُريدُ أن تتزوجها لأنها تُعجِبُك ، لا لأنها تلائمك ، كأن الحبَّ لا يُخْدَع حَوْل الملاءمات مطلقًا ، فلا يَتَباغَضُ فى آخر الأمر مَنْ يَبْدءون بالتَّحابِّ ! أجَلْ ، إننى أعلم أنها فاضلة ، ولكن أيَكْفِى هذا ؟ وهل يَكْفِي أن يكون بعض الناس من الصالحين حتى يتوافقوا ؟ وطبعُها ، لا فضلُها ، هو الذى أضعُه موضعَ الشكِّ ، وهل تظهِر المرأةُ طبعَها فى يوم واحد ؟ وهل تَعرِف مقدارَ ما يَجِبُ أن تبذُوَ به من الأوضاع حتى يُعْرَفَ مزاجُها معرفةً أساسية ؟ وهل حُبُّ أربعة أشهرٍ ضمانٌ كافٍ لبقية الحياة ؟ قد يَجْعَلُك غِيابُ شهرين تنساها ، وقد يَنتَظِر غيرُك غِيابَك فيَمْحُوك من قلبها ، وقد تَجِدُها عند عودتك خَلِيَّةً بمقدار ما وجدتَها حَنُونًا حتى الآن ، ولا يتوقَّفُ أمرُ المشاعر على المبادىء ، فقد تَبقَى صالحةً جدًّا مع زوال حُبِّها إياك ، وأَمِيلُ

إلى اعتقاد ثباتها ووفائها ، ولكنْ من يَكفُلُكَ ومن يَكفُلُها مع عدم اختبارِكما مطلقًا ؟ وهل تُؤجِّلُ هذا الاختبارَ حتى يَفُوتَ وقته ؟ وهل تَنتَظِرُ لتعارفكما تعارفًا صادقًا حتى الحين الذى يتعذَّر فيه افتراقُكما ؟

« لم تَبلُغ صُوفية الثامنةَ عشرةَ من سِنِيها ، وأنت لم تَكَدْ تجاوز الثانىَ والعشرين من عُمُرك ، وهذه السِّنُّ هى سِنُّ الغرام ، لا سِنُّ الزواج ، ويا لَرَبٍّ الأسرة ، ويا لأُمِّها ! وَىْ ! انتَظِرا مجاوزةَ دَوْرِ الوُلُودية على الأقلِّ حتى تَعرِفا تربيةَ الأولاد ، وهل تَعْرِفُ عددَ الفَتَيات اللائى احتملنَ متاعبَ الحَبَل قبل الأوان فأضعفت هذه المتاعبُ بُنيَتَهن وقوَّضَتْ صحتَهن وقَصَّرَتْ حياتَهن ؟ وهل تَعرِفُ عددَ الأولادِ الذين بَقُوا ضعفاء واهين لعدم تغذيتهم فى جسمٍ مُكَوَّنٍ تكوينًا كافيًا ؟ ومتى نَمَا الولدُ والأمُّ معًا ، وقُسِّمَت المادةُ اللازمة لنُمُوِّ كلٍّ منهما ، فلم يَنَلْ هذا ولا ذاك ما قدَّرَته له الطبيعةُ ، فكيف يُمكِنُ ألا يتأذيا بهذا ؟ ولا يَعدُو الأمرُ حدَّ كَوْنى سيِّئَ المعرفة يإميلَ أو حدَّ كَوْنه سيُفضِّل حيازةَ امرأةٍ وأولادٍ أقوياء بعد حينٍ على إشباع هَلَعه ضَرًّا بحياته وصحته .

« ولنتكلَّمْ عنك ، فإذا كنتَ تَرْنُو إلى حال الزوج والأب فهل أنعمتَ النظر فى واجباته ؟ متى أصبحتَ رَبًّا لأُسرةٍ صِرْتَ عُضوًا فى الدولة ؟ وما معنى عضوٍ فى الدولة ؟ أتَعْرِف ذلك ؟ لقد دَرَسْتَ واجباتِك كرجل ، ولكن أتَعرِف واجباتِ المواطن ؟ وهل تَعرِف ما الحكومة والقوانينُ والوطن ؟ وهل تَعْرِف ثَمَنَ السماحِ لك بالحياة ، وفى سبيل مَنْ يَجِبُ أن تمُوت ؟ أنت تَظُنُّ أنك تعلمتَ كلَّ شىء ، ولا تزال غيرَ

عارفٍ شيئًا ، وتَعَلَّمْ معرفةَ النظامِ المدنيِّ والمكانِ الذى يلائمك فيه قبل اتخاذك هذا المكانَ .

« ويجب أن تترك صُوفيةَ يا إميلُ ، ولا أقول أن تتخلَّى عنها ، فإذا كنتَ قادراً على ذلك كانت سعيدةً جدًّا بعدم الزواج بك الآن ، ويجب أن تتركها لتعودَ جديراً بها ، ولا تكن من الاغترار ما تَظُنُّ معه أنك تستحقُّها ، وَىْ ! ما أكثر ما بَقِيَ عليك أن تَصْنَع ! فتعالَ وقُمْ بهذا العمل النبيل ، وتعالَ واصْبِرْ على الغياب ، وتعالَ واكْسِبْ ثَمَن الوفاء ، فإذا ما رَجَعْتَ أمْكَنَك أن تُكرِمَ نفسَك بشىء لديها وأن تَطْلُبَ يَدَها طَلَبَ مكافأةٍ لا لُطفٍ » .

ولا يذْعنُ الفتى ، وهو يقاوِم ويناضِل ، ولَمَّا يُمرِّنْ على مكافحة نفسه ، ولَمَّا يُعَوِّدْ أن يَرْغَبَ فى شىء وأن يُرِيدَ شيئًا آخر ، ولِمَ يَرْفِضُ سعادةً تنتظره ؟ ألَا يَعْنِى تأخيرُ قبولِ اليد التى قُدِّمَتْ إليه ازدراءً لهذه اليد ؟ وما الضرورةُ إلى الابتعاد عنها ليتَعلَّمَ ما يَجِبُ أن يَعْرِف ؟ وإذا كان هذا ضروريًّا فَلِمَ لا يُتْرَكُ له عهدُه المُوَكَّدُ لعَوْدِه بالعُرَى الوُثْقَى التى لا انفصامَ لها ؟ وليَكُنْ زوجًا لها وهو يَكُون مستعدًّا لاتِّباعى ، وليَفْتَرِقا ، وهو يتركها بلا وَجَلٍ ... وأقول له : « يا للتناقضِ فى تزوُّجها وتركِها يا إميلُ العزيز ! إن من الجميل أن يَقدِر العاشقُ على العيشِ من غير خليلته ، وأما الزوجُ فلا يَجُوزُ له أن يَترُك زوجتَه بلا ضرورةٍ مطلقًا ، وأرى لِشفاء وساوسِك أن تكون مُهَلُك غيرَ إراديةٍ فتستطيعَ أن تقولَ لصُوفية إنك تتركها على الرغم منك ، حسَنًا ! كُنْ

راضياً ، واعْرِفْ لك معلماً آخر ما دمتَ لا تُطِيعُ العقل ، وأنت لم تَنْسَ العهدَ الذى قطعتَه لى ، ولا بُدَّ من ترك صُوفية يا إميلُ ، وهذا ما أريد » .

سَمِعَ هذه الكلمة ، فخَفَضَ رأسَه وسَكَتَ وسَبَحَ فى الخيال دقيقةً ، ثم قال لى وهو ينظُر إلىَّ مطمئنًا : « ومتى يَجِبُ أن نَرْحَل ؟ » ، وأقول : « فى مدة أسبوعٍ ، ولا بُدَّ من إعداد صُوفية لهذا الرَّحيل ، فالنساء أكثرُ ضعفاً ، ولا بُدَّ من مداراتهن ، وبما أن هذا الغِيابَ ليس واجباً عليها كما هو علينا فإنه يُباَح لها أن تحتمله بشجاعة قليلة » .

ولم أبْلُغْ من الإغواء بالتطويل حتى فَصْلِي عن فِتْيانى يومية مَعَاشقهم ، ولكننى ما فَتِئْتُ منذ زمنٍ طويل أُغَرُّ بمسامحة القراء ، فَلأَلْتَزِم جانبَ الاختصار حتى أنْتَهِيَ من القصة مرةً ، وهل يَجْرُؤ إميلُ أن يُبْدِيَ لصاحبته ما أبداه لصديقه من يقين ؟ أما أنا فأذهبُ إلى هذا ، فمن حقيقة حُبِّه نفسِها ما يجب أن يستنبط هذا اليقين ، وهو يَكُون أكثرَ ارتباكاً أمامها لو كان أقلَّ اكتراثاً لترْكها ، وذلك أنه يَترُكها مذنباً ما رَبكَ هذا الدَّوْرُ الفؤادَ الصالح دائماً ، بَيْدَ أن التضحية كلما كَلَّفَتْه كثيراً باهَى بها أمام تلك التى جعلتها له أمراً شاقًّا ، وهو لا يَخْشَى أن تُخْطِئَ فى فهم الباعث الحافزِ له على عَزْمه ، فيَلُوح أنه يقول لها عند كلِّ نظرةٍ : « أىْ صُوفية ! اقْرَئِي فى فؤادى ، وكُونى وفيَّةً لى ، فليس عاشقُك بلا فضيلة » .

وتحاول صُوفيةُ الأَنُوفُ ، من ناحيتها ، أن تحتمل ، مع الوقار ، ما وُجِّهَ إليها من ضَرْبةٍ غيرِ منتظرة ، وتَبْذل جُهْدَها أن تَبْدُوَ غيرَ متأثرةٍ بها ، ولكنْ بما أنه لم يَكُنْ لها ، كما كان لإميلَ ، شرفُ المبارزةِ والفَوْز فإنها

لم تُطِق الصدمة ، فتَبكِي وتَئِنُّ على الرغم منها ، وما يُخامِرُها من خَشْية نسيانها يَزِيدُ أَلَمَ الفِراق ، وليس أمام عاشقها ما تَبكِي ، وليس له ما تُبْدِي مخاوفَها ، وهى تُفَضِّل أن تَختَنِق على أن تَدَع أَنَّةً تُفلِتُ منها أمامه ، وإنما أنا الذى يَتَلَقَّى شكواها ويَرَى دموعَها ، وإنما أنا الذى تُظْهِرُ اتخاذَه نَجِيًّا لها ، ومن خصائص النساء أن يَكُنَّ حاذقاتٍ فيَعرِفْنَ أن يَتَنَكَّرْن ، فكلما كانت تَتَذَمَّر من استبدادى خِفْيةً كانت تُعْنَى بمُداراتى ، ولا عَجَبَ ، فهى تَشْعُر بأننى قابضٌ على مصيرها .

وأُسْلِيها ، وأُسَكِّنُ رَوْعَها ، وأَجْعَلُ نفسى مسؤولاً عن عاشقها ، وإن شِئْتَ فقُلْ عن زوجها ، فلْتَحْفَظْ له عينَ الوفاء الذى سَيَحْمِلُه لها ، وسَيَكُون لها فى عامين ، وسيكون زوجاً لها فى عامين كما أُقْسِمُ ، وهى تَحْمِلُ لى من التقدير ما يكفى لاعتقادها أننى لا أُرِيدُ مخادعتَها ، وأنا ضامنٌ لكلٍّ منهما نحو الآخر ، وما عندها من فؤادٍ وفضيلة ، وما عندى من نزاهة ، وما عند والديها من ثقة ، أمورٌ تُلقِي الطُّمَأْنينةَ فيهما ، ولكن ما نَفْعُ العقل أمام الضعف ؟ فهما يفترقان كأنَّه قُدِّر على كلٍّ منهما أَلاَّ يَرَى الآخرَ أبداً .

وهنالك تَذْكُرُ صُوفية حَسَراتِ أُوكاريسَ وتَظُنُّ أنها فى مكانها ، ولا نُثِرْ أمرَ هذه المآشقِ الخيالية فى أثناء الغياب مطلقاً ، وأقول ذاتَ يومٍ لصُوفية : « أىْ صُوفية ، تبادلى الكتبَ أنتِ وإميلُ ، فأَعْطِيه كتابَ « تِيلِماك » كَيْما يتعلَّمَ كيف يشابهه ، وليُعْطِك كتابَ « الناظر » الذى تُحِبِّين قراءتَه ، وادْرُسِي فيه واجباتِ النساء الصالحات ، واذْكُرِى أن هذه الواجباتِ ستكون واجباتِك فى عامين » ، ويَرُوق هذا التبادلُ الاثنين ويُنْعِمُ عليهما

بالثقة ، وأخيراً يَحِلُّ اليومُ الكئيب ، فيَجبُ الافتراق .

وحين الوَداع يعانِقُنى أبو صُوفية الوَقورُ الذى اتفقتُ معه على كلِّ شىء ، ثم يَختَلى بى ويقول لى هذه الكلماتِ بصوتٍ رصين مع لهجةٍ مُؤكَّدة : « لقد صنعتُ كلَّ شىء يُرْضيك ، وقد عَرَفتُ أننى أُعامِل رجلاً شريفاً ، ولم يَبْقَ عندى غيرُ كلمةٍ أقولها لك ، وهى : ذَكِّرْ تلميذك بأنه وَقَّع عقدَ الزواج على فم ابنتى » .

ويا لَلفَرْق فى هيئــة العاشقيْن ! فأما إميلُ الصائلُ المشتعلُ الهائجُ المضطرب فيَبْكى بصوتٍ عالٍ ويَسْكُب سيولاً من الدموع على أيدى الأب والأم والبنت ويعانقُ مُنْتَحِباً جميعَ من فى البيت ، ويُكَرِّرُ ذاتَ الأمور ألفَ مرةٍ بشىء من الاختلال يُوجِبُ الضحك فى كلِّ مناسبةٍ أخرى ، وأما صُوفيةُ العَبُوسُ المُنْتَقَعةُ الكابيةُ العينِ القاتمةُ الناظرِ فتَبْقَى ساكنةً ولا تَنْبِسُ بكلمة ولا تَبْكى مطلقاً ولا تَرَى أحداً حتى إميلَ ، ومن العبث أن يَتَناول يديها وأن يعانقها ، فقد بَقِيَتْ فاقدةَ الحركة غيرَ متأثِّرةٍ بدموعه ومُلَامَساته وكلِّ ما يَفْعَلُ ، ولا غَرْوَ . فهو فى نظرها قد ذَهَب ، وما أكثرَ ما يكون هذا المنظرُ أعظمَ تأثيراً من عَوِيل عاشقها المزعج وحَسَراتِه الصاخبة ! وهو يراه ، وهو يَشْعُر به ، وهو محزونٌ منه ، وأَجُرُّه بمشقة ، ولو تركتُه دقيقةً أخرى ما رَضِيَ الانصرافَ ، وقد سَرَّنى أن حَمَلَ معه هذه الصورة المحزنة ، فإن سَوَّلَتْ له نَفسُه أن يَنْسَى ما يَجِبُ عليه نحو صُوفية ذَكَرَها كما شاهدها حين انصرافه فوَجبَ أن يكون أَخْبَلَ الفؤاد إذا لم أستطع رَدَّه إليها .

السّياحات

يُسأل هل من الحسن أن يسيحَ الشُّبّان ، ويُجادل حول هذا كثيراً ، ولو اقتُرِح أن يكون السؤالُ غيرَ هذا فسُئِلَ هل من الحسن أن يسيحَ الرجال لكان الجدالُ حول هذا أقلَّ مما حول ذاك .

فسُوء استعمالِ الكتب يقتل العلمَ ، وذلك أن الناس ، إذْ يعتقدون معرفةَ ما يقرءون ، يعتقدون أنهم فى غِنًى عن تعلُّمِه ، ولا ينفعُ كثيرٌ من القراءة لغير صُنْع جاهلين مُعْجَبين بأنفسهم ، ولو نُظِرَ إلى جميع عصور الأدب ما وُجِدَ عصرٌ يُطالَعُ فيه بمقدار ما يطالَعُ فى هذا العصر ، وما وُجِدَ عصرٌ يُسفِرُ فيه ذاك عن قليلِ علمٍ كما فى هذا العصر ، ولا تجِدُ فى جميع أوربة بلداً تُطْبَعُ فيه كتبٌ فى التاريخ والرِّحلات كما يُطبَع فى فرنسة ، ولا تجِدُ ، مع ذلك ، بلداً أقلَّ من فرنسة معرفةً بعبقرية الأمم الأخرى وطبائعها ، وكثيرٌ من الكتب ما يحمِلُنا على إهمال كتاب العالَم ، أو إننا إذا ما قرأناه استمسك كلٌّ واحدٍ منا بصحيفته ، ولو كانت كلمة « أيُمكِنُ الإنسانَ أن يكون فارسيًّا ؟ » مجهولةً لدىَّ لا نصرف ذهنى ، عند سماعها ، إلى صدورها عن البلد الذى هو أكثرُ البلدان خضوعاً للمُبْتَسَرات القومية وعن أكثر الجنسين نشراً لها .

ويَظُنُّ الباريسىُّ أنه يَعرِف الناس مع أنه لا يَعرِف غيرَ نفسه ، وهو يَعُدُّ فى مدينته ، الزاخرة بالأجانب دائماً ، كلَّ أجنبىّ حادثاً عجيباً لا مثيلَ له فى العالَم ، ويجب أن يُنظَرَ إلى بُرْجُوَازية هذه المدينة الكبرى عن

كتُبٍ ، ولا بُدَّ من العيش معهم ، ليُرَى كيف يُمكِن الواحدَ أن يكون غبيًّا بمقدار ما هو ذكيٌّ ، ووجهُ الغرابة فى الأمر هو أن كلَّ واحدٍ منهم قرأ عشرَ مراتٍ على ما يحتمل وصفاً للبلد الذى يُثِيرُ الواحدُ من سُكّانه عَجَبَه .

ومن الأمور الشاقة كثيراً كشف مُبْتَسَرات المؤلفين ومُبْتَسراتنا معاً للوصول إلى الحقيقة ، وقد قضيتُ حياتى فى مطالعة كُتُب السياحة فلم أجِدْ اثنين منها ، قَطُّ ، قد أعطيانى عينَ الفكرة عن عينِ الشعب ، وإنى ، حين قابلتُ بين القليل الذى استطعتُ ملاحظتَه بما كنتُ قد قرأتُ ، انتهيتُ إلى ترك السُّيّاح هنالك آسفاً على الوقت الذى أنفقتُ فى التَّعَلُّم من كتبهم ، معتقداً أنه يجب أن يُرَى الشىء ، لا أن يُقْرَأ ، فى الأمور القائمة على الملاحظة من كلِّ نوع ، ويكون هذا صحيحاً فى مثل هذه الحال حين يكون جميع السُّيّاح مخلصين فلا يَرْوون غيرَ ما يَرَوْن أو ما يعتقدون ولا يُنكِرُون الحقيقة بما تتَّخِذُ فى عيونهم من ألوان زائفة ، وما يكون ذلك إذا ما وَجَبَ تمييزُ الحقيقة من خلال أكاذيبهم وسوء نيتهم !

ولْنَتْرُكْ ، إذَنْ ، وسيلةَ الكتبِ التى يُباهَى بها عندكم لِمَنْ كُوِّنوا للاكتفاء بها ، فهى صالحةٌ ، صلاحَ فنِّ رِيمُون لُول ، لتَعَلُّمِ الهَذْرِ حَوْل ما لا يُعرَفُ مطلقاً ، وهى صالحةٌ لتعليم الأفْلاطُونِيين البالغين من العُمُر خمسةَ عشرَ عاماً أن يَتفلسفوا فى الأندية ولإطلاع الناس على عادات مصرَ والهندِ وَفْقَ ما قرَّره پُول لُوقَا أو تافِرْنِيه .

ومن المبادئ المُسَلَّم بها عندى أن من لم يَرَ غيرَ أُمَّةٍ لا يَعرِفُ سِوَى مَنْ عاش معهم بدلاً من أن يَعرِف الرجال ، وإليك ، إذَنْ ، وجهاً آخرَ

لوضع عين المسئلة عن السياحات ، وهى : أيكفى الرجلَ الحسنَ التنشئةِ ألاَّ يَعْرِف غيرَ مواطنيه ، أم إن من المهمِّ أن يَعرِف الناسَ على العموم ؟ عاد لا يكون هنا شكٌّ ولا جدال ، ورَوْا مقدارَ ما يتوقَّف حَلُّ المسئلة الصعبةِ ، أحياناً ، على الوجه الذى تُوضَعُ به .

ولكنْ أيَجِبُ أن يُطافَ فى جميع الأرض لدراسة الناس ؟ وهل يَجِبُ الذهابُ إلى اليابان لملاحظة الأوربيين ؟ وهل من الواجب معرفةُ جميع الأفراد لمعرفة النوع ؟ كَلَّا ، وإنما يوجد من الناس مَنْ يتشابهون كثيراً فلا ضرورةَ لدرسهم على انفراد ، ومن رأى عشرةَ فرنسيين فكأنما رأى الفرنسيين جميعاً ، ومع أنه لا يُمكِنُ أن يقال عن الإنكليز وبعض الأمم الأخرى ما يقال عن أولئك فإن من الثابت أن لكلِّ أمةٍ سَجِيَّتَها الخاصةَ بها المُمَيِّزَةَ لها والتى تُسْتَنْبَطُ بالاستقراء القائم على ملاحظة كثيرٍ من أفرادها ، لا على فردٍ واحدٍ منها ، ومَنْ يقارنْ بين عشر أمم يَعرِفِ الرجال ، كما أن الذى يَرَى عشرةَ فرنسيين يَعرفُ الفرنسيين .

ولا يَكفِى الطَّوافُ فى البلدان للوقوف عليها ، وإنما يجب أن يُعرَف كيف تكون السياحة ، وتستلزم الملاحظةُ وجودَ عيونٍ وتوجيهَ هذه العيون نحو الموضوع الذى تُرادُ معرفتُه ، ويُوجَدُ كثيرٌ من الناس من تعلُّمُهم الرِّحْلات أقلُّ مما تعلِّمهم الكتب ، وذلك لأنهم يجهَلون فنَّ التفكير ، ولأن ذهنهم يُوَجَّهُ فى المطالعة من قِبل المؤلِّف على الأقلِّ ، ولأنهم لا يَعرِفون أن يَرَوْا فى الرِّحْلات شيئاً بأنفسهم ، ويُوجَدُ آخرون لا يتعلَّمون شيئاً لأنهم لا يريدون أن يتعلَّموا ، ويَبْلُغُ موضوعهم من الاختلاف عن

ذلك ما لا يَقِفُ نظرَهم معه مطلقاً ، ومن المصادفة العظيمة إذا ما رَأَوْا تمامًا ما لا يبالون برؤيته مطلقاً ، والفرنسيُّ ، بين جميع أمم الأرض ، هو أكثرُ مَنْ يَسِيحُ ، ولكنْ بما أنه طافحٌ بعاداته فإنه يَخْلِطُ بين جميع ما لا يشابهها ، ويُوجَدُ فرنسيون فى جميع زوايا العالم ، ولا يُوجَدُ بلدٌ مشتملٌ على أناس قاموا بسياحات كمن تشتمل عليهم فرنسة ، ومع ذلك فإنك لا ترى بين جميع أمم أوربة كالفرنسيين من تَقِلُّ معرفتهم للأمم على الرغم من كونهم أكثرَ الأمم مشاهدةً لها .

والإنكليزىُّ يَسِيحُ أيضاً ، ولكنْ على طرازٍ آخر ، فوَجَبَ أن تَكُون هاتان الأمتان متناقضتين فى كلِّ شىء ، فأشرافُ الإنكليز يَسِيحُون ، وأشرافُ الفرنسيين لا يسيحون مطلقاً ، وأهلُ فرنسة يَسيحُون ، وأهلُ إنكلترة لا يسيحون مطلقاً ، وللإنكليز فخرٌ بهذا الاختلاف كما يَظْهَرُ لى ، والغُنْمُ تقريباً هو ما يَهْدِف إليه الفرنسيون فى سياحاتهم دائماً ، ولكن الإنكليز لا يَبْتَغُون الثراء لدى الأمم الأخرى مطلقاً ، ما لم يكن هذا عن تجارةٍ ومع امتلاء يدٍ ، فهم إذا ما ساحوا كان هذا لإنفاق مالهم ، لا ليَعِيشُوا بحيلةٍ ، وهم من الزَّهْوِ ما لا يَتَمَسْكَنُون معه خارجَ بلادهم ، ومن شأنِ هذا أن يكون تَعَلُّمُهم لدى الأجنبىِّ أفضلَ مما يَتَّفِقُ للفرنسيين الذين يَدُور فى رؤوسهم غَرَضٌ آخرُ ، ومع ذلك فإن للإنكليز مُبْتَسراتِهم القوميةَ ، حتى إن لديهم منها أكثرَ مما لدى أىِّ إنسانٍ كان ، غير أن هذه المبتسراتِ قائمةٌ على الهوَى أكثر مما على الجهل ، وللإنكليزىِّ مبتسراتُ الكِبْرِياء وللفرنسىِّ مبتسراتُ الخُيَلاء .

وبما أن أقلَّ الأمم ثقافةً أكثرُها حكمةً على العموم فإن أقلَّها سياحةً أفضلُها سياحةً ، وذلك بما أنها أقلُّ منا تقدُّمًا فى المباحث التافهة وأقلُّ اشتغالاً بأمور فُضُولنا الفارغ فإنها تُوَجِّهُ جميعَ انتباهها إلى ما هو مفيدٌ حقًّا ، ولا أعْرف غيرَ الإسپان من يَسِيحُون على هذا الطراز ، فبينما يُهْرَعُ الفرنسىُّ إلى مُتَفننى البلد ، وبينما يَحْصُل الإنكليزىُّ على نُسَخٍ عن العادِيَّات ، وبينما يَحْمِلُ الألمانى أَلْبُومَه* لدى جميع العلماء ، يَدْرُس الإسپانىُّ صامتاً الحكومةَ والطباعَ والضابطة ، والإسپانىُّ هو الوحيدُ بين الأربعة مَنْ إذا عاد نَقَلَ مما شاهَدَ بعضَ الملاحظات المفيدة لبلده .

وكان القدماء قليلى السياحة قليلى المطالعة قليلى التأليف ، ومع ذلك فإنه يُرَى فيما بَقِيَ لنا منهم أنهم كانوا يلاحظون بعضَهم بعضاً ملاحظةً أفضلَ من ملاحظتنا مُعَاصِرينا ، وإنا ، من غير رجوعٍ إلى تآليف أُوميرسَ ، هـذا الشاعرَ الوحيدَ الذى يَنْقُلُنا إلى البلاد التى يَصِفُها ، لا نستطيع أن نَحْبِسَ عن هيرُودُتْس شرفَ تصويره الطبائعَ فى تاريخه ، ومع أن هذا كان بطريق الخَبَرِ أكثرَ مما بإنعام النظر فإنه أفضلُ مما يَصْنَع مؤرخونا الذين يَشْحَنُون كُتُبَهم بالرسوم والحروف ، وقد وصف تاسيتُ جِرْمانَ زمنه بما لم يَصِفْ به كاتبٌ ألمانَ الوقتِ الحاضر ، ولا مِرَاءَ فى أن الذين يُكِبُّون على التاريخ القديم يَعْرِفون الأغارقةَ والقرطاجيين والرومان والغوليين والفرس معرفةً أحسنَ من معرفة أيةِ أمةٍ فى الوقت الحاضر لجاراتها .

ومما يَجِبُ أن يُعْتَرَفَ به أيضاً أن أخلاقَ الأممِ الأصلية تَزُول يومًا

* Album

بعد يوم ، فيصيرُ إدراكُها أكثرَ صعوبةً ، وكلما امتزجت العروقُ واختلطت الأممُ رئى بالتدريج زوالُ هذه الفروق القومية التى كانت تقفُ النظرَ أولَ وهلةٍ فيما مضى ، وكانت كلُّ أمةٍ فى الماضى أكثرَ اقتصاراً على نفسها ، فقد كانت الأمم أقلَّ اتصالاً وأسفاراً ومصالحَ مشتركةً أو متباينةً وأقلَّ صلاتٍ سياسيةً وعلائقَ مدنيةً ، وقد كانت أقلَّ علماً بهذه القَرْقعات المَلَكية التى تُسمَّى مفاوضاتٍ ، وكان لا يُوجَدُ سفراء عاديون أو مُقيمون دائمون ، وكان كِبارُ المَلَّاحين نادرين ، وكانت التجارةُ القاصيةُ قليلةً ، وما كان من هذه التجارة القليلة يَقُوم به الأميرُ نفسُه ، فيَسْتَخْدِم فيها أناساً من الأجانب أو أناساً أذِلَّةً لا تأثيرَ لهم فى الآخرين ولا يكونون للأمم جامعين ، وما بين أوربة وآسية من صِلَاتٍ فى الوقت الحاضر أكثرُ مئةَ مرةٍ مما كان بين إسپانية وبلادِ الغُول ، وكانت أوربةُ وحدَها أكثرَ تفرُّقاً من جميع الأرض فى أيامنا .

وإلى ذلك أضيفوا أن الأمم القديمة ، إذْ كانت تَعُدُّ نفسَها فى الغالب سُكَّاناً أصليين لبلادها الخاصة ، كانت تَشْغَلُ هذه البلادَ منذ زمنٍ طويلٍ مَحْوًا لذكرى القرون البعيدة التى فيها استقرَّ أجدادُها بها ، وتَرْكاً للإقليم من الوقت ما يَجْعَلُ فيها انطباعاتٍ دائمةً ، وذلك بدلاً من كون مهاجرات البرابرة الحديثة قد مَزَجَتْ كلَّ شيء وخَلَطَتْ كلَّ شيء بيننا بعد غَزَوَات الرومان ، وعاد فرنسيو اليومَ لا يَكُونون ذوى أجسام طويلة شُقْرٍ بيض كما فى الماضى ، وعاد الأغارقةُ لا يَكُونون أولئك الآدميين الحِسَانَ الذين صُنِعُوا ليَصْلُحُوا نماذجَ للفنّ ، وقد غَيَّرَت وجوهُ الرومانِ أنفسِهم طابعَها

كما غيّروا طباعَهم ، ويفقِدُ الفرْسُ ، الذين يَرْجِعُ أصلُهم إلى بلاد التَّتَر ، كلَّ يومٍ ، شيئاً من شناعتهم الأولى باختلاط الدم الشَّرْكسيِّ ، وعاد الأوربيون لا يكونون غُولِيِّين ولا جِرْماناً ولا إيبِرِيين ولا من الأُلُوبُورْج ، وإنما هم من الشَّيت الذين اخْتَلَفُوا تحوُّلاً من حيثُ الوجوهُ والأخلاقُ .

وهذا هو السبب فى كَوْنِ الفروق القديمة بين العروق ، وفى كَوْنِ خصائص الهواء والأرض ، كانت تَمِيزُ أقوى تمييزٍ بين أمةٍ وأمةٍ فى الأمزجة والوجوه والطبائع والأخلاق ، فلا يُمْكِنُ أن يَظْهَر هذا فى أيامنا التى لا يَدَعُ فيها تَقَلُّبُ الأمور فى أوربة لأىِّ داعٍ طبيعىٍّ من الوقت ما يَطْبَعُ فيه طابعَه ، والتى عادت فيها الغاباتُ المُخْتَبَطة والمستنقعاتُ المجففة والأرضُ المزروعة على نَمَطٍ واحدٍ ، مع سوء فِلاحةٍ ، لا تَدَعُ ، حتى فى المظهر الطبيعىِّ ، عينَ الفرق بين أرضٍ وأرض ، وبين بلدٍ وبلد .

ومن المحتمل أنه ، إذا ما نُظِرَ إلى مِثْل هذه التأمُّلات ، يُتَوَرَّع بعضَ الشىء عن تحويلِ هِيرُودُتُس وكتيزْياس وپلِينِى إلى مَهْزَأةٍ لأنهم عَرَضُوا سُكَّانَ مختلفِ البلدان بأوصافٍ أصلية وفروق بارزة عُدْنا لا نَجِدُها فيهم ، ولا بُدَّ من العُثُور على عين الآدميين لتُعْرَفَ فيهم عينُ الوجوه ، ولا بُدَّ من عدم تغيير شىء لهم حتى يكونوا قد بَقُوا عينَ الناسَ ، وإذا ما استطعنا أن ننظر فى وقتٍ واحدٍ إلى جميع الناس الذين كانوا فهل من الممكن أن نَشُكَّ فى أننا نَجِدُ فروقاً بين قرنٍ وقرنٍ أعظمَ مما نَجِدُ اليومَ بين أمةٍ وأخرى ؟

وفى الوقت الذى تَغْدُو فيه هذه الملاحظاتُ أكثرَ صعوبةً يتمُّ أمرها

تماماً أكثرَ إهمالاً وأعظمَ سُوءاً ، وهذا سببٌ آخرُ لقلة نجاح مباحثنا فى التاريخ الطبيعىِّ للجنس البشرىِّ ، وتتوقف المعارفُ التى تُكْتَسَبُ من السياحات على الغَرَض الذى أوجب هذه السياحاتِ ، فإذا كان هذا الغرض نظاماً فلسفياً لم يرَ السائحُ غيرَ ما يريد أن يرَى ، وإذا كان هذا الغرضُ مصلحةً استغرقت جميعَ انتباه من يُكِبُّون عليها ، ومن شأن التجارة والفنون التى تَمزُج الأممَ وتَخلِط بينها أن تحُولَ دون دراسة بعضها لبعض ، فإذا عَرَفتْ هذه الأممُ كيف ينتفع بعضُها من بعض فما زيادة المعرفة التى تحتاج إليها ؟

ومما يَنفَع الإنسانَ أن يَعرِف جميعَ الأماكن التى يُمْكِن أن يعيش فيها حتى يَختارَ ، فيما بعدُ ، أيَّها يستطيع أن يعيش فيه بأكثرِ ما يكونُ سهولةً ، وإذا كان كلُّ واحدٍ يَكْفِى نفسَه بكَدِّه لم يهِمَّه غيرُ معرفة اتساع البلد الذى يُمْكِن أن يُغَذِّيَه ، وأما الهمجىُّ الذى لا يحتاج إلى أحد ولا يَتَشَوَّف إلى شىء فى الدنيا فإنه لا يَعرِفُ ، ولا يحاول أن يَعْرِف ، بلاداً أخرى غيرَ بلده ، وهو إذا ما اضْطُرَّ إلى التوسُّع ليعيش تَجَنَّبَ الأماكنَ العامرةَ بالناس وتَعَقَّبَ البهائمَ ولم يَحْتَجْ إلى غيرها ليغتذى ، وأما نحن الذين يحتاجون إلى الحياة المدنية والذين عادوا لا يَسْتغنون عن افتراس الناس فإن من مصلحة كلِّ واحدٍ منا أن نَتَرَدَّد إلى البلاد التى يُوجَدُ فيها من الآدميين أكثرُ ما يُفْتَرَس ، ولذا فإن الجميع يتقاطرُ إلى رومة وباريسَ ولندن ، وفى العواصم ، دائماً ، يُبَاع الدمُ البشرىُّ بأبخسِ ما يكون ثمناً ، وهكذا فإنه لا يُعْرَفُ غيرُ الأمم الكبرى ، والأممُ الكبرى تتشابه كلُّها .

ويقال إن عندنا من العلماء من يَسِيحُون ليَتَثَقَّفُوا ، وهذا خطأٌ ، فالعلماء يَسِيحُون عن منفعةٍ كالآخرين ، وعاد الأفلاطُونون والفِيثاغُورُون لا يوجَدون ، أو إنهم إذا وُجِدُوا كانوا منا بعيدين ، ولا يَسِيحُ علماؤنا إلّا بأمرٍ من البَلَاط ، وهم يُرْسَلُون على عَجَل وتُدْفَعُ إليهم نفقاتُ سفرهم ، ويُؤدَّى إليهم مالٌ حتى يَرَوْا هذا الشيء أو ذاك الشيء الذى ليس موضوعاً خُلُقيًّا ، وهم يَقْضُون جميعَ وقتهم فى هذا الأمر الوحيد ، وهم من الصلاح البالغ ما لا يَسْرِقون معه ما يُعْطَوْنَه ، وإذا حَدَث فى بلدٍ ما أن ساح أناسٌ من مُحِبِّى الاطلاع على نفقتهم الخاصة كان هذا لتعليم الناس ، لا لدِراستهم مطلقًا ، وليس العِلْمُ هو ما يحتاجون إليه ، بل الافتخارُ ، وكيف يَتعلَّمون فى سياحاتهم أن يُلْقُوا نِيرَ المُبْتَسر عنهم ؟ والمُبْتَسَرُ هو الذى يقومون بسياحاتهم من أجْله .

ويُوجَدُ فَرْقٌ بين السياحة من أجْلِ مشاهدة البلد الأجنبىّ ومشاهدةِ الأمم الأجنبية ، فالأمرُ الأولُ هو ما يقوم به ذوو الفُضُول دائمًا ، ولا يكون الأمرُ الثانى عندهم إلّا ثانويًّا ، وعكسُ هذا ما يجب أن يكون لمن يُرِيدُ أن يتفلسف ، والولدُ يلاحِظ الأشياءَ منتظراً وقت قدرته على ملاحظة الناس ، ويجب أن يَبْدَأ الرجلُ بملاحظة أمثاله ، ثم يلاحِظ الأشياء إذا ما سَمَح له الوقتُ بذلك .

ومن سُوء البرهنة ، إذَنْ ، أن يُسْتَنْتَج كونُ السياحاتِ غيرَ مفيدةٍ لأننا نسىء السياحةَ ، ولكنه إذا سُلِّمَ بفائدة السياحات فهل يَعْنِي هذا ملاءمتَها لجميع الناس ؟ كَلّا ، وإنما تلائم عدداً قليلاً جِدًّا من الناس ،

وإنما تلائم الرجالَ الذين يكونون من قوة النفس ما لا يُغْوَوْن معه إذا سَمِعُوا دروسَ الخطإ ، وما لا يُجذَبُون معه لمثال العَيْب إذا ما رَأَوْه ، والسياحاتُ تَدْفَعُ الجِبِلِّيَّ إلى مَيْلِه وتُكْمِلُ جَعْلَ الرجل صالحًا أو طالحًا ، ومَنْ يَرْجِعْ من الطَّواف فى العالم يَكُنْ عند عَوْدته ما يَكُونُه مَدَى حياته ، أىْ إنه يَرْجِع من الطواف أشرارٌ أكثرُ من الصالحين ، وذلك لأن من يقومون بالسياحة يكونون عند انطلاقهم أكثرَ ميلاً إلى الشرّ مما إلى الخير ، ومَنْ يَكُنْ من الشبان سيِّئَ التنشئة سيِّئَ السلوك فإنه يَقْتَبِس فى سياحاته جميعَ عيوب الأمم التى يعاشِرُها ، ولا يقتبس واحدةً من الفضائل التى تمازجُ هذه العيوبَ ، ولكنَّ مَنْ هم سُعَدَاء مَوْلِداً ، ومَنْ أُحْسِنَ بالتربية تعهدُ جِبِلَّتهم الصالحة ، فيَسِيحُون بقصدِ التَّثَقُّف حقًّا ، يَعُودون كلُّهم أكثرَ صلاحًا وأعظمَ مما كانوا عليه عند بدء سفرهم ، فهكذا سَيَسِيحُ إميلُ ، وهكذا كان قد ساح ذلك الشابُّ الجديرُ بأفضل القرون ، فأَعْجَبَتْ أوربةُ الدَّهِشَةُ بمزيته ، ذلك الشابُّ الذى مات فى مَيْعَة شبابه من أجْل بلده ، ولكن مع استحقاقه أن يعيش ، ذلك الشابُّ الذى كان قبرُه ، المُزَيَّنُ بفضائله وحدَها ، ينتظر يداً أجنبيةً تكرِمُه بنَثْرِ أزهارٍ عليه .

ويجب أن يكون لكلِّ ما يُفْعَلُ بالعقل قواعدُه ، وإذا ما عُدَّت الرِّحلاتُ قِسْماً من التربية وَجَبَ أن تكون لها قواعدُها ، والسياحةُ للسياحة تَعْنِي تَسَكُّعًا وتَشَرُّدًا ، وكذلك السياحةُ للتعلُّم تنطوى على أمرٍ غامضٍ جدًّا ، ولا تُعَدُّ السياحةُ الخاليةُ من الغاية شيئًا مذكوراً ، وكنت أَوَدُّ مَنْحَ الفَتَى غَرَضًا خاصًّا فى التعلُّم ، وهذا الغرضُ إذا ما أُحْسِنَ اختيارُه قرَّر طبيعة

التعلُّم أيضًا ، وهذه تكملةٌ للمنهاج الذى حاولتُ مزاولته دائمًا .

والواقعُ أنه بَقِىَ له أن يَنْظُر إلى أمره من حيث علاقاته بمواطنيه بعد أن نظَر إليه من حيث علاقاته المادية بالموجودات الأخرى ، ومن حيث علاقاته الأدبية بالناس الآخرين ، ولِذَا فإنه يَجِبُ أن يبدأ بدراسة طبيعة الحكومة على العموم ، وبدراسة مختلف أشكال الحكومة ، ثم بدراسة الحكومة الخاصة التى وُلِدَ فى كَنَفِها وذلك ليَعْرِف هل يلائمه العيشُ تحت ظِلِّها ، وذلك لأن كلّ إنسانٍ إذا ما بلغ سِنّ الرُّشد وصار سيدَ نفسه أصبحَ ، وَفْقَ حَقٍ لا يستطيع شىء أن يُلْغِيَه ، سيداً أيضًا فى العُدُول عن العَقْد الذى يَرْتبطُ به فى المجتمع بتركه البلدَ المُسْتَقِرّ به ، وليس بغير إقامته ببلده بعد سِنّ رشده ما يُعَدُّ مؤيِّدًا تأييداً ضِمْنيًّا للعهد الذى اتخذه أجدادُه ، وهو يَكْتَسِبُ حَقّ التنزل عن وطنه كما يَتَنَزَّل عن ميراث أبيه ، ثم بما أن مكان المَوْلد هِبَةٌ من الطبيعة فإنه إذا ما تَخَلَّى عنه يكون قد تَخَلَّى عن أمرٍ خاصٍ به ، وإذا ما نُظِرَ إلى الأمر من حيث الحقّ الوثيقُ وُجِدَ أن كلّ إنسانٍ يَظَلُّ حُرًّا على مسؤوليته فى أىّ مكانٍ وُلِدَ فيه ، وذلك ما لم يَخْضَعْ مختاراً للقوانين نَيْلاً لحقّ حمايتها إياه .

ولِذَا فإننى أقول له مَثَلاً : « لقد عِشْتَ تحت إدارتى حتى الآن ، وقد كنتَ عاجزًا عن تدبير أمرك بنفسك ، بَيْدَ أنك تَدْنُو من العُمُر الذى تَتْرُك لك القوانينُ فيه حَقّ التصرف فى مالك فتجعلك ولىّ أمرك ، وتُوشِكُ أن تَجِدَ نفسَك وحيداً فى المجتمع تابعاً لكلّ شىء حتى لنفسك ، وتَرْغَبُ فى الزواج ، وهذه الرغبةُ جديرةٌ بالثناء ، وهى من واجبات الرجل

ولكنْ لا بُدَّ لك ، قبلَ أن تتزوَّج ، من أن تعرِف أيُّ رجلٍ تريد أن تكون ، وكيف تقضِى حياتَك ، وما التدابيرُ التى تُرِيدُ اتخاذَها لضَمانِ عيشِك وعيشِ أُسْرَتك ، وذلك لأنه ، وإن كان لا ينبغى لنا أن نجعَل من هذا الأمر همَّنا الرئيس ، يجب أن نُفكِّرَ فيه مرةً واحدة ، وهل تُرِيدُ أن تكون تابعاً لأناسٍ تزْدَرِيهم ؟ وهل تُرِيدُ توطيدَ ثروتِك وتثبيتَ وَضْعِك بصِلاتٍ مدنية تجعَلك تحت تصرف الآخرين بلا انقطاعٍ ، فيَحْمِلُوك على أن تكون مَكَّاراً اجتناباً للماكرين ؟ » .

وفوق ذلك فإننى سأُبَيِّنُ له جميعَ الوسائل الممكنة لاستغلال ماله سواء أفى التجارة أم فى التكاليف أم فى المالية كما أننى سأبيِّن له أنه لا يوجد فى هذه الأمور ما لا ينطوى على خطَرٍ ينَاله ، وما لا يَضَعُه فى حالٍ تابعٍ غيرِ ثابت ، وما لا يُنَظِّم به طباعَه ومشاعِره وسلوكَه على غِرار الآخرين ومُبْتَسَراتِهم .

وسأقول له : « تُوجَدُ وسيلةٌ أخرى لاستعمال وقته وشخصه ، وهى أن يَلْتَحِق بالجيش ، أى أن يؤجِرَ نفسَه بأجرٍ زهيد ليذهبَ فيقتلَ أناساً لم يصيبونا بأذًى قطُّ ، ولهذه الحِرْفَة اعتبارٌ كبيرٌ بين الناسِ ، والناسُ يقيمون وزناً عجيباً لمن لا يَصْلُحُون لغير هذا ، وفضلاً عن ذلك فإن هذه الحرفة تجعَلُك مُضْطَرًّا كلَّ الاضطرار إلى الوسائل الأخرى بدلًا من إعفائك منها ، وذلك لأنه يَدْخُل ضِمْن شرف هذه الحرفة بَوَارُ من يَحْبِسُون أنفسَهم عليها ، أجَلْ ، إن البَوَار لا يُصِيبُهم فيها جميعاً ، فمن المُوضَة أن يُغْتَنَى فيها على وجهٍ غيرِ محسوس كما فى الحِرَف الأخرى ، ولكننى أشُكُّ فى

أننى ، إذا ما أوْضَحْتُ لك السُّبُلَ التى يتخذها مَنْ يَنْجَحُون فيها ، أجْعَلك مُولَعاً بتقليدهم .

« وستَعْلَمُ ، كذلك ، أن الأمر فى هذه الحِرْفة نفسِها عاد لا يَقُوم على الشجاعة ولا على القيمة ، ما لم يكن هذا لدى النساء على ما يحتمل ، وعلى العكس يُرَى أن الأنذل والأسفلَ والأذلّ هو أكثرُ من يُكْرَم دائماً ، فإذا ما عَنّ لك أن تَسْلُك سبيل الصلاح والجِدّ فى حِرْفتك ازْدُرِيتَ ومُقِتّ وطُرِدْت على ما يحتمل ، أو ذهبتَ ضحيةَ المحاباة فاغتصب زملاؤك مكانَك وحُمِلتَ على القيام بخدمتك فى الخنادق على حين يقومون بخِدَمهم فى تزيين أنفسهم » .

ومن المشكوك فيه أن تكون جميعُ هذه الخِدَمِ ملائمةً لذوقِ إميلَ ، وسيقول لى : « ماذا ! أنَسِيتُ ألعابَ صِباى ؟ وهل فَقَدْت ذراعىّ ؟ وهل نَفِدَت قُوّتى ؟ وهل عُدْتُ لا أعْرِفُ العمل ؟ وما يُهِمُّنِي من جميع خِدَمِك الجميلة وجميعِ مُبْتَسَرَاتِ الناس ؟ لا أعْرِف مجْداً غيرَ كونى مُحْسِناً منصفاً ، ولا أعْرِفُ سعادةً غيرَ العيش مستقلاً مع من أُحِبُّ كاسباً كلّ يومٍ صحةً وشهوةَ طعامٍ من عملى ، وما كانت جميعُ الهموم التى تكلِّمُنِي عنها لتؤثّر فىّ مطلقاً ، ولا أرْغَبُ من الخيرِ فى غيرِ مزرعةٍ صغيرة فى زاويةٍ من الدنيا ، وسأبْذُل جهدى كلَّه فى استغلالها ، وسأعيشُ بلا همٍّ ، وأعطِنِى صُوفية وحقلى أكُ غنيًّا » .

« — أجَلْ ، يا صديقى ، يَكْفِي لسعادة الرجل الحكيم أن تكون له امرأةٌ وحقلٌ ، بَيْدَ أن هذه الكنوزَ غيرُ مألوفةٍ ، كما تَظُنُّ ، مع أنها معتدلةٌ ،

وأندرُ الكنوزِ هو ما وجدتَ ، فلنتكلمْ عن الآخر .

« حقلٌ لك يا إميلُ العزيز ! ففى أىِّ مكان ستختارُه ؟ وهل تستطيع أن تقول فى أية زاويةٍ من الأرض : « إننى هنا سيدُ نفسى وسيدُ هذه الأرض الخاصة بى » ؟ إننا نَعْرِفُ الأماكنَ التى يَسْهُل على الرجل أن يصير غنياً فيها ، ولكنْ من يَعْرِفُ المكانَ الذى يُسْتَغْنَى فيه عن الغِنَى ؟ ومن يَعْرِفُ المكانَ الذى يُمْكِنُ أن تُقْضَى فيه حياةٌ مستقلة طليقة من غير احتياجٍ إلى إيذاء أحدٍ ومن غير أن يُخْشَى تَلَقِّى أذًى من أحد ؟ وهل تَظُنُّ أن من السهل كشفَ البلدِ الذى يُسْمَحُ للرجل فيه دائماً أن يكون صالحاً ؟ وإذا وُجِدَتْ وسيلةٌ شرعية مضمونة للعيش بلا مَكْرٍ ولا خِصَامٍ ولاخضوع فإن هذا يَعْنِى ، كما أرى ، عيشاً بكَدِّ اليد ، وذلك بزراعة الإنسان أرضَه الخاصةَ ، ولكن أين الدولةُ التى يُمْكِنُ أن يقالَ فيها : « إن الأرضَ التى أطَأُها خاصةٌ بى » ؟ وتثبَّتْ ، قبل اختيار هذه الأرض المباركة ، فى أنك تَجِدُ فيها السلامَ الذى تَنْشُدُ ، واحْتَرِزْ من وجود حكومةٍ جافية ودينٍ جائر وأخلاقٍ فاسدة تُنَغِّصُ عليك عَيْشَك فى مكانك ، واجْعَلْ نفسَك فى حِرْزٍ من ضرائبَ لا حَدَّ لها تَلْتَهِمُ ثمرةَ أتعابك ، ومن قضايا لا نهايةَ لها تَسْتَنفِد رأسَ مالك ، واصنَعْ ، حين تقضى حياةً صالحةً ، ما لا تَتَزَلَّفُ معه إلى المُدَراء ومساعديهم ، وإلى القضاة والقساوسة والجيران الأقوياء ، وإلى أصناف الخبثاء ، الذين يستعدُّون ، دائماً ، لإيذائك إذا ما أهملتهم ، وضَعْ نفسَك ، على الخصوص ، فى مأمنٍ من جَنَفِ الكبراء والأغنياء ، ولا يَغِبْ عن بالك إمكانُ مجاورة أرَضِيهم

فى كلِّ مكان لكَرْمٍ نابُوتَ ، وإذا قَضَى سوءُ حظكَ بأن يَشْتَرِىَ ، أو يَبْنِىَ ، رجلٌ فى الحوْزة بيتاً بالقرب من كوخك فهلْ تجيب بأنه لن يَجِدَ وسيلةً يتذرّع بها للاستيلاء على تُرَاثك ليُثْرِىَ ، أو أنك لن تراه يبلَعُ جميعَ مواردك توسيعاً لطريق عامة ؟ وإذا كان لك من الاعتبار ما تَحْتَرِز به من جميع هذه المحاذير أمْكَنَك أن تحْفَظَ أرزاقَك لِماَ عاد حِفْظُها لا يُكلِّفُكَ شيئاً ، فكلٌّ من الثراء والاعتبار يعتمد على الآخر تبادُلاً ، ويَكُون تماسكُ كلٍّ منهما من غير الآخرِ سيئاً .

« وأنا أكثرُ منك تجرِبةً يا إميلُ العزيز ، وأنا أحسنُ منك بصراً بصعوبة مشروعك ، ومع ذلك فإن مشروعَك رائع ، ومع ذلك فإن مشروعك صالح ، وهو يَجْعَلُك سعيداً بالحقيقة ، فلْنَبْذُل جُهْدَنا فى تنفيذه ، وإنما يوجد لدىَّ اقتراحٌ أذْكُره لك ، وهو أن نُخَصِّص العامين اللذين انتحلناهما حتى رجوعِك لاختيار ملجإٍ فى أوربة تستطيع أن تعيش فيه سعيداً مع أُسْرَتِك أميناً من جميع الأخطار التى حَدَّثْتُك عنها ، وإذا ما وُفِّقْنا وَجَدْتَ السعادةَ الحقيقية التى يَنْشُدُها أناسٌ كثيرون فى الحقيقة ، ولم تأسفْ على الوقت الذى بَذَلْتَ فى هذا السبيل ، وإذا لم نُوَفَّقْ شُفِيتَ من وَهْمٍ ، وأسْلَيْتَ نَفْسَك عن مصيبة لا مناصَ منها ، وخضعتَ لسلطان الضرورة » .

ولا أدرى هل يَرَى جميعُ قُرّائى أين يَسُوقنا هذا البحثُ المُقْتَرَحُ هكذا ، وإنما الذى أعْرِفُ جَيِّداً هو أن إميلَ إذا كان لا يَعُود من رِحْلاته ، التى بُدِئت وأُدِيتْ لهذا الغرض ، مُطَّلعاً على جميع أمور الحكومة والطبائعِ العامة وعلى جميع أنواع مبادىء الدولة ، وجب أن يكون مُجَرَّداً من

الذكاء وأن أكون مُجَرَّداً من قوة التمييز .

ولمَّا يُولَدِ الفِقْهُ السياسيُّ ، وقد يُفْتَرَضُ أنه لن يُولَدَ مطلقاً ، وليس غرُوسْيُوسُ ، الذى هو أستاذُ جميع علمائنا فى هـذا الفَرْع ، غيرَ ولدٍ ، والأفظعُ من هذا أن يكون ولداً سيِّئَ النية ، وعند ما أَسْمَع رَفْعَ غروسيوسَ إلى الأَوْج الأعلى وغَمْرَ هُوبزَ باللَّعنات أبْصِرُ مقدارَ قراءةِ ذوى الألباب لهما وإدراكِهم إياها ، والواقعُ أن مبادئَهما متشابهة تماماً ، وهما لا يختلفان فى غير التعابير ، وهما يختلفان فى المِنْهاج أيضاً ، فَهُوبزُ يَعْتمد على المُغَالَطات وغرُوسْيُوسُ يعتمد على الشعراء ، وإذا عَدَوْت هذا وَجَدْت هذين المؤلِّفين متفقين فى كلِّ شىء .

ومُونْتِسْكيُو العصرىُّ الشهيرُ وحدَه هو الذى استطاع وضعَ هذا العلمِ العظيم غيرِ النافع ، ولكنه لم يُرَاعِ مبادئَ الفقه السياسىّ ، وإنما اكتفى بمعالجة الفقه الوَضْعِىِّ للحكومات القائمة ، ولا شىء فى العالَم أشدُّ اختلافاً من هاتين الدراستين .

ومع ذلك فإن الذى يريد أن يُصْدِر حُكماً صحيحاً فى الحكومات القائمة مُلْزَمٌ بجَمْع ما بين الدراستين ، إذْ لا بُدَّ من معرفة ما يجب أن يكون للحكم فيما هو كائن ، وكلُّ الصعوبة فى إلقاء نُورٍ فى هذه الموضوعات المهمة هو فى جَعْلِ الفرد يناقش فيها فيُجِيبُ عن هذين السؤالين ، وهما : ما يُهِمُّنى ؟ وما أستطيع أن أصنع ؟ وقد وَضَعْنا إميلَ فى حالٍ يُجِيبُ معه عن السؤالين .

وتأتى الصعوبة الثانية من مُبْتَسَرَات الوُلُودية ، ومن المبادئ التى

غُذِّينا بها ، ولا سيما محاباةُ المؤلفين الذين ، إذ يُحدِّثون دائماً عن الحقيقة التى لا يُبالون بها مطلقاً ، لا يُفكِّرون فى غير مصلحتهم التى لا يتكلَّمون عنها مطلقاً ، والواقعُ أن الشعب لا يَمنَحُ كراسىَّ ولا وظائفَ ولا أماكنَ فى الأكاديمية ، فَلْيُحْكَمْ فى الوجه الذى يجب أن تقوم عليه حقوقُه من قِبَل أولئك الناس ! وأما أنا فقد صنعتُ ما تكون به هذه الصعوبةُ أمراً لا يُعتَدُّ به لدى إميلَ ، وإميلُ لم يَكَدْ يَعرِفُ ما الحكومة ، والشىءُ الوحيدُ الذى يُهِمُّه هو أن يَجِدَ أفضلَ الحكومات ، وليس هدفُه أن يَضَعَ كتباً ، وهو إذا ما وَضَع منها فلن يكون هذا ليَتزَلَّف إلى السلطات ، بل ليُوَطِّدَ حقوقَ الإنسانية .

وبَقِيَتْ صعوبةٌ ثالثةٌ ، فهذه الصعوبةُ مُموَّهةٌ أكثرُ منها متينةٌ ، ولا أرغبُ فى حلِّها ، ولا فى تقديمها ، وإنما أكتفى بألَّا تُرهِب غَيْرَتى واثقاً ، فى المباحث التى هى من هذا النوع ، بأن المواهبَ الكبيرةَ أقلُّ لزوماً من حُبٍّ للعدل صادقٍ ومن إجلالٍ للحقيقة ، ولِذا فإن أمور الحكومة إذا ما أمكن أن تعالَج الآن أو لم يُمكِن فذاك حَظُّنا .

ولا بُدَّ من وَضْع قواعدَ للملاحظة قبل أن نلاحِظ ، ولا بُدَّ من وَضْع مقياسٍ يُرْجَعُ إليه فيما يُتَّخَذُ من قياسات ، ومبادئُنا فى الفقه السياسىِّ هى هذا المقياس ، وقياساتنا هى القوانين السياسية لكلِّ بلد .

وستكون أصولُنا واضحةً بسيطةً مقتبسةً من طبيعة الأشياء مباشرةً ، وستتخذ شكلَ المسائل المجادَل فيها بيننا فلا نُحوِّلها إلى مبادئ إلاَّ بعد حَلِّها حَلاًّ كافياً .

ومن ذلك أننا إذْ نَرْجِعُ فى بدء الأمر إلى الحال الطبيعية نَبْحَثُ فى هل يُولَدُ الناسُ عبيداً أو أحراراً ، مُشْتَرِكين أو مستقلين ، وهل يَتَّحِدُون طوعاً أو كَرْهاً ، وهل تستطيع القوةُ الأصلية التى تَجْمَعُهم تكوينَ حَقٍّ دائم تُلْزِمهم به ، حتى عند غَلَبها من قِبَل قوةٍ أخرى كالتى أَخْضَعَ لها الملك نِمرودُ الأممَ الأخرى على ما يُرْوَى ، فقَوَّضَتْ تلك ، ففَدَتْ جائرةً أو غاصبة ، وصار لا يُوجَدُ ملوكٌ شرعيون غيرُ أبناء نِمْرُودَ أو من انتقلتْ إليهم حقوقُه ، أو هل تُلْزِمُ القوةُ التى عَقَبَتْ القوةَ الأصلية بعد انقطاع هذه والقضاء على إلزامها ، فلا يُجْبَرُ على إطاعتها إلاَّ كَرْهاً ، ويُحَلُّ منها عند إمكان مقاومتها ، أى إن هذا الحقَّ لا يضيف شيئاً إلى القوة كما يَلُوح ، ولا يكون غيرَ تلاعبٍ فى الألفاظ .

وسنبحث فى هل يأتى كلُّ مَرَضٍ من الرَّبِّ ، فيكونُ من الإجرام دعوةُ الطبيب .

وكذلك سنبحث فى هل من مُقْتَضَى الضمير تسليمُ كِيسِنا إلى قاطعِ طريقٍ يطلبه منا حتى عند استطاعتنا أن نُخْفِيَهُ عنه ، وذلك لأن الفَرْدَ* الذى يَحْمِل ينطوى على سلطانٍ أيضاً .

وهل كلمةُ السلطان هذه تَعْنِى ، فى هذه المناسبة ، شيئاً آخرَ غيرَ السلطان الشرعىِّ ، فيكون هذا السلطان خاضعاً للقوانين التى يَسْتَمِدُّ منها وجودَه ؟

ولْنَفْتَرِض نَبْذَ حَقِّ القوة هذا جانباً وانتحالَ حَقِّ الطبيعة أو السلطانِ الأبوىِّ كمبدأ للمجتمعات ، فحينئذٍ نَبْحَثُ عن مقياس هذا السلطانِ ،

---

* Le pistolet

وعن كيفية قيامه فى الطبيعة ، وعن وجود سببٍ له غيرِ فائدةِ الولد وضَعْفِه وما يَحْمِلِ الأبُ من حُبٍّ طبيعىٍّ له ، فإذا ما زال ضعفُ الولد ونَضِجَ عقلُه أفلا يكون وحدَه قاضياً طبيعيًّا فيما يلائم بقاءه ومن ثَمَّ ألَا يكونُ سيدَ نفسِه مستقلاً عن أىِّ إنسانٍ آخرَ ، حتى عن أبيه ؟ وذلك لأن من الثابت أن الابنَ يُحِبُّ نفسَه أكثرَ من حُبِّ الأبِ لابنه .

وإذا مات الأبُ أفَيُلْزَمُ الأولادُ بإطاعة كبيرهم أو بإطاعة آخرَ لا يَحْمِلُ لهم حُبَّ الأب الطبيعىّ ؟ وإذا ما كان الأمرُ بين سُلالةٍ وأخرى أفيُوجَدُ رئيسٌ واحدٌ دائماً ؟ وهل يُبْحَثُ فى مثل هذه الحال عن الوجه الذى يُمْكِنُ أن يُقْسَم به السلطانُ ، وعن الوجه الذى يَكُون به فى العالَم أكثرُ من رئيسٍ للسيطرة على النوع البشرىّ ؟

ولْنَفْتَرِضْ أن الأقوام تَكَوَّنوا باختيارهم ، فهنالك نَميزُ بين الحقّ والواقع ، فنسأل قائلين إنهم إذا كانوا قد خضعوا على هذا الوجه لإخوتهم أو أعمامهم أو أقربائهم طَوْعاً لا كَرْهاً أفلا يَدْخُل هذا النوع من المجتمع نطاقَ الجماعة القائمة على الحرية والاختيار .

ثم ننتقل إلى حَقِّ الرِّقِّ فنَبْحَثُ فى هل يستطيع الإنسان أن يَبيعَ نفسه من آخرَ بلا قيدٍ ولا تَحَفُّظٍ ولا أىِّ نوعٍ من الشروط ، أىْ هل يستطيع أن يَتَنَزَّل عن شخصه وحياته وعقله وذاتيته وكلِّ خُلُقِيَّةٍ فى أفعاله ، والخلاصةُ أن ينقطع عن الوجود قبل موته على الرغم من الطبيعة التى تَفْرِض عليه أمرَ حِفْظِ نفسه حالاً ، وعلى الرغم من ضميره وعقله اللذين يُلزِمانه بما يجب أن يَصْنَع وبما يَجِبُ أن يَمْتَنِع عنه .

وإذا ما وُجِد تَحَفُّظٌ أو قيدٌ فى سَنَد الرِّقّ فإننا نناقشُ فى هل هذا السند لا يُصْبِح إذْ ذاك عقداً حقيقيًّا لا يكون فيه لكلٍّ من المتعاقدَيْن مَوْلىً مشتركٌ[1] بهذه الصفة فيبقيان قاضِيَيْ نفسهما الخاصَّين من حيث شروطُ العقد ، ومن ثَمَّ يكون كلٌّ منهما حُرًّا فى هذا الاتفاق قادراً على نقض العقد عندما يُقَدِّر أنه ضارٌّ به .

وإذا كان العبد لا يستطيع أن يبيع نفسه من مولاه بلا تَحَفُّظٍ فكيف تستطيع الأمة أن تبيع نفسَها من رئيسها بلا تحفظ ؟ وإذا كان العبد يَبْقَى قاضياً فى أمر مراعاة مولاه للعقد فكيف لا يَبْقَى الشعب قاضياً فى أمر مراعاة رئيسه للعقد ؟

ونحن ، إذْ نَجِدُ أنفسَنا مُلْزَمين بالعَوْد إلى الوراء على هذا الوجه ناظرين إلى هذا المعنى الجَمَاعيِّ لكلمة الأمة ، نَبْحَثُ ، لإقامة الأمة ، فى هل يَجِبُ وجودُ عقدٍ ضمنيّ على الأقلّ سابقٍ للذى نَفْترضه .

وما دامت الأُمةُ أُمةً قبل أن تنتخب لها ملكاً فما الذى جعلها أمةً إن لم يكن العقدُ الاجتماعيُّ ؟ ولِذَا فإن العقد الاجتماعيّ أساسُ كلِّ مجتمع مدنيّ ، ففى طبيعة هذا العقد يَجِبُ أن يُبْحَث عن طبيعة المجتمع الذى يؤلفه .

وسنبحث فى فَحْوَى هذا العقد ونَرَى هل من الممكن أن يُعَبَّر عنه بالصيغة الآتية ، وهى : « إن كلَّ واحدٍ منا يَضَعُ بالاشتراك أموالَه

---

(١) إذا ما كان لهما مثل هذا المولى المشترك لم يكن هذا المولى غير السيد ، وهنالك لا يكون حق الرق القائم على حق السيادة أصلا له .

وشخصه وحياته وجميعَ قُوّته تحت الإدارة العليا للإرادة العامة فنَقْبَلُ ، كهيئةٍ ، كلَّ عُضوٍ جزءاً من المجموع لا يَتَجزَّأ » .

وإننا بعد افتراض هذا سنلاحِظُ ، لتعيين العباراتِ التى نحتاج إليها ، أن عقد الاجتماع هذا يُوجِبُ هيئةً أدبية جَماعية مؤلفةً من أعضاء بمقدار ما فى المجلس من أصوات ، وذلك بدلاً من ملاحظة الشخصية الخاصة لكلٍّ متعاقد ، وعلى العموم يتَّخِذُ هذا الشخصُ العامُّ اسمَ « الهيئة السياسية » التى يُطْلِقُ أعضاؤها عليها اسمَ « الدولة » إذا كانت منفعلةً ، واسمَ « السيد » إذا كانت فاعلة ، واسمَ « السلطة » إذا ما قُورِنت بنظيراتها ، وأما الأعضاء أنفسُهم فإنهم يتخذون اسمَ « الأمة » جَمْعًا ، واسمَ « مواطنين » أفراداً ، كأعضاء « الوطن » أو شركاء فى السلطان ذى السيادة ، واسمَ « رعايا » كخاضعين للسلطان عَيْنِه .

وسنلاحِظ أن عقد الاجتماع هـذا ينطوى على عهدٍ متقابل بين الجُمهور والأفراد ، فيكون كلُّ فردٍ متعاقدٍ مع نفسه على هذا الوجه ملزمًا بصلةٍ مضاعفة ، أى كعضوٍ للسيد نحو الأفراد ، وكعضوٍ للدولة نحو السيد .

وسنلاحِظ ، أيضًا ، أن كلَّ واحدٍ إذْ لا يكون ملزَمًا بغير التعهدات التى هو طَرَفٌ فيها فإن التشاور العامَّ الذى يُلْزِم جميعَ الرعايا نحو السيد ، بسبب الصِّلَتين المختلفتين اللتين يُنْظَرُ بهما إلى كلِّ واحدٍ منهم ، لا يُمْكِنُ أن يُلْزِمَ الدولةَ نحو نفسها ، ومن ثَمَّ يُرَى أنه لا يُوجَدُ ، ولا يُمْكِن أن يوجَدَ ، قانونٌ أساسىٌّ آخرُ غيرُ الميثاق الاجتماعىِّ وحدَه ، وهذا لا يَعْنِي أن الهيئة السياسية لا تستطيع ، من بعض الوجوه ، أن تُلزِم نفسَها نحو

غيرِها ، فهى تَصِيرُ نحو الأجنبيّ كائناً بسيطاً ، تَصِيرُ فرداً .

وبما أنه لا يُوجَدُ للطرفين المتعاقدَيْن ، أى للجُمهورِ وكلِّ فردٍ ، أىُّ رئيس مشتركٍ قادرٍ على الحُكم فى خصوماتهما فإننا سنبحث فى هل يَبقَى كلٌّ من الفريقين حُرًّا فى نَقْضِ العقد متى شاء ، أى أن يَعْدِل عنه من ناحيته إذا ما عَدَّه ضارًّا به .

وتنويراً لهذه المسئلة نلاحظ ، وَفْقَ الميثاق الاجتماعىّ ، أن السيد إذْ لا يستطيع أن يَسِيرَ إلا بعزائمَ مشتركةٍ عامة فإنه لا ينبغى أن يكون لأفعاله غيرُ أغراضٍ عامة مشتركة ، فَيَنْشَأ عن هذا كَوْنُ الفرد لا يُمْكِن أن يُضَرَّ مباشرةً من قِبَل السيد ما لم يُضَرَّ الجميعُ ، ولا يُمْكِنُ هذا أن يَكُون ما دام هذا يَعْنِى إصابةَ الواحد نفسَه بأذًى ، وهكذا فإن العقدَ الاجتماعىّ لا يحتاج إلى ضامنٍ آخرَ غيرِ السلطة العامة ، وذلك لأن الضرر لا يُمْكِن أن يَصْدُر عن غير الأفراد ، وهنالك لا يَكُون الأفراد مُعْفَوْن من عَهْدِهم ، بل يعاقَبُون على نقضه .

وسنَجْتَهِد ، لتقرير جميع المسائل المشابهة ، فى ذِكْرِنا ، دائماً ، أن الميثاقَ الاجتماعىّ ذو طبيعة خاصةٍ قاصرةٍ عليه وحدَه ، وذلك من حيث كَوْنُ الأمة لا تُعاقِدُ غيرَ نفسِها ، أى أن الأمةَ كهيئةٍ صاحبةٍ للسيادة تعاقِد الأفرادَ كرعايا ، وعلى هذا الشرط يَقُوم كيانُ الجهاز السياسىّ وسَيْرُه ، وهذا الشرطُ وحدَه يَجْعَلُ التعهداتِ شرعيةً معقولةً خاليةً من الخطر ، ولولا هذا لكانت التعهداتُ خُرُقًا جائرةً عُرْضةً لأعظمِ ما يكون من سوء الاستعمال .

وبما أن الأفراد لا يَخْضَعُون لغير السيد ، وبما أن السلطانَ صاحبَ السيادة ليس سوى الإرادة العامة ، فإننا سنرى كيف أن كلَّ إنسانٍ ، إذْ يَخْضَعُ للسيد ، لا يَخْضَعُ لغير نفسه ، وكيف نكون فى الميثاق الاجتماعىِّ أكثرَ حُرِّيةً منا فى الحال الطبيعية .

وإنا ، بعد أن قابلنا بين الحرية الطبيعية والحرية المدنية من حيث الأفرادُ ، سنقابل ، من حيث الأموالُ ، بين حقِّ التملك وحقِّ السيادة ، أى بين المِلْك الخاصِّ والمِلْك العامِّ ، وإذا كان السلطانُ ذو السيادة قائماً على حَقِّ التملك فإن هـذا الحقَّ يجب أن يكون أعظمَ ما يُحْتَرَم من قِبَل ذاك السلطان ، وهو يَبْقَى مَصُوناً مُقَدَّساً ما بَقِيَ حَقٌّ فردىٌّ خاصٌّ ، وهو إذا ما عُدَّ من فَوْرِه مشتركاً بين جميع المواطنين خَضَعَ للإرادة العامة ، وهذه الإرادة هى التى تستطيع أن تُبْطِلَه ، وهكذا فإنه لا يُوجَدُ للسيد أىُّ حقٍّ فى مَسٍّ مال الفرد ولا مالِ كثيرٍ من الأفراد ، ولكنه يستطيع أن يستولى على مال الجميع استيلاءً شرعيًّا ، وذلك كما وقع بإسپارطة فى زمن لِيكُورغَ ، مع أن إلغاء الديون من قِبَل سُولُون عُدَّ عملاً غيرَ شرعىٍّ .

وبما أنه لا شىء يُكرِه الرعايا غيرُ الإرادة العامة فإننا سنَبْحَثُ عن كيفية تَجَلِّى هذه الإرادة ، وعن العلامات التى يُطْمَأَنُّ إلى معرفتها بها ، وعن معنى القانون ، وعن صفاته الحقيقية ، وهذا الموضوعُ تامُّ الجِدَّة ، ولا يزال القانون يتطلب تعريفاً .

وإذا ما اعتبرت الأمةُ واحداً أو أكثرَ من أعضائها على انفرادٍ انقسمت

من فَوْرها ، وتَكَوَّنت بين الكلّ وجزئه صلةٌ تَجْعَلُ منهما موجودَيْن منفصلين ، فيكون الجزء أحدَ الموجودَيْن ، ويكون الكلُّ بعد طَرْح هذا الجزء منه ثانىَ الموجودَيْن ، ولكن الكلّ بعد طَرْح جزء منه لا يَكُون كُلاًّ ، ويعُود لا يُوجَدُ كلٌّ ، إذَنْ ، ما بقيت هذه النسبة ، بل يُوجَد قسمان متفاوتان .

وعلى العكس إذاما وضعت الأمةُ كلُّها قانوناً لجميع الأمة فإنها لا تعتبر غيرَ نفسِها ، وإذا ما تكَوَّنتْ علاقةٌ كانت علاقةَ الموضوع كلِّه من وجهة نظرٍ بالموضوع كلِّه من وجهة نظرٍ أخرى ، وذلك من غير تقسيم للكلّ قَطْعاً ، وهنالك يَكُون الموضُوع الذى يُوضَع له قانونٌ عامًّا ، وتَكُون الإرادة التى تَضَع القانونَ عامةً أيضاً ، وسنرى هل يُوجَدُ نَوعُ قرارٍ آخرُ يُمْكِن أن يَحْمِلَ اسمَ القانون .

وإذا كان السيد لا يستطيع أن يتكلم إلا بالقوانين ، وإذا كان القانونُ لا يُمكِن أن يكون له غيرُ موضوعٍ عامٍّ شاملٍ لجميع أعضاء الدولة على السواء فإن هذا يَعْنِى عدمَ وجود سلطةٍ للسيد يَضَعُ بها قانوناً حَوْل موضوعٍ خاصٍّ ، وبما أن من المهمّ لبقاء الدولة ، مع ذلك ، تقريرَ أمورٍ خاصةٍ فإننا سنرى كيف يُمْكِن صنعُ هذا .

ولا يُمْكِنُ أن تكون أعمالُ السيد غيرَ أعمال الإرادة العامة ، غيرَ قوانينَ ، ولا بُدَّ بعد ذلك من أعمال البتّ أو أعمال القوة أو الحكومة تنفيذاً لهذه القوانين نفسِها ، وعلى العكس لا يُمْكِن أن يكون لهذه الأعمال غيرُ موضوعاتٍ خاصة ، وهكذا فإن المرسوم الذى يَصْدُر عن السيد لا تتخاب

رئيسٍ يكون قانونًا ، وإن المرسومَ الذى يُنْتَخَبُ به هذا الرئيسُ تنفيذاً للقانون ليس سوى مرسومِ حكومة .

وهذه ، إذَنْ ، صِلةٌ ثالثةٌ تُعَدُّ بها الأمةُ المجتمعةُ حاكمةً أو مُنَفِّذةً للقانون الذى وضعته صاحبَةً للسيادة(١) .

وسنبحث فى إمكان تَجَرُّد الأمة من حقِّها فى السيادة مُوَلِّيَةً به رجلاً أو أكثرَ ، وذلك بما أن عملَ الانتخاب ليس قانونًا ، وبما أن الأمة بهذا العمل ليست سيداً بعينه ، فإنه لا يُرَى ، مطلقًا ، كيف تستطيع الأمة ، إذْ ذاك ، أن تَنْقُل حقًّا ليس لها .

وبما أن كُنْهَ السيادة يقوم على الإرادة العامة فإنه لا يُرَى كيف يُمكِن أن يُوقَنَ بأن الإرادة الخاصة تكون على اتفاقٍ مع الإرادة العامة دائمًا ، ومن الجدير وجوبُ افتراضِ كَوْنِ الأمرِ على العكس غالباً ، وذلك لأن المصلحة الخاصة تَمِيلُ إلى الامتيازات دائمًا ، وأن المصلحة العامة تَميلُ إلى المساواة ، ومتى كان هذا الاتفاق ممكنًا كفى ألَّا يكون ضروريًّا ممتنعَ الزوال لكيلا ينشأ عنه الحقُّ ذو السيادة .

وسنبحث فى هل رؤساء الأمة ، الذين يُخْتَارُون تحت أىِّ اسمٍ كان ، يُمكِنهم ، من غيرِ نقضٍ للميثاق الاجتماعىِّ ، أن يكونوا شيئًا آخرَ غيرَ ضُبَّاطٍ لدى الأمة التى تأمرهم بتنفيذ القوانين ، وفى هل هؤلاء الرؤساء غيرُ

---

(١) استخلصت هذه المسائل والقضايا من كتاب « العقد الاجتماعى » الذى استخلص بدوره من كتاب أضخم منه كنت قد أقدمت عليه من غير تقدير لمقدرتى فتركته منذ زمن طويل ، وسينشر على حدة ذاك الكتاب المستخلص من هذا فلخصته هنا .

ملزَمين بتقديم حسابٍ إليها عن إدارتهم وغيرُ خاضعين للقوانين المُفَوّض إليهم أن يحافظوا عليها .

وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تبيع حقَّها الأعلى فهل تستطيع أن تُودِعَه لوقتٍ معيّن ؟ وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تَجْعَل لنفسها مَوْلَى فهل تستطيع أن تَجْعَل لنفسها ممثلين ؟ فهذه المسألة مهمةٌ وتستحقُّ النِّقَاش .

وإذا كانت الأمة لا تستطيع أن تكون ذاتَ سيدٍ ولا ممثلين فإننا سنبحث عن كيفية قيامها بقوانينها ، وعن وجوبِ وجودِ قوانينَ كثيرةٍ لها أوْ لا ، وعن وجوبِ تغيير هذه القوانين غالباً أوْ لا ، وعن أنه يَسْهُلُ على الأمة الكبيرة أن تكون مشترعةً لنفسها بنفسها أوْ لا .

وسنبحث فى هل الرومان أمةٌ كبيرة .

وسنبحث فى هل من الصالح وجودُ أمم عظيمة .

ويَظْهَرُ من الاعتبارات السابقة أنه يُوجَدُ فى الدولة هيئةٌ متوسطةٌ بين الرعايا والسيد ، وأن هذه الهيئةَ المتوسطةَ المؤلفة من عضوٍ واحدٍ أو أكثرَ مُفَوَّضٌ إليها أمرُ القيام بالإدارة العامة وتنفيذ القوانين والمحافظة على الحرية المدنية والسياسية .

ويُسَمَّى أعضاء هذه الهيئة وُلاةً أو ملوكًا ، أى حُكاماً ، وتُسَمَّى الهيئة بأسْرِها أميراً عند النظر إلى الذين تتألَّفُ منهم ، وتُسَمَّى حكومةً عند النظر إلى عملها .

وإذا نَظَرْنا إلى عمل الهيئة بأسْرِها وهى تَعْمَل فى نفسِها ، أى إلى نسبة الكلِّ إلى الكلِّ ، أو السيد إلى الدولة ، أمكننا أن نقارن هذه النسبة

بطرفى النسبة المتصلة التى تكُون الحكومةُ وسطَها الجامعَ ، ويَتَلَقّى الحاكمُ من السيد ما يُلقِى على الأمة من الأوامر ، وهو ، إذْ يُعوّضُ تماماً ، يَكُون حاصلُه أو سلطانُه على ذات المستوى لحاصل المواطنين أو سلطانهم ، هؤلاء المواطنين الذين هم رعايا من ناحيـةٍ وسادةٌ من ناحية أخرى ، وما كان لِيُمكِنَ إفسادُ أىِّ طرفٍ من الأطراف الثلاثة من غير أن يُقْضى على النسبة حالًا ، وإذا أراد السيد أن يَحْـكُمَ ، وإذا أراد الأميرُ أن يَضَع قوانينَ ، وإذا رَفَض التابعُ أن يُطيع ، عَقَبَ الاختلالُ النظامَ وسقطت الدولةُ المنحلة فى الاستبداد أو وَقَعَت فى الفوضى .

ولنفْرِض أن الدولة مؤلفةٌ من عشرة آلاف مواطن ، فلا يُمْـكِنُ اعتبارُ السـيد إلا جَمَاعيًّا أو هيئةً ، ولكنَّ لكلٍّ واحدٍ كتابعٍ وجوداً فرديًّا مستقلًّا ، وهكذا فإن نسبة السيد إلى التابع كنسبة الآلاف العشرة إلى الواحد ، أى إنه لا يكون لكلِّ عضوٍ فى الدولة من النصيب غيرُ جزء من عشرة آلافٍ من السلطان ذى السيادة ، وإن كان خاضعاً للكلِّ ، وإذا كانت الأمة مؤلفةً من مئة ألف إنسان لم يَتَغَيَّرْ وَضْع الرعايا ، واستمرَّ كلٌّ واحدٍ على حَمْلِ عِبء القوانين ، مع أن صوتَه ، الذى نُزِّلَ إلى واحد من مئة ألفٍ ، صار له من النفوذ عند وضع القوانين أقلَّ مما كان له عشرَ مرات ، وهكذا فإن التابع إذْ يبقى واحداً دائماً تزيد نسبةُ السيد بنسبة زيادة عدد المواطنين ، وينشأ عن هذا أن الدولة كلما كَبُرَتْ قَلَّت الحرية .

والواقعُ أنه كلما قلَّ تَعلق الإرادات الخاصة بالإرادة العامة ، أى تعلّقُ

الطبائع بالقوانين زادت قوةُ الرَّدْع ، وتَرَى من ناحية أخرى أن اتساع الدولة ، إذْ يوجب في أُمناء السلطة العامة زيادةَ مَيْلٍ إلى الشهوات وزيادةً في وسائل سوء الاستعمال ، فإنه كلما كان لدى الحكومة من القوة ماتردع به الأمة وجب أن يكون لدى السيد بدَوْرِه من القوة ما يَرْدَعُ به الحكومة .

ويُرَى من هــذه الصلة المضاعفة أن النسبة الدائمة بين السيد والأمير والأمة ليست فكرةً مُرَادِية مطلقاً ، بل نتيجةٌ لطبيعة الدولة ، ويُرَى ، أيضاً ، أن الأمة ، التى هى أحد الأطراف ، إذْ كانت ثابتةً ، فإن النسبة المضاعفة كلما زادت أو نَقَصَت زادت النسبة البسيطة أو نَقَصَت بدَوْرِها ، وهذا لا يُمْكِن أن يَقَعَ من غير أن يتغير الطرفُ المتوسط فى كلِّ مرة ، ومن ثَمَّ يُمْكِننا أن نَستخرج النتيجةَ القائلة إنه لا يُوجَدُ نظامٌ للحكومة وحيدٌ مُطْلَق ، وإنما يجب أن يكُون موجوداً من الحكومات المختلفة طبيعةً بمقدار ما يُوجَد من الدول المختلفة اتساعاً .

وإذا كانت الأمةُ كلَّما كَثُرَ عددُها قَلَّ تَعلُّقُ الطبائع بالقوانين فإن مما نَبْحَثُ فيه هو هل يمكننا ، بقياسٍ على شيء من الوضوح ، أن نقول إن الحكام كلما كَثُرَ عددُهم زادت الحكومةُ ضَعْفاً .

ولإلقاء نورٍ على هذا المبدأ نَميز فى شخص كلِّ حاكم ثلاثَ إرادات مختلفةٍ اختلافاً جوهرياً ، وذلك : أوَّلا ، إرادةُ الفردِ الخاصةُ التى لا تَهْدِف إلى غير مصلحته الخاصة ، ثانياً ، إرادةُ الحكام المشتركةُ التى تَهْدِف إلى مصلحة الأمير ، هذه الإرادةُ التى يُمْكِن أن تُدْعَى إرادةَ الهيئة ، فتكُون عامةً نظراً إلى الحكومة ، وخاصةً نظراً إلى الدولة التى تُعَدُّ الحكومةُ

جزءاً منها ، ثالثاً ، إرادة الأمة ، أو الإرادةُ ذاتُ السيادة ، فهذه الإرادةُ تكون عامةً بالنسبة إلى الدولة التى تُعَدُّ الكلَّ ، وبالنسبة إلى الحكومة التى تُعَدُّ جزءاً من الكلِّ ، وفى الاشتراع الكامل يجب أن تكون الإرادة الخاصة صِفْراً تقريباً ، وأن تكون إرادةُ الهيئة الخاصةُ بالحكومة تابعةً جِدًّا ، وأن تَكُونَ الإرادةُ العامةُ ذاتُ السيادة قاعدةَ كل إرادةٍ من حيثُ النتيجةُ ، وعلى العكس تَكُون هذه الإراداتُ المختلفة ، وَفْقَ النظام الطبيعىِّ ، أكثرَ فِعْلاً كُلَّما تَرَكَّزت ، فتكُون الإرادةُ العامة أكثرَ ضعفاً دائماً ، وتكون المرتبةُ الثانية لإرادة الهيئة ، وتكون الإرادةُ الخاصةُ مُفَضَّلَةً على الجميع ، وبذلك يَكُون الفردُ أولَ من يأتى ، ثم يأتى الحاكمُ ، ثم يأتى المواطن ، أى يُرَى تَدَرُّجٌ معاكسٌ ، تَوًّا ، لِمَا يقتضيه النظامُ الاجتماعىُّ .

ولْنَفْتَرِض ، بعد وَضْع ذلك ، أن الحكومة غَدَتْ قبضةَ رجلٍ واحدٍ ، فبهذا تكون الإرادة الخاصة وإرادةُ الهيئة قد اتحدتا اتحاداً تامًّا ، وبذا تَكُون هذه الإرادةُ فى أقصى ما يُمْكِن شِدَّةً ، والواقعُ أن استعمال القوة إذْ يتوقف على هذه الدرجة من الشِّدَّة ، وأن قوةَ الحكومةِ المطلقةَ إذْ تكون قوةَ الأمةِ دائماً فلا تتغير مطلقاً ، فإنه يَنْجُم عن هذا كَوْنُ أكثر الحكومات فَعَّاليةً هى حكومةَ الفردِ .

وعلى العكس ، إذا ما وَحَّدْنا بين الحكومة والسلطة العليا فجعلنا السيدَ أميراً وجعلنا المواطنين حكاماً فهنالك لا يَكُون لإرادةِ الهيئة ، المزوجةِ بالإرادة العامة مزجاً تامًّا ، فَعَّاليةٌ أكثرُ مما لهذه ، وتَدَعُ الإرادةَ الخاصة فى كمال قوتها ، وهكذا فإن الحكومةَ ، الصاحبةَ لذات القوة المطلقة دائماً ،

تكون فى الحدّ الأدنى من فَعّاليّتها .

ولا جِدالَ فى هذه القواعد ، ويُوجَدُ من الاعتبارات الأخرى ما يؤيدها ، ومن ذلك أن الحكام يكونون أكثرَ فَعّاليةً فى هيئتهم من المواطن فى هيئته ، فيكون للإرادة الخاصة من النفوذ أكثرُه فى ذلك ، وذلك لأن كلّ حاكمٍ يكون مُفوّضاً إليه دائماً تقريباً بعض الوظائف الخاصة فى الحكومة ، وذلك بدلاً من كلّ مواطنٍ يَخْلو من أيةِ وظيفةٍ من وظائف السيادة إذا ما أُخِذَ على انفراد ، ثم إن الدولة كلما اتسعت زادت قوتُها الحقيقية ، وإن كانت هذه القوة لا تزيد تَبَعاً لاتساعها ، ولكن الدولة إذا ما بقيت على ما هى عليه وزاد عدد الحكام على غيرِ طائلٍ لم تَنَل الحكومةُ من وراء ذلك قوةً حقيقيةً أعظمَ من تلك ، وذلك لأنها مستودِعةٌ لقوة الدولة التى نفترض تساويَها دائماً ، وهكذا فإن فعالية الحكومة تَنقُص من غير أن تُمكِنَ زيادةُ قوتها .

وإنا ، بعد أن وَجَدْنا أن الحكومة تَرْتخى بنسبة زيادة الحكام ، وأن الأمة كلما زادتْ عدداً وَجَبَ أن تَزِيدَ قوةُ الحكومة الزاجرة ، نَنْتَهِى إلى أن علاقة الحكام بالحكومة يجب أن تَكُون على عكس علاقة الرعايا بالسيد ، أى أن الدولة كلما اتسعت وجب أن تَضِيقَ الحكومةُ ، فيَنْقُصَ عددُ الرؤساء تَبَعًا لزيادة الأمة .

وإنا ، لكى نُعَيِّنَ فيما بَعْدُ هذا التنوعَ فى الأشكال بأسماء أكثرَ ضبطًا ، سنلاحِظ فى أول الأمر أن السيد يستطيع أن يُفوِّض وديعةَ الحكومة إلى الأمة أو إلى أعظم قِسمٍ من الأمة ، فيَكُون من المواطنين الحكام من هم

أكثرُ من المواطنين الخاصّين ، فعلى شكل الحكومة هـذا يُطْلَقُ اسمُ الديموقراطية .

أو إن السيد يستطيع أن يُضَيِّقَ نطاقَ الحكومة فيَجْعَلَه قبضةَ عددٍ أقلّ من ذاك فيَكون من المواطنين الخاصّين من هم أكثرُ من الحكام ، فعلى شكل الحكومة هذا يُطْلَقُ اسمُ الأريستوقراطية .

وأخيراً يستطيع السيدُ أن يَجْمَع جميعَ الحكومة في يد حاكمٍ واحد ، وهذا الشكلُ الثالث هو الأكثرُ شيوعاً ، وهو يُسَمَّى المَلَكيةَ أو الحكومةَ الملكية .

وسنلاحظ أن جميع هذه الأشكال ، أو الشكلَيْن الأوّلَيْن على الأقلّ ، تحتمل الزيادة والنقصان ، وأن لها من اتساع المدى ما هو كافٍ أيضاً ، وذلك لأن من الممكن أن تشتمل الديموقراطية على جميع الأمة أو أن تنقبض حتى النصفِ ، ولأن من الممكن أن تَنْقَبِض الأريستوقراطية بدَوْرِها من نصف الأمة حتى أصغرِ الأعداد انقباضاً غيرَ مُحَدَّدٍ ، حتى إن الملكية تَقْبَل التقسيمَ أحياناً ، سواء أَبَيْنَ الأب والابن أم بين الأخوين أم على وجهٍ آخرَ ، وكان يوجد مَلِكان فى إسپارطة دائماً ، وقد شوهد فى الإمبراطورية الرومانية من الأباطرة من بَلَغ عددهم حتى الثمانيةِ معاً ، وذلك من غير أن يقال إن الإمبراطورية قُسِّمت ، وتُوجَدُ نقطةٌ يَخْتلط فيها كلُّ شكلٍ للحكومة بالشكل الذى يليه ، فتَقْبَلُ الدولةُ ، تحت الأشكال الثلاثة النَّوْعية ، من الأشكال بمقدار ما فى الدولة من مواطنين بالحقيقة .

وليس ذاك كلّ ما فى الأمر ، فبما أن كلّ واحدةٍ من هذه الحكومات

تستطيع من بعض الوجوه أن تنقسم إلى أقسامٍ مختلفة يُدَارُ قسمٌ منها على وجهٍ ويُدارُ قسمٌ آخرُ منها على وجهٍ آخرَ فإنه يُمكِن أن ينشأ عن هذه الأشكال الثلاثة المختلطة عددٌ وافرٌ من الأشكال المركَّبة التى يُمكِن كلَّ واحدٍ منها أن يُكَثَّرَ بجميع الأشكال البسيطة .

وقد وقع فى كلِّ وقت جدالٌ كثيرٌ حَوْلَ أفضلِ شكلٍ للحكومة ، وذلك من غير نظرٍ إلى أن كلَّ شكلٍ هو أفضلُ الأشكال فى بعض الأحوال ، وأن أسوأها يكون فى أحوالٍ أخرى ، وأما نحن فنرى ، على العموم ، أن عدد الحكام(١) فى مختلف الدول إذا ما وَجَبَ أن يكون على العكس من عدد المواطنين فإن الحكومة الديموقراطية تلائم الدول الصغيرة ، وإن الحكومة الأريستوقراطية تلائم الدولَ المتوسطة ، وإن الحكومة المَلَكية تلائم الدولَ الكبيرة .

فبِسِياق هذه المباحث ننتهى إلى معرفة واجبات المواطنين وحقوقهم ، ومعرفةِ إمكان فَصْلِ هذه عن تلك ، ومعرفةِ الوطن وما يَقُوم عليه ضَبْطاً ، وكيف يُمْكِن كلَّ واحدٍ أن يَعْرِف هل له وطنٌ أوْ لا .

وإنا ، بعد النظر ، على هذا الوجه ، إلى كلِّ نوعٍ من المجتمع المدنىِّ بنفسه ، سنقابل بينها لملاحظة ما بينها من صلات ، فنَرَى بعضَها كبيراً والأخرى صغيرةً ، ونَرَى بعضَها قويّاً والأخرى ضعيفةً ، فتَتَهاجمُ وتَتَشاتم وتَتَهادم ، موجبةً بهذا الفعل ورَدِّه الدائمَيْن من بؤسٍ كثيرٍ من

---

(١) اذكروا أننى أقصد الكلام هنا عن الحكام الأعلين أو رؤساء الأمة ، مادام الحكام الآخرون نائبين عنهم فى هذا القسم أو ذاك .

الناس والقضاء على حياتهم ما هو أعظم مما لو حافظوا على حريتهم ، وسنبحث في هل صُنِعَ شيء كثيرٌ أو قليلٌ في النظام الاجتماعيّ ، وفي هل يبقى الأفراد الخاضعون للقوانين والآدميين ، على حين تحتفظ المجتمعاتُ فيما بينها بالاستقلال الطبيعيّ ، عُرْضةً لشرور الدولتين من غير أن يَفُوزُوا بمنافعهما ، وفي هل يكون عدمُ وجود أيّ مجتمعٍ مدنيّ في العالَم مطلقاً أفضلَ من عدم وجود مجتمعاتٍ كثيرة فيه ، أوَليست هذه الدولة المركبة التي تشترك في الاثنتين ولا تَضْمَن هذه وتلك « لاتدَع مجالاً لإعداد العُدّة لزمن الحرب ولا لأمْن زمن السِّلْم » ؟ أوَ ليست هـذه الجمعية الجزئيةُ الناقصة هي التي تؤدى إلى الطغيان والحرب ؟ أوَليس الطغيانُ والحرب أعظمَ آفات الإنسانية ؟

وأخيراً سـنَدْرُس نوعَ الأدوية التي بُحِثَ عنها لمعالجة تلك الأضرار ، وذلك بالتعاهد والاتحاد فتَدَعُ كلّ دولةٍ سيدةً داخلًا وتُسَلِّحُها خارجاً دفعاً لـكلّ مُعْتَدٍ ظالم ، وسنَبْحَث عن الوجه الذي يُمْـكِن أن تُقَام به جمعية اتحادية صالحة ، والذي يُمْـكِنُ أن تَدُوم به ، وعن المَدَى الذي يُمْـكِنُ أن يُوسَّعَ به حقُّ الاتحاد من غير أن يُؤْذَى حقُّ السيادة .

وكان رئيسُ دير القديس بطرس قد اقترح تأليفَ جمعيةٍ شاملةٍ لجميع دول أوربة كَيْما تَحْفَظُ بينها سَلْماً دائمةً ، وهل هذه الجمعيةُ عمليةٌ ؟ وإذا ما افْتُرِض قيامُ هذه الجمعية فهل يُقَدَّرُ لها البقاء[1] ؟ إن هذه المباحث تَسُوقنا ، تَوًّا ، إلى جميع مسائل الفقه العامّ التي يُمْـكِن أن تُنِيرَ مسائلَ الفقه السياسيّ .

---

(١) تم ، بعد كتابتي هذا ، عرض الأسباب الموافقة في خلاصة هذا المشروع ، وتجد الأسباب المخالفة ، أو الأسباب التي بدت لي متينة ، في مجموعة كتبي ، وذلك عقب هذه الخلاصة .

وأخيراً سَنَضَعُ المبادئَ الصحيحة لِفقْه الحرب ، وسَنَدْرُس السببَ في كون غرُوسْيُوس وغيرِه لم يُقدِّموا سوى مبادئ فاسدةٍ عنها .

ولن يُدْهِشَني ، في وَسَط جميع براهيننا ، أن يَقُول لي مقاطعاً فتايَ ذو الذوق السليم : « يُخَيَّل إلى الإنسان أننا نقيم بناءنا من الخشب ، لا من الناس ، ما دمنا نَصُفُّ قِطَعَنا على خطٍّ مستقيم وَفْقَ القاعدة ! » ، وأقول له : « هذا صحيحٌ يا صديقي ، ولكن اذْكُرْ أن الفِقْه لا ينحني أمام أهواء الناس ، وعلينا تتوقف إقامةُ مبادئ الفقه السياسيِّ الحقيقيةِ ، والآن ، وقد وُضِعَتْ أُسُسُنا ، تعالَ لِنَبْحَثَ فيما أقام الناسُ فوقها ، وهنالك تَرَى أموراً غُرًّا ! » .

وهنالك حَمَلْتُه على قراءة « تِلِماكَ » وعلى سلوك طريقه ، ونبحث عن سالَنْتَةَ السعيدةِ وإيدُومِينِه الصالح الذى جعلته المصائب حكيماً ، وبَيْنَا نحن سائرَيْن لاقَيْنا كثيراً من طراز پرُوتِيزِيلاس ، ولم نُلاقِ أحداً من نوع فِيلُوكْلِيس ، وكذلك لم نُمْكِنْ ملاقاةُ مَلِكِ الدُّونْيان : أدْرَاسْت ، ولكنْ لِنَتْرُكْ القراءَ يَتَمَثَّلُون رِحْلاتِنا أو يَقُومون بها في مكاننا و « تِلِماكُ » في يدهم ، ولا نُوحِ إليهم ، مطلقاً ، بتطبيقاتٍ مُحْزِنة يَتَجَنَّبُها المؤلف نفسه أو يأتيها على الرغم منه .

ثم بما أن إميلَ ليس مَلِكاً ، وبما أنني لستُ إلهاً ، فإننا لن نُقْلِقَ بالَنا ، مطلقاً ، في تقليد تِلِماكَ ، والمرشدِ ، في الخير الذى كانا يقومان به نحو الناس ، ولا أحدَ أحسنُ منا عِلْماً في البقاء حيث هو ، ولا أحدَ أقلُّ منا رغبةً في الخروج من مكانه ، ومما نَعْرِف أن عَيْنَ

العملِ قد عُيِّنَ للجميع ، فمن يُحِبُّ خيرَ الجميع من صميم فؤاده ويَصْنَعه بما أُوتِيَ من قوة يكونُ قد قام بذاك العمل ، ومما نَعرِفُ أن تِلِماكَ والمرشدَ هما من الأوهام ، ولا يَسِيحُ إميلُ مِثلَ رجلٍ بَطَّال ، وهو يَفعَلُ من الخير أكثرَ مما لو كان أميراً ، ولو كنا مَلِكَيْن ما كنا أكثرَ حُبًّا للإحسان ، ولو كنا مَلِكَيْن ومحسنيْن لأَتَيْنا ، من حيث لا نَدْرِي ، ألفَ شَرٍّ حقيقيّ فى مقابل خيرٍ ظاهرٍ نَظُنُّ أننا نَفْعلُه ، ولو كنا مَلِكَيْن وحكيميْن لكان أولُ خيرٍ نَرْغَبُ فى صنعه نحو أنفسنا ونحو الآخرين هو أن نَتَنَزَّل عن المَلَكية وأن نَعُود إلى ما نحن عليه الآن .

وقد قالتُ كلَّ ما يَجْعَلُ السياحاتِ غيرَ مُجْدِيةٍ لجميع الناس ، والذى يَجْعَلُها أقلَّ جَدْوَى للشباب هو الوجهُ الذى يُحمَلُ به على القيام بها ، فالمُرَبُّون يَكُونُون أكثرَ حُبًّا للَّهْوِ أنفسهم مما لتثقيف الشباب فيَجْلِبُونه من مدينةٍ إلى أخرى ، ومن قصرٍ إلى آخر ، ومن نطاقٍ إلى آخر ، وهم ، إذا ما كانوا علماء أو أدباء ، جَعَلُوه يقضى وقته فى الطواف بين المكتبات وفى زيارة الخبراء بالعاديَّات وفى فَحْصِ قديمِ الآثار واستنساخِ قديم الكتابات ، وهم ، فى كلِّ بلدٍ ، يُعْنَوْن بعصرٍ آخر ، وذلك كما لو كانوا يُعْنَوْن ببلدٍ آخر ، فإذا ما جابوا أوربة بنفقاتٍ عظيمةٍ وتَجَرَّدُوا للتُّرَّهَات أو أَسْلَمُوا أنفسَهم إلى السَّأَم عادوا من غير أن يَكُونوا قد رأوا شيئاً يُمْكِن أن يَنْفَعهم أو من غير أن يكونوا قد تَعَلَّمُوا شيئاً يُمْكِن أن يفيدهم .

وتتشابه جميعُ العواصم ، وفيها تختلط جميعُ الأمم ، وفيها تمتزج جميعُ

الطِّباع ، وليس إليها ما يجب أن يُذْهب لدراسة الأمم ، وليست باريسُ ولنــدنُ غيرَ عَيْنِ المدينة فى نظرى ، أجَلْ ، إن لسكانهما مُبْتَسَراتٍ مختلفةً ، ولـكنْ لا يُوجَدُ عند إحداها من المُبْتَسَراتِ ما هو أقلُّ مما عنـد الأخرى ، وجميعُ مبادئهما العملية هى هى ، ويُعْرَفُ أىُّ نوعٍ من الآدميين يَجْتَمِع فى البَلَاطات ، ويُعْرَف أىُّ نوعٍ من الطِّبَـاع يُسْفِرُ فى كلِّ مكانٍ عن ازدحام الأمة وتفاوت الثَّروات ، وإذا ما حُدِّثْتُ عن مدينةٍ مؤلَّفةٍ من مئتى ألف نَفْس عَرَفتُ مُقَدَّماً كيف يعيش الناس فيها ، وما لا أعْرِفُ فيها من أمورٍ لا يستحقُّ أن أذهب لأتعلَّمه هنـاك .

وإلى الأقاليم القاصية ، حيث يُوجَدُ قليلُ حركةٍ وتجارة ، وحيث تَقِلُّ سياحةُ الأجانب ، وحيث يَقِلُّ انتقالُ الأهلين ، وحيث يَقِلُّ تبديلُ السُّكان لثروتهم ووَضْعِهم ، يَجِبُ أن يُذْهَب لدراسة عبقرية الأمة وأخلاقها ، وألْقُوا نظرةً إلى العاصمة حين تَمُرُّون ، ولـكن اذهبوا للبحث عن البلد فى مكانٍ بعيد ، فالفرنسيون هم فى تُورِينَ ، لا فى باريسَ ، ويَـكُون الإنكليز فى مِرْسِي أكثرَ مما فى لندن ، ويكون الإسبان فى جَلِّيقِيَّة أكثرَ مما فى مدريد ، وفى هذه الأماكن النائية تُمَازُ الأمةُ وتَبْدُو خالصةً كما هى ، وفيها خيرُ ما يُشْعرُ بأثرِ الحكومة السيئ أو الردىء ، وذلك كما تستطيعُ أن تَقِيسَ القوسَ قياساً أكثرَ دقةً بنصف قطرٍ أكثرَ طولًا .

وقد عُرِضَتْ علائقُ الطبائع بالحكومة فى كتاب « روح الشرائع » عرضاً بَلَغَ من الإجادة ما لا يُمْكِنُنى أن أرى معه أفضلَ من الالتجاء

إلى هذا السِّفْر لدراسة تلك العلاقات ، ولكنْ يُوجَدُ ، على العموم ، قاعدتان سَهْلَتان بسيطتان للحُكْمْ فى صلاح الحكومات النسبيّ ، والأهلون هم إحدى هاتين القاعدتين ، فالدولة تَمِيلُ إلى خرابها فى كلّ بلدٍ يُقْفِر ، ولا مِراء فى أن البلد الذى يزيد سكانه أكثرَ من غيره يَكُون أفضلَ البلاد حكومةً[1] ، ولو كان أفقرَها .

ولكنْ يجب لهذا أن يَكُون هؤلاء الأهلون نتيجةً طبيعية للحكومة والطِّباع ، وذلك لأن هذا إذا ما تمّ بمستعمراتٍ أو بسُبُلٍ أخرى عارضةٍ أو عابرةٍ دلّ الدواء على الدّاء ، ولمّا جاء أُغُسْطُس بقوانينَ لمكافحة العُزُوبَة نمّتْ هذه القوانين على أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد أخذت فى الزوال ، ويَجِبُ أن يكون صلاح الحكومة حافزاً للمواطنين إلى الزواج ، لا أن يكون القانونُ مُكْرِهاً إياهم عليه ، ولا نُكَلِّفُ أنفسنا بالبحث فيما يُصْنَع بالقوة ، وذلك لأن القانون الذى يكافِح النظامَ يَتَمَلَّصُ منه ويَغْدُو فارغاً ، وإنما نَبْحَث فيما يَتِمُّ بفعل الأخلاق ومَيْلِ الحكومة الطبيعىّ ، فهذه الوسائلُ وحدَها هى ذات الأثر المستمرّ ، وتقوم سياسةُ الرئيس الصالح لدير القديس بطرس على البحث الدائم عن دواءٍ قليلٍ لكلّ داء خاصّ ، وذلك بدلًا من الرجوع إلى المنبع الجامع ليُرَى أنه لا يُمْكِن الشفاء من هذه الأدْوَاء إلا دفعةً واحدة ، ولا يَقُوم الأمرُ على معالجة كلّ قرْحةٍ تظهر على جسم المريض على انفراد ، بل على تصفية مجموع الدم الذى يُحْدِثُ القُرُحَاتِ جميعاً ، ويقال إنه يُوجَدُ جوائزُ للزراعة فى إنكلترة ، فلا أطلب

(١) لا أعرف غير الصين بلداً يشذ عن هذه القاعدة .

دليلاً أعظم من هذا ليَثْبُتَ عندى أن الزراعة لن تزدهر فى إنكلترة زمناً طويلًا .

وفى الأهلين أيضاً تَتَجَلَّى العَلَامةُ الثانية لصلاح الحكومة والقوانين النسبيّ ، ولكنْ على وجهٍ آخرَ ، أى ان هذه الأَمارةَ تُسْتَخْرَجُ من توزيعهم ، لا من عددهم ، وقد تتساوى الدولتان اتساعاً وسكاناً ، ولكن مع تفاوتهما قوةً ، وتَكُون أقوى هاتين الدولتين دائماً هى التى يكون أهلوها منتشرين انتشاراً متساوياً على أَرَضيها ، والدولةُ التى لا تشتمل منهما على مُدُنٍ كبيرةٍ كثيرة ، ومن ثَمَّ تكون أقلَّهما ازدهاراً ، تَقْهَرُ الأخرى دائماً ، والمُدُن الكبيرة هى التى تَسْتنزف الدولة وتُوجِب ضعفَها ، وما تُنْتِجُه من ثَرَاء فهو ثراءٌ ظاهرٌ خادع ، وهو كثيرُ نقدٍ وقليلُ خير ، ويقال إن مدينة باريس تَعْدِل ولايةً قِيمَةً لدى ملك فرنسة ، ولكننى أعتقد أنها تُكَلِّفُه عِدَّةَ ولايات ، وذلك أن الولاياتِ تُغَذِّى باريسَ من وجوهٍ كثيرة وأن مُعْظم دخلها يَصُبُّ فى هذه المدينة ويبقى فيها من غير أن يَعُود على الأمة أو على الشعب مطلقاً . ومما لا جِدالَ فيه عصر فى الحاسبين هذا أنه لا يُوجَدُ واحدٌ يُبْصِرُ أن فرنسة تكون أكثرَ قوةً إذا ما دُمِّرت باريسُ تدميراً ، ولا يقتصر الأمرُ على كَوْن الأمة السَّيِّئةِ التوزيع غيرَ نافعةٍ للدولة ، بل هو أدعى إلى الخراب من الإقفار ، وذلك من حيث أن الإقفار لا يُسْفِرُ عن غير إنتاجٍ صفرٍ وأن الاستهلاكَ غيرَ المُرَتَّبِ يُسْفِرُ عن إنتاجٍ سلبيّ ، ومتى سمعتُ فرنسيًّا وإنكليزيًّا فخورَيْن بعظمة عاصمتيهما فيتجادلان حَوْل أيِّهما أكثرُ سكاناً كان هذا فى نظرى مساوياً لتجادلهما

حَوْلَ أيِّ الشعبين له شرفُ كَوْنِهِ أكثرَهما سوءَ حكومةٍ .

وادْرُسُوا الأمةَ خارجَ مُدُنِها ، فلن تَعْرِفوها بغير هذا الوجه ، ولا يَدُلُّ على شيء أن يُرَى شكلُ الحكومة الظاهرُ المُزَوَّقُ بجهاز الإدارة وبرَطانة المديرين إذا لم تُدْرَسْ طبيعتُه بالأثر الذي يُحْدِثه في الأمة وفي جميع درجات الإدارة ، وفي الأساسِ إذْ يُوجَدُ فَرْقُ الشكلِ مَقْسُوماً بين جميع هذه الدرجات ، فإن هذا الفرقَ لا يُعْرَفُ إلا باكتنافها جميعاً ، وفي بلدٍ ما يؤخَذُ في الشعور بروح الوزارة بدسائس وكلائها ، وفي بلدٍ آخرَ يجب أن تَطَّلِعُوا على انتخاب أعضاء البرلمان للحكم في هل من الصحيح كَوْنُ الأمة حرةً ، وفي بلدٍ ثالث ، أيًّا كان ، يَتَعَذَّر على مَنْ لم يَرَ غير مُدُنِها أن يَطَّلِعَ على الحكومة لِمَا لا يَكُون الروح واحداً في المدن والأرياف مُطْلقاً ، والحقُّ أن الأرياف هي التي تُوجِدُ البلد وأن أهل الأرياف هم الذين يُوجِدُون الأمة .

ومن شأن هذه الدراسة للأمم في أقاليمها القاصية وفي بساطة مواهبها الأصلية مَنْحُ ملاحظةٍ عامةٍ كثيرةِ الملاءمة لِمَا أكْتُبُ كثيرةِ السُّلْوَان لقلب الإنسان ، وذلك أن جميع الأمم إذا ما لُوحِظَتْ على هذا الوجه ظهرتْ أجدرَ بالملاحظة ، وكلما دَنَت الأمم من الطبيعة ساد الصلاحُ أخلاقَها ، وليس بغير الاحتباس في المدن ، وليس بغير التَّغَيُّر بفعل الثَّقافة ، ما تَفْسُد الأمم ، وما تُحَوِّل بعضَ النقائص ، التي هي أكثرُ غِلْظَةً منها ضرراً ، إلى معايبَ مستعذبةٍ مؤذية .

وينشأُ عن هذه الملاحظة نَفْعٌ جديدٌ في طراز السياحة التي أقْتَرِح ،

وذلك من حيث إن الشُّبّان الذين هم قليلو الإقامة فى المدن الكبيرة، حيث يَسُودُ فسادٌ هائل ، أقلُّ إصابةً بهذا الفساد ، فيحفظون بين الرجال الذين هم أكثرُ بساطةً ، وفى المجتمعات الأقلِّ عدداً ، حُكماً أعظمَ صواباً وذَوْقاً أرفعَ سَداداً وأخلاقاً أشدَّ صلاحاً ، ومع ذلك فإنه لا يُوجَدُ فى هذه العَدْوَى ما يُخْشَى منه على إميلَ الذى لديه كلُّ ما يَلْزَم لوقايته منها، وأعتمدُ ، بين جميع الاحتياطات التى اتخذتُها فى هذا السبيل ، اعتماداً بالغاً على الحبِّ الذى يَحْمِلُ فى فؤاده .

ولا يُعْرَف ما يُمكِنُ أن يَكون للحبِّ من فعلٍ فى مُيُول الشُّبّان ، وذلك لأن القائمين بتربيتهم ، إذ لا يَعْرِفونه خيراً منهم ، يُحَوِّلونهم عنه ، ومع ذلك فإنه لا بُدَّ للشابِّ من أن يُحِبَّ أو أن يكون داعراً ، ومن السهل أن يُخْدَع بالظواهر ، أَجَلْ ، قد يُذْكَرُ لى ألفُ شابٍّ يقال إنهم يَقضُون حياةَ طُهْرٍ كبير بلا غرام ، ولكن ليُذْكَرْ رجلٌ نامٍ ، ليُذْكَرْ لى رجلٌ صادقٌ ، يقول إنه قَضَى شبابه على هذا الوجه حقيقةً ، والواقعُ أنه لا يُطْلَبُ غيرَ الظاهر فى جميع الفضائل وجميعِ الواجبات ، وأما أنا فلا أطلبُ غيرَ الحقيقة ، وأكُون قد خُدِعْتُ إذا كان يوجَدُ من الوسائل غيرُ التى أُقدِّم لبلوغ ذلك .

ولستُ صاحباً لفكرةِ جَعْلِ إميلَ عاشقاً قَبْلَ حَمْلِه على السياحة ، وإليك الحادثَ الذى أوحى إلىَّ بها :

كنتُ أقوم فى البندقية بزيارة مُرَبٍّ لفتًى إنكليزيٍّ ، وكان هذا فى فصل الشتاء ، وكنا حَوْلَ النار ، ويتناول المربِّى رسائلَه من البريد ،

ويُلقِى نظرةً عليها ، ثم يَتلُو إحداها على تلميذه بصوتٍ عالٍ ، وقد كانت باللغة الإنكليزية التى لا أفهَمُ منها شيئاً ، ولكننى رأيتُ فى أثناء التلاوة أن الفتى يُمزِّق كُمَّيْه الجميلَيْن من أطرافهما ويُلقِى فى النار قطعةً بعد الأخرى بأقصى ما يستطيع من تُؤَدَةٍ لكيلا يَشْعُر أحدٌ بذلك ، ويَعترينى دَهَشٌ من هذا الهَوَس ، وأَنظُر إلى وجهه ، وأَظُنُّ أننى أرى اضطرابَه ، بَيْدَ أن العلاماتِ الخارجيةَ للأهواء ، وإن كانت متشابهةً لدى جميع الناس ، ذاتُ فُرُوقٍ قومية يَسْهل أن يُخْدَعَ بها ، وللأم على الوجه من مختلف اللغات ما يَعْدِل التى فى الأفواه ، وأنتظرُ ختامَ التلاوة ، فأُطْلِعُ المُرَبِّىَ على مِعْصَمَى تلميذه العاريين اللذين كان يُخْفِيهما بأقصى ما يُمكِنه ، وأقول له : « أيُمكِننى أن أعرِف ما يَعنِى هذا ؟ » .

ويُبْصِرُ المُرَبِّى ما وَقَع فيأخذ فى الضَّحِك ، ويعانق تلميذَه عِنَاقَ رِضاً ، ويُوضِحُ لى ما أَرْغَبُ فيه بعد نَيْلِ موافقته .

ويقول لى : « إن الكُمَّيْن اللذين مَزَّقهما مِستر جُون هما هديتان قَدَّمتهما إليه سيدةٌ من هذه المدينة منذ زمنٍ طويل ، والواقعُ أن مستر جُون خاطبٌ فى بلده لفتاةٍ يُحِبُّها حُبّاً جَمّاً ، وهى جديرةٌ بهذا الحبِّ كثيراً ، وهذا الكتابُ من أمِّ صاحبته ، وسأترجم إليك العبارةَ التى أوجبت ما شاهدتَ من تمزيق :

« لا تَترُكْ لُوسِى كُمَّىْ لُورْد جُون مطلقاً ، وأمسِ أتت مِسْ بِتِّى رُولْدَام لقضاء ما بعدَ الظُّهرِ عندها ، فأرادت ، مع الإصرار ، أن تقوم بشُغلها ، وإنى ، إذْ عَلِمْتُ أن لُوسِى نَهضَت اليومَ مُبكِّرَةً زيادةً على

العادة ، أرَدْتُ أن أرى ما تَصْنَع ، فوجدتُها جادَّةً فى نَقْض جميع ما عَمِلته مِسْ بِتّى أمسِ ، فهى لا تُرِيدُ أن تَرَى فى هديتها أية نقطةٍ من صنع غيرها » .

وقد خرج جُونُ بعد دقيقة ليتناول كُمَّيْن آخرين ، فقلت لمُرَبِّيه : « لديك تلميذٌ ذو طَبْعٍ رائع ، ولكنْ قُلْ لى : « أليس كتابُ أمٍّ مِسْ لُوسِي عَمَلَ ترتيبٍ مطلقًا ؟ أليست هذه وسيلةً اتَّخَذتَها ضِدَّ صاحبة الكُمَّيْن ؟ » ، ويقول لى : « كَلاّ ، فالأمرُ حقيقىٌّ ، ولا أسْلُكُ سبيل الحِيَل فى أعمالى ، وتقوم جهودى على البساطة والهمة ، وقد بارك الله لى فى عملى » .

ولم أنسَ حادثَ هذا الفتى قَطُّ ، وليس من شأنه ألَّا يترك أثراً فى رأس حالمٍ مثلى .

وقد حان وقتُ الختام ، فلنأتِ بلُورد جُون إلى مِسْ لُوسِي ، أى بإميلَ إلى صُوفية ، وهو يأتيها بقلبٍ ليس أقلَّ رقةً مما كان عليه قبل سفره ، وهو يأتيها بذهنٍ أكثرَ وضوحاً ، وهو يأتى بلدَه مُزَوَّداً بفائدةِ معرفته الحكوماتِ من ناحية معايبها والأممَ من ناحية جميع فضائلها ، حتى إننى عُنِيتُ فى كلِّ أمةٍ بأن يَرْتبط فى رجالٍ من أصحاب المزايا بعَهْدٍ من القِرَى على طريقة القدماء ، ولن يَغِيظَنى أن يتعهَّد هذه المعارفَ بتبادل الرسائل ، وإذا عَدَوْت ما يُمْكِنُ أن يَكُون من فائدةٍ ومن مُتْعَةٍ دائمةٍ فى المراسلات بالبلدان البعيدة وَجَدْتَ هذا من الاحتياط الجميل تجاه سلطان المبتسرات القومية التى تسيطر علينا عاجلاً أو آجلاً بهجومها علينا مدى

الحياة ، ولا شيء أصلحُ لنزع هذا السلطان منها من معاشرة ذوى الرشاد الخالين من الغرض والذين هم موضعُ إجلالنا ، والذين هم ، إذ عَطِلوا من مُبْتَسَراتنا ، يكافِحُون هذه بمُبْتَسَراتهم فيُعطوننا من الوسائل ما نعارض معه هذه بتلك بلا انقطاع واقين أنفسنا منها كلِّها على هذا الوجه ، ولا يُعَدّ أمراً واحداً مطلقاً أن يعاشَر الأجانب فى بلدنا أو فى بلدهم ، وذلك أنهم فى الحال الأولى يَقومُون فى البلد الذى يُقيمُون به بضَربٍ من المجاملة يُخفُون معه رأيَهم عنه ، أو أنه يَحمِلُهم على إبدائهم نحوه من الرأى ما يكون ملائماً له ما داموا فيه ، فإذا ما عادوا إلى بلدهم رَجَعُوا عنه ولم يَبْدُوا غيرَ عادلين ، ومما يَسُرُّنى كثيراً أن يكون الأجنبىُّ الذى أستشيرُ قد زار بلدى ، ولكننى لن أسألَه رأيَه عنه إلا فى بلده .

وقد فَرَغَ صَبْرُ إميلَ بعد قضاء نحوِ عامين فى جَوْب بعض الدول الكبيرة بأوربة ، وكثيرٍ من دولها الصغيرة ، وبعد تَعَلُّم اثنتين أو ثلاثٍ من لغاتها المهمة ، وبعد مشاهدة ما يستوقف النظر فيها حقًّا ، سواء أفى التاريخ الطبيعىّ أم فى الحكومة أم فى الفنون أم فى الرجال ، فأَخبَرَنى بأن الأَجَل قد حان ، وهنالك أقول له : « حسَناً ! ياصديقى ، إنك تَذْكُر الغايةَ الرئيسة من رِحْلاتنا ، فقد رأيتَ ، وقد لاحظتَ ، فما نتيجةُ ملاحظاتك ؟ وما الذى أنت عازمٌ عليه ؟ » ، إمّا أن أَكُونَ قد خُدِعْتُ بمِنْهاجى ، وإمّا أن يكون جوابُه كما يأتى تقريباً :

« وعَلَامَ أَعْزِم ؟ لقد عزمتُ على أن أظلَّ كما كَوَّنْتَنِى ، وعلى عدم إضافتى ، بطَوْعى ، أىَّ قيدٍ آخرَ غيرِ الذى تُحَمِّلُنى إياه الطبيعة والقوانين ، وكلما

دَرَسْتُ عملَ الناس فى نُظُمهم أبصرتُ أنهم يَجْعَلُون أنفسَهم عبيداً من حيث يَرْغَبُون أن يَكُونوا مستقلين ، وأنهم يستعملون حريتهم نفسَها فى جهودهم الفارغة توطيداً لها ، وهم يقومون بألف كَلَفٍ لكيلا يُذْعنوا لسَيْل الأمور ، وهم إذا ماأرادوا أن يتقدَّموا خُطوةً بعد ذلك لم يستطيعوا ، واعتَرَاهم دَهَشٌ من تَعلُّقهم بكلِّ شيء ، ويَلوح لى أنه ليس علينا أن نَصْنَع شيئًا لنَكون أحراراً ، وإنما يَكْفِي ألَّا نُريد الانقطاع عن أن نكون أحراراً ، وأنت الذى جعلنى ، يا معامى ، حُرًّا بتعليمى الخضوعَ للضرورة ، ودَعْها تأتى متى تريد ، وسأتَتَبَّعُها بلا إكراه ، وبما أننى لا أريد مناهضتَها فإننى لا أتَشَبَّثُ بشىء يُمْسِكُنِي ، وقد حاولتُ فى سياحاتنا أن أجِدَ فى الأرض زاويةً أكُونُ فيها مالكاً لنفسى على الإطلاق ، ولكن ما المكانُ الذى يستطيع الإنسان اتخاذَه بين الناس من غير أن يَتْبَع أهواءهم ؟ وقد بحثتُ كثيراً فوجدتُ أن بُغْيَتِي نفسَها متناقضة ، وذلك أننى إذا ما قَضَيْتُ بألَّا أتعَلَّقَ بأىِّ شىء آخرَ تعلَّقتُ ، على الأقلِّ ، بالأرض التى أستقرُّ بها ، وستتعلَّق حياتى بهذه الأرض كتعلُّق الحوريَّات بأشجارهن ، وإنى ، إذْ وجدتُ أن السُّلْطة والحرية كلمتان متناقضتان، لم أستطع أن أكون صاحبَ كُوخٍ إلَّا بعُدُولى عن كَوْنى مالكَ نفسى .

« أمَانِيَّ ؟ هذه هى : أرضٌ متوسطةُ الاتساع » .

« وأذْكُر أن أموالى كانت سببَ استقصائنا ، وقد أقمتَ دليلاً بالغَ القوة على أننى لا أستطيع الاحتفاظَ بثروتى وحريتى معاً ، ولكنك عندما أردتَ أن أكون حُرًّا خالياً من الاحتياجات معاً أردتَ أمْرَيْن متباينين ، وذلك لأننى ما كنتُ لأستطيعَ الخلاص من اتِّبَاع الناس إلَّا باتِّبَاعى الطبيعة ،

وما أصْنعُ ، إذَنْ ، بالثروة التى ترَكها لى والدىَّ ؟ سأبدأ بعدم اتِّبَاعى لها مطلقاً ، وسأُرْخِى جميعَ الروابط التى ترْبِطُنى بها ، وهى إذا ترِكتْ لى بَقِيَتْ لى ، وهى إذا ما حُرِمتُها لم أجُرَّ نفسى وراءها ، ولن أُقْلِقَ بالى فى إمساكها مطلقاً ، ولـكننى سأبقى ثابتاً حيث أنا ، وسأكون حُرًّا سواء أكنتُ غنيًّا أم فقيراً ، ولن أكون ذلك فى هذا البلد أو تلك البُقْعَة فقط ، بل أكُونُه فى جميع الأرض ، وترَى جميعَ قيود المُبْتَسَر قد كُسِرَت بالنسبة إلىّ ، ولا أعرِفُ غيرَ قيود الضرورة ، وقد تعلمتُ حَمْلَها منذ ولادتى ، وسأحْمِلُها حتى مماتى ، وذلك لأنى رجلٌ ، ولِمَ لا أحْمِلُ هذه القيودَ كرجلٍ حُرٍّ ما دمت أحْمِلُها وأنا عبدٌ مضافةً إلى قيود العبودية ؟

« وما أهمية مُقامى فى الأرض فى نظرى ؟ وما أهميةُ المكان الذى أكُون فيه ؟ أكون فى منزل إخوتى حيث يُوجَدُ آدميون ، وأكون فى منزلى حيث لا يوجد آدميون ، ولدىّ مالٌ للعيش ، وسأعيش ، ما استطعتُ أن أبقى مستقلاً مُوسِراً ، فإذا كان مالى يُعَبِّدُنى فإننى أترُكه بلا عناء ، فلدىَّ ذراعان للعمل ، وسأعيش ، وإذا ما أعْوَزَتنى الذراعان عِشْتُ ما غُذِّيتُ ، وسأموت إذا ما هُجِرْتُ ، وسأموت أيضاً وإن لم أُهْجَرْ ، وذلك لأن الموت ليس عِقاباً على الفقر ، بل هو قانونٌ للطبيعة ، وأتَحَدَّى الموتَ فى أىِّ وقتٍ يأتى ، وهو لن يُبَاغتنى وأنا أُعِدُّ عُدَداً للحياة ، وهو لن يَحُول دُون ما كان من حياتى .

« ذاك ما أنا عازمٌ عليه يا أبَتِ ، ولو كنتُ خالياً من الأهواء لكنت فى رُجُولتى مستقلاً مثل الإله نفسِه ، وذلك من حيث أننى لا أريد أن أكون

غيرَ ما أنا عليه فلا أ كافحُ المصيرَ مطلقاً ، وليس لدىّ غيرُ قيدٍ واحدٍ على الأقل ، وهو الوحيدُ الذى سأَحْمِلُه دائماً ، وهو الذى أستطيع أن أُباهِىَ به ، فتعالَ ، إذَنْ ، وأَعْطِنِى صُوفية ، فأنا حُرٌّ » .

« — أىْ إميلُ العزيز ، حقًّا أنه يَسُرُّنى سماعى من فَمِك كلامَ رَجُلٍ ، وأن أُبْصِرَ مشاعرَ فى فؤادك ، وليس هذا التجردُ من الهوى المتناهى مما لا يَرُوقنى صدورُه عمن هو فى عُمُرِك ، وهو سيَقِلُّ متى صِرْتَ ذا ولد ، وهنالك تَكُونُ ، ضَبْطاً ، ما يَكونه ربُّ الأُسْرة الصالحُ والرجلُ الحكيم ، وكنتُ أعْرِفُ ما تَكُون النتيجةُ قبل رِحلاتك ، وكنتُ أعْرِف ، عند النظر إلى نُظُمنا عن كَثَبٍ ، أنك تكُون بعيداً من أن تُعِيرُها اعتماداً لا تستحقُّها ، ومن العبث أن نَطْمَح إلى الحرية تحت ظلِّ القوانين ، آلقوانين ؟ أين هى ، وأينَ تَكُون محترمة ؟ لم تَرَ تحت هذا الاسم فى أىِّ مكانٍ كان غيرَ سيادة المصلحة الشخصية وأهواء الناس ، ولكن قوانينَ الطبيعةِ والنظام الأبديةَ موجودةٌ ، وهى تَقُوم مقامَ القانون الوضعىِّ لدى الحكيم ، وهى مكتوبةٌ فى صميم فؤاده بالعقل والضمير ، وعليه أن يُعَبِّدَ نفسَه لها كيما يَكُونُ حُرًّا ولا يُوجَدُ عبدٌ غيرُ الذى يَصْنَعُ الشَّرَّ ، وذلك لأنه يَفْعُلُه على الرغم منه دائماً ، وليست الحريةُ فى أىِّ شكلٍ من أشكال الحكومة ، وإنما هى فى فؤاد الرجل الحُرِّ ، وهو يَحْمِلُها معه فى كلِّ مكان ، والرجلُ النَّذْل يَحْمِلُ العبودية فى كلِّ مكان ، وأحدُهما يَكُون عبداً فى جنيف ، ويَكُون الآخر حُرًّا بباريسَ .

« وإذا ما حَدَّثْتُكَ عن واجباتِ المواطن سألتَنى ، على ما يحتمل ، عن

مكان الوطن وظَنَنْتَ أنك تَرْبُكُني ، ومع ذلك فإنك تَخْدَع نفسك يا إميلُ العزيز، وذلك لأنه يُوجَدُ بلدٌ على الأقلّ لمن ليس له وطنٌ ، وفى كلِّ وقت تُوجَدُ حكومةٌ مع أشباحٍ للقوانين عاش تحت ظِلِّها بهدوء ، وهل من المهمّ ألَّا يكون العقدُ الاجتماعىُّ قد رُوعِيَ إذا ما حَمَتْه المصلحة الخاصة كما كان على الإرادة العامة أن تَصْنَع ، وإذا ما صانته الصَّوْلَةُ العامة من الصَّوْلات الخاصة ، وإذا كان الشرُّ الذى أبْصَر وقوعَه قد حَبَّبَ إليه ما كان حَسَناً ، وإذا كانت نُظُمُنا نفسُها قد أطْلَعَتْه على أوزارها الخاصة فجَعَلَتْه يُبْغِض هذه الأوزار؟ أىْ إميلُ ! أين رجلُ الخير غيرُ المدين لبلده بشيء ؟ ومهما يَكُنْ من أمر هذا البلد فإنه مدينٌ له بأثمن شيءٍ للإنسان ، مدينٌ له بمكارم أعماله وبحبِّ الفضيلة ، أَجَلْ ، إنه إذا ما وُلِدَ فى وَسَط غابةٍ عاش أكثرَ سعادةً وأعظمَ حريةً ، ولكنه إذْ لا يكون لديه شيء يكافحه تبعاً لميوله فإنه يكون صالحاً بلا فضيلة ، وإنه لا يكون فاضلًا مطلقاً ، وأما الآن فإنه يَعْرِف أن يكون فاضلًا على الرغم من أهوائه ، وما يَكُون من ظاهر النظام وحده يَحْمِله على معرفة ذلك وحُبِّه ، ويَكُون الخيرُ العامُّ ، الذى لا يَصْلُح أن يكون غيرَ ذريعةٍ لدى الآخرين ، باعثاً حقيقياً عنده ، فهو يَتَعَلَّم مقاومةَ نفسِه وقَهْرَها والتضحيةَ بمصلحته الخاصة فى سبيل المصلحة العامة ، وليس من الصحيح أنه لا يستفيد شيئاً من القوانين ، فالقوانينُ تُنْعِم عليه بشجاعةٍ يكون بها عادلًا حتى بين الأشرار ، وليس من الصحيح أنها لم تَجْعَلْه حُرًّا ، فهى قد عَلَّمته أن يسيطر على نفسه .

« ولِذَا لا تَقُلْ : ما أهميةُ المكان الذى أكون فيه؟ فما يُهِمُّك أن

تَسكُون حيث تستطيع القيامَ بجميع واجباتك ، ومن هذه الواجبات أن تُحِبَّ مَسقِطَ رأسِك ، وقد حماك مواطنوك صغيراً فيَجِبُ أن تُحِبَّهم كبيراً ، ويجب عليك أن تعيش بينهم ، أو ، على الأقلّ ، فى المكان الذى تستطيع أن تكون نافعاً لهم فيه ما أمسكنَك ، وفى المكان الذى يَعرِفون أن يَجِدُوك فيه إذا ما احتاجوا إليك ، وتُوجَدُ أحوالٌ كثيرة يستطيع الرجل أن يكون فيها أكثرَ نفعاً لمواطنيه خارجَ وطنه مما لو كان يعيش فى سوائه ، وهنالك يجب عليه ألَّا يُلَبِّيَ غيرَ داعى غَيْرتهِ وأن يَصْبِر على غُرْبته بلا تذمُّر ، فهذا الاغتراب من جملة واجباته ، وأنت ، يا إميلُ الصالح ، الذى لا شيء يَفْرِض عليه هذه التضحياتِ الأليمةَ ، وأنت الذى لم يَنْتَحِلْ وظيفةَ قَوْل الحقيقةِ للناس ، اذهبْ وعِشْ بينهم وتَعَهَّدْ صداقتَهم بصحبةٍ لَيِّنَة ، وكُنْ مُحْسِنًا إليهم وقُدْوةً لهم ، فمِثَالُك يكون نافعًا لهم أكثرَ من جميع كتبنا ، وسيكون المعروفُ الذى يَرَوْنك صانعًا إياه أعظمَ تأثيراً فيهم من جميع كلامنا الفارغ .

« ولا أُحَرِّضُك على الذهاب للعَيْش فى المدن السكبيرة ، وعلى العكس فإن من الأمثلة التى يجب على الصالحين أن يُلقُوها على الآخرين هو مثالُ الحياة الأبوية الحقلية ، أى حياةِ الإنسان الأولى التى هى أهدأُ ما يكون لدى صاحب القلب غيرِ الفاسد وأقربُ إلى الطبيعة وأحْلَى ، وطُوبَى ، يا صديقى الفتى ، للبلد الذى لا يُحْتَاجُ فيه إلى الذهاب للبحث عن السِّلْم فى الصحراء ! ولسكنْ أين هذا البلد ؟ بَلَى ، لا يُرْضِي الرجلُ المحسنُ مَيْلَه بين المدن حيث لا يَجِدُ ، تقريبًا ، ما يمارس من أجلِه هِمَّتَه إلاَّ

الأَرّاجين والماكرين ، وما يَجِدُ الكُسالَى ، الذين يأتونها للبحث عن الثراء ، من حُسْنِ قبولٍ لا يُسْفِرُ عن غير اجتياحِ البلد الذى يجب إعمارُه ثانيةً على حساب المُدُن كما يَقْضِى الحقُّ ، ويُعَدُّ جميعُ من يَنْزَوُون من المجتمع الأكبر نافعين لأنهم يعتزلونه تمامًا ، وما دامت جميعُ عيوبه تأتيه من كثرة عدده ، ومما يَجْعَلُهم نافعين أيضًا استطاعتهم أن يَجْلِبُوا إلى الأماكن المُقْفِرَة ما هو خاصٌّ بحالهم الأولى من الحياة والحَرْث والحُبّ ، وأَحِنُّ حين يَعِنُّ لى مقدارُ ما يستطيع إميلُ وصُوفية أن يَنْشُرا من الحَسَنات حَوْلَهما فى أثناء عزلتهما ، ومقدارُ ما يَقْدِران على إنعاشه من الرِّيف ويُحْيِيان من همة القَرَوِىِّ الشقىِّ الخامدة ، ويُخَيَّلُ إلىَّ أننى أرى الشعب يتكاثر وأن الحقول تُعْمَر ، وأن الأرض تَلْبَسُ حِلْيَةً جديدة ، وأن الجمهورَ والوُفُورَ يُحَوِّلان الأشغال إلى أعياد ، وأن البَرَكاتِ وهُتَافاتِ الفَرَح تتصاعد بين الألعاب الحَقْلية وحَوْل الزوجين المحبوبين اللذين أعادا إليها الحياةَ ، ويُعَدُّ العصرُ الذهبىُّ من الأوهام ، وهذا يَكُون ، دائمًا ، عند من هو ذو قلبٍ وذوقٍ فاسدَيْن ، حتى إنه ليس من الصحيح أن يؤسَف عليه ما دامت هذه الحَسَراتُ لا طائلَ فيها دائمًا ، وما يجب أن يُصْنَع لبعث هذا العصر إذَنْ ؟ أمرٌ واحد متعذِّرٌ ، وهو أن يُحَبَّ .

« وكان قد لاح لى بَعْثُهُ حَوْل مَنْزِل صُوفية ، وليس عليك إلّا أن تُكْمِلَ معًا ما بدأ أبواها الوَقُوران ، ولكن ، يا إميلُ العزيز ، لا تَدَعِ الحياةَ البالغةَ الدَّعَة تَحْمِلك على كَرَاهِيَة الواجباتِ الشاقة إذا ما فُرِضت عليك ، واذْكُرْ أن الرومان كانوا ينتقلون من المِحْرَاث إلى القنصلية ، وإذا ما دعاك

الأميرُ أو الدولة إلى خدمة الوطن فاتْرُكْ كلَّ شيء واذهبْ لتقومَ بوظيفة الوطنيِّ المَجيدَة فى المركز الذى يُعَيَّنُ لك ، وإذا كانت هذه الوظيفةُ ثقيلةً عليك فإنه يُوجَدُ وسيلةٌ شَريفة أمينة للتَّخَلُّصِ منها ، وذلك أن تقوم بها بإخلاصٍ كافٍ حتى لا تُتْرَك على عاتِقك زمناً طويلاً ، ثم لا تَفزَع من عُسْرِ مثل هذا العبء ، فلستَ بالذى يُطْلَب لخدمة الدولة ما وُجِدَ رجالٌ من أهل هذا العصر » .

ولِمَ لا أُبيحُ لنفسى وصفَ رُجُوع إميلَ إلى صُوفية وخاتمة مَعاشقهما ، وإن شئت فقُلْ بدء غرامهما الزَّوَاجيِّ الذى يَجْمَع بينهما ! هذا الغرامَ القائمَ على الإكرام الذى يَدُوم مَدَى الحياة ، وعلى الفضائل التى لا تُمحَى مع الجمال ، وعلى توافق الأخلاق الذى يَجْعَلُ الصحبة مُحَبَّبَةً والذى يُطِيلُ فى المشِيب فُتُونَ الوِصال الأول ، ولكن جميع هذه التفاصيل قد تَرُوقُ من غير أن تَكُون نافعةً وقد أَبَحْتُ لنفسى ، حتى الآن ، أمرَ القيامِ بتفاصيلَ مُسْتحبَّةٍ كالتى اعتقدتُ فائدتَها ، وهل أَتْرُكُ هذه القاعدةَ عند ختام عملى ؟ كَلاَّ ، وإنى أَشْعُرُ بمَلَالٍ اعترى قلبى ، وإنى ، وأنا البالغُ من الضَّعْفِ ما لا أَقُوم معه بأعمالٍ تقتضى نَفَسًا طويلاً ، كُنْتُ أترك هذا العملَ لو كان أقلَّ تقدُّماً ، وإذا كان من غير الجائز تركُ هذا العمل ناقصاً فإن وقتَ الفراغ منه قد أَنَى .

وأخيراً أُبْصِرُ أكثرَ أيام إميلَ سِحْراً وأكثرَ أيامى سعادةً ، وأُبْصِرُ تمامَ جهودى ، وأبدأ بذَواق ثَمَرتها ، ويتَّحِدُ الزوجان الكريمان بقيدٍ لا انفصامَ له ، ويَلْفِظُ فمُهما ، ويؤيد فؤادُهما ، وعوداً لن تكون باطلةً

مطلقاً ، فهما عَرُوسان ، ويَعُودان من المَعْبَد ، ويُسَيَّران ، ولا يَعْرِفان أين هما وأين يَذْهبان ، ولا ما يُصْنَعُ حَوْلَهما ، وهما لا يَنْتبهان مطلقاً ، وهما لا يُجِيبان بغير كلمات غامضة ، وعادت أعينُهما الحائرة لا تَرَى شيئاً ، ويا للهذيان ! ويا للضعف البشرىّ ! إن حِسَّ السعادة يَسْحَق الإنسان ، وليس الإنسانُ من القوة ما يحتمله معه .

وقليلٌ من النـاس من يَعْرِفون اتخاذَ لهجةٍ ملائمة مع الزوجين يومَ قِرَانهما ، ويَلُوح لى أن من غير المناسب على السواء ما يَكُون عليه بعضُهم من احتشامٍ عابس وما يصدر عن الآخرين من لَغْوِ الكلام ، وأفَضِّلُ أن يُتْرَك الفؤادان الفَتِيَّان عاكفيْن على نَفْسِهما ، وأن يستسلما إلى اضطرابٍ لا يَخْلُو من فُتُون ، على أن يُمْعَنِ فى شَغْلِهما عنه بأن يُرْبَكا باحتشامٍ زائفٍ مُغِمٍّ لهما ، أو بأن يُلْبَكا بدُعَاباتٍ لاذعة تُزْعِجهما فى مثل ذلك اليوم ، وإن كانت تَرُوقهما فى وقت آخر .

وأبصِر الفَتَيَيْن فى ذُبُولهما العَذْب الذى يضطربان به فلا يَسْمعان ما يُوَجَّهُ إليهما من كلام ، وأما أنا ، الذى يُرِيدُ أن يُتَمَتَّع بالحيـاة كلَّ يوم ، فهل أدَعُ يوماً عزيزاً كذلك يَضِيعُ عليهما ؟ كَلَّا ، وإنما أُرِيد أن يَذُوقاه وأن يَتَنَعَّما فيه ، وأن يَتَمَتَّعا بملاذِّه ، وأنْزِعُهما من الجمع غيرِ الرَّصين المُتْعِبِ لهما ، وآتى بهما للنُّزْهة فى مكانٍ منحرف وأرُدُّهما إلى نفسهما بالحديث عنهما ، وليست أُذناهما ما أريد أن أخاطبَ ، بل فؤادُهما ، ولا أجْهَلُ الموضوعَ الوحيد الذى يُمْكِنُ أن يَشْغَل بالَهما فى ذلك اليوم .

وأُمْسِكُ بيد كلٍّ منهما وأقول : « أى ولدىَّ ، لقد رأيتُ منذ ثلاث سنين ظهورَ هذه الشُّعْلة المُضْطرِمة الطاهرة التى تنطوى على سِرِّ سعادتكما اليوم ، وهى ما فتئتْ تَزِيدُ بلا انقطاع ، وأُبْصِرُ فى أعينكما أنها فى آخر درجات حِدَّتها ، وعاد لا يُمْكِن غيرُ وَهْنِها » ، أَوَلا تَرَوْن ، أيها القراء ، هَيَجان إميلَ وهِيامَه وأيْمانَه ، ومَظْهَرَ الازدراء الذى استَخْلصت صُوفيةُ به يَدَها من يدى ، والتصريحاتِ الناعمةَ التى كانا يتبادلانها بأعينهما دلالةً على عبادة كلٍّ منهما للآخر حتى النَّفَسِ الأخير ؟ وأتغاضى عنهما ، ثم أرجع إلى الكلام فأقول :

« ما أكثرَ ما أبْصَرْتُ أنه إذا ما أَمْكنتْ إطالةُ سعادةِ الحبِّ فى الزواج مُلِكَتْ الجنةُ فوق الأرض ، وهذا هو الذى لم يُرَ حتى الآن ، ولكنَّ الأمرَ إذا لم يتعذَّرْ تماماً كنتما جديريْن بأن تكونا قُدْوَةً لم تتَلَقَّياها من أحدٍ ولم يستطع غيرُ أزواج قليلين أن يُقلِّدوها ، وهل تريدان ، يا ولدىَّ ، أن أُحَدِّثكما عن وسيلةٍ أَتمثلُها فى هذا السبيل معتقداً أنها ممكنةٌ وحدَها ؟ » .

ويتبادلان النَّظراتِ مُتَبَسِّمَيْن ويَسْخَران من بساطتى ، ويَشْكُرُ لى إميلُ إرشادى بجَلاء قائلاً إنه يعتقد أن صُوفية تَكُنُّ لى أكثرَ من هذا مكتفياً بما قاله عن نفسه ، وتُوَافق صُوفية على هذا وتَبْدُو مطمئنة ، ومع ذلك فاننى أَمِيزُ من خلال وَضْعِها الساخر شيئاً من الفُضُول ، وأُنْعِمُ النظرَ فى إميلَ فأَجِدُه يلتهم فُتُونَ زوجِه بعينيه الملتهبتين ، وهذا هو الأمرُ الوحيد الذى يَظْهَرُ به فُضُوله ، وما كانت أقوالى لِتُثِيرَ انتباهَه ، وأَتَبَسَّم بدَوْرى قائلاً

في نفسي : « سأعْلَم من فَوْرِي كيف أجعلكَ مُنْتَبِهاً لي » .

وما بين هذه الحركات الخفية من فَرْقٍ غيرِ محسوسٍ تقريباً يَنِمُّ على الفارق بين الجنسين المخالفِ لما هو سائدٌ من مُبْتَسَرات ، وذلك أن الرجالَ أقلُّ ثباتاً من النساء على العموم فتَفْتُر هِمَّتُهم بأسرعَ منهن في حقلِ الحبِّ المبارك ، وتُبْصِرُ المرأةُ عدمَ ثبات الرجل من بعيد فتَجْزَع[1] من هذا ، وهذا ما يَجْعَلُها أشدَّ غَيْرةً أيضاً ، وهو إذا ما أخذ يَفْتُر واضْطُرَّت ، لحِفْظِه ، إلى بَذْل جميع الجهود ، التي كانت تَقُوم بها للوقوع عنده موقع الرِّضا ، بَكَتْ وتَذَلَّلَتْ بدَوْرها ، ولكن مع نُدْرة النجاح ، أَجَلْ ، إن الأفئدة تُكْسَب بالمودة والجهود ، ولكنها لا تُسْتَرَدُّ بهما مطلقاً ، وأَعُود إلى إرشادي حَوْل فُتُور الغرام في القِرَان .

وأعود إلى الكلام فأقول : « والأمرُ بسيطٌ سهلٌ ، وذلك أن يستمرَّ الزوجان على كَوْنهما عاشقين » .

ويقول إميلُ ضاحكاً سِرًّا : « إننا لن نَجِد في ذلك عُسْراً » .

« — قد يَكُون أعسرَ مما تتصور أنت الذي يتكلم ، فأرجو أن تَتْرُكَ لي من الوقت ما أُوضِح فيه ما أَرَى .

« إن العُرَى التي يُرَادُ شَدُّها كثيراً تَنْفَصِم ، وهـذا ما يَحْدُثُ لعُقْدَةِ

---

(١) يكون النساء في فرنسة أول من ينفصل ، وذلك لأنهن إذ كن أقل مزاجاً ولم يرغبن في غير التكريم فإنهن لا يبدين غير قليل مبالاة بالزوج الذي يعدل عن إكرامهن ، وأما في البلدان الأخرى فيكون الزوج أول من ينفصل ، وذلك لأن النساء الوفيات ، ولكن مع عدم رصانة ، يزعجنهم برغائبهن فيورثنهم نفوراً منهن ، أجل ، إن من الممكن أن يكون لهذه الحقائق العامة كثير من الاستثناءات ، ولكنني أعتقد الآن أنها من الحقائق العامة .

النكاح التي يُرَادُ مَنحُها من القوة أكثرَ مما يَنبغي ، والوفاء الذى يَفرِضه النكاح على الزوجين هو أقدسُ من جميع الواجبات ، ولكنه يَمنَح كُلاً منهما سلطاناً كبيراً ، ولا يَتَساوقُ القَسْر والغرام ، ولا يُوصَى باللذة ، ولا تَخجَلِي ، يا صُوفية ، ولا تُفكِّري في الفِرار ، ومعاذَ اللهِ أن أُريد الإساءة إلى حيائك ! ولكنّ الأمرَ خاصٌ بمصيركِ ، ففي موضوعٍ بالغِ الأهمية احتَمِلي حديثاً بين الأب والزوج لا تَحتَمِلينَه في موضعٍ آخر .

« وليست الحيازةُ كإخضاعٍ يُروِي الغَليل ، ويُحفَظُ للفتاة التي تَحظَى من الحُبِّ ما هو أطولُ من الذى تَحظَى به الزوجة ، وكيف يُمكِن أن يُجعَل واجبٌ من أنعَمِ الألطاف وحقٌّ من أحلى آيات الغرام ؟ إن تبادل الرغبة هو الذى يَصنَع الحقَّ ، ولا تَعرِفُ الطبيعة حقاً آخرَ مطلقاً ، أجَلْ يستطيع القانون تضييق هذا الحقِّ ، وَلكنه لا يَقدِر أن يُوَسِّع مداه ، ويا لَحَلاوةِ الشهوة بنفسها ! وهل تَنَال بالضَّنْك الكئيب من القوة ما لا تستطيع نَيلَه بجَوَاذبها الخاصة ؟ كَلاً ، يا وَلَدِيّ ، إن القلوب تتحد بالزواج ، ولكن الأبدان لا تُعبَّدُ مطلقاً ، وكلٌّ منكما مُلزَم بالوفاء نحو الآخر ، لا بالمسايرة ، ولا يُمكِن كُلاً من الاثنين إلا أن يَكُون للآخر ، ولكن لا يَنبَغي أن يكون أيٌّ من الاثنين للآخر إلا إذا راقه .

« وإذا كنتَ ، يا إميلُ العزيز ، تُرِيدُ أن تكون عاشقاً لزوجتك حقاً وَجَبَ أن تكون خليلةً لك ولنفسها دائماً ، وكُن عاشقاً سعيداً ، ولكنْ مُكرِماً ، وفُزْ بالغرام كلِّه من غير أن تَطلُب شيئاً من الواجب ، ولا تَجعَلْ من أقلِّ الحُظُوات حقوقاً لك مطلقاً ، وإنما دَعْها تكون ألطافاً ،

وأَعْرِفُ أن الحياء يَحْتَرِزُ من الاعترافات الصريحة ويَقْضِي بأن يُقْهَر ، ولكن هل العاشقُ، مع الرِّقَّةِ والغرام الحقيقيِّ ، يُخْدَع حوْل البُغْية الخفية ؟ وهل يَجْهَل عند موافقة القلب والعينين ما يُظْهِرُ الفمُ من رفضٍ ؟ ودَعْ كلَّ واحدٍ من الاثنين مالكاً لشخصه وملامساته فيحقُّ له ألاّ يَمُنَّ بهما على الآخر إلاّ حِينَ يُرِيد ، واذْكُر فى الزواج ، دائماً ، أن اللذة لا تكُون شرعيةً إلاّ عند تبادل الرغبة، ولا تخَافا ، يا ولدىَّ ، أن تَفْصِل هذه السُّنَّةُ أحدَكما عن الآخر ، بل هى ، على العكس ، تجْعَلُ كلاًّ منكما أكثرَ انتباهاً كيما يَرُوقُ الآخرَ ، وتَحُولُ دون الكِظَّة ، وليَقْتَصِرْ كلٌّ منكما على الآخر ، فالطبيعةُ والحبُّ يُقرِّبان بينكما بما فيه الكفاية » .

تثيرُ هذه الكلماتُ وما ماثلها غضبَ إميلَ فيَصيحُ معترضاً ، ويَعْتَرِي صُوفيةَ حياء فتَضَعُ مِرْوحتَها على عينيها ولا تَنْبِسُ بكلمة ، وقد لا يَكُون أكثرُ الاثنين سخطاً أكثرَهما شكايةً ، وأُصِرُّ بلا رحمة ، وأُجْعَل إميلَ يَحْمَرُّ خجلاً من قلة لطافته ، وأَضْمَنُ أن تَقْبَل صُوفيةُ البحث من ناحيتها ، وأَحُضُّها على الكلام ، ومما يُشَكُّ فيه أن تجْرُؤَ على تكذيبى ، ويشاوِر إميلُ المشغولُ البالِ عَيْنَيْ زوجته الفتاة ، ويراهما ، من خِلال ارتباكهما ، مملوءتين كَدَراً شَهْوانيّاً مُطَمْئناً إياه حَوْل خَطَر اعتماده عليها ، ويُلقِى نفسَه على رجليْها ، ويُقبِّل اليد التى تَمُدُّها إليه هائجاً مُقْسِماً أنه يَتَنَزَّل عن كلِّ حَقٍّ عليها خلا الوفاء الموعود ، ويقول لها : « أيْ زوجتى العزيزة ، كُونى حَكَماً فى ملاذِّى كما أنك حكمٌ فى أيامى ومصيرى ، ولو قَضَتْ قَسْوَتُك بتكليفى الحياةَ لسَلَّمْتُ إليك أعزَّ حقوقى ، ولا أريد أن أكون مَدِيناً لملاطفتك ،

وإنما أريد نَيْلَ كلِّ شيء من فؤادك » .

ويا إميلُ الصالح ، قَرَّ عَيْناً ، فصُوفيةُ من الكَرَم البالغ ما لا تَدَعُك تَمُوتُ معه ضحيةَ كَرَمِك .

وفى المساء ، عند ما أوشكتُ أن أترُكَهما ، قلت لهما بأقصى ما يُمكِننى من لهجةٍ رصينة : « ليَذْكُرْ كلٌّ منكما أنه طليقٌ وأنه لا محلَّ للبحث فى واجبات الأزواج الآن ، وصَدِّقانى أنه لا إكرامَ كاذبٌ ، فيا إميلُ ، أتريد المجىء معى ؟ فصُوفية تأذن فى هذا » ، ويكاد إميلُ يَضْرِبنى غضباً ، « وأنتِ ، ياصُوفية ، ما تقولين ؟ هل آخذه ؟ » ، وتقول الكاذبة ، وقد احْمَرَّ وجهها خجلاً : « نعم » ، فهذا الكَذِب العَذْبُ الفاتنُ أفضلُ من الحقيقة !

وفى اليوم التالى . . . تعُود صورةُ السعادة لا تُجَامِلُ الرجال ، فما كان فسادُ العيب أقلَّ إفساداً لذوقهم مما لقلوبهم ، وهم يَعُودون لا يَشْعُرون بما هو مؤثِّرٌ ولا يَرَون ما هو سارٌّ ، وأنتم أيُّهــا الذين لا يتمثلون ، لتصوير الشهوة ، غيرَ عاشقين سعيدين غارقين فى سواء المَلاذِّ تــكُون ألواحُكم ناقصةً ! فلا يَكُون لديكم منها غيرُ أغلاظ النصفين ، وأما أعذبُ جَوَاذبِ اللذة فلا تشتمل عليها مطلقاً ، ومَنْ منكم لم يَرَ ، قَطُّ ، زوجين شابَّيْن جَمَعَ بينهما أسعدُ طالعٍ فخرجا من الحَجَلة* حاملَيْن فى نَظَراتهمــا الذابلة الطاهرة نَشْوَةَ المَلاذِّ العَذْبة التى تمتعا بها وضمانَ العَفَاف واليقينَ الفاتنَ بأن يَقْضِيا بقيةَ أيامهما معاً ؟ فها هو ذا أسحرُ ما يُمْــكِنُ أن يُقَدَّم إلى

* الحجلة : ستر العروس فى جوف البيت .

قلب الرجل ، وها هو ذا لَوْحُ الشهوةِ الحقيقيُّ ، ولقد رأيتموه مئةَ مرةٍ من غير أن تَعرِفوه ، وقد عادت قلوبكم القاسية لا تكُون قد صُنِعَتْ لتُحِبَّه ، وتَقْضِى صُوفيَةُ السعيـدةُ الوديعة نهارَها بين ذراعى أُمِّها الحَنُون ، وهذه استراحةٌ حُلْوةٌ تنالُها بعد أن قضت الليلةَ بين ذراعىْ زوجها .

وفى اليوم الثالث أُبصِرُ تَغيُّراً فى المنظر ، وذلك أن إميل يُرِيدُ إظهارَ شيءٍ من الاستياء ، ولكننى أُلاحِظُ من خِلَال هذا التظاهر نشاطاً رقيقاً ، حتى إذعاناً كثيراً ، لا أتوقَّعُ منه ما يُغِمُّ ، وأما صُوفيةُ فهى أعظمُ مَرَحاً مما كانت عليه عَشِيَّةً ، وأرَى فى عينيْها التماعَ ظاهرِ مَرْضٍ ، وهى تَبْدُو مع إميلَ فاتنةً ، وهى تُبْدى له من الدَّلال ، تقريباً ، ما يعُود منه غيرَ غاضب .

ولا تكاد هذه التحولاتُ تكون ظاهرةً ، ولـكنها لا تَفُوتنى ، وهى تَشْغَلُ بالى ، وأسأل إميلَ على انفرادٍ ، فأعْلَمُ أنه ، على ما أبْدَى من لَهَفٍ كبير ، ومع كلِّ ما أظْهَرَ من إلحافٍ كثير ، لم يُسْمَحْ له بأن يشاطرَ صُوفيةَ فِرَاشَها فى الليلة الماضية ، فقد بادرت هذه المُتَـكبِّرة إلى استعمال حقها ، ويُصَارُ إلى التفسير ، ويألَمُ إميلُ ألمًا مُرًّا ، وتَضْحَكُ صُوفية ، ولكنها ، إذْ تُبْصِرُ ، على أثر ذلك ، أن إميلَ يوشِكُ أن يَحْرَد ، تُلْقِى عليه نَظْرةً مملوءةً لطافةً وغراماً ، ولا تَنطِقُ ، وهى تصافحنى ، ولـكنْ بلهجةٍ تَنْفُذ فى الفؤاد ، بغير كلمة ، « كَنُود ! » ، ويكون إميلُ من الغباوة ما لا يُدْرِكها معه ، وأما أنا فأدْرِك ، وأُبعِدُ إميلَ ، وأتناول صُوفيةَ بدَوْرِها على انفراد .

وأقول لها : « أُبْصِرُ سببَ هذه النَّزْوة ، ولا أحدَ يَـكُون أكثرَ لطافةً ، ولا أحدَ يستعمل هذه اللطافةَ بما هو أكثرُ سوءاً ، فيا صُوفيةُ

العزيزة ، قَرِّى عيناً ، فهذا رجلٌ أعطيتكِ إياه ، ولا تخافى أن تعامليه هكذا ، وقد اقتطفتِ بواكيرَ شبابه ، وهو لم يَجُدْ بشبابه على أحدٍ ، وهو سيحتفظ به من أجلِك زمناً طويلاً .

« ويجبُ ، يا بِنْتِى العزيزة ، أن أوضِحَ لك ما أبْدَيْتُ من آراء فى أثناء الحديث الذى دار بيننا منذ ثلاثة أيام ، ومن المحتمل ألاَّ تَكُونى قد أبْصَرْتِ فيه غيرَ وسيلةٍ دارَيْتُ بها ملاذَّكما إدامةً لها ، أىْ صُوفية ! كان لذلك الحديث من الأغراض ما هو أكثرُ جدارةً بجهودى ، فإميلُ إذْ صار زوجًا لك أصبح قَوَّاماً عليكِ ، فعليكِ أن تطيعيه ، وهذه هى مَشيئةُ الطبيعة ، ومتى شابَهت المرأةُ صُوفيةَ كان من الصالح ، مع ذلك ، أن يُقادَ بها ، وهذه هى سنة الطبيعة أيضًا ، وقد جعلتُكِ حَكَماً فى أمر مَلاذِّه كَيْمَا يكونُ لكِ من السلطان على فؤاده ما يَعْدِل السلطانَ الذى مَنَحَه جنسُه إياه على شخصكِ ، أجَلْ ، سيُكَلِّفُكِ هذا حِرْمَاناتٍ شاقةً ، ولكنك ستسيطرين عليه إذا عَرَفتِ أن تسيطرى على نفسِك ، وما وَقَع يدلُّنى على أن هذا الحِذْقَ البالغَ الصعوبةِ ليس فوقَ قوةِ جَنَانكِ ، وستسيطرين بالحُبِّ زمناً طويلاً إذا ما جعلتِ ألطافَك نادرةً ثمينة وإذا ما عَرَفتِ حسنَ استثمارِها ، وإذا أردتِ أن تَرَىْ زوجَك عند قدميكِ بلا انقطاع فاجْعَلِى بينه وبين شخصك بعضَ المَسافة دائمًا ، ولكن لِتَكُنْ شِدَّتُك نتيجةَ اعتدالٍ لا نتيجةَ نَزْوَةٍ ، وليَجِدْك فَطُوناً ، لا جَمُوحاً ، واحترزى حين مداراته لحُبِّه أن يرتاب من حُبِّكِ ، وغالِى بنفسِكِ فى ألطافك ، وأَكْرِمِى نفسَك عند منعك حُظْوَاتك ، وليُجِلَّ عَفَافَ زوجِه غيرَ متوجِّعٍ من فُتُورِها .

« وهكذا يَمْنَحُكِ ثقتَه يا بُنَيَّتِي ، ويُصْغِي إلى آرائكِ ، ويستشيركِ في شؤونه ، ولا يَقْطَع أمراً قبل أن يذاكركِ فيه ، وهكذا يُمْكِنكِ أن تَدْعِيه إلى سبيل الحكمة إذا ما ضَلَّ ، وأن تَرُدِّيه إلى هذه السبيل بالإقناع اللَّيِّن ، وأن تُحَبِّبي نفسَك لتَكوني نافعةً ، وأن تَلُوذِي بالدَّلال من أجْل الفضيلة ، وأن تَعُوذِي بالغرام من أجْل العقل .

« ولا تَظُنِّي ، مع جميع هذا ، أن هذا الحِذْقَ يَسْتطيعُ أن يكون خادماً لمقاصدكِ دائماً ، فمهما يُمْكِنِ اتخاذُه من احتياطٍ فإن التمتع يُوهِنُ المَلاذَّ ، والُحبَّ قبْلَ غيره ، ولكن الُحبَّ إذا ما دام زمنًا طويلاً ملأَتْ فراغَه عادةٌ حُلْوةٌ وعَقَبَتْ جاذبيةُ الثقة فائرَ الهوى ، ويتألف من الأولاد ، بين من أنْعَمُوا عليهم بالوجود ، رابطةٌ لا تَقِلُّ حلاوةً عن الحبِّ نفسه ، وهي تكون أقوى منه غالبًا ، ومتى عُدْتِ غيرَ خليلةٍ لإميلَ غَدَوْتِ امرأتَه وصديقتَه وكنتِ أمًّا لأولاده ، وهنالك أقيمي بينكما أعظمَ ما يكون من أُلفةٍ بدلًا من الاحتراز الأول ، فلا سَريرَ منفصلٌ ، ولا امتناعَ ولا نزواتٍ ، وابْغِي من كَوْنِك نِصْفًا له ما لا يستطيع معه أن يستغنيَ عنك مطلقًا ، فإذا ما تَرَكك شَعَر بأنه بعيدٌ من نفسه ، واجْعَلي سِحْرَ الحياة المنزلية يُهَيْمن على بيتكما بعد أن جَعَلْتِه يهيمن على بيت أبيك ، فكلُّ رجلٍ يَطِيب لهُ أن يُقيمَ بمنزله يُحِبُّ امرأتَه ، واذْكُرِي أن زوجَك إذا ما عاش سعيداً في بيته كنتِ زوجةً سعيدة .

« وأما الآن فلا تكوني كثيرةَ القسوة على عاشقكِ ، فقد يستحقُّ أعظم ملاطَفة ، ومما يسيء إليه ما يكون من مخاوفكِ ، ولا تبالغي في

مداراة صحته على حساب سعادته ، وتَمَتَّعِي بسعادتك ، ولا ينبغى لكِ انتظارُ نُفُورٍ ولا رفضُ رغبةٍ ، بل مغالاةٌ بحُظْوَاتكِ » .

ثم أَجْمَعُهما وأقول لزوجها الشابِّ أمامها : « لا بُدَّ من احتمال النِّير الذى يُفْرَض ، واصْنَعْ ما تستحقُّ معه أن يكون خفيفَ الوطأة عليك ، وضَحِّ فى سبيل الألطاف على الخصوص ، ولا يَبْدُ لك أنك تكون أكثرَ حُظْوةً إذاما أبْدَيْتَ استياءك » ، ولا يَصْعُبُ إقرارُ السلام ، وكلٌّ يَسْهُل عليه أن يرتاب من الأحوال ، وتُمْضَى المعاهدةُ بقُبْلَة ، ثم أقول لتلميذى : « أىْ إميلُ العزيز ، يحتاج كلُّ إنسانٍ فى حياته إلى مستشار ودليل ، ولم آلُ جُهْداً ، حتى الآن ، فى القيام بهذا الواجب نحوكَ ، وهنا ينتهى عملى الطويل ويَبْدَأ عملُ غيرى ، واليوم أتخلَّى عن السلطان الذى عهدتَ به إلىَّ ، وها هى ذى مُرَبِّيَتُك من الآن فصاعداً » .

ويَسْكُن الهذيان الأول مقداراً فمقداراً ، ويَدَعُهما يَذُوقان فُتُونَ حالهما الجديدة بسلام ، ويا للعاشقيْن السعيديْن ! ويا للزوجيْن الفاضلين ! تَقْضى الإشادةُ بفضائلهما ، ويَقْضِى وصفُ سعادتهما ، وَضْعَ تاريخٍ عن حياتهما ، وما أكثرَ ما خَفَق قلبى عند ما أبْصِرُ تتويجَ أثَرى بهما ! وما أكثرَ ما جمعتُ يديهما فى يدى شاكراً للربِّ مُتَنَفِّساً الصُّعَداء بحرارة ! وما أكثرَ ما طبعتُ من قُبُلاتٍ على تَيْنِكَ اليديْن المتصافحتين ! وما أكثرَ ما بَلَّلَتْ دموعُ فرحهما يدى ! ويَرِقَّان بدَوْرِهما حينما يقاسمانى هَيَمانى ، دَعْ والديهما الجليلين اللذين يتمتعان بشبابهما مرةً أخرى فى صورة ولديْهما ، ومن ثَمَّ يستأنفان الحياةَ فيهما ، وإن شئتَ فقُلْ إنهما يَعْرِفان قيمة الحياة للمرة

الأولى ، فيلعنان ثراءهما الأول الذى حال دون تمتعهما ، وهما فى مثل ذلك الدَّوْر من العُمُر ، بنصيبٍ بالغٍ ذاك المقدارَ من الفُتُون ، وإذا ما وُجدت فى الأرض سعادةٌ وجب البحثُ عنها فى المأوى الذى نعيش فيه .

وتمضى بضعةُ أشهرٍ فيدخُلُ إميلُ غرفتى ذاتَ صباحٍ ويقول لى وهو يعانقنى : « هَنِّئْ ولدَك يا معلمى ، فهو يأمُلَ أن ينال شَرَف كَوْنهِ أباً عما قليل ، آه ! يا لَلجهود التى تُفْرَض على نشاطنا ! ويالكثرةِ ما نحتاج إليك ! ومعاذ الله أن أتركَ لك تربيةَ الابن بعد أن قُمْتَ بتربية الأب ، ومعاذ اللهِ أن يَقُوم غيرى بواجبٍ مقدسٍ عَذْبٍ كذاك ، ولو قُضِيَ بأن أختارَ له مثلما اختيرَ لى ! ولكنْ دُمْ معلِّماً لشُبَّان المعلمين ، وانْصَحْنا وسَيْطِرْ علينا تجِدْنا طائعين ، وسأحتاج إليك ما دمتُ حياً ، والآن ، حين تَبْدَأُ واجباتى مِثْلَ رجلٍ أحتاج إليك أكثرَ مما فى أىِّ زمنٍ كان ، أَجَلْ ، لقد قُمْتَ بواجباتك ، فوَجِّهْنى حتى أسِيرَ على غرارك ، واسْتَرِحْ ، فقد حَلَّ الوقت » .

الفهـرس

تصويب

ص	س	صواب	ص	س	صواب	ص	س	صواب
٢٣٣	١٨	جيداً	٤٠٧	١٥	المؤيد	٥٦٨	٤و٥	، ينزعون
٢٤٠	٨	وجوههن	٤٢٩	٢	لا تجرمون	٥٨٢	١٣	ما لم
٢٥٨	١١	موضوعى	٤٣٩	١٩	الحين	٧٣٠	١٨	تكره
٢٦٧	١٨	عظيماً	٤٤٧	١٥	وتحتمل	٨٨٣	١٤	فيه فى عصر الحاسبين

التصميم الاساسى للغلاف: أسامة العبد

الإشراف الفنى: حسن كامل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة